

الشعبية الديمقراطية الجزائرية الجمهورية
العلمي والبحث العالي التعليم وزارة
تلمسان . بلقايد بكر أبي جامعة
وآدابها العربية اللغة قسم واللغات الآداب كلية

أدب الرحلة الجزائري الحديث

- سياق النص وخطاب الأنساق -

أطروحة دكتوراه علوم في الأدب الجزائري الحديث

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد مرتاض

إعداد الطالب:

عيسى بخيتي

لجنة المناقشة

أ.د. لخضر العرابي	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة تلمسان
أ.د. محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة تلمسان
أ.د. عبد القادر شرشار	أستاذ التعليم العالي	عضوا	جامعة وهران
أ.د. محمد بلقاسم	أستاذ التعليم العالي	عضوا	جامعة تلمسان
د. بوجمعة عمارة	أستاذ محاضر "أ"	عضوا	جامعة سيدي بلعباس
د. سميرة حظري	أستاذ محاضر "أ"	عضوا	المركز الجامعي - عين تموشنت

السنة الجامعية 2015 / 2016



المقدمة

يرتبط لفظ (رحلة) في صورته الذهنية بكل ما له علاقة بالسلوك الإنساني الذي يسعى من خلاله إلى تحقيق مبتغيات شتى؛ متشعبة بتشعب الحياة لأجل راحته وأمنه وسد حاجاته، وكذا الرفع من مستواه المعيشي والحضاري. وبما أن فعل الرحلة ينتابه الكثير من الاختلاف بين بيئة المرتحل وبيئة المرتحل إليهم، بالإضافة إلى أنه يُحَفّ بالمخاطر والمغامرات وفضول الاستكشاف، ما يجعل منه مادة دسمة لخطاب حكاية هذه الرحلات منذ أن دأب الإنسان على هذا الفعل، فالرحلة تحقق الفضول لدى المتلقي المتعطش للمعرفة والمسامرة والتفاعل مع أحداثها، وهي جملة الحوافز المشكّلة للحكي الذي يروم به الرحّال الآخريين مشاركته كدافع من دوافع الهَمّ الثقافي في أي مجتمع، إضافة إلى دافع هوس الإنسان الذاتي الذي تدفعه أناه للتعريف بمغامراته في صورة البطل كلما رجع إلى أهله ووطنه.

ولم تكن هذه الجوانب التي تمثل الصور الأدبية في الحياة القديمة إلا ضربا من حاجات نفسية شكّلت أدبا لا واعيا تنفس من خلاله الإنسان دون أن يؤسس لقيمه المعاشة، حيث كانت درجة هذه القيمة الفنية ثانوية في مقابل دوافع السفر وأهدافه ذات المقاصد المحسوسة، كنبيل غنائم وتحقيق أغراض، وبعبارة أخرى، لم تخص الرحلة الأدب في أول الأمر، بل انحصرت دائرتها لتشمل جوانب الحياة النفعية المختلفة؛ اجتماعية وسياسية واقتصادية وعلمية وثقافية وهلم جرا، وأهملت الجوانب الفنية التي كانت تأتي اعتبارا حتى بعد قرون من انقشاع ضوء المعارف التي جاء بها المنهج العلمي الجديد إبان عصور متقدمة، في تقصّيه لتصنيف العلوم والفنون، وخاصة بالنسبة لتاريخ الأدب العربي إبان العهد العباسي حيث ظلّت فيه الرحلة تستمدّ من فعل التجريب، فكان لا يصيبها البلل من بحر مسالكة وممالكة الزاخر حين كانت غارقة فيه، وبقيت على هذه الحال تفتقد لشرط التحوّل المتمثل في تذويت الخطاب، وهو الشرط الذي لم يجرأ واحد من زمرة من خاض هذا المعترك ويصم نزعة ذاتية تحقّق له الريادة، فتدرّج يقترب من الهدف دون أن يصيبه حتى بلغ حدود القرن السادس الهجري ليوقع كل من ابن عربي ثم ابن جبير هذا الهدف.

وبعد هذا الحدث الريادي استطاع أدب الرحلات أن يحتلّ المكانة اللائقة من مجموع أشكال التعبير لدى العرب، ويحقّق فيه أكبر مبتغى فني، وأرقى مصنّفات أدبية وغير أدبية، استحقّت أن تضمن لنفسها حيزا هامّا ضمن طاقم الأجناس الأدبية التي جمعت توليفا معتبرا من الفنون والمعارف في شكل واحد، وهو النص الرحلي، الذي يوفّر المتعة ويعرض من المادة جدّها وهزلها، ومن المواضيع غثّها وسمينها، نفيسها ومبتذلها، والسامي منها والخسيس، يجمع فيها الرحالة صنوفاً من المعرفة، الواقعي منها والغريب، وألوانا من الخطابات، الجمالي منها والإيديولوجي، وأشكالا من الأساليب، السطحي منها

والراقي، فيحقق بها ما تصبو إليه نفسه من ضروب الكتابة، لتنتقل بعد ذلك إلى متلقٍ فضوليٍّ أو متعطّشٍ للمعرفة، أو طامحٍ لرقبيٍّ لغويٍّ، ومتعة لا فكاك منها.

وقد امتد هذا الشكل الأدبي مختزقا عصرنا الحديث يميّزه انفراج في زاوية تحوُّله بتحوُّل الحياة العامّة للمجتمع بأسره، والذي أصبح فيه العربي أكثر عُرضة للصدمات الاستعمارية التي غيّرت من سلوكه ومن تفكيره. ولعل الجزائر من البلدان التي تفاقم حالها في هذا العصر كأسوأ حال من مجموع البلدان العربية الأخرى على الرغم من تساوي اسم المأساة. ونظرا لأصالة فنّ الرّحلة وتجدره في عمق الثقافة العربية، فإنه بالرغم مما فعله الاستعمار من تقويض ثقافي وإجهازه على أكبر نسبة من مقوّمات الحياة الحيوية، فإن ذلك لم يُنَبِّط من عزم المواصلة في دربه، وقطع حبله السري مع ماضيه.

وإضافة إلى هذه التغيّرات التي عرفها العالم على جميع المستويات الفنية وغير الفنية، والتحوّلات الجذرية في كثير من مناحي الحياة موازاةً مع الحالة الحالكة التي عرفتها الجزائر، فإن ذلك بات يُثير إشكالا كبيرا على جلّ المستويات الثقافية والاجتماعية، فلم تُعدّ أساليب الحياة الحديثة هي نفسها أساليب الحياة القديمة، ولم يبق للحياة الأدبية والثقافية من أشكالها القديمة إلا التّزر القليل، حيث اختلّ توازنها فمنها ما أفل واندثر، كما منها ما حلّ بديلا. وتسارعت أنماط الكتابة بما تهيأ لها من مجال عدّه الكثير من الدارسين بأنه أكبر عامل على تغيّر الحياة الثقافية والاجتماعية وما يترتب عنها من استراتيجيات، ألا وهي بدعة الصحافة، وهي المساحة التي أعطت الحرية لكل من لديه رغبة فيما من شأنه أن يُدلي به من إبداع على أي مستوى، كما أن للعامل الزمني والمكاني الذي تُوقرهُ الصّحف والجرائد قد قلّص من مساحات الإبداع وعجّل بزوال طائفة من الأشكال وقلم من أخرى استعصت على الزوال فروّضت البيئة الجديدة من مقاساتها، هذا دون أن نسجّل ما حصل من ركود على جميع المستويات ألحق الإشكال نفسه بالمجال الأدبي، فبات الضعف ينخر جسده، ويفتت عظامه، فلا يجد قواما يرتكز عليه.

وعلى الرغم من قيمة المجال الصحافي ونجاعته في تطوير الفنون الأدبية المعاصرة جميعها، بما حقّقه من انفتاح على المبدعين دون استثناء، فإنه ميدان لا يسلم من سلبيات، ولعلّ أكبر سلبية هي كون المادة (طبقا للقرطاس الذي يحملها) استهلاكية آنية، آيلة للزوال، مُعْرَضَةٌ للتلاشي، سهلة الاندثار، سريعة الذوبان، يصعب المحافظة عليها أطول مدّة ممكنة. إضافة إلى التنوّع فيما تحتويه الصحف من كتابات مختلفة المشارب ما جعلها مظانّا متوجّس منها، تقوم على المحتمل أكثر مما تقوم على الثبات، وبخاصة النص الرحلي الذي وجد نفسه في هذه البوتقة نصّا إشكاليا مضطرب التّبني، مفوّضا للنفور،

قد عفاً عنه النقد طيلة مدة مديدة مكثت فيها تحت ظلال الغبار الأرشيفي، وهذا المصير هو الذي أجّل الحكم على الأدب العربي الحديث في الجزائر والرحلي منه على وجه الخصوص. وفي ظل هذا المعطى لعلنا نتساءل؛ ما مصير المدونة الرحلية ضمن المكوّن العام للمدونة الأدبية، وكيف تشكّل النص الرحلي الجزائري في ظل هذا الوباء؟ كيف تحقّق هذا النصّ في ظلّ انعدام المساحة الإبداعية التي استعارت الصحف والجرائد كموقع للإبداع؟ هل حققت الرحلة من التّراكم النصّي ما يسمح باتخاذها مادّة للنقد؟ كيف سايرت الرحلة ظروف المرحلة ومعطياتها في ظل سياسة الاستعمار والوعي الثقافي المتذبذب وتجاوزات الصراع المحلي، وكيف تجاوزت مع الاختلاف الثقافي والحضاري الذي ميّز الضفاف المختلفة بالضفة الجزائرية؟ وبماذا تميّز المستوى الفني من خلال التشكيل السرد في مقابل النسق الثقافي السائد؟

وانطلاقاً من وزن هذه الأسئلة فإن أهمية الموضوع تتمثّل فيما للرحلات من قيمة على المستويين الفني والتوثيقي، حيث تعتمد على الواقع لتشكيل أهم مظاهره وخبائاه المضمونية، بالاستعانة على اللغة؛ الوسيلة التواصلية التي يمكنها أن تحمل النسق الجمالي في محيطه المعاصر حتى يضمن لنا استكشاف المستوى الحقيقي للنثر كقيمة سردية مستوحاة من كينونته. وقد استطاع بحثنا أن يميّط اللثام عن المدونة التي كشفت عن كمّ كبير منها، بالإضافة إلى جسّ نبض هذه المدونة وتفكيك محتوياتها التي تضمّنت قيمًا تاريخية توثق للحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والأدبية والفنية عموماً. أما عن الدراسات التي سبقت موضوعنا وترتبط به مباشرة فلا نظن أنها تجاوزت أصابع اليد الواحدة تتصدّرها دراسة جديرة تمثّلت في أطروحة الدكتوراه تقدم بها الباحث (عمر بن قينة) أمام جامعة الجزائر بعنوان "النثر في الرحلة الجزائرية خلال القرن العشرين"، وهو العمل الوحيد الذي يمكننا اعتباره عملاً متغلغلاً في عمق النص الرحلي الجزائري يستحق التنويه، حيث قام صاحبه بكشف الحجاب عن الرحلات الجزائرية الحديثة، وهو عمل مؤسس وريادي في ميدانه، لجأ إلى نشره فيما بعد في كتابين: أولهما "اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة الجزائرية الحديثة" والآخر بعنوان "الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة"، كما يمكننا التنويه بعمل سميرة أنساعد "الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري" وهو يمسّ طرفاً بسيطاً من موضوعنا، حيث لم تخصّص به الرحلات الحديثة مما جعله يقترب من العموميات، ثم عنوان أخير ظهر ونحن قد قطعنا أشواطاً معتبرة في بحثنا، تقدمت به الباحثة (يسمينة شرابي) أمام جامعة البويرة بعنوان "الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري" فقد ركزت فيه الباحثة على قضية الموروث في النص الرحلي الجزائري من خلال نماذج من رحلات العصر الحديث والمعاصر.

وما دام أن سبب اختيار لكل موضوع يتعلّق بشقّين، ذاتي وموضوعي، فقد كان موضوعنا كذلك، أما الذاتي منه فيتمثل في الميل الكبير والانجذاب المغناطيسي الذي ينتابنا نحو هذا اللون الفني بما يزوّدنا به من مفاجآت ومعارف تاريخية وطرق الحكي والبساطة في اللغة، والتنوع في الشكل. بالإضافة إلى ما يفيد به في التعريف بالأماكن المختلفة داخليا وخارجيا، والتعريف بالأعلام العلمية والسياسية البارزة منها والمغمورة. أما من الناحية الموضوعية فقد انتابنا ونحن نمارس فعل البحث خلال مرحلة الماجستير في الموضوع نفسه، (جمالية المشهد في أدب الرحلة الجزائري الحديث) حيث حيّرنا الصمت المطبق حول ما يسمى بأدب الرحلة الجزائري ما جعلنا مندهشين، فقد تم الاطلاع على نصوص كثيرة دون أن نجد من تعرض لها بالبحث، ثم إضافة إلى هذا الإهمال، فإنه ثمة من يدّعي بأن هذا الفن في الأدب الجزائري الحديث ليس له شأن كما ونوعا، هذا في مقابل المنجز الكبير الذي يتعدّى في شجاعته حدود ما يتخيّله الكثير من النقاد والدارسين، فهو يشكّل مادة خاما لعلها أكبر مادة أدبية في الجزائر لم تر النور ولم يطلع عليها الباحثون، بله دراستها ونقدها وإعطائها الاعتبار الذي تستحقه. خاصة وأن طوافنا ببعض مراكز البحث وحنّنا إلى بعض الجامعات ودور الثقافة في معظم مدن الجزائر، طمعا في إيجاد مّمّهّدات أو أمارات تحيلنا على مواقع مما نحن فيه طامعون، ولكن النتيجة المتوصل إليها، كانت في كثرة المادة وقلة الباحثين بل انعدامهم (في هذا المجال). والحير في الأمر كذلك، ونحن نطلع على مجموعة من الأبحاث الأكاديمية الجامعية التي تعاطت البحث في فنون النثر في الأدب الجزائري الحديث انطلاقا من بعض الصحف والجرائد الأدبية إبان هذه الفترة، إلا ونجد صاحبها قد تناول كل ما يمتّ للنشر بصلة ما عدا أدب الرحلة فهو يتجنّب بالرغم من شخوص المادة وبروزها للقاصي والداني. ومن الأمثلة نذكر، ماجستير بجامعة وهران نحو: "أشكال التعبير الأدبي في مجلة الشهاب" - "أشكال التعبير الأدبي في جريدة البصائر الثانية" - "أشكال التعبير الأدبي في صحيفة البلاغ الجزائري". وقد كان هذا كافيا لدفعنا إلى المناقشة عن هذا الفن، معرّفين به بجرارة البحث، وساعين من أجل إعطائه المكانة المرجوة التي تليق به وتضعه في مصافّ الفنون النثرية الراقية. وذلك بالتطرّق إلى التفصيل في إشكالاته وتبيين أهم أنماط الكتابة الفنية فيه، والتعرض لأهم خصائصها. ومن ثم التمييز بين أشكال متعدّدة والتكريس لمفهوم النص الرحلي الجزائري الحديث، الذي اتخذ سبيلا سياقيا خاصا، ونسقا إنتاجيا متميزا.

هذا؛ ومن أجل إيجاد مسوغات علمية ترتقي بالبحث إلى المعايير الأكاديمية، كان لابد علينا من اللجوء إلى منائر تضيء دروبه المظلمة وتعين على مسالك بعض السبل التي ليس بإمكان أي باحث في مراحل الأولى أن يجد لها منافذ، وخاصة إذا كان البحث جديدا مثل موضوعنا الذي لم تزل

البحوث والدراسات لم توقّه حَقّه في التنظير والتطبيق النقدي على مستوى النقد والأدب العربيين عموماً، حيث لا تزال تطلّ علينا في احتشام، بعض الدراسات التي لا تروي عطشا ولا تشفي غليلاً، ما عدا العزاء والتسلي الذي يشفع لها بصون المادة الرحلية وإعطائها الصفة الأدبية الشرعية. واستثناءً نجد أن بعض المراجع قد أفادتنا كثيراً بالرغم من قلتها، وقدمت لنا عوناً لا يستهان به وبصّرتنا بهوية الجنس الأدبي الرحلي، ومنحتنا مفاتيح الولوج إلى عالم النقد في مجالاته، فأعطتنا الكيفية وسأيرت خطانا نحو خوض هذه المعركة النقدية. ومن أهم هذه المراجع التي تُعدّ عمدة في بحثنا، نذكر من الكتب: "الرحلة في الأدب العربي-التجنيس، آليات الكتابة، وخطاب المتخيل-" لشعيب حليفي، وكتاب "السردي مفاهيم وتحليلات" لسعيد يقطين، وأعمال عبد الرحيم المودّن منها خاصة: كتاب "أدبية الرحلة"، وكتاب "أدب الرحلة في المغرب"، وكتاب "الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر - مستويات السردي-"، يضاف إلى هذه المؤلفات كتاب "الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري" لناصر عبد الرزاق الموافي، وكتاب "الرحلة والنسق" لبوشعيب الساوري، وأما الأطارح العلمية فكان لها علينا فضل، ومن أهمها؛ رسالة دكتوراه لإسماعيل زردومي بعنوان "فن الرحلة في الأدب المغربي القديم" ورسالتنا ماجستير لكل من فاطمة بوطبسو بعنوان "أدبية الخطاب في رحلة "نور الأندلس" لأمين الريحاني" وأخرى لعبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، بعنوان "أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية". ولقد كان لهذه المراجع قيمة كبيرة استطاعت أن تضيء كثيراً من مسالكنا كما سمحت لنا بفك كثير من القضايا والإشكالات، بالإضافة إلى بعض المراجع الأخرى المتخصصة في السرديات وعلمي النص والخطاب الأدبيين، وغيرها من المراجع. في حين أن هناك الكثير من الدراسات التي تحمل في عناوينها سمة دراسة الرحلات وهي لا تتجاوز الدراسات التاريخية التي ليس لها أية صلة بالجانب الأدبي.

ومن أجل الإحاطة بجوانب البحث أقمنا له خطة قد تتناسب مع موضوعه تمثّلت في تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة، واشتمل كل باب على ثلاثة فصول، نعرض لها في الآتي:

قمنا في التمهيد بعرض موجز لتاريخ الرحلة في الأدب الجزائري القديم، حتى يتسنى لنا معرفة خصوصية النص القديم واشتراكه مع النص الحديث، من أجل ربط القديم بالحديث في صورة وصل الوشائج.

أما أبواب البحث فقد انتظمت وفق قضاياها العامة، فجاء الباب الأول بعنوان "إشكالية النص في الرحلة الجزائرية الحديثة" مادام أن هذه النصوص قد لقيت نوعاً من العزوف فأردنا من خلال ذلك أن نعيها الاعتبار الذي يليق بها. فعرفنا في فصله الأول بـ"الرحلة من منظور علم النص وقضايا السردي"

وهو فصل نظيري خصصناه للتعريف بجنس الرحلة في الأدب العربي. أما الفصل الثاني فعنوانه بـ"إشكالية المدونة ومطآنّ تمرکز النص" وهي من أعوص الإشكالات حيث يجد فيها الباحث في الرحلة الجزائرية صعوبة في القبض على النص الرحلي الذي يعدّ إشكالا لا يتحقّق فيه التجسيد إلا في صور متشظية، ومن ثم أردنا أن نبين من خلال هذا الفصل مكان تواجد النص وكيفية هذا التواجد. أما الفصل الثالث فعنوانه بـ"الرحلة الجزائرية الحديثة وإشكالية الأدبية" وفيه حاولنا توطین الخطاب الرحلي الجزائري من خلال قانون التجنيس الأدبي بحثا له عن شرعية فنية، حتى نقيس توتّر الأديبي، أبرزنا فيه أهم ما يميز به النص الرحلي بما يجعله يندرج في خانة الأدبية ومثّلنا لذلك تمثيلا.

أما الباب الثاني فكان بعنوان "الرحلة الجزائرية الحديثة وتمثلات الأنا والآخر" وهو باب ابتغيناه سبيلا للوصول إلى قضية هامة في أدب الرحلات وتتعلق أساسا بعلم الصورة، حيث كان الرحالة يقوم بالمقارنة بين هنا وهناك، ولذا جعلنا الفصل الأول بعنوان "صورة الآخر والاختلاف الثقافي/ الوعي بالتفاوت وأسئلة الهوية" وهو فصل يتعلق بالرحلة خارج الوطن باتجاه الغرب (أوروبا) الذي لا يماثل في خصوصيته المجتمع الجزائري فأبرزنا أهم محطاته ومواقف الرحالين من هذا الآخر سلبا وإيجابا، ومدى التأثير الذي أصابهم حضاريا، تارة بالانتكاس وأخرى بالاعتبار، وبالوعي والوعي المضاد من خلال المرجع والهوية المحمولة في سجلهم الذهني، وما أمكن للرحلة أن تبوح بأسرار الذات من خلال الآخر. أما الفصل الثاني فقد كان بعنوان "صورة الآخر الجواني، مرآة الأنا" وتضمّن صور المواقف المختلفة تجاه هذا الآخر الذي يعتبر (أنا) في خصوصيته وفي تطابقه اللغوي والديني وامتداده الجغرافي وتراثه العتيق الذي يجمع بين الرحالين والمرتحل إليهم، وكيف قابل الرّحّالون المشاهد والأحداث والمواقف المختلفة، وكيف نظر الجزائري إلى المجتمع العربي فيما يبدو عليه من حرية نسبية في ممارساته وسلوكه من خلال مطابقتة بين حاصل المشاهدة وما خلفه في وطنه من تضيق واستبداد وكبت للحريات. كما سعينا إلى إبراز ما شهدت به الرحلات من مواقف الحكّام العرب تجاه القضية الجزائرية ومدى الدّعم والمساندة من طرفهم. وحاولنا في الفصل الثالث الذي جاء بعنوان "الرحلة نحو الأنا/ بنية المجتمع وصور الصراع" أن نكشف عن أوجه الصراع بين الطوائف المختلفة داخليا خصوصا بين الطريقين والإصلاحيين، كما كان علينا لزاما أن نعرّج على ما تضمّنت من التعريف بخصوصية المجتمع الجزائري وبنيته الاجتماعية والثقافية والدينية والأخلاقية، وصور البؤس والمأساة، والتجهيل والفاقة، والبؤس والاغتراب، دون أن تغفل عن تصوير المدن والقرى وما تضمّنت من عمران.

أما الباب الأخير فخصصناه للجانب السردي فجعلناه بعنوان "الخطاب الرحلي/ السرد وآليات إنتاج النص" تطرقنا في فصله الأول لـ"الرّحّالة/ الصوت والوضعية السردية" حيث أبرزنا فيه كيف يتحول

السارد إلى مسرود له قبل أن يقوم هو بوظيفته المنوطة به، ثم قيّدنا ذلك من خلال أهم الوظائف التي يتأسس عليها فعل السارد في الرحلات الجزائرية المدروسة. أما الفصل الثاني ف جاء متعلّقا بالسرد في حدّ ذاته فكان عنوانه "الرّحلة/ التبّعير ودينامية السرد" ومما جاء فيه تتبّع الوضعيات السردية من خلال طبيعة الزمن وما تضمنته السرد القائم عليها فعل السفر من ذهاب ووصول وإياب وما تخلّلها من أحداث ومشاهد، التي يتدخل فيها عنصر آخر ويتعلق بالمكان وبنية الوصف وأبعاده. و عنوانًا آخر فصول هذا الباب بـ "المتلقي/ النسق الإطار والنموذج" كشفنا من خلاله عن الثقافة الأدبية في هذا العصر الذي أخرج لنا هذا الصنف من الأدب، بالإضافة إلى سؤق نماذج المتلقين حسب ميولاتهم الجمالية والنفعية والتعليمية. ثم ختمنا بما تضمّنه البحث من نتائج.

وأما بخصوص التحدّث عن الجهد المبذول، فقد تراوح بين ما يمكن اعتباره سهلا هيّنا، وبين ما يفوق طاقتنا في سبيل تحقيق هذه الغاية، إذ لم يكن التطرّق لموضوع شائك كهذا سهل المسالك، وهذا في اعتقادنا قد يخالف كثيرا من التوقعات التي لا تزال عند الكثير ممّن هم في شك أن هذا الفن في الأدب الجزائري الحديث محدود جدّا، ولو كان هذا موقف العامة لقبلاه، أما وقد نطق به من هم أهل اختصاص فثمة مستفحل المعضلة. وهو ما يدعو إلى التقصّي في هذا البحث الشاق لتبيينه على غير ما هو مُنمّط سلفًا، لذلك تمثل الجهد بقدر قناعتنا في الوصول إلى الحقائق التي كانت تبدو كالمشكاة في عليائها، والعروس في خدرها فكان مهرها غاليا، مما أثقل الكاهل. وقد تشكّل الجهد في جمع المادة التي كان معظمها مجهولا، لذا وجب البحث عنه في مظانه؛ من جغرافية الجزائر الشاسعة، والبعض منه في مكتبة باريس الوطنية (فرانسوا ميتران). ما ترتب عنه إنفاق الجهد والمال لأجل هذا العمل، ثم بعد ذلك تصنيف المدوّنة لأنها تضمّنت الفني بالتاريخي، وبعد ذلك التحصيل المعرفي حول ما يتعلق بإيجاد مسوغات التصنيف المنهجي وكثرة القراءة المستمدة من كثرة المراجع لم يُزلّ لهم ولم تذهب عن ذلك الغيوم المغشاة عن حجب الرؤية إلا بعد القراءة المضنية، واستقصاء المسائل النقدية ومساءلة المعارف المختلفة في العلوم الإنسانية، في غياب شبه كلي للمراجع المساعدة. بالإضافة إلى التقيّد ببرنامج زمني صارم لا تتحقّق فيه راحة وليس فيه ليد الغفلة والسهو عنه مجال، فقد كانت الساعات الطوال في الليالي الحالكات أنيسا في الخلوة، مع الاستمرارية التي لم تكد تتقطّع إلا في ظروف استثنائية.

وأما عن منهجنا في البحث فقد عرف تشعبًا على قدر تشعب مجالات وشساعة مساحته التي شملتها الدراسة والتحليل، مما فاق درجة تحمّل المنهج الواحد عبء القضية، فكان لجوءنا إلى تهجين المنهج هو الحلّ الأمثل لمثل هذه الطروحات، فاستفدنا من المنهج التاريخي (السياقي) موضوعيا كونه الرحلة تراوحت لتشمل زمنا معتبرا في العصر الحديث انقسم إلى أجيال مختلفة مع الاحتكام إلى الزّمن

الواقعي الممتدّ. بالإضافة إلى المناهج النسقية باعتبار أننا تعرّضنا لقضايا السرد فكان مناسباً أن نستفيد من المناهج البنيوية، بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي والسيميائي في مواجهة النصوص وتفكيكها من أجل الظفر بمستوياتها السردية وما تضمنته من أنساق، بالإضافة إلى ما تزوّدنا به من نظرية التلقي التي نفّست عنا في البحث حول إنتاج النص الرحلي على اعتبار أن ذلك مستوى جدير بالعملية الإبداعية.

وعند الحديث عن العقبات والصعوبات التي اعترضتنا نقف وقفة استحياء أمام من سبقنا بالبحث وحقّق منه وطراً بكده وجهده، ذلك أنه كان يقوم بذلك مشمّراً على ذراعيه أمام شقاء السفر وصعوبة سبل الحصول على المراجع والمصادر، والتقنيات التقليدية التي لم ترق إلا لتعضّد من أزمة البحث، بينما تحول العالم في زماننا تحت تصرفنا بالزر من داخل بيوت مكيفة دون إنفاق أي جهد ولا إسراف أي فلس. فلقد استفدنا فعلاً من هذه الوسائط التي نحمد الله على توفرها بتوفيرها لنا الجهد والمال، ومع هذا فإن سعينا لم يكن ميسوراً ذلك أن الرحلة الجزائرية لم تسمح لها الظروف بالتواجد في بيئة برامج (الأنترنت) وعليه كان السعي وراء هذا المطلب مكلفاً، ولعل أكبر عقبة تكمن في الإرهاق المالي في سبيل التحصيل على مادة البحث سواء عن طريق شرائها إذا توفّرت أو التنقل إليها بمسافات بعيدة أرهقتنا واعترانا منها ضروب متفاوتة من العطل، وأحياناً لم نكن لنظفر بنص مع تواجهه بالمركز المقصود إلا بعد الزيارات المتكرّرة لأسباب واهية كزيارتنا المتكرّرة إلى قسنطينة (ثلاثة مرّات) من أجل الحصول على نصّ أحمد رضا حوحو المحشو بجريدة الشعلة، بسبب التعقيدات على مستوى مركز الأرشيف الولائي بهذه المدينة.

وفي الأخير لعلي إذا ذكرت أستاذي المشرف؛ الأستاذ الدكتور محمد مرتاض فقد يزيد في بحثي إشراقاً، ذلك لأنه يمثّل بالنسبة لي محفزاً، والذي يكفيه (البحث) شرفاً أنه قبل به مُشرفاً على صاحبه، وموجّهاً إياه إلى برّ الأمان، فما ألطف تلك التصويبات التي أرشدته من التيه بمتابعته له بدقّة علمية صارمة، زادت صاحبها ثقة وقادت بحثه إلى بدل الجهد المحمود، فله مني شكر البارّين، وحمد الشاكرين ونصيباً هنا وآخر في عليّين عند رب العالمين، كما لا أنسى أن أثني على كل من كانت له يد في هذا البحث من أساتذة وطلبة باحثين ومن غير هذين الشريحتين، فمن لطفهم وتفضلهم أي أنهيت العمل الذي لم يكن في الوسع أن يضمن الطريق الشاق دون مساعدتهم. والشكر موصول لقسم اللغة العربية وآدابها لجامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان الذي فتح أمامي فرصاً أحسبها أحسن الهدايا في حياتي على الإطلاق والمتمثلة في فتحه أمامي طريق مواصلة دراساتي العليا (الماجستير والدكتوراه)، فتسنى لي أن

تواصلت بأساتذتها واكتسبت منها الخبرة والتحصيل المعرفي والعلمي بشتى فنونه، ومنحتني ما عزّ عليّ في غيرها من الجامعات.

وأملّي ختاماً أني قدمت بحثاً أحسبه بلغ من الجهد المعتبر، فأتمنى أن ينال من القارئ الكريم حظوة ويحقق مطلبه. فإن كان قد بلغ ما طمحت إليه فذلك توفيق من الله وحده، وإن كان على غير ذلك فمن قاصر حاول قدر الاستطاعة دون جدوى فعزّاه الوحيد نيل رضی رب العالمين، كما أن النجاح في كل الأحوال يكمن في طرح إشكال يتعلق بقضية غفّل عنها الباحثون وهي مدونة الرحلة الجزائرية في الفترة الاستعمارية.

عيسى بخيتي

عين تموشنت في: 15 / 08 / 2015.

التمهيد

أدب الرحلة الجزائري القديم

- النشأة والتطور -

تعدّ الرّحلة الجزائريّة امتداداً طبيعياً لرحلات المغرب العربي، كون الجزائر تمثل جزءاً لا يتجزأ من المغرب الكبير، ويمتدّ هذا حتى بعد الانقسامات السياسية التي عرفها هذا الجناح من العالم العربي، بل لم يكن اضطرت السياسة وشقاقها وما تدعو إليه من تنافر ليمنع من رسم وحدة المجتمع المغربي الذي تحكمه تقاليد وأعراف وخصوصيات التلاحم.

واللافت عند تتبّع مسيرة الدارسين والمهتمين بفن الرّحلة العربي عموماً، يجد أن حُكماً قد تأسّس عند جلّ الباحثين إن لم نقل كلّهم على أن الرّحلة الجزائريّة ضئيلة الكمّ ضعيفة الإنتاج، وذلك مقارنة مع ما أنتجه أشقاؤها في بلدان أخرى مثل المغرب الأقصى على سبيل المثال. ويأتي مثل هذا الحكم على ضآلة التدوين الجزائري القديم في هذا المجال ليس من باب عدم إغارة الجزائريين اهتماماً كبيراً بهذا الفن، وإنما هي ظروف أسهمت في إقرار هذا الحكم الذي نعتبره مؤقّتاً ومجحفاً.

لقد خاض الجزائريون مجال الرحلة بقوة في مختلف الأمصار، فمنهم من طاب له المقام ولم يرجع إلى وطنه الأصلي، ومنهم من دَوّن وفُقد نصّه، ومنهم من أمسك عن الكتابة، كما أن منهم من خلّف مخطوطاً لا يزال ينتظر من يخرج منه من الظلمات إلى النور، ويتوزّع هذا الأخير في أماكن منتشرة من الوطن وخارج الوطن، كالزوايا والمكتبات العامة والخاصة. ومردّ هذا الإشكال إلى تقاعس الباحثين الذي يعدّ السبب الرئيس في عدم إخراجها إلى الوجود بحلّة قشبية ودراسة علمية جادة، إضافة إلى أن هناك أسباب أخرى أجمّلت نصوص المخطوطات إلى الظهور والتحقيق والطبع، من بينها بعض المعتقدات التي سيطرت على مالكي المخطوطات وعدم السماح للباحثين بتناولها، وهو الاعتقاد الذي يدّعي أصحابه أن الأذى والمكروه سيصيبهم إذا ما كشفوا عن هذه المخطوطات التي ورثوها عن أسيابهم أو أهاليهم، لتبقى مجرد أكوام علمية حبيسة للتبرّك بأثر الشيوخ والأولياء. ومع مرور الوقت سوف يكشف النقاب ويسفر الحجاب عن مكونات ثريّة، ومن ثم يتغيّر الحكم -لا محالة-، وليس قولنا هذا من باب العاطفة وإنما بناءً على ما يدور في هذا الفلك من معلومات أكيدة، ومن ذلك مثلاً حياً، فقد أخرج (عبد الله بن سالم كروم) كتاباً ضمّنه دراسة بيبليوغرافية¹ للرحلات المتواجدة مخطوطة بزواوية "كُتّنة" بتمنيط ولاية أدرار، وقد كانت النتيجة أن أحصى عشرين نصّاً، وهو عدد كافٍ لإلغاء الأحكام المسبقة في هذا المجال. وإذا كانت خزانة واحدة ضمّت عشرين مخطوطاً رحلياً، فإن الخزانة الأخرى لا محالة ستسفر ولو بالنزر القليل ولكنها في النهاية ستعزز المكتبة الجزائرية التي هي بحاجة ماسة إلى تراثها.

¹ - عبد الله بن سالم كروم الرحلات، بإقليم توات، دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة بخزان توات، دار دحلب، الجزائر، 2007.

1 . نشأة الرحلة في الأدب الجزائري.

عرفت الرحلة الجزائرية تبكيرا في مسارها نحو الأفطار والمراكز العلمية والأماكن المقدسة، فقد أحدث الدين الإسلامي منعطفا كبيرا نحو التعارف وطلب العلم وأداء الفرائض التي تقتضي التنقل والسفر، وتحمل الأتعاب والأعباء، ومن ثم سارع الجزائريون إلى تلبية كل مطلب يقتضي السفر، متجشمين أتعابه ووعثائه، فارتشفوا طعم الأهوال من أجل التحصيل العلمي، وأداء فريضة الحج على وجه الخصوص. ولما كانت الرحلة المقصود بها عملية التدوين التي أصبحت تقليدا عند الأدباء والكتاب والعلماء فيما بعد، فقد عرفت الرحلة الجزائرية تبكيرا في هذا المجال، بل لعلّ الجزائريين من الأوائل الذين خاضوا في هذا الفن، وتمكنوا منه، وإذا كانت الرحلة كفن (أدب) قد تأسس في الأدب العربي عموما على يد أبي بكر بن العربي (ت 543 هـ) عندما دون رحلته عام 485هـ/1092م، ثم تضيف المصادر والأبحاث جانب التأسيس إلى ابن جبير (ت 614 هـ) من خلال رحلته الموسومة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" التي كانت عام 578هـ، فبين هذا وذاك قام الوارجلاني أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم (ت 571) برحلة حجازية، جمع مسارها وحيثياتها ضمن قصيدة مطولة² تتضمن 374 بيتا، أبرز من خلالها عملا فنيا في مجال الرحلة، ومن ثم حَقَّ له أن يتوجَّ رائدا لأدب الرحلة في تاريخ الجزائر. وقد كانت الرحلة التي قام بها الوارجلاني عام 538هـ. فمن هو الوارجلاني؟

1 . 1 . الوارجلاني رائد الرحلة الجزائرية

هو يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراتي الوارجلاني، المعروف بأبي يعقوب؛ ولد عام 500هـ/1105م بسدراتة، من قرى وارجلان³، نشأ في موطنه سدراتة، وأخذ مبادئ العلوم على علماء وارجلان، كأبي سليمان أيوب بن إسماعيل (ت 524هـ)⁴، وقد عاصر أبو يعقوب الشيخ أبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي المرغني. ولما استوعب أبو يعقوب ثقافة وطنه تآقت نفسه إلى الاستزادة، وكان شغوفًا بالعلم، شدَّ الرحال إلى بلاد الأندلس وأقام بقرطبة سنين، حصل منها مختلف العلوم النقلية والعقلية، وكان بين طلابها مثال النبوغ النادر، والأدب الجمِّ، والإطلاع الواسع⁵، وقد كان متميزا في شتى الفنون متبحرا في جلِّ العلوم التي كانت سائدة آنذاك، فهو "مؤرخ، مفسر، من أكابر الفقهاء في

² - حققها يحي بن بهون حاج احمد، في إطار مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس من جامعة الأغواط، قسم اللغة العربية وآدابها، وقد طبعت سنة 2007، في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

³ - وهي مدينة جزائرية معروفة اليوم باسم وَرْثَلَة (وهي عاصمة ولاية)، تقع في الجنوب الشرقي للجزائر على بعد 800 كلم تقريبا من العاصمة الجزائر، وهي مدينة صحراوية تحدها من الشمال مدينة تقرت بـ160 كلم، ومن الشمال الغربي بلاد مزاب (غرداية) بـ190 كلم، عن جنوبها منطقة حاسي مسعود الغنية بالبترو.

⁴ - أبو يعقوب يوسف ابن إبراهيم الوارجلاني، رحلة الوارجلاني، تحقيق يحي بن بهون حاج احمد، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007، ص 19.

⁵ - المصدر نفسه، ص 19.

عصره⁶ وقد كان فريدا إلى درجة التميز، ارتقى في العلم درجات حتى ذاعت شهرته في الآفاق، وهو إذ ذاك شاباً يافعا طالبا بالأندلس، وقد كان يشبّهه بالجاحظ⁷ من طرف رفاقه.

وبعد تحصيله العلمي في الأندلس عاد إلى مسقط رأسه، ولم يمكث طويلا حين عودته حتى شد عصا الترحال، معوّلا على السفر إلى المشرق الذي كان زاخرا بمنارات العلم والتفوق، ف "زار أشهر حواضره العلمية"⁸ ولما كانت همّته عالية، حقّق مُناه بلقائه أكابر العلماء، وشفى غليله بالأخذ عنهم، وبعد هذه الرحلة المشرقية عاد ليطوف مختلف دول إفريقيا السوداء "فجاب غربها ووسطها، ثم عاد ليستقر نهائيا في مسقط رأسه ورجلان منقطعا لخدمة العلم"⁹

ويروي عادل نويهض رواية يقول: "قيل إنه لم يخرج من داره مدة سبعة أعوام، لم يكن يُرى فيها إلا ناسخا، وللأفلام باريا، وللدراسة فاعلا، أو للحبر طابحا، أو للدواوين مقابلا، أو للكتب مفسرا"¹⁰، حتى توفي عام 570 هـ.

وقد خلّف الوارجلاني من الآثار أعمالا جمّة في أصول الفقه وفي عقائد الإباضية والتاريخ، أهمها:

1. تفسير القرآن الكريم: ذكرت المصادر أنه يقع في سبعين جزءا، رأى البرادي منه تفسير سورتي البقرة وآل عمران في حوالي سبعمئة ورقة .
2. الدليل والبرهان لأهل العقول: ومعظمه في أصول الدين وعلم الكلام، ولكنّه في الحقيقة موسوعة مصعّرة لمختلف الفنون: من كلام، وتاريخ، وفلسفة، ومنطق، ورياضيات، وعلوم، وأخبار.. يقع في ثلاثة أجزاء، طبع أكثر من مرّة، ثمّ حقّقه الباحث صالح بوسعيد في رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة.
3. مرج البحرين: في علم المنطق، وهو في آخر كتاب الدليل والبرهان، شرحه الشيخ عبد العزيز الثميني في كتاب: تعاظم الموجين في شرح مرج البحرين .
4. ترتيب مسند الربيع بن حبيب.
5. ديوان شعر: ضاع ولم يبق منه إلا قصيدة في رثاء شيخه أيوب بن إسماعيل، دوّنها الدرجيني في طبقاته .
6. القصيدة الحجازية: في وصف رحلته إلى الحجّ.

⁶ - العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين 9-20 الميلاديين (14/3 هـ)، عمار هلال، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1995، ص22.

⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص232.

⁸ - المرجع نفسه، ص23.

⁹ - المرجع نفسه، ص23.

¹⁰ - معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص 341.

1 . 2 . القصيدة الحجازية (أو رحلة الوارجلاني)

إن المطلع على رحلة الوارجلاني، يجدها قد حققت كل شروط الأدبية التي اعتمدها جنس الرحلة بتمامه، ولو أنّ الرحلة كانت في وقت مبكر جدًّا، مما يدل دلالة قاطعة على أن الوارجلاني قطع شوطا كبيرا في تحقيق الريادة في هذا المجال، الذي كانت فيه الرحلة قابضة تتعثر في ميدان الجغرافية وعلم المسالك والممالك، وقد يشفع النص الرحلي في القصيدة الحجازية للوارجلاني بمدى الإحاطة بتكامل البنية العامة للنص الرحلي دون إخلال، فقد بدأ الرّحالة نصّه بمطلع يشفّ عن هيكل القصيدة التقليدي في الشعر العربي المنعطف على الغزل، مع الاحتفاظ بخصوصية موضوع الرحلة العام، وهو موضوع شريف المقصد، عظيم الغاية. فالوارجلاني يبدأ قصيدته بغرض الغزل ليس لذاته وإنما يبتغي من ذلك الحصول على التفاضل بينه وبين المقصد العام للرحلة، فهي قصيدة ذات موضوع غاية في الأهمية ليس غرضها غزليًّا يريد به مقصداً دنيوياً، ومن ذلك قوله في مطلعها:

عذيري عذيري من ذوات المعاجز ذوات العيون النجل بيض

المحاجر

ذوات الشفاه اللعس بالظلم واللما غرائر خرق الصنع سود الغدائر

وبعد هذا التمهيد دخل في الموضوع مباشرة ابتداء من البيت الخامس:

خرجنا نؤمّ الشرق من حيز وارجلان بفتيان صدق من وجوه العشائر

جربون جوابون كلّ تنوّفةٍ يحار بها هادي القطا المتصادر

وفي هذه العجالة لا نريد التطرّق لجميع مستويات النص، وإنما غایتنا إضاءة جوانب منه لتبيين التناسق بين الخطوط العامة للنص ذي الانتماء لفن الرحلة وتوازنه، حيث تشعبت عتباته وبنيته. وإذا كانت الرحلة تحدّد بمسارها الممتدّ بين نقطتي الانطلاق والوصول، أو بما يعرف بالخروج والعودة، ويميّزه الحديث عن المواقع والمواطن والأمكنة التي تعني بالخطوط الجغرافية، فقد ذكر جملة من أفراد الرّكب الذي احتوته القافلة من قبائل جزائرية شتى، مع وصف لخصال تلك القبائل، ثم ذكر الطريق متعرضاً لنقاط هامة ومعالم بارزة، من بداية الرحلة إلى أن بلغوا غايتهم، وبعدها ذكر المناسك بأفعالها وأشواقها، مع كثرة العظات التي تثيرها شخصيته الدينية العاملة. كما نستشفّ من نص الرحلة عناصر هامة، فمن

الجانِب الاجتماعي تُعنى بطبائع وعادات الأَقوام والأُمم، كما هي مساحة لمعرفة ظروف المسالك التي تنتابها عوائق منها خطر التعرض لسلب الصعاليك وقطاع الطُرق، وطريق السفر ووسائله المعتمدة في زمانه.

وإذا كانت الغاية من الرحلة دينية خالصة فنصّها ذو قيمة أدبية أيضا فهي (القصيدة) تعدّ من البدائع الأدبية التي تُعنى بتسميقها اللغوي، إلى جانب اشتغالها بأغراض شتى من الشعر الذي يستلّ من ظروف الرّحلة وحيثياتها نفاذا إلى أغراض شتى، منها الوصف والمدح والفخر والرثاء والحكمة والشكوى. كما نجد ذاتيته مشحونة بحبّه للبقاع المقدسة، يدل ذلك ما قاله عند فراقها:

كأن فؤادي يوم فارقت مكة أخو نشوة أو عند ليث المقاصر

ضعيف القوى بادي الصباية هائم شجيّ الهوى واهي العرى والبصائر

إذا ذكرتها العين فاضت دموعها وإن ذكرتها النفس لم تتصا¹¹بر

ولما كان أدب الرحلة نصّا يتميز بهيكل نمطيّ ونسيج محتمل، فإنه لا تتلاقى جميع الرحلات في محتوى واحد، لأن المفاجآت هي التي تُخضع النصّ لمجرباته العامة، من ثم كان نص الوارجلاني يستمد أغراضه الفنية من معطيات، منها تلك الأحداث التي فاجأت المركب فغرق من غرق، وقد كان هوؤها عظيما، وعلى إثرها جاء وصف الوارجلاني دقيقا ذا بلاغة راقية، وتصويرا فنياً بديعا من ذلك قوله:

لقد أندر الرائيين فضلا بهولـه على الراكب الملاح بله المخاطر

إذا ضربته موجة زعزعت بنا فصكت بجنبها كوقع السواطر

فحطّم منها جلبة فتحطّمت فكبر أهلها بكل التكابر

فأنقذنا منها المليك بفضله وألهمنا المعروف خير الأوامر

فلم ينج منا غير أناس قلائل على ظهر ألواح عراد المسامر

إلى الله أشكو فقدّ من لست واجدا له مثلاً في سائر الخلق بائر

ولهفي على السادات من آل عامر ذوي المجد والأخطار مثل الجواهر

¹¹ - القصيدة الحجازية، مصدر سابق، ص 57.

وجوههم مثل الدنانير زينة وأخلاقهم مثل النجوم الزواهر

ومما شجاني واعتراني وهمّني فبتُّ بهم في الفؤاد مخامر¹²

وإذا جاءنا بالفخر، فهو يحاكي في ذلك ما كان منه في عصوره الأولى فكأنك تقرأ إنشاد عنتره العبسي، أو عمرو بن كلثوم، مع حداثة المعنى، مثل قوله:

وعادتنا الإحسان للناس كلهم وعاداتهم فينا قبيح المصادر

فدونكموها مثل عقد منظم من الدر والياقوت صافي الجواهر

تلوح قوافينا بحسن بيانها وحسن معانيها كوشي الجبائر

وأنشدها بكرا إذا ما تناشدت تصيخ لها الأسماع من كل شاعر

ويغلا لها مهر ويعرف فضلها وتعطي من الخطّاب أفضل ماهر¹³

وفي مثل قوله أيضا:

وما ضرني ما فاتني بعد نسبتي خلا الشرفاء من قريش وعامر

إذا افتخر الأقبام يوما بفخرهم فنحن به أولى بعلم الجماهر

وإن فخروا بالمجد والحمد والندا يشيرون يوما نحوها بالشناتر

لنا همة تعلوا على كل همة وأموالنا توفي على كل دائر

ولا جود في الدنيا لمن قل ماله ولا مال إلا ما أتى بالمتاجر

ويفتخر الأقبام بالمال والندا وقد سرقوها من جميع الحواضر¹⁴

¹² - المصدر نفسه، ص 59.

¹³ - المصدر نفسه، ص 74.

¹⁴ - القصيدة الحجازية، مصدر سابق، ص 73.

كما نجد أن الوارجلاني بعد طول غياب عن الأهل والبلد، يحنّ وينكسر عطفه نحوهما بالرغم من أن زيارة الحجّ كانت فيها من الاحتضان الحميم ما جعله يتأسى كثيرا عند مفارقتها للحرم، بيد أن عاطفته الإنسانية لانت بعد كل خطوة نحو موطنه إلى الاشتغال بالأهل فردّد يصرح ويفصح:

على أنني قد قلتها من قصيدة وقلبي مشغول وهمي وخاطر
بحلّ وترحال وطول مشقّة وشقة بعدي عن بني الأصاغر
وتذكار أهلي طال نأبي عنهم وأرحام قربي من أهالي الأواصر
وإخوان صدق في الملمات كلها هم ناصري في الأمر يوم التناصر¹⁵

ويختتمها بأبيات طوال فيها من الرهبة، كما فيها من الوعظ الكثير، يخص منها سبعة عشرة بيتا بظاهرة أسلوبية يكرر فيها صدر أبياتها بينما يغيّر في عجزها من ذلك قوله:

ويا لهف نفسي كيف ذلي وحيرتي إذا قيل تقدر للحساب وناظر
ويا لهف نفسي كيف ذلي وحيرتي إذا قيل هذا يوسف غير شاكر
ويا لهف نفسي كيف ذلي وحيرتي لفصل القضاء في يوم موف وغادر¹⁶

ونص الرحلة في محتواه أمور كثيرة منها ما يعنى ببعض المواقع والمواطن الغريبة لذا تعتبر هذه الرحلة بمثابة معجم بلدان ومسالك، إلى جانب احتوائها على جملة من القبائل الجزائرية التي أعطتها أوصافا متعدّدة في الشرف، مثلما نجد كثيرا من الأمور التي تستحقّ التفرّغ لها بالبحث الممعن، إلى جانب أنها تشفّ عن شخصية الوارجلاني ذاته الغارقة في التضرّع لله وابتغاء مرضاته.

2 . انتشار التدوين في الرحلة الجزائرية

توالى رحلات الجزائريين بعد مرحلة الوارجلاني خصوصا نحو المشرق العربي، حيث تزايد حجاج هذه الأمصار، قاصدين مراكز العلم ومقاصد الحج، ولعل نشأة تدوين الرحلات قد بلغ مداه الأفق

¹⁵ - المصدر نفسه، ص 74.

¹⁶ - المصدر نفسه، ص 76.

خلال القرن الثامن الهجري¹⁷ في كافة المنطقة العربية، وبذلك راج تبني هذا الفن في كل الأمصار. وقد عرف هذا القرن -الثامن الهجري- إقبالا على تدوين الرحّالين لتجارهم في الرحلة، فقد "سجل ظهور مؤلفات في الرحلة، وهي في أغلبها رحلات مشرقية لغرض طلب العلم، أو القيام بالحج"¹⁸. ثم إن سميرة أنساعد تتحدث عن أقدم نص نثري جزائري في الرحلة الجزائرية، لصاحبه أبي القاسم بن يوسف التوجيبي التلمساني (ت 730هـ)¹⁹ مستندة في ذلك على ما أقرّه أبو القاسم سعد الله الذي يقول بأنه جزائري وإنه مفخرة تلمسان²⁰، إلا أننا لا نرى أي علاقة تنسب التوجيبي إلى تلمسان -في حدود اطلاعنا-، بل هناك أسماء كثيرة لأعلام تلمسانيين بهذا اللقب، ولكنهم لا يتفقون مع التوجيبي هذا صاحب الرحلة²¹، لا من ناحية الاسم ولا سنة المولد ومكانه، ولا سنة الوفاة، وما نشكّ فيه هو أن الأمر قد التبس على الكتّاني، الذي نقل عنه سعد الله بالخطأ نفسه، ذلك ما اتضح لنا جلياً حينما بحثنا عن سبل الحقيقة من كون التوجيبي ينتسب إلى تلمسان؟ ومن بين الدراسات التي تعرّضت لرحلة التوجيبي (مستفاد الرحلة) بحث عبد القادر العافية²² الذي تعرض لحياة التوجيبي ولم يُشر على أنه من تلمسان أو أنه استوطنها²³.

وكما أشرنا سابقا، فبحلول القرن الثامن الهجري ظهرت بعض المحاولات تّشي باهتمام الرحّالين بتدوين رحلاتهم من أجل ذكر تجربتهم العلمية والدينية وذكر شيوخهم ومن لقوهم من علماء وأولياء، واستمر الحال طيلة القرن الثامن والذي تلاه، فقد كان هذان القرنان فيه عرضا للتجربة الرحلية، من دون أن تستقل الرحلة كعمل مؤسس لرحلة منفردة، بل كانت الرحلات إن لم تكن منظومة، فهي حشوٌ يتضمّنه كتاب من كتب أصحاب الرحلات، قد يكون في التاريخ أو في التراجم أو غيرها من الفنون والعلوم، ومن بين الرحّالين الذين دونوا تجاربهم الرحلية نذكر:

2.1 . رحلة ابن مرزوق²⁴ الخطيب (ت 780)

¹⁷ - ينظر سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص58.
¹⁸ - المرجع نفسه، ص58.
¹⁹ - المرجع نفسه، ص58.
²⁰ - ينظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر ط 9، 2009، ج2، ص 396.
²¹ - وهي الرحلة المسماة بـ "مستفاد الرحلة والاعتراب" لصاحبها أبي القاسم بن يوسف التوجيبي السبتي، تحقيق عبد الحفيظ منصور، ط1، دار الكتب العربية للكتاب، تونس، 1975.
²² - رحلة الحج ولقاء الشيخوخ (التجبي نموذجاً)، عبد القادر العافية، دار ابن حزم، بيروت، 2006.
²³ - المرجع نفسه، ص7.
²⁴ - هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب (ت 781 هـ / 1379 م)، ولد بتلمسان سنة 711هـ، وارتحل مع والده إلى المشرق سنة 718 هـ، فأقام بالقاهرة وأخذ على برهان الدين الصفارقي ثم عاد إلى بلاده سنة 733 هـ فوجد أبا الحسن المريني محاصرا لتلمسان، فالتحق ببلاطه ونال حظوة عنده، فصحبه في سائر تنقلاته، وفي سنة 752 هـ أجاز إلى الأندلس، فاشتغل خطيبا بجامع الحمراء بغرناطة مدة ثلاث سنوات، ودرس بمدارسها فخطب على منبر مسجد مالقة وفاس ومراكش وتونس والقاهرة. وبعد عودته إلى تلمسان اتصل بالسلطان أبي عنان فارس ومكث في بلاطه، وفي أيام أبي سالم المريني، عظم نفوذ ابن مرزوق الخطيب، وأصبح زمام الأمر في الدولة المرينية بيده، ولما قتل أبو سالم سجن ابن مرزوق بأمر

يرجح أن ابن مرزوق ترك مصنفًا لرحلة تامة²⁵ في كتابه (عجالة المستوفز) الذي لا يزال في حكم الضياع، ذلك الافتراض يعززه ما نقله المقرئ من تفاصيل بعض من رحلات ابن مرزوق في كتابه نفع الطيب، كما يتضمن كتابه "المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن" بعضَ نصوص من رحلته. وكانت رحلة ابن مرزوق باتجاه الحجاز صحبة والده، إذ يقول: "واقضى نظر مولانا الوالد رحمه الله الانفراد، وبعثني للوطن في قصة يطول ذكرها ولمعاذير أبدأها ومعوله منها على ما صرح أبي عند وداعي له اتجاه قبر رسول ﷺ"²⁶ وقد تبين أن ابن مرزوق لم يذكر يوم خروجه نحو طريق الحج ولكنه يذكر زمن العودة حين "خرج من الحجاز متجها إلى المغرب فمرّ في طريقه بالشام، ثم اتجه صوب الديار المصرية"²⁷ ثم طرابلس وتونس ثم وصوله إلى تلمسان: "فوصلت إلى تلمسان في السابع عشر من شهر رمضان، فدخلت لمولانا رضي الله عنه في برج الكيس"²⁸ وكان عند خروجه من الحجاز قد تسلّح بنصائح والده وتوجيهه، وكانت إشارات منه على خدمة أبي الحسن المريني، وهو الذي كان عند عودته إلى تلمسان وحتى في فاس لما ضاق به الحال بتلمسان من جهة، ومن جهة أخرى لما وقع في نفس أبي الحسن من استحسان لأمر ابن مرزوق، إلى حدّ تقريبه منه في القصر وجعله مفاوضا له في أموره العالقة بينه وبين ملوك الأندلس.

كما كانت توجيهات والده أن نصحه بزيارة العلماء والأولياء بالقاهرة والإسكندرية، ومن بينهم الشيخ قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي، ومن وصيته ما يأتي: "يا بني إذا عدت إلى القاهرة فاعمل على لقاء الشيخ، وقصد زيارته والاستفادة منه، والوقوف عند إشارته كيف كانت بالاستمرار على الوجهة أو غيرها"²⁹. إضافة إلى ذلك فقد كان يختلف إلى جملة من شيوخ القاهرة. ثم ودّع القاهرة باتجاه الإسكندرية مُبحرا في مركب، ومما يرويه ابن مرزوق من حدث وقع له بالمركب ليلا هو ما ينمّ عن شخصيته الإيمانية، فقد روى أنه قد حاوره شخص بالمركب، وشكّكه في شيخه المقصود بالزيارة حتى همّ بالاستسلام له، فقال: "وكنت في كيب من أصحابنا () أقلعنا ليلا، فنام أصحابي ومنعني خوف ركوب البحر النوم، فرأيت إلى جانبي رجلا عليه زيّ الطلبة فسألني عن الحال

من الوزير الثائر عمر بن عبد الله سنة 762 هـ وبعد إطلاق سراحه توجه إلى تونس، واستقر بها خطيبا بجامع الموحدين ومقرنا ببعض مدارسها، و من أهم مؤلفاته كتاب "المسند الصحيح الحسن في أخبار المولى أبي الحسن"، توفي بالقاهرة سنة 781 هـ / 1379م.

²⁵ - ينظر أدب الرحلة الجزائريين في الخمسية الهجرية الثانية، رسالة ماجستير، عزوزي عبد الصمد، إشراف د. محمد زمري، جامعة تلمسان، 2003، ص38.

²⁶ - محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغرا، تقدم محمود بوعباد الشركة الوطنية الجزائرية سنة 1981، ص480.

²⁷ - ينظر أدب الرحلة الجزائريين في الخمسية الهجرية الثانية، مرجع سابق، ص39.

²⁸ - المسند الصحيح، مصدر سابق، ص481.

²⁹ - المصدر نفسه، ص481.

سؤال متعرف النسب والحيلة والوجه، فأعلمته، ولما أخبرته بقصد الزيارة للشيخ قابلني بالإنكار وقال لي: "مثلك ممن حصل من طلب العلم ما حصلته يعمل الرحلة وشد المطي لغير ما يشد المطي له"، فدار بيني وبينه بحث طويل³⁰ وهذا الذي ذكره ابن مرزوق كان بمثابة الوزر الذي عوقب من أجله فوقع له ولطاقم المركب حادث الغرق، ويُرجع ابن مرزوق ذلك إلى سماعه لما كان بينه وبين رفيقه من حديث، ومن ثم أعلن التوبة واستقامت نيته نحو شيخه وحسنت، وكان هذا سببا آخر في نجاته من الغرق حسب قوله: "فوقع في الحال في خاطري أنني أصبت بسبب ترددي فيما توجهت بسببه، ونويت التوبة، فسقطت على خشب يجمعونها ويربطونها بالأجفان يجلبونها إلى القاهرة كذلك، فجلست عليها فنأدى بعض أهل المركب [بعضهم] بعضا "هذا غريق"، فاحتملوني وصعدوا بي إلى مركبهم"³¹ وهذا يدل على ما في شخص ابن مرزوق الذي يسلم بالغيبيات، ويضيف أنه عندما نجا وبحث عن مُناظره لم يجد له أي أثر "وطلبنا الرجل الذي ناظرني، فوالله ما وقعنا له على خبر، ولا في المركب من رأى صفته، فعلمت أنه شيطان"³²، وقد استمر في الرحلة حتى وصل تلمسان كما ذكرنا.

ولعل ابن مرزوق لم يكن صاحب رحلة مغلقة فيها ذهاب وإياب، وإنما رحلته مفتوحة، قد كان خلالها مشرقا ومغربا، ناقلا لأخباره وأخبار العلماء والشيخوخ، كما كان ناقلا لأخبار البلدان والسلاطين، ولم تكن رحلته مقيّدة بدافع واحد وإنما تتعدّد بحسب ما كان له من حظوة اجتماعية، ومن ذلك ما كان له من أمر خدمته للسلطان المريني أبي الحسن، الذي قرّبه منه وخدمه خدمة جلييلة، إذ أن أبا الحسن كان يثق فيه كثيرا ويعترف له بالعلم والفضل، فقد بلغ به الأمر أن جعله مفاوضا له عند ملوك الأندلس.

وقد كان ابن مرزوق ذوّاقا للرؤى والمشاهد فكان لا يدع الوصف الدقيق والبليغ في رسم مشاهدته التي كانت تحدث أمام مرآه، خصوصا المنشآت التي كانت أكثر إثارة بالنسبة له والمساجد على وجه الخصوص، كمسجد أبي مدين شعيب الذي بناه السلطان أبي الحسن، وقد وجدته حين وصوله تلمسان -بعد عودته من الحجاز- على وشك التمام، والوصف ثابت في قوله: "وأما الجامع الذي بناه حذاء ضريح شيخ المشايخ، وقدوة الأئمة المتأخرين من المتصوفين أبي مدين شعيب بن الحسين، رضي الله عنه، فهو الذي عزّ مثاله واتصفت بالحسن والثاقة أشكاله، وأنفق فيه مقدارا جسيما

³⁰ - المسند الصحيح، مصدر سابق، ص484.

³¹ - المصدر نفسه، ص484.

³² - المصدر نفسه، ص484.

ومالا عظيما، وكان بناؤه على يد عمي وصنو أبي الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق وعلى يدي. الذي اشتمل على الوضع الغريب، وهو أن سقفه كلها أشكالا منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع قد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة، فلا يختلج في النفس شك، ولا يعترض لها وهم، إنها أشكال منجورة، منقوشة، وهي كلها مبنية إحكام بالآجر والفضة واشتمل على المنبر العجيب الشكل، المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس المذهب³³ وهذا ما يخلد صورة تذكارية عن مسجد أبي مدين منذ يوم إنجازه.

كما نستفيد مما جاء من وصف ابن مرزوق للمنشآت، تلميحا للإنجازات التي كانت تسند للسلطان أبي الحسن المريني، إذ لا يخلو ذكر موصوف إلى إشارة للسلطان والتعظيم من أمره كما نجده في قوله عندما وصف الأبراج التي بناها بمدينة سبتة: "ومن أعجب ما أنشأه من هذا النمط رضي الله عنه، الأبراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني وعرفاء العمارة قبل أن تنشأ، لا يتصور بناؤها على الوجه الذي قدره وأورده، فجاءت على أتم الوجوه من الإحسان، فمنها برج الماء الذي أنشأه داخل البحر ووسط الأمواج ببحر بسول من ساحل سبتة وقد حضرت إنشاءه، وكان قد اجتمع الملاء على عدم إمكان بنائه هنالك، فنقلت الصخور التي هي كالروابي والأحجار التي لا يتزحزح مثلها إلا بهندسة وأحكام وعجل"³⁴ وإضافة إلى ذلك لم يدع ابن مرزوق قلمه جانبا في إبراز المظاهر التي كان يعجّ بها قصر السلطان من عادات المولد النبوي باحتفالاتها المتميزة، بل شارك في ملأ الفراغ من هذه الناحية وذكر أوصافا لهذه الاحتفالات التي كانت سلاطين المغرب العربي كلها تهتم بها اهتماما بالغا ومن ذلك قوله: "ومن العادة أن يستعد لها بأنواع المطاعم والحلويات وأنواع الطيب والبخور، وإظهار الزينة والتأنق في إبداء المجالس. فإذا صلينا المغرب، ركع ركعات، ثم قصد مجلسه الحافل، فاستدعي حينئذ الناس على ترتيبهم، ويأمر بأخذ المجالس على طبقاتهم على أحسن وأجمل شارة، فإذا فرغ الترتيب وأخذ الناس مجالسهم، دعي بالطعام فاشتغل به على ترتيب ونظام"³⁵ ويسترسل في وصف الكيفية التي يتم بها الإطعام ومجمل المأكولات من فواكه وحلويات وغيرها من أنواع الأطعمة، وبعدها يتحدث عن الاحتفال الروحي الذي يتغذى به المجلس من خلال تلاوة القصائد النبوية "فتطير القلوب فرحا، وتسرد المعجزات وتكثر الصلوات على سيدنا

³³ - المسند الصحيح الحسن، مصدر سابق، ص403/404.

³⁴ - المصدر نفسه، ص398.

³⁵ - المصدر نفسه، ص153.

محمد صلى الله عليه وسلم، وهي من أعاجيب ما يرى في بلاد المغرب وبركاتها على هذا القبيل ظاهرة، والخيرات لا تزال بسبب الاعتناء بها عليهم متظافرة متكاثرة³⁶ ويستمر الحفل في زينة وابتهاج من أثر الشموع والبخور، ويدوم الحفل سبعة أيام "ثم في ليلة السابع مثل ذلك سواء، فإذا كان صبح يوم السابع، جلس الكتاب للعطاء للشرفاء والكبار من الفقهاء والأئمة والخطباء والقضاة الواردين، فيعطي كل على قدره كسوة تخصه، وإحسانا لبعضهم، ولم تنزل هذه السيرة، والحمد لله"³⁷، وتعدّ رحلات ابن مرزوق من النصوص التي لا تخلو من قيمة أدبية وتاريخية، فهي بمثابة المصدر الذي يجد فيه الباحث مادته في ذلك العصر، خصوصا وأن ابن مرزوق فقيه وثقة في رواية الأحداث، إلى جانب أسلوبه الأدبي الذي يرقى به إلى مصف الأدباء المتمكنين.

2 . 2 . رحلة ابن قنفذ³⁸ القسنطيني (ت 810)

تقوم رحلة ابن قنفذ على خصوصية التصوف، التي تعنى بزيارة أضرحة الأولياء، ومراكز التصوف والتبرك برجال العلم وأصحاب الكرامات، الذين طار صيتهم في الآفاق في هذا المجال، والمعروف أن أهل التصوف لهم من الوصل ومن الاتفاق ما لا يخفى على أحد، وهذا الوصل الروحي بينهم يعزّز ويقرب المسافات، ويكسّر الحدود ولا يعترف مما كان من أمر السياسات، وهذا كله نجده في رحلة ابن قنفذ الذي جعل كتابه الموسوم "أنس الفقير وعز الحقيير" المقصود به زيارة ضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب إذ يقول: "وبعد فإن الفقير إلى عفو ربه أحمد بن الخطيب، وفقه الله ولطف به قال: رغب إلي من يكرم علي من بعض إخواني في الدين في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين، نفع الله به وبأمثاله المسلمين"³⁹ غير أن الغاية من هذه السياحة كانت تتجاوز هذا الأمر، وقد حقق من خلالها زيارة للمغرب تخلّلتها زيارات كثيرة لجلّ الأضرحة والأولياء، وإنه قد ترجم في محتوى هذا الكتاب لكثير من أهل التصوّف المغاربة، وكل ذلك مبني على ما شاهده بنفسه نتيجة "اتصالاته الشخصية برجال التصوّف وذكر أخبارهم ومجاهداتهم والإشارة إلى ما يمتاز به سيرة كل واحد

³⁶ - المسند الصحيح الحسن، مصدر سابق، ص 154.

³⁷ - المصدر نفسه، ص 154.

³⁸ - هو أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ، القسنطيني الجزائري الشهير بابن الخطيب وبابن قنفذ. ولد في حدود سنة 740 هـ بمدينة قسنطينة، نشأ في بيت علم وفضل، إذ كان جده لأبيه (علي بن ميمون) إمام وخطيب مسجد قسنطينة مدة خمسين سنة، والده حسن بن علي عرف بعلمه وشغفه بجمع الكتب واستنساخها، توفي ولما يبلغ مترجما العاشرة من العمر، فتولى كفالته جده لأمه يوسف بن يعقوب الملازي. وهو من شيوخ الطريقة الرحمانية (-764 هـ) وقد تكفل برعايته وتعليمه فأكمل على يديه حفظ القرآن الكريم، كما لفته علوم العربية من نحو وصرف وأدب والحديث، ثم أرسله ليتعلم التفسير والحديث الشريف والفقاه على يد الإمامين الفقيهين المحدثين حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم ميمون بن باديس القيسي القسنطيني والفقيه القاضي الحاج أبو علي (ولد سنة 707 هـ، توفي 784م). وقد صار إمام الناس في عصره إذ تشعبت اهتماماته العلمية من فقه وحديث وتفسير وتاريخ إلى جانب كونه قاضي ورحالة.

³⁹ - ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيير، نشر وتصحيح محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1965، ص 1.

منهم⁴⁰ وقد انتشر في هذه الحقبة أمر التصوّف في بلاد المغرب حتى استفحل إلى "حركة طرقية محرفة تعتمد على الكرامات والخوارق والخرافات"⁴¹ وهو ما يعزّز من قيمة هذه الرحلة تاريخياً ويجعل لها مكانة في صف التراجم والأخبار. كما لم تكن رحلة ابن قنفذ، ذات سرد مترابط العتبات ولا متماسك الأحداث والأزمان، وإنما جعلها غير مقيّدة ومطرّدة يتحدث عن محطات مستقلة، إلا أنها تصبّ جميعها في زيارات الأولياء من أحياء وأموات زارهم في قبورهم والتبرّك بأثرهم، ومن ذلك زيارته المتعدّدة لقبر ابن عاشر ولي مدينة (سلا) الشهير، كما لا يفوت الحديث عن ما صادفه من لقاءات كـ "شبه مؤتمر صوفي بناحية دكالة، هذا التجمع الذي يقصده كل المنتمين لهذه الحركة"⁴² ولا يتوانى أيضاً في ذكر كل شاردة ولا واردة عن الصوفية وما ينمّ عن هذه الشريحة من لقاءاتها وتشعباتها، حتى إنه يحصي منهم طوائف متعدّدة، وذلك حسب نسبهم لأشياخهم، وقد أحصاهم بستة طوائف: الشيعيون، الصنهاجيون، الماجريون، الحجاج، الغماتيون، الحاجيون⁴³. كما يذكر شيئاً عن زعمائها.

ونلمس من خلال أحاديث ابن قنفذ أنه يوثّق كلامه بعبارة "رأيت" "وحدّثني" ويجعل منها لازمة تشفّ عن إبراز ذاته كشاهد على الأثر والآثار، وعن إثبات لسيرته الذاتية من خلال عرض حال، ومن جملة ذلك مثلاً، قوله: "وقد أخذت طريقه عن ولي الله تعالى الحاج أبي العباس الدكالي عن ولي الله تعالى أبي زكريا يحيى الغماتي عن الهزميري نفع بهم"⁴⁴ وقوله: "ورأيت منهم بفاس، وهو حي الآن، الشيخ الصالح الزاهد أبا عبد الله محمد المشنزائي من أرض دكالة. وهو من الزاهدين في الدنيا ومن خيار عباد الله الصالحين"⁴⁵ وقوله "ورأيت منهم بفاس الشيخ الصالح أبا الحسن علي اللجائي، ولي به معرفة ويفتقدني ويسأل عن حالي كثيراً"⁴⁶ وأمثلة من هذه كثيرة، كما يصف بعض من لقيّه ومن له من عزم في العبادة وخوف ورجاء، ومن ذلك وصفه للشيخ أبي الحسن بن يوسف الصنهاجي الذي يقول فيه: "وهناك لقيت الشيخ أبا الحسن بن يوسف الصنهاجي من آيت محبوب، ولي فخر عظيم بلقائه واغتنامي لبركته ودعائه، وكان ضخم البدن جدا ولا تكفّ له دمعة، إذا سمع آية من كتاب الله عز وجل أو حديثاً من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، أو بيتاً من شعر أو كلمة صوفية، وضع كفيّه على عينيه وأخذ في البكاء والزيادة فيه حتى يخاف

40 - المصدر نفسه، ص: ز.

41 - أنس الفقير وعز الحقير، مصدر سابق، ص: ز.

42 - ينظر أدب الرحلة الجزائريين في الخمسة الهجرية الثانية، مرجع سابق، ص 66.

43 - ينظر أنس الفقير وعز الحقير، مصدر سابق، ص 61-66.

44 - المصدر نفسه، ص 76.

45 - المصدر نفسه، ص 70.

46 - المصدر نفسه، ص 70.

عليه. وقلت لبعض الفضلاء منهم: "هذا لا يموت إلا بالبكاء"⁴⁷ ولا يخلو نص ابن قنفذ من مثل هذا الصنف من الحديث.

2 . 3 . رحلة عبد الرحمان الثعالبي⁴⁸ (ت 875)

وهي رحلة علمية كتبها على شكل نمط السير الذاتي، ليس فيها غير ذكر "رحلت إلى .." ومن لقيه من العلماء فتتلمذ على أيديهم، ونال منهم إجازات علمية، وأبرز ما في الرحلة، حديثا مطوّلا عن شيخه ابن مرزوق الحفيد الذي التقاه حين عودته من رحلته المشرقية حيث كان ابن مرزوق قاصدا الحج، فنزل تونس وكانت تلك نقطة التقاء بين الشيخين، إذ مكث ابن مرزوق ما يقارب السنة، من خلالها يذكر الثعالبي مجالسهما، وأخذه عنه وطلب منه الإجازة فأجازه، وفي ذلك يقول: "قد أجازني سيدي وشيخي إمام العلم الصدر الكبير المحدث الثقة المحقق، بقية المحدثين، سيد وقته وإمام عصره وورع زمانه، وفاضل أقرانه، أعجوبة زمانه وفاروق أوانه، ذو الأخلاق المرضية والأحوال الصالحة السنية، والأعمال الفاضلة الزكية، أبو عبد الله محمد ابن سيدنا الفقيه الإمام أبو العباس أحمد بن مرزوق أبقى الله بركته ورفع في العلماء درجته وجعل الأولياء زمرة"⁴⁹. وقد أجازته ابن مرزوق مرتين.

وكانت رحلة الثعالبي عام اثنتين وثمان مائة (802 هـ) "رحلت في طلب العلم من ناحية الجزائر من موضع يقال له يسر.. ذلك في أواخر القرن الثامن. ثم تناهت بي الرحلة إلى بجاية فدخلتها عام اثنتين وثمان مائة"⁵⁰ ومن ثم يذكر من لقيه من شيوخ بجاية. ويعدّدهم في قوله: "منهم الشيخ الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عثمان المانجلاتي وعليه كانت عمدة قراءتي ومنهم شيخنا الولي الفقيه أبو الربيع سليمان بن الحسن وعليه كانت عمدة تجويدي للقرآن"⁵¹ كما يذكر علماء آخر كثيرون.

⁴⁷ - المصدر نفسه، ص 72.

⁴⁸ - هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الثعالبي. ولد سنة 785 هـ الموافق لـ 1384 م بواد يسر شرق الجزائر (العاصمة)، نشأ في أحضان العلم والصلاح، تلقى مبادئ قراءته وتعلمه بالجزائر العاصمة. عرف الثعالبي بكثرة ترحاله فقد زار مصر وتركيا، وقصد الحجاز فأدى فريضة الحج، وكان في كل مكان رحل إليه احتكاك بأهل العلم و خلال عودته من رحلة كبرى استقر بعدها في تونس مدة من الزمن حيث كان في ملازمة ابن مرزوق الحفيد التلمساني الذي أخذ عنه في هذه الملازمة الطويلة. خلف الثعالبي مؤلفات عديدة منها كتابه في التفسير (فسره الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، وفي التاريخ (جامع المهمم في أخبار الأمم) وغيرها من العلوم. توفي يوم الجمعة 23 رمضان 875 هـ منتصف شهر مارس 1471م. ودفن في زاويته بالجزائر العاصمة حيث ضريحه بما إلى اليوم.

⁴⁹ - عبد الرحمان الثعالبي، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ويليها الرحلة، تحقيق محمد شايب شريف، دار بن حزم، بيروت، ط2005، ص 115.

⁵⁰ - المصدر نفسه، ص 107.

⁵¹ - المصدر نفسه، ص 108.

وبعد ما حقق المنى ببجاية رحل إلى تونس، وكل هذا في سبيل العلم والاستزادة منه "ثم رحلت إلى تونس فدخلتها في أواخر عام تسعة وثمانين مائة أو أوائل عام عشرة وثمانين مائة.. فوجدت أصحاب ابن عرفة متوافدين، فأخذت عنهم وحضرت مجالسهم، منهم شيخنا أبو مهدي عيسى الغبريني واحد زمانه علما ودينا وورعا، وإليه كانت الرحلة في زمانه"⁵² ولا تجد في رحلة الثعالبي سوى أنه خرج من بلد ودخل آخر، وبين ثناياهما شيوخ العلم وحلقاته، وماذا أخذ وكيف استفاد، ولا زال يواصل الرحلة حتى بلغ مصر، ودائما على النمط نفسه "ثم رحلت إلى المشرق ودخلت مصر فلقيت بها الشيخ أبا عبد الله محمد البلالي فسمعت عليه البخاري وقرأت عليه كثيرا من اختصاره إحياء علوم الدين، ثم حضرت قراءة شيء من الموطأ بمكة"⁵³ ولقد عدّ الثعالبي كثيرا من العلماء الذين اتصل بهم وأجازوه مشرقا ومغربا، كالشيخ الآبلي، والشيخ ابن مرزوق الحفيد، ووليّ الدين العراقي، كما ذكر خصالهم ومناقبهم، وبعض المصنّفات التي كانت سنده في العلم والأخذ منها، ومنهم من ذكر له من شعره. ومع هذا الذكر لجمع من العلماء والإجازات، فقد ذكر بأنه خشى الإطالة فاقتضب في حديثه ولم يسرد كل شيوخه ومروياته، مثلما يقول: "وهذا القدر كاف وقد تركت ذكر كثيرا من العلماء ممن قرأت عليه وكثيرا من مروياتي خشية الإطالة"⁵⁴. هذا، وليس في رحلة الثعالبي من أهمية أدبية أو جغرافية، وكل ما لها من الأهمية يكمن في العلم وميدانه في ذلك العصر، وهي مهمّة أيضا من حيث التوثيق، وهمة طالب العلم.

3 . ازدهار فن الرحلة الجزائري.

ازدهر أدب الرحلة على عهد الأتراك ازدهارا لم يسبق للجزائر أن عرفته في العصور التي مضت، إذ لم نسجّل في تاريخ الجزائر حجما لنصوص الرحلة مثلما سجّلناه في هذا العصر. ولعل نصوص هذه الفترة تفوق مجموع نصوص العصور السالفة قاطبة، حتى في عهود كانت فيها الثقافة والعلم في مراتب عالية مثل العهد الموحي والحمادي والزياني-مثلا-، حيث شهدت مظاهر الثقافة تميّزا وتفوّقا. وما يدعو للتساؤل هو كون هذا الإنتاج الرحلي لا يعكس مستوى الجزائر الثقافي في هذه الفترة، لأن الأتراك أنفسهم لم يهتموا بشأن الثقافة والعلم في الجزائر لأسباب مختلفة منها الصراع في مجابهة الأعداء "لأن جهود الأتراك كانت متجهة نحو حركة الجهاد ضد القرصنة والمعتدين على البلاد، فلم يعطوا الأمر

⁵² - المصدر نفسه، ص 109.

⁵³ - رحلة عبد الرحمان الثعالبي، مصدر سابق، ص 110.

⁵⁴ - المصدر نفسه، ص 126.

الثقافة ما يستحقه من عناية واهتمام ولهذا غلب على عهدهم طابع الجفاف الفكري⁵⁵ الذي أسهم في اكتساح الطبقات العامة للمجتمع وإضعاف قدراتهم المعرفية التي تشجع على العلم والمعرفة والتحفيز على ذلك "فكثرت المحن وتألّت الجزائر. فالأدب هو الآخر أخذ الضعف يدب في مفاصله، وقلّ رجاله، ولم يبق من الحركة الفكرية التي طالما ازدهرت قبل هذه الفترة إلا ذلك البصيص النافذ من بيوتات عرفت بالعلم من قديم"⁵⁶ وهو الذي حافظ على بعض القيم الحضارية للمجتمع الجزائري، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه لم يكن للجزائريين طمع في إمداد الدولة لهم بوسائل تعليمية، وتجهيزات وبرامج لأجل ذلك، فبد السلطنة الحاكمة كانت مغولة على الثقافة والتعليم، ومن ثم "كان التعليم حرا من سيطرة الدولة ومن سيطرة الحكام العثمانيين، فكان سكان كل قرية ينظّمون بطرقهم ووسائلهم الخاصة تعليم القرآن والحديث والعلوم العربية والإسلامية لأن دراسة هذه العلوم هي السبيل إلى معرفة وفهم أسرار الدين والقرآن والسنة"⁵⁷ ومن جهة أخرى لم تترك السلطنة الحاكمة أمر الناس في تولى أمورهم العلمية وإنما قامت بتأسيس دور ومراكز للتعليم، ولم يكن للأتراك نية بريئة تجاه هذا المظهر، حيث إن السياسة العثمانية عملت على "تأسيس كثير من الكتاتيب والمدارس والجوامع، ودور الكتب في مختلف المدن، وقد كان للعثمانيين هدف واضح من وراء ذلك يتمثل في العمل على نشر وشيوع المذهب الحنفي بين أهل المغرب، ومحاولة إضعاف المذهب المالكي. الذي كان يمثل المذهب الرسمي لأبناء المغرب، كما كان متمكنا من نفوسهم بينما كان المذهب الحنفي يعتبر دخيلا على البلاد، ويعد مذهبا للحاكمين"⁵⁸ فقد أدرك الأتراك مدى المذهب المالكي في تمتين روابط الوحدة الجزائرية والمغربية عامة، فكانوا يخططون لقلب الأوضاع من أجل السيطرة الكليّة على الأهالي وضمّهم تحت نفوذها، وليس لهم من ذلك أي هدف ثقافي أو علمي وإنما مراعاة لمصالحهم الخاصة. وفي خضم هذا المعترك عاشت الجزائر أقسى مراحلها عُسرا فقد استشرت العلل الكثيرة والأمراض الجمّة، حيث لم تتوقّف عنها الحروب، ولم تهدأ عنها الدّسائس والمؤامرات، فأطبق عليها الجهل إذ لم تُشيد بها مراكز علمية، ولا معاهد تكوينية، فانكسر الأدب وأصبح الشعر ضعيفا تعليميا في غالبه، والنشر ثقيلًا متكلّفًا بسجعه.

وإذا كان هذا حال الأدب في هذه الفترة من تاريخ الجزائر الثقافي، فإنه قد تحقّق في الآن نفسه تدوين كثير من الرحلات حيث "أسهم الجزائريون مساهمة واضحة في كتابة الرحلات لاسيما خلال

⁵⁵ محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969، ص 218.

⁵⁶ المرجع نفسه، ص 225.

⁵⁷ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 3، 1982، ص 159.

⁵⁸ عبد الرحمان عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني، منشورات المجلة التاريخية التونسية، تونس، ط 1، 1982، ص 24.

القرن الثاني عشر (18م)⁵⁹ وبذلك يكون الحديث الذي عقدناه حول ضعف الحالة الثقافية والعلمية في حياة الحكم العثماني للجزائر، لا نراه يتوافق مع ما كان للجزائر من نشاط رحلي وإسهامات في أدب الرحلة الذي يعدّ إسهاما ثقافيا بالدرجة الأولى. فما تفسير هذه الظاهرة المتناقضة؟

تقتضي منّا الإجابة على هذا السؤال البحث عميقا، وليس في مثل هذه العجالة التي نريدها بسطا لموضوعنا الأصلي الذي يركّز على أدب الرحلة الجزائري الحديث، ومع ذلك نشير إلى أهم المواطن التي نراها ذات صورة تقريبية للإجابة على هذا الموضوع الكبير، فنقول، إن من أهم عوامل انتشار تدوين الرحلات في مثل هذه الظروف يتمثل في الآتي:

- لقد كانت الرحلة عبارة عن تقليد سارَ عليه مثقفو المغرب العربي، حيث توارثته الأجيال، جيل عن جيل، فأصبح يمثل حلقة من حلقات الثقافة في ذلك العصر، ولعل ما يبرّر ذلك هو اعتماد كل رحّالة في تدوين رحلته على رحلات سابقيه مع الرحالين وتقليدهم فيما دونوا، ومن ذلك مثلا ما نجده في رحلة أبي راس الناصري في قوله: "وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير، والأسانيد الجماهير: كرحلة ابن رشيد السبتي، والخطيب المرزوقي، ورحلة أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي..."⁶⁰، كما اعتمد الورتلاني أيضاً على مجموعة هامة من الرحالين كالبكري والمقريني والعبدي والدرعي، والعياشي، كما نجده في قوله: ".. مما فتح به عليّ أو منقولاً من الكتب سيما وأن اعتمادني في ذلك على رحلة شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري، هذا وإنّي أنقل أيضاً من بعض كتب التاريخ"⁶¹.

- الرحلة لا تعبّر عن قوة الثقافة أو ضعفها بالكم وإنما انطلاقا من مضمونها الذي تقاس به مستويات الكتابة التي تعبّر به عن مستواها الفكري والأدبي، أو من خلال الموازنة بين المرجيات المحمّولة وثقافة الآخر.

- إن نسبة الرحالين الجزائريين لوطنهم الأصلي لا يدلّ على أن هؤلاء الرّحّالين عاشوا طوال حياتهم عاكفين فيها، وإنما قضى هؤلاء غالب عمرهم راحلين عن وطنهم الأصلي وتفرّقوا في البلدان المجاورة أو البعيدة، ومن ثم حصل لهم تنوع ثقافي وتحصيل علمي كما أن أغلبهم أخذ تكوينه من بلدان مجاورة ومنهم من أتم علمه بتلك الديار، ووسّع بها معارفه ومداركه، أما الذين أطلّوا المكوث في الجزائر

⁵⁹ ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج2، ص 381.

⁶⁰ - أبو راس الناصري، فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح. محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1998، ص، 91.

⁶¹ - الحسين بن محمد الورتلاني، نزهة الأنظار في علم التاريخ والآثار، نشر محمد ابن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008، ص 13.

فأكثرهم كان يعيش الحرمان والفاقة من عدم اكتراث السلطات به، مثل ما حدث مع أبي راس الناصري المعسكري.

- تعد الرحلة وعاءً لعصرها، فهي تعبّر عن أدب ذلك العصر وخصوصياته، لذلك نجد الرحلة في المرحلة العثمانية انتابها الضعف من الجانب الأدبي، فكثرة نصوصها المدونة لا يشي بقوتها الأدبية وإنما فائدتها الجمة كانت من حيث حضورها التاريخي والحضاري، فهي تعد وثيقة ومصدرا تاريخيا بالدرجة الأولى ثم من درجة أقل مصدرا من مصادر الأدب.

- كما أن معظم الرّحّالين متصوّفة من أهل الزوايا ليس لهم احتكاك ولا مصلحة بالسلطة كالكورتلاني وابن حمادوش وغيرهما، وهم لا يمثلون الاتجاه العثماني ولا توجيهاته.

وقد كانت الرحلة الجزائرية في العهد التركي ذات نمطين: شعري ونثري، فمن الرّحّالين من استهوتته الكتابة حول تجربته الرحلية نثرا فعبر عن ذلك في سرد وقائع تلك الرحلة، ومنهم من استهوتته كتابتها شعرا أو نظما، فنظم قصيدة ذكر فيها مراحل سفره، وأشواقه وحنينه، وهي في جملتها كانت رحلات حجازية كرحلات كل من (المنداسي، المجاجي، ابن مسايب، المصعبي، محمد بن يوسف أطفيش...). أما الرحلات النثرية فقد تنوّعت بين العلمية والحجازية ودوافع شتى، وفي هذه العجالة سوف نتعرض للرحلات النثرية دون المنظومة بإطلالة بسيطة حتى يتسنى لنا الحصول على صورة تقريبية عن أدب الرحلة الجزائري في هذا العهد، والتي تميزت فيه، إضافة إلى الدافعين الأساسيين الذين تماشوا مع طول مسيرة الرحلة الجزائرية - وأقصد بهما الدافع العلمي والدافع الديني (الحج) - دوافع أخرى في هذه الفترة كالدافع الاستكشافي والدافع التقريبي.

3 . 1 . الرحلات الحجازية

تتصدر الرحلات الحجازية قائمة الرحلات المختلفة، إذ لم يتخلّل الرّحّالين الجزائريين الضعف طيلة مكثهم تحت لواء الإسلام إلى يومنا هذا، فيما يتعلق بالسفر لأداء فريضة الحج والشوق للقاء الرسول ﷺ ، ومما يلاحظ على الرّحلة الجزائرية في هذه الفترة أنها تميزت بكثرة الإنتاج وتنوع الطبوع، ومن ذلك الرحلات النثرية التي تحدّد مسار الرحلة، والمدن التي اجتازها الرّحّالون والعلماء الذين لقوهم ومختلف ما يجده الرّحالون من مظاهر وانطباعات، وإلى جانب الطابع النثري امتازت الرحلة الجزائرية بكثرة المنظومات التي تجد فيها كثيرا من الأشواق والحنين والحب للرسول ﷺ ، ولذلك فقد كانوا يسجّلون عواطفهم المتأججة لرؤية أرض الحجاز والتبرّك بترابها وهوائها، فمنهم من نظم فيها شعراً، ومنهم من أسغفه عنها نثراً، ولكل منهم غاية ومقصد حسب ما تمليه عليه عواطفه، وميله في التعبير.

وفي هذا المقام سوف نعرض لبعض الرّحلات الثرية لأهميتها وندع الحديث عن المنظومة، حتى لا نستغرق في الحديث ويطول بنا الطريق، ونتيه في مسالك متشعبة، تتسع خلالها رقعة البحث.

3. 1. 1. رحلة المقرئ⁶² (ت 1040هـ)

يتصدر أبو العباس المقرئ التلمساني قائمة الرحالين الجزائريين في العهد التركي، إذ تعدّ رحلته باكورة الأعمال الرحلية في هذا العهد. والباحثون كلّهم يتناولون رحلة المقرئ من خلال ما كتب وأسفر عن رحلته في كتابه الشهير "نفع الطيب" أو كتابه الآخر "أزهار الرياض". وحديثا قام الباحث محمد بن عمر بتحقيق كتاب يتناول رحلة للمقرئ فلما تبين له من أمره يسرا، وأسمه بعنوان مناسب "رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق" وطبع بمكتبة الرشاد بسيدي بلعباس (الجزائر) سنة 2004.

ولعل المقرئ من العلماء والأدباء الذين يشار إليهم في عصره، لذلك تعدّ رحلته ذات شأن كبير في الوسط العلمي والأدبي، فقد تضمنت رحلته هذه، معلومات هامة، تتعلق بحياته الشخصية في كل من البلدان التي زاول فيها نصيبا من الحياة العلمية والشخصية كتلمسان والمغرب ومصر والشام والحجاز. كما يجد فيها الباحث حيزا مهما مما يتعلق بالحياة الثقافية والأدبية في عصره، كما لا يهمل المقرئ الجانب التاريخي عن بلاد المغرب وأرض الحجاز واليمن، وهي من العناصر الهامة من حيث مصدرية المعلومات، كما أنه عالج فيها بعض القضايا الفقهية والمسائل الدينية⁶³. وقد ركز في حديثه عن مظاهر الحياة العلمية، فوصفها وصفاً ينم عن خبرة وثقافة عاليتين لم نلمسهما عند من سبقه من الرحالين.

وللمقرئ رحلتان واحدة إلى المغرب وأخرى إلى المشرق "وفي خلال حديثه عن رحلاته إلى مدائن المغرب، كان حريصا على أن يبرز لنا نبأ زيارته لقبور الصالحين والعلماء المشهورين هناك، كما كان هذا شأنه في زيارته لبلاد المشرق"⁶⁴، بيد أن رحلة المقرئ إلى المغرب، كانت سنة متواترة عند آل المقرئ الذين خدموا سلاطين المغرب بداية من الجدد "أبي عبد الله محمد المقرئ الذي خرج من موطنه تلمسان قاصدا فاس أيام السلطان أبي عنان في القرن الثامن الهجري، فولاه السلطان قضاة الجماعة"⁶⁵.

⁶² - المقرئ، هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقرئ التلمساني، (992 هـ - 1041 هـ = 1584 - 1631 م)، أديب شاعر وعالم فقيه صوفي، ولد ونشأ في تلمسان، ثم انتقل إلى فاس (المغرب)، فكان خطيبها والقاضي بها. وبعد زمن قضاه بالمغرب شد الرحال إلى القاهرة عام (1027) ومنها إلى الشام والحجاز، توفي بمصر ودفن بها. خلف المقرئ كتبا كثيرة ذات قيمة كبيرة ففي مجال الأدب أبرزها كتاب نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وكتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض.

⁶³ - ينظر رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، تحقيق محمد بن عمر، دار الرشاد سيدي بلعباس الجزائر، 2004، ص 9.

⁶⁴ - محمد عبد الغني حسن، المقرئ صاحب نفع الطيب، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، دت، ص 26

⁶⁵ - المرجع نفسه، ص 27.

أما رحلة المقرئ إلى المشرق فقد نلمس من خلال حديث (محمد عبد الغني حسن) أنه كان ذا حظوة عند السلطان زيدان، ومن ذلك حين أراد مغادرة فاس قام بشيء فيه حكمة وذكاء، حيث يقول: "والذي يلفت النظر في رحلة المقرئ من المغرب إلى المشرق أنه جرى فيها على سمت المواطن المستقيم، والسياسي الحكيم الذي يغادر وطنه في الخفاء، أو يتركه على طريق التسلّل.. فقد اتخذ من الحج وأداء الفريضة بالحجاز سببا لرحلته"⁶⁶ ولم يقدم محسن عبد الغني دليلا ملموسا على مغادرة المقرئ لفاس على هذا التوقع، وفي اعتقادنا أن هذا الأمر لا يستقيم مع عالم لازم سلطانا عالما، إلا إذا افترضنا أنه تضايق من أمره أو أراد أن يغيّر الأجواء باتجاه المشرق.. فكانت رحلة المقرئ عبر البحر، وقد لقي فيها معانات شديدة لهول واضطراب البحر، حتى عانى الركاب من هذه السفرية.

والمميز في رحلة المقرئ احتواؤها على عدة أجناس أدبية إلى جانب التوثيقية، والبحوث المهمة، فقد تضمنت مخاطباته ومساجلاته ومراسلاته مع أعيان عصره، من فحول الأدباء والشعراء، والعلماء والفقهاء، والقضاة والأمراء ورجال الإفتاء من المغرب العربي ومصر وأرض الحجاز وبلاد الشام، ومن هؤلاء: محمد بن يوسف الكلشني، وإبراهيم بن محمد الأكرمي، ومحمد بن علي الحريري، وأبو بكر الدلائي وابنه محمد، وفتح الله بن محمد البيلوني، ومحمد بن راس العين، وسعيد قدورة، وأيوب بن أحمد الخلوئي، وأحمد شهاب الدين الغنيمي، وغيرهم من الأعلام الأعيان الذين حفلت بهم الرحلة⁶⁷. وأكثر ما نجد في الرحلة: القصائد الشعرية التي نظمها هو نفسه أو شعراء زمانه، وكثرة التلغيز التي صارت ظاهرة أدبية في عصره.

3 . 1 . 2 . رحلة ابن عمار⁶⁸ (1166هـ / 1752م)

يعد ابن عمار من أهم العلماء الجزائريين في عصره، فهو الفقيه والعالم المحدّث والمؤرخ، والأديب والشاعر والرحالة، ومن أعماله الرحلية، رحلة حجازية سماها "نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب".

ومما يحمد ويؤسف له في الآن نفسه أن الرحلة وجدت ولكنها مبتورة. لقد دوّن ابن عمار رحلته في ثلاثة أجزاء، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة أطلق عليه اسما، أما القسم الأول فأطلق عليه اسم

⁶⁶ - المرجع نفسه، ص 31.

⁶⁷ ينظر رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، مصدر سابق، ص 13-14.

⁶⁸ - هو أبو العباس أحمد بن عمار بن عبد الرحمان بن عمار الجزائري، عالم صوفي وأديب شاعر، ولد ونشأ بمدينة الجزائر في حوالي سنة 1119هـ / 1707م، وعاش إلى ما بعد سنة 1205هـ / 1790م ولم تحدد المصادر تاريخاً معيناً لوفاته، درس على يد الشيخ محمد بن محمد المعروف بابن علي، أوكل منصب الإفتاء بمسقط رأسه، وبعد أداء فريضة الحج في أوائل سنة 1166هـ / 1752م، مكث بالرحميين الشريفين مدة عشرين سنة وصل فيها حتى سنة 1172هـ / 1758م () وهذه الإقامة الطويلة أكسبته ثقافة واسعة وعلم غزير، ليواصل تنقلاته بين مصر تونس والجزائر لعدة مرات.

"مقدمة"، أما الثاني "غرض مقصود"، والثالث "خاتمة". وما يؤسف له هو أن الجزأين الثاني والثالث هما في حكم الضياع، وما توفر إلا الجزء الأول المعروف بالمقدمة، وهو كتاب كبير الحجم عرض فيه عن مقصده في الرحلة، والتحدث فيها عن دواعي الاستعداد النفسي والروحي لزيارة بيت الله، في صورة إبراز حبه للرسول الكريم ﷺ، ووصفه أشواقه للبقاع المقدسة، فقد تطرّق في هذا الجزء -المقدمة- إلى الحديث عن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بالجزائر قديماً وحتى عصره وعن عادة الأندلسيين في ذلك، مدعّمه بالعادات الاحتفالية، ثم أغرقه بالحديث عن الشعر المولدي أو ما يُعرف بالمديح النبوي، بعد أن تحدّث عن دواعي الرحلة وسبب تسميتها بـ: «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب»، مفصلاً القول في شرعية الحج مستدلاً ومستشهداً بآيات قرآنية وأحاديث مأثورة، وعبر عن عزمه على الحج تلك السنة أي في أوائل سنة 1166هـ/ 1752م.

وقد يجوز أن نعتبر هذه المقدمة دراسة أو مصدراً من مصادر المولديات في الشعر الجزائري والعربي في محطات هامة من تاريخ الأدب العربي إلى عصر ابن عمار، فقد تراوحت القصائد فيها وأكثرها من الطوال عدداً معتبراً لمغاربة ومشرقيين، مع ترجمة للعديد من الأدباء والشعراء من أهل بلده وغيرهم.

3 . 1 . 3 . رحلة الورتلاني⁶⁹ (1194هـ/ 1780م)

إن الحديث عن الورتلاني في الرحلة الجزائرية قديماً أو حديثاً، هو الحديث عن سيّد الرحالين الجزائريين وأميرهم، فقد اشتهر الورتلاني بالرحلة أكثر مما اشتهر بغيرها بالرغم من كونه عالماً فقيهاً ومتصوفاً كبيراً.

وتعتبر رحلة الحسين الورتلاني واحدة من رحلات المغاربة خلال القرن الثامن عشر الذي يوافق فترة الحكم العثماني، ولعلها واحدة من أهم الرحلات التي أرادها صاحبها حجازية وعلمية فجمعت بين أدب الرحلة والكتابة الجغرافية وتدوين التاريخ. والمتأمل في عنوانها يدرك جملة مضامين احتوتها الرحلة، وهو "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار". ومن ثم كانت رحلته نصّاً تاريخياً مختلفاً عن كتب التاريخ العام أو الخاص فهي تتحدّث عن تاريخ حي معيش دوّن فيه صاحبه حياة الناس وبيئتهم

⁶⁹ - هو الحسين بن محمد السعيد المعروف بالورتلاني نسبة إلى قرية بني ورتلان، قرب بجاية، ولد سنة 1125هـ/ 1713م، ينتمي إلى أسرة عريقة شريفة اشتهرت بالعلم والتصوف والتدريس والإصلاح، تولى بزوايا بلده، ثم شد الرحال إلى المراكز العلمية المشهورة، فاغتنم فرصة سفره للحج ووثّق صلته بعلماء تونس وطرابلس ومصر والحجاز. ومع كثرة رحلاته وشغفه لنيل المعارف أصبح الورتلاني عالماً من أعلام عصره في القرن الثاني عشر هجري، لثمتمعه بثقافة واسعة في فنون مختلفة، فكان عالماً في الفقه والتصوف والتوحيد والتاريخ والنحو والبلاغة والأدب وغيرها من العلوم. ينتمي الورتلاني كونه متصوفاً إلى الطريقة الشاذلية، إلى جانب الطريقة الخلوتية، وجمعه بين الطريقتين يعود لتقارب في الأفكار والتعاليم وقلة الفروع بينهما، وكانت حياة الورتلاني مليئة بالحراك ما بين التدريس والتأليف والترحال، حتى وافته المنية عام 1194هـ/ 1780م.

ومعاشتهم، وبذلك استحكمت أن يكون في بنائها تاريخا اجتماعيا وثقافيا، فقد "التزم بالصدق في كل ما أورده من أحداث ووقائع، فهو يدلي برأيه بكل صراحة ويجاهر بالحق إن رأى في ذلك مصلحة"⁷⁰ وقد كان الورتلاني عامدا على كتابة رحلته منذ البداية، فقد اشتغل بكل أمور ما ينسج به مادته الرحلية وكأنّ أمرا ما كان يدور في خلدته، أو يشعر القارئ أنه تأسف على الرحلات التي خاضها ولم يدونها، فقام بنهم كبير يخصص كل كبيرة وصغيرة، ويأتي بمعلومات مضافة من مصادر أخرى منها الرحلات السابقة وكتب التراجم والتاريخ والجغرافيا، ولعله -حسب مختار بن الطاهر الفيلاي- قد اقتبس كثيرا من رحلة الدرعي الناصري الذي هو بدوره اقتبس معلومات مدونته من رحلة العياشي، بخصوص بعض الأماكن التي تحدث عنها، بعضها في تونس وبعضها في ليبيا وأخرى أيضا، قد أوقعته في الخلل⁷¹.

وتعدّ رحلة الورتلاني مصدرا من مصادر التاريخ الجزائري والعربي، من نواحي متعدّدة، منها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، خصوصا ما يتعلق بالجزائر "وخاصة منطقة بلاد القبائل فهو يرسم صورة واضحة لما كان يجري بها نظرا إلى أن هذه المنطقة كانت في عزلة عن السلطة السياسية في البلاد؛ إذ اكتفت هذه السلطة بأن طوقتها بسلسلة من المراكز العسكرية وضعت في كل منها حاميات من الجند لمراقبتها ومحاصرتها"⁷². كما نجده قد اعتمد كثيرا على مصادر في هذا الشأن سواء في نصوص الرحالين الذين سبقوه كالعياشي والدرعي والتيحاني والعبدي، أو المؤرخين كالبكري وابن حوقل والسيوطي وغيرهم، وفي ذلك يرجع (ناصر الدين سعيدون) هذه العودة إلى المصادر التي اعتمدها الورتلاني من أجل "تحري الحقيقة فهو لا يكتفي بما شاهده أو رُوي له بل يلتجئ في بعض الأحيان تأكيداً لروايته أو استكمالا لوصفه إلى الاقتباس من كتب الرحالين السابقين"⁷³ في حين يرى (مختار فيلاي) عكس هذا ويزعم أنها من عثرات الورتلاني الذي أصاب نصّه بعض العيوب التي لم يسلم منها جزاء عدم التحري، وقد اقتبس ما يعادل نصف كتابه الضخم، "وهو في غالب الأحيان يهمل اسم المصدر أو صاحبه، مع الاقتباس غير المنظم، حيث نجده ينقل صفحات عديدة دون نقدها أو التعليق عليها، وسواء كانت موضوعة أم لا"⁷⁴. ولقد حرّر فيلاي في كتابه مبحثا خاصا بالاقتباسات التي اعتمدها الورتلاني ومن ثم انتبه لأمره وكأنّه شَعَرَ بالاستطراد يقول "وربما يتساءل القارئ أو الباحث

70 - ناصر الدين سعيدون، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص420.

71 - ينظر مختار بن الطاهر فيلاي، رحلة الورتلاني - عرض ودراسة -، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1998، ص 62-63.

72 - المرجع نفسه، ص 5-6.

73 - من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص420.

74 - رحلة الورتلاني - عرض ودراسة -، مرجع سابق، ص59.

لماذا هذا الاهتمام الكبير باقتباسات الورتلاني؟ فنقول: إننا قمنا بذلك حتى نصف الورتلاني، ونسجّل ماله وما عليه، ولنرفع الستار عن الغموض الذي يسود الرحلة، والذي جعل بعض الباحثين ينسبون أشياء للورتلاني، بينما الحقيقة ليست له، و إنما نقلها عن غيره⁷⁵ كما يُبيّن في مواضع أخرى عيوب هذه الاقتباسات التي أتت مضطربة في موضوعاتها.

وعلى الرغم من هذا الذي نبّه إليه فيلالي، فهو لا ينقص من شأن الرحلة التي تعدّ مصدرا هاما من مصادر الدراسة التاريخية والثقافية للمجتمع الجزائري والعربي عموما في فترة حرجة من تاريخهم، خاصة وأنها فترة تفتقر إلى مصادر مهمة في هذا الشأن، "فهي تسجيل حي للوضع الاجتماعي والاقتصادي ووصف دقيق للمسالك والعمران ومحطات القوافل ونقاط الماء وصورة صادقة للواقع الثقافي، ولعل أهم ما يميز به الورتلاني في هذا الجانب هو ترجمته للعديد من صلحاء وعلماء ومشايخ وطنه"⁷⁶.

والمميز في كل الرحلة هو شمولها على ثقافة عصره من علم بالتاريخ وخصوصية في الأدب، وملامح البيئة، والصراعات الاجتماعية السائدة، وغيرها من الأمور التي ربما يتغافل عنها التاريخ، ومن جهة تؤسّس لرؤية أدبية من حيث الصنعة النثرية وصياغة أسلوب وبنى أفكار لذلك العصر.

وقد أهتم الورتلاني منذ شروعه في الرحلة تدوين ملاحظاته الشخصية كما قام بتسجيل كل ما رآه في بيئته القريبة والبعيدة من الجزائر، كما اعتمد أيضا على الرواية الشفوية لأكثر شيوخ وعلماء الزوايا في مختلف مناطق البلاد، وكان كلّما توقّفت قافلته لنيل الراحة، أخذ أوراقاً يسجّل فيها ملاحظاته ومادته حتى لا تضيع من ذاكرته، ولعله جمع الكثير من الأخبار عن الأعيان والعلماء في كل بلاد زارها باتجاه الشرق في تونس وليبيا ومصر وغيرها من البلدان، كما تعدّ الرحلة بتميزها من حيث الصورة التي خلدها لمجتمعها الذي كان يرنو تحت خط الانكسار الثقافي وبذلك يكون تسجيله مهمّا لذلك الوضع القائم، فقد انتقد ذلك الوضع وأعاب عليه كثيرا. وفي جملة يلخص لنا الورتلاني رحلته ومضمونها من خلال قوله: "لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرباع والقفار والديار، والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان، من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخيار، والأشياخ العارفين والإخوان والمحبين والمحبوبين من المجاذيب المقربين والأبرار، من المشرق إلى المغرب سيّما أهل الصحو والمحو إذ ليس لهم مع غير الله قرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها

⁷⁵ - المرجع نفسه، ص 69.

⁷⁶ - من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص 421.

الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية، مع ما فيها من التصوف مما فتح به عليّ أو منقولاً من الكتب سيّما وأن اعتمادني في ذلك على رحلة شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري، هذا وإنّي أنقل أيضاً من بعض كتب التاريخ⁷⁷ وقد قام الورتلاني قبل السفر أو قبل الرحلة الرسمية، برحلة تبرك وزيارة لبعض العلماء والأولياء الصلحاء من مناطق عدة من ذلك منطقة الزيبان، ومدينة بجاية أين التقى بعلمائها الأولياء، ومن بجاية عاد إلى أهله استعداداً للحج. ثم يتحدّث عن مزايا الحج ومساره الذي لا يخلو من الطرائف والشوق إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي المختار، إضافة إلى حديثه عن كل بلد ينزل فيه، ومن ذلك حديثه عن مصر التي خصّها بشيء من الحبور والإطناّب الساحر مما يدل على أنه تأثر بمصر كثيراً، ولقد حقّق قوله شهيرة عند المصريين الذين يقولون في شعارهم الشهير "يا داخل مصر منك الكثير" وهو ما يجسده الورتلاني بشيء من الدقّة من خلال ما نصّه في هذا القول: "أمر مصر غريب وعجيب في كل الأصناف والأنواع والأجناس، مهما رأيت جنساً فيها إلا قلت إن هذا الجنس هو الذي في مصر، فإذا رأيت العلماء قلت لا جاهل في مصر، وإذا رأيت الأغنياء قلت لا فقير وإذا رأيت الأشياخ وأصحاب الأوراد قلت هم أهلها. وكذا أهل الصنائع والحرف فما وَرَدَتْ قومًا أو سوقاً أو نزاهاً إلا قلت أهل مصر موجودون فيه. وهذا من عجائب مصر، فإن كل ما رآه العبد إلا قال هذا هو الموجود فيها، لأن مصر تُغني عن الغير ولا يستغني الغير عنها... فليعجب منها المتعجبون وكيف لا وأنها ذكرت في القرآن كذا وكذا مرة، فهي جنة لأهل الخير ونار في المآل لأهل الشر يحسبها المتأمل أنها جنة فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وأرزاقها أكثر من خلقها، ومع كثرة أرزاقها إن من سدّ عليه الباب في الرزق يدور الأسواق والدكاكين والوكالات والمساجد وغيرها هذا من عجائبها"⁷⁸ ولعل ما يميّز به الورتلاني هو الصدق في الحديث والصفاء في الشعور، ولقد نجده مغرقاً في حديثه عن وصف الحالة التي تنتابه حين رؤيته لمعالم إيمانية أو حديثه عن شخصيات علمية أو دينية خصوصاً الشخصيات المتصوفة. أما بخصوص البقاع المقدّسة فقد أهتم بنشر عاطفته جياشة فوق معالم نصه الرحلي، وهذا لا يعني أن السفر إلى الحج كان يتم براحة وحب واطمئنان وأمان، وإنما الورتلاني في حديثه لا يترك شاردة ولا واردة إلا أحصاها، حتى يبيّن لنا أن السفر إلى الحج كان يتمّ عبر طريق محفوف بالمخاطر، نتيجة السلب والنهب الذي كان يمارسه قُطّاع الطرق

77 - نزهة الأنظار في علم التاريخ والآثار، مصدر سابق، ص 13.

78 - نزهة الأنظار في علم التاريخ والآثار، مصدر سابق، ص 560، 561.

على الحجاج، فقد كان الحاج يتسلح بما يلزمه الدفاع عن نفسه، وتوقع هذه العمليات من باب أولى حتى لا تكون المفاجأة عليهم، وقد روى الورتلاني شيئا من هذا فقال: "رأينا جموعا من العرب أصابنا منها خوف شديد لأنهم لا يغادرون أحدا إلا قتلوه وأخذوا ماله وذلك معلوم ضرورة، فاستعدنا لهم مع الخوف الشديد"⁷⁹ هذا حتى لا يظن أحد أن رحلة الحج قديما كانت تتم بطريقة لائقة وممكنة ويسيرة، وإنما الحذر كان سيّد الموقف مع أن الحاج لا يمكنه السفر وحده ومن ثم أستحدث الحجاج ظاهرة "الركب" أو القافلة، مع التزوّد بالأسلحة كما حدث مع رحالتنا حيث كان معهم اثني عشر بندقية⁸⁰ حتى إنه في بعض المحطات ينسبنا عن قدسية الحج جرّاء حديثه عن ظاهرة اللصوصية وانعدام الأمن، الشيء الذي يجعل من الرحلة بؤرة لظواهر مختلفة، ومشحونة بالمغامرات.

3 . 2 . الرحلات العلمية

3 . 2 . 1 رحلة ابن حمادوش⁸¹ الجزائري

إن المتفق بين الدارسين في مجال الرحلة الجزائرية، أن رحلة ابن حمادوش المعروفة بـ"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" مبتورة -منقوصة- وما وصلنا منها إلا الجزء الثاني، أما الجزء الأول فيعدّ مفقودا حاليا.

وقد كانت رحلة ابن حمادوش رحلة استثنائية في تاريخ الرحلة المغاربية حيث خالف صاحبها المسلك فاتجه على نقيضهم، وهي قريبة من كتابة المذكرات واليوميات، كما يقول أبو القاسم سعد الله بأن صاحبها سماها رحلة⁸² ولكن هذا لم يقلل من شأنها كونها رحلة ما دامت تعتمد على بنية السفر في تأسيس نصّها، ولعل (سعد الله) انطلق من كون ابن حمادوش أسهب في حديثه عن نشاطه الشخصي في الجزائر، ولكن حديثه أيضا عن سفره إلى المغرب كان فيه ما يبرّر نصه الرحلي. وأما عن دافع هذه الرحلة فهو مزدوج بين طلب العلم والتجارة، ومن ثم غادر مدينة الجزائر باتجاه تيطوان ومكناس وفاس، ثم عاد بعدها إلى الجزائر.

79 - المصدر نفسه، ص 449.

80 - المصدر نفسه، ص 449.

81 - هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد، المعروف بابن حماد وش الجزائري، ولد في مدينة الجزائر سنة 1107 هـ (1695م) وتوفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان وتاريخ مجهولين. درس في وطنه ثم ترحل إلى بقاع مختلفة للحج وطلب العلم. مشرقا ومغربا، عاش ابن حماد وش فقيرا كما أنه عاصر أحداثا هامة في بلاده وفي العالم، خصوصا المحاولات للهجومات والغارات الاسبانية المتكررة على الجزائر. وأهم ما يميز شخصية ابن حمادوش هو تمكنه من العلوم الشرعية واللغوية، فهو طبيب وصيدلي ومهتم بعلم الحساب والفلك.

82 - أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982، ص 69.

وقد كان خروجه من ميناء الجزائر في 14 فبراير 1743 إلى مدينة تيطوان مروراً بجبل طارق، كما شهدت الرحلة وصوله فاس والتقاءه بعلمائها. وقد أورد في حديثه عن المغرب الأقصى وصفه للحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية ولقاءاته بالعلماء ومجالسته للفقهاء ومناقشتهم وتحصيله للإجازات. أما من الناحية السياسية فيتحدّث عن الصراعات حول السلطة بين حاكم تيطوان وسلطان المغرب، وينقل بعض عادات المغاربة وغرائبهم خاصة في فاس.

ويقسّم أبو القاسم سعد الله مضمون رحلة ابن حمادوش إلى ثلاث وحدات: "الحوادث، والعادات، والعلماء"⁸³ فقد كان ابن حمادوش يتحدث عن عادات المغاربة الاجتماعية منها وغير الاجتماعية، ومن ذلك عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ويقارن بينها وبين عادة الجزائريين في ذلك، من مظاهر احتفالية ومطعم وملبس. أما من الناحية العلمية فيتحدث عن العلماء الذين زارهم ومنهم من أجازه كالشيخ البناني والترزي ومحمد الطيب الفاسي وغيرهم.

وقد كانت رحلة ابن حمادوش إلى فاس من أجل بيع سلعته، أما محطته في تيطوان فكانت لشراء الكتب الدينية والأدبية.

وبالمقابل تعدّ رحلة ابن حمادوش ذات قيمة في تاريخ الجزائر فقد عدّت الرحلة مصدراً هاماً إذ تطرّق لعادات الجزائريين وأخبار علمائهم، وعادات الزواج، والجوانب السياسية، تحدّث عن باشاوات الجزائر وسلاطين الدولة العثمانية، والصراع الإسباني العثماني وغيرها في اقتضاب شديد، أما بخصوص حديثه عن العلم والعلماء والمشايخ الذين لقيهم، نجده قد أطنب في ذلك، فخصّ منهم: محمد بن ميمون، وأحمد بن عمار، وغيرهما. وأما من الناحية الأدبية فهي خالية من الصنعة؛ لأن أهم ما تفاضل به ابن حمادوش عن غيره في أسلوبه اللغوي السهل البسيط الذي يقترب من المؤلفين اليوم، فأسلوبه "يمتاز بالسلاسة والتتابع، ولا يثقل إلا عبارة الانتقال من فكرة إلى فكرة أو من فاصل زمني إلى آخر"⁸⁴ كما أننا نجد له ميزة قلما نجدها عند كتاب عصره "فابن حمادوش يكتب بدون سجع ولا محسنات بدعية رغم شيوعها عندئذ عند معاصريه"⁸⁵.

ومن بين ما امتازت به رحلة ابن حمادوش من أهمية، أنها احتوت على ترجمته الشخصية التي تنعدم في مؤلفات من عصره، ومن ألف في تاريخ الأعلام، فهو يعدّ الوحيد الذي شهد على نفسه بالحضور

83 - المرجع نفسه، ص 59.

84 - المرجع نفسه، ص 59.

85 - الطيب الرحالة ابن حمادوش، مرجع سابق، ص 59.

في عالم المعرفة الجزائري في ذلك الوقت، ومن هذا الباب تحسب للرحلة أنها "مصدراً هاماً لحياة المؤلف، بل تكاد تكون المصدر الوحيد المعروف عنه حتى الآن"⁸⁶.

3. 2. 2. رحلة أبي رأس الناصري⁸⁷ (1204هـ/1789م)

ظهر أبو رأس الناصري كعالم من أعلام الجزائر البارزين في ميدان العلم والرحلة في الأيام الأخيرة من العهد العثماني الذي سيطر عليه الجمود، وقد كشف من خلال تأليفه الكثيرة ما لهذه الشخصية من الوزن، ومنها رحلته التي تعدّ كشافاً على ما نقول، حيث أبرز من خلالها جملة من التعابير الذاتية الخاصة بطلبه للعلم ومآخذه من العلماء، وسفرياته من أجل ذلك، وقّع عنوانها بـ"فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته". ومن الباحثين من يصنّفها ضمن الحجازيات، ومنهم من يرى أنها تصنّف ضمن الرحلات العلمية، كما أن منهم من يعدّها من الرحلات، وفتحة تدرجها في لفيف السيرة الذاتية، وهي بين هذا وذاك تأخذ من كل فنّ بطرف، وبما أن بها ما يوحي بالسفر والتنقل من مكان إلى مكان ومن بلاد إلى بلاد، فلها ما يبرّر تصنيفها في جملة النصوص الرحلية.

وقد قسّمها صاحبها إلى خمسة أبواب، تحدّث في بابها الأول عن طفولته وتعليمه، وأحواله الشخصية كزواجه وحجّه، أما الباب الثاني فقد خصّه للعلماء الذين أخذ عنهم، والذين التقى بهم وأجازوه والذين ناظرهم، مستهلاًً بوالده مروراً بعلماء الجزائر والمغرب ثم تونس ومصر والحجاز والشام. أما الباب الثالث فقد خصّصه لرحلته بالمشرق وما تعلق بها، ولعل هذا الباب هو الذي أطلق عليه اسم "حليتي ونحليتي في تعداد رحلتي"، كما أن من الباحثين من يرى بأن هذا العنوان لرحلة أخرى لا تزال في قيد المخطوط. أما الباب الرابع فقد تناول فيه الأسئلة التي وردت إليه، أو ألقيت عليه أثناء تنقلاته، كما ذكر الأجوبة عنها، وفي الباب الخامس والأخير ذكر فيه تأليفه مرتبة حسب المواضيع ومادتها.

وحتى وإن صنّف بعض الدارسين رحلة أبي رأس ضمن الحجازيات (رحلات الحج) فإن نمطها الحقيقي هو علمي بامتياز، يشفع له فيها ما ذكره، من ملاقاته للعلماء ومناظرته لهم كقوله حين دخوله مصر: "لقيت بها العلماء الكبار، أهل العلم والأدب والأخبار: الإمام الأريسي، .. شيخنا السيد مرتضى، ففاوضته في فنون، فوجدته كما لي فيه من الظنون، ورويت عنه أوائل "الصحيحين"

⁸⁶ - المرجع نفسه، ص 77.

⁸⁷ - هو محمد أبو رأس بن أحمد بن ناصر الراشدي علامة ومحقق في العلوم الإسلامية وحافظ للحديث النبوي. ولد في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة 18م، بنواحي مدينة معسكر، بالغرب الجزائري، أخذ مبادئ العلم بمسقط رأسه بمعسكر، ولما اشتد عوده في العلم اشتغل بمهنة التدريس. قام بمحجته الأولى سنة 1204هـ/1789م، أخذ فيها عن جملة من علماء الجزائر تونس ومصر والحرمين الشريفين والشام. ولأبي رأس كتب كثيرة في التاريخ وغيره، بعضها موجود وبعضها فقد، قال عنها أحد تلامذته إنها تزيد عن الخمسين مؤلفاً، منها كتب التراجم وأخرى في التاريخ العام أذكر منها: "فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" و"زهرة الشماريخ في علم التاريخ"، "العز المتين في ذكر ملوك بني مرين" وغيرها.

و"رسالة القشيري"، و"مختصر العين" و"مختصر الكنز الراقي". "وأجازني بالباقي"⁸⁸ فقد كان أبو راس كلما دخل مدينة لا يتحدث إلا عن العلم فيها وعلمائها، ومرافئ العلم وملاقاته للشيخ، وتصانيف العلم، وبذلك تكون المدينة التي دخلها أحلى له وأبهى، وليست قفرا كما وصف مدينة العريش بقوله: "ثم رحلت إلى العريش فلم أجد بها عالماً آنس إليه ويكون التعويل عليه"⁸⁹ وهي دلالة كافية إلى أن الحكم على البلاد من خلال شعابها العلمية.

وشأن رحلة أبي راس كشأن غيرها من رحلات فترة الحكم العثماني في الجزائر، من حيث أنها أفضل من يُترجم لشخصها وذلك لانعدام من اهتم بهذا الميدان من العلم في فن التراجم وسير العلماء، وهي إشارة ضمنية لفقدنا الكثير من علماء الجزائر في تلك الحقبة حيث كان يقتضي من كل عالم أن يترجم لنفسه وهو الأمر الذي لم يحدث إطلاقاً وما حدث في تاريخ البشرية أن تكون الترجمة الذاتية كافية لاحتواء عدد معتبر من علماء العصور السابقة. وإن كنا نحمد لهذه الرحلات التي عرفت بأصحابنا فإننا في الوقت نفسه نعبر عن أسفنا عن فقداننا لكثير من العلماء الذين ضاعوا في هامش التاريخ، ونحسب أن البيئة لم تنجب ولم تحقق لنا من العلماء.

ثم إن رحلة أبي راس لم تكن عفوية، انطلاقاً من قوله: "وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير، والأسانيد الجماهير: كرحلة ابن رشيد السبتي، والخطيب المرزوقي، ورحلة أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي..⁹⁰ وهذا ما يوحي بأن هذه الرحلة جامعة وليست لها مقصد واحد، وبابها الأساس هو السعي في تحصيل العلم وتنقيح تحصيله، فكانت أول محطة من محطاته الجزائر العاصمة التي خصها بالذكر من خلال علمائها كالشيخ القاضي المفتي السيد محمد بن جعدون⁹¹ وغيره من العلماء وحواراته معهم وتبجيلهم له، كما هو الحال عند وصوله قسنطينة ولقائه بعلمتها الشيخ الونيسي. ومن قسنطينة يعود للحديث عن رحلته إلى فاس (المغرب)، ومن فاس إلى تلمسان ثم تونس، ونزوله عند شيخها المفتي محمد بن المحجوب (ت 1243هـ) وغيره من العلماء والأدباء كالرياحي، ومن تونس توجه بجرا على مصر بما لقي أهل العلم والأدب، منهم الشيخ مرتضى، كما زار الشام، بعد زيارته مكة، حيث اجتمع بعلمائها وفقهائها، كالعلامة عبد الملك الحنفي المفتي الشامي القلعي (ت 1229هـ) الذي أخذ عن علمائها علوماً شتى؛ منها الحديث وعلم التفسير ومسائل الفقه، كما كانت له مناظرات وأبحاث مع علمائها، وتعد هذه الرحلة مزدوجة بين العلم والزيارة، فقد كانت زيارة روحية

⁸⁸ - فتح الإله ومنتته، مصدر سابق، ص 115-116.

⁸⁹ - المصدر نفسه، ص 120.

⁹⁰ - المصدر نفسه، ص 91.

⁹¹ - ينظر المصدر نفسه، ص 91.

مما ناله من شرف المكان، إذ كانت فرصة لزيارة ضريح المصطفى ﷺ، وضحجي صاحبيه أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-، وقبور الصحابة بالبقيع.

وعموما فرحلة أبي راس غنيّة بمعلوماتها حول قضايا متعددة أبرزها العلم ومراكزه والعلوم المنتشرة في زمانه، والشيوخ البارزين، والمادة العلمية التي كانت سائدة، كما أنها تبين من جهة أخرى الجانب الأدبي الذي تمركز في نشره وشعره من حيث عرضه لموضوعاته، وهو لا يشدّد على ما كان سائدا من أسلوب نثري في ذلك العصر.

3.3 الرحلات الاستكشافية (التجسسية)

1- رحلة ابن الدين الأغواطي

تدخل رحلة ابن الدين الأغواطي حسب ما يراه (عمر بن قينة) ضمن النشاط الغربي بوجهيه الاستعماري والاستشراقي⁹²، وذلك لما تثيره من دوافع مشبوهة، فالرحلة قامت على استجابة لرغبة خاصة من شخصية سياسية تتمثل في شخص (ويليام هودسون) مساعد القنصل الأمريكي في الجزائر (ويليام شيلر) (1825-1829م)، وقد امتثل ابن الدين لطلب هودسون، وذلك من أجل اتفاق مادي بينهما -طبعاً- وقد دونت الرحلة باللغة العربية، ثم قام صاحب الطلب بترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها في مجلة "أمريكا الشمالية" سنة 1832م. يقول "لقد أعددت ترجمة لرحلة قصيرة في شمال إفريقيا قام بها الحاج ابن الدين الأغواطي، وهذه الرحلة كتبها صاحبها بطلب مني، وقد دفعت له الثمن"⁹³. كما ترجمها السيد دافريزك إلى الفرنسية عن النص الإنجليزي ونشرها أيضا مع تعاليق وتصريحات هامة⁹⁴ في المجلة الجمعية الجغرافية الباريسية سنة 1836م.

وتعتبر رحلة ابن الدين الأصلية مفقودة، أما نصها الذي تمتلكه اليد اليوم، فهو الذي قام بترجمته أبو القاسم سعد الله، ونشره في كتابه آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر في جزئه الثاني، ويشير مترجمها إلى العربية بأن نص الرحلة الذي ترجمه هودسون إلى الإنجليزية ليس هو النص الكامل لرحلة ابن الدين، "وهي تقع في كراسة تحتوي على أربع عشرة صفحة، وكان القنصل قد طلب منه المزيد والتفصيل ولكن ابن الدين اكتفى بذلك القدر"⁹⁵ ثم يضيف سعد الله: "ونحن نتصور أن ابن الدين قد كتب أكثر من

⁹² - عمر بن قينة، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1999، ص 15.

⁹³ - المرجع نفسه، ص 15.

⁹⁴ - تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 386.

⁹⁵ - تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 386.

ذلك لنفسه ولكنه لخص للقصص ما رآه كافياً⁹⁶ وذلك بعد التحري والتحقيق وسؤال أقارب الرحالة،⁹⁷ وتكمن أهمية رحلة ابن الدين في الجمع بين أخبار الصحراء سكان ومساكن، وواحاتها وعادات القوم، وقد عدّ كثيراً من القرى والمدن التي زارها منها عمّور متليلي وادي ميزاب، المنيع، ورقلة، تميمون، تقرت، عين صالح وغيرها من المدن داخل الوطن وخارجه.

وقد خدمت هذه الرحلة بالأساس، الأوربيين والأمريكيين، خلال اهتمامهم بالصحراء ومحاولة استكشافها، وقد كان مبدأ هذه المعلومات التي كتبها الحاج ابن الدين عن قراها وعادات أهلها ومسالكتها⁹⁸، مبدأ استعماريًا.

3.4 الرحلات التقريرية

1 أبو العباس أحمد بن هطال⁹⁹ (ت 1219 هـ)

ورحلة بن هطال التلمساني، هي رحلة الباي محمد الكبير سنة 1785 إلى جنوب الغرب الجزائري، كانت رحلة رسمية، تحكّمت فيها ظروف وأوضاع، وتوتّحت غايات أملت الحياة السياسية العامة.

والرحلة لها خصوصية صاحب الرحلة وكتابتها، فصاحب الرحلة هو الباي محمد الكبير وأما كاتبها فهو أحمد بن هطال التلمساني الذي كان ملازماً للباي محمد الكبير، وكان صاحب حظوة لديه، فكان رسوله في الأمور الدبلوماسية، أما في هذه الرحلة فقد كان مقرّراً.

وأما عن أسباب ودوافع الرحلة فكانت رغبة الباي في ضم القبائل الصحراوية تحت سلطته نستخلصها من قول ابن هطال: "أن الباي محمد بن عثمان قد رأى أنّ جهة القبلة (الجنوب) ذات بلدان كثيرة وأعراب راحلة، ومقيمة، إلا أنها لم تنلها أيدي السلطنة، ولم يكن منها لملك مصلحة ولا منفعة معينة"¹⁰⁰، وهو سبب كاف لفهم متضمّن الرحلة ودافعها، وتُرجع كثير من المصادر التاريخية أن لجوء الباي لهذه الحملة مصدره بسط سلطته على الجنوب الغربي الجزائري -الذي يضم

⁹⁶ - المرجع نفسه، ص 386.

⁹⁷ - المرجع نفسه، ص 387.

⁹⁸ - المرجع نفسه، ص 387.

⁹⁹ - بن هطال، هو أبو العباس السيد أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني، كان فقيهاً، وأديباً كبيراً، وقد أبرز من خلال تقرير رحلته، أنه دبلوماسي وسياسي من خلال ملازمته للباي محمد بن عثمان الكبير 1779-1797، الذي اشتغل ببلاطه منصب كاتب السر الرئيسي، ويعد هذا المنصب مرصداً لجمع أخبار البايليك السياسية والعسكرية من شهود عيان، والتحقيق فيها. فقد كان الناطق الرسمي باسم حكومة الباي محمد الكبير في داخل الجزائر وخارجها.

¹⁰⁰ - أحمد بن هطال، رحلة محمد الكبير، تحقيق محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 1969، ص 39.

القبائل الجزائرية-، يعود إلى ضعف السلطة العثمانية على عموم البحر المتوسط مما أضعف مداخيلها، فكان هذا الباب هو جعل مصدر لحزينة الدولة كي تتقوى وتوفر ما يحقق لها رهانا لأعبائها.

والرحلة عبارة عن غزوة قام بها الباي في جيش مدجج بالسلاح، تحقق له منها جولة نال على إثرها بسطته على القبائل الجزائرية، وجمع شيئاً غير قليل من الغنائم. وقد كانت بداية الرحلة يوم الخميس التاسع ربيع الأول 1119هـ الموافق لليوم التاسع عشر يناير 1785م¹⁰¹، أما يوم العودة إلى معسكر فكان يوم الأربعاء الثامن والعشرين ربيع الثاني 1119 هـ الموافق لعشرة مارس 1785م .

وقد كان التسجيل لوقائع الرحلة متزامنا مع خط السير والأحداث، فجاء الخطاب آنيا مباشرا، معتمدا فيه على مشاهداته دونما عودة إلى أي مرجع "لأنني قيدت هذه الأوراق في أثناء السفر، ولم تصحبي كتب في هذا المعنى أستعين بها"¹⁰² مما يضفي على الرحلة مصداقية الواقعية كشهادة تاريخية مهمّة خصوصا في تلك المرحلة التي شحّت فيها المصادر للتعريف بكثير من مجريات أحداثها.

وقد شملت الرحلة مضمونا استهله ابن هطال بذكره لفضل علم التاريخ "أما بعد، فإن فضل علم التاريخ من أجل العلوم قدرا، وأكملها محاسن وفخرا فهو أحد ما يطلق عليه علم العربية، كان أحق ما تنفق فيه الذخائر السنية، وتصرف إليه المهج الزكية.."¹⁰³ وفي ذلك إشارة إلى أن الحدث الذي من أجله قامت الرحلة هو حدث تاريخي هام، يتوجب تسجيله، فهو من الأعمال الخالدة التي يسجلها التاريخ ويمرّرها للأجيال اللاحقة. ثم ينتقل إلى تبرير الرحلة أو تبرير الغزو الذي قام به الباي محمد الكبير، متحدّثا عن القبائل المراد غزوها كقوله: "كأنها أمم أبقت من أهلها، أو حرة نشزت من بعلها، فشمّر لها عن ساعد الجد، عازما على رد ما بها من النفار والصد"¹⁰⁴ ومن ثم يتحدث عن خصال الباي ومناقبه في أسلوب فيه من التعظيم والتبجيل. وبعدها يتعرّض لموضوع الرحلة الأساس منذ يوم الخروج، وتركيبه الجيش وخططه ومصير القبائل المغزوة، والغنائم التي استولى عليها جيش الباي، وحصاره لمنطقة الأغواط، التي عصى فيها أهلها الباي وخدعتهم له وتمردهم عليه، وكيف حصّنوا بلدتهم فلم يستطع جيش الباي اقتحامها، وغيرها من الأحداث التي اعتمدها ابن هطال من خلال معاينته لأحداث ومسار الرحلة أو من خلال ما استقاه من أخبار عن أشخاص يثق بهم صادفهم أثناء رحلته، حيث ساعده في ذلك بعض من معارفه في الجنوب الجزائري في تقييد أوراق هذه الرحلة.

¹⁰¹ - التقدير الميلادي لحقق الرحلة.

¹⁰² - رحلة محمد الكبير، مصدر سابق، ص 39.

¹⁰³ - المصدر نفسه، ص 35.

¹⁰⁴ - المصدر نفسه، ص 36.

ومهما يكن من أمر فيما تحقّق للباي من أهداف خلال هذه الرحلة، فإن الرحلة في حدّ ذاتها تعدّ مصدرا من المصادر الهامة في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ الجزائر، حيث شهدت بعدها بقليل تحوّلا نتيجة ربح الاستعمار الفرنسي الذي عصف بها. وقد نكاد نجزم أن مصادر التاريخ الجزائري في هذه المرحلة تتزعمها كتب الرحلات بلا منازع، ورحلة ابن هطّال جديدة أكثر من غيرها، فهي تُترجم للباي محمد الكبير منوّهة بما كان يتحلّى به من إيمان وصلّاح، ومن طموح سياسي وإستراتيجية اقتصادية، كما أن الرحلة تعرّفنا بأحوال القبائل الجزائرية وعاداتها وأنماط عيشها بما في ذلك المدن والثرى والأرياف، والمداشر، كما أنّها لا تدع الشكّ في الصدام الذي كان حاصلًا بين السلطات العثمانية والقبائل الجزائرية، وقوّة هذه القبائل واستماتتها في الدفاع عن حياضها وأعراضها. فكل ذلك حقّقه الرحلة من ناحية؛ كوثيقة تاريخية، ومن ناحية أيضا؛ كنص أدبي وصفي لمحريات الحملة العسكرية التآديبية التي قادها الباي محمد الكبير، فقد جمعت بين النثر الغالب عليها، بما أنّها نص سردي، كما أنّها تتضمن أشعارا مقتبسة، والتي وصلت عدد أبياتها ثمانية وتسعين بيتا، وظّفت جميعها في مدح الباي. وقد خضع التسلسل في كتابة الرحلة لنظام الرحلة ومفاجآتها وما طرأ عليها من قضايا وما لاقاه الرّحالة من أشخاص وما شاهده في طريقه.

الباب الأول

إشكالية النص

في الرحلة الجزائرية الحديثة

الفصل الأول

الرحلة من منظور علم النص

وقضايا السرد

1. الرحلة من منظور علم النص

1.1 . مفهوم النص

يُجفل "النص" بكمّ هائل من التعاريف، وكل تعريف ينبني على وجهة نظر خاصة حسب المرجعيات الفكرية والتراكمات المعرفية التي ينطلق منها، من ثم يغدو مفهوم النص في صراع بين الآراء والتنظير فيسلك شعابا ومسالك مغرية تارة، ومستعصية تارة أخرى، فيتيه الفكر حائرا في عدم الحصول على تعريف تام محصور ومحدد. ولعل هذا التنوع "هو الذي يجعل من مفهوم النص مفهوما إشكاليا، أي يطرح أسئلة ويثير تساؤلات أكثر مما يقدم أجوبة أو حلا لمشكلات عالقة"¹⁰⁵ أو بتعبير آخر "يفقد طابعه الإجرائي ويتحول إلى مفهوم عائم"¹⁰⁶. نظرا لخصوصيته، مما جعل أطرافا علمية وفلسفية تتجادبه، فنتج عنها جملة من النزاعات المستعصية، ولعل أبرز ما أثارته قضايا علم النص حديثا، موضوع اللسانيات وما تفرع عن حقلها من علوم، وأبرز تلك الفروع "السيمياثيات" والأسلوبية، وغيرها، حيث يعد النص "نتاجا سيميائيا بالدرجة الأولى يتمفصل داخل نظام ثقافي محدد ويولد حقبة اجتماعية وتاريخية معينة"¹⁰⁷.

ولم يعرف "النص" ببعده المفهومي إلا مع ظهور المفاهيم المعاصرة الحديثة، حيث تشترك التعاريف، على تنوعها، في الاعتراف بأنه شكل لغوي، أو هو نتاج وليد اللغة. كما أن اللغة في حد ذاتها لا يمكن اعتبارها تلك التي احتكرها الكلام أو الكتابة، إذ لا نقول إن هذه اللغة هي التي تحاك بالأدوات (الحروف) وإنما اللغة أصلا للتواصل ف"النص متوالية لغوية وأمبريقية قد تمت المصادقة عليها، ويعتبر إنتاجا في إطار حركة اجتماعية محددة، وهو ثابت بالاعتماد على ركيزة ما. وعلى هذا الأساس، يمكن أن يكون مكتوبا أو منطوقا أو مقديما بأنظمة تقليدية مثل لغة المورس والآسكي (Ascii)، كما يمكن أن يظهر في شكل سيميائي (الفيلم..."¹⁰⁸، وذلك ما تعتمد السيميائيات في تعاملها مع اللغة التي هي ليست إلا نظام علامات إشارية، غير مرتبطة بقواعد محددة، وإنما هي مرتبطة بنمط خاص معترفة بكل ما ينتج من علامات اجتماعية ومعرفية وكونية.

وبما أن اللغة وسيلة للتواصل، وهي في الآن نفسه أداة تركيب صورة النص، بالأشكال التي ذكرنا، فإن الذي يهمننا هو النص التواصلية العالق بين اللفظ والحرف، وهو في الأخير مادة التواصل الأكثر استعمالا سواء في الجانب الأدبي أو غير الأدبي. ومن هنا نخلص إلى الحديث عن اللغة المنطوقة أو

¹⁰⁵ - حسين خيري، نظرية النص، الدار العربية للعلوم ناشرون (مع دار الاختلاف)، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص36.

¹⁰⁶ - المرجع نفسه، ص43.

¹⁰⁷ - نفسه، ص36.

¹⁰⁸ - فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه، ترجمة ادريس الخطابي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2010، ص42.

المكتوبة، حيث "تحقق اللغة في حدث خطاب ما، إنتاج خطاب فريد من طرف متكلم مفرد"¹⁰⁹ وهو الأصل، لأن الكلام ينبثق من متكلم فرد في إطار التحصيل على وظيفته، وليس الكلام المقصود هنا هو الاستقلالية وإنما العملية التواصلية، ومن ثم "فإن كل نص هو بالنسبة للغة في نفس موقع إنجاز الكلام"¹¹⁰. وبذلك نخلص إلى إدراك واقع أن الكلام سابق للكتابة إذ "تعتبر الكتابة، علاوة على ذلك، بصفتها مؤسسة، تالية للكلام الذي يبدو أنها منذورة لتثبيت كل تلفظاته التي لاحت شفويا، بشكل خطي موجز"¹¹¹ لأن الكتابة موجزة واقتصادية في وظيفتها عن الكلام الذي يعد شبكة من الإطناب والإسهاب ومجاله مفتوح ووسائل الإقناع فيه متشعبة، ومن هنا نقول: إن الكتابة رصد للأقوال أو الكلام، ومطابقتها بشكل تقريبي وحريص على صناعة ما قبل الكلام الذي هو في الأصل مقصد فكري، بنى مسبوقة له، ومن ثم تأتي الكتابة لرصد مجموعة من البيانات الكلامية التي تؤدي وظيفة اجتماعية أو ثقافية، فالكتابة ليست مبرجة لذاتها، بل هي محطة أو مؤسسة الحفظ الدائم للكلام، لأن "الكتابة لا تضيف شيئا لظاهرة الكلام، إن لم يكن التثبيت الذي يسمح بصيانته؛ من هنا اليقين التام بأن الكتابة كلام مثبت. بأن التسجيل، سواء كان تخطيطا أو تدوينا، هو تسجيل للكلام، تسجيل يضمن للكلام ديمومته، بواسطة خاصية النقش الدائمة"¹¹²، وقد يؤكد لنا الواقع أن التاريخ الحضاري للإنسانية جمعاء، حفظته النقوش والآثار الدالة، أما غير ذلك فلم نجد له من شكل ولا خبر، فقد ذهب مع أصحابه. وذلك ما يجعلنا نقول بأن النص هو الأثر المادي الباقي على الدوام من أجل وظيفته، وغاية أخرى هي الشاهد إذا استدعى الأمر للدليل والبرهان للمحاجة.

ويرى (راتسيي) أنه إذا كان الكتابي يقابل الشفوي، فإن النص يقابل الخطاب¹¹³، لأن النص في الأصل يدور بين الكلام والكتابة، ولأننا في الأخير نقرّ بما توصل إليه (بول ريكور) بأن "النص خطاب أثبتته الكتابة. ما أثبت بالكتابة إذًا، خطاب كان بإمكاننا أن نقوله بالتأكيد، لكننا نكتبه بالضبط لأننا نقوله. التثبيت بالكتابة يحل محل الكلام، أي حيثما كان بإمكان الكلام أن يولد"¹¹⁴، فلزوم الكتابة هو شرط في توفر الكلام، فيغدو النص شاهدا، بل إقرارا وإنجازا رسميا للخطاب.

109- بول ريكور، من النص إلى الفعل، ترجمة محمد برادة وحسان بوقرية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص105/106.

110- المرجع نفسه، ص 106.

111- المرجع نفسه.

112- المرجع نفسه.

¹¹³ - ينظر فرانسوا راستبي، فنون النص وعلومه، مرجع سابق، ص42.

114- من النص إلى الفعل، مرجع سابق، ص 106.

ولا يذهب (ريكور) إلى هذا فحسب، بل يشير إلى المحل الحقيقي للكتابة التي سوف تنسبنا في الكلام الذي لا تعوضه بقدر ما تغطي عليه، ومن ثم تنتزع منه مشعل الخطاب، لأن "الكتابة إنجاز شبيه بالكلام، مواز للكلام، إنجاز يحتل مكانه ويحجبه. لذا قلنا إن ما يأتي إلى الكتابة، هو الخطاب، بصفته نية في القول، وأن الكتابة تسجيل مباشر لتلك النية، حتى وإن كانت الكتابة قد بدأت، تاريخياً ونفسياً، بتسجيل علامات الكلام تخطيطاً. وتحرّر الكتابة هذا، الذي يضعها موضع الكلام هو شهادة ميلاد النص"¹¹⁵، وباستطاعتنا تبسيط الأمر بأن نخلص إلى أن الكتابة مستوى عالٍ تنتقي من الكلام ما يصلح ليكون خطاباً، وبذلك يكون الخطاب صفوة الكلام ومنتقاه، فالنص تقنية فريدة في حمل الكلام الذي يحمل أفكاراً فيحجب كل ما سبقه ومهد له من إنجاز، ومن ثم يصبح هو صاحب مشروع الخطاب.

وهناك من الباحثين من يعمّم الموضوع ويطرحة على واقع اجتماعي ثقافي بأسره، ومن ثم يميز بين الكلام الذي يصلح نصّاً والذي ليس كذلك، ومرّد ذلك إلى تفاوت المجتمع في قيمه، ومن هؤلاء سعيد يقطين الذي يقول: "إن تفاوت القيم داخل المجتمع، لا يعني سوى تفاوت المتكلمين وأنواع الكلام. لذلك كانت مختلف القيم الإيجابية، والمقبولة من قبل التقليد الاجتماعي (ثقافياً واجتماعياً) هي القيم التي يجب توفرها في الكلام ليكون "نصاً" وإلا فهو "لا نص"¹¹⁶ إن هذا الطرح الذي يأتي به سعيد يقطين، والذي يحيل إلى تحديد مستويات للفصل بين النص واللانص، لأن النص في الأخير هو شيء منزّه ذو قيمة في المجتمع العام، له من الخصوصية ما يجعله يحمل قضايا، فكأننا نعني بذلك أن النص زبدة ما تنتجه العقول والأفكار الراشدة، وهو الذي جعله (يقطين) يحدد شروطاً للكلام الذي يمكنه أن يكون نصّاً، وهو الشرط الأساس المتمثل في القيم. ونراه ينطلق من مشروع تاريخي كبير، مفاده أن مفهومه للنص هو ما يقابل التراث الذي يلخصه في كلمة واحدة وهي "النص"، يقول في ذلك: "يكتسب مفهوم "النص" دلالات متعددة ومتنوعة، تتنوع أو تتعدد بتعدد الاستعمالات في القديم والحديث، وتتنوع بتنوع المشتغلين به لغة واصطلاحاً. وإحلالنا إياه محل "التراث" وليد رغبة خاصة في تجاوز "المفاهيم" المتلبسة، لكننا في وضع المستجير من النار بالرمضاء، لأن النص متعدد الدلالات، وكان القدماء يستعملونه استعمالاً خاصاً جداً"¹¹⁷ وإذا كان يقطين قد يختصر مسافة طويلة وكما هائلاً من ثقافة قوم ليست باليسيرة ولا بالضئيلة، فإنه يدرك أن التركة التي ورثها لنا السلف، هي صفوة ما ادّخر، وأروع وأحكم ما قيل، ومن ثم حقّ له أن يؤسس لقاعدة "النص واللانص"، فالنص

115- من النص إلى الفعل، مرجع سابق، ص 107.

116- سعيد يقطين، الكلام والخبر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2007، ص 57.

117- المرجع نفسه، ص 53.

يرتقي إلى قيم لا تتحقق في اللانص، حيث "يتميز النص عن اللانص بناء على أن الأول يخضع للقيم النصية الجمالية والمعرفية المتعارف عليها، وهي بوجه عام، قيم سامية، وتسير في اتجاه النموذج المعرفي السائد، وتوجهه تراكمات تاريخية ترهن إلى قبولها التحول في نطاقه. أما الثاني [كذا] فيتأسس على كونه يتحقق على هامش النموذج المعرفي، وأحيانا بناء على تناقض صريح أو مضمن مع أهم تجلياته"¹¹⁸ فالنص حسب يقطين، هو درجة من الخطاب الذي لا يتحقق عند العامة من الناس، وهذه الخصوصية التي تجعل من النص مخلولا لفئة من الناس دون أخرى، مثلما يذهب إليه تماما "ميشال فوكو" (M. Foucault) في مجال التفرقة بين النص واللانص عند قوله: "إذا كان الكلام لا يحصى فإن النصوص نادرة"¹¹⁹، ومن هنا نركن إلى خلاصة القول التي قطع بها (فوكو) شوطا كبيرا في فهم معنى النص في مقابل اللانص، وهو مبرر كاف لتمييز عجيج الكلام في المجتمعات في مقابل ما يمكنه أن يرشح بعد "سبر" ليكون نصا. لأن النص مستوى عالٍ من الاستعداد الفطري والمكتسب، فهو خلاصة أفكار. وما دامت الأفكار تتنوع بتنوع الثقافات وبيئاتها فإن "كلاما ما لا يصير نصا إلا داخل ثقافة معينة"¹²⁰ فكل مدلول لغوي للنص لا يشكل قيمة النص الحقيقية إلا حين تنضاف إليه المدلول الثقافي لذلك فإن "عملية تحديد النص ينبغي أن تحترم وجهة نظر المتتمين إلى ثقافة خاصة"¹²¹.

فالنص إذًا، أثر مادي، فهو ترجمة لخطاب كلامي له مقصدية بغض النظر عن ظروفه ونتائجه، ومستوياته الفكرية أو الأدبية أو الحياتية، فهو بنية ملتحمة مما تسفر عنه الكلمات التي يدفعها الفكر، خلاصتها أن النص ليس "في نهاية الأمر إلا جسما مدركا بالحاسة البصرية، وعلى الرغم من أنه خادم عادي -ولكنه ضروري- فإنه يشاطر الأثر الأدبي هالته الروحية، وهو مرتبط تشكيلا بالكتابة، ربما لأن مجرد رسم الحروف ولو أنه يبقى تخطيطا فهو إيجاء بالكلام وبتشابك النسيج".¹²² فالنص في هذه الحالة ذو وظيفة مزدوجة أدبية وغير أدبية، وهذه الأخيرة قد تكون بسيطة وقد تكون ذات فكر معقد، إلا أنها ترجمة لفعل كلامي إلى فعل كتابي، وبذلك يتمثل النص في صورة الواجهة الملموسة للخطاب.

1. 2 مفهوم الخطاب

من خلال طرقنا لموضوع النص، نكون قد أجبنا عن كثير -أو بعض- من قضايا الخطاب الذي يعد -في الأساس- قرين النص، أو الوجه الآخر من صورته، حيث لا يكون النص إلا من خلال

118- الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 57-58.

119- Michel FOUCAULT, Les mots et les choses, Editions Gallimard, Paris, 1966, P. 307

120- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابية، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط 3، 2006، ص 16.

121- المرجع نفسه، ص 16.

122- محمد خير البقاعي، دراسات في النص والتناصية، دار المعارف، حمص، سوريا، ط 1، 1998، ص 26.

الخطاب، ولا يحفظ الخطاب سوى النص، وهذه العملية تستلزم الحديث عن النص في ثنايا الحديث عن الخطاب والعكس. وإن كان لكل منهما مفهومه الخاص وعمله الخاص به، مثلما تقدم في تحديد معنى النص، فإننا نستنجد بحيثيات حول الخطاب للتدليل على النص، الذي يعدّ خطابا محوّلا - ببساطة سوف نقول بهذا إلى حين-، أو هو ما يذهب إليه (ريكور) وغيره كما أسلفنا الذكر. بقي أن نقرّ بأن الخطاب ليس هو النص.. وإن كان هذا في أول وهلة على المستوى المعجمي ودلالته، فمصطلح (الخطاب) Discour لا يساوي مصطلح (النص) Texte وهذا لم يكن وضع اللفظ فيه موضع اعتبار، وإنما يختلف النص عن الخطاب اختلافا بيّنا..

إن الخطاب يندرج ضمن مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، فهو لا يخلو من صعوبة في تحديد مفهومه، كغيره من المصطلحات التي باتت عائقا في مواجهة أي مجال من مجالات العلوم الإنسانية. وإذا كان الخطاب تربطه بالنص صلة التماس الشديد والالتباس، فإنه من الأجدر أن نجري وراء تحديد الميز بينهما حتى يتبين لنا الخالص من مفهومه.

لقد فصلّ الباحثون والدارسون المعاصرون تفصيلات مطبنة فيما يميز الخطاب من النص، ومع ذلك لم يكن ليمنع من حصول الاختلاف والرؤى المتباينة مع باحثين آخرين الذين لا يرون أي فرق يميز ما بين النص والخطاب. ونجد التناول النظري لتحديد هذه المصطلحات مستفحلا في عديد من الكتب والبحوث، لذا لا نرى من داع إلى الخوض في مجال يطول فيه الكلام، لتشعب الخلاف بين مدارس المعاصرة، التي كلما فتحت بابا في التنظير، لم يغلق أبدا، بل يزيد تعقيدا كلما زادت حدة تحريك النقاش فيه، فالتمييز "بين النص والخطاب في ضوء المناهج النقدية الحديثة يطرح إشكالا كبيرا، نظرا لتعدد الآراء واختلافها، وكثرة التصورات وتضاربها، مما يجعل البحث أمام صعوبة تأطيرها وفرزها، وبالتالي تحليلها ومناقشتها"¹²³.. وهذا الاعتراف جزء من المشكلة في تحديد المفاهيم.

سوف نسلم في أول وهلة بأن الخطاب هو النص، ذلك للّبس الذي يعترضهما، حيث يؤديان وظيفة واحدة تتمثل في العملية التواصلية. وإذا كانت هذه العملية بإمكانها أن تتم من خلال خطاب شفوي، فهنا، قد لا نشرك النص، وتؤدّي الوظيفة كاملة دون نقصان، بينما النص لا يؤدي هذه الوظيفة إلا بعد ما يقحم الخطاب طرفا أساسيا في العملية، في هذه الحالة لن نقبل بالقول المتداول إن النص هو الخطاب. بل نعتبر الخطاب هو الأصل والنص فرعا.

ليس هناك من شك في أن مفاهيم (دي سوسير) "F. De saussure" اللسانية دفعت بقوة إلى تحديد مفهوم الخطاب الذي يعد مرادفا للكلام من خلال ما أسفرت عنه محاضراته التي تضمنت

¹²³ - عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، دار أديب، وهران، الجزائر، 2006، ص 21.

المبادئ الأساسية التي جاء بها في هذا المجال، ومنها أن "اللغة كظاهرة اجتماعية، والكلام كظاهرة فردية"¹²⁴ اعتباراً من أن الكلام منجز محدد للغة من حيث مقامها التواصلية في حدود السياق، "فاللغة عموماً نظام من الرموز يستعملها الفرد للتعبير عن أغراضه، والكلام إنجاز لغوي فردي يتوجه به المتكلم إلى شخص آخر يُدعى المخاطب"¹²⁵. ومنه "إن كل تحيين واقعي لعناصرها هو من قبيل الكلام الذي هو الخلال وجودي لها"¹²⁶ مستمد من قاموس الكون "بشكل منظم ومجرد ومتعال عن الفرد"¹²⁷ ولقد شكل مفهوم "الخطاب" تضاربا في وجهات النظر، وما يميزه أنه المادة الأساسية التي يبلغ بها عن قصد (فكرة) من خلال رسالة لغوية، عبر وسيط (مفترض) شفوي.. ما جعل الكثير من الدارسين وأبرزهم اللساني الفرنسي "إيميل بينفنيست" (EMILE VEN VENISTE) (1902/1976) يقرّون بأن "الخطاب هو كل تلفظ يفترض متحدثاً وسامعاً تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل ما"¹²⁸ ومنه يعد الخطاب نظاماً بشرياً ذا أهمية مخصوصة ومنظمة تقضى بها حاجات الإنسان، من أجل نظام اجتماعي أنيس متداخل عبر شبكة منتظمة من العلاقات الدالة بشفرائها الاجتماعية التي تحددها اللغة النمطية بعرفها الاجتماعي في سياقاتها المتنوعة، ومنه تصير اللغة مشاركة بعناصرها في حدود ما يحتاج إليه نظام التواصل بمبررات منطقية، أو كما يرى بينفنيست "بأنه عبارة عن اللغة في حالة فعل، أو بوصفه اللغة بين شركاء التواصل"¹²⁹ أي اللغة التي تتم بواسطتها تبليغ رسالة المخاطب نحو المخاطب، التي تتحول من مجردة في أبراجها، إلى محمولة لسانياً، لتأدية مهمتها، عن طريق اللفظ، وإذا كان إنتاجها النهائي في إطار اللفظ، فإن هذا الأخير له ضوابط غير عشوية، تقوم على النظام في سلسلة من "الملفوظات المنتظمة في سلك/نظام التلفظ (الخطاب) المشخص في الملفوظ المنجز، دون الألفاظ؛ مفردة ومعزولة بعضها عن بعض"¹³⁰ يقوم من خلال ذلك المجتمع سواء على المستوى الشعبي أو الرسمي، بخطاباته ذات انتماء كل فئة، فيندرج بذلك الخطاب كنوع ثقافي يستمد نوعيته من خصوصية الانتماء الاجتماعي والثقافي، ويكرس مبدأ التنوع والاختلاف، والتكيف والانسجام وردود الأفعال المتباينة على حسب نوعية الخطاب الذي يعد "رسالة تندرج في العالم الثقافي الذي ينتمي إليه مرسلها، وتحمل كل القيم، جمالية كانت أو اقتصادية، أو دينية، أو تراثية، أو ما في

¹²⁴ - إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق، الجزائر، ط2، 2003، ص 15.

¹²⁵ - تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، مرجع سابق، ص 19.

¹²⁶ - عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي - نحو تصور سيميائي-، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص 43.

¹²⁷ - المرجع نفسه، ص 43.

¹²⁸ - إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، مرجع سابق، ص 15.

¹²⁹ - عبد الواحد الحميري، ما الخطاب وكيف نخلله؟، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص 19.

¹³⁰ - ما الخطاب وكيف نخلله؟، مرجع سابق، ص 28.

ذلك مما يدخل في تركيبة عالم ثقافي معين¹³¹ ومنه ينهض مفهوم الخطاب من العملية التواصلية البسيطة إلى الإشكاليات المعقدة والمركبة، فيغدو مفهوماً واسعاً وشاملاً ومتشعباً تتداوله جميع المجالات المعرفية في سياقاتها الاستعمالية، للعملية التواصلية، لذا ظل يقبل التأويل في مختلف الحقول المعرفية دون وضع إطار تعريفي محدد له، مما أفضى إلى ظهور إشكالية تحديد خصائصه وسماته، وبما أن الخطاب بات مرتبطاً بالمجالات المعرفية التي يستخدم فيها، فقد ظهرت أنواع متعددة من الخطابات كالخطاب السياسي، والخطاب الإعلامي، والخطاب الديني والخطاب الأدبي، وغيرها من الخطابات.

1. 3. النص الأدبي

لا يسلم مفهوم النص الأدبي من مفهوم النص العام، فهو يتعقد فلسفياً في أبعاده ووظائفه، بل إضافة إلى ذلك يثير إشكالات من ناحية الفن والجمال. بيد أننا نقف على حدّ شكل النص الأدبي الذي يعد "السطح الظاهري للنتاج الأدبي، نسيج الكلمات المنظومة في التأليف، والمتسقة بحيث تفرض شكلاً ثابتاً ووحيداً ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً"¹³² من هنا يمكننا أن نسلط الضوء على شيء هام مما يتسم به النص الأدبي المعتمد في هذا التمييز بقضايا التأليف في شأن التركيب اللفظي الممزوج بصور وتقنيات فنية متاخمة للنص الهيكلي العام، فهو نص يعمد إلى الصناعة في تشكيله التام الذي يجب أن يكون تاماً، لأنّ الأصل في النصّ الأدبيّ هو النصّ التام الدالّ على مقصدية، حتى يسعى لبروزه كظاهرة فنية. ومنه فإنّ "النص يختلف عن الأثر الأدبي الكامل (L'œuvre) بأن العمل الأدبي هو الذي يتخذ شكل هيئة في مكتبة مثلاً فيكون له حيز في رفوفها، فالعمل الأدبي شيء تام (Objet fini)؛ في حين أن النص هو شيء غير ذلك؛ فكأنه أقلّ اكتمالاً: "فالعمل الأدبي يكون قابلاً لأن يمسك به في اليد، في حين أن النص يوجد في اللغة"¹³³، كما سبق وأن أشرنا، وهي نفس الدعوة التي يقول أصحابها: "أما النص فهو حقل منهجي، فنحن إذًا، لا نستطيع أن نحصي نصوصاً، وكل ما نستطيع قوله إن هناك -أو ليس هناك- نصاً في هذا الأثر الفني أو ذاك، إن العمل الأدبي يحمل باليد، والنص يحمله الكلام"¹³⁴. وهو بتعبير آخر، النص الأدبي إنجاز مقصود لذاته، بتحويل القضايا الفنية إلى نص مورلفوجي خاصّ، عبر وسائله وأدواته.

ومما تفيدها به الاختلافات في الرؤى بين من يرى أن وجود النص في اللغة، ومن يرى بأن النص الأدبي شكل تام، يميلنا إلى تخيل ذلك النص، فهو كما يقول حسين خمري: "والمفهوم الشائع للنص"

¹³¹ - إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، مرجع سابق، ص 15.

¹³² - دراسات في النص والتناصية، مرجع سابق، ص 26.

¹³³ - عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، 2007، ص 49.

¹³⁴ - دراسات في النص والتناصية، مرجع سابق، ص 39.

أنه شكل لغوي يمتاز بطول معين كأن يكون قصة أو رواية أو مقامة أو معلقة، أو كتابا، ولكن الفكر النقدي المعاصر ضبط هذا المفهوم ولم يربطه بالقياسات الشكلية الخارجية حيث يرى، أن النص يمكن أن يتطابق مع جملة، كما يمكن أن يتطابق مع كتاب كامل ويعرف باستقلالته وانغلاقه. ويشكل نظاما مختلفا عن النظام اللغوي ولكنه يوجد في حالة تعالق معه: علاقة تواجد وعلاقة مشابهة¹³⁵، وإذا كان هذا مفهوم النص وفي مقابله النص الأدبي، فإنه يمكن القول إن النص قد حمى وصان جحافل من قصائد ومدونات أدبية من تراثنا القديم، وحصن ديمومتها، وأبقى منها العمر المديد، وحافظ على سلامتها من الضياع. فإذا كانت الرواية الأدبية والحديثية والتاريخية، قد ساهمت إلى حد كبير في نقل الأقوال والأفكار والأحداث والمواضيع الأدبية - شعرا ونثرا - برهنة من الزمن، فإن النص هو الذي تولى هذه المهمة الحرجة. فالتسجيل يرمي "إلى تصحيح ضعف الذاكرة وعدم دقتها. هذا من جانب، ومن جانب آخر شرعية الحرف الذي هو أثر يتعذر الاعتراض عليه، ولا يحى للمعنى الذي يعمد المؤلف إلى أن يودعه في عمله. فالنص سلاح في وجه الزمن والنسيان، في وجه براءات القول الذي يستدرك، ويخلط، ويتنكر بسهولة تامة.¹³⁶ كما هو محمي من الانتحال والوضع، ومن التحريف والتزييف.

والنص الأدبي حسب عبد الملك مرتاض، هو المتفق عليه في معظم اللغات الأوروبية الحديثة بمعنى "النسيج"، بل حتى في لغتها اللاتينية المنقرضة، وهو نفسه ما نجد في فكر العرب قديما¹³⁷ من خلال معاجمها وقواميسها، لما هنالك من وجه الشبه بين النص في بنائه وعملية النسيج، "فالنص إذن نسج وهو مكوّن من مواد تشبه أدوات النسيج: فالخيوط، في تمثّلنا يقابل مادة الحبر، والخلال قد يقابل أداة القلم، والكتاب قد يقابل هيئة المنسج، ومنتجات المنسج تُشاكه، من بعض الوجوه منتجات المطبعة (أو النساخة قبل اختراع المطبعة)، والنساج (أو النساخة) يبدع فيما ينسج، وهو يركب الخيوط بعضها فوق بعض، كما يبدع في التنسيق بين الألوان، وفي الدقة وفي الحبكة والحياكة: مثله مثل الذي يكتب كلاما وهو يبدع فيما يكتب حين يركب الحروف بعضها فوق بعض، وينسج لغة الكلام بعضها من حول بعض، وفي نشدان الجمال في حبكة الأسلوب عبر النص الأدبي الذي هو بصدد إفرازه"¹³⁸، وبالرغم من أننا نلمس في هذا المثال شيئا من الاطمئنان، فإننا في الآن نفسه نشعر بأن هذا التمثيل الذي يريد به عبد الملك مرتاض إقناعنا، نرى أنه قد أقحمنا مباشرة في صلب الموضوع دون أن يقدم لنا سندا معنويا في تقبل هذه الفرضية، أو ربما هي عنده من البديهيات بحيث إن (بارت) هو أيضا

¹³⁵ - نظرية النص، مرجع سابق، ص 43.

¹³⁶ - دراسات في النص والتناصية، مرجع سابق، ص 26.

¹³⁷ - ينظر نظرية النص الأدبي، مرجع سابق، ص 44-45.

¹³⁸ - نظرية النص الأدبي، مرجع سابق، ص 65.

يؤمن بفكرة النسج على منوال العنكبوت الذي ينسج بيته من خلال لعبه. كما أننا نجد يتحدث عن النص مسلماً لذلك بالنص الأدبي دون سواه مصرّحاً في قوله "وكل ذلك ووهنا مصروف إلى النص بمعناه الأدبي"¹³⁹ بالرغم من أن مفهوم النصوص واحد، في اشتراكها وتقاطعها الأولي، ثم تمايزها. ثم بعد هذا يرفع عبد الملك مرتاض من حدّة القول ببرهان النص الأدبي في تميزه مشيراً بقوله: "وإذا كان (بارط) يزعم أن جمالية اللذة في النص المنسوج هي الكتابة ذات الصوت العالي، أو هي كتابة متعالية الصوت، فإن النص في رأينا هو نسج أنيق من الألفاظ الصامتة التي تحمل المعاني في ذاتها؛ فهو كتابة سحرية، أو كتابة كأنها السحر. النص هو نسج الألفاظ بجمالية الانزياح، وأناقة النسج، وعبقورية التصوير"¹⁴⁰ ومنه نستطيع القول إن النص الأدبي بنية فنية تقتضي الالتفاتة التي تثيرها الكلمات المشحونة بالتقنيات البلاغية والابلاغية، مستندة في ذلك إلى جمالية اللغة وقوتها، وإلى براعة التصوير التي تخلق في النص حركية، حتى لا يصبح النص نصاً جافاً، جامداً، وإنما مدغداً للجوارح، هازاً للشعور، محرّكاً للوجدان، وبذلك تتفاوت قدرات المبدعين في إنتاج النصوص الأدبية - شعراً كان أو نثراً-.

من خلال تتبع بعض الدراسات التي تبنت قضايا النص والخطاب، يتجلى أن النص الأدبي هو خطاب تشكل بفعل تراكم عدة عناصر نصية وغير نصية أو هي بتعبير عبد الملك مرتاض "شبكة من المعطيات اللسانية والبنوية والأيدولوجية، تتظافر فيما بينها لتكوّن خطاباً، فإذا استوى مارس تأثيراً عجبياً، من أجل إنتاج نصوص أخرى، فالنص قائم على التجددية بحكم مقروئته، وقائم على التعددية بحكم خصوصية عطائته، تبعاً لكل حالة يتعرض لها في مجهر القراءة، فالنص، من حيث هو ذو قابلية للعطاء المتجدد بتعدد تعرضه للقراءة"¹⁴¹ ولا شك في أن هذا التعريف الفضفاض الذي يقترحه مرتاض، هو النص المبدع الخلاق الذي تتولد فيه الدلالات والمعاني من خلال تعدد القراءات المختلفة والقراءة الواحدة المتكررة، حيث يمتلك العملية التجديدية مع سيرورة الزمن، واختلاف القراءات، نظراً للمعطيات التي يقترحها صراحة أو ضمناً، إذ لا يملك هذه الخاصية إلا النص الأدبي القويم، وهو على قدر من تجسيد بعض عناصره المعرفية التي ترى أن النص عملية مغلقة، وأن النص الأدبي هو في عمومته مغلق على (الكل) إلا على منتجه.

¹³⁹ - نظرية النص الأدبي، مرجع سابق، ص 47.

¹⁴⁰ - المرجع نفسه، ص 47.

¹⁴¹ - عبد الملك مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي"، محمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د. ت) ص. 55.

1. 4. الخطاب الأدبي

يميز "الخطاب" عملية التصنيف، التي تعني توجهاته.. والخطاب الأدبي أحد أبرز هذه التوجهات، القائمة على اختلاف منابر الحديث وسياقاته، أو على الأقل "وجود خطاب أدبي يفترض وجود خطاب غير أدبي"¹⁴² مما يعني أن هناك شروطا وضوابط تقيّد الخطاب الأدبي لتمييزه من غيره، بما أن كل خطاب يتمتع ببصماته وقوانينه. وهذا يميلنا إلى النظرية النقدية التي تبنتها الشكلانية الروسية، في استجلاء ملامح الأدبية، التي تأسست مع (جاكسون) على مبدأ خاص حين أعطى شعارا بأن "موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنما الأدبية، أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا"¹⁴³ وبذلك تكون الشكلانية قد وسّعت ضيقا، وأنارت آفاقا، حيث كانت تُعقّد للأدب حدودًا لا يجوز له أن يتخطاها، حين أُبرم بينه وبين الآداب الجميلة عقدٌ غير قابل للفصام، "بينما لا يمكن أن يكون للآداب الجميلة إلا وصف فقط"¹⁴⁴ ما جعل هذه الثورة تنجح دون اعتراض، وتبين أن الأدب معقود على قيم إبلاغية، لا على النشوات البلاغية القاصرة، ذلك أن "الأدب ثمرة الخلق المستمر من خلال قراءات مختلفة لا متناهية.. إن هذا التنوع هو الذي يصنع الأدب"¹⁴⁵ ومنه توسع مفهوم الأدب من مجرد بؤرة جمالية إلى عالم الخطاب المحبول بعناصر ذات علاقات تربط مكوناته فيما بينها ثم يربطها بغيرها دون حد، من خلال التعبير عن تجارب خاصة، فهو عملية إنتاجية وليدة أنساق مختلفة لا يشكل انفراد عناصرها أي أهمية، بل أهمية كل عنصر قيمته في تعاضده بالعناصر المتعاقبة معه لأن "الخطاب الأدبي جملة علائقية إحصائية مكثفة بذاتها حتى تكاد تكون مغلقة ومعنى كونها علائقية أنها مجموعة حدود لا قوام لكل منها بذاتها، وهي مكثفة بذاتها"¹⁴⁶ بمعنى أن الخطاب الأدبي "كيان عضوي يحدده انسجام نوعي، وعلاقة تناسب قائمة بين أجزائه"¹⁴⁷ تقوم بهذا الدور اللغة الخاصة المتولدة عن اللغة العامة التي ستصبح لغة رسمية بالنسبة للخطاب الذي يستعير منها احتياجاته منها "أي إن صانع الأدب ينطلق من لغة موجودة، فيبعث فيها لغة وليدة، وهي لغة الخطاب الأدبي، ويمكن أن نقول: إن الخطاب الأدبي هو تحويل لغة عن لغة موجودة سلفا"¹⁴⁸ إن اللغة بذلك عملية رمزية لتحويل الأفكار والدوافع إلى بني خطابية، من خلال رسائل واضحة ومحددة، "فالخطاب هو ما تؤديه اللغة من أفكار الكاتب

¹⁴² - إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، مرجع سابق، ص 19.

¹⁴³ - إبراهيم الخطيب، نظرية المنهج الشكلي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1982، ص 10.

¹⁴⁴ - نجمة من الأساتذة، الأدب والأنواع الأدبية، ترجمة الطاهر حجار، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1985، ص 17.

¹⁴⁵ - المرجع نفسه، ص 23.

¹⁴⁶ - تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، مرجع سابق ص 41 .

¹⁴⁷ - عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دار العربية للكتاب، ط2، تونس، 1982، ص 107.

¹⁴⁸ - نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، ط2، ج2، 2010، ص 11.

ومعتقداته، والخطاب الأدبي خطاب نوعي يحمل رسالة معرفية أو شعورية وجدانية، وهذا ما جعل (تودوروف) يدعو إلى استعمال الخطاب الأدبي محل الأدب أو العمل الأدبي، وذلك لاعتبارات عديدة من بينها أن هناك علاقات بين الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية¹⁴⁹ وهو النداء الصارخ والصریح الذي نادى به الشكلانية الروسية وما خلفته من حدود معرفية في هذا الشأن، على اعتبار أنها فتحت مجال الأدبية لاستيعاب عناصر غير أدبية في صف الأدبية لتجسيد الخطاب الأدبي التام، فقد "حددت البويطيقا المتجددة مع البويطيقيين بشكل أدق موضوع "الأدبية" الذي سيصبح هو "الخطاب" الأدبي وليس الأدب بوجه عام"¹⁵⁰ ومنه سعت إلى اعتماد جملة من القوانين المحددة للشكل الأدبي الذي يعبر عنه الخطاب "والشكل الأدبي هنا ليس إلا الخصائص النوعية للأدب، وهذه الخصائص لا يمكن البحث عنها إلا من خلال الخطاب"¹⁵¹ ذلك لأن الخطاب الأدبي يقوم على جملة من العناصر المهيمنة بمثابة قوانين لتحديد النوع الأدبي دون آخر، تقوم بذلك على أساس علم قائم، يحاول ضبط ما يدخل في مجال العلوم الإنسانية، ليستطيع تثبيته بقوانين صارمة، تحاول ذلك قدر الإمكان لأنه من "خصائص هذا الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي. وكل عمل عندئذ لا يعتبر إلا تجليا لبنية محددة وعمامة، ليس العمل إلا إنجازا من إنجازاتها الممكنة. ولكل ذلك فإن هذا العلم لا يعنى بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن"¹⁵²

1 . 5 . الرحلة بين النص والخطاب

لقد سمحت المناهج المعاصرة عند اكتساحها ساحة النقد الأدبي، بإعطائه وضوحا في الرؤية لتمييز العناصر الأدبية، وتحديد ضوابط أدبيتها، حيث سعت الشكلانية، وما تلاها من مناهج بنيوية [وما بعد بنيوية]، إلى إعطاء دعم إجرائي ذي قيمة علمية كبيرة، أبرزها الشعرية، والسردية.. فقد طورت كثيرا من مفهوم المادة الأدبية التي انحصرت قديما في الشكل والمضمون، على مدى غير قصير، احتدم فيها الصراع بينهما.

إن الطرح النظري الذي نادى به هذه المناهج أسس لروح جديدة في الإجراء الممارس على المادة الأدبية، وعزز قاموسها بتشكيلة من المصطلحات القائمة على الثنائيات مثل: الخطاب/السرد، الخطاب/القصة، الحكمة/القصة، المبنى الحكائي/المتن الحكائي، الحكيم/الخطاب.

¹⁴⁹ - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي - الزمن، السرد، التبئير -، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، الدار البيضاء - المغرب، ط3.

¹⁵⁰ - المرجع نفسه، ص 14.

¹⁵¹ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 14.

¹⁵² - تزييفان تودوروف، الشعرية، ترجمة شكري المبحوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990، ص 23.

ضمن هذه التشكلية تتأسس عندنا ثلاثة عناصر ركيزة: المادة الحكائية (الحكاية أو القصة)، عملية بناء الحكاية (الشكل)، طريقة تقديم الحكاية (السردي أو الخطاب). ومنه نقول: إن العمل الأدبي قائم على القصة والنص والخطاب.. باعتبار أن القصة مادة الحكاية التي بدونها لا يقوم العمل الأدبي، ثم النص الذي يقوم بعملية إعمار لهذه المادة، ثم الخطاب الذي يقوم على صياغة. وقد ركز الشكلايين على المبنى الحكائي دون المتن، الذي سيكون ثانويا "لأن كل الذين سيطورون أعمال الشكلايين الروس سيحددون المبنى الحكائي موضوعا. وليس المبنى الحكائي إلا الخطاب"¹⁵³ ذلك مسعاها الذي نادى به، وهو ما ذهب إليه تودوروف **T.Todorov** عند قوله: "وليس المبنى الحكائي إلا الخطاب"¹⁵⁴ في مقابل القصة بما تحمله من أحداث ووقائع في نظام متسلسل ومنطقي، كما يؤكد تودوروف نفسه أن الحكاية الأدبية لا تقوم إلا على مظهرين (القصة والخطاب)¹⁵⁵ وقد استطاع (تودوروف) أن يفصل في موضوع الحكاية من خلال مقولة الحكاية كقصة، والحكي كخطاب، حيث تقوم الأولى عبر مستويين: منطق الأحداث والشخصيات في علاقاتها بعضها ببعض. أما الحكاية كخطاب فيركز على تحليله من خلال ثلاثة جوانب: زمن الحكاية، وجهاته وصيغته.

وإذا كان (تودوروف) وغيره من المنظرين الغربيين خاصة (توماشفسكي) **B. Tomashevsky** قد أقاموا توازنا ثنائي القيمة في تقسيمهم السالف الذكر للخطاب الحكائي، فإن من المنظرين العرب من تقدم بخطوة هامة في التمييز بين النص والخطاب، إذ استطاع من خلال وجهة نظر سردية أن يشمل النظريات وقيم بعض الحدود على المستوى الأدبي، وتقوم هذه التقسيمات على (قصة، خطاب، نص) وهذا التقسيم الثلاثي يختلف عن نظيره الثنائي في تحديده للخطاب الحكائي ومكوناته، "ومرد ذلك إلى كون هذه التقسيمات تقوم على أسس محددة تتصل من جهة، بالخلفية النظرية المنطلق منها، والأسئلة التي يرمي الباحثون إلى الإجابة عليها"¹⁵⁶.

وهناك من يسعى إلى التقليل من قيمة هذا التقسيم الثلاثي الذي نادى به يقطين، مدعيا أن التقسيم الثنائي أكثر شمولية، لما تحتويه من ألوان إبداعية وغير إبداعية كما هو الحال بالنسبة للخطاب الديني، والخطاب السياسي، والخطاب النقدي، والخطاب الشعري، والخطاب السردية، وغيرها، بينما ينطلق يقطين من مبررات، دون أن ينكر قيمة التقسيم الثنائي، حينما نجده يقول: "يمكننا التمييز بين

¹⁵³ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 29.

¹⁵⁴ - T.Todorov, (Les catégories du récit), Communication, n°8, 1966, p133 -

¹⁵⁵ - Idip.

¹⁵⁶ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 45.

قسمين رئيسيين: القسم الأول، من حيث الجوهر نعتبره ثنائياً¹⁵⁷ وثنائية القصة والخطاب، هي أساس التقسيم الثنائي الذي يشتغل على المستويين الصرفي والنحوي، في حين يبقى يشغل الناقد "الجانب الدلالي" المتمثل في النص -حسبه- المتفاعل بتداخلات نصية أخرى تلزمه حركية غير ما يجري على مستوى القصة والخطاب، وهي العملية التناسية، التي تفعل درجة النص إلى إعطاء النص المخاطب من خلاله شرعية أدبية تواصلية¹⁵⁸ هكذا يصبح تعليقه قائماً على أن المستوى النحوي يتعلق بالخطاب الذي يضم من العناصر:

1- الراوي، المروي له.

2- الزمن.

3- صيغ الخطاب.

4- الرؤية/الصوت.

والمستوى الدلالي متعلق بالنص، ومن عناصره:

1- الكاتب، القارئ.

2- البناء النصي.

3- المتعاليات النصية.

4- الرؤيات [كذا]، البنيات السوسيولسانية.¹⁵⁹

ولا يتحدث (يقطين) إلا في إشارة إلى أن "القصة" علاقتها بالعنصر الصرفي. ومنه نثبت بأن القصة ليست هي الخطاب، كما ليس الخطاب هو النص.

يؤسس سعيد يقطين نظريته حول الخطاب والنص، في إطارهما السردي، متبنياً طرحاً متمثلاً، في السرديات الحصرية والسرديات التوسيعية، فبينما تقف الحصرية على ما حصر فيه السرديون اهتمامهم المقتصر على الخطاب، فإن التوسيعية سعت إلى تجاوز المستوى اللفظي للخطاب، بانفتاحها على مستويات أخرى لم تهتم بها في الحقبة البنيوية، وهي التي سماها هو سرديات النص¹⁶⁰، وتتحول هذه السرديات من الحصر والتوسيع إلى الخصوص والعموم، فتقوم السرديات الخاصة (الخطاب) على أسس (الجنس - الأنواع - الأنماط) بينما تقوم السرديات العامة (النص) على الأساس (الاجتماعي-

¹⁵⁷ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص38.

¹⁵⁸ - ينظر سعيد يقطين، النص والنص المترابط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص 53.

¹⁵⁹ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص38.

¹⁶⁰ - الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 24.

النفسي - الذهني¹⁶¹.. ثم يقحم "القصة ويقيم وزنا للسرد في مختلف الاختصاصات السردية بما في ذلك "القصة" و"النص" و"الخطاب"، فتقوم سرديات القصة على (الفاعل والفعل والمفعول) أما سرديات النص (الكاتب - النص - القارئ)، فتقوم على سرديات الخطاب على (الراوي - الخطاب - المروي له)¹⁶²

1 . 6 . الرحلة: حدود النص والخطاب

تبين لنا على حد ما عرضناه في هذا الجانب من تفصيل حول حدود كل من النص والخطاب، أن الخطاب والنص إضافة إلى الحكاية التي يتضمنها كل منهما في العمل الأدبي، عبارة عن عناصر قائمة بذاتها، وكل عنصر من هذه الثلاثة، يشكل لبنة منفردة في تغطية مستوى من مستويات العمل الفني (الأدبي) المتكامل. وانطلاقا من هذا تشكل الرحلة شكلا من عموم الأشكال الأدبية السردية التي تقوم على هذه الثلاثة: وهي القصة أو الحكاية العامة لمجريات السفر، والخطاب الذي يعد القناة السردية، لتمرير هذه القصة نحو متلقي [معين]، وهي النص الذي يتعاقب مع سابق ولاحقها النصوص المختلفة، وكذلك المتجاوزة وغيرها من الحثيات التي تجعل الرحلة نصا متفاعلا، وهذا الذي سوف نحاول إبراز تمثلات كل عنصر من عناصره.

1 . 6 . 1 - الرحلة باعتبارها حكاية

تقوم الرحلة كغيرها من الفنون الأدبية على مادة محكية، وهذه المادة هي ما يتعارف عليها بالقصة، وهي بالتعبير الكلاسيكي " مجموعة أحداث مرتبة ترتيبا سببيا تنتهي إلى نتيجة طبيعية لهذه الأحداث المرتبة تدور حول موضوع عام"¹⁶³ وبالتعبير الحدائي "أن القصة هي موضوع السرد ومادة حكيه"¹⁶⁴ وتواجد القصة كموضوع لا يتحقق العمل الأدبي إلا به، فهي النواة التي يتأطر عليها نتاج أدبي ما.. والرحلة كغيرها من فنون التعبير تتضمن مادة حكاية خصبة لما تتضمنه من أشكال مختلفة ومتنوعة تحققها بنية السفر الغاصة بالأحداث والأخبار والمرويات التي يقدمها الرحالة (الراوي) من خلال ما تعرض له في أثناء سفره، وما أثاره من مواقف ومشاهدات، مما يجعلها أخصب الأشكال التعبيرية على الإطلاق كونها تقدم أنماطا مختلفة، من التقرير إلى التخيل ومضامين متنوعة من المعارف

¹⁶¹ - ينظر، المرجع نفسه، ص 27.

¹⁶² - ينظر، المرجع نفسه، ص 32.

¹⁶³ - غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دت، ص 504.

¹⁶⁴ - J. Vincent. poétique du roman .ed. Armand Colin .Paris .2001. P23

إلى الفن، وإذا كان أي فن "من فنون القول العربي يتعرض في مضمونه إلى ناحية أو إلى أخرى من نواحي الحياة، فإننا نقول إن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد"¹⁶⁵ لما يكتسبه موضوعها من حرية، تتعدى أفق نمطها وتتشعب درجة مادته على كثرة الاحتمالات التي يصير غناها من غنى مؤلفها، وتوجهها من توجهه، لذلك كانت "الرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على العصر"¹⁶⁶ فحكايته ليست تسلية فحسب، بل تشخيصا لمظاهر الإنسان الواقعية المختلفة.

إن اهتمام السرديات بالمادة الحكائية يضمن تحديد الأنواع "من زاوية تركيزها على ما يحدد حكايتها، وتميزها داخل الأعمال الحكائية المختلفة"¹⁶⁷ فالحكاية الرحلية تقوم على "محكي السفر" كبنية قاعدية "تعكس تجربة ذاتية غنية وإن لم تتجاوز الرحلة فضاء حجرة ما"¹⁶⁸ قائمة على تذويت العوالم في الاطار المحدد للرحلة في ذات الزمان والمكان.

والسفر الذي يعد بنية الحكاية يقدم قصصا معرفية وأخرى مشوّقة لما تقتضيه ضروب الخطاب، كما تفرز نسيج الذات المكتنزة بالتشعبات والنزاعات الإنسانية، فالنص الرحلي يعد نصا مذوتا ينطلق مما تعكسه الذات من نوازعها وتكوينها الثقافي. يستطيع المكان المرتحل إليه أن ينحرف بالذات إلى الكشف المباشر وغير المباشر من خلال وسائط تعبيرية تتشكل تلقائيا. كما أنها تحيل استطرادا على كثير من المرويّات التاريخية والتأملات الفلسفية. وفي كل هذا يكون المكان، البؤرة الوحيدة التي يتأسس عليها محكي السفر بكل تشعباته، والزمن أيضا يعد حقيقيا ومحددا بحقيقة فعل الرحلة التي لا تخرج كونها فعلا واقعيًا في مكان وزمان معينين وواقعيين، ذلك "لأن المكان يمتلك زمنه بالضرورة، ويتحرك كاتب الرحلة للتنقل من مكان إلى آخر عبر الاسترجاع الذي تمارسه الذاكرة"¹⁶⁹.

وإذا كانت الرحلة نصا حكايا، فهو يخرج عن الحكاية الأصل التي تروي قصة السفر المدفوع نحوه الرحالة من نقطة الانطلاق إلى العودة، فالرحلة لا تقف على حكاية واحدة (الأصل)، بل عامة النص يشكل أرخبيلًا من الحكايات الصغرى، في إطار واحد، هو مسلك الرحلة ذاتها، فتحقق مادتها موضوع الجنس لأن "المادة الحكائية تتصل بـ"الجنس"، إذ من خلالها تلتقي كل الأنواع القابلة لأن تدخل ضمن جنس "السرد" أو "الخبر"¹⁷⁰ يتحدد من خلالها جملة من المقولات بغض النظر عن نوعية

¹⁶⁵ - حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط 2، 1983، ص 6.

¹⁶⁶ - المرجع نفسه، ص 6.

¹⁶⁷ - الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 224.

¹⁶⁸ - عبد الرحيم مؤذن، رحلة أدبية أم أدبية الرحلة؟. http://www.aljabriabed.net/n87_05hatimi.htm

¹⁶⁹ - أم سلمى، صورة الغرب في الرحلة المغربية - رحلة الصفار نموذجًا، مقال "مجلة المنعطف، وجدة العدد 6-7، 1993، ص 132.

¹⁷⁰ - الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 224.

الانتماء، ذلك لأن "هناك أفعالا (أحداث) يقوم به فواعل (شخصيات) في زمان ومكان (فضاء) معينين"¹⁷¹ وهي المقولات التي نجدها قائمة في حكاية الرحلة التي تجسدها أفعال الرحالين وتفاعلاتهم على أحداث السفر بمواقفه السلبية والإيجابية، في إطار زمني ومكاني محددتين ومعينين، خوّل لها "أن أصبحت نوعا أدبيا قائما بذاته، عندما بدأ تدوينها وكتابتها كنص سردي يحكي هذه التنقلات وبالتالي انتقلت الرحلة من كونها فعلا متجسدا في الزمان، عبر الانتقال من مكان إلى آخر مع حدوث أفعال ووقائع، إلى الرحلة باعتبارها فعلا محكيا يختزل تجربة الفعل السابق ويدونه في شكل سرود بضمير المتكلم"¹⁷². باعتبار أن الرحلة حكاية ذات، متسوّرة وراء المكان، الذي يصبح لسان حالها في كل الأحوال.

1 . 6 . 2 - الرحلة باعتبارها خطابا

يقوم النص على احتواء الخطاب الرحلي، فكل ما يقوم به من دور هو الحفاظ على مستوى الخطاب في انسجامه وتسلسله، ذلك أن الخطاب هو المادة المستوية على عرش النص "لذلك نجد بناء الرحلة التسلسلي يبرز جليا على صعيد الخطاب"¹⁷³ والنص هنا لا يحمل أية صفة سوى أنه حامل الخطاب، بينما الخطاب هو المسند إليه "عملية تليظ لفعل الرحلة"¹⁷⁴ ولا يقوم الخطاب الرحلي على الاعترافية في التحديد، بينما يتحدد الفعل الحقيقي الذي تقوم به ذات حقيقية تستطلع وتستكشف وتنفعل بالأحداث والمشاهدات وتتأثر وتؤثر بفعل الحوار، وهذا كله يمتحن بتحويل الفعل إلى خطاب عبر التدوير القائم على البعد الأدائي حين القيام بالخطاب عن تجربة الفعل. هذا الفعل الذي يستنفذ كل دائرة الزمن، سوف يقوم حين الخطاب بالتركيز على "الذات في علاقتها بالفضاء- الموضوع على ما هو جدير بأن يرهن من خلال فعل الكتابة (الخطاب)، وما هو جدير بالتقييد هو ما يترك أثرا خاصا في الذات، وقابل لأن يترك الأثر نفسه في المتلقي الذي هو "القارئ" الممكن الذي تكتب الذات من أجله"¹⁷⁵.

باستطاعتنا أن نتصرف في حديثنا عن الرحلة - كونه كاتباً - بأن نقمّصه شخصية المتكلم ذلك لأنه يُبَلِّغ عن فعله الرحلي باللفظ (الكلام) عبر الوسائل الصامتة التي هي (النص) ف"المتكلم في

¹⁷¹ - الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 224.

¹⁷² - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 2006، ص 20-21.

¹⁷³ - سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتحليلات، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ط 2006، ص 210.

¹⁷⁴ - المرجع نفسه، ص 210.

¹⁷⁵ - السرد العربي مفاهيم وتحليلات، مرجع سابق، ص 213.

خطاب الرحلة يتمفصل إلى مبئر وشخصية وراو¹⁷⁶ والخطاب الرحلي مسند إلى المخاطب الذي يمثل الشخصية الراحلة فهو يتقمص هذه الصفات المذكورة، في حين لا تشتغل هذه الصفات بشكل انفرادي، بل تقوم دائما على المزاجية، حيث يضم الراوي -وهو المخاطب- إليه صفة المبئر تارة، فيصبح راو/مبئر، وتارة أخرى، يضم إليه "الشخصية، فيصبح راو /شخصية. فالراوي/ المبئر "يتكلف برصد العالم، الفضاء الموضوعي وهو منه على مسافة"¹⁷⁷ تقتصر وظيفته على وصف العالم المشاهد، أما الراوي/الشخصية فدوره يتمثل في تدويت الفضاء بما يتضمنه من ردة فعل طبيعية إيجابية أو سلبية، حسب ما تقتضيه درجة الانفعال ومستوياته، قبولاً واستنكاراً، بما تتوفر عليه ثقافته وتوجهه.

ومنه تتأسس الرحلة خطاباً، بإعادة إنتاج الفعل إلى ملفوظ، الذي "يقوم على عنصر الانتقاء على مستوى الموضوع وعلى مستوى التعبير"¹⁷⁸. إذ تعد الرحلة فعلاً مشترك فيه مجموعة كبيرة من الأشخاص، يجمع بينهم فعل السفر، ولا يتم قضاء حاجاتهم إلا عن طريق الرحلة، ومن هؤلاء فئة تعيد تجربة السفر الفعلي إلى إنتاج لفظي، الغرض منه تبليغه إلى متلقٍ مفترض أو مقصود، ويصبح منه هذا النص، بمثابة رسالة يبلغها مرسل (الرحالة) إلى متلقي (قارئ أو سامع)، وإذا كان ذلك الخطاب لا يتأسس إلا عبر قنوات حيث "الخطاب ينجزه مرسل ينتج ملفوظاته وفق قواعد خاصة وغايات محدودة تتعين في علاقتها بالمرسل إليه. وبين الفعل والخطاب مسافة زمانية"¹⁷⁹ فلا بد من الإشارة إلى أن ثمة أساسيات في خطاب الرحلة تتوفر لتقييم حدودها فاصلة بإمكانها أن تعطي شرعية للخطاب الرحلي. ومن أبرز ما يعتمد عليه خطاب الرحلة كقضية أساس هو العملية السردية التي هي جديرة بإعطاء السمة الخطابية في مقابل الفعل الذي لا يمثل إلا مادة الرحلة، وليس السرد إلا عملية انفصال الذات المتكلمة عن الذات الملتقطة، فالعامل المشترك بين المرتحلين جميعهم هو الرؤية والمشاهدة التي تقترن بفعل السفر، بينما العملية السردية هي التي تحوّل الرحلة من فعل إلى خطاب.

إن خطاب الرحلة ليس كغيره من الخطابات، إذ تركز اهتمامات المتلقي على الذات الراحلة أكثر مما تتجه إلى موضوعها، فتأطير الخطاب الرحلي يقوم على دور الرحالة في تمرير رسالته السردية، مما يستهوي (المتلقي) فيحس بالفضول لتتبع مسار الرحلة من خلال الرحالة في رحلته التي يخبر هو عنها، فالرحالة هنا بمثابة العمود الفقري أو الشخصية المركزية التي تقوم بكل الأدوار، فلا نرى ولا نُخبر

¹⁷⁶ - المرجع نفسه، ص 214.

¹⁷⁷ - السرد العربي مفاهيم وتحليلات، مرجع سابق، ص 214.

¹⁷⁸ - فاطمة بوطيسو، أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس لأمين الريحاني، مذكرة ماجستير، إشراف أ.د عبد الله حمادي، جامعة منتوري قسنطينة، 2011، ص

16/15.

¹⁷⁹ - السرد العربي مفاهيم وتحليلات، مرجع سابق، ص 200.

ولا نفسّر الظواهر إلا من خلال قنواته التي يمرر بها خطابه، إذ يعد "مبثراً وشخصية وراويًا". ومن خلاله، وعبر هذه الوظائف الموكلة إليه، تقوم الشخصية الرحلية (الفعلية) بالدور السردي بناء وترميما إلى نهاية مقام المبنى العام. وفي مقابل تعدد وظائف الشخصية (الرحالة) فإنه يجدر بنا أن نتساءل، عمّا يمكن لتعدد وظائف الشخصية من تحقيقه.

إن أهم ما في الحدث الرحلي، هو تفاصيل الرحلة التي يركّب مجمل الأحداث وأهمها، ويتم ذلك عن طريق الإخبار المسند للراوي. يقوم الراوي في حال الرحلة بدورين، فالراوي لا يتوقف عن الإخبار، بينما يقوم بتوزيع الأدوار على "الشخصية" و"المبثّر"، فلا يطغى أحدهما على الآخر. وكما سبق أن أشرنا، فإن الراوي يقوم بدورين، خلال تأديته للعملية السردية: رواية الأحداث (التقرير) عبر الشخصية، ورواية الأمكنة والعوالم (الوصف) عبر المَبْثَّر. يرتكز الخطاب الرحلي -إذن- بالأساس على عنصري السرد والوصف، كإطار عام، و"كل الاختلافات التي تباعد بين السرد والوصف، هي ذات مساس بالمضمون"¹⁸⁰ وإن كان اعتماد الخطاب على السرد الذي هو "كلام واقعي موجه من طرف السارد إلى القارئ"¹⁸¹ كشرعية للموضوع، فإن الوصف عملية ادماج مزوجة للسرد، وكل منهما يشرّع دوره للآخر. وإذا كان السرد والوصف محددتين في مبنى الخطاب الرحلي، فهما مستمدتان من أحداث واقعية كل ما يلقيها واقعي، ومنه تتأسس العملية الخطابية التي تأخذ صبغتها الشرعية من خلال أسس وضوابط التي بواسطتها تتميز حكاية الرحلة عن غيرها من الخطابات، ونقصد بذلك: الزمان، والصيغة، والتبئير.

يقوم الخطاب الرحلي على السرد والوصف وهما الصيغتان المحددتان لشرعية هذا الخطاب الذي هو "بمثابة الإطار ويأتي التقرير ليتضمن. وينتهي التقرير بظهور فعل سردي جديد ينقلنا إلى فضاء يقدم بواسطة التقرير"¹⁸² ومهما اكتنف الخطاب الرحلي من تعدد في الصيغ.. فلا تعدو كونها ثانوية لا تؤثر في قوالب الخطاب العام، بل تزيده تنوعا، بينما تبقى الهيمنة للوصف والسرد "فالرحالة يسرد ليصف ويصف ليسرد"¹⁸³ والرحلة لا تقوم على حصيلة فعل الرحلة فحسب، فقد نجد هذا المكون متوفرا في كل النصوص الأدبية، بينما تتأسس على هيمنة بنية السفر التي تلازم الخطاب وهي مَعِينه ورافده، في إطار بنية عامة تشكل "ملتقى لتعدد الخطابات"¹⁸⁴ لأن الخطاب الرحلي خطاب توليفي قائم على

¹⁸⁰ - جبرار جنيت، حدود الحكمة ترجمة: عيسى بن حمالة، مجلة آفاق، الرباط، المغرب، العدد 8-9، سنة 1988، ص 6.

¹⁸¹ - ترفان تودوروف، مقولات السرد الأدبي، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد صفا، مجلة آفاق، الرباط، المغرب، العدد 8-9، سنة 1988، ص 42.

¹⁸² - السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص 218.

¹⁸³ - عبد الرحيم المودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1996، ص 7.

¹⁸⁴ - أدبية الرحلة، مرجع سابق، ص 10.

عمران متشاكل الأنماط، فلا يؤثر هذا التنوع ما دام أن عموده الفقري قائم على قبضة السرد والوصف. الذي تتحكم فيهما عين الراصد وذات المتكلم.

وإذ يشكل الزمان بعدا في تغيير الصيغ من فعل إلى رواية، يتفرد الزمان في الخطاب الرحلي كونه، زمنا فعليا، وهو زمن ثابت ومقيد بحدود المسافة الزمنية التي قضاها الرحالة أثناء رحلته الفعلية. وإذا كان هذا الزمن الفعلي مقيدا، فإن زمن الفعل وزمن الخطاب، تتخلهما مسافة قد تقصر وقد تطول، من خلالها يتم خرق عبر هوة هذه المسافة لإحداث زمن قريب من الافتراض، فيصبح الزمان الفعلي زمنا محاكى، يخطب به الحكيم عبر أحداث الرحلة، ولا يتم تقديم الرحالة لزمان الفعل، فحسب، بل ما يقوم به الرحالة من خلال تأديته لعملية التخطيط، هو ترسيم الزمان الحقيقي لتمييز الخطاب، ثم بعدها يقوم بالتصرف في هذا الزمان عبر خيوط الاستطراد، الكفيل الوحيد بخلخلة مستوى السرد، عبر الاسترجاع والتأمل بإحداث أزمنة ماضية ومستقبلية، من خلال هذه القناة (الاستطراد)، المنفتحة على كل الاحتمالات ما دامت الرحلة تعد نافذة على المكان الموحى بشتى أنماطه المقدسة أو التاريخية وغيرها، كما تعد بؤرة للاستشراق.

أما من جهة "المبئر" فإن الراوي حين يشرع فيه، يسند إليه تحويل المرويات عن معالم وعوالم الأمكنة إلى أفضية، حيث إنه لا يبقى المكان مجردا، إذ هو محمول بالأسرار المنطوية تحت ضلوع المستكشف، لأنه "أربط التعبير في الخطاب بالفضاء"¹⁸⁵ وهو ما يميز الحقيقة عن العمل الفني، فإذا كانت الحقيقة تحيل على التجريد فإن الفضاء يقرّ به الخطاب حيث يصبح ممزوجا بذات الراوي الذي ينزع النزوع الإنساني العاطفي والمحمّل ثقافيا وإيديولوجيا، فعملية التعبير تتم من خلال عملية مسح لافتة، أو بما يعبر عنها عبد الفتاح كيليطو: "إن المساح ليس مسافرا بدون أحمال، فهو يحمل أدوات لازمة تنظم عمله. والفضاء الذي يخترقه ليس مرثيا إلا عبر عيون شبكة ثقافية تحصره حصرا وثيقا"¹⁸⁶. لذلك تتعهد الخطابات الرحلية بالمسؤولية الفردية في نقل تفاصيل الرحلة، إذ تختلف خطاباتها من شخص لآخر، لما تقتضيه وجهات النظر، وميول الخواطر، وطرق الاستنباط والتحري. ولو كانت الرحلات في زمان واحد ومكان واحد (رحلة الحج مثلا).

1 . 6 . 3 - الرحلة باعتبارها نصا

¹⁸⁵ - الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 225-226.

¹⁸⁶ - عبد الفتاح كيليطو، المقامات - السرد والأنساق الثقافية-، ترجمة عبد الكبير الشرفاوي، دار توبقال، 1993، ص 15.

يعد النص الكفيل الوحيد لأي بلاغ سواء تحققت فيه الأدبية أو لم تتحقق. لذلك يعتبر النص سلطانا أزليا على كل ما من شأنه أن يراد به التبليغ من/ إلى. ومنه سعت الشكلانية الروسية لإدراكها هذا الفحوى. بتركيزها على الشكل في الأعمال الأدبية في غفلة من النقد الحديث الذي أهتمها في الوهلة الأولى بالغباء. إلا أن الشكلانية استطاعت أن تثبت العكس بإعطائها صبغة علمية حيث أنها "حاولت أن تتجاوز ارتباط الفن بالواقع ارتباطا مباشرا وتجعل للفن خصوصية مميزة"¹⁸⁷ حينها أعطي للنص دفع قوي ليمركز محورا أساسيا في العمل الأدبي، بعد تعييب طاله طويلا. ومنه تهافت الدراسات والنظريات للحفر ساعية إلى إيجاد سبل لفتح النوافذ المغلقة وإجلاء الضبابية التي لازمت مفهوم النص ووظيفته سابقا.

يصبح بعد هذا المشروع الشكلاني، الحديث عن الشكل المتجسد في النص أمرا بديهيا، وهو ما سيفسره الحكم الحصري من الأشكال الأدبية عبر الزمن الطويل في ظل العدد الهائل من الأدباء والشعراء على مرّ التاريخ. ولعل الأشكال الأدبية محدودة فهي قوالب لا يجرؤ أيا كان على اختراقها، وإن علت همّة الأديب فإنه لا يمكنه إلا الرضوخ للقالب الذي يصبّ فيه جام ما أفرزته قريحته، فالنص بذلك موجود أزلي لم يخلقه المبدع "وإذا كان المبدع يبدو وكأنه ينشئ نصّا لم يُسبق إليه، وأنه عائم على العدم المحض، أي على الخيال الخالص، فإن ذلك مجرد توهم باطل، رأيت أن المبدع نفسه لا يستطيع في حقيقة الأمر أن ينشئ نصا إلا على أنقاض نصوص أخرى"¹⁸⁸ وإذن، النصوص الأدبية محصورة في قوالب إما شعرية أو نثرية، وكل نوع تتفرع عنه أنواع وأنماط أخرى، يراعي فيها المبدع ميله وقوته ليفرز انشغاله في إحدى هذه القوالب، ك (الشعر والقصة، والرواية، والخاطرة، والمقامة، والمسرحية..).

ولم تشدّ الرحلة باعتبارها أحد الأشكال الأدبية على هذه القاعدة حتى ظفرت بمن يمثلها، وهم الرحالون الذين تميزوا عن غيرهم باتباعهم هذا المسلك الذي لم يستو على سوقه إلا بعد قرون من الممارسة، ثم أضحي ميراثا أدبيا واعيا تتجاذب إليه أجيال، فيتعاقب فيه فعل الممارسة حتى يصير بالغا مبلغ الرشد، صلب العود، راسخ الجذور، قوي الحجّة، حيث إن "كل نص يكون مسكونا ومسبوقا بتأمل وإدراك أهميته باعتباره شكلا أقدر على استيعاب تجربة معيشة أو متخيلة، فحينها يختار الرحالة سكب حصيلة تجربة شخصية في قالب سردي يروي مشاهد الانطلاق والوصول، فهو يؤكد تشبته بأسلوب معني دون غيره"¹⁸⁹ هذه الانفرادية تتحقق بفعل هيمنته بنية السفر، ومنه يتشكل جنسا أدبيا

¹⁸⁷ - مراد عبد الرحمان مبروك، آليات المنهج الشكلي في نقد الرواية العربية المعاصرة، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط1، 2002، ص12.

¹⁸⁸ - نظرية النص الأدبي، مرجع سابق، ص 55.

¹⁸⁹ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص45-46.

مستقلا، يتجسد في نص "منفتح في كليته، على أشكال وحقول تتفاعل لتشبه إدراكا ورؤية وتعبيرا"¹⁹⁰ في ظل هذا، يتحقق النص الرحلي عملا فنيا، "والعمل الفني أيا كان نوعه هو بناء شكلي في المقام الأول"¹⁹¹ بمعنى أنه يتخذ لنفسه هيئة مستقلة وثابتة تعتمد عليها متغيرات على مستواها الداخلي من خصائص يحددها النوع. وفي كل الأحوال يتخذ النص في الرحلة كغيرها من الأشكال الأدبية بروزا في شكلها وظهورا في مفاصلها، وما ذاك إلا لأن النص معناه البنية السطحية النصية الأكثر إدراكا ومعاينة"¹⁹² وحديثنا عن البنية يحيلنا على عملية التركيب التي نشأ على إثرها النص العام، وليس قولنا البنية السطحية النصية الأكثر إدراكا ومعاينة إلا من باب التشكيل النهائي، أي البناء الخالص، وإلا لأصبح كل تراكم في الجمل نصا، بل يقوم النص على البناء المنطقي لعمل في ما، أو ما يسميه عبد المالك مرتاض عملية النسج التي تتم بنظام معين، يدل على ذلك قوله: "إن نسج حرف بإزاء حرف، ولفظا حذاء لفظ، وجملة بجانب جملة، ثم فقرة وراء فقرة، حتى يقوم نص ما من الكتابة: هو ما يشكل صميم عملية النسج التي يقوم على تركيبها خيط اللحم ما طال من السدى، حتى يقوم ثوبا منسوجا، أي نصا منصوصا"¹⁹³ هذا النص الواعي، يصير نصا راشدا يميز نوع الرحلة عن غيرها من النصوص. وهو مستوى فيزيائي يتحكم في بناء النص النمطي الذي يتدرج منطقيا عبر الدائرة المحتملة التي تدور رحاها على مبدأي الذهاب والإياب (أي طريق الذهاب وطريق العودة) وما يتخللهما من محطات كالاستهلال، والتقديم وعادات السفر، وتقاليد كل بيئة في التوديع والتجهيز للسفر، ثم طريق الذهاب وما يتخلله من مختلف المشاهد والأحداث، ثم الوصول وما يتضمنه ثم العودة والوصول وعادات الاستقبال، وغيرها. ولعل هذا البناء النمطي قليلا ما تظفر به الرحلات الحديثة التي اختصرت كثيرا من محطات السفر.

يمكننا القول إن النص الرحلي هو الخطة المنتهجة في بناء الخطاب العام للرحلة وفق نشاط عقلي منسجم يتحقق من خلال التقييد الكرافي المحدد بالخط وتقسيم الفقرات والفصول والصفحات. وليس تواضع النص بهذا الحد، بل يعد النص قوام العمل الفني (الرحلي) الذي تتكامل فيه عناصر الفنية، من - الكاتب، والقارئ. ومتعاليات نصية، و بنيات سوسيولسانية. فهو بهذا يمثل المستوى الدلالي القائم على العمل البنيوي متجلية في التماسك والانسجام في علاقته بالمتلقي في الزمان والمكان، في إطار البنية النصية الكبرى التي تنتمي إليها، كظاهرة كبرى، مركزية في كل نص، تستقطب وتحاكي تراكمات

¹⁹⁰ - المرجع نفسه، ص 54.

¹⁹¹ - عادل مصطفى، دلالة الشكل - دراسة في الاستطيقا الشكلية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص 49.

¹⁹² - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 43.

¹⁹³ - نظرية النص الأدبي، مرجع سابق، ص 50.

نصية أخرى دخيلة، تربطها بالنص علاقات مختلفة قريبة وبعيدة "واضعة إياه في نطاق مختلف المقولات التي يتم فصل إليها العمل الحكائي، فتعاین الفعل النصي من خلال الإنتاج والتلقي، وترتبط كلا منهما بفعل (الكاتب - المؤلف)، و(القارئ - السامع)، وتضعهما معا في زمان وفضاء معينين"¹⁹⁴.

2. الرحلة وحدود الأدبية / التجنيس

2. 1. بدايات تمييز أدب الرحلة من الرحلة الجغرافية

قبل أن نخوض في هذا المبحث، لا بد أن نحاول التنبيه إلى ملاحظة هامة، وهي كون الرحلة قد دأبت دارجة في عموميات مصطلحاتها ملازمة بالجغرافية، ولعل الباحثين العرب كلهم راحوا يتبعون دعوة المستشرق الروسي "إغناطيوس كراتشوفسكي" حين وسم كتابه الشهير "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، فساروا على خطاه، داعين إلى أن الرحلة ذات جلاب جغرافي، فما كان منهم إلا تضيق لبعد الرحلة الشاسع. وتقليص له في دوره الجغرافي ومن ثم جرت المقارنة بين الأدب الجغرافي وأدب الرحلة، أو التمييز بينهما وبين الجغرافية الوصفية، مع العلم أن العرب عرفت "رحلة الشتاء والصيف" التي كانت رحلات تجارية في أساسها، قبل أن تعرف رحلات المسالك والممالك. فكل المقارنات المميزة بين الرحلة كنص أدبي والرحلة كنص عام (لا أدبي)، كان يتداول بين الباحثين العرب بين ثنائية الرحلة والجغرافية. ومثال ذلك ما نجده عند نقولا زيادة، الذي حينما يميز أدب الرحلة الذي تحكمه خصائصه الفنية من غير أدبيتها يقول "وهذه اللفتات في مذكرات السائح هي تمييزه من الكاتب الجغرافي، فالأخير يسأل ويستقصي للتحقيق، أما الرحالة فينقل ما يشاهد وتكون صورته جزئية"¹⁹⁵، فهنا نجد نقولا زيادة يعمم الرحلة ويجعلها تحمل المعنى العام لأدبية الرحلة في مقابل غير الأدبي وهي الجغرافية، بينما الرحلة بنية تتمخض من خلالها رحلة، هي في الأخير تنفرح حسب شكلها ومضمونها إلى قالب فني وآخر غير فني. ومثل ذلك نجد عند محمد الفاسي الذي يقول: "للتمييز بين الرحلة والجغرافية يمكن القول: إن التحدث عن الذات وتعرض الكاتب لشخصه وأفكاره وعواطفه وأحاسيسه هو الفيصل بين كتب الجغرافيا والرحلة"¹⁹⁶. فكل الإشارات التي ترمي إلى المقارنة بين الأدبية وغير الأدبية في النص الرحلي هي مقارنة في الأساس بين الرحلة والجغرافية. ولا نجد من ضرورة في إدراج كثير من الأقوال والآراء التي تنحو هذا النحو، فقد أنفقت جل البحوث جهودها في سبيل تمييز أدب الرحلة من الكتابات الرحلية العامة، واستخلاصها من خلال خصائص محددة، ومما أسفرت عنه نتائج الدراسات هو تمييز الرحلة

¹⁹⁴ - الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 226.

¹⁹⁵ - نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، 1987، ص 16.

¹⁹⁶ - ينظر الإكسبير في فكاك الأسير، محمد بن عثمان المكناسي، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط، 1965، صفحتا أ، ح. من المقدمة.

كونها بنية سفرية إلى طوابع وأنماط، منها ما تحقق الأدبية، ومنه ما يجيد عنها، وكما أسلفنا الذكر، عن كون الرحلة الأدبية تقابلها الجغرافية.

وما نجده من بين التصنيفات التي حققت نوعا من التفرد وإقامة شيء من توازن التصنيف الذي وضعه ناصر عبد الرزاق المواقي، حيث يرى أن الرحلة تتوزع من خلال طوابعها، إلى اتجاهات ثلاثة، الجغرافية الوصفية، والأدب الجغرافي، وأدب الرحلة، حيث يقول: "الأساس في النصوص التي يتناولها هذا البحث أنها نتاج رحلات واقعية، وأن طريق التدوين هي التي تصنف هذه النصوص بين الجغرافيا الوصفية والأدب الجغرافي وأدب الرحلة، فإذا اختفت العناصر الأدبية والذاتية -أو ندرت- صنف النص على أنه جغرافيا وصفية. وإذا حاول الرحال أن يوازن بين الموضوع والذات فإن عمله يصنف على أنه أدب جغرافي. أما إذا طغت العناصر الأدبية الذاتية فإن عمله يصنف على أنه "أدب رحلة" يتتبع خط سير الرحلة"¹⁹⁷. ومن خلال هذا التصنيف، وبالرغم من القصور واعتماد الرحلة في مقابل الجغرافية. حيث إن الباحث قد خصّ الرحلة في عمومها بأنها لا تخرج عن دائرة الجغرافية، وكأنه بالضرورة يخرج الرحالة ويسير في أرجاء المكان مستقصيا عناصر المكان جغرافيا، بينما نجد -مثلا- المؤرخ الذي لا يهتم الوصف بقدر ما نجده يحرص في تنقلاته إلى الكشف عن مصادره التاريخية، والإثنوغرافي الذي يخرج عن دائرة الجغرافي تماما ليروصد عادات الشعوب وأعرافها وتقاليدها، والرحلة الزيارية أيضا والعلمية والحجازية كلها باستطاعتها العزوف عن الجانب الجغرافي (الوصفي للطبيعة الجغرافية). كما أننا نلتفت إلى أن الباحث ركز على الوصف دون سواه وبني من خلاله ملحوظته، بحيث إن الوصف سمة من سمات الجغرافية الوصفية، وبالرغم من ذلك فإن هذا لا يعيق العنصر الهام وهو التركيز على العملية الأدبية في الرحلة التي تتحقق في ذات الرحالة، هذه الذات هي التي تحقق الأدبية من عدمها إذ "إن شخص الرحال يكاد يكون مختفيا في نصوص الجغرافيا الوصفية، بينما يظهر على فترات متقطعة في حال الأدب الجغرافي، أما في أدب الرحلات فحضوره دائم وفاعل. وهذا الحضور هو الذي يكفل الوحدة الموضوعية للعمل، ويضفي عليه السمة الفنية، مما يجعله جديرا بالانضمام إلى حظيرة الأدب"¹⁹⁸ وهذا كما قلنا من قبل، إذا تغاضينا وحصرن القول في الرحلة كونها تنحاز إلى خارطة الجغرافية.

197- ناصر عبد الرزاق المواقي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية -مكتبة الوفاء- القاهرة، ط1، 1995، ص35.

198- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص14.

2 . 2 . أدبية الرحلة من منظور بلاغي

لقد شاع في أوساط النقاد، وبالأحرى عند دارسي أدب الرحلات على وجه الخصوص، أن سمة الأدبية مكمّنها في جملة من العناصر الفنية المنعقدة في الخصائص الأسلوبية، التي تنضوي تحت لواء المكونات البلاغية بمنطلقات شخصية ذاتية نابعة من شعور متدفق، وحس واعٍ، وهي تشكل الآليات "التي يصفون فيها البلدان والأقوام، والتي يذكرون فيها أيضا أحداث تجوالهم، ودوافع رحلاتهم، وما قد يصاحب ذلك من بلورة لانطباعات شخصية، أو إصدار أحكام تقويمية لما شاهدوه أو سمعوه"¹⁹⁹ يميز ذلك حافز الرغبة والفضول الذي يدفع القارئ إلى تتبع حكاية الرحلة التي تقدم مادتها بأفق انتظار شديد التطلع "نظرا لارتقاء الوصف في كثير من أعمال الرحالة وبلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على عملية الأسلوب القصصي، السلس، والمشوق، أدخلت أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي، وأصبحت قراءة أدب الرحلات متعة ذهنية كبرى"²⁰⁰ فهذه جملة عناصر تشف عن بعض الحدود القائم عليها الجانب الفني في الكتابات الرحلية، انطلاقا من حس بلاغي واع تجسيدا لانفعالات، وهو ما كان يتصوره كثير من النقاد، مثلما يؤكد عبد الله الركيبي بقوله: "فإذا عُني الرحالة بتصوير شعوره بوصف ما شاهد، أو حاول استخلاص فكرة معينة؛ فإن رحلته حينئذ تدخل في مجال الأدب لأنه ينفعل، ويتأثر، ويصور لنا هذا من خلال عمله الأدبي، ولكنه حين يصف الأشياء بنوع من التجرد فهنا يصبح مؤرخا لا أدبيا، لأن حظ الخيال في رحلته يكون قليلا"²⁰¹ ومن ثم تبرز الآليات الإجرائية الفيصلية بين الأدبية وغير الأدبية في العمل الرحلي، وهي في جملتها عناصر بلاغية تنحرف بالنص المجرد إلى تحريكه بلاغيا، بشتى أنواعها البيانية والبديعية، وتغذيته بعناصر العمل الفني، من تشويق وسلاسة لغة وبساطتها، وقوة وصف، وحس الصورة. يراعي فيها الرحالة بوعي بالغ الرابطة بين السارد والمسروود له، من خلال استدراجه إلى عالمه المبلّغ عنه، وهو يحمل تفاصيل هذا العالم الجديد بجرارة شديدة، يريد أن يبلغها برغبة كبيرة. وهذا ما يجعل من أسلوب الرحلة سهلا بسيطا في سطحه، ذلك لأن "صله وثيقة تربط بين أدب الرحلات والجمهور"²⁰² ولهذا يريد الكاتب (الرحّالة) من الجمهور أن يتفاعل معه، ويعيش وإياه الأحداث كما عايشها هو بنفسه، في محاولة بالغة إلى تقريب الصورة له قدر المستطاع. من أجل ذلك يقوم الرحالة أثناء شروعه في تدوين رحلته، بإضافة شحنات عاطفية على الموضوع لاحتواء قارئه لتتطابق عاطفة الرحالة (الكاتب) بالجمهور (القارئ).

199- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 138، يونيو 1989، ص 17.

200- المرجع نفسه، ص 17.

201- عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1978، ص50

202- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص14-15.

2 . 3. أدبية الرحلة من البلاغية إلى الإبلاغية

لقد شكل الدرس الغربي المعاصر في فضاء الدراسات النقدية والأدبية، مجالاً رحباً وفسح طريقاً لتبني الكثير من القضايا المتعلقة بدراسة هذين المجالين، ومن هنا نجد من أخذ بحظ من هذه التقنيات والآليات الوافدة، قد حظي بتبني الكثير من هذه القضايا، ومن ذلك ما نجد في التحول الذي عرفته دراسة أدبية الرحلة التي خطت خطوة كبيرة في تجاوز المعارف التقليدية، كون الأدب أو الكتابة الفنية، هو ما كان يتميز بخصائص أسلوبية (بلاغية)، وإنما الأمر لا يتوقف عند هذا الحد الذي يصبح قاصراً، وإنما تتعدى الأدبية من حدود البلاغية إلى سعة الإبلاغية، ونلفي الباحث المغربي عبد الرحيم مودن رائداً -حسب اعتقادنا- في تبني هذه الدعوة وتحرير الأدبية الرحلية من المرجعية البلاغية إلى البنية "ويبدو أنه من الضروري الإلحاح على الأدبية الموسومة بها الرحلة، تتعد عن التقسيم التقليدي الشائع للكلام (شعر ونثر) كما أنها تتعد عن المرجعية البلاغية التي تقتضي إصدار أحكام القيمة على نص ما، بل إنها تؤسس بلاغتها بمحاورتها للغة المعيارية السائدة من جهة، وتقديم الخصائص المضمونية والبنائية للمنتج (الرحالة) من جهة ثانية".²⁰³ وهذه دعوة صريحة للأخذ بالنص إلى تشكيله البنيوي وليس إلى عملته المتداولة من قبل، والقاصرة على الجانب البلاغي الذي يميز النص جمالياً وفنياً في حدود قيمية، ومن ثم تتزحزح الرحلة في مفهومها الأدبي من الشكل الفني إلى الشكل السردي، الذي يكون الجانب الفني عنصراً من تشكيلته الكلية. ومن هنا نجد أن المودن يتنخب نموذجاً من الأعلام الدارسين لأدبية الرحلة، ألا وهو حسين نصار، ويجاوره في هذا النص فيقول: "يجعل حسين نصار من المعيار البلاغي فاصلاً للتمييز (بين الفني وغير الفني من الرحلات) في حين تمتلك الرحلة أدبيتها من الكلام الأدبي وغير الأدبي"²⁰⁴.. معتبراً أن ما كان متداولاً لا يمت إلى الأدبية بصلة، وإنما هو عنصر ثانوي من عناصرها متمثل في الجانب الفني، بينما الأدبية تتجاوز ذلك إلى شمولية أعم. ومن ثم يخرج المفهوم من دائرته الضيقة إلى فسيح المفاهيم، ومساحة السرد ذات التضاريس المتشعبة، التي تستوعب طاقة أكبر من الخصوصيات، منها ما هو بلاغي، ومنها ما هو سردي، هذا الأخير الذي كان مهمّشاً، بل مهملاً عند جمهور النقاد، الذين كان تصورهم مقتصرًا على الجانب البلاغي "دون الالتفات إلى الجانب الإبلاغي الذي يتجاوز البلاغي وهو عنصر من عناصر الإبلاغ، نحو مستويات البناء الفكري والجمالي بدلالاته المختلفة في الرؤية والتشكيل".²⁰⁵ لأن قيمة الرحلة تكمن في نسقها البنيوي، وليس في

203- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر -مستويات السرد-، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006، ص37.

204- الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص25.

205- المرجع نفسه، ص25.

عمليات التجميل الذي لا يتجاوز مفعوله حد الاعتدال الحبكي في مستوى من مستويات شد النص وتناسقه، لذلك كان "فضول المعرفة وعطش العلم والرغبة في الكشف عن التيه والتعرف عليه أقوى من الرغبة في التجميل الفني"²⁰⁶ هذا الأخير الذي لا يمثل إلا عنصرا من كتلة العملية السردية القائمة على الجانب الإبلاغي، الذي لم يُستوعب من قبل.

2 . 3 . 1 . الرحلة وإشكالية التجنيس

تقف "الرحلة" في مواطن كثيرة على أنها مستقلة بشخصيتها الأدبية، متميزة بخصائصها، منفردة في عرفها، وهو ما يجعلها جسدا معترفا به في عرف الثقافة العربية وغير العربية، في حين عندما تحوّل إلى المعايير العلمية التي تمنحها الشرعية الاجناسية، تؤدي هذه المؤسسة بتعسف قوانينها إلى تضيق قنوات الاعتراف والتمكين لها. ليس ذلك إلا من تعدّد وجهات النظر واختلاف الآراء حول موضوع الأجناس في حد ذاته، الذي يعدّ إشكالا أزليا.. حتى وإن كان الجنس الأدبي "مقولة توحد مجموعة من النصوص الأدبية حسب معايير مختلفة"²⁰⁷.

وقد تفاعلت توترات التشريع الأدبي تفاعلت مع المنجز الرحلي بدءا بمشروعه الجغرافي، دون أن تقرّ له بالأدبية، فلما اكتمل فيه النضج وحقق ذاته، بداية من روادها كاليقوي وبعده ابن عربي وابن جبير وغيرهما، تبين أن صفة الأدبية قد باتت من صفات الرحلة، ومنه "سعت الرحلة إلى تحصين كل ما راكمته منذ القرن الرابع للهجرة تدوينا، فقطع إشكال تجنيسها شوطا أوليا عن طريق تطهيرها ضمن تصنيف عام سيعرف بـ"الرحلة"²⁰⁸ فمن المحيّر إذًا، أن يختلف الدارسون حول شرعية الأدبية في النصوص الرحلية، ما دامت تحمل صفات هذا النوع، الذي صارت له خصوصية على مستويات متعددة. فصرامة النظرية الأدبية أطرت خصائص ومعايير العمل الأدبي الذي صار متجلبًا بصرامة قوانينها المائزة للنوع، وحسنت أمرها في "إقصاء الخطابات والممارسات غير الأدبية"²⁰⁹. وبين الأدبي وغير الأدبي مسافة الفرق التي تسمح بالتمييز، ذلك أن "الأدب هو أن يقول شيئًا آخر غير ما يقوله بوضوح للوهلة الأولى وبهذا يختلف عن الكلام العادي"²¹⁰ ويتسنى منه أن العمل الأدبي يخلد بإشعاعه المفضي إلى

206- سيد أحمد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، دت، ص 120.

207- BEAUMARCHAIS (Jean-Pierre), COUTY (Daniel) et REY (Alain), Dictionnaire des littératures de langue française, tome II, Paris : Bordas, 1994, pp. 966-970.

208- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 41.

209- جوناثان كالر، مدخل إلى النظرية الأدبية، ترجمة مصطفى بيومي عبد السلام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003، ط1، ص 37.

210- الأدب والأنواع الأدبية، مرجع سابق، ص 22.

التأويلات والدلالات المتعددة، ومواكبة ذلك مع أزمنة مختلفة، في حين يتوارى مفعول الكلام العادي بعد أداء وظيفته مباشرة.

وطرُحَ بهذا الشكل حول مفهوم الأدب، لا يعد في الحقيقة أمراً مختلفاً فيه، بينما تتباين وجهات النظر، في الأدبية وليس الأدب، أي، أين تكمن القيمة الأدبية أو كيف تتحقق أدبية أدب ما، في العمل الأدبي؟ إذا حُقَّ فيه أن نقول عنه بأنه عمل أدبي، وهو السعي الحثيث الذي من خلاله كانت ثورة الشكلايين لاستخلاص المفهوم القديم للأدب الذي تتخايل فيه مؤطرات خارجية عن النص لتقييم عليه الوصايا، وهذا الذي نَفَر منه المفهوم الحديث، وقام بتحويل "مركز القيمة في الأعمال الأدبية من السياق التاريخي والسياسي الاجتماعي، والسياسي النفسي لتضعه في السياق المنبثق من الأعمال الأدبية ذاتها أي في طبيعتها الشعرية بالمفهوم الواسع لكلمة الشعرية التي لا تقتصر على جنس بذاته وإنما تشمل كل الأجناس الفنية"²¹¹ ولعل هذا المفهوم الجديد، هو الذي ساعد موضوع الرحلة على بلوغ مرتبة هامة في سلك الأجناس الأدبية، ليس من باب جمالية الألفاظ المجللة بفضفاضة القول، ووصولاً إلى البلاغة، الذي كان فيه الاهتمام قائماً على الصور المجازية والاستعارات وهو الكلف الذي "من شأنه أن يؤدي إلى وقوع لبس في فهم رسالة الكاتب، التي تقصد إلى الإبانة عن أفكار معينة"²¹² بل إلى قيمتها الأدبية بكل ما تحمله هذه الصفة من معايير.

ومن هنا يمكننا القول بأن الدرس الرحلي قد خطى خطوات حينما تجاوز المفهوم الضيق لأدبيته، حيث لم يُعَد مفهوماً ضيقاً "يعمد إلى الإبهام اللفظي أو التجميل الفني، وإنما يتوخى التعريف والتثقيف، والجمع بين شهادة الرؤية من ناحية، وشهادة الحواس من ناحية أخرى"²¹³ في إطار ما تفرضه اللغة بانصهارها داخل الموضوع الذي تعمل على تحويله من بنيات مختلفة في تصورات الكاتب إلى شبكة من الرموز اللغوية التي تنتظم لتعطي صورة متكاملة، وهذا ما يجعل من الرحلة وأي عمل أدبي، يجمع خطاباته في مؤسسة نصية تعمل اللغة على تنظيمه وترتيبه، ومنه يغدو نص الرحلة كغيره نصاً لغوياً "فهو نص لغوي محول قائم بعناصره ورؤاه، يقود إلى التعامل معه "نصاً" مفتوحاً على خطابات متعددة"²¹⁴. وعليه، فإن قيام "الرحلة" كموضوع أدبي مؤسس على عناصره الأدبية التي تحقق له أبواب الانضمام إلى أحد مرافق الأجناس الأدبية. وما دام أن الرحلة قد أجبرت المؤسسة على

²¹¹ - صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 1996، ص 88.

²¹² الحسن الغشتول، رحلة السرد - وظائف ومنازع في الرؤيا والجمال -، مجلة الراوي، النادي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، العدد 25، 25 شوال 1433 / الموافق ل سبتمبر 2012، ص 126.

²¹³ - مشوار كتب الرحلة قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ص 119.

²¹⁴ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 42.

ضمّهما إلى هذه الفئة، فالحديث عن أدبية الرحلة بات من باب النافلة "وهو قصد واضح بانتسابها إلى حقل السرد، باعتبارها كتابة أدبية تتوافر على مكونات سردية وآليات كتابية تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعيتها في خانة الأدبي"²¹⁵.

وإذا كان الحديث عن إجناسية الرحلة قد تم إقحامه -دون ما حاجة إلى استعمال الحجج والبراهين-، وما دام هذا الموضوع، قد سبق من اجتهد فيه وحقق منه جوانب لحلول الإشكالات²¹⁶ فإننا لا زلنا نرى أن إشكالا لا يزال قائما، وهو المتعلق بالسؤال التالي: من أي زاوية نتناول الحدث الرحلي موضوعا أدبيا، هل من ناحية النص أم من ناحية الخطاب؟ أو من كلاهما معا؟ لعل الجواب على هذا الإشكال يمر عبر خارطة قد وضعنا لها أسسا من قبل، ومنها سنستمد التفاصيل اللاحقة.

يضمن العمل الأدبي أولا، صفة الأدبية، التي سوف لن تكون إلا إجراء صريحا في تحديد النوع، ثم لا يعدو هذا العمل أن يكون إشكالا من حيث الانتماء الاجناسي الذي لا مناص من اتخاذ شكل مميز يليق به لأن "الجنس أحد القوالب التي تصب فيها الآثار الأدبية"²¹⁷ فميدان الأدب ليس ساحة مستباحة للعابثين من أجل قول أي شيء، بينما الأدب انضباط على قواعد وأسس استمد عُرفه عبر مراحل زمنية طويلة، وتكونت بذلك، الأجناس الأدبية من خلال نواة كل نوع، وعبر تفرع الأنماط، وهذا ما يجعل للأعمال الأدبية حصانة. فصبّ الإبداع لا يمكن أن يكون في غير محل يرعاه، ولا قالب يستوعبه "ذلك لأن أي نص، حتى عندما لا يعلن عن انتمائه إلى جنس معين، أو يصرح بموقف علني ضد الجنس، تظل له سماته الجنسية الخاصة"²¹⁸ وهو ما يفسر كثرة الإبداع الأدبي وتعددده في ظل محدودية الأجناس الممثلة له.

إنه باستطاعة أي باحث له ثقافة حول موضوع الرحلة أن يدرك التميّز في الأعمال الرحلية، وهي نابعة من صفة العمل ذاته، الذي يتوفر على خصوصيات النوع، أولا فيتم التعرف عليه، ذلك لأنه يحمل صفات وخصائص ثابتة، معيارية بالنسبة لثقافة شريحة معينة. إذن، بهذا نستطيع القول بأن موضوع "الرحلة" مكشوف إلى حد ما، وهو ما تبرزه خصوصية الثبات الدالة عليه والمشروطة على كل عمل من نفس النوع، وبالتالي يصير حاملا لجنس بعينه، وهو ما يمكن أن نستنتجه من أن "الثبات موئل الجنس"²¹⁹ والثبات يكمن في الحكاية ذاتها التي سوف يوظفها النص بقيم شكلية ثابتة، ومحددة،

²¹⁵ - المرجع نفسه، ص 41.

²¹⁶ - نذكر على سبيل المثال شعيب حليفي، في كتابه الرحلة في الأدب العربي، و عبد الرحيم المودن، في كتابه: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر -مستويات

السرد-، وكتاب أدبية الرحلة.

²¹⁷ - ينظر عبد الواحد لؤلؤة، الأجناس الأدبية، مجلة الأديب، العدد 109، سنة 2006.

²¹⁸ - الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 186.

²¹⁹ - المرجع نفسه، ص 219.

وما يبرز في الرحلة من ثبات، هو وقوعها في إطارها الشكلي، وليس الشكل قالب أصم، في حدود الفهم الضيق لمعناه فهو "لم يعد غشاء إنما وحدة دينامية، لها معنى في ذاتها خارج كل عنصر إضافي"²²⁰ عكس ما راج عند خصوم الشكلايين، بأنه ذلك الغطاء الذي يحجب النص ويصف جسده، بل هو الذي يَشِفُّ عمّا بداخل هذا الجسد (النص) في تفاعل عناصره وفق ما يقتضيه عمل كل جنس من الأجناس، وهي بارزة عن أدوات وعناصر ثابتة "وتشمل هذه الأدوات، الصوت، الصورة، الإيقاع، التركيب، العروض، النبر، تقنية السرد، أي كل مخزون العناصر الأدبية الشكلية"²²¹..

ومن المعلوم أن العمل الفني الذي يحمل الرحلة موضوعا، هو قائم على خطاب ونص، يجليان حدثا أو موضوعا يتعلق بحكاية (سفر). إن المفيد بالنسبة لحاكي "الحكاية" إلى من تبّلغه، هو نقل هذه الحكاية جملة حتى يتم القصد، ولما كانت هذه العملية لا تتم إلا عبر وسائط، فالخطاب يتولى هذه المهمة، على اعتبار أن الخطاب سابق للنص، فالأصل في نقل الخبر (القصة) يتم بواسطة تقليدية وهي المشافهة، وهو ما حدث للخطاب الشعري العربي القديم الذي ظلّ خطابا لما ينيف على الثلاثة قرون.. بينما يصبح النص زعيما للأعمال الأدبية في عصر الثقافة والمثاقفة، ويصير له شأن أساسي ليتنازل بذلك (الخطاب) عن صدارة الحدث الأدبي لصالح النص، هذا الأخير لم يعد -هو الآخر- يقبع في حفظه لوثيقة تظل الظهر، بل هو موضوع الشعرية، التي تتحقق من خلال مجموعة الخصائص التي يصبح فيها الخطاب جزءاً بالإضافة إلى صيغ التعبير وعوامل خارجية وداخلية مؤثرة في النص، وهو ما يعرفه (جيرار جينيت) بـ"جامع النص" حيث يقول: "ليس النص هو موضوع الشعرية، بل جامع النص"²²². ولما كانت العناصر المشكّلة لجامع النص تتفاوت بين أساسية وثانوية، يشكل الخطاب عنصرا هاما في القضية، ولو أن -الخطاب- في العمل الرحلي قاصر على حدود الرسالة التي يبلغ بها الراوي مرويه لمروي له، التي يتم عبرها نقل الحكاية مبتورة من كل متعاليات نصية، فالخطاب هو الذي يحمل على عاتقه سمة البطولة في النص الأدبي، باعتباره حامل لواء الأدبية داخل العمل الأدبي "بشكل أدق موضوع الأدبية الذي سيصبح هو الخطاب الأدبي وليس الأدب بوجه عام"²²³ أي إن العملية السردية هي التي تتولى مهمة الأدبية في النص الأدبي.

يصهّر النصُّ الخطابَ بإعطائه الشرعية الأدبية التي يمنحها الاستدراج النمطي المؤلف عند مؤسسة التحنيس ذلك لأن "شرعية انتساب الرحلة إلى الجنس المستقل بينائه وخصائصه يعود إلى هذه

²²⁰ - نظرية المنهج الشكلي، مرجع سابق، ص 41

²²¹ - أحمد بوحسن، نظرية الأدب: القراءة - الفهم - التأويل -، دار الأمان، الرباط، ط 1، 2005، ص 12.

²²² - جيرار جينيت: جامع النص، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 1985م، من المقدمة.

²²³ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 14 .

النمطية في التأليف²²⁴ فالعمل الرحلي لا يقوم على الكيفية التي تقوم بها العملية السردية في تأليف عناصرها وسياق مكوناتها، بينما تقوم -أيضا- على أساس كبير، وهو تنميط العمل الرحلي، وفق أنساق متعارف عليها، فبينما يقوم الخطاب في بت الرسالة، يقوم النص على شمول الخطاب وإفرازات العمل الإجناسي الذي يتسلط على هذا الخطاب، ليعطيه أكثر من ميثاق، و"القول بنصيتها هو انفتاح على دينامية الرحلة، وعلى خطاباتها المسندة على طرفي الذات والآخر، وجسور التعبيرات المختلفة عنها وحوّلها"²²⁵ إن كاتب الرحلة لا ينطلق في تخطيط فعل سفره، إلا من باب الشرعية النصية للعمل المراد (الرحلي) لإدراكه الواعي على إقدامه على مثل هذا الشأن، فهو لا يقدم خطابه إلا بأبعاد نصية، قائمة على النمطية، المحددة على عناصر ومكونات يتفاعل معها الخطاب، فينسج عبر تفاصيل مقاماته حدود خطابه، حتى تنسجم الإرادة السردية بمحدودها النصية كون "الرحلة نصا منفتحا في كليته، على أشكال وحقول تتفاعل لتشديد إدراكا ورؤية وتعبيرا"²²⁶ ذلك لأن الرحلة يقف وسطا بين متجلي واقعي، ومتخيل محتمل، وراسب موروث، ومنه "يقود توليد واقع ثان يحمل خطابه ونسقه الخاص والعام"²²⁷ في إطار الرواسب الموروثة التي صنعتها يد الزمان في تحديد نمطية الكتابة المتوارثة.

ووفقا لهذا كله، تشكّل الرحلة موضوعا أدبيا من خلال مستويين يحدّد اتجاههما موضوع الرحلة (مادتها الحكائية)، وهما المستوى النحوي والدلالي، فبينما تستوي الرحلة موضوعا منطقيا من خلال بنائها النحوي المحدّد لروابطها الذهنية ومستواها الفكري، مانحا الشرعية الأدبية المنعطفة على العملية السردية حيث تتحوّل أحداث حكاية الرحلة المخبر عنها، بوسيط سردي "يتألف من نفس الأحداث بيد أنه يراعي نظام ظهورها في العمل، كما يراعي ما يتبعها من معلومات تعينها لنا"²²⁸ ومنه وكما سبق -في غير هذا الموطن-، فإن الأحداث المشكّلة لمادة الحكاية (رحلة) تتم صياغتها وفق برنامجها السردية، ومحتواها المادي، برؤية إستراتيجية من خلال راوٍ قاصدا مروى له. وهي عملية بنائية، تسند وظيفتها إلى اللغة القائمة على مبدأي الاختيار والتأليف الذي "سوف يصر إلى تنسيق تلك العبارات فيما بينها وإلى إيضاحها ضمن سياق اجتماعي ثقافي. وسوف تتحول على هذا الأساس إلى إيضاحات فتتحول اللغة إلى خطاب"²²⁹ ومنه، الرحلة عبارة عن "خطاب رحلي"، والخطاب الرحلي يقوم على إعادة تشكيل مجموعة من الأحداث الواقعية، من خلال صراع نمطين: السرد والوصف،

²²⁴ - الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص. 23.

²²⁵ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 44.

²²⁶ - المرجع نفسه، ص 54.

²²⁷ - المرجع نفسه، ص 44.

²²⁸ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 29.

²²⁹ - تسيفيتان تودوروف، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، ترجمة عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006 ص 17.

حيث يرتبط السرد بفعل الزمان المحدد بفعل ماضي، بينما يرتبط الوصف بالمكان، وبين السرد والوصف علاقة تدرج في صيغ الحكيم المنبثقة عن الميثاق الذاتي، الذي يروي فيه الرحالة عن تاريخه الشخصي في حدود المسافة الزمنية المقدرة بين الفعل والخطاب المقدر به مسار الرحلة من جهة، ومن جهة أخرى ارتسامه للأمكنة الموصوفة، تذويتها لها، ومخلّفاً ما تمتح به الذات من عناصر ثقافية غامرة يتأسس جزاءها تيار المواجهة بين الذات والموضوع في مكاشفة صريحة للذات -تصريحاً أو تلميحاً- "وعلى هذا الأساس كان الرحالة يحمل -أثناء رحلته- مكانه [فضاءه] الأليف لتفسير الأماكن غير الأليفة التي طرحت عليه العديد من الأسئلة والكثير من التحدّيات، ومنها تحدّيات الكتابة، الكتابة عن شيء يراه لأول وهلة أولاً، ولا مرجعية له -معجماً- ثانياً"²³⁰ وهي ضرورة يفرضها الذوق الشخصي، في ترجيح الممكنات بين ما للأنثى في مقابل ما للآخر، ومنه أن "الحدث لا يخرج عن فلك الإمكان والاحتمال"²³¹ وهي طبيعة الإنسان المفعّل والمنفعل بالهواجس والتراكمات المنصهرة، في شد وجذب، حيث يقوم السرد على تفعيل هذه النوازع في مقابلة إجرائية تمييزية بين العناصر الذاتية للأنثى في مقابل العناصر الموضوعية للآخر، لأن "الرحلة هي النوع الأدبي الذي يفسح المجال أمام ترسيخ تقليد الموازنة بين فضاءين وقيمتين وصورتين، حتى في الحالات التي تقتصر فيها الرحلة على مجرد الوصف للعالم الجديد"²³² كما لا تعتمد الرحلة في خطابها على هذين العنصرين "المهيمنين" وإنما يتم إدراج الاستطراد مكوّناً أساسياً -أيضاً- وغير ذلك من المكونات لإعطاء الخطاب بعداً استراتيجياً "تأتي قدرته على التكيّف ونقل السرد من الرتبة إلى التجدد والمفاجأة بفضل الأشكال المحتضنة وتنوعها وما تشكّله من أهمية في مسار البنية السردية، سواء في شكل متخلّلات أو مكونات"²³³.

وإذا كان الخطاب يقوم على المستوى النحوي في إحكام مادته الحكائية بمنطق سردي، فإن النص يقوم بذلك على المستوى الدلالي، لتعميم العملية الشاملة لما يقتضيه العمل الأدبي (التام)، الذي يعد فيه "المظهر الدلالي توسيعاً للمظهر النحوي وليس إلغاءً له أو قطيعة معه"²³⁴، وهي مرحلة -إن جاز لنا القول- ما بعد الخطاب، يتم من خلالها "الانتقال من الخطاب إلى النص، من البنيوي إلى الوظيفي"²³⁵ هذه الوظائف الدلالية التي تتجسّد في النص من خلال تجسيد معطيات غير بنائية ليتم بها ترشيح الخطاب وسكب فيه شروط الاعتراف النصي، التي تتولّد بفعل ثقافي عام تبوح به الأنساق

²³⁰ - أدبية الرحلة، مرجع سابق، ص 7.

²³¹ - الحسن الغشتول، رحلة السرد -وظائف ومنازع في الرؤيا والجمال-، مرجع سابق، ص 125.

²³² - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 82.

²³³ المرجع نفسه، ص 56.

²³⁴ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 53.

²³⁵ - انفتاح النص الروائي، مرجع سابق، ص 6.

المختلفة والمتعاضدة لتحيينه نصًا منفردًا (مستقلاً) في شكله وغير منفصل في بعده وانتمائه، بحيث تتحكم فيه قوانين الإجناسية، بشروطها الأدبية كون النص يتفاعله "ليس مجموعة من الملفوظات النحوية واللائحوية، إنه كل ما ينصاع للقراءة عبر خاصية الجمع بين مختلف طبقات الدلالية الحاضرة، داخل اللسان، والعاملة على تحريك ذاكرته التاريخية، هذا يعني أنه ممارسة مركبة، يلزم الإمساك بحروفها، عبر نظرية للفعل الدال الخصوصي الذي يمارس لعبته داخلها بواسطة اللسان"²³⁶ وكما نجد أن هذه القاعدة متعلّقة بالجانب اللساني في حدوده الأسلوبية، نجدها في سياقات أخرى متعلّقة بمرجعياتها التي ترتبط بها. وإذا كان الخطاب يتم من خلال بنية داخلية، فإن النص (هنا) يتمثل في تفاعله النصي الداخلي والخارجي. ليس على اعتبار النص، وإنما على اعتبار الزمن، الذي يحدّد (الداخلي والخارجي) منه. فالنّاص يلجأ إلى التدوين النصّي مستندا على مرجعيات نصية يتفاعل فيها النص المصاغ بما سبقه من نصوص سألته محتوته نمطا عاما وهذا على المستوى الخارجي، إلى جانب أنه يتدفق بالفعل نفسه مع نصوص معاصرة سواء أكانت هذه النصوص أدبية أو غير أدبية²³⁷. ويحدث التفاعل من خلال الداخلي والخارجي، ذلك لأن الكاتب حين يبدأ في عملية التدوين، يحتاط ويتحرى ويستمد طاقته النصية من سابقه من خلال تراكم النصوص المفضية إلى الشرعية الاجناسية، في مستواها العمودي، بينما على المستوى الأفقي يركن إلى مخلفات بيئته من إنتاج معرفي نصوي. وبذلك يكون الحديث عن النص عكس الحديث عن الخطاب، فإذا كان هذا الأخير يحدد نوعية العلاقات بين الخطابات وكيفية اشتغالها من حيث سرودها وطبيعة عرضها وتحويلها بنائيا، فإن العملية النصية تتم من خلال تداخل النصوص أي العلاقات التي تحكم النص بغيره من النصوص أو ما يعرف بالمتعاليات النصية "وهكذا سوف لن نتحدّث عن خطاب مسرود مثلا ولكن عن مناص وتناص وميتا-نص.. ونبحث عن كيفية اشتغال النصوص، داخل نص.. وأبعادها النصية"²³⁸ ومن هنا يكون كل جنس أدبي ممثلا بنصه المخصوص بمميزات خاصة به.

وشأن الرحلة شأن النصوص عامة تتخذ من نصّها استقلاليتها عبر مستويات النوع وقوانينه، الذي يسمح لها باتخاذ منطق سردي خاص بها، لأن "السفر يسمح بالتصنيف، وهو في الوقت ذاته، يمكّننا من تلمّس خصائص الكتابة، ما دامت الرحلة نوعا أدبيا يقلص من دور المصادفة"²³⁹ بتبنيه لمعطى نصوي سابق، يحصّن به مكان نصّه الحالي، ومن ثم "يقدم لنا، بقدر كبير، قواعد إنتاج النص

²³⁶ - جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1997، ص 14.

²³⁷ - ينظر؛ انفتاح النص الروائي، ص 100.

²³⁸ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 53.

²³⁹ - المقامات المقامات - السرد والأنساق الثقافية-، مرجع سابق، ص 127.

وقواعد تلقيه معاً²⁴⁰ ما دام أنه قد ركن إلى الساحة الأدبية، وتميّز من الأجناس الأدبية الأخرى المعيشة له، فبات منتجا قصديا لا يشكل أية غرابة سواء على مستوى الإنتاج أو التلقي.

إن عملية تفاعل النص تُحدث على المستوى الإجناسي، باتخاذ الرحلة إتماما لمادته الشكلية المعترف بها ضمن حدود الأدبية، فالرحالة (الناص) لا يتسنى له أن يخرج عن هذا الوفاق، الذي وإن ظل ينتابه الكثير من تذبذب في شكله النهائي، فإنه يحافظ على جوانب كثيرة من خصائصه النوعية، وهو الامتياز الذي يحضاه به النص الرحلي الذي يتسم بالفضفضة والتلون وعدم التقييد في حجمه وأسلوبه. وهذا ما يمنح له الشرعية في محاكاة النصوص التقليدية السابقة، بل يتسنى له حتى الاقتباس منها مضمّنا نصه بما توفّر له من نصوص سابقة.

ويتخذ النص الرحلي تفاعله من خلال تداخل النصوص غير المنتمية إجناسيا مع نصه، باعتبار أن الرحلة وعاءٌ لمادة ثقافية ومعرفية ثرية مما يجعل مفهومها "يظل بدوره ملتبسا وعاما، يضيق أحيانا عن لمّ تشدّر النص واتساعه وتسربه إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية"²⁴¹ كون مشارب الرحّالين متنوعة، وتوجّهاتهم مختلفة، وكتاباتهم حرة، مما يجعل من "الكتابة الرحلية وكل الكتابات المدرجة في سياق الرحلة، قابلة للتلون حسب التجربة التي يختبرها الرحّالة"²⁴² وبالتالي تؤدي نتيجة ذلك إلى بعث روح جديدة في كل نص، مُثقل بالنزعات الإنسانية من جموح وإثارة واغتراب، ومن قضاياها المختلفة، التي تجدد في النص الرحلي مجالاً للإفراز والبوح أكثر حرّية وأكبر فضاء. والكتابة الرحلية واقعية يجري فيها التحيين لكل القضايا المرتبطة بأبعاد المقارنة بين الأنا/ الآخر، والها/ هنا، لأن "منهج الكتابة وطريقة التأليف يفرضان رؤية خاصة للأشياء، وملامسة متميزة للظواهر"²⁴³ ليس هذا فحسب، بل مجالاته غير محصورة، وتقنياته ليس لها حد، فهو "يخترق وجه العلم والأيدولوجيا والسياسة، ويتنطع لمواجهتها، وفتحها وإعادة صهرها، ومن حيث هو خطاب متعدد، ومتعدد اللسان أحيانا، ومتعدد الأصوات غالبا"²⁴⁴ فالنص -إذن- عموما، والرحلي منه خاصة، لا يصنّف على قدر الترتيب والإحاطة، بقدر ما هو نتيجة طبيعية لانصهار كل عناصره المشكّلة للبنية التي تبدو جامدة، بينما هي هذا النص المفعّل للخطابات، ومنه نعتبر أن النص يهدّب بتقنياته عمل الخطاب فيؤطره جنسا أدبيا. لأن الرحلة تتميز على أنها "ملتقى لتعدد الخطابات"²⁴⁵ حيث تتشكّل صورتها السردية من خلال التنوع في جمع شتاتها

²⁴⁰ - المقامات المقامات - السرد والأنساق الثقافية -، مرجع سابق، ص 127.

²⁴¹ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 42.

²⁴² الحسن الغشتول، رحلة السرد - وظائف ومنازع في الرؤيا والجمال -، مرجع سابق، صص 125 - 148.

²⁴³ - المرجع نفسه.

²⁴⁴ - جوليا كريستيفا، علم النص، مرجع سابق، ص 13-14.

²⁴⁵ - أدبية الرحلة، مرجع سابق، ص 10.

من معرفي وأدبي، فهذا الذي يدعيه خطابا ينصهر في بوتقة واحدة وهي النص الذي يضمن لهذا الخطاب جنسا معيناً هو جنس الرحلة التي "تظل مدينة لموضوعها، قبل أن تدين لوجودها النصي"²⁴⁶ وإذا كان النص، هو الوشاح الذي يربط مختلف عناصره المشكلة له، الظاهر والخفي، المحكم والمضمر، فإن ثمة خصائص مائزة يتشكل بها النص الرحلي، فالنص في معناه "البنية السطحية النصية الأكثر إدراكاً ومعاينة"²⁴⁷ معنى ذلك أن النص بالرغم مما يحمله من فائض في الدلالة، فهو القائم أساساً على جملة من العناصر الظاهرة، التي تمنحه الشرعية الأولية، فهو عملية تناصية. وليس التناص في الرحلة قائماً على النصوص من النوع نفسه، بل قائمة النصوص المضمّنة طويلة، وأجناسها متداخلة، وبنياتها متشعبة، فهو النص السيري والجغرافي، والتاريخي والمعرفي، والشعري وغير هذا وذاك، كل ذلك يشارك في الخلوص إلى مفهوم نص الرحلة، الذي لا يتم فهمه "دون فهم علاقاتها وارتباطها، في إطار التفاعل الذي اتسمت به مع أشكال أخرى أو ما نصطلح عليه بدائرة التخصيب"²⁴⁸ كما أن أعراف النص قد اهتمت إلى تواضع على بنيات غير سردية قائمة من أجل تحديد مستويات مخصوصة. ومنه، إن الرحلة قائمة على عدد منها ما يعرف بالعتبات، التي تحيل إلى قضية هامة، وهي تمييز النص الرحلي عن غيره من النصوص. فالعنوان والتقديم والاستهلال والخاتمة، شروط فنية لا نبجدها في غير النص الرحلي، الذي لا يتقاطع مع الخطاب، ولا يشترك في خصوصيته مع النصوص الأدبية الأخرى. ذلك لأن العنوان قائم في النص فهو "ذو تعريف خبري تعليلي لأنه يقوم بتوجيهنا قصد النظام الجنسي للعمل، أي يأتي ليخبر عن الجنس الذي ينتمي إليه هذا العمل الأدبي أو ذاك"²⁴⁹ ولا تخرج (في الغالب) إشارات العناوين الرحلية عن لفت القارئ إلى نوع النص، على اعتبار أنها تقرب منه الموضوع بصيغ لافتة تشير إلى معجم "الرحلة" (رحلة - سفر - جولة - سياحة...) ثم الاستهلال الذي يلفت فيه الناص القارئ إلى موضوعه، وغالبا ما يكون الاستهلال بمثابة الميثاق الملفت لنوع النص الذي هو "الرحلة". كما أن الخاتمة، وهي تتم بعد سردية العودة، من خلال الإشارة على نهاية الرحلة، ولو أنها تتضمن خطاباً، أو مرحلة من مراحل السرد، فهي على المستوى النصي، قائمة على خصائص نمطية قد تقيد خلاصة العرف النصي.

²⁴⁶ - أدبية الرحلة، مرجع سابق، ص 10.

²⁴⁷ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 43.

²⁴⁸ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 56.

²⁴⁹ - عبد الحق بلعابد، عتبات - جيران جينيت من النص إلى المناص - منشورات الاختلاف، ط 1، 2008، ص 89.

2. 3. 2. الهيمنة وخصوصية أدبية الرحلة

ميّزت الشكلائية في نظرياتها، الأعمال السردية، بمحددات، فخصّت "المهيمنة"، المصطلح الذي يحدّد الجنس الرامي إلى معرفة خصوصية النوع الأدبي، إذ تعدّ "أكبر علامة مميّزة تتجلى من خلالها الأدبية"²⁵⁰ وبما أن الخطاب الأدبي يقوم على الأدبي وغير الأدبي، فمن جملة ما تقوم به أنها عناصر بانية لشكل تام، هو في الأصل عناصر هذه المكوّنات التي تتدافع مكّملة بعضها البعض في صورة عدم التساوي الذي يخلق تميّز طرف على طرف فتغدو المحددات لصاحب الغلبة، لأنه "من تفاعل مكوّنات العمل ترتقي مجموعة من العوامل على حساب مجموعة أخرى، وفي عملية الارتقاء هذه يغير العامل المرتقي العوامل الأخرى التي تغدو تابعة له ويسمى المرتقي حينئذ المسيطر أو الباني أو القيمة المهيمنة"²⁵¹ التي تشكّل بؤرة العمل الأدبي المحدّدة للأدبية، تصير حينئذ طافية على السطح في حين تتوارى الإشارات العابرة، لأن "الخاصية المهيمنة الطاغية هي التي تجعل من الخطاب خطابا أدبيا"²⁵² وذلك حسب توجه النص الرامي إلى استهداف موضوع من الموضوعات، أو تأطير شكل من الأشكال، ومن ثم تستطيع "المهيمنة" أن تحافظ على مستوى العمل الأدبي، بتنظيمه على مستويات لا يطغى فيها جانب على جانب، تسير فيه الهيمنة لعناصر دون سواها، لاستقطاب العملية السردية، واستدراج العناصر الأخرى بصفتها مكوّنات مكّملة، أو ما يعرفها (موكاروفسكي) بالصور الأمامية في مقابل الصور الخلفية، ف" (الأمامية) تعني مجموع العناصر البارزة في العمل الفني، في حين تدل (الخلفية) على العناصر الثانوية الأخرى التي تساعد على إبراز العناصر "الأمامية"²⁵³. وتلك نتيجة حتمية يفرضها سياق النص حين يبرز بطريقة آلية عناصر على حساب أخرى، تكون الأولى بؤرة السياق العام لأدبيته، تنصاع له العناصر الخلفية طوعا، لأن العمل الأدبي شركة بين مجموعة من العناصر التي يجمعها موضوع واحد، تكوّنه بنية خاصة، هي مجموع اللبّات يصير المهيمن منه اللبنة الأساسية أو الجوهرية التي يقوم عليها البناء العام، الذي تصير فيه هذه البنية معالم لتحديد النوع، من خلال العناصر الغالبة "وبذا أمست (المهيمنة) سعياً للكشف عن الوظيفة - أو العنصر الغالب - على بنية النص الأدبي وتلك هي الوظيفة الشعرية التي تهيمن على ما عداها من وظائف فيه"²⁵⁴ لتصبح هذه العناصر المهيمنة موضع

²⁵⁰ - نظرية المنهج الشكل، مرجع سابق، ص 81.

²⁵¹ - محمود العشري، الاتجاهات النقدية والأدبية الحديثة، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003، ص 37.

²⁵² - مولود بغورة، أدبية الخطاب في المثل السائر، رسالة دكتوراه إشراف أ.د. عبد القادر هي قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر، 2005/ 2006، ص 25.

²⁵³ - ينظر يان موكاروفسكي، (اللغة المعيارية واللغة الشعرية)، تقدم وترجمة ألفت كمال الروبي، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الأول أكتوبر-نوفمبر-ديسمبر

1984، ص 43.

²⁵⁴ - علي حداد، المهيمنة وتجلياتها، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق - العدد 387 تموز، 2003. ص 35.

القيمة بالنسبة للعمل الأدبي الذي يسعى دائما إلى الخلق والتفرد، فليس العمل الأدبي عملا مجردا، بل هو يطفح بالعناصر القيمية ذات الصلة بموضوعها مجسدا في التشكلات الدلالية والجمالية. إن المكون المهيمن عامل أساسي ومحوري يلعب دور القطب الذي يدور حوله كل ما من شأنه أن يدخل في اللعبة السردية من قريب أو من بعيد "باعتبارها عنصرا بؤريا للأثر الأدبي، أنها تحكم، وتحدد وتغير العناصر الأخرى، كما أنها تضمن تلاحم البنية"²⁵⁵ يجعلها نظاما مركبا ومتماسكا، ذا نسق مرجعي بالنسبة لهذا الأثر الأدبي، تطغى عليه المهيمنات كمعالم تستقر فيها على شكل يغدو هو النوع الأدبي المائز بين مختلف الأنواع. ولا تظهر المهيمنة باعتبارها قطب العملية السردية إلا من خلال خاصية الصياغة التي تربط المهيمن بما ينجذب إليه من عناصر خادمة، تلتف حوله بجاذبية مغناطيسية، وهو الذي يمنح لها المشاركة لضرورة شد الخطاب وتوجيهه إلى غاية مقصودة.

يبدو أن النص الرحلي يستفيد من هذه الخاصية لتحديد نوعه، ولإثبات ذلك من خلال معالمة الخاصة به والتي تحدد له انفراده على المستوى الاجناسي التي يمكن من خلالها "رصد مجموعة أشكال ذات تأثير وحضور في النص الرحلي تتحوّل إلى عناصر أساسية في نسيج البناء النصي والدلالي، وذلك بدرجات متفاوتة من مؤلف لآخر بحيث يمكن تسجيل بروز "العنصر المهيمن" أو العناصر المهيمنة داخل النص الواحد، في إطار هذا التفاوت"²⁵⁶ على اعتبار أن النص الرحلي قد يشترك ويتقاطع في كثير من الأوجه مع ما هو أدبي وما هو وثائقي (تاريخي أو جغرافي أو...) "الأمر الذي رجّح احتساب النص الرحلي لفائدة هذه الجهة أو تلك"²⁵⁷ وما دام أن النص الرحلي قد استفاد من الشرعية الأدبية، فهو يبرز بذلك من خلال عناصره المهيمنة التي تحدّد نوعه، وتكشف عن عوراته، لتشخصه جنسا أدبيا قائما بذاته، يحمل كل صفاته القائمة على العناصر المهيمنة التي نحددها في الآتي:

أ- هيمنة بنية السفر

إذا كان الإنسان لا يستغنى عن الحركة في حياته، والتنقل من مكان إلى مكان من أجل قضاء حاجاته، فإن العمل الأدبي أيّا كان، يساير هذه الحركة المتعلقة بالإنسان، ما دام أنه يحاكي واقعه ويتحدث ويشرح مصيره. وإذا كانت الأعمال الأدبية قديما وحديثا، -شعرا ونثرا- لا تستغنى عن السفر في موضوعاتها، فكيف نستقصي الأنواع الأدبية المحددة للجنس إذن؟ لعل عنصر الهيمنة قد يتولى الإجابة على هذا السؤال.

²⁵⁵ - نظرية المنهج الشكلي، مرجع سابق، ص 81.

²⁵⁶ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 57.

²⁵⁷ - المرجع نفسه، ص 57.

إن السفر الذي تستخدمه الأعمال الأدبية غير المدرجة في أدب الرحلة قد توظف (السفر) كمكون ثانوي، أو كمكوّن مكمل أو خادم لتوصيل رسالة ذات مقصدية لا يكون فيها السفر غاية، بل وسيلة من وسائله، بينما هيمنة بنية السفر تمنح للرحلة القصد والغاية، إذ السفر، يصبح في ثنايا السرد باعتباره بنية مركزية²⁵⁸ فكل محطات السرد -هي- نابعة من بنية السفر الذي كل ما في الخطاب مردّه إليه، يدخل في ذلك حتى الاستطراد وبنى أخرى غير سردية، ذلك لأن منبع هذه البنى هو إشعاع الأمكنة التي يمنحها السفر باعتبار أن "السفر يسمح بالتصنيف، وهو في الوقت ذاته، يمكننا من تلمس خصائص الكتابة"²⁵⁹ فكل ما يقترحه خطاب الرحلة يفتح على محطات السفر، ذلك لأن الرحلة (السارد) يتقيد بخط السفر زمانا ومكانا، من خلال تنظيم سروده، واستطراداته النابعة من ذات المصدر، وإن ابتعد السارد وخرج من النص تماما، فذلك نابع من خصوصية الرحلة، حيث لا يعدّ الاستطراد مَهْمًا بلغ به الحيف، إلا مشدودا بخيط السفر الذي منحه مجالًا ليتنفس شكواه أو اغترابه، أو تأملاته، أو حينه، أو ذكرياته..

إن السفر كبنية مهيمنة، تبدأ علاماته من عنوان النص ثم الاستهلال ثم السرود المختلفة (الانطلاق - الذهاب - الوصول - العودة)، كما أنه يقوم على وسائل السفر المادية والمعنوية، في إطار العملية النصّية والخطابية، من خلال مستوى الشكل والبنية والأسلوب، فالرحلة حكاية سفر غناها من غنى التجربة التي قامت بها الذات، وقادت إلى الكتابة.

ب- هيمنة السرد الذاتي

لا شك أن السيرة الذاتية تتقاطع مع الرحلة في مفترق طرق رئيسة، ذلك لما لكل منهما من اعتماده على تجلي الذات في خطابه، فالسيرة "حكّي استعدادي نشري، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركّز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة عامة"²⁶⁰، من خلال مجموعة من المرتكزات السردية التي تضبط العملية وتحدد منهج الكتابة السيرية وميثاقها، متمثلة في "شكل الكلام، والموضوع المطروق، ووضع المؤلف، ووضع السارد"²⁶¹، وهي المستويات نفسها - تقريبا- التي يقوم عليها السرد الرحلي الذي يعمد إلى حضور الذات بطبيعتها ممارسة لفعل الخطاب ومشاركة في تدويت المعالم والعوالم والأمكنة والمشاهد التي يتم اختيارها بصفاتها ذات أهمية لإبرازها في

²⁵⁸ - أدبية الرحلة، مرجع سابق، ص 26.

²⁵⁹ - المقامات - السرد والأنساق الثقافية، مرجع سابق، ص 127.

²⁶⁰ - فيليب لوجون، السيرة الذاتية - الميثاق والتاريخ الأدبي-، ترجمة عمر حلّي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1994، ص 22. 23.

²⁶¹ - المرجع نفسه، ص 23.

النص، أهم عنصر مهيمن في إعطاء النص صبغة أدبية، "فلا يخلو نص رحلي من حديث عن الذات والتأمل في سيرها، ضمناً.. أو صراحة"²⁶² إذ إن "الرحلة تشكيل لنص ذاتي/شخصي بخصوص الأنا والآخر.. يتبين متكيفا في شكل معين للتعبير عن رؤية معينة انطلاقاً من خطاب مفتح عنه في البداية، أو مضمّر في تضاعيف السرد والوصف والتعليقات"²⁶³ وتكتسي الذات أهمية قصوى في الخطاب الرحلي، باعتبارها أكبر نسق تتفاعل من خلاله مع كل العوامل فالرحلة "قناة تسمح باستيعاب الذات الفردية للموروثات الثقافية للجماعة التي تنتمي إليها، حيث إن هذه الذات تتمثل معتقدات هذه الجماعة وأساطيرها تمثلاً بنيويًا"²⁶⁴ كما أنّها تبرز سيرة الإنسان والمكان في عدة تجليات، كأن تفرز ثقافة مجتمع من خلال سرد الذات الغامرة والجموحة بما تحمله من شحنات عاطفية وثقافية وإيديولوجية. والذاتية ركن ركين في العملية السردية للخطاب الرحلي فلا يكاد يتحرك السرد الرحلي إلا بتدرج الذات الحاكية التي هي في الأصل تروي سيرته المحدودة، فالرحلة يخبر عن مرحلة من حياته، محدّدة بزمن هذه السفيرة التي يحاكيها كتابة.

وإذا كانت السيرة الذاتية ليس لها حدود فاصلة تماماً بينها وبين الأجناس السردية القريبة منها، إلا فيما يتعلق بحدود الجنس الأدبي كونها "زبقيّة فكثيراً ما تتداخل هذه الأجناس وتصبح بمثابة الأواني المستطرقة عندما تستعير من بعضها بعض أساليبها الإنشائية وتقنياتها الفنية"²⁶⁵، إلا أنّها قد تتقاطع، بل تتطابق مع كثير من هذه الأجناس، ونعني بها أجناس السرد الذاتي كالمذكرات واليوميات والرحلة، هذه الأخيرة التي يبدو أن التطابق بينها وبين السيرة بادياً من خلال "المؤلف والراوي والشخصية، وعلى صعيد الاسم الذي يستعيره السارد - الشخصية في المروي نفسه، والذي هو اسم المؤلف المعروض بإثارة لافتة على غلاف الكتاب"²⁶⁶، إن التطابق بين الرحلي والسيروي لا يتعدى مما يحمل سوى جزئيات بسيطة تجعلهما يتقاربان، حيث يجمع بينهما عنصر الذات الساردة، التي تحكي في الأولى حكاية بسيطة، هي حكاية سفر، بينما في الثانية تجتهد في عرض تفاصيل عن عمر بأكمله. وبينما تركز الرحلة على التحليل في عموم سردها، مما يضيف عليها هيمنة "التزعة التحليلية فلا يأتي المقطع السردية في أغلب الأحيان إلاّ لكي يكون استشهاداً على فكرة وتأكيداً لموضوع"²⁶⁷، والرحالة بدوره حريص على "استثمار آليات المحاجة للاستدلال على صحة منطق معين، وإبطال منطق آخر، مستنداً إلى

²⁶² - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 60-61.

²⁶³ - المرجع نفسه، ص 45.

²⁶⁴ - الحسن الغشتول، رحلة السرد - وظائف ومنازع في الرؤيا والجمال -، مرجع سابق، ص 128.

²⁶⁵ - محمد البارد، عندما تتكلم الذات - السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث -، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2005، ص 12.

²⁶⁶ - السيرة الذاتية - الميثاق والتاريخ الأدبي -، مرجع سابق، ص 39.

²⁶⁷ - ينظر؛ عندما تتكلم الذات، مرجع سابق، ص 28.

براهين وأدلة عقلية ونقلية²⁶⁸ وهذا يميل إلى قربها من جنس المقال أكثر منه من جنس السيرة، النابع من مرجعية الزمن الذي تستمد منه موضوعاتها، وهو القريب عهد في مسافته بين لحظة الفعل ولحظة التدوين، كما أنها تقوم على اعتبار الحقيقة، فهي حريصة على تقديم وثيقة معرفية "في حين تتعرض الإحالة المرجعية في السيرة الذاتية إلى ضرب من التشويش والاضطراب فلا سلاح لكاتب السيرة الذاتية سوى ذاكرته والذاكرة معرضة لآفة النسيان وهو "غربال لا يمرّ من ثقبه إلا ما هو جوهري"²⁶⁹ وإذا كانت السيرة تعطي وضعاً ثقافياً واجتماعياً مضمراً، فإن الرحلة تجليه عبر محطات الأمكنة المدوّنة، وكل منهما "حصيلة امتزاج نوعين من الكتابة: التدوين التاريخي والحكاية الفنية"²⁷⁰ فإن استطاعت أو أرادت الأيدي الفنية أن تصقلها فناً، كان لها ما أرادت، وإلا فإن قيمتها لا تنزل لأنها تحمل صفة الوثيقة التاريخية، فهي تجربة في كل الأحوال، بإمكانها أن تعطف على قيمة إضافية فتؤسس لعمل فني، وهي المزية التي يحملها السرد الذاتي الذي ينطلق من الواقع ليمتد إلى محاكاته لأن "السارد في الرحلة، كما هو الشأن في السيرة الذاتية، هو الذي يعيش التجربة مرتين: مرة أثناء حركة الجسد، والثانية أثناء حركة الملفوظ أو أثناء حركة السرد"²⁷¹

وبغض النظر عن كل ما يتجلى من فروق على المستوى الاجناسي تبقى كثير من النقاط المشتركة القائمة على سيرية الرحلة، باعتبارها مستوى من مستويات خطابه، حيث لا يستغني كاتب الرحلة في حديثه عن الذات وإلا صارت كتابة عن المسالك والممالك، فحضور الذات من عدمها علامة فارقة بين أدب الرحلة والجغرافية الوصفية²⁷². إن ضمير "الأنا" -إذن- سيكون له بروز قوي ويزداد هذا الضمير تجدراً في متن الرحلة، عند تعاملنا مع الخصائص البارزة في الكتابة الأتويوغرافية وهي شكل من أشكال التعبير²⁷³ تتعدد في الخطاب الرحلي، ويظل ضمير المتكلم قائماً على طول خط الرحلة، فهو مقومها وقوامها باعتباره "شهادة تاريخية بدأ بخروج الرحالة من مكان إقامته، مروراً بمحطات عديدة، لا يتردد الرحالة خلالها في الحرص على تسجيل لحظات الدخول والخروج، وصولاً إلى هدف الرحلة"²⁷⁴ ومنه تأخذ الذات إجازة الهيمنة المسلطة على رقبة نص الرحلة، سواء على مستوى طول المسار، المقدر بطول العملية السردية، أو على مستوى الحثيات التي تفرضها بعض المحطات حينها تصير فيها الذات

268 - الحسن الغشتول، رحلة السرد - وظائف ومنازع في الرؤيا والجمال-، مرجع سابق، ص 129.

269 - عندما تتكلم الذات، مرجع سابق، ص 10.

270 - عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت، 1983، ص 41.

271 - الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص 219.

272 - ينظر عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث - مكونات السرد-، دار هومة، الجزائر، 2014، ص 46.

273 - تتعدد أشكال التعبير وتتداخل في الكتابة الرحلية، فهناك السيرة الذاتية والقال والمذكرات، واليوبات، والحكاية وألوان من القصص ..

274 - الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص 66.

متأججة "تطفو خلاله تعابير راشحة بتذكريات تحوّل الحديث عن الذات إلى مرآة شفافة وحميمية"²⁷⁵ وإذا كان الرحّالة يقدّم حكاية عن المكان باعتباره البؤرة المهيأة لمسرح الأحداث والمشاهدات، فإنه في الآن نفسه، يقدم حكايته الشخصية فهو يقدم "حكاية الرحّالة وحكاية الرحلة، إنها سيرة من خلال سيرة المكان"²⁷⁶ ولعل مدار الرحلة هو هذه الثنائية القائمة على الشخصية والمكان، اللتين تعدّان ركني النص الرحلي، فلا يستطيع القيام على واحدة دون الأخرى، وإذا كان المكان متعددا، وفضاءاته كثيرة ومتباينة، فإن الشخصية واحدة يتعدّد فيها ويختلف منها تفاعلات ونزعات تفرضها بؤر الأمكنة، ومنه يصير تحديد الجنس الأدبي قائما على هيمنة الشخصية، كفعل ذاتي أبرز ما يمكن الحديث عنه ذلك لأن "الوجود السيري في نسيج الرحلة يظل حاضرا بكافة وجوهه داخل البناء العام وبين ثنايا الدلالات في أي نوع من النصوص الرحلية، تتفاوت تظاهراته وهيمنته باعتباره بنية منتشرة تتحقق على مستويات وبدرجات متباينة من نص لآخر"²⁷⁷ تحجز الذات -دائما- ركنا أساسيا في العملية السردية، فهي القطب الذي يحرك العملية، ويقودها من بداية التجربة إلى نهايتها، مع بروز توترات على مستويات متفاوتة في منحنيات السرد المتأثرة بتطلعات الاستكشاف والتفاعل مع كل حدث جديد.

²⁷⁵ شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 60-61.

²⁷⁶ الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص 219.

²⁷⁷ شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 61.

الفصل الثاني

إشكالية المدونة

ومضان تمرکز النص

1. مظان الرحلة وإشكالية تمركز النص

تعدّ الإشكالية التي عرفها النص الرحلي الجزائري الحديث من أعقد الإشكالات التي لم يعرفها أي جنس أدبي وغير أدبي، في المدونة الأدبية الجزائرية الحديثة. وهو -حسب اعتقادنا- من مبررات تجنّب معظم الباحثين الخوض في هذا الموضوع، بل حتى في مجالات أخرى لها علاقة بالعلوم الإنسانية جميعها.

إن الباحث في الرحلة الجزائرية الحديثة، يجد أعقد سبيل وأوَعَر طريق للوصول إلى مظان المدونة الرحلية التي تُشكّل بالنسبة للتراث الجزائري أعقد مدونة، فهي تحمل من الخصوصية ما يلزم على الباحث أن يستحدث طرق وآليات من أجل إجلائها من موقع الضبابية التي تعانيتها، حيث تكمن إشكالياتها في نصّها المبهم والغائر في تجاعيد الميراث الثقافي للأمة، التي لا تكاد تبين عن تصنيفاتها المبتوثة في شعاب الصحف في الغالب، لما تحويه من زخم وتراكمات لموضوعات مختلفة، أضف إلى ذلك أن معظم النصوص عبارة عن أشلاء مبتوثة في مساحات مختلفة من المصادر. ومن ثم يغدو الخوض في البحث عن قائمة ثابتة لمجموع الرحلات مجازفة لمن أراد أن يخوض البحث فيها، ذلك لأنه ليس يسيرا أن يتقصّى باحث واحد مجموعة هائلة من الصحف التي يتعذر الوصول إليها إلا بشق الأنفس، مع استحالة قراءتها في أحيان كثيرة -إن توفرت لديه-. حيث إن الصحف في هذه الفترة شكّلت مركزية المثقفين كتابا وقراء، لخلو الساحة من مجالات التدوين، والتواصل. وإلى جانب هذا، نجد الكثير من الكتاب، إذا ما همّ إصدار رحلة من رحلاته، جعل لها بابا من أبواب مذكراته، أو حشوا في سجلاته، أو تضمينا لدراساته، أو نسيا منسيا في أوراقه. وليس للباحث إلا السعي جريا وراء كل هذا من أجل ترميم النصوص، وضَمّ ما اندثر وتبعثر، وجمع ما تشتت واضمحل. وهو ما يُصعّب من عملية البحث. أما الجزم بالحصر للمدونة، فيعد من أعقد إشكالياتها.

1.1. الرحلة - النص التقليدي (النمطي)

1.1.1. الرحلة/ النص المستقل

مما هو متعارف عليه عند جميع المهتمين بشأن أدب الرحلات، أن الرحلة نص مستقل منفردا، في شكل كتاب مُدثّر بكامل العتبات النصية، وهو المتعارف عليه في الثقافة العالمية، منذ عهد قديم، وعند جميع الأمم، ومنها الثقافة العربية التي تعتبر نصّ الرحلة شكلا محبذا، تسعى للإسهام فيه، مما نتج عنه ترسّب مدونة كبيرة في هذا المجال عبر مسارها التاريخي، ونلفي أن المغاربة قد تميزوا فيه بشكل جلي. وبالتالي يُعدّ هذا الأسلوب تقليدا نمطيا، ميّز أدب الرحلة كجنس أدبي خالص.

لا شك في أن الأدب الجزائري الحديث هو سليل الأدب العربي عامة، وعلى الرغم من محاولات الاستعمار لتدجينه فإن الإرادة كانت محصنة، فلم تستسلم، وقاومت هذا الظرف الخبيث، حيث حاول المثقفون الجزائريون في هذه المرحلة التمسك بتقاليد الماضي شكلا ومضمونا في شتى الفنون الأدبية، مما أسفر عن إنتاج تقليدي. ولما كانت الرحلة بهذا الشكل الذي يحتاج فيه الكاتب إلى مساحة أكبر، فقد شكّل ذلك عائقا في ظروف النشر التي لم تكن مواتية للجميع نظرا لضعف الإمكانيات من جهة، ولحرية النشر من جهة أخرى، مما خلّف إنتاجا ضعيفا في هذا المجال، بل تحوّل هذا الإنتاج من استقلالية النصوص إلى مجال الصحافة الذي كان بديلا لجميع الكتاب. وغالبية من دوّن تجربته كضمّها في جملة تركاته لذلك لم نجد إلا النزر القليل من هذه النصوص مفصحا عنه.

ومن النصوص التي نلّفها تمثل هذا المجال من هذه الفترة، رحلة بعنوان "التحفة البهية في الرحلة الشرقية" ليدر الحاج أحمد بن حمو سنة 1914 و"الرحلة السنوية المقتفية للأحكام القرآنية والسنوية" لصاحبها حمو بن باحمد بابا وموسى (1863-1957)، ورحلة "معبر الفتوة" الذي طبعت سنة 1973، لصاحبها عبد الباقي الحسيني الجزائري، و"مشاهداتي في الجزائر" سنة 1949 لصاحبها محمد الساسي بلحاج الزقيمي السوفي، ورحلة العربي بن عبد الله المعسكري الموسومة بـ "الحقيقة والحجاز في الرحلة إلى الحجاز" المنشورة سنة 2011 على عاتق وزارة الشؤون الدينية والأوقاف. وهذه النصوص تعدّ ضعيفة جدًا مقارنة بعدد الكتاب الذي أسهموا في ميدان الرحلة ضمن مجالات نشر أخرى.

1 . 1 . 2. الرحلة/ النص المضمّن

يعد هذا الشكل من نصوص الرحلات الجزائرية الحديثة، نمطا متميزا، يبيّنه كاتبه حشوا ضمن كتاب يتضمن أعماله غير الرحلية، وهي من النصوص التي يصعب على الباحث الاطلاع عليها بسهولة ويسر، بحيث لو لم يتقصّ في ذلك البحث، والتخمين وتارة، بالصدفة²⁷⁸، لما حقق في ذلك من سبيل. وتتمركز هذه الرحلات حين يغتنم مؤلفوها مناسبة جمع بعض أعمالهم التي تكوّن على شكل مقالات مختلفة التوجهات في ميدان واحد من الميادين، وعلى إثرها يحشر نص الرحلة الذي يقترب موضوعها أو دافعها من الخانة الموضوعية نفسها، هذا على المستوى الشخصي، بينما على المستوى الجماعي تأتي إثر كتاب ذي موضوع عام لهيئة أو منظمة، أو جمعية، يقوم أصحابها بلمّ شمل أعمال رجالها. ويعد نص هذه الرحلات مستقلا سالما غير سياقي في مواضع هذه المؤلفات. ليس كمثّل النصوص التي نستلها من المذكرات أو السير حيث يكون فيها نص الرحلة سياقيا.

²⁷⁸ - تجدر الإشارة هنا أننا نتوقع أن نصوصا قد تكثر وقد تقل، كامنة في أعمال المؤلفين المتعددة.

ومن الكتب²⁷⁹ التي ضمنت رحلات مختلفة تخصّ مجالاً معيناً، كتاب "الفوج الكشفي الأمير خالد"²⁸⁰، وقد ورد فيه بعض الرحلات لكشّافين سابقين، وهي: "مخيم المستقبل (المخيم الصيفي عين العراس) 1948"، و"رحلة لا تنسى" لمحمد نسيب. وفي كتاب "الكشافة الإسلامية الجزائرية (1935-1955)"²⁸¹ تضمن مجموعة من النصوص الرحلية، منها ثلاثة للطاهر التجيني: "في التجمع العالمي للشباب" و"رحلة إلى مصر (1954) بعنوان "فلتة نحو مصر" و"الأسفار تكوّن الشباب"، ورحلة لمحمد الصالح رمضان "في بلاد الفراعنة". ورحلة لفار الذهب بعنوان "نظرة خاطفة على مهرجان" الجمهوري "1947".

1 . 2 . الرحلة من خلال المذكرات (الرحلة في كتب المذكرات)

يتميز فن كتابة المذكرات بميزتين: علمية وفنية، إذ يعدّ مصدراً من مصادر التأريخ، وفناً من فنون الأدب، بما يوفّره من مادة متعدّدة الأجناس الأدبية ومتداخلة المعطيات العلمية والتوثيقية. وتتشعب حسب مستويات كتّابها، من ثمّ تتخذ النصوص الرحلية باعتبارها جنساً أدبياً مستقلاً، حيناً معتبراً ضمن جل المذكرات التي كتبها أصحابها في العصر الحديث، كما أن هذه النصوص تتراوح فنياً وفق مستوى هؤلاء الكتاب، لأن كتابة المذكرات²⁸² لم يُعدّ وفقاً على أرباب العلم والمعرفة، أو ذوي الشخصيات الفذة التي لها من المواهب، ما يؤهلها أو يجعلها على تدوين مذكراتها.

وبالرغم من أن كتّاب هذه الثروة من المذكرات، ليسوا من الأدباء، بل في عمومهم أهل سياسة. فإن كتاباتهم لا تخلو من المسحة الأدبية²⁸³، ميّزها شكلها السردية الذي تتخلّله مكونات لا تخلو من المتعة الحكائية، كما أن هناك من المجاهدين من لا يحسن الكتابة لضعف مستواه التعليمي، لكن حنكته

279 - نشر إلى أن هذا النمط من الجمع صار متفشياً في الرحلة المعاصرة، عند الكتاب الجزائريين

280 - نشر الكتاب بدار دحلب، الجزائر، دت، بعنوان "الفوج الكشفي الأمير خالد" ببلكور (من رواد الكشافة الجزائرية 1946 - 1962).

281 - نشر الكتاب بدار الأمة، الجزائر، 2008، من تأليف أبو عمران الشيخ ومحمد جيجلي.

282 - لقد استفحل موضوع المذكرات في الجزائر خلال هذا العقد الأخير، بعد أن كان متذبذباً من قبل، وراج بشكل مبالغ فيه، وخاضت فيه طبقات من المجتمع خصوصاً المجاهدون الذين أحت عليهم الضرورة على تدوين مساهمهم الثوري، وشيء من حياتهم الشخصية، شعوراً منهم بالمسؤولية اتجاه التاريخ، واتجاه الأجيال التي تلح عليهم وتساؤلهم عن مجرى الأحداث والحوادث التي كان فيها هؤلاء الجزء الفاعل، ورداً في أحيان على مغالطات وقعت في مذكرات أخرى موازية، يكون في ذلك حافظاً للصحیح، كما دعاهم إلى ذلك غياب كتابة تاريخ الجزائر، وما دار من حديث حول هذه القضية الوطنية، حتى سارع كل من أدرك قيمة شهادته، في إثراء الساحة التاريخية، قبل انقضاء أجله ودفن أسرارها دون الاستفادة منها، كما أن هناك دوافع أخرى تمثل في الدعوة التي ألح فيها المثقفون على هذه الشريحة من المجتمع، وبالتالي أصبحت كتابة المذكرات تمثل الصحوة وتبته الغافلين، وتصحح مفاهيمهم، وتؤسس لكتابة التاريخ الوطني، فكانت بذلك صحوة إيجابية، على المستوى التاريخي والأدبي.

283 - قد تحتاج إلى تفسيرات، أبرزها ما يرجع إلى حكم تكوينهم الأساسي الذي كان تقليدياً في حفظ القرآن، وقراءة المتون وغيرها من المبادئ في اللغة العربية، فضاءت كتاباتهم في مذكراتهم، تملون فيها أساليب الكتابة، وتتعدد فيها الأجناس الأدبية، السرد الذاتي على الخصوص، مثل السيرة الذاتية، واليوميات، والاعتراف... بل حتى فنون أخرى كالشعر، والقصة والمقال وفن الرسائل والمخطابة..

وشخصيته منحه مناصب قيادية، فقد شارك في تقرير المصير، وعاش عن كثب مجريات الأحداث الحاسمة، فاستعان في ذلك بذوي الأقلام لكتابة مذكراته.

وتأتي نصوص الرحلة متداخلة في العمل المذكراتي وفقا لسياق حديث الكاتب، لأن المذكرات في أساسها تدوين لأحداث عاشها كاتبها، متدرجة في سياق مرحلي لحياته. هذه الحياة المملأى بالتجارب كان السفر عصبها ومانحها كل خصوصية، باعتبار أن السفر مصدر الأحداث، وملهم العواطف، وفي الوقت نفسه ضرورة من ضروريات الحياة. فلما كانت هذه الشخصيات تمثل نخبة الوطن، فهي بالضرورة -خصوصا في هذه الفترة- يتمثل لها فعل السفر أهم وسيلة من أجل التعلم، ومن أجل اهتمامات أخرى على حسب الوظيفة، أو رغبة كل فرد -من هؤلاء- في الحياة. وهو ما يجعل مدونة المذكرات ذات احتمال وارد بقوة لاحتوائه جنس الرحلة الذي يعدّ متمما لمسار هذه المذكرات، بل هو عين ما نجد أصلها في جل المذكرات التي تناولها وبشكل مستفحل.

ومما أفرزته نتائج البحث في هذا المجال هو مثل جانب مهم من الرحلات، متمثل في موضوعاتها ودوافعها: الرحلة في طلب العلم، والرحلة الدبلوماسية والرحلة الجهادية -أثناء الثورة التحريرية- حيث كان التنقل بصفة دائمة ومستمرة ومستعدية للقيام بواجب الكفاح، ثم الرحلة ذات المهام السياسية وغيرها من الدوافع. يروي الكاتب من خلال هذه المذكرات في اللحظة التي يصل إليها الحديث عن تلك الرحلة التي قام بها، مع إعطائها بناءً رحليا مستقلا له وعي بأدبيات الرحلة، من بنية شكلية متضمنة مساره على خط الطريق، وما تخلل ذلك من انطباعات ومشاهدات وأحداث، ومواقف. ومنه نستنتج أن الرحلة مكوّن أساسي من مكونات نص المذكرات. وبما أن مستويات كتاب المذكرات في الأدب الجزائري الحديث تتراوح بين شرائح وطبقات المجتمع المختلفة، فهي بذلك تنقسم إلى صنفين: صنف الكتاب الأدباء والمفكرين، وصنف السياسيين والمجاهدين.

1 . 2 . 1 مستوى المفكرين والأدباء

إن الحديث عن المفكرين والأدباء لا ينصرف عن كونهم بمعزل عن المشاركة في حيثيات الصراع السياسي والكفاح الثوري، وإنما هذا اتجاه عام، اتخذته كل شرائح المجتمع، ويأتي هذا التقسيم نتاج فاعلية الكاتب الذي قد يحقق بعدا آخر من خلال الكتابة، ولا يقتصر على التقرير أو الشهادة للحدث. ومن ثم تأتي الكتابة مفعمة بتميز وجداني وأسلوبية يعطي أبعادا لنص المذكرات. ونشير إلى أن أغلب المذكرات لا تستغني برحلة واحدة، بل قد تتعدد الرحلات وفق أهميتها في حياة الكاتب، وتتوزع بشكل زمني منسّق، قد نجد في كتاب واحد من هذا الصنف قد توجع بعدد من الرحلات، كما

أن بعضها لا توجد به أي نص رحلي لعدم جدواها من الأهمية لدى الكاتب، أو لعدم وعيه بأدبيات الرحلة، فيهمل بذلك الكتابة عن سفرياته.

وبالرغم من تفهقر المستوى الثقافي في المجتمع الجزائري إبان الحقبة الاستعمارية، فإن طائفة من هذا المجتمع تميزت بأقلام بيانية وعقول نيرة، وشخصيات وجيهة، حققت كتاباتها في شتى التخصصات مستوى راقيا من الفكر والعلمية، وكان عملها في المذكرات متميزا، مما أفضى إلى القول إن هذه المذكرات تشكّل مجالا ثرًا من حيث المادة والشكل. ومن أبرز هؤلاء: مالك بن نبي، أحمد توفيق المدني، عبد الرحمن العقون، وغيرهم.

ومما نجده من رحلات مستفحلة في عمل واحد من المذكرات، ما أورده أحمد توفيق المدني، في كتابه "حياة كفاح" بأجزائه الثلاثة. فقد غصّت هذه المذكرات بعدد ضخم من الرحلات، وتنوعت بين أدبية وسياسية، ودبلوماسية، كما تعددت اتجاهاتها من المغرب الأقصى غربا، إلى الصين شرقا، وأن منها الداخلية، ومنها الخارجية. وتعدّ رحلات (توفيق المدني) ذات طابع سياسي في غالبها "تنوع وتتسع في العالم، فيكتسي معظمها طابعا رسميا في مهمات سياسية مختلفة في الشرق وفي الغرب. فيكون في بعضها وصف لمظاهر ومواقف ومشاعر، تختلف قيمتها ومستوياتها باختلاف الرحلات والظروف التي تمت فيها والبلدان التي شملتها، وفي بعضها مجرد سرد لبرنامج الرحلة والغرض منها أو الخطوات التي قطعت فيها والنتائج التي تحققت منها"²⁸⁴، كما أنه مما يلاحظ على كتابة توفيق المدني في مذكراته عموما أو رحلاته بوجه أخص، أنه كان يعتمد إلى سند أو صكّ مادي يساعده على استرجاع ذلك الكم الهائل من الذكريات، كالوثائق واليوميات، حيث نجده يكتب مذكراته بأسلوب قريب جدا من زمن وقوع الأحداث، مما يطغى عليها شيء من الحيوية، والقوة في القول، كما نحصي عددا معتبرا من الوثائق والصور المدرجة في الكتاب، مما يوحي بأن الكاتب كان يتمتع بحس (نرجسي) في التوثيق لحياته.

وبصدد الحديث عن رحلات (المدني) فإننا قد لا نتفق مع ما ذهب إليه "عمر بن قينة" في تقسيمه لرحلة (المدني) إلى أشطار رحلات، وإنه في ذلك يكتفي منها بعناوين محددة، ويجعل من كل عنوان بداية لرحلة مستقلة عن رحلة عامة ذات مسار رحلي واحد من رحلاته، وهو -في اعتقادنا- خطأ وقع فيه (بن قينة) مع إهماله لأجزاء كبيرة من نصوص الرحلات التي اقترحها، وإغفاله أيضا لروابط الرحلات إذا ما تعلق الأمر بالاستطراد، أو شيء من هذا القبيل، ولو سميت هذه المذكرات، بعناوين

²⁸⁴ - الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، عمر بن قينة، دار الأمة، الجزائر، ط1، 1995، ص 24-25.

ذات صبغة رحلية، لكان -ربما- تغير موقفه من ذلك²⁸⁵. وربما هذا الذي يزيد من أدبيتها أكبر من تضييقها ببنية محددة. ولعلنا عند تتبعنا لخطط رحلة المدني، نجد أن مساره الأول في الرحلة بدأ منذ نفيه من تونس (بلد المولد والنشأة) إلى بلده الأصلي (الجزائر)، وهي العتبة الأولى من رحلته الطويلة التي استمرت مع طول حياته المليئة بالأسفار، وهذه الرحلة تبدأ من صفحة "333" من الجزء الأول، بداية من عنوان فرعي "فرقة السعادة" حيث كان الاستهلال لبداية الرحلة، ثم المقال الذي كتبه بجريدة "إفريقيا" الذي انتهى به أمرها إلى النفي، فكانت رحلة اضطرارية، إلا أنها كانت مرحبًا بها عند الكاتب، وقد كان مساره من تونس نحو عنابة ثم قسنطينة²⁸⁶. وبداية من الجزء الثاني يتم بعنوان "أيام قسنطينة" وهي تابعة للرحلة التي كان بدأها بعد ما انتهى به الكلام من الجزء الأول في قوله: "ثم غادرت عنابة إلى قسنطينة، وكنت أشعر برقابة بوليسية خفيفة حولي لا آبه لها، وقابلني بعض من كنت أعرفهم من أهلها مقابلة الشقيق لشقيقه، والصديق لصديقه"²⁸⁷ وهو النص الذي يحمل أكثر من دلالة وقيمة على أدبية هذه الرحلة التي عدّ فيها الأعلام، وخصها بجميل أسلوب، ولم يذكر (بن قينة) شيئًا من ذلك، بل حدّد أول رحلة من رحلاته بـ "أول العهد بالجزائر العاصمة"²⁸⁸ وهي الرحلة التي عبّر إليها عبّر مسار قسنطينة، حين قوله: "ثم غادرت قسنطينة، بعد أسبوع، حافل، مفيد، وما كنت والله أودّ فراقها، وما كانت والله تودّ فراقها، لكن حب الاطلاع من جهة، وإطاعة أوامر الوالد رحمه الله، وكانت صريحة في وجوب الالتجاء عند أقاربي بالعاصمة إلى أن يتم وعد الله كما يقول، من جهة أخرى، جعلني أمتطي القطار الليلي إلى العاصمة مودعا من قبل عدد غير قليل من الأحرار الأبرار، ومن الجواسيس الأشرار"²⁸⁹. ومن وجهة أخرى يحدّد (بن قينة) الرحلة المذكورة بصفتين من (المذكرات) وهي (24 - 25)، دون مبرر²⁹⁰ لأنه حدّد الرحلة بالوصول، ولعلنا لا نجد لما ذهب إليه بن قينة من مبرر لتحديد النص بهذه المناسبة، وهو ما لم نجد له تفسيرًا، إلا أننا -ربما- نشكّ بأن (بن قينة) ذهب إلى أمر وهو، أن (المدني) قد استقر في بلده، وليس هناك ما يدعو إلى متابعة حديثه، وهو من الخطأ -في اعتقادنا-، حتى وإن كان ذلك الاحتمال، فإن الرحلة الداخلية لها أصل في أدبيات الرحلة، بالإضافة إلى أن المدني لا زال يشعرنا بمجديث الإعجاب

²⁸⁵ - مثلما نجد في رحلة العياشي التي قد يطير بها الاستطراد إلى فيافي بعيدة عن النص الأصلي وعموده الفقري.

²⁸⁶ - توفيق المدني، حياة كفاح، ج 1، (من ص 333 إلى ص 340).

²⁸⁷ - المصدر نفسه، ص 338.

²⁸⁸ - كتاب اتجاهات الرحالين الجزائريين ص 364. والشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة ص 195.

²⁸⁹ - حياة كفاح، مصدر سابق، ج 2، ص 22.

²⁹⁰ - انظر اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة الجزائرية الحديثة، مرجع سابق، 364.

والتعجب خلال سياق النص، مثال ذلك (في القصر المنيف) "وذهبنا إلى حي (حسين داي) حيث قصر آل الموهوب ورأيت ما لم أكن أعرف من قبل: القصر الفاخر والرياش الثمين، والزرايب المبتوثة والتحف الأثرية، والأرائك المزخرفة"²⁹¹ وبالخصوص تلك المقارنة التي عقدها بين قسنطينة المحافظة والعاصمة المتفسخة "لا والله ما رأيت ذلك في قسنطينة أصلا. قسنطينة مدينة عز وشرف ومجد أمام هذا الابتدال الذي رأيت سائدا عميقا"²⁹². ويحدّد بن قينة الرحلة الثانية "سفر بحث واستطلاع" بصفحتي (99-103)، ويتغاضى عن الرحلة التي سبقتها ابتداء من صفحة 87 إلى غاية ص 98 حيث يذكر غرض الرحلة وسببها ومسار الطريق، وزاوية الهامل وما لقيه فيها من ترحيب²⁹³.

لقد جعل (المدني) مذكراته أقساما، خصوصا في جزئها الثالث، أما الجزء الأول والثاني، فنعتبرهما نسقا واحدا وامتدادا الثاني للأول، وهو يخص المسيرة الحياتية التي كانت -حسب الكاتب- مسيرة نضال وتضحيات، ساقها في طول الجزأين قبل أن يصل إلى مرحلة الثورة التي يخصّص لها الجزء الثالث.

القسم الأول - الجزء الثالث - بعنوان: "مع ركب الثورة بالعاصمة" يتحدث فيه عن دور جمعية العلماء وعلاقتها بالثورة. ويدرج رحلتين ضمن هذا القسم، الأولى بعنوان "ولسوف يعطيك ربك فترضى" والثانية بعنوان "الدعوة للقاهرة" وهي الرحلة التي توجّب أن تُحطّ مسارها عبر باريس²⁹⁴ ثم جُنيف باتجاه القاهرة، ولعل هذه الرحلة هي بمثابة عتبة الرحلات في هذه الفترة كلها، أسفر عنها القسم الثاني من هذا الجزء، والتي قسمها عمر بن قينة أيضا إلى رحلات فئات (جوازا أو تعسّفا) وهي عبارة عن رحلة كبرى طغى عليها طابع المذكرات فخلخل بنيتها السردية. بدأها بمصر مركز الانطلاق (الخروج) ثم العودة، وميدانا لتحرير أو حفظ مذكرات عن هذه السفريات وغيرها، مما جعله ينصرف "عن كتابة انطباعات رحالة هنا إلى مقيم يكتب مذكرات عادية عن نشاطه المؤلف في (مصر) ولا يخرج من هذا النشاط المؤلف إلا حين ينهض للقيام برحلات أخرى في الوطن العربي الإسلامي"²⁹⁵، لذلك يمكننا أن نعتبر رحلات (المدني) رحلة واحدة، هذه التي حيّزها بعنوان عام في القسم الثاني من الجزء الثالث من كتابه "حياة كفاح" وأعطاه عنواناً جامعاً هو: "بالعالم العربي" يقصد سفرياته إلى

291 - حياة كفاح، مصدر سابق، ج 2، ص 27.

292 - المصدر نفسه، ج 2، ص 32.

293 - ينظر حياة كفاح، مصدر سابق، ص 93 وما بعدها.

294 - وهو ما جعل عمر قينة يجددها بالرحلة إلى باريس، انطلاقا من صفحة 107، (في كتابيه اتجاهات الرحالين الجزائريين ص 365. والشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة ص 196)، وهو خطأ في اعتقادنا لأن الرحلة تبدأ بدافعها الذي كان بداية من دعوة القاهرة، وما باريس إلى محطة تحويل الطريق، وهو يصرح بصريح العبارة في قوله: "هي دعوة رسمية من الجبهة بأن أغادر الجزائر فورا دون انتظار، وأن ألتحق بالقاهرة لأكون ضمن الوفد الخارجي حيث أتولى النضال إلى جانب إخوان أطهار. (حياة كفاح ج 3، ص 105).

295 - اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، مرجع سابق، ص 197.

الوطن العربي حيث كانت أعماله الوطنية هناك، أما (الدعوة للقاهرة) التي سبقت الحديث عن هذه الرحلة عنها، فهي مجرد استهلال ومقدمة لإطار رحلي عام، ومن ثم تتفرع رحلاته المتعددة إلى كل الأقطار انطلاقاً من القاهرة والعودة إليها، في فترة زمنية محدّدة بحرب التحرير الكبرى، فمنذ "أول يوم في القاهرة"²⁹⁶، الذي خص به عنوان أول رحلة في هذه الجولة، تفرعت جولاته جميعها، وهي رحلات متعددة²⁹⁷ تشكل أكبر نسبة من حجم الكتاب نفسه.

إن كل هذه الجولات تنطلق من رحلة كبرى هي رحلة وظيفية تتعلق بنصرة القضية الوطنية عربياً ودولياً، والتنسيق لها مادياً ومعنوياً، وإمدادها بالمال والسلاح، فتعددت جوانبها وتضاعفت امتداداتها، وتشعبت قضاياها، بداية من سنة 1956 إلى غاية 1958، وهي السنة التي تُوجت فيها القضية الوطنية بتثبيت الحكومة المؤقتة. فمن الصعب أن نحدّد هذه الرحلة الكبرى برحلات منفردة، ومستقلة، كما أنه من الصعب -أيضاً- أن نجعلها رحلة واحدة، لأن طابع المذكرات طغى وبشكل كبير على جملتها، مما أدى إلى خلخلة بنيتها السردية، وأفقدتها طعم النص الرحلي الذي لا يغفل عنه الكاتب في سرده الأدبي، والذي بدا فيه متفوقاً، كما نجد أنه لا يغفل جانب المذكرات في الوقت نفسه.

وفي القسم الثالث من جزئه الثالث، خصص له عنواناً: "وزارة الثقافة" ويعني به عمله في وزارة الثقافة بالحكومة المؤقتة، وكانت الرحلة الأولى في هذا القسم "تنظيم الأمور بتونس" إلا أنها لم تكن ذات قيمة، لا فنية ولا موضوعية، لقصر نصها²⁹⁸ ووسمه التقريرية. أما الرحلة الثانية فكانت بعنوان "الرحلة العربية الكبرى"²⁹⁹ قام بها ضمن طاقم حكومي، فكان برنامجها حافلاً بالبلدان المزارة: ليبيا والسعودية والمغرب والعراق ولبنان، والكويت، ومصر، والأردن، وتونس، وهي الرحلة التي نجدتها ذات بال وأهمية من الناحية الفنية والمضمونية. كما تلتها رحلات إلى الصين "في بلاد العمالة الصين" والاتحاد السوفيتي "في موسكو".

في القسم الرابع والأخير من الجزء الثالث، خصص له عنواناً "التمثيل الدائم بجامعة الدول العربية" بداية من سنة 1960 وبتعيينه هذا كان ولا بد أن تعقد رحلات، بداية بـ "مهمة إلى

²⁹⁶ - حياة كفاف، مصدر سابق، من ص 115 إلى ص 122.

²⁹⁷ - منها "في طرابلس" (140-146) - "مقابلة مع الملك إدريس" (162-166) - "وفد السودان" (188-201) - "في كاراتشي" (202-206) - "مؤتمر الحزبين" (206-208) - "سفر إلى ليبيا" (275-276) - "أيام عامرة بدمشق" (298-302) - "مقابلة مع ملك ليبيا" (302-305) - "حج وحاجة" (309-311) - "إلى طرابلس من جديد" (320-321) - "في لبنان" (354-356) - "في بغداد" (356-358) - "في الكويت" (358-359) - "في العربية السعودية" (359-363) - "في الأردن" (359-361) - "تونس" (366-367) - "في اندونيسيا" (367-374) - "في ماليزيا" (375-377) - "مهمة في سوريا" - "في ليبيا من جديد" (390-391) - "بغداد المنتقمة" (391-394).

²⁹⁸ - يقع النص بين صفحتي 406-407.

²⁹⁹ - يقع النص ما بين صفحة 411 إلى صفحة 445.

الصومال"، ثم "في عدن"، ثم "في الخرطوم وبغداد، وأخيرا "في تلمسان" وهي رحلات ذات نصوص ضئيلة الحجم قليلة الفائدة فنيا.

ولم تكن رحلات المدني عينا راصدة وناقلة للأخبار والصور والمشاهد والأحداث فحسب، وإنما كان فيها فاعلا في الأحداث، ينفعل معه القارئ ويستجيب لتلك الانفعالات الحركية، التي ينطق بها نصّه، كما أنه يتميز نصه بالإطناب راجيا بذلك عين الرضا أو السخط اتجاه الأشخاص أو المشاهد، بقوة تعبيرية جامحة مما يكشف عن هويته بسرعة و"لعل هذا يرجع إلى سمة أساسية في تفكير الشيخ (المدني) وأسلوبه الذي كثيرا ما يتّسم بالمبالغة في تضخيم حوادث ومواقف، خاصة عندما يكون ذلك ذا صلة بالمشاهد".³⁰⁰

وعلى نسق توفيق المدني، كتب "محمد خير الدين" مذكراته، فاحتوت على ست رحلات، درجت وفق سياق حياته التي ساقها تطوريا -مرحليا-، بداية بأيام طلب العلم حيث كانت "الرحلة في طلب العلم" والتي سرد بعدها "الرحلة إلى قسنطينة"³⁰¹ للنهل من مقاعد الدرس بمعاهدها ومجالسة عالمها ابن باديس ثم "الرحلة إلى تونس" للالتحاق بجامعة الزيتونة. وبعد أن صار عضوا فاعلا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أصبح نشاطه بارزا، وعمله الإصلاحية مكثفا، مما جعله يدون بعضا من زيارته التفقدية في إطاره منصبه من الجمعية، فكانت الأولى بعنوان: "زيارتي لمدينة ورقلة" سنة 1934 حين كان مكلفا من طرف رئيس الجمعية (ابن باديس)، لطارئ حدث في شعبتها بهذه المدينة، فكلفه لإصلاح هذه المشكلة. وثاني هذه الرحلات "في الغرب الجزائري"³⁰² وللدافع نفسه مع تكليف من الرئيس الثاني للجمعية (البشير الإبراهيمي) على أن يسوي مشكلة خلافة في مكتب "الجمعية" بسيدي بلعباس. ومع تغير الأوضاع وتكتل الأحزاب والجمعيات في وحدة لا تقبل الانقسام، أصبح مناضلا ثوريا ومكلفا من طرف جبهة التحرير ورئيس مكتبها بالمغرب، فيخصص مساحة للحديث عن سفره إلى المغرب تحت عنوان: "السفر إلى المغرب"³⁰³ إلا أن نصّها لا يرقى فنيا، بل لا يعدو أن يكون تقريرا جافا لا أكثر.

ويعد كتاب مالك بن نبي، "مذكرات شاهد للقرن" طافحا بالرحلات التي تألقت في كنف مسار كاتبها، الذي عاش طيلة حياته طالبا للعلم والفكر، مستفيدا من بُعد الفكر، الذي أهله إلى التمييز

³⁰⁰ - اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، مرجع سابق، ص 220.

³⁰¹ - محمد خير الدين، مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ج 1، ص 73-75

³⁰² - المصدر نفسه، ص 275-283

³⁰³ - المصدر نفسه، ص 179-186

الدقيق في الحياة. وقد بصم كتاباته بلمسات فكرية، تظهر جلوية في معالجته لمواضيعها. منها الرحلات التي عجت في هذه المذكرات، بداية من السفر إلى قسنطينة³⁰⁴ وهي أول سفيرة للدراسة عند أخواله، يصف فيها أمور الحداثة ومقارنتها (قسنطينة) بتبسة. وهي الرحلة³⁰⁵ نفسها يعقدها بعد انتهاء العطلة "سفر إلى قسنطينة"³⁰⁶ ورحلة العودة "بين قسنطينة وتبسة"³⁰⁷ وفيها يتحدث عن الطريق ويربطها بالتاريخ والاسترجاع عبر محطة الذكريات، مفعلاً بكثير من الأسئلة الحضارية المليئة بالعادات والمراسيم الاجتماعية، حتى إن القارئ يشعر بأن طريق الذهاب أصبح طريق عودة والعكس. نلمس ذلك في قوله "وذا صبح تركت تبسة غارقة في اضطرابها الفكري وتلقيت مرة أخرى على رجلي ماء العودة"³⁰⁸. وبعد هذه الرحلات الداخلية، تعددت رحلات بن نبي، وتعدت حدود الوطن، راجية بذلك مطلباً علمياً، فكانت "رحلة إلى فرنسا". وكانت هذه الرحلة بعد سأم من العودة إلى تبسة التي في اعتقاده ليس فيها من جدوى لهذا الرجوع³⁰⁹، كما أنها تعدّ بمثابة مغامرة استكشاف العالم الآخر، وهي الرحلة التي تميزت بوعي كبير في استنباط الأمور وإسقاطات هموم مثقف على واقع لا جدوى منه إلى سبيل فيه مخرج لمأزق مستعصي. ثم تليها رحلة نحو آفلو في إطار الوظيفة في منصب عدل قضائي، فكانت "الرحلة إلى آفلو". وهي الرحلة التي يتحدث فيها عن طبائع وبعض عادات من الغرب الجزائري، مقارنة بشرقه الذي ينتمي هو له، كما يتحدث عن مهامه في العمل وغير ذلك.

أما بالنسبة للقسم الثاني من مذكرات مالك بن نبي (الطالب) فيتضمنه بداية بالرحلة "السفر إلى فرنسا"، لأجل الدراسة بإيعاز أبوي، ورغبة ذاتية قوية، والرحلة لم تبدأ من حيث بدأ القسم الثاني، بل مع نهاية الجزء الأول كان قد أشرف عن نبأ هذه الرحلة، ومهد لها. وفي كل مرة عند حديثه عن رحلة ما يربطها بالضيق الشديد الذي يتعرض له من المكوث في تبسة، وهو ما جعله يستهل به أيضاً هذه الرحلة، إذ يقول: "تبسة غدت خانقة، لقد سئمت النادي ومقهى (باهي) وحكاياته حتى نفسي أيضاً. وكنت أسري عن نفسي أحياناً بالذهاب بضعة أيام إلى (دوار) الأرناب"³¹⁰ ثم إن التشجيع الأبوي حين لم يخل عليه بالدعم المادي والمعنوي "سوف نرسل لك كل شهر ما تحتاجه.. وأقلنتني

304 - مالك بن نبي، مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، الجزائر، ط 2، (من ص 30 إلى ص 37).

305 - استفدنا من بعض عناوين رحلات بن نبي، مما وضعه عمر بن قينة في كتابيه (اتجاهات الرحالين، وكتاب الشكل والصورة).

306 - مذكرات شاهد للقرن، مصدر سابق، من ص 42 إلى ص 47.

307 - المصدر نفسه، من ص 118 إلى ص 129.

308 - مذكرات شاهد للقرن، مصدر سابق، ص 126.

309 - ينظر المصدر نفسه، ص 139.

310 - نفسه، ص 194.

الباخرة بعد أيام ثلاثة إلى عنابة في طريقي إلى باريس³¹¹ وهي التجربة الناضجة في حياة بن نبي الذي أضفى عليها كثيرا من ابتكاراته النقدية.

وأخر رحلة في مذكرات مالك بن نبي، تلك التي عزم فيها التنقل إلى الحجاز، راغبا عن باريس وعن الجزائر حيث يقول: "فتأكدت لي فكرة السفر إلى الحجاز، فرارا من العيش في أرض استعمار أو أرض مستعمرة، لأنني سئمت فيها الوجوه والآفاق"³¹²، وهي الرحلة التي لم تسفر عن وصول صاحبنا، بل عن انحراف صاحبها إلى إيطاليا، كمحطة من محطات الوصول إلى الحجاز، إلا أننا لم نجد في كل هذا وصلا لتلك الديار³¹³.

القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر³¹⁴ في ثلاثة أجزاء³¹⁵، والآخر بعنوان "مذكراتي"³¹⁶ في جزء واحد³¹⁷، في هذا الكتاب الأخير، تمثل الرحلة أهم المواضيع على الإطلاق، بما يجوزه من مساحته التي تعدل ثلث الكتاب، بالإضافة إلى فنون أدبية أخرى كالشعر والرسالة والمقالة. وقد ساق (العقون) رحلته وهي عبارة عن رحلة طويلة بدأت بأوروبا (فرنسا)، وانتهت بالأردن، معرّجة على كل من سوريا وتركيا والبقاع المقدسة. وقد سبقتها رحلة تمهيدية إلى فرنسا³¹⁸. تبدأ الرحلة الرئيسية بـ "رحلتي إلى الخارج أثناء الثورة"³¹⁹ وبعد أن يسرد بعض القضايا والذكريات في باريس، يمر إلى "إلى الرحيل في اتجاه سويسرا" يسرد من خلالها بعض القضايا السياسية، وقضايا أدبية مع بعض القصائد والمقطوعات الشعرية.

³¹¹ - نفسه، ص 196.

³¹² - نفسه، ص 345.

313 - الرحلة من ص 345 إلى ص 374.

314 - طبع الكتاب أجزاء ثلاثة، بالمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الجزء الأول سنة 1984.

315 - من حيث الموضوع فإن كتاب "الكفاح القومي والسياسي" يتناول كل كبيرة وصغيرة عن كواليس الحركة الوطنية والعمل السياسي، مع قليل من الذاتية، بداية من سنة 1920 إلى غاية 1954 - بداية ثورة التحرير -، بما أنه من مناصري "حزب الشعب الجزائري"، وبالرغم من ورود كثير من السندات والوثائق وحديث عن الجولات والتقلات، لم نظفر في هذا العمل الضخم على أي نص رحلي. بل هو حديث عن عمل سياسي محض.

316 - نشر بدار دحلب، الجزائر، سنة 2000.

317 - هذا الكتاب الأخير، قد أفرد للعمل الذاتي، الذي كان فيه (العقون) أدبيا وشاعرا، وإنسانا، وهو بذلك لم يُرد أن يداخل ويمزج بين العمل السياسي الذي جعله كتاب تاريخ مجرد، والمذكرات الشخصية التي يتنفس من خلالها -هو- الإبداع وحكاية تجربته في الحياة، ويمثل هذا العمل تجربة فريدة في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر، حيث يجمع فيه صاحبه أو نقول تنطوي هذه المذكرات على أجناس أدبية متعددة بداية بفن المقالة، وفن الرسالة، وفن السيرة الذاتية، وفن القصة، وفن الخطابة، وفن الشعر، والنقد، ولعل الأدب الجزائري محظوظ بهذا العمل المبدع والموثق، وإضافة إلى الأجناس الأدبية المذكورة.

³¹⁸ - انظر عبد الرحمان العقون، مذكراتي، دار دحلب، الجزائر، 2000، ص 200 وما بعدها.

³¹⁹ - المصدر نفسه، ص 205.

ثم تخوض الرحلة مسارها نحو المشرق ابتداءً من عنوانها "إلى المشرق العربي"³²⁰ وكانت الرحلة سنة 1957، مازًا بـ "في تركيا" التي تركت فيه بصمات روحية موحية بالاسترجاعات التاريخية المجيدة، ما جعله يوقع "ارتسامات عن تركيا"³²¹ وبعد "أنقرة" التي مكث بها ثلاثة أيام³²² توجه إلى "سوريا" التي تحدث عن المسلك من أنقرة إلى دمشق عبر الحدود بواسطة الحافلة، ولما وصل إلى بلدة "معزة النعمان" يقول: "فتذكرت أبا العلاء المعري فقلت: إذن ها هنا يرقد أبو العلاء المعري" فقالوا إنه قريب من هنا، فذهبت رأساً إلى المقبرة أسأل، عرفت قبره من بين القبور من بعيد بمظهره الذي يمثل نقش المعري وزهده بأجلى مظهرهما، وعندما وقفت على القبر وقرأت الفاتحة رأيت كتابة على لوحة القبر: "هذا ما جناه أبي علي وما جنيت على أحد"³²³. ثم يعنون نزوله بدمشق بـ "في دمشق الفيحاء" وبعدها كانت مناسبة الحج من دمشق مع وفد جزائري، فكانت رحلة الحج التي كان سرؤها ضئيلاً جداً، ثم العودة إلى دمشق، ومنها إلى الأردن تحت عنوان "إلى عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية"³²⁴ وأثناء الإقامة بالأردن حضرت السياسة والأدب والشعر واللقاءات والزيارات وبرنامج العمل في سرد متراوح بين الإطناب والإيجاز والاستطراد والتوثيق. ثم يستمر في سرد أحداث من رحلاته المتواصلة، التي امتدت إلى ما بعد الاستقلال حيث رجع إلى الوطن سنة 1964، مدوّناً هذه العودة بداية من عمان إلى القاهرة، ثم "من القاهرة إلى ليبيا عبر الطريق الصحراوي" وكانت مناسبة الزيارات والذكريات بين غازي وطرابلس، ثم الرحلة إلى تونس وارتسامات عن مدينتي القيروان وتونس، ثم الدخول إلى أرض الوطن من عنابة ثم قسنطينة، وبعدها يختم الرحلة بعنوان "الوصول إلى الوطن الحبيب"³²⁵.

1. 2. 2. مستوى السياسيين والمجاهدين (المشاركين في أحداث الثورة التحريرية).

تعد كتب مذكرات السياسيين والمجاهدين في الجزائر، من أهم ما تحفل به المكتبات خلال المدة الأخيرة من تاريخ الجزائر، وتشكل هذه الكتب المادة الأكثر تناولاً عند القراء، نظير ما تتميز به من أهمية من الناحية التاريخية، ولما تحمله من فضول لدى القراء، أما من الناحية الفنية فلا تكاد تتميز كتاباتهم عن باقي الكتاب الآخرين، لا من حيث الشكل ولا حتى من حيث المضمون إلا في بعض

³²⁰ - نفسه، ص 236.

³²¹ - نفسه، ص 241.

³²² - ينظر المصدر نفسه، ص 244.

³²³ - المصدر نفسه، ص 245.

³²⁴ - عبد الرحمان العقون، مذكراتي، مصدر سابق، ص 255.

³²⁵ - المصدر نفسه، ص 403.

القضايا المخصصة، وربما الفصل بين كتاب هذا المستوى وكتاب المستوى الأول، أن شخصيات المستوى الأول يؤرّحون لتاريخ حياتهم ببعض التفصيل، وهو ما لم نجده في هذا المستوى (الثاني) الذي يركّز كتابه على الأحداث المهمة وفي غالب الأحيان، ولا يعير أهمية كبرى فيما يخصّ تاريخ نشأته إلا عند القليل منهم. كما أن المستوى الأول ينمّ عن قضايا ثقافية وفكرية وجمالية، بينما يركز المستوى الثاني على البعد التاريخي والسياسي. ومن ثمّ قد تتقاطع مقطوعات الرحلات ضمن كثير من هذه الكتب، ذلك لأن أصحابها شخصيات أسهمت في الكثير من القضايا الوطنية، داخليا وخارجيا، سواء أثناء فترة التحرير أو قبلها أو بعدها. وتعدّ هذه الكتب أيضا مصدرا من مصادر الرحلات الجزائرية، لا يمكن أن نغفل عنها ولا نعبر عند مواجهتها. لأن فيها من الرحلات ذات القيمة الفنية، كما أنها تعدّ مادة دسمة أدبيا وتاريخيا وفكريا.

ومن بين مؤلفات هذا المستوى، كتاب "ومضات من دروب الحياة - مذكرات" ³²⁶ ل محمد مهدي" خصّ بعض فصوله للحديث عن أسفاره منها: "السفر إلى قسنطينة للدراسة" و"السفر إلى فرنسا" و"السفر إلى الشرق (رحلة مهمة)" و"العودة من طرابلس" و"مؤتمر اتحاد المحامين العرب في الرباط 1980". وكتاب "مذكرات المجاهد محمد صم" الذي خصه برحلتين هامتين: الأولى بعنوان "مهمتي في الصين الشعبية سنة 1960" ³²⁷ والثانية بعنوان "في المغرب" ³²⁸.

وهناك كتاب آخر على شكل مذكرات، ممزوجة بالسير الذاتية، للكاتب المهدي الغوتي تحت عنوان "رحلة المصير - مذكرات مجاهد-". وفي هذا الكتاب ³²⁹ ترتبط الرحلات ارتباطا وثيقا بمسار الكاتب، الذي غلب على موضوعه سرد الرحلات مع استثناء بسيط لأحداث وقضايا أخرى، مما يجعلنا نعدّه كتاب رحلة أولى منه بكتاب مذكرات. بداية من الرحلة في طلب العلم بعنوان "إلى قسنطينة لطلب العلم" التي يغلب عليها طابع المغامرة. ثم الرحلة الثانية بعنوان "إلى فرنسا" وهي الرحلة التي استمر مسارها إلى بيروت ثم القاهرة، ثم رحلة "الطريق الصحراوي" من القاهرة إلى تونس/ تونس إسبانيا/ إسبانيا المغرب/ المغرب الجزائر. وهي الرحلة المليئة بالمغامرات، والتضحيات، حسب رواية كاتبها.

326 - محمد مهدي، ومضات من دروب الحياة، مؤسسة الشروق للإعلام والنشر، الجزائر، دت.

327 - ومضات من دروب الحياة، مصدر سابق، من ص 211، إلى ص 233.

328 - المصدر نفسه، من ص 234، إلى ص 260.

329 - نشر الكتاب بدار الأديب، وهران سنة 2007.

وفي مذكرات عبد الرحمان كريمي المعنونة بـ "ومنهم من ينتظر - مذكرات النقيب سي مراد" ³³⁰ نجده قد بدأها برحلته التي جرّب حظّه في طلب العلم بالمغرب الأقصى عنوانها بـ "الرحلة إلى المغرب" ³³¹ وهي الرحلة التي أوعزت عن رحلة أخرى إلى فرنسا عنوانها بـ "العودة إلى الجزائر وبداية غربة جديدة" سنة 1951، والغرض منها طلب وسيلة مادية من أجل التعلم، الكامنة في الكدح والعمل بفرنسا. ثم رحلة أخرى، رحلة مشي قضاها في ظل عمل جهادي ضد العدو، عنوانها بـ "اللقاء مع البطل سي لخضر بوشمع" وآخر رحلة في هذه المذكرات بعنوان "وقف إطلاق النار" سنة 1962. تنقل لنا بعض قضايا التضحية التي لا تخلو من معاناة حين يقول: "غادرنا ورفيقي ذلك الاجتماع بتاريخ 15 مارس 1962، ورحنا نشق طريقنا في الغابات عائدا كل منا إلى منطقتة، تحت أمطار غزيرة وقد رافقها تساقط كثيف للثلوج" ³³² في شيء من الدعابة بأسلوب فكاهي يقول فيه: "وطبعا لا يخيب في الله رجاء، وخرجنا إلى الضفة الأخرى وقد بلغ البلى منا الصدور، ولا أنسى أن الوادي حين يئس من أخذنا معه نحو الوجهة التي كانت تجري إليها في سرعة مياهه اكتفى بأخذ ذكرى له منّي، وهي قبعتي التي راحت تجري أمامي، وقد عصفت بها من على رأسي هبة ريح.." ³³³

وكتاب "مذكرات من مسيرة النضال والجهاد" ³³⁴ لعبد الحفيظ أمقران الحسيني، تخللته رحلتان الأولى "مرحلة الجهاد والكفاح المسلح في ثورة التحرير الكبرى 1956" ³³⁵ وهي رحلة تنظيم للحرب والجهاد، والأخرى بعنوان "السفر إلى أوراس النمامشة" ³³⁶، وهي الرحلة التي قام بها مجاهدا وقائدا للجنود، فيها كثير من الحميمية والوفاء، وصدق المشاعر الثورية، يقول في لحظة من هذه اللحظات: "رافقتني الضابط سي عبد الله حتى وصلنا إلى جبل بني وقاق على حدود الولاية الثالثة والرابعة، وتبادلنا خلال هذه الرفقة الحديث حول الكثير من القضايا وكنا متخوفين على مصير الولاية بعد سفر قائدها المحنك العقيد اعميروش، ودّعني بحرارة في هذا الجبل وتمنى لنا وللفيلق النجاح في مهمتنا والعودة في الولاية سالمين غانمين" ³³⁷، وهي الرحلة التي قادتهم حتى إلى تونس بأمر من قيادة الثورة.

330 - نشر الكتاب بتحرير ج. حنيفي عن دار الأمة، الجزائر، 2010.

331 - عبد الرحمان كريمي، ومنهم من ينتظر - مذكرات النقيب سي مراد- تحرير ج. حنيفي، دار الأمة ص 16 إلى ص 23.

332 - المصدر نفسه، ص 145 .

333 - المصدر نفسه، ص 145 .

334 - نشر الكتاب بدار الأمة، الجزائر، سنة 2010.

335 - عبد الحفيظ أمقران الحسيني، مذكرات من مسيرة النضال والجهاد، دار الأمة، الجزائر، 2010، من ص 43 إلى ص 75.

336 - المصدر نفسه، من ص 99 إلى ص 121.

337 - المصدر نفسه، ص 99 .

وعلى نسق هذه المذكرات أورد كل من صاحب "مذكرات شهيد لم يمّت" ³³⁸ رحلتين الأولى بعنوان "فرنسا 1955"، والثانية "رحلة في سجون العدو الفرنسي". وأورد من جهته العقيد الحاج لخضر في مذكراته "قبسات من ثورة نوفمبر" ³³⁹ رحلتين الأولى بعنوان "السفر إلى فرنسا 1936"، والأخرى "السفر إلى دار بلقواس بآريس (باتنة)". أما المجاهد مصطفى مراردة فقد روى في مذكراته "مذكرات الرائد مصطفى مراردة" ابن النوي ³⁴⁰ رحلة تخلّلت هذه المذكرات عنوانها بـ "السفر إلى تونس وما تلاه من أحداث حتى الاستقلال".

ومن المذكرات المميزة في هذا المستوى، كتاب "الطريق الشاق إلى الحرية" ³⁴¹ لكتابه "مصطفى بن عمر" الذي يعد نموذجاً حافلاً بالرحلة التي ميّزت النص من كل جوانبه، فهو يعدّ من باب الرحلة أولى لما يتميز به من بنية السفر التي بدأت من أولى صفحاته إلى آخرها، ولعل الكاتب برمج هذا العمل للحديث عن ثورة التحرير التي شارك فيها، انطلاقاً من مدينة "الأغواط" مدينته الأصلية إلى مدينة "المدينة" مقرّه الثاني، فيسترسل في الحديث عن مسار هذه الرحلة بأسلوب أدبي، وبوعي رحلي. ثم تأتي الفصول الأخرى، ليبقى السفر هو سيد الموقف، وكانت كلها مسالك صعبة وخطيرة، في جبال ووهاد وأشواك، وذلك من أجل القيام بالعمليات الحربية والتنقلات من منطقة إلى أخرى لتوسيع نطاق المعارك بين جيش التحرير وجيش العدو، فالكتاب لا يخلو من مهام تقتضيها أسفار، حيث كانت متنوعة بداية من أول حديث عن هذه الرحلة بعنوان: "من الأغواط إلى المدينة، أو الرحلة إلى مصير جديد" ³⁴² يستعرض فيها دوافع السفر، ووسائله، ومتخللات الطريق، وأحداث ذات قيمة أدبية. ثم ينتقل إلى الخطوة الثانية وهي كلها حديث عن تنقلاته في ميادين المعركة في عناوين مختلفة. وهي: "في طريقنا إلى معقل الثورة" و"من لعجالات إلى وادي مرة"، ثم "الرحلة إلى الأغواط"، ف"العودة إلى جبل عمور" و"في ناحية البَيْض" و"العودة إلى العاصمة" و"مع زغلول في الشمال الوهراني". و"الرحلة عبر الونشريس" و"الطريق إلى القبائل" و"العودة إلى الولاية الرابعة". و"مهمة بتونس" و"في أعماق الأوراس". و"مرارة وحيية أمل بتونس" و"في مركز التصنت بالكاف".

وعلى هذا المنوال نجد أيضاً كتاب مذكرات "عبد القادر بوطبل" المعنون بـ "صراع مع الأقدار والليالي" ³⁴³ وبعد أن يسرد قصة طفولته ومعاناته في حوض اليتيم، دخل مباشرة في الرحلة التي بدأت بـ

338 - نشر الكتاب بدار المعرفة، الجزائر، د.ت.

339 - الحاج لخضر (العقيد)، قبسات من ثورة نوفمبر 1954 كما عايشها، تحرير الطاهر حليس، دار الشهاب، الجزائر، د.ت.

340 - نشرت المذكرات بدار الهدى، عين مليلة، الجزائر، سنة 2003.

341 - صدر عن دار هومة، الجزائر، سنة 2010.

342 - مصطفى بن عمر، الطريق الشاق إلى الحرية، دار هومة، الجزائر، 2010، ص 21.

343 - عبد القادر بوطبل، صراع مع الأقدار والليالي، دار الأمة، الجزائر، 2010.

"الرحلة المجهولة إلى الونشريس 1957"³⁴⁴ وهي بداية الرحلة في سبيل التضحية، ودامت هذه الرحلة طوال مسيرة الكتاب بعنوانين مختلفة منها "المسيرة المجهولة نحو الشرق والعودة إلى نقطة البداية" و"معركة باب البكوش واستئناف المسيرة نحو الغرب" ثم "الدخول إلى التراب المغربي".

ومن بين كتب المذكرات، نجد بعضها متميزا جدًا، يتناول موضوعه كله حول تجربة رحلة، تصب في قالب مذكرات لموضوع محصور جدا يتناول قضية واحدة مسندة لعملية السفر يكون عبره هذا الموضوع. ومن الذين ساقوا مذكراتهم على هذا المنوال، محمد شيروف وعبد المجيد بولطين.

فكتاب محمد شيروف "رحلة الأمل"، طغت عليه الرحلة من أولها إلى آخرها، انطلاقا من الجزائر إلى مصر ثم العودة، وكانت الرحلة مشيا على الأقدام من أجل الدراسة، برفقة رفيقه "هوارى بومدين" سنة 1952، وهي وإن كانت تميل إلى المذكرات، فهي إلى أدب الرحلة أولى لما تميزت به من خصوصياته الفنية.

أما عبد المجيد بولطين في كتابه "مذكرات مجاهد من بغداد إلى الجزائر"³⁴⁵، وهي رحلة صريحة كتبها المؤلف يسرد فيها تفاصيل العودة إلى الجزائر بتفاصيل الطريق والبلدان والمدن التي مرّ بها، وذكرياته في كل منها، والأحداث التي تعرض لها في حينها، حيث كان طالبا ببغداد، ولما اندلعت ثورة التحرير بالجزائر، همّ بالعودة ملييا نداء الجهاد، وحينها كان قد أتم مرحلة التدرج بجامعة بغداد، فكانت النفس متأججة والروح مندفعة نحو العودة للوطن، يقول: "وتابعنا الدراسة ونحن على أحر من الجمر، ونحن في شوق وحنين إلى الجزائر الثائرة"³⁴⁶، ولعل الكاتب في هذه المذكرات، أراد أن يعطي نكهة خاصة لها، بل خصها بالذكريات التي أثارها هذه السفريّة، وما كان فيها من أشواق، فخاص فيها بالتفصيل السردى والوصفي، بداية من أول مشهد، بعنوان "آخر مشهد في بلد الرشيد" يقول في بدايتها: "في 18 حزيران-جوان غادرت موطني الثاني، العراق، شاكرا فضله عليّ وعلى كل طالب جزائري أمّ العراق، حيث زدونا بسلاح المعرفة، وسلاح الحياة مدة أربع سنوات"³⁴⁷ ثم من العراق نحو سوريا التي مكث فيها 35 يوما ثم وصوله إلى "القاهرة" فاتصل حينها بمنظمي الثورة (بمكتب الثورة) الذي وجهه للتكوين في "سلك الإشارة" في دورة تكوينية قصيرة، ثم يروي عن "نصف شهر في طرابلس" ثم "في تونس عجائب وغرائب"، ومن خلالها يسترجع أيام ذكريات طلب العلم بالزيتونة الذي يصفه بالفتور العلمي، حينها لم يستطع مواصلة الدراسة فيه، ولكن هذه المرة عقب قائلا: "وبعد

344 - المصدر نفسه، ص 40.

345 - طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007.

346 - جودي عبد المجيد بولطين، مذكرات مجاهد من بغداد إلى الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007، ص 9.

347 - المصدر نفسه، ص 14.

أربع سنوات وجدت نفسي في تونس من جديد ولكن لا كطالب - بل كجندي في جيش التحرير الوطني وسأغادرها -ربما إلى الأبد- قاصدا أرض الكفاح التحريري المجيد³⁴⁸. وكل هذا يتعلق بالقسم الأول من الكتاب. أما القسم الثاني فهو الخاص بدخول الجزائر، بداية من "نحن الآن في تاجروين" - إلى محطات أخرى نجدها في العناوين التالية: "قطع الحدود" - "الدخول في السهول" - "الدخول في الجبال" - "مميزات سيرنا" - "شعوري أثناء الطريق" وغيرها من العناوين التي تُفصّل هذه الرحلة، ثم القسم الثالث والرابع والخامس يُتمّم فيه رحلته في محاور العمل الثوري. فتتذبذب سردية الرحلة لتمنح الحديث عن أمور الثورة في أحيان، وبعض التفاصيل عن تنظيمات الجيش السياسية والعسكرية.

1 . 3 . النص الرحلي من خلال كتب السيرة الذاتية والتراجم.

اكتسبت السيرة الذاتية حظاً، حين صُنفت جنساً أدبياً مستقلاً، متفردة بدستورها الفني، وهذا لا يجعلها تنفصل عن فن التراجم الذي تتقاطع معه في الجينة الجنسية، بما أنهما من عائلة واحدة، وهي التعريف بالشخصية المترجم لها، وبما أن الفروق شاسعة بين الترجمة والسيرة الفنية، فإن ذلك ليس من سبيل حديثنا عن الفصل بينهما في هذا المقام، بل نحن هنا ندعو إلى الإشارك بينهما، وغرضنا الأساس هو سلّ مستلزمات غرضنا البحثي، وهذا الذي لا نقيس به السيرة أو الترجمة بمعيارية نظرية الجنس الأدبي، ما دام أن كل منهما يتوفر على ميثاقه السيري يُعقد بين الكاتب والقارئ. وبما أن السيرة الذاتية حاضنة لتاريخ الفرد (كاتبها)، فإذا ما توفرت لدى هذا الشخص تجربة سفر، وكان واعياً ومدركاً لقيمة الرحلة الأدبية، سوف يلجأ إلى تخصيص مساحة وتمييزها من النص العام.

وفي هذا الصدد يتوجب علينا أن نقول، بعد جمع ما توفر من كتابات حول السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث، وكتب التراجم، سواء منها الشخصية أو الغيرية، قد تحصلنا على مجموعة من النصوص - في حدود ما استطعنا جمعه - ندرجها على حسب كل صنف.

1 . 3 . 1 من خلال كتب السيرة الذاتية.

حفل ميدان التراجم في الجزائر بمجموعة من المؤلفات في العصر الحديث بداية بالأمير عبد القادر، الذي كتب سيرته الذاتية ممزوجة بالمدكرات، شهدت على سيرة عصر، بمكانه وزمانه، وتاريخ شخصية فاعلة في الجزائر والبلاد العربية والإسلامية قاطبة. ومن مجموع العناصر المكونة لهذه السيرة، نجد تفاصيل رحلة خاض تجربتها "الأمير"، نحو الحجاز لأداء فريضة الحج، وقضاء مآرب سياحية بكل

من مصر وسوريا والعراق، فدامت هذه الرحلة سنتان، بداية من: "يوم السبت ثاني يوم من شهر شعبان سنة آخر ثلاثين مائتين وألف"³⁴⁹ اختصرها متبعا في سرده سنة الرحالين القدماء، في ذكر المدن والبلدات التي عرّج عليها، مبيّنا دافع رحلته، وتمام عقده، مكثرا من الاستطراد ذي النفع البين من العلم الديني والديني، والأشعار واللطائف والتوثيق لقضايا عصره، بالخصوص الحملات الفرنسية التي استغرقت حصة كبيرة. ولا يستثني أيضا الحديث عن زيارة العلماء والأولياء والصالحين الذين كان لهم خصوصية عند "الأمير" في كل منطقة حلّ بها، مثل الإسكندرية التي جمعته بالأوليات مؤانسة روحية يذكر ذلك في قوله: "ولم نقم بالإسكندرية إلا قدر ما جعلنا أزوادنا. وضعنا أخبية السفر، وزرنا أماكن الصالحين وأضرحتهم كنبّي الله دانيال، وكولّي الله أبي العباس المرسي، والعارف بالله تلميذ تاج الدين بن عطاء الله، وأبي الحسين البوصيري، صاحب الأمداح النبوية"³⁵⁰. كما نجد له تفسيرات علمية، سواء كانت لظواهر طبيعية كظاهرة الريح -مثلا-، أو قضايا ومعارف تاريخية، كحديثه عن المسجد الأقصى إذ يقول: "سمي أقصى لارتفاعه عن الأرض بثمانية عشر ميلا وهي الأرض التي عدّ الله تعالى منّة السفر إليها مع الأمن على قريش في إحدى الرحلتين: رحلة الصيف أي إلى الشام"³⁵¹. وقد كان "الأمير" معظما للمشرق كثيرا، سواء الحجاز منه، أو الشام أو العراق، منكتا بطرائف ولطائف من أقوال السابقين في كل عاصمة يحلّ بها، إلى أن جاء موعد الحج في عامه الثاني، فحج وقفل راجعا إلى وطنه، قائلا في ذلك: "ثم بعد إتمام الحج والعمرة، وبعد أن قضى كل حاج أمره التفتت النفوس إلى أوطانها، وحتت إليها حنين النجب إلى أعطانها، وقصدنا المغارب عائدين مع الدرب الحجازي مناهلة المعلومة"³⁵²، ويروي محدثا هذا المسلك المعلوم بمدنه وقنواته.

أما بالنسبة للطبيب المهاجي (1881-1969)، فقد أورد ثلاث رحلات في سيرته "أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر"³⁵³ ويتعلق الأمر بالرحلة الأولى التي دامت سنين في طلب العلم بالناحية الغربية من وطنه الجزائر، والتي تكتسي أهمية كبيرة من حيث التوثيق والفهرسة للعلماء في هذه المنطقة، ومراكز العلم من الشلف إلى تلمسان، راصدة لأهم الفنون

³⁴⁹ - عبد القادر ابن محي الدين (الأمير)، مذكرات-سيرة ذاتية-، تح: محمد الصغير بناني وآخرون، دار الأمة، الجزائر، ط4، 2004، ص108

³⁵⁰ - المصدر نفسه، ص109.

³⁵¹ - المصدر نفسه، ص127.

³⁵² - مذكرات الأمير عبد القادر، مصدر سابق، ص134.

³⁵³ - طبع الكتاب أول مرة بمطبعة الشركة الجزائرية للطبع والأوراق، وهران، الجزائر، سنة 1973. وأعيد طبعه ثانية في كتاب "الآثار العلمية للشيخ الطبيب المهاجي الجزائري"، لهواري ملاح، دار الرشاد، سيدي بلعباس، ط1، سنة 2004، ثم نشر مؤخرا بدار عالم المعرفة، ضمن كتاب بعنوان "مجموع رحلات لعدة مؤلفين" سنة 2012.

والعلوم، وكاشفة عن أوضاع المعيشة الصعبة والبيئة المدهمة بإيراد أماراتها، كقوله: "سافرت صحبة أخي محمد الصادق إلى قرية المناصر قرب بطيوة وكانت عادة الطلبة بهذه القرية أن يطوفوا على الأبواب في الصباح والمساء يجمعون غذائهم وعشاءهم، وبعد مشاق وأتعاب ونبح الكلاب، يعودون إلى المكتب بأطعمة مختلفة الألوان متباينة الشكل والمقدار وقد اختلط رطبها بيباسها وحرارها بباردها، وجامدها بمائعها، فصارت بالخلط بشعة كريهة المذاق، بل استحالت إلى مادة سامة لو فحصها الطبيب وحللها تحليلا كيميائيا لمنع تناولها حتى على من لا يجد ما يسد به رمقه"³⁵⁴. كما يتحدث عن علماء المنطقة ويخص منهم عالم "تنس" (الشيخ الشعبي) (ت 1933)، هذا الشيخ الذي بلغ من العلم درجة الاجتهاد ومن الإصلاح كبير اعتناء، يروي عنه وعن معاناة الالتحاق بمدرسته قائلا: "وبعد تكبد مشقة المشي راجلا إلتحقت بمدرسة هذا العالم الكبير العلي القدر الرفيع المقام شيخ الأساتذة وأستاذ الجهابذة الحامل لواء الزعامة العلمية بالقطر الجزائري الشيخ المولود بن الحسين الشعبي التنسي ثم الجزائري"³⁵⁵

ثم تليها رحلة الحج التي تعبر هي الأخرى عن ظروف الاستعمار وقساوته مع المسلمين، حيث كانت تقف لهم حجر عثرة "كنت سنة خمسين وثلاثمائة وألف عولمت على السفر لأداء فريضة الحج، فطلبت رخصة السفر التي لا تنال ولا يمكن الحصول عليها إلا بعسر بسبب ما تطلبه الحكومة من المفروضات التي فرضها القانون الفرنسي علي والتي هي مجرد عراقيل يضعها الاستعمار في طريق اجتماع المسلم بأخيه في صعيد واحد"³⁵⁶ ناهيك عن ظروف التنقل والسفر غير المريح. كما نجد في الرحلة قضايا علمية وأحوال الحج ومعايشته بشعائره وبشائره، ودرء الأباطيل والخرافات، إلى آخر الرحلة التي انتهت بقوله: "حتى رجعت من سفري الميمون المبارك الذي بلغت فيه ما رمت وتم لي بواسطته ما قصدت، وانتهى بسلام والحمد لله في البدء والختام والصلاة والسلام على أشرف الأنام سيدنا محمد سيد ولد عدنان وعلى آله وأصحابه الذين أكرمهم الله تعالى بالرضى والرضوان"³⁵⁷.

وكانت آخر رحلة بالنسبة للمهاجي في كتابه المذكور، "نحو المغرب" بدافع الزيارة "وفي سنة وأربع وستين وثلاثمائة وألف زرت المغرب بدعوة من بعض أصدقائي بحاضرة فاس فنزلت بداره

³⁵⁴ - أنفس الذخائر وأطيب المآثر، مصدر سابق، ص 40.

³⁵⁵ - المصدر نفسه، ص 49.

³⁵⁶ - أنفس الذخائر وأطيب المآثر، مصدر سابق، ص 67.

³⁵⁷ - المصدر نفسه، ص 79.

وصرت أثناء إقامتي أتجول في شوارع البلدة واقف على آثارها القديمة ومساجدها العتيقة، وأطوف على معاهدها العلمية ومعاملها الصناعية"³⁵⁸ وفيها يصف مدينة فاس ويقارن بينها وبين مدن الجزائر، كما يبدي امتعاضه من كثرة الشركات التي تقام بمناسبات مختلفة، حتى إنه رثى ذلك الحال في كثير من المناسبات كقوله: "ولا تسأل عن ازدحام الناس على دم تلك الذبائح وفرثها، والسعيد عندهم هو الذي تصل يده إلى نقطة دم يتمسح بها أو وزن ذرة من فرث يدخره للبركة، ويعده للاستشفاء به"³⁵⁹، ويروي-أيضا- عن مناظراته مع بعض علماء الحديث النبوي، معللا ببراهينه وحججه القوية التي يبديها بطرح علمي، وهو في بعضها يسترسل في استطراد، حتى إذا شرد به المقام عاد ليقول: "وبعد هذا فليسمح لي القارئ الكريم فيما ارتكبت من الإكثار والتكرار للألفاظ لأن المقام مقام أخذ ورد وإفحام وإلزام، فهو يتطلب توسيع الدائرة وتفسيح المجال"³⁶⁰. وما عدا مدينة "فاس" لم يجد ما يقوله عن البلدات الكثيرة التي زارها، لأن مرامي رحلته كانت ذات صبغة علمية، فلم يكن يهتم بسواها، ما عدا مدينة "وجدة" التي خصّها بالحديث عن تاريخ تأسيسها، ليعود بالحديث عن شرف "فاس" وسوق بعض الأحاديث عنها.

وبين السيرة والمذكرات، يجمع محمد الملي في كتابه "ذكريات من زمن البراءة"³⁶¹، يخصص فيه بعض الرحلات بدءا برحلة طلب العلم بعنوان "السفر إلى تونس على ظهر بعير"³⁶² وهي الرحلة التي عزم فيها على الالتحاق بجامعة الزيتونة بعد ما استكمل المرحلة الأولى من تعليمه، وقد ترسخت هذه التجربة في ذاكرة الكاتب فاستشعر أهمية كتابتها، نلمس ذلك في قوله: "كان وصولي في آخر سبتمبر 1945، كانت قصة رحلتي لتونس تستحق هي الأخرى التسجيل"³⁶³، وتتمثل هذه الرحلة في مفاوضات عائلية للزج به في مغامرة السفر التي كانت طريفة بظروفها من حيث السفر، ثم شرع في الحديث عن تسجيله بالمعهد وأوضاع الدراسية ووضعيته إزاء هذا العالم الجديد، وظروف الإقامة، وعن الأشخاص الذين تعرّف عليهم من طلبة وأساتذة، أكثرهم طلبة جزائريين، مع بعض الاستطرادات حول السينما -مثلا-، والتي أخذت حصة كبيرة وعن الأدب والأدباء والمجلات الأدبية.

³⁵⁸ - المصدر نفسه، ص 92.

³⁵⁹ - المصدر نفسه، ص 94.

³⁶⁰ - المصدر نفسه، ص 97.

³⁶¹ - نشر الكتاب بدار القصة، الجزائر، سنة 2011.

³⁶² - ذكريات من زمن البراءة، محمد الملي، دار القصة، الجزائر، 2011، من ص 23 إلى ص 39.

³⁶³ - ذكريات من زمن البراءة، مصدر سابق، ص 25.

ثم تلتها رحلة "السفر إلى العاصمة"³⁶⁴ كانت تلك الرحلة سنة 1936، جاء استهلالها بجديث عن رحلة شوق لمدينة استثنائية، هي مدينة الجزائر، ولم يخف انبهاره بها، حتى وإن كان قد استنشق هواء قسنطينة، واكتحلت عيناه بمشاهداتها، "إذ كانت قسنطينة، المدينة الكبيرة، أصغر من مدينة الجزائر، فماذا عسى أن تكون هذه؟ كنت مبهورا بها"³⁶⁵ وتتميز هذه الرحلة بسرد يستحضر روح الطفولة في فضولها نحو الاستطلاع والاستكشاف. فيها الكثير من الاستطراد حول تاريخ المدينة قديما، حتى إنه استدرك قائلا: "لكن مالي ابتعدت عن الموضوع وهو المذكرات المتصلة بعهد الطفولة، مما شاهدته وسمعتة بنفسه يتضمن أسماء أشخاص ووقائع لا دخل فيها للخيال، أما ما رويته عن آخرين فلست أضمن صحة وقائعه ودقة أحاديثه"³⁶⁶، فلعل حرص محمد الميلي على رواية المذكرات قد هيمن بالقسط الذي جعله يتوخى الحذر من خصوصية السرد التاريخي لمقام الرجل بدل السرح في ميدان الأدب الذي يلفح جوانحه، ويخرج قريحته في تسرب محض نحو الخيال الذي يكاد يتفلت منه بين الفينة والأخرى، مما أعطى لنصّه العام بعدا أدبيا اشتملت عليه حقائق تاريخية.

وآخر رحلة³⁶⁷ تضمنها كتاب محمد الميلي "الرحلة إلى سيدي عيسى"³⁶⁸ استهلالها بجديث مستفيض عن مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعن المؤتمر الإسلامي المنعقد سنة 1936، ثم كانت له وجهتين، أولها إلى تلمسان مرافقا أباه من أجل حضور حفل افتتاح مدرسة "دار الحديث" والأخرى باتجاه سيدي عيسى، فوق اختياره على قدر مراهقته حينما اختار الاتجاه الأخير، حيث حبذ اللهو مع أقرانه، ولم تكن هذه الرحلة في ذاتها مقتصرة على هذا المقصد، بل تعدته إلى مدينة "باتنة" حيث صادف وصوله موعد المولد النبوي فخصّه باستطراد مطوّل، كما تحدث عن أناشيد المولديات.

1. 3. 2. في كتب التراجم (السيرة الغيرية)

إن التخمين الذي يفضي إلى الاحتمال بوجود إشارات عن نصوص رحلية، يأخذنا الطمع فيه إلى مظان محاتل، وهو كتب التراجم، تلکم المادة الثرية التي تبحث في الشخصيات ذات الأهمية في

³⁶⁴ - المصدر نفسه، من ص 59 إلى ص 66.

³⁶⁵ - المصدر نفسه، ص 59.

³⁶⁶ - المصدر نفسه، ص 64.

³⁶⁷ - إضافة إلى الرحلات المذكورة عناوينها في المتن، وردت في مذكرات الميلي، رحلتان، لم تستوف نصابها الزمني، لندرجها ضمن القائمة، وهو ما يفرضه علينا قانون البحث، المحدد، بزمن معين، والرحلتان، هما: الأولى بعنوان "أول زيارة لمصر بالنسبة لزينب" وهي رحلة قام بها رفقة زوجته، في عنوانها سياحية، أما مضمونها أكتسى كثيرا من الزيارات الرسمية، كما أنها لم تقتصر على مصر، بل كانت مصر محطة بسيطة من مجموع المحطات التي حلّ بها، مثل العراق وسوريا ولبنان وغيرها من البلدان، وهي تشتمل على كثير من الاستطرادات البسيطة ذات الأهمية التاريخية والسياسية، مع ذكره للشخصيات المهمة، وحديث عن الصحفيين. أما الثانية، فهي بعنوان: "الاستقرار بأثينا" وهي رحلة دبلوماسية بعد تعيينه سفيرا للجزائر باليونان، يتحدث فيها عن الاستقرار بالعاصمة اليونانية "أثينا" والأمور الشخصية التي تتعلق ببيت الإقامة وتأثيته.

³⁶⁸ - ذكريات من زمن البراءة، مصدر سابق، من ص 161 إلى ص 177.

مجتمعها، منها العلمية والسياسية وغيرها من الشخصيات التي نصبت نفسها في مقعد بارز. وبما أن هذه الشخصيات المؤرخ لها، تشكل قدرا من الأهمية. فبالضرورة سيتضمن الحديث عنها من خلال جوانب عديدة، من ذلك جانب الرحلات الذي يعد مسلك كل ذي مطمح للعلو والمجد. تلکم هي أطماع الباحث، حينما يراوده الشك، الذي يفضي به إلى تناول مادة التراجم بالفحص، فهو حتى وإن لم يجد نصوصا، قد يسترشد ويؤجّه إلى مصادرها - في حدود الاحتمال - وهذا مسعى مشروع، وحلم طبيعي، استفدنا منه كتجربة في تحقيق بعض ما صبونا إليه.

ومن بين كُتب التراجم الجزائرية التي تضمنت نصوصا رحلية، كتاب "السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية"³⁶⁹ للحاج مصطفى العشعاشي، الذي أورد رحلة³⁷⁰ إلى الحج منسوبة إلى والده "الحاج محمد بن الحاج هو الملقب بالعشعاشي"، يُوردها مصنف الكتاب مقتبسة من مذكراته - والده-، وهي عبارة عن تجربة حج مع شيخه "الحاج محمد الهبري"³⁷¹ جعلها بعنوان "الحج مع شيخي" وكانت هذه الرحلة عام 1892، كتبها على النمط التقليدي، حيث تبدأ باستهلال ينبثق منه دافع الرحلة ومجريات التجهيز لها، ثم سرد الرحلة ذهابا وإيابا، حافلة بالتوثيق لفترة مهمة من تاريخ الجزائر، وهي الفترة الاستعمارية، خصوصا وأن النص لرجل من رجال الصوفية في الجزائر، يحمل نصه توجهها صوفيا مزجى بالكرامات التي تزيع عن مستوى الواقع المنطقي، إلى عالم مليء بالانفصال الروحي، الذي يميل إلى كثير من الاحتمال والتأويل.

ومن بين كتب التراجم -أيضا- التي نظفر فيها بنص رحلي، كتاب "الروضة السننية في المآثر العلوية"³⁷² لعدة بن تونس وهو عبارة عن ترجمة لشيخه مصطفى بن أحمد العليوي، أورد من خلال حديثه عن شخصه، رحلة كان قد دوّنّها العليوي في مناسبة حديثه عن نفسه وعن رحلة³⁷³ قادته إلى تركيا، مبتعدا عن هموم وطنه التي سادها الانحلال، حيث يقول: "ألقي الله في قلبي حب الهجرة فأخذت أتسبب في الانتقال إلى جهة المشرق بكل وسيلة، بما كنت نرى عليه الوطن من فساد الأخلاق"³⁷⁴ وقد تحدث من خلالها عن مسار الرحلة ومستطردا عن الحالة الأخلاقية التي سادت تلك المرحلة، مستشهدا في كل ذلك ببعض القضايا والأحداث والأحوال في كل من تونس وتركيا، كما تحدث عن البحر وما أصابه من ويلاته وتلاطم أمواجه، يقول عن تلك المعاناة: "دخلت الآستانة بعد

³⁶⁹ - طبع الكتاب بمطبعة سقال، تلمسان، الجزائر، جمع الحاج مصطفى العشعاشي، تحقيق وتحرير: مصطفى بن بلس شاول بن الحاج محمد، دت.

³⁷⁰ - الملاحظ على هذه الرحلة أنها تمثّل نموذجا حيّا على عدم استقرار النص الرحلي وصعوبة الظفر به.

³⁷¹ - شيخ الطريقة الدرقاوية.

³⁷² - طبع الكتاب بالمطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ط1، 1936،

³⁷³ - الرحلة تمتد من ص 17 إلى ص 28 من الكتاب.

³⁷⁴ - الروضة السننية في المآثر العلوية، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ط1، 1936، ص 17.

ما كابدت من ألم هيجان البحر وما كاد يقضي على حياتي"³⁷⁵ ولما رأى ما بالبلد التي زارها من هموم تفوق الهموم التي خلفها في وطنه عاد من حيث ذهب "تيقنت وأن ما أريده من المقام بتلك الديار غير متيسر، لأسباب أهمها ما تفرسته من انقلاب المملكة إلى الجمهورية، ومن الجمهورية إلى الإباحية، ففقلت راجعا إلى الجزائر مكتفيا بالغنيمة بالإياب"³⁷⁶

ومن الكتب المميزة في هذا الشأن، كتاب محمد علي دبور "أعلام الإصلاح في الجزائر"³⁷⁷، وميزة هذا الكتاب أن صاحبه قام بدراسة ميدانية، محاورا مترجميه، ومعتمدا على الوثائق المادية الملموسة، وهو ما جعله يحقق أكبر مصداقية من الناحية الإخبارية. فقد جاءت مادته أكثر ثراء، وأعم فائدة، برزت فيه موضوعات الرحلة بشكل جليّ ومميز. ذلك أنه يروي رحلات الشيوخ المترجم لهم في كتابه، رواية عنهم. ومن هؤلاء الشيخ بيوض والشيخ أبي اليقظان.

أما عن النصوص التي وضعها دبور في مؤلفه، فهي عبارة عن أشلاء نصوص رحلية، مروية، يسرد المؤلف مقاطع منها، ويعلق على كل قطعة بما يستحق التنبيه والتنويه بشخصية المروي عنه. وهو يرويها على طريقة السند التقليدية التي كانت معتمدة عند الأقدمين. فرحلة بيوض كانت نحو تونس لطلب العلم، يروي عنه قائلا: "قال الشيخ بيوض: "لما صفيت أمور والدي في العلمة وبعنا الحانوت من الله علينا بريح لم نكن ننتظره، وذلك أنني وجدت أربعمئة فرنك حصلت عليها بعد قضاء الديون من تجارتنا التي تخلينا عنها في العلمة، وكانت محاولتنا أنا والشيخ الحاج بكير العنق منذ عامين أن نزرور تونس من قسنطينة فمنعنا مما أجح الرغبة في نفسي لزيارة تونس ورؤية الإخوان والشيخ أبي اليقظان الذي طال غيابه عنا"³⁷⁸ وكانت هذه الرحلة سنة 1921، بعد إذن والده له، يقول في ذلك: "فأذن الوالد فركبت إلى تونس في أول ديسمبر عام 1920، فأقمت فيها شهرين بين إخواني في دار بعثة الشيخ أبي اليقظان إلى أول فبراير من عام 1921"³⁷⁹ ومما شملته نصوص رحلة بيوض حديثه عن المجال العلمي الذي نوه من خلاله بمنبر العلم ومدارسه وشيوخه وحضوره لمجالسهم، والتنويه بالإخوان ونشاطاتهم.

أما رحلات أبي اليقظان فتعددت، داخلية وخارجية. الداخلية منها كانت إلى بني يزقن لملازمة درس بمعهد القطب، يقول في ذلك: "وقال الشيخ أبي اليقظان: لما وصلنا بني يزقن عاهدت زميلي

³⁷⁵ - المصدر نفسه، ص 26.

³⁷⁶ - المصدر نفسه، ص 27.

³⁷⁷ - الكتاب مطبوع عدة طبعات، آخرها طبعة دار عالم المعرفة، الجزائر، ط 1، 2013.

³⁷⁸ - محمد علي دبور، أعلام الإصلاح في الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، ط 1، 2013، ج 2، ص 203.

³⁷⁹ - المصدر نفسه، ص 203.

إبراهيم بن بكير وعاهدني أن ن عكف في بني يزقن³⁸⁰ ثلاث سنين متصلة لا نزور القرارة"³⁸¹ ثم تلتها رحلة إلى الحج سنة 1912، وهي الرحلة التي قال عنها المؤلف بأنها طويلة، لذلك لم يُدرج منها إلا شذرات، حيث قال: "لقد حدثني الشيخ أبي اليقظان رحمه الله حديثا طويلا بتفاصيل هذه الرحلة فكتبتها، ولكن هذا الكتاب لا يتسع إلا لخلاصة صغيرة منها لنعرف آثارها الحسنة في نفسه"³⁸²، ودائما على النمط نفسه يروي أحداثها منسوبة إلى عهدة قائلها: "حدثني الشيخ أبي اليقظان قال: كان جو مكة وخمًا في ذلك العهد، فقضيت جل أيامي في مكة مريضا، وكنت أحضر درسا لعالم مصري في الحرم في المواهب اللدنية في شرح الأربعين النووية في الحديث"³⁸³. وبعد رحلة الحج كانت له رحلات أخرى داخل منطقة ميزاب وتونس من أجل طلب العلم، وكلها ذات قيمة. تعدد فيها الحديث عن المعاهد والشيخ بتونس حيث كان "الزيتونة" رافدا من روافد تكوينه المعرفي، ومصدر تزويده بالعلوم الدينية واللغوية، اعترافا منه إذ يقول: "حدثني الشيخ أبو اليقظان قال: "إن العلوم التي درستها هي: التفسير، وأصول الفقه، والسيرة النبوية، والنحو، والصرف والبلاغة"³⁸⁴ بينما كان معهد ابن خلدون مصدر ثقافته الأدبية والصحافية والعلوم الأخرى، نجد ذلك في قوله: "حدثني الشيخ أبو اليقظان قال: "درست في معهد ابن خلدون الإنشاء على الشيخ محمد مناشو، وعلى الشيخ الصادق النيفر، وكانوا يعطوننا عناصر الموضوع، والتاريخ، والجغرافيا الطبيعية والسياسية على الأستاذ محمد الأصرم، والحساب والهندسة على أستاذ بارع في التدريس نسييت اسمه"³⁸⁵. كما تحدث عن تونس بوصفها بيئة حضارية.

كما جاءت رحلات أخرى من الكتاب نفسه، على شكل إخبار بوسيط، منها رحلة³⁸⁶ بيوض التي رواها مقررها الشيخ عدّون بن بالحاج، الملازم في رحلة قام بها مع شيخه بيوض، وينقلها المؤلف، وهي الرحلة التي قصد بها مدينة غرداية حيث الاحتفال والدروس والخطب يقول: "قال الشيخ عدّون بن بالحاج حفظه الله: "هذه خلاصة رحلة أستاذنا الجليل الشيخ بيوض إلى مدينة غرداية ومدن ميزاب"³⁸⁷ ويذكر فيها زمن الرحلة ووسيلة النقل، والمقصد: "خرجنا من القرارة في صباح

380 - تقع بني يزقن وسط مدينة غرداية، بينما تبعد مدينة القرارة بـ 120 كلم، وهي مسافة طويلة بينهما إذا اعتبرنا معطيات ذلك العصر.

381 - أعلام الإصلاح في الجزائر، مصدر سابق، ص 248.

382 - المصدر نفسه، ج2، ص 263.

383 - المصدر نفسه، ج2، ص 264.

384 - المصدر نفسه، ج2، ص 272.

385 - أعلام الإصلاح في الجزائر، مصدر سابق، ج2، ص 274.

386 - المصدر نفسه، ج3، من ص 81 إلى ص 214.

387 - نفسه، ج3، ص 81.

الخميس 3 شوال عام 1363هـ/ 21 سبتمبر 1944م، على الساعة السادسة ونصف عند بزوغ الشمس، في سيارة صغيرة خاصة للسيد الحاج صالح الخياط، فوصلنا مدينة غرداية في التاسعة ونصف صباحا، فقصدنا مدرسة الإصلاح³⁸⁸ كما يؤكد في مضمون الرحلة وموضوعها، أن الزيارة قد احتفت بالخطب الوعظية والدروس العلمية والإصلاحية، في ليالٍ متعددة. وهي تروي تفاصيل المواضيع التي تطرق لها شيخه (بيوض) بكل من بني يزقن والعطف وبنورة وضاية بن ضحوة، وبريان، وهي في عمومها رحلة إصلاحية.

ثم إن دبور يخصص في كتابه رواية عن رحلة³⁸⁹ البعثة العلمية الميزابية الأولى إلى تونس الخضراء بزعامة أبي اليقظان في شهر ماي 1914. وهذه الرحلة يجمع شتاتها المؤلف من أفواه شهود مختلفة، فتارة يروي عن حمو بن عيسى المرموري الذي أسندت عنه رواية الذهاب وكثير من أحداث الوصول والإقامة، وتارة عن عثمان الكعك وغيرهما، وتروي هذه الرحلة سيرة البعثة: العلمية والأخلاقية والتربوية بزعامة أبي اليقظان، وهو في عمومها نظام ديني شامل لحياة الطلبة. وتؤسس هذه الرحلة لموضوع تربية أبي اليقظان بالأساس وروح أخلاقه، ثم الأخلاق الميزابية الشهيرة بتمسكها بالدين الحنيف. وأعمال البعثة هناك.

ومن كتب التراجم -أيضا-، كتاب "شعراء الجزائر في الماضي والحاضر"³⁹⁰ لمحمد الهادي السنوسي³⁹¹، واستثناء من بين الشعراء الذين ترجم لهم المؤلف، أو ترجموا لأنفسهم من خلال طلب المؤلف، نجد "الطاهر بن عبد السلام"، ومحمد بن الحاج إبراهيم الطرابلسي، من اهتم بأمر الرحلة، وأطى لها نصيبا من الحظ. أما الأول، وبعد أن أوفى تقديم ما قدمه، بادر بيث بعض الأخبار استقفاها أو استلها من مذكراته الخاصة، كما يقول في ذلك صاحب الكتاب: "إلى هنا ينتهي ما كتبه بخطّ يده إلى كتاب "شعراء الجزائر" وإلى كل أديب في الجارتين. وها أنا أكتب الآن في أدواره الأخرى معتمدا على مذكراته³⁹² التي ظفرت منها بالشيء الكثير"³⁹³ وهذه التكملة تتعلق بقضايا علمية أبرزها الرحلات³⁹⁴ (بن عبد السلام)، وكان هذا الأخير يسمي رحلاته بالهجرة، فهو يتحدث

388 - نفسه، ج3، ص 81.

389 - نفسه، ج4، من ص 146 إلى ص 192.

390 - الكتاب مطبوع عدة طبعات، آخرها طبعة دار بهاء الدين، قسنطينة، الجزائر، ط2، 2007.

391 - ويمثل هذا الكتاب ترجمة لشعراء الجزائر المعاصرين للمؤلف -الذي كان شاعرا بينهم- مع إيراد نماذج من شعرهم. ولما كانت الترجمة تُقدّم من طرف المترجم له في

الغالب بطلب من المؤلف، يلجأ من له تجربة رحلة مرتبطة بالعلم أو غيرها إلى إيراد ذلك باقتضاب.

392 - تعدّ مذكرات الطاهر بن عبد السلام في حكم المفقود.

393 - محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في الماضي والحاضر، إعداد وتقديم عبد الله حمادي، دار بهاء الدين، قسنطينة، الجزائر، ط2، 2007، ج2، ص 84.

394 - المصدر نفسه، ج2، من ص 85 إلى ص 104.

عن الهجرة الأولى بقوله: "في ليلة من ليالي محرم 1331 هجرية أعددت شيئاً خفيفاً من لوازم السفر وعقدت العزم على الارتحال إلى تونس في تلك الليلة، دون أن أشعر أي أحد كائناً من كان، وفعلاً ما جاء نصف الليل تقريباً حتى أخذت في السير راجلاً قاصداً أقرب محطة للسكة الحديدية، وكانت تبعد عن دارنا ستة أميال"³⁹⁵ وقد كانت هذه الرحلة ذات مجاهيل ولج في غياهبها دون علم منه بعواقبها، في وصف أدبي شيق، حتى يقول: "وبينما أنا كذلك، جاء الرتل فامتطيته، وتركت تذكرة تتضمن نبأ سفري عند أحد الناس ليلغها إلى أهلي وكنت تركت لهم نظيرها معلقة بمفتاح البيت الذي أنام به فوصلت تونس عند المغرب"³⁹⁶ كما أنه يروي فيها بعض القضايا المتعلقة بالتعليم، وبعضها في الاغتراب، وقد حقق من نيل الصعاب أكبر جني، ومن التعليم أعلى شهاداته، ومن فرط ما جار عليه الدهر بات يمارس التجارة بالإضافة إلى التعليم.. وقد أخلص للتجارة فبات من روادها، حتى إنه في الرحلة الثانية التي قاده إلى تونس كانت تجارية صرفة، مع الطمع في التعليم، يقول في ذلك: "وفي 2 مارس 1924 سافرت إلى تونس لإنجاز بعض الأعمال التجارية، والتماس مورد للارتزاق ولسان حاله يقول:

وما أدري إذا يّممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني

هل الخير الذي أنا أبتغيه أم الشرّ الذي هو يبتغيني؟³⁹⁷

مما يوحي بأنه سيء الحظ في سفرياته، ما جعله يلجأ إلى الله داعياً منه التيسير، متضرعاً له من أجل التوفيق، حتى كان له ما أراد، مقرّاً بذلك: "وقد علم الله صدق توجهي، وسلامة قلبي فلم أكد أصل الحاضرة حتى وجدت الظروف مساعدة على انخراطي في سلك معلمي المدرسة العرفانية للجمعية الخيرية التونسية"³⁹⁸ وكانت هذه ثمرة صبره واصطباره، حتى صار بعد ذلك معلماً صاحب حظ، مما جعله يتكون تكويناً علمياً وأديباً مسهماً في المجال السياسي، والثقافي، والصحافي.

وأما رحلة "محمد بن الحاج إبراهيم الطرابلسي"³⁹⁹، فهي رحلة بسيطة لكنها طريفة وهامة، تتمثل في الإخبار عن رحلته التي قام بها من طرابلس الغرب - حيث كان مقيماً هناك مع عائلته - إلى وطنه الجزائر، وبالضبط، بلدة غرداية (ميزاب)، ثم العودة إلى طرابلس. حتى إذا اشتدت ضراوة الحرب بين

³⁹⁵ - نفسه، ج2، ص 87.

³⁹⁶ - نفسه، ج2، ص 87.

³⁹⁷ - نفسه، ص 99-100.

³⁹⁸ - شعراء الجزائر في الماضي والحاضر، مصدر سابق، ج2، ص 99.

³⁹⁹ - نفسه، ج2، من ص 187 إلى ص 192.

ليبيا وإيطاليا قرّر الرجوع إلى وطنه نهائياً. ولم تكن الرحلة مباشرة القصد، بل عرفت تعرجات، وانحناءات، مثلما نلمسه في قوله: "وفي آخر هذه السنة ركبت الباخرة ماراً على جربة، فقابس، فصفاقص، فالمهدية، فالمنستير، فسوسة، فتونس، وبمجرد ما أرسى بنا الباخرة على رصيف الخضراء وجدت في انتظاري العلامة الحاج سعيد الباروني فذهبت صحبته إلى حيث المنزل"⁴⁰⁰ وهي الفرصة التي أرغمته برغبة شديدة على المكوث بجانب الجامع الأعظم، توافقا مع شخصيته الدينية، وجلبته على العلم وحب العلماء، "وعندما ولجت الجامع ورأيت ما به من العلوم علق بقلبي ما شهدت فطلبت من الشيخ الحاج سعيد أن يكاتب والدي لبيقيني شهورا، فكاتبه وكان من الحظ أن أجابه على ما طلبت، فمكثت سبعة أشهر حضرت فيها على مشايخ كثيرين. وفي سنة 1323هـ ودّعت الجامع الأعظم، وأنا باكي العين، حزين القلب وامتطيت القطار إلى الجزائر، وهنا اجتمعت بالأعمام، والأقارب ثم وجهت وجهتي شطر مسقط رأس الآباء، والأجداد (بريان)"⁴⁰¹ تمت الرحلة إلى الجزائر ومكثه بريان مليئة بالزيارات العلمية وشيوخ أهلها. يرويها بعد رواية تفاصيل العودة.

1 . 4 . النص الرحلي من خلال الجرائد والصحف

اهتمت الصحافة منذ نشأتها بكثير من القضايا المتعلقة بالمجتمع، منها الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والإخبارية، ومن ثم عرف الأدب، الصحافة كمطية أخذت به إلى الرقي والتطور، بفضل المنافسة الكبيرة التي كانت تثار بين الأدباء والكتاب عموماً. وواضح أن التحول الذي عرفه الأدب الحديث من أبرز أسبابه بدعة الصحافة وتطورها، فقد عرفنا أن "تحولاً واسعاً أصاب أدبنا عن طريق هذه الصحافة، فإنها أخذت تعالج موضوعات سياسية واجتماعية واقتصادية لا عهد لأدبنا القديم المسجوع بها، فقد كان أدبا لفظياً، ولم يكن محشواً بمعان قومية ولا إنسانية، بل كان فارغاً، فمألت الصحافة فيه هذا الفراغ، ووصلته بالأدب الغربية وما فيها من دراسات في شؤون الحياة وحقائق العلوم والمذاهب الفلسفية"⁴⁰² ولعل هذا يحيلنا إلى القول -أيضاً- بأن الصحافة قد حوّلت النسق الأدبي العربي من الشعر إلى النثر، حيث استحوذت مجالاتها على التّهام كل فنّ بالعمل المستمر والممارسة الكتابية، إذ لم تتوقّف يوماً عن مواكبة الأحداث (في أي غرض).

400 - نفسه، ج2، ص 188.

401 - نفسه، ج2، ص 188.

402 - الأدب العربي المعاصر في مصر، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 1974، ص 35-36.

1. 4. 1. الرحلة مقال أدبي

إن من التجارب الذاتية التي عبّرت بقوة عن تفاعلها على مستويي الفعل والكتابة، أدب الرحلة الذي خدم الأدب بطريقة مباشرة وغير مباشرة. وكما أن ما ينتاب المقال من تجاذبات في المفاهيم، ينطبق على مفهوم الرحلة الذي يبدو أن استعصاءه على التحديد هو ما خلق له فجوة عميقة تركت ما كتبت من تجارب حول السفر محصورة في المقال دون إعطائه الأهمية التي يستحقها، وتؤطرها وفق خصائصها التي تميزها، وبقي النص الرحلي -هذا- مدرجا في حكم المقال العام، وتعد هذه الوضعية واحدة من أسباب تخلي المهتمين عن مجاله، معتبرين أن النص الرحلي هو شكل تام يقوم على نص منفرد مستقل بموضوعه في قرطاس تقليدي، دون مراعاة تحولات العصر في مختلف الشؤون والمفاهيم.

وبعد هذا المحور جزءا من الإشكالات الكبرى التي لا زال يبحث لها نص الرحلة عن جواب شافٍ، وهي قضية تجنيس الرحلة. ولعل القضية الأساس التي تركت هذا الجدل قائما، هو ما يميّز به النص الرحلي من مفارقات، من حيث الحجم، أو الشكل أو البناء، فالنص الرحلي نص حداثي⁴⁰³، يتماوج مع ظروف خاصة تنتجه، لذلك لا نستغرب إذا تحقّق نصّا تامّا من خلال مقال صحفي ينشر في جريدة، يحصر فعل السفر ويحقق سرديته، كما لا نستغرب إذا وجدنا نصّا رحليّا يتألف من ألف صفحة من كتاب أو يزيد (رحلة العياشي، رحلة الورثلاني -مثلا-).

وإذا ما حاولنا أن نمسك بنص من نصوص الرحلة نجد أنفسنا أمام شكل لا يكاد يتميز عن المقال بخصائصه المعروفة، من مقدمة وعرض وخاتمة. مع هيمنة "التزعة التحليلية فلا يأتي المقطع السردية في أغلب الأحيان إلا لكي يكون استشهادا على فكرة وتأكيدا لموضوع"⁴⁰⁴ ومن هذه الناحية نعتبر نص الرحلة أقرب الأجناس الأدبية إلى فن المقال⁴⁰⁵، حيث يشتركان أو يتقاطعان في خصائص كثيرة، كما أن شكلها العام يتكون من مقدمة وعرض وخاتمة، وإذا كان المقال هو هذا الشكل في تمامه، فإن نص الرحلة لا يخرج عن كونه عملية سردية يبدأ بمقدمة يشرح فيها أسباب السفر ودوافعه، ثم العرض الذي يتجلى في سرود من محطات الزيارة ومشاهدات وانطباعات وحوارات، ثم الخاتمة التي تنتهي بعودة الرحالة أو خلاصة الرحلة ومغزاها. يبقى هذا التقارب دائما في حدود الحديث عن المقالة الذاتية دون الموضوعية.

403 - الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر - مستويات السرد-، عبد الرحيم المودن، دار السويدي أبو ضبي، ط1، 2006، ص11.

404 - ينظر محمد الباردي، عندما تتكلم الذات -السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث-، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2005، ص

28.

405 - طرح الإشكال العالق بين ما يميز الرحلة بوصفها مقال أو قصة حسب شوقي ضيف، وهي في الأخير حكاية.

وسواء أكانت الرحلة محدّدة بمقال واحد في جريدة أم كانت سلسلة من الحلقات، وسواء أطل نصها أم قصر، فإننا نعتبر أن نص الرحلة مقال يتحقق حسب طول مدة الرحلة أو موضوعها، وإذا كان هذا النص طويلا ويحتاج إلى حلقات، ففي كثير من الأحيان يُجمع هذه الحلقات وتضبط في نص واحد (كتاب) وتشكل نصّا رحليًا تامًا وموحد.

1 . 4 . 2 . تمرکز النص الرحلي الجزائري الحديث في وسائل الصحافة المكتوبة.

احتضنت الصحافة إبان الحقبة الاستعمارية جميع أنماط ما يستدعي الكتابة والتواصل، وهو القدر المحتوم لكل النماذج الثقافية والإخبارية، في الوطن كله. جزاء الواقع المرّ والمسدود، فكان اللجوء حتميا للصحف والجرائد التي احتضنت الأفكار والأخبار والدعاية والأدب والسياسة، والمقاومة والإصلاح والطرقية، فقد كانت الصحافة حلبة صراع كبيرة عرفتها الساحة الجزائرية بداية من أول عهد لها.

ولما كانت كل الأحداث تصب مكنوناتها في إناء الصحف، شاركت الرحلة منذ ظهور أول جريدة عربية في الجزائر، ونقصد بها "المبشر"، هذه الجريدة الرسمية التي نشرت عبرها أول رحلة في تاريخ الصحافة الجزائرية سنة 1852، لصاحبها سليمان بن صيام، المعروفة بـ "الرحلة الصيامية"، ثم أعقبتها رحلات ليست بالقليلة كمّا، ولا بالناقصة فنّا. واللافت أن معظم الجرائد تبنت نصوصا رحلية، دعت إليها الحاجة في الغالب خدمة لأغراضها الدعائية ورغبة في نشر الوعي والتعرف على مستويات المجتمع وهمومه وغربته.

والمعنى في هذه الصحف، يجد أن الرحلات لم تكن سوى بوق دعوي لفكرة أو لتيار من التيارات التي كانت قائمة في الجزائر إبان تلك الفترة، حيث إن كل جريدة إلا وكانت تسعى من أجل بث دعوتها التي تتبناها، عبر الرحلات التي كانت ملازمة لسيرورة نشاطها الدعوي، سواء تعلق ذلك بالإصلاحيين أو الطرقيين أو الوطنيين، وحتى المماليين لفرنسا وغيرها من التوجهات. في حين أن هذا الغطاء الإيديولوجي، لا يحجب الرحلات العامة التي ليست لها مصلحة من مصالح هذه الخلفيات، بل كانت السياحة والدعوة إلى التجوال، أو سرد بعض تجارب الحج أو السفر إلى أوروبا أو إلى تغطيات أحداث أخرى.

وبهذا التلميح نكون قد مهّدنا للقول إن حصر الرحلات جميعها في هذه الفترة الممتدة من سنة (1847 - زمن صدور أول جريدة-)، إلى سنة 1962 -تاريخ الاستقلال) والذي عرفت فيه إنشاء أكثر من مائة جريدة وصحيفة، لسوف يبدّد من طاقتنا، ويطيل من بحثنا، ويزيد من حجمه، ويصيبه

من التخمّة ما يصيبه، ومن أجل ضبط الموضوع، سوف نقوم بتقسيم مجالات الرحلات المنشورة بهذه الجرائد المعنية، ونعتمد إلى التركيز على الأهم منها بحسب دوافعها وموضوعاتها.

1 . 2 . 4 . 1 . الرحلات المنظمة

أ- فريق الرحالة المبعوثين (الجولة الصحافية):

لم تكن الجرائد الوطنية تعتمد في تموينها على أي جهة، سوى الاشتراكات التي كان يجمعها بعض من المكلفين من أعضاء هذه الجريدة أو تلك، ومما كان يستهوي هؤلاء المتجولين، أن بعضهم كان يبعث بتقرير عن أحوال المناطق التي زارها، والمدن التي حلّ بها، وعن أحوال الناس الذين عايشهم. وكان يعلن كل رحلة في أول ما يبدأ في تسطير الحديث عن رحلته، أو جولته، بالتنويه عن دافع هذه الرحلة مثلما نجده عند "عبد اللطيف سلطاني" في قوله: "رأت لجنة إدارة جريدة (الصراط السوي) أن تعتمدي في استخلاص مسلوم اشتراكات الجريدة، فارتأيت رأيها وشرعت في السفر لبعض الجهات من عمالة قسنطينة، ولا بد أن قام بهاته المهمة - مهمة الصحافة - من أمور تعرض له أثناء قيامه بواجبه، ومن الفائدة لقراء "الصراط" الفضلاء أن أذكر لهم في كلمة مختصرة ما رأيته في رحلتي هاته"⁴⁰⁶. وهو واضح جليّ أن سبب هذه الرحلة هو جمع الاشتراكات للجريدة. ثم في أحيان كثيرة يعلن أيضا عن مساره كما هو الشأن مع الرحالة نفسه "وسأطلعك اليوم على هاته البلاد القنطرة، عين التوتة، باتنة، عين مليلة، حيث كان مبدأ الرحلة القنطرة"⁴⁰⁷ كما يورد آخر قائلا: "قرائي الأعزاء! ستقرءون كلمات هي ملاحظات عن البلدان التي زرتها والتي سأزورها في جولتي هذه في سبيل جريدتنا العزيزة المحبوبة"⁴⁰⁸ ونجد ذلك -أيضا- عند علي مرحوم في قوله: "..كتابة متجول عن جولته في الجزائر لا تعني كثيرا بالأخبار عما هو معلوم للجمهور ولكن رغبة في إفادة الأقلية وجريا على عادة المتجولين رأينا أن نحدّث قراء البصائر الكرام عما نراه مما يهم الإطلاع عليه في أخبار المدن والقرى التي نمر بها"⁴⁰⁹. وحتى لا يظن مشكك بأن هذه التقارير عن المدن والحواضر المزارة، والمقرر عنها، يسوقها الأسلوب الجاف، والتقارير الجردّ، بل كان الرحالون (أو بعضهم على الأقل) على إحاطة بالأسلوب الجمالي، حين نقرأ هذا النص -مثلا- لعلي مرحوم في بداية جولته "كان القطار يسير وجمال الطبيعة يبدو جذابا يستلفت

406 - عبد اللطيف سلطاني، كلمة مختصرة، الصراط السوي العدد السادس عشر، (يوم الاثنين 15 رمضان 1352هـ/04-01-1934).

407 - المصدر نفسه.

408 - أحمد حامي، حديث المتجول ج 2 جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، العدد 126، الجمعة 15 جمادى الثانية 1357، الموافق ل 12 أوت 1938.

409 - علي مرحوم، حديث المتجول، البصائر العدد 94، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، الجمعة 5 ذي القعدة 1356، الموافق ل 7 جانفي 1938.

الأنظار ويستوحي السرور ولم أشعر نفسي حين كنت أردد قول الرافعي المرحوم "لاحت لي الأزهار كأنها ألفاظ حب رقيقة مغشاة باستعارات ومجازات والنسيم حولها كثوب الحسناء على الحسناء فيه تعبير من لابسته. وكل زهرة كابتسامة تحتها أسرار وأسرار من معاني القلب المعقدة. ما أعجب سر الحياة كل شجرة في الربيع جمال هندسي مستقل ومهما قطعت منها وغيرت من شكلها أبرزتها الحياة في جمال هندسي جديد كأنك أصلحتها" كنت أردد هذا الوصف البديع بينما أتأمل في أسرار الطبيعة فأجدها طبق ما وصف قلم الرافعي. زرابي مبثوثة من النبات وورود منثورة من الأزهار. والشمس في السماء يحجبها السحاب مرة ويبدد الحق الباطل حين يحجبه في بعض الأحيان ثم ما يلبث حتى ينكشف ويجيء الحق ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.⁴¹⁰

وقد كان لجرائد الإصلاح متحولين وظيفتهم جمع الاشتراكات، ومنها يسهمون في التبليغ بتقارير حول أوضاع بعض المناطق المزارة، نذكر على سبيل المثال: محمد بن العابد الجلاي "الذي كان يقرّر عن رحلته بجريدة "المنتقد"⁴¹¹ ثم استمر في نشرها على جريدة "الشهاب". وبنفس الجرائد زمانا ومكانا، كان محمد الهادي السنوسي الزاهري يسهم بـ "ما سمعت وما شاهدت"⁴¹².. إلى جانب عدد كبير من هذا النوع من الرحلات، أغلبها كان على جريدة البصائر، وبعضها على صحيفة الشهاب في أعداد مختلفة، منها لعلي مرحوم بعنوان آخر: "كلمة وجيزة حول الجولة لمجلة الشهاب"⁴¹³ ثم أعقبها في السنة الموالية بـ "حديث المتجول"⁴¹⁴ ثم ألحقها بسلسلة ثانية "حديث المتجول" في دورته الثانية، وبنفس العنوان أسهم أحمد حماني "حديث المتجول 1" و"حديث المتجول 2". وعبد الرحمان بن الحاج صالح في "حديث المتجول.. بين الحل والترحال" وأحمد بوزيد قصيبة في "حديث مندوب جمعية العلماء: حركة جمعية العلماء بعمالة الجزائر" وعبد اللطيف القنطري حين كان مندوبا بجريدة الصراط نشر "كلمة مختصرة" وعبد الرحمان الحسيني نشر "تأملات مسافر" وفرحات بن الدراجي "من هنا وهناك". وقد كان هذا العمل المنتظم مقتصرًا على الإصلاحيين، أما غيرهم من الأحزاب والجمعيات والمذاهب، فلا نجد

⁴¹⁰ - علي مرحوم، حديث المتجول - الجولة الثانية- البصائر العدد 115، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، الجمعة 27 ربيع الأول 1357، الموافق لـ 27 ماي 1938.

⁴¹¹ بدأها بجريدة المنتقد بعنوان ملخص الأخبار (أنباء عن الوطن) الأعداد: 12-13-14 ثم بعنوان رسائل عن الوطن في المجلة نفسها في عددي 15 و16، وبعد توقف جريدة المنتقد بعد صدور عددها 18، واصلت مسيرتها بصحيفة الشهاب، التي استمر الكاتب في نشر رحلته بنفس العنوان الأخير ابتداء من العدد 1، السنة الأولى، (الخميس 25 ربيع الثاني 1344هـ/12-11-1925) ثم بالعدد 3 ثم العدد 6 ثم العدد 17.

⁴¹² جريدة المنتقد العدد 17، يوم 23 أكتوبر 1925 الموافق لـ 3 ربيع الثاني 1344 هـ

⁴¹³ صحيفة الشهاب الجزء التاسع المجلد الثالث عشر، (غرة رمضان 1356هـ/نفاير-1937).

⁴¹⁴ جريدة البصائر العدد 94، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، الجمعة 5 ذي القعدة 1356، الموافق لـ 7 جانفي 1938.

لهم إلا نزرا مبعثرا من ذلك نذكر للطريقين "رسالة من نائبنا ببلاد القبائل" ⁴¹⁵ لمحمد الشريف و"رسالة من نائبنا سياحتنا إلى زمورة" ⁴¹⁶ لعلوش الصديق. وللحسن الطولقي "سوانح متجول" ⁴¹⁷ ولقويدر بن مناد "الجولان وفوائده" ⁴¹⁸ كما لقادة بوجلال رحلة من هذا النوع بعنوان "كل الناس كاملون.. ولا عمل يذكر إلا ما كان لمصلحة عامة" يقول في مقدمتها: "هذه أول جولتي بالعمالة الوهرانية ساعيا وراء حياة هذه الصحيفة" ⁴¹⁹

وإذا استثنينا الصحف الإصلاحية والطرقية في هذا المجال، حيث كانتا تشكلان الصورة الأكثر حساسية في الصراع القائم بين الجزائريين، فإن هناك أكبر جريدة في تاريخ هذه المرحلة، ونعني بها جريدة النجاح (1919-1956) فإنها كانت منحازة إلى الطرف الاستعماري، بواجهة وطنية، ليس من شك أنها خدمت فن الرحلة الجزائرية كَمَا وَكَيْفًا، وأصبغت على موضوعاتها شيئا من هذا اللون الممالي، بالخصوص الرحالة "إسماعيل مامي"، هذا الأخير نحسبه زعيم الرحالين الجزائريين في العصر الحديث، بإثرائه للمدونة بعدد الرحلات التي أُرِخَ فيها للمناسبات داخليا وخارجيا، بعنوانين مختلفة حسب دافع السفر وبغية الطلب، وقد نشرت كلها بجريدة النجاح التي كان يشتغل بها رئيسا للتحريير، ومن بين رحلاته نذكر: "جولتي في المغرب وبلاد الأندلس"، "المغرب الأقصى سياحة محرر النجاح"، "جولة نائبنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي" "باريس حول الاحتفال بالجامع"، - "جولة نائبنا بالوطن القبائلي"، - "على جناح السفر"، - "عن بلاد الصحراء"، و"رحلة في البلاد الأندلسية مشاهدات تلك الآثار الخالدة التي تركها العرب"، وعلى الرغم من الرائحة الممالة التي تفوح من بعض نصوصه، نجد في هذه النصوص الكثير من الفائدة الأدبية والمعرفية، والنظرة الناقدة التي كان فاحصا فيها. وتمم هذه العناوين التي سقناها، عن أبعاد صحفية، مارسها كاتبها بحنكة كبيرة خدمة لجريدته.

ويدخل في هذا الباب الرحالة المتجول، الحسن الوارزقي الذي أسهم بتقارير صحفية تدخل في صميم فن الرحلة مما تتوفر عليه من عناصرها الفنية، وكان يوشم فوق كل عنوان من عناوين تجولاته، رسم عبارة "حديث متجول النجاح" وقد تعددت هذه الجولات ومنها: تلمسان الجميلة - فرسان العرب والبارود بشوارع مدينة وهران - "معهد العلوم الشرعية الإسلامية بالمدينة الجديدة بوهران" -

⁴¹⁵ جريدة البلاغ الجزائري، العدد 287، السنة السادسة، الجمعة 16 رمضان 1351هـ، الموافق لـ 13 جانفي 1933.

⁴¹⁶ جريدة لسان الدين، العدد 30، السنة الأولى، الأربعاء 30 صفر 1356هـ.

⁴¹⁷ نشرت بجريدة لسان الدين، في ثلاث حلقات بداية من العدد 50 السنة الثانية، يوم 15 صفر 1357هـ الموافق لـ 16 أبريل 1938م.

⁴¹⁸ - جريدة البلاغ الجزائري، السنة الثانية، العدد 69، الجمعة 21 ذي القعدة 1346هـ، الموافق لـ 11 ماي 1928.

⁴¹⁹ - المصدر نفسه.

"مدينة المجد القديم" - "قاضيان في البيض! بلدة العروبة والبدواة والكرم" - "ساعات مع فخر مدينة تلمسان" - "مدينة المسجد المعلق!" - "في الصحراء .. من وراء الرمال.." - "في عروس العواصم جزائر بني مزغنة!!". وكل هذه الرحلات مبثوثة في جريدة النجاح في أعداد مختلفة.

أما خلال ثورة التحرير فقد كانت جريدة "المجاهد" تُسهم بعضُ أعلامها بهذا النموذج الذي لم يكن يمثل سوى تيار واحد خلال هذه الفترة النيرة من تاريخ الجزائر، وهو التيار الوطني الذي جمع كل طوائف المجتمع. ففي هذه الجريدة نجد بعض من التقارير عن تغطيات صحفية، توحى بنمط رحلي، منها رحلة "جزائريون في يوغسلافيا"⁴²⁰ وهي رحلة صحفية بامتياز، تلبية لطلب من وزارة الأخبار اليوغسلافية، يقول صاحبها: "في أوائل شهر جويلية الجاري سافر وفد من الصحفيين الجزائريين إلى يوغسلافيا بدعوة من وزارة الأخبار اليوغسلافية وذلك لحضور حفلات الذكرى العشرين للثورة الوطنية اليوغسلافيا الذي يصادف يوم 4 جويلية"⁴²¹ يتحدث صاحب الرحلة عن اللقاءات التي جمعت الوفد بالمسؤولين اليوغسلافيين، كما يتحدث عن تبادل وجهات النظر وعن التشابه بين البلدين من حيث المقاومة، وعن الصحافة في يوغسلافيا، والمصانع الضخمة كمصنع البواخر، وغيرها من الأحاديث، كل ذلك في ثلاث حلقات، بينما يكشف عن وجه أديب في الحلقة الرابعة -الأخيرة- التي خصّها بوصف الطبيعة في يوغسلافيا. كما تضمّنت هذه الجريدة رحلات أخرى، واحدة بعنوان "نشاط الاتحاد العام للعمال الجزائريين"⁴²² وهي الرحلة التي قضاها الوفد ببلجيكا "حيث كان يتلقى دروسا تدريبية نظمتها الجامعة العالمية للثقافات المغربية الثلاثة دامت ثلاثة أشهر"⁴²³، وأخرى -أيضا- بعنوان "ليبيا المجاهدة تستقبل وزراء الجزائر الثائرة"⁴²⁴. رحلة أخيرة في إطار زيارة رسمية إلى المملكة العربية السعودية، بعنوان المقال "المملكة العربية السعودية تكرم وفد الحكومة الجزائرية"⁴²⁵.

ب- فريق الرحلات التفقدية

وهي الرحلات الناتجة عن أعمال المؤسسات والجمعيات التي كانت ترافق مشروع كل فئة، تلتقي بأنصارها، لتشحن عواطفهم، وتحيي ضمائرهم، وتجدد ثقتهم. وقد كانت في ذلك معركة كبيرة في هذه

⁴²⁰ - نشرت بجريدة المجاهد في أربع حلقات، ابدية بالعدد 101 يوم الاثنين 18 صفر 1381 هـ الموافق لـ 31 جويلية 1961 م .

⁴²¹ - جريدة المجاهد: العدد 101، السنة 4، الاثنين 18 صفر 1381 هـ الموافق لـ 31 جويلية 1961 م.

⁴²² - نشرت بجريدة المجاهد العدد 16، السنة 1، 15 جانفي 1958 م.

⁴²³ - المصدر نفسه.

⁴²⁴ - نشرت بجريدة المجاهد العدد 37، السنة 2، الأربعاء 15 شعبان 1378 هـ الموافق لـ 25 سبتمبر 1961 م.

⁴²⁵ - جريدة المجاهد، العدد 37، السنة 2، الأربعاء 24 رمضان 1378 هـ الموافق لـ 2 أفريل 1961 م.

الفترة الحرجة التي كان فيها الصراع محتدماً، خصوصاً بين الإصلاحيين والطرفيين. وقد قويت شوكة الإصلاحيين، وتزايد أتباعهم، وتطور تنظيمهم، حتى صارت لقاءاتهم دورية ومنتظمة، ومكثفة، وأغلب ما كان يقوم بها زعيمهم ابن باديس، الذي كان يرى أن سرّ نجاح الحركة في هذه الجولات، وقد كان في كثير من الأحيان، هو من يقرّر عن رحلته، كالتي كتبها بعناوين مختلفة منها: "رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية"⁴²⁶ التي تحدث في بدايتها قائلاً: "سافرت من العاصمة يوم الأربعاء 27 محرم وحللت بها صبيحة الثلاثاء 1 ربيع الأول"⁴²⁷ والتي قادت إلى كل من "المدينة البرواقية قصر البخاري الجلفة الاغواط آفلو سوق تيارت فرندة معسكر سعيدة البيض وهران سيدي بلعباس تموشنت تلمسان مغنية الغزوات ندرومة ارزيو بريقو مستغانم زاوية الشيخ ابن طكوك غليزان"، ورحلات أخرى غيرها. كما أن هناك الكثير من الرحلات التي كتبها مقرّرون مرافقون، على سبيل المثال -لا الحصر- الفضيل الورتلاني مثل: "رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة"⁴²⁸ التي يبدأ كلامه فيها بقوله: "اعتادت الجمعية أن توفد من فيهم الكفاءة من رجالها، إلى الأمة الجزائرية التي ما أسست إلا لخدمتها ورفع مستواها الديني والأدبي يوم سمحت لها الظروف، فقام إذ ذاك أولئك الرجال المخلصون بما أنيط بعدتهم من نشر الهداية الصحيحة، وإنهام وإقدام وتردد في أمر الجمعية-بسبب الساعين في الأرض بالفساد- وكانت النتيجة فوق المتوقع والمظنون"⁴²⁹ ورحلة أخرى بعنوان "رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (بعمالة قسنطينة وما يلاحظ فيها)"⁴³⁰.

ولم يكن عند الطرفين مثل هذه اللقاءات التي كانت تعقدها الحركة الإصلاحية من أجل التحريض والدعوة، في مقابلة المواطنين والعمل على تغيير مفاهيمهم، وتوعيتهم، بمستجدات العمل الإصلاحي. بل كان عملهم في هذا الخصوص يتم من خلال تجمعاتهم الخاصة، التي كانت لا تتعدى مرديهم، أما خلال الرحلات فلم تكن إلا عبارة عن زيارات لبعض الزوايا أو النوادي يعقد فيها اجتماعهم الخاص، من ذلك ما حقّقه ابن منصور في رحلته المعنونة بـ "وفد جمعية علماء السنة بمدينة

426 - مجلة الشهاب، الجزء الثامن، المجلد الثامن، (غرة ربيع الثاني 1350هـ/ أوت 1932).

427 - المصدر نفسه.

428 - مجلة الشهاب الجزء السادس المجلد العاشر، (غرة صفر 1353هـ/ ماي- 1934).

429 - الفضيل الورتلاني، رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، الشهاب الجزء السادس المجلد العاشر، (غرة صفر 1353هـ/ماي- 1934).

430 - جريدة البصائر العدد 16، السلسلة الأولى، السنة الأولى، الجمعة 2 صفر 1355، الموافق لـ 24 أبريل 1936.

مستغام⁴³¹ حيث كانت هذه الزاوية تُعدّ بالنشاط الطرقي، ومثلها أيضا لرحلة أحدهم بعنوان: " وفد علماء الزوايا يتجول بالعمالة الجزائرية"⁴³².

ج- فريق الرحلات المتعلقة بالنشاطات والحركات الجمعوية

من بين الدوافع التي كانت مصدر كتابة حول الرحلة، تلك التي تندرج ضمن أعمال ونشاطات جمعوية، ومنظمات مستقلة، حيث كان كُتّاب هذه الفئات يُعَوّن معاني السفر ودلالات الكتابة حوله، ولم تكن كتاباتهم مجرد تقرير، وإنما كان السفر حافظا قويا على جعل من الرحلة فضاء ترويحيا ومجالا معرفيا وكيانا عالقا بينه وبين المتلقي. ومن بين النشاطات التي كانت مهادا لهذه الرحلات، ما نجده في أعمال الإصلاحيين على مستوى مدارسها الحرة، التي كانت تقوم بواجب تربية النشء على اكتساب مقومات التفتح على الآخر من خلال السفر، وليس أدل على ذلك من قول أحدهم: "تطرح الحديث في وقت مضى رجال المجلس الإداري لجمعية العلماء في قضية "الرحلات المدرسية" يقرأ فيها التلاميذ والتلميذات في مدرسة أخرى هي مدرسة الكون، يتلقون العلوم من لسان فصيح هو لسان الطبيعة الصامت، ومن أسلوب بليغ هو سحر بيانها اللافت، لتتعرف هذه الطفولة الظاهرة، وتتقارب أرواحها، وتتلاقح طباعها، وتتلاقى أفئدتها، في ميدان التربية والتعليم ، حتى تنشأ هذه الأجيال الزاحفة إلى الحياة -على أصل من التربية أصيل، وعلى قاعدة من العلم يحفظها من الزلق في المسير، وليصححوا ما تلقوه نظريا، بما يشاهدونه بالعين، ويلمسونه باليدين"⁴³³ وهذا دليل قاطع على وعي المرّين بضرورة السفر وقيّمته في التنمية البشرية. والأهم من هذا، أن كُتّاب هذه الشريحة، هدّفوا بوعي حين نقلوا التجربة إلى كتابة ذلك لإدراكهم بتفاعل القارئ، ولتعميم الخبر بما تقوم به الهيئات المستقلة التابعة للحركة الإصلاحية الجزائرية. وإضافة إلى هذه الرحلة المستند إليها "رحلة مدرسية بين الشط والصحراء"⁴³⁴ لكتبتها (علي جاو). وهناك رحلات على النمط نفسه نجدها في أركان مختلفة من الصحف والجرائد، مثل رحلة سليمان الصيد "رحلة مدرسية"⁴³⁵ ورحلة أخرى ذات أهمية بالغة، وهي "رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا" لمصطفى عبد

431 - جريدة البلاغ الجزائري، العدد 297، السنة الثامنة، الجمعة 22 صفر 1352 هـ الموافق لـ 16 جوان 1933م.

432 - مكاتب خاص جريدة الرشد عدد 14 والذي يليه.

433 - علي جاو، جريدة البصائر، سلسلة: 2، سنة: 5، عدد 191، الإثنين في 2 رمضان 1371هـ (26 ماي 1952م).

434 - المصدر نفسه.

435 - جريدة البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد 234، الجمعة في 15 شوال 1372هـ (26 جوان 1953م).

الرشيد كتبت بجريدة النجاح في 13 حلقة⁴³⁶ في سنة 1932، يعرفنا فيها الكاتب على كثير من المعالم السياحية وكثير من المعارف خاصة التاريخية منها.

ومن المنظمات والجمعيات التي كان لها اهتمام بجانب الرحلة كفعل وكخطاب، نجد ما كتبه رجال الكشافة الإسلامية الجزائرية، أبرزهم محمد منصور الغسيري الذي كتب عدة نصوص، منها "الكشافة الجزائرية في مصر"⁴³⁷ و"مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية الجزائرية"⁴³⁸ هذا على مستوى المشرق العربي، أما المستوى الأوروبي وبالضبط إلى إسبانيا، كتب بوزيد عطياوي رحلته "في بلاد الأحلام والذكريات"⁴³⁹ وعرفت كل هذه الرحلات بسفرياتهم التي لا تخرج عن السياحة والاستطلاع والحكاية عن المشاهدات.

ومن بين المنظمات التي كانت شبه رسمية، والتي أقامتها فرنسا لمسلمي أقطار المغرب العربي، وخاصة منها لتنظيم عملية الحج، "جمعية أحباس الحرمين الشريفين" لقد كانت هذه الجمعية تعقد سنويا بإحدى الأقطار الثلاث المعنية، في إطار توعية الناس بالحج، وتهيئة الأجواء للسفر عبر البواخر المستأجرة. كما أنها كانت تعمل بإيعاز من المستعمر، مما جعلها محل انتقاد الكثير من الناقمين على هذا المستعمر، ومنهم رجال الحركة الإصلاحية، يتطرق لهذا الموضوع بالنقد، الرحالة منصور الغسيري المحسوب على الإصلاحيين، الذي يعترف أن هذا المؤتمر لا يمثل شريحة المجتمع المغربي المغلوب على أمره، والذي يقول فيه: "مؤتمر أوقاف الحرمين الشريفين الذي نسمع به ولا نرى له أثرا في قافلة الحجاج المغاربة الفقراء"⁴⁴⁰. ومما يجدر ذكره فيما يتعلق بموضوعنا، أنه قد انتبه من المشاركين في هذه المؤتمرات بعض الكتاب ممن يمتلك الحس الرحلي أن يدون تقريراً رحلياً عن هذه اللقاءات، باتخاذ أسلوب الكتابة الرحلية نمطا، وقد شاع هذا النموذج، سواء على مستوى كتاب الجزائر أو المغرب أو تونس، كما فعل ذلك أحمد سكيّج الذي كتب مدونات كثيرة، منها "شبه رحلة إلى الجزائر"⁴⁴¹، وأبرز من دفعه حافز الكتابة على هذا الموضوع، من الكتاب الرحالين الجزائريين، إسماعيل مامي الذي كان يتابع باهتمام هذه اللقاءات ويدون ما جرى بها من فعاليات، انطلاقا من نقطة بداية السفر إلى اختتام

436 - وهي رحلة متسلسلة في حلقات، يصعب الظفر بها، لتتركها في ركن صعب ومجثت، نظرا لطبيعة الجرائد آنذاك، والتي لم تكن لها منهجية في تصنيف أعمالها. كتبت الحلقة الأولى بجريدة النجاح عدد 1275، الاربعاء 25 شوال 1350 الموافق 3/2/1932.

437 - مجلة الحياة، سلسلة جديدة، الجزائر 1954 العدد1.

438 - جريدة البصائر العدد 240، السنة السادسة، السلسلة الثانية، الجمعة 2 محرم 1337، الموافق ل 11 سبتمبر 1953.

439 - نشرت بمجلة المنار في ثلاث حلقات، بداية بالعدد 19، السنة الأولى الجمعة 2 رجب 1371 الموافق ل 28 مارس 1952.

440 - منصور الغسيري، عدت من الشرق - في البلاد العربية السعودية -، البصائر ع258/ سلسلة ثانية/ سنة 6/ 8 جمادي الثانية 1373 الموافق 12 غفري 1954.

441 - نشر في كتاب بدار الأمان، الرباط، المملكة المغربية، دراسة وتحقيق محمد الرازي كنون الحسيني الإدريسي، د ت.

هذه الفعاليات، ومن بين ما دونه مامي هذه العناوين: "مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين سفر الوفدين التونسي والجزائري لرباط الفتح بالمغرب"⁴⁴² المنعقد بالمغرب في جانفي 1937، و"مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين الذي انعقد بعاصمة الإيالة الجزائرية"⁴⁴³ المنعقد بالجزائر في ديسمبر 1937. ومن هذه المؤتمرات غير البريئة، كان يعقد سنويا مؤتمر آخر مخالف للسابق، وهو الاجتماع الذي يعقد باسم مؤتمر الطرقية ورجال الزوايا، وكان ينعقد كل سنة في بلد من البلدان المغاربية، خصوصا في الجزائر والمغرب، وقد شهد إنجازا رحليا بفضل نص عثمان بن عبد المجيد بن ابراهيم بعنوان: "نظرة زاهرة"⁴⁴⁴ وهو ذلك الذي انعقد في الجزائر العاصمة ما بين 15 و19 أبريل 1938. يقول في مدخله "حضرت هذا الاجتماع الأخير بمناسبة المؤتمر الطرقي الديني، هذا الاجتماع المؤنس، هذا المنظر الأخوي"⁴⁴⁵

وهناك جمعية علمية ثقافية كانت تعقد مؤتمرات سنوية بين أقطار المغرب العربي الثلاث (تونس الجزائر المغرب) تتلاقى فيها طوائف الأدباء ورجال العلم من هذه الأقطار، من أجل تلاقح الأفكار وتبادل الآراء، وتجديد روح التأزر، ومما نبجده من مدونات رحلية حول هذه الشريحة، ما كتبه إسماعيل مامي بعنوان "أيام أربعة في العلم المؤتمر الثاني للطلبة المسلمين بإفريقيا الشمالية"⁴⁴⁶ وذلك حين تواجد هذا الوفد بالعاصمة الجزائرية في أشغاله المنعقدة بنادي التزقي، كما نجد من كتب عن الوفد نفسه ومكان مغاير، حيث غادر الوفد الجزائر وأقام بقسنطينة، فكتب هنالك محمد العابد الجلاي، عنه تحت عنوان: "طلبة الشمال الإفريقي في قسنطينة"⁴⁴⁷. أما في سنة 1935، فقد انعقد هذا المؤتمر بتلمسان، ودون في حقه مندوب جريدة الأمة تحت عنوان: "المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان - أفخر مآدبة بين بساتين تلمسان"⁴⁴⁸

ودائما مع النشاطات الجمعوية، وهذه المرة مع الوفد الذي سافر إلى الاتحاد السوفيتي، وهي المهمة التي جعل منها "أحمد رضا حوحو" موضوع رحلة طويلة سلسلها في حلقات من جريدة الشعلة التي كانت تصدر آنذاك بقسنطينة، تحت عنوان "عدت من الاتحاد السوفيتي - وراء الستار الحديدي-

442 - جريدة النجاح، السنة السادسة عشر، العدد: 1945 - الأحد 26 شوال 1355 الموافق 10/01/1937

443 - جريدة النجاح، السنة التاسعة عشر، العدد: 2081 - الأربعاء 19 شوال 1356 الموافق 22/12/1937

444 - جريدة الرشد، العدد 5، السنة الأولى، الجزائر يوم الاثنين 9 جمادى الأولى سنة 1357 هـ الموافق لـ 7/7/1938.

445 - المصدر نفسه.

446 - جريدة النجاح، العدد 1348، الأحد 25 ربيع الثاني 1351 الموافق لـ 28 أوت 1932

447 - مجلة الشهاب، الجزء التاسع المجلد الثامن، (غرة جمادى الأولى 1350 هـ/سبتمبر - 1932).

448 - نشر بجريدة الأمة، في 5 حلقات بداية من العدد 41 السنة الأولى، 10 سبتمبر 1935

"⁴⁴⁹ وهي رحلة رسمية ذات طابع استطلاعي، تشكّل وفدها من أقطار الشمال الإفريقي من دون أن نجد أي معطى لهذه الجهة الرسمية التي بعثت هذا الوفد، ما يشير إليه فقط، هو التلميح لأعضاء البعثة في قول مقتضب: "هكذا كانت تسمى جماعتنا المكونة من عشرة أشخاص من أقطار مختلفة وأديان مختلفة ومبادئ سياسية واجتماعية عديدة: فهذا طيب من تونس ، وهذا كاتب نقابة من وهران وهذا فلاح، وهذا صحفي، وهذا إسرائيلي، وهذا مسيحي، وهكذا اجتمع هذا الخليط العجيب فكون وفد إفريقيا الشمالية الذي لا تجمععه إلا رابطة حب الإطلاع على تلك الدنيا العجيبة التي تقع في ذلك العالم المنعزل عنا"⁴⁵⁰

1 . 4 . 2 . 2 . الرحلات المنفردة.

إن مجال الرحلة الجزائرية الحديثة المنتشرة خلال الصحف على المستوى الفردي، لم تكن مختلفة تماما عن الرحلات المنظمة، حيث كان يعبر كل رحالة عن وجهة نظره من زاوية توجّبه وانغماسه الإيديولوجي، وإذا اعتبرنا أن هذه الرحلات فردية، أي لم تُقم بإيعاز من جهة معينة، فإنها على الرغم من ذلك قد احتفظت بتوجّبه وكان كل كاتب يصبّ ما بدا له في إطار عمله الفكري المندرج تحت غطاء معين هو الإطار ذاته الذي تعمل على رسمه الجريدة، إذ هي لسان حال كل فريق. وقد تنوّعت الرحلات بتنوع كتّابها ضمن دائرة محدّدة، فلم يكن للإصلاحيين إلا الغوص في شواطئ الإصلاح، وللطريقين مثل ذلك، حتى جرائد أبي اليقظان كان لها توجه معين أقرب منه إلى الخط الإصلاحية، وغيرها من التوجهات، وينحصر مجال الرحلات ذات الدافع الفردي إلى فريقين: فريق الرحلات السياحية، وفريق الرحلات ذات الأغراض الشخصية.

أ- فريق الرحلات السياحية

تحتل الرحلات السياحية مكانة معتبرة في متخللات المدونة الرحلية الجزائرية، وهو يؤكد على النزوع الإنساني الذي جبل عليه الفرد البشري من حب الاستكشاف والتطلّع إلى أي جديد في العالم، وعلى الرغم من التوجه الإيديولوجي الذي نزع إليه كل جزائري في هذه الفترة، فقد بدا جانب المتعة والاستطراف ونقل المشاهد الحية، بشتى الصور الحسية والبيانية، أمرا يجلي مكونات الذات المستترة برداء شفاف، ويبلغ عنها من خلال التذويت الذي تشفّ عنه عملية نقل عوالم الحكاية. وقد تشكّلت هذه الرحلات بصور مختلفة، يبرز فيها خيوط رفيعة قدرا من خصوصية الفرد في انتمائه الحضاري

⁴⁴⁹ - جريدة الشعلة، العدد 40، السنة 1، 23 ذي الحجة 1369هـ الموافق لـ 5 أكتوبر 1950م.

⁴⁵⁰ - المصدر نفسه.

والإيديولوجي. أما عملية إنتاج هذه الرحلات فكانت في الغالب تشكل فسحة الأديب الذي يجد فرصة في التعبير عن شجونته، واستراحة لوجدانه، فقد كان ينشر كل رحلة نصه بالجريدة التي ينتمي إليها حزياً أو حركياً، أو طائفيًا. ومن ذلك رحلات الاصطلاحين التي كانت بطبيعة الحال تمرّ عبر الجرائد التي تمثل لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ك (المنتقد، الشهاب، البصائر، السنة، الشريعة، الصراط) وقد توجت منها الكثير من الرحلات التي تندرج ضمن هذا النوع. والتي عرفت اتجاهات مختلفة داخل الوطن وخارجه. فالداخلية منها كانت تستنشق عبق الجمال في زينة الأمكنة، مثلما نجد ذلك في رحلتي السبتى نجار بعنوان "المنصورية مبعث الجمال"⁴⁵¹ وأحمد بوزيد قصيبة بعنوان "الواحة"⁴⁵². أما في رحلاتهم الخارجية فقد تنوّعت ضروبها، منها ما كان امتداداً لعطلة صيفية مثل رحلة محمد العابد الجلاي "تموز" و"في القطار" و"في باريس" و"بعد الملاقات"⁴⁵³ نشرت متتالية بجريدة الشهاب. أو سياحية خالصة مثل رحلات محمد علي دبوز "وقفة في دار الرافعي وقبره"⁴⁵⁴ التي لا نجد فيها إلا دافعا واحداً، وهو زيارة بيت الرافعي الذي كان مُلهمه. ورحلة محمد منصور الغسيري بعنوان "عدت من الشرق"⁴⁵⁵ والتي زار فيها كل أقطار المعارضة طريقه (تونس، ليبيا، مصر، المملكة السعودية، سوريا، لبنان) وأبدى انطباعاته حول بعض أحوال هذه البلدان وما أعجب به من مناظر جميلة ومواقع حسنة. ولا تزال الأقطار العربية تحتفي بالرحالين الجزائريين، فتونس شهدت عدة رحلات أهمها: رحلة بن باديس إلى تونس "في تونس العزيزة"⁴⁵⁶ ومحمد الأمين العمودي في رحلته "شهر في تونس"⁴⁵⁷ ورحالة يرمز لنفسه بـ (ج. ج) في رحلته "من معسكر إلى تونس"⁴⁵⁸ ورحلة محمد الغسيري "في تونس الخضراء"⁴⁵⁹ التي ركز فيها على جانب العلم ومراكزه والعلماء.

أما بالمغرب الأقصى فقد تجلّت أيضاً عديد الرحلات أبرزها: رحلة حمزة بوكوشة الموسومة "أربعون يوماً في المغرب الأقصى"⁴⁶⁰ والتي زار فيها المغرب الأقصى من أجل أغراض مختلفة أبرزها التجارة وتفقد حياة الطلبة الجزائريين. ورحلة صالح غزال "في مدينة فاس"⁴⁶¹ يصف فيها مدينة فاس ومعالمها الأثرية،

451 - جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثالثة، العدد 129 الاثنين 15 ذي الحجة 1369 هـ الموافق لـ 28 أوت 1950م.

452 - جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الخامسة، العدد 232 الجمعة 13 رجب 1372 هـ الموافق لـ 27 مارس 1953م.

453 - مجلة الشهاب الجزء الخامس المجلد الحادي عشر، (غرة جمادى الأولى 1354هـ/أوت- 1935).

454 - نشرت بجريدة البصائر في 7 حلقات، بداية من العدد 334، سلسلة الثانية، 6 صفر 1375 هـ الموافق لـ 23 سبتمبر 1955.

455 - نشرت بجريدة البصائر، في 19 حلقة بداية من العدد 250، السلسلة الثانية، سنة 6/5 ربيع الثاني 1373 الموافق 11 ديسمبر 1953.

456 - الشهاب الجزء 5 المجلد 13، 5 جويلية 1937.

457 - هذه الرحلة لم نجد لها في جريدة الشهاب التي نشرت فيه، إلا الحلقة الأولى بالعدد 38، السنة الثانية، (الخميس 5 محرم 1345هـ/15-07-1926).

458 - جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، العدد 129 الاثنين 28 صفر 1357 هـ الموافق لـ 29 أبريل 1937م.

459 - جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثانية، العدد 76 الاثنين 20 جمادى الثانية 1368 هـ الموافق لـ 18 أبريل 1949م.

460 - نشرت في حلقتين بجريدة البصائر، بداية من العدد 32 السلسلة الثانية، 9 جمادى الثانية 1367 هـ 19 أبريل 1948م.

461 - البصائر العدد 121 السنة الثانية، الاثنين 12 شعبان 1369 الموافق 29.

بجميية كبيرة، خصوصا مسجدها العتيق (جامع القرويين) الذي يطبع المدينة ويكسوها حلّة المجد: "فهناك في وسط المدينة، وفي قلبها، يقوم زينة الجوامع الفاسية وتاجها اللماع، جامع القرويين، بمئذنته السامقة، كالطود الأشم والعلم الشامخ المتطاوّل بشموخه وعظمته، فيكسو المدينة جلالا وجمالا، ويجعل لها طابعا خاصا ممتازا، هو طابعا العظمة والشرف التاريخي الخالد"⁴⁶².

ومن البلدان التي يجد فيها السائح كبير اهتمام، وجميل ذكر، وحسن منظر، فرنسا، التي تتمتع بروح الحضارة وعالم المدينة في كافة مدنها. وقد تباينت روح الرحلات نحو فرنسا، ففي حين كان الرحّالة (المكاتب) في رحلته "الحياة في أوربا أو أوربا في الحياة"⁴⁶³ التي لم تتجاوز مرسيليا، يصف فيها العمّال الجزائريين وأوضاعهم، نجد مبارك الملي من خلال رحلته التي عنوانها بـ"فيشي"⁴⁶⁴ مسترسلا في وصف المدينة وحمّاماتها، وعقد مقارنات بين ما تحتوي عليه هذه المدينة من جمال ومن نظام، في مقابل أوضاع الجزائر في ازدهارها وبؤس أهاليها. ونجد -أيضا- محمد الزاهي الملي في رحلته "أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة"⁴⁶⁵ التي أبدع فيها بوصفه للمكان والإنسان، وحواراته أثناء الطريق ومواقفه التي أبداهها في كثير من الحالات، كما أنه وقف طويلا على وضع العمّال الجزائريين ورثى أحوالهم.

وإذا كان هذا حال رجال الحركة الإصلاحية، فإن رجال الطرقية، كذلك كان لديهم رحلات سياحية، والسياسة الطرقية لا تعتمد إلى نشر صور عن وصف الأمكنة، وإنما ما يهّمها من الأمكنة كلها، ما كان ضريحا، أو زاوية، أو معلما للتبرّك، بينما يعدّ شغلهم الشاغل هو الإنسان، في عظمته إن كان يتمتع بالولاية، أو المرید الذي يشكّل أهم وحدة عضوية في بنية المجتمع الطريقي، وقد كان ميدانهم، صحفهم الطرقية التي تعبر عن توجّههم. وقد تعدّدت رحلاتهم من خلال بلدان معلومة، وهي تونس والمغرب أو ما كان منها داخليا. ومن الرحلات الهامة في هذا الشأن نجد: "سياحة الأستاذ أحمد ابن عليوة"⁴⁶⁶ لمحمد بن البشير الجريدي، و"المغرب الأقصى"⁴⁶⁷ لعدة بن تونس. وهما رحلتان للزيارة والتبرّك، حيث كانت بين المغرب والجزائر صلات وروابط متينة على هذا المستوى. أما في الجهة الشرقية، فكانت رحلتين من هذا الشكل، لكننا لا نجد فيهما ما يميزهما عن الرحلات العادية، ونقصد بهما: رحلة حدوني محمد بن محي الدين "رحلتي إلى الأيالة التونسية"⁴⁶⁸ ورحلة عبد القادر بن عبد الله

⁴⁶² - صالح غزال، في مدينة فاس، جريدة البصائر العدد 121 السنة الثانية، الاثنين 12 شعبان 1369 الموافق 29 ماي 1950

⁴⁶³ - مجلة الشهاب العدد 52، السنة الثانية، (الخميس 25 صفر 1345هـ/02-09-1926) ص 288 من المجلد الثاني.

⁴⁶⁴ - جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، العدد 119 الاثنين 25 ربيع الثاني 1357 هـ الموافق لـ 24 جوان 1938م.

⁴⁶⁵ - نشرها بجريدة البصائر في 7 حلقات، بداية من العدد 124، السلسلة الأولى، الجمعة 1 جمادى الثانية 1357/29 جويلية 1938

⁴⁶⁶ - نشرت بجريدة البلاغ الجزائري في 7 حلقات، بداية من العدد 72، السنة الثانية، الجمعة 19 ذي الحجة 1346 هـ الموافق لـ 8 جوان 1928.

⁴⁶⁷ - مجلة المرشد، العدد 54، السنة الخامسة، ربيع الأول 1371 هـ.

⁴⁶⁸ - جريدة البلاغ الجزائري العدد 88، السنة الثانية، الجمعة 19 ربيع الثاني 1346 هـ الموافق لـ 5 أكتوبر 1928.

بن سيدي عيسى في "رحلة مسافر"⁴⁶⁹ أما داخلها، وعلى الرغم من كثرة رحلات رجال الطريقة، إلا أنها كلها كانت بإيعاز وظيفة ما، إلا رحلة على البوديلمي "عن الأستاذ السائح"⁴⁷⁰ التي كساها بطابع سياحي يصف فيها المقابلات التي كان يتحفه بها مضيفوه، في كل محطة يحلّ بها ك (الأصنام، غليزان عمي موسى .. وغيرها من البلدات).

ومن بين الرحلات التي تميزت بالحياد، وتبلور فيها الجانب الأدبي، نجد رحلة محمد العلمي في "الرحلة القسنطينية" التي كانت رحلة سياحية بامتياز، وقف فيها على قسنطينة مادحا لها ولأعلامها، يلخص ذلك في قوله: "ما أبهاك وما أبهى قصورك العالية وقناطرك الشامخة ومساجدك العامرة وعلماءك الأعلام الأطواد وأدباءك الأمجاد وشبانك الأنجاد"⁴⁷¹. ونجد أيضا عبد الحفيظ الهاشمي في رحلتين أولهما "سياحتنا في العمالة وخارجها"⁴⁷² والأخرى "رحلة للمغرب والأندلس"⁴⁷³. ومن الرحلات التي أخذت حصة الأسد من التدوين وعدد الحلقات القياسية من جريدة النجاح، كانت لإسماعيل مامي بعنوان "سياحة استطلاعية"⁴⁷⁴ التي أبان فيها عن استرسال كبير في خوض شوط هام من المعالجة للقضايا التي امتزجت فيها السياحة بالملاحظة والنقد وطرح عدّة قضايا ومسائل تتعلق بالمجتمع. أما عمر بن جيكو فقد أسهم هو الآخر في تدوين رحلته "رحلة السيد عمر ابن جيكو"⁴⁷⁵ التي قضى فيها مدة طويلة في التجوال، بداية بالمشرق العربي، في مصر، ثم الشام، وبعدها عاد إلى فرنسا، أحصى في كل هذا كثيرا من بلداتها، مع دقّة في الرصد لكل ما هو مرتبط بالعمل السياحي، فقد كان كثير الحرص على تقييد المسافة بين كل بلدة بأخرى، وثن تذكرة السفر بالإضافة إلى ثمن كراء الغرفة بكل نزل قضى فيه ليله. ولا يكتفي بهذا القدر، بل هو يصف المدن ويدي انطباعه حول كل بلدة يحلّ بها.

ب- فريق الرحلات الذاتية ذات الأغراض الشخصية.

تعد الرحلة في عمومها ظاهرة من ظواهر الكتابة التي تتجلى فيها الذات حاسرة من أجل تجلية المتفق والمختلف بين الأنا والآخر، أو هنا وهناك، في مقابلة للمقارنة أو الموازنة، وهي العملية التي تبدو جلية في شتى نصوص الرحلات، بينما هناك من الرحلات تختص بقضية واحدة وهي المتعلقة بالنقد

469 - جريدة البلاغ الجزائري العدد 102، السنة الثالثة، الجمعة 29 رجب 1347 هـ الموافق ل 11 جانفي 1929.

470 - جريدة لسان الدين، السلسلة الأولى، العدد 15، الجزائر يوم الجمعة 9 رجب 1355 هـ.

471 - جريدة النجاح، العدد 768، الإثنين 29 جويلية 1929 الموافق ل 21 صفر 1348 هـ.

472 - جريدة النجاح، العدد 366، الأربعاء 10 نوفمبر 1926 الموافق ل 3 جمادى الأولى 1345 هـ.

473 - جريدة النجاح، جريدة إخبارية حرة، السنة الرابعة عشر، العدد: 1364 - الأربعاء 3 جمادى الثانية 1351 الموافق 5/10/1932.

474 - إسماعيل مامي، سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، العدد 436، السنة السابعة، الأربعاء، 25 شوال 1345، 27 أفريل 1927.

475 - جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد: 533 - الأربعاء 26 جمادى الثانية 1346 الموافق 21/12/1927

الذاتي التي تعالج من خلالها قضية من قضايا الأخلاق إذا تردت، والجانب الحضاري إذا اضمحل، والجانب التنموي إذا تعطل، والجانب الاجتماعي إذا انحل، وغيرها من الموضوعات والقضايا التي يختص به مجتمع من المجتمعات، توحى به شريحة من المثقفين أو المهنيين الواعين بهذا المجال، ولا تنحصر هذه القضايا في عملية موازنة بين هنا وهناك، بل بما يكشف عنه واقع الرحلة خصوصا الداخلية منه (نحو الأنا) حين تبرز لها مظاهر الانحراف وسوء الأخلاق، التي تعد أهم عوامل وأسباب تدهور هذا المجتمع وانحلاله، وانحطاطه حضاريا وفكريا. وتعد هذه الرحلات بالنسبة للرحالة بمثابة الحسرة التي يقدم من خلالها هذه المظاهر كأسباب لتردي مجتمعه.

حين كانت شخصية الرحالين الجزائريين، تحمل من هموم أمتها، ووقوفها على منبر الإصلاح والمقاومة، تجلّت عملية كشف هذه الذات الجمعية، وعرضها على القارئ ليرفع من مستواها المحلي إلى عموم الناس، والتشهير بها، ليعلم القاضي والداني أن هذه الأمة لم تحب إلا بفعل هذه العلة، من أجل محاولة الإقلاع وتوعية الناس في ذلك. ومنه كانت مهمة بعض الرحالين جلية، حين اختصت نصوصهم بموضوع واحد، وهو الموضوع الأخلاقي. ولما كانت شرائح المجتمع تختلف في توجهاتها، أخذ كل يرى الانحرافات من زاويته، بينما كان يجمع بينهم عامل الدين، المعيار الأساس الذي كان الحكم من خلاله على كل الظواهر، لذلك كان الاتفاق والإجماع على مظاهر هذا الانحراف، الذي لم يؤيده أي من هؤلاء، بل كلهم وقفوا وقفة احتجاج ضده. وكان كل من الرحالين إذا ما وافته فرصة من الفرص منح لقلمه المجال ليفضح هذه المظاهر، ويظهرها على صفحات الجرائد -حسب الانتماء-، وقد كانت صحف الإصلاحيين وجرائدهم مطية لذلك، نجد منها ما كان يتتبع عورات الطريقين فيما يفتنون فيه من مخالفات شرعية وانحرافات أخلاقية، وقد دون الكثير من رحاليهم هذه الظواهر، مثل ما جاء به كل من سعد مغلاوي في "البدع والضلالات - بدعة شنيعة وفعل قبيح"⁴⁷⁶ يصف فيها جانبا لأحد المهرجانات المنعقدة بمدينة القل (سكيكدة)، وهو المهرجان السنوي الذي يعقده مريدو الطريقة، في مختلف بقاع القطر، وقد شكّلت قضية المرأة فيه لب الانحراف، ذلك ما نجده في قوله: "المرأة مضطجعة بجانب الرجل ولا يهتمها ذلك الرجل سواء كان أجنبيا لها أو غير أجنبي وتراهم تارة يتغطون بلحاف واحد ولا يخفي ما وراء ذلك من انتهاك الحرمات وكشف العورات وأما الحلقات التي يقيمها طوائف الطرق فقد يطول بنا الكلام في وصف شعوردهم المألوفة التي يجعلونها وسيلة لاجتلاب الدرهم والدينار من البسطاء فهذا يلعب بالنار وذاك بالحيات

476 - مجلة الشهاب العدد 166، السنة الرابعة، (الخميس 20 ربيع الثاني 1347هـ/04-10-1928).

والأفاعي وآخر بالسكاكين⁴⁷⁷ ومثل ذلك تماما ينقل محمد السعيد الزاهري في رحلته "إلى زيارة سيدي عابد - أحاديث في القطار-" وهي تصف تفاصيل مهرجان الزيارة بمدينة وادي ارهيو (غيليزان)، وما جرى فيه من تجاوزات. ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على مهرجانات الطرقية، بل قد استفحلت في بعض مناطق ومدن جزائرية، سقط عنها قناع الحياء، فلجأت إلى إقامة بيوت للبعاء، ذكرها بعض الرحالين في نصوصهم متأسفين عنها، منها الذي نجده تحت عنوان "المنازل.. منازل بسكرة"⁴⁷⁸ يصف فيه حياً من أحياء بسكرة قائلاً: "بداخل البلدة ووسطها محلات كثيرة للمومسات دون تستر ولا حياء، وبوجودهن نقيصة عظيمة وبلية كبرى حيث يجرون كل مصيبة وإذاية للأهالي وغيرهم فالواجب على من لهم النظر والحل والعقد أن يتسببوا في قطع واضمحلال هاته المعرة"⁴⁷⁹.

ولا تتوقف تجاوزات الطرقيين وانحرافاتهم على هذا الحد، بل أمر انحرافهم وصل إلى دور العبادة، حيث كانوا يحسبون أنهم على شيء، وهم في الضلال المبين، مثلما يؤكد صاحب⁴⁸⁰ "منظر فطيع ومنكر شنيع"⁴⁸¹ الذي هاله منظرهم، وهم بأحد مساجد وهران يقومون بطقوس غريبة "ثم ملت إلى بعض الجهات لأركع فيها فلم أستطع من كثرة التشويش واللغط وبعد هذا حانت مني التفاتة فرأيت طائفة من الناس أخذوا في الرقص والتصفيق والزجر والنهيق رؤوسهم مكشوفة وأفواههم مفتوحة والعرق يتحدر من أجسامهم ويتقاطر على بسط المسجد منهم من يصيح ومنهم من يضطرب كالثور المذبوح بسكين حادة ومنهم جميع هذا بل أكثر"⁴⁸²

وإلى جانب هذه المظاهر، تجلّت مظاهر أخرى تحدّث عنها الرحالون، بل حدّدوا لها نصوصاً، ويتعلق الأمر بحال الشباب الذي ضاع في فراعته، وزاغ في جهله، مثلما يذكر ذلك عبد الحفيظ الثعالبي في رحلته المعنونة بـ: "الشباب اللاهي"⁴⁸³ حيث يجسّد فيها هو الشباب، وانغماسهم في العبث بأوقاتهم دون استغلال، وأغلبهم من مرتادي المقاهي وهم "جلهم شبان ما بين معمم ومطربش وحاسر الرأس مستديرون حول موائد النرد (الدومينو) جالسون على كراس كأنهم تماثيل متحركة، أجسام أكثرهم نحيلة عليها ملابس رثة بالية وجوههم شاحبة يبدو عليها أثر البؤس والعناء

477 - المصدر نفسه.

478 - مجلة الشهاب العدد 30، السنة الأولى، (الخميس 28 ذو القعدة 1344هـ/10-06-1926).

479 - المصدر نفسه.

480 - يرمز لنفسه بالحال المترحل.

481 - مجلة الشهاب العدد 159، السنة الرابعة، (الخميس 22 صفر 1346هـ/09-08-1928)

482 - المصدر نفسه.

483 - جريدة البصائر العدد 227 السنة السادسة، السلسلة الثانية، الجمعة 10 شعبان 1372 الموافق 24 أبريل 1953.

يضربون أحجار النرد بعنف فوق موائد اللعب فيتجاوب صداها في جوانب المقهى على سعته ويتلاغظون بأصوات منكرة تصم الآذان فوق"⁴⁸⁴ ومن جهته نشر عمر بن قدور رحلته "سوانح الرحلتين الآفاقية والأخلاقية"⁴⁸⁵ بجريدة الفاروق، ركّز فيها على الجانب النقدي لأخلاق المجتمع الذي ظهر -حسبه-، في صورة غير متحضّرة، بعيدة عن المجتمع النظيف، خصوصا القضية التي علّق عليها كثيرا، وهي ظاهر سب الدين.

والنقد أيضا حاضر بقوة في رحلة محمود بوزوزو "من وحي البرلمان"⁴⁸⁶ الذي شنّ فيه على البرلمان الفرنسي هجوما كبيرا ساخرا بما يقدّمه من مستوى لا يليق بفضائه، وبسمعته، حين كان يعالج القضايا المتعلقة بمستعمّرتيه (الجزائر).

ج- فريق رحلات الحج

يبقى الحج استثناء في الرحلات كلّها، فهو يجسّد الحالة الذاتية والنزعة الإنسانية في تجلياتها الروحية، وقد بسط بعض الرّحّالين حضورهم في هذا المجال، منهم من بعث رسائل يروي فيها تفاصيل السير نحو الحجاز، مثلما فعل الرّحّالة عدة بن تونس، في رحلته "على الطائر الميمون"⁴⁸⁷ التي كانت تنشر تباعا على شكل رسائل يفصّل فيها محطة بمحطة إلى وصوله الأرض المقدسة. ومنهم من دوّن رحلته بعد عودته من الحج مباشرة، ونشرها في حلقات عبر الجرائد كما فعل عبد الله زرقون في رحلته "بعض ما شاهدته في الحجاز أثناء سفري للحج"⁴⁸⁸ ومثله فعل الطاهر بوشوشي في رحلته "ارتسامات وذكريات عن الحج والأماكن الإسلامية المقدسة بالحجاز"⁴⁸⁹.

484 - المصدر نفسه.

485 - نشرت بجريدة الفاروق في تسع حلقات بداية من العدد 22، الجمعة 16 ذي القعدة 1331.

486 - جريدة البصائر العدد 11 السنة الأولى، السلسلة الثانية، الاثنين 5 ذي الحجة 1366هـ الموافق 20 أكتوبر 1947م.

487 - جريدة البلاغ الجزائري، السنة الرابعة، العدد: 162 - الجمعة 26 ذي القعدة 1348 الموافق 25/04/1930.

488 - نشرت بجريدة الأمة في 3 حلقات بداية من العدد 73، في 6 ماي 1975.

489 - نشرت بجريدة النجاح في أربع حلقات بداية من العدد 3743 السنة التاسعة والعشرين، -الأربعاء 28 ذي القعدة 1368 الموافق 21/09/1949.

الفصل الثالث

الرحلة الجزائرية الحديثة

وإشكالية الأدبية

1. إشكالية الشرعية الأدبية في النص الرحلي الجزائري الحديث

نودّ في هذا الفصل مرادة كمّ النصوص الرحلية مائزين منها ما يمكن أن يحقّق الجانب الفني من سواه، على اعتبار أن النص الرحلي بنية توليفية تعدّ شائكة الاحتمال بين الفني والتقريبي.

لقد حقّقت الرحلة مكانتها (الاجناسية) ضمن حقل الأجناس الأدبية حيث تجاوزت "ثنائية الكلام الأدبي والكلام غير الأدبي"⁴⁹⁰ معتكفة على تشعبها في الأشكال والمضامين "عاكسة بذلك حواراً -بوعي أو بدون وعي- بين أنماط الكلام، الذي امتزج فيه العامي بالفصيح، الدخيل بالأصيل، العلمي بالأدبي، التاريخي بالجغرافي، السياسي بالإيديولوجي، المقدس بالمدنس، السردي بالوصفي، الناطق بالصامت، الداخل بالخارج، المكتوب بالمرسوم، المرئي بالمسموع"⁴⁹¹ وبذلك لا يخلو النص الرحلي من جملة عناصر، قد لا يتوفر عليها النص الواحد، بل يقتبس كل نص متطلبات عناصره، حسب الاتجاه الذي يُفرض على الرحالة، كما ينطبق ذلك على الأسلوب الذي يتراوح بتراوح الكتاب أنفسهم في مجاراتهم لملكاتهم التعبيرية، وقرائحهم الإبداعية، من ثم "تحيء مدونة بأسلوب يغلب عليها الطابع المحدد للرحلة، وتتخذ صفة الرحلة انطلاقاً من اعتمادها على مجموعة من المكونات والعناصر، وفق صياغات أدبية وفنية وجمالية"⁴⁹² ولا يعني هذا أن الحرص على إبداع الحُرّف جمالياً من حيث الصياغة البلاغية للغة الرحلة هي الضابط على شرعية النص الرحلي أدبياً، وإنما "التعبير الأدبي المهجين أو المهجن، يعود إلى طبيعة الجنس الأدبي المرنة التي تسمح بتأسيس (توليفة) بين العديد من الأنواع الأدبية، والأنواع غير الأدبية"⁴⁹³، وهو مقتضى الحال في نصوص هذا الجنس الأدبي المهجين والمميز.

وما يميز أدبية الرحلة ليس الجانب اللغوي (الفني) وإنما الجانب البنيوي الذي يعمد إلى التوافق الداخلي والخارجي للنص، أي الذاتي والموضوعي، لأن "الرّحّال المتميز الذي يجيد وصف رحلته، سوف يحقّق كافة العناصر الفنية التي تكفل تماسكها، طالما وازن -بدقة- بين أحداث الرحلة وشخصه؛ فوحدة الحدث وتدرجه ومنطقيته مرتبطة بشخص الرحال وواقعية الرحلة"⁴⁹⁴ فيبقى على الرّحّال أن يمارس تقليداً في إنتاج نصّه، دون قيد أو وصاية من جنس أدبي معيّن، ودون إخلال، إذ يجب أن تقوم على اقتدار لغوي، وبنية شكلية تتحكم فيها "طريقة التدوين، التي تؤدي دورها إلى تكوين بنية. وطريقة التدوين والبنية يحكمها الأسلوب أو اللغة. ودرس هذه العناصر الثلاثة -مرتبة- قد يؤدي إلى الكشف

⁴⁹⁰ - أدبية الرحلة، مرجع سابق، ص 40.

⁴⁹¹ - المرجع نفسه، ص 40.

⁴⁹² - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 129.

⁴⁹³ - أدبية الرحلة، مرجع سابق، ص 38.

⁴⁹⁴ - الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 69.

عن بعض الخصائص المميزة لأدب الرحلة من حيث شكله⁴⁹⁵ وما دام الشكل يعدّ قضية جوهرية في تحديد أدبية الرحلة واعتبار ذلك أن الأدبية لا تقوم على الجانب البلاغي وحده، بل هذا الأخير ما هو إلا مكّون بسيط، بينما تقوم أدبية الرحلة على العملية الإبداعية، التي تعتمد على الشكل المحدّد لبنية النص.

1. 1. البنية الشكلية

يعد الشكل بالنسبة للأعمال الأدبية بمثابة القالب الفني الذي يختصّ ويتميز به جنس من جنس، فالرواية لا تتم وتتشكّل إلا من خلال بناء فني تام، كما ينطبق ذلك على جميع الأجناس: قصة ومسرحية وشعر، وسيرة ذاتية وأدب الاعتراف وغيرها من الأجناس. ولعل هذه الصرامة الشكلية التي يفرضها قانون الأجناس الأدبية قد تقف عاجزة في ترويض الرحلة على انضباط شكلي صارم يقيد شكلها، ذلك لأن النص الرحلي يحمل من التقاليد ما يجعله مضبوطا عرفا بشكله النموذجي، ثم لا يتقيد بهذا الشكل إلا في حالات قائمة كنصوص مثالية، مع الاحتفاظ بشرط مهم في قوامة النص الرحلي، المتمثلة في بنية السفر وهيمنتها على اتجاهها السردية، إذ لا بد أن تنضوي كل المكونات السردية للخطاب الرحلي تحت محمول السفر، وتأكّدت بذلك مقصديته حتى تتحقق فيه الأدبية (أدبية الرحلة)، وهو الشكل النمطي الذي يسود كمستوى نموذجيّ متمثلا في "تلك البنية التي تتبع نمطا معتادا قريبا من صورة الرحلة الواقعية، ويكون الزمان والمكان فيه - منسقين مرتين - حسب واقع الرحلة"⁴⁹⁶، بالرغم من أن هذا الشكل التام قد لا يتحقق في كل نص، نظرا لمرونته المتماشية مع المضمون المتحدّد الذي يحتاج إلى أشكال جديدة تواكبه، لذا كان تجدد المضمون مقرونا -دوما- بتجدد الشكل، حتى إنه يمكن القول إن للرحلة أشكال بعدد نصوصها. وفي هذا التوجه يتفق أدب الرحلة مع الرأي النقدي الذي يعترف بأن "كل تشبّت متزمت بمنهج في محدد -أيا كان هذا المنهج- يتناقض مع مهمة خلق تركيب جديد يستفيد بنتائج آلاف السنين من التطور الإنساني، وعرض المحتوى الجديد في أشكال جديدة"⁴⁹⁷ وهو الذي أصبح فيه ضمير العصر ساعيا لإيجاد أنماط تساير روح الحاضر، في حين تبقى "الرحلة" مفتوحة على نوافذ متعددة، أدبية وغير أدبية كونها "مصدرا غميسا، وسجلا اثنوغرافيا يعتبر الرجوع إليه أساسيا في حقل الانثروبولوجيا، ومادة جغرافية .."⁴⁹⁸ مما يجعل

495- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 59.

496- المرجع نفسه، ص 71.

497- المرجع نفسه، ص 59.

498- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 42.

شكلها يتراوح بين كثير من السمات التي تحدّد موضوع هذه الرحلات ضمن تصنيفاتها المتعددة، قد يكون للبنية الشكلية والسردية عامل التأطير لهذا التصنيف.

1.1.1. السمات الشكلية للنص الرحلي الجزائري الحديث

لقد عُرفت الرحلة بنائيا بشكلها النمطي الذي عرفه نصها التأسيسي، ولازمته طيلة عصور متوالية وصولا إلى العصر الحديث، ولا تزال تمارس السلطة المعنوية على النص المعاصر بالرغم من أن شكل هذا الأخير أخذ يستقل عن الشكل التقليدي، ولكنه لم ينفصل عنه تماما وإنما بقي يمتح من بنيته الكلية، أو بتعبير آخر، نقول، إن النص الرحلي المعاصر هو قطعة (جزء) من الشكل النمطي، قد فرضتها التحوّلات الأدبية وغير الأدبية في البيئة المعاصرة ككل. ثم لا زلنا نؤكد بأن النص النمطي لم ينقرض تماما من الحقل النصي بالنسبة للرحلة التي تعتمد "بنية تصلح لكتاب يدوّن حصاد رحلة واحدة فحسب -دون خلط مع غيرها، وبذلك تكون معالمة واضحة محددة، ممثلة للواقع أو قريبة منه"⁴⁹⁹ وعلى الرغم من تنوع الأشكال وتباينها في النصوص الرحلية الحديثة على مستوى الأدب العربي عموما، فإن ذلك لم يكن استثناء بالنسبة للأدب الجزائري الذي عرف أشكالا متنوّعة في مجال النص الرحلي، منها ما هو نمطي، ومنها غير المقيد بالنمط، بينما يبقى المعيار النقدي للنص الرحلي شكله النمطي الذي يرسم شكل الرحلة الفعلية، وهو النص النموذجي الذي من خلاله يقاس شكل النص الرحلي كيف ما كان. ويتشكّل قالب الرحلة (النمطي) من عناصر (وحدات) هي:

- أ- العتبات (النص الموازي) وتتضمن كل من العنوان والاستهلال (المقدمة، أو التمهيد)، والخاتمة.
- ب- المتن (النص المركزي) وتتضمن كل رحلة المسير (الذهاب والعودة)، ووصف هدف الرحلة.

1.1.1.1. عتبات النص الرحلي

لا شك أن الحديث عن العتبات، بالنسبة للنص الأدبي وليد النقد المعاصر الذي انتبه عن وعي لعناصر كانت مهملة من طرف النقد القديم، في كثير من قضاياها "إذ لم تكن العتبات تثير الاهتمام قبل توسع مفهوم النص"⁵⁰⁰ الذي ظهر حديثا في الساحة النقدية. وهي تتشكل في النص الرحلي من ثلاث عناصر "العنوان والمقدمة والبداية. باعتبارها علامات ومسارات ومشاهد لتفكيك بنية موازية

499- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 71.

500- مقدمة سعيد يقطين، لكتاب عبد الحق بلعابد، عتبات -جزار جينيت من النص إلى المناس-، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، ص 14.

للنص الرحلي وتشغل فضاء مرآتيا⁵⁰¹ هذا دون أن نغفل عتبة الخاتمة التي تكون مشفوعة بحديث النهاية وغلق دائرة المسير.

يوسّع (جيرار جينيت) دائرة مفهوم النص عموماً، إلى الخطابات التي تسبق النص ويطلق عليها اسم "المناص"، وهو الذي تتعدد أنواعه إلى "مجموعة الافتتاحيات الخطابية المصاحبة للنص أو الكتاب، من اسم الكاتب، والعنوان، والجلادة (jaquette)، وكلمة الناشر، والإشهار، وحتى قائمة المنشورات (catalogue)، المكلف بالإعلام، دار النشر..⁵⁰² والتي يعبر عنها (جينيت) بالنص المحيط (péritexe)⁵⁰³ ونحن، لا يهمنا في موضوعنا من هذه المناصات إلا ما يؤطر النص الرحلي كنص فارغ من كل الالتزامات خارج إبداعية، لترسم صورة نموذجية للنص المراد عبر إطاره النموذجي. (النص المحيط التأليفي: péritexeautorial) بتصنيف جينيت-أيضاً-، الذي يضم تحته كل من (اسم الكاتب، العنوان، العنوان الفرعي، العناوين الداخلية، الاستهلال، التصدير، التمهيد..⁵⁰⁴ هذا ما يتعلّق بأي كتاب يتضمن موضوع من الموضوعات بالخصوص العلمية التي تتخذ من موضوعها عدة زوايا تحيل من خلالها على ما هي مؤطرة به، بينما قد تتقلص بعض العتبات في المواضيع الإبداعية التي قد لا تحتاج إلى كثير منها، وكل ما يحتاجه النص الرحلي في سياق العتبات ثلاثة عناصر، هي: العنوان والمقدمة والبداية.

فكّون العتبة الأولى "علامة تختزل دلالات النص، وتحيل على جنسه، فإن المقدمة تكون أشد ارتباطاً بالنص باعتبارها بيانا يوضح خلفيات الرحلة، وبعض الأشياء التي ييوح بها النص"⁵⁰⁵. وللتوصّل إلى العالم الشكلي للنص الرحلي، نقترح العنوان بصفته نصّاً موازياً ثم الاستهلال باعتباره بديلاً عن المقدمة والبداية، باعتبار أن الاستهلال جامع لهما أو متحقق حتماً في كثير من النصوص التي قد يتباين حضورهما.

أ - العنوان

يحتل العنوان مكانة وظيفية هامة في النص -أي نص كان-، فهو بمثابة الإشارة التي تدل عليه (النص) بقوة، فمعنى عنوان الشيء أي علامته ودليله، ولذلك وضعت العناوين الاعتبارية للأحياء والأنهج في المدن الكبيرة حتى لا يتيه القاصد للمكان المراد، ولعل قولنا بأن أي نص بلا عنوان سوف

⁵⁰¹ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 42، ص 169.

⁵⁰² - عتبات -جيرار جينيت من النص إلى المناص-، عبد الحق بلعابد، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، ص 44.

⁵⁰³ - المرجع نفسه، ص 44.

⁵⁰⁴ - المرجع نفسه، ص 44.

⁵⁰⁵ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 169.

لا يؤخذ بعين الاعتبار في كثير من الأحيان، ومن ثم يعد العنوان "العتبة الأولى التي تحاور المتلقي وتشير إلى جنس المؤلف، خصوصا وأن عنوانه كل شيء تعبيرية تشكّل مدوّنة تضرر بوحا بجنس ذلك الشكل"⁵⁰⁶ بل قد تستعصي مقصدية التأليف في نص مجهول العنوان. فالعنوان بمثابة النص الموازي في اعتبار المنظرين المعاصرين، كما أنه من جهة "يؤسس عينا ذات شبكة مرتبطة بكل أسرار النص وعلاماته، تخزن مقصدية المؤلف ونواياه ثم وعيه الاجناسي ومدى إدراكه للكتابة التي حررها، كما تضرر نداء للقارئ ومرشدا له في آن"⁵⁰⁷.

إن ما يدور في فلك الكتب والموضوعات من عناوين تتقدمها وتحيل إلى استقطاب القارئ، قد لا تعدم النفع والمصادقية، بيد أن العنوان في النص الرحلي، يعدّ الرسم الذي يحدّد هويته عبر جملة من المكونات المنضوية تحت لوائه، والتي تحدّد بشكل كبير، هوية النص عبر مصطلحات المعجم الجامع لفعل السفر والارتحال. ولعل التصويب الذهني لنظرية العنوان في التراث العربي، قد تشكل عبر مسار طويل الاتجاه في القول حول عناوين متّخذة صفة "رحلة" كمحدّد للنص، وهو مستوحى من النص ذاته ضمنا، وهذا الذي غيّب في النسق المعرفي العام العناوين الأصلية لكتب الرحلات التي أبداع فيها العرب الأوائل ومن والاهم، فأصبح بدل العنوان الأصلي يشار إليه بـ"رحلة" وربطها بصاحبها "الرحالة"، وهذا ما انطبق على رحلة ابن جبير، وعنوانها الحقيقي "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" ورحلة ابن بطوطة وعنوانها الأصلي "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار" ورحلة الورتلاني وعنوانها الأصلي "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار". وهي عملية إخبارية وترويض العنوان إلى وسمه الحقيقي باعتبار أن الرحلة جامعة لكل الفنون التي يقصدها الرحالة (المؤلف)، وما هذا الضرب من العناوين الطويلة إلا جزءا بسيطا من كلمة وجيزة وهي "رحلة".

ولقد أحدث النسق المعرفي الحديث كثيرا من التغيير فيما يسمى بالعنوان، وبات يعيب على تلك العناوين القديمة المحبوكة سجعا، وأصبحت هذه الصناعة اللفظية تتلاشى في عصرنا في كل ما يخص عناوين الكتب أو البحوث وغيرها، وبذلك لم يبق من سبيل للتدليل على موضوع ما، بإعطائه وسمه المختصر والمباشر، والذي يوحى بدقة إلى موضوعه. وهو ما نجده في جل الرحلات إن لم نقل كلها، وهي من سمات العصر ومتطلباته.

وقد انبجست عناوين كثيرة في مقابل النصوص الرحلية الكثيرة التي يحفل بها الخطاب الرحلي الجزائري الحديث، فتنوّعت أشكالها متعددة. والمتفرس في هذه الأشكال -العديدة-، يجدها ذات

⁵⁰⁶ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 171.

⁵⁰⁷ - المرجع نفسه، ص 172.

اتجاهات بعضها مؤسس وفق التقليد الواعي لهذا الفن، وبعضها الآخر متصرف فيه وفق معطيات موضوعية أو وظيفية، أو نفسية. ولهذا يشكل العنوان "شبكة متجذرة في قطبين: الأول لغوي يجسده النص ودلالاته، والثاني نفسي تأويلي للمؤلف. كما يشكل خطابا مكثفا في جملة سردية مؤطرة للنص السردية، وهي نقطة البدء بالنسبة لمسار السرد"⁵⁰⁸ من ذلك تتأسس الرحلات عبر عناوينها العديدة والمنسقة في أروقة حسب النوع، موحية إيجاباً شديدا لما هو مرتبط بين النص وعنوانه. ولا يخلو نص رحلي من عنوان، يدل على اتجاهه أو مضمونه، بل "العنوان في الرحلة هو علامة إخبارية تقدم تلميحا لمضمون المؤلف في جملة أو جمل متعددة مرتبطة فيما بينها"⁵⁰⁹، ومن هنا نقول بأن العنوان في النص الرحلي بمثابة بنية رمزية لبنية جامعة، وهي النص.

ويشكل العنوان بالنسبة للرحلة الجزائرية الحديثة، وظيفية هامة تحيل القارئ في كثير من الأحيان إلى موضوع النص وهدفه، وإذا كان العنوان هو صورة مصغرة لكل النص، فإنه من هذه الناحية يقدم حصيلة النصوص التي كانت في أكثر من حين تشبع في وظيفية لا تتم إلا بالرحلة، فينشئ على إثرها الرحالون هذه العناوين المباشرة، غير رامية إلى الأدبية في أحيان ومنتبهة إليها أحيان أخرى. وهي المتعلقة بالمرحلة الحديثة من تاريخنا الأدبي، أي الفترة الاستعمارية التي كانت عبارة عن جولات تفقدية لأحوال الشعب والأتباع من كل تيار، قامت على عاتق الإصلاحيين والطرفيين وأصحاب الدعاية والأحرار، وهي رحلات نستشف من عناوينها، فحوى الرسالة التي يتضمّننها كل نص.

ونحن في هذا العمل سوف لا نقتدي بالنظريات التي أسفرت عن مواضيع العنوان سواء العربية منها أو العربية إلا من باب الاستثناس، حيث تفرض علينا تلك الجمهرة من العناوين، أن نتقنّى طريقة في طرحها وتصنيفها وفق ما يسائر موضوعنا الذي ينوي تحديد الأدبية في النص الرحلي الجزائري الحديث. وبذلك سوف نقترح تصنيفنا على مستوى وظائف هذه العناوين ذات الموضوعات المتشعبة، والمختلفة السرود، والكيفيات. وسوف يستبين أمر هذا التصنيف حيال الخوض في عرضه.

أ - أ . العنوان التعييني (الموضوعي) / المؤشر الجنسي

إن العناوين الموضوعية هي الأكثر استعمالا وتداولاً في الساحة الأدبية والفكرية عموماً، كما أنها في النصوص الرحلة متميزة في الغالب بتعيين الجنس والإحالة عليه. والرحلة الجزائرية الحديثة ضمن هذا الحيز تستقطب نصوصها جملة من العناوين التي تخص الموضوع وتشير إليه، بل ترتكز به في سياق النص

⁵⁰⁸ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 172.

⁵⁰⁹ - المرجع نفسه، ص 181.

العام. من ثم نلفي العناوين ذات هذه الدلالة هي الأكثر شيوعاً، تحددها جملة من الوعي بالرحلة، وما يتفرّع عنه من تفرّعات اسمية كلها تصب في سياق الرحلة.

ومن هذه التفرّعات الموضوعية المنبثقة عن معجم "رحلة" نجد: "سياحة" "سفر" "جولة" "زيارة" "عودة" وهي العناوين التي تعتمد على مضمون النص الذي لا عيب فيه⁵¹⁰ وبالتالي فهو يحيل مباشرة إلى فعل الرحلة وخطابها. ومنه ما نجده مباشراً، ومنه ما نجده يلف بصيغة غير مباشرة ولكن في الأخير يحمل إشارات تحيله إلى معجم السفر (الرحلة)، نرتبها على النحو الآتي:

أ. أ. أ. "رحلة".

إن ما تتميز به الرحلة الجزائرية في هذا المجال، هو كثرة العناوين التي تحيل مباشرة إلى الموضوع، وهذه بلا شك تطابق وظيفتها، بل إنها "من أهم الوظائف التي يمكنها أن تتجاوز بقية الوظائف، لأنها تريد التطابق بين عناوينها ونصوصها"⁵¹¹ حيث تغدو غالب الرحلات الجزائرية الحديثة إلى هذا النوع الذي يتخذ من جنس الموضوع الرحلي اسماً لعنوان نصه، فيدلّ بذلك العنوان إلى جنس الموضوع من أول وهلة. وقد تعدد تفاصيل هذا النوع حسب تصرّف كل كاتب. ومن اللافت أن المسار الذي سار عليه النسق الفكري في نسبة الرحلة إلى صاحبها قد قلّ إلى حد الاندثار، لولا أن بعض النصوص التي تحمل عناوين شحيحة في هذا المجال كرحلة بن صيام أو رحلة بن قاد أو رحلة محمد السعيد بن علي الشريف وكلها في القرن التاسع عشر، دون أن يسجل القرن العشرين شيئاً من هذا النوع من العناوين. ومن السياقات التي تمخّضت عنها نسبة الرحلة بالمكان، نجدها قد تعدّدت حتى استفاضت عن الإحصاء، فمنها ما كان على شكل مباشر، ومنها ما كان يضم إلى ذلك شيئاً من الخصوصية أو التأويل، أما الأولى فقد تعدّدت إلى حد لا نستطيع ذكر جميعها في هذا المقام، مثل: "رحلتي إلى الأقطار الإسلامية" للبشير الإبراهيمي، و"رحلتنا إلى باريس" للكاتب نفسه، و"رحلة في بلاد الأحلام والذكريات" لبوزيد العطيوي، و"رحلة للمغرب والأندلس" لعبد الحفيظ الهاشمي، و"رحلة السيد عمر ابن جيكو إلى أوربا" و"رحلة مسافر" لعبد القادر بن عبد الله بن سيدي عيسى، و"بين الحل والترحال" لعبد الحفيظ الجنان و"رحلة مدرسية بين الشط والصحراء" لعلي جاو، و"رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا" لمصطفى عبد الرشيد، وغيرها من عناوين الدالة بصراحة على الرحلة.

أ. أ. ب. "سفر"

510- عتبات جزار جينيت من النص إلى المناص، مرجع سابق، ص 79.

511- المرجع نفسه، ص 78.

ومن معجم "الرحلة" نجد عناوين بلفظ "سفر" قد وردت لتدلّ على فحوى الرحلة، مثل "ملاحظات مسافر" و"السفر إلى قسنطينة للدراسة" لمحمد مهدي، و"السفر إلى فرنسا"، و"السفر إلى الشرق" (رحلة مهمة) للرحالة نفسه، و"السفر باتجاه العاصمة" لمحمد الميلبي و"السفر إلى طرابلس وتونس" لعبد الرحمان فارس، و"تأملات مسافر" لعبد الرحمان الحسيني، و"رحلة مسافر" لعبد القادر بن عبد الله بن سيدي عيسى.

ولفظ سفر في حد ذاته مرادف للرحلة، بل لا تقوم الرحلة إلا بفعل السفر، وبالتالي يعد استعمال عناوين بهذا اللفظ من صميم موضوع الرحلة.

أ. أ. ج. "سياحة"

ومن العناوين التي تنسل من معجم الرحلة نجد "سياحة"، وهي من العناوين الواضحة القصد التي تشكّلت عناوين لبعض النصوص منها: "سياحة وفد جمعية العلماء" و"سياحة استطلاعية" لإسماعيل مامي و"سياحة مدير البلاغ في العمالة القسنطينية"، و"سياحة الأستاذ أحمد ابن عليوة" لمحمد بن البشير الجريدي و"سياحتنا في العمالة وخارجها" لعبد الحفيظ الهاشمي.

أ. أ. د. "جولة"

ولفظ جولة مرتبط ارتباطا وثيقا بالسفر والارتحال، بل هو يحيل إلى دائرة السفر التي يمثلها خط المسير المحصور بين نقطتي الذهاب والعودة، ونجد ذلك ماثلا في عناوين كثيرة نذكر منها: "جولة حول عرش أولاد يحيى" للعيد مطروح، و"جولة ثنائنا بالغرب الجزائري" لعلي مرحوم و"حديث المتجول لأحمد حماني، و"جولة خاطفة بعمالة وهران تدشين مدرسة ندرومة" لبن عمر باعزيز، و"جولتي في المغرب وبلاد الأندلس" لإسماعيل مامي، وللرحالة نفسه "جولة نائبا بالغرب الجزائري والقطر المغربي" و"جولة نائبا بالوطن القبائلي". و"جولتي في بلاد المغرب والأندلس" لعبد الحفيظ الهاشمي، و"الجولان وفوائده" لقويدر بن مناد، و"سوانح متجول" للحسن الطولقي و"جولة من التلال إلى الرمال" لحمزة بوكوشة، و"كلمة وجيزة حول الجولة لمجلة الشهاب" لعلي مرحوم.

أ. أ. هـ. "زيارة"

ومن العناوين التي تحمل أيضا دلالة الرحلة نجد "الزيارة"، التي ترتبط بالتنقل وتوحي بالسفر، بالإضافة إلى دلالات أخرى يحملها مضمون الخطاب. ومن الأمثلة على ذلك: "زيارتي إلى ورقة" لمحمد خير الدين، و"زيارة سيدي عابد!" لمحمد السعيد الزاهري.

أ. ب. العنوان المقتضى للحال

أ. ب. أ. الرؤية والمشاهدة.

من مقتضيات الرحلة ولوازمها، الرؤية والمشاهدة، التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهما، باعتبار أن الرحلة عملية رصد وملاحظة، واستقصاء للمكان المزار والسبيل إليه، لذلك يلجأ كثير من الرحالين إلى عنونة نصوصهما بما يوحي على السفر من هذين الزاويتين، وهما عبارتان كافيتان قويتا الخطاب المرسل نحو المتلقي، دالتان على أن الرحالة يريد توجيه رسالة مباشرة غير مقنعة، أقرب إلى التقرير حتى ولو كانت صبغتها فنية خالصة. مثل ما نجده في رحلات مثل: "ما سمعت وما شاهدت" لمحمد الهادي السنوسي، و"رحلة في البلاد الأندلسية مشاهدات تلك الآثار الخالدة التي تركها العرب" لإسماعيل مامي، ورحلة عبد الله زرقون "بعض ما شاهدته في الحجاز أثناء سفري للحج" و"مشاهدي في الجزائر" لصاحبها محمد الساسي بلحاج الزيمي السوفي.

أ. ب. ب. العودة

ومن الرحلات التي يريد بها أصحابها لباسها لباس خلفيات السفر في خطاب مجمل في الغالب تلك التي نجد فيها لفظ "عودة" التي لا تعني مرحلة العودة من السفر في مقابل "الذهاب" وإنما يريد من خلالها الكاتب (الرحالة) أن يوفّر حديثاً شاملاً عن رحلته، تختلف في نصوصها باختلاف موضوعات الرحلة وخلفيات كتّابها، وهي من النصوص الجبلى بالأحاديث عن الانطباعات والمقارنات. مثل "عدت من الشرق" لمحمد الغسيري" و"عائد من الصين" لمحمد الصالح رمضان و"عدت من الاتحاد السوفياتي" لرضا حوحو "أوبتنا من السفر" لعبد الحفيظ الهاشمي .

أ. ب. ج. كنت

تشير مثل هذه العناوين صراحة إلى الرحلة وتدل صراحة على محتواها الموضوعي، فإن هناك من الرحالين من يجعل في العنوان ظلال جمالية، فتستقرئ بأن الرحالة يريد بهذه الرحلة الجانب الأدبي ويغمرها به، أو يحقق غرضاً حول انطباعات حول المكان المزار. ومن هذه الرحلات مثلاً: "كنت بالقاهرة" لرحالة مجهول.

أ. ج. العنوان المحتمل

العنوان المحتمل هو العنوان الذي يحمل وظائف بنوية إشارية أو بيانية مُحيلة سيميائياً إلى عالم الرحلة وفضاءاتها، وهو ما يمكن أن يعتقد القارئ أول وهلة على أن العنوان يوحي على الرحلة من عدة زوايا قد تكون بالتقدير الزمني، أو المكاني وهما الركنا اللذان يقع فيهما الاحتمال لأنهما المؤطران الأساسيان، بل اللازمان للخطاب الرحلي، ومما نجده من عناوين في مدونتنا نقترح ما يلي:

أ. ج. أ. المحتمل بالإشارة الزمنية

قد يكون الزمن دالا دلالة واضحة في أحيان كثيرة في استقصاء الخطاب الرحلي من خلال عنوانه، كما قد يكون في أحيان أخرى ضبابيا تتضاءل فيه نسبة ضبط موضوعها، وكثيرا ما كان الرحالون الجزائريون يشيرون في عناوين نصوصهم بعدد أيام الرحلة، حتى وإن لم يتحدث بإسهاب عن تلك الأيام سواء طالت أم قصرت، والمثال على ذلك، رحلة محمد الزاهي الميلي "أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة" وحمزة بوكوشة "أربعون يوما بالمغرب" ومحمد الأمين العمودي في رحلته "شهر في تونس" ومحمد بن العابد الجلالي "ليلة بميلة"، وعبد الحميد ابن باديس "ثلاثة أيام ببسكرة"، وإسماعيل مامي "شهر في بلاد زواوة أو بلاد القبائل الكبرى". كما أن من الرحالين من لا يحدد الزمن في عنوان رحلته ويبقي عليه مطلقا كرحلة توفيق المدني "أيام عامرة بدمشق" ولعل هذه العناوين تفضي مباشرة إلى خطاباتها وبالتالي لا يألو القارئ أي جهد في تقصي الموضوع من أوله إلا إذا كان الموضوع مختالا.

أ. ج. ب. المحتمل بالإشارة المكانية

إذا كان الزمن يدل على الأحداث برباط منطقي مع المكان، فإن المكان هو بؤرة تلك الأحداث وحقته قوية على التذليل. وقد أشارت كثير من الرحلات في عناوينها على الأمكنة التي توحى مباشرة بموضوعات الرحلة وفي أحيان تبدو ضبابية، هذه الأخيرة أوردها كثيرا (أحمد توفيق المدني) في رحلاته المتعددة منها "في لبنان" و"في بغداد" و"في الكويت" و"في العربية السعودية" و"في الأردن" و"في اندونيسيا"، ولعل الضبابية التي يمكن أن تعيق الرؤية في تلمس صراحة النص الرحلي هو العنوان المطلق الذي يحمل أكثر من دلالة في غياب صريح للذاتية في هذه العناوين، فلو حشر (الرحالة) بعض من بصماته الذاتية لنزع عنها ذلك الستار الحاجب الذي يعيق الرؤية. وهو الأمر الذي نجده في رحلات أخرى منقشعا عنه كثيرا من هذا الضباب فيجعل بذلك الاحتمال أقرب، مثل ما نجده في عنوان رحلة صالح غزال "في مدينة فاس" الذي توحى فيه الإشارة المحتملة إلى أن الرحالة يتحدث من موقع كونه زار فاس ويتحدث عن ذلك من هذا الموقع. والمثال نفسه ينطبق على محمد علي دبور في رحلته "وقفة في دار الرافعي وقبره". وابن باديس في رحلته "في تونس العزيزة" وبوزيد عطياوي "في بلاد الأحلام والذكريات".

أ. ج. ج. المحتمل بالإشارة اللازمة

تشكل لدينا مجموعة من العناوين ذات دلالات متنوعة، وإنما الجامع بينهما وظيفة موحية، قد تغلب على الظن في استنباطها وتصنيفها من أول وهلة عبر قنوات الشك الذي قد يؤدي تلك الوظيفة المترتبة عن العنوان بوسيلة السفر والتنقل، حتى إذا ما اطلعنا على النص، توفر ما يؤكد خطافية الرحلة.

مثل رحلة حوحو "وراء الستار الحديدي" فكلمة وراء تفضي إلى الشك أن هناك ذهاب لاكتشاف هذا البعد الورائي. وفي عنوان "الاجتماع السنوي لجمعية الفضاء"، فالاجتماع -هذا- ربما لا يتم إلا بفعل التنقل من مكان إلى مكان الاجتماع الذي قد يبعد مسافات كما يمكن له أن يقصر. وعنوان "افتتاح مسجد فجّ مزالة"، يثير للشك أيضا أن الافتتاح قد يتم في مكان يوجب فيه التنقل. كما هو الحال بالنسبة لعنوان "على الطائر الميمون" لعدة بن تونس الذي يوحي إلى السفر من خلال القرينة التراثية في استعمال كلمة طائر الدالة على المسافة التي توجب السفر، إضافة إلى أن الطائر عند العرب وبعض الأمم كان ساعيا للبريد ينقل الرسائل والأخبار من مكان إلى مكان آخر. وعنوان "نظرة زاهرة" ربيها في النظرة التي لا تتم إلا بعد تجوال وتطواف.

أ. د. العنوان الوظيفي

تشكّل عناوين هذا الصنف، الإخبار المباشر عن مهمة الرحالة في مجاله الوظيفي أو نشاطه الاجتماعي أو الثقافي، و"كل عناوين هذا النمط تبدأ بتعيين جنسها أي النص (مبدأ خبري)، ثم تستمر في تعيين موضوعها (مبدأ موضوعاتي)⁵¹² فهي تحمل من زاوية بنية ثقافية ومن زاوية أخرى التقرير لصالح الوظيفة أو المهمة، ومن ذلك نجد في الرحلة الجزائرية الحديثة:

أ. د.أ. الوظيفة الرسمية

يبدو من خلال الإطلاع على مدونة الرحلة الجزائرية الحديثة أن نصوصها تحمل في مواقع كثيرة مهام أثقلت كاهل الرحّالين باعتبارها تجارب مضمّنة في شتى الحقول الرسمية التي كان فيها الرحّالون أصحاب مهام نبيلة بالخصوص تلك التي كانت جارية في حقبة الاستعمار. وقد تعدّدت من سياسية وأخرى دعوية إصلاحية، كان أصحابها يحملون لواء المقاومة والمجاهدة في سبيل تحقيق أهداف نبيلة وسامية.

إن الحديث في هذا الشأن يحيلنا إلى ما قامت به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مقارعتها للمستعمر الفرنسي ووقوفها ندّا له في تمرير رسائل قوية إلى الشعب الجزائري الذي تعدّ ثمرة الحرية من حصاده، بعد توعية الشعب وحمله إلى القيام بالمهام المنوطة به. في سبيل ذلك نجد في مجال الرحلة عناوين مختلفة منها: رحلات ابن باديس "للتعارف والتذكير"، وفرحات بن الدراجي "سير الجمعية وأعمالها وفود جمعية العلماء في القطر" ومحمد بن العابد الجلالي "عين مليلة في سبيل الدعوة والإرشاد" وأحمد بوزيد قصيبة "حركة جمعية العلماء بعمالة الجزائر" والفضيل الورثلان "رحلات وفد جمعية العلماء

512- عتبات جيزار جينيت من النص إلى المناص، مرجع سابق، ص 82.

المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة". كما كانت خارج الوطن متمثلة في رحلات أحمد توفيق المدني وهي عديدة منها: "وفد السودان" و"مهمة في سوريا" و"مهمة إلى موسكو"، ورحلة محمد صم "مهمتي في الصين الشعبية سنة 1960". والمقام يضيق في حصر كل الرحلات التي تنضوي تحت هذه العناوين وبالتالي لا يمكن جردها كلها.

أ. د.ب. العنوان الإخباري

وهي عناوين الرحلات التي تريد الإشهار والترويج لأحداث معينة في إطار بعثات المراسلين الصحفيين والمكلفين الإخباريين. ومن هذه العناوين: "المسيلة تثب وثبة جريئة" للنعمي، و"انتصار الإصلاح في بلاد القبائل" لعلي مرحوم، و"من هنا وهناك" لفرحات الدراجي، و"حول الاحتفال بالجامع" لإسماعيل مامي.

أ. ه. العنوان الإغرائي (الجمالي)

ارتبطت الرحلة في كثير من وعينا بالتشويق وبعث روح التطلع لما يحمله نصّها من أوصاف وانطباعات ونكت وترويح، ومن اقتدار لغوي، يجد القارئ في كل هذا، المتعة المتوخاة حين يطّلع على هذه النصوص، ويكمن ذلك في العملية الإبداعية التي تنتجها قريحة الكاتب. ولعله في كثير من الأحيان نجد تلك البصمة الجمالية -الإغرائية- من أول عتبة، وهي عتبة العنوان الذي يأسر قارئه ويجلبه لاقتناء موضوعه والمبادرة في فهمه فهما. إن الإغراء عملية جلب واقتدار واتجاه عند جل كتاب الرحلات الذين يعرفون كيف يروّجون لرسائلهم ويكسبون ودّ قراءهم، ومن جهة ما نلمسه في كثير من الموضوعات ذات الجمالية الإغرائية، هو ثراء الجانب الفني في الموضوع الذي يترقّبه كل قراء هذا الفن، الواعون له. ولقد اختارت نخبة من الكتاب عناوين مغرية في هذا الباب، من أهمها. "سوائح وارتسامات عابر سبيل" لمحمد الصالح رمضان و"المنصورية مبعث الجمال" للسبتي نجار، و"الحياة في أوربا أو أوربا في الحياة..؟؟"، و"على الطائر الميمون" لعدة بن تونس، و"في بلاد الأحلام والذكريات" لعطياوي بوزيد و"بين جمال الطبيعة ساعة في جبل الوحش"، و"في فياني الصحراء من وهران إلى نيجر".

ب. الاستهلال (الخطاب الافتتاحي)

إذا كان العنوان يعادل الفضاء الموازي للنص باعتباره الاسم المبني عليه الموضوع، ففي كثير من الأحيان يكون مبالغاً ومخاطلاً يحتل كثيرا من التأويل، فإن المقدمة تشكّل آفاق النص الذي يفصح تارة ويدفع أخرى بالقارئ إلى التلهف في استفراغ النص حتى آخره، حيث "تمارس بداية النص -أو عتبة القراءة- تأثيرا خاصا على القارئ وتوجه تصرفاته إزاء النص الذي سوف يقرؤه. وهذا يعني أن البداية

المحكمة البناء تشدّ القارئ إلى النص وتجعله يتابعه إلى النهاية⁵¹³، فدرجة المقدمة لها من الأهمية ما يجعلها ذات قيمة حرجة، وهي العملية الإشهارية الأكثر مصداقية على فتح شهية القارئ أو العكس، كما يمكنها أن تؤدي بالنص الجيد إلى الإخفاق إذا لم يحسن استغلالها. كما أنها مخولة لتفصيل النص وفق فصيلته الجنسية، فهي "لا تعتبر قضية شكلية/ بنوية ولكنها تقوم بوظيفة أخرى تتمثل في إخبار القارئ عن الجنس الأدبي والمتن المرجعي لهذا النص، وتقاليد الكتابة المتعلقة بفترة معينة وكذا حول العلامات الثقافية التي تؤطر النص وتوجه دلالاته"⁵¹⁴ من ثم يمكننا القول بأن البداية في النص الأدبي هي التي تبرم عقد القراءة بين النص والقارئ، وتهيؤه بشحنات النهم حسب درجات إغرائها، بفتحها "أفق الانتظار". ليس هذا فحسب وإنما "من خلال كل بداية تتحدد صيغ هذا العقد سواء كانت أخلاقية أم أدبية أم ثقافية، ومنذ البداية يعرض النص عناصره الأساسية التي تبرمج طريقة تلقيه"⁵¹⁵ ومنه تعدّ المقدمة مفتاح الولوج إلى النص بخلفية ثقافية تضع القراءة أقدامها على ترقب دائم ومحين تسعى في أثره، ذلك السعي يكون في سبيل الاكتشاف الذي قد أغرت به المقدمة.

وكل ما يقال عن أي نص أدبي، يتجسد في النص الرحلي، باعتباره نصًا واعيا، يأخذ في حسابانه القارئ كطرف رئيس في العملية الإبداعية، ومهما يكن، فإن "المقدمة في هذا النوع ذات أهمية كبرى؛ لأنها ستكون بمثابة مفتاح أو كشاف الرحلة، الذي يفتح وينير مغالقتها للقارئ"⁵¹⁶. ولعل هذا يعكس جانبا مهما في النص الرحلي الذي يتمثل في واقعية نصه، الذي لا ينتظر القارئ من الكاتب أن يأتيه بجوانب مفاجئة أو استثنائية كما تفعل الرواية -مثلا-، وإنما القارئ في الرحلة يتخذ من المقدمة إطارا لموضوعها، كما يتسنى له التعرف على نموذج الأسلوب الأدبي الذي يرغبه في النص أو عنه، لأن بداية النص الرحلي عملية استهلاكية تكشف عن خبايا أسلوب الرحالة وبراعته التي يشحن فيها قلمه في بداية العملية. من ثم "يقدم خطاب التقديم داخل النص الرحلي عنصرا بنائيا، لما يتضمنه من أسس وعناصر تمهيدية لتأطير النص، إضافة إلى أسئلته الخاصة المتعلقة بالجنس، وبعض قضايا الكتابة عند المؤلف، بما فيها رؤية وطبيعة فهمه للعديد من آليات الإبداع"⁵¹⁷ لِمَا يشكله النص الرحلي كنموذج تتداخل فيه الكثير من الأنماط، والعديد من الأقلام، منها ما يرتقي إلى مصفّ المبدعين ومنها من لا يتجاوز في تعبيره حد المقرّر، وهي المزية التي يمنحها النص الرحلي لكافة الشرائح ولا تتاح في نصوص

⁵¹³ - نظرية النص، مرجع سابق، 2007، ص 115.

⁵¹⁴ - المرجع نفسه، ص 115.

⁵¹⁵ - المرجع نفسه، ص 116.

⁵¹⁶ - الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 71.

⁵¹⁷ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 183.

أدبية أخرى. بيد أن تجنيس الرحلة يخضع لقواعد محدّدة تحكمها عملية السفر الذي تشكّل بنيته عاملا أساسيا في منحه خاصية الأدبية، والتي تتعدد صيغه وفق الدوافع والموضوعات، ومن هنا "قد اعتُبر التقديم في النصوص الرحلية ضرورة واجبة أكثر منها في أشكال أخرى نظرا لطبيعة النص الذي يحتاج إلى تقديم بعض المعلومات والإيضاحات حول الرحلة أحيانا لتبريرات معينة"⁵¹⁸، وهذا في حدود مرهونة بالكشف عما يجلب لا عما يفضح النص وينهي عملية المتعة من أولها، ذلك أن فتنة الإغراء تمارس على القارئ بسطان الإثارة "دون إفساد مبكر لمتعة يكشف كل الأوراق مرة واحدة، ومن ثم تصبح الرحلة تحصيليا لحاصل، وتفقد صلتها بالقارئ، وتأثيرها فيه"⁵¹⁹ ولذلك يجوز القول إن البداية عبارة عن دليل يفتح الباب أمام القارئ مع إشارات بسيطة مغرية توصله بالعملية السردية وتتركه في متعة الكشف في مجاهيل النص، لأن "المقدمة مرشدة فحسب، ولذلك يستحسن أن تكون قصيرة لأن القارئ يكون متشوقا لمعرفة تفاصيل الرحلة"⁵²⁰. وتعمل دوافع الرحلة على ترشيد الخطاب بشكل كبير، حيث ترشح الاستهلال وفق هذه الدوافع في الغالب. كما تمتاز الرحلات بصيغ استهلالية كثيرة وغير محصورة الحصر النهائي، قد تتعدّد وفق ضروب الكتاب (الرحالين)، ومشاربهم الأدبية وغير الأدبية. يقودنا هذا إلى محاولة ضبط صيغ الاستهلال في الرحلة الجزائرية الحديثة باعتبارها موضوع بحثنا، وسوف نقترح بعد إطلاعنا على المدونة مجموعة من الصيغ قد تكون قريبة من الحصر دون أن تدركه تماما لاعتبارات تخرج عن نطاقنا لثرائها من جهة، ومن جهة أخرى، لعدم ضبط هذه المدونة ضبطا حصريا - حسب اعتقادنا-. ومن هذه الصيغ ما يأتي:

ب. أ. الاستهلال التقليدي

يتجه فيه الكتاب الرحّالون إلى تقاليد الكتابة بالأسلوب القديم، وهو الاستهلال النمطي الذي كان سائدا في معظم النصوص الرحلية القديمة، وتتجسد فيه البداية بالبسملة والحمدلة وشكر النعم وكل ما يوحى بعملية السفر ودافعه، ويبقى هذا النموذج ساريا حتى في بعض من نصوص رحلاتنا المعاصرة، دون أن يشعر فيه القارئ بأي نفور كالذي يحدث في كثير من الأشكال الأدبية التي تمت إلى القديم بصلة سواء كان ذلك شعرا أو نثرا. إلا أنه لم يعد مهيمنا في النصوص الرحلية، إذ طغت عليه أنماط أخرى. وما نجد في هذا الباب من الرحلات الجزائرية الحديثة فيمثلها أدياء تقليديون يميلون إلى الشكل القديم. ولما كانت ضروب الحياة الأدبية في القرن التاسع عشر لا تزال تنحو إلى التقليد، فقد

⁵¹⁸ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 184.

⁵¹⁹ - الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 71.

⁵²⁰ - المرجع نفسه، ص 71.

عمّ هذا النوع من الاستهلال في هذه الفترة، وهو ما جسّده ابن صيام في بداية نصه بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، نحمد الله معترفاً بحقه، ونشكره على فضله ورفقه الذي جعل لنا الأرض دلوياً نمشي في مناكبها ونأكل من رزقه بأمره وسخر لنا الفلك لتجري في البحر"⁵²¹. ولعل هذا الخطاب يحيل إلى السفر ببعض لوازمه الإيحائية كالمشي على الأرض الدلول، والفلك في إشارة إلى أن الرحلة ستكون عبر البحر. ولا يتوقف الاستهلال عند هذا الحد، وإنما الإغراء يبدأ من قوله: "فيقول العبد الفقير إلى ربه السلام سليمان بن صيام، لما سبق علمه تعالى أنني أمشي لرؤية أرض الشمال، ذات المحاسن العديدة والكمال، أمرني من يجب علي امتثال أمره وهو والي قطر دائرة الجزائر قطبه صاحب الرأي السديد. والجود الذي ليس فوقه من مزيد، البطل الهمام والأسد الضرعام سعادة السيد القبرنور (الوالي) راندون مازال.. بعين العناية ملحوظ، ومن شر حساده محمياً محفوظاً، فامتثلت أمره السعيد، وكان اليوم عندي كالموسم الجديد"⁵²²، ذلك ما يجعل القارئ في شوق إلى بلوغ تلك المدارك التي خصّها الكاتب بحديث المثلّف إلى عالم أفضل، وهو يتحدث عن فعل رحلي سبق، معنى ذلك أنه سيتحدث الرحالة عن عالم واقع لا مفترض.

والمثال نفسه نجده من ذات الفترة عند محمد السعيد بن علي الشريف⁵²³ عند قوله "الحمد لله الذي جعل اللسان عنوان عقل الإنسان، وآلة تظهر ما في الحنان بفصيح العبارة وصريح البيان، وسبحان الله خالق الأنهار والأزهار، وخالق الليل والنهار"⁵²⁴ وبعد الحمد والثناء على المولى عز وجل، والصلوات على نبيه عليه الصلاة والسلام يقول: "أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى سيده ومولاه، السائر حيث وجهه وولاه، محمد السعيد بن علي الشريف صاحب زاوية شلاطة، القاطن داراً ومنشأً بقطر بجاية جعله الله ممن أطاع رأيه واتقى مولاه، كي ينال ما يرجوه ويتمناه.. لما رقم اسمي في جملة المسافرين إلى دار الملك باريس، أشار علي بعض الأمراء المحبين بتسجيل ما نشاهده ببرّ فرنسا، وما نعاينه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة. فأجبت لمراه خشية الملام، غير أنني ألقيت شيئاً يعجز اللسان عن اذكاره، مع قصر فهمنا وعدم لحوقنا بهذه المرتبة التي تتفاخر بها فحول الرجال المطلعة على دقائق المسائل، وعزرو الأقوال وحيث لم يبق

⁵²¹ - ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، تحقيق وتقديم خالد زيادة، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2005، ص 25.

⁵²² - المصدر نفسه، ص 25.

⁵²³ - ولد بضواحي بجاية حوالي عام 1826 وتوفي 1896 وهو من أسرة تنتمي إلى إحدى الطرق الصوفية التي تعاونت مع الإدارة الفرنسية، منذ بداية الاحتلال (نقلا عن

الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث ص 51)

⁵²⁴ - الزبير سيف الإسلام، فن الكتابة الصحفية عند العرب في القرن التاسع عشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 43.

الخلاف أقول ما استطعته بحمد الله تعالى وحسن توفيقه⁵²⁵ وهو الشيء نفسه نجده في رحلة ابن قاد في رحلته (الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية).

وتأتي هذه الاستهلالات، وهي من الأنماط التقليدية النموذجية في كتابة النصوص الرحلية عند القدماء، لما اتسم به عصر هؤلاء الرحّالين الذين عاشوا خلال القرن التاسع عشر، وكانت ثقافتهم تحن إلى الماضي بل مرتبطة به ارتباطا متينا.

ب. ب. الاستهلال التقريري

لقد شكّلت الصحف بالنسبة للحياة الثقافية الجزائرية أهم مساحة لبثّ موادها الأدبية والإخبارية، وبالتالي عرفت هذه الصحف والجرائد أهم المظان الحيوية التي حرصت على حماية مصادر الأمة. كما أن الصحف أسهمت في إيجاد صيغ وأشكال جديدة في فن القول، دفعت بمواضيع الرحلة إلى تبني صيغ موافقة لوظيفة الصحافة، فقد كان الرحّالون لا يتوانون عن إعطاء تقارير رحلاتهم عند مباشرة الرحلة؛ فيكون صداها محمولا بطريقة إخبارية عبر صفحات هذه الصحف، ملتزمة في ذلك أسلوبا تقريريا. وقد كانت الرحلات التقريرية تأتي بادية في وهلتها الأولى من خلال عرض الرحّالة، فيوقّر للقارئ قناعة ما لجأ إليه. وقد تكرر هذا الأسلوب في استهلالات لرحلات كثيرة، أهمها تلك التي كانت جرائدها لسان حال حزب أو حركة تتبنى فكرة أو تيارا أو اتجاهها، فيكون الرحّالة بذلك مخبرا عن رحلته بتقرير قد تكون الصحيفة في كثير من الأحيان هي من يطلب ذلك، وهو الأمر الذي كان جاريا عند مكاتبي (مراسلي / مبعوثي) الإصلاحيين أو الطرفين -مثلا-، فالكل من هؤلاء كان له دافع الترويج لأفكاره وطموحاته، فكانت جولاتهم تصب في التبليغ عن هذه الرحلات التي تزوّد الصحيفة بأهم الأخبار والأوضاع المهمة عبر الوطن حتى تمكّن القارئ من الإطلاع عن كثر بما يجري في وطنه المنكود.

ومن أهم الأمثلة على ذلك قول "أحمد قصبية" في استهلال رحلته المسماة "الواحة" يقول: "انتدبني جمعية العلماء منذ سنين لتفقد شعبها بعمالة الجزائر وتجديد نشاطها ماديا وأدبيا وقد كنت التزمت كتابة كلمة وصفية للبصائر عن كل بلدة أزورها ليطلع عليها جمهور القراء. زيادة على التقارير الخاصة عن كل شعبة التي كنت أرفعها للمركز العام ليطلع عليها -وقت ذاك- استأذنا الرئيس الجليل فضيلة الشيخ البشير الإبراهيمي حفظه الله وأبقاه للعروبة

⁵²⁵ - المصدر نفسه، ص 43.

والإسلام⁵²⁶. كما كان "علي مرحوم" يقدم استهلال رحلته "حديث المتحول" بقوله: "نظن أغلب الناس مطلعين اليوم على ما يحدث في وطنهم الجزائري من مؤسسات علمية وجمعيات منظمة، إذًا فكتابة متحول عن جولته في الجزائر لا تعني كثيرا بالأخبار عما هو معلوم للجمهور ولكن رغبة في إفادة الأقلية وجريا على عادة المتحولين رأينا أن نحدث قراء البصائر الكرام عما نراه مما يهم الإطلاع عليه في أخبار المدن والقرى التي نمر بها"⁵²⁷. والمثال نفسه نجده في قول عبد الرحمان الحسيني: "إن المتحول في هذه الديار إذا ما تأمل حال ذويها لا يحجم أن يقيد خطرات فكره كلما تداعت لمشاهدة الأهلي في تقلباته، ومستواه الاقتصادي والأدبي؛ ذلك ما دعا هذا النائب لأن ينقل بلسان قلمه ما عساه أن يلفت الأنظار، ويحثها على الاعتبار"⁵²⁸. وحسب اعتقادنا أن الاستهلال التقريري هو المهيمن في كل المدونة الرحلية الجزائرية، للأسباب المذكورة آنفا.

ب. ج. الاستهلال الترسلّي

ينطبق الحديث عن الاستهلال الرسالي في كثير من جوانبه بالاستهلال التقريري، ولعل الأداة المشتركة التي كانت تنقل هذه المواد أو الموضوعات، هي الصحف والجرائد، لذلك كانت تتقاطع في كثير مما هو شركة بينهما، ولعل الفارق بينهما هو ما كان ينطبق على التقرير بحكمه كان وظيفيا (عمليا) يؤدّي مهاما لصالح جهة معينة أو صحيفة معينة، بينما الصيغة الرسالية تؤدي في أكثر الحالات مهام توجيهية أو تربوية، أو متابعة لموضوع أو خواطر، ورغبة يبلغها الرحالة ليس مكلفا من طرف جهة. ومن نماذج ذلك مثلا، رحلة عبد القادر بن عبد الله بن سيدي عيسى في قوله: "أسعد الله حضرة صديقنا الأنجب السيد عدة بن تونس مدير جريدة "البلاغ الجزائري" الأغر عليكم سلام ورحمة من الله يشملائكم وأهل إدارتكم خصوصا حضرة الكاتب النبيل الشيخ سيدي محمد المهدي المحرر بإدارتكم.. هذا سادتي إنه بمناسبة ما كنتم التمستموه مني أن نخبركم به من جهة سفرنا إلى مدينة تونس وجهت إليكم هذا المكتوب لتنشره إسعافا لرغبتكم ولكم مزيد الشكر"⁵²⁹. كما نجده في موطن آخر عند عدة بن تونس الذي وعد أن يبعث برسائل لتنشر عبر جريدة البلاغ الجزائري، بمناسبة حجه، فكان استهلال إحدى هذه الرسائل، فيما يلي:

⁵²⁶ - أحمد قصبية، الواحة، جريدة البصائر العدد 232، السلسلة الثانية، السنة الخامسة، الجمعة 12 رجب 1372 الموافق 27 مارس 1953.

⁵²⁷ - علي مرحوم، حديث المتحول، جريدة البصائر العدد 94، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، الجمعة 5 ذي القعدة 1356، الموافق ل 7 جانفي 1938.

⁵²⁸ - عبد الرحمان الحسيني، تأملات مسافر، مجلة الشهاب العدد 108، السنة الثالثة، (الائتين 5 صفر 1346هـ/04-08-1927).

⁵²⁹ - عبد القادر بن عبد الله بن سيدي عيسى، رحلة مسافر، جريدة البلاغ الجزائري، العدد 102، بمسغنام يوم 29 رجب، 1247 هـ، الموافق ل 11 جانفي 1929 م.

"أرسل لكم أيها المدير المحترم بهاته الكلمات ورجائي فيكم وطيد بأن تنشروها لقراء جريدتنا (البلاغ) الغراء زادها الله عزة ورواجاً"⁵³⁰.

ب. د. الاستهلال التنويهي.

يعد التنويه بالرحلة من خصوصيات أدبيتها الواعية التي تظلّ تحمل حلم البحث عن الجديد والاستثنائي، كسرا للروتين والمعتاد، مشفوعا بروح السفر الذي تتغذى من رحيقه الفيّاض والذي يمدّ الرحّالة بطاقة مكنونة هي سبيل إلهامه، لذلك يلجأ الكثير من الرحالين استهلال خطابهم الرحلي عن موضوع الرحلات وأثرها في النفوس، وما حقّفته في تاريخها من إشعاع، وهو ما نجده ماثلا في نصوص كثيرة من الرحلات الجزائرية الحديثة التي استنشقت من التراث عبقه، وأكّدت وعيها بهذا الموضوع، فتجلّت في كثير من نصوصها، نذكر على سبيل المثال قول سليمان الصيد: "إن للرحلات آثار قيمة في النفوس فهي تكسيها معرفة وإطاعا فالمسافر ذو النفس الحية والعقل الحصيف والشعور الفيّاض تهتزكوا من الإحساس أيما اهتزاز فهو يرى أناسا وبلدانا ومناطق تختلف طبيعتها روعة وجلالا فيكسب من وراء ذلك علما جليلا قوامه المشاهدة لذا كانت فكرة -السياحة - في العالم المتمدن نقطة أساسية -زيادة على مالها من تأثير على النفوس -في تطبيق علوم الحيات خصوصا علوم الجغرافيا والتاريخ والأشياء"⁵³¹. يبيّننا مثل هذا النص بوعي الرحالة وبما قد يحققه السفر، ليس على المستوى الشخصي الترفيهي النزوي وإنما، ما يعود على المجتمع من ضروب التمدن، وهو ما أدركه -أيضا- رحالة آخر⁵³² في هذا الاستهلال: "في كلمة تطرق الآذان، ومنظر يبهج العين -تسبح الأفكار في رياض العقول، فتجري عليه الألسنة ورؤوس الأقلام، والعين لا تعدم أفكارا. ما دامت ملتفتة نحو التفكير؛ سواء كانت في سكون الإقامة أم في تنقلات السفر؛ غير أن المسافر -وهو يشعر بالتجدد في كل حين -يجد بين مستطرفات الأحاديث، ومستحدثات المشاهد ما يبعث فيه قوة الملاحظة والتفكير. حتى لقد يلاحظ على الشيء يعرفه من قبل ما لم يكن يلاحظه عليه وهو مقيم"⁵³³. ولعل هذا من صميم عملية التنظير لأدب الرحلة الذي يرى أن

⁵³⁰ - عدة بن تونس، على الطائر الميمون، جريدة البلاغ الجزائري، السنة الرابعة، العدد: 162 - الجمعة 26 ذي القعدة 1348 الموافق 25 /04 /1930.

⁵³¹ - سليمان الصيد، رحلة مدرسية، جريدة البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد 234، الجمعة في 15 شوال 1372هـ (26 جوان 1953م).

⁵³² - رمز لاسمه بحرف (ع).

⁵³³ - ملاحظات مسافر، الشهاب العدد 66، السنة الثانية، (الاثنين 4 جمادي الأولى 1345هـ/06-11-1926).

الكتابة الأدبية في الخطابات الرحلية، هو ما تمليه الطريق من روح تسري في عروق الإبداع لدى الرحّالة، وليس هي مجرد تقرير عن الطريق الخالي من العواطف.

ومن مستلزمات السفر وأهدافه، التعارف الذي يعدّ ركيزة أساسية في التواصل الاجتماعي والإنساني، ومن ثمّ يلجأ المسافر (الرحالة) في اعتماد أسلوب استهلاكي تنويهي بمدى الدور الذي تحققه الرحلة، ومصدقا لذلك ما جاء في قول محمد عباسة الأخصري، مستندا في بداية حديثه بقوله تعالى: ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾. منبها قارئه بالسند القوي حتى يعضد من فكرته ثم يردف على ذلك بقوله: "إن في التعارف فوائد لا تجهل فيه يقع التفاهم بين الشعوب والملل والأحزاب وبه تتقوى روابط المحبة والوداد ومنه ينجر كل نفع للشعوب الذين وقفوا إلى ما انطوى عليه التعارف من الفوائد المادية والأدبية ولا يجهل هذا إلا من أعماه الطمع وأطمعه الغرض وحب الظهور.. فمجال التعارف واسع لذوي الأقلام الطاهرة الذين يعرفون كيف تساس الشعوب وبماذا تخدم مصالح الأمم" ⁵³⁴.

ب. هـ. الاستهلال الوظيفي (التكليفي)

وهو الناجم في إطار عمل ما، يكلف موظف القيام بمهام لصالح صاحب المصلحة، وكثيرا ما تكون هذه المصالح في إطار ثقافي مما يسمح لموظفيها أن يكونوا من ذوي هذا الشأن فيزودها بتفاصيل الأخبار وظروف العمل ومقتضاه، ومنهم من يقوم بكتابة هذه التجربة المكلف بها في حدود ما هو منوط بالإجابة على أسئلة المهمة التي تقتضي السفر، كما قد يفيد من الناحية الأدبية إن كان من ذوي الأقلام الأدبية. لذلك نجد في الصيغة الاستهلالية نبرات هذه المهمة مما يكسيها طابعا من هذه الخصوصية، من ذلك نذكر قول عبد اللطيف سلطاني القنطري في استهلال حديثه عن رحلته: "لقد رأت لجنة إدارة جريدة (الصراط السوي) أن تعتمدني في استخلاص مسلوم اشتراكات الجريدة، فارتأيت رأيها وشرعت في السفر لبعض الجهات من عمالة قسنطينة، ولا بد أن قام بهاته المهمة -مهمة الصحافة- من أمور تعرض له أثناء قيامه بواجبه، ومن الفائدة لقراء "الصراط" ⁵³⁵ الفضلاء أن أذكر لهم في كلمة مختصرة ما رأيته في رحلتي هاته، وبما أن الجريدة جريدة دينية خاصة لا تتكلم في غير الدين سأقصر كلامي على الحالة الدينية تاركا ما عداها من الأمور

⁵³⁴ - محمد عباسة الأخصري، التعارف وفوائده، الشهاب العدد 125، السنة الثالثة، (الخميس 13 جمادى الثانية 1346هـ/08-12-1927).

⁵³⁵ - جريدة الصراط السوي، جريدة إصلاحية، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تأسست في سبتمبر سنة 1933، ودامت إلى نوفمبر سنة 1934، حصيلة أعدادها 17 عددا.

الأخرى سياسية أو اقتصادية الخ لأربابها"⁵³⁶ وهي المهمة التي كانت ترهق كاهل المبعوثين الذين كانوا يعانون الولايات من صنوف المشتركين مع الجريدة الذين سادهم طلاس الجهالة والنفور من التحضر، فكانت لا تتم عملية جمع أموال الاشتراكات إلا بعد جهد ومعاونة يرويها عبد الرحمان بن الحاج صالح أحد مبعوثي جريدة البصائر في استهلاله بقوله: "إذا كانت صحف الأمم الحية تبعث بمندوبيها للتنقل بين عواصم الأمم لاستقصاء الأنباء أو للدعاية؛ مزودة لمبعوثيها ماديا وأديبا. ليسهل لهم القيام بتلك المهمة على أحسن وجه. فحن لا زلنا في دور الإنشاء. ولا تبعث جرائدنا بمندوبيها. إلا لجمع الاشتراكات من قراء دفعهم الإهمال أو التهاون إلى تأخير دفع ما عليهم. ظنا منهم وأن أصحاب الجريدة يستطيعون تسييرها بالبركة. كما سارت مشاريعنا"⁵³⁷. كما لم يكن عمل المكلفين مقتصرًا على متابعة المشتركين والقضايا الصحافية، بل تعدت ذلك بعملها على جمع شمل الأمة فخصت من ذلك لجان تقوم بهذا العمل لتحقيق توحيد الشباب على كلمة سواء، وغير هذا من الأعمال، ومن هذا القبيل ينقل لنا أحدهم هذا الاستهلال بقوله: "قررت اللجنة المركزية لشباب المؤتمر الإسلامي الجزائري جولة لعمالة قسنطينة بعدما أدت ما أدت هذا الواجب في السنة الماضية بالعمالة الوهرانية والغرض من هذه الجولة أو الرحلة هو: توحيد كلمة الشباب، وضم بعضهم لبعض، وبث التآلف والتحابب بينهم ليكون ذلك معوانا لهم على تحقيق مطالب الأمة الجزائرية التي قدمها المؤتمر إلى الحكومة الفرنسية في سنة 1936 وفي يوم السبت 7 ربيع الثاني 1939م"⁵³⁸.

ب. و. الاستهلال التعيني (الحديث عن الأمكنة/ المدن)

إن من جماليات النص الرحلي استهلاله بحديثه عن المكان المزار، باعتبار أن الاستهلال مقدمة تعمل على تشويق القارئ أو لفت طرفه لجلبه أكثر، ومعايشته التجربة الرائعة والرائقة التي عاشها الرحالة، حيث تؤكد وعي الرحالة (الكاتب) بعدم تخيبيه لقارئه. وتنطوي هذه الاستهلالات على البؤر المكانية التي تخص مكان بعينه في الغالب، ويغلب عليها الأسلوب الأدبي الشيق والمغري، وهو الحديث

⁵³⁶ - عبد اللطيف القنطري، كلمة مختصرة، جريدة الصراط السوي، العدد السادس عشر، الاثنين 15 رمضان 1352هـ/1934/01/04.

⁵³⁷ - عبد الرحمان بن الحاج صالح، حديث المتحول - بين الحلّ والتحرّال، جريدة البصائر العدد 62، السنة الثانية، الاثنين 3 ربيع الأول 1368، الموافق لـ 3 جانفي 1948.

⁵³⁸ - محمد الطاهر ورتلاني، جولة الشباب المؤتمر الإسلامي الجزائري بعمالة قسنطينة، جريدة البصائر العدد 171، السلسلة الأولى، 5 جمادى الأولى 1338/ 23 جوان 1939.

عن رغائب النفس وحفظها في زيارة هذا المكان الذي يعدّ لأكثر من اعتبار من الأماكن الهامة وذات القيمة الروحية أو المعنوية.

ومن الأمثلة التي نسوقها في هذا المقام، قول الرحّالة فرحات الدراجي في استهلال رحلته إلى تلمسان: "هي مدينة تلمسان التي تعد مفخرة من مفاخر تاريخ الجزائر ومآثرة من مآثره الخالدة فهي أشهر مدن القطر الجزائري وأقواها أثرا في تاريخه السياسي والأدبي، والعلمي. فإذا فاخرت عواصم الشمال الإفريقي بما أنجبت من علماء وأدباء ومفكرين وبما انتصب فيها من دول وملوك وبأنها كانت كعبة طلاب العلوم والمعارف تشد إليها الرحال من كل صوب - رفعت تلمسان رأسها عاليا من بين هذه العواصم"⁵³⁹، ومثل ذلك نجد في قول محمد العلمي: "طالما اشتاقت الروح للسفر إلى مدينة قسنطينة الحسنة لزيارة الأحباب والتعرف بأدبائها الفخام وعلمائها الأعلام والتفصح في رياضها الغناء ورؤية تلك المناظر العجيبة والآثار العتيقة فإن تساعدني الأقدار ببلوغ تلك الأمانة فإن الأمور مرتبهة إلى أوقاتها وبقيت مرارة الشوق تنمو كلما هب عليها نسيم الغرام تزداد تأججا إلى أن يسر الله ذلك بواسطة النابغ العبقري أخي الروحي ومحبي المخلص السيد مامي إسماعيل ابن عبيد القسنطيني"⁵⁴⁰.

وكما كانت هذه البؤر المكانية تخصّ مدن البلاد داخليا، فقد كانت الخارجية منها تعمّ البلاد المزارة في الغالب ولا تخصّ مدينة بعينها إلا في حالات نادرة، كمدينة فاس أو باريس - مثلا -. ومن ذلك ما نجد في استهلال عبد الحفيظ الهاشمي في رحلته إلى المغرب، يقول: "كثيرا ما كان يختلج بضميرنا القيام برحلة نحو القطر الشقيق العزيز قطر المغرب وكثيرا ما تهزنا عوامل الأشواق إلى أبرز هذا القصد الذي يراد منه مشاهدة أحوال تلك البلاد الكريمة التي ازدهرت بأنواع الكمالات العرفانية وطالما هممت بامتطاء سهوة التجوال نحو هذا القطر الإفريقي الزاهر فتعرض دوني الشواغل الإدارية المحيطة بي من كل جانب وبالرغم من تراكمها وملازمتها لي ملازمة الظل فإني لم أياس من قيام هذه الأمانة إلى أن أتاح الله ذلك كفرصة سانحة فانتهزناها شاكرين سخاءه بما كفانا مثله ونرجوه"⁵⁴¹. والمثال نفسه ينطبق على قول الأمين العمودي خلال رحلته إلى تونس في قوله: "ما كان أعظم اشتياقي إلى تونس! ما كان أشد رغبتني في زيارتي تلك المدينة الزاهرة المدينة بشهرتها العالمية لكونها سياسية للمملكة التونسية وقاعدة دينية وعلمية

⁵³⁹ - فرحات الدراجي، من هنا وهناك، جريدة البصائر العدد 84، السنة الثانية، السلسلة الثانية، الاثنين 24 شعبان 1368، الموافق لـ 20 جوان 1949.

⁵⁴⁰ - محمد العلمي، الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، العدد 768، الاثنين 29 جويلية 1929. الموافق لـ 21 صفر 1348 هـ.

⁵⁴¹ - عبد الحفيظ الهاشمي، رحلة للمغرب والأندلس، جريدة النجاح، السنة الرابعة عشر، العدد: 1364 - الأربعاء 3 جمادى الثانية 1351 الموافق 10/5/1932.

لما يسمى في اصطلاح الجغرافيين بإفريقيا الشمالية وذلك باتفاق عامة وخاصة ساكني هاته الأصقاع.

تونس! كنا نسمع في عهد الصبا أنها أم المحاسن والغرائب على اختلاف فنونها وصنوفها وأن ما يوجد بها يوجد فقط في الأماكن التي توجد إلا في عالم الخيال!
تونس! هي التي تضرب بها الأمثال في جميع ما ينسب إلى العلوم والأخلاق والتمدن والحضارة⁵⁴².

ب. ي. الاستهلال الانطباعي

الانطباع القَبلي الذي يسبق الحديث عن المكان المزار بعد التجربة الفعلية لعملية السفر، نمط آخر في الأسلوب وصيغة مميّزة من صيغ الاستهلال التي تشترك فيه بالصيغة التعيينية -المشار إليها سابقا-، بينما يكمن الاختلاف أن هذه الأخيرة تحيل الكلام عن المكان المزار من حيث الرغبة على شدّ الرحال إلى هذه الأمكنة ومعاناة البؤر الحميمة الجميلة، بينما الصيغ الانطباعية تخصّ الحديث عن المكان في ذاته وتعلّق عليه بما هو، وما يحتويه من جمال، أو من قداسة، أو تاريخ وحضارة. ومن الأمثلة الدالة على ذلك في خطاب الرحلة الجزائري الحديث -مثالا لا حصرا-، نجد في قول محمد الغسيري: "زرت في الأيام الأخيرة مدينة تونس كما زرت بعض مدنها الوسطى والساحلية، ورأيت فيها من مظاهر الحياة، ما جعلني أومن بأحقية رغائب أمة لا بد وأن تحققها الأيام لها عاجلا إذا هي والت الكفاح، وجدت في البناء والترميم، وتناسى رجالها رغائبهم الشخصية، وذابوا في الشعبية العامة، وعلى رجال الحواضر ياخوانهم بالبوادي"⁵⁴³. كما نجد ذلك فوّاحا عند محمد الزاهي الميلي حينما استهل حديث رحلته من باريس إلى قسنطينة بقوله: "باريس كعبة رجال العلوم والآداب والفنون؛ باريس ملهى السواح ومرتع شهواتهم الثائرة الجامحة، باريس سوق التجارة ذات الأرباح الطائلة الفاحشة.. الكلام على باريس طويل جدا بقدر طولها وعرضها ورفعتها وروعيتها واتساعها اتساعا فاحشا يجعل زائرها زيارة مزاحمة بالأشغال المتجددة المسئول عنها لدى ضميره بترك دراسة نواحيها الاجتماعية والأخلاقية والأدبية والفنية دراسة كافية متصلة بالنفس اتصالا مباشرا محلاة بجلائل الصفات والدلائل والشواهد ولو إلى حين"⁵⁴⁴.

⁵⁴² - محمد الأمين العمودي، شهر في تونس، مجلة الشهاب العدد 38، السنة الثانية، الخميس 5 محرم 1345 هـ الموافق لـ 15-07-1926.

⁵⁴³ - محمد الغسيري، في تونس الخضراء، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، العدد 76. الاثنين 20 جمادي الثانية 1368/18 أبريل 1949.

⁵⁴⁴ - محمد الزاهي الميلي، أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، جريدة البصائر، السلسلة الأولى، العدد 124. الجمعة 1 جمادي الثانية 1357/29 جويلية 1938

2. 1. البناء السردي للرحلة الجزائرية الحديثة

1. 2. 1. البنية الخارجية

1. 1. 2. 1. البنية النمطية:

تقوم العملية السردية في الخطاب الرحلي على تحويل الفعل إلى خطاب، وما دام الفعل هو إنجاز تام إذ يتحقق عبر مسار تؤدي فيه مهمة -مادية أو معنوية- فخلاصتها تشكل عملية يمكنها أن تصاغ حكاية، وإذا تم لها ذلك، فقد أنجزت خطابها أو ما يعبر عنه بالبنية السردية، ومن ثم فإن "تكون النص يستلزم حركتين: حركة الفعل المنتهية، وحركة التحويل والانجاز المفتوحة في مجال الإبداع"⁵⁴⁵ فعملية التحويل من الواقع إلى التخيل تتم عبر معالم الواقع، هذا الواقع هو الذي يفرض شروطه بتأطير النص الرحلي وفق مرجعيته المستمدة من الواقع ذاته، "ولا شك أن خطاب الحقيقة الذي يقود الرحلة في رحلته، يخضع للهاجس المعرفي، بهدف التعريف بالأمكنة وتسقط الأخبار، إلى الحد الذي يصبح فيه الهاجس المعرفي، القضية المركزية في الرحلة، قبل تقديم حكاية الرحلة ذاتها"⁵⁴⁶ ومن هنا يتحدد اندراج الرحلة كبنية واقعية حتى إذا ما سُردت أبقّت على عناصرها المعرفية اعتمادا على عناصر تكوينية من أشكال تعبيرية وأسلوبية، بإطار سردي في مقابل المبدع (الرحال) الذي سوف يشحن الموضوع على قدر خاصيته الإبداعية، حيث إن "الرحال المتميز الذي يجيد وصف رحلته، سوف يحقق كافة العناصر الفنية التي تكفل تماسكها، طالما وازن -بدقة- بين أحداث الرحلة وشخصه؛ فوحدة الحدث -وتدرجه ومنطقيته- مرتبطة بشخص الرحال وواقعية الرحلة.⁵⁴⁷ التي تتشكل سرديا بمعزل عن العتبات التي أطرت لموضوعها، وهيأت قارئها، من دون أن نهمّل أو نتغاضى عن الدور الهام الذي أسسته هذه العتبات، فهي باعتبارها "علامات ومفاتيح.. فهي جمل سردية متعلقة أساسا بالبنية الدلالية للمتن، تؤسس لمعانيه وتبحث فيها، وهي أيضا مرآة أو مرايا ثلاث متجاوزة توجه المتلقي وتقوده إلى خيالات الواقع"⁵⁴⁸. وإذا ما استثنينا هذه العتبات في حديثنا عن البنية السردية فإننا دائما نؤكد على المرجعية الحقيقية للنص الرحلي، والمسار الذي أتاحتها هذه العتبات.

إن سبيل الاهتمام إلى البنية المرجعية للرحلة هو حديثنا عن البنية النمطية، أي السائدة في عُرف أدبيات الرحلة التي أصبحت عرفا تقليديا في تاريخ الأدب العربي عموما، "وهي تلك البنية التي تتبع نمطا معتادا قريبا من صورة الرحلة الواقعية، ويكون الزمان والمكان -فيه- منسقين مرتبين -حسب واقع

⁵⁴⁵ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 87.

⁵⁴⁶ - أدبية الرحلة، مرجع سابق، ص 42.

⁵⁴⁷ - الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 69.

⁵⁴⁸ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 170.

الرحلة⁵⁴⁹ ومن ثم ترتب بنية النص الرحلي وفق ترتيب فعل السفر، فتوالي البنية الفعلية التي تقوم على الذهاب والإياب هي العملية نفسها التي يعيدها فعل الكتابة -سرديتها- التي تستمد روحها وخطابها من المشاهد والصور المتقطعة عبر هذا المسار الذي يفتح فضاءً كبيراً ومسهباً في الذهاب ويقلص منه أثناء العودة، وهي قاعدة عرفية متميزة "فالأول يكون مسهما وتفصيلاً، والثاني مختصراً وسريعاً، درءاً لأي تكرار؛ لا يروي فيه إلا ما يكمل الأول"⁵⁵⁰ وهذا ما دأب عليه معظم الرحّالين عبر الأزمان، وأصبح نمطاً متواتراً عبر الحقب والأجيال.

أ . رحلة الذهاب:

إن بداية الانطلاق المستوجب لتهيئ السفر ورمي أول خطوة هو بداية الحكاية حتى بلوغها مكان الوصول، وهي العملية السردية الأولى المعروفة بفعل الذهاب، كما تقابلها رحلة الذهاب لأن "رحلة الذهاب تبدأ من لدن التفكير في الرحلة والإعداد لها، ثم التحرك الفعلي، حتى الوصول إلى المنطقة هدف الرحلة وغايتها"⁵⁵¹ وهي المرحلة الهامة من جملة السرد باعتبارها المحكّ الحقيقي لامتحان الرحّالة في استنطاق مكنونه، والإفصاح عن ذاته ومرجعياته، فالرحّالة في هذه المرحلة يكون متلهّفاً للإخبار عما بدا له من مستجدّ الطريق، لأن هذه الوحدة تتصف "بكثرة تفاصيلها، وسداجة تجاربها، لأن الرحال يكون في حالة تشبه حالة انعدام الوزن، كما أن نطاق معلوماته واكتشافاته يكون محدوداً"⁵⁵² ويمكننا اعتبار هذه المرحلة، بأنها المؤسسة لشخصية الرحّالة، إذا اعتبرنا الاستهلال تمهيداً لهويته وهوايته، لأنها تعتبر مرحلة اكتشاف ذاته من خلال تجربته التي يمتحن فيها، ويقدر ما تفصح عن شخصية الرحّالة فهي محطة أساسية لفعل القراءة، وتفاعل القارئ، الذي يشكل الركن الضروري في العملية السردية. فموضوع هذه المرحلة يشكل "وحدة ممهّدة للوحدة الأساس، ومهيئةً لذهن القارئ، ومثيرة لأسئلة تحتاج إجابة، كما قد تكتنفها بعض الأخطار التي تجعل مصير الرحال مهدداً. وبذلك يكون القارئ قد اندمج مع أحداث الرحلة، وأخذ ذهنه ينشط، استعداداً للوحدة الأساس"⁵⁵³، وفي كل الأحوال، تعد الرحلة كتجربة فريدة ليست متشابهة ولو تشابه الفعل وتكررت الشخصيات، وذلك راجع لتعدد واختلاف المعطيات في كل مرة، واختلاف الأحداث وتنوعها، وظروف الرحالين وأمزجتهم، فالرحلة بذلك تعدّ ضرباً من ضروب النسبيّ لمجهرات متعدّدة، الذي لا يدري الرحال ما

⁵⁴⁹ - الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 71.

⁵⁵⁰ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 144.

⁵⁵¹ - الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 72.

⁵⁵² - المرجع نفسه، ص 72.

⁵⁵³ - نفسه، ص 72.

يصبه أو ينتابه في رحلته، وبالتالي تعدّ كل تجربة رحلية فريدة ومعزولة عن أيّة تجربة أخرى، مما تمتاز به كل تجربة من خلق روح متجدّدة، بهذا يكون المضمون المتجدّد في حاجة لأشكال جديدة تواكبه، لذا كان تجدّد المضمون مقرونا -دوما- بتجدّد الشكل، حتى إنه ليتمكن القول بأن للرحلة أشكالا بعدد نصوصها. وفي هذا التوجّه يتفق أدب الرحلة مع الرأي النقدي الذي يعترف بأن "كل تشبث متمزمت بمنهج فني محدّد -أيا كان هذا المنهج- يتناقض مع مهمة خلق تركيب جديد يستفيد بنتائج آلاف السنين من التطور الإنساني، وعرض المحتوى الجديد في أشكال جديدة"⁵⁵⁴.

ب . رحلة العودة:

يعد فعل العودة من برنامج الرحالة الذي يتحدد منه الحكم على رحلته، وفق ذلك تكون الرحلة قد انشطرت شطرين رحلة الذهاب السالف الذكر، ورحلة العودة التي تأتي بعد قضاء الغرض الأساس من الرحلة، فيكون الرحالة بذلك قد أجز مهمته وعوّل على الرجوع إلى نقطة البداية، أو إلى موطنه الأصلي. إن فعل العودة يختلف عن فعل الذهاب وتلك حالة نفسية عند الرحالة (الإنسان) الذي يكون قد خاض التجربة -السفرية- وحنّ إلى أهله ووطنه، وربما حالات تستدعي منه تلك الحالة من الاسترخاء والكمون، وهي تدور افتراضا في طبيعة الإنسان إلى الاستيحاش فيكون فكره مرتبطا بأهله، أو ربما لقضايا خلفها وراءه، أو لزاد قد نفذ معينه، فتكون رحلة العودة سريعة غير متأنية كالتّي خاضها في الذهاب، كما أنّها قد تكون طريق العودة هي طريق الذهاب نفسه، فلا يرغب في تكرار حديث قد سلف "إذا تم ذلك كان من المبرر أن تبدأ رحلة العودة، وللرحال أن يصفها -إذا كانت في أماكن مختلفة وبين أناس مختلفين عن أولئك الذين رأهم في رحلة الذهاب، وله أن يختصرها -لا أن يتجاهلها- إذا كانت مكررة، أو أن يضع في اعتباره -أثناء التخطيط المبدئي- توزيعا متوازيا لما شاهده بين رحلة الذهاب ورحلة العودة"⁵⁵⁵.

ومن هذا العرض، نعتبر البنية السردية النمطية، هي التي نعتدها كمقياس نظري للحكم على المعيار النقدي للخطاب الرحلي باعتبارها البنية المثالية. وإذا ما قمنا بعملية تصنيف الرحلات الجزائرية على هذا الأساس، فإننا سوف نجد من كان تقليديا في ذلك وقد اعتمد بشكل تام على هذا القانون النمطي، بالخصوص رحلات القرن التاسع عشر، وبعض من رحلات القرن العشرين، وأبرزها: رحلة ابن

⁵⁵⁴ - نفسه، ص 59.

⁵⁵⁵ - الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 72.

صيام وابن قاد وبن علي الشريف والعشعاشي في "حجي مع شيخي"⁵⁵⁶ وكلها كانت خلال القرن التاسع عشر، أما رحلات القرن العشرين فمثّلها كل من يدّر الحاج أحمد بن حمو في "التحفة البهية في الرحلة الشرقية" لعربي بن عبد الله المعسكري الموسومة بـ "الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الحجاز" ومحمد الصالح رمضان "سوانح وارتسامات عابر سبيل" وبعزيز بن عمر في "رحلتي إلى البقاع المقدسة" وقد حافظت هذه الرحلات في نصوصها على الطابع النمطي التقليدي دون إخلال.

1. 2. 1. 2. البنى المكسرة للنمط (المحورية / الموضوعية).

لم يشفع عدد النصوص الرحلية الجزائرية ذات البنية النمطية المذكورة بالريادة على الأنماط الأخرى التي تهيمن على المدونة الرحلية ككل، والتي أحدثت بفعل تمردها على المعيار الرحلي خلخلة في توازن النص النمطي دون أن تفقده قيمته الأدبية والسردية. مما منح فرصا جديدة في التعاطي مع نصوص الرحلة التي بإمكانها أن تقوم على أحد أطرافها دون ما حاجة إلى أطراف السرد جملة واحدة، ما دام أنها تحافظ على هيمنة بنيتها السردية. ويكمن اعتبار سلطة هذه الأنماط في الرحلة الجزائرية الحديثة لعدة أسباب منها:

أ- التيار الصحافي:

لقد سيطرت الصحافة على المجال الثقافي الذي عرف رواجاً أكثر مما عرفته المجالات العاملة، وقد شكّل دورها الإعلامي حدثاً بارزاً وقويا في الساحة الثقافية والاجتماعية على السواء، مستغلا ضعف المقروئية إبان هذه الفترة بالإضافة إلى ظروف المجتمع ومتطلبات العصر، ومن خلال هذه السلبية - إن صح القول - تعاطى جل الكتاب والمثقفين مع هذه الوسيلة الثقافية السيارة، فراجت أعمالهم المختلفة وأدلو بأرائهم في شتى أصناف الحياة. ما مكن للرحالين ومن اهتدى بهديهم إلى الكتابة في هذا النوع من الفن (الرحلي)، حتى صار النص الرحلي ينحرف عن نمطه الذي اعتاده طيلة مسيرته الطويلة عبر الزمن، بل بات مستحسنا وأصبح أسلوبا يتماشى مع العصر. وانزوى النص الرحلي في بعض أنماطه المختلفة يحيل في مفهومه إلى شكل المقال، لما نجده في كثير من الكتابات التي تنتشر في الصحف حول هذا النشاط، ولولا تلك الهيمنة لبنية السفر، لما عدّ ولا احتل مكانة في هذا الصنف.

وأدب الرحلة من التجارب الذاتية التي عبرت بقوة عن تفاعلها على مستويي الفعل والكتابة، وحققت حضورا بارزا في طيّات الصحف والجرائد المختلفة. كما يمكن القول إن ما ينتاب المقال من

⁵⁵⁶ - كتاب السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية، جمع الحاج مصطفى العشعاشي، تحقيق وتحرير: مصطفى بن يلس شواش بن الحاج محمد، مطبعة سقال، تلمسان، الجزائر، دت.

تجاذبات في المفاهيم، ينطبق هذا على مفهوم الرحلة الذي يبدو أن استعصاءها على التحديد هو ما خلق لها فجوة عميقة تركت ما كتبت من تجارب حول السفر، محصورا في المقال دون إعطائه الأهمية التي يستحقها وتؤطره وفق خصائصه التي تميزه، وبقي هذا في مفهوم المقال العام، وتخلي عنه المهتمون معتبرين أن النص الرحلي هو شكل تام يقوم على نص منفرد مستقل بموضوعه في قرطاس تقليدي، دون مراعاة شروط العصر الذي تغيرت فيه كثير من المفاهيم.

وما زالت رحلة المقال الصحافي لم تأخذ مكانتها في النقد المعاصر ليس على مستوى فن الرحلة بل على المستوى الأدبي عموما. والمجال الذي يخوضه النص الرحلي الصحافي في عمومه يتخلى عن التقاليد العرفية -النمطية-، ويختزل بعضها. هذا الانحراف يتمثل في إقصائه لرحلة العودة، ويكتفي في استهلاله في ومضة سريعة الكشف عن دافع السفر، ثم يتولى الموضوع مباشرة، مستندا إلى "تحديد محاور بعينها يهتم بها الرحال أين ومتى رحل، وقد تُبنى على أساس رحلة واحدة أو رحلات متعددة متفرقة، وهذه المحاور يحددها شخص الرحال وتخصصه العملي"⁵⁵⁷، بل صار كثير من كتاب الرحلات يعتمد هذا الأسلوب من نزوة الخواطر واستئناس الذات.

ب- تيار المذكرات والسير

تشكل المذكرات نمطا تعبيريا مستحدثا، وقد استفحل كثيرا في الساحة الثقافية الجزائرية، حتى صار عادة ثقافية، ونجد في كثير منها من يتمتع صاحبها بميزة ثقافية تؤهله للكتابة بوعي أدبي وإدراك علمي، وهي الحسنة التي نستشفها عند مطالعة كثير من هذه المذكرات. كما أن هذه الأخيرة تتعدد أشكال التعبير الأدبي فيها وغير الأدبي، ولعل الحظ الذي سوّغت له قضايا هؤلاء الكتاب أنه كانت في حياتهم سفريات متعددة داخليا وخارجيا، وهو ما استغله أصحابه ووقّروه كشكل تعبيرى خصّ به أدب الرحلة بكثير من التفاصيل. -هذه القضية هي ما سنطرقها في حينها أثناء حديثنا عن أنماط الكتابة الرحلية-، وما يهمنا هنا، هو السعي الذي خاض فيه أصحابه للانحراف عن الخط النمطي للرحلة في الكتابة. ومما نجده من تهشيم في حين وبثّر في أحيان لبعض المحطات الرحلية، تختلف من نص لآخر. هذا إذا استثنينا عتبة العنوان الذي يعدّ مقصيا من أول وهلة، فهو إما عنوان فرعي وإما يتضمنه عنوان الكتاب العام، ثم طريق الذهاب والإياب، فسرديا نجد غير متماثلة، وفي كل الحالات لا نجد إلا واحدة من خطي المسير (ذهاب أو عودة).

⁵⁵⁷ - الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 72.

ومثال على ذلك ما يمثله عبد المجيد بولطين في رحلته من بغداد إلى الجزائر، المتضمن في كتابه مذكرات مجاهد من بغداد إلى الجزائر⁵⁵⁸ والكتاب كله رحلة مشوّقة يسرد صاحبها خطّ الإياب سرداً مطوّلاً، مستثنياً خط الذهاب. وعلى الرغم من ذلك فقد كان الرحالة وفياً للتقليد في هذا الفن، من خلال تأكيده على أن البتر ليس في كل الأحوال هو خلخلة تشويهية لبنية للنص الرحلي العامة. ونجد في بعض الحالات من اهتدى إلى هذا الخط، بينما البقية من الأعمال كلّها تشير إلى خط الذهاب ولا يعينها الإياب، وتفصيل هذه القضية في مجاله كما أسلفنا الذكر.

1. 2. 2. البنية الداخلية /المكونات السردية

وهي البنية العامة المؤثثة لسردية الذهاب والإياب، تمرّ هذه البنية العامة عبر محطات سردية مكونة لفعل الكتابة التي تندرج على حواس الرحالة الذي خاض التجربة وتأثر بواقعها وما التقطته حاسة النظر وشاركتها في ذلك حاسة السمع واهتفت به لحواس أخرى مشاركة، وبذلك يتحوّل المكان إلى فضاء، والمرئي إلى عملية إعادة البناء الفكري الذي يصطدم بمرجعياته المحمولة، فتصبح تلك الحواس آليات نقدية، فلا يجتزّ الرحالة فعل السفر وإنما يجوّله عبر الفضاء المركب ثم إلى فعل الكتابة، فيكون المرئي طرفاً والمرجعية طرفاً ثانياً، وآليات النقد عملية وعي، تحوّل ذلك إلى فضاء "الذي أصبح مستودعاً للقيم. والرحالة يهدف، من خلال هذه القيم، إلى وصف المكان وقراءته في آن واحد. إنها رؤية البصيرة قبل رؤية البصر"⁵⁵⁹.

إننا بذلك سوف نتأكد من أن الرحالة هو الإنسان الواعي، الحامل لمرجعية ثقافية وهموم قومية وإيديولوجية، سيقوم بعملية التقاط رحيق المشاهد والأحداث وتوظيفها حسب ما يجعله يتأثر، وبالتالي يصبغ مدونته بألوان من السرد حسب ما يوجد به فعل الرحلة من طغيان على مشاعره. ومن هنا نجد أن مجموعة من العناصر السردية هي التي ستكون مركبة للنص الذي يكون معيارياً، ومن هذه المجموعة المركبة نجد السرد بصفته المحرك الأساس للخطاب، ثم الوصف الركن الثاني في العملية الذي يصبح في أحيان كثيرة مزاحماً للسرد أو متفوقاً عليه، بما أن الرحلة هي عملية وصفية بامتياز، وإلى جانب هذين العنصرين المكونين للعملية السردية نجد الاستطراد كمتكوّن لا غنى عنه في الخطابات الرحلية، باعتبار أن المشاهد والأحداث التي تصادف الرحالة في كل مرّة تحيله على الحديث باقتضاب تارة وبإسهاب كبير

558 - جودي عبد المجيد بولطين، مذكرات مجاهد من بغداد إلى الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007.

559 - أدبية الرحلة، مرجع سابق، ص 46.

أخرى، وذلك يرجع لعوامل نفسية مثل الحنين والاغتراب والتأمل⁵⁶⁰ و(..)، أو من ناحية اختصاص الرحالة الذي سوف يستغرق في موضوع يشكل له مرجعا دينيا أو تاريخيا -مثلا-. كما أن الرحلة من جهة، إضافة إلى بنية السرد المهجّنة بالوصف، يعتمد هذا الخطاب إلى ضرورة التسجيل الوثائقي كمكون أساس في الرحلة حسب الظروف والمعطيات المواتية. وبذلك يعتبر النص الرحلي بنية غير قارة المكوّنات -ما عدا الثوابت من سرد ووصف- فهو لا يملك سلطة مركزية على نفسه، إلا ما جادت به بؤرة المسير، ومن ثم يمكننا أن نعتبر بأن سلطان الحكيم في الخطاب الرحلي مرهون بمجهول مخبأ في طيات مسلك هذا المسير، حيث "يشكّل مشهد المسير بؤرة النص الرحلي، ونسيج الحكيم وجامعه، لأن السارد يصف ويروي انطلاقا من عين متحركة تسير من نقطة إلى أخرى، من المعلوم إلى المجهول.⁵⁶¹ ومن هنا يمكننا القول -أيضا- إن الرحلة سوف يكون متواجدا في مغامرة مكاشفة مع الذات، أو في مواجهة الذات وما تحمله من مرجيات ثقافية وإيديولوجيا إلى الواقع وما يهيئه من معالم عبر مشاهدته حتى تستمد هذه التجربة نتائجها من اصطدام هذه الذات المحمّلة بالواقع وما هو محبول به من توقّعات.

وخلاصة كل هذا، أنه لا يمكن الحديث عن هذه المكونات إلا عبر عاكس حقيقي يتوقف عليه كل شيء يرتبط بعملية إنتاج النص الرحلي ألا وهو المشهد، حيث إن المشهد وحده من يترجم عملية المقارنة بين مرجعية الرحالة والواقع الجديد المعيش "فعادة ما يتضمن هذا المشهد معظم أحداث الرحلة بما فيها معاناة الرحيل والمشاهدات، والمروي عن طريق السماع والحوار. ذلك أنه يمكن وصف هذه اللحظة بأنها مشهد العين المتحركة المرفودة برؤى وتخيّلات ترسم فضاءات الوصول، تسند بالدهشة، فتجيء سرود وأوصاف هذا المشهد مبطنّة بالأحلام وبالآحكام التي تتكئ على المقارنة بين معطيات الراوي والواقع المرئي والمسموع، فتتبدى مجموعة من العناصر التي تتحكم في رؤية الراوي للأشياء كلها"⁵⁶² وهو ما يصادفنا حقيقة في تنوع النصوص شكلا ومضمونا، حتى لا يمكن معه الحكم بأي حال على النص الرحلي كونه قصير الحجم أو طويله، أو رديء الأسلوب أو جميله وقويه، أو يحمل أشكالا تعبيرية متعدّدة فهذا يتخذها سيرة ذاتية وآخر مذكرات وثالث قصة أو شعرا وهكذا. أو تتداخل هذه المكونات -وغالبا ما تكون- فتشكل نصا هجينا، وهو المتعارف عليه في تعريفات

⁵⁶⁰ - وهي مكونات استطرادية ذات أبعاد إنسانية بما كان يتمتع به الجزائري آنذاك، من ضيق استعماري، وروح وطنية، وفلسفة دينية وتاريخية، متمسك بها إلى حد القداسة، وهو الأمر الذي جعل من عملية الاستطرد خلفية كبيرة في مواجهة المرئي المرجعي، وبمواجهة طغيان الذاكرة الحية والمسندة إلى التاريخ الذي يميز العرب والمسلمين.

⁵⁶¹ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 144.

⁵⁶² - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 144.

الرحلة، وبالتالي "تستمد الرحلة سرديتها من عناصرها التكوينية ومن تلاقيها مع نصوص أخرى"⁵⁶³. وكل هذا وهما يدور حول الرحلة الجزائرية التي استندت إلى هذه التفاصيل، باعتبارها نموذجاً من الرحلة العربية التي تحمل الخصائص ذاتها - في الغالب -، مع مراعاة الظروف والأحداث والمتغيرات المحلية التي تميز بها كل مجتمع.

أنماط الكتابة ومستويات الرحلة والرحالة.

ليس هناك من شك في أن الأدب الجزائري الحديث معقد البحث فيه، وليس له من خصوصية الأدب العربي الحديث -عموماً- إلا نسب متفاوتة. ومن أعقد الأسباب التي تضافرت على تعقيده، الظروف التي عاشتها الجزائر في فترة غير وجيزة، لحّصت كل معاني المعاناة الطويلة، وخلّفت الجهل والتهويل والأمراض والقساوة وغيرها من الأمراض الفتاكة، في حين عرف الأدب العربي أنواعاً من الحرية والتنفيس، ذلك أن سرطان العصر -الاستعمار- انكب على زاوية واحدة من جسد الأمة العربية، ألا وهي "الجزائر" ونقّس عن باقي أعضائها. كما أنه من العضلات التي أسهمت في تعقيد الأدب الجزائري الحديث، طريقة التعامل النقدي مع النصوص الأدبية التي ضيّقها المشاركة الذين كانوا يملكون الآليات وإجراءات النقد الحديث، في تناول الموضوعات، ثم حصرها في مساحات ضيقة، ووضعوا غشاوة على التراث المغاربي -عموماً- والجزائري بشكل خاص، وتصنيفهم لهذا السبات الذي لم نستفق منه إلى اليوم، في ظل العامل الثالث الذي يتمثل في عمل الباحثين الجزائريين الذين لم يحققوا المرجو منهم لنفض الغبار وإسعاف ما هو تحت الأنقاض وإبرازه للعالمين. هذا هو حال الأدب الجزائري الذي نتناول زاوية منه بتحفظ شديد.

أما بالنسبة لأدب الرحلة، فقد تشيّد عبر مسار زمني طويل، ومساحات مكانية مختلفة بفعل فريق كبير من الكتّاب متعدّدي المشارب، ومختلفي التوجهات، خالقا بهذا التنوّع نمطاً سليماً من أنماط الحياة الجديدة -كما أسلفنا-، التي يفرضها فعل الكتابة الرحلية التي عرفها العصر الحديث بكثير من الخلق الجديد، الذي لم تعد فيه الكتابة الثرية حكراً على طائفة من أرباب الأقلام، وإنما صار "عدداً من الكتاب لا سبيل إلى حصره، كان حريصاً على أن يضيف إلى إسهاماته الأخرى في ميدان الأدب، إسهاماً آخر في أدب الرحلة"⁵⁶⁴ حيث سمحت له ضوابط العملية الإبداعية في هذا الشأن بالقفز والنط، من مستوى إلى آخر ومن موضوع إلى غيره، ومن مجال إلى مجال، حتى لا تضبطه قيود، ولا يرعوي إلى مؤسّسة من مؤسّسات المعرفة، وقد حقّق بهذا ازدهاراً "وشهد تطورا في الموضوع، والرؤية،

⁵⁶³ - المرجع نفسه، ص 168.

⁵⁶⁴ - سيد حامد النساخ، مشوار كتب الرحلة قديماً وحديثاً، مكتبة غريب، القاهرة، دت، ص 15.

والهدف منه، واللغة التي تكتب بها، والشكل الفني الذي يقدم من خلاله، إذ إن الملاحظ أن عددا كبيرا جدا من الكتاب المعاصرين، يحرصون بين لحظة وأخرى، على أن يدونوا رحلاتهم ومشاهداتهم ونقلاتهم هنا وهناك. وذلك في كتب مستقلة لها طابعها الخاص⁵⁶⁵ إذ يعد هذا من المواضيع العامة على مستوى كل الأقطار وليس مقتصرًا على الكتاب الجزائريين فحسب.

وإذا كانت هذه الفضفاضية في سعة ثوب الرحلة، فهو يحسب لها بالمقياس الإيجابي لا السلبي، بفعل التنوع الذي يخلقه، وتقريبه بين جميع مستويات المعرفة، وجمعه بين كثير من ميادينها. كما أنه يخلق "سجلا" يحتفي بكثير من القضايا التي لا يستوعبها العمل الأدبي المحض، ولا العمل العلمي المحض في مجالات كل العلوم الإنسانية. كما يبيّن من ناحية -هذا التنوع-، مستويات الكتاب، وتصنيفهم، وفق ضروبهم في الحياة ودروبهم الإيديولوجية، ويعطى لمحة بصيرة حول مختلف الأشكال الفكرية والسياسية والأدبية، والدينية بشتى طوائفها. ويعزّز من أمر الأمة في تمسكها بقضاياها الأساسية، ويظهر مشارها ومستواها في ميزان المقارنة بينها وبين الأمم الأخرى وفق مرجعيات مختلفة التي يخلقها تنوع الرحالين. ومن هذه العوامل يمكننا حصر مستويات الرحالين الجزائريين في العصر الحديث حسب الآتي:

2. 1 . الرحالون الأدباء.

من البديهي أن الحديث عن أدب الرحلة سوف يحيلنا إلى الأديب وأدواته، فهو المؤهل الأسمى لنقل تجربة السفر إلى فعل كتابة (أو فعل السفر إلى خطاب رحلي)، ما دام أن أهم موضوعات الرحلة هي التشويق، والإخبار عن حياة الناس، ونقل ما تشهده الأمم من تميّز، ولأن "الرحالة لا يبصر التفاصيل والمشاهدات إبصاراً آلياً ولا يراها رؤية الألفة والعادة وإنما يعمل فيها إبصاراً ثقافياً ورؤية الرأي"⁵⁶⁶ وهو الشيء الذي يفتقر إليه الكتاب العاديون، الذين لا يهتمهم إلا نقل المعلومة، بينما الأديب الرحالة فهو الذي "ينقل الصور والمشاهد على نحو يحقّق التأثير الوجداني، أو ينقل الأحاسيس والعواطف التي يجدها في نفسه من يجتلي تلك المشاهد والآثار والصور. وهذا البعد هو الذي يملأ النفس متعة وتأثيراً، ويجعل للرحلة سمة أدبية بدلا من أن تقف عند حد التسجيل والتدوين والجمود"⁵⁶⁷ وهي السمة الأرقى في الكتابة الرحلية.

إن طائفة الأدباء الجزائريين الذين عايشوا واقع الاستعمار ومرارته نجدها تتميز بكثير من الخصوصية، حيث نجد منها المقاوم للاستعمار المشجّب له، كما نجد المنحاز له الداعي بدعوته، المنتكّر

⁵⁶⁵ - المرجع نفسه، ص13.

⁵⁶⁶ - أدب الرحلة بين القصة الصحفية وأدب المكان تحسین يقين - فلسطين ندوة الرباط الثانية 2009.

⁵⁶⁷ - مشوار كتب الرحلة قديما وحديث، مرجع سابق، ص6-7.

لوطنه ولأتمته، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد الخاصية الأدبية التي تميّز فيها جل الأدباء، وهي تجريب وممارسة جميع فنون القول، من شعر ومن نثر بكل أشكاله: مقال، وخطابة، ورسالة، وقصة ورحلة وغيرها، وهم الذين احتضنتهم مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى.

تفرز الساحة الأدبية الجزائرية -هذه- جملة من الرّحّالين الذين باشرُوا الكتابة بمستويات أدبية متباينة، حيث نجد خاصية عند أدباء القرن التاسع عشر، غير التي نجدها عند أدباء القرن العشرين. ومن هذه الخصائص، أن الأدب الجزائري الحديث سلك مسلكا حسب درجة الوعي التي كان يتمتع بها المثقف في هذه المرحلة، وهي تنقسم قسمين: قسم منها ينتهي بانتهاء الحرب الكونية الأولى، لم يشهد⁵⁶⁸ فيها للوطنيين أن برزت أقلامهم في هذا الفن باستثناء "الأمير عبد القادر" الذي تعد رحلته أول رحلة جزائرية في العصر الحديث. وما عداها كانت رحلات للمماليك الذين كانوا يخدمون الاستعمار بهذه الرحلات خاصة خلال القرن التاسع عشر، بعد أن فتحت قناة النشر الوحيدة، التي وظفها لهم المستعمر والمتمثلة في جريدة "المبشر" سنة 1848. وهم على التوالي سليمان ابن الصيام، ومحمد السعيد بن علي الشريف، وأحمد ولد قادم، ومحمد بن الشيخ الفقون القسنطيني، ثم يليهم الشرشالي برحلته⁵⁶⁹ سنة 1916، ورحلة الشيخ يدر الحاج أحمد بن حمو "التحفة البهية في الرحلة الشرقية"⁵⁷⁰.

ومع التحوّل الذي عرفته الساحة الفكرية والسياسية في تاريخ الجزائر في هذه المرحلة، إضافة إلى عامل الصحافة الوطنية، نضجت الأقلام وسارت تعبّر عن تجاربها المتنوعة، نجد ثلّة كبيرة من المبدعين الذين أسهموا في نواحي أدبية متعدّدة، وشاركوا في إحياء هذا النوع من الأدب نذكر منهم: محمد البشير الإبراهيمي، ومحمد الأمين العمودي، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد بن العابد الجلاي، ومحمد رضا حوحو، وعطيأوي بوزيد، ومحمد الزاهي الملي، وعبد الرحمان العقون، ومحمد الصالح رمضان، ومنصور الغسيري، ومحمد الهادي السنوسي الزاهري، وعبد المجيد بولطين وغيرهم. هؤلاء الذين كانوا شعراء وكتّابا، مارسوا فعل الكتابة في مقاومة الأعداء بشتى الأشكال التعبيرية، وأبدعوا في الرحلة أيضا، باعتبارها أداة مقاومة كذلك. وقد تنوّعت ملامح الكتابة في هذا الشأن من جمالية إلى تقريرية، أغلبها جرى على صفحات الصحف والجرائد السيّارة، التي تعدّ في حدّ ذاتها سلاحا من أسلحة المقاومة.

⁵⁶⁸ - وهذا الحكم ناتج عن حصيلة الرحلات التي نستفيد منها -في حدود ما توصلنا إليه-، كما يدور في الاعتقاد أن كثير من الرحلات هي في حكم المفقود،

وبعضها منوّه به في بعض المراجع، دون أن تتمكن منها، كرحلات المشرفي العسكري في القرن التاسع عشر، وهي مخطوطات بمكتبات مغربية.

⁵⁶⁹ - رحلة الشرشالي إلى الحجاز والثورة العربية 1916، ضمن كتاب على خطى المسلمين، لأبي القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، ط 1، 2009. من ص 66 إلى ص 135.

⁵⁷⁰ - موجود بالمكتبة الإلكترونية www.eboxeditions.com، والنسخة الورقية بالطبعة الحجرية موجودة بحوزة الأستاذة آل الشيخ من جامعة غرداية، وهي لا ترغب أن يطلع عليها أي أحد إلا بعد نشرها.

وقد تألقت بعض النصوص من هذه الزمرة في تعبيرها عن مكنونات النفس، وعن حسن الأديب في معانقته للطبيعة، وحوار الأفكار، ونقد الذات. وإذا كان بعض الأدباء لم تزق نصوصهم إلى مستوى جمالي كبير، كما هو الشأن بالنسبة لرضا حوحو أو محمد الهادي السنوسي أو عبد المجيد بولطين، الذين نقلوا من خلال رحلاتهم بعض الهموم عبر السكة التقريرية، فإن البعض الآخر قد طفحت نصوصهم بجمالية أكبر، وحسن أوفر، وفكر أنضج، ونعني بذلك ما مثلته رحلات كل من: البشير الإبراهيمي، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد بن العابد الجلالي، وعطياوي بوزيد، ومحمد الزاهي الملي، ومحمد الصالح رمضان، ومنصور الغسيري، وغيرهم.

ومما امتازت به نصوص الأدباء أنها تحمل همّ مجتمعها الطافح بالهموم الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، برؤية فكرية وبعيد فني، استطاع من خلاله هذا الفريق أن يمرر رسائل عديدة، ولعل ما نجده في متخللات نصوصهم جملة من الأنساق كانت سيّدة في هذا العصر. ومن ثم تتجلى لنا رؤية الأديب الاجتماعي المصلح الذي يرى ببصيرة أمراض مجتمعه، فيوقر على قرءاء هذا المجتمع المريض عددا من القضايا التي كانت تشع بالشركيات، والإفراط في المعاصي، أهمها قضية سفور المرأة، والشرك، متمثلا في الاعتقادات الفاسدة. كل ذلك يقدمه الأديب في لغة سهلة في السرد، وقوية في الوصف، لا يجد من عائق في توصيل الفكرة، ولا تكلف في إيراد المعنى، مثل ما نجده في قول السعيد الزاهري في إحدى أوصافه: "وقد رأينا حلقا كثيرة كحلق الذكر، فلما دنونا منها رأينا النساء وهن سافرات وقد جلسن بين الرجال وربما ترامت امرأة في أحضان رجل أجنبي عنها تلاعبه وبلاعبها وتغازله ويغازلها على مرأى ومسمع من الناس"⁵⁷¹ فعلى الرغم من بساطة التعبير فإنه يدل على السهولة في التعامل مع اللغة، كما أنه لا يتوانى إذا ما دعا المقام للتدليل على عناصر مشهدية، تستوقفه أن يجلل ذلك بالرسم البليغ، لحبك صورة المكان المرئي فيقطع منه صورة مؤطرة بشتى العناصر البلاغية، لترسم في ذهن القارئ صورة فوتوغرافية جليّة، مثلما نقف عليه في قوله -أيضا- وهو يصف مشهد الحشد من زوار الوعدة: "وتراءى أمامنا سهل فسيح مترامي الأطراف، ولكنه كان كالبحر العجاج يتلاطم بالمضارب والقباب، والأخبية والخيام، وبالخيل والبغال والحمير، وبهذه الخلائق التي يموج بعضها في بعض، والتي لا يأتي عليها عدّ، ولا يأخذها إحصاء، ذلك هو مكان الزيارة وأولئك هم الزائرون والزائرات"⁵⁷² وهي صورة قائمة على مبدأ الأديب في مناهضة وضع المجتمع المتردي.

⁵⁷¹ - محمد السعيد الزاهري، إلى زيارة سيدي عابد! (أحاديتنا في القطر)، جريدة الصراط السوي العدد الثاني عشر، يوم 16 شعبان 1352هـ/04-12-1933.

⁵⁷² - إلى زيارة سيدي عابد! (أحاديتنا في القطر)، جريدة الصراط السوي، مصدر سابق.

وقد كان كل أديب من هؤلاء الأدباء يتميز ببصمته الخاصة في تمرير رسائله الفنية والموضوعية عبر نصوص الرحلات، تعبر صراحة عن موقفها، وتلمح بلسان حالها عما يجيش في خاطرها، غير مُسرفة في لغتها، ولا في تملقها البلاغي، بينما كانت تعبر عن حسّ الأديب تجاه ما يتمثله الواقع بكل مظاهره، مما يفتح شهية القراءة والتأويل ثم الترجيح من خلال ما تُفصح عنه حواظهم، لعلنا في ذلك نتمثل رحلة محمد الزاهي المليبي ذي الحس الأدبي، والقلم الشعري، يتأثر بالمناظر وينجذب للحواظر، فيثير فيه ذلك شجوناً، يترجمه في أسلوبه الرقيق، الحامل للرومانسية العازفة على أوتار الكلمات، فيقيم نصّاً فيه من الحيوية والشاعرية، وفيه من الرقة والجمال، كالذي ساقه أثناء العتبة الأولى من بداية السفر، حيث تجسّدت عاطفة الرحلة -الإنسان- في إحساسه بلوعة الفراق للمكان الذي استأنس به بعض الوقت، وحنين الوطن الذي غاب عنه هذا الوقت، فكان الخيار صعباً والشعور حزيناً، فجاء الأسلوب إيحائياً فيه بعض العبرات: "فصعدت بين ابتسامة المودعين، ابتسامة مؤثرة تنمّ عمّا في طيّات النفوس الزكية، وحبّات القلوب الطاهرة من الولاء والعطف والتقدير للذين شاركوها أفراحها وأتراحها، وآمالها وآلامها. ساعة شبيهة بالنزع الأخير، توحى إلى القلب والنفس والفؤاد أي الحكمة وشعر الذكريات"⁵⁷³ والإيحاء بادّ يدل على أن الأمر فيه جلال النفس الإنسانية، التي تأبى الفراق، فهو علقم، لأن النفس الزكية تحزن لفراق نسبته الأرحح إلى لا تلاقي؛ ذلك أن الإنسان الحقيقي الذي لا يحمل وزر الماديات هو الذي يتأثر، ولا يبقى في رصيده إلا الذكريات.

والمتتبع لرحلة الزاهي المليبي يجد خطين متوازيين طيلة طول سردية رحلته، فهو يصف جمال المناظر التي مرّ بها بفرنسا، ويمتّع بوصفه في كل ذلك، ثم هو في الوقت نفسه يلجأ إلى معالجة قضية من قضايا المجتمع الجزائري، في أمثلة كثيرة منها أحوال العمال المهاجرين الذين يعانون من قساوة المحيط، ومن شقاوة العمل وبأسه، ذلك من أجل ضمان لقمة سائغة، فلا تتأتى. فقد كانت أحوالهم لا يكشفها إلا هذا الوصف الدقيق "وفيهم ممّونوا "الريكونت" بمنة التجهيز والتحويل إلى مهبط الرؤوس في حالة بئسة نكداء، ذكرتني بحالة إخوانهم في باريس، في ليون، في سانت ايتيان، في كل مكان، وقع نظري على شؤونهم وأحوالهم، جعلتني أذكرهم وأذكرهم في لباسهم الأزرق بوجوه شاحبة كالحدة، وأجسام نحيلة خاوية، وأفكار حائرة تائهة، عقول طائشة مشدوهة، شتتها النظريات العقيمة لمختلف الأحزاب الغريبة التي إذا درستها في مجموعها ألفتها بجانب الإسلام والعروبة في شيء له بال من العداوة والبغضاء التي يأبى طبع الإفريقي نكران الجميل والتبرم والعقوق

573- محمد الزاهي المليبي، أربعون يوماً من باريس إلى قسنطينة، جريدة البصائر، سلسلة الأولى، السنة الثالثة، العدد 125، في 8 جمادى الثانية 1357هـ (5 أوت 1938م).

والخروج عن الدائرة المحددة بأي وسيلة خانقة⁵⁷⁴ فهؤلاء مغبونون من جميع النواحي والأديب لتمكنه من أدبية أسلوبه، خلق جواً رومانسياً إيحائياً مشفقاً على هؤلاء الذين رغم بؤسهم وذنوبهم فهم مستعبدون لتيارات غربية، أخرجتهم من حياض الإسلام والعروبة الذي قد يمنحهم عزة وشخصية، ويظهرهم في أسجادهم المنهكة وعقولهم المشردة، ويذهب عنهم رجسهم هذا.

ومن هؤلاء الأدباء نجد كذلك محمد الصالح رمضان باعتكافه على أسلوب أدبي راق، يتمتع بالمتانة والجمال، شكّل به وصف أوربا حين سافر قاصداً فرصوفياً، انطلاقة من مرسليليا، يبدو فيه أنه كثير الوصف مطنب في الحديث، موحى العبارة، يمنحها جمالية كلما نفخت له روحه؛ كقوله معلقاً على مسار القطار الذي منعهم من رؤية مدينة "جنوة" عن قرب، قائلاً: "تتحاشى ولوج المدن غالباً وإنما تمر على جوانبها باستحياء"⁵⁷⁵ فمجازاته لطيفة تتسرب إلى ذوق المتلقي برفق.

والغسيري واحد من هؤلاء، يعكس أسلوبه في الوصف الحي كثيراً مما كان ينفعل به من مشاعر ودّ وحب إنساني وافتتان بالطبيعة، إضافة إلى ذلك الابتهاج بطبيعة الإنسان المصري وجامعة القاهرة، ومساجدها العامرة ورجالها المتدينين المخلصين. كما يتباين مزاجه الفني في كل ظروف المشهد المؤثر، فيخلق أسلوباً رومانسياً رقيقاً تارة إلى جزلٍ تارة أخرى، والوصف أبرز ما يتمثل في هذا الضرب.

وإذا كان هؤلاء الأدباء يتميزون بنبضات فنية منتظمة، فإننا نجد بين بن العابد الجلاي وعثمان سعدي، خلاف ذلك، لما يمثله كل واحد منهما، حيث نجد الأول يتصرف في أسلوبه وطريقة عرضه ببراعة وسخرية ودعابة، فإن الأخير لا تجد له منفذاً للدعابة وليس في نصّه سوى الشعور بالحزن والأسى على مفارقة وطنه، تشعر بملامح الاغتراب من أول النص إلى آخره، ومع ذلك نشعر بأننا أمام أديب يحسن توجيه الرسائل، ويتحدث بلغة سهلة وجذابة، كقوله: "نفخ الملاح في بوقه، أن قد حان الرحيل، وفارقت الباخرة قلاعها، وراحت تشق طريقها على صفحة البحر الهادئ، تاركة من ورائها أمواجاً متلاطمة، وزبداً هائجاً وعلى ظهرها وقف جم غفير، خليط من الأجناس متجهين نحو الشاطئ"⁵⁷⁶ في حين نجد العكس عند بن العابد الجلاي الذي كان استثناءً من بين الرحّالين الجزائريين انطلاقة من عنايته بجمالية اللغة وشاعريتها وإخضاعها على تجسيد الواقع فنياً، حتى يغدو نصّه ذا وظيفة اجتماعية في حدود إشارات طفيفة عن وضع المرأة الجزائرية من خلال المرأة الأجنبية المتحررة والمتحضرة، وطائفة من المواضيع أبرزها جهل (الهنا) في مقابل علم وتحضر (الهناك/ الآخر).

574- جريدة البصائر، سلسلة الأولى، السنة الثالثة، العدد 130، في الجمعة 14 رجب 1357 الموافق لـ 9 سبتمبر 1938م.

575- محمد الصالح رمضان، سوانح وارتسامات عابر سبيل، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2004، ص 57.

576- عثمان سعدي، وطني، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السادسة، العدد 251، في 12 ربيع الثاني 1373 هـ 17 ديسمبر 1953م.

وتظهر ملامح أدب "الجلالي" جليّة في تفاصيل كثيرة من رحلته، هذه، فهو يخوض في الكلام بتهمك وبفكاهة كبيرة، يعمد إلى الترفيه، ويتوخى الخوض في تفاصيل هذه الرحلة، لأنه كما قال: "على أن سفر مثلي إلى عواصم العلم ومجالات الحرية، ومسارح اللهو والخلاعة - كباريس وفيشي - له قيمته من الوجهة الأدبية. إذا كان الكاتب أديبا فنانا يتقن تصوير المناظر التي مرت على حسه. ويجيد العرض. على أنه ليس من طبيعة مقال صغير كهذا يكتب إلى مجلة شهرية. وحيدة في قطرها"⁵⁷⁷ ومما يميّز أدب "الجلالي" أنه ذكي في أسلوبه، خفيف في روحه، لا يشعر قارئه بالملل، ولعل ذكاءه هو ما يجعل من موضوعه يُظهر سداحة شخصه، وهي القوة الكامنة في ثوبه المشع بقوة الإيحاء، كالدافع لقوله: "وقد كانت ساعتنا هناك ساعة سكوت، انشغل فيها كل بما يهمه؛ فقد كان رفيقي منهما في كتابة مذكراته، والسيدة قرينته تطالع رواية بغاية الاهتمام حسبما يبدو من تأثرها؛ بالابتسام تارة وبالانقباض أخرى، وكنت أنا بين الاثنين غارقا في بحر من التأملات والخواطر. مغمورا بتيار من ذلك الشعور الغالط حتى كشفه عني خاطر فجائي أتى من قبل السيدة، جذبني عنه إلى ساحل الحقيقة وكثيرا ما يغص الإنسان بالحقيقة، خصوصا إذا كان في سياحة مثل سياحتي مقصودة للتنزه وإشباع النفس بشتى المتع واللذائذ.⁵⁷⁸ والملاحظ هنا أن الكاتب قد وظّف علامات إشارية عميقة لإدراكه ذلك الألم الخطير الذي نفخه الاستعمار في الأمة من روحه المسمومة، حتى بات الجهل معششا في أنحاء المجتمع جميعه، وقد بدأها للتمثيل بالمرأة التي تعبر عن الضعف الفطري، بينما هي تمثل قوّة في المجتمع القوي، لذلك نجد على الزاوية التي باستطاعتها أن تردّ للمرأة اعتبارها، لأنها في هذه الحال ستشكل قوة المجتمع وتحضره، مشفقا في الآن نفسه على حال المرأة الجزائرية البائسة التي لا تملك من أمرها إلا الامتثال للظروف، ما جعله يدلي بهذا التصريح: "ففي هذه الحال بدا لي وجه المقارن بين امرأتنا الأمية الجاهلة المستعبدة، وبين امرأتهم القارئة العالمية السيدة، وعلمت في الحال علة انحطاطنا وسبب تأخرنا عن مجارة غيرنا؛ آباء وأمّهات جهال يقذفون للتعاسة بأبناء وبنات جهال"⁵⁷⁹ ولعل لبّ الموضوع هو الذي جعل النص يحمل شحنات أدبية رفيعة، من حيث تحميل المسؤولية لغير أهلها.

وبعد هذا العرض، نأتي إلى خصوصيات كتّاب الجزائر في هذه المرحلة على أنهم أدباء، طبّعهم على ذلك تكوينهم التقليدي - اللغوي والقرآني والحفظ - الذي يعدّ من أبرز الآليات المساعدة على

577- محمد ابن العابد الجلالي، في باريس - بعد الملاقاة -، مجلة الشهاب، الجزء العاشر المجلد الحادي عشر، غرة شوال 1354هـ/جانفي - 1936.

578 - باريس - بعد الملاقاة - مصدر سابق.

579 - باريس - بعد الملاقاة - مصدر سابق.

التمكين الأدبي، لذلك نجد أن نصوصهم تترين من حين لآخر بالجمال الفني، إضافة إلى تحديهم للاستعمار وإلى الفراغ الثقافي. تؤدي مواضيعها في أحيان كثيرة بنسق عالٍ من الجمال في الأسلوب، المتجلي في تناسق العبارات، وسلامة الألفاظ من اللفظ والبعد عن الركافة.

وتقوم الرحلة الجزائرية الحديثة في عرضها على الأسلوب المباشر المرسل في عمومها، تسيطر عليه الدوافع التي كانت مؤثرا مباشرا، إذ لا يلجأ الكاتب إلى الاصطناع أو التصنع في الأسلوب الذي يكاد المؤلف ذهنه لإنشاء الجمل والعبارات المزخرفة بأنواع المحسنات البديعية وهو يريد أن يمرر قضيته أو مناجاته، أو انطباعاته، وما كان من تصنع في فترات ضئيلة هو استثناء وروح شاذة في العموم، والغالب أننا نجد أسلوب الرحلة الجزائرية الحديثة عند طائفة الأدباء مرسلا، يغلب عليه الوضوح والفصاحة. فهو نص مشكل بأسلوب واضح بسيط لا يحمل تعقيدا ولا لغة عليا يخاطب بها القارئ، بل هو أسلوب مباشر يليق بكل مستويات القراء، يحمل العبارات الدالة في مضمونها مع مراعاة السهولة في تحويل الأفكار، وهي اللغة التي تتراوح ما بين النثر العادي والنثر الفني، وتتميز بمحمل النصوص بهذا الأسلوب، الخالي من التعقيد، دقيق التوجيه، واضح الفكرة، مجلى البيان، وسالم التركيب، لا يختلف إلا بما دعت إليه الطباع الإنسانية من تفاوت وأمزجة الكتاب، وطبيعة المواضيع والأذواق.

2.2. الرحالون الصحفيون.

لقد شاءت الظروف التي أمت بالجزائر، أن تكون بداية النثر العربي بها، بداية صحافية، ذلك بعد أن أفرج عنه بإدراج صحيفة "المبشر" كأول جريدة تنطق بالعربية إلى جانب اللسان الفرنسي، ابتداء من سنة 1948، ومن ثم ظهر للوجود اسم سليمان بن الصيام الملياني، الذي يعتبره الزبير سيف الإسلام، كأول صحفي جزائري⁵⁸⁰ وإنه لمن غريب الصدف أن يكون أول ظهور للصحافة العربية في الجزائر، متمثلا في مقالات رحلية، جاءت على إثر عودته من فرنسا بدعوة من أعيان الحكومة الفرنسية لحضور حفل تنصيب "نابليون بونابرت" على عرش فرنسا، وجاءت هذه الرحلة بدافع الدعاية للمستعمر، وأحقيقته لاحتلال الجزائر.

لقد عرفت الجزائر مرحلة طويلة في الميدان الصحفي، وتكوّن في هذا الميدان ثلة كبيرة من أعلامه، وتنوعت مشارب الكتاب، واختلفت توجهاتهم. واللافت في الأمر، أنه ليس الصحفي هو الوحيد الذي كان مخولا للكتابة في الصحف في الحقبة الاستعمارية، وإنما كانت الصحف والجرائد الوسيلة الوحيدة التي احتضنت كل ما يسطره القلم، حتى الشعر والأدب، والعلوم والإشهار وغيرها..، ولعل

⁵⁸⁰ - ينظر الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 5، 1985، ص 17 وما بعدها.

الصحف كانت بمثابة السجل أو الديوان الذي يحتوي كل الوثائق المؤرخة لتلك المرحلة. وبالتالي هناك تمييز بين الأديب والصحافي والسياسي والاقتصادي وهلم جرا. وضمن هذه الجمهرة من الفنون جميعها، ركنت الرحلة تحتل زاوية مهمة، بل لعل "الرحلة" كانت من أكبر أشكال التعبير التي شرحت صدرها لكل كاتب، وتميز فيها أولئك الصحافيين الذين دعتهم ضرورات ونزوات للتعبير عن أسفارهم ومن أجل التدليل عن سبل متعددة من هذه الدواعي المختلفة.

ولم يكن من السهل تحديد مفهوم الصحافي في هذه المرحلة، لأن الكتابة كلها كانت تتم عبر هذه الوسيلة الفريدة، كما أن مشارب الكُتّاب متعددة، وهو الذي يجعل اللبس قائمًا والغموض سيّدًا، إذ نجد الصحافي السياسي، ونجد الصحافي رجل دين، ونجد الصحافي الأديب وهلم جرا.. وهو الشيء الذي يُصعب من تحديد من هو الصحافي؟ وبالتالي سوف نقف على هذا الجانب من خلال النصوص ذات الطابع الصحافي حتى نحدّد مستوى الكُتّاب في ذلك.

وإذا استثنينا مرحلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، التي سادت فيه الصحف الاستعمارية أو الداعية بدعوتها، والمروجة لسمومها، والتي كانت فيها جريدة "المبشر" تبعث فيها من حين لآخر برحلات على غرار الرحلة الصيامية، ورحلة بن الشريف، ورحلة ابن قاد، وحتى رحلة الفكون التي جاءت في بداية القرن العشرين، وهي رحلات كلها تنحو اتجاهها واحدا، متمثلا في الدعاية لفرنسا. وإذا ما استثنينا هذه الزمرة، فإننا لا نجد من الصحافيين من كتب رحلة حتى سنة 1913 حيث نشر فيها صاحب جريدة "الفاروق" عمر بن قدور (ت 1932) رحلة تحت عنوان "سوانح الرحلتين - الآفاقية والأخلاقية"⁵⁸¹ في تسع حلقات، وبالتالي نعتبر هذا العمل أول رحلة لصحفي وطني جزائري. وقد كان أول ما يبدأ به رحلته في كل مقال من مقالاته التسع هذا القول: "إذا سار الإنسان في الأرض تحسبه أن يبعث وجدانه لاجتناء العبر من حقول المناظر الأخلاقية والاجتماعية وفي السفر عبر منها المقيم محروم". في إشارة هامة لعبرة السفر، ونجد الرحلة تتضمن لكثير من النقد الاجتماعي الذي يعالج الجانب الأخلاقي بالجزائر.

وإذا تبّعنا سير الصحف وإنتاجها، فسوف نقف على أمر، مفاده أن رجال الصحافة لم يبدؤوا جدّيا في اختبار تجاربهم الرحلية عبر مقالات الصحف إلا بعدما تأسست الصحف المستدامة -طويلة الأمد-، وهي الصحف التي كانت بدايتها بعد الحرب العالمية الأولى، والتي ترى عواطف عبد الرحمان، أن سبب انتظامها وديمومتها تعود إلى امتلاكها لـ "تنظيمات سياسية واجتماعية ودينية كانت تمدّها

⁵⁸¹ - عمر بن قدور، سوانح الرحلتين - الآفاقية والأخلاقية-، جريدة الفاروق العدد 22 الجمعة 16 ذي القعدة 1331 الموافق 1913/10/17

بالإمكانات المادية والجهاز التحريري مما ساعدها على الاستمرار⁵⁸² وهي بالمفهوم الحالي، الصحافة الاحترافية، التي تعدّ مؤسسة قائمة بذاتها، لا جهدا فرديا منبوذا. كما أن هذه التجربة الجديدة لدى هذه الصحف قامت على استراتيجية جديدة في مقابل تعسف السلطات الفرنسية التي كانت تتهمها دائما بالقيام بالدعاية ضد فرنسا، وهو ما جعل الكثير من رؤساء تحرير هذه الصحف "يتحايل على السلطات الفرنسية بإعادة إصدار هذه الصحف تحت أسماء جديدة مع الاستمرار على نفس السياسة بهيئة التحرير نفسها"⁵⁸³ لذلك استطاعت المقاومة والضمود، واستطاعت أن تتعايش بتحايل كبير مع القوانين الجائرة الصادرة بحق الصحف الوطنية، وهذه الصحف، هي التي كانت تحمل في حقيقة الأمر السمة الصحفية، والصحافيين المؤهلين للممارسة الصحفية بحق، ولعل أبرز هذه الصحف "جريدة النجاح" التي استمرت من سنة 1919 إلى سنة 1956، و"جريدة الشهاب" التي قاومت من سنة 1925 إلى سنة 1939، و"جريدة البلاغ الجزائري" من سنة 1926 إلى سنة 1956، و"جريدة البصائر" بسلسلتها الأولى (من سنة 1937 إلى 1940) والسلسلة الثانية (من 1947 إلى 1956)، وبعض صحف أبي اليقظان التي كانت تراوغ كثيرا في تمرير رسالتها الصحفية وتم ديمومتها بجرائية وبعناوين مختلفة.

ومما يجدر ذكره أن الصحافة الجزائرية في هذه الفترة (الاستعمارية) ميّزها التصنيف الذي وافق الصراع المبتوت، الاستعماري منه، والفكري والإيديولوجي، إلى "أصناف هي: الصحافة الحكومية وصحافة أحباب الأهالي والصحافة الأهلية والصحافة الوطنية (الاستقلالية)⁵⁸⁴ وهو الإطار العام للصحافة التي تصاعد فيها الوعي الفكري والوطني إلى ذروته مع فترة ما بعد الحرب الأولى، نتيجة تطور طبيعي لنسق المرحلة بالخصوص فترة الثلاثينات من القرن العشرين مثلما تؤكد عواطف عبد الرحمان بقولها: "التي كانت تشهد صراعا فكريا حادا بين الفرنسيين وأنصارهم من المثقفين الجزائريين الذين كانوا يؤيدون الإدماج وبين الإصلاحيين وأنصارهم من الوطنيين الذين كانوا يخوضون المعركة ضد السياسة الفرنسية بجميع أبعادها ومن أجل ذلك بذلوا كل طاقاتهم لإبراز الشخصية الجزائرية عن طريق تنظيم تعليم عربي حر وإقامة صحافة باللغة العربي لتكوين جيل من الجزائريين المرتبطين بثقافة بلادهم وتراثها الإسلامي وهنا يتضح المحرك الرئيسي الذي كان يقف وراء نشأة الصحافة العربية بالجزائر واستمرارها،

⁵⁸² - عواطف عبد الرحمان، الصحافة العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 38.

⁵⁸³ - المرجع نفسه، ص 36-37.

⁵⁸⁴ - الصحافة المكتوبة في الجزائر، زهير إحدادن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص 27.

وهو العمل على بعث اللغة العربي كلغة حيّة للتعبير وكوسيلة للتطور الثقافي والحضاري للجزائريين الذين لم ينالوا أي تحضر فكري على أيادي المدرسة الفرنسية⁵⁸⁵

وخلاصة القول إن مرحلة ما بين الحربين التي اشتد فيها الصراع الفكري، لعدة اعتبارات تاريخية وفكرية، استطاعت ساحتها أن تعجّ بمختلف الأفكار المتناطحة وأن تخلق معارك تنافس فيها القلم أكثر من غيره في إثبات الحجة والبرهان من كل فريق على غريمه، حتى أن الاستعمار كانت له اليد الطولى والسند السخي للطائفة الطرقية التي "استطاع تطويعها لخدمة مصالحه وأهدافه، إذ سمح لها بعد ذلك بإنشاء جرائد وجمعيات بهدف مجابهة المدّ الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين"⁵⁸⁶. كما نخلص أيضا إلى أن هذا الصراع الفكري والإيديولوجي الذي سارته هذه المرحلة، تفرع إلى تيارات أهمها التيار الإصلاحي والتيار الطرقي والتيار الموازي الذي كان امتدادا لتوجهات جريدة "المبشر" التي كانت بمثابة مدرسة تخرج منها الصحفيون الأوائل الذين أنشأوا الصحف باللغة العربية في الجزائر⁵⁸⁷ هذا على الصعيد العام، أما من كان من نسلها فهم "الذين أسندت إليهم الحكومة الاستعمارية جريدة "كوكب إفريقيا" (ما بين 1907 و1914) وجريدة "النجاح" (ما بين 1919 و1956) اللتين عوضتا جريدة المبشر بعد مرحلتها الثانية"⁵⁸⁸ وإذا كانت جريدة "كوكب إفريقيا" لصاحبها محمود كحول، لم تضمها المرحلة، حيث كان صدورها لا يتعدى عتبة الحرب الكبرى الأولى، فإن جريدة "النجاح" التي كان يرأس تحريرها إسماعيل مامي. هي التي شكّلت الطفرة في العمل الصحافي الجزائري، إذ جاءت في مرحلة جد مهمة وطال عهدها حتى صارت أطول وأعرف صحيفة جزائرية، إذ امتد صدورها طوال 37 سنة، من دون أن تجد أدنى صعوبة ولا تخرج في أداء مهامها الصحافي، ما دامت أنها اختارت الركون إلى الجانب الاستعماري. بينما كانت جرائد (الشهاب والبصائر وجرائد أبي اليقظان) لسان حال الإصلاحيين، وكانت جرائد (لسان الدين، والبلاغ الجزائري، والرشاد) سلاح الطرقيين. وهذه الصحف المذكورة هي الصحف التي طال عمرها وداع صيتها واحتضنت كثيرا من الأقلام الصحفية.

الرحلة بأقلام الصحفيين

وتتوزع الرحلات التي أنتجها كتاب صحفيون في كثير من المجالات والجرائد والصحف على مختلف أشكالها، وأهم هذه الجرائد: "النجاح" و"الشهاب" و"البصائر" و"البلاغ" و"الرشاد" و"لسان

⁵⁸⁵ - الصحافة العربية في الجزائر، مرجع سابق، ص 39.

⁵⁸⁶ - عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب -دراسة تداولية-، دار الحكمة، الجزائر، 2009، ص 36.

⁵⁸⁷ - الصحافة المكتوبة في الجزائر، مرجع سابق، ص 29.

⁵⁸⁸ - المرجع نفسه، ص 29.

الدين". وقد كانت جرائد الطرقيين ضعيفة الشأن إنتاجا في هذا المجال، ما عدا بعض الكتابات التي أنجزها "رايسي أحمد" بجريدة "البلاغ" باعتباره ممثلا عن هذه الجريدة حيث كان يدون دائما ملاحظة (نائب) أي عن الجريدة، وكان ينشر مقالاته بعناوين مختلفة منها "جولة نائبا في الأرجاء الوهرانية" و"العوينات"⁵⁸⁹ و"رسالة من نائبا"⁵⁹⁰ و"في سيدي عقبة"⁵⁹¹. كما نجد أخرى منفردة مثل رحلة مدير تحرير البلاغ "حدوني محمد بن محي الدين" بعنوان "رحلتي إلى الأيالة التونسية"⁵⁹²، بالإضافة إلى ضمها رحلات أخرى غير قليلة، وفي كثير من الأحيان لا يستطيع الباحث أن يفرق فيما يمكن أن يتوزع مستواها، فهي إلى الأدب أقرب بحكم التكلّف في صناعة اللفظ؟ أم إلى الوثيقة بحكم كونها تميل إلى التقرير والإخبار خصوصا عند أحمد رايسي، وتقل حدة عند لخضر عمروش الذي يقرر بأسلوب بسيط كقوله: "ثم توجهنا من سانطانو إلى قسنطينة فوصلناها ليلا ومن محاسن الصدف أننا عند نزولنا من المحطة اجتمعنا برفيقنا القديم السيد محمد المهدي فتركنا حقائبنا عند بعض الأحبة وقضينا جميعا شطرا من تلك الليلة في الشهر"⁵⁹³.

أما بالنسبة للكتّاب الإصلاحيين الذي التزموا الخط الصحفي، فإننا نجد غالبيتهم ينزعون إلى الكتابة الواقعية، فهم لم يقصدوا "فيه الجمال الفني أو وصف المشاهدات، بل تسجيل الواقع الذي يعيشه الشعب والدعوة للحركة الإصلاحية وتبصيره بالتقدم الذي أحرزته الشعوب الأخرى لدفعه بالنهوض والعمل على تغيير هذا الواقع"⁵⁹⁴ وقد التزم كتّابهم هذا الخط دون انحراف، واستمر كمشروع عام قائم ما دامت الدعوة الإصلاحية قائمة، فقد كانت هذه الرحلات "من هذه الناحية تمثل نوعا من الدعاية، لذلك اختلف أسلوبها باختلاف موضوعها ومضمونها، فرأينا فيها ذلك السرد التسجيلي الذي يعتمد على المباشرة والتقرير لا على التصوير والإيجاز"⁵⁹⁵ وهو راجع لسلطان الظروف، ومستوى هذا الصنف الذي كان بعضهم محدودا فنيا، وبعضهم قد خط لنفسه حدا لا يتجاوزه، وهو التقرير عن أوضاع وتزويد الجريدة بالأخبار حسب ما يقتضيه عمله، وجلّهم اعتمد الأسلوب المباشر الذي يغلب عليه صفة التقريرية في عرض الخطاب، الذي يميل إلى الإخبار وإعطاء نتائج الرحلة، والرحالة في هذا

⁵⁸⁹ - رايسي أحمد، العوينات، جريدة البلاغ الجزائري العدد 73، السنة الثانية، الجمعة 26 ذي الحجة 1346 هـ الموافق لـ 15 جوان 1928.

⁵⁹⁰ - رايسي أحمد، رسالة من نائبا جريدة البلاغ الجزائري العدد 253، السنة الثانية، الجمعة 29 ذي الحجة 1350 هـ الموافق لـ 6 ماي 1932.

⁵⁹¹ - رايسي أحمد، في سيدي عقبة، جريدة البلاغ الجزائري العدد 101، السنة الثانية، الجمعة 24 رجب 1347 هـ الموافق لـ 4 جانفي 1929.

⁵⁹² - حدوني محمد بن محي الدين، رحلتي إلى الأيالة التونسية، جريدة البلاغ الجزائري العدد 88، السنة الثانية، الجمعة 19 ربيع الثاني 1347 هـ الموافق لـ 5 أكتوبر 1928.

⁵⁹³ - لخضر عمروش، جولة المدير بعمالة قسنطينة، جريدة البلاغ الجزائري العدد 254، السنة السابعة، الجمعة 7 محرم 1351 هـ الموافق لـ 13 ماي 1932.

⁵⁹⁴ - عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1983، ص 67.

⁵⁹⁵ - المرجع نفسه، ص 67.

المقام هو عبارة عن وسيط اجتماعي وسياسي ينقل الحدث واضحا مكتمل الجوانب إلى الشارع أو المواطنين عامة مثقفين وعاديين "يجسد دون مبالغة، ويصور دون مغالاة ويحدث الجماهير دون إسفاف"⁵⁹⁶، وهو الحال الذي كان عليه ابن باديس، فهو ألمع من يمثل هذا النوع من الأسلوب سواء في رحلاته الداخلية أم الخارجية، إذ يعتمد على التقرير والتحليل والنقل المباشر لنتائج رحلاته، خاصة رحلاته الداخلية التي عمد فيها إلى رصد التقرير المادي والأدبي من خلال الزيارات المتعددة لكل مناطق الوطن وهي مهمة مقصودة الهدف، منها متابعة أثر دعوته والوقوف على مشاريعه الإصلاحية والدينية، كبناء المساجد والمدارس التعليمية الحرة، ويغلب على أشغاله الدعوية ضمير الأنا مثل قوله "ذكّرناهم بإتمام ما كانوا وضعوا أساسه من بناء جامع الجمعة"⁵⁹⁷ ولا يزيد على الكلام الدال إلا بمجرد التنبيه أو الإشارة. ومثله أحمد بوشمال وفرحات بن الدراجي وعبد الرحمان الحسيني والعيد مطروح ومحمد بن دويذة المرعي ومحمد عبابسة الأخصري وأحمد حماني، وعبد اللطيف سلطاني، وعلى مرحوم وغيرهم كثير. وكلهم كان مقررا عن رحلته، إذ لا نجد من تصاعد جمالي إلا في نتف وشذرات بسيطة من مجموع النصوص. كما لا يجب أن نهمّلها من الجانب الأدبي الذي تميزه هذه الشذرات الممتازة من حين لآخر.

أما جريدة "النجاح" فقد شكّلت نموذجا فريدا من ناحية الكتاب الرحالين الصحفيين، إذ أسهم كل من مديرها ورئيس تحريرها بشكل كبير في هذا الاتجاه، داخليا وخارجيا، مبديان كبير تأثر بالرحالة القدماء في بسط قلمهم مسترسلا للتعبير عن مشاهداتهم وحواراتهما، وملاحظاتهم التي أبدتها خلال كل زيارة، بالخصوص مدير تحريرها (إسماعيل مامي) الذي نحسبه زعيم الرحالين الجزائريين في العصر الحديث، بإثرائه للمدونة بعديد الرحلات التي أُرّخ فيها للمناسبات داخليا وخارجيا، بعنوانين مختلفة حسب دافع السفر وبغية الطلب، وقد سبق أن ذكرنا معظمها من قبل، ومما يلفت انتباهنا أن هذا الرحّالة الصحافي يكتب في كل موضوع بلا توقف، ولا يختص في موضوع معين، فهو يتحدث في السياسة والدين والاقتصاد، وعن الأوضاع الاجتماعية وغيرها من القضايا. كما نجد في ميدان الرحلة، يضم كل هذه الموضوعات في سجله الرحلي، فهو عندما يزور المغرب، يتحدث عن مستواها الاقتصادي وأوضاعها الاجتماعية وحالتها الدينية والثقافية، ويقحم نفسه في الشعر مضمنا ومبدعا، كما نجد في رحلته إلى المشرق يخص مصر بحديث عن تاريخها القديم والحديث بإسهاب كبير، ويخص أحوالها الفنية والجمعيات النسوية، واجتماعه بالأعلام المبرزين، كما أنه يتتبع بأبعاد صحافية كل حدث

596- ينظر، الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، مرجع سابق، ص31

597- آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج4 ص298.

وكل حالة تطور، فيوثق لافتتاح مسجد باريس، ويؤرخ لمؤتمرات جمعية أحباس الحرمين الشريفين، ولا ينسى أوضاع الجزائر من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها. وهو الذي كان يُرْمَز له في بعض كتاباته بـ "للأديب الأكتب رفيقنا السيد مامي اسماعيل". وبحق من يطلع على عمل "مامي" الكثيف سوف يجد أسلوبه بليغا، وإطنابه مسترسلا، وعباراته سلسلة، مع إكثاره من التضمين بالشعر واقتباساته من آي القرآن، كل ذلك إتبعا للتقليد القديم في الكتابة على نحو قوله: "ومن سطيف أيضا زرنا قرية العين الكبيرة وكان الداعي القوي لزيارتها الاجتماع بالخل الوفي والموثق البارع والعضد العامل السيد الشريف بن حبيص القاضي الموثق ورئيس الجمعية الودادية لأعضاء المحاكم الشرعية للمفاهمة في مسائل المحاكم الشرعية التي ارتبكت أيما ارتباك وماهي آثلة إليه من التخليط والسقوط الأمر الذي جعل الشرع الإسلامي في خطر"⁵⁹⁸ ونجده أيضا في كثير من المخطات يحرص على الاستعلام الصحافي الذي يفيد بالخبر عن كل محلّ أقام به، فهو في رحلته إلى مصر (سياحة استطلاعية) يبدأ بتونس كمقدمة فيقول: "حقا وإن كنت أعلم حرص قراء "النجاح" الكرام على ما سأكتبه لهم عن أرض الفراعنة الطيبة جريا على ما عودتهم به في جولاتي الفائتة لم أر بدا من الابتداء بذكر بعض أخبار ومعلومات من الشقيقة تونس الخضراء بمناسبة مروري بها سائحا ومستطلعا وإلا فجراندها الراقية المتجولة في البلاد الجزائرية تغني القارئ المولع باستقصاء أحوال تونس وغيرها عما أذكره له في هذا الطال مجملا"⁵⁹⁹.

وتعدّ رحلات (إسماعيل مامي) من أبرز الرحلات، باعتبارها ذات قيمة تاريخية جلييلة، إذ كان يوثق كل الأعمال الجسيمة التي كان ينجزها المستعمر، لصالح المسلمين، سواء كان ذلك إيجابيا أو سلبيا- مما يجعلها تتعزز بمستوى كبير من الناحية العلمية، هذا مع أسلوبه البليغ. فقد نجده يؤرخ لافتتاح مسجد باريس في رحلة رسمية بعنوان "باريس حول الاحتفال بالجامع"⁶⁰⁰ وهي الرحلة التي ميّزها بالحدث الصحافي الهام في ذلك الحين، محدثا قراءه بقيمة هذا المسجد، ووصف تام للاحتفال الذي حضره حاكم فرنسا وسلطان المغرب، وممثلين عن رجال الدين: جزائريين ومغاربة وتونسيين، ومن بلاد عربية وإسلامية أخرى، وينشر كذلك كل الخطب التي قيلت بمناسبة الحفل مترجمة إلى العربية، وهو ما يمكن للباحث في هذا الميدان أن يعتبرها وثيقة رسمية تشخص للمكان وصفا وتؤرخ للحدث زمانا، وهي الرحلة التي ابتدأها بقوله: "فارقتنا مرسى الجزائر ضحى يوم السبت 10 الجاري على ظهر

⁵⁹⁸ - إسماعيل مامي، جولة نائبا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، جريدة النجاح، السنة الرابعة، العدد: 127، يوم 16 صفر 1342 الموافق لـ 28 سبتمبر 1923..

⁵⁹⁹ - إسماعيل مامي، سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، العدد 436، السنو السابعة، الأربعة 25 شوال 1345، 27 أبريل 1927.

⁶⁰⁰ - إسماعيل مامي، باريس حول الاحتفال بالجامع، جريدة النجاح، السنة السادسة، العدد: 319، يوم الأحد 7 محرم 1345 الموافق لـ 18 جويلية 1926.

الباخرة "تمقاد" فسارت بنا تحمل 1345 شخصا منها 75 من متوظفي وأعيان الجزائر الأهالي ولما كانت الساعة الثالثة بعد الزوال تعقب كاتب سمو الوالي العام الأهالي وأخبرهم بأن سمو الوالي له رغبة في تناول طعام العشاء صحبتهم ولما جاءت الساعة السابعة مساء نادى خدّمة الباخرة على الركاب فتعمرت⁶⁰¹ قاعة الأكل بالأهالي⁶⁰² كما نجده يؤرخ لكل الأحداث الهامة منها تلك التي كانت تعقدها (جمعية أحباس الحرمين الشريفين) أو (جمعية الميعاد الخيري) وهي كلها جمعيات مُسَيَّسة من طرف الاستعمار، فكان يقوم بتغطية هذه الأحداث أينما أُقيمت، منها تلك التي كانت في تونس جعلها بعنوان (مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين - سفر الوفدين التونسي والجزائري لرباط الفتح بالمغرب) أو كالتي قادته إلى باريس لتغطية حدث جمعية الميعاد الخيري بعنوان رحلي (أيام جمعية الميعاد الخيري بباريس)⁶⁰³ فيذكر كل أعضاء الوفود، وهو في هذا حريص جدا على ذكر الشخصيات، وهي الشخصيات المتعاونة مع السلطات الاستعمارية من آغوات وباشوات وقياد مثل ما نجده في قوله: "ركب الباخرة الكبرى التابعة لشركة الترانز أتلانتيك المسماة (مدينة وهران) ضحي يوم الأحد 5 مارس الجاري أعضاء المكتب الإداري لجمعية الميعاد الخيري أحياء فرنسا وهم: السادة محمد بن الساسي قاضي قسنطينة وحسن دواجي الحاج عبد القادر قاضي تلمسان والباش آغا محمد السماتي بن جدو وعلاوة بن علي الشريف النائب المالي وعبد المجيد أورابح النائب المالي والباش آغا الهاشمي بن شنون والباش آغا مشري أحمد الأخضر والباش آغا عبد العزيز بن عبيد وسيدي بومدين البشير العضو بالحجرة الفلاحية والقرمي ماقصلي كاتب شيخ العرب والنائب البلدي وارزور صالح مدير قسم العربي بمذيعات الجزائر"⁶⁰⁴.

أما رحلاته الداخلية فكانت تزوّدنا بالكثير من المعلومات التي لا تخلو من قيمة، سواء على المستوى الاقتصادي والاجتماعي أو الديني وحتى الحضاري مثل ما نجده في بداية حديثه عن رحلته (على جناح السفر)⁶⁰⁵ التي لم يلبث يتحدث في البداية عن بلدة (عمي موسى) بعنوان فرعي "عمي موسى حالتها الزراعية" ولعل الدافع إلى هذا الاهتمام منه، هو الميل الصحافي الذي يدفعه لالتماس الحدث من حال وموقع تشكّله، حيث كانت هذه البلدة تعرف تردّيا كبيرا في الشأن الفلاحي الذي

⁶⁰¹ - لفظ دارج بمعنى امتلأت القاعة.

⁶⁰² - باريس حول الاحتفال بالجامع، مصدر سابق.

⁶⁰³ - إسماعيل مامي، أيام جمعية الميعاد الخيري بباريس، جريدة النجاح، السنة التاسعة عشر، العدد: 2262، يوم الثلاثاء 29 محرم 1358 الموافق لـ 21 مارس 1939.

⁶⁰⁴ - المصدر نفسه.

⁶⁰⁵ - إسماعيل مامي، على جناح السفر، جريدة النجاح العدد 571، السنة الثامنة، الأربعاء 28 رمضان 1346 الموافق لـ 21 مارس 1928

يعد مادة عيشهم الأول، وقد تناسبت الزيارة هذه بالخير الوفير الذي ربطه بمسغبة السنة التي قبلها، أما عن السنة التي تمت فيها الرحلة فيقول فيها: "فوجدت الأرض غير الأرض والناس غير الناس بما رزق الله تلك البلدة وضواحيها من الأمطار المتهاطلة والصابية الناجحة"⁶⁰⁶، ولم يكن إسماعيل مامي يقرر فحسب، بل كان إلى جانب هذه المعلومات العامة عن المدن والبلدات، يخصّها ببعض الأوصاف الدقيقة مثل قوله في مدينة بسكرة: "طرقها واسعة وبساتينها زاهية وهي في الحكم المدني تنقسم إلى قسمين بسكرة القديمة وهي محل سكنى قدماء البسكريين وبسكرة الجديدة وهي التي بها السوق والبنائات الأوربية يوصل إلى بسكرة القديمة (ترامواي) بحصان وبينهما كيلوان ميتر"⁶⁰⁷. وعلى الرغم من قيمة رحلات "مامي" فإن الملاحظة المؤسفة، أن كثيرا من رحلاته لا نجد لها تمّات إلى النهاية، أو ربما تتوقف الرحلة لسبب من الأسباب، حيث يريد أن يستطرد أو يضيف ثم لا نجد فعل غير أنه يضع كلمة يتبع في آخر ما يكتب، وهو ما يضيع علينا كثيرا من الأمور التي لو استرسل فيها لزودنا بمعلومات نفيسة.

ومن الصحافيين البارزين في ذات الجريدة (النجاح) نجد عبد الحفيظ الهاشمي الذي كان صحافيا بارزا، وكتبا مفوّها وجريئا، يكتب في الشؤون الدينية بطريقة علمية وجدال بالحجة، وفي السياسة مثل ذلك، ويتميز في الرحلة بشيء من التقليد الذي ينم عن وعيه بذلك، مثل ما نجده في رحلته "رحلة للمغرب والأندلس"⁶⁰⁸ وكانت بداية الرحلة من مدينة "تيارت" وانتهت إلى "قرطبة" كما يقول: "قمنا برحلة طويلة ابتدأت من 18 أبريل إلى 3 سبتمبر وابتدأت من مدينة تيارت عمالة وهران وانتهت إلى مدينة قرطبة من بلاد الأندلس"⁶⁰⁹ وقد عزم على سرد ذلك في مقالات، كما يقول: "وقد شاهدنا في هذه الرحلة ما أوجب علينا أن نسديه كهدية استطلاعية ثمينة لقراء (النجاح) الكرام ولاسيما أن الأقطار الإسلامية كلها كالجسد الواحد تتطلب الاستطلاع إلى أحوال بعضها وقد عقدنا العزم على نشر سلسلة مقالات نسرد فيها ما وقفت عليه من معلومات واستطلاعات للعلم والاستطلاع. والمؤسف أنه بعد سبع حلقات يتوقف عند مدينة تلمسان دون أن يتجاوز حتى عتبة "المغرب الأقصى" ولسنا ندري ما سبب توقفه عن الكتابة في هذا الموضوع الهام. ومما نجده من مستوى الكتابة أنه كان راقيا، بألفاظ تراثية قوية، وسرد فيه التاريخ والمعلومات الكثيفة.

⁶⁰⁶ - على جناح السفر، جريدة النجاح العدد 571، مصدر سابق.

⁶⁰⁷ - إسماعيل مامي، جولة نائبنا بالوطن القبائلي، جريدة النجاح، العدد 179، السنة الخامسة، يوم الجمعة 24 ربيع الأول 1343 الموافق لـ 24 أكتوبر 1924.

⁶⁰⁸ - جريدة النجاح، السنة الرابعة عشر، العدد: 1364 - الأربعاء 3 جمادى الثانية 1351 الموافق 5/10/1932.

⁶⁰⁹ - المصدر نفسه.

2. 3. الرحالون المؤرخون.

تعدّ الجغرافيا والتاريخ أقرب العلوم من أدب الرحلة، فالأولى تبتغي المكان، والأخرى تروم الزمان، وهما وجهان لعملة واحدة، بحيث لا يستطيع المؤرخ أن يبحث في الزمان الميتافيزيقي الذي لا يتلازم مع المكان، والعكس صحيح. ثم إنه لما كانت الرحلة من أهم مصادر التاريخ، فهي من وسائل المؤرخ وخصته. وبالتالي يتحقق أن يكون المؤرخ أولى بالنص الرحلي الذي يمثل إحدى مطالعاته على الأقل.

ولقد أسهم بعض المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث إسهاما محمودا، في هذا المجال، وحقّق ذاته بكثرة النصوص ذات النوعية في غالبها، حيث تميّزت بالمتعة والفائدة في غالبها، نظير ثقافتهم الموسوعية، واكتسابهم التنوع والإبحار في قضايا الإنسان ومصيره، بالخصوص القضايا الجزائرية والعربية والإسلامية. ومما هو ملاحظ أيضا على هذه النصوص الرحلية، تمتعها بالجديّة في القول في عمومها، فلا هي استعانت بالمجازات في تعبيرها، ولا الإطناب في حديثها ولا الاستطراد في بنيتها إلا نادرا. ومع ذلك فقد جاءت مادتها اللغوية سليمة ومؤدية للمعنى بلا تكلف، وأسلوبها بسيط مؤدي للغرض، وموضوعاتها ذات اهتمامات بقضايا الإنسان، ونقد الذات، ومراجعة للتاريخ. وهذا لا يعني أن الجمال الأدبي معدوم، بل تمثل ذلك بقوة في محطات كثيرة، خاصة وأن جل هؤلاء الرحالين يتمتعون بالهواية الأدبية، بل بعضهم محترف فيها وشاعر.

ويمثل هذا الجيل الرعيل الأول من المؤرخين الجزائريين، وهم رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، وكلّهم ينتمي إلى الحركة الإصلاحية (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، يحملون الفكر الإصلاحي، ويدودون عن حمى الوطن والعربية والإسلام، ومن هؤلاء: مبارك الملي، ومحمد علي دبوز، وأحمد توفيق، وسليمان الصيد.. وتتميز رحلات هذه الزمرة بتشعبها، من حيث النوع والدافع، منها ما كانت داخلية تتفقد أحوال المجتمع، وتتبع مسيرة الإصلاح التي شنتها الحركة بفضل زعامة ابن باديس، كرحلة مبارك الملي "سَيْر الجمعية وأعمالها" وتفقد الشعب"، ورحلة سليمان الصيد "رحلة مدرسية" وبعض رحلات المدني⁶¹⁰.

وإذا كان الاستطراد أهم من يكشف عن هوى الرحّالة ونفسيته وشخصيته، وميوله في الحياة، فإن ذلك يتجسّد في هذه الرحلات بنزر قليل، لكن هذه القلّة تشفّ عن منعطفات الميل الإنساني الذي لا يستطيع أن يخفي توجّهه، وغالبا ما يُظهر فضوله، ويُبرز تلقائيا ما توسوس به نفسه، خاصة

⁶¹⁰ - يعد أحمد توفيق المدني، من أهم الرحالين الجزائريين في العصر الحديث، لكثرة ما كتب، ونفاسه مواضعه وجليح أسلوبه، وقوة لغته، وقد أدرجناه ضمن مستوى المؤرخين، ثم نظيفه في مستوى السياسيين، لأنه ينتمي إلى المستويين جميعهما بل لكل المستويات، إنما سوف نخصّصه في خاتمة السياسيين، لما تميزت به غالب رحلاته، الذي تماثلت زخات مع بزوغ نور الثورة التحريرية، وحينها كان ممثلا لحزب جبهة التحرير الوطني في الخارج، مما جعلت رحلاته تكنسي أهمية بالغة من الناحية السياسية، لزياراته الرسمية لدى العديد من الرؤساء والملوك والوزراء وغيرهم من الرسميين.

وأن الرحالة أديب أريب، يدرك ما هي قيمة السفر في حياة الفرد. مثلما يراها (سليمان الصيد) في استهلاله عن رحلته فيقول: "إن للرحلات أثارا قيّمة في النفوس فهي تكسبها معرفة وإطلاعا، فالمسافر ذو النفس الحية والعقل الحصيف والشعور الفياض تهتز كوامن الإحساس أيما اهتزاز فهو يرى أناسا وبلدانا ومناطق تختلف طبيعتها روعة وجلالا فيكسب من وراء ذلك علما جليلا قوامه المشاهدة لذا كانت فكرة -السياحة - في العالم المتمدن نقطة أساسية -زيادة على مالها من تأثير على النفوس -في تطبيق علوم الحيات خصوصا علوم الجغرافيا والتاريخ والأشياء⁶¹¹ بهذا الاستهلال، يُعرّف (الصيد) ضمنا أدب الرحلة في كلمات جامعة، ذلك ما يشعر به -هو- كمؤرخ يستقرئ المشاهد، ويعتبر بالآثار، ويستنبط من سنن الكون. في عجلة المتغيرات التي تبقى تحتفظ بالحضارات المتعاقبة، والأسماء الخالدة، ففي كل محلّ يجب أن يقف على من يمكن أن يكون قد أسس حجرها، وكيف مرّرت شعلتها الأجيال، وحافظت على عقبها، فقسنطينة ذات التاريخ الطويل لا زالت تحتفظ بعظماؤها الذين يخلّده أحد رحالي هذا المستوى في قوله: "وعلى الواحدة اتجهنا إلى قسنطينة أنحاء عاصمة يوغورطة وصالح باي فشهد التلاميذ معهد ابن باديس عمل جمعية العلماء الجبار كما شاهدوا مدرسة باديس: التربية والتعليم"⁶¹² ثم لا يزال التاريخ هو من يمدّه بالأخبار في كل محطة، كهذه التي يقول فيها: "وجبل فللفة"⁶¹³ الرخامي قديم حتى أن مواد بناء بعض مدن رومانية كتيماقاد وغيرها مأخوذ منه كما يحكي التاريخ"⁶¹⁴..

ويميل هذا الجيل إلى الأدب ميله إلى الدين وإلى التاريخ، مما جعل تصنيفهم مشوبا بكثير من الغموض، ذلك حين نتطلع لما كتبوه من نصوص رائعة أنيقة تستعير من لغة الغزل رقتها، وتستقى من الطبيعة ريحانها. وهو ما يبدو في رحلتي كل من "مبارك الملي" في مضرب آخر مع رحلة بعنوان "فيشي"⁶¹⁵ على اسم المدينة الفرنسية التي قصدتها من أجل العلاج والاستشفاء. ورحلة محمد علي دبوز في رحلته التي عنوانها قياسا على موضوعها: "وقفة في دار الرافي وعلی قبره"⁶¹⁶.

أما (مبارك الملي) فإذا هو سلفي في مذهبه، وقابض على دينه بشدة، وجريء في صدعه بالحق، حيث لا يخفي ذلك في قوة قول، وحزم في رأي. ومع هذا نجده أديبا تستهويه الألفاظ الرقيقة، التعابير

⁶¹¹ - سليمان الصيد، رحلة مدرسية مصدر سابق.

⁶¹² - المصدر نفسه..

⁶¹³ - فللفة إحدى البلديات التابعة لإداريا لولاية سكيكدة..

⁶¹⁴ - سليمان الصيد، رحلة مدرسية، مصدر سابق.

⁶¹⁵ - جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، العدد 119 الاثنين 25 ربيع الثاني 1357 هـ الموافق لـ 24 جوان 1938م.

⁶¹⁶ - نشرت بجريدة البصائر في 7 حلقات، بداية من العدد 334، سلسلة الثانية، 6 صفر 1375 هـ الموافق لـ 23 سبتمبر 1955.

الجميلة. وقد جسّد ذلك في هذه الرحلة (فيشي) التي كانت من أجل علاج مرض ألمّ به - وهو الذي كان سبب وفاته- ففي هذه المناسبة بدا (الميلي) رحّالة أديبا يسرد بسجع لطيف مبتدءً بقوله: "شاءت الأقدار أن نركب الأسفار ونجتاز البحار من إفريقيا إلى أوروبا لا لتجارة ومغرم ولا لنزهة ومطرب ولا لشكاة ومطلب ولكن استرجاعا لقوة أذابها الداء واستجماعا لنشاط عجز عن أداء الواجب نحو الدين والشعب"⁶¹⁷. فكانت هذه النقاهة فرصة لا لراحة البدن فحسب بل حتى في أسلوب العالم الذي ركن إليه طويلا عبر مقالاته العلمية في الشريعة والتاريخ. وهو أسلوب آخر غير فيه من مضاعفات التركيز دون أن يتخلى عن القلم كلياً، وهو ما لم يستطعه، ذلك ما عبر عنه بقوله: "وإذا كانت الدواة هي دائي فإن دوائي إنما أرغب فيه من أجلها. ولا خير في حياة بلا قلم ودواة. فيها تصقل الأذهان وتحفظ الديان. والآن نتقدم إلى القارئ الكريم بحديث عن مدينة فيشي"⁶¹⁸ وكأنه يقول لا يستطيع حتى المرض أن يوقفني عن الكتابة التي يعتبرها متنفسه، وجهاده. ولسان حاله، إذا كانت النقاهة، فما أنا أقدم حديثاً عن سفري، من أجل إفادة القارئ ومسامرته. فلا يخلوا منها حديث عن وصف المدينة، وأخلاق الأوربيين الذين يمثلون أخلاق الدين الإسلامي، وهم على غير ملته، ويتأسف على من هم منه وهو منهم، وقد خذلوه واتبعوا الشهوات والأباطيل. ونجد أيضاً في وصفه يمثل لهذا الفن، ويكمل مشوار الرحالين الغابرين، كقوله في وصف المدينة: " فيشي مدينة فسيحة الأرجاء رفيعة البناء جميلة الشكل يجري جنوبها من شرقها إلى غربها نهر"البي" -بفتح فكون فكسر- وقد جعل له سد حبس ماءه حتى تكون له عمق يحمل الفلك ويرتاض عليه بالسباحة ويساوق النهر بينه وبين المدينة بور عريض به أشجار مرتفعة وعشب ناعم تتخلله طرق وتزينه برك وتمكن من الاستراحة فيه كراسي على نحو ما هو معهود في البساتين البلدية."⁶¹⁹

أما محمد علي دبور في رحلة "وقفة في دار الرافعي وعلى قبره" وهي اللحظات التي عاشها الرحالة طويلا قبل أن تطأها قدمه، عاشها من خلال كتابات الرافعي الذي أثر فيه تأثيراً كبيراً، لذلك حرص على هذه الزيارة، حرص من به نذر من الندور. فما كانت هذه الزيارة إلا بمثابة تحقيق لحلم طالما راوده. وقد تزين نص الرحلة بما فيها من طبيعة وإنسان حيث رده كله إلى السر الذي نجمت عنه عبقرية "الرافعي الفذة، وإذا كانت طنطا هي حاضنة الرافعي، فهي عند الرحالة كما يروي عنها:

⁶¹⁷ - مبارك المليبي فيشي، مصدر سابق.

⁶¹⁸ - المصدر نفسه.

⁶¹⁹ - المصدر نفسه.

"طنطا!! كان لهذه المدينة عندي جمال الصدفه وجمالها لاشتمالها على الدرّة الكريمة! وكنت أراها بين المدن المصرية كلها كالزهرة بين الأوراق هي وحدها تشتمل على الثمرة وتنفرد بالجمال والأريج! إنها المدينة التي قضى فيها مصطفى صادق الرافعي حياته أنجب أدبه الرفيع"⁶²⁰. فيتبين أن الإحساس قديم، وأمانيه سابقة، فما حان وقتها حتى أسفر عن ذلك بهذا التصريح: "وكنّت أمني النفس بزيارة طنطا وزيارة دار الرافعي والإطلاع على خزائن كتبه ومشاهدة منازل وحيه في تلك البقاع التي ألهمته كثيرا من أدبه. وكان القطار كلما وقف من طنطا ذاهبا إلى الإسكندرية أو راجعا منها أحسست بلهفة تدفعني إلى النزول لمشاهدة وطن الرافعي"⁶²¹ وما نستشعره من خلال قراءتنا للرحلة، أن صاحبها وصف كل شيء بالمثالية، لهوسه بعبقرية الرافعي، وهو دافع من دوافع الأديب، الذي ابتغاه الرحالة لأسلوبه، فكانت الطبيعة مشعة جمالا ومزينة بخصوبة أراضيها، والإنسان بحركته وحيويته. واستكان هو لشاعريته عندما وجد نفسه أمام بيت الرافعي، فأخذت تهفو نفسه إلى التعليق بشعور متدفق: "إنه بيت هو الأفق الصفي الذي يطلع للدنيا شمسها، واري أن الرافعي كان يتمهل في خطواته كلما دنى من داره إجلالا لهذه المعاني السامية التي تحتوي عليها هذه الدار العظيمة"⁶²² ولما لم تبق دار الرافعي ملكا لعائلته، ولم يتحقق له دخولها أول الأمر اكتفى بهذا التعقيب على إجحاف الزمن، وسوء تقدير العدالة الدنيوي، التي ترفع من تشاء وتنزل من تشاء، وهو الذي اغتاض له الكاتب، ودون ما وجدته في نفسه من زفريات قائلا: "ليت الزمان أسعف فبقيت الدار في أسرة الرافعي وبقي مكتب الرافعي فيها على حاله كما بقي مكتب سعد زغلول وداره أثارا تردد تاريخه، وتشاهد فيها الأجيال معالمه، ليت مصر التي رفعها الرافعي في القلوب أكثر من سعد، وتفانى في مجدها أكثر من سعد، وترك لنا كنوزا خالدة لا تقدر بقيمة أكثر مما ترك لها سعد عرفت واجبها لهذا الرجل العظيم فأبقت داره دارا للعلم في طنطا يؤمه الباحثون والسواح للتزود في مكتبته ومشاهدة آثاره، مات الرافعي ولم يضع لبنة على لبنة ليترك لأبنائه نشبا"⁶²³.

2. 4. الرحالون السياسيون.

الرحلة نص تختلف فيه الأقلام وتتنوع فيه مشارب الكتاب، وهي عالم يقتحمه كل من خطّ بالقلم راغبا في شن هذه التجربة. ليست بدعة، أن يكون من السياسيين من له قلم أدب، أو فكر، فقد شهد التاريخ منهم الكثير، وحدث عنهم في الأولين والآخرين، شاهدا على طائفة مهمة، منهم:

⁶²⁰ - محمد علي دبور وقفة في دار الرافعي وقبره، مصدر سابق.

⁶²¹ - محمد علي دبور وقفة في دار الرافعي وقبره، مصدر سابق.

⁶²² - المصدر نفسه، العدد 337، السلسلة الثانية، السنة الثانية 27 صفر 1375 هـ الموافق لـ 14 أكتوبر 1955.

⁶²³ - محمد علي دبور، وقفة في دار الرافعي وقبره، مصدر سابق.

لسان الدين بن الخطيب، وعبد الرحمان بن خلدون، وعثمان المكناسي صاحب رحلة بعنوان "البدر السافر في هداية المسافر" وغيرهم كثير..

والسياسي في عرف الناس، من يخوض في السياسة، ويتربع على مسؤوليات في الحكم، ولا غرو أن نجد هذه الشخصية يمثلها من هو أهل في الطب أو الأدب، أو الفن، أو من أهل العلم بشتى فروع. ومن هنا يبدو لنا أن ممارسة السياسة تقوم على عائق الأكفاء في الثقافة والفكر، حتى يرى أمور العامة بعين الخبير والحكيم. فلا نستغرب إذن إذا وجدنا من أهل السياسة الأديب بل الغرابة إن لم نجد من أهلها.

إن تميّز المرحلة التي سادتها المقاومة والعمل في الكفاح السياسي وكيفية الخلاص من المستعمر، قد أبانت عن مستويات مختلفة من رجال هذه المرحلة. وعلى الرغم من كثرة الأحزاب والجمعيات، فإننا نستطيع أن نقول ليس هناك تمثيل شرعي بالنسبة للسياسة الجزائرية إبان حقبة الاستعمار، لأن الجزائر لم تعرف سلطة على بلادها، بل السلطة كانت بيد المستعمر، بينما كانت هذه الأحزاب والجمعيات تسعى لمقاومة المستعمر حتى تستطيع أن تؤسس لسلطة سياسية شرعية على بلادها. وقد سعت في ذلك جاهدة، حتى سنة 1958 وبعد قضاء أربع سنوات من النار والدم، تحققت لها براعم النجاح بتأسيس أول حكومة مؤقتة، ثم تفتحت هذه البراعم مشكلة باكورة الاستقلال سنة 1962.

وقد تميز الجيل السياسي لهذه الثورة بقدرات كبيرة على الساحة المحلية والدولية، واستطاعوا أن يقنعوا العالم بأفكارهم، وأن يثبتوا قضيتهم في الأمم المتحدة. كما أن هذا الجيل من السياسيين استطاع أن ينتج أدباء مفوهين، خاضوا في السياسة كما خاضوا في الكتابة والتأليف والأدب. وتحتفظ لنا المكتبات بإنتاجاتهم في ميدان الرحلة قد لا يكون الدافع سياسيا، كما هو الحال في بعض النصوص، ولكن الغالب كان سياسي الدافع والغرض، وأبرز من يمثل ذلك في النثر العربي الحديث في الجزائر أحمد توفيق المدني ومحمود بوزوزو وجمال قنّان وعبد الحفيظ أمقران. وكل من هؤلاء أتى بنص على الأقل وأبان عن مستوى من مستويات الكتابة، ومنهم من كانت الرحلة بالنسبة إليه شعبة من شعب حياته الإبداعية، كما هو حال "توفيق المدني".

وقد مثل أحمد توفيق المدني ومحمود بوزوزو هذا الجانب أحسن تمثيل. فقد كان بوزوزو يمتلك يراعا بارعا وفكرا حادا، يستطيع على الوصف البديع كما يستطيع على الإقناع بالحجة ودون إسفاف ولا لغو ولا معاضلة لغوية، كما تجده مسلسلا لأفكاره صارما جادا تارة، وساخرا ومداعبا أخرى، مع بعض الاستطرادات يضعها بمقدار، فرحلته ذات العنوان "من وحي البرلمان"⁶²⁴ نجد له كل هذا وأكثر،

⁶²⁴ - محمود بوزوزو، من وحي البرلمان، جريدة البصائر العدد 11 السنة الأولى، السلسلة الثانية، الاثنين 5 ذي الحجة 1366هـ الموافق 20 أكتوبر 1947م.

ونجده كثير المثل حتى يأتي الإقناع سهلاً. يتحدث عن البرلمان الفرنسي سنة 1939 الذي تعرّض فيه قضايا الضحية والجلاد، ومن خلال ذلك يعبر عن هذا المكان بأسلوبه فيقول: "ويختلف شعور الناس نحو الأماكن باختلاف قوة إحساسهم، وتفاوت قيمة هذه الأماكن في أنفسهم فالعابث يطرب عند ذكر المرقص ودور اللهو، والعابد يشمئز من ذكرها، والتقى يخشع عند ذكر المسجد والملحد ينفر ويسخر. ويكون هذا الاختلاف شديداً عند الذين يسيرون في الحياة تحت حكم العاطفة والهوى لا تحت حكم العقل والتفكير"⁶²⁵ ثم يردف في مكان آخر "إذا ذكر مكان معركة لرجلين أحدهما انتصر فيها والآخر انهزم طرب المنتصر وخجل المنهزم إذا حكما عاطفتها وهواها"⁶²⁶ كل ذلك من أجل قول الغرض المقصود والمتمثل في هذا: "فالشعب المسلم الجزائري يشعر عند ذكر البرلمان الفرنسي شعوراً مخالفاً على طول الخط لشعور المستعمرين وأذناهم"⁶²⁷ وإلى جانب الحجّة في أسلوب التمثيل يستعمل سلاح بلاغي آخر، متمثلاً في الأسلوب الساخر ببراعة أديب يزن ما يقول، ويضع كل حرف في موضعه حتى تثبت الحجّة قاهرة، وهو يخاطب أسياد الاستعمار الذين يرون في الشعب الجزائري بأنه لا يعرف الديمقراطية فيحجّجهم بهذا القول: "ولهذا يقول المسيو هريو مخاطب النواب المسلمين: "لست أدري كيف تتصورون البرلمان والديمقراطية؟" وإن سؤالاً كهذا لهو عين الاعتراف!... فهو حجة على الاستعمار أنطقه الله بها ليفتضح! كيف لا نعرف وعندنا في الجزائر برلمان عظيم تأسس بفضلكم منذ مائة سنة؟ وفيه ندير شؤوننا بأنفسنا، وفيه نتدرب على بحث المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تهمننا في بلادنا وفي علاقتنا مع جيراننا! وكيف لا نعرف "الديمقراطية" وبفضل استعماركم نتمتع بالحرية والعدالة والأخوة؟ ونحن طيلة قرن كامل نتمرغ في نعيم الديمقراطية بفضلكم! وقد جاءكم نوابنا يتشكون من كثرة إنعامكم على الشعب الجزائري بهذه الديمقراطية! ويعرضون على "أنظار العالم" صوراً مغرية خلاصة من ذلك النعيم الذي خلقه في أرضهم حرصكم على البر بالإنسانية!"⁶²⁸. ويمثل نص بوزوزو ذروة قوة النشر الذي يلجأ إلى أساليب متعددة، إضافة على ما ذكرنا فهو يأتي بالمثل القديم وأقوال الحكماء السابقين، وينفخ فيه من القرآن، كما أن تعبيره في الوصف من السهل الممتنع وغير المخلّ.

وإذا كان بوزوزو صارماً حتى في سخريته فإن المدني يحمل في نثره قوة وعظمة، تعلوها نرجسية شديدة، وليُسّر ما يكتب ويعبر، تجد الكلمة طرية يافعة، فيها من الطلاوة ما يجعلها عند المتلقي

⁶²⁵ - من وحي البرلمان، جريدة البصائر العدد 11، مصدر سابق.

⁶²⁶ - المصدر نفسه.

⁶²⁷ - المصدر نفسه.

⁶²⁸ - المصدر نفسه، العدد 15، الاثنين 17 محرم 1366 هـ الموافق 1 ديسمبر 1947 م.

مستساغة من كل جانب، كما أنه يتميز بجرأة كبيرة في طرح موضوعه، والحكم على الصديق والعدو بكل غلو أو تطرف، في جمال تعبير وقوة لغة وسلاسة أسلوب، كما أنه من ناحية يمزج في أسلوبه بين التراثي والحداثي.

2 . 5 . الرحالون العلماء ورجال الدين.

ونقصد بالعلماء، علماء الدين، الذين يتمتعون بتقاليد في فن الرحلة ومجالاتها، وخاصة منها الحجازية التي لم يعرف لها نظير في تاريخ الرحلات العربية وغير العربية، لما تستهويهم فيها من جاذبية روحية، وحنوّ نحو تلك الأرض الطيبة الطاهرة. وقد عرفت الجزائر خلال عهدها الحديث عدة علماء ورجال دين أسهموا في هذا الفن، ولم يتوقف هذا الإسهام على غرض الحج، بل مقارنة مع جملة الرحلات فكانت نسبة رحلات الحج متفهرة، لأسباب موضوعية عرفتتها الجزائر. وتشكل هذه الزمرة من علماء ورجال دين طرقية وصوفية وإصلاحيين. ونستطيع أن نميز طوائف ثلاثة من هذا المستوى، الطائفة الأولى، رجال دين مستقلين، والثانية، رجال دين إصلاحيين، والثالثة، رجال دين طريقين.

2 . 5 . 1 صنف العلماء؛ رجال دين غير متحزبين.

وأبرز من يمثل هذه الطائفة، الأمير عبد القادر، والطيب المهاجي، ومحمد الخضر حسين⁶²⁹، والشيخ عدّون، ومحمد بن الحاج حمو والعشعاشي، والمهدي البوعبدلي، وغيرهم. ونجد في رحلات هؤلاء صيغ مختلفة، قد طغى عليها التوجه الصوفي، وعوارض الزمن، قد اقتدى فيها أصحابها برحلات السابقين، في سبكها. وإذا كان فيها التوجّه بارزا، والتفاوت مستفحلا. فإننا نجد الأمير عبد القادر يختلف عنهم جميعا في سبك نصه بلغة قديمة، وأسلوب تقليدي على منوال الأقدمين، يعتمد كثيرا على الصنعة، مثل قوله: "فليعلم الناظر أن مبادئ رشده الأكمل ومناهي جنانه الأجل بعد أن حصل السياسة الأدبية بالوطن، وحاز الرياسة العملية في كل سكن وقطر، قصد به والده المذكور آنفا المآثر الحجازية وارتحل به مجاوزين القرى والضواحي الحقيقية والمجازية ليتمرن من كل بلد اجتاز به بأخلاق أهله وتقر عين أبيه بمناقب فعله وليحوز معرفة حواضر الأمصار ويعرف الخاصة والعامة بحسب الأعصار"⁶³⁰.

⁶²⁹ - هو عالم جزائري الأصل عاش بتونس، لذلك تعتبره كثير من التيارات على أنه تونسيا، تولى مشيخة الأزهر لعدة سنوات في منتصف القرن العشرين.

⁶³⁰ - مذكرات الأمير عبد القادر، مصدر سابق، ص 106.

والملاحظ على رحلات هذا الصنف أننا قد لا نجد من عبّر عن شعوره الديني في كتاباته، سواء كانت هذه الرحلات حجازية أو غيرها. وقد كانت رحلات المهدي البوعبدلي، على شكل تقرير ورسائل سواء منها الداخلية أو الخارجية كالحجازية أو العربية أو الأوربية. وهو ينحاز في كل ذلك إلى توجّه المؤرخ لا رجل دين. ما عدا رحلته إلى الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا جاءت على شكل يوميات. بينما رحلة العشعاشي (الحجازية) يستولي عليها الحديث عن الكرامات فينتقل فيها القارئ من جو الحقيقة إلى جو الجاز الصوفي، الذي يقترب من الغرائبي أو الأسطوري، لأنه في كل حديث عن تنقل أو حدث إلا وكان يتحقق بمحرك كرامة من الكرامات، مما يميّز هذا النص عن كل النصوص الرحلية الجزائرية. وبداية من أول يوم خرج فيه شيخه من تلمسان يبدأ بعدها مسلسل الكرامات، الذي تتحول فيه العوالم وتتبدّل فيه السنن والنواميس. وقد كانت الكرامة فوق كل منطق، مما دفع بالرحالة أن يستعين ببعض منها لتحقيق أمنية السفر للحج مع شيخه، وهي الوصفة التي اتّبعتها حسب قوله: "وبعد سفر الشيخ من تلمسان، حصل لي اشتياق كبير للحج ومرافقة الشيخ، وكنت أسمع أسلافنا ومن أهالي تلمسان أن زيارة أربعة أولياء داخل تلمسان وأربعة أولياء خارجها تجعل الدعاء مستجابا بإذن الله تعالى، وأن كثيرا من الناس فعلوا ذلك، فاستجاب الله دعاءهم، وكانت من عادة أهالي تلمسان حينما يقصدون الحج يزورون هؤلاء الأولياء قبل سفرهم، وكذلك بعد رجوعهم من الحج"⁶³¹ والرحلة من أولها إلى آخرها لا تستغني عن الكرامة، وأبرزها أن كل مواجهة مع الأخطار كانت تنتهي ببركة شيخه إلى نهاية سعيدة، ولا تنتهي الكرامات ولا ينتهي عجبها. وهذه واحدة منها، وتتعلق بوصوله إلى تونس، حينها وجد من يستقبله دون سابق إعلام "وتابعت سفري إلى تونس العاصمة للحج بشيخي، فوجدت الفقراء التونسيين في محطة القطار بأمر من الشيخ الذي علم وقت وصولي بإلهام من الله، فهذه أيضا إحدى كراماته"⁶³².

أما الطيب المهاجي فهو يمثل اتجاهه أيضا بصفته عالما من علماء الدين، فهو في كل رحلة يلتزم الحديث عن مسائل فقهية، جرت له مع علماء آخرين سواء في المغرب أو الحجاز، كما كان يعبر عن عظيم كيد المستعمر الذي كان يعامل الجزائريين معاملة الحيوانات "وهكذا تلبس الحكومة الفرنسية على من لا يعرف مقاصدها ونواياها السيئة تجاه أبناء الجزائر. فلقد رأيت بعين رأسي المركب البحري الذي أقل الحجاج إلى جدة، وقد أفرغ من حمولته وهي كميات من أطنان الحنطة، ثم

⁶³¹ - سيدي محمد الحاج محمد بن الحاج هو، رحلة العشعاشي، كتاب السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية، جمع الحاج مصطفى العشعاشي، تحقيق

وتحرير: مصطفى بن بلس شاوش بن الحاج محمد، مطبعة سقال، تلمسان، الجزائر، دت.

⁶³² - رحلة العشعاشي مصدر سابق، ص 73.

غسل بماء البحر، وبقيت حبوب الحنطة في شقوق المركب، كما بقي في بعض زواياه أثر أرواث البقر والأغنام، وباقي الدواب التي كان المركب ينقلها من بلد إلى بلد⁶³³ ويقدم المهاجي أسلوبه وطريقة عرضه في نثر بليغ، ولغة قوية، لا هي بالقديمة ولا هي بالحديثة، كما ينحاز في كثير من العرض إلى الذاتية التي يعبر من خلالها مظاهر المجتمع وتوجه العالم العامل الذي خدم دينه ووطنه، فهو معلم الناس ولا يريد منهم جزاء. كما أنه لا يجد من دنياه من يعوض عنه سعادته إلا أن يجد سيرا لمشروعه العلمي في تعليم الناس، ولا ينقطع استمرارها، فليس أدلّ على ذلك من تعليقه بعد عودته من الحج، واستقباله لمدرسته حيث يقول: "مما يهم إثباته ثم الذي سرني بوجه خاص وقرت به عيني وارتاح له ضميري هو أن الدروس وجدتها منظمة كما كانت قبل غيابي، لم يطرأ عليها أدنى خلل يشرف عليه بالنيابة تلميذنا الشيخ جلول أبو ناب الفليتي، فقام بالنيابة عني أتم قيام حتى رجعت من سفري الميمون المبارك الذي بلغت فيه ما رمت وتم لي بواسطته ما قصدت، وانتهى بسلام والحمد لله في البدء والختام والصلاة والسلام على أشرف الأنام سيدنا محمد سيد ولد عدنان وعلى آله وأصحابه الذين أكرمهم الله تعالى بالرضى والرضوان"⁶³⁴.

2. 5. 2. صنف الإصلاحيين

يتبادر للذهن من أول وهلة أن الحركة الإصلاحية في الجزائر، هي حركة دينية، وبالتالي كل من يملك اعتماد هذه الجمعية فهو رجل دين بامتياز، وهذا خطأ شائع، لأن أعضاء ومناضلي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لم يكونوا كلهم رجال دين وإنما كانوا كلهم متديّنين، ورجل الدين في هذه الجمعية هو رجل الدعوة والإمامة في المساجد، والوعظ والإرشاد، بينما كانت هناك أصناف مختلفة وفئات متشعبة يندرج البعض منهم في العمل الصحافي والآخر في التعليم الحر، والبعض الآخر في الأعمال الحرة وغير ذلك. لذلك نميز في هذا المستوى طائفة علماء الدين الذين كان لهم إسهام في أدب الرحلة. وأبرزهم عبد الحميد ابن باديس، وعبد اللطيف القنطري، والمولود بن محمد الأزهري، ومحمد خير الدين، ومبارك الملي، والفضيل الورثلاي، وعبد الحفيظ الجنان، والسعيد الزموشي، والزغداني، وباعزيز بن عمر، ومصطفى بن حلوش، وسعيد البياني، وبلقاسم بن ارواق، والصادق حماني، وأحمد حماني.

⁶³³ - أنفس الذخائر وأطيب المآثر، مصدر سابق، ص 67.

⁶³⁴ - أنفس الذخائر وأطيب المآثر، مصدر سابق، ص 79.

وقد تميّزت رحلات هؤلاء داخليا بمتابعة سير أعمال الجمعية وتفقد شعبها المنتشرة عبر الوطن، وقليل منها ما كانت تخرج عن الوطن مثل رحلات ابن باديس إلى تونس وباريس، ورحلة محمد مستاس الإبراهيمي (رحلة الحج) أو رحلة محمد خير الدين إلى المغرب. أو مبارك المليي إلى "فيشي" (فرنسا). ولقد تميّز أسلوب هذه الشريحة في مستواه العام بالتقرير عن الرحلات، فقد تفتقت لغتهم بأسلوب بليغ من قبسات تراث الأمة، مُحلّية بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، كما أنها ضُمنت بمختلف ألوان الشعر، وقد لا نجد مستوى يعلو على مستواهم في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر الحديث. كل ذلك في سبيل تحقيق موضوعات تخص خدمة الأمة في إطار الجمعية الإصلاحية من كل جوانبه، وهؤلاء رجال العلم الديني كانوا كلّموا بمدينة أو بلدة، خصّوها بألوان من المواعظ والدروس الدينية، كبديل لما أصبح فيه القوم من انحلال أخلاقي وتدهور اجتماعي، وانحراف عقدي، ولم يكن يتوان حتى زعيمهم ابن باديس عن كتابة تقارير رحلاته إلى بعض البلدات التي استقبله أهلها بحفاوة وأكرموا أيما إكرام، اعترافا منهم بفضله على الأمة. وقد كان في كل بلدة يحلّ بها إلا ويتلقاه أفاضل أهلها من العلماء، فكانت لقاءاته علمية، ونزوله لا يخلو من منافع. ومن بين البلدات التي مرّ بها على سبيل المثال، مليانة، التي خصّها بالحديث عن علمائها بقوله: "ممن عرفنا بها المفتي الشيخ وكال محمد عالم قرأ سنوات بالأزهر، وأعجبي منه أنني وجدته يطالع شرح تجريد أحاديث البخاري، فشكرت له عنايته بالسنة، وقلت له إننا نعرف عقلية الرجل من معرفتنا بالكتب التي يطالعها فمن لا نرى له عناية بكتب السنة فإننا لا نثق بعلمه في الدين"⁶³⁵ وهذه فراسة بن باديس التي وزن بها رجل العلم، كما أنه نزل بالشلف، وكانت حينها تسمى "الأصنام" فعبر قائلا: "ممن عرفنا من فضلائها، مفتيها العالم الماجد الشيخ الوانوي بن الشيخ بومزراق الزعيم المقراني المشهور، والشيخ يمثل شهامة أسرته وكرمهم وهمتهم إلى معارف أكسبته إياها الأسفار والتجارب وهو القائم بالخطبة والتدريس في جامعها"⁶³⁶ وحديث ابن باديس لا يخلو من ضمير ديني، وهو توجه الرجل الذي وقف نفسه لهذا الدين مرشدا ومعلما وداعيا، ففي رحلة أخرى من رحلاته، يصف ما كان عمله منوطا به، في هذه الزيارات، كالتي قادته إلى عمالة وهران، يشرع فيها ببرنامج العمل في الرحلة: "كانت الدروس كلها حثا على الفضائل وتنفيرا من الرذائل وبيانا لحقائق الدين التي بمعرفتها يكمل الإنسان في إسلامه وفي إنسانيته و دعوة للتوحيد والاتحاد والإحسان إلى جميع العباد وحثا على التالف والتعاون مع جميع السكان على اختلاف الأجناس والأديان وكانت مادة الدرس دائما آية من كتاب الله مشفعة

⁶³⁵ - عبد الحميد ابن باديس، في بعض جهات الوطن، جريدة الشهاب، الجزء الحادي عشر، المجلد السابع، (رجب 1350هـ/نوفمبر 1931).

⁶³⁶ - المصدر نفسه.

بحديث رسوله عليه وآله الصلاة والسلام وكنت بعد الدرس اعرف الناس بالجمعية و مقاصدها حسبما هو مبين في قانونها الأساسي⁶³⁷. وقد أفصح -هو- نفسه بعنوان فرعي من نص هذه الرحلة، ويّين دوره فيها، وهو: "خدماتنا بهذه الرحلة"⁶³⁸ حيث يقول: "قد خدمنا الأمة الإسلامية بما دعوناها إليه من علم وفضيلة ومحبة وتسامح وما عرضناه على أسماعها من علوم القرآن وهداياته وما رغبناه فيه من قراءته و تفهمه والعمل به وخدمنا المسلمين وغيرهم بما دعونا إليه من اتحاد وتعاون وتراحم وتفاهم والتزام للأمن والنظام واحترام للقوانين الدولية"⁶³⁹. وما تميز به ابن باديس وغيره من علماء الإصلاح، أن أسلوبهم صريح في لغة قوية ورسنية يغلب عليها الحجة وكل أساليب الإقناع في سبيل دحض الأفكار المنحرفة والأخلاق الشاذة، والسلوكات المعوجّة، والقصد من ذلك خصمهم الأبدي التيار الطرقي.

وإلى جانب ابن باديس كان الفضيل الورتلاني ومبارك المليي يتميّزان بأسلوب قوي في مقارعة خصومهم، تنبعث منه رائحة الكراهية والتخاصم، ومما قاله الورتلاني في حقهم: "هذا الأمر هو ما ستسمعه أيها القارئ بعدما أحدثك بما ربما ظننته هزلا وهو والله إنه لحق ما إنك تنطق. ذلك أن صنفا من جنس الحيوان الناطق المطبوع بطابع الرذيلة، ونسبتهم للإنسان كنسبة النعامة -تقريبا- إلى من تشبهه من الحيوان لأنها مركبة من خلقة الطير وخلقة الجمل أخذت من الجمل العنق والمنسم ومن الطير الجناح والمنقار والريش، ومن ناحية أخرى لها ما يحبيك فيها وهو ريشها الجميل الذي يستعمل للزينة كما أن لها في الوقت نفسه ما يبغضك فيها وهو نعتها بالنفور والإجفال والغباوة حتى ضرب المثل بها"⁶⁴⁰ ومبعث كل هذا أن الورتلاني كان متعصّبا لدينه، مخلصا في دعوته الإصلاحية، كل حديثه يصب في قالب الدفاع عن سلامة الدين الإسلامي من الشوائب، واستخلاصه من كل انحراف، نجده يوطّن هذا الادّعاء في قوله عن طائفة من خصومه: "فهم الزمرة التي نغصت العيش على الخناق وأفسدت الدين على العباد وعثت في الأرض فسادا وشملت إذايتها الإنسانية جمعاء حتى أن ذنوبها لا يحصيها إلا الذي كتب عليها هذا الشقاء والعياذ بالله، ثم ليس مرادنا التعريض بما هي في عالم الممات"⁶⁴¹ وعلى هذا المنوال عموما سار كتّاب الإصلاح من العلماء وواكبهم في ذلك كل من اتّبع

⁶³⁷ - عبد الحميد ابن باديس، رحلتنا إلى العمالة الوهرانية، جريدة الشهاب، الجزء الثامن، المجلد الثامن، (غرة ربيع الثاني 1350هـ/ أوت 1932).

⁶³⁸ - المصدر نفسه.

⁶³⁹ - المصدر نفسه.

⁶⁴⁰ - الفضيل الورتلاني، رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة الشهاب الجزء السادس المجلد العاشر، (غرة صفر 1353هـ/ماي- 1934)

⁶⁴¹ - المصدر نفسه.

سبيلهم واقتفى أثرهم. وقد تميز أسلوبهم بالقوة والسلاسة تشدّه العاطفة الدينية القوية التي تنبعث من محراب لغتهم التراثية.

2 . 5 . 3 صنف الطريقين

يختلف الحديث عن رجال الدين بين الإصلاحيين ونظرائهم من الطريقين، فقد لا نجد من هو من رجال الطريقين إلا رجل دين، فهذه الطائفة تشكّلك بنيتها من طبقات ومراتب أعلاها شيخ الطريقة وأدناها الفقير، فكل من أقحم نفسه في هذا التيار إلا وسمي رجل دين. كما أننا استثنينا في حديثنا عن الصحافيين من هذه الطائفة، وذلك لنستعير من يمثّلها في ذلك الميدان. وأبرز من يمثل هذه الطائفة ابن عليوة رئيس الطائفة العلوية وشيخها، وعدة بن تونس، وقويدر بن مناد، ومحمد المهدي، وحوحو محمد العزاوي، وأحمد بن الحاج قويدر بن مناد، وابن البشير العقبي، وعبد القادر بن عبد الله بن سيدي عيسى، وابن عميمور الهلالي بن الحاج الطاهر القسنطيني، وعمروش لخضر، وابن منصور، وعلوش الصديق، وغير هؤلاء.

ومثلما كان الشأن بالنسبة للإصلاحيين، تميز رجال الدين (الطريقين) في تنويعهم لاتجاهات رحلاتهم داخليا وخارجيا، وكشفت عن بعض الجوانب الهامة في حياتهم، وفي حياة الأمة عموما. فقد كانت رحلات الحج، وكانت الرحلات السياحية، وكانت الرحلات باتجاه أوربا سياحية أيضا، وبتجاه المشرق والمغرب.

وقد كانت رحلاتهم الداخلية تشبه إلى حدّ كبير الرحلات الإصلاحية في ذكر المدن المزارة والتحدث عن أحوالها وأوضاعها الاجتماعية والدينية والاقتصادية، وهو نسق عام عرفته الرحلة الجزائرية في هذه المرحلة من عمرها، فهي دائما تذكر البلدة ووضعيّتها الجغرافية أو الاجتماعية وأبعادها يأتي ذكر المسجد مباشرة، كمثل هذه النماذج المأخوذة من رحلة الحسن الطولقي: "الأصنام عبارة عن مدينة كبرى فلاحية يقصدها السواح من كل ناحية وصوب لمشاهدة فلاحتها وآثارها التاريخية فوصلتها على الساعة الثالثة ولما وصلتها ذهبت إلى مسجدها الكبير لأداء المفروضة"⁶⁴² وقوله أيضا: "الجلفة عبارة عن مدينة فلاحية كبيرة أهلها معتنون بتربية الأغنام والأبقار وهي فسيحة الأرجاء واسعة العمران كثيرة المساجد"⁶⁴³ وقوله: "الأغواط عبارة عن مدينة كبيرة تاريخية عتيقة ازدانت بالمساجد الكثيرة والتدين الفائق"⁶⁴⁴.

⁶⁴² - الحسن الطولقي، سوانح متحول، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 50، مستغام يوم 15 صفر 1357 هـ الموافق لـ 16 أبريل 1938م.

⁶⁴³ - الحسن الطولقي، سوانح متحول، مصدر سابق.

⁶⁴⁴ - المصدر نفسه.

ومثلما كان للإصلاحيين حربا على الطرفين، جابه الطريقون الإصلاحيين بالملكيات نفسه، فتميزت حربهم الشعواء في اشتداد أوار الحرب الكلامية التي جرّبت فيها الأقلام أساليب الحجّة ضد الخصوم، ومحاولة الرفع من مستوى التعبير، مع مراعاة للقيم الفكرية ودغدغة للخواطر، في سبيل النيل من خصومهم وحفظ ماء وجه الفكرة القائم الدفاع عنها، فوصل الأمر إلى درجة الحنق، حتى تميزت الرحلات ببعض الإشارات الصريحة، التي لا تبقي من القول ولا تذر، عندما يجدون أن المنطقة المزارة قد سبقهم إليها التيار المضاد وأسس بها أركانها، فلم تكن تلك المنطقة إلا سوداء، ضبابية صورتها، ناقمة تعابيرهم بما يشي بكثير من الحقد والحكم على غيرهم، وهي صيغ وتعابير تتكرر في كل بلدة سقى فيها الإصلاح ماء مبادئه، كما هو الحال عن مدينة "آقبو" التي سبق فيها الإصلاح، فكان هذا رد الطريقين: "أما مدينة آقبو فهي مدينة تجارية يسكنها أقوام يغلب عليهم حب الانكماش والاشتمزاز من الذاكرين الله وقد سيء ظنهم والعياذ بالله بالملتحين الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم لأن تعاليم الإصلاح التي باضت وفرخت في عقولهم لم تسمح لهم بحسن الظن في سلف الأمة فضلا عن خلفها ولا مشاحة في هذا فإن المصلحين قد عُرفوا بسوء الظن عند عامة الناس وخاصتهم وهكذا شاء الله أن يلعب الإصلاح دوره ويمثل روايته في بجاية عاصمة التصوف ونواحيها"⁶⁴⁵ والرحالة يأسف على ما وجدته في الناس هناك، حيث غلب الإصلاح فيهم، وانشغل الناس به، وتأسف كون منطقة القبائل حاضنة الزوايا وحامية التصوف على مرّ التاريخ الجزائري، كيف أصابها من أمر المصلحين حتى "لم يبق على وجهها من يقول الله. الله. إلا ما رحم ربي وقليل ما هم..⁶⁴⁶ ومن شدة غيظه الرحالة الطريقي (العلوي بن مراد) يحاول أن يلطخ سمعة الإصلاح الجارفة، ويكشف عن أخطاره -في نظره-، حين يقول: "وقد دبت عقارب الإصلاح حتى في خيام البادية ومداشرهم ولم يجدوا من الإصلاح إلا التعرض لقراءة القرآن على الأموات وتشجيع الجنائز بكلمة لا إله إلا الله وإلغاء الباقيات الصالحات عقب الصلوات وقد آثروا فتنة عمياء على الذاكرين الله وحملة كتاب الله ولا حول ولا قوة إلا بالله"⁶⁴⁷ وعلى الرغم من أنه ذكر خطر التبشير الذي أصاب عمق منطقة القبائل، وأنشأت بها الكنائس وصدحت النواقيس، إلا أنه يرى أن خطر الإصلاح أكبر وأشنع، لأنه يرى حسب قوله بأن "مصيبية المصلحين قد كانت أشد ضررا على المسلمين من مصيبية المبشرين لأن المبشرين متجاهرون بعداوتهم للإسلام فتحذر المسلمون منهم أما المصلحون فلم يتجاهروا إنما خدعوا الأمة خداعا تارة باسم الإصلاح وتارة باسم الدين الصحيح وتارة باسم الدعوة إلى الكتاب

⁶⁴⁵ - العلوي بن مراد، شوامخ الجبال، جريدة لسان الدين، العدد 57، السنة الثانية، الخميس 30 جمادى الأولى 1357 الموافق 28 جويلية 1938م.

⁶⁴⁶ - شوامخ الجبال، جريدة لسان الدين، مصدر سابق.

⁶⁴⁷ - المصدر نفسه، العدد 58، السنة الثانية، الخميس 15 جمادى الثانية 1357 الموافق 12 أوت 1938م.

والسنة والكل عناوين مرماها واحد وهو تشكيك الأمة فيما عاشت عليه أربعة عشر قرناً⁶⁴⁸ إن ما جاء على لسان هذا الرحالة، يبشر بأن أسلوبه سليم و حجته معقولة، وتركيبه منطقي، مما يفصح عن تكوينه الأدبي والفكري، وهذا في حدود منطقته.

ومن جهة لا يُظنّ بأن أسلوب الطريقين انكباب على النمط الحجاجي الصرف، وفحش في القول، وتصعيد في التعبير، بل الحاصل أن هناك متخلّلات فنية ولو أنها متذبذبة ونادرة، إلا أنها تشي بمراعاتهم للجانب الجمالي، عند استخدام الأساليب المجازية البليغة التي لا يعدم منها تعبير هؤلاء، وهي تصب دائماً في ضوء العامل الصوفي مثل هذا القول: "خرجنا من الجزائر في جماعة من إخواننا الذاكرين فكان القطار يهتف بحياة العمل ويشنف أسمعنا بتسييحه الذي كلما سمعته ذكرني ما التومته السادة الصوفية من ذكر اسم الصدر المعروف عندنا بالعمارة وكنت أتأنس به وبينما أنا مغمور في ذلك الأنس وإذا بالقطار يخلل تسييحه بالزغاريد من حين إلى آخر فقلت سبحان الله الذي أنطق كل شيء"⁶⁴⁹ ويبدو جلياً أن هذا النمط من الأساليب، متناس مع أفكار سالفه تتماشى والنسق الصوفي المستمد من روح الدين الإسلامي في تجلياته، في كل ما يتعلق بالشرائع والغيبات. وسواء أكانت الرحلة داخلية أم خارجية، فمبدأ الدين في هذا المستوى، هو المستبدّ في تعبير أصحابه، فلا يخلو نص من إبداء رأي في المجتمع من ناحية الدين والمساجد والزوايا، والالتزام، وبركة العلماء والصالحين، وكل ذلك في إطار التصوف الذي يعدّ مبدأ الطريقين وغايتهم، ومنشأ سلوكهم. بالإضافة إلى الأضرحة التي تُشكّل محور الرحلات ودافعها عند غالبية الطريقين الذين يعتقدون جازماً بنفع بركة موتاهم من الصالحين، خاصة إذا كان هذا الضريح يحتوي اسماً كبيراً، مثلما نجد في الرحلات الطرقية الجزائرية باتجاه المغرب. فلا يتحقّق لزائر المغرب (فاس) حظ، ولا يشعر بالزيارة، ما لم يقف على قبر "إدريس" مؤسس الدولة الإدريسية، الذي تعدّ زيارته بالنسبة للمتصوفة والطريقين ركناً عينيّاً يستوجب أن يقف عليه كل زائر، ويدي من خواطره واحترامه الكبير للضريح وصاحبه، وليس أدل على ذلك من قول "عدة بن تونس" الذي يصرّح بالآتي: "ومن الأضرحة العامرة التي توقفتنا لزيارتها (ضريح) سيدي مولانا "إدريس الفاتح الأكبر" الذي فتح الأوطان بسيفه، والقلوب بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان خير مثال لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا. وأنه ما حفظ الله من واقعه فح وجاء به على قدر إلى المغرب الأقصى إلا ليحيى به ذلك الوطن الذي كان متعطشاً لا أن يعبد الله وحده لا شريك له. وقد

⁶⁴⁸ - المصدر نفسه، العدد 57، السنة الثانية، الخميس 30 جمادى الأولى 1357 الموافق 28 جويلية 1938م.

⁶⁴⁹ - المصدر نفسه.

قام مولانا (إدريس) رضوان الله عليه، ببث التوحيد في القلوب، والاهتداء في العقول، إلى أن صارت الأمة المغربية أمة من الأمم التي يفتخر بفضلها، وأخلاقها الكريمة.⁶⁵⁰

⁶⁵⁰ - عدة بن تونس، المغرب الأقصى، جريدة المرشد: ع 54 - 5 - ربيع الأول 1371 هـ 30 نوفمبر 1951 م

الباب الثاني

الرحلة الجزائرية الحديثة

وتمثلات الأنا والآخر

الفصل الأول

صورة الآخر والاختلاف الثقافي

1. صورة الآخر/ الإنبهار ولحظة فقدان التوازن

إن ما يسفر عنه واقع الرحلة، ظاهريا، هو تحقيق فعل الجسد للتنقل من مكان إلى مكان آخر، وهو العامل على افتكاك المآرب وتحقيق غايات معينة تكون بمثابة قصدية الرحلة.. يتوقف هذا الحد على حدود الظاهر الذي يمثل شكل الرحلة. بينما الرحلة تتعدى هذا الفهم السطحي إلى حقيقة ما يتضمنه فكر المرتحل الذي يعدّ الركيزة الأساس في تحديد العملية الرحلية المنوطة بفعل الفكر ونوازع العواطف التي تحتل جوانحه، وليس الجسد إلا وسيلة تقتاد الفاعل إلى تحقيق تلك المآرب. ومن هنا نقرّ بأن الظاهر في عملية السفر ليس إلا شيئا ثانويا بالنسبة لعمق السفر الذي يتضمن تفكيراً سابقاً لعمليته ورؤية تزامنه، وإعادة ترتيب وتصحيح الرؤى والأحكام المسبقة إلى نصابها. ومنه، فالرحلة في هذا المعترك، تعد أهم وسيلة في استظهار هذا الاختلاف بألية المقارنة لأن "الرحلة سفرة في مكان الآخر أو المكان الآخر، لكنها كذلك سفرة في مكان الأنا. الشيء الذي يمنح مفهوم الرحلة طابعا مركبا وجدليا. فأنت ترحل إلى الآخر، لكنك ترحل إليه بمكانك وزمانك، على أساس أن الرحلة ليست تصورا أو (تصويرا) للمكان المقصود فقط، وإنما هي أيضا وبالأساس إعادة إنتاج أو استكشاف وتصوير المكان المنطلق والتعرف عليه"⁶⁵¹ لذلك لا يمكن اعتبار السفر إلا تجربة فردية في خوض جماعي، فلو افترضنا أن قافلة من المسافرين يقصدون مكانا معيناً في زمن معين، تكون فيه العملية واحدة، ولكن، لكل مسافر من هذه الكوكبة سفر خاص في ذهنه وفكره يمليه عليه توجّهه وحضوره الذهني ومرجعياته الثقافية وإستراتيجيته في الرؤية، فتصبح لدينا عدد الرحلات بعدد أفراد القافلة، وليس رحلة واحدة إلا من باب الفعل، ومن هنا يمكننا أن نعتبر أن الرحلة واحدة والخطابات متعددة، وهذا التعدد هو الذي ينفرد به كل شخص من حيث هو تركيبة بشرية منفردة (مستقلة)، وبالتالي يصبح كل إنسان حاملا لرقعة جغرافية خاصة، كما أن لعلم الروح أيضا جغرافيته وأراضيه وأنهاره وجباله. ويفترض التوغل في هذا العالم الغريب الذي تختلف إحدائياته الجغرافية عن تلك التي نجدها في عالمنا المادي، كشفا، وبالتالي طريقة حضور أخرى، فكل إنسان له فلكه الخاص الذي ينأى به إلى عالمه وفكره، ويستقل فيه روحيا وفكريا، يحقق فيه ما تضافر له من تخمينات ومن عوامل سابقة ومستشرفة. يتوقف في لحظات واعية لبث الأسئلة التي تفرضها العوالم والمناسبات. ويتحقق ذلك أكثر عند الإنسان في سفرياته وتحواله الذي يعقد من خلاله مقارنات تتلحح بين ما يتشكل في الذات وما تسفر عنه المشاهد وما تلحّ عليه توجهات (المرتحل) الإنسان.

⁶⁵¹ - عبد النبي ذاكر، المغرب وأوروبا نظرات متقاطعة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، المغرب، ط 2، 2007، ص 30.

وفي كل هذا، لا يعبر الرحالة عن تفسيره للظواهر والمشاهد والأحداث، إلا من زاوية الاختلاف والتطابق. هذه الخاصية التي تكشف أن للإنسانية أبواب للتفاوت، يفرضها واقعهم المعيش، تبدو فيه دينامية الفعل الإنساني ذات بُعد يعبر عن سمة التدافع، هذه السنة التي ما فتئت تنفرج زاويتها كلما تقدم الزمن وتدفقت الأفكار وتكاثرت البؤر الإيديولوجية. ومنها يتضاعف الاختلاف بين بني الإنسان، فيصبح هذا الفعل عاملاً حيويًا يقره الواقع الاجتماعي للإنسان، كما تقره الشرائع، ولعل أبلغ رسالة ما جاء به القرآن الكريم، حين قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁶⁵² وهو السبيل الوحيد للتوازن الطبيعي للإنسان الذي يضمن استمرارية الحياة وديناميتها. ومن هنا تبدو الحياة غريبة بأطوارها، غامضة بأسلوبها. سبُلها كثيرة وشعابها موحشة بتناقضاتها، نتيجة الاختلاف في وجهات النظر، والرأي والرأي المضاد الذي يعدّ واحداً من بنات الأفكار، وبالتالي يكون طبيعياً أن يختلف الإنسان مع أخيه الإنسان في ظل العقل المجرد، فما بالك إذا ما توسّعت رقعة الفضاء وتمدّدت جغرافيتها، وتعدّدت الجماعة إلى جماعات وأحزاب، وتفرّخ عنها أفكار ومذاهب، وتجدد الدين وتعصّب كلُّ لمذهبه وهويته واستظهر في ظل الضعف البشري، وساق كل ذلك إلى حروب وخصومة وشقاق، وزاد كل هذا في تضخيم الرصيد المذخر من شتى الوجهات، فأصبح المجتمع مجتمعاتاً وأمماً.

ففي ظل هذا السياق تدرج الرحلة الجزائرية الحديثة ضمن مستوى حضاري دوني قد فرضه عليها الواقع الاستعماري والتخلف المحلي، فبات من الطبيعي أن تتجلى عناصر التفاوت بين الأنا المتقهقرة والآخر في مستوييه المتحضر في صورته المدنية، والاستعماري في صورته السلبية. فعدى الإقرار بالتفاوت لا يخرج عن صورته العامة بين صدمة واستسلام وخيبة أمل، وبين اختلال وتوازن، ووعي بتفوق الآخر وتفاوته بمستواه الراقي في محاولة للبحث عن مخرج من خلال النقد الذاتي وصراع الذات مع نفسها.

1.1. الإقرار بالتفاوت / الصدمة وخيبة المرجع.

لقد سبق للحضارة الإسلامية أن بلغت حدًّا أقصى في تطورها ونفعها للإنسانية، فكانت هذه الحضارة محل دهشة الآخر وانبهاره، في حين لما دالت دولة الغرب في تزعم العالم حضارياً، عادت الأمة الإسلامية والعربية إلى الحضيض فعانقت البداوة. حتى إذا ما انتبهت إلى ما حقّقه الغرب من إنجازات عصرية لم تستطع استيعاب هذا المنجز الغربي، ووقعت في الصدمة الحضارية والاغتراب والدهشة من

فرط وقع هذه النتيجة الغربية الغربية. وقد تمثل هذا الواقع في صورتين ميّزتا الحدث العام، لواقع المسلمين: الوعي بالصدمة في لحظة دهشة وانبهار، ولحظة الاعتراف وإعادة تشكيل الوعي. وتعدّ الرحلة الشكل السردى الأكثر موضوعية، والأقرب إلى الواقع في تبنيها للحقائق، وهي تقف شاهدا ومؤرخا للفكر لدى أمة ما من الأمم في زمن معيّن، ومعيّارا لقياس الفارق بين مستويين متفاوتين حضاريا. وفق هذا، تقوم الرحلة الجزائرية الحديثة على التباين في استيعاب المظاهر الحضارية نظرا للامتداد الزمني الذي عرفته المرحلة وما اعترها من تفاوت بين أجيالها، فأجيال القرن التاسع عشر ليست هي أجيال القرن العشرين، حيث يكمن الاختلاف في عامل التواصل القائم على التحيين والثقاف فيما بين المجتمعات، فكّلما كان التواصل قويا كلما زالت وخفّ وقع الصدمة، أو العكس، وقد عبّر عن ذلك واقع المجتمع الجزائري خلال القرن التاسع عشر الذي كان يعيش البداوة، بينما خلال القرن العشرين فقد تميز بالانفتاح شيئا ما حين نقل الاستعمار نماذج من حضارته إلى أرض الجزائر فعايشها الجزائريون، متمثلة في عدّة مظاهر كالعمران، والنظام، وسلوك الإنسان.. يتبين من ذلك أنه كلما كانت المرجعية مخالفة تماما لواقع الرؤية، كانت الصدمة أشدّ، ووقع الاختلاف أكبر، وكلما تقارب الشبه كلما زالت درجة الصدمة.

ومن خلال تتبعنا لنصوص الرحلات الجزائرية في هذين الفترتين، تبين لنا جليّا أن رحلات القرن التاسع عشر باتجاه أوروبا كانت كلّها -تقريبا- نحو فرنسا، التي كانت تمثل الحضارة وما تحمله من تطور ومن مظاهر القوة والتفوق، فكان وقع ذلك شديدا على الرّحّالين الذين واجهوا هذه الحضارة بمرجعية فارغة حضاريا، ومنه واجهت البداوة بسداجتها الحضارة وما تحمله من عناصر التقدم والتفوق. أما خلال القرن العشرين فقد تكوّن وعي آخر لدى الجزائريين والذي نجده متمثلا لدى الرّحّالين الذين تواقفوا مع الحضارة ببلادهم فلم تظهر على تعبيرهم صدمتها كسابقهم، وإن كانت كل تصريحاتهم وتلميحاتهم تنم عن التفوق والفرق الشاسع بين الجانبين.

وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن رحلات القرن التاسع عشر التي اتجهت نحو أوروبا وتحديدًا إلى فرنسا، بريئة، فقد كانت كلّها تتم بإيعاز من الإدارة الاستعمارية التي كانت تخصّص للمنحازين لها من الأهالي في صورة "القياد" الذين يمثلون مناطق الجزائر الثلاث، فتخصّص لهم مقاعد شرفية للحضور في الاحتفالات الرسمية التي كانت تقام على مستوى الرئاسة الفرنسية بالعاصمة باريس، وكانت ترمي من خلال ذلك إلى احتواء الأهالي وإعطاء صورة عن فرنسا كونها حاضنة الجزائر موعزة إلى أنها منطقة من مناطقها، فكان تسعى جراء ذلك إلى إدماج الجزائريين كعناصر فاعلة في المجتمع الفرنسي من خلال التظاهر أمامهم وتحسيسهم بأنها لا تنظر إليهم من زاوية الهامش، عبر شعارها الداعي للمساواة

والعدالة والأخوة، وهو الشعار الذي لم يكن يهضمه الوطنيون، أما المماليكون فهم وحدهم من أعطى لفرنسا هذه الساحة حتى جعلتهم -فرنسا- حصان سباق لأجل احتواء القضية الجزائرية. ليس هذا فحسب بل وبإيعاز منها كانت تتم هذه النصوص التي تعبر عن خطاب إشهاري لفرنسا كما يعترف أحدهم بالقول: "أشار علي بعض الأمراء المحبين بتسجيل ما نشاهده ببر فرنسا، وما نعاينه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة. فأجبت له لمراده خشية الملام، غير أنني ألقيت شيئاً يعجز اللسان عن إدراكه، مع قصر فهمنا وعدم لحوقنا بهذه المرتبة التي تتفاخر بها فحول الرجال المطلعة على دقائق المسائل، وعزو الأقوال وحيث لم يبق الخلاف أقول ما استطعته بحمد الله تعالى وحسن توفيقه"⁶⁵³ والملاحظ في قول الرحالة أنه يختلط فيه الذاتي بالموضوعي.

1.1.1. الإقرار الصريح/ العجز المعرفي لحظة اختلال.

يلجأ الرحالة إلى عالم آخر بحضوره الذهني المزود بباقة مكتسبة من المعارف الثقافية الشاملة، المحدودة أو الممدودة، المحصنة في بعض قضاياها أو المرتبكة التي تعصف بها رياح الغير المتفوق.. هذا ما يحدث في كل ثقافة تُعرض نفسها للامتحان أمام ثقافة مغايرة مختلفة أو مخالفة، والرحلة الجزائرية واحدة من هذه الحمولات الثقافية التي حصل لها ارتباك كبير حين واجهت ثقافة ناضجة استطاعت أن تعي معنى الحضارة وتعمل بأبعادها الإنجازية لصالح الإنسان. وباستطاعة الإنسان -أي إنسان- أن يدرك ما يُفوقه مما هو دونه من خلال المقارنة التي تحصل بين طائفتين متقابلتين من الجنس نفسه، فالحضارة الغربية بابتكاراتها ومفاتيحها تغطي على سداجة البداوة التي تحملها الذات الراحلة. ولا يتوانى الرحالة الجزائري في تعرية ستار كشف الجهل عن نفسه، وهو يكتشف أنواعاً من نماذج ما صنعه هذه الحضارة. ولا تؤدي هذه الكشوفات إلا إلى الانبهار والتسليم نتيجة العجز في تفسيره وكأنه ظاهرة يحتويها المجتمع -هذا- لا واقع يشمل الاستيعاب، فيضطرب من خلاله الفكر الذي يقوده التعبير اللازم له بعبارات ساذجة تحمل الكثير من الغرابة، متأسس على مبدئ أساس وهو الرصيد الثقافي المتمثل في المرجعية التي ينطلق منها الرحالة لتحديد الظواهر التي تفوق محتوى استيعاب ذهنه. وهو في كل الأحوال يتهم أمته على اعتبارها أمة متخلفة، في مقابل فرنسا الدولة العظيمة التي تملك من أسباب الحضارة والتفوق.

إن عملية الانفعال بالمنجز الغربي، وفي حضور واع للذهن، يُشكّل قوة ذات سلطان عنيف على الرخّالين، الذين جابهوا هذا الواقع الموروم بالتفاوت، فأشاروا بالدليل والبيّنة، والحجج الدامغة، وبكل

⁶⁵³ - رحلة محمد السعيد بن علي الشريف، من كتاب: فن الكتابة الصحفية عند العرب في القرن التاسع عشر، الزبير سيف الإسلام، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1986، ص 43.

أشكال وصيغ الخطابات، معرّين على ذواتهم مسلمين ومستسلمين دون إلزام، وإكراهها على الاعتراف بهذا التفاوت والتفوق، بأقوال شفافة وصریحة، وهو عامل هزيمة صریحة لم يجد فيها الرحالة بثقافته الساذجة، ما يجابه به هذا الطود الغريب، لعدم التكافؤ الذي يفرضه هذا العالم الجديد الذي ظهر على حين غفلة من العرب والمسلمين، الذين وجدوا أنفسهم في صدمة لِمَا وصل إليه العقل الغربي، فعمّت علامات الاستغراب بصيغها المختلفة تملأ نصوص هذه المرحلة، وكأن الرحالة في ذلك يعظ نفسه ويفجر أمامها غضبه ويحملها جريرة ما وصل إليه قومه من تخلف، وما جنت عليه من هذا الجور، في اعتراف أحدهم بقول: "وقلت لنفسي اعتبر يا أحمد بن قاد، وأخبر من يعتبر"⁶⁵⁴ ويبدو أن الرحلة الجزائرية التي عبّرت إلى أوروبا في القرن التاسع عشر وبالأخص إلى فرنسا، عبّرت عن هذا المستوى بقوة، وكشفت عن ميادين ومستويات الرحالة المنغلقة في حدود ضيقة.. فالمتبع لمحتوى النصوص في هذا الشأن سوف يكتشف ذلك النسق بكل يسر.

إن أول ما يثير الانتباه ويجلب الاهتمام، قضية البداوة التي يتضمنها النسق المعرفي للخطابات الرحلية، للكشف عن هوية الرحالة، فكلما شاهد ما لا يستوعبه عقله وفكره، إلا وأعطاه صفة تقابله صريحة أو ضمنية لتقريب القارئ من الفهم، ومن إدراك الشيء المقصود، وهي تتم عن صميم المرجعية الفكرية والثقافية لمجتمع الرحالة، الرافدة من بيئته التي يجسدها بوعي وبلا وعي.

يحدد الرحالة في هذا الصدد كل لحظة تستوقفه للرجوع إلى بيئته حتى يضع طبيعة الموقف في حدود مرجعيته إلى حد المطابقة ثم الاعتراف الضمني والكشف عن صورته الحقيقية الناجمة عن معجمه الدلالي، وهو في كل الأحوال ناجم عن بيئته البدوية التي تبعد عن حضارة الغرب مسافات. إن أهم شيء استنطق حفيظته الكامنة هو ما عرفته الحضارة الغربية من تطور فأدى إلى استحداث وسائل ساعدت الإنسان على تيسير حياته وتذليل الصعاب له، في حين كان الجزائري -آنذاك- لا يخطر هذا حتى على باله، فلما تهيأ له أن يرى من اكتشاف، تمثل له كل شيء مستغرب وأصبح يوازن في سخرية وتهكم على ذاته، مبدياً طبيعته البدوية.

وقد كثرت عناصر الحضارة وتشعبت مستوياتها، فكانت وسائل النقل -إحداها-، حيث أصبحت أوروبا تعتمد فيها على الوسائل البخارية، أما الرحالة الجزائري فقد جابهها بمرجعيته الرجعية، متمثلة في الدابة، في صورة يقدمها ابن صيام: "وفي رجوعنا من مدينة باريس مررنا تحت جبل كذلك في كروسة الدخان ستة دقائق مع خفتها وسرعة سيرها، لأنها كانت تمر فيها كالبرق

⁶⁵⁴ - ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 56.

الخاف. أما الراكب فوق الدابة، لو دخل هذه الثقبه يسير تحت الجبل مدة ساعة ونصف⁶⁵⁵ في إشارة واضحة إلى أن الرحالة يجيل الكلام على نفسه وعلى بيئته التي لا تزال فيها الدابة هي الوسيلة الوحيدة للنقل، وهي التي تقوم بعملية الدفع التي ناب عنها المحرك (الدخان)، لذلك يقوم بعقد مقارنة من أجل استحسان الوسائل الحديثة في حضارة (الرئي) مقابل الوسائل التقليدية في حضارة (الرئي)، ويضيف إلى ذلك بقوله: "وتلك الكروسة تقود كرايس عديدة تنيف على الستين، في كل واحدة ستة عشر نفر، بدون خيل ولا واسطة قائدة، ما عدى الدخان هو المدير لتلك الرودات حتى تسير السير المفرط"⁶⁵⁶ وهي المقارنة التي تحيل إلى أفضلية المستحدث على التقليدي. كما يمكننا أن نكتشف ذلك على مستوى الصنائع التي تتحكم فيها الآلة حيث ينتاب الرحالين شعور بالاسترجاع نحو موطنهم الذي لا يعرف مثل هذه العمليات إلا ما تنتجه النساء، مع استغراق في الوقت، وهدر للجهد، فضرب لنا مثلاً عن الصوف الذي تنسجه النساء "هنا"، وما يترتب عليه من تكاليف الجهد والإرهاق، بينما "هناك" لا دخل سوى للآلة التي تقوم بكل الأدوار، وباختصار المسافة الزمنية إلى أدنى ما يمكن، وبإتقان بديع لا يمكن لليد البشرية أن تحتذيه: "فترى الصوف مثلاً في محلّ يحملها تخرج خيطاً ثم يصير مُلفاً جيداً ومتوسطاً وأدنى، فنقول أين المشط وأين المغزل وأين المنسج وأين الخلالة والشيء المتناول باليد؟"⁶⁵⁷ إن حديث الرحالة (ابن قاد) يدلّ تحكّمه على وضعية بيئته التي لا تزال تستعمل فيها الوسائل التقليدية. وما يمكن اعتباره من الأهمية، أن الرحالة (الإنسان) لا يدرك أفضل مما هو بين يديه إلا حين تعرّفه على أفضل ما لآخر من أفضلية، فإذا كان أحسن فيعد ذلك ثقافاً وتواصلًا، واكتساباً لمعارف جديدة، هو أخرى بأن يأخذ تعاليم تطبقها لفائدته، وهذا يمر عبر صراط التهكم على الذي بين يديه. وإذا كان الذي يكسبه في بيئته ومحيطه أفضل مما رآه يكون التهكم بالأدنى. والتهكم إشارة حقيقية للتفضيل عند الرحالين.

وتتوالى المستحدثات فيما يرويه -مثلاً- "ابن قاد" ودائماً يسمي الآلة القائمة بهذه الأدوار بـ"الحركات العقلية"، كقوله في طحن الشعير واستخراجه خبزاً: "والحركات العقلية حتى القمح يوضع حبا في جهة وبصير دقيقاً مغربلاً صافٍ بالحركة في جهة ثم يخرج خبزاً أو بشماتاً للعسكر في جهة، وهذا في أسرع وقت والإنسان واقف"⁶⁵⁸ ومثل ذلك يضيف في قوله عن إنتاج الثلج لأغراض خاصة، عن طريق النار: "وأغرب من هذا أن النار والماء ضدان لا يجتمعان، فرأينا الثلج يستعمل

655- ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 28.

656- المصدر نفسه، ص 28.

657- نفسه، ص 55.

658- نفسه، ص 55.

من نار وماء بالآلات والحركات العقلية، فلو سمعنا بهذا لما صدقه العقل. لكن ليس الخبر كالعيان فوقنا باهتين"⁶⁵⁹ وهذا ما يجعلنا نقول تعليقا على قوله، بأن هذه الأمور المتعلقة بالصدمة التي أفقدت الرحالين توازنهم في هذه الفترة، وولجوا في غياهب التيه، هو اعتراف بالعجز، وعدم احتمال المشاهد الحضارية الجريئة والمثيرة. ويبدو كل هذا الاستغراب نتيجة الظواهر العلمية التي لا يفسرها إلا المعرفة بشأنه، أما الذي لا يملك أجدياته، فليس له في ذلك إلا التسليم. لأن درجة الصدمة كانت قوية ومؤثرة، وليس في مقابلها أية قرينة معرفية تخفف شدتها وتخفف من توترها الذي تمارسه هذه العناصر المتطورة، وبالتالي لم يبق للرحالة سوى الانكماش نحو مرجعيته وعزائه محتويات بسيطة بما في هذه الجعبة، مستمدة من استسلامها كقوة بلاغية عن عدم قدرة تعبيرية، شعارها: "وهذا من أغرب ما رأيت والأمر لله من قبل ومن بعد"⁶⁶⁰ وهي الوسيلة التعبيرية المخففة الوحيدة التي كانت عزاء الرحالين مثل العجز الذي حدث لابن صيام عندما اكتشف أن الكلام يمرّ عبر خيوط دقيقة مرفوعة فوق أعمدة، في مسافة طويلة جدا، كالمسافة بين باريس وليون، يقول عنها: "طرفها بباريس والطرف الآخر بمدينة ليون يبعثون بواسطتها الخبر من باريس إلى ليون ومن ليون إلى باريس في مدة طرفة عين، بل يحدث الشخص في باريس جلسه بليون، مع بعد المسافة بينهما، والمحققة أنها مائة وتسعة عشر فرسخا فرنسويا، ولم ندرى كيف يصنعون، لأننا رأينا لها مثل حركات السنيال الذي عندنا في بلاد الجزائر"⁶⁶¹ وإذا كان الرحالة وهو المثقف من بين قومه، فكيف نتصور البقية من لا ثقافة لهم. مما يجعلنا لا نشك في أن المحيط العام للبيئة الجزائرية آنذاك، كان مضمحلا.

ولا تتوقف دهشة الرحالين الجزائريين واستغرابهم عند هذين المثالين، بل تعدّ النصوص قالبا نسقيا ذا بيئة ساذجة تعبر عن عدم تطابق في كل البنية العامة بين المجتمع الجزائري (المتخلف) والمجتمع الفرنسي (المتحضر)، لذلك كان الرحالة يحرص في هذا الجانب على إثبات أكبر عدد ممكن من عناصر تفوق الأوربي، من أجل تعزيز استغراقه في فخ الدعوة لفرنسا، ومن أجل تبليغ روح الحكاية المدعّمة بالمشاهد الحيوية الجديدة بالنسبة للمتلقى الجزائري الحالي من هذه الثقافة ذات الوسائل الحضارية، كما أنه كان يعقد مقارنة بخلفية التهكم من الأنا، ليعبر عن سرعة مسافة إنتاج الحضارة ودقة تقنياتها في مقابل بطئ العملية في البيئة التقليدية، مع سذاجة صنائعها أو انعدامها، والأمثلة على ذلك كثيرة، ننتخب منها، عملية تصهير القطع الذهبية: "فيقول الانس أين النار وأين الربوز وأين البوط وكيف

659- ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 56.

660- المصدر نفسه، ص 31.

661- نفسه، ص 31.

تسكّ هذه الأشياء وتصنع دون رؤية المعلم والمتعلم والصانع⁶⁶² وهي إشارة إلى أن الآلة تقوم لوحدها بجميع الأدوار دون أن يشقى الإنسان، مع إتقان في العناصر المصنوعة. ومنها -أيضا- عملية تفرخ الطيور: "ومن جملة ما رأيناه، من أدنى الغرائب، استخراج أفراخ الطيور من غير تحضين، فتراهم يجلبون أنواع البيض من كل بلد ويعالج بالحرارة المناسبة لأمهاته حتى يخرج أفراخا راغدة طالبة للمعاش"⁶⁶³ ومثلما هو ظاهر من قوله بأن هذا "من أدنى الغرائب" يدل على أنه - الرحالة- قد صار يألف هذه البيئة العجيبة، التي من فرط ما تضمّه من عناصر غريبة (بالنسبة له)، قد صار غريبا تائها، قد يجد الغرابة إذا وجد من هذه البيئة مألوفا.

وكما نلاحظ أن الرحالين يعودون دائما إلى مطابقة المرئي بالمرجعي، وهي الصورة التي تشفّ عن مظاهر الجانبين، جانب جزائري لا يزال يعتمد على وسائل بدائية في إنتاج لوازمه المعاشية، وجانب آخر متطور وجد السبل السهلة من وسائل التكنولوجيا في رفع المشقّة عنه، وتسخيرها لصالحه في محاربة بطش العمل المرهق وإيجاز كل مراحل الشاقة..

1.1.2. الإقرار الضمني/ عجز المعجم وحدود المرجعية.

يضطر الإنسان دائما للعودة إلى قاموسه المكتسب في تحديد العناصر اليومية، في حدود استعمالاته، كما هو الحال بالنسبة للرحالة الذي يواجه واقعا، لا محالة مغايرا بشكل أو بآخر عن واقعه. هذا الواقع الجديد يتمثله بنويوا في مرآة للمطابقة بين ما هو مخزون وما هو معاين، ومن ثم تأخذ المطابقة بعدها الاستراتيجي في تحديد المرجع المقارب، الذي قد يتشاكل مع مثيله -شكلا على الأقل، أو مضمونا في صورة شكلية مخالفة، أو في حدود الجديد الذي ليس له مرجع في ثقافة الرحالة، ومن هنا يقع العمل كلّ في عملية الكشف عما هو واقع في حدود المرجعية الثقافية المحمولة للرحالة مصداقا للشكل أو الوظيفة، ومنه ينكشف الرحالة في مجتمعه وفي ثقافته وفي مستواه الحضاري، خصوصا إذا كان البلد المزار ذا شأوٍ في نطاق التحضر.. وهذا نتيجة العجز الضمني على إيجاد صيغ مقابلة لا تؤرّق العقل في التفكير لإيجاد بديل معجمي فلا يتأتى إلا بجهد كبير وإقناع ضئيل. وهو حال الطوابع الشعبية التي تمتلك ثقافة خاصة، لدى العنصر البشري البدائي الذي لا يمتلك ثقافة عاملة. مما يسبّب له عجزا في تحويل أسماء الأشياء غير المألوفة إلى طبيعة بيئية تقريبية. منها المكونات المادية الجسمة بأشكالها تأخذ كقوالب للتمثيل، ومنها الجسدة في المخيال، كالتّي تستلهم من الأسطورة صورتها التي يغلب عليها الطابع الشعبي، المتمثل في الخرافة كالتّي يتحدث عنها الرحالة "ابن قاد" مختمرة في

662- ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 66.

663- المصدر نفسه، ص 58.

مواجهته للتماثيل الضخمة، حتى إنها شكّلت عنده نوعاً من الشخصيات الخرافية التي تنسجها الحكايات الشعبية في صناعتها للبطل العجائبي، فهو يقرب الصورة من هذا المنظر "ومن المستغربات أيضاً أننا رأينا صورة بقامة إنسان من نحاس أكبر من القبة الشاهقة تجلس جماعة في إحدى ثقبتي منخريه قلنا أهذا هو الغول المخوف به الصبيان أم هامة عوج بن عنان"⁶⁶⁴ فكما هو ملاحظ أن حضور البديهة تتمثل في سرعة الإجابة على المقابل الموضوعي، ويكشف ضمناً عن اعتراف بالعجز الذي يتمثل في سذاجة المثال المقابل للسؤال الذي يبقى دون جواب إلا ما يحمله من زاد الدهشة والاعتراب.

وقد كانت رحلات الجزائريين نحو أوروبا في القرن التاسع عشر، تميل إلى الطرافة في سذاجتها التعبيرية نحو تجسيد معارف موضوعاتها، فهي تفيد ببدائية الإنسان المرتحل، وتملأ الفضاء حجّة على ثقافة الجزائريين الساذجة في هذه الفترة، التي تعطل ركبها عن الحضارة، بل لعلها سايرت الركب العربي في تأخره إلى وراء قرونا، حتى إذا تطلّعت إلى ما أنتجه الغرب المتفوق (حضارياً)، أبانت عن تلك البدائية، وكشفت عن عدم تطابق المجتمعين الجزائري (العربي) المتخلف، والفرنسي (الغربي) المتفوق، وبدا هذا التفوق في صورة صراع من أجل إحداث مصطلحات مواكبة للموصوفات من خلال ما حملته الجعبة الفكرية والمرجعية الثقافية .

وبالإضافة إلى ما ذكرنا نفيد بموضوع آخر في هذا الباب، وهو المتعلق بالتعبير عن المعجم الاصطلاحي لبعض الأسماء التي لم يعرفها قاموس بيئة الرحالين. إن هؤلاء الذين نعينهم لا شك أن ثقافتهم محدودة جداً، وبالتالي، فمن واجب نقل مشاهدتهم التي تأثروا بها وما صاحبها من أشياء مثيرة فيما يتعلق بالمستحدثات، نشير إلى أن الرحالين اتخذوا ثلاثة طرق لإيصال بريد المعلومات الاصطلاحية لمسميات مختلفة عبر ثلاث طرق:

أولاً: نقل الكلمة أو العبارة الفرنسية إلى العربية كما هي، وهو الذي صار في كثير من الحالات، تعبيراً دارجاً عند الجزائريين إلى يومنا هذا، مع أفوله كلغة رسمية.

مثلاً نجده في استخدامها للتعبير عن الرتب العسكرية مثل: ("كولونال"⁶⁶⁵ Colonel) - "جنرال"⁶⁶⁶ (Général) - "قبطان"⁶⁶⁷ أي (Capitaine) - "يوطنة"⁶⁶⁸ (Lieutenant) -

664- ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 57.

665- المصدر نفسه، ص 27-29-40.

666- المصدر نفسه، ص 40-43-44-45.

667- المصدر نفسه، ص 29.

668- المصدر نفسه، ص 76.

"فسيانات" ⁶⁶⁹ أي (Les Officies) أو الوظائف مثل ("القبرنور" ⁶⁷⁰ (Gouverneur) - دارالأبوقاط (L'avocat) ⁶⁷¹....) أو بعض مسميات الأماكن العامة، مثل ("جاردان دي بلانط" ⁶⁷²) أو المستحدثات من الصنائع ("كروسة" ⁶⁷³ (Carrosse) - "الرودة"، (Roue)) ويجدر بنا أن نقرّ بأنه من المستحيل أن تفي هذه العبارة بالغرض عند المتلقي الجزائري في ذلك الوقت، إلا أن اعتماد الرحالة عليها، واللجوء إلى إدراجها بصيغتها، قد تفيد -في اعتقادنا- على جملة من العناصر، أهمها: أن الرحالة ينقل لجمهوره عجزا مصطلحيا يساوي عجزا حضاريا.. والذي تجسّد واقعيا عند صدمته بما قابله من إنجاز هذه المدنية المتفوقة. ولو أن نص ابن صيham قد جاء بعد طول زمن من مكث الفرنسيين بالجزائر، لربّما قُبل عذره إذ بإمكان أن تتداخل اللغة العربية بضرّتها الفرنسية في تشكيل لغة هجينة، كما هو حالها في واقعنا اليوم.

ثانيا: الإطالة في شرح العنصر المراد التعريف به، من خلال ذكر لمكوناته. وهي من الصيغ الاصطلاحية المجتهد فيها لإعطائها صبغة مفهومية جديدة تتطابق مع المرجعية الثقافية وتقارب المعنى القائم على التشبيهات. ويكمن ذلك في ملاحقة المعنى والتكلف في ضبطه، كحالة المنطاد (البالون) التي تعدّ من الأمور الجديدة التي لم يألّفها الرّحّالون فوالتي شكّلت ظاهرة حين صارت تعلوا نحو السماء من دون أسباب منطقية في نظر الرحّالة الذي علّق عليها بالقول: "ومنها أننا رأينا ثلاثة نفر سعدوا إلى الجو، حتى اختفوا علينا وذلك أن الثلاثة حملتهم قبة من خرقة غليظة ملؤها بالدخان وربطوا من تحتها لوحة تشاكل صندوق، وجلسوا فيه والناس يرونهم إلى أن شرعوا في الصعود إلى الجو فتبعناهم بالنظر حتى اختفوا وبقينا نرى تلك القبة التي حملتهم فسألنا بعض الأصدقاء عن حال أمرهم، فأخبرونا إذا أرادوا النزول إلى الأرض لهم ذلك، و هذا لمن أعجب ما رأينا" ⁶⁷⁴ إن المرجعية الثقافية لا توحى بالمثل في الوظيفة، بل لم يستطع الرحّالة أن يجسّد هذه الظاهرة كشيء جديد لوضعها في جملة الظواهر الجديدة نحو المتلقي إلا من خلال تقريبها نحوه بإيجاد ما يمثّلها في بيئته من ناحية الشكل، حتى تكون الصورة تقريبية، وبالتالي يشبّها بالقبة، لأن ظاهرة القباب في الجزائر تشكّل ظاهرة قوية باعتبارها مؤشرات إسلامية لا تخلوا منها مساجدها ولا أضرحتها

⁶⁶⁹ - المصدر نفسه، ص 42.

⁶⁷⁰ - ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 25.

⁶⁷¹ - المصدر نفسه، ص 67.

⁶⁷² - المصدر نفسه، ص 36.

⁶⁷³ - المصدر نفسه، ص 31.

⁶⁷⁴ - المصدر نفسه، ص 37.

المنتشرة في مناطق كثيرة من الوطن، والتي يسودها هذا الشكل الاستثنائي. وفي ذلك يقف الرحالة من غرابة المشهد في مزاحمة الفكرة، من خلال عصر⁶⁷⁵ مرجعيتها الثقافية التي سوف تبوح بما تحويه أو تمتلكه مما يقابل عناصر المشهد، الذي سوف يبحث في هذه الذاكرة المحملة بمعطيات بيئته، فلا يجد مقابلها إلا القبة - كما ذكرنا - بما يوحي أن ثقافته كانت ساذجة خالية من التحيين الحضاري، غير متفقة تماما مع ما هو واقع فيما أنتجته المدينة من إنجاز.

ومثل ذلك نجد حينما أراد التعريف بـ "النفق" (Tunnel)، الذي لم يجد له مصطلحا يكافئه قام ببسط الصورة العامة لمكوناته. ففي إشارة للاعتراف بقدرته الفرنسيين على ترويض التضاريس الوعرة، لفسح المجال أمام القطار للسير وفق مساره حتى ولو صدّهم جبل وجدوا له حلا وهو إنشاء نفق، حيث قال: "دخلوا تحته بالثقب فيكون حيطان تلك الثقب من حجر منحوت وسقفه كذلك"⁶⁷⁶ فنجد أن الرحالة يتكلف ولا يستطيع أن يوفق في إعطاء تسمية حقيقية للمنجزات والأشياء، إلا بعد عناء يشعر به المتلقي، وهو يتلقف هذه السذاجة في العرض.

ثالثا: وضع عبارات عربية تخمينية لتسميات ما يريد وصفه. وهي من التسميات التي جاءت ليُصطلح بها جملة من الأسماء، تفيد الاختيار لعبارات عربية يريد من خلالها نقل تدوين دون أن يأتي مطابقا تماما، حيث تغلب عليه العشوائية والاضطراب في إيجاد صيغ مناسبة لتسمية الأشياء. فمثلا - ابن صيام- عندما يستخدم كلمة "حجر أسود" يقصد به الفحم المستعمل في تحريك القطار، في قوله: "كآلة مراكب الدخان يوقدونها القائمون بحجر أسود من معدن، خاص ببعض البلاد يسمونه فحم الأرض ثقيل جدا ومنه يوقدون مركب الدخان البحرية والنهرية"⁶⁷⁷ ومنه نجد أن الرحالة يتخذ من المصطلح الحقيقي باستعمال المشبه به، ويذكر بأنهم يسمونه "فحما أسودا"، إلا أن الأمر غير مستساغ بالنسبة له، فأعطى لهذا العنصر صيغة تناسب قناعاته، وهو ما يجدر بنا أن نقول بأن المصطلح له دلالة نفسية مرتبطة بواقع كل مجتمع.

كما نجد العشوائية في استخدام لفظ "أهل"، فنجده أحيانا يستعملها على طبيعتها السياقية في أكثر من موضع لدلالات مختلفة، مثل ("أهل هذه البلدة" - "وأما أمر أهل فرنسا في الاعتناء بالغراسة والحراثة والنظافة والتشييد" - "وأما أهل باريس فهم يختصون من بين الناس" - "وأهل المشورة وكبراء العساكر" - "وأمر أهل المدافع والخيالة والعساكر المتدرعة بالحديد

675- من عصارة.

676- ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 29.

677- المصدر نفسه، ص 28.

وغيره مما لا يأتي عليه الحصر"، فإذا كانت هذه الأمثلة جميعها تتمتع بنقاء في المعنى وسلامة في التعبير، قد لا نجد عندما يتعلق الأمر بموضع المصطلح الدال على أمر آخر، وهو يستعمل هذا اللفظ في موضعه وفي غير موضعه، كما يدل ذلك خطابه في قوله: "أنزلونا أهل الدولة بحفل"⁶⁷⁸ فلفظ "أهل" في هذا السياق، في المفهوم الحديث تدل على صيغة "رجال الدولة" كما يتكرر لفظ "أهل" والمقصود بها "رجال" مثل قوله: "وأمر أهل المدافع والخيالة والعساكر المتدربة"، وقوله: "وأهل العلم في الدين المسيحي"⁶⁷⁹. أي رجال الدين المسيحي. كما أنها تدل في سياق آخر مثل: "أهل هذه البلدة" و"أهل فرنسا" المقصود ناسها. وفي قوله: "أهل المشورة"، الشيخوخة. بما يؤكد أن كلامه لم يكن يزن فيه الألفاظ فهو مضطرب لا يُلقى لها بالا.

2. 1. 3. عقدة الانهزام / سلبية الأنا ولحظة الارتباك.

تلاشت القوى الشخصية لدى الرحالين الجزائريين نحو أوروبا إبان القرن التاسع عشر، نتيجة القابلية الاستعمارية التي تمتع به أصحابها، بالإضافة إلى عمق الشرخ الذي أحدثته التفاوت الهائل لدى الحضارة الغربية، ذلك الذي عزز من عزائمهم في الترخيص لأنفسهم مباركة خطهم المنحرف للدعاية. حيث كان يشعر هؤلاء بالسيادة المنفوخة التي أوحى إليهم بها حكومة فرنسا ليكونوا عوناً لها على أبناء جلدتهم، فاعتقد القوم أن فرنسا قد منحتهم وساماً شرفياً، بقدر ما هو وسام ذل وعار.

إن الانهزامية التي حفظتها محتويات النصوص تنم على معايير مختلفة تدخل كلها في دائرة الممالة التي يكشف عنها تعبيرهم القائم على مستويات محددة تبرز من خلالها التدني في مستوى عزة النفس والميل كل الميل لصاحب السلطان في خطاب ينم على الخضوع والخنوع في أعلى مراتب القول، ولعلنا إذ نقول بهذا القول نعللّه بمعايير تثبتها التمثلات القائمة في النص على أسلوب الدعاية، حيث تشي النصوص بالجانب البروتوكولي المفرط في الاستعمالات التعبيرية التي تندرج ضمن فوييا الذل والخنوع، والتّصوُّص على منوال واحد وحيطة شديدة من هذا الجانب، حتى إنها في أحيان كثيرة تخرج من سياقها الطبيعي إلى سياقات منافية للأعراف، سواء الدينية منها أو الاجتماعية أو حتى التعبيرية، ومن ذلك الدعاء للقادة العسكريين أو الوزراء والسلطان بالرحمة والصون والجزاء، وغيرها ممّن لا تجب في حق غير المسلم - وهو ما سنتطرق له في حينه-. ومما يجب التركيز عليه من الناحية الذاتية التي تبرز عناصر الانهزامية، هو الآتي:

678- ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 33.

679- المصدر نفسه، ص 29.

أ- الانجذاب نحو فرنسا

يتضمن هذا الجانب، تملق هؤلاء الرحّالين للحكام وإطناهم الشديد في ذلك، إذ كانت فرنسا - أرضاً وإنساناً - تمثل لهم قمة الافتتان، وقد تحقّق لهم بهذه الرحلات حلم عظيم، حيث يقول أحدهم: "لما تعلق القلب بزيارة فرنسا للمرة الثالثة"⁶⁸⁰ ويعزّز هذا الافتتان، الخطاب الموالي الذي ينساب فيه الرحالة بشعور لذيذ وهو يذكر هذه المناسبة التي كانت مجرد أمنية يمضي بها نفسه، كما يؤكد ذلك ابن قاد: "وقلت لعل غرس التمني يثمر. فكان الأمر بحول الله كذلك فحمدت الله على ذلك"⁶⁸¹ ذلك لأن فرنسا كانت تمثل لهم كل شيء، فهي فاتنتهم، وبها مراسي أحلامهم بل هي أكبر وأجل من وطنهم - الأم -، ذلك ما يفسره انجذابهم الذي تفسح عنه المقارنة بين سرديّة الذهاب وسردية العودة. فإذا كانت سرديّة الذهاب تمتح خطاباتها من معجم النشوة والفرح والحلم السعيد، فإن سرديّة العودة عكس ذلك تماماً، وهو ما يفسّر قدر الجاذبية التي كانت تفرضها فرنسا في هؤلاء الرحّالين، وهو التعبير الذي نجده دائماً عند "ابن قاد" حين توديعه فرنسا بعد نهاية المهمة بقوله: "هذا ولما آن وقت الرحيل جرعنا كأس الفراق، بعد حلاوة التلاق"⁶⁸² لأن الرحّالة بصراحة قوله، نجده مرغماً على العودة، الذي يفرضه عليه قانون معيّن. أما الهيام فكان بفرنسا دون وطنه، لأنه سيضيق عليه الفضاء بهذا الأخير، حيث لا يجد مثل ما وجدته في فرنسا من تجليات بروتوكولية تعقد عليه بأنواع التكريمات، فكان يوم خروجه من فرنسا علقماً لا يستطيع تجرعه، وهو القائل: "ولم يصبنا يوم خروجنا من وطننا مثل ما أصابنا يوم الخروج من فرنسا"⁶⁸³ وهو الحدث نفسه والصدمة نفسها التي أصابت ابن الصيام عندما أقلّ حظّه من ساعات قضائها في فرنسا وثم له الرحيل، فقد سلّم بهذا القضاء بمرارة كبيرة كأنها العلقم، نميّز ذلك من قوله: "ثم أمرنا بالرجوع إلى بلادنا، فسلموا عليه وافترقنا، وبقيت عقولنا وقلوبنا عندهم"⁶⁸⁴ ولعل صدق الرحّالين كلهم بحبهم لهذا البلد غير مبالغ فيه بل كانوا صادقين في شعورهم تجاهه، وبلاغة انتمائهم إليه وولاءهم له جلية واضحة. وإذا كان لسان حالهم غير مشكوك فيه، فإن لسان الفعل قد أجزم ذلك بالتأكيد قولاً، بأعلى درجات الإقناع، المتمثل في أغلظ الأيمان وأحسن وأبلغ ما في القرآن حين استعار قسماً من أقسام الله عز وجل، ونطق به من كل قلبه وجوارحه،

680- ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 57.

681 - المصدر نفسه، ص 58.

682 - المصدر نفسه، ص 81.

683 - المصدر نفسه، ص 48.

684 - المصدر نفسه، ص 48.

وها هو ذا نصّه شاهد عليه: "لا زالت محاسنها ظاهرة ومسراتها باهرة، فلا أقسم بهذا البلد وحسن منظره الذي يشفي من الكمد"⁶⁸⁵.

ب- نشوة اللقاء بأصحاب المعالي والإطراء اللفظي

تجلو الانهزامية من خلال التعبير عن نشوة اللقاءات بكبار الدولة الفرنسية والتي كانت تتضاعف قوة مفعولها إلى درجة الإفراط حين يكون الحديث عن كل مواجهة تتاح للرحالين في مناسبات مختلفة، فيكشف هؤلاء عن شخصية متقزمة في حجمها ساذجة في فكرها، وهي قابلة عدّها هؤلاء الرحالين شرفاً، فكانت مراتبهم لا تساوي شيئاً، بل قد نزلت إلى لا شيء إذا قدرنا أن فرنسا كانت تزعم أن هؤلاء هم أفاضل القوم وخيرتهم، هذا ما كانت تبديه لهم ظاهرياً. فإذا قرأنا -مثلاً- هذا المقطع للجنرال سانطارنو (وزير الحرب آنذاك) حين يقول ابن صيام على لسانه: "بعثنا لكم لتشهدوا هذا المهرجان لظننا الجميل فيكم ومعرفتنا بكم سابقاً"⁶⁸⁶ فلا شك أن مثل هذا الادعاء هو محاولة أراد بها أن يُطرب المشاعر حتى يطفئ جوارهم الباردة، ويسقيهم من ماء الوداعة، وهذا ما كان يحدث في كل مرة تقام فيها الاحتفالات والمهرجانات الرسمية وتُستقدم الوفود الصديقة من كل فجّ، يكون حظ الجزائريين مثل هذا التشريف الممقوت، فكان هذا التخصيص مجالاً للتفاعل والنشوة، يعدونه من الشرف الذي لا يرقى إليه شرف، فمثل هذا الكلام، وإن كان ابن صيام يعلم بأنه كلام دبلوماسي إلا أن ما وقرّ في أذنه قد هزّ أركان جسمه، مما جعله يتيه في تأويلات وأحلام.

وإضافة إلى هذا سعى الرحالون إلى تحسين صورة هذه الشخصيات من خلال تأكيداتهم على ما كان يصدر منهم من نوال وعطايا، وهي فتح الملوك والسلاطين ورشاوى في مثل هذا الشأن إلا أن المقام الذي اعتلاه الرحالة جعله لا يشعر إلا بما يحقق له نشوة تلك اللحظة، فهي فخر كما صرح و لمح ابن صيام بقوله: "أعطى لكل واحد منا ما ناسب قدره، بعد ما كان أنعم علينا بنواشين الافتخار بحضرة أولئك الأكابر كالسيد الوزير والسيد الجنرال والسيد الكولونيل دوريو"⁶⁸⁷ فمثل هذه الأمور الحبيبة توطّد العلاقات، وتشحن العزائم، كما أن لها فعلها السحري على التعبير ليصير الإطناب ركنا ركينا في الإدلاء بالرأي والحمد والثناء، وفي مثل ذلك أمثلة متعدّدة بل الإطناب أكثر ما يمثل شكل وأسلوب هذه النصوص، وإشارة على ذلك نسوق المثال لابن صيام -أيضاً- في قوله: "أمرني من يجب علي امتثال أمره وهو والي دايرة الجزائر وقطبه، صاحب الرأي السديد والوجود الذي

685 - ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 48

686 - المصدر نفسه، ص 43.

687 - المصدر نفسه، ص 47.

ليس فوقه من مزيد البطل الهمام والأسد الضرغام سعادة السيد الفبرنور راندون. لا زال من ربه بعين العناية ملحوظا ومن شر حساده محميا محفوظا. فامتثلت أمره السعيد، وكان ذلك عندي كالموسم الجديد⁶⁸⁸ وإضافة على الإطناب نلمس تقيصا للعبارات البديعية الدالة بموسيقاها وسلاستها على التفاعل مع الحظ السعيد الذي ناله خلال هذه الزيارة.

ت- اللاوعي والتعبير غير المتكافئ.

لم يتوقف خطاب رحالي هذه الفترة عند حدود الإطراء في مدح الزعماء وأصحاب القرار من الفرنسيين، والإطناب في التنويه بفضلهم، وإنما تستوقفنا كثير من المواقف في خطاباتهم عن تقديم خطاب مشوّه في استعمال غير متكافئ، حيث تخرج المفردات والمصطلحات من وكرها السياقي إلى سياق لا منطقي تتحكم فيه عوامل "ذاتية" تعبت بأعراف المعجم اللغوي الاجتماعي والعقدي والأخلاقي، في تحديد استثنائي (شاذ)، يصنع لنفسه قاموسا خاصا، يحيل إلى الاستغراب بفعل ما صدر عنهم من أقوال في غير محلها، ناتج عن غروب العقل بفعل الافتتان بفرنسا وحكامها وما تُؤليه لهم من عطايا ومزايا، ولم يكن مبرّزهم في ذلك منطقيا، وإنما عن مجاملة زائدة إرضاءً لأسيادهم في حق اللغة كميّون للمصطلح، وفي حق الإسلام الذي يضع حدا لهذه الاصطلاحات، وفي المجتمع في تمييز أعرافه وحدوده.

ومما نجده عند هؤلاء من زلات لسانية، هو ما صدر عنهم من أخطاء لا يقرّها التشريع الإسلامي، كالدعاء للقادة الفرنسيين كمن يدّعو للمسلمين، والترحم على موتاهم، حيث نجد في مناسبات عديدة مثل هذه الأقوال: "فجزا الله الدولة الفرنسية عن العباد خيرا لأنها الواسطة لهذه الواسطة الفضيلة. وحياة كل أرض حلت بها كانت أمطار وبيلة"⁶⁸⁹ وقول ابن صيام عند مدحه الجنرال راندون (والي الجزائر) "واستكثرنا خيريه وشكرنا سعيه حيث كان هو المتسبب في نعمتنا أسعده الله آمين"⁶⁹⁰ وقوله في نابليون بعد ذكر الله وحمده: "ونستوهب للمقام السلطاني النابليوني، أعزه الله، فخرا يتلى بالغرب المعمور وشرقا"⁶⁹¹ وليس خافٍ أن هذا الكلام له مقامه وله مرتبته عند كل مسلم، والرخالون يعنون ذلك، خاصة وأن تكوينهم تكوين ديني تقليديّ مردّه إلى مرجعية دينية مصداقها "العزة لله ورسوله والمؤمنين".

688 - ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 25.

689 - المصدر نفسه، ص 72.

690 - المصدر نفسه، ص 50.

691 - المصدر نفسه، ص 24.

وأغرب من هذا كله أننا نجد الرحالة ابن قاد يترحم على أحد جنرالات فرنسا عند وقوفه على قبره، حيث يقول: "وفي يوم من أيام سفرنا التي مرّت علينا كلمح البصر، صادفنا وقتنا لزيارة قبر المرحوم الجنرال لموريسير"⁶⁹² وهو صادر من لسان لا يعي صاحبه ما يقول إلا إرضاء لفرنسا ومستوليها.

ث- توجيه الخطاب إلى حكام فرنسا.

يعد الخطاب الذي ورد في نصوص الرحلات خطابا مبالغا فيه، إذ تجاوز فيه أصحابه حدود البروتوكولات، إلى التذلل والخنوع، ونجد ذلك أوفر نصيبا عند ابن الصيام الذي غاص نصه في بقع كثيرة من هذا النمط، فهو لا يكاد ينطق باسم سيّده مجردا دون أن يحيطه بصفات التقدير والتبجيل، فهي ظلٌّ لا تفارق الاسم ولا نجد في ذلك سهوا واحدا ولا سنة عن هذا الأمر في كل النصوص وعلى طول مسافاتها. ولعل المقاطع التي تشير إلى ذلك تحيل إلى اجتهاد في استخراج ما في النفس من تفاعل نحو صاحب المعالي، وتحويلها إلى لغة حيّة ترفع من قدر صاحبها إلى رجل مثالي لا يتوافق والأشخاص الواقعيين، خصوصا ما أدرجه في وصفه لوزير الحرب الذي خصه بقوله: "لاسيما سيدنا وزير الحرب المعظم سانطارنوا أدام الله بقاءه ذو بأس في الحرب بطعن وضرب، له في المعالي همم عوالي ومقام معروف وعزم موصوف مع حسن سياسة وفضل رياسة وبذل مال ولين مقال وجاه عالي وعز غالي"⁶⁹³ ينمّ هذا عن عقدة ضعف تجاه الآخر الذي يحرص على تقديسه بعبارات يبدو من إطنابها أنها حالة خاصة تفوح بالانتماء إلى الدركات السفلى من مستويات التملق في خطاب مثالي، لا يرقى إلا للكشف عن المستوى الأخلاقي للواصف. وعلى هذا النسق يشير إلى نابليون ملك فرنسا واصفا إياه: "سيدنا المعظم مالك دولة فرانس المنصورة على سبيل الاختصار. نقول هو سلطان كبير فرع سلطان بالعدل والشجاعة، شهير ذو قدر جليل، خطير شهرته أغنى عن الوصف وفخره لا يحتاج إلى إيضاح ولا إلى كشف. فارس مضمار وبطل وغى. كرّار ذو فتكات معروفة وعزمات موصوفة. وكل الملوك بذلك يشهدون. وهو المعظم الأنجد سيدنا لوي نابليون، أطال الله مدته وأدام سعادته."⁶⁹⁴

692 - ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، 72.

693 - المصدر نفسه، ص 35.

694 - المصدر نفسه، ص 33.

ج- مظاهر الدعاية

يبدو أن عناصر الدعاية لفرنسا أساليبيها متعددة، وهي قائمة على دعامين إحداهما مدح وتتعلق بالفرنسيين، والأخرى ذم وتتعلق بالعرب، حيث شتوا عليهم هجوما لصالح فرنسا التي يصنعها بنفسه، داعيا العقل لعقد مقارنة بين ما يتميز كل من الأمتين من فروق حضارية، متناسيا حق العرب في امتلاك زمام أمورهم، محيلا ما عاينه من أمور حضارية في فرنسا نكايه في العرب الذين وصفهم بالحساد، في قوله "وقد كان العرب يظنون (فرنسة) عندما لحظتها عيون السوء انتقاص شأنها فلما وقفنا بها وجدناها قذى في أعين الحاسدين وأنها أجل قدرا وأعظم قوة مما كانت عليه؛ من كثرة الجيوش والإقامة والآلات الحربية... فحمدنا الله على ذلك، وأثنينا خيرا على من ساعدنا وأعانا ووفى مرغوبنا سعادة القيرونور جنرال شانز المتدرب في أمر العرب، العارف بأحوالهم زمنا طويلا"⁶⁹⁵ ويلخص أمر العرب (الجزائريين) عن رفضهم للمستعمر في كونه ناتج من خوفهم على أمر متعلق بدينهم، الذين هم عليه حريصين، إذ يقول: "ليس للعرب ما يروّعهم وتفّر منه أنفسهم إلا أمر الديانة. كان عالمهم وجاهلهم يقول المصيبة في المال ولا في الأولاد، في الأولاد ولا في الأبدان، في الأبدان ولا في الأديان"⁶⁹⁶ ثم يشرع في تعريف حقيقة الدين حسب رأيه واضعا له شروطا كما يزعم في قوله: "وفي الحقيقة شرط الديانة هو أن الإنسان يحب لنفسه ما يحب لغيره ويكره لنفسه ما يكره لغيره... وإنما الأديان طرف و الأعمال زاد المسافر بها فكل إنسان يحصد ما زرع ويدخر لآخرته ما جمع"⁶⁹⁷ ثم يضيف أمرا آخر مفاده أن دور فرنسا في الجزائر ما هو إلا نجاة للعرب وإخراجهم من التخلف، وسوقهم إلى التطور والرخاء، وهي الخلفية التي أحاله إليها المشهد الذي تحقّق له في إحدى مناسبات المعرض الذي عرضت فيه أنواعا مختلفة من المنتوجات، ومنه فتحت زاوية نظر من خلالها إلى مستقبل العرب حيث "أن هذا المعرض المبارك ينبئنا بلسان الحال عن زمن الراحة والخوض في ازدياد التجارة والفلاحة وارتقاء العرب لدرجة التمدن والرفاهية والتعليم بفضل الله الكريم"⁶⁹⁸ وكان هذا كافيا لمباركة تواجد فرنسا في الجزائر، مما دفعه للقول: "هنيئا هنيئا لفرنسة التي هي أم الجزائر فقد زادها مرّ الليالي جدة وتقادم الأيام حسن شباب"⁶⁹⁹. ومما يتجلى في هذه الخطابات أنه يختلط دائما في حديث هذه الطائفة من الرحالين أصل الفكرة وهي

695 - ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، 63.

696 - المصدر نفسه، ص 64

697 - المصدر نفسه، ص 66

698 - المصدر نفسه، 72.

699 - المصدر نفسه، ص 72.

القابلية الاستعمارية مع ما يجدونه من تبرير مستوحى من ضعف المجتمع الجزائري في ثقافته وفي مستواه الحضاري، فتسعفهم لغة هذه الخطاب من محاورة ظاهرها منطقيّ إلى التجاوز كردّة فعل عنيفة وزاجرة ضد قومهم، مثلما يتأكّد لها من قول ابن قاد حين يقف على قبر (لموريسيار) ويستذكر في ذلك قوة الجنرال الملقب ببهراوة الذي كان علقما في حلق الجزائريين، يستذكر زمن حياته وكيف كانت تنعم البلاد من عافية - حسب اعتقاده- : "تذكرنا الأيام الماضية معه ومع المرحوم الجنرال مصطفى بن إسماعيل وقوم الدواير معتبرين الزمن القديم وأهله، وقلنا له تأسفا على سبيل التمني: إه على الدنيا، ليتك تعود إليها كي تزجر بهراوتك من استوجب الزجر. فرحم الله قوما أسسوا الخير والعافية في البلاد. وأطال عمر سادات اليوم الساعين في تكميل القصد والمراد"⁷⁰⁰. ونلمس في هذا المقطع قولا جامعا، يحدّد موقفه من العرب الذين لا يرغبون في الاستعمار، المتمردين عليه، بأنهم هم من تستوجب فيهم هراوة الجنرال (لموريسيار)، وهم الذين يقصدتهم بقوله (من استوجب الزجر). ومن جهة يقف وسطا عند استلامه مشعل الاستمرارية لصالح دعمه أسياده سواء في ذلك من سبق ومن لحق ومن سيلحق.

وقد كان هؤلاء الرحالين لا يتوانون في اتهامهم للعرب كما يدعي ذلك "ابن قاد" على أنهم أهل فوضى لا يرضون الانضباط، ولا يستوعبون الأوامر، وهي حجة واهية لا يستطيع أن يقول بدلها قولا آخر، يسيء به للمستعمر، بما أنه من أذعيائه، وجعل هذا سببا في تخلفهم وضياعهم لحقوقهم: "وأن ما يحل بالعرب من إتلاف أموالهم وذهاب عقولهم، فما هو إلا من غشامتهم وجهلهم بالأمر الشرعية والقوانين المحكمة مع أنهم يخافون من الحكم وإتباع الأوامر"⁷⁰¹ حتى إن الوصول إلى شريعة الاستعمار الوديعة - حسب ادعائه- ناتجة عن جهل العرب بهذه الشريعة، والعيب أيضا في الوسيط الذي يجهل كيفية توصيل الفهم الصحيح إلى العوام، إذ يعتبر أن العربي جاهل بمصيره، جاهل بنية فرنسا السالمة من الدخن، البريئة من كل ذنب، بل العيب كل العيب في جهله بما تريده فرنسا من تحضيره، والرقي به إلى مصاف المدنية، ويبدأ في سرد هذه الوصفة: "فأقول إن سأل عربي مثله فيجده أجهل منه، وما أراهما إلا أعمى يقود أعمى كلاهما في حفرة. وإن وقع في شبكة السماسرة واليهود الذين يوصلونه ويدلونهم على الطريق، يظهرون له النصيحة في ربح دعوته، لكن يتركونه في قميص قبل الوقوف لدى الشريعة"⁷⁰²، فلا ينجي من إحدى السخطين"⁷⁰³. ومن فرط تهكمه

700 ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، 73.

701 - المصدر نفسه، ص 82

702 (محكمة).

بالعرب أن نعتهم بنعوت منحطة، تشير إلى مستوى متدني من التحضر في أدنى أمور الحياة كما في هذه الفقرة: "ويكفيك البعض منهم يدخل إلى دار الأبوقاط بالواسطة كما ذكرنا ليتكلم في حجته، فإذا خرج البيت يلتمس أدراج السطح فيصعد معها عوضاً عن أن ينحدر من حيث دخل، وهذا غلط فادح وغشامة وحشية حتى جرى بالألسنة لفظة (بيط) في حق العرب، فإلى أين يتوجه هذا الغشيم المسكين وأي باب يطرق"⁷⁰⁴ فمن التهم بالجهل بالأمر القانونية إلى التهم الأخلاقية التي توحى بأن العربي كان منحطاً إلى هذه الدرجة، ولو سلّمنا أن هذا الذي يدّعيه الرحالة حدث لشخص ما قد أخطأ، فباستطاعتنا أن نسأل، هل كل الجزائريين كانوا على هذا المنوال؟ وهل هذا مبرر لاستيلاء دولة على أخرى؟ إن الرحالة الممالئ يريد أن يبرئ المستعمر من كل ذنب.

2. الوعي والتثاقف - من الصدمة إلى التوازن

2. 1. التثاقف وعامل المقارنة (من الاكتشاف إلى النقد الذاتي)

لم تبلغ الرحلة الجزائرية نحو أوروبا مستوى التثاقف إلا مع العقد الخامس من القرن العشرين، أما قبل ذلك فإن رحلات ذات الاتجاه لم يكن فيها التثاقف قائماً على التواصل الحوارية وتبادل الأفكار، إذ كان التفاوت شرخه كبيراً، واللاتكافؤ سيّداً.

وإذا تتبعنا بؤر التواصل في الرحلة الجزائرية نحو أوروبا نجده يرجح بالكفة الشرقية على حساب الكفة الغربية، يأتي هذا نتيجة جملة من العناصر المشتركة التي كانت تتقاسمها الجزائر مع الكثير من دول الشرق وبالأخص يوغوسلافيا التي تفاعل بها الرّحّالون بشكل يوحى إلى الحوار وروح التضامن والتعاون والمؤازرة. بينما المعسكر الغربي الاستعماري الذي كانت جلّ الرحلات التي تقصده تستلهم روح تواصلها التثاقفي من خلال المقارنة التي فتحت مجالها للنقد الذاتي القائم على تصنيف الأبعاد المعرفية والحضارية، والبحث من خلال ذلك إلى سبيل إعادة النظر في تفاقم العطل الذي أصابها، مسجلة بوعي ومؤرّخة "للحظة تحول المعرفة الفردية للرحّالة الذي يكتشف ويصطدم ويعرف ثم يقارن ويركب"⁷⁰⁵ وهي العملية الترميمية الوحيدة التي قام عليها تثاقف الأنا بالآخر بطريقة غير مباشرة، أي أنها قامت على خلق حوار داخليّ متمثلة الآخر في صورة دينامية تنطق بنتائجها الواقعية، فحققت هذه المقارنات أسلوباً تقرّيبياً للذات، في محاولة للدفع بها إلى الأخذ بالأسباب المماثلة في الضفة الأخرى، والتي تحكي نتائجها عن تجارب ناجحة، ومنها لا تكون بالضرورة "صورة الآخر هي بمعنى من

703 ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، 83.

704 - ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، مصدر سابق، ص 85

705 - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 151.

المعاني، الصورة السلبية أو السالبة لما تعتقد الذات أنها تكون عليه⁷⁰⁶، فإذا حدث هذا تكون الأنا سالبة دائما، تضع قطعة مع التواصل وبالتالي الثقاف، وهو القائم -أصلا- على التأثير والتأثر، حتى وإن كان هذا الآخر ينزوي إلى ركن الاتهام كما هي عليه فرنسا البلد المستعمر، حيث يحاول الرحالة "أن ينفذ إلى مجموعة من الزوايا التي تدين الآخر، وتنصف الذات، بإظهار تعدي الآخر، ومرض حضارته تنفيسا لآلامه ومعاناة أمته"⁷⁰⁷، وإذا كان هذا يحدث على المستوى الذاتي الضيق، فإن الموضوعية تقوم على إحداث التوازن وخلق مجال للمراجعة الذاتية باعتماد الزاد الثقافي للرحلة في مواجهة ما يقابله من تطابق وفروق في الضفة التي يلجأ إليها في محطاته السفرية. وتبرز عملية المقارنة في أهم ما يبرزه النسق الذي تظهر فيه مجموعة الأعمال والأفكار والقضايا الاجتماعية حيث تجعل الرحالة كإنسان يستشعر أجواء مغايرة ومظاهر مختلفة، فيمنحه هذا التباين مستوى الهامش بين ما للـ"هنا" و"الهناك" في الحلقات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية وغيرها. وهو ما تكشف عنه الرحلة من أهم القضايا التي ترتب عنها الفروق، ومن خلال ذلك استطاع الرحالة أن يميّز في الحاصل ومبرراته، فيعبّر عن وجهين حضاريين، لكلّ له ما يميزه سواء على المستوى الحضاري، أو من خلال الموقف الأخلاقي والإيديولوجي.

وليس من شك أن المقارنة كشفت عن المستوى المتقهقر الذي تعانيه الشعوب العربية/ المسلمة، والجزائر ليست بمنأى عن ذلك، بل يزيد سوءها على مساوئ الإنسان في البلاد العربية، بفعل الاستعمار الذي أتى على الأخضر واليابس.

تستطيع رحلة "الهنا" و"الهناك" أن تستقرأ كل شيء عن الفضاء، وتكتشف عيوب الأنا من خلال الآخر، أو الآخر من خلال الأنا، فكل ما تجتهد فيه العقول للتحليل وإيجاد أجوبة لهذا التفاوت، يتيسر للرحلة أن تستكشفه من خلال تباين "الهنا" عن "الهناك" بإبدائها عورة الناقص وسمة المتفوق الناجح. من هنا يجدر بنا أن نستكشف ذلك من خلال الرحلات التي كانت تميز في عملياتها أسرار التفوق في مقابل الخفقان الذاتي، وبالتالي يصبح -هذا- نقدا ذاتيا ليس له ما يجعله يصمت أمام الاعتراف بالسبل الصحيحة في مقابل السبل السقيمة الرامية إلى تحقيق التفاضل والنجاح، ولعل "الذات" ينتابها السؤال التلقائي الذي كان يبحث من قبل عن حلول فتتشعب به سبل التفسير والتأويل لإيجاد المبررات المعيّبة الجدوى، في حين تبسط له الأمكنة المزاراة الجواب اليقين، وهو جواب يحصل عليه لينطلق من خلاله في توجيه أصابع الاتهام إلى المسبب في كل الإخفاقات. فكم كانت

⁷⁰⁶ - سعيد بنسعيد العلوي، أوربا في مرآة المرحلة، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006، ص 17-18.

⁷⁰⁷ - عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، مذكرة ماجستير، إشراف أ.د. محمد الصالح جمال بدوي، قسم الدراسات العليا العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1997، ص 82.

أرض الجزائر بما بها من أسباب الخصب وعوامل الثروة إلا أن ذلك لم يسعف على تحقيق ما يرجوه صاحب الطلب، بينما في البلاد المستعدة للاستثمار وفاعلية النجاح، تنجح لأن الأمر متعلق بإرادة النجاح لا في أسبابه ومبرراته، من هنا ذهب الرّحّالون إلى هذا القصد، وهو الأمر الذي جعل "مباركا الميلي" يشير إلى ذلك في نص رحلته المتعلقة بإحدى الضواحي الفرنسية، مميزا بين بيئتين بنمطين مختلفين الإيجابي (الآخر) والسلبي (الأنا)، من خلال قوله: "فطرفك لا يقع إلا على مظاهر النعيم والترف، في أرض ليست أطيّب تربة ولا أغنى طبيعة من أرضنا؛ ولكن قوتا العلم والحكم جذابتان، وعلتا الجهل والاضطهاد قتالتان"⁷⁰⁸ وينطلق الرّحّالة كونه رجل علم متفحّص، يعلل عن طريق المطابقة فيجد أن كل هذا التمايز سببه العلم ونظام الحكم، بمعنى السياسة الراشدة التي تتخذ من العلم قوة حضارية، وهو ما يفتقد إليه الجزائري المضطهد، الغارق في البحث عما يسدّ رمقه ويحدّ من جوعه، ما يجعل آفاقه ضيقة ويده قصيرة. ويذهب "مبارك الميلي" إلى أبعد من ذلك حين يشخّص العلل وفق المرجعية الإسلامية التي كانت متمكنة من أبناء جيله، وهو ما جعله يتعجّب من مستوى حضاري متفوق بعقل إنساني مجرد، في مقابل الدستور الرباني المطلق الذي لم يتمكن الآخذون بزمامه النهوض على أبسط الأشياء فأصيبوا بالوهن وبقوا في أسفل ترتيب بين الأمم، وأصبحوا لفظا في معجم التفهقر والانكسار، وفي المقابل تجد الأمم التي ليس لها دين ولا تعصم إلى أي ميثاق رباني، تطبق بحذافير ما تنصّ عليه قواعد الدين من أخلاق، وتصبح المعادلة معكوسة، كما يؤكّد أحدهم بقوله: "لقد خالف المسلمون أوامر دينهم وهم به يعترفون واتبّعه الأجنبي وهم له مدركون"⁷⁰⁹ وهو الأمر الذي سجّله كثيرهم في أسف مثلما يقول مبارك الميلي: "ومما يسجله المسلم بكل خجل عناية هؤلاء القوم بالنظافة حتى كأنك -وأنت في فندق- نزل في مستشفى جليل. فكأنهم الذين أمرهم دينهم بالنظافة وحثهم عليها دوننا أو كأننا تعاوضنا فأخذنا تعاليم دينهم التي أهملت هذا الأمر وأخذوا بديننا في هاته الناحية"⁷¹⁰ ويُعدّ هذا تعبيرا صريحا عن التناقض المتمكن في نفوس وأفكار وسلوك الجزائريين، الذي فاض عن الوعي ومكّنته الحقيقة المرّة في التحلي ليتخذ سبيله في الضمائر الحيّة والإقرار بالحقيقة ولو كانت مرّة، ذلك لتأنيبها ومصارحتها للبحث عن جدوى صحيحة للنهوض والتمكن، فيحاول بناء الفكر مستوحيا من تناقض ما تحمله الذات من ثقافة وفكر وما يقابلها من حضارة وتطور.

⁷⁰⁸ - مبارك الميلي، فيشي، جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، العدد 119 الاثني 25 ربيع الثاني 1357 هـ الموافق لـ 24 جوان 1938م.

⁷⁰⁹ - عمر بن قنور، سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق العدد 33 الجمعة 23 ذي القعدة 1331 الموافق 1913/10/23

⁷¹⁰ - مبارك الميلي فيشي، مصدر سابق.

ومن القضايا التي استشعر بها الرجالون، وجه المقارنة والتي يبني عليها المجتمع ركائزه، قضية المرأة التي تعد من أبرز وجوهه إثارة للجدل في جميع المجتمعات وعلى مرّ الأزمان، ومما أصابها في المجتمع الجزائري المقهور، البؤس الذي طالها بالإضافة إلى الانغلاق الذي انحرف بها إلى التيه والجهل. فلم يبق لها من دور إلا الإنجاب والعمل المضني لضمان خدمة العائلة عبر السبل العسيرة، مما جعلها تُضحي بحقّها في التعليم والتكوين، حتى صنع منها هذا النسق امرأة أمية تجهل كثيرا مما يدور حولها. وقد ظهر جلياً أن المرأة الجزائرية تعيش الإقصاء والتهميش وتعاني الجهل من خلال نظيراتها في المجتمعات المتحضرة التي تعطي المرأة اهتماما وحضورا قويا في المجتمع بفضل مشاركتها كعضو فعّال في إحداث التوازن الحضاري بثقافتها وتكوينها في جميع المستويات، وكل ذلك تقتضيه آليات التحكّم الكلية وهي العلم، وكان ذلك فارقا استطاع الرحالة أن يستنبط من خلاله وجه الفرق بين ما تتميز به المرأة الغربية عن المرأة الجزائرية.

لقد عالج الرّحّالون الجزائريون قضية المرأة بوعي، من خلال عرض المرئي المتمثّل في المرأة الغربية المتحرّرة، في فكرها وفي أسلوب حياتها مما يعطي بواسطتها دفعا للحياة فلا تتعطلّ وظيفتها ويقتصر كل شيء على الرجل فيفقد المجتمع توازنه، وهو الذي كان واقعا في جزائر المرحلة الاستعمارية، حيث شكّل بؤسها وجهلها وأميتها حلقة إشفاق لدى الرّحّالين الذين كلّما تعرّضت عيونهم على امرأة في سلوك حضاري إلا وقّعوا بصمات المقارنة، وأوضحوا الفروق الشاسعة بينهما، ندرك ذلك بخاصة في رحلة "محمد ابن العابد الجلاّلي" الذي واكب في سفريته إلى فرنسا رجلا وامرأة ألمانيين، وكان يقاسمهما الجلوس وبالتالي الحديث والحوار، وكانت مسافة السفر تُسفر عن تطوّر في معرفة خاصة بالمرأة التي بدأت في كل لياقتها الحضارية، حوارا، وحديثا، واستثناسا بمعية زوجها، بالإضافة إلى تناولها كتابا للمطالعة عند الاقتضاء، وهو الداعي الذي جعل الرحالة يتأمل ذهنيا حالة المرأة الجزائرية وبؤسها، يقول: "ففي هذه الحال بدا لي وجه المقارنة بين امرأتنا الأمية الجاهلة المستعبدة، وبين امرأتهم القارئة العالمة السيدة"⁷¹¹ ويربط ابن العابد هذا كله بسبب انحطاط الأمة بأسرها وليس ضرا يلحق بالمرأة فحسب، ذلك الذي جعله يضيف: "وعلمت في الحال علة انحطاطنا وسبب تأخرنا عن مجارة غيرنا؛ آباء وأمّهات جهال يقذفون للتعاسة بأبناء وبنات جهال.. وهكذا تترامى بنا الحال من تعاسة إلى تعاسة، ومن ظلمة إلى ظلمة، إلى أن يأذن الله بانقراضنا، ويمحقنا العلم محق الحطام تحت سنابك خيله وتذروننا رياحه من غير أن نترك في هذا الوجود أثرا يدل علينا، إن لم

⁷¹¹ - محمد العابد الجلاّلي، ﴿في باريس، بعد الملاقات﴾ شهاب الجزء الحادي عشر المجلد الحادي عشر، (غرة ذي القعدة 1354هـ/فيفري - 1936). (ص 686).

غير مسلكتنا⁷¹². إلى هذه الدرجة كان وعي الرّحالة، الذي يُعدّ لسان حال كل المثقفين الذين كانوا يُعَوّن منابع الخطر، في الإبقاء على جهل المرأة إلا أن عوامل كثيرة كانت تقف عائقاً لتحوّل بينها وبين الرّقيّ بها إلى درجات سامية. وكون الرحالة يطرح هذا الأمر ويشخص علته، فإن ذلك ليس على سبيل التغيير الآني، وإنما لوعة اغتراب وتمّي كان يقتضيها المقام.

واللافت في المرأة الأوروبية أن لها دوراً اجتماعيّ فعّال، تشارك الرجل في الأعمال خارج البيت في شتى المؤسسات الحيوية، وهي الظاهرة المهدومة في المجتمع الجزائري، مما جعل إدراج الرحالين لها من باب الحدث وليس من باب الدعوة لعمل المرأة في صفّ الرجال، خُصّوصاً في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الجزائر، بل هي النافذة التي جعل الرحالة يخصّ المرأة الجزائرية سواء أكان ذلك صريحاً أو ضمناً لاستكشاف ما تعانیه هذه المرأة المغلوب على أمرها من سوء حال، وهو الذي أراده الرحالة (مُصطفى) بجواب ذكي وحذر عند حديثه عن عمل المرأة الأوروبية بقوله: "ألا ترى أنك إذا أردت أن تفهم ما الذي يدعو النساء في فرنسا خصوصاً وفي أوروبا عموماً على مشاركة الرجل في أعماله لزمك أن تبحث عن الوسط الذي تعيش فيه المرأة الأوروبية والظروف التي تدفعها على تلك المشاركة .. وذلك كله يوجب عليك إطالة الإقامة في ذلك الوسط ومخالطتك الدائمة لأهله حتى يمكنك أن تعطي رأياً صائباً في المسألة، أما وإقامتي قصيرة في تلك الأقطار فلا تنتظر مني أيها القارئ أن أبدي لك استنصاراً يشفي الغليل بيد أنني أعمل حسب الآية الكريمة ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ وأسأل الله التوفيق والإفادة"⁷¹³.

ومن بين ما تطمح إليه الرحلة الجزائرية من قضايا، وهي عديدة، مطمح الحرية، وبخاصة ما تحقّق في أوروبا الشرقية متمثلة في التيار الاشتراكي الذي لوّن المنطقة حمراء قانية، والتي انحاز لها الرّحّالون نتيجة ظروف وعوامل، يؤكّد ذلك (رضا حوحو)، من خلال تحديد معايير لتوحيد العيش، ومناداته بشعارات المساواة التي تهدف إلى الدّفاع عن أوضاع الفقراء، ولما كانت الجزائر تحت وطأة الاستعمار، كان (حوحو) يتطلّع في هذا المعسكر إلى سبيل نجاة الأمم وراحة الشعوب، لذلك انطلق من خلفية إيديولوجية جعل منها مبدأ للمقارنة في كل شُعبها، ولعله قد أفاض في ذلك فيما يخص حرية الناس هناك والاعتناء بالأطفال والفطرة السليمة للشعوب وبراءة الفتيان، كما ركّز على الجانب الثقافي والأخلاقي، وفيما يبدو أن كل هذا قد وسمه بالمقارنة التي كان كل جزء منها يتضمّن سلبية في مجتمعه وقف منها موقفاً، ولعلنا إذ نذكر مثالا عن ذلك فإنه لن يكون حصراً، وهو المتمثّل في مقارنته بين

⁷¹² - المصدر نفسه.

⁷¹³ - مصطفى عبد الرشيد، رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا، جريدة النجاح عدد 1275، الاربعاء 25 شوال 1350 الموافق 1932/3/2.

المجتمع السوفييتي الخاضع لسلطة الجِدِّ والعمل دون إهدار للوقت، مع معرفة تامة بتوجيه أناس نحو دور أحسن من دور اللهو والخلاعة، مثلما يؤكد في هذا المقطع: "نعم لا وجود للمقاهي العامة ذوات السطوح الكبيرة كما يوجد عندنا، كما لا يوجد أيضا الكازينوات ودور اللهو الليلية ومحلات القمار والعبث ويوجد بدل هذه كلها، الحدائق العامة ودور السينما العديدة والمسارح الكبيرة والأندية العامة والخاصة، وكل هذه المؤسسات تحمل طابع التربية والثقيف، ومن هذا يبدو لك واضحا أن الحياة هناك ذات طابع جدي لا لهو فيه ولا عبث"⁷¹⁴ أما اللهو عندهم فقد كان جِدًّا في صورة مسارح للتمثيل وألعاب تسلية واعية، بالإضافة إلى دور السينما المحددة بأخلاقيات. والنتيجة أن رحلات القرن العشرين باتجاه أوروبا، استطاعت أن تجابه المحن وتعطي صورة حقيقية للأنا في مقابل الصورة الموضوعية للآخر، عكس ما كانت عليه في القرن التاسع عشر. وقد بدا فيها شيء من الوعي لاستدراك الضعف السائد في المجتمع والمستوى الحضاري الذي ميّزه الضعف حيث كان النقد الذاتي سبيلا لغايات بنائية لا تقف على فتات الآخر، وإنما تسعى للتدارك من خلال هذا الآخر.

3 . صورة الآخر / لحظة الاتزان وموضوعية الصورة

يشكل مصطلح الآخر اضطرابا كبيرا من حيث تحديد مفهومه الذي يغدو فضفاضا، غير قارّ، ومن حيث أن اللغة تقتصر على تعريفه بالمغاير للأنا، أما اصطلاحا، فيمثل بعدا صداميا، لا تتقابل مع جنسه المناقض إلا نداء عنيداً، ومنه تعرّف العالم على مفترقات حضارية، ترعرعت في حضنها نزاعات ووجهات نظر متباينة. فالآخر هو المختلف تماما عن الأنا في كثير من الجوانب والمستويات. ومنهم من يذهب إلى أن "الآخر قد يكون جزءا من بيتنا العائلي، وأسرتنا الصغيرة، حيث قد يختلف الدين، أو المذهب، أو المسلك، بين الزوجين، وبين الوالدين والأولاد، وفيما بين الإخوة الأشقاء"⁷¹⁵ في مقابل أن كثيرا من المفاهيم تذهب إلى أن الآخر هو المختلف عن الأنا إيديولوجيا وعقديا، وحضاريا، ويذهب الأول إلى وضع مفهوم ثنائي للآخر حيث إن هناك "الآخر الخارجي المنتمي إلى حضارة وكيان آخر. والآخر الداخلي أو الجوّاني وهو المختلف ضمن ذات الإطار الديني والوطني، حيث تعدّدت المدارس الفكرية، والمذاهب والتوجّهات السياسية، ضمن الأمة الإسلامية"⁷¹⁶. وإذا اعتبرنا أن الآخر هو الكيان المختلف عن الأنا حضاريا وعقديا، فإن هذا الأخير ليس كلّ نموذج واحد، بل يحدّد

⁷¹⁴ - أحمد رضا حوجو، عدت من الاتحاد السوفييتي، جريدة الشعلة، العدد 43، السنة 1، 14 محرم 1370 هـ الموافق لـ 26 أكتوبر 1950م.

⁷¹⁵ - حسن موسى الصفار، كيف نقرأ الآخر؟، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2004، ص 19.

⁷¹⁶ - المرجع نفسه، ص 33.

درجة الآخر في تطابقها مع الأنا من خلال المواقف التي تمايز وتحدّد بشكل كبير صورة كل آخر بأبعاده، فإذا اعتبرنا أن الغرب كله "آخر" ففرنسا بالنسبة للجزائر -مثلا- ليست يوغوسلافيا. ومن هنا يظهر التباين في الآخر وخصوصية كل بلد على حدة، فبينما كانت روسيا ويوغوسلافيا تقفين وتتعاطفين مع الجزائر في محتتها فإن فرنسا كان موقفها تجاه الذات الجزائرية يتسم "بالعنف والقسوة وافتعال المعارك والحروب عوض الوسائل المسالمة وطرق التعايش السلمي وأساليب الثقاف المرن المبني على الندية والاحترام كما حدث مع كثير من شعوب المنطقة التي حمل إليها نفس المستعمر آلات الطباعة والباحثين في علوم الآثار وصيانة الكتب من التلف وغيرها من سبل وتقنيات الحضارة الغربية حين ذاك" 717 ومن ثم فإن تمثّل صورة الآخر في الرحلة الجزائرية الحديثة كان بقدر ما تحمله الخلفية الإيديولوجية نحو هذا "الآخر"، ولقد شهدت هذه المرحلة مميّزات لوّنت نفسية الجزائري بشقّي الحمولات السلبية، إذ قام الغرب منذ بداية نهضته على نيّة عدوانية نحو الشرق، ولجأ إليه محمّلا بتبعات الماضي الصليبي، ومستقبله المستشرف على كنوز وثروات، وهو ما جعله يسيطر استشرافيا ثم استعماريًا بعد ذلك. ومن هنا بدأت صورة الغرب مكتملة العدوانية أو الغيرية على الأقل، في المخيال العربي عموما والجزائري بوجه أخص، من حيث إنه يعدّ البلد الأكثر تأثرا بهذا الاستعمار. ولعل أجيال العصر الحديث في الجزائر وجدت على رأسها منذ نهوضها هيئة استعمارية تشرف على استعبادها وزجّها في أحوال الظلم والاستبداد والطغيان، وبالتالي فليس هناك من شك أن تتشكل صورة نمطية نحو الغرب، وهي الصورة القائمة السوداء، الممقوتة في كل الأحوال، ترسّخت في مخيال يمكن أن تقاس عليه درجة التصوّر إما بالانكماش أو بالتضعيف. كما أنه لا يمكن اعتبار ما وصل إليه الغرب في قوته التي سيطر بها على العالم وطبّق عليه صور وأشكال الاستعمار، إلا لما صار بمكمن من القوة العلمية والحضارية التي صنعت له الفرق بينه وبين أجناس أخرى من العالم منها (العرب/ المسلمون) وهي الصورة التي تشكّلت بصفة قوية لكثير مما صوّره الرخالة خلال مواجهته لبلدان هذا الآخر.

ثم من جهة أخرى ليس الغرب عنصريا نحو غيره في كل أحواله، إذ أنه من تمخّص في الأمر يجد أن دولاً بحكوماتها وشعبها قد ناصرت قضايا العرب، ووجدوا في أحضانهم الدفء والاحترام، بل حتى نحو فرنسا لا تجد في حديث الرحالين إلا الموضوعية التي تنصف الإنسان في حدود الإنسانية، بطباعه السليمة، وروحه المتسامحة.

وبناء على ما أتيج لنا من نصوص رحلية نحو الغرب، نستطيع القول إن الرحلة الجزائرية قد صنّفت الغرب إلى صنفين، وهو طبيعيّ لما قد عرفته أوروبا من تناحر إيديولوجي، بدت فيه الصورة

717 - بشير بويجيرة محمد، الأنا / الآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، 2004، ص 3.

معبّرة عن كل تيار، أولهما الرأسمالي وهي أوروبا الغربية وثانيهما الاشتراكي ويتمثل في أوروبا الشرقية. وقد تباين المعسكران في توجهاتهما الإيديولوجية ومواقفهما العدائية المتبادلة حتى بلغ بينهما ما بلغ من حروب باردة، بل بلغت الحروب بينهما ذروة الدمار من الطرفين في كثير من المناسبات أتت على الأخضر واليابس. ومنه توزّع العالم إلى انتماءين (غربي وشرقي) فمال المستضعفون منهم إلى التيار الشرقي باعتباره ينتصر لهم إضافة إلى منطق (عدو العدو صديق)، فهو يضاد التيار الغربي الذي يمثل التيار الاستعماري في العالم، وكان شيئاً طبيعياً أن تميل الشعوب المستعمرة إلى من يقف ندّاً لأعدائه. ثم إن هناك تمايز بين المعسكرين من حيث البنية الحضارية التي بدت ظاهرة في كل مجتمع من المجتمعين وفي طبيعة المكان وملامح العمران، وسلوك الإنسان، وهو ما عبّرت عنه الرحلة الجزائرية الحديثة التي كشفت عن صورة كل معسكر سواء بطريقة مباشرة أو خلف التعبير الضمني.

3 . 1 . أشكال الصورة

3 . 1.1 . صورة النظام

3 . 1.1.1 . صورة النظام الاشتراكي/تعبير عن الكشف الذاتي مواقف متباينة

ليست الصورة حول موضوع الأنظمة بريئة، أتت تتويجاً لاستقصاء ميدانيّ فحسب، بينما جاءت دائماً محمولة ومشفوعة بخلفية المستضعف الذي يبحث عن وعاء فكريّ يجعله كعزاء، أو ملجأ يأوي إليه من شدة الصدمة الاستعمارية التي عنت فساداً وقمعا ضد الشعوب المستضعفة، بلواء النظام الرأسمالي، في حين كانت الأنظمة الاشتراكية تذود عن المستضعفين كتيار مناهض يدعو إلى المساواة وإلغاء الطبقة، مما جعل الفئة المستضعفة ترى فيها المثال المنشود، في ظل هذا التنازع بين القوتين العظيمتين (النظام الاشتراكي/ والنظام الرأسمالي). ترسبت حينها في مخيال الجزائري صورة عن الاشتراكية كنموذج مثاليّ يحمل حلولاً لهموم العالم كله، وبالخصوص شعوب العالم المتخلف التي ترزح تحت ظلّ الفقر والاستعمار، وفي المقابل تحاملت الثقافة الغربية على هذا النظام كفلسفة، وكنظام سياسي واجتماعي، وراحت تشوّه من سمعته وتقرع في مبادئه. وما يدلّ على الصورة المخيالية عن النظام الاشتراكي ما صرح به (حوحو) استهلالاً لرحلته: "شغفت كثيرا ومنذ عهد بعيد بالاطلاع على ما يجري في ذلك العام الجديد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية فطالعت كثيرا مما أخرجته المطابع العربية والفرنسية على السواء من كتب وصحف بقلم أعداء تلك البلاد وأصدقائها حتى توهمت نفسي في صفوف المطلعين على النظام الاشتراكي المطبق هناك وحتى خلت نفسي

حجة في فهم تلك الديار وما يجري فيها من ضروب الحياة والعمل والسياسة⁷¹⁸ وهذه الصورة التي تسبق الواقع، ولا تتفق معطياتها بالضرورة معه، وتصنع واقعا افتراضيا، قد يصدمها هذا الواقع بحقيقته، أو ربما بما يبدو للرحالة أنه مغاير لما كان مفترضا، ولعل (حوحو) يريد أن يطمئن على هذا النظام، حتى يوجه رسالة للمتلقي بأن الصورة المحمولة افتراضا، هي الصورة الحقيقية حول مجتمع النظام الاشتراكي، وليس كما يدعي أعداؤه وفي هذا يبرر: "ولكني حينما حللت هناك وحاولت أن أطبق معلوماتي على الواقع وجدت في مخيلتي صورة مشوهة متضاربة الآراء والأفكار متأثرة بإعجاب المعجبين وانتقاد الناقلين"⁷¹⁹ كل هذا ليصّر القارئ بصورة شافية عن النظام الاشتراكي وما يتمتع به. كما أنه يريد أن يصل إلى حقيقة هذا النظام المثالي الذي يقابله بالنظام الرأسمالي، وهي الصورة النهائية حسب "وجدت عالما جديدا لا يمت إلى العالم الغربي المادي بصلة، وجدت عالما جديدا في تفكيره جديدا في وضعه جديدا في أنظمتها جديدا في سير حياته وأعماله حتى مدلول بعض الكلمات في تلك الديار غير مدلولها عندنا، فهم يعيشون في نظامهم الاشتراكي العجيب ونحن متأثرون بنظام الرأس مالية وأخلاقها وسير حياتها، فلا غرابة إذا ما وجدنا كل صغيرة في حياتهم غريبة تستدعي البحث والاهتمام"⁷²⁰ وهذه الصورة نابعة كما سبق القول، عن نفور من الواقع المعيش، لا إلى رغبة إعجاب بالمجتمع الاشتراكي، الذي يصير صورة مثالية لا يعدها نظام في ضمان المساواة، فالاشتراكية كما يراها حوحو "نظام الحكم المطبق تطبيقا محكما دقيقا في الاتحاد السوفيتي، وإذا أردت أن تفهم هذه الاشتراكية وتفهم كيفية تطبيقها فما عليك إلا أن تفهم القاعدة البسيطة التي بنيت عليها هذه الاشتراكية وسارت على ضوئها وهي (لا يجوز استغلال الإنسان للإنسان)".⁷²¹

وتبرز صورة النظام الاشتراكي كقيلة بالإيجاب لدى الرحالين الجزائريين كون الجزائري ذاق مرارة الاستعمار من الدول الرأسمالية، وأصبح يعاني عقدة الغرب، بينما الشقّ الشرقي لأوروبا غدا ملاذه ومتحجه، وإيمانه الراسخ الذي يعتقد فيه أنه ملجأ الضعيف. وحتى وإن كان هذا الجناح بالنسبة للجزائريين ملجأ آمنا، إلا أنه يبقى يمثل القضايا الإنسانية بينما يختلف هذا الجناح مع الأنا/ المسلم في أهم القضايا لديه على الإطلاق وهي العقيدة الإسلامية وما يترتب عنها من موثيق، ثم الجانب العربي من عادات وتقاليد. ولعل الصورة التي ينقلها أحمد رضا حوحو عن حياة الناس في موسكو، ليست إلا

⁷¹⁸ - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق.

⁷¹⁹ - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق.

⁷²⁰ - المصدر نفسه.

⁷²¹ - المصدر نفسه، العدد 48، السنة 1، 19 صفر 1370هـ الموافق لـ 30 نوفمبر 1950م.

تكريسا لإعجابه المسبق بالنظام الاشتراكي الذي لا يجد فيه من يتلقّى نظرياته ما يثير السخط، ذلك ما نجده يعبر عن رضاه بهذا النظام الذي جعل له حيزا هامًا من نص رحلته، ويرى فيه النظام المتكامل حيث يكفل للفرد حياة كريمة وعدالة، فيذهب إلى أبعد حد بقوله: "ولا تعجب إذا ما قلت لك إن لا وجود للمتسولين في تلك البلاد"⁷²² وما يثير الشكّ في قول (حوحو) هو أنه -مع إمكانية أنه لم ير أمارات البؤس- ينطلق من أفكار وليس من واقع، مستندا على هذا الحكم من خلال ما أعقبه هو مباشرة بعد قوله السابق، هذا القول: "وبعد ما شرحت لك بعض خواص هذا النظام يتبين لك بوضوح أن هذا المتسول في غنى عن مدّ يده واستجداء المارة لأنه صاحب حق مثلهم ككل مواطن في العمل والراتب، فإن كان قادرا على العمل فهو يعمل ويخلص"⁷²³ وإن أصابه العجز أو الشيخوخة في عمله فراتبه مستمر لأنه حق من حقوقه"⁷²⁴. وإذا كان حوحو يزكي هذا النظام الاشتراكي، ففي المقابل نجد من الرحالين من لا يرى الصورة نفسها، في المجتمع السوفيتي ولا في نظامها السياسي القائم، وهي الصورة التي نلغينا لدى الرحالة (أحمد توفيق المدني) الذي يذهب إلى تنفيذ الادعاء بمثالية النظام الاشتراكي، بل يذكر أن جلّ البعثات التي كانت ترسل بهم الجزائر إلى روسيا من أجل أخذ العلم ومبادئه، خاب ظنّها بهذا النظام، وفي ذلك يقول: "قضيت ليلة مع الطلبة الجزائريين الذين بعثت بهم إلى موسكو وكانوا ميّالين من قبل إلى الشيوعية، فإذا بهم خمدت نار حميتهم، لأنهم لم يجدوا عملا -حسب قولهم- يتفق مع ما كانوا يتصورونه"⁷²⁵. وبين من يبدي رأيا إيجابيا تجاه النظام الشيوعي ومن يبدي العكس، فإن التناقض يبدو صريحا في الحكم على حياة الناس بالاتحاد السوفيتي، فإذا كان (حوحو) يمثل الحكم الإيجابي فإن (المدني) يبدد كل الآراء الإيجابية القائم عليها هذا الحكم من تناقض بين الواقع والمبدأ، واحتكامها إلى الطبقات في تمييز المجتمع الذي يدعوه الانقباض وسوء التحكم في تمثيل قواعد هذه الشعارات التي يروج لها، فهناك شرح قائم كما يدلي بذلك المدني: "زرت الجامعة بإمعان، ومبناها من أغرب ما أخرجته الفكر البشري. فيها خمسة آلاف حجرة انفرادية لخمسة آلاف طالب ومطعم من ثلاث درجات: قسم غالي الثمن. وقسم متوسط، وقسم شعبي. وعجبت لوجود ذلك ضمن نظام شيوعي يناهز بتساوي الجميع!"⁷²⁶. وليست الصورة محصورة على هذه الزاوية فحسب، بل تبدو صورة روسيا التي تنادي

⁷²² - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق، العدد 48.

⁷²³ - دارجة جزائرية بمعنى يتقاضى أجرة.

⁷²⁴ - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق، العدد 48.

⁷²⁵ - أحمد توفيق المدني، في موسكو، كتاب حياة كفاح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ج3، ص 458.

⁷²⁶ - المصدر نفسه، ص 457-458.

بنظام يكفل التساوي والعدالة الاجتماعية والاهتمام بالعمل والعمال، أكثر قتامة حيث الجوع والشظف ينخر حياة الناس، ويكثر فيهم البؤس والشقاء. بالإضافة إلى صور البطش والغطرسة من مسئولي النظام الاشتراكي التي تفتش استبدادها. وحتى موسكو العاصمة الحيوية والمركزية سواء أيام الاتحاد أو قبله أو بعده، فإنها، بدت على حد قول (المدني) مدينة لا تُحسد على ما هي عليه من نقم، حيث يقول: "صباح يوم 12 أكتوبر⁷²⁷: جولة عامة في كامل مدينة موسكو الكئيبة، لم أر فيها إطلاقاً من يضحك أو يبتسم"⁷²⁸. فمن خلال توجّه الرّحّالين اللذين تزامنت رحلتيهما، نجد صورتين مختلفين لواقع واحد، وهو ما يحيل إلى أن الرحلة قد اتجهت توجّها ذاتياً، وهيمنت عليها أبعاد إيديولوجية وقد لعب عامل الزمن دوره في تأثيره على حكمهما، حيث أن كتابة حوحو جاءت في حينها، متزامنة مع سياق تاريخي ونسق موضوعي، بينما يختلف هذا السياق والنسق مع كتابة (المدني) الذي رواها في شكل مذكرات مما يوحي تخميناً بأن نضجه مع تغيّر الأحداث والمواقف قد أخذ منعطفاً غير الذي كان في أول الأمر.

ولو أخذنا نموذجاً آخر من الرحالين الذين زاروا يوغسلافيا، إحدى أكبر معاقل الاشتراكية - أيضاً-، وهو يكتب من زمن الحدث، نجدّه يميل إلى ما ذهب إليه (حوحو) فيتبيّن لنا أن تفكير تلك المرحلة الزمنية هو الذي طغى بنسقه، فكانت كتابة يميلها التوجّه، وليست قاصرة على الموضوعية إلا نسيباً، كما أنه من جهة يمكن التأكيد على أمر مفاده أن (توفيق المدني) يتحامل بأسلوبه القويّ على كل ما لم يجده متوافقاً مع طبيعة مبدئه ونفسيته، فحُكّمه على الأمور يبقى دائماً فيه نظر، حيث تُجمع معظم الرحلات على أن المجتمع الاشتراكي كان يميّز بالعدالة الاجتماعية، كما تُصوّر لنا هذه النافذة التي نطلّ فيها من خلال منظر مبعوث جريدة المجاهد: "ولكن ما ينسجم فيه جميع الناس هو مستوى الخلق، فلا تشعر بعجرفة الغني أمام الفقير، ولا بتسلط الحاكم على المحكوم، كل الناس أحرار فيما يفعلون وما لا يفعلون"⁷²⁹ ولعل ما نجدّه من أسلوب وطرح لدى أصحاب الصورة الإيجابية للمجتمع الاشتراكي، أنهم يحذرون في أقوالهم من كل جانب، من أجل تركية هذا النظام في صورة مجتمعه، وهو ما يدلّ على انتماء الرحالة الذاتي، وهذا مستفحل في نص (حوحو) كما هو في نص مبعوث (جريدة المجاهد) الذي نتوسّم فيه هذه الخاصية في أمثلة كثيرة، منها قوله: "وحتى مثال الأحذية المتفاوتة الذي أوردته لا ينطبق في الواقع إلا على نوعين من أقلية سائرة نحو الزوال،

⁷²⁷ - من سنة 1959.

⁷²⁸ - أحمد توفيق المدني، في موسكو، مصدر سابق، ص 456.

⁷²⁹ - جزائريون في يوغسلافيا، جريدة المجاهد: العدد 105، السنة 4، الاثنين 15 ربيع الثاني 1381 هـ الموافق لـ 25 سبتمبر 1961 م.

أقلية الفقراء وأقلية الأغنياء، ومعنى الأغنياء هنا ليس أنهم يملكون المزارع أو المصانع الكبرى، وإنما الأغنياء هم الذين يتحصلون على أجر مرتفعة لأنهم مهندسون في المعامل مثلا، أو ذوو نشاط مكنهم من القيام بأعمال متنوعة في آن واحد⁷³⁰ كما تمتزج هذه الذاتية بالموضوعية في شعور الرحالة نفسه، وهو ينقل صور ومشاهد الروح اليوغسلافية البهيحة بروح جزائرية متطلّعة وهي تقاوم في أخرج لحظات حياتها من أجل التحرير "وما ينسجم فيه الناس بصفة خاصة هو شعورهم بالسعادة وقلة الهموم، كل الطبقات تستطيع أن تعيش وتعمل وتلهو وتأخذ نصيبها من الجبابة، وقد شعرت أن أغانيهم الشعبية تعينهم على تذوق الحياة وعلى النشاط في العمل، إذ تعتبر الأغاني اليوغسلافية - وهو شيء نادر في فن البحر الأبيض المتوسط - بعيدة عن البكاء ولهجة التأوه والتشكي المائع رغم نعومتها.⁷³¹

● العمل / تجليات النظام الاشتراكي

إن العمل ظاهرة إنسانية ليست مقصورة على المجتمع الاشتراكي، لكن هذه السمة تلازمت مع نظامها الاجتماعي الذي جعل من العمل نقطة تساوي. وضّم الناس جميعا عمّالا تحت غطاء الدولة العام حتى لا تبدو الفوارق الطبقية ويتساوى الناس. ومن هذا المنطلق ظهر (العمل) كمعادلة أولى، وبات -هو- الشغل الشاغل، وأصبحت حديث الناس بصورة جليّة، ومن هنا كان منطقيا أن تنقل النصوص الرحلية في طياتها صورا لهذه الحركة. فالنظام الاشتراكي نظام العمل والتشجير على الأيدي، ودعوته قائمة على الساعد كسبيل أوحد للرفع من الإنتاج وإيجاد الحل لليد العاملة في سبيل التّهوض بالاقتصاد الوطني. ومن ثم يغدو العمل مقدّسا، والعامل أقدس، ونتيجة لهذا الفكر ودفاعا على تجسيده نهضت دواعي لنقل الفكرة إلى ظاهرة عامة، فتحمل الإنسان عبئها، وقد بلغت درجة فكرة العمل في إخلاصهم إلى مصاف العقيدة في الأديان، يشرح ذلك (رضا حوحو) في قوله: "أما نظام الحزب الشيوعي فلم يطبق بعد وهو نظام عسير التطبيق يتوقف على وفرة الإنتاج الاقتصادي وإكثار الحاجيات حتى تزيد على نسبة الاستهلاك بحيث يمكن توزيعها على الشعب مجانا دون مقابل، فالحزب الشيوعي هناك، عبارة عن إيمان بهذا المبدأ وتحمس شديد لهذه الفكرة وهذا التحمس لا يكون باللسان وإنما بالعمل والتفاني في هذا العمل لتكثير الإنتاج"⁷³². وقد كان من الرحالين إذا ما تحدّث عن العمل والعمّال يثني على الجهود وعلى التفاني والبذل، ومثال على ذلك ما قاله

⁷³⁰ - المصدر نفسه.

⁷³¹ - جزائريون في يوغوسلافيا، مصدر سابق.

⁷³² - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق، العدد 47، السنة 1، 12 صفر 1370 هـ الموافق لـ 23 نوفمبر 1950 م.

(المدني): "ذهبوا بنا إلى نوع من الحج الأكبر عندهم، وهو زيارة جماعة العمال في مصنع غريب وهم يعملون، وأدهشني وأثار إعجابي وتقديري، انهماكهم في العمل الجماعي وكأنهم نوع من الآلات الحديدية التي لا تني ولا تكل"⁷³³.

والعمل في النظام الاشتراكي ليس مرتبطا بالإنتاج فحسب، وإنما هو مؤسسة ثقافية وتربوية تقوم على نشاط توعوي، لأنه النظام الاشتراكي نظام شامل أساسه العامل كفاعل اقتصادي، وهو المحور الذي تهيئ له جميع لوازم الحياة وتذليلها له ولأفراد أسرته، ولا يكثر في التفكير إلا في العمل، فالعامل هناك يجد كل أسباب راحته فيما يوفر له مصنعه، حيث نجد أن "لهذا المصنع حي كبير جدا ومعاهد عديدة للتربية والتثقيف وأنواع العلوم والفنون والصنائع ويوجد داخل المعمل وفروعه حمامات ومطاعم للعمال لمن يريد أن يتناول وجبة طعامه بالمعمل كما شاهدت مطعم رجيم خاص لذوي الرجيم"⁷³⁴.

ولم تكن روسيا وحدها من تؤول إليها هذه القدسية للعمال ونظام العمل، بل كل الدول التي تحمل شعار الاشتراكية كانت عبارة عن ورشات ومعامل ونشاط دعوب، خصوصا (بولونيا) التي استفادت من شعارات هذا النظام بعد أن دمرتها الحرب العالمية الثانية، فجنّدت كل أفرادها لإعادة البلد إلى أحسن صورة مما كانت عليه قبل الحرب، ومنها ينقل "محمد الصالح رمضان" صورة صادقة عن جوانب عديدة من هذه الورشة التي يقول في بعضها: "تسمع أزيز آلات الحفر ومحركاتها، وأصوات نواكير المعاول الآلية والجرافات ونحوها، والعمال منكبون على أعمالهم كالآلات الصماء لا يشغلهم شاغل مما يدور حولهم، وركام مواد البناء وأنقاض المباني المهدامة هنا وهناك، والشاحنات ذاهبة آتية في كثير من النواحي تنقل المواد والأنقاض ما عدا قلب المدينة الذي يمثل (فرصوفا الحديثة) عاصمة المستقبل. فالمدينة أكبر ورشة عمل أشاهدها لحد الآن في حياتي. في كل انحناء وعطفة في معظم الأحياء: أعمال البناء والرافعات شامخة في عنان السماء."⁷³⁵ وكانت فرصوفا مستنفرة بحالة الطوارئ، يتفاجأ الزائر لها من شدة ما يجده أمامه أينما كان وحيثما ولى وجهه: "وأول ما يصدم الزائر في فرصوفا الأتربة والغبار المنتشر بكل مكان بسبب حركة البناء الدائبة المستمرة في الليل والنهار، ففي كل شارع و ساحة تقريبا، والشبابيك والسيارات في أرصفة الشوارع بقلب المدينة وعلى جانبي الطرق تحمي المارة مما قد يسقط

⁷³³ - أحمد توفيق المدني، في موسكو، مصدر سابق، ص 458.

⁷³⁴ - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق، العدد 54، السنة 2، 1 جمادى الأولى 1370 هـ الموافق لـ 8 فيفري 1951 م.

⁷³⁵ - سوانح وارتسامات عابر سبيل، مصدر سابق، ص 94.

عليهم⁷³⁶ كما أن يوغوسلافيا ليست بمنأى عن حالة البلدان الاشتراكية ما دام أنها منخرطة في هذا الإطار، ينقل من خلالها الرحالة صورة مكتملة لصور الدول الاشتراكية الأخرى فيما يتعلق بطبيعة المعامل وصفاتها، نذكر ما قاله أحدهم بإيجاز: "وما يميز المعامل في يوغوسلافيا عموما هو النظافة والأناقة، فمعمل التبغ مثلا محاط بالأشجار الباسقة المخضرة وكل ما حوله وما فيه نظيف أنيق، وتشعر من العناية المحاطة بالمعمل أن الناس فيه يعملون فعلا لأنفسهم لا للشركة ولا لشخص ولا حتى للدولة. وهذا -في نظري- ما جعل المصانع في يوغوسلافيا تشبه الجامعات العلمية من حيث العناية بأشجارها وبساتينها"⁷³⁷ ولم يكن هذا التمثيل الواصف لحالة المصانع، إلا انطلاقا من نظرة متقاطعة تتلاقى فيها مظاهر المقارنة بين صورة الأنا وصورة الآخر، حين يصف حالة المساكن التي تحاط بالمصانع هناك، وبمثيلاتها هنا، ويذهب به الشجو إلى أبعد من ذلك حين يبالح بإعطائها مجالا للترفضيل حتى بينها وبين مثيلاتها في دول أوروبية عظيمة، كفعل مبالغة، مثل قوله: "ومساكن العمال التي تحيط بها بحيث لا تكاد تشعر بدخان المصانع وغبارها ولا بالجو الخانق الذي يحيط ببعض المعامل البائسة في بلادنا، بل إن مثل هذه الجنة الخضراء التي تحيط بالمعامل يصعب أن تجد مثلها حتى في إيطاليا أو فرنسا وبريطانيا"⁷³⁸ بينما لم تكن يوغوسلافيا تتعدى مرحلة التحريب في كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتشييد العمراني والأعمال الفلاحية وفي "التعليم والصحافة والتصنيع والفنون الجميلة وتوجيه الشباب الخ .. الخ..."⁷³⁹

● الصرامة/ نمط حياة الاشتراكيين

يبدو أن النظام الاشتراكي نظام صارم، في جوانب كثيرة على حياة أفراد، وذلك نتيجة القوانين التي يسهر على تطبيقها بحذافيرها، متبعا في ذلك أساليب نمطية تخضع للبرمجة التنظيمية للمجتمع في إطار العمل الجمعي، ومن ثم كانت صرامة خاصة في تطبيق النظام الشيوعي (الاشتراكي) وما يتماشى مع أخلاقياته، من هنا برزت صورة المجتمع الاشتراكي في تنظيم حياته العامة متجلية في حرصها على استبدال كل ما له علاقة بالعبث واللهو بما هو أجدى وأنفع، ومنه نقل لنا الرحالون، صورا منها: "لا وجود للمقاهي العامة ذوات السطوح الكبيرة كما يوجد عندنا، كما لا يوجد أيضا الكازينوات ودور اللهو الليلية ومحلات القمار والعبث ويوجد بدل هذه كلها، الحدائق العامة ودور السينما

⁷³⁶ - المصدر نفسه، ص 94.

⁷³⁷ - جزائريون في يوغوسلافيا، مصدر سابق.

⁷³⁸ - المصدر نفسه.

⁷³⁹ - المصدر نفسه.

العديدة والمسارح الكبيرة والأندية العامة والخاصة، وكل هذه المؤسسات تحمل طابع التربية والتثقيف، ومن هذا يبدو لك واضحا أن الحياة هناك ذات طابع جدي لا لهو فيه ولا عبث⁷⁴⁰ وكما يبدو، فإن صرامة هذا النظام تتعدى الحياة العامة إلى الحياة الخاصة، التي يفرض فيها النظام حتى على فضاءات التعايش والاندماج الاجتماعي.

أما الميزة الأخرى التي برزت عند الجناح الاشتراكي هو اهتمامهم الكبير بتاريخهم وتخليد رموزهم الوطنية، ويتجلى الاهتمام بتلك المظاهر بتخليدها من خلال إنشاء متاحف خاصة تحتضن آثارهم تتوزع عبر كامل أقطار البلد، خاصة لينغراد وستالينغراد، وغيرهما من المواقع التاريخية. وتعد هذه الرموز بمثابة الأسطورة بالخصوص عند السوفيتيين. فهي بارزة للزائرين حتى يتسنى لهم المشاهدة والاعتبار، كآيات تاريخية، علاماتها هذه الرموز الملهمة: "ويوجد جثمان "لينين" محنطا وموضوعا داخل صندوق من الزجاج يزوره يوميا آلاف عديدة من الزوار يشاهدون زعيمهم كأنه نائم فوق سريره وقد شاهدته فلم يتغير من جسمه شيء"⁷⁴¹ ولقد ركز حوحو على المتاحف التي شغلته، وهي كثيرة أهمها متحف (غوركي) ومتحف (لينين)، هذا الأخير الذي يروي بعض تفاصيله، للتعريف به وتاريخ الشخصية العظيمة في تاريخ روسيا المعاصر، ويؤكد على أنه من شدة حرصهم على حياة الرجل وتفصيلها، لم يتوانوا في الاهتمام بأدنى ما كان يتعلق به فهو حسب قول الرحالة: "هذا المتحف مرتبا منظما مؤرخا من أتفه الأشياء إلى أكبرها وأعظمها بحيث لا ينتهي بك المطاف إلا وقد عرفت عن لينين كل كبيرة وصغيرة وكأنك عشت معه طيلة حياته ولازمته في كل أيامه"⁷⁴² ..

3. 1. 1. 2. الغرب الرأسمالي / الموقف والموقف المضاد.

انسابت الرحلة الجزائرية الحديثة إلى دول أوروبا الغربية مثل إيطاليا وألمانيا والنمسا، وسويسرا، وإسبانيا، وفرنسا، وما عدا هذه الأخيرة، فإن البلدان الأخرى المذكورة لم يَطُل نصُّها ولم يتعدّد التردّد عليها من طرف الرحالين، بل لم تكن هذه البلدان مقصودة في ذاتها سوى إسبانيا، التي خصّتها (بوزيد عطياوي) في رحلته (في بلاد الأحلام والذكريات) في حين كانت الدول الأخرى مجرد محطات عبور مثّلها (محمد الصالح رمضان) في إشارات بسيطة من رحلته (سوانح وارتسامات عابر سبيل) التي خص بها أوروبا الشرقية. أما فرنسا فهي التي كانت بؤرة الغنائم، ومحطة السفر الهامة بالنسبة للرحالين الجزائريين في هذه المرحلة. ولم يكن السفر إلى فرنسا نزهة وفسحة، أو يعدّ شرقاً، بل كان من العار أن

⁷⁴⁰ - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق، العدد 43، السنة 1، 14 محرم 1370 هـ الموافق لـ 26 أكتوبر 1950م.

⁷⁴¹ - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق، العدد 50، السنة 1، 11 ربيع الأول 1370 هـ الموافق لـ 21 ديسمبر 1950م.

⁷⁴² - المصدر نفسه.

يتّجه جزائري إلى فرنسا كما يؤكد أحد الرحالين بقوله: "ومن زمن غير بعيد أيضا كان سفر أهل العلم والدين إلى أوروبا منكرًا كبيرًا عند العامة ونقيصة شائنة عند المنتمين إلى الدين، وكان من دعته ضرورة إلى السفر رجع مستحيًا يلتمس لنفسه المعاذير التي لا يقبلها منه إلا القليل"⁷⁴³ وكان هذا ينم عن خلفية عرفية بمثابة العقيدة الراسخة عند الجزائريين، وعلى النقيض كانت طائفة من الرحالين يستبشرون بذلك، وهم زمرة المماليين، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، في حين عندما تطورت ذهنية الجزائريين وبات فيهم أمر المستعمر أمرا مقضيا تغيرت الذهنيات وحالت عن أذهانهم كثير من العوائق النفسية، جاء التفاعل والتواصل تلقائيا، فبات السفر إلى فرنسا أمرا مطلوبوا لدواعٍ عديدة، كالذي يؤكد الرحالة نفسه في قوله: "أما اليوم فقد أمّ فرنسا القضاة والمفتون والمسلكون ورجعوا فرحين مستبشرين معجبين؛ ولقيهم الناس بكل إعجاب وترحاب وهذا تطور يدل على تفتح عقلية الأمة وزوال شيء من الجمود عن أفكارها"⁷⁴⁴ وهي أمانة من أمارات الوعي الذي لفّ شعور الجزائريين، خاصة المثقفين منهم، وأكثر من ذلك أن فرنسا أصبحت بؤرة العمل السياسي والدعوي إلى حد كبير، لما كانت تتمتع به من حرية، عكس الجزائر التي كان فيها هؤلاء الفرنسيين أنفسهم من يقبض على الحريات بيدٍ من حديد.

وفي المقابل، ليس هناك من ينكر ما لفرنسا من خصوصية حضارية، وأبعاد مدنية، وقوة في الميدانين العسكري والاقتصادي، كما أنه ليس هناك من ينكر ما فعلته فرنسا بالشعوب المستضعفة، والذي أكسبها أعداء في كل بقعة من العالم، خصوصا البلاد المستعمرة التي كانت تزرع تحت جناحها الاستعماري، ومن هؤلاء الجزائريين الذين تكوّنت لديهم عقدة اسمها "فرنسا" جراء القمع والاستلاب الذي مارسته سلطاتهم على شعبها. ومنه تشكّلت الصورة الأولية لفرنسا في المخيال الجزائري الذي ترسّبت فيه عدم الرضى وقوة الصدمة الاستعمارية التي وُثّمت أثرا سيئا لا تنسيه الأيام، بينما وقف طرف آخر نقيض هذا الطرف، وخاض بقلمه ينافح عن فرنسا، ويدعو بدعوتها، ويساند عضدها، فتشكل تياران ينمّان عن موقفين متباينين، أحدها يرى السلبية في فرنسا، والآخر يرى الإيجابية.

3.1.1.2.1. صورة فرنسا/ الموقف الجزائري

إن من جملة الرحالين الذين سجّلوا مواقفنا مناهضة للاستعمار، في صور حُجج خلال زيارتهم لفرنسا، جاءت كلها بين الحربين العالميتين واشتدت بعد الحرب الثانية، نظير درجة الوعي والحرية التي اكتسبها المواطن الجزائري، والمثقف بشكل خاص، وذلك نتيجة ملاحظات سجّلها الرّحّالون خلال

⁷⁴³ - ع. ملاحظات مسافر، الشهاب العدد 67، السنة الثانية، (الخميس 7 جمادي الأولى 1345هـ/11-11-1926).

⁷⁴⁴ - المصدر نفسه.

تواجههم بفرنسا، حيث أضحت المواقف السلبية التي كانت ممارسات فعلية على جزائريين بطريقة مباشرة أو عن طرق ضمنية، فقد كان الجزائري يشعر بالحسرة حين تواجهه بفرنسا، وهو متدّمّر من فعل سلطات هذا البلد ببلده، فيسعى لطلب شغل يقيه شر المسغبة، فلا يتأتّى إلا عبر ذل وهوان، ويُغضّ مقيت، لقد كانت فرنسا تنادي بشعارات العدل والمساواة، وتمني الجزائريين بالعيش الكريم جنبا إلى جنب مع الفرنسيين، إلا أن الحقيقة يؤكدّها أحد الرحالين بقوله: "قَدِمَ الجزائري إلى بلد أمه فرنسا ليعمل بكده وعرق جبينه، فلما وصل إلى فرنسا وذهب إلى المعامل ليشغل ظهرت علائم التحيز والميز بين المسلم الجزائري وأخيه في الراية والوطنية المسيحي الفرنسي وغيره"⁷⁴⁵ والرحالة نفسه يدلي بشهادته على الحكّام الفرنسيين الذين كان لا يهتمهم من الجزائريين سوى أنهم أرقاما لا بشرا، فليس لهم حقوق كمنظراتهم الفرنسيين، في حين أن واجباتهم تتعدى ما للفرنسي منها، كعدم المساواة في مدة الخدمة العسكرية، وغيرها من الواجبات التي كانت ترهقهم، فيصور هذا الفرنسي مخاطبا أخاه (متلقيه) الجزائري بقوله: "لا تعجب أيها الجزائري الذي لم يعتد سماع هذا الحق والإنصاف بهذه الصراحة فإن هذا فرنسي، في إدارة عليا؛ بباريس، لا ينظر الجزائريين إذا طالبوا بحقوقهم المهضومة أعداء لفرنسا بل يراهم قوما ضعافا من جملة من يخدمون راية فرنسا لهم حقوق يجب أن ينالوها، هذه هي العين التي يرى بها فرنسيو فرنسا الجزائريين"⁷⁴⁶ هذه هي الصورة التي كان يرسمها الفرنسي المحمول على عرش التسلّط، وكان الرحالة ذكيا في رسم صورة الفرنسي الذي كان في كل أحواله يرى بأن الجزائري إما عميلا مُنضما إلى كيانه، وإما حقيرا لا ينظر إليه إلا من زاوية الضعف والاستكانة، وهو الدافع لقوله: "ليت الفكر الفرنسي العام هناك، كان يجهلها جهلا بسيطا فقط، ولكنه في كثير من الأحوال يتصورنا على خلاف حقيقتنا. فلربما تصورنا في رفاهية وسعادة إذا شاهد النماذج المزرکشة. التي ترد عليه من الجزائر في مناسبات كمناسبة افتتاحي المعهد⁷⁴⁷ الغريبي.. ولربما تصورنا همجا منحطين إذا شاهد أولئك العملة الجزائريين البائسين الذين يرميهم الفقر ويخس اليد العاملة بالجزائر حقها إلى ديار الغرب"⁷⁴⁸ ذلك لأن ابن غريبط وأقرانه كانت لهم الحظوة عند فرنسا، لا يمتثلون أمام قياداتها

⁷⁴⁵ - رحلة المكاتب (الجزائري)، الحياة في أوروبا أو أوروبا في الحياة...؟؟، الشهاب العدد 69، السنة الثانية، (الخميس 14 جمادي الأولى 1345هـ/18-11-1926).

⁷⁴⁶ - ملاحظات مسافر، مصدر سابق.

⁷⁴⁷ - ويقصد به مسجد باريس الذي تأسس في جويلية من نفس السنة التي كتبت فيها هذه الرحلة، أي بين كتابة الرحلة وفتح مسجد باريس شهرين، وقد أوكل بأمره قدور بن غريبط.

⁷⁴⁸ - ملاحظات مسافر، مصدر سابق.

إلا بأبهى الثياب، وأشرف مقام، وأعز سلطان من جاه وأوسمة، مأجورين على ما عملت أيديهم، وفي الجانب الآخر يمثل الجزائري الذي لا حول له ولا قوة، ممزقا رث الثياب، لا يملك من قوته إلا ما يسد جوع يومه أو يكاد.

وقد تماطلت الصور المشينة عن فرنسا التي حملت في طياتها الكثير من المواقف السلبية، مثل ذلك ما رصده (محمود بوزوزو) وأكدّه في هذه الصورة البائسة التي تحدث عنها في مقام واحد، وهو البرلمان الفرنسي الذي وجد فيه ما يحقّق فيه غرضه تجاه هذا الجلاد الغاشم، وهي تمثل تلك الصورة القائمة التي لا يُستغرب بعدها لما هي عليه فرنسا من ظلم للآخرين "فالشعب المسلم الجزائري يشعر عند ذكر البرلمان الفرنسي شعورا مخالفا على طول الخط لشعور المستعمرين وأذناهم"⁷⁴⁹ وقد علّق (بوزوزو) على صورة البرلمان كجزء من الصورة العامة لفرنسا، وهي صورة نمطية في حد ذاتها كان الرحالة نفسه يعتقدونها، بل يقاومها فكرة وفي الميدان، فعرضها في هذا السياق يعدّ بمثابة الصورة الشاهدة على صورة مسبقة، وهي صورة الاستعمار بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالات، ومن هنا لا يمكننا أن نجد في النص ما يُشعرك بالارتياح تجاه هذا البرلمان خاصة وهو يناقش القضايا الأساسية التي تتعلّق بالمستعمرات وقضاياها، التي يقدرها بالجوهر الثمين، وبخاصة "الجزائر" التي كانت تدار حولها المعارك، كقصعة بين اللثام، أو كفريسة بين مجموعة من الذئاب، وغاية هذا البرلمان في كل الأحوال هي النتيجة الحتمية التي لا تستند إلى منطق، وما يقوم به أفرادها من مناقشات عبارة عن برابجه الشكلية دون أن يغيّر من مواقفه، وهذا الذي يؤكده بوزوزو -دائما- بقوله: "وما دخلت البرلمان رغبة في معرفة مصير القضية الجزائرية، فان مصيرها كان متوقعا، وكانت نتائج المناقشات تترأى لكل من لاحظ أمورا منها"⁷⁵⁰ بل يذهب (بوزوزو) إلى أكثر من ذلك في ترسيخ الفكرة التي من فرط تصلّب المستعمر، لا يرى في سياسته نقطة ضوء واحدة تحيل على تغيير في مبدئه، لأنه كما يقول: "أن ما بقيت عليه السياسة الفرنسية من الجمود يشعرونا أنه إذا كان في الإمكان أن يتطور العالم بأسره ويتغير كل شيء فيه فان السياسة الفرنسية لا تتغير ولا تتأثر بما يحدث حولها من انقلابات وثورات لخير الإنسانية"⁷⁵¹ لأن سياسة فرنسا واحدة لا يفصل فيها البرلمان وإنما الاستعمار مؤسسة أزلية لا تحتكم إلى البنود والشرائع الإنسانية.

⁷⁴⁹ - محمود علي بوزوزو من وحي البرلمان جريدة البصائر العدد 11 السنة الأولى، السلسلة الثانية، الاثنى 5 ذي الحجة 1366 هـ الموافق 20 أكتوبر 1947 م.

⁷⁵⁰ - المصدر نفسه، العدد 13، يوم 26 ذي الحجة 1366 هـ الموافق 10 نوفمبر 1947 م.

⁷⁵¹ - المصدر نفسه.

وصورة المستعمر لا تتغير ولا تتبدل، وهي تحافظ على المبدأ نفسه في كل فصول حياتها، حتى وإن ادعت أن الديمقراطية ركن من أركانها، فإنه سرعان ما تبدد هذا الادعاء إذا وُجد الجزائري طرفا في قضيتها، بل حتى ولو مثل الجزائريون أنفسهم في محافل البرلمان ومناقشة أوضاعه، فإن ذلك لم يشفع لهم في اكتساب بعض حقوقهم المدنية بله المطالبة بالحرية، وهي الصورة البشعة التي كشفت عنها الروح الاستعمارية المهيمنة على هذا البرلمان، وإذا كان الجور على الجزائريين داخله من خلال الممثلين، فما بالك بمن هو من الطبقة الكادحة، وهذه حصّة المثل الذي جاء به بوزوزو في رواية عن مشهدها وهو يرصد تنكّر قادة البرلمان على أعضاء من حزب جزائري: "وقد يغفل الرئيس -في بعض الأحيان- فيأتي من الأقوال والأفعال بما لا تسلم منه حرمة البرلمان ولا حرمة الديمقراطية. من ذلك أنه لا يسمح بالكلام لبعض النواب ليردوا أو يلاحظوا على غيرهم فيما يمس بكرامتهم. وقد رأيت مرارا نواب "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" يرفعون أصابعهم مستأذنين في الكلام فلا يأذن لهم المسيو هريو، فيجلسون متأسفين"⁷⁵² أما بخصوص اللهجة التي خاض بها النواب الجزائريين الفاعلين في البرلمان بعد حرمانهم من طرح قضاياهم، فقد جعلها رئيس البرلمان ذريعة لحرمانهم من هذه الحقوق يأتي ذلك على لسانه من قول الرحالة: "إنكم اقترفتم في كلامكم من حدة اللهجة ما لا يعود في أنظار العالم ينفع ما على مطالبكم".⁷⁵³ مما جعل بوزوزو يعلّق على هذا الادعاء، من زاوية الموقف النفسي الذي استشعر فيه صورة فرنسا عامة وليس أمر البرلمان إلا نافذة من أجل البوح، وهذا نلمسه من قوله: "وغفل المسيو هريو عن الدوافع النفسية التي أدت بالمسلمين إلى حدة اللهجة. كأنه لا يعرف ما يعانيه الشعب الجزائري من المظالم، وكأنه يجهل أن الوضعية السياسية "هنا" غيرها "هناك". وأن المسلمين "هنا" لا يقدرّون أن يفصحوا عن رغباتهم، ويكشفوا عن آلامهم المكبوتة في لهجة لها من الحرارة في ألسنتهم ما لهذه الآلام من المرارة في أفئدتهم.. تلك الآلام المكبوتة في صدورهم طيلة قرن ونيف"⁷⁵⁴

ولم ترو لنا مدوّنات الرحالين الجزائريين خلال هذه الفترة، أن فرنسا ممثلة في مؤسساتها الحكومية، كانت إيجابية في تعاملها مع الجزائريين، ذلك ما أكدّه جلّهم كالذي جاء به ابن باديس قبل بوزوزو عند زيارته الرسمية إلى باريس ولقائه بوزير خارجيتها، حيث قال بشأنه: "قدمت قبل اليوم مطالب الأمة الجزائرية مرات عديدة متعددة وكانت تقابل بقبولها للنظر فيها وبالوعد بإنجاز بعضها ثم لا

⁷⁵² - من وحي البرلمان مصدر سابق، العدد 15، يوم 17 محرم 1367هـ الموافق 1 ديسمبر 1947م.

⁷⁵³ - المصدر نفسه.

⁷⁵⁴ - المصدر نفسه.

يكون بعد ذلك شيء من الوفاء من الواعدين⁷⁵⁵ ثم يضيف: "ولا شيء من الاستياء من الموعودين"⁷⁵⁶ لأن الجزائريين كان موقفهم من فرنسا سلبيا، فلا تؤثر فيهم أحكامها الصادرة مهما كانت، وبقيت فرنسا سيئة في تعاملها مع الجزائريين، لا تبدي ارتياحا وبجذر إلا للطرف الآخر من المتعاملين معها بتواطؤ، لذلك لم يعبر الرحالة عن خيبة أمل، بل هو يصرح عن بقاء الحال على حاله.

3. 1. 1. 2. صورة فرنسا/ الجزائري والموقف⁷⁵⁷ المضاد

عُرفت ظاهرة الممالة وتعاون الأهلي مع المستعمر في تاريخ الجزائر طوال المرحلة الاستعمارية من أول يوم دخل فيه الفرنسيون الجزائر إلى آخر يوم خرج فيه. وكانت فئة من الناس مصابة بمرض نفسي نخر جسدها، فباعت ذمها لهذا الغريب على الجسم الجزائري، وقد شكّلت هذه الطائفة ضرا كبيرا على إخوانهم في كل الربوع، مما ولّد عند الشرفاء واجهة صراع أخرى أشد فتكا وخطرا. وقد عملت فرنسا على تكوين طائفة منهم ليكونوا نخبة بدلا من الأبواق الناقلة للأخبار والدسائس فقط، ومن جملة هذه النخبة، طائفة الرحالين الذين استعملتهم فرنسا للتنويه بحضارتها والتشهير بنفوذها، وتبصير العامة من الجزائريين وتمير رسالة الموالة لها. وقد تحقق لها بذلك جملة من الرحالين خاصة خلال القرن التاسع عشر، الذي عرفت فيه أربعة⁷⁵⁸ نصوص تُزكّم الأنوف بريح عمالتها، ولم تكن هذه النصوص بريئة المحتوى ولا التوجه، وإنما هي صناعة استعمارية روّجت لها هذه الأيدي والأفكار الخبيثة.

وقد تجرّدت رحلات النصف الأخير من القرن التاسع عشر لفعل الممالة لفرنسا التي لم تعرفها الساحة الأدبية من قبل ولا من بعد، بمثل الحدة التي عرفتها آنذاك، بفضل الرحالين الذين آثروا الخطاب الفضايف لتزكية استعمار فرنسا، وبدا فيه الرّحالون على النمط نفسه في ذكر محاسن فرنسا، واستخفاف بالعقل الجزائري (العربي) الذي يأبى الاستعمار ويحاول مقاومته. وقد كانت الدعاية من أهم ما ميّز خطابهم كما يبدو من سيميائية عنوان رحلة "ولد قاد" ذي السمة: (الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية).

وإذا اعتبرنا أن الرحالين كلهم - في هذه الفترة - ممالين للاستعمار، فإن مشاهدتهم لكل مثير عن الحضارة الفرنسية سوف يكون في صالح المستعمر الذي يحق له بالتالي أن يضمّ إليه الجزائر، البلد الذي يفتقد إلى أسباب التقدّم وتوفير المعاش الكريم لمواطنيه الذين غلبت عليهم البداوة والشقاوة، وعشّش

⁷⁵⁵ - عبد الحميد بن باديس، مع الوفد الإسلامي مشاهدات وملاحظات، الشهاب الجزء السابع المجلد الثاني عشر، (غرة رجب 1355هـ/أكتوبر- 1936).

⁷⁵⁶ - المصدر نفسه.

⁷⁵⁷ - إن تفاصيل كثيرة عن هذا العنصر قد عالجنها في نقطة من هذا الفصل وهي التي تتعلق بعقدة الانحزام / سلبية الأنا ولحظة الإرتباك.

⁷⁵⁸ - وهي: رحلات كل من سليمان ابن صيام، محمد السعيد بن علي الشريف، وأحمد ولد قاد، محمد بن الحسن بن الشيخ الفغون القسنطيني.

فيهم الجهل. وهو الأمر الذي قام عليه هؤلاء للترحيب بالاستعمار ومباركته مثلما يبرّر ذلك "ولد قاد" وهو من هذه الفئة، حين يبرّر الفعل الاستعماري، بوصفه هبةً منّ الله بها على الجزائر والجزائريين، وهي بمثابة سبب من أسباب النهوض والرقى: "فيحق لنا أن نحمد الله تعالى على دولة منّ الله بها علينا، ونجتهد بواسطتها في أنحاء الأسباب التي سنعود بها لسيرة أوائلنا فإن فضائل الله ليست محصورة في قوم، ولا مختصة ليوم دون يوم"⁷⁵⁹ وهذا بيان واضح ينطلق من خلاله الرحالة على خلفية مبيتة، في استغناء القارئ عبر قناعاته التي انحازت إلى جنب الاستعمار، فيهنّئ في الأخير الجزائريين على هذا الدخيل المتسلط، واصفا إياه بالأمر الحسن قائلا: "هنيئاً هنيئاً لفرنسة التي هي أم الجزائر فقد زادها مر الليالي جدة وتقادم الأيام حسن شباب"⁷⁶⁰. كما يبرر آخر هذه الدعاوى ببرهان رفع التهم عليهم بأنهم أهل عدل "واعلم أن ملوك فرنسا لو اتصفوا بالظلم والجور وعدم الرفق بالرعية لما قدروا على تحقيق بعض الغرض من عمارة البلدان وكثرة العساكر البرية والبحرية وتحصين الثغور وتعميرها بالعدد والعدة"⁷⁶¹ كما يقول آخر عن هذه الدولة: "فإنها هي الدولة الفريدة في عصرها وألسنتنا لا تفتقر طرفة عين عن مدحها وشكر إحسانها على ما أنعمت به علينا. نسأل الله أن يعظم قدرها ويشيد أركانها بالخير والنجاح"⁷⁶².

الموقف المضاد-إذن- يتشكّل في كل مجتمع كحالة شاذة، وظاهرة انهزامية، غالبا ما يُفوّض لأجلها ضعاف النفوس ومرضى القلوب، وذوات المصالح الضيقة، الذين أرهقتهم المطامع ونيل الرتب والتشريفات على حساب إخواتهم، مثل ذلك تحقّق فيمن أسهموا في خطاباتهم الرحلية التي كان لهذه الطائفة منهم نصيبا وحظا موفورا. ولقد استغلوا درجة فرنسا في التقدم إلى التنويه بهذا المجد، للنيل من إخواتهم وبني جلدتهم، وتسويق أفكار سامة في سبيل الدعاية للدولة الاستعمارية، كدولة قوية يسودها العدل والمساواة، وبإمكانها أن تسعد الجزائريين في حياتهم ومستقبلهم، وكانت هذه الفئة تسير ضد التيار، ناشرة زعمها -بوعي مضاد- وقد تشكل في محطات عديدة نواحي الضعف والاستكانة.

وبينما عرفت الرحلة في خطابها زمن التحول الذي عرفته الساحة السياسية بعد عشرينات القرن العشرين، بشيء من المراوغة، فقد عرف حديثها شيء من تليين النفوس بخطابات ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب الشديد، وأبرز من كان يمثل هذا التيار (إسماعيل مامي) الذي أغنى رحلاته المتعدّدة

⁷⁵⁹ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 53.

⁷⁶⁰ - المصدر نفسه، ص 60.

⁷⁶¹ - المصدر نفسه، ص 39.

⁷⁶² - الوفد الجزائري من رؤساء العرب ورحلتهم إلى محروسة باريز، ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 82.

بالإطراء لحياة فرنسا ككيان شريف في الربوع الجزائرية من أجل التحضر، ونشر العلم، ومن أجل المساواة.

3. 2.1. 2. صورة المكان

3. 1. 2. 1. 3. المكان الطبيعي

تختلف أوروبا في طبيعتها عن كثير من القارات بفعل تضاريسها ومناخها، وهما عاملان أساسيان في إبداع المكان الطبيعي الذي يتسم بخصائص جعلته يدهش الرّحّالين الجزائريين بتجلياته التي وهبها لها الخالق، حتى أضحت جنة ليس فيها ما يقدمه الرائي لأدنى أمور النقد بل هي حرّية بكل ثناء، حيث تُمثّل الطبيعة قوتها الغفلى التي يجسدها هول أجزاءها ولواحقها وما تتميز به من ضخامة وجلال، ومع ذلك لا تشكّل صعوبة مسالكها وهول جلالها عائقا على السكان، بل يعدّ ذلك جزءا من حياتهم الطبيعية المألوفة، ف"الطبيعة عندهم فيها كل معاني الكبر والعظمة والضحامة، الأشجار طولها بعشرات الأمتار، والجبال علوها بالآلاف"⁷⁶³ فإذا كان الرحالة يستمد أفكاره ورؤاه من خلال طبيعته المحلية التي تفتقر إلى مثل هذا الحجم الطبيعي، يكون بالضرورة لرأيه شأن حول هذه الطبيعة الغريبة، وما هي في الحقيقة عند أهلها إلا شيئا بسيطا وطبيعيا، مثلما يؤكد بقوله: "وما هو عندنا مغامرة نادرة في حياتنا ليس إلا وجهها من حياتهم العادية"⁷⁶⁴ وهذا ما يدعو إلى تفسير هول الطبيعة بمشاهدها الجليلة التي صنعها تعاقب الزمن وهبة السماء.

ولعل ما نجده من صور حول الطبيعة في أوروبا عبر مشاهد الرحلات التي ارتكزت على تكرار الصور التي تتقاطع في وصف واحد، متعدد، متمثلا في تلك التي كثيرا ما امتزجت فيها الصور الرائعة الجامعة بين جمال الطبيعة وجمال العمران في التقاطات مشهدية أثارها الرحالة كالتى أبدع في تصويرها (محمد الصالح رمضان) في قوله: "هكذا مررنا بالساحل الأزوردي مرور الكرام نتمتع بالنظر إليه من القطار، فرى حمرة سقوف منازل المدن و بياض جدرانها، بين خضرة المزارع والغابات والأحراش، وبين زرقة البحر والسماء، في يوم مشمس منعش، والقرى الصغيرة والمغاني المنتشرة على ذلك الساحل الأخضر فتخيلها قطعا من الجواهر المختلفة الأشكال والألوان، منثورة على بساط سندسي من القטיפفة الخضراء، يا لجمال المنظر الطبيعي الأخاذ"⁷⁶⁵ ويزيد

⁷⁶³ - جزائريون في يوغوسلافيا، مصدر سابق.

⁷⁶⁴ - المصدر نفسه.

⁷⁶⁵ - سوانح وارتسامات عابر سبيل، مصدر سابق، ص 56.

ال عمران كأحد أهم المكونات حيويةً في تعزيز الصور الطبيعية وإضفاء عليها طابعا فنيا، إذ لا يلبث يضيفي عليها إيجاءات رومانسية في عرض مفاتنها، أجزاء متقطعة في صورة مشوّمة جميلة، بما ترفل به عناصر الطبيعة الأخرى الخضراء منها بألوان طيفية، والزرقاء المائية، كالتي همّ الرحالة في ذكر مشهدها: "لقد كان العمران يتقطع ولا ينقطع والخضرة تتنوع ولا تنتهي -رغم شهر جويلة شهر الحصاد-، والجبال المشجرة الدكناء والأنهار المتطاولة الملتوية"⁷⁶⁶ فإذا اجتمعت هذه التشكيلة في مشهد واحد، وهو المتكرر في أوروبا، فإن ذلك ما يدعو الناظر إلى استغراق تأملي متبوع باستدراج نحو سراب جميل في فضاء خارج الزمن.

وخلاصة ما في الطبيعة التي جلاها الرحالون هي ما جاد بها (مبعوث جريدة المجاهد) بهذا النص الذي يجمع اشتراك المكان بالإنسان فينفخ في الطبيعة روحا يشمّم عقبه بنكهة خاصة ممزوجة بوجودان الناظر، فيصير المكان إلى فضاء، وهذه قوة المكان المحبول بالأحاسيس المفسّرة وغير المفسّرة والتي يجد لها الرخالة صيغا فنية بمقام طبيعة يوغسلافيا الباهرة، بتضاريسها المدهشة وإنسانها الوديع، فلم يجد الرحالة من بلاغة لسان، حيث تجاوزت الطبيعة مقام التعبير عنها، فجعل يدرج من مقامات استعارية أخرى دلالة على العجز، حتى يمكنه أن يسدّ جشع النظر إلى المناظر العجيبة جماليا بقوله: "وكثيرا ما تتمنى أن لو كانت لك أكثر من عينين اثنتين حتى لا يفوتك منظر العمال والعاملات في الحقول، ومنظر الجبال ووهادها الواطئة من تحتك حيث انتشرت القرى بسطوحها الحمراء وتناثرت فوق حمرتها سحب بيضاء متقطعة وقد أحاطت بالجميع خضرة الجبال الشاهقة والجبال نفسها تسير معك في تغير وتنوع، تتجمع حولك مرتفعاتها متى تشعر أنها احتضنتك إلى الأبد، ثم تتفرج أمامك يمينا وشمالا فلا تجد نفسك في قمته ومن حولك السماء نظيفة زرقاء ومن تحتك السحب كالعهن المنفوش"⁷⁶⁷

3. 1. 2. 2. المكان العمراني

تبدو صورة العمران في أوروبا ذات بصمة حضارية لم يتمالك الرحالة الجزائري في ذلك عن كتم شعوره، أو كضمّ غيظه، أو غضّ الطرف عن الحديث والتنويه بمعالمها الحضارية وعمقها المدني، فقد ظهرت المعالم العمرانية على نسق متكامل وجذاب تضافرت فيه سواعد الاختصاصات المتعدّدة وروح التفاني وصدق وإخلاص العمل فتكاملت فيه شروط المدنية. فما من رحالة إلا وأظن بالتنويه عن

⁷⁶⁶ - جزائريون في يوغسلافيا، مصدر سابق.

⁷⁶⁷ - المصدر نفسه،

هذه اليد التي استطاعت أن تدرك الكمال الإنساني، وتحقق في نفسه شعورا بالعظمة والاحترام لهؤلاء الذين يستحقون الاحترام، ولم يظهر الرحالة الجزائري في كل هذا إلا موضوعيا بل مُبهرًا بما شاهده من جلال العمران وعظمة المعالم فنوّه وأثنى. ولعل أحدهم عبر بصدق حينما صرح بقوله: "أشياء تذهل الإنسان وتتركه في شبه غيبوبة"⁷⁶⁸

3. 1. 2. 1. 1. 2. 1. 3. مدينة العمران/ صورة المدينة

لقد ظهرت المدينة الأوروبية كأعلى مثال في العمران، وأتمه في التنظيم والتنسيق، فشددت إليها الأفتدة وغدّت مستحيلة الاحتذاء إذا ما اعتبرنا أن الرحالة لم يقف على قاعدة حضارية، فهو لا زال يطمح إلى مجرّد نيل حريته، فما كان منه إلا أن يتمتع ناظره ويكشف عمّا تحدّثه به نفسه عن هذا العالم العجيب بعيد المنال، مثلما يعترف ضمّنيا "بوزيد عطياوي" معلقًا على مدينة مدريد الإسبانية: "ومدريد مدينة تقوم بها العمارات الشاهقة المتناسقة التي تمتد على طول النظر فتذهلك بروعتها وتأخذ بلبّك مناظرها الجميلة"⁷⁶⁹

ومن أهم المدن التي ألبت النفوس على أصحابها، المدن الفرنسية، حيث لم يختلف الرّحّالون في إبداء إعجابهم بجمال مدنها في كل ما تمّتعت به من عناصر الجمال، وأشكال الافتتان. ولقد أجمع على ذلك كل الرّحّالين دون استثناء، وكثير منهم من أخذته الحيرة من عجب العمارة الفرنسية، بالخصوص الرّحّالون المتقدمون الذين لم يتشربوا من روح الحدّثة التي استطاعت أن تقرب كل بعيد، وتبصر كل ذي نظر بفعل وسائلها المتسارعة في التطور. وقد كانت باريس أقوى مثال عن جمال مدن فرنسا، ومن فرط الإعجاب بجمال هذه المدينة، شهدت تعبيراتهم امتشاق الأساليب البلاغية المختلفة، إبداءً لهذا الإعجاب إلى حدّ الدهشة والاستغراب في أحيان كثيرة. هذه المدينة التي حلّاها أحدهم بالاحترام لما تبديه من قوة وعظمة قائلاً: "حللت باريس -خشوعاً- مطأطأ برأسي إجلالا لتلك المعالم"⁷⁷⁰. ولم يكن الوصف وحده يكفيها لِمَا طاله من فعل هذه الصدمة، فعبر بها لسان حال الرغبة والامتلاك النفسي الذي شدّت به باريس زوارها: "وفي يومنا دخلنا إلى مدينة باريس، وهو اليوم الرابع من ماي، فلما رأيتها وجدتها أحسن مما وصفوها الواصفون، ولا يمكن لشخص أن يستوعب جميع محاسنها ولو أقام السنين"⁷⁷¹ ثم يقول: "فجعلت أسرح نظري إلى هذه المدينة العجيبة ووضعها

⁷⁶⁸ - عطياوي بوزيد في بلاد الأحلام والذكريات، مصدر سابق.

⁷⁶⁹ - عطياوي بوزيد في بلاد الأحلام والذكريات، مصدر سابق.

⁷⁷⁰ - رحلة السيد عمر ابن جيكو جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد: 540 - الجمعة 13 رجب 1346 الموافق 06 / 01 / 1928

⁷⁷¹ - ثلاثة رحلات إلى باريس، مصدر سابق، ص 33.

الغريب.. في أنهارها وقناطرها وبساتينها وأشجارها ومياهها العذبة وصحة هوائها"⁷⁷². فلسان حال الحالة أن باريس قطعة من الجنة، هي كل متكامل، ليست الأجزاء المشكلة لها إلا كأعضاء الجسد، لا يمكن أن يختل منها عنصر واحد. وما تمتلكه باريس من سحر يتجاوز مدركات الحواس فكأنه المغناطيس الذي يجلبك كلما حاولت الابتعاد عن المكان، وليس أدل على ذلك من تعبير الرحالة عن شعوره إزاء الفراق الذي لا بد منه، وهو يتأسف على فراق هذه المدينة وهذا المكان الذي يسرق الألباب ويأسر الأفتدة فيقول: "هذا وقد خرجت من باريس وفي النفس حسرة وتأسفت على قصر المقام لأن من أراد أن يطلع على الأقل ثلاثة أشهر مع إتقانه للغة الفرنسية واصطحابه دليلاً أو شخصاً يعرفها.. وبغير هذه الأشياء فالذهاب إليها معتوه.. ولا يطلع عليها ولو أقام بها حولاً كاملاً"⁷⁷³ وهذا إقرار من الرحالة على جمال باريس، الذي لا يمكن أن يختزل زمن التمتع به.

وإذا كانت باريس بؤرة السياحة في فرنسا، لتعدد مرافقها وجمال عمراتها، وكثرة معالمها، وشموخها الحضاري، فإن باقي المدن لم ترق إلى ما بلغته باريس من رتب، بالرغم مما كشفت عن زينتها التي لم تُخفَ على الرحالين الذين استحسنا كل المدن الفرنسية كمدينة (فيشي) التي طغى عليها الطابع السياحي، مخصوصة بمقاماتها المعدنية وعمراتها الجميل الجذاب، "بها من المناظر ما يستحوذ على الخواطر. وبها من البناء الشامخ ما يدعو إلى الدهول وتمتاز (بحديقة النزهة) التي تسحر الأفكار بكراسيها المصطفة على نسق بديع وبدائرتها المسقفة بشكل عجيب، وبأحواضها المبلطة بالرخام الرفيع"⁷⁷⁴ وأهم ما يميز هذه المدينة، الماء، ولأجله كان الحمام الاستشفائي الذي نصبها مدينة سياحية، وقد تجلى جمالها فيما جمعه (الميلي) في قوله: "فيشي مدينة فسيحة الأرجاء رفيعة البناء جميلة الشكل يجري جنوبها من شرقها إلى غربها نهر "للبي" وقد جعل له سد حبس ماءه حتى تكون له عمق يحمل الفلك ويرتاض عليه بالسباحة ويساوق النهر بينه وبين المدينة بور عريض به أشجار مرتفعة وعشب ناعم تتخلله طرق وتزينه برك وتمكن من الاستراحة فيه كراسي على نحو ما هو معهود في البساتين البلدية"⁷⁷⁵

والمتتبع لحديث الرحالين عن مدن فرنسا وما تتميز به مما ذكرنا عن جمالياتها ومدنيتها وحركة أفرادها، وطبيعتها من أنهار ووديان، يتجلى له الاختلاف والتنوع لخصائص عدّة تختص بها مدينة عن

⁷⁷² - المصدر نفسه، ص 39.

⁷⁷³ - رحلة السيد عمر ابن جيكو، مصدر سابق، العدد: 541 لأحد 15 رجب 1346 الموافق 08/01/1928

⁷⁷⁴ - المصدر نفسه، العدد: 544، لأحد 22 رجب 1346 الموافق 15/01/1928

⁷⁷⁵ - مبارك ميلي فيشي، مصدر سابق.

أخرى، حيث تحمل كل مدينة بصمتها وميزتها، منها ما تتميز بكثرة بساينها المغدقة بروائحها الفيحاء، ومنها المناسبة أنهارها بالمياه المتدفقة، مما ترك في نفوس الرحالين إعجابا عبّر عنه بعضهم بمثال يصف فيه ما أثر عن المدينة التي زارها، وليس أبلغ مما ذكره "عمر بن جيكو" عن "سپراسبورغ" وحدائقها التي "تزيّنه الأزهار ذوات الروائح الذكية المختلفة الأشكال مما يحملك -رغما منك- على الإعجاب به وعلى الاعتقاد بأن لا نظير له.. ويخترق البلاد نهر صغر كأنه حية مناسبة وبطرف المدينة نهر آخر كبير جدا يحسبه الرائي بحرا يدعى (لاوان) وهو الفاصل بين فرنسا وألمانيا.. نصبت عليه قنطرة هائلة عرضها 300 ميطرة تدعى (بورتوكال) لا يسوغ لأي كان المرور عليها إلا برخصة من الدولتين"⁷⁷⁶. ومن المناسبات التي تكون فيها صيغة الوصف بالعموم، دون تفصيل، باستعمال صيغ ذات دلالات إعجازية معبرة عن الإعجاب والدهشة، كان حال "ابن مناد" في مدينة "أفلن" البولونية حيث كان فيها مقيما ومدرسا، يصف متأثرا بطبيعتها قائلا: "وفي صبيحة الغد خرجت أجوب أنهاجها الواسعة الأرجاء وأتطوف بين قصورها ومدارسها العامرة فرأيت ما يدهش العقول من براعتهم في البناء واعتنائهم بانتشار العلم"⁷⁷⁷

وإضافة إلى جمال المدن الأوروبية وأناقتها، فبعضها زادتها الطبيعة المائية المائبة استثناءً، حين اخترقتها وتخللت شوارعها وأهجها، هذا الجمال الطبيعي الغريب، كمدينة (فينيس) الإيطالية، التي جعلت منها طبيعة الماء، مدينة عجيبة وفريدة، لم يألف الإنسان هذا الشكل من المدن، خاصة الجزائري في تلك الفترة التي كان فيها منعزلا، ومما جاد به قلم (محمد الصالح رمضان) في وصفها، مقتنعا بما يقول: "كنت في نفر قليل من الرفاق نخترق كل شارع وزقاق، ونسترق ما فيها من مناظر البهجة والجمال والجلال، ونستبق إلى رؤية ما تنعم به من السحر الحلال، وما تمتاز به بين المدن العالم من تلك الشرايين المائية الكثيرة التي تتخلل أحياءها وعماراتها، وتقوم مقام الأنهج والشوارع والطرق، وتلك الزوارق والقوارب والمراكب السابحة فيها، تجوس خلال الديار، مثل السيارات والشاحنات، كوسيلة للنقل والمواصلات، تحمل الركاب والسياح إلى مختلف الأماكن والجهات، وبعضها يحمل المواد والبضائع والأدوات والشاحنات"⁷⁷⁸ وما يلاحظ على وصف الرحالة، أنه أعجب بالمكان وبطبيعة العمران، من دون أن يفرط في الدهشة ويجهش بالصدمة، مما يدل على أن الرحالة له باع في السفر والزيارة لأهم المناطق والأماكن في أرجاء كثيرة.

⁷⁷⁶ - رحلة السيد عمر بن جيكو، مصدر سابق، العدد: 544.

⁷⁷⁷ - أحمد بن الحاج قويدر بن مناد نظرة إجمالية في اتحاد ألمانيا وبولونيا، جريدة البلاغ الجزائري، السنة 6، العدد 277، 5 رجب 1351 الموافق 4 نوفمبر 1932

⁷⁷⁸ - سوانح وارتسامات عابر سبيل، مصدر سابق، ص 94.

ولا يقتصر جمال المدن الأوروبية على أشكالها المعمارية، وبساتينها العامة، ومياهها الجارية المناسبة، في الوديان والأنهار، بينما ثمة عامل هام متمثل في الحيوية التي يشكّلها روح الإنسان وحركيته في جعل المدن تزدهر وتظهر بملامح وسحر ينجذب نحوه كل زائر، وهو ما امتازت به هذه المدن والحواضر الأوروبية، مما يشكّل نسق المدن التي لا تمتلك صفة المدينة إلا بالعامل الإنساني، وهي البنية العامة للمدينة التي يشعر فيها الزائر بدفئتها وذوبانه في حياضها. يشعر فيها هذا الزائر بحيوية وروح تسري في أعماقه، ويحتل في تلك الأسرار فوق الطبيعية، مثلما نجد في وصف بعض المدن الفرنسية - مثلا- مدينة ليون التي يقول فيها "الزاهي المليي": "ليون بلدة جميلة فاتنة تتخللها أشجار بديعة الشكل والاتساق. وجدتها على شيء من شباب ربيعها لابسة لباس الزينة والجمال الساحر ويمتاز أهلها بمسحة فائقة من الجاذبية المحمومة، يتمتع بها الزائر وقلبه مطمئن بالعطف والتقدير لتلك الظاهرة المحمودة"⁷⁷⁹ وإذا كانت مدينة ليون تسحر بجاذبية أهاليها، فإن لكل مدينة طبيعة خاصة بسكانها وسلوكهم النابع من ممارساتهم ونشاطاتهم اليومية، ومن هنا نذكر حالة (تولون) المدينة التي تُعرف بمينائها العسكري، الذي يضيء عليها عساكر البحرية سمة خاصة، وهم يُسرّبون سرّاً رائعا بحركة أفرادهم التي تعجّ بها المدينة، ومما قاله الزاهي المليي -أيضا-: "تولون مدينة ذات نظام خاص ونظافة تامة وتنسيق بديع في الطرقات في الحدائق في المقاهي. أول ما يلفت ويجلب نظر السائح ويأخذه نظام العساكر البحرية في أزيائهم الممتازة الموشحة بعلائم وأماراة التفوق والتقدم والفوز في الميادين العسكرية. مناظر رائعة شيقة الجمال والنظام والقوة في الحركات والأشغال واللهو والعبث"⁷⁸⁰. وكأن الرحالة يريد القول بأن العمران بجماله، وعناصر جمال المدينة من حدائق وأنهار، لا تكفي لصناعة سر المدينة وحقيقة جمالها ما لم ينفخ فيها الإنسان من روحه، وإلا أصبحت كالبيت الجميل المهجور.

3. 1. 2. 2. 2. صورة المعالم والآثار

شهدت الرحلة الجزائرية صورا متنوعة في ذكرها للمعالم الحضارية التي تزخر بها كل بلدان أوروبا، تخليدا إما لأرواح أبطالها الحربيين أو السياسيين أو الأدباء والفلاسفة والمخترعين وغيرهم، إذ تعدّ سنّة تخليد العظماء، المحافظة عليها مكفولة، والتركيز على تمريرها لكل جيل حتى تصبح متواترة، وتصبح

⁷⁷⁹ - محمد الزاهي المليي، أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، البصائر، س1، ع126. الجمعة 15 جمادى الثانية 1357/ 12 أوت 1938.

⁷⁸⁰ - أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، مصدر سابق.

ساحاتها ومعالمها الدينية رموزاً قائمة شاخصة بتمثيلها وبروحها المعبر - الخالد - أيضاً، كما تحظى أيضاً القصور ومعالم العبادة، والساحات العامة رموزاً، كُلاً حسب مقامه.

أ- القصور

ليس القصر في الثقافة الأوروبية إلا رمزا يحمل دلالات تاريخية يخلق منه فسحة سياحية تخليدا لفترة مارس فيها خدمة لمجتمعه، وبالتالي يحافظ على هيئته واهتمام المسؤولين به ويعتبر معلماً أثرياً، كما هو الحال بالنسبة لقصر "الكريمين"، قصر قياصرة روسيا، وهو مركب من مجموعة من القصور كلما اعتلى قيصرٌ بنى قصراً بجوار القصور التي سبقه إليها قياصرته، حتى بلغت سلسلة من قصور في قصر مركب. وهو غريب في تفاصيل إنجازه حيث إنه "أسس في القرن الخامس عشر ميلادي، ثم أخذ يتسع مع مرور الزمان، كلما تولى قيصر المُلْك ترك القصر القديم وبنى جنبه قصراً جديداً"⁷⁸¹ حتى صار القصر يجمع في حضنه مجموعة من القصور شيّدت خلال خمسة قرون، فأصبح قصراً جامعاً، ومجمّعا من القصور "تحوطها أسوار عظيمة مبنية بالآجر الأحمر، ومنائر عالية، وداخلها ساحة فسيحة وعدة كنائس"⁷⁸² والتعبير الواصف لجمال مشهد القصر يوحي بالبنية العمرانية الجميلة التي شيّدها، فجمال العمران يسرّ النظر في فسحته وشساعة ساحته، وتركيبه كنائسه، وعلو منائره، وكل قصر من قصوره يروي في تشخيصه، جمالية تاريخه وفسيفساء تركيبه جملة القول ما ذكره الرحالة (رضاحو) في قوله: "يعد قصر الكريملان من أغنى القصور الأثرية ولا زال محتفظاً بأثاثه ورياشه القديم من أسرة القياصرة إلى عروشهم إلى فرشهم وأدواتهم ويوجد داخل هذه القصور قاعات فسيحة وكنائس صغيرة داخل الحجرات وقد شاهدنا بابا من الذهب الخالص في كنيسة من هذه الكنائس وتحتوي الجدر على صور القديسين مرسومة بريشة كبار الفنانين في الرسم والزخرف والبناء، مختلف حسب اختلاف العصور"⁷⁸³ ولا تختلف عمارة القصور في جمهوريات الاتحاد السوفيتي عن بعضها البعض، فقد يتقارب نمط التشييد، وأسلوب الإبداع، وفي كل الأحوال كان القصر عبارة عن تحف فنية لا يستطيع الرحالة كبث بوجهه عن كشف اندهاشه وعجبه من جمال هذه القصور، يتضح ذلك في قول الرحالة نفسه عند زيارته لأحد قصور مدينة "طاشقند" عاصمة يوزبكستان: "وما كنت أضع رجلي داخله حتى أخذني العجب من اتساع حديقته وضخامة بنائه وزخرف قبابه وتلوين جدرانها، فقد كان آية في الزخرف والنقش والجمال، وبعد السؤال عنه علمت أنه كان

781- عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق، العدد 50.

782- المصدر نفسه.

783- المصدر نفسه، العدد 50.

قصرا لأحد أقرباء القيصر قبل الثورة الاشتراكية وتحولت في عموم حجراته وأنديته وكلها مزودة
بشتى الفنون ومختلف الصنائع⁷⁸⁴

ومن القصور التي أخذت بألباب الرحالين الجزائريين، قصر "فرساي" بباريس الذي تباينت فيه
الرؤى ودرجة الإعجاب من زمن (ابن صيام) إلى زمن (عبد الرشيد مصطفى) والفترة تقدر بثمانين
سنة، تتقاطع نظرة الرحالين في كونها تتلاقى في مركز واحد وهو التعجب من جمال القصر في منظره
وشساعة أفنيته، وبراعة هندسته، ونفاسة آثاره ومحتوياته. وقد تجلّى الإبحار عند ابن صيام به حدّ الثمالة
حيث نلفيه قائلاً: "وتعجبنا من ذلك التشييد الغريب، من أصوار الرخام والمرمر الغزير الموجود
والتصاوير والتمائيل العجيبة مع ضخامته وصعوده في الجو وتعداد مقاعده ومنازعه، مشرفة على
بستان ذي أشجار وأنهار وأكام وأزهار. وأدخلونا موضع بيت السلطان وجدناه لا نظير له في
جميع الأمصار والأوطان وذلك أن الكراسي وسرير الرقاد وآلات البيت كل ذلك مسوغ بالذهب
الخالص المتقن"⁷⁸⁵ إلى أن يفصح عن سذاجته حينما يروي عن تلك التماثيل بمحتوى القصر التي
كشفت عن مستواه البدوي معيار ذلك في قوله: "لا فرق بينها وبين الآدمي إلا بعدم النطق، سألنا
عنها فأخبرونا أنها صور ملوك فرنسا"⁷⁸⁶ ثم يضيف لوصفة عجبه بعد رواية تفاصيل عن هذا القصر
المنيف، وشغف البهرج يتقفه من كل ناحية، حتى دوى عن عدم التحمل لما ترى عيناه في عجز بقوله:
"وذلك من أغرب شيء يراه البصر"⁷⁸⁷.

وتقل هذه السذاجة عند رحالي القرن العشرين التي يمثلها مصطفى الذي لا يخفي إعجابه، كما
لا تأخذه الصدمة بفعل ما للقصر من روعة، فحدود الإعجاب ما قاله: "قصرا بديعا في وسط
حدائق غناء ذات مناضر تحفها الأزهار وفيها بحيرة جميلة وفسقيات تتدفق بالماء الزلال
وتخترقها شوارع على حواشيتها تماثيل بديعة لأكبر فناني ذلك العصر وشيد هذا القصر وحدائقه
على النمط الروماني بل النهضي وهو فن في البناء ظهر في النهضة الأوروبية في القرن السادس
عشر"⁷⁸⁸ ثم يعلق على أحد أجنحة القصر، المخصص للجزائر بقوله: "فزرناه بيتا بيتا وكانت

784- المصدر نفسه، العدد 47، السنة 1، 12 صفر 1370 هـ الموافق لـ 23 نوفمبر 1950 م.

785- ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 38.

786- المصدر نفسه، ص 38.

787- المصدر نفسه، ص 39.

788- مصطفى عبد الرشيد، رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا، جريدة النجاح عدد 1300، الأربعاء 28 ذي الحجة 1350 الموافق 4 ماي 1932.

تستوقفنا رسوم زيتية ازدانت بها جدران القصر، وهي تمثل حوادث تاريخية منها احتلال الجزائر⁷⁸⁹

أما بإسبانيا فقد شهد لأحد قصور إشبيلية تخليدا لتركبة العرب/ المسلمين بالأثر الباقي الذي حمل توقيعاً على قوة الحضارة الإسلامية هناك، مما يدفع بالنفس إلى مراجعة الذات في زمن الانكسار. وقد كانت قوة المسلمين حاضرة تفصح عنها قوة وعظمة البناء والتشييد، وشساعة المكان بأرجائه الذي يجيل إلى فضفضة الفضاء الحيوي الذي كان يتمتع به خلفاء المسلمين مزهوين بقوتهم وعظمة حضارتهم، فالداخل للقصر لا يلج من باب وإنما يبدأ المشهد عبر الأروقة الطويلة، مثلما عبّر عنه الرحالة (عطاوي) بقوله: "دخلنا القصر بعد ممشى طويل يبلغ المائة متر تقريبا فواجهتنا حديقة عظيمة تحوي أنواع الأشجار الباسقة الوارفة الظلال وتضج بأصوات الطيور التي اتخذتها مسكنا ومنتزها"⁷⁹⁰ ذلك أن القصر يحكي تاريخه ويتنفس حيويته من كائنات عفوية تعشق الطبيعة وتروم غايتها الفضولية في ظل ما جادت به هذه الطبيعة المصنّعة، فيما حصره الفناء الذي "تنتشر بين الأشجار فوارات يسيل ماؤها العذب بلا انقطاع"⁷⁹¹ إضافة إلى ما يحتويه القصر بداخلة من غرف تشهد بعضها على أمارات الحكم في سلطان الحكمة التي لم تعرف مثلها البشرية إلا استثناءات بسيطة في تاريخها، ذلك الحكم الذي كان شكله يتوافق مع مضمونه "ثم دخلنا بيت الشورى التي لا تزال جدرانها قائمة خلابة يرتسم عليها خط عربي جميل.. لا غالب إلا الله"⁷⁹² ولما كانت القصور عبارة عن حصون، فقد كانت إستراتيجية الحاكم تتوافق ومعطيات التشييد العمراني، وإقامته على ربوة تطل على مرافئ الحكم كمشهد للقوة، والتسلط، وكمّعين على العدو إذا ما فكّر في مكروهه، كما يمثل مشهد من مشاهد راحة النفس المطلّة على المدينة التي تروي تفاصيلها من خلال بسطتها وسكونها، وهو الذي اكتفى فيه الرحالة بالقول: "ثم صعدنا السطح حيث شاهدنا منظر المدينة وأبنيتها البديعة"⁷⁹³ ويضيف الرحالة عن بعض تفاصيل القصر من الداخل، التي جاءت مقتضبة في سردها ووصفها، إلا أنها تسرد تفاصيل التأويل عبر الاعتراف بقوة المشهد وخروجه عن الطاعة والسيطرة في كشف عوراته، من ذلك قوله: "ودخلنا بعد ذلك حمام السلطان الذي لا أستطيع -مهما أوتيت من قدرة على التعبير- وصف بدائعه الخالدة. ثم قصدنا حديقة الروضة وساحة الأسد ومحكمة

⁷⁸⁹ - المصدر نفسه.

⁷⁹⁰ - في بلاد الأحلام والذكريات، مصدر سابق.

⁷⁹¹ - في بلاد الأحلام والذكريات، مصدر سابق.

⁷⁹² - المصدر نفسه.

⁷⁹³ - نفسه.

العدل.. أشياء تذهل الإنسان وتتركه في شبه غيبوبة"⁷⁹⁴ وليس غريبا أن نجد في تفاصيل التاريخ شذرات من بعض ما أصاب حكام الإيبان من ذهول عندما تمكّنوا من بسط سلطانهم على المكان، بأن يُبقوه صورة شاخصة تحكي للتاريخ مجدها ويحاكوه في بعض تفاصيله، "مما يؤكد بصورة قاطعة استمرار تذوق الفن الإسلامي من قبل ملوك إسبانيا المسيحيين"⁷⁹⁵.

ب- الكنائس / دور العبادة

تنقسم صور المعالم الدينية في أوروبا حسب ما نقله الرحالون الجزائريون إلى قسمين: الكنيسة ممثلة للدين المسيحي، والمسجد للدين الإسلامي، ولقد نستشف من تصوير الرحّالين أن نواحي الجمال والعبقرية العمرانية في تشييد هذه الدُور، يميل التفوق إلى ناحية الكنيسة التي أبدع فيها المهندسون أروع إبداع في تصميمها حتى غدت مضربا للأمثال، ولعل مقام الكنيسة من الناحية العمرانية في أوروبا له من الدرجة العليا في نفوس أهل الاختصاص العمراني، إذ لا نجد كنيسة لم تشيّد على النمط اللاتق، فكل الكنائس لا يتحدث عن الناحية التعبديّة فيها، بل القداسة كل القداسة في تصميمها وموقعها، حتى كأنها معلم سياحي وليس معلّمًا تعبديًا. ففي مرحلة من مراحلها، لم تكن مرسيلا لتليق بالسواح وهي المدينة المترامية الأطراف، ما عدا كنيستها العظيمة التي تجلّى فيها وسم الجمال، كما ذكر ذلك الزاهي الملي في رحلته حيث نلفيه قائلا: "مرسيلا أهم ما يلفت أنظار الزائر، الكنيسة العالية ذات التمثال الذهبي الجميل وهو تشويق في محله جعل المرسيليين ينحتون منه شعارا مقصودا في شتى نواحي حياتهم العامة والخاصة"⁷⁹⁶.

وأما المساجد، فأهمها مسجد باريس الذي يعدّ تحفة حديثة مقارنة بالمعالم الخالدة، إلا أنه استطاع أن يأخذ حقه السياحي لزائر باريس، حيث شيّد في عشرينيات القرن العشرين، ليكون أساسه سياسيا أكثر منه تعبديا، خصوصا وأن المشرف الرئيسي عليه هي السلطة الاستعمارية التي تبنت عواطف المسلمين لكبح جموحهم. وقد عبّر أحد الرحالين عن هذا الموقف بقوله "وبالجملة، فإن هذا الجامع بمثابة درة في تاج باريس فشكرا لدولتنا فرنسا الفخيمة ذات العدل والمساواة المعنية بشؤون المسلمين وبالأخص الجزائريين الذين بذلوا أموالهم ودمائهم في سبيل الدفاع عنها فلتعش فرنسا والجزائر وليحييا حياة طيبة"⁷⁹⁷. وهذا أكبر دليل على رضا بعض المحسوبين على

⁷⁹⁴ - نفسه.

⁷⁹⁵ - أنور الرفاعي، تاريخ الفن عن العرب والمسلمين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 2، 1977، ص 103.

⁷⁹⁶ - أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، مصدر سابق.

⁷⁹⁷ - رحلة السيد عمر بن جيكو، مصدر سابق، العدد: 541.

الجزائريين بالنسبة، والذين ملاذهم كله في الخضوع والخنوع لفرنسا. ومما يعزّز هذه الشهادة، هو حفل الافتتاح الذي شهده الرحالة "مامي إسماعيل" سنة 1926م، يدل على أن محراب المسجد كان سياسيا، إذ أن الافتتاح كان على أوتار العزف المنافي لأخلاقيات المراسيم الدينية الذي تجلّى فيه الغناء والرقص، وها هو الرحالة نفسه يعترف بقوله: "موسيقى صدحت بالألحان الشجية وفتيات لوبرة يرقصن أمامنا على النمط الملوكي العتيق ثم تبدلت بمغني ثم بمغنية ثم براقصات أخريات ثم نشيد فتيات تارة هن وتارة شبان بحذائهن وفي أثناء ذلك دعي جلالة السلطان ورئيس الجمهورية ومن معهما من الزائرين لموائد الحلويات التي زينت بأثمن وأنفس الحلويات الرفيعة والمشروبات الرطبة اللذيذة"⁷⁹⁸. ولم نجد من الرحالين من يشير بشيء عن الناحية التعبديّة بمسجد باريس، إلا الجانب السياحي منه، مثلما يثبت ذلك -أيضا- مصطفى عبد الرشيد: "استأذنا أحد الواقفين على شؤونه في الدخول فأذن لنا وأرسل معنا غلاما ليكون لنا دليلا في زيارتنا فأخذ يدخلنا بيتا بعد بيت ونحن متعجبون من ذلك النقش البديع الذي يرى على حيطانه قد أعجبنا كذلك بساحته الخضراء التي حسبتها أول وهلة لجة ساكنة ثم تركنا هذه الناحية من المسجد إلى المقهى الشرفية أحسن تمثيل بمقاعد وزراييه ونمارقه وموسيقاه التي خصص لها آليون فرنسويون ويبيع فيه القهوة والشاي وحلويات والمقروض وغيره، يقصده السياحون من كل جنس والمستخدمون فيه كلهم مسلمون"⁷⁹⁹ وهو المثل نفسه الذي يصف فيه بن جيكو المسجد: "وقد زرت الجامع الإسلامي بها فوجدته بالغا في الإتقان الإعجاب.. سيما بيت الصلاة المرفوعة على أعمدة الرخام القليل المثل والزخرفة بالزلايج.. وكذلك المحراب المزين بالنقش البديع.. وبالجامع حوض للوضوء صنع كله من الرخام وبيت الصلاة زرابي مبثوثة من أعلى نسج وأبهاه وصحن المسجد كله رخام وزلايج وبه أشجار أزهار ذات روائح طيبة تبعث في الميت الحياة. وبه بيوت لسكنى الإمام وغيره"⁸⁰⁰ فكل ما جاء به الرخّالون عبارة عن تقديس للمكان العمراني وليس للروح التعبديّة فيه من شيء، في رسالة واضحة على أنه لم يُقَمَّ ليكون محرابَ تعبّدٍ بالقدر الذي حمل صفة التسييس، والمخاتلة.

ت - المتاحف

⁷⁹⁸ - إسماعيل مامي باريس حول الاحتفال بالجامع جريدة النجاح العدد 324، السنة السادسة، 20 محرم 1345، الموافق لـ 30 جويلية 1926.

⁷⁹⁹ - رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا، مصدر سابق.

⁸⁰⁰ - رحلة السيد عمر بن جيكو، مصدر سابق، العدد: 541.

تعجّ أوروبا بالمتاحف التي تنمّ عن خصوصية المحافظة على تراثها وتخليدا لعظمتها، وبطولاتها، وقد همّ الغربيون بالاعتناء الشديد بهذا المجال وأعطوه أكبر اهتمام، حتى صار نافذة للسياحة تدرّ عليهم أموالا طائلة، وتعدّ روسيا من بين الدول التي أولت الاهتمام الكبير لهذا الشأن، فما فتئت تعظّم وتجلّ أبطالها وتسعى للحفاظ على مآثرهم، حتى أن زعيمَيْهم الفريديين (لينين وستالين)، لم تأب عليهم نفوسهم وضعهما تحت التراب، مما جعلهم يحتفظون بهما محنّطين على هيئة تحفة، تزار ويؤخذ منها العبر، إذ تعد من بين أبرز المآثر التي يفخر بها الروس، مثلما يذكر توفيق المدني: "زيارة الكريملين والساحة الحمراء ومرقد لينين وستالين وكأنهما حيّان نائمان. ثم متحف الآثار العتيقة وذخائر القياصرة وهي ثروة هائلة"⁸⁰¹ وقصر الكريملن في حدّ ذاته حلقات من الحقب التاريخية يخلّد كل قصر من قصورها مرحلة تاريخية وعهد من عهود قياصرتها، مشفوعة بشتى الآثار من ألبسة ورموز وأدوات، ذلك ما شهد به رضا حوحو في قوله: "يوجد في قصر الكريملان متحف كبير يسمى متحف الأسلحة يحتوي على مختلف الأسلحة القديمة وأنواع الثياب النسائية وخلافها ومختلف الحلبي والجواهر وشاهدت في هذا المتحف أثوابا مرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة حتى أن ثوبا من أثواب (البوب) رئيس الكنيسة الأرثوذكسية وضعت فوقه مائة وعشرون ألف جوهرة من أثمان الجواهر، أما الألواح المكتوبة بالجواهر والأحجار الثمينة والصور والنقوش والصلبان المصنوعة منها فكثيرة جدا، كما شاهدنا في هذا المتحف العربات التي كان يركبها القياصرة حتى أن بعضها يحتوي على أطواق من الذهب الخالص وبعضها بحديد لم يستعمل قط"⁸⁰². وتتعدد متاحف ببلاد الروس من تشييد ضخم عظيم العمران والمحتويات، إلى الرمزي البسيط الذي تتمثل قوته في بساطته، فإذا أريد به التهيب ذهب عنه روحه وسرّه، مثلما هو عليه متحف (غوركي) فهو يمثل قمة البساطة، وما يزيد من شأنه أن الزعيم "لينين" ابتغاه لنفسه ملجأ إلى أن وافته المنية، مثلما يؤكّد حوحو: "فما هو إلا منزل متواضع يقع وسط غابة كثيفة الأشجار اتخذها لينين منزلا للاستشفاء أيام اغتياله بالرصاص سنة 1918 وبقي يزوره ويستريح به كلما أضناه العمل وعاودته العلة إلى أن توفي سنة 1924 على الساعة السادسة من يوم 21 جانفي"⁸⁰³ وبهذه الثنائية تضاعف مجد هذا المعلّم، واحتفظ بمكانه ومحتوياته ليروي مشاهدا من موقع الحدث، تلك هي الرواية التي يخلّها بيت الأديب الكبير (غوركي) حيث "أصبح هذا المنزل اليوم متحفا يزار، يحتوي على جميع حاجيات

⁸⁰¹ - أحمد توفيق المدني، في موسكو، مصدر سابق، ص 456.

⁸⁰² - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق.

⁸⁰³ - المصدر نفسه.

لينين التي كان يستعملها وأدواته الخاصة ومكتبته والأثاث والسريبر الذي توفي عليه وحتى عصاه لازالت على الوضعية التي وضعها عليها.⁸⁰⁴ والذي يطلع على رحلة (رضا حوحو) يجد أن الحديث عن المتاحف هو الطاغى والمهيمن في معظم تفاصيل الرحلة.

أما بفرنسا فقد تكحلت عيون الرحالين بمتاحفها المتعددة، ذات الجمال والدلالات التاريخية والفنية، من أهمها متحف اللوفر الشهير، الذي وقف عليه (إسماعيل مامي) وعلق عليه قائلا: "وقفت على متحف الآثار (موزي اللوفر) وهي أكبر دار للآثار بعد دار الآثار بمصر و(موزي أقريفان) وهي دار محتوية على تشخيص أهم الوقائع التاريخية قديما تماثيل العظماء الحاليين [كذا] بالملابس والصور التقليدية ودار (لايزافاليي) وهي دار مقابر عظماء فرنسا وتماثيلهم المنحوتة و(البونتيون) وهي دار بها مقابر فلاسفة فرنسا وشعرائها المشهورين كفيكتور هيقو"⁸⁰⁵. وإذا كان حديث مامي فيه دخن وضبابية من حيث أن لغته لا تُبلِّغ المقصود بقدر ما تنم عن تواضع وبساطة في التعبير، فإن (الزاهي المليي)، تبدو عباراته واضحة، ومقصده بيّنا عند قوله: "متحف اللوفر وما تحويه جدرانه الضخمة من التحف الأثرية العجيبة الخالدة المطبوعة بطابع الفن الخالص وما خطته ريشة دانجلو وغير دانجلو من الفنانين الخالدين ولا عن محفوظات أرث ميتي وغرائبه وعجائبه"⁸⁰⁶ يضيف إلى هؤلاء، الرحالة (عبد الرشيد مصطفى) حديثه عن متحف آخر بباريس، وهو المتحف الحربي الذي أكد فيه ما للأمة الفرنسية من تقاليد في جعل من المتاحف سجلا تاريخيا، وكتابا للأجيال وللفضوليين، ومحلات للسياحة، مثلما نجده قائما في قوله: "زيارة الأنفاليد المتحف الحربي الذي فيه قبر نابوليون الأول فشاهدنا فيه مع جم غفير من الزائرين آلات وملابس حربية متنوعة الشكل مختلفة الألوان، فرأينا كيف تطوّرت تلك الآلات وتلك الملابس على مرّ الدهور فكأننا أمامها نراجع تاريخ الأمم قديمة وحديثة وتأملنا رسوما لأكبر القائدين الغربيين المشهورين"⁸⁰⁷ ومما يفيد به الرحالة أيضا أنه شهد على ما بصرت عيناه، فأكد معلومة تمم الجزائريين، وهي التي تتعلق بمدفع جزائري سُرق من معاقله الجزائرية، كون هذا المستعمر يعتقد أنه يملك كل ما في أرض الجزائر، من إنسان وآثار، ومما قاله الرحالة في ذلك: "فلما اندفعنا للخروج رأينا مدفعا مكتوب عليه بالعربية "أخذ عند احتلال الجزائر"⁸⁰⁸ مثلما يؤكد معلومة أخرى بمتحف (ديجون)، فبعد حديثه عن المتحف

⁸⁰⁴ - المصدر نفسه.

⁸⁰⁵ - إسماعيل مامي، باريس حول الاحتفال مصدر سابق، العدد 328. الأحد 29 محرم 1345، الموافق ل8 أوت 1926.

⁸⁰⁶ - أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، مصدر سابق، ، العدد 124. الجمعة 1 جمادى الثانية 1357/29 جويلية 1938.

⁸⁰⁷ - رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا، مصدر سابق، عدد 1293، الأربعاء 7 ذي الحجة 1350 الموافق 13/4/1932

⁸⁰⁸ - المصدر نفسه.

وما يحويه من آثار حيّة كقوله: "ثم ذهبنا إلى المتحف فشاهدنا فيه آثارا للدوقات وقبور في تابوت له غطاء من زجاج مججمة دوقة"⁸⁰⁹ يؤكّد معلومةً مفادها أن كنوزا عربية تضمّها هذه المتاحف ولا أدلّ عليها هذا الفيض من غيض، مما ذكره الرحالة نفسه: "ومما استلفت أنظارنا سيف عربي مكتوب عليه: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" وأرماع ومكاحل عربية"⁸¹⁰ كما يضم المتحف مشاهير الفنانين، وبعض مما يهمّ تاريخ الجزائر المتعلق بصورة لإحدى بنات الداوي، مثلما هو مؤكّد في نص الرحالة: "ثم اندفعنا في بيت اختص لتمثيل رود الحفار الشهير المولود بديجون، وهنا نرى كيف يعتني الغريون برجالهم ويحفظون آثارهم، ورأينا آثارهم ورأينا في بيت الرسوم رسما لبنت داوي تدعى نفيسة"⁸¹¹.

وإذا كان الأمر بالنسبة لفرنسا ذات التاريخ الفني والأدبي والحضاري، يميّز متاحفها بما يبيّن في هذا المضمار، فإن متاحف (يوغسلافيا) لها شأن آخر، حيث كانت تكسّر مبدأ الثورة والحروب والبؤس، وكل ذلك تمثل نسقه في نسق بلد الرحالة (الجزائري) الذي لاحظ الشبه بين البلدين من خلال ما عرضه عليه أحد متاحفها، هذا المتحف الذي يعرض تفاصيل المقاومة اليوغسلافية أثناء الحرب العالمية الثانية، فيروي تفاصيل الحرب، وكأنه يروي عن مرحلة الثورة التحريرية الجزائرية، وهذا نص الرحالة يبيّن ذلك: "إذا وجدت شيئا في يوغسلافيا قد ذكرني ببلادي تذكر الشبه لا يذكر المقارنة العكسية فهو ما وجدته في متحف الثورة بمدينة "تيوفوزيتشي"، وجدت البنادق التي انطلقت منها الرصاصات الأولى في الثورة اليوغسلافية وقد أوليت عناية خاصة بما كان منها مشدودا بالأسلاك، ووجدت الأسلحة البيضاء وأقلها وجودا هو السيف، أما أكثرها فهو المدي والخناجر وأسلحة الطعن المعروفة عندنا، وصور القطارات المنقلبة على جنوبها، والجنود الألمان يسوقون الضحايا إلى الموت، وصور المشانق وقد علقت فيها جثث الشبان الوطنيين، وصور القادة الذين استشهدوا في المعارك وصور المقاومين الأولين بملابسهم الرثة المتداعية، وصور المظاهرات بالأعلام الوطنية التي تحملها الفتيات والشبان ويواجههم فيها الجنود الألمان بالرصاص، وصور الكهوف التي كانت تصلح فيها الأسلحة الفاسدة وأوراق الرسائل الأولى التي يرأسها المقاومون من الجبال إلى رجالهم في المدن أو العكس وهي ممزقة ولكنها محتفظة بقايا

809 - نفسه.

810 - نفسه.

811 - نفسه.

الحياة، والخرائط الأولى التي كان يعمل بها قواد جيش التحرير اليوغسلافي⁸¹² ولا يزال الشبه بين الضفتين مما يمليه المتحف، فهذا هو ينقل لنا صورة عن الخونة والتي من خلالها يكتمل المشهد على تفاصيل هذا الشبه، مثلما يؤكد بقوله: "وقد سجل المتحف كل شيء عن الثورة حتى صور لبعض المتعاونين مع الألمان من الخونة اليوغسلافيين"⁸¹³ أما خلاصة قوله عن هذا المتحف فقد ختمها الرحالة في حوصلة بقوله: "كل شيء في المتحف ذكرني بالجزائر أو بالأحرى بالثورة الجزائرية، لقد كان كل ما رأيته فيه هو جزء "محنت" مما هو حي اليوم في الثورة الجزائرية"⁸¹⁴

3. 1. 3. صورة الإنسان

3. 1. 3. 1. صورة الإنسان في إنسانيته.

تبدو صورة الغربي إنسانية ليست لها لون ولا رائحة إيديولوجية نحو أيّ كان من البشر، ولعلّ الذي تنتجه سياسات دولهم من استعمار واغتصاب، وإهانة ضد الشعوب والدول المستعمرة وسلب ثرواتها، قد لا نجد ينطبق على عامة الإنسان الغربي الذي -هو نفسه- لا يرضى عما يصدر عن حكومة دولته، مما يشي إلى أن المؤسسات الحكومية ليست هي الإنسان بطبيعته وتربيته وأخلاقه، وقد يعود هذا إلى الحرية التي تمنحها هذه الدول لمواطنيها من عدالة وتوفير المجالات للعيش الكريم. وقد نشأ هذا الإنسان في ظلّ هذا الجوّ حتى ترقّع عن سفاسف الأمور، ووطنّ نفسه على العفوية والتلقائية، مما جعل لأيّ من يتصل بهذه المجتمعات أن يلتقط صوراً إيجابية عن هذا الإنسان، ويضعه في خانته الحقيقية، ومنه تبقى الرحلة أهم مصوّب موضوعيّ حتى لا تزر وازرة ورز أخرى، خصوصاً تلك التي كانت باتجاه فرنسا، أين كانت حكومتها تحتل مكانة سيئة لدى الرحالين، وما إن أتاحت لهم الفرصة ليروا ويخسوا نبض هذا المجتمع، حتى وجدوا أن إنسانها نبيل، ليست له أية خلفية ضد الآخر، هذا ما أفضت إليه أحكام الرحالين مثل ما شهد به الرحالة (مبارك الملي) وهو الذي يُعرف بعدائه الشديد ومقاومته الشرسة ضد فرنسا الاستعمارية، حيث يقول: "والذي أدركناه أنهم ينظرون إلى غيرهم بعين الإنسانية المجردة من الفوارق الدينية والجنسية والسياسية. فلا تشعر به في الجزائر من تفوق جنس وميزة حكم، ولعل السرّ في ذلك أنهم ليسوا كالذين عندنا.. فإنسانية هؤلاء الذين لم يجتازوا إلينا البحر لم تزل على فطرتها لم تهوّدها تعاليم السياسة ولم تنصّرها مطامع

⁸¹² - جزائريون في يوغوسلافيا، مصدر سابق.

⁸¹³ - المصدر نفسه.

⁸¹⁴ - المصدر نفسه، العدد 103، السنة 4، الاثني 17 ربيع الأول 1381 هـ الموافق لـ 28 أوت 1961 م.

الاستعمار"⁸¹⁵ ويبدو من خلال تشبيهات الميلي، أن خلفيته دينية، يقيس بها عناصر الشر الذي تبثه الخصومة الدينية العابرة للأزمنة، التي عقدها الحروب الصليبية عبر مسارها القديم، مثلما يلّمح له كالتهود والتنصير.

وكثيرة هي الصور التي تسم الإنسان الأوروبي بالإيجابية مما نقله عنه الرّخالون الجزائريون مبرزين ذلك في البراءة عموماً، التي تغدو إلى حد السذاجة، ولعل الأوروبي لا يكثرث إلى هذه الأمور ويعتبرها طبيعية، بينما من حلّ هذه البلاد قادمًا من بلد تكاد الظروف الاستعمارية تفقده إنسانيته وحرّيته، فإنه لا محال ينقل صورة فيها نوع من الاستغراب الممزوج بالأسف الذي يغذيه الوضع القائم في بلده، وقد صور لنا (حوحو) هذه الظاهرة، من خلال حدث طريف خلال تواجده بتشيكوسلوفاكيا، تحمل روايته عدة دلالات، نلمسها في قوله: "وحدث لي حادث في تلك الليلة بدا لي غريباً في بابه، فحينما كنت أتجول مختلطاً بالمتزّهين تقدم نحوي لفيف من الفتيان والفتيات التشيكين فطلبت مني إحداهن أن أقدم إليها شيئاً تذكّاراً لبلادي ولم يكن معي شيء ذو بال سوى ورقة ذات عشرين فرنك جزائرية، وما كدت أناولها إياها حتى ارتمت في عنقي دون سابق إنذار وأخذت تقبلني في عنقي وبكل بساطة كأنها أخت تقبل أخاها الذي قدم من سفر بعيد"⁸¹⁶ إن حوحو لم يتعرّض إلى الحادثة بشيء مما يُعدّ من المحافظة التي هو من مجتمعتها ومن دعائها، بل قدّم ما يمكن أن يُعدّ حدثاً غير مألوف في بلده وهي الحرية والبراءة، التي يفتقدها تماماً في مجتمعه، ويفسّر فيها ظاهرة الاختلاف بين المجتمعين، التي طغت فيها الأنا المنقبضة كنموذج لظاهرة عامة، من ذلك قوله: "أما أنا فبقيت مشدوها وأما بقية الحاضرين فلم يأخذهم أي عجب، فالمنظر مألوف لديهم وما هو إلا عبارة شكر حارة ولكنني أنا الذي قدمت من هذا العالم المادي الخالي من الروحانيات المتجرد من العاطفة الأخوية بين بني الإنسان"⁸¹⁷ وإذا كان هذا الطبع لدى الغربيين شأنًا موضوعياً، تشهد عليه الصور التي نقلها الرّخالون، فإن ذلك لا يختلف فيه بلد عن آخر، فبينما القول السابق حول تشيكوسلوفاكيا، فإن المثل هو نفسه في بلد "بولونيا" يشهد عليه (بن مناد) عن الفرد البولوني بقوله: "أما طباعهم بنظرة إجمالية فليّنة متأدبون كبيراً وصغيراً، والذي سرنى بوجه خاص في هذا الوطن هو أن المسكّرات قليلة جداً"⁸¹⁸ ويذهب الرّخالة نفسه إلى أبعد من ذلك حين يعتبر الفرد البولوني مسلماً بالفطرة، وإن كان واقعه مسيحياً، ذلك ما ينم عنه نصّه الذي يكشف من خلال ملازمته

⁸¹⁵ - مبارك الميلّي فيشي، مصدر سابق.

⁸¹⁶ - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق.

⁸¹⁷ - عدت من الاتحاد السوفيتي، مصدر سابق.

⁸¹⁸ - قويدر بن مناد، من بولونيا رسالة من صديق، مصدر سابق

لبعض أفراد هذا المجتمع، مؤكداً على طبيعة هذا الإنسان الذي ينحني تواضعاً للإسلام والمسلمين إلى الحدّ الذي بلغ بأحدهم أن صرّح للرحالة بأنه مسلم السريرة، نقرأ ذلك في قوله: "وقد صرح لي بعض الأساتذة منهم بذلك قائلاً: أعلم أن ظاهري مسيحي وقلبي محمدي.. والله أعلم بالسرائر"⁸¹⁹.

وإذا كانت صورة الإنسان الغربي تجاه الآخر الذي بدا فيه محترماً لغيره مؤبياً له كل معاني الإنسانية، فإنه نابع من صورته هو في نفسه وفي مجتمعه، ذلك لأنه إنسان متحضر، وإنسان مواقف، له صفات يتمتع بها ومن خلالها جاءت كل سلوكياته نتيجة ذلك التحضر. كما تشهد الرحلات عن صورة التكافؤ، والتمتع بالحرية التي تُعد مقدّسة لدى أفراد المجتمع الغربي الذي ينفي الطبقية، فلا يتعالى أحد على آخر، مثلما يؤكد أحدهم بقوله: "ولكن ما ينسجم فيه جميع الناس هو مستوى الخلق، فلا تشعر بعجرفة الغني أمام الفقير، ولا بتسلط الحاكم على المحكوم، كل الناس أحرار فيما يفعلون وما لا يفعلون"⁸²⁰ وليست هذه الحرية التي يتمتع بها أفراد هذا المجتمع قائمة على الفوضى وسلوك الفرد في تصرفه حسب ما تمليه عليه عاطفته، بل يتم كل هذا بضوابط حضارية، أهمها القانون المحدّد لحقوق وواجبات الأفراد الذين هم سواسية في نظره، فكل ما يصدر عنهم هو بمثابة الالتزام الذي يعدّ سمة هذا المجتمع، وإذا كان ذلك في جميع أوروبا، فهو بيوغسلافيا نموذج، ومنها قد أجمعت كل الرحلات في نصوصها على أنه شعبٌ محترم نشيط، صاحب مبادرات وجدي في العمل ومتحضر، يمثل للقانون، بل يقده، وإذا كان القانون موضوعاً للردع فإنه في يوغسلافيا للوقاية - حسب الرحالة - لأن "الناس يشتغلون ويعملون بمحض إدارتهم وبشعور أصيل بالحرية، وكما تشاهدتهم في التجمعات الكبيرة بالمدن يعرفون أين يقفون وكيف يسيرون بدون ازدحام، والشرطة موجودة في كل طريق وفي كل مكان، ولكنها لا تعمل شيئاً لأنها لا تحتاج لأن تعمل شيئاً، إنها موجودة لمجرد الاحتياط"⁸²¹ وهذا مما يلتزمه الفرد في هذا البلد من سلوك حضاري.

أما بمالطة وهي من البلدان صغيرة الحجم مساحة، لكنها كبيرة بجمالها وإنسانية أهاليها، فقد نجد إنسانها غير لاهٍ، منكبّ على الاشتغال بما يعود عليه بالنفع، متكيف مع أوضاعه، لا يسرف في إرهاب بدنه، تبدو عليه سمة العفة والسكون، وهذا مصداق ما روج له الرحالة إسماعيل مامي بقوله: "شاهدنا رجالاً مقبلين على أشغالهم بعيدين عن الترف والتهتك مجتنبين لكل ما فيه ضرر لبدنهم أو عرضهم، فهم لا يشربون من الكحول إلا يسيراً، ومن الدخان إلا قليلاً، فإذا دخلت حانة

⁸¹⁹ - المصدر نفسه.

⁸²⁰ - جزائريون في يوغسلافيا، مصدر سابق، العدد 105.

⁸²¹ - جزائريون في يوغسلافيا، مصدر سابق، العدد 105.

ووجدت بها ثلاثين رجلا فقلّما تجد واحدا منهم يشرب غير القهوة، أو الحليب، وقلما تجد أكثر من اثنين يدخنان"⁸²² ويذهب الرحالة إلى أكثر من ذلك، في تجلي صفة الأمن واستفحالها كظاهرة حميدة عامة فيهم، حيث يشهد بإدلائه: "سر حيث شئت في أي ساعة أردت أترك بيت نزلك مفتوحا، دع أدباشك على قارعة الطريق سخر من وقف أمامك في قضاء لبانة. أعطه ليرة وفوق الليرة تحقق أنه لا يقع ما يكدرك أصلا"⁸²³.

وتكاد صورة الإنسان الغربي تكون واحدة أو تفاوتها متقاربا، تفضي إلى القول بأنه شعب مدني، وإنسانها متحضر، والأمثلة في عدّاد الرحلات كثيرة، تجلي عدّة ظواهر إنسانية، عمومها التحضر وبكل أبعاده، الأمنية والأخلاقية والثقافية، بروح التفوّق والنشاط، والاستقامة والتفاعل، ذلك ما جعل الرحالون الجزائريون يشنون كلهم على الإنسان الأوروبي.

وليس قولنا بأن الإنسان الغربي متحضر، يعني أننا ننفي عنه صفات مذمومة، فليس هذا العنصر البشري عنصرا مثاليا، ولا هو من جنس الملائكة، ولا مدينته، مدينة أفلاطون، وإنما عمومها هذا الذي شهدت به الرحلات، هو الأمر الغالب، بينما إذا أردنا أن نحقّق الحقّ، ونتبث الشاذ من هذه الإنسانية المتحضرة، نقرّ بأن بعض الرّحّالين قد ذكر بعضا مما يتبث مزاج بعض الخصائص السلوكية التي يتمتع بها الإنسان الشاذ خاصة بفرنسا، ونقلنا عن العنصر البشري بمدينة ليون الذين يصفهم الرحالة (عبد الرشيد مصطفى) بقوله: "أما أهل ليون فعابسون متجهمون ينذر فيهم بشاشة أهل الجنوب، فكأن سماءهم التي يحول دون صفائها دخان المعامل هي التي تكسوهم تلك العبوسة وذلك القطوب لاسيما نحو الجزائري"⁸²⁴ وهذا القول لا يقوّض الفكرة العامة عن الإنسان الغربي، حتى وإن بدرت منه بعض التصرفات الشادة، فهو أمر طبيعي في حياة البشر.

3. 1. 3. صورة الغربي (الأوروبي) في اعتقاداته

إن الغرب كما تبديه الصور التي يعرضها الرحالون لا يبدو أنه مجتمع ديني، فهو كما يدّعي هم أنفسهم أنهم مدنيون في مقابل الدينيين، بمعنى أن مجتمعهم يستقي تعاليمه من دستور المدنية اللائكية، التي تشرّع لهم المؤسسات الوضعية قوانين اجتهادية وفق ضرورات ومقتضيات الحاجة، ثم تتغيّر مواد هذا القانون حسب المتطلبات والاحتياجات وفق المستجدات والاجتهادات، ويكون القانون البشري هذا

⁸²² - مامي إسماعيل، سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، جريدة إخبارية حرة، السنة السابعة، العدد: 437 - الجمعة 27 شوال 1345 الموافق 29/04/

1927

⁸²³ - المصدر نفسه، العدد: 438 - الأحد 29 شوال 1345 الموافق 1 ماي 1927

⁸²⁴ - رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا، مصدر سابق، العدد 1293.

خاضع للإجماع الذي تقتضيه كل دولة. من هنا لم تكترث هذه الدول الغربية على استنجاد أو استعارة النصوص من الكتب المقدسة التي يعدّ الإنجيل دستوراً شرعياً، بينما لا يقوم هذا الكتاب بما يحمله من نصوص إلا في حدود الطقوس التي لا تتخطى عتبة الكنيسة، ويبقى حبساً هناك تحت شعار "لا دخل للدين في السياسة". وإذا كان المجتمع الغربي لا يعتمد على الكتب المقدسة في تشريعاته، فإن كثيراً من أفراد أهل كتاب، بمعنى أنهم يعتقدون بأن الله موجود، وأنه بعث رسلاً وأنبياء، وأن نبيهم عيسى عليه السلام، مما يضيف عليه صبغة الدين الذي لا يلتزمون تعاليمه وإنما يعتقدون عقيدته.

وجاءت ممارساتهم الدينية في حدود هذه العقيدة المزعومة، التي تعدّ بمثابة الشعوذة والشرك والاعتقادات الباطلة التي يقع فيها بعض المسلمين الذين زلّت أقدامهم في الدجل والضلال، ولعل من أبرز الصور التي ينقلها (إسماعيل مامي) أثناء تواجده بمالطة، هذه الاعتقادات الشعبية التي تزُفد من الدين طقوسها، في اعتقاد منهم على تفريج كرباتهم، وقضاء حوائجهم، مثلما يقول في هذا المشهد: "وقد استفدنا أن أولئك الرجال الذين كانوا يحملون صُلباناً خشبية وأرجلهم بالسلاسل، أنهم من عامة الناس لهم نذور يقضونها فقد تضيق بالمالطي الحال ويصاب بمصيبة فينذر لسيدنا عيسى عليه السلام بأنه إن نُجّي أو قُضيت حاجته يمشي في هذا اليوم رافعاً للصليب وفي رجليه نحو كذا من الكيلوات سلاسل فتقضى حاجته فيأتي في ذلك اليوم يقضي نذره، وقد يكون الناذرون كثيرين وقليلين الخ. ولذلك يلبسون ثوباً ساتراً لا تظهر منه إلا عيّنهم، ويدوم مرور هذا الوفد في الشوارع الكبيرة نحو الأربع والخمس ساعات عشية"⁸²⁵ وليس من يقوم بهذه الممارسات إلا مَن يُعتبر من المتعبدين الملتزمين بتطبيق تعاليم المسيحية، وقد بلغ عدد النسّاك بمالطة حدّاً كبيراً، يتقدّمهم القساوسة والرهبان، هذا ما تجلّى لعين الرحالة الذي أحصاهم جزافاً بالمئات مثلما يقول: "أما القسيسون والباصون والرهبان فهم عبارة عن مئات وكلهم يجولون في الشوارع ويجالسون العوام في المقاهي والأندية"⁸²⁶ وهي صورة كما تبدو ذات طقوس دينية روحية، تخفّف من وطأة المجتمع المادي، في صور التجردّ بأكمل معانيه.

وكاستنتاج على ما أورده الرحالة عن المجتمع المالطي، نشير إلى أن ديانة المالطيين لا تتعلق بطقوس مناسباتية، وإنما حسب ما يُنقل عن صورة المدينة يحيل بأن هذا المجتمع يميل إلى الديانة، أو يحترم ديانته على الأقل، ومما تجدر الإشارة إليه كقرينة على ذلك، الأماكن المقدسة والمواضع المخصّصة لها، والأثاث القيم الذي يؤثثها ويجلّيها، كل ذلك يجعل من ماطة مدينة مقدسة، بما يقدر حجم دورها

⁸²⁵ - سياحة استطلاعية، مصدر سابق، العدد: 438.

⁸²⁶ - سياحة استطلاعية، مصدر سابق.

التعبدي، ومدى احترامهم لهذه الأماكن، حتى عدّها (الرحالة) امتدادا لرومة القديمة، مثلما هو جليّ في قوله: "فلا غرابة إذا كانت البلاد تساوي الكنائس التي هي مائتان قيمة ومساحة، فإنه كاد أن لا يخلو شارع من كنيسة أو معبد أو تمثال في زجاج أمامه الأنوار أو تمثال حجري أو غير ذلك ومثله في الحانات والحوانيت والدور فالقوم من الزاهدين العابدين المتفانين في الكنيسة وتوابعها فإن كانت هناك بلدة في أثر رومة فلا أظنها غير مالطة"⁸²⁷ مستندا في ذلك لما كان لهذه المدينة (رومة) من قداسة دينية شهد لها به التاريخ.



الفصل الثاني

صورة الأنا الجواني

مرآة الأنا

1. الذات الراحلة بين اكتساب المعرفة وفعل المثاقفة

الرحلة، تجربة إنسانية فردية ينعكس في خطابها هوية الرحالة وثقافته باعتبارها سردا ذاتيا مقرونا بالعواطف الإنسانية في إطار اجتماعي معين، يؤدي إلى التعبير عن موقف معين منطلقا من مرجعيات وروافد حققت توجهه في الحياة، وترسبت لديه قناعات وفق أفكار يتمسك بها، أو وفق مبادئ ونوازع ضالّة يحقق بها مكاسب معرفية أو استنزاقية، ومن ثم ينطلق هذا الفرد ليبرر موقفه إزاء وضعيته في الحياة، كما يبرره بالدفاع عن قناعاته.

إن هذا الكمّ من الاعتبار النمطي الذي لا مناص من أن تتركز عليه الرحلة، يغدو من خلاله التدويت أهم شيء في تلوين الخطاب، حتى يصبح تعبير الرحالة استكشافا للخلفية المرجعية التي تنم عن قضايا إيديولوجية وثقافية، تعرّف ضمينا بثقافة مجتمعه وتبسط ذراعيها لاحتضان المكان المرتحل إليه بخلق فُسحة للمقارنة، عبر مستويات تعبّر عنها هذه الذات المكتنزة بالخلفية الثقافية.

ونظرا لتعدد وجهات النظر في حياة الإنسان، وطبيعة الاختلاف وغرابتها أحيانا، والتي تعد تشكيلة أساسية في تنوع أنماط الحياة البشرية، فإنّ الرحالة سوف يكتسب لا محالة، عناصر إضافية لرصيده المعرفي والثقافي "تقول إلى الانفصال عن الخطاطات الثقافية الأصلية وتبني نماذج ثقافية جديدة"⁸²⁸ لطالما تستأنس بعد فترة وتصبح ثقافة أصيلة ليست بالضرورة سلوكا، ذلك راجع إلى عَصَب فكر الشخص وانتمائه ما دامت الثقافة تنفرج إلى حدّين، أحدهما للالتزام والآخر للحذر والتفاعل مع الآخر، في عملية انصهار وتأثير لقيمتين ثقافيتين مختلفتين بالأساس، وفي حالة حدوث تشابك بينهما يقع التماهي كضرورة تلقائية يُحدثها فعل الثقاف، ذلك لأنّ "الثاقف عملية تجاوز لضرب من التماهي داخل الثقافة الواحدة، يفترض مبدئيا قبول طابع المفارقة، الذي ينطوي عليه خطاب الثقاف كخطاب يستند إلى شرعية فلسفية، قادرة على احتواءه ضمن استراتيجيا للفهم، تبرز نزوعه إلى الكونية مع الاحتفاظ بالمقومات التي تشده إلى ضرب من الفردية والخصوصية"⁸²⁹.

وإذا كانت الثقافة متمركزة في بيئة ما، تصنع حجمها في ذات الموقع والمحيط، فإن مثيلاتها يقع عليها الفعل نفسه، وفي هذه الحالة لا يتم تزوّد ثقافة بثقافة أخرى إلا بحدوث فعل سفر إحدى الثقافات نحو الأخرى لتتم عملية التلاقح الثقافي "وهنا تكمن قيمة الأسفار، بصفة عامة، من حيث أنّها تثري تصور "الأنا" لذاته ولغيره من ناحية، وتفتح باب المقارنة بين تصور الذات وتصور الغير من ناحية ثانية، وذلك بسبب اختلاف الإطار الثقافي (الحضاري) الذي تتشكّل فيه شخصية (هوية)

⁸²⁸ - عبد الكريم غلاب وآخرون، التواصل والثقاف، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2010، ص 8.

⁸²⁹ - المرجع نفسه، ص 239.

شعب ما (أو حتى فرد ما)⁸³⁰ فليست المقارنة في الأخير إلا من مبدأ الاختلاف الذي تمثله كل ثقافة، ولا يحدث ذلك إلا في ظل التباعد في الواقع، وهذا يعني أنه "لا يمكن أن تولد الصورة من المقارنة، وإنما من واقعين متباعدين"⁸³¹.

وإذا عُذنا للقول بأن الرحلة - كما سبق - رحلة فكر وعواطف، فإنها في كل الأحوال رحلة ثقافة كامنة في ذات الرحالة الذي يسوده التراوح في حجم الثقافة التي يمثلها، لأن الإنسان طاقات متنوعة وطموحات مختلفة، ووعي متشعب، ومهما يكن فإن الرحالة نمط بشري واحد تتشكّل لديه فكرة عن المكان المرتحل إليه، وهي فكرة محتملة (نسبية) بمنطق مختلف في حدود المعارف المشكّلة حول هذا المكان، أو من خلال الرؤية والمعاناة، أو المراجعة التي تأتي بعدها، لأن "الرحلة نموذج صارخ من نماذج المقارنة، سواء على مستوى الزمان (من خلال مقارنة حاضرهم بحاضرهم، أو ماضيهم بماضيهم، أو مستقبلهم بمستقبلهم) أو مستوى المكان (بمقارنة هنا أو مكان الرحلة بالهناك أو مكانك الأصلي)"⁸³² وفي ظل هذا كله يكشف البعد الرحلي عن مدى التنوع الثقافي والإيديولوجي والوعي بالتفاوت الذي يمنح فرصة النقد ومستوى الذات من خلال الآخر.

1.1. فعل الرحلة وعناصر الشاقف

يتضمن خطاب الرحلة فعلا يسبقه، حيث يعدّ الفعل جوهر الرحلة، وعبر مساره يتمّ تمرير رسائل الخطاب المتضمنة لكل مخاضات الفكر والثقافة والتوجه الإيديولوجي والفني، باستفاد جملة الرواسب الثقافية المحمولة والتي تشكّل الذات النقدية لمختلف الأحكام التي يصدرها الخطاب. ولعل هذه النوازع هي التي تعتمد في نسيج الفعل حين يتحول إلى خطاب، بتلويينات مختلفة تغدو نموذجا فريدا في شكله ومحتواه. وما دام أن الرحلة يفعلها رحالة واعٍ، فإن الدوافع الوجدانية تنزع إلى الاحتمال في توقعات كل مصير عن المكان والإنسان - محل الزيارة -. إن هذا التطلع يتوقّف على مستويات ثقافية تتقاطع بالضرورة لتحديث تلاقحها على مستوى فكر الرحالة المعرّض للتأثر، بما يتفق وبما يختلف عن فكره وعن مرجعيته الثقافية، وعن معجمه اللفظي المستعمل في الحياة اليومية. إن هذا الاحتكاك هو الذي يؤدي إلى عملية الشاقف، التي تصبح لدى الرحالة - من خلاله - شخصية أخرى أكثر انفتاحا، بما أنه أضاف ثقافة أخرى متميزة عن ثقافته التي "تؤول إلى الانفصال عن الخطاطات الثقافية الأصلية وتبني نماذج ثقافية جديدة"⁸³³ ولعله بهذا يكون الشاقف عملية كسب إيجابية مضافة لهوية الرحالة وما يملك من

⁸³⁰ - المغرب وأوروبا نظرات متقاطعة، مرجع سابق، ص 29.

⁸³¹ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 283.

⁸³² - المغرب وأوروبا نظرات متقاطعة، مرجع سابق، ص 30.

⁸³³ - التواصل والشاقف، مرجع سابق، ص 8.

مرجعية ثقافية، وهو الامتياز الذي يجعل "الهوية الأصلية تذوب لصالح هوية التَّبَيّ المكتسب"⁸³⁴ دون أن يشكّل هذا التماهي تهديدا على الهوية الأصلية.

فكون الذات تحمل الأنساق المعرفية والرمزية يعزّز من حالة الاندماج والتكيف، وينتج عن التباين الثقافي الذي يصير مزجاً بين ثقافتين بناءً للتعدّد، من حيث يعدّ الثقافتين لقاء ثقافتين مختلفتين يحكهما نظام بيئتين مختلفتين حتى يتسوّى حدوث عملية التلاقح بالتأثير الذي لا تُحدِثه المماثلة، وهو أهم شرط، لأن "الثقافة عملية تجاوز لضرب من التماهي داخل الثقافة الواحدة، يفترض مبدئياً قبول طابع المفارقة، الذي ينطوي عليه خطاب الثقافتين كخطاب يستند إلى شرعية فلسفية، قادرة على احتواءه ضمن استراتيجيا للفهم، تبرز نزوعه إلى الكونية مع الاحتفاظ بالمقومات التي تشدّه إلى ضرب من الفردانية والخصوصية"⁸³⁵، ذلك ما يتيح للذات، بالإضافة النوعية من أجل ترقية الثقافة المحورية، وضبط الصورة بين الذات والآخر في موازنة "لا يمكن أن تولد الصورة من المقارنة، وإنما من واقعين متباعين"⁸³⁶. كما يجب أن نعلم إلى شرط الغلبة، فليس الفرد من يؤثر في الجماعة ولكن العكس، وهو ما سيجعلنا نسلّم بأن الرّخالة هو من يُقدّر عليه هذا الفعل الثقافي، إذ لا يمكنه -هو- التأثير في مجتمع بأكمله، فالفرد في هذه الحالة تعدّ ثقافته شاذة بالنسبة للآخرين، بينما الآخرون -هم- من يمكنهم إحداث فعل التأثير، لأنه هو من يقف على فعل التواصل بين أفراد ذلك المجتمع في صورته المختلفة، دون أن يشكّل هذا الاختلاف غرابة أو رعباً ثقافياً، فهو في الأخير ينزع في حجمه الكلي إلى الدائرة الإنسانية في مواقفها، وسيروورها بصور بعضها متفق وبعضها مغاير، ومن هنا فالثقافة يشكل تجربة إنسانية نمتحن بواسطتها قدرة الذات، أو بالأحرى وعي الذات -من حيث هو تمثل للهوية- على الانفتاح على الآخر لدرجة اعتباره جزءاً من تاريخ هذه الذات، مع وعي المسافة التي تفصل بين هذه الذات وتاريخها من جهة، وبين هذه الذات والآخر من جهة ثانية"⁸³⁷.

والثقافة مشرب من مشارب الثقافة التي تعدّ عاملاً مهماً من عوامل نهضة كل أمة، وهي العملية الطبيعية لتلاقح الأفكار المتواجدة، حيث يتم التلاحق بفعل انتقال ثقافة باتجاه ثقافة أخرى في إطار تبادل للعملية، فتستكمل كل ثقافة من الأخرى ما نقص، أو لإدراك مستوى الثقافة في حدود مقابلتها بمستوى الثقافة الأخرى. ويتم هذا التواصل من خلال ترحال الذات الحاملة للوعي باتجاه ثقافة أخرى مختلفة، وبالتالي فإن "الرحلات تشكل أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان، فالاختلاط والحياة مع الشعوب

⁸³⁴ - التواصل والثقافة، مرجع سابق، ص 8.

⁸³⁵ - المرجع نفسه، ص 239.

⁸³⁶ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 283.

⁸³⁷ - التواصل والثقافة، مرجع سابق، ص 243.

المختلفة، إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم، والتحقيق في دياناتهم ونظم حكمهم، غالباً ما تضع أمام الفرد مجالاً صيباً للمقارنة، كما تساعده - ولا شك - على تقييم نظم وتقاليده بلده وموطنه⁸³⁸. وإذا كانت الثقافة تعدّ نسقا اجتماعيا متكاملًا، فإن ذلك الالتقاط البطيء الذي يتم من خلال المعيشة الشعورية واللاشعورية من طرف الرّحّالة، والذي لا يستشعر به إلا في حدود آنية، فإنه يترتب على تلك المعيشة والشعور بالاختلاف، عملية التثاقف المتسربة في الذات والتي تتشكّل لبناتها من خلال هذه العمليات المتكرّرة، لأنّ "الثقافة مؤلف مُضمّر ذو طبيعة نسقية تلقي بشباكها غير المنظومة حول الكاتب، فيقع في أسر مفاهيمها الكبرى التي تتسرب إليه كالمخدر البطيء فترتب محمولات خطابه بما يوافق المضامين الايديولوجية الخاصة بها"⁸³⁹ وليست هذه المكاشفات المستحدثة تصنع لوحدها العناصر الثقافية، بل الرصيد المرجعي لدى الفرد هو من يحدّد قيمة الجديد في إطار معين يطاله السّبر، ويتعيّن عليه إضافة مكتسب جديد ف"يبدو عنصر التفاعل في الرحلة مزدوجًا ومتباينًا؛ فهناك ثقافة ما قبل الرحلة الفعلية وهي الثقافة الموجهة، المهينة للاستقبال، تتحوط بمجموعة من الانطباعات المرفودة بصور وأحلام وتخيلات، أو بمعارف سماعية أو مستقاة من رحلات سابقة تخضع للتحويل والتأويل.. إنها ثقافة ما قبل الرحلة الموجهة، مقابل ثقافة ما بعد الرحلة حيث تصطدم الانطباعات"⁸⁴⁰

2 . الرحلة إلى البلاد العربية وحدود الأنا والآخر .

يشكّل مصطلح الآخر معضلة إيديولوجية لا تعتبر بريئة، حيث تحدّد في تمييز عنصري بين ضفتين مختلفتين فكراً وعقيدة وعرفاً، وليس مصطلح الآخر قارئاً. وإذا كانت اللغة تقتصر على تعريفه من حيث هو المغاير للأنا، فإن الاصطلاح يمثّل عنده بُعداً صدامياً، لا تتقابل مع جنسه المناقض إلا نداءً عنيداً، ومنه تعرّف العالم على مفترقات حضارية، ترعرعت في حضنها نزاعات ووجهات نظر متباينة. فالآخر هو المختلف تماماً عن الأنا في كثير من المستويات. ومنهم من يذهب إلى أن "الآخر قد يكون جزءاً من بيتنا العائلي، وأسرتنا الصغيرة، حيث قد يختلف الدين، أو المذهب، أو المسلك، بين الزوجين، وبين الوالدين والأولاد، وفيما بين الإخوة الأشقاء"⁸⁴¹ في مقابل أن كثيراً من المفاهيم تذهب إلى أن الآخر هو المختلف عن الأنا إيديولوجياً وعقدياً وحضارياً، ويذهب الأول إلى وضع مفهوم ثنائي للآخر حيث أن هناك "الآخر الخارجي المنتمي إلى حضارة وكيان آخر. والآخر الداخلي أو الجوّاني وهو المختلف

⁸³⁸ - حسين محمد فهم، أدب الرحلات، مرجع سابق، ص 21.

⁸³⁹ - عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 129.

⁸⁴⁰ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 92.

⁸⁴¹ - كيف نقرأ الآخر؟، مرجع سابق، ص 19.

ضمن ذات الإطار الديني والوطني، حيث تعددت المدارس الفكرية، والمذاهب والتوجهات السياسية، ضمن الأمة الإسلامية⁸⁴² وفي ظل هذه المسلمة التي تبدو مقبولة ما دام أن الإنسان يسوِّدُه الاختلاف مع أخيه الإنسان إلى حد الصدام ولو كان من بطن اجتماعي واحد، فإن هذا الاختلاف في الرؤى والابتعاد في الأفق يغدو الآخر مصنفاً إلى نوعين، كما سبق الذكر، ومن ثم تعدّ الرحلة أولى بمن يحتوي هذا الفضاء الذي يعدّ فيه "الآخر" ركناً أساسياً لاحتواء الاختلاف والتعبير عن أحكام جديدة، مما يفسّر أنه كلما تقارب التطابق بين الرحلة والمكان المزار، كلما انكشفت مساحة الآخر، واحتل محلّها الأنا، والعكس صحيح، لأنه "في حالة وجود "الآخر" أثناء الرحلة الخارجية -المشترك مع "الأنا" في مرجعية واحدة، فإن ذلك يجسّد دلالة التراتبية التي تصل إلى أوجها في الانتماء إلى البؤرة البعيدة عن "المكان الداخلي"، بالعديد من المسافات"⁸⁴³. وما يميز الآخر الداخلي عن الآخر الخارجي، أن الاختلاف مع الأول بسيط ولا يتعدى حدود معلومة من الاعتقاد والأعراف، بينما يصل مع الثاني إلى حدّ الصدام العنيف والقطيعة، أو أن الأول يكون الاختلاف معه إلى حدود الدرجات والمستويات، أما الثاني فيتراوح بين الاختلاف الجذري والعدم في التطابق.

وفي هذا الصدد، يمكن اعتبار البلاد العربية والإسلامية بالنسبة للجزائري "أنا" خارجي، أو آخر داخلي، ويفسر كل هذا مجموعة من العناصر المشتركة بين هذه البلدان كون شعوبها واحدة، إذ تجمع بينهم جملة من الخصائص، كالدين بمذاهبه المختلفة، ثم اللغة العربية، بالإضافة إلى كثير من العادات والتقاليد، في اللباس والمأكل والاحتفالات، وغيرها من الأعراف التي لا تعدّ ولا تحصى. وهي أهمّ العوامل الأساسية في حياة الإنسان التي لم يبقَ له من الأمور التي يختلف فيها سوى بعض القضايا الثانوية التي تركز في زوايا اجتماعية، تأخذ خصوصية المنطقة، قد يجدها في البلد الواحد الذي يستظل تحت راية واحدة لشعاعة المكان.

وإذا ما ميّزنا البلاد العربية بميزة الآخر فليس ذلك إلا من باب التجاوز، تفرضه حتمية بعض الخصوصيات حيث يخضع الإنسان إلى عامل التطور الذي يفرضه عليه عامله المادي وطبيعته البشرية في التغيير والارتقاء، ويتميز كل جيل عن جيل بميزات خاصة، وبين كل هذا تبقى الثوابت التي تُعدّ ركنَ الامتداد الثقافي لمجتمع أو لأمة ما. كما يبدو أن العوامل السياسية في صناعة قرار الشعوب وفعل التغيير في الدول والأمم لهي من السنن الكونية التي تستبدّ في كثير من عادات الشعوب وثقافتهم، وتخلق فيهم تجليات ثقافية ذات طوابع شعبية من عادات وأعراف تصبح من أهمّ القضايا في كل مجتمع، وبالتالي

⁸⁴² - كيف نقرأ الآخر؟، مرجع سابق، ص 33.

⁸⁴³ - الرحلة في الأدب المغربي، مرجع سابق، ص 66.

يتفرّع كل مجتمع ويتّسم بصفة وخصائص مائزة عن الآخر. ومن هنا نستطيع أن نمحص الأمكنة والإنسان فيما يجعلهما يحملان صورة غير الصورة التي يحملها الرّحالة عن مكان أصله ومرجعياته الذاتية، ومن هنا فالمكان يخضع "في الرحلة الداخلية، للقيم السائدة من قداسة ونفعية وأواصر دموية وأبعاد عملية. وفي حالة تعارض المكان مع هذه القيم، لسبب أو لآخر، يصبح مكانا مضادا"⁸⁴⁴ وليس التّضاد بمعنى الصّدام بل بمعنى الاختلاف الذي قد يجلب الانتباه إلى حد التأثير والدهشة، أو إلى عدم قابلية تقمصه، أو إلى خضوعه إلى عوامل ليس التحصيل عليها بمحض الصدفة، بل بفعل استمرارية التواصل والذوبان والاحتكاك.

وإن كل ما تنبني عليه خصوصية العلاقة بين الجزائر والبلدان العربية، هو التعالق والتلاحم الروحي، الذي يشكّله فقدان التماس، الذي يتحقق بأشكال أحادية يمثّلها فعل السفر، فتغدو متماوجة بين الأنا/ الأنا، والأنا/ الآخر، فالرحلة الداخلية "حوار متواصل بين الأنا والأنا، بخلاف الرحلة الخارجية التي يفتح فيها الحوار بين الأنا والآخر، بحكم الانتقال من مكان إلى مكان آخر خارج عن تأثيرات البؤرة وانعكاساتها"⁸⁴⁵ وإذا اعتبرنا أن المغرب -مثلا- يمثل الآخر فليس هذا بمعنى الآخر المتّهم الذي يمثّل النقيض، وإنما الآخر غير الإيديولوجي الذي يمكنه أن يختلف مع الأنا في جوانبها الإثنوغرافية التي تدفع بها الأنساق المتعدّدة بفعل إفرزات ثقافية محلية ضيقة تعكس نتائج فعلية لممارسات يومية ذاتية تنشأ وتتطور في مجتمع معين مليء بالقيم التي تقتضيها حاجات الإنسان و"تختلف بصفة عامة في طريقة أو وسيلة إشباع تلك الحاجات، وذلك من مكان لآخر، ومن زمن إلى زمن، إلا أن كل جماعة إنسانية، صغيرة أو كبيرة، تصل في النهاية إلى تشكيل ثقافة لها، أي أسلوب معين لحياتها بما يتضمنه ذلك من آداب، وتقاليد وعادات ونظم اجتماعية وإنتاجية. ويأتي هذا الأسلوب الحياتي- أي الثقافة - ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون ومتطلبات الحياة"⁸⁴⁶ ولا يعدو التباين الثقافي بين المجتمعات أحيانا إلا في حدود تعدّد المستويات وتفاوتها. الذي تقتضيه كل جماعة، من ثم لا يمكن لأيّ كان أن يصبح مفوّضا لحل هذا الفرز بين البيئتين أو البيئات المختلفة إلا من تشبّع بفعل السفر، فهو المخوّل الوحيد لوضع الحدود الفاصلة بينهما ومن ثم فالرّحلة هي "النص الأدبي الذي يفسح المجال أمام ترسيخ تقليد الموازنة بين فضاءين وقيمتين وصورتين، حتى في الحالات التي

⁸⁴⁴ - الرحلة في الأدب المغربي، مرجع سابق، ص 65-66.

⁸⁴⁵ - المرجع نفسه.

⁸⁴⁶ - حسين محمد فهميم: أدب الرحلات، مرجع سابق، ص 51-52.

تقتصر فيها الرحلة على مجرد الوصف للعالم الجديد، لأن هذا الوصف يخضع لوعي أو لا وعي، لمنظور وثقافة الواصف الذي يعمل على تحويل غوي ومفهومي للمنظورات⁸⁴⁷.

2 . 1. الذات في الرحلة إلى البلاد العربية وحدود التماهي بين الآخر الوهمي والأنا الضمني.

تعدّ الرحلة باتجاه البلاد العربية بمثابة الرحلة نحو الأنا في صورتها العامة، ذلك ما يدلّ عليه روح الانتماء الذي شكّله الوعي الجمعي طيلة مسيرة التاريخ المشترك واللغة الموحدة والدين الجامع، إن هذه المعالم تعدّ حقولاً مشتركة لجسد واحد هو جسد الأمة العربية ببعدها الإسلامي، فإذا اشتكى منها عضو تداعى له سائر الجسد. فضمير الأمة العربية ضمير جمعي يتميز برابطة الأخوة الممزوجة بدم واحد يسري في جسدها، وما من فرد من شعوب هذه الأمة إلا ويشعر بانتمائه لها، يسعده ما يسعدها ويؤلمه ما يؤلمها، وهو الوعي السائد عند جميع أفرادها.

ولقد عبّر الرّحّالون الجزائريون عن هذه الجاذبية نحو البلاد العربية، وكلهم ذهب إلى اعتبار أن البلاد العربية كلٌّ لا يتجزأ، خصوصاً بلدان المغرب العربي التي اعتبروا حدودها فواصل وهمية، لا يتعدى كونها ستار لا معنى له، ما دام أن الوعي يتجلى فيه روح الانتماء المقترن -بالإضافة إلى العوامل المذكورة سابقاً، بعامل المصاهرة والحوار والقضايا المشتركة، فمن السخرية أن يسدّ مهما كان السبب في وجه الإنسان الكلي ليجزأه أطرافاً، يصاب على إثرها بعاهة لا محالة. ولعل المغرب الأقصى واحد من البلدان التي تمتاز بالقرب الشديد من الجزائر، للاعتبارات السابقة، وهذا ما دعا الرحالة "حمزة بوكوشة" إلى التهكّم بالحدود الفاصلة بين البلدين (الجزائر والمغرب) بقوله: "للمغرب الأقصى يد في تكوين ما لدينا من الثقافة الإسلامية وإن بُعد عهدها. لا يتجزأ رغم البغليين⁸⁴⁸ اللذين قالوا: إنهما حازران بين الجزائر والمغرب، فقلت للبغليين عدس.. ودخلت المغرب.⁸⁴⁹ ويفسر هذا أن الرّحّال في تلك الفترة لم يستغ أمر الحدود التي تقف حجرة عثرة وإكراها في وجه شعبيّ البلدين في سبيل التواصل بينهما.

وأما بالنسبة لتونس فأمرها يشبه أمر المغرب، فمهما تعدّدت دوافع الرحلة والسفر إلى تونس التي لا تكاد تُعدّ ولا تُحصى، فإن الجزائريين في الفترة الاستعمارية كانت تمثل لهم تونس كل شيء، حيث

⁸⁴⁷ - الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 82.

⁸⁴⁸ - يقصد بالبغليين، المركز الحدودي بين الجزائر والمغرب بمنطقة مغنية، وهو المسمى "زوج بغال" أي البغليين، وحسب بعض الروايات، أن الاستعمار هو من وضع هذا الاصطلاح، ويقصد بالبغليين، البلدين الشقيقين (الجزائر والمغرب).

⁸⁴⁹ - حمزة بوكوشة، أربعون يوماً في المغرب الأقصى حمزة بوكوشة العدد 31 السلسلة الثانية، 2 جمادى الثانية 1367 هـ 12 أبريل 1948م.

كانت بمثابة بلدهم الثاني أو البلد المنفصل الذي يُدرك فيه الجزائري أن هذا الانفصال ليس له تأثير على البنية الاجتماعية والأخوية، ويعبر عن ذلك أحد الرحالين بقوله: "وليس هناك فاصل طبيعي بين تونس والجزائر إلا ما أورثه الاحتلال التركي بين الدايات والبايات. وكثير من الفرنسيين في عام 1918م دعوا إلى إزالة هذا الحاجز وفعلا سمحوا للجزائري أن يدخل من غير جواز رسمي ورغم أن نيتهم سيئة يطول شرحها فنعم ما أرادوا لنا لو نوفق إلى تطبيقه في المستقبل"⁸⁵⁰. والجزائري يتطلع إلى تونس بإحساسه البالغ، إلى بلد خاص، تكمن خصوصيته في التاريخ العريق الذي صنعه الأجيال المتعاقبة عبر الزمان، وحققته ما خلفته من آثار، فكانت ملامح الحضارة ومكمن روحها وعبقها شاهدة على كثير من مواقعها، لذلك كان الجزائري يرى في هذه الفترة أن زيارة تونس لا بد منها، لتحقيق العلم وتحيين الذاكرة والاستطلاع على ما كان يصل من صداها إلى كل أذن، في ظل ما شهدته الجزائر من تضيق وموجة غزو أفضت إلى التغريب والسلخ.

فلا بد من التأكيد على أن هذا الاتجاه كان بمثابة المتنفس، والهروب من الضيق إلى السعة، ومن العسر إلى اليسر، ومن الضيم إلى السكينة والاطمئنان، لذلك كان الجزائريون يتطلعون كما يقول أحد الرحالين "إلى الشرق تطلعا روحيا كما يتطلع الشيء إلى مُنبتِه وينزع إلى أهله ويتراجع إلى قراره، وتونس هي الطريق وبداية الشرق بالنسبة إلينا وزيادة أنها بقيت محافظة على طابعها الإسلامي العربي، فترى فيها تعلقة النفس وبغية خاطر"⁸⁵¹. كما أنه يبالغ أحدهم حينما يقول: "تونس! هي التي تضرب بها الأمثال في جميع ما ينسب إلى العلوم والأخلاق والتمدن والحضارة. المريض أيقن بالشفاء إن أمها مستطبًا، طالب العلم أخطى الخطوة الكبرى في سبيل نيل أصوله وفصوله إذا وطئ ترابها، مستوطنها استحقّ تكرمة وحظوة عند قومه لما يتوهم فيه من الخصال الحميدة التي امتاز بها أهل الحضارة"⁸⁵²، ثم لا يسعه هذا التعبير فيضيف "البضائع الجميلة لا تجلب في غير تونس، الآداب والفنون المستزفة لا تحصل بجودة ووفرة إلا لمن رضع لبانها في تونس، الرجل لا يعرف معنى النعيم والرفاهية الحقّة إلا إذا كان متزوجا بإحدى كرائم تونس، كل المحاسن في تونس!، كل العجائب في تونس!، كل الصيد في جوف الفرى!"⁸⁵³.

ولم يكن الجزائري في تعبيره عن الأمكنة العتيقة والمعالم التاريخية التليدة بالبلدان العربية التي زارها إلا جزء لا يتجزأ من تراثه -هو- ومن ذاكرته ومن خصوصياته، ولا يخصّ بها أهل البلد المزار فحسب،

⁸⁵⁰ - عبد الباقي الحسيني الجزائري معبر الفتوة، الشركة الوطنية للطباعة والأوراق، وهران، الجزائر، 1973، ص 38.

⁸⁵¹ - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 37.

⁸⁵² - محمد الأمين العمودي، شهر في تونس، الشهاب العدد 38، السنة الثانية، (الخميس 5 محرم 1345هـ/15-07-1926).

⁸⁵³ - المصدر نفسه.

لأنه يدرك أن هذا من صنُّع التاريخ المشترك، يوم أن كان الإنسان العربي يُعرف بصفة العربي والمسلم، قبل أن يضيّق عليه بالانتماء الجزأ. فالرحّالة صالح غزال عندما صار يصف عتاقة (فاس)، لا ينسب ذلك للمغاربة فقط وإنما يدرج ذاته كواحد ممن له الحق في التزكة، مثال ذلك ما قاله: "فقد عرف أسلافنا الأمجاد أحسن الله جزاءهم وألهمنا حسن التأسّي بهم، كيف يخلدون ذكرهم، وبينون مجدهم التاريخي الأثيل، فأقاموا هناك في فاس وغيرها من المدن والبلاد التي سعدت باستقرار حكمهم فيها ردحا من الزمن، من المعازل والحصون ودور العلم والثقافة، ما هو عبرة للمعتبر، وما هو في الواقع شاهد حي بليغ الدلالة على أنهم كانوا رجال علم ومدينة وحضارة، وكل ذلك حسب العصور التي يعيشون فيها طبعاً"⁸⁵⁴، إن المعجم الذي يوظفه الرحالة خلال حديثه عن أمجاد الحضارة بالمغرب الأقصى، لا نجده إلا موحدًا بين الشعبين، فهو لا يقول أجداد المغاربة أو أسلافهم، إنما يقول: "أجدادنا هناك" و"أسلافنا الأمجاد"، في إشارة واضحة لعدم التمييز بين الشعبين، وهي حقيقة يشعر بها كل جزائريّ ويقابله بها كل مغربيّ.

ولم تكن البلاد المشرقية تختلف عن البلاد المغربية، بل ما نجده من تصريحات حول الاحتواء الذي شكّله الرّحّالون تجاه هذه البلاد، يُعبّر بقوة أكثر، لأنها منه وهو منها، وبُعد المسافة يربي عامل الوجد ويضيف فيه جُرعات الاشتياق، ويفعل قلق الحنين، فكان كل من حلّ ببلد من هذه البلاد إلا وعبر عن ابتهاجه، وعن شعوره العميق بالألفة بالإضافة إلى أن الشعور بالغرابة يمحي من وجدانه فيعبر وكأنه حلّ بالجزائر، مثلما نجده في قول (توفيق المدني) لما حلّ بسوريا: "كأنني والله حلّلت بالجزائر عندما وطئت قدماي دمشق. وجدت أهلها أهلي، ووجدت رجالها رجالي، ووجدت عاطفتها عاطفتي"⁸⁵⁵ وهذا أكبر مثال على أن العربي لا يشعر بالغرابة في بلد عربي آخر نزل به.

أما بمصر فقد نجد الرحالة -ذاته-، لا يتمالك نفسه وهو يدنو منها، فيجسد حالة من الشوق الكبير في أول زيارة، يريد من خلالها إسقاط عناصر ما تثقف به عن مصر وما راكمه من معلومات عنها، حتى تزاومت لديه صورة المخيال بصورة الواقع، فكان التلهّف وكان التهافت وكان الشوق، يعبر عنه بأسلوبه قائلا: "وكان قلبي قد سبق جسمي إلى القاهرة فلم أشعر بطول الطريق إنما كنت أستحضر في مخيلتي صور القاهرة العتيقة، ومدى إشعاعها العلمي والثقافي، وكيف كانت واردة المدنية الإسلامية بعد نكبة بغداد"⁸⁵⁶.

⁸⁵⁴ - صالح غزال، في مدينة فاس البصائر العدد 121 السنة الثانية، الاثني 12 شعبان 1369 الموافق 29 ماي 1950.

⁸⁵⁵ - أحمد توفيق المدني، مؤتمر الخريجين، حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص 206.

⁸⁵⁶ - أول يوم في القاهرة، المصدر نفسه، ص 115.

ولم يكن "المدني" وحده من الرحالين الجزائريين من تفاعل متأثراً بمصر، بل كل من سَنحت له فرصة الزيارة إلا وتهافت لرؤيتها، وعبر عن رغبته الشديدة حيالها، ومحبه إياها، واستثناسه بأهلها، فالذي نجده في خطاب الإبراهيمي عن مصر يدلّ دلالة قاطعة على أن هذا البلد بالنسبة إليه يعادل الجزائر، يعبر عن ذلك بصراحة عندما يتنقل من بلدان أوروبية نحو القاهرة، لاجئ عن بلده المسلوب إلى مصر بلد الاحتضان، فيعلق عند وصوله القاهرة بقوله: "توارت زيارة الإخوان فملكت الدقائق والثواني، وآنست نفسا طال شوقها إلى مثل هذه المجالس وهؤلاء الإخوان وهذه الأحاديث وأنست الراحة والنوم مع شدة الحاجة إليهما"⁸⁵⁷ إن شدة الحاجة إلى النوم واللجوء إلى الراحة لم يمنعا الإبراهيمي من الاستثناس الذي ظلّ محروما منه، لأنه طال أمد الصراع النفسي الذي لازمه في مقاومته لشتى الطوائف والأطراف، فتراكمت عليه المآسي ولا من مواسي، حتى بلغ ذلك التجمّع الذي احتضنه فيه أهل مصر، ومنه عبّر عن نهاية مطاف في وطنه وبين أهله، مستعيرا في ذلك (مصر) التي كان أهلها أهله ووطنها وطنه، فشرع يعرض حاله: "وما الأسير العاني اشتبهت أيامه، وطال في الأغلال مقامه، حتى إذا استيأس جاءته البشرية بالسراح، وحرية البراح، ولا الغائب المنقطع، تلقتة الأقطار، بخيبة الأوطار، فلج في ركوب الأخطار، ليلبغ عذرا أو ينال رغبة " ثم فاجأته الأقدار، بالرجوع إلى الأهل والدار، مقضي المآرب، مهناً المشارب - بأطيب نفسنا، ولا أقر عينا، ولا أكثر ابتهاجا مني في ذلك الأسبوع الذي أقمته بالقاهرة"⁸⁵⁸.

3. صورة المجتمع العربي/الاسلامي تقاطع في المركز واختلاف في اثنوغرافيا الواقع

يمثل المجتمع العربي شريحة مميزة بقوة شعبه، وتنوع بيئاته، وتعدد مذاهبه الفكرية والإيديولوجية، وتوحد دينه ولغته.. وهذا كله قد شكّل، فعل تنوع يكمن في جانبه المركزي التطابق وفي جانبه النسبي الاختلاف، ولم يكن جانب الاختلاف يشكّل حدثا سلبيا بالقدر الذي يعدّ قضية صحيّة، بإمكانها أن تتجسد حتى في البلد الواحد إذا كانت مساحته مترامية. بالإضافة إلى عوامل صبغت كل مجتمع بميزة اجتماعية خاصة، كالفعل الإثنوغرافي من عادات وتقاليد وأعراف، وخصوصية أنظمة الحكم التي تجلب للمجتمعات صبغة سياسية تؤثر في المجتمع من حيث الشدة واللين، وغيرها من الخصائص التي لا تكاد تحصى. ومّا شهدت عليه قطوف الرحلات الجزائرية الحديثة، بعض الصور التي عبّرت عن

⁸⁵⁷ - محمد البشير الإبراهيمي، رحلتي إلى الأقطار الاسلامية، البصائر، العدد 194، السنة الخامسة، السلسلة الثانية، 30 رمضان 1317هـ الموافق 23 جوان

1952.

⁸⁵⁸ - رحلتي إلى الأقطار الاسلامية، البصائر، مصدر سابق.

بعض الخصائص في المجتمع العربي، وإن كانت الرّحلات ليست دراسات اجتماعية، وإنما هي مجرد انطباع صادق عن معاينة وجسّ نبض المجتمع الذي يحلّ به الرحالة.

3.1 . مظاهر التدين في المجتمع العربي واستجابة الذات بين الانجذاب والطموح

وإذا كان الواجب أن الدين الإسلامي ممارسة يومية للحياة الطبيعية للبشر (المسلمين)، فقد أصبح هذا الواقع في حياتهم يبدو غريباً، لأن الإسلام في الحياة المعاصرة اتخذ في مخيال الكثير من المسلمين صورة نمطية للضعف وحصره في روتين العبادة الخالية من الروح. ومن ثم فقد نميز حديث الرحالين عن ظاهرة التدين في المجتمع العربي انطلاقاً من الذات الراحلة الملتزمة دينياً، وثمة أمر آخر، هو واقع البيئة المحليّة للرحالين التي أضحت مُزرية من فعل الاستعمار على كافة المستويات، مما دفع الرحالين للانتباه إلى الفروق في الكبح والحرية بين هنا وهناك، فأصبحت الصّورة الأخرى مأملاً ومطلباً متمنياً، خصوصاً منهم الذين زاروا المشرق العربي، حيث صوّروا لنا ما لفت انتباههم من تجلّيات تلك الصور. ولهذا كان اهتمام الرحّالين الجزائريين بالظاهرة الدينية كصورة لافتة، اعتباراً من دلالات عميقة، تُفرج عنها ذات الرحّالة انطلاقاً من مرجعيته المحليّة، أو واقع ملموس يُعود فيه الإسلام الصحيح بجرارته وتطبيقاته استثناءً.

وتعدّ مصر واحدة من البلدان العربية التي استطاعت أن تمارس حياة الفكر والتحضّر والتحرر الديني، الذي قبع دهراً من الزمن يعيش الجمود، فقد واكب المفاهيم الحضارية واستطاع أن يرتقي بمتعبّديه مستوى ما وصلت إليه هذه الحضارة في مواكبة واعية، وليس التدين المتزمت القابع في سجون المحارب، بلا جدوى فاعلية كما تشهده كثير من المجتمعات الإسلامية في مرحلة انحطاطها "ولقد يخال الرائي لأول وهلة أن بلداً متمدناً يضارع في بعض مظاهر الرقي أرقى شعوب الغرب قد يكون قليل الاستمساك بتعاليم الدين والقاهرة والإسكندرية أعدل دليل على ذلك الرقي"⁸⁵⁹ ذلك أن مصرَ تفتّحت على الغرب مبكراً، كما قد اتّصلت بتراثها في الحين ذاته، مما جعلها لا تنفصل مع هذا ولا تفرط في ذلك، إضافة إلى قوة الصراع الذي شحذ القرائح ودفع بنوازع الفكر إلى التحرر، فواكب الملتزمون بالدين مظاهر الحياة بعقلانية ومارسوا عبادتهم في واقع الحياة، وكأني بالرحالة "الغسيري" يُلْتَمِت إلى هذا ويقول: "ولكن الرائي يخطئ كثيراً إذا ظنّ أن الشعب المصري غير متدين فإذا أنت تصوّرت شاباً يتخرّج من أكبر الجامعات في الشرق والغرب ويحمل شهاداتها، وكان (قبل اليوم) يفاخر بها وتصورته يمازح الشعوب ولا يندمج فيها ويسايرها ولكنه لا يغرق في

⁸⁵⁹ - محمد منصور الغسيري، عدت من الشرق مظاهر التدين في مصر البصائر ع254/ سلسلة ثانية/سنة 6/ 10 جمادي الأولى 1373 الموافق 15 جانفي 1954

خضمّ تياراتها اللادينية أو الوثنية ولا تؤثر فيه. إذا تصوّرت هذا كله وطبقته على مصر فإنك ستجده متمثلاً في الشّباب الإسلاميّ المجاهد في هيئة الإخوان المسلمين والشبان المسلمين وغير الإخوان والشبان وفي بقية الشعب المصريّ الماجد رجاله ونسائه⁸⁶⁰ وهذه الصّورة مقتطعة من فعل نشاط الإخوان المسلمين في مصر، دون ما موقف سياسي، وإنما صوّر الرّحالة مشاهد عفوية عن هذه الفئة التي استطاعت أن تُسيطر على ملكته الفكرية في تحصيل هذه الصّور المميّزة التي راحت بالكاتب كل مذهب في التنويه، مما يدلّ إلى أن الغسيري كان "كثير الإعجاب بالشرق وما فيه من مساجد ومدارس وجامعات، وكان ذلك الإعجاب طبيعياً أن يصدر عن كاتب مكبوت الحرية، مهضوم الحق، مهذور الكرامة، في أرض سيطر عليه الاستعمار الفرنسي⁸⁶¹. كما أنه يمكن اعتبار مشهد التعاطف مع حركة الإخوان المسلمين، لأن نشاطه في معترك الحياة كان لافتاً أثناء هذه المرحلة، حتى ذاب هذا التجريد في كافة المجتمع المصريّ بكل شرائحه وطوائفه، وأصبحت حياة المصريّين دينية، في نسقها العام.

ولعل الرحالة يزيغ عاطفياً إلى حركة الإخوان المسلمين التي كانت تشكّل ظاهرة ليست على مستوى مصر وحدها بل على مستوى العالم الإسلاميّ ككل، ولقد تمثّل نشاطها بحيوية فائقة وقوة ذاتية فعّالة، وعزة نفس كبيرة، وخلق تماسكٍ اجتماعيٍّ محترم، فكان لها حضور إيجابيٍّ تشغلها القضية الحيوية وهي النهوض بالإسلام كمحرّك فاعل في المجتمع الإسلاميّ، بوعي ودون مؤثرات ما تفرزه الحضارة الغربية من تجاذبات سلبية من إغراءات، ولقد شكّلت ظاهرة الشّباب الإخواني بمصر حلقة لافتة لدى الرّحالة في هذا الشأن، واعترف لهم بالقول: "إن من شاهد الإخوان المسلمين وأغلبهم في ريعان الشباب، ومثقفون ثقافة عالية غربية وإسلامية، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله إذا حضرت الصلاة، ولا يغريهم سراب مدينة في دول جائعة سوف يأكل سمانها عجافها عند الأجل المحتوم! ولا يخضعون لقوة ظالمة مهما طغت"⁸⁶².

وانطلاقاً من هذا الحديث الذي يصوّر فيه الرحالة شأن الإسلام الحقيقي -حسبه-، يجعل ذلك منبرا لخطاب منشود لضمير الأمة التي ينبغي لها أن تعود إلى مصفّ ما هو مطلوب منها في شريعته الغراء، وقد كان ذلك على حساب نافذة شباب مصر، الذي جعله أحسن مثال، ليس على مستواهم المحلي -القطري-، وإنما حتى في حياتهم خارج بلدهم، كتجربته معهم أثناء زيارته الحجية التي جاء منها

⁸⁶⁰ - المصدر نفسه.

⁸⁶¹ - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 297.

⁸⁶² - عدت من الشرق، مصدر سابق.

خطابه للأمة على القيام بمثل هذا السلوك لتقويم الأجيال القادمة من أفراد المسلمين، إذ كان أفراد المجتمع المصري قدوةً في ذلك الحدث، أسفر عن قيمة مثالية ناشد من خلالها المجتمع الإسلامي للاقتداء: "إن من شاهدتهم معلّمين ومتعلّمين متكلمين حاجين خطباء في الحرم المكي والمدني يدرك بأن الروح الدينية أهم ما ينبغي للعالم الإسلامي أن يفتش عن بعثه وإشاعته في نفوس بنيه"⁸⁶³ ولما كان إدراك الرّحالة بتشتت المسلمين، وعدم كفاءتهم، واستحالته على جمعهم في كلمة واحدة جعل خاتمة قوله: "وهل يفعل؟"⁸⁶⁴ هذا التساؤل النابع من ضمير متألم، ناتج عن مظاهر المجتمع الإسلامي المجتث بين الجهل والاستيلاء، والتشتت ووطأة الاستعمار، وهي ظروف وعوامل تجعل من نهضة الإسلام الطبيعية أمرا بعيد المنال.

ومن ناحية، فإن الرّحالة ينطلق في تمثّل صورته عن المجتمع المصري انطلاقاً من خلفية المجتمع الجزائري القابع في ضنك المستنقع الاستعماري الذي مارس عليه كل أشكال الحيف، فبات وجهها للمقارنة بين الواقع المصري والمأمول الجزائري من خلال واقعين مختلفين، فيأتي الخطاب ليجسد فقه الواقع من طرفين من خلال مظاهر شكلية لها بعدها ودلالاتها الحضاربتين، فهو يخاطب القارئ الجزائري بصورة خاصة، بقوله: "وما أجمل أن يفقه شبان الجزائر الأغرار أن مساجد القاهرة لا تمتلئ يوم الجمعة وفي الصلوات الخمس بالعجزة والشيوخ وذوي الملابس الفضفاضة من الفلاحين والتجار، وإنما تمتلئ كذلك بخريجي الجامعات والطلاب الجامعيين والسلك الدبلوماسي المسلم، وكلهم من ذوي الملابس العصرية الرفيعة"⁸⁶⁵ في إشارة من الرّحالة الذي كان وجهها من الوجوه المثقفة التي كانت تصارع مع الحركة الإصلاحية الجزائرية لبعث روح تحرّر وتحضّر الإنسان الجزائري من أجل الرقيّ به إلى مصاف الإنسان المثقف الواعي في دينه ودينه، شكلاً ومضموناً.

ولقد ناقش هذه الصورة قبل الغسيري، الرحالة (إسماعيل مامي) في رحلته الاستطلاعية بأكثر من ربع قرن، تحدّث من خلالها عن حالة التديّن بمصر، حيث كانت جبهة اجتماعية تسعى لفك قيود الانحراف في التوجّه الديني هناك، هذه الجبهة التي كانت تزخر بطائفة من المستويات الراقية ثقافياً في مجتمعاتها، فكانت تذود عن حياض الإسلام، وهو ما أسعد الرحالة: "أسعدتني الحظوظ لمؤانسة جمهور من الأعيان والأدباء وكلهم متحمسون غيراً على الدين وبيضة الشريعة المحمدية ولا حديث لهم إلا على صون الدين من غواة الإلحاد والبدعيين"⁸⁶⁶ وإذا كانت ظاهرة الإلحاد

⁸⁶³ - المصدر نفسه.

⁸⁶⁴ - المصدر نفسه.

⁸⁶⁵ - عدت من الشرق مصدر سابق.

⁸⁶⁶ - إسماعيل مامي، سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، السنة السابعة، العدد: 485 يوم 25 صفر 1346 الموافق 28 أوت 1927.

والإباحية في مصر (عصر الرحالة) متفشية، فإن ذلك كان يعدّ انشقاقا ثقافيا مارسه فئة مثقفة في المجتمع المصري لخلفيات متعدّدة، وكان كَيْلهم للإسلام والمسلمين عنيفا، فكان الفكر يقارع الفكر، والحق في مواجهة الباطل، كلّ يدّعي أنه يمثّل الحق. وإذا ما قارنّا ذلك بحالة المجتمع الجزائري فإنه يعطينا صورة ظاهرها الشكلي متشابه، أما باطنها فمختلف باختلاف ظروف وتطلعات كل بلد، حيث ساد الجهل تفرّج عنه الانحراف في الدين وشكّل شرخا حقيقيا كبيرا من هذه الناحية، مما جعل الرحالة يجيب عن سؤال لأحد المصريين بالقول: "وكثيرا ما يسألونني هل عندكم بالجزائر فكرة الإباحية وهل الجزائر لا تزال متمسكة بالدين فأجيب في الأول بالسلب وفي الثانية بالإيجاب ثم أفصل لهم الحالة وأمراضنا التي مُنينا بها منذ قرون"⁸⁶⁷.

وإذا صحّ أن للبيئة دور في تحريك المشاعر، وتأجيج الانفعال، فإن صورة المجتمع المسلم بالبقاع الشريفة (مكة)، تبدو ببلاغتها الحقيقية التي تراها تدفع عنها حُمل الدنيا بكل ما أوتيت من زخرف، وتقبل نحو مواجهة مصيرها، حيث يمثل الحج واسطة بين حياتين، حياة الصراع من أجل المادة، وحياة النفور نحو الروح. وبين هذا وذاك تتجاذب أطراف الصراع ليفصل فيها الموقف في الأخير لصالح الاتجاه الثاني، حيث لا قبل للمغريات أمام موقف التجرد والتأمل والتوبة، فتظهر حقيقة الإنسان مجردة من كل رداء دنيوي. ويبدو ذلك في وصف الرّحّالين الجزائريين حين وقوفهم على هذا المشهد، كالذي يجسّده الأمير عبد القادر في هذه الصورة بقوله: "والناس بين داعٍ وقارئٍ وملبٍ وخاشع، وقانت، وساجد، وراكع خاشع، وخاضع وجالس ينظر تلك المشاهدة وساعٍ بين الصفا والمروة بهرولة الرمل المتعاهد، والمسلمون يتزايدون من كل فج عميق، ليشهدوا مناسك لهم باليقين الحقيقي"⁸⁶⁸ ولا يكتفي بهذه الصورة الطبيعية العامة، وإنما يصف الحجيج بخاصية أخرى، كتلك التي تتمثّل في صفات الإنابة وأمارات العزم على التوبة، لأن المسلم في هذا الموقف تندفع نوازعه كلّها نحو اتجاه واحد، وهي الحقيقة المبتغاة، فتبدو صورته الزاهدة في الدنيا بالطبيعة التي ينقل مشاهدتها الرحالة نفسه: "لهم عجيجٌ، وضجيجٌ، وعويلٌ ونحيبٌ، ونشيحٌ وبكاءٌ، وزعيلٌ بعير واقف على قدميه، وراكب ملية محرمة، وناهض من مكان إلى مكان ليتبرك بالآثار، وطالب وداع، ومبتغ، ومشير ومشار إليه كذلك دائبين إلى إقبال الليل وإدبار النهار"⁸⁶⁹.

أما الغسيري، فقد ركز على مشهد يوم العيد بـ"منى"، وهذا المشهد، في هذا اليوم الذي تتجمّع

⁸⁶⁷ - سياحة استطلاعية، مصدر سابق، العدد: 485 يوم 25 صفر 1346 الموافق 28 أوت 1927..

⁸⁶⁸ - مذكرات الأمير عبد القادر مصدر سابق، ص 110.

⁸⁶⁹ - المصدر نفسه.

فيه أعداد هائلة من المسلمين يتضمّن عدّة أسرار، وقد لا يبوح إلا بالنّزر القليل عظمة لشأنه؛ ومن جمال العبرة أن الناس فيه سواسية، والكلّ فيه بشرٌ أبناء بشرٍ، لا يهّم المنصب والجاه، ولا فرق فيه بين رؤساء الحكومات وبين رعاة الأغنام، فالعبرة بالتقوى، وهو ما تأكّد في مشهد يقول فيه: "فوق هذا الثرى اجتمع خمسمائة ألف أو يزيدون، وفيهم من رؤساء الحكومات إلى رعاة الأغنام، وما يميزهم عند ربهم إلا العمل الصالح، وما يعفى من القيام بالواجبات -كرمي الجمرات- إلا العجزة مع التوكيل وما يعفى من التضحية إلا الذين لا يجدون ما ينفقون"⁸⁷⁰ ولقد تمكن الرحالة - الكاتب- من إبراز نموذج جماليّ لمظاهر الحج ، ليس في مخاض الإيمان وتفجره عن نفحات ولفحات الدفق الشعوري، وإنما إضافة إلى ذلك هو التركيبة الدينية المتساحة والتي ترعى أدنى شروط الإنسانية في أوامرها التكليفية، التي تسعى إلى فرضها على كل البشر دون استثناء، ولكن هناك جمالية أخرى تُثبت الاستثناء فتجعله مقتصرًا على فئة بتعويض مقدّر بقدر، مراعاة للقدرة الإنسانية وشعورها.

وإذا كان المشرق نواة إشراق الأنوار الإلهية، فإن المغرب العربي عرف عنه تمسكه بالدين الإسلامي، والتزامه بتعاليمه الشرعية، وتطبيقاته العبادية، وممارسته على أنحاء شتى من حياتهم. وبينما كانت الجزائر في فترة الاستعمار غارقة في براثن الجهل وآفة الأمية، كانت تونس والمغرب، تطفحان بالتكوين والتربية الدينية ابتداء من الطفولة وأن العناية شملت الفتاة إضافة إلى الفتيان، في رعايتها والحرص على تعلّمها، وليتنافس في ذلك المتنافسون، كما يؤكّد حمزة بوكوشة: "ثم زرت بعض المدارس الابتدائية لكثرتها. ومن أهمها مدارس محمد الخامس. والفتاة المغربية في التعليم الابتدائي تسير بجانب الفتى المغربي إن لم تسابقه، وهذه المدارس تعنى عناية خاصة بالدين والأخلاق وإلزام التلاميذ والتلميذات- كل جنس على حدة- بالصلاة في أوقاتها بتعطيل الدروس وقت الصلاة"⁸⁷¹. ومن جميل المشهد أن هؤلاء المرّتين يحرصون -إلى جانب التربية والأخلاق- على إلزام كل التلاميذ (فتيان وفتيات) بأداء الصلاة في وقتها، حتى أنّها تُعطّل الدروس في سبيل ذلك، وهي من باب ترسيخ التعاليم الإسلامية لدى الناشئة.

وقد صوّر (إسماعيل مامي) في عشرينيات القرن العشرين جملة من الصفات عن المجتمع المغربي، تجسّدت في إبراز الشخصية المثالية الواعية، التي لم تكن تستجيب للأهواء ولا تميل للاعتقادات الباطلة، فهي شخصية ذاتية ليست إمعة، تستقل بمبادئها وأركانها مما يجعلها متميزة ومحترمة، يقول في ذلك: "أبناء المغرب قوم لا تغرهم المظاهر الخلابة ولا يستسلمون للتقليد الأعمى الذي من شأنه

870- المصدر نفسه.

871 - حمزة بوكوشة، أربعون يوما بالمغرب، مصدر سابق.

الحط من قدرهم فإنهم قبل أن يقدموا على عمل ينظرون إلى الفائدة التي تأتي من ورائه⁸⁷² وينطلق الرحالة في بناء حكمه على المغاربة بخلفية الأحداث التي شكّلت حدثا لافتا عند المسلمين، والمتمثل في التحوّل الذي عرفته تركيا، بعد الثورة التي قادها أتاتورك بانتفاضته ضد الإسلام والإسلاميين وضد الخلافة الإسلامية، لتحلّ محلّها العلمانية كدين جديد للدولة التركية الحديثة، لذلك نجد (مامي) يسير وفق النسق الذي يقف بسلبية ضد أتاترك وما خلفته ثورته، ويتعزز في ذلك بموقف المغاربة المحافظين في ذودهم عن الإسلام فيقول: "إنهم ينظرون الآن من على كذب إلى التطورات (متأسفين) للمؤامرات التي تجريها يد الاستبداد في ملك آل عثمان ولم يهتموا قط بأقوال المغرضين الذين يقولون بالسفور وما شاكلة لأنهم ما يقدرّون أنها أعمال صبيانية لا تأتي بالنفع للبلاد بل بالعكس لأنها تزيد الأخلاق فسادا وإخلالا بالشرف"⁸⁷³، ومما نلاحظه أن الظاهرة الدينية يربطها الرحالة دائما بالمظاهر الأخلاقية التي كانت وساما في المجتمع المغربي الذي لم يهزه ربح التغيير فيما مسّ بعض البلدان من أثر الثورة التركية، وبقيت شخصيتهم محافظة على مبادئها، وخصالها الحميدة، تلك الخصال التي بقي فيها المغربي محافظا، يذود عن شرفه، ولا يتبغى غيره بديلا، متصلبا في مواقفه الأصيلة وهذا ما أثر في الرحالة ودعاه إلى الإعجاب به، حتى جعل يقول: "المغربي كريم .. ومن جملة الخصال المحمودة التي نصنف منها المغربي شدة غيرته على حفظ الأعراض من التلاعب ويمانع بما أوتي من قوة في انتشار البغي والفجور وإن سعيهم مشكور في سبيل حفظ سمعة المغرب فقد عملوا على حصار البغي وجميع دور الفسق والفجور في مكان سحيق عن المدن خوفا من تفشي الأمراض الزهرية وهي كالسوس تمخر أعضاء الأمة فتقتادها إلى الموت"⁸⁷⁴.

3. 2. صورة الإنسان بين المظاهر الإيجابية والسلبية

3. 2. 1. المظاهر الإيجابية

تبرز صورة المجتمع الإيجابية في شتى أقطار العالم العربي، وبصورة أكثر مثالية في المجتمع الريفي حيث تتجسّد كأهم ظاهرة أثرت في نفوس الرّحّالين، تسرد صفة الإنسان الطبيعي في بيئته، أفضل مما يمثّلها أهل المدينة التي تتلوّث صورتها بتلوّث همجيتها وهجانتها، فأهل الريف يمتازون بطيبة خلقهم وبساطة عيشهم، وسماحة أرواحهم، وهي الصفة الحميدة التي أوصلتهم إلى اعتبار الإيثار سلوكا طبيعيا،

⁸⁷² - إسماعيل مامي، جولتي في المغرب وبلاد الأندلس، جريدة النجاح، السنة التاسعة، العدد 663، الأحد 29 جمادى الأولى 1347 الموافق لـ 11 نوفمبر 1928.

⁸⁷³ - جولتي في المغرب وبلاد الأندلس، جريدة النجاح، مصدر سابق.

⁸⁷⁴ - جولتي في المغرب وبلاد الأندلس، جريدة النجاح، مصدر سابق.

يتجلى من محياهم، ويتجسّد في أفعالهم وأقوالهم، ولا أدلّ على ذلك من وصفهم وهم يستظهرون ابتهاجهم بالضيوف الزائرين، دلالة على براءة إنسانية مستخلصة من عمق المحبّة، مثلما تجليه صورة إنسان الريف المصري الذي كان يتفاعل مع الحجاج المازين بمصر، حيث كانوا "يستهجون كثيرا بالقاصدين إلى بيت الله الحرام فإننا مهما نمر بمسلم أو مسلمة إلا ورأيته يخفق بيديه ويتلو بلسانه "على السلامة يا حاج" مع تكرير مستمر إلى أن يغيب عنه الزائر وهي خصلة لا محالة تشطر بقوة إيمان كانت تتخلل تلك القوائم الطاهرة ورأفة إسلامية كانت تجذب تلك الأرواح لتحيي إخوانها قولاً وفعلاً"⁸⁷⁵ أما عن الرحالة (إسماعيل مامي) فيصِفُهم، بدوًا وحضراً، بجملة واحدة عند قوله: "...وقد أعياك الظمأ وكل رجال مصر عيون فراتية عذبة"⁸⁷⁶.

وقد جسّد الرحالة (عبد الباقي الحسني) المجتمع الريفي (المصري) بتفاصيل، متحدثاً عن حالتهم المعيشية، وحياتهم اليومية "أهل مصر بصفة عامة متقشّفون مستخشون، عمّال فلاحة، المرأة والرجل سواء في العمل يحملون الأتربة من موضع لآخر يسمّدون بها الأرض ويكدّحون في جلب الماء ورفعها من أسفل إلى أعلى إما بآلات يديرونها بأيديهم أو بشيران أو جمال"⁸⁷⁷ فهذا الارتباط الوثيق بالأرض جعل الإنسان الريفي يعتمد اعتماداً كلياً على نفسه، يستزق من محض جدّه وكده، يوقّر عيشه ويستتبّ أمنه من خلال تواصله بالأرض، مما جعله يقضي أغلب أوقاته مثابراً مستأنساً بهذه الأرض، يخلق بذلك عالماً فطرياً مستقلاً، كما يصوّر الرحالة نفسه بقوله: "فالريف حركة دائبة وعمل متواصل وفلاح مثابر منقطع في غزلة عن خارج غيطه، أسعدهم حالاً يكسب جاموسه الحليب، يبيع زبدها ويأكل جنبها المنزوع من الزبدة أو يبيعه، ويملك حماراً للنقل وحمل التربة، وإدارة آلات الماء، أو بقرة أو بقرتين أيضاً لهذا العمل قلّمًا تجد رجلاً في القرية إذ يهبّون للغيظ مُبكرين صباحاً إلى الليل"⁸⁷⁸ فلا تجد لهذا الإنسان وقتاً يضيّعه في فراغ أو شغل آخر يبعده عن العمل، كما أن هذا التواصل مع الأرض لا يترك له مجالاً للتزوح بفكره إلى وساوس وضجر كالتّي تشيع في المدن، فهّم في "سائر السنة ليس عندهم وقت محدود أو راحة معلومة فالعمل متواصل متهاك"⁸⁷⁹، مما قد يجعل هذا الإنسان لا يزال على فطرته السليمة، في معيشته وفي معاشرته، وفي تواصله.

⁸⁷⁵ - عدة بن تونس، على الطائر الميمون، جريدة البلاغ الجزائري، العدد 165، السنة الرابعة، الجمعة 24 ذي الحجة، 1348، الموافق لـ 23 ماي 1930.

⁸⁷⁶ - سياحة استطلاعية، مصدر سابق.

⁸⁷⁷ - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 70.

⁸⁷⁸ - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 70.

⁸⁷⁹ - المصدر نفسه، ص 71.

وتتمثل أجمل صورة في المجتمع العربي ككل، تلك التي دوّنها الرحالة (عبد الباقي الحسني) عن المجتمع الريفي (الليبي) بتفاصيل، متحدّثا عن حالتهم المعيشية، وحياتهم اليومية، خاصّة معاملاتهم المثالية مع الضيوف وعابري السبيل، وهي الخدمات التي لم يجد لها الرحالة من تفسير منطقي إلا الإعجاب أمام هذه الصورة المثالية، وهي من الصّور الإيجابية التي نوّه بها، مُبرزا خصال أبناء الريف الذين سكّتهم الطبيعة معدنا خالصا من الطيبة والإيثار، ومن ثم تغدو كلّ مكرمة منهم طبيعة لا رياء فيها ولا تصنّع. حتى إذا صادفها غريبٌ بدت له معجزة من المعجزات، وما هي في الحقيقة إلا الصفة التي امتازت بها قبيلة "أولاد علي" من أعماق صحراء ليبيا. فيهم الرجل الشّهم والمرأة الكريمة، وكأنهم خلّقوا من أجل غاية الكرم، ولا أدلّ على ذلك من حديث الرّحالة واصفا إياهم في كثير من المواقف بما يستثير عاطفة القارئ، مثل قوله في صورة المرأة منهم: "ونجد المرأة وحيدة تلاقينا بوجهه طلقٍ وصباحة وبشر ولين كلام، مرحبا بالحاج أهلا وسهلا تكررها، تفضل. وأسرع من لمح البصر توقد النار، تطبخ ما يتيسر وتجلسنا وتجلس معنا حتى يجيء زوجها فيزيد في أنسنا وبسطنا"⁸⁸⁰.

وليست هذه الصورة هي نهاية المقام، ولا هي مبلغ الغاية، فإذا كان هذا الذي ذكرنا يمثّل أروع معاني الكرم، فإن الرّحالة يضيف عن هذه المرأة قيّمًا مثالية في الإكرام والإيثار ذلك أن "المرأة تترك أولادها عرايا يرتجفون من برد الشتاء وتغطي أي زائر وهنا نهاية الإيثار، تمر عليهم في كل سنة نحو الألف يمؤنونهم ويواسونهم وحقا إني رأيت ما أبهرني وأدهشني وما جعلني أستحيله في نفسي"⁸⁸¹ وعندما نقرأ هذا الذي أورده الرحالة نستشعر وكأنّه يقرأ علينا قراءات من كتب التراث التي تعجّ بمثل هذه الحكايات التي انفردت بها بطون الكتب وليست لها علاقة بالواقع في شيء، وهو ما جعله يعترف أنّ ما تُقوم به هذه الفئة من المجتمع الليبي، شيء مستحيل ومستبعد على أن تستسيغه نفسه حتى ولو كان مجرد افتراض لا واقع، فما بالك أن يقوم به فعليا، مثلما يفعل أفراد هذه القبيلة، التي نوّه بها كثيرا، واعتبر أن هذا الفعل بعيدا على المنطق الذي يتسلّح به في مرجعيته، فيعترف لهم بالفضل بادئ ذي بدء: "فأنا أتكلم على مشاهدتي، ما شهدت آدميا يجود بغطائه وفراشه وقوت يومه غير أولاد علي. الضيف عندهم واحد من العائلة ينام صاحب البيت وزوجته وأولاده في ناحية يعلم الله سرّه وسيرته وهذا غاية النبل والشرف والكرامة"⁸⁸² ثم يعطف على هذا التنويه مُقرّا بما يفعله هؤلاء على أنه أمر غير مستساغ عند الكثير من الناس، وكأنه يقول بأنّه لا يوجد من يجرأ على

⁸⁸⁰ - نفسه، ص 53.

⁸⁸¹ - نفسه، ص 53.

⁸⁸² - معبر الفتوة، مصدر سابق، 53.

فعل شيء مما تفعله هذه القبيلة، إذ الأمر ليس متعلّقا بالطعام والشراب والكساء في حدود الإمكان، بل أن يشارك الضيف سُكْنَى المضيف في مخدعه، وهي الحادثة القاصمة التي لم يجد لها الرحالة من تفسير سوى هذا القول: "فلا تطاوعني نفسي أن يرى أحد زوجتي حتى ولو كانت هرمة دميمة فأحرى الاجتماع بها والمبيت معها في بيت واحد ولو كان من الذين نعرفهم بصلاحتهم وتقاهم عفوك اللهم يا إلهي ما أرحم هؤلاء وأبرهم وأوسعهم خلقا وأثبتهم في الخير قدما والله يختص برحمته من يشاء"⁸⁸³.

3. 2. 2. المظاهر السلبية بين الرفض الأخلاقي والإقرار بالمطابقة

يُشكّل عجز العربي عموما تفهقرا قبل أن يضيف إليه الاستعمار جرعة إضافية زادت من معاناته، ومن هذه الجرعات ترسّبت إليه كثير من مظاهر السلبية في حياته، التي تتقاسمها البلدان العربية جميعها. ومن هذا المنطلق بدت تجليات كثيرة لهذه الظاهرة التي وقف عندها الرحالة الجزائري منوها، وليس في خلده إلا تناسبا مع وضعه في بلده الأصلي وإن اختلفت طرقها وأساليبها. وكل ما في الأمر، أن الرحالة الجزائري لم يكن ناقدا للوضع بقدر ما كان يصف حال، ويقف عليها باعتبارها لوم الذات على مصير لم يستطع المجتمع المسلم أن يترفع عن هذه القضايا التي تجعل في نفسه ريبة.

ومن بين ما وقف عليه الرحالون ظواهر متعدّدة منها ظاهرة الحذق في التجارة بالطرق والحيل المشبوهة، الذي يشوبها الكثير من التضليل والبهتان لأجل استمالة الزبائن، كالتّي يذكرها الطيب المهاجي (1969 / 1981) عن المجتمع المغربي في قوله: "لهم مهارة فائقة في استمالة القلوب إلى معاملتهم، واستعطافها على الإقبال لا شراء بضائعهم يتبرع التاجر منهم باليمين وبيادر إلى الحلف قبل أن يطلب منه، ويقسم بالله جهد أيمانه أن هذه السلعة قد قامت عليه بكذا، وأن ثمنها ارتفع هذه الأيام، وأنه يسقط بعض حقه ويقول لمن يساومه بعد المشاحة أني أفضلك على غيرك وما إلى ذلك من الألفاظ الخلابة والأساليب الخداعة التي تستهوي المساوم وما تحب له المعاملة فيقع في الفخ، ولو كان من أحدق الناس وأكيسهم"⁸⁸⁴ إن هذه الشطارة التي راح الرحالة ينوّه بها، صادرة عن سلوك غير شرعي يستعمله المسلم دونما مراعاة لأدنى خشية من الله الذي يُقسِم باسمه في الترويج لسلعته، وهو يعلم أنها مجرد افتراء. وذلك يَنَمّ عن ضعف الوازع الديني،

⁸⁸³ - المصدر نفسه، 53.

⁸⁸⁴ - أنفس الذخائر وأطيب المآثر، مصدر سابق، ص 93.

وهو الذي قصده الرحالة الذي ينطلق من نزعتة الدينية بصفته فقيها وعالم دين، يتحرى الشبهات، ويقف عند حدود الشريعة.

ولم يكن النصب والاحتيال له جهة مميزة بين مشرق ومغرب، ولا يعرف في ذلك لون ولا رائحة، فقد شاع كذلك الاحتيال بـ (مصر)، وهذا ما أدلى به بعض الرحالين، عن كيفية أخرى للاحتيال، كالتى شهد بها الرحالة عبد الباقي الحسيني في رحلته التي يروي جانباً مفصلاً منها بقوله: "وفي سنة 1960م نزلت من القطار في الإسكندرية، وعملوا معي كعادتهم ثم اتفقت مع صاحب عربة يجرها حصان، وحين ناصفنا الطريق قال لي انزل وإلا زد في الثمن فهذا قدر ثمنك فاخترت النزول لأنه يمشي قليلاً ويقول لي كذلك. فأنا في حالة النزول وهو يضرب الحصان فرمتني العربة وتهشمت في وجهي وأضلعي فجاء عساكر أنهوا المسألة وصرت أطلب الخلاص ولا خلاص فإني قلت أتركوني في حالي ولكنهم ألزموني الركوب معه مع توبيخه وما هو همه إلا الفلوس، وركبت معه حياءً وزدته الفلوس ومع ذلك لم يوصلني لمقصدي"⁸⁸⁵ ومن صور الاحتيال أيضاً يضيف "وإذا ركبت في سيارة لها قانون وحساب للمسافة فإن صاحبها عوض أن يأخذ الطريق المعروفة يأخذ أطول طريق، أما الباعة المتجولون والواضعون لأي الشوارع فثم تحصل لا بد سباب وشتم وربما تسفر عن ملاكمة إما أن تشتري كما يقول سواء أعجبتكم البضاعة أو يلصق فيك بوقاحة نادرة"⁸⁸⁶

ولا تتوقف عجائب الأحداث بمصر على هذا الموقف، فقد شهد في بعض جوانبها ظواهر اجتماعية سلبية تحدت عنها الرحالة (عبد الباقي)، وهي ظاهرة السرقة المتفشية متمثلة في الغارات الليلية والنشالة، وقد خصص لها حديثاً مفصلاً، حتى أن المساجد لم تكن لتسلم من هذه الظاهرة فـ "لا فرق بين الجامع والسوق، لا تسمع من شرطي الحسين إلا كلمة مداسك أي احفظ نعلك"⁸⁸⁷ وقد استفحلت هذه الظاهرة إلى أبعد من المعقول، فلم تسلم منها حتى لحظات القرب من الله في السجود والخشوع، حسب ما يرويهِ الرحالة -نفسه-: "قامت ضجة يوماً في الحسين في الصف الأول في الصلاة قال الناس إن نشالاً يصلي أراد نشل من يحاذيه في السجود وكل القيمين في المساجد يحذرون المصلين وينبهونهم في هذا الشأن كما رأينا وكثيراً ما يندس

⁸⁸⁵ - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 76.

⁸⁸⁶ - المصدر نفسه، ص 76.

⁸⁸⁷ - المصدر نفسه، ص 75.

النشال في الأزهر الشريف بين المسافرين فإذا ناموا يأخذ ما توصل إليه ينصرف"⁸⁸⁸ وهي الصورة التي لا ينكرها أحد في المجتمع العربي الذي تدهورت أخلاقه بفعل عوامل متعددة أبرزها الضعف الحضاري وأقول الوازع الديني، وتفشي الجهل.

ومن المظاهر الأخلاقية إلى مظاهر الشرك التي لا يكاد يخلو منها مجتمع من المجتمعات الإسلامية، على الرغم من توفر كل الوسائل التي باستطاعتها أن تقف حِصنا منيعا لزيغ الناس، إلا أن ذلك لم يمنع من حدوث مظاهر الشرك مُستفحلة باسم العادة والعرف، وأصبحت فيهم العادة بمثابة العبادة، وهي الظاهرة التي قصمت ظهر الدين وأفسدت عقيدة المتدينين، فعدت من الشراكيات، ومنها تلك التظاهرة التي عرفتها مناطق مختلفة من البلاد العربية مغربا ومشرقا، وبالأخص أعظمها ذلك المهرجان الكبير الذي كان يقام سنويا بمدينة (فاس)، يحتشد فيه الجماهير من كل الطوائف وسائر الطبقات بعدما يأتون من كل حدب وصوب بأيام قبل مواعده، وقد تجلى ذلك في أعمال الرحالين الذين صادف بعضهم هذا الموعد، كالرحالة (الطيب المهاجي) حيث يقول: "ثم إنني صادفت أيام وجودي بمدينة فاس إقامة "مهرجان كبير يطلق عليه المغاربة اسم موسى مولاي إدريس"⁸⁸⁹ وفيه تحتشد جماهير مختلفة الشرائح والطبقات ويختلط فيه الحابل بالنابل نساء ورجالا، وفيه تكثر البدع وتمارس طقوس الشرك، والافتراء على الله، وهم يطوفون بالضريح متوسلين له ومتضرعين، أبرز ما يسمهم من كل هذا، تجليات الجهل المفرط، والضلال المبين، وهم غير عابئين بتلك الحالة النكداء التي تبتز من يلحظهم من ذوي العلم ومن في قلبه ذرة عقيدة صحيحة، وهو الاستنكار الذي يدلي به في قوله: "وهم يطلون ويزمرون رافعين أصواتهم بألفاظ مهملة لا يفهم لها معنى سوى قولهم يا مولاي إدريس ارض عنا وأعنا وكن دائما معنا، ثم يقولون "الشاي لله" أمولاي إدريس"⁸⁹⁰ وهي من السنن التي دأب يكرسها صنف من المجتمع المغربي، الذي غداها بتقاليد صارت من الدين وهو منها بريء، حيث تُقدّس البدع في ذلك اليوم أيما تقديس، كما يرويها المهاجي -دائما- بقوله: "ويدوم هذا المنظر المؤسف والمشهد المؤلم من الضحى إلى العاشرة صباحا أو قبلها بقليل أو بعدها كذلك ثم يساق عدد من الثيران المعدة لمثل هذا اليوم من كل سنة فتذبح قرب الضريح المقدس وتفرق لحومها على بيوتات أدارسة فاس، ولا تسأل عن ازدحام الناس على دم تلك

⁸⁸⁸ - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 75.

⁸⁸⁹ - أنفس الذخائر، مصدر سابق، ص 93.

⁸⁹⁰ - المصدر نفسه، ص 93.

الذبايح وفرثها، والسعيد عندهم هو الذي تصل يده إلى نقطة دم يتمسح بها أو وزن ذرة من فرث يدخره للبركة، ويعده للاستشفاء به"⁸⁹¹

وكل هذا الذي يصوره "المهاجي"، لم يكن ليختلف عما هو عليه في الجزائر آنذاك، حيث كانت تقام على شاكلته مهرجانات معروفة بال (الوعدة) والتي حاربها الإصلاحيون بشراسة لأنها لم تكن بريئة، فقد كان المستعمر يشجعها على ذلك ويدعمها خدمه له في تنويم الناس وإغفالهم عن واجباتهم، وتحذيرهم عن أقدم شيء وهو الالتزام الصحيح والمطالبة بحقوقهم، وقد كان الشرك فيها مستفحلا، والفساد مستشرياً، والغفلة مكتسحة، لذلك لا يمكننا اعتبار هذا الحديث الذي يتحدث عنه (المهاجي) إلا تماساً مع شبيه له بالجزائر، وهو، وإن أضمر المقارنة، فهي ثابتة في مواطن أخرى من أعماله وأقواله، وهي راسخة في التاريخ الذي لا ينكره أحد.

ومثل ما كانت عليه البلدان المغربية في هذا الشأن، لم تسلم منه البلدان الشرقية، وخصوصاً (مصر) المستسلمة لخوارق العادات التي ضربت في أعماق صنف من مجتمعه، فإذا حلّ موعد المولد النبوي الشريف، فلست ترى إلا عجبا، حسب أحد الرحالين الذي عدّها ميزة مصرية أكثر من غيرها "لعل العادة امتازت بها مصر دون غيرها وماذا في مصر من المضحكات"⁸⁹² وقد فسر (عبد الباقي الحسيني) صورة هذه المضحكات، بأن مصر امتازت في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، باستحداث حفلات موازية تقام على أضرحة الأولياء في صور مقرفة، لا تليق بمن يؤمن بالواحد الديان، ولا بسنة رسوله الكريم ﷺ "وهي أيام غاب عدّالها حيث يختلط الجنسان بأبشع صورة يزدحمون في الطرقات العامة فتقف المواصلات وتحبس الحركة وهم يتواجدون ويتمايلون ويصيحون ويقفزون بالأيدي يصفقون بالأرجل، بأيديهم السيوف والعصي والأعلام وأشياء أخرى تجدهم جماعات مرميين في الشوارع حيث تتخذ كل جماعة مقرها للنوم والأكل وغير ذلك حول ضريح الشيخ أو الشيخة داخلا وخارجا"⁸⁹³ وهي الظاهرة التي لم يقرّ بها الإسلام ولا هي من أعراف المسلمين، وإذا كان هذا الجهل من فئة في المجتمع المصري فإن ذلك نجده مركّبا في المجتمع الجزائري، كما سنستكشفه في حينه. وقد كانت هذه الظاهرة عامة في أقطار عديدة من بلاد المسلمين، بينما مصر تميّزت بشحن هذه الظاهرة، وجعلها موسماً مقدّساً، تتفرّع إلى أن تشمل بعض أعيان من الأسماء الصوفية، ويمتدّ الاحتفال من هذا إلى ذاك، ويمتزج فيها الخاص بالعام، انطلاقاً من مبدئها

⁸⁹¹ - أنفس الذخائر، مصدر سابق، ص 94.

⁸⁹² - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 73.

⁸⁹³ - المصدر نفسه، ص 73.

السليم متمثلاً في الظاهرة التي قطبها المولد النبوي، ومن ثم تنحرف في كل ناحية بمقدسات موازية تتمثل في الأولياء، فُتَخَصَّصَ لهذه الاحتفاليات أيّاماً بلياليها، كما يقول الرحالة نفسه: "ومنهم من ينصبون خياماً ويدور المولد أيّاماً وفي اليوم الآخر تفد الناس حيث يعلن عليه في الجرائد. ويكون يوماً مشهوداً وذلك يوم السابع وأشهرها مولد الحسين والرفاعي والبدوي والشافعي والسيدة زينب وغيرهم كثير، وكل قرية تقيم مولداً خاصاً به، أما مولد النبي ﷺ فذلك شيء آخر" ⁸⁹⁴

4 . صورة المكان بين الاستأناس والتطلع

4 . 1 . معالم مقدسة

لقد استطاعت كثير من المعالم أن تؤدي رسائل مختلفة في النص الرحلي شرقاً وغرباً، وتبعث القارئ إلى استكناه الكثير من دلالاتها ذات الصلة بالاسترجاع، نحو خلفية حضارية قوية بما كانت تمثل الحضارة العربية/ الإسلامية من قوة عابرة للقارات، عمرانية وفكرية وعلمية، خلّدت رسومها عبر معالم تاريخية شاهدة على مرحلة القوة، كما أنها تقف موقف المقارنة بين بيئة الرّحالة وبيئة المكان المرتحل إليه.

ومن أبرز الصور تلك التي تحكي مشهد بيت الله الحرام الذي أصبح في العصر الحديث تحفة من التحف الفنية في روعته المعمارية والجمالية-، وعلى الرغم مما يجده الرحالة من قوة وعظمة هذا المعلم المقدّس، فإن ما كان ينتابه من أسر، حالة الوجد التي تجعل بينه وبين مشهد العمارة غشاوة فيصّحى الوصف فيه مخلاً، وقد لا نجد من الرّحّالين من أبرز لنا زوايا المسجد ولا محتوياته، وإنما هي ترجمة لداعي النفس المتشوّقة لرؤية هذا المكان، فعندما يقول الغسيري: "دخلنا الحرم الشريف فأسرنا رواؤه وجماله، وسحرتنا هندسته وبيانه ثم انتهينا -بعد تحية المسجد- إلى الروضة النبوية الطاهرة ووقفنا خشعاً. أمام جدث من صلى عليه الله وملائكته وسلم، وتعلقت بحبه وبدينه أجيال من البشرية وما تزال متعلقة بهما إلى يوم القيامة، ونطقنا بها شهادة مؤكدة" ⁸⁹⁵ فالرّحالة يكتفي بوضع علامات لفظية بديلة عن الوصف، متمثلة في الأسر الذي وقع فيه، على الرغم مما في المكان من جمال وسحر هندسي، الذي يغيب تاركاً المجال لوظيفة استشعار النفس في خشوع ووجوم أمام هذا المكان الذي يمثّل القداسة الإسلامية وخلاصتها.

⁸⁹⁴ - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 73.

⁸⁹⁵ - منصور الغسيري، عدت من الشرق، مصدر سابق.

والمثال نفسه نجده عند (أحمد توفيق المدني) الذي وقف أمام قبر الرسول ﷺ فأوحى له القبر ما أوحى، وهو في تجلي ذلك الموقف من ذاك المشهد، فهو ليس ككل القبور والأضرحة للتبرك، وإنما تتجلى الأبعاد الإيمانية والسيرة العطرة فيه، وقد أحسن المدني تعبيراً حين صنّف صاحبه ﷺ مع الأحياء "ورأينا الرسول إلى جانب صاحبيه، رأيناه حياً في جلاله ووقاره وهيبته، ولقد والله خلنا أنه يكلمنا بحديث جل عن الألفاظ والكلمات ونأى عن الصوت"⁸⁹⁶ وهذا تمييزاً له عن سائر الأموات، لأنه لا يزال الأمر الناهي بنصوص القرآن وحديثه المتواتر الصحيح، ولا زال مؤدّباً بسيرته العطرة. وقد جعل (المدني) من المشهد جواً إيمانياً عندما يقول: "كنا في روعة الإيمان وجلال التقوى، وفي موقف العظة والذكرى، نسمع كلاماً من نور، تعيد قلوب قد اطمأنت بالإيمان، فازداد الذين آمنوا إيماناً، وابتهلنا إلى الله ودموعنا قد تساقطت فوق الخدود، سائلين النصر لمجاهديننا، والفوز لأمتنا، والسمو والفلاح لكل المسلمين"⁸⁹⁷ فمن الأدباء من يرسم بالكلمات ويعبر بريشة البيان، والمدني من هؤلاء، فقد ينقل لقارئه المشهد نقلاً بعيداً عن الصورة الجامدة إلى الصورة الموحية، المثقلة بالدلالات، والقارئ يبحث معه عن صورة من فعل الخيال الشعري بفعل "عبقرية المتحدث الذي يعرف كيف يجعل اللغة تتراجع بهدوء أمام الأحداث، تاركة للمخيلة الملقية فسحة التقاط الظلال التي تؤثث المشهد بالمعاني، والأحاسيس، والمشاعر"⁸⁹⁸ وهي من الآليات التي تتمتع عناصرها إذا وصل بالكاتب إلى شرحها شرحاً مفصلاً، فيقيدها بسلطان الفكرة الأحادية، بينما هي آلية من آليات التأويل التي تتعدد فيها الرؤى وتباين فيها التأويلات، فيصبح بذلك القارئ مكوّناً لنص جديد، وهي ذروة الفعل الفني في النصوص الأدبية.

4 . 2. الصروح العلمية/ بين التأثر (الاستجابة) والنقد

صورة معالم تونس واحدة من أهم المعالم التي دفعت الرحالين إلى تبني هذه الصورة، التي تحيل إلى بقية باقية من حياة المجد لدى أمة العرب في صورة منابر العلم التي كانت من داخلها تزخر بالتدفق العلمي، مثلما يصرح الرحالة (محمد خير الدين) الذي أراد أن يرسل رسائل تنعطف على الصورة المحمولة سلفاً في مخياله ليجعلها مجالاً للمقارنة: "ثم دخلت الجامع فهالني ما رأيت من فروق واضحة بين الحياة العلمية في هذا المسجد العامر والحياة العلمية في مدينة قسنطينة، فقد شاهدت عشرات الحلقات العلمية يقوم بإلقاء الدروس فيها أساتذة أجلاء استبدلوا بالصحائف

896- حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص414.

897- المصدر نفسه.

898 - حبيب مونسني، شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص 05.

والكتب حافظة واعية وذاكرة قوية ينهمر العلم من أفواههم كالسيل الدافق⁸⁹⁹ وإذا كان حال الجامع من الداخل فصورته من الخارج لها بريقها، وكان جامع الزيتونة يمثل جمالية مدينة تونس، ويكسيها من طابعها الحضاري، الذي كان للسياح والزائرين مرصدا، ولم تكن لتونس أن تبلغ ما بلغته من استقطاب سياحي، حيث يطغى عليها نفحة الماضي العريق ونفحة الروح الحديثة، يعبر عن ذلك الغسيري في نص رحلته: "إن أول ما يلفت نظر السائح في القطر التونسي الشقيق هذا الطابع العربي الذي انطبعت به كل مظاهر الحياة والتمدن. ولعل الفضل في ذلك يرجع إلى مجد تونس الحقيقي جامع الزيتونة عمّره الله، فهو الذي حفظ لهذه الأمة كيانها، وتراثها الإسلامي الماجد.⁹⁰⁰ ولم تكن صورة هذه المعالم إلا فضاء منبعثا من طاقة الرحالة المستجمعة في ضيقها الذاتي المحصور في زوايا العلم والدين، وهي مرجعية تفكيره وإسقاطاته، في الغالب، فأينما كان القصد وتمثل دافع الرحلة صبّ انطباعه، في اتجاه أفقي.

ويمثل هذا الجانب الرحّالون الذين كان انكبابهم على الانطباعات حول فضاءات معينة، فجاءت تستلهم طاقتها من ذات الصنف، ومثلما كان في مشرقها كان في مغربها، حيث يضعنا (صالح غزال) في هذا الفضاء الذي يصرّح فيه عن مسجد القرويين وموقعه متوسطا مدينة فاس: "فهناك في وسط المدينة، وفي قلبها، يقوم زينة الجوامع الفاسية وتاجها اللماع، جامع القرويين، بمئذنته السامقة، كالطود الأشمّ والعلم الشامخ المتطاوّل بشموخه وعظّمته، فيكسو المدينة جلالا وجمالا، ويجعل لها طابعا خاصا ممتازا، هو طابع العظمة والشرف التاريخي الخالد"⁹⁰¹ والوصف في حدّ ذاته يزيد من قوة الرحلة ويضفي عليها طابعا مميّزا يبعثها من عالم التجريد إلى فضاء الإيحاء بعيدا عن المبالغة، بل بما تجده النفس من تجسيد لحلم الرؤية ما دام أن المعالم الخالدة تسكن في النفس وتخلد في الفكر قبل أن تُرى بالعين.

والجزائري في هذه المرحلة الحرجة من تاريخه، يرى الأشياء من زاوية الجموح عن الكبت إذ ليس له في بلده ما يمكن أن يقابل به من مشاهد لهذه المعالم، فكان عزأؤه الوحيد هو التنويه بالصروح العلمية التي كانت تسليّه عن إلحاح الحاجة وضيق سبل الوسيلة، لابتغاء الغايات المرجوة، فيجعل من هذه المعالم إجازة للتعبير عن الأنا، فتمتزج الذات الآملة في الذي لم يتحقق إلى بديل متواجد في رحلة الاستئناس مثلما يعبر الإبراهيمي في قوله عن جامعة فؤاد مستخدما عناصر الإبهار: "فأشهد مخلصا

⁸⁹⁹ - مذكرات خيرالدين، مصدر سابق، ج 1، ص 76.

⁹⁰⁰ - محمد منصور الغسيري، في تونس الخضراء، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثانية، العدد 121، الاثني 20 جمادى الثانية 1368 الموافق 18 أفريل 1949.

⁹⁰¹ - صالح غزال، في مدينة فاس، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثانية، العدد 121، الاثني 12 شعبان 1369 الموافق 29 ماي 1950.

أنني خرجت مرفوع الرأس تيهها، مملوء النفس فخرا، مفعم الجوانح إعجابا بهذه الجامعة التي هي مفخرة الشرق وحجته على الغرب، وأشهد مخلصا لقد أحسست بعد الخروج كأن وجودي تضاعف مليون مرة بوجود هذه الجامعة ومعدرة لمن يتهمني بالمبالغة⁹⁰² والمشهد مفعم بجلال اللفظ وحسن البيان، إلا أن الصورة الحقيقية لهذا المشهد بقيت معتمّة أو بقيت في نفس الكاتب وفي كيانه وخياله دون أن يبسط ذلك وصفيًا لتعريف القارئ بعناصر المشهد الذي رآه وتأثر به، فيكون بذلك الكاتب قد لجأ إلى فعل "التخون" في تجاوز المشهد لتعبيره⁹⁰³ ولعل هذه الخصوصية تشكل تجاوزا من الإبراهيمي في الاسترسال في تفاصيل المشهد، وهو مبدع نادر، قادر على تحقيق ذلك بامتياز، إلا أن مهمته كانت لشأن الأدب فيها مجال ثانوي.

أما الغسيري وفي المناسبة نفسها عبّر عن جامعة "فؤاد" وكان معجبا بها أشدّ الإعجاب فجعل يبالح في وصفها على أنها تضارع أكبر الجامعات في العالم "هذه جامعة "فؤاد" أو جامعة القاهرة بالجيزة تضارع أكبر الجامعات في العالم وتترزي بجامعات العالم بهذا الموقع الذي تحتله، وهذه الحدائق التي تتخلل كلياتها وكأنها عرائس وسط المروج، وكأنها زهرات وسط باقة تفنن في تنسيقها أبرع الفنانين.⁹⁰⁴ وهذه ربما مغامرة منه وتخيّر لدولة عربية شقيقة، كما "كان ذلك الإعجاب طبيعيا أن يصدر عن كاتب مكبوت الحرية، مهضوم الحق، مهدور الكرامة، في أرض سيطر عليها الاستعمار الفرنسي، وكاد فيها للعربية والإسلام كيدا عظيما، وعات في مقدساتها عينا شديدا.. وكان كل ذلك لونا من الحلم البعيد في الجزائر يومئذ"⁹⁰⁵ فكانت هذه المشاهد وكان هذا التعايش بمثابة سلوى، وأملا في مستقبل الجزائر.

ثم حطّت بنفسه السكينة لما تم له مشهد المعاهد الدينية، والتماسه فيها روح الإسلام حينها استبشر خيرا بعودة هذه الروح كي تسري في الأمة وتجدد الأمل في حياتها الإسلامية.. "وهذه المعاهد الدينية التابعة للجامعة الأزهرية تجدد بكلياتها وعلومها بما يبشر بإعادة روحانية الإسلام إلى العالم الإسلامي الطامئ إليها منذ زمن بعيد"⁹⁰⁶ كما زاده مشهد المكتبات ودور الطبع والنشر اطمئنانا للبعث الإسلامي من جديد "وهذه دور الطباعة والنشر والمكتبات العلمية منبثة في كل

⁹⁰² - رحلتي إلى الأقطار الإسلامية، مصدر سابق، العدد 197، السنة الخامسة، السلسلة الثانية، الاثنان 6 ذي القعدة 1371 الموافق ليوم 28 جويلية 1952.

⁹⁰³ - حبيب مونسى، النص وفاعلية التذوق الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، السنة الثانية والثلاثون، العدد 383، نيسان 2003 صفر-

1424

⁹⁰⁴ - منصور الغسيري، عدت من الشرق، مصدر سابق.

⁹⁰⁵ - فنون النثر الأدبي في الجزائر، مرجع سابق، ص 297/298.

⁹⁰⁶ - منصور الغسيري، عدت من الشرق، مصدر سابق.

ناحية تفصح عن حيوية اللغة العربية والثقافة الإسلامية بما يدع لمتخصص أن يقول بعد، عن العرب بأنهم لا يُبعثون، وعن الإسلام بأنه لن تعود أيامه الزهر يوم كان يبنى⁹⁰⁷ ونستشف من هذا العرض أن الغسيري بما استشعر من حيوية في الجانب الثقافي، فهو باعث على الأمل والرجاء في تعميم هذا الفعل في كامل الأقطار الإسلامية بما في ذلك المستعمرة منها، وقد يتعدى هذا الأمر إلى بلوغ الإسلام بكامل عناصره الحضارية، إلى الذروة وتحيين مجده التليد.

أما جامع الأزهر، فكان بمثابة الخيبة بالنسبة لكل الرحالين الجزائريين الذين لم يرق لهم ما شاهدوه، حيث لم تتطابق شهرته بواقعه، فهو عند (إسماعيل مامي) فاقدًا لروحه وعرضة للنقد "فالأزهر الذي له الفضل على العالم والذي سمعته تغني عن التعريف به والذي ستقرؤون نبذة من تاريخ إنشائه أصبح ويا للأسف من التفريط والتهاون بشؤونه محط رجال أهل النقد من الجميع"⁹⁰⁸ ومما صرح به الرحالة ينسب عن خيبة أمله من الأزهر الذي ظلّ منارة علمية وإشعاعا معرفيا على مسيرة قرون من الزمن، حتى أضحى إلى عصره خال من قيمته الحقيقية، مما جعله يكشف عن تصحيح لفكرته التي كانت جاهزة عن الأزهر الخالد، في حين أن الواقع شهد العكس ما جعله يتراجع عن رأيه فيه بقوله: "فأنا أحد المعترفين بفضل الأزهر كنت في الماضي أود من إخواني أهل السعة أن يبعثوا بأولادهم للأزهر لتلقى العلوم به وكنت أحرّض على ذلك واليوم وقد شاهدته عيانا واختبرت أحواله، عدلت عن ذلك الفكر وأرى في الكلية الزيتونية ما يغني عن الأزهر ويفيد لا من حيث نظام التعليم فقط ولكن من حيث راحة الطلبة وحوزتهم"⁹⁰⁹ ثم إن الجواب عن سرّ تدهور الأزهر يجيب عنه الرحالة -ذاته- متقصيا بذلك في أحاديثه مع نخبة من المجتمع المصري، الذي يجيب فيه أن السبب هو منح الأفضلية للجامعات العصرية، وهو الأمر الذي لم يعجب الرحالة حينما أدرك ذلك: "ومن هنا عرفت أن القوم يعتبرون دار العلوم ولا يهمهم الأزهر صلح أم فسد"⁹¹⁰ ونحن ندرك اليوم هذا التخطيط الذي لم يبق فيه للأزهر دوره الجوهري في الحياة العربية عامة والمصرية على وجه خاص.

4 . 3 . صورة المدينة؛ الجمالية والافتخار

⁹⁰⁷ - المصدر نفسه.

⁹⁰⁸ - سياحة استطلاعية، مصدر سابق.

⁹⁰⁹ - المصدر نفسه.

⁹¹⁰ - المصدر نفسه.

جمعت المدينة العربية بين التراث والمعاصرة، فبدت صورتها أكثر أناقة بفعل هذا التنوع، ولقد طغي الامتياز لمعالم الحضارة الغربية التي أصبحت تواكب روح العصر في تفاصيلها المختلفة، ومنه بدت المدينة العربية لا تختلف عن المدينة الغربية إلا في خصوصيات ميّزتها بعض المعالم والأشكال التي صمدت في وجه العوادي. والحديث عن المدن العربية في مدونة الرحالين الجزائريين هو حديث عن المدن العريقة أو التي نفخ فيها الاستعمار من روحه فأخذت عواصم ومدنا ذات استقطاب سياحي، مما جعلها عرضة لحديث الرحالين.

وقد تمثلت صورة المدينة العربية في الرحلة الجزائرية الحديثة ببديع شكلها، كما قد نجد تأثير الرحالين ناجم من عامل الانتماء، فكان الانجذاب معلّلاً بروح الاندفاع الذي أملاه مرجع الأخوة في الإطار العام، وما يمليه توجه كل رحّالة في إطاره الخاص.

وتعدّ (القاهرة) من أهم المدن التي أعجب بها الرّحّالون فألهمهم جمالها وأثنوا عليها كثيراً، وقد عبّر عن هذا الجمال الذي ميّز القاهرة (منصور الغسيري)، الذي ما فتئ يذكر حسننها من خلال مظهر عام يمتلك عناصر جذابة تملأ العين بهاءً، وتثير في النفس روعة، ولعل ذلك يتمثل في نهرها وجسورها، وفنادقها، وحدائقها "هذا الجمال الذي حباها الله به من مرور النيل المبارك وسطها، وإقامة هذه الجسور الجميلة فوقه رابطة أحياء المدينة ببعضها وإنشاء المنشآت والفنادق والملاهي والدور الأنيقة ذات الحدائق الغناء على ضفاف النهر الزاهي الساحر بروائه ولطفه".⁹¹¹ إن العناصر المشكّلة لجمال مدينة القاهرة في هذا المقطع لا تشكّل جمالية باعتبارها ألفاظاً جاقّة إذ إن المتلقي لا تكتمل عنده الصورة للمشهد، إلا عندما تتغذى هذه العناصر بعناصر أخرى إبلاغية، والمتلقي حينها يتلصّص على تشكيل صورة تامة لمشهد جميل. ومن هنا نجد أن الغسيري قد استطاع من خلال جُمْل وجيزة وعبارات لطيفة أن يجعل من مشهد خاص لزاوية من مدينة القاهرة، ذات أبعاد جمالية حيث كان في مستوى من القدرة الفنية لأن يوجز في تعبيره زخماً نابضاً من معاني الحسن والجمال الطبيعي لهذا المشهد المثير الذي تزهو به الطبيعة الجميلة في ذلك المكان، فنهر النيل معطى إلهي ورمز تاريخي، والجسور المقامة فوقه إبداع فريد، فهو شكل هندسي فيه من جمال الإبداع كما فيه من الجمال الوظيفي المتمثل في الربط بين طرفي المدينة وأحيائها، كما زحرت الصورة بالمنشآت، وفي ذلك يضع الكاتب لمسات لفظية توحى بالجمال، (الجمال، المبارك، الأنيقة، الزاهي الساحر بروائه ولطفه..). فتأتي الصورة مكتملة.

⁹¹¹ - عدت من الشرق، مصدر سابق.

لقد كان الغسيري منجذبا نحو مصر ومُدُنْها وإنسانها، بدا له أن ينتصر لها في كل شيء، ولا يفوت فرصة الثناء عن المدن المصرية، التي استحسناها وطبيعتها، ولا يفاضل عليها حتى مدن أوروبية، ويبدو هذا من الذاتية التي طبعت الرحالة الذي يميل لانتمائه في إطار النسق المخفي المتمثل في عقدة الاستعمار الأوروبي، وفي ذلك يدعى أن مدن مصر لا تختلف عن مدن أوروبا في قوله: "وليست مدينة الإسكندرية ومدن الخط الرابط بينهما وبين القاهرة بأقل جمال من المدن الأوروبية الحديثة، وليست مدن المصانع الكبرى المنبثة في أنحاء مصر أقل عظمة واقتدار على الإنتاج، لاسيما في الأقمشة، من أهم مدن الصناعة في أوروبا والشرق"⁹¹² كما قد نجد هذه الذاتية عند الغسيري نفسه حين يفاضل المدينة العربية (بيروت)، فيعطيها الأفضلية الجمالية، على مدينة (مرسيليا) الفرنسية، لأنها -حسبه- تمتاز بسحر لا يتوفر في المدينة الأوروبية، وهو سحر الشرق، مثلما يقول: "فهي مدينة تشبه مرسيليا بفرنسا ولكنها تفوقها بهذا الجمال الشرقي البديع وهذه اليقظة المنتشرة في أوساطها، وهذا النشاط البارز في تجارتها"⁹¹³

أما الرحالة (محمد علي دبور) فيستمد فخره بجمال مدن وقرى مصر، من خلال تأثره بعلمها المميز (مصطفى صادق الرافعي) الذي تجملت كل الأمكنة بفعله في الرحالة الذي تتبّع الأمكنة الموصلة لمدينته "طنطا". وتعد طنطا من المدن الجميلة التي جعلت منها تخومها الريفية حللا سندسية، وقد زارها علي دبور خصيصا لرؤية ومعايشة هذه البيئة التي احتضنت (الرافعي) صاحب (وحي القلم)، "طنطا!! كان لهذه المدينة عندي جمال الصدفه وجلالها لاشتمالها على الدرّة الكريمة! وكنت أراها بين المدن المصرية كلها كالزهرة بين الأوراق هي وحدها تشتمل على الثمرة وتنفرد بالجمال والأريج! إنها المدينة التي قضى فيها مصطفى صادق الرافعي حياته أنجب أدبه الرفيع، وهي التي تضم رفاقه وتشتمل على أسرته"⁹¹⁴ إن مشاهد (دبور) ترى الجمالية في الأمكنة بخلفية الأثر الذي سار عليه الرافعي أو الذي كان عاملا من عوامل تكوينه النفسي والأدبي، في نماء فكره وصقل قريحته، وبما أن الرافعي ولد بطنطا وترعرع فيها، فقد سعى دبور إلى إيجاد مسوغات للحكم على جمالية البيئة التي ألهمته، وبالطبع تحدّث عن جمال مدينة طنطا فكانت كالتالي: "كانت مدينة تحتوي على جمال المدن وسحر الريف، وكانت في مقدارها وموقعها الخصيب "كالبليدة" عندنا، ووسط المدينة شبيه بالقاهرة القديمة في البنيان وهندسة البيوت، أما ضواحيها فبارعة الجمال بالحدائق

⁹¹² - المصدر نفسه.

⁹¹³ - المصدر نفسه، العدد 24 / 276 شوال 1373 الموافق 25 جوان 1954.

⁹¹⁴ - محمد علي دبور، وقفة في دار الرافعي وقبره، لعدد 334، سلسلة الثانية، 6 صفر 1375 هـ الموافق لـ 23 سبتمبر 1955.

الحالية بالزهور والياسمين وبالمزارع الواسعة التي تكتنف المدينة من كل النواحي، وشوارعها فسيحة نظيفة ليس فيها زحام القاهرة وضجيجها. إنها أحسن ما يؤثر الأديب خلية له ينتج فيها فنه وتلهمه روائعه.⁹¹⁵ فمن خلال هذا المقطع يتجلى لنا ما كشف به عن مدينة طنطا بأنها مدينة نظيفة، وبأنها تحتوي على جمال المدن، وهو من الوصف العام، أما ضواحيها فهي مطوّقة بسحر الطبيعة الخضراء بمزارعها وحدائقها، بالإضافة إلى زينة شوارعها ونظافتها مع تمتّعها بالشساعة. لقد أراد دبور أن يلمّح إلى عناصر ومكونات الإبداع في حياة الأديب، ومنه جمع جماليات المشهد ليس من اللحظة الآنية وإنما من تراكم الجو الطبيعي لهذه المدينة فكان مشهدها عبارة عن خلاصة جمع فيها بين المنظر الخارجي والمناظر الداخلية في بعض جزئياتهما.

ومن المدن المقدسة (المدينة المنورة) التي تجلت للرحالة الغسيري في أجمل صورة، شاهدة على سرّ قدسي، فهي المدينة الرمزية التي حوت الرسول ﷺ وبها أسس أعظم دولة عدل في تاريخ البشرية، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت "منورة"، فبات هذا النور طاغيا لا تمحيه عوامل الدهر مهما تكلفت، ومن نور روحها استمدت جمال طبيعتها التي يصفها رحالتنا في مشهد متحرك بدءاً بلحظة الظهور إلى لحظة الاكتمال، وكأن لسان حاله يحاكي مطلع البدر الذي حل بها في هجرته الخالدة "وما هي إلا هنيهة حتى تراءت أمامنا غيطان نخل باسق سحر ألبابنا بخصوصه اللامع وقدوده القويمة وعراجينه الزاهية، ثم بدت المدينة وسط الغيطان كأنها أقحوانية بين عرائس المروج، ثم راعنا منظرها العام وهي جاثمة في سهل فسيح لا يحده إلا جبل أحد ومن ورائه بعيدا خيبر"⁹¹⁶ فالمدينة مزدانة بطوق من غيطان النخل، باسق ساحر الألباب بما يحتويه من عناصر الزينة والمتاع، وقد استقبلتهم بهذا الشكل، حتى إذا قربت بهم المسافة، فتحت لهم ذراعيها، إذ بمنظرها العام يتجلى منبسطا جاثما، يتوقف امتداده عند جبل أحد العظيم، مع ذكر خيبر التي يتوارى منظرها، لكنه يتجلى في ذاته المحملة بالمآثر الإسلامية في مرجعيته التاريخية.

ومن مدن المشرق التي عاها رحالو الجزائر في هذه الفترة (دمشق) و(لبنان) اللتان خصّهما الغسيري (أيضا) بالذكر والإطناب في جماله، إلا أننا لم نسجّل مشهدها من جلال ما رصدته عيناه، إلا ما كان من المدينة الواقعة بين هذين البلدين، وهي مدينة "زحلة" التي كانت أوربية المشهد فقد طغت على الكاتب الرومنسية في إيجاد الصيغة الشعرية المناسبة لوصف المدينة، التي لبث يسترق السمع والبصر خاضعا خاشعا أما منظرها الطبيعي الذي تحقّق في تضاريسها الجميلة الموحية والتي زادتها

⁹¹⁵ - وقفة في دار الرافي وقبره، مصدر سابق.

916- عدت من الشرق، مصدر سابق.

طبيعة الجو روعة على روعتها "غادرنا دمشق إلى بيروت ومررنا بربوع تشبه بلادنا، ووصلنا سهل البقاع، فرحبت بنا مدينة زحلة رافلة في حللها بين الخمائل ملامهيا ومغانهيا، ورأينا المدينة جائمة في سفح جبل صنين صامدة للطبيعة تغالبها الشتاء كأى مدينة أوروبية حديثة، وراعنا جمالها فذكرنا قصيدة شوقي : يا جارة الوادي .."⁹¹⁷ ولو أن الغسيري كان مقلًا في التعبير مقلًا في الاختصار إلا أنه لا يعدم من رسم صورة رومانسية موحية، تكشف عن روح أديب مرهف الحس، ذي ذوق عال، وهو يرقب حسن هذا المكان وجاذبيته بعين فاحصة وقلب حساس وخيال شاعر، كأن يديه آلة تصوير تحتزن في عدستها أجزاء هذا الجمال وتعكسه في ذاكرة الكاتب ووجدانه، ليخرجه بعد حين في صورة متألفة تأتلف فيها أجزاء المنظر وتناسق فيها الأبعاد والمظاهر، لتعبّر عن حيوية هذا الجمال الذي حبا الله به الطبيعة في هذه البقعة.. إذ لا يفتأ يذكر نظيرها لها في بلده الجزائر التي تمتاز بالصور الطبيعية نفسها، فتكون مرجعا له "بين الحد المرئي والحد المرجعي عن طريق المقارنة بين مرئيات العين وبين تداعيات الذاكرة، ويصبح المشهد، آنذاك، مشهدا مركبا من جزئيات الصورة المشكلة من حضور المرجع المرئي، إلى الحد الذي يصبح فيه المرجع مقياسا للمقارنة بين الصورتين"⁹¹⁸ وفي الحقيقة يعدّ هذا الأمر طبيعيا، إذ أن الإنسان - والمثقف خصوصا- لا يستغني عن ثقافته ومكوناته، بل هو كتلة من تراكمات ثقافية، واحتواءات ومكتسبات من بيئة خاصة، لا يفتأ يوظفها في كل حياته عبر المناسبات والمقامات.

ومن بين المدن التي احتفت بالزيارات السياحية في الوطن المغربي، والتي استهوت الزائرين الجزائريين، مدينة فاس ومراكش باعتبارهما مدينتين تتميزان بطابعهما العمراني الذي يحيل مباشرة إلى الحضارة المغربية الإسلامية العريقة، ويؤثّم فيهما عقب التاريخ. ففاس ليست بالمدينة الجميلة (مدنيا) حسب بعض الرحالين وإنما تكتسي جمالياتها من تراثها وآثارها، نستشف ذلك في قول صالح غزال: "فاس ليست بالمدينة الجميلة الفاتنة، باعتبار أبنيتها وتخطيط شوارعها، لكنها جميلة فاتنة أخاذا باعتبار آخر، هو ما يوجد فيها من الآثار والمعالم التاريخية الخطيرة التي خلفها أجدادنا هناك، كما خلفوا في الجهات الأخرى يوم أن دالت دولتهم، وأفل نجم سعادتهم، وضربهم الدهر ضربته المعروفة"⁹¹⁹ وقد كان قصد الجزائريين السياحي إلى المغرب انطلاقا من إيمانهم بوحدة

917- المصدر نفسه.

918- عبد الرحيم المودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص220.

919- صالح غزال، في مدينة فاس، مصدر سابق.

الوطن الذي تشدّ روابطه تلك المعالم والعوالم المشتركة، فقد أبان عن ذلك الاشتراك في نسبة أجداد المغاربة إلى أجداد الرحالين الجزائريين، وهو أصل الالتقاء.

وبما أن فاس تمثل قطب الالتقاء بين الأحبة، وميدان السعادة، ومغناطيس القلوب، فقد تمكّن حبّها من جذب قلوب الرحالة حتى صار فراقها عسيرا، ذلك ما نجده في قول الرحالة إسماعيل مامي: "لم تسمح أنفسنا بمفارقة فاس كلما حاولنا مغادرتها لما كنا أسلفنا من بهجتها وطلاوة منظرها الطبيعي الجميل ودماثة أخلاق سكانها على اختلاف طبقاتهم بقطع النظر عن ميزاتنا دون البلاد المغربية"⁹²⁰ وهو الرحالة ذاته الذي يكشف في سر غريب، هذا الارتباط الروحي بينه وبين فاس، والتي لا نجد لها من تفسير سوى البحث فيما يختبئ في صدره من مكونات وأسرار، وهو في بداية الأمر يحاول بأقصى ما استطاع، الوصول إلى فاس لحضور صلاة العيد دون غيرها من المدن والجوامع المنتشرة عبر مساره، نجده يقول: "ودعنا التراب الجزائري زوالا بتلمسان ووطننا التراب المراكشي قبيل العصر فنزلنا بوجدة وهي المحطة الأخيرة لشركة (اللام) الحديدية وبعد أن مررنا بالديوانة دخلنا البلدة وحيث كان أملنا الأسرع إلى فاس لحضور خطبة العيد لم نقصد فيها أحدا سوى اشتغالنا بلوازم السفر -ورغما عن وجود قطار حديدي بين وجدة وفاس فإنه أثقل من بغلة جحا التي تسير على مرادها".⁹²¹ ولعل هذه الرغبة مقصودة للحصول على التمتع بما تتميز به فاس من علماء بإمكانهم أن يُضنفوا على العيد جوّه الإيمان الغاص بترايم روحية، قد لا توجد في بيئة الرحالة، وقد لا تتكرر في أغلب الأماكن، فلم يرد أن يفوت هذه الفرصة.

وإذ نختم مشاهد المدن العربية بمدينة (فاس) التي زارها (توفيق المدني) كما زارها حمزة بوكوشة من قبل، إن المدني لم يكن يزور مدنا لأجل الزيارة السياحية (الأدبية)، ولو فعل ذلك لربما أغرق هذا الفن بجمال الوصف، وجمال الأسلوب، فهذه الزيارة التي قادته إلى مدينة فاس، كانت لمآرب سياسية محضة، إلا أنه وجد مساحة ولو صغيرة أبرز من خلالها، لطيفة من اللطائف المشهدة لجزئيات من هذه المدينة التاريخية، فقد وصفها بالمدينة الرهيبة والفيحاء، وتأمل من خلال بصمات التاريخ ذكريات الماضي، كما أنّها محميّة بالأصالة، فأعطاهما من حقّها وصفا يليق بما فتمثل كالعقد في جيد التاريخ والأدب "ثم سرت إلى فاس العظيمة الرهيبة الفيحاء. فاس التي شيدت جدرانها من ذكريات الماضي المجيد، وتعطر جوها بعبير المدينة الساطعة والعلم الغزير، والفن الأصيل، وقامت دعائمها على

⁹²⁰ - إسماعيل مامي، جولة نائبنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، جريدة النجاح، السنة الرابعة، العدد 156، الإثنين 21 رمضان 1342. الموافق لـ 25 أبريل 1924

..

921- جولة نائبنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق.

أسس الخلق الفاضل والأريحية الدافقة والعز الوطيد⁹²² ومن فرط مبالغة المدني الأدبية جعلت من فاس المدينة الفاضلة.

5 . الموروث وفعل الشاقف

5. 1. التخلف والوعي السلبي اتجاه الموروث.

من الأمور التي ابتليت بها الأمة العربية والإسلامية، عدم اهتمامها بموروثها الثقافي والحضاري إذ لم تستطع أن تؤمن مواقعه، ولا تعني بمعامله وتوفر له ما يلزم من الترويج الثقافي، وهو الذي يمثل ثروة البلد وعمقها الحضاري وبعدها الإنساني، ومن جهلنا -هذا- بالموروث، الذي سببه تقهقر الذات وانحزامها حضارياً، اقتضت انطباعات الرّحالة (صالح غزال) أن يجعل من حديثه عن رحلته المغربية منصّبة حول قيمة التراث، وعزوف الخلف عن الاحتفاظ بتركة السلف الحضارية، وفي هذا الإطار تحدّث الرحالة باسمه (الذاتي) إذ تعني له المصيبة مشتركة، فجعلها ذاتية صريحة لخصها بضمير الأنا الذي يمثل التطابق في كل شيء، يقول: "بعيني رأيت جماعة من السواح الأوروبيين يغشون إحدى مدارس سكنى الطلبة العتيقة بفاس، وهي مدرسة العطارين التي تقع بجوار جامع القرويين، وعلى وجوههم آثار الاهتمام والشوق إلى الاطلاع، لائحة. أما نحن فقد نجد الواحد منا نفسه حيال أثر من آثار بلاده التاريخية، وقد يكون ذلك الأثر مما يستحق ان يوقف عنده طويلاً وقفة استبصار واستعبار، ولكنه لا يأبه له ولا يكثرث به، وربما تجاوز هذا إلى غيره، فرأى فيه شيئاً بالياً عتيقاً، لا يصلح لأن يشير فيه نوازع الاهتمام والملاحظة والتأمل"⁹²³ إن مثل هذه الأمور الجلييلة التي يعتبرها العربي المسلم شيئاً زائداً لا قيمة لها، يعبر عن مستوى ثقافي متردّي مادي لا يهّمه فيه إلا النفع المادي، أما ذلك المستوى الحضاري القائم على أبعاد الأمة ومستوياتها بين الأمم، فهو بمثابة شيء شكلي لا قيمة ولا معنى له، ومنه يفتح باب الانسلاخ عن هويتنا وعن موروثنا الذي لا يقدر معناه إلا من أوتي حظاً من الفطنة وباعاً من صدق المشاعر نحو تاريخه وتراثه المادي الذي يمثل أنفوس الأشياء التي لا تقدر بثمن، وهي من السلبات التي ابتليت بها الأمة الإسلامية، لما افتقدت الإحساس وقبرت مشاعرها، ولم تصبح تؤمن إلا بالنفعي الآني، وهو الذي ذهب إليه الرّحالة في تأسفه عن هذه الحال وتبريرها بقوله: "وهذا جانب من جوانب الضعف الموجودة في حياتنا، لا أريد أن أتحدث عنه في هذا المقام، وإنما حسبي أن أقرر هنا في إيجاز واختصار، أن هذا الداء لم ينشأ

922 - الرحلة العربية الكبرى، حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص416.

923 - صالح غزال، في مدينة فاس، مصدر سابق.

فينا إلا يوم أن ولعنا بمدينة الغرب الآلية هذا الولع، وكلفنا بها هذا الكلف، ونسينا أو نسي المغرورون منا أن لآبائنا وأجدادنا أثرا وأي أثر في هذه الحضارة التي نعجب بها ونسرف في الإعجاب بها"⁹²⁴ ففي هذا التصريح البين الذي يمليه ضمير الرّحالة، لا ينم عن وصف رحلي إلا من خلال سياقه المبني على عصب السفر، بينما حديثه يتقهقر في ضميره المعني كجزء من تلك الأمة التي غفلت عن ماضيها، وانصرفت تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ولعلّ الخطاب ورسالته موجهة من خلال هذا المظهر السلبي وليس عليه في ذاته، لأنه منساق تحت وطأة جرح قديم، مُثّل في شقاء كل الأمة الإسلامية وليس المغرب وحده، وهو بلاء عام، ومنه لم يرد الرّحالة من الحديث عن تجريد هذا الفعل للمغربي وحده، فتحدّث بصيغة الأنا، لأن ذلك يمثل الأنا العام.

5. 2. الثقافة الصوفي

يعد التصوف ظاهرة متميزة، شهدتها قرون متتالية وأمصار مختلفة ودول متعاقبة، وبقي التصوف يسري في شبكة من العروق لا تعرف للجغرافية حدود، ولا للإنسان نسب ولا لون سوى الانتماء للطريقة والأخذ بملازمة الشيوخ، والاحتفالات الموسمية التي تقام هنا وهناك.. ولعل من الأمور البالغة في الحياة الصوفية هو ما تبديه الروابط المتينة بين المريدين، والروح السارية في خبايا الكرامات والطقوس، جعل كل هذا وغيره، يميز أهل الطرق الصوفية عن باقي الطوائف والشرايح الأخرى من المجتمع، فلا غرو إذن، أن يكون التواصل بين الطرق الصوفية في شتى الأصقاع والأمصار أمرا طبيعيا ميسورا، بل مُلحًا. فقد لا نجد هذا الارتباط والتواصل أكثر مما هو عليه عند رجال التصوف.

لقد شهد المغرب العربي وبالخصوص المغرب والجزائر، طرق صوفية وزوايا كثيرة انتشرت في البلاد الواحدة ومدّت عروقها نحو بلدان إفريقية وحتى بعض البلدان الغربية، ولما كان هذان البلدان يمثلان مركزيّ وقطب الطرق، فقد تم التواصل وحدث التفاعل بين هؤلاء الرجال الذين يمثلون التصوف في كلا البلدين. ومن جملة هذا التواصل أنه كان فريق من المغرب يزور الجزائر باستمرار. وليس أدلّ على ذلك من رحلات أحمد سكيريج المتكررة إلى وهران ومستغانم والجزائر العاصمة وغيرها من المدن، كما هو الحال بالنسبة لعبد الحي الكتاني والفقير محمد الحجوي وغيرهم من الأعلام. وفي المقابل كان شيوخ الطرق الصوفية في الجزائر ومريديهم يكرّرون الزيارات إلى المغرب وبالخصوص مدينة فاس، حيث الميعاد

⁹²⁴ - صالح غزال، في مدينة فاس، مصدر سابق.

الروحي الذي كان يقوم على تخوم ضريح سيدي إدريس، هذا المعلم الذي يستقطب من الزوار المحسوبين على الصوفية وغير الصوفية من مختلف البقاع، وغيره من أضرحة الأولياء.

إن ما يميز التواصل الصوفي بين الجزائر والمغرب ممثلاً في رحلات الجزائريين، تشهد على النظرة الصوفية التي ترى بعين الرضى على كافة بلاد المغرب من خلال استشعار المكان والفضاء المحيط به. ففي لحظة النشوة يُطلق حكماً عاماً على أهل المغرب، بالنقاوة والصفاء وجمال السريرة الإيمانية، نجد ذلك في قول عدة بن تونس: "ولا زال محافظاً، والحق يقال، محافظة تسر الناظرين، على تعشقه للذكر، وتمسك بالشكر، حتى قلّ أن تجد مغربياً لا يميل بطبيعة حاله إلى ما رسمه له أجداده الأكرمون، من الطهارة، وحب الخير، إلى كافة المؤمنين فضلاً عن أبناء جلدته المهتمدين"⁹²⁵، ويفسر هذا القول أن الدائرة الصوفية مغلقة بحدود التعاملات والنشاطات بين العارفين والمريدين، والوظيفة التواصلية تحدث عبر معجم متميز يصبغ به خطابه العام، وبهذه الخصوصية في الخطاب، نستطيع أن نحدد مجالات التواصل من خلال هذا المعجم الذي ينزاح في كثير من الأحيان إلى عالم خاص يتمثل في القصد من حيث المكان الذي لا يخرج عن المسجد والزاوية وأضرحة الأولياء، والأشخاص الذين تتم إليهم الزيارة، وهم شيوخ الطرق ومقدمي الزوايا، والشخصيات من الأولياء والصالحين. إن هذا هو المجال الذي يسبح فيه أتباع الطرق الصوفية كخطاب، وكمجال للسفر والتحوّل.

إننا بذلك نجد مبدأ التواصل الصوفي خطاباً مباشراً، وقصداً محدداً، وهو ما تؤكده معظم النصوص، كقول عدة بن تونس (دائماً): "وقد اجتمعنا ببعض إخواننا منهم، فوجدناهم على غاية شريفة. من جهة إحساسهم نحو التعلق بالطريقة الصوفية، وقد تعلق البعض منهم بالطريقة العلوية الكريمة، على نية تصفية الباطن، وتحقيق مذهب التصوف الذي شاع وذاع ذكره في المشرقين والمغربيين، ولم يحققه إلا القليل من الناس"⁹²⁶ ولعل في ذلك ما يوحي إلى أن الطرق الصوفية في المغرب خارت قواها، ولم تعد تؤدي الدور المنوط بها في هذه الفترة الزمنية، لذلك تحيل هذه الزيارات إلى التكاثر وإحياء الروح الصوفية بين جميع الأقطاب، فقد أصبح المغرب كما يقول الرحالة نفسه بأنه: "لم يعدم حظه من المشايخ الطرقيين، والأتباع الذاكرين، إلا أنه في فترة من جهة ما يبعث المذهب من أصله، بنحو أخلاقه ومعارفه، ولا أستثني منه في هذه القضية إلا القليل من

⁹²⁵ - عدة بن تونس، المغرب الأقصى، مصدر سابق.

⁹²⁶ - المصدر نفسه.

القليل"⁹²⁷ وإذا كان فعل التثاقف يقوم على الأخذ والعطاء، فإن عملية التواصل بين صوفية المغرب وصوفية الجزائر، مثمر من تلقيح الذوات لتوحيد الصفوف، والحفاظ على مستوى موحد في الطائفة الواحدة، فلا يطغى طرف على طرف، في حدود المرجعية التي تعود للجنح الذي يضم إليه "الولي" صاحب الطريقة ومقدمها، فإنه يحظى بالتقديس، مما يجعل بؤرة الأخذ هي التي تتمتع بشرف هذا المرجع.

ولعل علو كعب الشيخ أحمد بن مصطفى العلوي (1874/1934) في مجال التصوف، واحترام الناس له جلب له الاعتبار من كبراء القوم كما كان له مع زملاء الطريقة وأهل التصوف وعامة الناس، حيث استُدعي من طرف الهيئات العليا في المغرب حين "أرسل له مولانا الشريف الأصيل العلامة الجليل كبير مكناس ونقيها سيدي الكبير بن زيد أن العلوي رسوله السيد محمد السلاوي الذي كان يكتب سابقا في الشهاب يستدعيه لمقره"⁹²⁸ وهو ما دعا الشيخ للتنقل إلى مكناس استجابة لصاحب الدعوة، كما يبينه هذا المقطع من النص: "تعرض له الشريف المذكور وأنزله عنده وجمع عليه أعيان مكناس الزيتون وعلماءها وأفاضلها فأقام عنده يومين، ومنها استدعاه جلاله وزير الأملاك سالفا المحب الأصيل السيد الحاج عمر التازي بعاصمة المغرب (الرباط) فشدّ سيدنا الأستاذ الرحيل لإتمام سياحته فنزل ساحة الوزير المذكور وفرح به وهشّ وبشّ وما قصر واستدعاه أيضا العلامة الشريف سيدي محمد المهدي الكتاني بالرباط وبلغنا الآن له بشغور (سلا) عند الفقيه العلامة الفاضل الأجل الوجيه النزيه الأمثل باشا سلا وقائدها سيدي محمد الصبيحي فقد أكرم مثواه وفرح بلقاه فجزاه الله أحسن الجزاء وسيصعد إلى الدار البيضاء ومنها للجديدة وبعدها لمراكش حيث أن استدعآت القائد السيد الحاج التهامي القلاوي"⁹²⁹ وكل ذلك كان يتم في لقاءات صوفية حميمة متوجة بتاج السياسيين الذين كانوا من ذوي الانتماءات الصوفية، حيث كانت تعقد جلسات للذكر والمآدب والتبرك.

كما لا تخلو زيارة العلوي إلى المغرب من دعوته إلى عامة الناس حتى يُصبحوا من الفقراء (المريدين)، أتباع الطريقة، وهو ما أكدته استجابة العديد من الراغبين في الانتماء إلى هذه الطريقة عبر شيخها وزعيمها، هذا ما أقره هذا المقطع حيث يقول مقرر الرحلة: "وقد توارد عباد الله زرافات ووحदानا للتبرك بالأستاذ في اليوم الثاني أي يوم السبت ودخل في الطريق نحو الثمانين نفرا

⁹²⁷ - عدة بن تونس، المغرب الأقصى، مصدر سابق.

⁹²⁸ - محمد بن البشير الجريدي، سياحة الأستاذ أحمد ابن عليوة، جريدة البلاغ الجزائري، السنة الثمانية، الجمعة 6 جويلية 1927م الموافق لـ 17 محرم 1347هـ.

⁹²⁹ - سياحة الأستاذ أحمد ابن عليوة، مصدر سابق.

ومنهم المدرس والباشا وبعض المتوظفين ونحو العشرة من خاصة التجار الفاسيين⁹³⁰ وقد أكدت رحلة العلوي على بعدها في احتضان المغاربة، عكس الرحلات الأخرى التي يكون فيها الرحالة -الشخصية- هو الباحث عن اكتشاف الأشياء من خلال زيارته، ما يثبت أن شخصية العلوي في رحلته هي التي أثرت في المكان المزار، وقد أدى تأثيره في الناس إلى حد تحويلهم من الحياة العادية إلى مريدين صوفيين كما سلف الذكر، وقد حققت له هذه الرحلة استقطابَ عددٍ كبير من المريدين، يتهافتون على رؤيته والتبرك به وبدعائه لهم، نستخلص ذلك من هذا المقطع: "وصارت الناس تتوارد عليه أفواجا أفواجا ويردون من عرفانه فرادى وأزواجا طالبين منه صلاح الدعاء خاضعين لديه والناس أمامه كأن على رؤوسهم الطير وهو يعاملهم بلطف وإحسان مع بشاشة خاصة وأخلاق محمدية وأحوال مرضية وتواضع من الزائرين حضرته وهو يقرع الأسماع بجواهر لفظه وزاجر وعظه وما زاده ذلك إلا رفعة في أعين الناس وابتهاجا"⁹³¹...

وفي إطار الثاقف الصوفي، تعد الأضرحة سمة خاصة من سمات هذا الجانب، فهي من جهة تمثل استكمال مراسيم لطقوس الصوفية، التي تعلي من شأن الأضرحة لأنها تحتوي في جوفها رجلا من رجال الله ووليًا من أوليائه الصالحين، الذي يعدّ التبرك به واحدا من المسلمات، بل من واجبات أتباع الصوفية الذين يَرَوْنَ في الولي رجلا خَدم الدين ولا تزال في المعتقد الصوفي بركته سارية المفعول. ومن الشخصيات الهامة في المغرب والتي لها تأثير كبير كموروث ديني وثقافي، "سيدي ادريس" الذي يعدّ ضريحه قطب العالم التي تُجبر الزائر لمدينة فاس بأن يؤدي واجب الزيارة له، سواء كانت الشخصية الزائرة صوفية أو غير صوفية. وإذا كانت زيارة عوام الناس لهذا الضريح، فهو لدى الصوفية من باب أولى. بل تعدّ قداسة لا يمكن التفريط فيها. وتواجد "العلوي" كصاحب طريقة، بفاس لا بد أن تكّلل بشرف الزيارة لهذا المقام، يقول راوي الرحلة: "ومن الأضرحة العامرة التي توقفنا لزيارتها (ضريح) سيدي مولانا "إدريس الفاتح الأكبر" الذي فتح الأوطان بسيفه، والقلوب بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان خير مثال لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا"⁹³² وقد أثنى الراوي -بشير الجريدي- على صاحب الضريح وتحدّث عن بعض خصاله ومقاوماته ودعوته، كما أكّد على شهادته التي توثق على عدد الزائرين للضريح، في أسلوب يشي بكثير من الخصوصية حيث يقول: "وقد زرنا ضريحه فوجدنا عليه نورا، والناس من حوله شبه النحل حول شهدده، تلتقطه شرابا مختلفة ألوانه فيه شفاء للناس.

⁹³⁰ - سياحة الأستاذ أحمد ابن عليوة، مصدر سابق.

⁹³¹ - المصدر نفسه.

⁹³² - عدة بن تونس، المغرب الأقصى، مصدر سابق.

وقد أخذتني السكينة والوقار عند مشاهدته وأنا أتلو عليه شيئا من كتاب الله، فقلت والقلب ممتلئ عبرة وشعورا بتاريخه المجيد:⁹³³

أيا مرشدا فزت بفتح ونصرة

وكنت ولا فخر، من أعظم الآيات

لئن ظنك قوم بأنك ميت

فأنت عندي حي، وفي كل الأوقات

وفي الإطار نفسه نجد في حديث عدة بن تونس عن صاحب الضريح قولا يفيد بأنه مرجع أخلاق وسعادة لكل مغربي، مما جعل زيارته لضريحه فخرا، وشعورا بالفضل، ومما قاله: "وأظنه أنه لا إشكال عند كل منصف، من أن كل حياة يتمتع بها أي مغربي كان، إنما هي بفضل ذلك المرشد الجليل الذي بعثه الله إلى المغرب الأقصى والناس في ظلمات من الجهل والوحشية، فنفي جهلهم، وأسكن وحشيتهم، حتى أصبح المسلم، لا يظلمه ولا يحقره، ولا يخذله، ولا يكذبه وتأثيرا كذلك التأثير، لجدير بأن يذكر لصاحبه مع أعمال الأنبياء والمرسلين ولا زالت، الممكنة لله، بركاته ترى على عثرته، وضريحه الأنور، والحمد لله الذي لم يحرمنا من زيارته، ولا من الشعور بفضلته، ومن لم يشعر بمثل ما شعرنا به، فإننا نقول له: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾"⁹³⁴.

وتحقق الذات الصوفية على عكس كل زيارة لهذا الضريح، طربا روحيا تزكو به النفس، وتسمو متعرجة إلى فضاءات لا يسعها رحب الأرض. ولعل الصوفي لا يرى ممّا يراه الآخرون، ويقف على حقائق تخالف ما يتوصل إليه العامة من الناس. وحديث الصوفي يقف وراء رؤى ذاتية من خلال مظاهر معينة، لا يمثل له واقعها إلا شعاعا يتملق إلى الحقائق الدفينة في النفس حيث تسري الحقائق فوق طبيعية، وهو العالم الصوفي الذي يستشعره المریدون، ويتميزون به عن غيرهم من أفراد المجتمع، خصوصا إذا ما تعلق بمجالاتهم، ومنها الأضرحة التي تحتل مراتب القداسة في حياتهم، فكيف يرى الصوفي فضاء ذلك المقام؟ يجيبنا عن ذلك (بن تونس) بقوله: "وقد زرنا ضريحه فوجدنا عليه نورا، والناس من حوله شبه النحل حول شهدده، تلتقطه شرابا مختلفة ألوانه فيه شفاء للناس. وقد أخذتني السكينة والوقار عند مشاهدته، وأنا أتلو عليه شيئا من كتاب الله، فقلت والقلب ممتلئ عبرة وشعورا بتاريخه المجيد"⁹³⁵.

⁹³³ - عدة بن تونس، المغرب الأقصى، مصدر سابق.

⁹³⁴ - المصدر نفسه.

⁹³⁵ - المصدر نفسه.

6. صورة الحاكم؛ فضاء السياسة والاحتواء

ظَلَّت الرحلة الجزائرية الحديثة ملازمة لظل الاستعمار مما استوجب اضطراب الرحالين الجزائريين في أحيان كثيرة مواكبة ظروف هذه المرحلة، فتمتعت الرحلة بدوافع وأغراض نحو البلاد العربية تارة للتنفس من وباء طاعون هذا الاستعمار بحثا عن الحرية التي تسمح بمتابعة تعميم التعليم، واكتشاف الإنسان لحيته المسلوقة وممارسة حياته الطبيعية من شعائر دينية واجتماعية، ثم من جانب آخر أتاحت الرحلة لبعض السياسيين والمشاركين في شؤونها أن يقتربوا من مواقع القرار العربي داخل حصونهم، ومن ثم تقف على مواقف هذه الشخصيات الهامة بالإضافة إلى تحصيلهم على معارف ومعلومات تشعبت إلى مواضيع مختلفة أقرتها النصوص، ومن أهم هذه المواضيع التي تعدّ صورا فصيحة وموثقة لعصر تقف شاهدة عليه.

6. 1. صورة الحاكم العربي بين المدح والذم

سوف نجد أن الاتصال بالحاكم العربي يبدأ في الرحلة الجزائرية من نقطة حرب التحرير، وذلك يبرّر للمرحلة أن الجزائر اتّخذت شوطا كبيرا نحو الخروج من نفق الاحتلال، لأن مجابهة الحاكم مباشرة إيدان بتسارع الأحداث وبلوغها درجة قصوى من الطوارئ. وتمتلك الرحلة الجزائرية نصوصا في هذا الباب تكشف عن صور صادقة فيما يخصّ بعض الحكام العرب، الذين قصدهم الرّحّالون الجزائريون في هذه المرحلة (أثناء الثورة التحريرية) التي كان فيها الاحتياج إلى مساندة ومؤازرة بالدعم المادي والمعنوي عند أهم صنّاع القرار العربي. وقد تباينت صور القادة العرب في ذلك ما بين إيجابية وسلبية، التقطتها أعين الرّحّالين وتجاوبت مع أحداثها، ونقلت أهم ما شغل اهتمامهم وأثار انطباعهم.

6. 1. 1. الصورة الإيجابية

من أهم الصور الإيجابية التي تعاطتها النصوص الرحلية، تلك التي صنعها رموز الدول العربية وملوكها، على أنها كانت متعاونة ومؤيدة للثورة الجزائرية، أو التي كانت إيجابية في ذاتها بتواضعها وعدلها وإيمانها، ولعل أهم رحّال استطاع أن يجلب لنا كثيرا من الصور (أحمد توفيق المدني) الذي كانت جولاته من أجل نقل انشغال الثورة الجزائرية وجمع المال والسلاح من الإخوة العرب. وما من حاكم إلا واستجاب لهذا النداء، وساعد الجزائر كلّ حسب مقدوره، فأعطت صورة تضامنية أخوية إلى أبعد حدّ، وكان الدعم مُطلقا، سواء بالمال أو بالإمداد بالسلاح. ولم تكن هذه الصورة وحدها -فقط- هي التي

ميّزت هؤلاء القادة، بل إضافة إلى ذلك صوّرت لنا خصوصيات ذاتية عن هذه الشخصيات، وما ميّزها من قوة شخصية ورباطة جأش، وسلوك وأخلاق، أعطى للصورة أبعاداً مضاعفة حفظت لهم شهادة حسنة وانطباع جميل.

وكثيراً ما كانت تتفق الصورتان الجميلتان في شخص واحد، فتكون الشخصية مؤمنة وكريمة، ذات أخلاق وتواضع، يضاف إليها تعاطفها مع الجزائر ومساندتها معنوياً ومساعدتها مادياً والوقوف معها قلباً وقلبا، وقد كان هذا الشأن متمثلاً في أغلب الحكام العرب الذين روى عنهم الرّجالون حين اللجوء إليهم فأخذوا عنهم صكوك طلباتهم وصكوك انطباعات عنهم، وتختلف في ذلك شخصيات الحكّام وفق عامل الانفراد الذاتي والخصوصية النفسية والشخصية لكل منهم.

إن أبلغ صورة فيما يقدّمه الرّجالون هي تلك التي كان يتصف بها ملك ليبيا (السنوسي) الذي صوّره (أحمد توفيق المدني) خلال رحلته التي قادته إلى ليبيا من أجل الدعم للثورة الجزائرية، على أنه رجل مؤمن قويّ الإيمان، متواضع إلى أبعد حدّ، بسيط حتى كأنه واحد من الناس وليس ملكاً من الملوك، تؤكد على ذلك هذه الشهادة: "أدخلنا غرفة لا تتجاوز مساحتها 4x3 متراً، وكان الملك بلباسه العربي وشاشيته التونسية ذات الزر الغليظ، يجلس جانبا فوق أريكة متواضعة سوقية وأمامه منضدة صغيرة وحوله عدد من الكراسي جلست على واحد منها تجاهه"⁹³⁶ فلو نزعنا صفة الملك عن هذا الرجل لما تخيلناه أنه من هذه الشريحة ولا هو من صنفهم، إذ يكفي في ذلك جانب التواضع، أن يستقبل زواره، وضيوفه، في غرفة ضيّقة الحجم بأثاث رثّ، وهي الخاصة التي خرج بها عن النسق البروتوكولي الذي لا نجد مثله أبداً.

وعلى الرغم من هذا التواضع والمسكنة التي كانت بادية على هذه الشخصية من خلال الصورة قدّمها الرحالة فإن الرجل لم تكن هذه الأوصاف إلا وجهها واحداً من عملته، أما الوجه الآخر فقد برزت فيه صورة الحاكم الحازم الذي يتّصف بالقوة ورباطة الجأش، ندرك ذلك في هذا المقطع: "وتكلم الملك مرحباً، كان صوته رقيقاً جداً، كانت عباراته بسيطة سهلة، لكننا كنا ونحن نستمع إلى كلماته نلمح من خلال حديثه ذكاء وقادا وإيمانا صادقا، وعزيمة جهادية متينة العود"⁹³⁷ إن (المدني) يحقّق في جملة من العبارات الموضّحة لصورة الملك البسيطة التي تدل على أنه ليس ممّن يقيم للدنيا وزناً، ذلك لأن الملك كان زاهداً. وبعد هذا الوصف الخارجي ينتقل إلى وصف الملك ذاتياً، فيتحقّق أنه يمتاز بصوت رقيق، وعباراته سهلة، وهذا من سمات الشخصية المتواضعة التقيّة، وقوة الملك

⁹³⁶ - مقابلة مع الملك إدريس، حياة كفاف ج3، مصدر سابق، ص164.

⁹³⁷ - حياة كفاف ج3، مصدر سابق، ص164.

وهيئة ليست في الجانب الشكلي أو البروتوكولي، بينما نجد في تواضعه وفي قوته الذاتية ذات التركيب الأصيل، والشموخ العزيز الذي يجعله ينفذ إلى قلب محدثه، وقدوة لاقتياد رعيته.

وعلى نمط سمات الملك السالف، يحدثنا المدني عن أمير (الكويت) الذي شقّ طريق التواضع إلى درجة الزهد المطلق شكلا ومضمونا، يظهر ذلك من خلال ما يردده الرحالة عن حاله وعن محيطه، "تشرنا بمقابلة سمو الأمير عبد الله السالم الصباح في بيت متواضع تداعى للخراب، وقد استمتعت نفسي بما وجدته مكتوبا على باب ما كانوا يدعونه قصرا: لو دامت لغيرك ما وصلت إليك!"⁹³⁸ فنجد المدني هنا يتحفظ من ذكر القصر، لعدم تطابقه مع مقامه، حيث لم يكن الأمير دنيوياً يهتم بديكوره وتأثيره، ولم يعتبر نفسه من ذوي الجاه والصولجان، وكل ما كان يمت إلى الملك وقصره بصلة، إلا وامتاز بالبساطة وخلوّه من التكلّف، في حين كانت شخصيته قوية ومتينة العود: "وكان الأمير الجالس إلى مكتب متواضع في غرفة بسيطة كثير الوعي واضح الذكاء، واسع الإطلاع، بادي الهمّة. يتحدث فيمتع. صوته هادئ وكلامه رصين. وهو راوية للشعر العربي الفحل، يتمثل في كلامه بأبيات منه، كأنما هو قائلها، لشدة انطباقها على الواقع"⁹³⁹ أما بخصوص موقفه من الجزائر وثورتها فقد أبدى تعاوناً مطلقاً ومساعدة بلا حدّ ولا شكورا، حتى وصفه المدني بالجزائري: "ثم خلونا بالأمير فكان جزائرياً في حديثه مثلنا. قال: كنا معكم قلباً، ثم صرنا معكم قلباً ومالاً، ومهما اتسعت أموالنا زدنا في إعانة الجزائر لا نتقيد بميزانية ولا نحدد الممدد بعد"⁹⁴⁰.

ومن جملة الملوك الذين اتصل بهم المدني في رحلاته، الملك (حسين) عاهل المملكة الأردنية الهاشمية، فقد أورد عنه صورة رائعة رسّخت في خلد الرحالة، الذي رأى فيه رجلاً فحلاً، لم يتوان في اتخاذه زمام المبادرة في مساعدة الجزائر والوقوف معها في مظلوميتها، وهو ما فرض على الرحّالة الاعتراف بمثالية شخصيته عند قوله: "وجدت نفسي، وجهاً لوجه، أمام شاب مهذب، محب لطيف، كان واسع الإطلاع إلى درجة مذهلة، كان يذوب رقة، ويلتهب حماساً، كان يتكلم عن قضية الجزائر كأنه من مواليد الجزائر، لا تخفى عليه منها خافية، كان يحدثنا عن الأعياب السياسية الفرنسية"⁹⁴¹ ولقد تعاطف الملك (حسين) مع الجزائر وقضيتها، وكان يسعى لإرضاء الجزائريين بأية وسيلة، ونظراً لضعف حيلته فيما يخصّ المساعدات لعجز خزينة المملكة، فقد استطاع

⁹³⁸ - حياة كفاح ج3، مصدر سابق، ص 358.

⁹³⁹ - المصدر نفسه.

⁹⁴⁰ - المصدر نفسه، ص 426.

⁹⁴¹ - نفسه، ص 360.

بحكمته أن يجعل من نفسه مناصرا متضامنا مع الجزائر ويعبر عن صدق نواياه في مقولة تحسب له، يرويها على لسانه المدني: "أما نحن أهل المملكة الضعيفة عددا وعدة، فليس لدينا إلا لقمة عيش، نحن مستعدون لاقتسامها معكم، هذا هو جهد المقل"⁹⁴² وهذا الذي جعل المدني يعود بغنيمة قوية من الأردن تمثلت في موقف الملك الشاب. ورأس مال هذه الغنيمة هو تصحيح نظرتة تجاه المملكة ومملكها، وأن سنة الحياة تقتضي ألا تزر وازرة وزر أخرى، وقد جبّ الحسين في مملكته عن جدّه، مصداقا لقول الرحالة: "وخرجنا ونحن معجبون بذلك الشاب الممتلي حيوية، ومعرفة. وإيمانا، وتذكرت المثل الجزائري القيم: من الشوكة تخرج الوردة، مهما كانت تلك الوردة"⁹⁴³ وهذا الموقف يقوّض الصورة النمطية التي تكوّنت في مخيال بعض الرحالين الذين لا تزال عندهم صورة الملك الأردني ترتبط بالفعل الاستعماري، الذي جرّأ بعض الأراضي العربية ليمنح بها استقلالية بعض الدول، انطلاقا من مشروع تجزيء الجزأ، حيث كانت مملكة الأردن لا ترقى إلى مصاف الدول المعترية من الناحية الاقتصادية ولا السياسية أيام (الملك عبد الله الأول) وهي الصورة التي رسمها الرحالة (عبد الباقي الحسيني) في قوله: "تربع عبد الله ملكا على هذه المملكة الصحراوية من الشرق الجبلية إلى الغرب التي لا تعيش إلا من صدقات الأمم لولا ألقاب الملك التي يجازف بها الانجليز للعرب وأطماع هؤلاء:

ألقاب مملكة في غير كالمهر يحكي انتفاخا صولة الأسد⁹⁴⁴

موضعها

وإذا كان المدني يبسط يده على مشاهد نبيلة وجميلة على الملوك، ها هو لا يستثنى الرؤساء ولا يتعد عن جمهورياتهم، فقد زار الرئيس المصري "جمال عبد الناصر" في بيته، مع رفيقيه (فرحات عباس وكريم بلقاسم) ولعل ما أثاره في المشهد الذي قال فيه: "كانت تلك أول مرة أرى فيها عبد الناصر في بيته، كان بسيطا جدا. في بيت متواضع جدا: لا رياش، ولا أبهة، لا تأنق في لباس ولا في أثاث. وجدنا عنده الأخ فتحي الأديب الذي بقي ساكتا طول مدة ساعتين، وشعرنا لأول وهلة، أي شعر الأخوان عباس وكريم بلقاسم. وكنت أعرف ذلك وآمن به قبلهما، أننا نجلس إلى رجل ثائر بآتم معنى الكلمة، لطيف إلى أقصى درجات اللطف، مطلع على جزئية وكلية مما يجري في بلاده وفي بقية بلاد العالم."⁹⁴⁵ ومن عادة المدني أن يترك الصفة العامة لموصوفه تتدرج عبر السياق،

⁹⁴² - نفسه، ص 360.

⁹⁴³ - حياة كفاح ج3، مصدر سابق، ص 360.

⁹⁴⁴ - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 60.

⁹⁴⁵ - حياة كفاح ج3، مصدر سابق، ص 434.

لتكون في الأخير فكرة عامة عن هذا الموصوف، كما كان مع الملوك الذين سبق فيهم الحديث، إذ نخلص أن صفة هذا الرئيس المصري هي صفة العظمة، وقد تطابق جمال المشهد مع جمال التعبير الذي لم يغلق النص بكلمة وإنما، ترك المجال للقارئ أن يدرك سمات خصوصية هذا الرجل الذي كان ملهم شعبه، بل تجاوز حدود مصر لتعمّ معظم البلاد العربية. كسب ذلك بتواضعه وبساطته، وبساطة محيطه أيضاً، لم يكن في حياته تكلف، ولا هو من أصحاب المظاهر، وكل ملامحه تدل على الثورة، فقد كان ثائراً، ثم إنه وديع مسالم، إذ يصفه المدني بأنه " لطيف إلى أقصى درجات اللطف " ومحنك في السياسة، وصاحب قضية.

وتتكرّر هذه المواقف وصور التضامن في كل من المملكة العربية السعودية ومصر والعراق. وعلى الرغم من أن ظروف كثير من هذه الدول لم تكن لاثقة لسبب ضعفها المادي، أو تنازعها السياسي، إلا أن ذلك لم يقف حائلاً بينها وبين التضامن مع الشعب الجزائري، مثلما هو الحال بالنسبة للعراق التي ابتليت بفتن وصراعات داخلية ومع ذلك فإن حاكمها (عبد الكريم قاسم) كان حريصاً كل الحرص على توفير للجزائر ما تحتاجه لسد حاجاتها وتمتين عودها في مواجهة طغيان المحتل، فجاءت استجابة حاكم العراق سريعة ومواقفه شريفة، مثلما بيّنه (المدني) على لسانه: "قال عبد الكريم قاسم: كفاح الجزائر أمر أساسي في كفاح العرب العام. ولن تنجح العرب أصلاً في مستقبل أيامهم، ما لم تنفّر الجزائر باستقلالها. كلنا للجزائر. أما السلاح فسنعطيهم سريعاً ما لدينا. ومن أجود الأنواع. أما المال فهو الآن قليل بين أيدينا، لكننا لا نبخل عليكم بشيء، وسنتحمل فوق ما نستطيع"⁹⁴⁶ وبخصوص المال فقد جادت العراق على الجزائر بنخوة على الرغم من فراغ خزينتها، حتى أن الأمر بلغ بالرئيس أن أنّب ووبّخ وزيره للمالية في سبيل أن يقدم للجزائر المال الضروري حتى وإن تعطلت مشاريع العراق، ذلك حينما تساءل عن الكيفية التي يمكن منح الجزائر مالا والخزينة خاوية على عروشها؟ "فأجابه قاسم، بلهجة شديدة وقال: سواء أكان لدينا المال أو لم يكن عندنا منه شيء، فواجبنا إمداد الجزائر حالاً. آخر دفع مرتبات الموظفين. آخر إنجازات المشروعات التي لديك. آخر كل شيء؟ إلا الجزائر، يجب أن تغاث حالاً"⁹⁴⁷ وقد تعهد "قاسم" بأن "يدفع ثلاثة مليارات، سنويًا ما دام الكفاح الجزائري مستمراً إلى أن يتم الاستقلال"⁹⁴⁸ وأمر وزيره بالدفع دون تأخير ولا تأخر، وبحرص شديد، والمعبر عنه بلهجة قوية، مما جعل أوامره تنقذ بحذافيرها، وقد تحققت تلك الوعود

⁹⁴⁶ - حياة كفاح ج3، مصدر سابق، ص 420.

⁹⁴⁷ - المصدر نفسه، ص 421.

⁹⁴⁸ - نفسه، ص 421.

على أرض الواقع، "وهكذا كان والله. فمنذ تلك الساعة. إلى يوم استقلال الجزائر، لم يتأخر قسط عن مواعده المحدد، فحيا الله همة العراق. وحيا الله شعب العراق، ورحم الله عبد الكريم قاسم رغم سياسته الهوجاء المنكرة في العراق"⁹⁴⁹ ويبدو أن هذه الصورة معبرة بقوة عن التضامن العربي الذي عرفته الثورة الجزائرية، ومواقف زعمائه الذين ناصروها بالمال والسلاح، والكثير منه كان على حساب شعوبهم.

أما صورة ملك المغرب (محمد الخامس) فقد تجلّت بمنظار العزة لدى الرّحّالين الجزائريين الذين أثبتوا علاقة الملك المتميّزة مع الجزائر، ذلك ما جعل المدني يخصص مجالا للحديث عن المغرب خلال حضوره احتفالية عودة الملك من المنفى والتي تضامن معه فيها الشعب الجزائري كله، وقد أطرها تحت عنوان "ولسوف يعطيك ربك فترضى".

وللملك (محمد الخامس) مواقف كثيرة تجاه الجزائر وأبنائها، تحدّثنا عن ذلك مصادر تاريخ تلك المرحلة، بينما تكفيننا -هنا- شهادة الرحالين التي تعبّر بصدق عن مشاعر حية، وواقع معيش، في فصاحة الاعتراف، ومنه هذا الإدلاء الذي جاء به الرحالة (عبد الرحمان كريمي) لينقل لنا صورة عن تضامن الملك مع الجزائر، في صورة قلّمّا تحدث من قبل هذه الشخصيات، وهي إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على بساطة الملك وتواضعه، واهتمامه الكبير بعوز الجزائريين، ومتابعة قضاياهم، ذلك ما نستشقه من خلال ما قدّمه لنا الرحالة وهو طالب آنذاك بجامعة القرويين "فاس" حينها كان الملك يتفقد الطلبة الجزائريين بنفسه، ويستمتع لانشغالاتهم، ويستجيب لطلباتهم، كما يقول الرحالة: "لا بد من الإشارة من كلمة عن جلاله الملك محمد الخامس، رحمه الله.. كان يأتي باستمرار إلى قصره الشتوي بمدينة فاس الجديدة، وفي أثناء وجوده بفاس، كان يأتي "القرويين" ويطوف على الأقسام ويقف عند رؤوس الطلبة ويحاورهم ويسمع انشغالاتهم وقد أسمعناه انشغالنا المتعلق بتاريخ وجغرافيا الجزائر"⁹⁵⁰ وقد استجاب الملك في الحين ملبيا طلبهم، وأمر بتكليف إدارة الجامعة بوضع برنامج حول تاريخ الجزائر، "فأمر رحمه الله في الحال إدارة الجامعة بتلبية رغبتنا في تعلم شيء عن بلدنا.. وبالفعل بدأنا نتلقى دروسا في تاريخ وجغرافية الجزائر"⁹⁵¹ وقد كان الملك (محمد الخامس) لا يخفي شيئا عن حبه وتعاطفه لهذه الزمرة من الجزائريين، مملوءا بالإنسانية تجاهها، وهذا ما يشهد به الرحالة بقوله: "كان طول مدة وقوفه عند رؤوسنا، نحن الطلبة الجزائريين، ملحوظا ولم

⁹⁴⁹ - نفسه، ص 421-422.

⁹⁵⁰ - عبد الرحمان كريمي، ومنهم من ينتظر -مذكرات النقيب سي مراد- تحرير ج. حنيفي، دار الأمة، 2010، ص 23.

⁹⁵¹ - ومنهم من ينتظر، مصدر سابق، ص 18.

يكن عطفه علينا خافيا"⁹⁵² وإذا كان هذا الدعم العاطفي من ملك البلاد نفسه، فلا يمكن أن نتصوّر العكس لدى رعيته.

وموازاة مع حديثنا عن موقف الرحالين من الملوك والحكام، ينقل لنا (منصور الغسيري) خبراته عن صورة الأسرة الملكية الحاكمة بالمملكة العربية السعودية التي تجلّت فيها ضوابط الخلق الديني المتمثل في تواضع أفرادها بداية من الملك (سعود) الذي بدا واحدا من الناس وهو يمثل أمام ضيوفه في صورة متواضعة، ليس فيها ما يميّزه عن باقي الضيوف الذين كان أكثرهم من الناس العاديين، من خلالها يسجل لنا الرحالة المذكور اهتمامه الذي تكشف عنه قيمة المأدبة المعتبرة، وتمثّل مبدأ السواسية في هذا المقطع: "وعرفنا ديمقراطية لم يحلم بها ديموقراط، ومساواة لم تحلم بها الثورة الفرنسية أو لم تطبقها يوما على الأقل، فما كان سعود وإخوانه إلا كأفراد من المؤمنين العاديين الذين جاءوا من سائر أنحاء العالم ليمثلوا فوق ثرى مهبط الوحي أسمى صورة للمؤمن بالله وبالرسل واليوم الآخر، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بتقوى الله والإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، والناس من آدم وآدم من تراب"⁹⁵³ وليس في الصورة المقدّمة من إيجاءات عن تواضع الملك وإخوانه ما دام أن الأمر مرتبط بحضور مأدبة، التي ليس فيها موقف أو شيء يميز فيه هذه الخصوصية، إلا أن الغسيري، يتميز بنزعة الدينية، التي يرى الأمور من وجدانه المتشبع بالأخلاق الدينية التي بدت له في المجلس، فقدّم مقطوعا عن تواضع لا يقدم الوجه الحقيقي لادّعائه، إلا في سياقه العام الذي تتجلّى فيه صورة الأخلاق التي ميّزت هذه الأسرة، ولا يمكننا استنباط حكم الرّحالة وندّعي أنها صورة واضحة وقابلة للحكم إلا إذا أضفنا إليها قرائن تؤسّس لذلك، منها قوله: "هكذا كان الأمير سعود في كل مرة نجتمع .. مسلما كاملا في أخلاقه وعربيا صادقا في عروبوته، ومصالحا اجتماعيا في كلماته وإنسانا كاملا في أغراضه وغاياته ولا ضرر أن يكون المسلم كذلك ما دام خلقه القرآن، وقُدوته في التربية سيد والد عدنان وآراؤه في الحياة آراء آله وأصحابه وأتباعه الأخيار"⁹⁵⁴ وهو التواضع المعنوي الذي يستشفه الرحالة وحده ليعطينا تقريرا عن حالة هذه الأسرة التي تجلّى فيها الامتثال لتعاليم الدين الإسلامي من الناحية الأخلاقية - حسب الرحالة -.

6. 1. 2. الصور السلبية

⁹⁵² - المصدر نفسه، ص23.

⁹⁵³ - عدت من الشرق، مصدر سابق، العدد 260/22 جمادي الثانية 1373 الموافق 26 غيبري 1954.

⁹⁵⁴ - عدت من الشرق، مصدر سابق.

لقد تبين من خلال بسطنا لصور الحكام والملوك المدى الإيجابي الذي تميزت به هذه الشريحة، ومع ذلك فلم تكن الصورة كلها إيجابية، ولا لماعة. وإنما سادت حالات سلبية لدى هؤلاء تكشفت في بعض النصوص الرحلية، نذكر منها:

6. 1. 2. 1. إسراف الملوك

لم تكن الصورة الإيجابية التي قدّمها الرحالة الغسيري عن الأسرة الملكية لآل سعود إلا صورة شكلية في تقدير ضمني للرحالة (أحمد توفيق المدني) الذي قوّضها بتقرير سلبي أتى على كل بنائها، وهو الذي تزامنت رحلته مع رحلة الغسيري، فإذا كان هذا الأخير لا يرى أي موضع للسلبية حين يتحدث عن القصر الملكي بداية من حجم المأدبة التي يقول فيها: "وانتقلنا إلى غرفة الأكل وكان بها من الاستعدادات ما أدهش"⁹⁵⁵ ولا يرى في هذه الدهشة إلا أمراً إيجابياً، حيث يعتبرها من مقام هذا المجلس مثلما يرى في تجهيز القصر الذي يبعث في نفسه نشوة الانبهار وروح التطور، حيث نجده يروي عن قاعة استقبال القصر فيقول: "وهناك رأينا أضخم ما أنتجته حضارة القرن العشرين من وسائل الراحة وأسباب النعيم، هذه أبهاء تتسع لألوف الجلوس، قد فرشت أرضها بالطنافس الفارسية الموشاة بأفخر أنواع الوشي، صفت عليها أرائك وتيرة مذهبة تسطع تحت أشعة الأنوار الكهربائية المتألقة في سماء الغرفات، ومن خلال الثريات المرصعة بقطع البلور الفاتن، وهذه مقاصر ساحرة خلاصة يكسو سقفها وجدانها ضروب من الستائر الحريرية الملونة، وتلك مكيفات هواء سابحة تضيء على الجو الحار الثقيل جواً لطيفاً رائعاً"⁹⁵⁶ وهذا من جملة ما حوّته رحلة الغسيري وحكمها على بلاط الملوك.

ويختلف موقف (المدني) عن موقف (الغسيري)، الذي يكشف لنا في رحلته العربية التي زار فيها القصر الملكي بالمملكة السعودية، عن صور لا تعبر إلا عن سفاهة في الإنفاق من المال الذي لم يصير الرحالة عن التنويه به، وجعله من أهم الصور التي أوجب عليه نقلها للقارئ من فرط ما انتابه جراءها من سوء ظن، وهو يميز بين الأمور في وعي كبير، عندما يسبق حكمه السلبي بقوله: "لا أنتقد السعودية شعبا ولا حكومة، ولا ملكا، لقد كانوا أول من قدم لنا مالا، واستمروا على إعانتنا، إنما أريد أن أقول كلمة واحدة، أو بالأحرى أروي قصة واحدة عن نظام الملك في تلك الأيام الحالكة، وعن أشغال الملك"⁹⁵⁷. وهي القصة التي رواها على لسان (الملك سعود) مفادها أنه

⁹⁵⁵ - المصدر نفسه.

⁹⁵⁶ - عدت من الشرق، مصدر سابق.

⁹⁵⁷ - أول يوم في القاهرة، أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، مصدر سابق، ص 361.

(الملك) شيد قصرًا ولمّا تجوّل بداخله، لم يعجبه نظام قاعاته التشريفية، فأمر بتقويضه وإقامة بناء آخر على أنقاضه لأنه كما قال: "لم يحقق الصورة التي رسمتها له في خيالي"⁹⁵⁸ وقد بلغت تكلفة القصر المقوض "بنحو عشرين مليار فرنك فرنسي"⁹⁵⁹. مما جعل الكاتب يقول في نفسه: "وقلت في نفسي: لو كانت هذه الملايير بين أيدينا لحققنا الاستقلال للجزائر"⁹⁶⁰ وعبر أهم محطات السرد حرص الكاتب على إبراز مظاهر الإسراف الذي تميّز بها القصر الملكي السعودي في ذلك الزمن، ومن ذلك قوله: "ثم اطلعنا على حقيقة الحالة المالية المترتبة في الدولة جراء إسراف الملك، وتهافت بطانته على المال، واعتبار الأمراء من آل سعود أن ميزانية الدولة إنما هي أموالهم الخاصة، يغترفون منها حسب شهواتهم، ونزواتهم ما يشاءون"⁹⁶¹ وهو الأمر الذي لم يلتمس له الرحالة أي عذر للحاكم السعودي، ولا للمسئولين المباشرين الذين يمارسون الإسراف في أموال الصالح العام.

ومن صنوف الإسراف -أيضا-، هذه الرواية التي يملئها الرحالة: "وأما ليلا فقد أقام لنا جلالة الملك مأدبة حافلة، حضرها نحو الثلاثمائة من رجال الدولة وأعيانها وكبرائها وقد لاحظت فوق المائدة صنوف الإسراف والبذخ، ما لا يستطع قلم وصفه. كان الأكل يكفي لألف شخص. وكانت المشروبات الفاخرة الحلال من وارد أوروبا، تسيل أنهارا وبعد انتهاء الأكل وبعد سماع نشرة الأخبار التي ألقاها مدير التشريفات، وبعد...، وضعوا على الموائد خمسين خروفا مشويا نظرنا إليها مشدوهين متألّمين، ولم تمتد نحوها يد من الأيدي المترفة، فرجعت إلى قواعدها سالمة"⁹⁶² وليس خاف فيما يقدّمه الرحالة من صنوف الإسراف⁹⁶³ الذي اتصفت به كل الدول - خاصة منها العربية- وهو انتباه من الرحالة الذي ينطلق من مبدأ العوز الذي كانت الجزائر في حاجة ماسة إليه، ولأجله كان تواجد الرحالة هناك.

6. 1. 2. 2. الصراعات السياسية والصور المأساوية

⁹⁵⁸ - حياة كفاح، مصدر سابق.

⁹⁵⁹ - نفسه.

⁹⁶⁰ - نفسه.

⁹⁶¹ - نفسه.

⁹⁶² - حياة كفاح، مصدر سابق.

⁹⁶³ - كما لا يخفى أن تجلي ظاهرة المبالغة المنتجة للنص عند المدني تبدو واضحة، ولسنا ندرى هل الأرقام التي يضعها لتحديد قيمة الإسراف حقيقية أم مبالغ فيها، ولعلنا نقول ذلك انطلاقا من إيماننا بأن نزعة "المدني" في المبالغة أمر مسلم به.

ومن الصور السلبية التي ركّز عليها الرحالون، صور الصراع السياسي الذي كانت تعيشه بعض الدول كالعراق -مثلا- حيث استفحل فيها المنكر السياسي وعات فيها السياسيون فسادا، وقد وجد الرحالون أن صورة العراق في المرجعية الفكرية والتاريخية لا تنطبق مع صورة العراق في تلك الأثناء، فكتسحت فكره مجموعة من التساؤلات، وأدرك "أن شعبا من العمالقة يحكمه ويديره جماعة من الأقرام"⁹⁶⁴ ومما أثار حفيظته وجعله يبادر بالأحكام السلبية، أن كل ما تركز عليه الدولة من أجهزة ومؤسسات أضحت لا ترقى إلى تمثيل بلد كالعراق، بلد الحضارة والتاريخ العريق، فأصبحت لا تملك شيئا ذا بال، وكل شيء فيها لا يدل إلا على أطلال ينبئك عنها هذا الخبر: "لا برلمان والله. ولا ملك. البرلمان عبارة عن بناء متواضع، إلى جوار دجلة ذات الأمجاد، قد اكتسى ليلا بطبقة من الكلس لم تجف بعد. وسلالم ضيقة متآكلة. وخرج الملك الصبي فخطب، أو خبط، بصوت من لا يؤمن بدوره ولا بمركزه. كان واقفا، أصفر اللون، وقد بدا لي أكثر ضآلة مما رأيته وهو على منصة مجلس النواب"⁹⁶⁵ وهي صورة كما يحاول الرّحّال إبدائها في قنامة، تتمثل حجم المسألة السياسية التي عرفتها العراق في تلك الأثناء.

وتتكرّر الزيارة إلى العراق سنة 1958 إلا أن هذا البلد يبقى هو العراق نفسه بكل سلبياته، فقد كانت خلالها الثورة على النظام العراقي (الملكي) قائمة، مما اكتسى الوضع فيها ارتباكا شديدا، وتدهورت أوضاع البلد، وغابت المؤسسات عن تأدية واجبها، حتى المطار حين يصفه (المدني) يشي بالحالة المزرية التي عرفتها بغداد حينها: "وصلنا وذهلنا، واندھشنا، وطار صوابنا، لا أبالغ والله! كان المطار خاليا تماما، كان فقرا بلقعا: لا مدير، ولا طيار، ولا مرشد، لا كاتب، ولا عامل!⁹⁶⁶

ولم يكن العراق بعد انتصار ثورته على النظام الملكي بأحسن حال منه في عهد الملكية، ذلك أن الصراع لم يُحى وإنما تغيّر شكله. فخلال مسيرة ما بعد الملكية، عرفت الجمهورية، تجاوزات كثيرة، أبرزها الصراعات الحزبية. والعراق في كل الأحوال إذا ضاع منه رشد القيادة الصارمة الرشيدة، أصبح فيه العدل مزاجيا، بل انتقاميا، والعدالة تلعب لعبة السياسة في مجازات الوضع السائد لصالح القوي الذي يترّبع على زمام الأمور السياسية. مما يعطي صورة مشوهة عن القيادة التي تبطش بلا هوادة، ومما يرويّه الرّحّالون، في تلك المرحلة من تاريخ العراق، هو صراع الشيوعيين ضد القوميين مما يجزن له الفؤاد، وتدمع له العين لما آلت إليه الأوضاع، جرّاء الانتقام المؤيد بالعدالة الباطلة، وهو كل ما نستخلصه من

⁹⁶⁴ - في بغداد آخر عهد النظام البائد، حياة كفاح، مصدر سابق، ص 356-357.

⁹⁶⁵ - حياة كفاح، مصدر سابق، ص 357.

⁹⁶⁶ - حياة كفاح، مصدر سابق، ص 392.

هذه الحملة: "وغادرنا بغداد، وكانت كئيبة مبتئسة بما كان يجريه فيها عباس المهداوي من محاكمات صورية سخيفة، ومن أحكام بالإعدام لا تتركز على أساس صحيح"⁹⁶⁷ وهذه الطائفة تمثل الحزب الشيوعي الذي كان له تأثير كبير ومباشر على الحياة العامة في العراق، حيث "استولوا على الطريق وعلى الساحات العامة، وارتكبوا نوعا من الحماقات لا تصدر إلا عن جماعات بدائية صرفة، كعمليات القتل الجماعي في كركوك، واغتيال المناوئين لهم من رجال القومية العربية"⁹⁶⁸، ولم يكن كل هذا الذي يجري، خافيا على علم رئيس البلاد (عبد الكريم قاسم) وإنما كان يحدث بغطاء منه وتحت أعينه، وهو الذي نأى جانبا متفرجا على الحالة التي تجعله منعزلا عن الصراع لحاجة في نفسه يرويها -أيضا- (المدني) في قوله: "وهنا لنا الأمر فخلونا بالرئيس عبد الكريم قاسم وسألناه عن جليّة الخبر. وكان عباس يسأل بالفرنسية، وأتولى السؤال بالعربية، ويا لدهشتنا العظيمة عندما تلقينا الجواب من قاسم، وهو يقول: إن زمام الأمر لن يفلت من يدي، وما ترونه من السلطان الشيوعي على الشوارع وفي الساحات العامة، إن هو إلا برأيي وبإشارتي، لكي ألقن القوميين العرب درسا، وإذا ما استمر الشيوعيون على مشاغبهم ضد إرادتي، فأنا أسلط عليهم القوميين العرب، فكلا الفريقين في يدي ولا تكون لذلك من نتيجة إلا وقوع في توازن بين الفرقاء المختلين لفائدة العراق"⁹⁶⁹ وهذا الأمر الذي فتح المجال للمناوئين ل(عبد الكريم قاسم) بأن يؤاخذوه على سياسته التي فشيت فيها التقتيل والتشريد والقهر وتكميم لأفواه العلماء والحكماء والعقلاء، لما سلط عليهم من "خوف الفتنة وخوف السحل والاضطهاد، وخوف محكمة التفتيش المهداوية الفظيعة، لا ينطقون بكلمة ولا يجسرون على تغيير منكر"⁹⁷⁰ وعلى الرغم من الصور الإيجابية التي قدمها المدني بخصوص عبد الكريم قاسم والعراق في دعمهم اللامشروط للجزائر، إلا أن هذا لم يجعل المدني يخفي صورة العراق السلبية في هذا العهد -نفسه-.

6. 1. 2. 3. التناقض في السياسة اللبنانية

تصور لنا نصوص الرحلات الجزائرية موقف لبنان السلمي اتجاه الثورة الجزائرية، التي سعى فيها الساعون من أجل إيجاد دعم أخوي، كبقية البلدان العربية الأخرى، إلا أن لبنان كان موقفه عكس التيار، مما أبداه مسئولوها السياسيون الذين كانت تربطهم بفرنسا وشائج التملق إذ لم يكن في وسعهم

⁹⁶⁷ - المصدر نفسه، ص 424.

⁹⁶⁸ - نفسه، ص 424.

⁹⁶⁹ - نفسه، ص 424.

⁹⁷⁰ - حياة كفاح، مصدر سابق، ص 425.

إغضابها إذا ما تم ما يسعد الجزائريين أو إبداء موقف تجاه قضيتهم التي تحمل بالضرورة الموقف العكسي أو ضد فرنسا، وقد أثبتوا على أنهم أذيال لفرنسا، فهم يَسعون جاهدين على أن لا يغضبوها، ولا يُحدثوا معها أي حرج. على الرغم من سعة علم هؤلاء السياسيين الذين كانوا في شغل شاغلين عن الجزائر وثورتها، مما جعل المدني يصفهم بأقبح الصفات، مثل حديثه عن الوزير (شارل مالك) الذي يصفه المدني بالقول: "الرجل عالم ولا شك في ذلك ولا ريب، كان أفصح أهل لبنان لغة، وأمتهم عربية، لكنه كان أبعد الناس إطلاقا عن الثورة والتحرير والكفاح، وما إلى ذلك من معان ربما قرأ عنها شيئا، إنما هو لم يؤمن بها أصلا"⁹⁷¹

وعلى الرغم من السعي الحثيث والرجاء المستمر، الذي أبداه الوفد الجزائري الملحّ في طلبه من الإخوة رجاء العون والمساعدة، إلا أن الخلاصة كانت كما ينقلها الرحالة نفسه: "وكانت خلاصة كلامه باختصار: لا تأملوا من لبنان مالا، ولا سلاحا، إنه ينصركم في المجالس العالمية تبعا لكل العرب، لكنه لا يغضب فرنسا إطلاقا"⁹⁷² بل قد ذهب الرجل أكثر من ذلك أنه بدل أن يساعد أو ليصمت، بادر باقتراح غريب ينمّ عما في صدره من حماقات، كما يرويها عنه المدني "وإذا أدرتم وضع حد لهذه الحرب الطاحنة التي أكلت أخضركم ويابسكم (بالحرف)⁹⁷³ فلبنان مستعد للتوسط بينكم وبين فرنسا، -بكل صراحة- هذا ما تستطيع لبنان عمله"⁹⁷⁴ ولم تكن حكومة لبنان تمثل شعبها تجاه القضية الجزائرية، فبينما كان رجال الدين (الإسلامي والمسيحي) ورجال العلم والأدب، كلّهم قد استعطف وشجب، ونادى بنصرة الجزائريين، إلا السياسيين أصحاب المناصب السامية - كما لاحظنا-، ومنهم مفتي البلد المحسوب على الحكومة، فإنه أبدى شعورا غريبا تجاه القضية الجزائرية تمثلت في اللامبالاة، حينها وصفه المدني قائلًا: "ثم قابلنا خشبة مسندة تدعى مفتي لبنان. كان يمتاز بصمته وبرودته، وبما يظهر عليه من لامبالاة مطلقة، وبسطة له وضعية الجزائر، فكنت كأني أخطب أوثان الكعبة في عصر الجاهلية"⁹⁷⁵ فتبدو الصورة التي ينطلق من خلالها المدني كصيغة للتعبير، هي مطابقتها للانفعال الذي يبديه ناحية خصمه، التي حدّد موقفه السلبي المخالف لكل التوقعات، وهو شعار المدني في كل تعبيره فهو متطرف في الذمّ كما يغلو في المدح.

971- المصدر نفسه، ص 355.

972- نفسه، ص 355.

973- يضع المدني هذه العبارة بين قوسين للتدليل على عدم التصرّف في قول القائل.

974- في لبنان، حياة كفاح، مصدر سابق، ص 355.

975- في بلد المتناقضات لبنان، المصدر نفسه، ص 427.

الفصل الثالث

الرحلة نحو الأنا

بنية المجتمع وصور الصراع

3. صورة المكان/ الجغرافيا وال عمران

يشكل المكان أهم مقومات الحياة بالنسبة للإنسان فهو مجال سيره، وسبيل عيشه، ومحط سكناه، وبؤرة معاشه، ومستودع رزقه وأسراره، "فالمكان يعني الارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش وللوجود، لفهم الحقائق الصغيرة، لبناء الروح، وللتراكيب المعقدة والخفية، لصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال المبهمة، للتنشئة المخيلة وتدمج كلية الحياة في صورة مكانية"⁹⁷⁶ ويعد تعامل الإنسان مع المكان تعاملًا حتميًا وضروريًا، فالمكان مصدر رزقه، ومأوى سكناه، وفضاء تخيله، ورمزية وجوده واستقراره تاريخه، ولهذا فالإنسان يتفاعل من المكان جمالياً ونفصياً. وإذا كانت الأعمال الأدبية التخيلية تركز على المكان كبؤر لشخصياتها، فلا تنفك عن ذلك، فإنها في جنس الرحلة تتعزز روابط الوثاقة بينهما، وذلك من باب أولى لأن الرحلة مكلف بتعبير الأمكنة التي يجعل سبلها مطية لاقتفاء كل أثر وسعيا وراء كل مطلب "لأن الرحلة معاناة، والسفر مشاركة للمكان في التحول، واستبدال منظر بمنظر، وموقع بموقع، ومنزل بمنزل، وأهل بأهل. وكلما تجدد الإطار تجددت معه جملة الأحاسيس التي تباشرنا ونباشرها، نتخللنا ونتخللها، فنكتسب منها رهبتها وجلالها، أو وحشتها وتوجسها، أو لطفها وجمالها"⁹⁷⁷ فالمكان -إذن- هو الإطار الذي تتجسد فيه كل أحداث الإنسان، والأرضية التي تتفاعل فيها الشخصيات لتأدية مهامها المكلفة بها سواء كان ذلك واقعياً أو فنياً، فليس المكان حيز الفعل وإطاره، بل هو التفاعل الدينامي الذي يبعثر المرجع ويستفز الذاكرة ويحرك الوجدان. والمكان هو القناة لعدة سبل التي تعرّفنا بهوية وانتماء كل فصيل عند الحديث عنه أو وصفه "فوصف المكان -غالباً- يدل على أصحابه، ويكشف عن بيئة هذه الشخصيات ومظهرها العقلي والنفسي والاجتماعي، ويحمل خصوصية قومية"⁹⁷⁸

وإذا كانت الرحلة الجزائرية الحديثة في جولاتها الداخلية تتطلع إلى مدّ جسور التآلف وربط شبكة الأخوة وتتقاطع هموم أوضاعها، فهي في الآن نفسه محطات مكانية تستوقف الذات وتمدّها بمعطيات المكان الماضي والحاضر، وتتأمل المستقبل. كما أنها تؤرخ للحظة التي تنبعث منها كينونة السرد الحبلّي بأوجاع الأمة التي كانت تعاني مرضها المزمن. لقد وشمّت في المكان تفاصيل الذات المخضبة بدماء جراحها، ورجاء الطبيعة بأفاقها وفضاءاتها وتأملاّت، وسطّرت على الواقع أبلغ الذكريات.

⁹⁷⁶ - ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1986، ص 395-396.

⁹⁷⁷ - حبيب مونسى، فلسفة المكان في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط 1، 2001، ص 18.

⁹⁷⁸ - غاستون باشلارد، جماليات المكان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 6، 2006، ص 9.

1.1. جغرافية المكان وفضاء المدينة

1.1.1. الطابع الجغرافي

يشكل الجمال الطبيعي للجزائر تميّزا بتنوع بيئاته واختلاف مناطقه، وتعدد ضروبه، نتيجة التنوع في تضاريس المكان الذي فرضته شساعة مساحته التي تغطي جزءا هاما من قارة إفريقيا. ويعدّ تنوع مناخها وتضاريسها، فاعلا أساسيا في تنوع البيئة وما نتج عنها من تنوع المعطى الطبيعي الذي اختلفت فيه الجهات الأربع من البلاد (الشمال والجنوب والشرق والغرب)، ولا يتحقق لزائر الجنوب ما يتحقق لزائر الشرق أو الغرب، كما لا يتحقق لزائر الشرق ما يتحقق للشمال والجنوب، وهكذا..

ومما نستشفه من خصوصية المناطق التي تقاطعت فيها الرحلات أننا نستوفي حق الجمال من كل منطقة دون أن نجد أوجه الشبه الكبيرة بين المناطق.

وقد تحدّثت الرحلات عن جمال الطبيعة من خلال المدن النموذجية لكل جهة، وهي المدن التي باتت إيقونات في سجل التاريخ، بماضيها العريق وحاضرها المشرق. فبالغرب الجزائري لا يختلف الرحالون في كون تلمسان مدينة "معتدلة الطقس جميلة المنظر أهلة بالسكان من أبنائها المسلمين"⁹⁷⁹ وباستثناء طابعها العمراني في هندسته، فإن عاملها الجغرافي أكسبها مميزات طبيعية خاصة، فتشكّلت فيها أشجار ذات زينة وجمال، بدت فيه المدينة رافلة، في وسط خصب ومناخ فريد، تجلّى ذلك في حديث أحد الرحالين عند قوله: "فوجدناها بلدة بهيجة المنظر لما بها من الأشجار والأنهار وجميل الآثار"⁹⁸⁰ وتضاف إلى طبيعتها مكّلات الخصب، وعنصر الحياة، الذي يعدّ سرّا من أسرارها، فالماء هو ضابط الطبيعة في تلمسان، الذي لا تتحدّث الرحلات عن ينابيعها، بل عن شلالاتها التي تثير الإعجاب، كشلالات (اللوريط) التي كان ماؤها يتدفّق متاعا للنظرين وتفريحا عن نفوسهم، وباتت مقصد الرحالين الذين نوهوا بها كثيرا كقول "إسماعيل مامي": "وهو موضع بين الجبال فيه من المياه الدافقة ما يغنيك عن الماء العذب المعين"⁹⁸¹ وقول "عبد الحفيظ الهاشمي" خلال زيارته: "انتهينا إلى اللوريط الواقع في سفح الجبل إلى أسفله في شكل عمود فضي وأطيار تصدح ونسيم عليل"⁹⁸²

⁹⁷⁹ - حديث متحول النجاح .. تلمسان الجميلة جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3853، يوم السبت 30 محرم 1370هـ، الموافق لـ 11 نوفمبر 1950م.

⁹⁸⁰ - المولود بن محمد الأزهرى، رحلتنا إلى المقاطعة الوهرانية، جريدة الصديق العدد 38 يوم الإثنين 13 ذي القعدة 1339 الموافق لـ 18 جويلية 1931.

⁹⁸¹ - إسماعيل مامي، جولة نائبا بالمغرب الجزائري والقطر الغربي، جريدة النجاح، العدد 143، الجمعة 25 جانفي 1924م الموافق لـ 18 جمادى الثانية 1342هـ.

⁹⁸² - عبد الحفيظ الهاشمي، رحلة للمغرب والأندلس، جريدة النجاح، العدد 1370، الأربعاء 19 أكتوبر 1932م الموافق لـ 16 جمادى الثانية 1351هـ.

وتتميز مدن الغرب الجزائري بطابع الفلاحة كمستغانم "بلدة ذات تجارة واسعة وفلاحة عريضة"⁹⁸³ و"مدينة معسكر جميلة المنظر الطبيعي طيبة المناخ معتدلة الطقس"⁹⁸⁴ والمثال نفسه على منطقة سيدي بلعباس التي تضم "البساتين الجميلة والرياض اللطيفة لسكنى ملوك الفلاحة ورجال الحزم والعمل"⁹⁸⁵. مما يؤهلها لتكون في مقدمة المدن المنتجة للموارد الفلاحية ونشاطاتها المختلفة.

أما الشرق الجزائري، فتميّزت جغرافية مكانه بتضاريس خاصة، إذ غدت الكثير من المساحات الأرضية تشكيلا طبيعيا مميّزا، خاصة منها المنطقة الشمالية التي غلب عليها التنوع في التضاريس والمساحات الخضراء التي تغطي جبالها وسهولها، وهي تتوزع بين أشجار مثمرة وغير مثمرة ذات أشكال وألوان، جعلها تُغني الناظر ومادة خصبة للاستمتاع والإلهام مثلما نجده في قول سليمان الصيد حين كان يقطع المسافة بين سكيكدة وعنابة "كانت الطريق بينهما جميلة ملهمة يجد فيها الشعر من لم يشعر. فترى أشجار برتقال وزيتون وكروم وترى الأرض على مدّ البصر خضراء بلّ لها الندى مختلفة الأنوار فيحس الإنسان كأنه في روضة غناء منظر ساحر وجمال خلاب وهواء عليل"⁹⁸⁶ وهذا فيه ما يغني عمّا في الطبيعة من تفصيل.

إن هذه التضاريس التي ميّزت المنطقة الشرقية من الجزائر، لم يقتصر جانبها على الطبيعة البرية، بل أعطى شكلها الهندسي الغريب بُعدا آخر عندما تأسّست على ظهره المميز مدينة عمرانية بحجم قسنطينة التي تشكل غرابة بين مدن الجزائر بل حتى المدن العالمية فهي "مبنية على حجرتين عظيمتين تحفها أودية من كل ناحية يزيدها جمالا تلك الأشجار الصنوبرية الباسقة التي يطيب بها هواؤها الطلق المنعش للأرواح والأبدان الفاعل في الأفئدة فعل الصهباء في العقول"⁹⁸⁷ فما كان لتخيل أن يتوقع أن مدينة بهذه الروعة تقع على هذه المساحة الوعرة، فتعود ميسرة وقابلة للتشويق، وما زادها روعة أن الماء يتخللها وديانا، والأشجار الباسقة تتموضع في شكل طبيعيّ فتيّ يزيد من جمال وروعة المدينة، ولكم يتخيل الإنسان هذه المدينة ويتساءل عن عوامل إنشائها، فهي لا تتشبه إلا بما شبّهها الرحّالة عمر بن قنبر بقوله: "أما المدينة فكانت في الأعلى على تحت رفيع محفولة بخضون

⁹⁸³ - جولة نائبا بالمغرب الجزائري والقطر المغربي، مرجع سابق، النجاح العدد 137.

⁹⁸⁴ - حديث متحول النجاح.. مدينة الجد القديم، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3860، يوم الأربعاء 25 صفر 1370هـ، الموافق لـ 6 ديسمبر 1950 م.

⁹⁸⁵ - مامي اسماعيل، على جناح السفر، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 592، يوم الأربعاء 27 ذو القعدة 1346هـ، الموافق لـ 16 ماي 1950 م.

⁹⁸⁶ - سليمان الصيد، رحلة مدرسية، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السادسة، العدد 234، الجمعة في 15 شوال 1372هـ (26 جوان 1953م).

⁹⁸⁷ - محمد العلمي بالجزائر، الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، العدد 770، الجمعة 2 أوت 1929 - الموافق لـ 25 صفر 1348 هـ.

طبيعية من المهاوي العميقة وقواعد موقعها الحجرية العتيقة"⁹⁸⁸. أما بالنسبة لمنطقة سطيف، فهي تحتل موقعا ومناخا مميزين كما يؤكد الورتلاني في قوله: "فقد بلغا في الحسن غايتهما، وكادت أن تمتاز على كامل مدن القطر، في نقاوة الهواء وعدوبة المياه مع ما يحيطها من الحدائق ذات الأشجار الوارفة الظلال، والأزهار المختلفة الألوان.. والثروة الطائلة بأراضيها الخصبة"⁹⁸⁹.

وأما بوسط البلاد فهي تحفل بأراضٍ خصبة، ومناظر طبيعية خلابة، ومحيط مناخي جيد، خاصة منها نواحي متيجة التي تعد "مستقر الخدمة ومركز المتفlichen والبلاد المتقدمة كلها ذات بساتين زاهرة وأجنة قطوفها دانية وغلل متنوعة أما أرضها فخير أرض تزرع"⁹⁹⁰ وهذا يفيد أن المكان له طقوس فلاحية خاصة، تدل على التنوع في ألوانه التي يزهو بها البساط لما تصير في مستوى الإنتاج، ودليل على الخصب الذي تتمتع به المنطقة، الكفيل بضمن معاش أهلها. وتعد مدينة مليانة واحدة من مجموع المنطقة يقول عنها الرحالة مامي: "طابق اسمها مسمّاها فهي ملاّنة من كل شيء فلا تشكو جوعا ولا عطشا في حياتها المادية والأدبية"⁹⁹¹ إضافة إلى ميزة أراضيها الخصبة، تتميز بموقعها الذي ركنت إليه جميع مكونات الحياة ومسلزمتها من "أشجارها المتكاثفة ومياهها الدافقة وهوائها الطلق"⁹⁹².

أما الناحية الجنوبية من الجزائر فهي تتربع على أكثر من ثلثي عرش المساحة الكلية للجزائر، مما يجعلها هي الأخرى تختلف من منطقة إلى أخرى وتأخذ كل منطقة طابعها الصحراوي الخاص في منتوجاتها الطبيعية وفي ثرواتها المعدنية وفي نوعية تربتها وتميّز طاقاتها ومواردها المائية، وتشكيل تضاريسها وتميّز مناخاتها. وهي في العموم بلاد "واسعة الأرجاء حسنة الطقس حلوة الماء كثيرة النخيل والمياه، كثيرة الرمال"⁹⁹³ كما أنها "فيافي خالية، ورمال ذهبية كثيرة دقيقة، ونخل باسق جميل.. طقسها متباين ومياهها مختلفة"⁹⁹⁴ وهي مناطق تتراوح بين كونها من جهة "واسعة الأرجاء حسنة الطقس حلوة الماء كثيرة النخيل والمياه، كثيرة الرمال عامرة بالسكان"⁹⁹⁵ ومن جهة أخرى تبدو

⁹⁸⁸ - عمر بن قدور، سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق العدد 38 الجمعة 28 ذي الحجة الحرام 1331 الموافق 1913/11/28

⁹⁸⁹ - الفضيل الورتلاني، رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، جريدة الشهاب، الجزء السابع المجلد العاشر، (غرة ربيع الأول 1353هـ/جوان-1934).

⁹⁹⁰ - إسماعيل مامي، جولة نائبنا بالمغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، العدد 130.

⁹⁹¹ - المصدر نفسه.

⁹⁹² - المصدر نفسه.

⁹⁹³ - حديث متحول النجاح.. في الصحراء.. من وراء الرمال..!، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3895 يوم السبت 7 رجب 1370 الموافق لـ 14 أبريل 1951.

⁹⁹⁴ - المصدر نفسه، العدد 3899 يوم السبت 21 رجب 1370 الموافق لـ 28 أبريل 1951.

⁹⁹⁵ - المصدر نفسه، العدد 3895.

أنها "أطراف مترامية وفيافي خالية ورمال دقيقة.. وطبيعة قاسية ومياه في أعماق آبار نائية، ونخيل يحتاج إلى أعمال شاقة متواصلة"⁹⁹⁶ وإذا كان هذا الرصيد من الأخبار عن صفة الصحراء، فإن الرّحّالين لم يذكروا إلا شطرا بسيطا من مساحتها المترامية، وخصصوا حديثهم عن ناحية من النواحي الجنوبية الشرقية، دون باقي المناطق الأخرى.

ومن أهم المدن بهذه المنطقة المتحدّث عنها مدينة بسكرة التي تمثلت بخصوصية كونها رائدة إنتاج التمور، فطبيعتها ساحة من النخيل لذلك تجد "نخيلها باسقة وأثمارها مختلفة"⁹⁹⁷، والحديث عن طبيعة بسكرة وما تتفرّد به، تُحيل فيه الكلام على قول أحد الرحالين: "كثيرة النخل، ذو أنواع غريبة منها ابنة الفقيه وابنة المراق وغيرهما وبها أنواع البقول اللذيذة، وبأعلى البلدة محطة القطار الحديدي وبداخلها بساتين عجيبة الشكل والنظام وأحسنها الجنان الكبير تشقه سواقي جارية وقنوات معتدلة به أشجار عالية مختلفة الأشكال والأزهار؛ وبه الطباء يمشي الهوينى للتفسيح والتخلع والتسلية؛ ذوات الأعين النجل والشايا البلج الفتاكة؛ ولا تعجب إذا فتكت بك الألباظ لهن فروع مزينات متونهن وعيون دعج وأعجاز مرتفعات وخصور ناحلات"⁹⁹⁸

2.1.1. صورة المدينة والطابع الحضاري

إن أهم ما يميز المدينة الجزائرية أن بعضها تنوعت فيه أنساق العمران المختلفة بفعل التنوع الحضاري الذي تعاقب عليه منذ زمن يتعدّى التاريخ الإسلامي للبلاد. ولقد احتفظت كل حضارة بلمسة من لمسات طابعها الفني، بالإضافة إلى البعد الاستراتيجي لاختيار مواقع المدن، أعطى كل هذا مساحة جمالية للمدينة الجزائرية في الغالب. وتجدر الإشارة إلى أن أهم العوامل الحضارية التي ميّزتها في تشكيل طابع المدينة تجتمع جميعها في الآثار الرومانية القديمة، والتراث الإسلامي - خاصة منه الأندلسي والعثماني - والطابع الأوروبي، هذا الأخير قد شكّل النمط الغالب الذي طغى على الكثير من المدن، كونها مدن حديثة أنشأها المستعمر لصالحه.

لقد احتفظت الرحلات الجزائرية الداخلية بذكرها لهذا الجانب، فتعرضت لحسن الكثير من المدن في بناءاتها العمرانية وتنظيم شوارعها وطابعها المدني والمدني. وقد يبلغ ما أفرزت عنه الرحلات - في حالات - إلى درجة الاندهاش، خاصة عند بعض الرحالين الذين تأثروا بطابع بعض المدن الهامة فخصّصوا حديثهم على أنماط معينة، مثل الجزائر العاصمة التي علّق على جمالها الرحالة "أحمد توفيق

⁹⁹⁶ - المصدر نفسه، العدد 3899.

⁹⁹⁷ - إسماعيل مامي، جولة نائبا بالوطن القبائلي، جريدة النجاح، العدد 181، الجمعة 7 نوفمبر 1924. الموافق لـ 8 ربيع الثاني 1343 هـ.

⁹⁹⁸ - عبد الله، المنازل "منازل بسكرة" مجلة الشهاب، العدد 30، السنة الأولى، (الخميس 28 ذو القعدة 1344 هـ/10-06-1926).

المدني" وهو قادم من تونس التي لم تكن تظفر بمستوى ما ظفرت به الجزائر من الطابع المدني حيث شيدها الاستعمار فأحسن تشييدها، فبدا له وجه العاصمة بطابعها العمراني وبُعدها الإنساني المختلف عما كان عليه حال العرب، معبراً عن أول نظرة له بالعاصمة وهو يطوف بالسيارة: "تجوب بنا طرقات المدينة، وأنا متعجب لذلك النظام، ومندهش لتلك النظافة، إنما رأيتني وكأني في باريس لا في مدينة عربية ولا سكان عرب ولا شيء من الشرق"⁹⁹⁹ وقد كان كل ما في العاصمة مثيراً، فموقعها جذاب يخلد لناحية هضبة يتدرج من خلالها وضع المساكن، ويركن إلى ناحية الشمال البحر الذي يزيد من وسمها البديع، فيضيف الرحالة عن ذلك قائلاً: "كنت أنتقل من رياض غناء كأنها اقتطعت من جنات الخلد، أدخلت إلى السكنينة بين أفنانها وأغصانها قصور يدل ظاهرها على أنها تراث الأجداد والأمجاد، إلى مقاصد رصّعت فوق رمال صفراء فاقع لونها تسر الناظرين حول ساحل بحر فيروزي متعدد الألوان الأمواج"¹⁰⁰⁰.

ومن المدن التي كان لها أثر كبير عند الرحالين الجزائريين في هذه المرحلة، إذا ما أخذنا بخصوصية الزمان، مدينة قسنطينة، بتاريخها الطويل وبمآثرها الخالدة، وبما امتازت به من معاهد دينية وطابع عمراني وبنيتها الاجتماعية، فـ "قسنطينة مدينة الهواء وشهيقه السرور ومسلية المحزون ومنبت الأدباء وكعبة العلم"¹⁰⁰¹ وقد كان لهذا تأثير استقطابي عند الرحالين الذين كانت مخيلتهم تضع في حسابها أهمية هذه المدينة، حتى إذا ما حضرت العين أتمت ما كان مدرجا في مخيلتها من مفترض، هذا ما نلاحظه -مثلاً- في قول بن قدور "تقدم بنا القطار إلى أمام مدينة قسنطينة فلاحت لي بيضاء نضرة، يعانقها جمال الطبيعة من جميع جهاتها، وتحيط بها خضورة البساتين والرياح"¹⁰⁰² وإذا كانت العاصمة - كما سبق - تلفح منها ريح أوروبا الاستعمارية بمختلف عناصرها المكونة للمدينة فإن قسنطينة بدت كما يدوّن الرحالة: "ولقد لاحت لي لأول وهلة أشكال مختلفة ما بين أبنية عربية وأخرى إفرنجية، ولكن الإنسان يتبين صورتها الإسلامية من موقعها الشرقي: بقيت مدرستها العربية العالية ومناير المساجد المتميزة عن بقية الأبنية بمنظرها الشرقي البهيج"¹⁰⁰³ وهذا إقرار من الرحّالة الذي يسم المدينة بالطابع الإسلامي، كون الجمال وحده لا يكفي لصفة ما في المدينة، إذا لم تتميز بجانب من جوانبها الروحية، دلالة على تواتر الأجيال عليها وإشباعها بنسق عمراني معيّن لا

⁹⁹⁹ - أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج2، ط2، 1977، ص 27.

¹⁰⁰⁰ - حياة كفاح، مصدر سابق، ج2، ص 29-30.

¹⁰⁰¹ - محمد العلمي، الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، العدد 768، الاثنين 29 جويلية 1929. الموافق لـ 21 صفر 1348 هـ

¹⁰⁰² - سوانح الرحلتين، مصدر سابق.

¹⁰⁰³ - المصدر نفسه.

ينتسب للأشكال المجردة، بل إلى إيجاء تلك الأشكال بروح من هويتها وانتمائها، مثلما تظهر عليه مدينة قسنطينة بعراققتها التي تحفظ لها مساجدها الطابع الحقيقي لشخصيتها.

وبعيدا عن الشكل المجرد لمدينة قسنطينة فإن بها سرٌ توحى به، لا يقبض من عضو محسوس بينما توحى به لمن يتوخى طلب وجهها الحسن، وهذا يعود إلى طبيعة الرحالة وما تنهض به ذاكرته من نشاط وتخمينه من استهواء بما تضيف عليه مرجعيته الطافحة بغلبة المكونات الثقافية الصادرة عن مرجعيات متعدّدة، فتترسّب ثقافة خاصة يحملها الرحالة لينطق بحقها حين مواجهته للمواقع المخصصة في ذاته، كما هو الحال الذي عبّر عنه الرحالة (محمد العلمي) حين دخوله قسنطينة، فبادرها بهذه التحية: "السلام عليك يا قسنطينة الغراء ذات الجمال الرائع والمناظر العجيبة. السلام عليك يا بهجة المدن وعروسة الكون. السلام عليك يا قسنطينة العتيقة ذات الهواء الطيب الطلق الحفاف والماء العذب"¹⁰⁰⁴. والرحالة بذلك يكون قد استفتح بميثاق الروح للروح، وكشف عن مراده حيث استهواه المكان "كنت في أيام إقامتي فيها أخرج كل عشية مع بعض الأدباء للتفحّح في رياضها واستنشاق هوائها المنعش للأرواح فيعجبني الجلوس وراء سور البلد المجلى الذي يسمونه الطيبة فيزهو قلبي"¹⁰⁰⁵ فجمال قسنطينة فتانٌ يثير الإعجاب، لم يستطع الرحالة الإمساك به لكن التلميح يغني أحيانا عن الوصف، نجد مثلا في قوله: "فنعجب لأننا نشاهد جمالا فتانا"¹⁰⁰⁶ وكون الرحالة أديبا وشاعرا، وجد في قسنطينة روح المدينة التي تدفع بمخاض الإبداع فيصرح به قائلا: "وينشرح لها القلب وأجد في أعضائي قوة وفي فكري قريحة"¹⁰⁰⁷ ومنه نجد أن قسنطينة تكاملت فيها روح المدينة الحقيقية التي لم تُعد مجرد أشكال هندسية، بل بما توحى به المدينة لزارها من شعور.

وعند تتبعنا لحديث الرحالين الذين تشعبت بهم السبل في مسالك نحو مدن مختلفة من القطر، نجد عبارات وصيغ متقاربة كلّها تشي بالحسن وتنوّه بالثناء. فعن مدينة سطيف نجد الفضيل الورتلاني يقول "سطيف وما أدراك ما سطيف، الكلام على هذه البلدة باعتبارين للبون الشاسع بين تاريخها الغابر وتاريخها الحاضر"¹⁰⁰⁸ ثم يبالغ في القول عن هذه المدينة "ولو كنت أصف في مقالي هذا موقع المدن وجودة هوائها وعدوبة مياهها وجمال شكلها، لوجدت في سطيف مكان القول من

¹⁰⁰⁴ - الرحلة القسنطينية، مصدر سابق.

¹⁰⁰⁵ - المصدر نفسه.

¹⁰⁰⁶ - نفسه.

¹⁰⁰⁷ - نفسه.

¹⁰⁰⁸ - الفضيل الورتلاني، رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق.

هذه النواحي ذا سعة¹⁰⁰⁹ وهو الحديث نفسه تقريبا عن مدينة الأغواط في رواية (بن مناد) عندما يقول: "مكثنا ثلاثة أيام بالأغواط وبالجملة فإني لم أر في سائر جولاتي من تونس إلى وجدة مثل الأغواط في تنظيمها ونظافتها"¹⁰¹⁰

أما بالغرب الجزائري فنجد من المدن ذات الطابع العمراني المميّز كمدينة تلمسان فهي "مدينة جميلة المناخ ذات رياض ملتفة وأنهج متناسقة لسان حالها ناطق بما كان لها من الاعتبار التاريخي والحضارة العربية الأصيلة"¹⁰¹¹ وكلما ارتبط الماضي بالحاضر في مدينة ما؛ فإنه يشكل تفاعلا حضاريا لا يمكن الفصل فيه بأي حال من الأحوال، خاصة وأن تلمسان من بين المدن الجزائرية التي حافظت على كثير من معالمها التاريخية، وهي بطبيعة الحال، معالم إسلامية توحى بشيء ما، لم يكن فيها للاعتباط أي منفذ، بل هي نتيجة طبيعية لمستوى فكريّ وحضاريّ تدرّج مع المدينة لقرون طويلة، فأوحى لها ما أوحى. والبقية الباقية من آثارها تدلّ على مصاعب التأويل لماضيها التليد، وأهم تلك المعالم مساجدها وأضرحتها التي تنبعث منها رائحة التراث وبعده الحضاري والإنساني والإسلامي، بالخصوص جامع وضريح سيدي أبي مدين الذي يعدّ مفخرة تلمسان وزينتها، فلا بدّ لزائر تلمسان من أن يتم الواجب بزيارة معلّمها هذا، الذي لم نجد من لا يثني عليه مثلما نوّه بذلك أحدهم بقوله: "ثم صعدنا إلى الجبل المشرف على المدينة لزيارة الشيخ أبي مدين فقدمنا على زيارة الضريح زيارة المعهد على مقتضى السنّة فوجدناه معهدا عظيما فمبناه عجيب وآثاره بديعة"¹⁰¹² ويشكل هذا المعلم صوتًا لا شكًا في تاريخ تلمسان، بعبقه الروحي الذي لا يزال ينبع من جنباته المعنوية، فهو يتخلّل كل حديث مشرقا ومغربا، بالإضافة إلى مساجد أخرى وبالأخص المسجد الكبير الذي يتوسّط المدينة، فتلمسان "مساجدها كثيرة حسنة جميلة ومن أشهر مساجدها، مسجد أبي مدين والجامع الأعظم وما أدراك ما هما"¹⁰¹³..

ومن أهم مدن الغرب مدينة (وهران) عاصمة الغرب الجزائري، التي بلغت من المدنية والتحضر ما ينوب عن ذلك حديث عمراتها وبعدها الحضري الذي تميزت به، حيث أعطتها التواجد الاستعماري بُعدا أوروبيا ونفّخ فيها من روحه، فارتقت إلى مقاييس المدن الأوروبية بما استحدثته فيها الحضارة الغربية

¹⁰⁰⁹ - مبارك الميلي تفقد الشعب "حياة الإصلاح في البلدان التي زرتها"، جريدة البصائر، العدد 30، السلسلة الأولى، السنة الأولى، الجمعة 12 جمادى الأولى 1355، الموافق لـ 31 جويلية 1936.

¹⁰¹⁰ - قويدر بن مناد، الجولان وفوائده، جريدة البلاغ الجزائري، السنة الثانية، العدد 69، الجمعة 21 ذي القعدة سنة 1346هـ، الموافق لـ 11 ماي 1928.

¹⁰¹¹ - عبد الحفيظ الهاشمي، رحلة للمغرب والأندلس، مصدر سابق.

¹⁰¹² - المولود بن محمد الأزهرى، رحلتنا إلى المقاطعة الوهرانية، مصدر سابق.

¹⁰¹³ - حديث متحول النجاح .. تلمسان الجميلة، مصدر سابق، العدد 3853.

بوسائلها المدنية، حيث كان المعمّر لا يغفل على استيطانها، وتوفير لها جميع شروط الحياة العصرية وأسبابها، وقد صوّر لنا بعض الرّحّالين جوانب مختلفة من ضواحيها ومعالمها، من ذلك حديث الرحالة (إسماعيل مامي) عن شكلها العام، في عشرينيات القرن الماضي بقوله: "ثم غادرت "سان لو" إلى وهران عاصمة الأيالة الثالثة للقطر الجزائري وهي بلدة فسيحة الأرجاء واسعة الآفاق منقسمة إلى أرباض كبيرة يتخلّلها الترامواي الكهربائي ومريض الأهالي بها يسمى الفلّاج نيقر به تجارتهم وسكانهم غير أنهم يسكنون في غيره"¹⁰¹⁴ ولقد ميّزت وسيلة الترامواي للنقل الحضري في وهران المدينة بالطابع الجمالي، في وقت مبكّر لم تكن الكثير من المدن الأوروبية تعرف ذلك، بينما شهدت وهران هذا الحدث. ثم يؤكّده الرحالة (المولود بن محمد الأزهري) في سنة 1931 بعد ثنائه على المدينة "وجدناها مدينة عظيمة محكمة البناء متناسقة الأضواء يخط شوارعها "الترامواي" الكهربائي وسككها على سعة تامة ووجدنا بها بعضا من الطلبة ومشايخ الطرق بالبلدة الجديدة فاستعملوا معنا كل برّ وملاطفة"¹⁰¹⁵ ولم تكن وسيلة الترامواي حديثة عهد بالرّحّالين، فإن الكثير¹⁰¹⁶ من الرّحلات العربية التي سبقت رحلاتنا بزمن تذكر في سياق حديثها عن مدينة وهران هذه الوسيلة وتتعجّب من استعمالها.

ولم تكن مدينة وهران بالغرب الجزائري وحيدة الذكر في حصولها على الاعتراف العصري ذي الصبغة الأوروبية، بل الكثير من مدن هذه الناحية تميزت بالطابع "الكولونيالي" الذي ركّز على هذه الناحية لتكون مستقرا له ومتاعا، ومن بين ما شهدت به مدوّنات الرّحّالين أن مدينة (سيدي بلعباس) كانت تمتاز بقوة جاذبيتها العصرية التي كشفت عن حسنها في وقت مبكر، ففي عشرينيات القرن العشرين يذكر الرحالة (إسماعيل مامي) هذا الحديث: "من البلاد الجزائرية التي انجلت فيها مظاهر المدينة الأوروبية كامل الانجلاء وبرزت فيها معالم التقدم العمراني مدينة سيدي بلعباس فهي إحدى المدن التي كلما كرّرت زيارتي إليها وجدتها تقدمت خطوات بسبحة في الرقي العمراني والفلاحي بفضل جهود المعمرين الذين هم كل يوم يشيدون القصور الفخمة والبقايا الضخمة التي لم أر لها إلا بعاصمة فرنسا باريس"¹⁰¹⁷. وأما عن مدينة مستغانم فقد أثنى عليها البودليمي في قوله: "وصلت إلى مستغانم التي قيل فيها بحق ما قيل (إنها مسك الغنائم) وإنها بلدة على شاطئ

¹⁰¹⁴ - إسماعيل مامي، جولة نائبنا بالمغرب الجزائري والقطر الغربي، مصدر سابق، العدد 139

¹⁰¹⁵ - المولود بن محمد الأزهري، رحلتنا إلى المقاطعة الوهرانية، مصدر سابق.

¹⁰¹⁶ - على سبيل المثال رحلة فريد وحدي سنة 1901، ورحلة سكيروج (الرحلة الحبيبية الوهرانية) سنة 1911.

¹⁰¹⁷ - مامي إسماعيل، على جناح السفر، مصدر سابق، العدد 592.

البحر جميلة المنظر¹⁰¹⁸ وهي صورة عامة دون أن يضيفي عليها شيئا من التعليق حول هذا الجمال الذي يدّعيه.

3. 1. 1. بنية المدينة وطابعها

من محاسن الرحلات الحديثة أنها صوّرت لنا بنية المدينة الجزائرية في عهدها الاستعماري، خاصة المدن الغربية منها، حيث عثّش بها الاستعمار وبنى لنفسه مدنا ولما لم يجد من بدّ في إقحام شريحة العرب في محيطه لغايات ومتطلبات خاصة، جعل لهم تواجدا بمحيطه، فتميزت المدينة ببنية مزدوجة، برزت جرّاء صورة المجتمع الغربي ومحيطه العمراني وسبل عيشه، وبالمقابل تظهر الصورة المقابلة للعربي بصفات لا يحسد عليها، وجعل المعمر بين الطبقتين سدّا فاصلا، عبارة عن مسافة تقصر وتطول، إلا أنها تشكّل هوة حضارية، مما يشي بلسان حال الاستعمار الذي كان عنصريا في جميع صفاته وتصرفاته.

فقد تميّزت الكثير من المدن بطبقتين اجتماعيتين طبقة الأوروبي الذي ينزوي في مجتمعه الراقي ذي الأبعاد الأوروبية، والطبقة الثانية، طبقة العرب الذين يحاذونهم في مجتمعهم الفقير، المعوزّ، ويميزها طابعها الإسلامي بمساجده وزواياه. فمدينة وهران بالرغم من أنها تضمّ شريحة معتبرة من العرب إلا أنها لا تستطيع أن تضاهي شريحة المستعمرين التي كانت بكثافة، مما جعلها تميل إلى الطابع الأوروبي، مثلما يؤكد قادة بوجلال: "لا أقول فيها إلا أنها مدينة أوروبية بحثة سواء في سكانها أو مساكنها"¹⁰¹⁹ أما حارات العرب فلا يوجد بها "إلا المدينة الجديدة وهي مدينة عربية من حيث سكانها وفيها يوجد مسجدان للجمعة وبعض الزوايا الطرقية والكتاتيب القرآنية"¹⁰²⁰ ومثل ذلك ينطبق على مدينة بسكرة، ولو ببنية لا ترقى إلى مصافّ مدينة وهران، كما نستفيد في ذلك من حديث (إسماعيل مامي) عند قوله: "تنقسم إلى قسمين بسكرة القديمة وهي محل سكنى قدماء البسكريين وبسكرة الجديدة وهي التي بها السوق والبنائات الأوربية يوصل إلى بسكرة القديمة (ترامواي) بحصان وبينهما كيلوان ميّطر"¹⁰²¹ وهي المسافة التي حدّدها الأوروبي كي لا يقترب من العربي، ويكون لكلّ منهما شأن يغنيه. كما تميّز أيضا أن المدينة الأوربية هي التي زاحمت المدينة العربية، وليس العكس مثلما هو الحال بالنسبة لوهران.

¹⁰¹⁸ - علي البودليمي، عن الأستاذ السائح، جريدة لسان الدين، السنة الأولى، العدد 19، الجزائر يوم الاثنين 15 رمضان 1355 هـ.

¹⁰¹⁹ - قادة بوجلال، كل الناس كاملون، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 47، الجزائر يوم الأربعاء 22 ذي الحجة 1356 هـ، الموافق لـ 2 مارس 1938.

¹⁰²⁰ - كل الناس كاملون، مصدر سابق.

¹⁰²¹ - إسماعيل مامي، جولة نائبنا بالوطن القبائلي، مصدر سابق، العدد 179.

أما الرّحالة (الحسن الطولقي) فيفضّل أكثر في عناصر التمييز بين القسم الأوروبي والقسم العربي عند زيارته لمدينة (قصر البخاري) فيؤكد في قوله أن "قصر البخاري عبارة عن مدينة عظيمة وهي قسمان قسم يقطنه المسلمون خاصة ويدعى لدى القصريين بالقصر وقسم يقطنه الأوربيون ولفيف من المسلمين ويسمى عندهم بالفلاج¹⁰²² وبالقصر جامع الجمعة الذي حاز إعجاب السواح لنضارته وحسن مناظره والزاوية الموسمية، وبالفلاج الحمامات الفخمة والبنائات الأوروبية وإدارة البريد"¹⁰²³ إن القسم الأوروبي يتميز عن القسم العربي بنظامه المدني (عمران مدني - حمامات - إدارة بريد...) وهي خاصة مدنية، بينما القسم العربي فيتميز بعناصره المميزة - هو أيضا - (مسجد - زاوية) دليل على أن العربي والأوروبي يشكّان قطبين إيديولوجيين، كلٌّ يمتح من عناصره الذاتية.

وبعدّ هذا من الجانب الشكلي أما من جانب آخر فيتميز القسم العربي عن الأوروبي في عاملي التحضر والتخلف. فإذا كان الأوروبي له طابع واحد في شتى المدن والمناطق التي يأهلها، فإن صورة الجزائري في كل جهة له طابع خاص يتميز به، ووضع يتماشى مع ظروف الأحداث غير المستقرة، فمدينة (سيدي بلعباس) -مثلا- والتي سبقت الإشارة إلى جمالها وحسن بهائها في ناحية سكنى الأوروبي، ليست هي الصورة في جهة سكنى الجزائري، حيث تنتشر كل أشكال الآفات، يقول عنها إسماعيل مامي: "وألفت المدينة العربية المسماة عند الأهالي بالقرابة في تفهقها القديم وقبحها المستديم مقاهيها معمورة بالكسالى والبطالين وبطاحها مغمورة بالمداحين والمزميرين ونهوجها ملأى بالأشرار المدججين بسلاح العصي والهراوات إلى غير ذلك من المناظر البشعة والمقلقات"¹⁰²⁴ وهو عامل من عوامل النظام والانظام الذي أراده المستعمر أن يكون ليستقرّ له المقام مستثمرا في تدهور أحوال المجتمع الجزائري، حتى يستفيد من حق الشرعية الاستعمارية.

2.1. المكان المقدس وتجلياته

2.1.1. المساجد

يعد المسجد أهم مؤسسة اعتمدت في الحضارة الإسلامية -على الإطلاق- كنادي ثقافي واجتماعي وديني، تمارس فيه جميع النشاطات المرتبطة بهذه العناصر الحضارية. فهو ميدان للدعوة وحاضنة للتقوى، ومعلم للتعليم، وحصن للعقيدة، ومؤسسة اجتماعية وتربوية، ومقل للتحريض على

¹⁰²² - لفظ دارج منقول بلغته الأم (الفرنسية) ويعني village أي قرية.

¹⁰²³ - الحسن الطولقي، سوانح متحول، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 51، مستغام يوم 1 ربيع الأول 1357 هـ الموافق لـ 1 ماي 1938م.

¹⁰²⁴ - إسماعيل مامي، على جناح السفر، مصدر سابق، عدد 592.

الجهاد في سبيل الله "حيث كان يقوم في عصور الإسلام الأولى مقام المدارس والجامعات"¹⁰²⁵ وإذا كان للمسجد دور كبير في الإشعاع الثقافي والعلمي ومنارة سامقة في تاريخ الحضارة الإسلامية، فإن "المسجد أهم مكان تتمثل فيه العمارة الإسلامية والفن الإسلامي معاً"¹⁰²⁶ حتى أصبحت زينة هذه العمارة دلالة رمزية لا يستغنى عنها في أي مكان عبر أرجاء المعمورة، بل بات في عرف المسلم أن المسجد يعتمد على الجانب الشكلي كطود شامخ لما يشكّله من حافز نفسي ومعنوي، ومنه اتخذ مكانه العمراني الجمالي بعناصره المكونة الثابتة "منبر ومحراب وأماكن للوضوء ومآذن للآذان، ولكنها تختلف بطراز بنائها، وتزييناتها ومحاربا، وشكل مآذنها، ويغلب على كل إقليم نظام معماري خاص متأثر بالفنون المعمارية السائدة فيه"¹⁰²⁷ ولذلك يقوم المسجد عند المسلم على ثلاث جوانب: الجانب الروحي، والجانب الجمالي، والجانب الحضاري.

وقد برز المسجد في الرحلة الجزائرية الداخلية كظاهرة تركز حالة المجتمع الذي تضاءلت فيه أعداد المساجد، وخبأ دورها، مستجيباً للظروف حيث إن "فئة قليلة بل أقل من القليل تؤسس لها كنيسة ضخمة ومئات من المسلمين ليس لهم مسجد إنه لمّا يدعو إلى التعجب والاستغراب حقاً"¹⁰²⁸، وبات من الناظر الظفر بمسجد ذي هيئة جذابة، بل أحياناً يتعذر إيجادها تماماً، فإذا وُجد فهو لا يمثّل ذروة العمارة، وإنما يقاس ذلك على معايير البناء الوظيفي، لا الشكل الفني الرمزي، مثلما تؤكد كثير من الرحلات "القرية الأولى لها مسجد كبير متقن الصنع والبنان"¹⁰²⁹ أو على أساس العدد المتواجد في كل مدينة أو قرية، لأن الصراع لم يكن على أساس النموذج الحضاري، بل على الحجم والعدد كي يضمن أكبر نسبة للمسلمين في ممارسة شعائر دينهم "وبالبيّض أربعة مساجد تقام بها الجماعة والجمعة ولهم صبغة دينية جميلة كلها إيمان طاهر"¹⁰³⁰ ومثل ذلك نجد "بمدينة معسكر مساجد تاريخية وأشهرها الجامع الأعظم الذي يقع وسط المدينة ومن أشهر مساجدها التاريخية مسجد العين البيضاء ويسمونه جامع البيعة"¹⁰³¹ وهو تعدّر واضح من الرحالة الذي لم يجد نشوة الحديث عن هذه المساجد بما تحمله من صبغة دينية وعلامات حضارية، فاكتمى بهذا النزر القليل من الإحصاء دون الوصف.

¹⁰²⁵ - طه عبد المقصود أبو عبيّة، الحضارة الإسلامية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ج1، ص 37.

¹⁰²⁶ - أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1977، ص 62.

¹⁰²⁷ - المرجع نفسه، ص 62.

¹⁰²⁸ - علي مرحوم، حديث المتحول - الجولة الثانية - البصائر العدد 117، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، 11 ربيع الثاني 1357، الموافق لـ 10 جوان 1938.

¹⁰²⁹ - علي مرحوم، حديث المتحول، مصدر سابق، العدد 115، السلسلة الأولى، السنة 3، الجمعة 27 ربيع الأول 1357، الموافق لـ 27 ماي 1938..

¹⁰³⁰ - حديث متحول النجاح.. قاضيان في البيض!، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3864، يوم 10 ربيع الأول 1370هـ، الموافق لـ 20 ديسمبر 1950 م.

¹⁰³¹ - المصدر نفسه.

ولم يخرج حديث المساجد عن معجمه وسياقه الذي طغى عليه ضعف حالها، وضحالة مآلها، حتى منها التي نأت عن بسطة المستعمر، كما هو الشأن بالنسبة للمجتمع الصحراوي، فهي على نسق المجتمع عامة، حيث لا تجد فيها ملجأ للراحة ولا مأوى للطمأنينة كما يؤكد الرّحالة الإصلاحي علي مرحوم، عن حالة مسجد جامعة "عرفت في البلدة مسجدا واحدا كبيرا متقنا، ذهبت لأصلي فيه فلم أجد لا ماء ولا "مستراحا"، وعرفت أن سير الحركة الإصلاحية ضعيف جدا"¹⁰³² وقد لجأ الرحالة إلى نسق إيديولوجي، حيث يوحي لنا بأن الحركة الإصلاحية الجزائرية، تقوم بالدور الكامل من أجل تقوية شوكتها، وجعل قوتها من قوة مساجد القرى والمدن، وقد عمت هذه الظاهرة بالفعل وكان نفوذها كبيرا حتى عمت أرجاء الوطن، بما فعلته من تشييدها للمساجد التي أتت ثمرتها يانعة خلال ظرف وجيز.

وهو حال مجتمع مسلم يقبع تحت ظل راية المستعمر الذي لا يدين إلا بدين القوة والبطش، وإذا استنجد بوسيلة لذلك فيؤسس للكنايس حتى تظل تمثل رمزية النصرى، ويحرم المسلمون من ملجئ لتمثيل دين الله الحق حتى غدت صبغة المقدسات صبغة نصرانية كما نستشف من قول علي مرحوم: "عندما كنت مطلاً على القرية رأيت صومعة الكنيسة تعلو فوق المنازل فخلت أنها صومعة مسجد ولما أمعنت النظر جيّدا تبين لي خلاف ظني"¹⁰³³ وكثيرا مما خلّده الأجداد من مساجد قد جعلها المستعمر كنائس حتى يحجب بذلك آثار المسلمين ويطفئ نور الله منه، وقد عمّت هذه البلوى كل القطر الجزائري إلا ما رحم ربي، يؤكد ذلك (محمد العلمي) في تعليقه على أحد مساجد قسنطينة في هذا الشأن "وأما جامع أحمد باي -جامع سوق الغزل- فهو الآن كنيسة ولكنه بقي بسواريه ونقشه ومحرابه ومنبره أعجوبة أعاجيب الدنيا فلا يوجد ما يضاهيه حتى في أعظم بلدان الإسلام شرقا ومغربا"¹⁰³⁴

وتعد المساجد العتيقة التي حافظت على سمعتها وكرّست نشاطها قليلة، وأهم صورة عنها وأحسنها، تلك التي خاطبنا بها "حسن الوارزقي" من خلال مساجد تلمسان "مساجدها كثيرة حسنة جميلة ومن أشهر مساجدها، مسجد أبي مدين والجامع الأعظم وما أدراك ما هما، أما مسجد أبي مدين فيقع خارج المدينة بقليل، وأما الجامع الأعظم فيحتل أحسن بقعة بوسط مدينة تلمسان ولا تسأل عن سعة أرجائه وجماله ونظافته وكثرة حزابته حفاظ القرآن بالمد والوقف

¹⁰³² - علي مرحوم، حديث المتحول "في دورته الثانية، مصدر سابق، العدد 162، الجمعة 1 ربيع الأول 1358 الموافق ليوم 21 أبريل 1939م

¹⁰³³ - المصدر نفسه، العدد 117.

¹⁰³⁴ - الرحلة القسنطينية، مصدر سابق، العدد 781، الاثنين 2 سبتمبر 1929. الموافق لـ 29 ربيع الأول 1348 هـ.

الذين يرتلون القرآن في أوقات معلومة بأسلوب حسن يخلب الألباب، وقد كنت أذهب إلى الجامع الأعظم بتلمسان لأداء صلاة المغرب فلا أستطيع الخروج منه لعذوبة تلاوة القرآن وحسن تلاوة الطلبة أحسن الله إليهم¹⁰³⁵ ولم يكن لهذا المسجد هذا الدور إلا لأن مجتمع تلمسان حافظ على هويته الإسلامية، بفعل تماسكه وقلة اختلاطه بالأوروبي. أما مدينة وهران فبالرغم من كبرها وكثرة سكانها فلا يوجد فيها من المساجد الرسمية إلا "مسجد البايعتيق وفيه توجد المحكمة الشرعية وبيت الفتوى لفضيلة الأستاذ النسيب الشيخ البدوي نجل الفقيه الأنور الشيخ المنور"¹⁰³⁶.

2.1.2. الزوايا

تحتل (الزاوية) في المجتمع العربي الإسلامي مكانة خاصة، وخصوصا بالمغرب العربي الذي عدّها مركزا أساسيا في الرباط والعلم ومجاهدة النفس والعدو على مرّ قرون متتالية عديدة من تاريخه الإسلامي.

و(الزاوية) مؤسسة دينية لها مكانة ووظيفة اجتماعية بالغة الأهمية، تُحقّق مجدها على حسب طاقمها المرشد وشخصية زعيمها القوية، فإذا خبّت هذه الشخصية تغير حالها واضمحلت مفعولها. ونلفيها قد حققت تواجدا كثيفا في الرحلة الجزائرية الحديثة، كون الكثير من الرحالين من ذوي الاتجاه الطرقي، كما أننا نجد لها ذكرا في كثير من الرحلات غير الطرقية بمقاصد مختلفة.

والمميز في نصوص الرحلات أنه يقل فيها الحديث عن وصف الجانب العمراني إلا عارضا مثل ما نجده في تعليقات وصفية طفيفة كهذا الوصف الذي ندرجه حول زاوية ندرومة: "الزاوية الواسعة الفضاء، المتقنة البناء على شكل بديع ونوع من التحفة والطرز العصري- لتعليم بنهم الصغار القرآن الكريم مجودا ويلقنهم مبادئ الإسلام ويهذب أخلاقهم ويربي عقائدهم"¹⁰³⁷. أو وصف البودليمي للزاوية العلوية بمستغانم بعد ما أصابها من الإضافات عقب وفاة مؤسسها الشيخ مصطفى العليوي، فيقول: "رأيت بنايات جميلة وبيوت ضخمة وتحسينات متقنة زادت بها الزاوية تحفة في داخلها وخارجها فلما نظرنا إلى تلك الزيادة المشاهدة التي تسر كل مؤمن قلت حقا كما قال الشاعر: فما راء كمن سمع"¹⁰³⁸ ولا نستطيع معرفة حقيقة الطاقة الجمالية التي كان يتميز بها

¹⁰³⁵ - حديث متحول النجاح.. مصدر سابق، العدد 3853.

¹⁰³⁶ - كل الناس كاملون، مصدر سابق، العدد 47.

¹⁰³⁷ - خطاب أحمد الملباني، رحلة العالم الكبير سيدي أبي عبد الله الرزوي، جريدة الرشد، العدد 47، الجزائر يوم 29 جمادي الأولى سنة 1358هـ الموافق لـ 17/07/

1939.

¹⁰³⁸ علي البودليمي، عن الأستاذ السائح، مصدر سابق، العدد 19.

عمران الزوايا إلا بالقدر الذي يمنحها مستوى عاما، قد نجد فيه كل الرحالين وإن أثنوا على البناء وصوّروا لنا قدرته الفائقة، إلا أنه لا يمكننا الحكم لا على الزاوية وحجمها الجمالي، ولا على الرحالة ومستواه في تقدير الجمال، فمثلا عندما نسوق نموذجا عن إحدى هذه الزوايا يقول فيها واصفها: ". وأنزلونا بالزاوية العلوية التي بنيت على نفقتهم فكانت من أحسن ما يرى في القرية من جهة البنيان المتقن لأن أهل هذه القرية أهل تفنن في صناعة البناء وقد أفرغوا جهودهم في إتقان بنائها فكانت حسنة المنظر متسعة الرحاب"¹⁰³⁹ وهنا نتساءل عن مستوى الحسن الذي أتقنه أهل القرية المحترفين، وهل هؤلاء البنائين لهم باع في هندسة البناءات ومعماريتها أم مجرد بنائين يتقنون حرفتهم؟.

أما من الجانب الوظيفي لهذه الزوايا فما تحقق لنا من حديث الرحالين سوى حديثهم عن اللقاءات التي كانت تتم بين شخصيات المرتحلين والشخصيات المنتمية للزاوية في إطار العمل الطرقي من مؤانسات وولائم ومذاكرات، والأمثلة في ذلك كثيرة وكلها تتقارب في نمطها تقريبا، وهي -مثلا- على التوالي: "قصدت الزاوية العلوية فوجدت بها الأخ المحترم سيدي الحاج محمد حداد فقابلني ببشاشته المعروفة وأدخلني إلى منزله الخاص المحاذي للزاوية العلوية فاسترحت فيه ساعة وتناولنا أطيب الحديث عن أحوال الزاوية والأحبة وفي عشية ذلك اليوم خرجنا لملاقاة الأحباب فتوجهنا توا إلى صديقنا في الله ومحبنا من أجله ذي الأخلاق العالية والأأيادي البيضاء في المشاريع الخيرية سيدي الحاج صالح ابن مراد التلمساني فمرحب بنا كعادته"¹⁰⁴⁰ وقول آخر: "قصدت من حين وصولنا الزاوية العلوية المعمورة بفقيد الإسلام والمسلمين ذي الفضائل المتكاثرة والحجج القاهرة قدوة السالكين ومربي المريدين مولانا أبي العباس الشيخ سيدي الحاج أحمد العلوي قدس الله سره فاجتمعت بشيخ الزاوية الأخ المحترم سيدي الحاج عدة وبعد تبادل التحية الودية تفاوضت معه في شأن الزاوية وما هي عليه بعد وفاة مؤسسها رضوان الله عليه"¹⁰⁴¹ وهي في العموم تدخل في العمل الروتيني التي يتبادل فيه الطرقيون الزيارات لشؤون مختلفة ومقاصد شتى، بعضها يدخل من باب لجوء المضطر حين السفر.

أما الزاوية في تحليلها العام، من حيث هي مؤسسة دينية تربية، فنجد ذكرها على هذا الصعيد تحفل بمزاوتها لنشاطها الطبيعي، الذي يتمثل في الغالب حسب ذكر أحدهم: "وبعد مهلة طلبوا منا

¹⁰³⁹ رحالة مجهول، لإحياء الصلة والوداد، جريدة لسان الدين، السنة الأولى العدد 22، الجزائر يوم الخميس 30 شوال 1355.

¹⁰⁴⁰ علي البودليمي، عن الأستاذ السائح، مصدر سابق، العدد 19.

¹⁰⁴¹ علي البودليمي، عن الأستاذ السائح، مصدر سابق.

أن نذهب إلى زاوية السادة العيساويين لنؤدي فيها العشاء؛ وحينما وطئت أقدامنا وصيد الزاوية خرق آذاننا صوت بلهجة مؤثرة والألفاظ العربية تتناثر منه وتتساقط في الأذهان مثل الدرر"¹⁰⁴² ولا تعدو هذه الدرر إلا ما يزاوله معمرو الزوايا من ذكر وحفظ للقرآن الكريم، ومثل ذلك يؤكد آخر "قصت زاوية أقالال الرحمانية.. ولما وصلتها وجدتها زاوية عامرة بدراسة العلم وقراءة القرآن الكريم"¹⁰⁴³ أو ما يتعلق ببعض مدارسات في الكتب التي تحتوي على الدرس التقليدي خصوصا ما يتعلق بالتصوف "وقد وجدنا الأول يقرأ درسا من سيدي ابن عاشر في الزاوية القادرية بلهجة فصيحة وإيضاحات صريحة تدل على تضلعه ورسوخ قدمه في العلم"¹⁰⁴⁴..

كما تتميز الزاوية بالإضافة إلى كونها مقصدا لطلاب العلم وحفظ القرآن، ومحطة للمذاكرة والوعظ، فهي مكان مختص في إيواء ومؤونة الضيوف، وملجأ للغرباء والفقراء، مثلما يؤكد ذلك إسماعيل مامي: "زيادة على ما للزاوية من أعمال البر كالتعليم وقراءة القرآن بها وكإيواء الغرباء ونشر لواء السكينة والسلام بين سائر العناصر المتساكنة والأجناس المعمرة بتلك النواحي"¹⁰⁴⁵ كما تشهد الرحلات في مدوناتها أن للزاوية روحا للإيثار، وميدانا للتبرع بالوقت، في سبيل الله، فقد كان جلّ المدرّسين بالزوايا أهل فضل يتكرمون بأوقاتهم وجهودهم في سبيل التدريس وتلقين العلم دون مقابل، فهي في غالبها أعمال تطوعية، يقوم بها بعض القائمين عليها كـ "الزاوية القادرية بتقرت فالعلم والأدب والأخلاق يتطوع بنشرها الأديب العالم الشيخ معراج دربال الزيتوني ولقد اجتمعنا بهؤلاء الرجال ولقينا منهم كل حفاوة وإجلال وبالخصوص من ذلك الأديب اللطيف مزوار، فله ولهم جميعا جزيل شكرنا وامتناننا وتحياتنا المتجددة"¹⁰⁴⁶.

4. صورة المجتمع

2. 1. المظاهر العامة للمجتمع

2. 1. 1. صورة البؤس والاضطهاد

¹⁰⁴² - رحلة العالم الكبير سيدي أبي عبد الله الرزوي، مصدر سابق، العدد 47.
¹⁰⁴³ - الحسن الطولقي، سوانح متحول، مصدر سابق، العدد 52.
¹⁰⁴⁴ - لخضر عمروش، سياحة المدير، جريدة البلاغ الجزائري، العدد 254، يوم 7 محرم 1351 هـ، الموافق لـ 13 ماي 1932م.
¹⁰⁴⁵ - علي جناح السفر، مصدر سابق، العدد 574، الأربعاء 12 شوال 1346 الموافق لـ 4 أبريل 1928.
¹⁰⁴⁶ - حديث متحول النجاح.. في الصحراء.. من وراء الرمال..!، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3892، يوم 26 جمادى الثانية 1370 هـ، الموافق لـ 26 أبريل 1951م.

يعبر الوضع الجزائري عن حاله في كل تفاصيل الحياة، فهو لم يسلم من الصور السلبية على جميع الأصعدة، حيث يعاني الفرد فيه الويلات وصعوبة العيش وقساوة الطغيان الاستعماري، وقد تمثلت صور معاناته في أشكال متعددة، وعلى مستوى جميع الفئات وشرائح المجتمع، كما هو الحال في جميع شؤون الحياة ومتطلبات العيش.

إن وضع الجزائريين لم يكن على حال المحسود عليه، وإذا كان التاريخ يعتمد على مصادر ووثائق تؤرخ لتلك اللحظة لتبرز أهم تفاصيل القضية، فإن النص الرحلي يشكل أهم تلك الوثائق حيث يعيش اللحظة ويؤرخ لأهم ما يطفو على سطح واقعها بجماد موضوعي، وبتذويت يعود إلى مرجعية كل رحالة مسه من صنوف تلك المعاناة، وإذا كان علم التاريخ يُبرز أهم القضايا بتجريد جافّ، فإن الرحلة تنقل تفاصيل الواقع كقطعة منه، فتضيف عليه شرارة لأبعاد ذلك الواقع، هذا الواقع الذي شهد على أن "في الجزائر طبقة من الناس كبيرة وكثيرة جدا تعيش عيشة البؤس والمسغبة عيشة لاستعطاف المشين الأفكار اللعين، عيشة الفقر المدقع والامتهان تطلب القوت فلا تجده إلا من فتاة الموائد، وتطلب العمل فلا تجده إلا في حمل أمتعة المحظوظين من الناس ومسح أحذية السعداء"¹⁰⁴⁷ وهي لحظة البؤس المرّة التي لا تعبر عن حالة الطبقة في المجتمع المختلّ الذي يمكن أن تعالج قضاياها، بل على حالة البؤس التي فرضها هذا الأجنبي السعيد على الجزائري في صورة الإذلال حتى صارت كما يعبر الرحالة (حسن الوارزقي): "طبقة في جهنم الدنيا تعاني عذاب الحرق، حرق الأفتدة الملتهبة المتلهفة، فسبحان من قسم السعادة والشقاء بين عباده في الدنيا والآخرة، فريق في الجنة وفريق في السعير!"¹⁰⁴⁸ إلى هذا الحد يعتبر الرحالة هذا الفرق بين الأجنبي في سعادتهم وتلذذهم بمعاناة الأهلي صاحب الدار.

ومن حيث ما وليت وجهك وأنت متجول بربوع الوطن، إلا وحاصرتك صور البؤس، وضايقتك عبرات الغبن، وانتابتك كدمات الغيظ، هذا ما يصرّح به جميع الرحّالين الذين التفتوا إلى حالة المجتمع، لقد كان "المتجول في هذه الديار إذا ما تأمل حال ذوبها لا يحجم أن يقيّد خطرات فكره كلما تداعت لمشاهدة الأهلي في تقلباته، ومستواه الاقتصادي والأدبي؛ ذلك ما دعا هذا النائب¹⁰⁴⁹ لأن ينقل بلسان قلمه ما عساه أن يلفت الأنظار، ويحثها على الاعتبار"¹⁰⁵⁰ هكذا يدلي الرحالة

1047- حديث متجول النجاح.. في عروس العواصم جزائر بني مزغنة!!، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3904، يوم 9 شعبان 1370هـ، الموافق لـ 16 ماي 1951م.

1048- المصدر نفسه.

1049- يعني به نائب عن جريدته "الشهاب" أي المبعوث الصحافي.

1050- عبد الرحمان الحسيني، تأملات مسافر، مجلة الشهاب العدد 108، السنة الثالثة، (الإثنين 5 صفر 1346هـ/04-08-1927).

(عبد الرحمان الحسيني) ولعل من شهاداته على هذا الوضع تجاه هؤلاء المحرومين تلك التي ينقل لنا فيها وضعية من وضعيات البؤس في أنحاء بجاية، إذ يقول: "سائرنا البحر من جيغل إلى بجاية طريق مخطوطة من سفح الجبال تصل البلدة الأولى بالثانية. فلا يرى السائر إلا الجبل يسارا والبحر يميناً وما كدنا ندنو من بجاية حتى وقع نظري على أطفال وبنات مغبرين يعلو وجوههم الوديعه الجميلة نقاب البؤس"¹⁰⁵¹ إن صور البؤس والمعاناة في المجتمع الجزائري صنوف متنوعة، وكلها تصبّ في خانة واحدة وإن تعدّدت أشكالها، منها ما يرتبط بالفعل المباشر الذي يسلطه أفراد المستعمرين، ومنه غير المباشر وهو في الوقت نفسه نتيجة من نتائج الفعل الاستعماري.

فقد كان الجزائري في كل حياته معرّضا لفعل البؤس والمعاناة لأنه لا يملك القوّة على ردّه، ولا يملك مقوّمات العيش الكريم والحياة السعيدة، حتى يتفرغ لما هو أجدى. إن أبسط الأشياء في الحياة لم يكن مطلبها يسيرا، كطلب العلم -مثلا- وهو من المطالب الشرعية والأمور الضرورية في حياة كل مجتمع، فإنّ مطلبه بات عسيرا في ظلّ عسر الحياة وشظف العيش، وشدة الفقر، وسدود الباطل المسلط من قبل المستعمر، وهي العوامل الكبرى التي جعلت سواد الجزائريين لا يفكرون في أمر الدراسة ولا يجدون في ذلك من حيلة ولا وسيلة، فكانت حظوظها تقوم على أمرين، إما شدّ الرحال إلى بلدان مجاورة وهم في سنّ لا تسمح بتحمل الصعاب مما يدخلهم في باب المغامرة والمقامرة بالحياة، وإما أن يعاني منهم الفرد في بلده المحروم من مراكزها التي وإن وجدت فهي لا تلبي أدنى شروط كرامة طالب العلم، وإذا ما صالت الإرادة في البحث عن قطرة العلم التي كان مطلبها عزيزا، وكيفيتها معاناة، فإنّها لا تعدو أن تحقق أكثر مما حدّثنا به من هذا هذا الحدو: "كانت عادة الطلبة بهذه القرية أن يطوفوا على الأبواب في الصباح والمساء يجمعون غذائهم وعشاءهم، وبعد مشاق وأتعاب ونبح الكلاب، يعودون إلى المكتب بأطعمة مختلفة الألوان متباينة الشكل والمقدار وقد اختلط رطبها بيباسها وحرارها بباردها، وجامدها بمائعتها، فصارت بالخلط بشعة كريهة المذاق، بل استحالت إلى مادة سامة لو فحصها الطبيب وحللها تحليلا كيميائيا لمنع تناولها حتى على من لا يجد ما يسد به رمقه"¹⁰⁵² وهي صورة واضحة لا تحتاج إلى تعليق لإبراز معالم البؤس، هذا إذا أراد الجزائري أن يبحث عن شيء من مبادئ العلم وصنف من صنوف المعرفة، وإلا فالصورة تزيد سوءا إذا ما بقي دون هذا المطلب، فيكبر عود الجزائري أعوجا من فرط الجهل.

¹⁰⁵¹ - تأملات مسافر، مصدر سابق.

¹⁰⁵² - أنفس الذخائر وأطيب المآثر، مصدر سابق، ص 40.

ومن صنوف البؤس التي كان يعاني منها الجزائري بفعل مباشر من أرباب الأمر والنهي (المستعمر) الذي لم يكن يرى في الجزائري إلا دونه في الإنسانية. ولم يكن الأوروبي ليخفي عنصريته فهو المتسلط على البلاد وهو في كل هذا، الخصم والحكم، يمارس طغيانه بصورة مباشرة لأن الجزائري محاصر بقبضة من حديد، ليس له فيها إلا أن يكون نموذجاً للاستكانة والهوان، لا حق له في العيش بل ليس له أدنى امتياز بسيط في بلده، ولا يمارس نشاطه الطبيعي، وإذا ما أعطي من ذلك شيئاً فإنه لا يمثل ذلك إلا المزهود فيه، مثلما يشهد بذلك "أحمد قصيبة" عن القسمة الضيزي التي يقيمها المستعمر على أراضي الشلف -مثلاً- الفلاحية: "وفي تلك القرى الجبلية المحدودة الرزق تجد الأوروبيين قد عمّروها ولم يبق إلا المزهود فيه للأهالي الفلاحين الجبليين"¹⁰⁵³. وهذه القسمة وهذا التصرف وهذه العدالة الاستثنائية، لم يخصّ بها المستعمر منطقة عن أخرى.

وقد كان المعمر صريحاً في معاداته للجزائريين، يمارس عليهم كل أشكال الطغيان، مولداً فيهم عقدة الاغتراب والدونية، وحيث لم يكن للجزائري من ملجئ سوى بلده، فقد كان يعتبر فيها منبوذاً عديم الحق، ولو تعلّق الأمر بأبسط شيء في الحياة، ما دام أن الإنسان له حاجات طبيعية، وهذه واحدة من المجموع الذي ينقله بعضهم "ومررت عشية بحلاق من الدرجة الوسطى، في النهج المركزي بالبلدة (المسيلة) وكان أصحابي بمقهى، ودخلت أود قص شعري وإذا بالحلاق، وهو إيطالي واضح السحنة، بادي اللكنة، يعترضني عند الباب ويقول بلهجة سقيمة: لا! لا تدخل، هذا خاص بالأوروبيين فحسب"¹⁰⁵⁴ ولم يكن للحلاق إلا الامتثال لأوامر فوقية تجبره على النيل من كل جزائري فلا يكون أمرهم شركة بالأوروبيين، ويبرّر ذلك "توفيق المدني" على لسان الحلاق قائلاً: "أنا حلاق بسيط، مهمتي أن أكسب قوتي وقوت عيالي، وأود أن أقوم بخدمتك وأخذ منك مالا، فإذا كنت أقول لك لا فاعلم أن الدافع إلى ذلك إنما هو خوفاً على حياتي المادية"¹⁰⁵⁵ وأبعد من ذلك أن الجزائري كان في مواضع يمنع من دخول الحمام المعدني الذي تحكمه قوانين المؤسسة بأسباب واهية وحجج ضحلة، بينما يأتي الأوروبي ليسمح له ولكلبه الولوج، مثلما تؤكد هذه الصورة "أما في الحمام"¹⁰⁵⁶ فقد رأيت أن الرجل الأوروبي يدخل مع زوجته مع أن قانونها يمنع هذا

¹⁰⁵³ - حديث مندوب جمعية العلماء: حركة جمعية العلماء بعمالة الجزائر، مصدر سابق.

¹⁰⁵⁴ - حياة كفاف، مصدر سابق، ج2، ص 100.

¹⁰⁵⁵ - المصدر نفسه، ص 101.

¹⁰⁵⁶ - حمام للوان، حمامات معدنية تقع ببلدية الارباء ولاية البلدية.

ورأيت عجوزا من وراء البحار تجر كلبها المدلل وأدخلته بيت الاستحمام معها"¹⁰⁵⁷ والرحالة يروي هذا الحدث بعد أن تحدّث عن حرمانه من دخول الحمام، ولما رأى كيف تُكّال الأمور جعل يتحدّث عن هذا الوضع باستغراب.

وفي حالات كثيرة إذا ما دُعي الأمر واقتضت الحاجة، تسلك فرنسا الاستعمارية مسالك ملتوية لتدمير رسائلها الاستعمارية، فكانت تصنع من كل قضية عنوانها، أما الفعل العام فلا يطابق ذلك تماما، ومن ذلك، الحق الديني الذي كان عنوانا لكل خطاب فرنسي، أما الحقيقة فهي العكس، حيث كان الجزائري غير معترف به كإنسان له قداسة وله حقّه الإنساني يستحقّ التكريم على ذلك. ولما كان الحج فريضة دينية، وفرنسا تعامل الجزائريين بمبدأ الذئاب مدّعية أنها تحترم هذا الحق، فإن هذا الاحترام غير تام، عندما تقرّ هذا الاعتراف من الطيب المهاجي حين يقول: "فلقد رأيت بعين رأسي المركب البحري الذي أقلّ الحجاج إلى جدة، وقد أفرغ من حمولته وهي كميات من أطنان الحنطة، ثم غسل بماء البحر، وبقيت حبوب الحنطة في شقوق المركب، كما بقي في بعض زواياه أثر أرواث البقر والأغنام، وباقي الدواب التي كان المركب ينقلها من بلد إلى بلد، ولا تسأل عن رداءة الطعام الذي يُقدّم للركاب والذي أخذ منهم ثمنه مقدما قبل الركوب كاللحم المثلج المتغير الرائحة والطعم، يعطونه في الأسبوع مرتين أو ثلاثا"¹⁰⁵⁸ فهذه هي حدود الكرامة البائسة التي كانت تمثليتها واضحة بالنسبة للفرنسيين، وقد أبرز الرحالة تضايقه الشديد من هذا التصرف الذي في كل أحواله تضيقا في السفر، تمثّلت في صعوبات الحصول على الرخصة التي لا تتعدّى مدتها أربعين يوما ذهابا وإيابا "وزيادة على هذه التضيقات تصحب الحاج عيون من طرف الحكومة تراقب حركاته وسكّنه وتحصي عليه عدد أنفاسه حتى يعود إلى المكان الذي ركب منه عند خروجه من منزله"¹⁰⁵⁹ ومع هذا كلّه فإن فرنسا كانت تقوم بالدعاية لاحتوائها أمر المسلمين ولتبيين للرأي العام أنها تقوم بواجبها تجاههم كونها المسؤولة على أمرهم، فتدّعي أنها تساوي بينهم وبين أبنائها الشرعيين، فكانت "تنشر على ألسنة الجرائد، وبواسطة الخطب المذاعة التي يخطبها أقوام اصطنعتهم الحكومة لنفسها أنها تُعين المسلمين الجزائريين على إقامة شعائر دينهم، وتبجّح دائما بأنها تسهر على راحة الحجاج، وتهيئ المراكب المحتوية على جميع المرافق. وهكذا تُلبس الحكومة

¹⁰⁵⁷ - ع. غ.، المحرمون في الأرض الطيبة رفقا بنا يا سادة...، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، س 7، العدد 285، 20 محرم 1374 هـ الموافق ل 17 / 9 /

1954م.

¹⁰⁵⁸ - أنفس الذخائر، مصدر سابق، ص 68.

¹⁰⁵⁹ - المصدر نفسه، ص 68.

الفرنسية على من لا يعرف مقاصدها ونواياها السيئة تجاه أبناء الجزائر¹⁰⁶⁰ وهذه تصرفات كل مستعمر جاثم على صدر مستعمره، يستغل ضعفهم، ويعمل على الدعاية المغرضة. وبفعل هذه الصور المنكودة، التي صيرها الاستبداد معتمة، يكون الأديب قد استلهم من فيض خاطره، وحرقة وجدانه، فصار لا يجزئ الصور، بل يراها نسقا كلياً ويعبر عنها باغتراب، وهو يقف على مرمى الحقيقة، وأحسن من يصور ذلك "عثمان سعدي" وهو يكشف عن هذا الواقع البائس، الذي يجسده بخياله خلال مفارقتة مضطراً أرض الوطن، تاركاً رسالة معبرة عن تلك الحالة بقوله: "وقفت واتجهت نحو الشاطئ متأثراً بهذه الأشياء فهي خيالات وظواهر بالنسبة إلي ولكن متأثراً بالجواهر، مجتازاً بمخيلتي إلى ما هو أبعد من واقعي وقفت لأقارن بين عهدين: عهد مضى وانصرم بسعادته وعزه، وعهد لا زال جاثماً على صدرك أيها الوطن العزيز - بأثقاله ومصائبه"¹⁰⁶¹ إن الرحالة يستعيد زمن العزة، يوم كانت سفن الجزائر سيّدة البحر الأبيض المتوسط، "ما إن تمعنت في امتداد شاطئك حتى انسلت مني المخيلة إلى عصر كانت تخرج منه سفنك لتحطم أساطيل الدول العظمى التي نفخ أشداقها الغرور، فأحس بلذة ما بعدها لذة، لذة العز لذة القوة"¹⁰⁶² وقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فأصبح الواقع هو الدم الذي يسري في الحياة، ويبقى التاريخ مجرد ذكريات، هذا الواقع الذي أصبح فيه الميناء الجزائري شاهداً أحرساً على خيارات تخرج من باطن أرض الذين هم في حكم البائسين، فلا هي أطعمتهم من جوع ولا آمنتهم من خوف "لكن سرعان ما يخونني الواقع فيرجع بي إلى الحاضر فأرى البواخر خارجة من ثغرك محملة بخيراتك تاركة من ورائها أبناء يعبث بهم الجوع، وفلذات أكباد يعبث بهم الحرمان"¹⁰⁶³، وجملة القول إن الجزائري كان محروماً بائساً في بلده الغني بالثروات الرابض على كنوزها الاستعمار، مسجلاً في سجل المعوزين، بطرق جائرة ومستبدة.

2. 1. 2. صورة الجهل والأخلاق الفاسدة

لقد شكّلت الظروف التي عاشها المجتمع الجزائري في عصره الحديث تحت ظل قبعة استعمارية انعكاساً طبيعياً لما آلت إليه الوضعية الاجتماعية التي تناسل من رحمها سيئات كثيرة، أهمها الجانب الأخلاقي الذي عملت الظروف (من تجهيل وأمية، وإبعاد عن الدين - ممارسة ووازعاً-) على خلقها

¹⁰⁶⁰ - المصدر نفسه.

¹⁰⁶¹ - عثمان سعدي، وطني، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، س 6، العدد 251، 12 ربيع الثاني 1373 هـ الموافق لـ 17 / 12 / 1953 م.

¹⁰⁶² - المصدر نفسه.

¹⁰⁶³ - المصدر نفسه.

وتعميمها على المجتمع الجزائري حتى أعطت صورة متكاملة عن هذا الوضع المزري الذي عبّر عنه جمع من الرحالين مبدين انطباعاتهم فيه بكثير من الاستياء، وقد ركّزوا عن صورة المجتمع الأخلاقية التي مسّت لبّ الأخلاق ومواطن الداء، ويتبين كيف أن الجهل يكون عدوًّا ينخر المجتمع في نظامه وفي توازنه. لقد صارت البيئة الجزائرية لا تصلح ولا تطاق من فرط الجهل والفساد الذي لحق المجتمع، وهو ما جعل (الفضيل الورتلاني) يعبّر عنه بصورة عامة بقوله: "وأما بيئة الإنسان فيها فإني لتعروني هزة وروعة إذا ما حاولت تصويرها، وإن القلم ليرتعد تبعاً لارتجاف يدي تردّداً واحتشاماً، وعليه فإني طبعاً لا أفي للموضوع حقه ولا معشار حقه"¹⁰⁶⁴. وهذا منطلق الإصلاحيين الذين استمدّوا مبادئهم استناداً لهذه الدوافع. ويكرّسها رحالة آخر عندما يجمع عوامل صناعة التردّي الاجتماعي والانزلاق الأخلاقي، انطلاقاً من وصف الحالة عن مدينة "تقرت" "التي وجد الجهل والجمود فيها مرتعاً خصباً، وتمكنت فيها الفوضى الدينية والاجتماعية إلى أقصى حدّ للتمكن، وزاد في ذلك غطرسة الحاكم وجبن المحكوم فلا حول ولا قوة إلا بالله"¹⁰⁶⁵ وهي العناصر الكافية لصناعة الانحراف في أي مجتمع.

1.1.1.2. ظاهرة سب الدين

ومن أهم الصور التي تبادى فيها المجتمع وأسرف في سفالته، آفة سب الدين التي أكّد عليها عمر بن قدور، والتي لاحظها بكثرة خلال رحلته التي قادته من الجزائر العاصمة باتجاه قسنطينة، سنة 1913م، ففي كل بلدة كان يجلّ بها إلا ويلاحظ الوضع نفسه، ومن هذه الصور تلك التي أكّد عليها ببلدة برج بوعريّيج "إن أخلاق المسلمين في هاته الناحية تشبه أخلاق الكثيرين من مسلمي العاصمة، وذلك من حيثية الجهل والانحطاط، وحسبك بفضيحة شتم الدين والتجاهر بفحش القول، فكما الشأن في العاصمة متفام من هاته الحيشية فكذلك الحالة هناك"¹⁰⁶⁶ إن فضيحة سبّ الدين نسق أنتجته طبيعة الطبقة التي مارستها سياسة الاستعمار في تعمّده تجهيل المجتمع الجزائري وتشثيته جماعياً، وزرع فيه الشك بإبعاده عن أصوله التربوية والأخلاقية، فليس له من سبيل إلا هذا المستنقع النسقي الذي أصبح بيئة الجزائريين فتعايشت فيه الأجيال.

¹⁰⁶⁴ - الفضيل الورتلاني، رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، مجلة الشهاب، الجزء السابع المجلد العاشر، (غرة ربيع الأول 1353هـ/جوان-1934).

¹⁰⁶⁵ - علي مرحوم، حديث المتحول "في دورته الثانية، مصدر سابق، العدد 162، 1 ربيع الأول 1358 الموافق ليوم 21 أبريل 1939م.

¹⁰⁶⁶ - سوانح الرحلتين، مصدر سابق، العدد 34.

ولم يكن الرحالة (عمر بن قدور) واصفا للصورة فحسب وإنما بصفته مثقفا وصاحب رسالة بدا متأسفا، ومعبراً عن حالته معتبرا إياها بأفظع مصائب الجهل. فهو من ناحيه يشكّل نموذجاً سلبياً غير مشرفّ أمام الغربيين، كما أنه في الوقت نفسه شيء مقرف، له عواقب وخيمة أمام الله يوم الحساب "ما أجهل المسلمين بالعار الذي أحاط بهم من فضيحة شتم الدين بين الأجناس الأجنبية التي تساكنتهم، فضلا عن عذاب الدار وغضب الملك الجبار"¹⁰⁶⁷ ويبين الكاتب صورة هذا النسق الذي صار اعتياديا، ولا يلقي له بالأ سواء عند الجهّال أو حتى المتديّنين منهم، وهو ما يفسّر ظاهرة الفحش الذي إذا نخر المجتمع يصير وتيرة غير بريئة في اعتبارات بريئة، لأنه كما يقول: "إن البوار قد أحاط بنا، وإن من الأتقياء من يشتم الدين فيا للعجب! وإن من القراء والفقهاء من ينتقص الملة إذا غضب، وإذا انشرح أيضا. مساكين رعاعنا الهمج وهم السواد الأعظم، لقد أضلهم سادتنا والذين في قلوبهم مرض الغرض، وقوم استحباوا الحياة الدنيا على الآخرة ولم ينقدوا العامة أن تلج باب البوار.¹⁰⁶⁸ وإذا كان خاصة الناس من أئمة وفقهاء لا يستبرؤون من فحشهم في القول، فلا مرء أن يكون عند عامة الناس شيئا عاديا، وخاصة الشيوخ الذين تحجّرت عقولهم وأقفل على قلوبهم فإنهم كانوا يتبارون في ذلك متنافسين في بلاغة تعبيرية من أجل الحصول على درجة استحسان وفحولة بين عشيرتهم ومجتمعهم "فإن الرجل منهم إذا لم يتفنن في عبارات الفحش والبذاءة لا يعد فصيحاً ولا قيمة له في المجالس، وأن الذي لا يتصنع في سب الدين لا يعد بطلا شجاعا يهتم به أيام المناحس"¹⁰⁶⁹. إن هذا النسق قد دفع به سواد المجتمع الذي استفحل فيه داء الجهل، بالخصوص الابتعاد عن التديّن كما يفسّر ذلك الرحالة المصلح "مساكين عامتنا الذين لم يدركوا للدين معنى، لأن سادتنا أحجموا عن أن يوضحوا لهم الدين وشر الملة واعظها الشريف، الذي مزجوه بفحش القول على ألسنتهم"¹⁰⁷⁰ فقد تساوى في ذلك العالم والجاهل، المتدين بالعرييد، فلا فرق بينهم جميعا، والكل يشكّل المجتمع في مظاهره العامة والخاصة.

2.1.1.2. الخمر والقمار

وإذا كانت مصيبة سب الدين قد تغذى بها المجتمع واستحالت فيه، فإن هذه القضية لم تكن بمعزل عن كثير من الأخلاق السيئة والممارسات الفاسدة كتناول الخمر والعربدات، ولعب القمار، لقد

¹⁰⁶⁷ - المصدر نفسه.

¹⁰⁶⁸ - سوانح الرحلتين، مصدر سابق، العدد 35، الجمعة 7 ذي الحجة الحرام 1331 الموافق 1913/11/07

¹⁰⁶⁹ - رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، مصدر سابق .

¹⁰⁷⁰ - سوانح الرحلتين، مصدر سابق، العدد 35.

تفشّت هذه الظواهر حتى أصبح المجتمع الجزائري لا يمثّل دينه الحنيف، بل صار النصراري من المستعمرين يعطون نماذج أحسن منهم، فعمت هذه البلوى عموم القطر، بدءاً بالعاصمة التي يروي عنها عمر بن قنبر هذا الخبر "وإني في العاصمة أبصر كل وقت السكارى المعريدين يأتون جهارا كل منكر ويتظاهرون بكل فسق"¹⁰⁷¹ ويذهب إسماعيل مامي للقول بأن هذه الظاهرة صارت مستفحلة "فقد كفى ما حلّ بنا من تناول الكحول وإباحتها للكبير والصغير والرجل والمرأة"¹⁰⁷² فكانت صورة شرب الخمر والقمار أمراً شائعاً بين الكبير والشاب "فخلع الشاب والشائب أيضاً، نعالهما وتجرّد من قميص حياتهما ودخلا هذه المغمّعة أو المعركة حفاة عراة"¹⁰⁷³ ومن فرط مبالغة الرّحالة في التعبير عن صورة الإدمان التي تفشّت في المجتمع الجزائري، يروي في تهكم حالة منها عن مجتمع مدينة "سطيف" الذي يعكف فيه الشيوخ على لعب "الدومينو" بشكل مفرط ودون انقطاع لزمان طويل، يقول: "لذا فإن حلق الشيوخ بالخصوص على لعب الدومينو لو كانت حلق دروس علمية في فنون مختلفة لكان سطيف قد نال اسم الكلية أم الجامعة وفاق الزيتونة والأزهر"¹⁰⁷⁴..

3. 1. 1. 2. الدعارة والانحلال

ومن الأخلاق الفاسدة التي تفشّت في الناس، ظاهرة الدّعارة التي نخرت جسد المجتمع الجزائري، في كل نواحيه وباتت تُؤكّد على خطر هذه الآفة التي استنكرها الرّحّالون ففي بسكرة ينقل (توفيق المدني) "قرأت في بسكرة عامين ثم هالني ما رأيت فيها من فساد أخلاق ودعارة وانتشار فاحشة، فتركيتها وآويت إلى بيتي أربي أبنائي وأقوم بأمر عائلي"¹⁰⁷⁵ ويؤكد هذه الظاهرة التي عمت بسكرة رّحّالون آخرون وهم يتحدثون عن هذه البليّة التي أصابت المدينة منهم المدعو (عبد الله) الذي يقول: "بداخل البلدة ووسطها محلات كثيرة للمومسات دون تستر ولا حياء"¹⁰⁷⁶ ومنهم إسماعيل مامي الذي سبقهم زمنياً يقول: "تمتاز بسكرة على سائر بلاد الأيالة الجزائرية بمحل الفساد هائل"¹⁰⁷⁷ ثم يردف قائلاً: "هذا المحل فكر جماعة من أهل الغيرة على إزالته وإبعاده وتكلموا واجتمعوا وافترقوا واختلفوا وفعلت فيهم مكائد ملاكي المحال التي بها الفساد فعلتهم

¹⁰⁷¹ - المصدر نفسه، العدد 41، الجمعة 20 محرم الحرام 1332 الموافق 19/12/1913

¹⁰⁷² - سياحة استطلاعية، مصدر سابق، العدد: 437 - الجمعة 27 شوال 1345 الموافق 29/04/1927

¹⁰⁷³ - رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، مصدر سابق.

¹⁰⁷⁴ - المصدر نفسه.

¹⁰⁷⁵ - حياة كفاح، مصدر سابق، ج2، ص 101.

¹⁰⁷⁶ - المنازل "منازل بسكرة" مصدر سابق.

¹⁰⁷⁷ - جولة نائبا بالوطن القبائلي، مصدر سابق، العدد 179.

فلم يحصلوا على طائل ولم يزد إلا اتساعا والعياذ بالله" ¹⁰⁷⁸ وهو ما يبين على أن الأمر مدبر، والقصد واضح وهو تحوير وجهة الشباب من الاستقامة إلى الانحراف، وغض الطرف عن أصحاب النفوذ للاستثمار في تخريب المجتمع.

أما (محمد خير الدين) فيؤكدّها من مدينة "ورقلة" في صورة عجيبة، حينما يذكر بأن محلّ الفساد قد أخذ في شكله الخارجي صورة "مصلّي" ولو لم يكن وقت صلاة العصر لما انتبه ولا سأل عن تلك الدار التي جعلت شعارها الخارجي كما يقول: "بناء له باب مصلّى باللون الأخضر اللامع مكتوب عليه "نصر من الله وفتح قريب" ¹⁰⁷⁹ حتى نُبئ بأن المكان نقيض شعاره تماما، فهو محلّ الزنا ومخبأ للدعارة، "هذا معهد فساد! هذا بيت من بيوت الدعارة ولشد ما رأيت من استشراف الفساد، وتحويل المسلمين عن دينهم بشتى الوسائل ومختلف الأساليب" ¹⁰⁸⁰ وهي أساليب استعمارية من أجل صدّ المسلمين عن دينهم وتمييعهم عن رجولتهم الحقّة، حتى يصبحوا عجينة بين أيديهم يفعلون بها ما يريدون.

ولم يكن الفساد قائما بالمدن التي ذكرناها فحسب وإنما هذه نماذج صريحة استشهدنا بها، بينما الفساد كان عاما ولا يستثنى مكان عن مكان في كامل القطر.

4. 1. 1. 2. صورة المرأة الجزائرية/ البؤس والاستغلال

يعد موضوع المرأة من التيمات التي أشارت إليها بعض النصوص الرحلية باعتبارها صورا لافتة، تثير بصورتها الفاعلة فيزيائيا أو مضمرة عبر نوافذ تخبيلية في حضرة تماثلات للمقارنة. وقد كان للمجتمع دور كبير في تحديد مسؤولية المرأة ووضعها في حدود مخصوصة.. فقد كانت الشخصية الجزائرية من جهة تدود بشدة عن كل ما يبدو أنه يمس بكرامتها فهو بالتالي يمس بكرامة المجتمع ككل، ومن هذا الجانب الايجابي ضيع المجتمع على المرأة فرصا كثيرة في التعلّم والتثقيف وممارسة الحياة العادية، فالحرص على شرفها، كلفها تجريدا كليا كفاعل اجتماعي مثقف، وبقيت المرأة ترنح تحت سيطرتين، سيطرة أهلها، وسيطرة المستعمر.

هذا من جهة ومن جهة أخرى نستطيع أن نلوم الظروف ولا نلوم المجتمع، لأن الرجل -القيّم- في حدّ ذاته كانت تمارس ضدّه عقوبات قاسية، فكان خوفه على كرامته وشرفه أن احتاط أكثر من اللازم حتى لا يدخل في جدل مع الواقع قد لا يعرف عواقبه، وبالتالي كانت المرأة في عين كل إعصار،

¹⁰⁷⁸ - المصدر نفسه.

¹⁰⁷⁹ - مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ج 1، ص 273.

¹⁰⁸⁰ - مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ج 1، ص 273.

وإذا ما بدر منها شيء فلا بد أن يثير ويصبح قضية، ويتناولها كل حديث. وهو ما يفسره قول (محمد الزاهي الميلي) وهو يصور لنا حال هذه الكريمة فيقول: "يدفع بالبنات الجزائرية المسلمة الفقر اللعين والجهل الفاحش من أبويها وعائلتها وعوامل أخرى على الارتقاء في أحضان الأوروبيين والأوروبيات واليهود واليهوديات وهي في سن التعليم والتربية فتقضي صباحها بين المطبخ والمبطح"¹⁰⁸¹.

وإذا كان قول (الزاهي الميلي) قولاً نظرياً عاماً، فإن ما أورده "إسماعيل مامي" أثناء رحلته التي قادتته إلى الأصنام (الشلف) يعد واقعا "وفي الأصنام توجد بنات كثيرات مهملات كما بسطيف (يتقرصن)¹⁰⁸² عند اليهود والنصارى ويخرجن سافرات في لباس افرنجي عربي - أعني ممتزجا- لباس أشبه شيء بقصة الغراب والحمام يتكلمن بالعربية تهكما وبالفرنسوية تأنقا فلا هن بالعربيات ولا بالإفرنجيات يا للضحك والبكاء أنفع منه للجزائري على بناء وطنه"¹⁰⁸³ إن حديث الرحالة عن حالة واعتبارها من الشذوذ، لهو في الواقع يوحي بأن المجتمع الجزائري برمته كان محافظا، كما أنه من ناحية يفسر الرحالة باعتباره صحافيا ومثقفا هذه الظاهرة ليس على اعتبارها دافع الحاجة هو الذي رمى بهؤلاء النسوة باتخاذ هذه الطريق، والنزوع إلى النزعة التغريبية، وإنما هي وليدة موجة "الموضة" التي سرت في عروق بعض الفتيات، وهذا ما يفسره قوله: "لكن الوازع الكبير حسبما استفدنا من أحد الأصناميين هو حب التفرنج لا العجز على المعيشة وحب الدرهم كما يغير الصنام والمصيبة في الحقيقة أعظم لأن المضطر أخف من غيره"¹⁰⁸⁴، وأصبحت صورتها كما يمثلها في قوله أيضا: "تتشبه البنت العربية بالمدام الفرنسية وتريد أن تتبع خطواتها بعد أن رمت أخلاق العربيات وعوائدهن وراء ظهرها فلا المال يفي بحاجياتها ولا أب يساعد على مبتغياتها"¹⁰⁸⁵ وقد اختصت بهذه "الموضة" كثير من المدن الكبيرة التي كان يمتزج فيها الأوروبي بالعربي، وكان فيها العربي مقلداً، بحكم عقدة التفوق الحضاري، وقوة التسلط الاستعماري "فإنك قلما تجلس بمكان ولا يمر عليك به جيش يتلوه آخر من المتبرجات المترجلات اللائي قطعهن من الأوباش ولسن من نساء الفضلاء والأعيان"¹⁰⁸⁶ وظاهرة "سفور المرأة"، التي كانت آنذاك، ظاهرة غريبة وغير مقبولة في المجتمع

¹⁰⁸¹ - أربعون يوماً في الطريق بين باريس وقسنطينة، مصدر سابق، العدد 129. الجمعة 7 رجب 1357 / 2 سبتمبر 1938

¹⁰⁸² - خادومات في البيوت.

¹⁰⁸³ - جولة نائبا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، العدد 132.

¹⁰⁸⁴ - جولة نائبا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، العدد 132.

¹⁰⁸⁵ - المصدر نفسه.

¹⁰⁸⁶ - على جناح السفر، مصدر سابق، العدد 588.

الجزائري، سواء الريفي منه أو المدني، فقد كان يغلب على المرأة طابع الحشمة والمحافظة، وليس ذلك معمّمًا على المجتمع ككلّ بل ظاهرة استثنائية لأن "المرأة الجزائرية برغم جهلها العظيم تمتاز بخلال كريمة وسجايا طيبة، فهي محافظة أتم المحافظة على التقاليد القديمة والعادات التي ورثتها الأسلاف، وهي مسلمة متينة الإيمان على قاعدة "إيمان العجائز" ثم هي زوجة أمينة صبورة وفيّة"¹⁰⁸⁷ وما حديث الرّحّالين إلا تسجيل لأمر غريب استشرى في الأمة تمثّل في شريحة خاصة، لا تُمثّل حُكمًا عامًّا.

وإذا كانت نوازع "الموضة" والتحضر التي دفعت بالجزائرية إلى تبديل عاداتها، فإن سلطان الواقع هو الذي دفع بها إلى اتخاذ هذا الطريق، حيث لم تسمح لها الظروف بالثقف ولا التعليم، ولا أهلها ميسوري الحال يستطيعون أن يضمنوا لها ولأنفسهم عيشًا كريمًا، ومن ثم تضافرت العوامل والظروف لتحتضن هذه الفتاة البريئة "بعد ما أساء إليها أهلها من قبل يوم تركوها تتدرب على مسح البيوت الأروبية واليهود "الطبارن" العامة وكان في استطاعتهم أن ينقذوها من الشقاء الأبدي والنعاسة السرمدية والتبرم على الدين والأخلاق والخروج عن التقاليد والارتداء تحت أرجل الذين ظنّتهم منقذين من سلالة المسيح وإسرائيل!"¹⁰⁸⁸

وإذا نجحت المرأة الجزائرية من هذا الاندماج الممقوت، سقطت في وحل الجهل والتخلف الذي سيطر في برهة من الزمن، وأصبح فيه الاعتقاد بالأولياء أمرا من الدين، وفرط الجهل الذي ساور المرأة على الخصوص أنها تصبح مجرد متاع حينما يحل موسم الاحتفالات بمناسبة الوعدة التي سيطرت على المجتمع الذي أصبح سهما موجهها من دسائس الاستعمار، فكانت المرأة ضحيّة في هذه المناسبات تتجرّد من سترها وتتجرّد من حيائها، وتخلع لباس التقوى الذي ارتدته طوال السنة، وذلك كلّه باسم الدين والدين منه براء، وهذا ما يؤكده الرحالة (محمد السعيد الزاهري) الحاضر والشاهد على المأساة بقوله: "عندما نزلنا في مكان الزيارة أحاط بنا وبسيارتنا عدد وافر من النساء، وهن سافرات غير متحجبات على نفس الهيبة التي تراهن عليها في بيوتهن وأخذت طائفة منهن بأيدي طائفة من الرجال الذين كانوا معنا في السيارة، وتغلغلت كل واحدة بصاحبها في ذلك البحر الزاخر من الخلائق"¹⁰⁸⁹ فباسم الدين والمعتقد تصير المرأة العفيفة راقصةً في محلّ المجون والتفسّخ والانحلال، حتى يتفرج عليها الزخم الهائل من الرجال الذين يأتون من كل فجّ ليشهدوا هذه المناظر المنكرة، "وقد جلسوا على الكراسي وعلى الأخشاب وعلى الأرض. ووقفوا على سائر جهات الخباء يستمعون

¹⁰⁸⁷ - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 451.

¹⁰⁸⁸ - أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، مصدر سابق، العدد 129.

¹⁰⁸⁹ - محمد السعيد الزاهري، زيارة إلى سيدي عابد، جريدة الصراط السوي العدد الثالث عشر، (يوم الاثنين 23 شعبان 1352هـ/11-12-1933)

إلى الغناء والطبول والمزامير، ويتفرجون على النساء الراقصات¹⁰⁹⁰ وهؤلاء النسوة الراقصات لسُنَّ من محترفات الرقص، وإنما يُفرض عليهن فرضاً، لأنه جزء من الاعتقاد على حدّ تفسير هؤلاء الجهلة المارقين على الدين "وليس هؤلاء الراقصات هن من اللائي يحترفن الرقص ويتعايشن عليه، بل هن من المحصنات المومنات غالباً، ومن المومسات قليلاً"¹⁰⁹¹.

وقد كانت المرأة ذات الحياء الشديد تجد من يقف في وجهها لحتّها على الرقص، حينما تمتنع وتدخل في حياها وفي عباءة براءتها، مثلما يروي الرحالة نفسه: "قام في وجهها كثير من النساء والرجال يلومونها ويقولون لها: ويحك أيتها المرأة أما تفضلين علينا برقصة. "زيارة" لسيدي عابد وصدقة عليه!!"¹⁰⁹² فكانت كل العبارات صريحة في هذا اليوم من أجل أن تكون المرأة سلعة للفتنة والمتعة ..

وإذا كانت المرأة بغائها تشارك في جرم التفسّخ والتبرّج الفاحش وفي نيتها أنها تعمل صالحاً، فهناك من النساء من أباحت لأنفسهن سبل التفرّغ لهذا الأمر، فصارت واحدة من صنّاع القرار في الخلاعة، خاصة ما أقرّ به الرّحّالون ودوّنوه عن سطيف التي استشهد بها "مامي" في حديثه عن تبرج نساء الأصنام، ها هو (الفضيل الورتلاني) يتّهمهنّ بأنهن السبب في هلاك الرجال، وفساد المجتمع "أما الجنس اللطيف في هذه البلدة فقد كان السبب الواحد في مسخها وفي سلب عقول وأموال رجالها، وذلك أن كل فتاة -من البلدان البعيدة فضلاً عن القريبة- إذا قدم لها أن تخلع جلباب الحياء وتعرض نفسها بما حرم الله للتجارة لا تختار في الغالب للإيواء إلا سطيف،"¹⁰⁹³ وهذه المدينة التي كانت ملجأً لهذه الفئة يحجّون إليها من كل صوب، هي نموذج لمحطات مختلفة من مناطق الوطن الجزائري لميحت له بعض النصوص.

2.1. صورة المجتمع الثقافية ومستويات الشخصية.

إن المظاهر الثقافية والمعرفية التي انجلت في المجتمع الجزائري لا تعدو كونها ثقافة سقيمة مبتذلة، لا تعطي صورة مجتمع متحضّر، حتى وإن سعت الكثير من الجهات إلى النهوض بها، فقد وجدت أن الورم الاستعماري الذي أعطاها من حقن التخدير، قد أصابها في مقتل، فبات من العسير النهوض به بين عشية وضحاها، خاصة وأن الحركة الإصلاحية بذلت كل ما في وسعها سعياً وراء هذا النهوض،

¹⁰⁹⁰ - المصدر نفسه.

¹⁰⁹¹ - المصدر نفسه.

¹⁰⁹² - المصدر نفسه.

¹⁰⁹³ - رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، مصدر سابق.

لأن المرض تفشى فليست المرافق وحدها كافية. بينما العامل الأساس يتمثل في الفرد الذي لم يجد من مسوّغ على التعلّم وربط مصير مستقبله بجبل العلم والمعرفة.

ولعل الحركة الإصلاحية على الرغم من بذلها المجهود المضني في معترك يقظة الناس في بداية الأمر، إلا أن حالتهم بقت متذبذبة، وأوضاعهم "يرثى لها من حيث قلة تلامذتها وعدم إقبال الناس بفلذات أكبادهم عليها، وقلة الموارد المالية الكافية لإقامتها وضمانها من السقوط - لا قدر الله-"¹⁰⁹⁴ وقد أصاب الناس مرض التقليد، ومسايرة أمورهم عبر بريد العادة، واحتفى بهم هذا المرض، ليس ذلك على المستوى العلمي والثقافي بينما تفشى حتى في حياتهم الدينية، فليس تمسكهم بالدين إلا شعارات موحودة وتقاليد موروثية، حيث نجد أن "الناس يتظاهرون بحرصهم على الصلوات وأداء الواجبات ومقبلون على الدروس الدينية أكثر من غيرها، بيد أن كثيرهم لا يفهمون روح العبادة ولا يعرفون سرّ الشريعة، إنما يفعلون ببساطة تامة وتقليد بارز وتخللها بعض البدع المنكرة والخرافات الممقوتة"¹⁰⁹⁵. حتى وإن بدت الأمة محافظة.

ومن جانب آخر، لم يكن المجتمع في بعده الثقافي معتركا بين الإصلاحيين وخصومهم من الجهلة والمنحرفين، وإنما تشير بعض الرحلات في محتوياتها، أن هناك طبقة ثالثة شكّلت نموذجا من الثقافة في المجتمع الجزائري وهي لبنة في البنية الثقافية العامة له، وتبرز هذه الفئة -خاصة- في المدن، ومن هنا يشير الرحالة فرحات الدراجي (1906-1951)، في مدونته، في إشادة بخصال هذه الفئة (من الوطنيين)، بقوله تعليقا على شباب الأصنام (الشلف) "ولا عيب يجده زائر الأصنام فيها إلا بُعد شبابها عن الثقافة العربية -إلا ما رحم ربك- فترجو من رجال الأصنام أن يتلافوا هذا النقص في أبنائهم في المستقبل، فينشئوهم جامعين بين الثقافتين العربية والفرنسية فإن من التقصير من أبناء الشرق والإسلام أن ينشئوا غرباء من لغتهم وتعاليمهم ودينهم الحنيف"¹⁰⁹⁶ وتمثل هذه الشريحة، المثقفين باللسان الفرنسي، وهي النخبة التي سعت فرنسا لترويضها، وكان نجاحها في ذلك متفاوتا، إذ تحقّق لها نسبة كبيرة انضوت تحت لوائها، وفئة أخذت هذا التعليم كعامل ثقافي دون المساس بالهوية الوطنية، وفي كل الأحوال "خلقت المدرسة الفرنسية عند المثقفين الجزائريين استلابا لغويا، فهم يهجرون لغتهم العربية الأصيلة على أساس أنها لغة التخلف والأدب والشعر، ويفضلون

¹⁰⁹⁴ - حديث المتحول في دورته الثانية، مصدر سابق، العدد 158.

¹⁰⁹⁵ - علي مرحوم، حديث المتحول، جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، العدد 101، 24 ذي الحجة 1356، الموافق لـ 25 فيفري 1938..

¹⁰⁹⁶ - فرحات بن الدراجي، وفود جمعية العلماء في القطر، جريدة البصائر، العدد 35، السلسلة الأولى، السنة الأولى، 2 رجب 1355، الموافق لـ 18 سبتمبر

التكلم باللغة الفرنسية لأنها لغة العصر والتطور والحضارة¹⁰⁹⁷ وهو المعطى نفسه الذي ذكره الرحالة، وهو ينظر من زاوية الحفاظ على اللغة العربية والدين الإسلامي والشخصية الجزائرية، ديدن كل الإصلاحيين، كما يمكننا أن نستشف من قوله بأن هذه الطبقة لا عيب فيها إلا البعد عن الثقافة العربية، بمعنى أن هذه الفئة لها خصوصية إيجابية تتمثل في انتمائها لهويتها، يبقى عامل اللغة التي وجدت نفسها في مستنقعها¹⁰⁹⁸، هذا المستنقع الذي قسم النخبة المفرنسة إلى طوائف ثلاث أحلاها، هذه الطائفة التي لم يرَ فيها الرحالة أي أمر سلبي ما عدا البعد عن اللغة العربية، وهم: صنف المتعلمين الذين استفادوا من فرص التعليم الفرنسي وإن بدرجات متفاوتة لكنهم ظلّوا متشبّثين بمظاهر الشخصية الوطنية حريصين على عدم الانفصال عن قاعدتها الاجتماعية.

وتفيد مدونات الرحالين بأنها تضم فهرسة معتبرة من رجال العلم والمشيحة، في تلك الفترة. ولعل قيمة الرحلات تشير بفعالها الواقعي وزمانها ومكانها المحددين، إلى قيمتها كوثيقة تحفظ تاريخ الوقائع، وتمثّل كشهادة حيّة على ذلك العصر، لذلك نجد أن هذه الفهرسة تعطينا صورة حية عن العلماء والشيخ وأهل الإفتاء وغيرهم من ذوي المعارف. كما تبيّن من جهة أخرى، حقيقة التعليم ومبادئه، ونوعه، والذي كان منصباً على اللغة العربية وتعاليم الدين الإسلامي من عقائد وفقه، من خلال تحفيظ القرآن الكريم والمتون للناشئة، لأن ذلك كان بمثابة الحصانة التي تقوي مناعة الأهالي تجاه الصدمة الاستعمارية وما تبعها من غزو، على اعتبار أن "التعليم العربي من أهم مقومات الثقافة العربية-الاسلامية داخل المجتمع الجزائري على غرار المجتمعات العربية الأخرى"¹⁰⁹⁹ وقد تفتنت النخب الجزائرية لمخطط الاستعمار القائم على سياسة التجهيل.

وبالرغم من تدني كل المستويات المعيشية والحضارية في الوسط الجزائري، إلا أن هذه النخب قدّرت نقاط الضرر المهلكة، التي إن تمكّن منها الاستعمار ضاع على الجزائريين كل شيء، متمثلة في اللغة العربية والهوية الجزائرية والدين الإسلامي، وهذا ما سعت فرنسا إلى تفكيكه وتشتيته. لأن الاغتنام من مصادر الأرض، يعد نزوة زائلة، وما أرادته فرنسا ولم تبلغه، هو إمتلاك الأرض والانسان بصفة نهائية، ولن يتحقق لها إلا إذا تم لها مشروعها الخطير. ومن أجل ذلك كان التجهيل والترويع وإلزام التعليم الفرنسي لمن أراد التعلّم، بغية القضاء على اللغة العربية، وهو سعي مرحلي يبدأ باللغة العربية

1097 - عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010، ص 263.

1098 - لعل هذا الحكم كله يرجع إلى البدايات الأولى للإصلاحيين، التي كانت فيها الجمعية في حركة بناء وتحيّة للمدراس الحرة من أجل أخذ أبناء الجزائر من التكوين

الفرنسي إلى التكوين العربي الأصيل، وقد تدارك هذا الأمر الذي تمّ بجدارة مع مرور الأيام التي لم تكن بعيدة.

1099 - إبراهيم مهديد، القطاع الوهراني، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، 2006، ص 71.

لأن القضاء على اللغة العربية "هو القضاء عليها تمهيدا للقضاء على الثقافة العربية الإسلامية، وبالتالي القضاء على الشخصية الجزائرية"¹¹⁰⁰.

1 . 2 . 1 . النخب وتمفصلات الواقع الثقافي والحضاري

1 . 1 . 2 . 1 . الشخصيات العلمية والدينية:

تعد الشخصيات العلمية أرقى ما يمثل المجتمع في ثقافته، وفي حضوره الاجتماعي، كونه يمثل زبدة القوم وخلاصة أهله. لذا كانت الشخصيات العلمية تعبر عن مستوى من مستويات أي مجتمع، وعلى الرغم من تواجد زمرة محترمة من رجال العلم والمعرفة، فإن ذلك لم يكن ليكفي في الحكم على المجتمع الجزائري بصفة حصرية، لأن كل العلماء أو المتعلمين (تقريبا)، لم يزاولوا تعلمهم بالجزائر، فمنهم من هاجر إلى المغرب وآخرين إلى المشرق وتونس. كما أن تواجد هذه الزمرة، ولو أن كفاءتهم لا يُشك فيها، فإن المجتمع ككل لم يكن يهتم بتجربة الأخذ العلمي، فأولوياته كانت منصبة على سدّ فراغ البطن.

ثم إن رصدنا لطائفة رجال العلم هو محورٌ يدور حول معرفة رحي الصراع والمقاومة التي كانت إرهابا للنهضة الفكرية والعلمية، التي تفتق من بعدها وعيٌ سياسيٌّ تحرريٌّ.

أ . العلماء

من العلماء الذين برعوا في كل فن من فنون الشريعة، والذين لم يخصّهم الرخّالون بلقب من ألقاب الوظيفة الاجتماعية (كمفتي أو فقيه...)، هم الذين حقّقوا الإجماع في مراتب عالية من العلم نجد منهم الشيخ (محمد الكندوز التنسي) الذي خصّه الرحالة (الطيب المهاجي) وهو أحد تلامذته بالقول: "حافظا يلقي دروسه كلها بالإملاء فيملي من حفظه الشيء الكثير من النقول المتعلقة بموضوع الدرس، ولكن معه حدة لا يقبل السؤال، وربما انتهر السائل ثم يجيبه بأكثر مما سأل ودروسه رحمه الله لا تخلو من البحوث العميقة التي يبدي منها النكت الدقيقة، ويستنتج بواسطتها الأشباه والنظائر عندما تظهر له العلة الجامعة"¹¹⁰¹ وهو الذي يذكر عنه أنه جُلب لمدينة "سيق" فأبلى البلاء الحسن في إحياء الضمائر وتقويض أركان الجهل وبعث النفوس إلى غايات نبيلة.

ومما يجب التنبيه إليه أن بعض العلماء تجلّت فيهم رائحة الإجلال لمقامهم الرفيع في العلم والزهد والورع، حيث كانوا يشتغلون في صمت وفي ثبات، علماء أجلاء اختصّتهم مدونة الرحلات، أحدهم

¹¹⁰⁰ - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص 325.

¹¹⁰¹ - أنفس الذخائر، مصدر سابق، ص 44.

عالم تنس (شلف)، العالم الذي كان له الفضل في تحبيب طلبة العلم له، وترغيبهم على بلوغ مجالسه للاغتراف من معينه الصافي، ونقصد بذلك (المولود الشعبي) الذي بلغ درجة كبيرة في العلم فكان يقصده طلبة العلم من كل فجّ، وقد كان فذاً ذا معارف كبيرة كما يذكر عنه تلميذه (المهاجي) بقوله: "العالم الكبير العلي القدر الرفيع المقام شيخ الأساتذة وأستاذ الجهابذة الحامل لواء الزعامة العلمية بالقطر الجزائري الشيخ المولود بن الحسين الشعبي التنسي ثم الجزائري، كان المقتدى به في العلوم والمعارف بين ما تراه فقيها أصوليا تراه لغويا نحويا بليغا أدبيا جمع فأوعى"¹¹⁰². ويولي هذه الشخصية أو يدانيها عالم القراءات الذي زوّدنا المهاجي -نفسه- بخبره كونه خيرة علماء عصره الذين كانوا متمركزين بالغرب الجزائري، وهم من شيوخ المدرسة التقليدية، "الشيخ سيدي عبد السلام بن صالح هو شيخ القراء ببلادنا وهو الذي إليه المرجع في علوم الأداء رسما وتجويدا ورواية خصوصا الروايات السبع المنسوبة للأئمة السبعة"¹¹⁰³ حيث لازمه أربع سنوات، فلا يذكر عنه سوى أنه عالم جليل بالقراءات، وهو "أحد الأعلام الأثبات في علم القراءات"¹¹⁰⁴ ويولي هذين العلمين، علامة تلمسان البارح في علم الحديث والذي أشاد به الرحالة (مامي) بقوله: "العلامة الأكبر المحدث الشهير الخير البر عالم الزمن سيدي أبي بكر شعيب بن علي بن الشيخ محمد فضل الله القاضي بن الشيخ عبد الله بن الولي الشهير سيدي ابن مشيش أبي بكر سليل سيدي محمد بن عبد الله الجيلي صاحب (تنبيه النام) وقاضي القيروان"¹¹⁰⁵ والذي من خلال هذا التعبير المنوّه به، يسمق إلى درجة علمية راقية.

ولقد كان المهاجي الذي يذكر عن علمائه وأساتذته، أحد أكبر علماء المنطقة الغربية من الجزائر فكان صيته ذائعا إذ كان يحقّق كفاية المقاطعة الوهرانية، وحقّة في فنون علوم الشريعة، وكانت له مدرسة في قلب مدينة وهران (المدينة الجديدة) إبان الحقبة الاستعمارية، وهو الذي خلف بعده زمرة كبيرة من التلاميذ، وتحدّى بذلك السلطة الاستعمارية فلم يكن يخشى في الله لومة لائم. فقد أشاد به الرحالة "حسن الوارزقي" بالحديث عنه عند نزوله بمدينة وهران، حيث وجده ينشط في التدريس بمعهد، قائلا: "حضرة العلامة الجليل خير الخلف وبقية السلف حبيينا الأستاذ الشيخ الطيب المهاجي الذي يحبه الوهرانيون حبا جما مقرونا بنهاية الاحترام لاشتغاله طول يومه وكامل عامه بتلقين العلم الصحيح الشريف والأخلاق الطاهرة الكريمة لأبناء المسلمين متعمهم الله بطول

¹¹⁰² - المصدر نفسه، ص 49.

¹¹⁰³ - نفسه، ص 49.

¹¹⁰⁴ - نفسه، ص 50.

¹¹⁰⁵ - جولة نائبنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، النجاح 140

عمره وكامل صحته¹¹⁰⁶ كما وصفه ابن باديس في رحلته بقوله: "العالم الألمعي السلفي الشيخ الطيب المهاجي"¹¹⁰⁷.

وإذا كان العلماء يذكر بعضهم بعضا، فإن (عبد الحفيظ الهاشمي) الذي لم يذكر من رحلته شيئا عن المكان وكان كل همّه لقاء العلماء "أثناء الرحلة التي عقدناها إلى العمالة الوهرانية قبل شهر رمضان، سنحت لنا الفرصة باجتماعات كثيرة بالعلماء الأعلام"¹¹⁰⁸ ويعتبر (الهاشمي) الوحيد من الرّحّالين الذي يذكر تفاصيل المسائل التي كان محورها بين هؤلاء العلماء، ومن هؤلاء "حضرة العلامة الأشهر الشيخ الحاج الجيلالي بن عبد الحاكم صاحب مدرسة الفلاح بالأصنام"¹¹⁰⁹ والآخر "حضرة النبيل النقادة الشيخ زين العابدين من أهل العلم في بلدة المشربية"¹¹¹⁰ وقد خصّ عبد الحفيظ الهاشمي الرحالة "حسن الوارزقي" الذي وجده ركنا من أركان علماء عنابة¹¹¹¹، فقال فيه: "رجل العلم الصحيح والأدب النقي والأخلاق الفاضلة الشيخ عبد الحفيظ بن الشيخ الهاشمي الذي دخل مدينة عنابة دخول العلماء الصالحين العاملين وأخذ ينشر العلم والدين والأدب في مجالسه الخاصة والعامة في دائرة الوقار والحياء الإسلامي"¹¹¹².

ومن علماء الجزائر الذين نجد لهم ذكرا معتبرا في شتى النصوص الرحلية، عبد الحميد بن باديس في جل الرحلات الإصلاحية -تقريبا- وبعض الرحلات الأخرى منها الطرقية وغير الطرقية، كما نجد للإبراهيمي خصوصا في رحلة الغسيري¹¹¹³ وللفضيل الورتلاني، ومبارك الميلي خصوصا في رحلتي (قويدر بن مناد) في قوله حين بلوغه مدينة الأغواط التي كان بها الميلي مدرسا: "وقد تشرفنا بالاجتماع بحضرة العلامة الجليل ذي المكارم والمعارف الشيخ سيدي مبارك الميلي فوجدناه أديبا حازما مخلصا في أعماله مجدا في جمع شمل الأمة بما في وسعه من علم ونصيحة"¹¹¹⁴ ويخصه إسماعيل مامي بالقول: "الشيخ السعيد الزواوي والشيخ مبارك الميلي وغيرهما من رجال

¹¹⁰⁶ - حديث متحول النجاح. معهد العلوم الشرعية الإسلامية بالمدينة الجديدة بوهران جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3859، يوم 21 صفر 1370هـ، الموافق لـ 2 ديسمبر 1950 م.

¹¹⁰⁷ - عبد الحميد بن باديس، في بعض جهات الوطن، مجلة الشهاب، الجزء الثاني عشر، المجلد السابع، (غرة شعبان 1350هـ/ديسمبر 1931).

¹¹⁰⁸ - الجواب عن أسئلة رحلة وهران أسئلة وجهونا إلينا أثناء رحلتنا الأخيرة، مصدر سابق، العدد 3444.

¹¹⁰⁹ - المصدر نفسه، العدد 3445.

¹¹¹⁰ - المصدر نفسه، العدد 3445، العدد 3450.

¹¹¹¹ - والمعروف عنه أنه كان مقيما بقسنطينة حيث كان يدير جريدة النجاح منذ تأسيسها سنة 1919م بمعية رئيس تحريرها إسماعيل مامي.

¹¹¹² - حديث متحول النجاح.. هنيا لسكان مدينة عنابة، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3880، يوم 14 جمادى الأولى 1370هـ، الموافق لـ 21 فيفري 1951 م.

¹¹¹³ - جريدة البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد: 262، الصادر في 6 رجب 1373هـ (12 مارس 1954م).

¹¹¹⁴ - قويدر بن مناد، الجولان وفوائده، جريدة البلاغ الجزائري، السنة الثانية، العدد 69، الجمعة 21 ذي القعدة سنة 1346هـ، الموافق لـ 11 ماي 1928.

العلم والدين قولاً وعملاً والذين لا يخشون في جانب الدين أحداً ولا يراءون إلاّ ولا ذمة" ¹¹¹⁵، ومنهم أيضاً الطيب العقبي الذي كان "يدعو الناس إلى النجاة" ¹¹¹⁶ والعربي التبسي، مثلما نجد من العلماء الطريقين أمثال: أحمد بن مصطفى العليوي، وعدة بن تونس، و"الأستاذ السيد الحاج محمود" ¹¹¹⁷ الذي يذكر عنه أبو عبد الله الرزوي بأنه "العلامة المتفنن المعروف بأبحاثه القيمة ونصائحه الثمينة الذي اختارته الأمة الندرومية" ¹¹¹⁸ وغير هؤلاء كثير.

ومن العلماء أيضاً والذي ذاع صيته خلال زمن ممدود من تاريخ الجزائر الحديث، المهدي البوعبدلي الذي كان ينتسب إلى الصوفية ويتمتع بحياة العلماء النشيطين على كافة الأصعدة، وكان من المؤرخين بالإضافة إلى فقهه في علوم الدين، والتصوف، ينوه به ابن باديس في رحلته للمقاطعة الوهرانية عند قوله: "ووجدنا بغيلزان السيد مهدي بن الشيخ بوعبد الله آل بوعبد الله في انتظارنا وهو شاب نجيب تلميذ بجامع الزيتونة فرافقنا إلى تمام الرحلة بوهران ورأينا منه أدبا وأخلاقاً شريفة" ¹¹¹⁹ وهو سليل عائلة علم وتصوف ممدّد لرسالة والده أبو عبد الله الرزوي.

وفي إشارة موحية يعرّف ابن باديس بعالم مدينة مليانة الشيخ (محمد وّكال) بقوله: "عالم قرأ سنوات بالأزهر، وأعجبني منه أنني وجدته يطالع شرح تجريد أحاديث البخاري، فشكرت له عنايته بالسنة، وقلت له إننا نعرف عقلية الرجل من معرفتنا بالكتب التي يطالعها" ¹¹²⁰.

ب . الفقيه/ المفتي

تجلّت شخصية الفقيه والمفتي وهي شخصية واحدة متلازمة الصفتين، في كثير من مواطن الذكر عند الرحالين، والملاحظ أن حديثهم عن رتبة الفقيه أو المفتي في هذه النصوص لم تكن تهتم بالصفة بقدر ما كان همّهما الموصوف، ففي كثير منها لا تذكر إلا أنها اجتمعت بالمفتي فلان أو الفقيه فلان، مجرد من كل بصمة علمية، إلا من ذكر للخصوصية الأخلاقية التي يميّز بها، وكل ما في الأمر أن الرّحالة نزل ضيف على شخصية تحمل صفة الفقيه. بينما نجد فقط رحلة (عبد الحفيظ الهاشمي) الذي يفيض في ذكر هذه الشخصيات، ويسترسل في القضايا التي تباحث معهم فيها، ومن جملة الفقهاء الذين اجتمع بهم بالغرب الجزائري "حضرة الفقيه العلامة الأستاذ الشيخ الهاشمي مفتي مدينة

¹¹¹⁵ - اسماعيل مامي، على جناح السفر، مصدر سابق، عدد 585.

¹¹¹⁶ محمد السعيد الزاهري، وفد الشعراء يزور طولقة - فرفار - البرج، جريدة البرق، العدد 8، الاثنين 23 شوال 1345 هـ الموافق ل 25 أبريل 1927.

¹¹¹⁷ - توفي بتاريخ 1923/02/22 ببلدة جبوسة قرب البرج، وهو عالم وفقهه، صاحب كتاب "تنبيه القضاء" لم يزل مخطوطاً.

¹¹¹⁸ - رحلة العالم الكبير سيدي أبي عبد الله الرزوي، مصدر سابق.

¹¹¹⁹ - رحلة بن باديس في بعض جهات الوطن، مصدر سابق.

¹¹²⁰ - المصدر نفسه.

معسكر¹¹²¹ وهو العلامة نفسه الذي نوّه به (حسن الوارزقي) في رحلته، فقال: "وبمدينة معسكر اليوم، رجل العلم والأدب وحسن الخلاق والكرم والتواضع العلامة الشيخ بلهاشمي بكار المفتي المالكي"¹¹²² ومما ذكره (عبد الحفيظ الهاشمي) عن مفتي معسكر أنه خاض معه في مسائل فقهية تتعلق بشؤون المرأة في عمق المسائل الأصولية.

ثم يواصل (عبد الحفيظ الهاشمي) حديثه عن فقهاء المنطقة فيذكر عالما من مدينة سعيدة: "وممن اجتمعنا به حضرة العلامة الهمام البحاثة الشيخ غازي عبد القادر الخطيب بجامع سعيدة وهو من الأفاضل المولعين بدقائق المسائل"¹¹²³ أما بوهران فيتحدث عن مفتيها بوكربي "ولما نزلت بوهران اجتمعت بحضرة العلامة الأمثل الأستاذ الشيخ بوكربي مفتي مدينة وهران، وحضرته من أهل العلم والتقوى والأخلاق الكريمة؛ متخرج من جامع الزيتونة؛ وهو يزاوّل دروسا في الجامع الأعظم"¹¹²⁴ وكانت محادثتهما مسألة ظرفية تتعلق بقضايا الصوم والإفطار من خلال الراديو. أما بسيدي بلعباس فكان حديثه عن (بن كابو) وهو من أعمدة شيوخ وعلماء وهران "حضرة العلامة الهمام الفقيه الشيخ بن كابو الحاج خالد المتطوع بنشر العلم في مدينة سيدي بلعباس"¹¹²⁵ ويعرف عن (بن كابو) باعه في العلم الشرعي، وهو معروف على الساحة العلمية في زمانه، ومما نجد له من ذكر أنه كان واعضا حتى على الباخرة التي كانت تقلّ الحجاج إلى البقاع المقدسة، حيث نوّه به الرحالة (محمد بن البشير) أثناء رحلة حجه وكان فيها (بن كابو) واعضا "وقد رتبت دروس تلقى على الحجاج في المناسك وممن قام بذلك حضرة العلامة الشيخ سيدي الحاج بلقاسم بن كابو الوهراني وبعض الفقهاء هناك"¹¹²⁶ ونوّه به أيضا عدة بن تونس في الرحلة نفسها بقوله: "أما الأساتذة الذين كانوا يقومون بهاته المهمة، فهم الأستاذ الشيخ بلقاسم بن كابو المدرس بمدينة وهران وخطيب جامع ولد قادي"¹¹²⁷.

ثم في الأخير عرّج الهاشمي على مفتي الأصنام "حضرة العلامة الجليل الشيخ ابن بشير الربحي المفتي بمدينة الأصنام"¹¹²⁸ وهو العالم الذي خاض معه في مسائل فقهية جريئة أثبت فيها

¹¹²¹ - الجواب عن أسئلة رحلة وهران وأسئلة وجهونا إلينا أثناء رحلتنا الأخيرة، مصدر سابق، العدد 3444.

¹¹²² - حديث متحول النجاح.. مدينة المجد القلم، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3860، يوم الأربعاء 25 صفر 1370هـ، الموافق لـ 6 ديسمبر 1950 م.

¹¹²³ - الجواب عن أسئلة رحلة وهران وأسئلة وجهونا إلينا أثناء رحلتنا الأخيرة، مصدر سابق، العدد 3446.

¹¹²⁴ - المصدر نفسه، العدد 3451.

¹¹²⁵ - المصدر نفسه، العدد 3451.

¹¹²⁶ - محمد بن البشير، على متن الباخرة ﴿في طريق الحج﴾، جريدة البلاغ الجزائري، العدد 164، الجمعة 10 ذي الحجة 1348هـ الموافق لـ 9 ماي 1930م.

¹¹²⁷ - عدة بن تونس، على الطائر الميمون، جريدة البلاغ الجزائري، السنة الرابعة، العدد: 165 - الجمعة 24 ذي الحجة 1348 الموافق 23/05/1930.

¹¹²⁸ - الجواب عن أسئلة رحلة وهران، مصدر سابق، العدد 3451.

الشيخ الراجحي علو كعبه في الفقه، مما جعله ينوه بتصدير رسالته¹¹²⁹ التي بعث بها إليه "وقد صدر حضرة الشيخ ابن بشير الراجحي رسالته بديباجة أودع فيها ثناءه العاطر وارتياحه بهذا الأسلوب العلمي وشكره البليغ على فتح مغلق تلك المسائل، ونحن إزاء ذلك الإحساس الشريف نشعره بارتياحنا لتلك الملاحظة التي دلت على اعتناؤه بدقيق الفهم والنكت العلمية الجليلة، وإيكم الغرض الأهم من الملاحظة المذكورة بعد الديباجة"¹¹³⁰

ومن الشيوخ¹¹³¹ الذين ينوّه بهم في إبان تلك المرحلة، (الشيخ الوانوغوي)، وهو علم من أعلام شلف بل الجزائر كلّها، هذا العلم الذي كان له وجهها مشرفاً، إذ تذكره نصوص المدونة، بعبارات الاحترام وتشهد له بعلو كعبه في العلم والثقافة والأدب، بل حتى بعض المنتسبين للطريقة شهدوا له بذلك مثل قول الحسن الطولقي: "ذهبت إلى بيت الإفتاء فألفت العلامة المحقق والدراة المدقق والشاعر المفلق الشيخ الوانوغوي المفتي المالكي قاعداً فسلمت عليه ثم تجاذبنا أطراف الحديث عن حالة الأمة الاجتماعية والأدبية والاقتصادية والسياسية فألفتها ذا دراية تامة بجميع ما تجاذبنا أطراف الحديث فيه"¹¹³² كما يشهد له زعيم الإصلاحيين الشيخ (عبد الحميد ابن باديس) أثناء رحلته (في بعض جهات الوطن) بشرف النسب وعلو الهمة، وقدرة في العلم والتربية يقول: "ممن عرفنا من فضلائها، مفتيها العالم الماجد الشيخ الوانوغوي بن الشيخ بومزراق الزعيم المقراني المشهور والشيخ يمثل شهامة أسرته وكرمهم وهمتهم إلى معارف أكسبته إياها الأسفار والتجارب وهو القائم بالخطبة والتدريس في جامعها"¹¹³³ وفي إشادة أخرى، يشير الرحالة (إسماعيل مامي) عن أسفه من عدم الجدوى في لقائه، حين قصد زيارته، فلم يتحقق له ذلك بسبب وفاة زوجة الوانوغوي "ولم أجمع بالشيخ الوانوغوي المفتي هناك حيث كان متغيّباً لوفاة زوجته رحمها الله"¹¹³⁴ وكان الوانوغوي لدرجة علمه وأهليته، يتشوّق لمجالسته كل من له باع في الثقافة والفكر والعلم والأدب.

¹¹²⁹ - وقد نشر الرسالة كاملة في إحدى حلقات رحلته التي سلسلها في حلقات بجريدة النجاح التي كان يديرها من قسنطينة.

¹¹³⁰ - أجوبة عن رحلة وهران، مصدر سابق.

¹¹³¹ - إن فهرست المفتين والفقهاء في المدونة الرحلية الجزائرية تطول، وقد ذكرنا أهم أعلامها، ولسنا ندري أي الصفوة، أم هي مجرد نماذج بارزة، لأننا استفدنا من هذا التصنيف من خلال تنويه الرحالين الذين جابخوا الواقع وقصدوا الأمثال. نقول هذا لأننا ندرك أن بعض الأعلام من الفقهاء لم يلتفت إليهم الرحالين إلا في إشارات بسيطة وهو الأمر الذي لا يرقى إلى الحكم في تصنيفهم بدرجاتهم الحقيقية بالنسبة للآخرين، أمثال: "الشيخ المولود بن الموهوب مفتي الديار القسنطينية" الشيخ الحاج محمد الجيلي مفتي مدينة عنابة. والفقهاء الشيخ الحبيب بن عبد المالك مفتي الديار التلمسانية. والفقهاء الشاعر الشيخ علي الجياوي مفتي مرسى شرشال (انظر مامي اسماعيل، مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين سفر الوفدين التونسي والجزائري لرباط الفتح بالمغرب، جريدة النجاح، السنة السادسة عشر، العدد: 1945 - الأحد 26 شوال 1355 الموافق 10/01/1937)

¹¹³² - الحسن الطولقي سوانح متحول، مصدر سابق.

¹¹³³ - عبد الحميد ابن باديس، في بعض جهات الوطن، مصدر سابق.

¹¹³⁴ - جولة نائبنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق.

ت . المتصوفة

يغلب على الرحلات الصوفية والطرقية الحديث عن الشخصيات، بل قد نجزم أن رحلاتهم تخلو من ذكر الأماكن إلا القليل منها، أو إلا ما تعلق بالمقدسات منها، لذلك نجد أنها تركز على الشخصيات. ولسنا ندري ما قيمة الشخصيات التي نجدتها مذكورة في نصوصهم، وهي تتراوح ما بين قطب ولي ومقدم وفقير ومريد.

ويغلب الظن أن بعض الشخصيات مبالغ في الرفع من مقامها ومن قيمتها العلمية والاجتماعية، وإلى ما بلغت من أوصاف ومدح. وهو الشيء الذي يجعل من الرحلات الصوفية ومنها الطرقية حافلة بكثير من النماذج. ونحن في هذا المقام لا نريد بسط الحديث عنها كلها، بينما نجلي أهم هذه الشخصيات التي تناولها الرّحّالون في نصوصهم، خصوصا منها الرحلات الداخلية، وأهم هذه الشخصيات هم شيوخ زوايا وأصحاب طريقة، كالشيخ أحمد التجاني الذي يقول فيه الرحالة الوارزقي: "إن الشيخ أحمد التجاني رئيس الزاوية الحالي والنائب الآن بالمجلس الجزائري له عقل كبير ومعلومات قيمة وأدب جم وتواضع حسن وهدوء واتزان.. ويمتاز بحسن الإصغاء إلى محدثه مع الذكاء الحاد وله أسلوب مقنع في الجواب ومكانة دبلوماسية معتبرة، وهي صفات قلما وجدت مجتمعة لأمثاله من رجال الزوايا والسياسة... وأعيان العلم والزعامة في العصر"¹¹³⁵

ومنهم الشيخ أحمد بن مصطفى العليوي شيخ الطريقة العليوية، الذي نوهت به جلّ الرحلات التي قصدت مدينة مستغانم، ويشهد له حتى خصومه بالأخلاق والتواضع، ولعل ابن باديس وهو من خصومه يشهد له بالفضل حين استضافه (العليوي) وأقام له حفلة عشاء على شرف مقدمه، حضرها أعيان البلد وتلاميذ الشيخ، ومما قاله ابن باديس فيه: "وقام على خدمة ضيوفه بنفسه فملا القلوب والعيون وأطلق الألسنة بالشكر"¹¹³⁶

ومن أبرز الوجوه الصوفية من أتباع الطريقة العليوية بعد وفاة (مصطفى العليوي) عدة بن تونس الذي كان ملازما للشيخ العليوي والذي خلفه بعد موته. ومنهم أيضا الشيخ البودليمي الذي يعد أحد أقطاب الصوفية، وكان في صراع دائم مع الحركة الإصلاحية حيث كان لها ندا عنيفا بتلمسان، فقد كان يشكّل عصب الجماعة الطرقية، وأبًا من آباءها الروحيين، في زمن ولاية عدة بن تونس الذي كان يصحبه معه في بعض السياحات عبر الوطن "عقد حضرة الماجد الشيخ سيدي الحاج عدة بن تونس في الأيام الأخيرة سياحة ببلاد القبائل وقد اختار الله لمرافقته من أصدقاء النسبة حضرة

¹¹³⁵ - حديث متجول النجاح.. في الصحراء.. من وراء الرمال..!، مصدر سابق، العدد 3894.

¹¹³⁶ - في بعض جهات الوطن، مصدر سابق.

الأستاذ العامل الشيخ سيدي علي البوديلمي¹¹³⁷ وقد كان البوديلمي رمزا للطريقة يشاد به في كثير من المحافل، حتى صار إيقونة هذا التيار، وكان يتميز بكثرة علمه، وقوة معاركه، تقلد الإمامة والمجالس العلمية والوعضية بتلمسان. يصفه حسن الوارزقي حين حلّ بتلمسان على أنه تحفة تلمسان لما يمتاز به من العلم والعمل: "وفي مدينة تلمسان اجتمعنا بحضرة العالم المؤلف الأخ الشيخ علي البوديلمي المسيلي الإمام هناك والمتطوع بالتدريس بالجامع الأعظم فاستدعانا لداره وأكرمنا إكراما جميلا واستدعى معنا جماعة من خاصة أصحابه، أعانه الله على نشر العلم والفضيلة وهو تحفة تلمسان علما وعملا"¹¹³⁸ ولم يكن حسن الوارزقي إلا صحافيا محايدا، غير متحيز لأحد. أما من أصحاب البوديلمي ومريدك، فهو موصوف بـ"الحازم التقي الناصح الأستاذ الشيخ علي البوديلمي"¹¹³⁹.

ومن الأقطاب الصوفيين الذين نجد ذكرهم مبعثرا هنا وهناك والتنويه بفضلهم وتقواهم، عائلة العشعاشي التي اشتهرت بالتصوف والتجارة، والتقوى. والحديث عن الشخصيات الصوفية في الجزائر إبان هذه الحقبة بلغ شأوا عظيما، وقد جمعت الرحلة من الأسماء الكثيرة، ومن رؤساء الزوايا نذكر "الشيخ الحاج الأعرج بن الأحوال شيخ الطريقة القادرية"¹¹⁴⁰ و"الشيخ أحمد الشارف بن طكوك رئيس الزوايا السنوسية"¹¹⁴¹ ويذكره عنه إسماعيل مامي في قوله "ومن الأطواد النافعين للبشر أحمد بن طكوك الخطابي الحسني الإدريسي بن العارف بالله الشيخ الشارف بن سيدي الجيلاني بن سيدي عبد الله شيخ الطريقة السنوسية بمستغانم من بيوت المجد والصلاح الذين توارثوا طريق القوم أبا عن جد وظفروا منها بالقدح المعلى"¹¹⁴² وبغليزان "الشيخ سيدي الحاج العربي التواتي" وهذا الشيخ كان يُبدي عداوة ظاهرة للحركة الإصلاحية وزعيمها ابن باديس، وهو الذي لم يُرد مقابله حين بلوغه (بن باديس) مدينة غيلزان "بلغني أنه سمع بنا ورآنا ولم يشأ أن يجتمع بنا فعبجنا لذلك واستفسرنا ثم زال عجبنا لما بلغنا أن في قلبه شيئا على جمعية العلماء وقاها الله شر كل ذي شر - وقلنا ليته تنازل فاجتمع بنا فكنا لا نفرق بإذن الله تعالى إلا على محبة وخير ورجوع

¹¹³⁷ - لإحياء الصلة والوداد، مصدر سابق، العدد 18.

¹¹³⁸ - حديث متحول النجاح .. تلمسان الجميلة جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 3853.

¹¹³⁹ - قادة بوجلال كل الناس كاملون، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 49، مستغانم يوم الجمعة 30 محرم 1357 هـ، الموافق لـ 1 أبريل 1938.

¹¹⁴⁰ - في بعض جهات الوطن، مصدر سابق.

¹¹⁴¹ - أنفس الذخائر، مصدر سابق، ص 45.

¹¹⁴² - جولة نائبا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، النجاح 135.

للحق"¹¹⁴³ كما أن هذه الصورة تبين أن عبد الحميد ابن باديس كان يسعى لجمع الأمة غير مفترق لها، صاحب دعوة تبشير لا تنفير.

أما العالم الصوفي الذي ذكرناه عند الحديث عن ابن المهدي، وهو أبو عبد الله البوعبدلي الذي كانت سمعته كبيرة وعلمه مشعّ وتقواه ظاهر يذكره إسماعيل مامي عند نزوله بضواحي وهران بالقول: "عندما وصلتها قصدت العالم المتضلع الخطيب المصقع الصوفي الأورع الشيخ سيدي أبا عبد الله البوعبدلي وعندما دخلت عرينه قابلني بمزيد بشاشة وسرور وقد صادف ذلك اليوم الجمعة فنزلنا من داره إلى المسجد الأكبر فصعد المنبر وخطب خطبة في التعليم وأهميته بكلام يفهم الحجر الصلد رغما عن سكان تلك المدينة النبلاء ثم تلاها بخطبة مستقلة في فضائل اليوم التاسع من ذي الحجة الحرام على الأخص وبين للمصلين كيفية التضحية ومسنونيتها الخ"¹¹⁴⁴ ويذكر مامي أيضا بعض مشايخ من الغرب الجزائري، ويثني على خصالهم الأخلاقية والعلمية منهم "سيدي محمد" وهو "من مشايخ مستغانم العارفين بالله بأتم معنى الكلمة الصوفي المتفاني في حب الله الفقيه الأصولي الشيخ سيدي محمد نجل سيدي سليمان بن الشيخ عدة صاحب الزاوية الشهيرة بندرومة"¹¹⁴⁵، وقد وسمه الرحالة بعلو كعبه في ميدان العلم والالتزام بالطريقة الصوفية، وبأعماله العلمية المؤلفة، إذ يقول عنه: "صاحب التأليف الكثيرة والعلوم الغزيرة اجتمعت به بزاوية بندرومة فأعقد علي من كرم علمه ما دل على مشاركته في سائر الفنون وطول باعه في طريق القوم وللشيخ مناقب سامية وتعلق عظيم بالحضرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التحية"¹¹⁴⁶

ومن شيوخ الزوايا نذكر: "المنتسب الماجد الشيخ المدني شيخ زاوية سيدي المحجوب"¹¹⁴⁷ وبمديونة¹¹⁴⁸ "الشيخ سيدي محمد بن عبد الله شيخ الطريقة الشاذلية والنائب عن الزاوية الميمونة بتلك النواحي"¹¹⁴⁹ و"سيدي العربي بن سيدي سالم وسيدي الأمين بن

¹¹⁴³ - رحلة بن باديس في بعض جهات الوطن، مصدر سابق.

¹¹⁴⁴ - جولة نائبنا بالمغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، النجاح 138

¹¹⁴⁵ - المصدر نفسه، النجاح 137

¹¹⁴⁶ - جولة نائبنا بالمغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، النجاح 137

¹¹⁴⁷ - سوانح متحول مصدر سابق، العدد 51، يوم 1 ربيع الأول 1357 هـ الموافق ل 1 ماي 1938م.

¹¹⁴⁸ - مديونة بلدة متوسطة تقع شمال مدينة غليزان، وتابعة لها إداريا، تعرف ببعض فقهاها القدماء.

¹¹⁴⁹ - جولة نائبنا في الأرجاء الوهرانية، جريدة البلاغ الجزائري، السنة الرابعة، العدد 180، الجمعة 12 ذي القعدة 1348هـ، الموافق ل 11 أبريل 1930.

سيدي الإمام شيخ الطريقة القادرية وسيدي العيد بن يامنة مقدم الطريقة التيجانية¹¹⁵⁰ وبغليزان "الشيخ مولاي محمد أحد أهل العلم وشيخ الزاوية بها"¹¹⁵¹.

وتجدر الإشارة في الأخير إلى القول، بأن الزوايا كانت تعمّ القطر الجزائري، وبخاصة الجهة الغربية منه، وفي ذلك تكوّنت طائفة كبيرة من مريدين وعلماء، أخذوا على عاتقهم حمل راية التصوف التي كان ينتابها الكثير من الدّخن، خاصة منها التي كانت تسائر خط الاستعمار، أو تلك التي نبذت إلى هاوية الانحراف الأخلاقي والعقدي، كما تبرز طائفة منهم بقيت بُغيتها حمل لواء العبادة والتقرب إلى الله، تحسن تارة وتسيء أخرى، مع حسن نية واجتهاد في التقرب إلى الله بطرقها الخاصة.

1 . 2 . 2 . الأعيان والرتب الاجتماعية

تكوّنت في المجتمع الجزائري طبقات اجتماعية في ظل الاستعمار الفرنسي تختلف اختلافا جذريا على كل المجتمعات الأخرى، وقد صنع منها المستعمر ودفعها لتكوّن طبقات ومراتب، استحالت إلى شخصيات فاعلة أو نموذجية في هذا المجتمع، وخلقت من خلاله رتبا اجتماعية. بينما الشخصيات الوطنية الهامة فقد عرفت التهميش لمواقفها ولصدودها عن هذا المستعمر. وأكثر هذه الشخصيات التي كانت تمثل أعيان الجزائر، كانت خاضعة للمستعمر، وفتحة من فئات سلطته وأداة من أدوات حكمه. وقد أصبح هذا النمط يشكّل نسقا موضوعيا عند الكثير ممّن شغل مناصب في الدولة الاستعمارية، على اعتبار أنها الدولة المفوّضة لحكم الجزائر، وتسيير شؤونها، وبالتالي، فكثير من الجزائريين سلّم بأن فرنسا هي أم الجزائر، ولا تستطيع الجزائر ولا يأتي عليها يوم تسترجع فيه استقلالها، إلا فئة قليلة كان إيمانها بهذا الاستقلال إيمانا راسخا فتحقّق على أرض الواقع من سنة 1962.

ومن هذه الزاوية تشكّل المجتمع الجزائري من ثلاث طبقات مركزية: طبقة المستعمر، وطبقة الجزائريين المؤمنين بفرنسا والذين منحت لهم -فرنسا- نفوذا فأصبحوا من الدرجة الثانية بعد الفرنسيين، وطبقة ثالثة تمثلها الطبقة الجزائرية المحرومة التي تُنافح لأجل لقمة العيش الكريم -إن وجدت لذلك سبيلا، كما أن من هذه الطبقة تكوّنت النخبة التي قوّضت حلم فرنسا إلى الأبد.

وفي ظل هذا الوضع عرفت الجزائر شخصيات مؤثرة، منها من زرع الرعب في الشعب المستضعف، ومنهم من نال سمعة كبيرة في المجتمع وكلّ كان في عين الرضى عند الفرنسيين، وتمثل هذه الشخصيات في الأسماء والمراتب.

¹¹⁵⁰ - رحلة مباركة - رحلة الشيخ سيدي الحاج رئيس زاوية طولقة إلى وادي سوف، جريدة البلاغ الجزائري، السنة التاسعة عشر، العدد: 2107 - الأربعاء 29 ذي الحجة 1356 الموافق 02 / 03 / 1938.

¹¹⁵¹ - رحلة بن باديس في بعض جهات الوطن، مصدر سابق.

1 . 2 . 2 . 1 . الأسماء

أ - بوعزيز ابن قانة (شيخ العرب)

يعد اسم بن قانة من الأسماء ذات شأن في جزائر العصر الحديث، إذ "تنحدر أسرة ابن قانة من أصل شريف من أجداد علماء وقضاة"¹¹⁵² وكما يقال إنه من قبيلة تنحدر من سلالة إدريس الثاني¹¹⁵³، وقد كانت أسرة ابن قانة في عهد الاحتلال تشكّل قوة نافذة بفعل عدد أفرادها الكبير الذين كانت تتشكل منهم و"لقد كانت هذه الأسرة متماسكة ومتحدة اتحادا قويا"¹¹⁵⁴ بما سمح لها في تزعم المنطقة برتبة (شيخ العرب) هذا اللقب الذي نافستها فيه أسرة أخرى نديّة وهي أسرة "بوعكاز"، واحتدم بينهما صراع مرير لأجل تلك الرتبة ولزمن طويل بعد أن خلا لهما المقام بغياب التواجد التركي بالمنطقة و"فسح المجال واسعا للصراع الدموي بين ابن قانة وأولاد بوعكاز"¹¹⁵⁵، وما كان يذكي نار الفتنة بين العائلتين ظروف خاصة تتحكم فيها أيادي البايات حيث كانت الصراعات "تخضع لمزاج باي معين وحسب علاقاته مع عائلة أو أخرى"¹¹⁵⁶ وما يسجل لأسرة ابن قانة أنها لم تكن ترضخ للمستعمر في أول الأمر حيث تمكن أحدهم (خليفة محمد بلحاج) لما شغل منصب شيخ العرب (1827 - 1836)، من أن يقود "ست ثورات ثائرا على الاستعمار"¹¹⁵⁷ وهذا ما يكفيه شرفا.

ومن الأسماء المثيرة في عائلة ابن قانة، اسمان: وكلاهما يحمل اسم "بوعزيز"، فقد رضخ الأول للاستعمار وانضم إليه صاغرا، حيث "بعد التخلي عن الباي، اتصل آل بن قانة في شخص بوعزيز بالجنرال نيقرييه "Négrier"¹¹⁵⁸ وهو الذي حرّض القبائل على تقليل نفوذ الأمير عبد القادر، وقطع في وجهه الطريق. ومنذ هذه العتبة أصبح عهدا على آل ابن قانة خدمة فرنسا، وتمكينها من الأمان بمنطقة الشرق الصحراوي، وقد خَلَف من بعده خلف تمثّل في "بوعزيز الثاني" - كما يعرف - الذي تزعم في النصف الأول من القرن العشرين. وقد كان لهذه الشخصية الأخيرة ذكرا مستفيضا في

¹¹⁵² - صالح فركوس، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2006، ص 293.

¹¹⁵³ - ينظر المرجع نفسه، ص 294.

¹¹⁵⁴ - المرجع نفسه، ص 294.

¹¹⁵⁵ - المرجع نفسه، ص 296.

¹¹⁵⁶ - محمد العربي حرز الله، منطقة الزاب - مائة عام من المقاومة، دار السبيل، الجزائر، 2009، ص 29.

¹¹⁵⁷ - المرجع نفسه، ص 167.

¹¹⁵⁸ - المرجع نفسه، ص 172.

الرحلات الجزائرية الحديثة التي نوهت به وبما كان يؤديه من مهام حيث كان يمثل "رئيس أهلي لواحة بسكرة وحامل جوقة الشرف من درجة قزاند أوفيسي" ¹¹⁵⁹.

ولما كان لهذه الشخصية من الحظوة والنفوذ على أبناء المنطقة، لم يكن للدعوة الإصلاحية إلا أن تبادر بالذهاب إليه والاستقواء به حينما كانت تتاح فرصة الزيارة إلى بسكرة، ولم يكن (شيخ العرب) يظفر بلقائه إلا من كانت له سمعة، فمن أبناء الحركة الإصلاحية لم يستقبل سوى زعيمها ابن باديس الذي قال عنه: "زرنا مع الشيخ محمد خير الدين السيد بوعزيز ابن قانة في داره لنقدم له الجمعية، فتلقانا بلطف وحفاوة عظيمتين، وأبدى سرورا كبيرا بالجمعية ومقاصدها، وأعجبه بوجه خاص وودّ لو يبدأ به قبل غيره تأسيس الكلية العلمية الإسلامية الجزائرية التي في عزم الجمعية السعي لتأسيسها، ووعد حضرته أن يكون في عون الجمعية بما يكون في استطاعته، فشكرنا له فضله وشعوره وودعناه معجبين بأدبه وحسن أخلاقه" ¹¹⁶⁰ أما ما دون الزعماء فلم يكن ليلتقي ولا يستقبل أحدا، يشهد على ذلك الرحالة الصحافي العضو في جمعية العلماء (علي مرحوم) الذي أكد أنه لم يُرد استقباله على الرغم من الإلحاح في الطلب "ترددت عليه مرارا وتكرارا وكلما ذهبت قدم لي الأعوان أعدارا، وأخيرا وجه إلي سؤالا إذا كنت أنا صاحب النجاح فقلت (لا) فأخبروني بأنهم لا يعرفون إلا صاحب النجاح ولا يسمحون بالدخول إلا له فتمنيت أن لو لم أستعجل في الجواب ب (لا) كي أفوز بمقابلة شيخ العرب" ¹¹⁶¹ ويشير كلام الرحالة من أن لقاء ابن قانة كان محببا، ومرغوبا لدى الجميع، كما أنه من ناحية تفيد أن صحافيي النجاح قد ظفروا بلقائه خصوصا منهم الرحالة "إسماعيل مامي" الذي أكثر من ذكره كلما وافته الفرصة وسنحت له الكتابة، حيث كان يصنع منه شتى الألقاب ومختلف الأنساب، فهو لا يخلو من صفة التمجيد مثل قوله: "حضرة شيخ العرب سيدي بوعزيز بن قانة" ¹¹⁶² كما يذكر له أنه كان يبذل مساعي حثيثة من أجل تحقيق - بصفته باش آغة الزيان - "الأمن والعدل السائدين على رعاياه فقلما تسمع بجناية موت بعمله إلى أن أهالي ولايته كلهم يشنون عليه ثناء من صميم أفئدتهم ويتمنون له عمرا طويلا حتى يعيشوا تحت كنف الله وكنهه في بحبوحة العز والمجد والعدالة" ¹¹⁶³

¹¹⁵⁹ - إسماعيل مامي، مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين سفر الوفدين التونسي والجزائري لرباط الفتح بالمغرب، جريدة النجاح، السنة السادسة عشر، العدد: 1945 - الأحد 26 شوال 1355 الموافق 10/01/1937.

¹¹⁶⁰ - عبد الحميد بن باديس، ثلاثة أيام ببسكرة، جريدة الشهاب، الجزء الثاني، المجلد الثامن، (غرة شوال 1350هـ/ فيفري 1932).

¹¹⁶¹ - علي مرحوم، حديث المتحول، مصدر سابق، العدد 101.

¹¹⁶² - مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين سفر الوفدين التونسي والجزائري لرباط الفتح، مصدر سابق، العدد: 1947، 1 شوال 1355 الموافق 15/01/

1937

¹¹⁶³ - جولة نائبنا بالوطن القبائلي، مصدر سابق، العدد 183.

وقد تختلف الأحكام باختلاف التوجه الإيديولوجي للرحالة ، فما دام إسماعيل مامي وجريدته على خطى ابن قانة، فهذا الأخير يمثل القدوة، ولا تسمع إلا آيات التبجيل وإسداء التنويه المفرط، كما يقول فيه أثناء حفل افتتاح المسجد بباريس الذي كان فيه (ابن قانة) عضوا مسهما: "ثم أرفده العارف النبيل الجامع بين اللسانين، كريم الشيم السيد بوعزيز بن قانة باش آغا الزيان والعرب الشراقة ببسكرة نيابة عن القسم القبلي بخطاب بالفرنسوية بليغ قوبل بالتصفيق المتناهي"¹¹⁶⁴ وكل من كان له فضل المشاركة في تعمير مسجد بباريس، لا شك أنه يصنّف في خانة الممالئين لفرنسا، إلا بعض الفئات "وقليل ما هم".

ب - قدور بن غبريط

لقد حظي هذا الاسم باهتمام كبير عند الفرنسيين، لما كان يقوم به من أدوار في خدمة فرنسا على كافة القطرين الجزائري والمغربي، بل حتى في فرنسا، وكان مخوّلا من طرفها لتحمل أعباءها في أقطار المغرب العربي، وقد شارك في ذلك جميع أفراد عائلته وأصهاره. أبرزهم "السيد مصطفى ابن غبريط.. وصهره السيد الحاج عمر القباج"¹¹⁶⁵ كما خوّل له ملازمة السلطان المغربي (مولاي يوسف) خادما لسلطانه فحمل إذ ذاك درجة وزير، إضافة إلى كونه يحمل من فرنسا درجة جنرال، وقد وسمه كثير من الرحالين -على رأسهم إسماعيل مامي- بأوصاف عدة، فتارة "الفقيه الخبير"¹¹⁶⁶ وتارة "الفقيه الأجل الشيخ قدور بن غبريط"¹¹⁶⁷ وأخرى "البطل الغيور السيد قدور بن غبريط"¹¹⁶⁸.

ومن جملة توصيفاته أنه كاتب كبير إذ ساهم بكتابة مسرحية بعنوان (حيلة الرجال كبير من حيلة النساء) أقيمت على شرف نهاية حفل افتتاح مسجد بباريس، وهي مقتبسة من إحدى القصص العتيقة كما يقول مامي: "ألفها اقتباسا من القصص العتيقة حضرة الكاتب المقتدر الفقيه الشيخ قدور بن غبريط فجاءت آية للقارئ والناظرين"¹¹⁶⁹ وإلى جانب هذه الصفات التي كان يوسم بها، فقد بلغ من الرتب والمناصب الكثير منها، فهو "مدير للتشريفات"¹¹⁷⁰ و"رئيس أوقاف الحرمين الشريفين"¹¹⁷¹ وهو الوزير الذي كان يتمتع بمزايا وفضل، لم تتحقق إلا لذوي الجاه والسلطان، منها أنه

¹¹⁶⁴ - إسماعيل مامي، باريس: حول الاحتفال بالجامع، جريدة النجاح، العدد 323، يوم 18 محرم 1345هـ، الموافق لـ 28 جويلية 1926م.

¹¹⁶⁵ - ينظر مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين سفر الوفدين التونسي والجزائري، مصدر سابق، العدد: 1945.

¹¹⁶⁶ - جولة نائبنا بالمغرب الجزائري والقطر المغربي، النجاح 147.

¹¹⁶⁷ - باريس: حول الاحتفال بالجامع، مصدر سابق، العدد 319، يوم 7 محرم 1345هـ، الموافق لـ 18 جويلية 1926م.

¹¹⁶⁸ - رحلة السيد عمر ابن جيكو جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد: 540 - الأحد 15 رجب 1346 الموافق 08/01/1928

¹¹⁶⁹ - باريس: حول الاحتفال بالجامع، مصدر سابق، العدد 327، يوم 27 محرم 1345هـ، الموافق لـ 6 أوت 1926م.

¹¹⁷⁰ - جولة نائبنا بالمغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، العدد 147.

¹¹⁷¹ - المصدر نفسه.

يستقبل ضيوفه في قصر منيف لما كانت تعقد جلسات جمعية أوقاف الحرمين الذي كان يستورها "افتتح مساء يوم الوصول بمنزل الوزير الجليل رئيس الجمعية المحترم السيد قدور بن غبريط ففي قصره الرحب اجتمع كبراء الدولة المغربية من أعضاء الجمعية وغيرهم"¹¹⁷².

إضافة إلى أن بن غبريط كان يحضرا بالمراتب السامية عند فرنسا، فلم يكن إلا واحدا من أركانها، وأحد المقربين لدى حكامها، يجاور الرؤساء ويرافقهم في بعض المراسيم والاحتفالات الرسمية هذا ما يشير إليه إسماعيل مامي "أقبلت عربة الخيالة البوليسية تنقل السلطان ورئيس الجمهورية والسيد ابن غبريط"¹¹⁷³ وتفيد نصوص الرحلات أيضا أن بن غبريط كان يسعى لدى الدول الإسلامية من أجل إنجاز الجامع، وحث القادة منهم على مدى الاعتراف به كمعلم إسلامي، مثلما تشهد رحلة مامي التي حلّ فيها بالقاهرة: "ومنذ حل السيد قدور وهو من زيارة إلى مأدبة إلى حفلة أهمها زيارة جلالة الملك فؤاد الأول فقد زاره مرتين وفي كليهما قابله جلالة الملك بمنتهى الإكرام والحفاوة ووعدته بزيارة باريس في جويلية لأوربا وبإعانتته للجامع عندما يصلي فيه فشكر السيد قدور فضله ودعى له بالسلامة واليمن في الرحلة المزمع عليها"¹¹⁷⁴. ولعب قدور بن غبريط دورا بارزا في تأسيس جامع باريس حيث "سعى السعي الحثيث لتوطيد دعائم هذا الجامع ولولاه لما برز إلى حيز الوجود"¹¹⁷⁵. ونشير إلى أن الرحلة لم يقرّ بالخلفية التي من أجلها شيدت فرنسا هذا الجامع. إضافة إلى الجمعية المشبوهة التي كان يتأسسها وهي "جمعية"¹¹⁷⁶ أوقاف الحرمين" والتي من خلالها صار ابن غبريط أمينا على مصالح فرنسا، بل وأشدّ حرصا عليها من الفرنسيين أنفسهم، حيث كان يصف دعاة الإسلام الصحيح في باريس بـ"المغرضين"¹¹⁷⁷، وصرح بأنه يتشرف بمنعهم من جامع باريس¹¹⁷⁸.

1 . 2 . 2 . 2 . المراتب

أ - الشخصيات السياسية (المتوظف الأهلي)

¹¹⁷² - مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين سفر الوفدين التونسي والجزائري مصدر سابق، العدد: 1946 - الأربعاء 29 شوال 1355 الموافق 13 / 01 / 1937

¹¹⁷³ - باريس: حول الاحتفال بالجامع، مصدر سابق، العدد 320، يوم 11 محرم 1345هـ، الموافق لـ 21 جويلية 1926م..

¹¹⁷⁴ - سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 454 .

¹¹⁷⁵ - رحلة السيد عمر ابن جيكو مصدر سابق، العدد: 540.

¹¹⁷⁶ - جمعية الحرمين هي جمعية أنشأتها فرنسا، وأوكلت إليها إنشاء مسجد في باريس، والإشراف عليه، "اعترفا" منها بفضل الجنود المسلمين عليها في الحرب العالمية الأولى.

¹¹⁷⁷ - محمد الهادي الحسني، الجنرال قدور بن غبريط، جريدة الشروق اليومي، العدد 38095 ليوم 28 أفريل 2010.

¹¹⁷⁸ - المرجع نفسه

لقد هيا الأتراك كراسي لرتب اجتماعية وسياسية، خضعت لها بعض المناطق وفق هرم قيادي تعارف عليه المجتمع الجزائري، ولما دخل الفرنسيون بصفتهم مستعمرين، أبقوا على تلك الرتب مع تغيير في توجّحها وتمثّل هذه الرتب في "الرؤساء الأهالي هم: القياد والأغوات والباش أغوات، قد كانت السلطة انتزعت من بين أيديهم بصفة تامة عام 1872م، ثم أعيد لهم بعضها عام 1874م، ولا يمكن لهؤلاء الرؤساء مهما علت درجتهم أن يحكموا بالسجن على أهلي، إنما لهم أن يحكموا عليه بغرامة لا تتعدى عشرين فرنكا ولا تنفذ إلا بعد مصادقة السلطة الفرنسية المحلية"¹¹⁷⁹ وإذا كان (الباش آغا) يحمل أكبر الرتب في هؤلاء، فإن رتبته ليست بريئة، لما تحمله من توصيات استعمارية مقيد بها، وملزم بتطبيقها، إذ هو مهما بلغ وتناول فليس سوى جنديّ بسيط من جنود الاحتلال، وذلك ضمن وثيقة يقرّر فيها حاكم الجزائر سنة 1834 بما يلي: "فهذا الفسيان الكبير الذي هو تحت أمرنا يكون أشغالكم على يديه وهو الناظر عليهم ويعمل جهده وطاقته لتوفير سلطنة الفرانصوية ولأجل العافية ولطاعة الأمور التي تخرج من عندنا"¹¹⁸⁰ فتوصيات الحاكم تنبئ بأن هؤلاء لا يحملون من القيادة شرفها، بل هم قائمون على توصيل الأخبار عن إخوانهم الجزائريين، ودفعهم إلى التزام حدود ما تطلبه منهم فرنسا، وهو الحال البيّن من خلال هذا القول: "لازم للآغة من أربع [كذا] وعشرون ساعة إلى الرابعة [كذا] وعشرون ساعة يخبرنا ويكاتبنا بما وقع عنده وبالخير الذي كان عنده"¹¹⁸¹ وهذا الميثاق فيه كفاية على جنديّة الرتبة التي يحملها أصحاب الشرف المزعوم، مهما تطاولت في التسمية وعلت في الشرف.

وينقل مامي -أيضا- صورة من صور الباش آغة الذي كان في الغالب يقوم بأدوار قدرة في المجتمع الجزائري، صورة تعبّر عن مدى السخافة التي كان يتميّز بها جل الباشاغات، ليس في مهامهم المنوطة بهم، بل حتى على مستواهم الطفيلي في المجتمع، حيث كان بعضهم لا يتورّع من سقطاته، ولا يرى استياء لشخصيته حين يقدّم على الخسيس من الأعمال، وقد كان أغلبهم حريصا على الحياة في جمعه للمال بأية وسيلة، كالذي ترد سيرته في رحلة (إسماعيل مامي) "قلت لرفيق كان مصاحبا لي ما هذا القيطون؟ وما هذه الهياكل المنصوبة به وما حقيقة هاته الصينية الموضوعة بينهم فهمس في أذني خيفة البطش به وقال هذا قيطون الباش آغا عبد الصادق قدور وهؤلاء زبانيته والصينية يجمع بها الباش آغا الدراهم من الرعية لقهواجه الذي لم يخدم في شهر رمضان فيستعين بها

¹¹⁷⁹ - كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 416.

¹¹⁸⁰ - عبد الحميد بوزوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 167.

¹¹⁸¹ - المرجع نفسه، ص 167.

في أيام العيد. فترى الباش آغا ينادي على المارة بالسوق هذا فرنكا والآخر نصف فرنك إلى أن يجمع النصيب الذي كتبه الله لقهواجه المسكين¹¹⁸² ولم تكن هذه الصورة التي بطلها الباش آغا إلا من العمل الخسيس، إذ كان بالإمكان أن يعرض عن هذا الفعل كونه ليس فقيرا حتى يلجأ لمثل هذا الفعل ويهوي بهمته إلى دنايا الأخلاق وهو من أعيان الأمة ورؤسائها وأغنيائها.

ومن هذه الرتب (التركة التركية) التي تتعاون مع الاستعمار إلى الرتب العسكرية التي كانت فرنسا تمنحها لطائفة من الشخصيات، أعلاها (قراند أوفيسي) وتمنح خاصة لشيخ العرب وما يدانيه في السمعة والخدمة وهي التي حملها ثلة من الشخصيات، كشخصية "الخليفة جلول بن لخضر رئيس أهلي بواحة الأغواط وحامل جوقة الشرف من درجة قراند أوفيسي"¹¹⁸³ وتعد هذه الرتبة في عرف القانون الفرنسي الصنف الرابع، وقد تشرف بها نخبة كانت تخدم فرنسا خدمة حثيثة أمثال الطائفة التي يذكرها (مامي) نورد منها ما جاء في نصه: "والصنف الرابع (قراند أوفيسي) كلا من السادة علاوة بن علي الشريف نائب مالي لقسم آقبو عمالة قسنطينة، الآغا بن عودة ولد الصحراوي قائد بحوز جبل الناظور عمالة وهران، والأستاذ أبو بكر عبد السلام شيخ الفقه والتوحيد بمدرسة تلمسان، والحاج صاحب معامل العطورات بالجزائر والحاج محمد العشعاشي رئيس الجمعية الدينية بتلمسان، وابن خلاف حسن نائب عمالي بجيجل، وشتوف عدة نائب عمالي بمعسكر، والحبيب بن عبد المالك مفتي مدينة تلمسان، والشيخ علي يحيوي مفتي مدينة شرشال والشيخ الحاج محمد الجبلي مفتي مدينة عنابة"¹¹⁸⁴.

أما صنف الدرجة الثالثة فهي درجة أقل وتمثل في رتبة رائد، وقد تقلدها مجموعة من الشخصيات كما يدلي (مامي) في إحدى مناسبات الترقية "والصنف الثالث كوماندير لكل من السادة.. والشيخ محمد الشريف بن حبيص قاضي موثق ذراع الميزان ورئيس ودادية المحاكم الشرعية الإسلامية، والشيخ شندارلي سليمان قاضي مالكية الجزائر والزواي"¹¹⁸⁵ ولم تكن شخصية ابن حبيص إلا واحدة من الشخصيات التي شجعت على التحنيس بالجنسية الفرنسية، معتبرا أن "شعبه وصل إلى درجة كبيرة من الانحطاط كما عبّر عن ذلك أستاذه من المحافظين المصلحين، مفتي

¹¹⁸² - على جناح السفر، مصدر سابق، العدد 585.

¹¹⁸³ - مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين سفر الوفدين التونسي والجزائري، مصدر سابق، السنة، العدد: 1945.

¹¹⁸⁴ - المصدر نفسه، العدد: 1952 - يوم 15 ذي القعدة 1355 الموافق 1937 / 01 / 27

¹¹⁸⁵ - المصدر نفسه.

قسنطينة، المولود بن موهوب¹¹⁸⁶ وأن الفضل كل الفضل يعود لفرنسا التي لم تجد في الجزائريين إلا المتعصّبين الذين هم أدنى مما تدعوا إليه فرنسا في تحضيرهم ودجهم في المجتمع المدني، وكان يحثّ ويصّر "عن مظاهر الاعتراف بالجميل نحو فرنسا التي تنشر التعليم وسط رعاياها الأهالي، وندد من جهة أخرى بالجهل الذي يعمل المتعصبون على إصاقه بالشعب، ودعا إلى محاربة الجهل والكسل"¹¹⁸⁷.

أما عن صورة هذه الشخصيات في ميزان الحكم انطلاقاً من النصوص الرحلية نلّفها ذات اتجاه واحد حيث نجد صنف واحد من الرّحّالين من يتحدث عنهم وهم رحالو وصحافيو جريدة (النجاح) على غرار (إسماعيل مامي) والرحالة حسن الوارزقي الذي زار المنطقة باعتباره متجولاً هذه الجريدة، وقد ملأ فضاء النص بالثناء على هؤلاء الذين لا يتحدّث إلا في إطار رضا الناس عنهم، فحيثما حلّ وأينما نزل، لا نجد من الأمر إلا "ممثل الحكم النزبه هناك رجل الأخلاق الطيبة والبشاشة والكرم الحاتمي السيد الباشاغا علي السنوسي الذي له المكانة المحترمة لدى جميع السكان وقد لقينا منه كل إجلال وإكرام"¹¹⁸⁸ أو قوله في "الشاب الظريف السيد قانة مصري باشاغا البلدة الذي يمثل الحكم هناك أحسن تمثيل يدل على طيب أصله، فله كل احترامنا وتقديرنا وجزيل شكرنا، ولسائر أفاضلها الأكرمين"¹¹⁸⁹.

وما يمكن تسجيله أيضاً، هو كون الشخصيات التي أدرجت في هذا الصف، ونالت من الرتب والمهام في الدولة الفرنسية، منهم رجال الدين ورجال السياسة، وأصحاب الزعامة ممن كانوا يتمتعون بنفوذ لعدة اعتبارات كونهم أصحاب أراضي فلاحية، أو من المتحمّسين لخدمة فرنسا على حساب مواطنيهم.

ب . الشخصيات القضائية

انفرد القضاء الفرنسي في تدبير شؤون البلاد، ولما كان يواجه عوائق دينية وعقدية وأحوال شخصية نابعة من عمق الأعراف الجزائرية، فتح نافذة للقضاء الشرعي الإسلامي الذي "حطّمه الاستعمار تحطيماً، ولم يبق منه إلا صورة مشوهة بشعة، يخجل منها الإسلام"¹¹⁹⁰ وعلى الرغم من ذلك فقد وجد قضاة جزائريون لا يملكون من أمر أنفسهم إلا الامتثال للسلطة القابضة على رؤوسهم،

¹¹⁸⁶ - بن حسين كريمة، المتجنسون: مواقفهم، أفكارهم وطموحاتهم، مجلة العلوم الانسانية، جامعة منتوري قسنطينة، العدد - 30 ديسمبر 2008، ص.ص . 143 127.

¹¹⁸⁷ - المرجع نفسه.

¹¹⁸⁸ - حديث متحول النجاح.. في الصحراء.. من وراء الرمال..!، مصدر سابق، العدد 3892.

¹¹⁸⁹ - المصدر نفسه.

¹¹⁹⁰ - أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 115.

وليس لهم من الشؤون الكبيرة والخطيرة في حياة المسلمين شيئا، "فالقاضي المسلم الجزائري المتخرج من المدرسة الحكومية الجزائرية هو موظف فرنسي، يحكم بين المسلمين في أمور الزواج والطلاق والحضانة والمواريث؛ أي ما يتعلّق بالحالة الشخصية الإسلامية"¹¹⁹¹ لذلك عدّه توفيق المدني "مصيبة من أعظم المصائب الاستعمارية التي نكبت بها البلاد"¹¹⁹².

وقد باتت هذه الشخصية تمثل صفحة من دفتر الاستعمار، فتكوّنت له مراتب أبرزها القاضي، والباش عدل، وحتى وإن كانت هذه الشخصيات تحكم بالشرعية الإسلامية، فهي تعيّن من طرف الوالي العام، "ويختارهم من بين عدول المحاكم، ويشترط فيهم ما يشترط في القضاة من الشهادات والباش عدل هو نائب القاضي وله كل السلط التي لذلك"¹¹⁹³ وقد أجمعت كل الشرائح المجتمعية أن هؤلاء القضاة أو الباش عدول، أناس أنقياء أتقياء في عمومهم، وكُلّهم أفضل، بعضهم كان متعاوناً مع الفرنسيين كما هو الشأن بالنسبة "للشيخ الشريف بن حيلص قاضي محكمة ذراع الميزان ورئيس ودادية المحاكم الشرعية"¹¹⁹⁴ و"الشيخ أبو القاسم الحاج حمدي قاضي محكمة ثنية الحد ونائب فرنسا بمكة المكرمة"¹¹⁹⁵ وغيرهما غير قليل، والغالبية منهم كانت موظفة في إطار منصب وظيفي محترم فقط، ما يميزها، العلم والتقوى والكرم، وكلهم فقهاء أو من ذوي المعرفة المعتمدة في الدين الإسلامي، والمعارف الثقافية الأخرى، مع جَمّ الأخلاق، مثلما يؤكّد ذلك ابن باديس في رحلته، ففي الأصنام (الشلف) ألقى: "العلامة الألمي الشيخ طالب شعيب القاضي بها فما شئت من علم وأخلاق وفصاحة وإطلاع على شؤون الوقت وعدالة ونزاهة"¹¹⁹⁶ وهو الانطباع نفسه الذي يؤكّده مامي قبله حول هذا القاضي: "الشيخ طالب شعيب القاضي وكذلك الباش عدلين وبقية الأعضاء وكلهم من خيرة الطلبة"¹¹⁹⁷ أما بغيلزان فيدي ابن باديس رأيه أيضا في قاضيها، يقول: "ثم اجتمعنا بقاضي البلد العالم الماجد الهمام الشيخ بوخلوة آل بو عبد الله، رجل شهامة وعمل وكرم"¹¹⁹⁸ وما يرويه مامي عن بعضهم "الفقيه الأبر الشيخ أحمد بوصبع الباش عدل وكذلك الفاضل النبيل السيد المدرس وكذلك الشيخ القاضي"¹¹⁹⁹. وكلهم تحتويهم لازمة الفضل والعلم.

¹¹⁹¹ - المرجع نفسه، ص 116.

¹¹⁹² - نفسه، ص 116.

¹¹⁹³ - نفسه، ص 425.

¹¹⁹⁴ - مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين سفر الوفدين التونسي والجزائري مصدر سابق، العدد: 1945.

¹¹⁹⁵ - المصدر نفسه.

¹¹⁹⁶ - رحلة بن باديس في بعض جهات الوطن، مصدر سابق.

¹¹⁹⁷ - جولة نائبنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، النجاح 130.

¹¹⁹⁸ - رحلة بن باديس في بعض جهات الوطن، مصدر سابق.

¹¹⁹⁹ - جولة نائبنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، العدد 130.

ثم إن السؤال الجدير بالطرح، ما قيمة ومستوى العلم الذي يتحدث عنه جل الرّحّالين؟ في ظل المستوى الحضاري عامة الذي عرفته الجزائر خلال هذه المرحلة، والذي تدنى مستواه المعرفي والثقافي بشكل كبير، وكان إذا حمل أحدهم قلما أو تلا حرفا يعدّ من المثقفين، لذلك قد تطفو هذه الشخصيات (القضاة ومن يدانيهم في الثقافة والمعرفة) على السطح الذي تراكم على مساحته الجهل والأمية، وهذا لا ينقص من قيمة بعض القضاة الذين كانوا بحق من العلماء والفقهاء والمحدّثين، والذين عُرفوا بعلمهم وتقواهم كالشيخ طالب شعيب -المذكور سلفا- أو أبي بكر شعيب، الذي لفت انتباه بعضهم فأقرّ بالقول عنه: "فنزلنا بتلمسان لدى العلامة الأكبر المحدث المشتهر الخيّر البرّ، عالم الزمن، سيدي أبي بكر شعيب بن علي بن الشيخ محمد فضل الله القاضي بن الشيخ عبد الله بن الولي الشهير سيدي ابن مشيش أبي بكر سليل سيدي محمد بن عبد الله الجيلي صاحب (تنبيه النام) وقاضي القيروان. وهو أطل الله بقاءه القاضي بتلمسان تشريفا بعد أن تولى ما يناهز 65 سنة قاضيا وعضوا في مجلس الشورى العلمي بتلمسان"¹²⁰⁰ وبالتالي، فنحن لا نستطيع تقدير المستوى الحقيقي لكثير من هذه الشخصيات التي كانت تمارس وظيفة القضاء، مع العلم أن فرنسا لا يهّمها هذا الأمر الذي لا يجسّد إلا الحجّة على المسلمين أكثر مما ينبغي له أن يكون خدمة لهم.

لذلك نحن لا نستطيع معرفة مدى قيمة هذه المعرفة ومستواها الحقيقي، إلا بما تحقّق من ألفاظ نقلها الرّحّالة موازنا إياها بدرجة المجتمع ككل، وبالتالي فأوصافهم لا تخرج عما نجده من قول بعضهم: "الفقيه الأبر الشيخ أحمد بوصبع الباش عدل"¹²⁰¹ وقولهم: "زرت المحكمة الشرعية واجتمعت بالشيخ القاضي وهو رجل فاضل"¹²⁰² و"حللت المدينة العتيقة (مازونة).. فبت ليلة في المذاكرة والأنس صحبة طلبتها الفضلاء القاضي المفتي الباش عدل"¹²⁰³ كما يمكن تسجيل ملاحظة، حيث إننا نستطيع أن نعتبر لفظ طلبة، مستوى متواضعا بالنسبة للإنسان المثقّف، حيث يُطلق هذا اللفظ مطلقا على كل من يحفظ كتاب الله كاملا، ولا يهّم معه قيمة ودرجة العلم والثقافة التي يحملها. أما الجدير بالضبط في تحرّينا، أن أخلاق هؤلاء الشخصيات لا يناقش فيه، كونها فئة تمثل الأخلاق والتواضع في السلوك، خصوصا منها الشخصيات الصحراوية التي لم تعرّك صفو فطرتها مدنية المستعمر، ولم تتأثر بيئتهم بمدنية الأوربيين الذين كانوا يتواجدون في الغالب بالمناطق التليّة والساحلية

¹²⁰⁰ - المصدر نفسه، العدد 140.

¹²⁰¹ - جولة نائبا بالمغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، العدد 130.

¹²⁰² - المصدر نفسه.

¹²⁰³ - على جناح السفر، النجاح عدد 571

منها خاصة، مما سمح لهذه الشخصية الحفاظ على هيئتها الدينية في السمت والنبل والهيبة، مما طغى على حديث الرّحالة الإطناب الذي يفى باعتراف ضمني لهذه الشخصيات بالتميّز في أخلاقها وتقواها، ذلك ما جعل أحدهم يحفظ لها تلك الصورة الرائعة حين ينقلها بأمانة عن قاضي ورقلة الذي يقول فيه: "رجل مومن تقي طاهر منصف يحتفظ دائما في حركاته وسكناته وأحكامه بالوقوف عند الحدود الشرعية الإسلامية، ويعتبر نفسه دائما مسؤولا أمام الله وأمام التاريخ وأمام صاحب الشريعة المطهرة، وله من الأخلاق الطاهرة المرضية والتواضع الجميل ما جعله مرموقا بعين الاجلال والاعتبار من جميع طبقات سكان ورقلة.¹²⁰⁴ وبخصوص قاضي الوادي يقول فيه أيضا: "رجل كريم تقي ورع هو جناب العالم الشيخ المسعود عمراني الشريف قاضي المحكمة الشرعية الإسلامية من الأفاضل الذين لا يزالون يمثلون السلف الصالح في الأخلاق الكريمة والعفة الناذرة والتواضع الجميل والشفقة على الضعفاء والرحمة بالمساكين والعطف على الأراامل والأيتام ومقابلة جميع الطبقات بكل عطف ولطف وتواضع حسن جميل"¹²⁰⁵. وهذا كله يترك شيئا من التساؤل عن مدى تعاون هذه الشريحة الفاضلة مع برائن الاستعمار، وهو ما يجيلنا إلى القول، بأن أغلب من توظّف في هذا المنصب، كان يروم عملا شريفا يكسب من خلاله قوت يومه، ويؤدي واجبه تجاه أمته لأن هذا المنصب يخص المسلمين في شريعتهم وفي خصوصياتهم، حتى وإن كان لا يتعدى حدود القضايا الأسرية والخصومات الأهلية البسيطة.

3 . الصراع والصورة الايديولوجية

تشير النصوص التي دوّنها الرّحّالون عن المجتمع الجزائري إلى حدّة الصراع وتشعب المواقف انطلاقا من اختلاف وجهات نظرهم في الحكم عليه، ومرّد ذلك إلى التوجّه والخلفية التي ينطلق منها الرّحّالون لإعطاء صورة عن هذا المجتمع، ولعلّ هذا يعزّز أحكامنا -نحن- عن هذا المجتمع في تلك الفترة، إذا ما انطلقنا من استقراءات تاريخية قد تساعدنا على ذلك. من هنا قد نتعرض لإشكالية فيما يخص التمييز حتى نظفر بما هو موضوعي، فيما بين الروايات المتناقضة، وما هي علة هذا التناقض؟

إن الرّحّالين في هذه الفترة ينقسمون في الغالب إلى إصلاحيين وطرقين، وبما أن حكم أحدهم على المجتمع برأي، فإن ذلك يتم من وجهة نظر ذاتية لا موضوعية، ومنه نقول بأن أحكام الإصلاحيين تكون بالإيجاب إذا كان المجتمع تتمثل صورته كما يسعى هو في مبادراته الإصلاحية، أما السلب فإن صورة المجتمع تكون في غير صالحه وما يريد من هذا المجتمع. وهو العكس بالنسبة للطريقين الذين كلما

¹²⁰⁴ - حديث متحول النجاح.. في الصحراء.. من وراء الرمال..!، مصدر سابق، العدد 3895.

¹²⁰⁵ - المصدر نفسه، العدد 3899.

وجدوا المجتمع يسير على نهج الإصلاحيين فهو من زاوية نظرهم مجتمع فاسد مفسد، وإذا كان في ولاءه وخضوعه لشيوخ الطرق، فذلك هو المجتمع المثالي. هذا ما نجده متحققاً من خلال اضطراب الأحكام حول المجتمع الجزائري، ومنه نستقرئ ونقف على صورة لواقع هذا المجتمع بأبعاد متباينة، لكن بصورة ناصعة.

3 . 1 . صورة الطريقي

3 . 1 . 1 . صورة الطريقي بتعليقه/ الكشف عن الهوية

لم تكن فئة الطريقين قابضة تتفرّج على المشهد سواء الثقافي أو الديني أو الاجتماعي، وإنما كان لهم صدى كبيراً في المجتمع، وليس ما أتهمهم به أعداؤهم وتأسست لأجله العداوة بشيء خاف، يعمل به الطريقين في تستر، بل كانوا يجاهرون ويعتزون بهذا الانتماء وما يقومون به من أعمال، وهذا ما أكدته نصوصهم (الرحلات)، ومن أجل ذلك قاوموا التيار المعادي لهم بصلافة، منافحين ومزيدين عن قناعاتهم، بما أوتوا من حجج، غير مبالين بما أتهموا به بشتى أصناف القذف والافتهام، ولعل تصريحاتهم تنم عن صميم ما كان يتهمهم به هؤلاء الأعداء وبالخصوص الإصلاحيين عدوهم المباشر، ولم تكن حجج الطريقين في الدفاع إلا وراء وافي الدين وذرائعه، حيث لم تكن الطريقة بأطرافها تعتمد العلم كمطلب للتحضر والعبادة، وإنما كانت تعتمد إلى الروحانيات - حسب زعمهم - والتقليد على حسب الانتماء، مما جرّها إلى الكثير من الانحراف.

ولم يأت الحكم على ما ادعينا استنباطاً، وإنما هو نتيجة مباشرة على تصريح زعيم الطرق الصوفية (أحمد بن مصطفى العليوي) في إحدى إجاباته على أسئلة الرحالة (إسماعيل مامي) حيث يبرّر هذا التوجّه الذي قاده إلى عالم الذكر والعبادة بدّل العلم والتدريس أن مردّه إلى عوامل، فيقول: "ثم شرع يفسر الأسباب الرئيسية التي دعت له لنصب نفسه للتربية فقال: لما كان الناس بقطرنا إقبالهم على حلقات الذكر أكثر من إقبالهم على حلقات العلم وألفتهم إلى الزوايا أكثر من ألفتهم إلى المدارس والكليات رأيت أن أثبت فيهم روحاً دينية بتوحيد الله ومعرفته حق معرفة وإنقاذهم من مهاوي الضلالات التي أحاطت بهم كالسور بالمدينة فمن خمار مدمن ومن قمار مفلس ومن فاسق مارق ومن ومن" ¹²⁰⁶ ولعل هذا التعليل، ولو أن فيه كثير من الحقيقة فإنه لا يبرّر حجم الانحراف الذي وقعت فيه الطريقة سواء على مستوى العقيدة أو العبادة، أو على مستوى الممارسة للاستعمار، حيث أن رسائل الطريقة كانت تمرّر خلف غطاء ديني بمباركة من الاستعمار الذي كان يطعمه للحفاظ على هذا المستوى الوديع لديه، لئلا يرتقي المسلم الجزائري إلى مستوى الوعي والإدراك

¹²⁰⁶ - جولة نائبنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، العدد 132.

وبالتالي المطالبة بأرضه وحقوقه، مما أضفى عليه نشاطا مدعوما بكل الوسائل أهمها التأييد والحصانة. ولعل من أغرب الصور التي تقدمها الطائفة الطرقية بلا حياء كتلك التي تدور أحداثها بالشكنات العسكرية بدل من مقامات الأولياء، مثل قول هذا الرحالة: "كما لقي الركب المذكور أيضا السيد بو الأرباح بن ساعد السارجان¹²⁰⁷ خليفة المقدم على طريقة العمارية في القشلة¹²⁰⁸ العسكرية بالبليدة، بشرذمة من عساكر التي أيوركهم إخوان الطريقة المذكورة، وذلك بسناجقهم ووزراتهم، وطبولهم، بإذن من السيد الكولونيل دوبرلي رجيومان، ومن بينهم الأستاذ المكرم السيد مصطفى يبرم يقودهم في ذلك"¹²⁰⁹ وهذه المحطة كانت قد سبقت الزيارة الرسمية التي تمت إلى الأضرحة كما يصور لنا الرحالة نفسه قوة المريدين في عددهم، ممن كان يعتقد باعتقادهم، وأهم أعمال هذه الطائفة يرونها فيما يلي: "ثم بعدها تهباً إخوان الطريقة الطيبية الجزائرية ووقفوا صفوفاً لحلقة ذكر الجلالة، ونشيد القصائد ضاقت ساحة الزاوية من كثرة الزيار وإخوان الطرق القادمين ركبا بعد ركب وما من بقعة من تلك الساحة إلا وفيها جماعة ذاكرين، ثم بعد التمام قام جناب المرابطين وأمروا بخروج الطعام لإكرام الزيار كما هي عادة السلف"¹²¹⁰ وإذا كانت هذه عادة السلف حسب قول الكاتب فإنه يتبعها بالقول النافي لذلك "وعند الانتهاء جلس مداح الركب الجزائري الشيخ السعيد الشهير ورفقائه أصحاب آلات الطرب، وشرعوا في المدح إلى طلوع الفجر"¹²¹¹ بل هو لا يتوانى في وصف هذه الحال متحدّثا عن مشروعيتها عند السلف الصالح "هكذا نود من إخواننا مقاديم المشايخ أصحاب الأركاب أن تكون زيارتهم للأولياء على شكل هذا النمط، كعادة السلف الصالح"¹²¹² وإذا كنّا لا نعرف حقيقة هذا السلف، أهو من تابعي السنة الصحيحة من المسلمين الأوائل؟ أم يقصد به سلفه هو الذي ورث عنهم هذه الجهالة؟ ويبدو أن الإجابة واضحة في مقارنتنا بين عمل وسيرة الطرفين.

ومن بين العادات التي كانت عندهم بمثابة مقوم ديني وهي لا تعدوا أن تكون مجرد بدع تواضع الناس عليها، ما ينقله رحالتهم "ثم من هناك سار الركب إلى محطة السكة الحديدية للسفر، وقد

¹²⁰⁷ - لفظ جزائري دارج مأخوذ عن اللغة الفرنسية (sergent) وتعني رتبة عسكرية "رقيب".

¹²⁰⁸ - التكنة.

¹²⁰⁹ - غلام الله الحاج محمد، وفد الطريقة الطيبية في زيارة الجزائر "على جناح السفر"، جريدة النجاح، العدد 350، 26 ربيع الأول 1345، الموافق لـ 3 أكتوبر

1926.

¹²¹⁰ - وفد الطريقة الطيبية في زيارة الجزائر "على جناح السفر"، جريدة النجاح، مصدر سابق.

¹²¹¹ - المصدر نفسه.

¹²¹² - المصدر نفسه.

تزاحم مع الاخوان في شأن الزيارة جم غفير من سكان البلاد والأعلامات¹²¹³ المختلفة الألوان ترفرف على رؤوس الإخوان، وخلفهم الزرناجية جماعة الشيخ قدور عين الكحلاء المشهور تترنم على مسامع الزيار¹²¹⁴ وهي كلها علامات سيميائية تؤهل الجانب الطرقي في وضوح مراميه الداعية إلى الانحراف في الاعتقاد، وفي مطابقة هذه الأعمال بحالة الجهل التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري. وهذه الصورة التي أدرجناها مع التعليق هي التي تصوّر درجة كبيرة في الانحراف الطرقي، بينما هناك من هم أخف ضررا من هؤلاء، إلا أن انحرافهم يبدو واضحا، ولو أنهم خلطوا عملا صالحا بآخر فاسد، كالهيللة التي كانت طقسا مشاعا عندهم، مما يحيل إلى التقرز والمخالفات الشرعية، وكأنها شيء من الدين، تجد هذا في كل مناسبة، خاصة في جنائزهم التي كانت محل انتقاد شديد، وهم يقرون بهذا ويرونه شطرا من الدين، وهو الاعتراف الذي نجده في قول أحدهم: "وفي صبيحة اليوم الثاني حضرنا جنازة شقيق أختنا وصديقنا سيدي السعيد اللحام فشيعت بالهيللة"¹²¹⁵ وفي قول آخر "وإن سكانها يشيعون جنائزهم بالهيللة ويقروون القرآن على موتاهم وإن مع وجود المصلحين من بين ظهرانيهم"¹²¹⁶ وهو اعتراف بأن هذا الأمر له نقيض في الساحة الجزائرية، متمثل في الفئة الإصلاحية المناهضة لهم، ومع ذلك فالهيللة واجب من واجبات الطريقة لا تحيد عنها. وهذا اعتراف كبير بنشاط الطرقيين الذي كان غالبا ما يتنافى مع شريعة الإسلام، وروحها السمح.

3 . 1 . 2 . صورة الطرقي بمنظار غيره (بتعليق خصومه)

إذا كانت الطريقة تفصح عن هويتها سواء أكانت سلبية أم إيجابية، فإن متون الرحلات غير الطريقة تكشف في مواطنها عن هذا الجانب. فمن حيث كان رجال الطرق ومريدوها يُعلنون من شأن ما يذهبون إليه، ولا يرون في ذلك إلا الحلّ لأمة دينها الإسلام، أو على الأقل تنظر إلى ما تذهب إليه بعين الرضا، فإن الطرف الآخر نقيضا لها، لا يرى في كشوفاته عن ظاهرة الطريقة إلا انحرافا في الاعتقاد وفسادا في الأخلاق، وسرطانا في المجتمع.

وقد تشعبت انحرافات الطرقيين حسب ما يراه خصومهم، نحصر ذلك في الآتي:

3 . 1 . 2 . 1 . الشرك والانحراف الاعتقادي

¹²¹³ - يقصد الأعلام، جمع "علم" أي الرايات.

¹²¹⁴ - وفد الطريقة الطيبية في زيارة الجزائر "على جناح السفر"، مصدر سابق.

¹²¹⁵ - لإحياء الصلة والوداد، مصدر سابق، العدد 18.

¹²¹⁶ - قادة بوجلال كل الناس كاملون، مصدر سابق، العدد 47.

تمثل العقيدة، القضية التي لا تقبل النقاش الفكري أو الشطط العقلي، لأن ذلك محدد بنصوص شرعية، وقد تذهب كثير من الأمم في تحريف عقيدتها، وابتداع في دينها، وهو أهم معالم ضعفها الحضاري وانحطاطها العلمي، مما يضيف عليها نمط الشعبوية التي تؤسس مبادئ التقاليد والأعراف واعتمادها على أساس أنها دين يتبع. وقد كان المجتمع الجزائري حين نخر فيه سوس الاستعمار، يتجه نحو كل سوء على المستوى الديني الذي تحكّم في زمامه رجال الطريقة بإيعاز وتأييد من السلطات الاستعمارية، ومنه استطاعت قيادات الطرق الروحية أن تغرس الأباطيل والأساطير في المجتمع، حتى غدا العامة من الناس يعيشون بمسكنات هذه الاعتقادات الباطلة، والتي رست جذورها حتى استحالت عقيدة راسخة، يكاد مفعولها يفوق الاعتقاد الصحيح.

ومن أكبر القضايا الشركية عند أكثر الطوائف الطرقية، هو الاعتقاد بأن الأولياء يجري نفعهم وضرهم أحياءً وبعد موتهم في قبورهم، وهو الاعتقاد الشائع والراسخ، الذي يجعل مع الله شريكا ينفع ويضر. ويتم تفسير كل أمر خارج عن العادة أو الطبيعة إلى الولي، وكان هذا الأمر سيّدا عند شريحة كبيرة من المجتمع -آنذاك- وهذا نموذج مما يرويه أحد الرحالين الإصلاحيين نقلا عن بعضهم، في ثنايا السفر بالقطار "فكلما بلغ القطار هذه "المرجة" غاديا أو رائحا، إلا وخفض السائق من سرعته، وكبح من جماحه، وأحس الركاب بأن سرعة القطار قد انخفضت كثيرا، فقال قائل منهم: هذه الكرامة، حتى القطار قد أدركته الخشية، فجعل يسير هذا السير الخاشع احتراماً لسيدي عابد، واعترافاً بولايته وصلاحه"¹²¹⁷ ثم يضيف قائلاً "فقال قائل آخر: وليست هذه هي الكرامة الوحيدة لهذا الولي الصالح فمن كراماته المشهورة أنك لا تسمع مدة هذه "الزيارة" نهيق الحمار، ولا صهيل جواد، ومنها أن من سرق شيئاً صار في يده ثعباناً مبيناً أو حية تسعى"¹²¹⁸ وهذا من الاعتقاد الفاسد الذي يبعد كل البعد عن التفسيرات العلمية الشرعية البالغة التي جاءت بها الشريعة السمحاء، في تعرية الحجب عن هذه السفاهات الجاهلية التي لا يقبلها العقل ولا يرضاها الذوق.

ويعدّ هذا الولي بمقام الإله حيث ساد في المجتمع أن الحلف به أقوى من أي قسّم، بل حتى أن القسم بالله تعالى لا يرقى إلى القسم بالولي، فإذا أراد الفرد من هذا المجتمع أن يعجز صاحبه، إلا الاستعانة بالقسم بالولي، مثل قول أحدهم "عزمتك بسيدي عابد إلا أعطيتني برنوسك هذا لأتكر فيه"¹²¹⁹ وإذا كان الاعتقاد بالولي إلى هذا الحدّ، فإنه ليس من باب الاحترام، أو العظمة في حدّ ذاتها،

¹²¹⁷ - إلى "زيارة سيدي عابد!" (أحاديثنا في القطار)، مصدر سابق، العدد 6، (يوم 4 رجب 1352هـ/23-10-1933).

¹²¹⁸ - المصدر نفسه.

¹²¹⁹ - المصدر نفسه، العدد 13، (يوم 23 شعبان 1352هـ/11-12-1933).

بل كان الاعتقاد بأن أي مخالفة لتقليد من التقاليد يصيب المخالف بأمراض غريبة ومستعصية، وقد تنتهك حرمت في ذلك ولا تزاح معتقد من هذه المعتقدات، ومثال ذلك هذه المرأة التي نزعت حجابها الذي كان يعدّ مقدسا في المجتمع الجزائري، إلا في هذه التظاهرات المعروفة بـ "الوعدة" المنسوبة أصلا للأولياء، والفكرة في ذلك مبنية على الانحراف الأخلاقي، لكنها أخذت بعدا عقائديا، فحين سأل الرحالة (الإصلاحي) إحدى النسوة ممن كانت في هذه "الوعدة" عن سبب نزعهما للحجاب "قلت وأين حائكك الذي تحتجيين به، وتتلغين فيه؟"¹²²⁰، كانت إجابتها: "فرمتني بنظرة شرراء نكراء، وقالت بلهجة الاستنكار: "بوه!!.. تبغي لي العمى والجدري!؟"¹²²¹ وهذا الاعتقاد هو السائد في المجتمع الجزائري آنذاك وإلى وقت قريب، ترسّخ في عمق الوعي الجمعي إلى أن صبغت الثقافة الصحيحة أجيالا تردت عن دين زمرة من آبائها. وهو العامل الذي دعا الحركة الإصلاحية إلى محاربتها في حينه.

3. 1. 2. 1. الابتداع في الشريعة

إذا كانت العقيدة في المجتمع الجزائري في غالبها قد مستها من هذا الفساد والانحراف، فقد شهدت بعض القضايا فيما يخص العبادة أيضا بابتداع وسائل، وصور تنم عن حالة خاصة بفتنة من الناس، هم فئة الطرقية الذين تميّزوا عن العامة، باتخاذهم تمثلات متفردة في ممارستهم العبادية وصارت طقوسا لا شريعة، بدءا بالمظاهر الشكلية التي كانت تميّز هذه الطائفة، مما دعا الكثير منهم إلى التستر وراء هذا الشكل، للسلب والنهب، وقضاء الأغراض، كما يروى عن جماعة منهم بمدينة عنابة "كما بعنابة من نسب العمامة البيضاء والطيلسان وإطالة اللحية وجعل السبحة في العنق للنهب والسلب أو (تمربطت البهتان) كما هو معلوم ولا يستغرب وقوع هذا وأمثاله من بعض المريدين الكاذبين الذين لا حرفة لهم"¹²²² وتعدّ السبحة من أهمّ العلامات الظاهرة في أسلوب وتمييز الطريقين، حيث لا تجد مريدا أو فقيرا لا يحمل سبحة.

وتتم عملية التسييح، التي هي عبارة عن فعل يتم من خلاله ذكر الله، الذي يتخذ عند الطرقية شكلا خاصا مبتدعا تتمثل صورته في "ذكر (الله) والاهتزاز معه كمن يتخبطه الشيطان من المس"¹²²³ ليتساءل الرحالة عن سرّ هذا التسييح مع أن "من يذكر الله لا تلزمه سبحة كذلك

¹²²⁰ - المصدر نفسه.

¹²²¹ - المصدر نفسه.

¹²²² - جولة نائبا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، مصدر سابق، العدد 132.

¹²²³ - المصدر نفسه.

فمخالفة الأمة بالسبح لماذا، والشيخ لم يأمر بذلك حتى إذا كانت له سبحة هو كترك فلا يلزم أن يكون الفقراء كله مشايخا بالسبح¹²²⁴.

هذا من حيث الشكل الذي يديه الطريقي أما من حيث المضمون فتعدّ مقرّات الطرق أو زواياهم، مريضا لممارسة طقوس جديدة مبتدعة، يصف ذلك الرحالة " إسماعيل مامي " بشيء من التعنيف في قوله بعد حديثه عن مساءلته لشيخ الطريقة العلوية: "أما الزاوية فإني أشاهد بها نهيقا كما بزواوية عنابة ففي كل ليلة يسمع المار عليها عن بعد ميترات شهيقا جاوز حدود الشرائع على اختلافها ونهيق الحمير بأصنافها مما يجعل النفوس تشمئز من الشيخ وطريقته من ذوي المنشار الميكانيكي الذي يسمعون¹²²⁵". ويعد هذا الحكم صادرا عن تعبير شخصي، إذ لا يعبر فيه الرحالة في تعنيفه القوي تجاه هذه الممارسات الطرقية عن أي انتماء، بل حتى قطب الصراع المتمثل في الحركة الإصلاحية لم يكن قد تأسس أصلا.

3 . 1 . 2 . 3 . الانحراف الأخلاقي

إذا كان حال العقيدة والشريعة قد عرفت هذا الفساد والابتداع، فإن هذا ينجر عنه لا محالة انحراف في سلوك البشر وممارساتهم الأخلاقية، إذ ليس للشيطان من مستنقع أفضل من هذا ولا باب أحسن منه، للربت على أكتاف المنحرفين دينيا، فيسوّغ لهم ما هم فيه، ويبارك لهم ما هم عليه، حتى يبارك هؤلاء باستحسان كل منكر، مزكّي من قبل هذه العقائد الضالة، وقد روّجت باسم الدين هذه الطائفة إلى ركوب كل مفسدة أخلاقية، وانتهاك كل حرمة اجتماعية، فباتت سفينة المجتمع وشيكة الغرق، حيث أدركها رجال الإصلاح في منتصف البحر الزاخر. وأول ما عرفته نتائج الانحراف أخلاقيا، ظاهرة "الوعدة" التي كان فيها يستباح كل شرف أخلاقي ولو كان في غير هذا المقام متعصب له، كحرمة سفور المرأة.

ففي هذه المحطات كان الرقص الفاحش منسوباً لشرف الأولياء، كما يؤكد ذلك "الزاهري"، حينما كانوا يطلبون من النسوة ذوات الحياء أن ترقصن: "يقولون لها: ويحك أيتها المرأة أما تتفضلين علينا برقصة" زيارة "لسيدي عابد وصدقة عليه!!"¹²²⁶. وتعدّ هذه المناسبة بمثابة اليوم العالمي للحرية، فليس هناك قيد أو شرط، ولا حاجز يقف مانعا على ممارسة المرأة ما تريد، بل كل النسوة اللاتي يأتين إلى هذه الزيارة، التي كانت فيها المطالب الشرسة لأغراض مستعصية تريد بعض الأسر من

¹²²⁴ - المصدر نفسه.

¹²²⁵ - المصدر نفسه.

¹²²⁶ - إلى "زيارة سيدي عابد!" (أحاديثنا في القطار)، مصدر سابق، العدد 13 .

ذلك فكّ قيودها باعتقاداتهم الباطلة، فكان لا بدّ للمرور عبر هذه البوابات التي تخضع للبغي والسفور وما لا يمتّ إلى الأخلاق بصلة، بل كان الذي لا يعتقد بذلك، ولا تستطيع فطرته أن تنساب وراء هذا الزعم، يدرج في قائمة المجانين، أو به شيء غير طبيعي، وهذا ما جاء بصريح العبارة "ثم جعلت تقول لها بلهجة حازمة. هذا يوم الحرية هذا يوم النزاهة، هذا يوم اللهو واللعب هذا يوم التمتع والتلذذ فهل فهمت أيتها "المهولة" الحمقاء"¹²²⁷ ثم يطلبون من المرأة العفيفة أن ترقص ويحرضونها على ذلك، في صورة يأبأها العقل وتنفيها الفطرة، وهي في زعمهم تقرب وفي نيتهم الخبيثة تحرش، ولعل مشهد السرد أفصح "جاءوها بشيخ كبير في عنقه "سبحة باكورة" وقالوا لها هذا هو المقدم، وجعلوا يصيحون: قل لها يا مقدم ترقص لنا، فتقدم المقدم منها وقال لها: لماذا لا ترقصين يا بيتي؟ أأست جئت "بنية" الزيارة؟؟. فقالت له الفتاة متوسلة ضارعة: "ما نعرفش نرقص يا سيدي المقدم.. فقال لها: "قومي وقفي في مكان الرقص باش تشوفك الوغش وما ترقصيش!"¹²²⁸.

وكثيرا ما ينقل لنا الراوي (الرحالة) عن حالات كثيرة، لعل أغربها، هذه الحادثة التي يقول فيها أنها كانت برفقة زوجها، وهي تحمل ابنها الصغير، فأبت إلا أن تشارك النسوة في الرقص، وتترك ابنها لدى زوجها، وكان الرجال يعارضونها، وهي مع أهلها وزوجها، فيقول: "فعجبت أنا لهذه المرأة وعجبت لزوجها وذويها، عجبت لها كيف ترقص في حانة بها نحو ثلاثة آلاف من المتفرجين والمتفرجات وهي سافرة مكشوفة، ومع ذلك فهي تتظاهر بأنها (حشمانة). وعجبت لزوجها وذويها كيف انتزع الله من صدورهم الغيرة العربية والغيرة الزوجية والغيرة الإنسانية، وأيضا الغيرة الحيوانية التي تراها في الحيوان الذكر على أنثاه."¹²²⁹

ومما يفسر ظاهرة الفساد في هذه الزيارات، أنها ليست مبنية على الدين، حتى ولو كانت أخطاء في السلوك الشرعي، وإنما كانت هذه المهرجانات لا تقيم للدين أدنى تفكير، فلا تقام للشعائر مقاما (لا زماني ولا مكاني)، فكان من يبحث عن تأدية فريضة من فرائض الصلاة إذا حان وقتها، يفتضح أمر المهرجان المنسوب للدين، والدين منه بريء كل البراءة، "وأردنا أن نصلي الظهر فقلت لرفيقي وهو الأخ الفاضل السيد علي سعد الهاشمي (بوشقور)، هلم بنا إلى المسجد، وقمنا نسأل عنه الغادي والرائح فلم نجد من يدلنا عليه بل قال لنا أحد الناس متهكما إنكم تركتم المسجد

¹²²⁷ - المصدر نفسه.

¹²²⁸ - المصدر نفسه.

¹²²⁹ - إلى "زيارة سيدي عابدا!" (أحاديتنا في القطار)، مصدر سابق، العدد 13.

وراءكم في وهران! وسألنا عنه رجلا من أهل القرية فاستغرب منا هذا السؤال¹²³⁰ لأن نية هذه الطائفة لم تقم على الأسس الشرعية، وإنما على المكر والخداع، وإرضاء لقوم آخرين، وليس بعد الكذب على النفس من جدوى لأي أمر.

3 . 2 . صورة الإصلاحية

3 . 2 . 1 . صورة الإصلاحية بمنظاره

تعد صورة الإصلاحية ركنا أساسا في الصورة العامة للمجتمع الجزائري، بداية من ثلاثينات القرن العشرين، حيث توقّدت جذوتهم، فصارت تضيء ليل الجهالة والانحراف العقدي والأخلاقي الذي ساد طويلا بمباركة الاستعمار. ولقد سعت الحركة الإصلاحية إلى إبراز خطوطها في العمل من أجل إخراج الناس من عبادة الضلال إلى عبادة الله، ومن الاعتكاف في ركن الجهل إلى فضاء العلم والتحرر. ومن هنا سعت جاهدة عبر جهازها الذي انتشر في شبكة من الرجال فغطّت القطر بكاملة، ومن ثم بدأت في عملها جادة ودون هوادة.

وقد جعلت من أجل ذلك سبيلا تمثل في دعوة الناس من خلال الوصول إليهم عبر رحلات تفقدية، يشرح فيها قائد الرحلة مشروعه القائم على الدعوة إلى التوحيد والاستسلام إلى الفهم الصحيح لدينهم الذي ابتعدوا عنه، ولعل أبرز الرحالين في هذا الشأن كان زعيمهم "ابن باديس" الذي كان يقوم بجولات يشرح بنفسه ما كانت تصبو إليه جمعيته "وما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله والتفقه في الدين وبالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ورفع الأمية والجدد في أسباب الحياة من فلاحه وتجارة وصناعة، وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة، وجنس وبلد، وإلى حسن المعاملة والبعد عن الظلم والخيانة مع المسلم وغير المسلم، وإلى التزام القوانين الدولية التي لا بد منها لحفظ النظام"¹²³¹ وليس فيما يدعو به ابن باديس بالأمر الغريب، بل هي دعوة واضحة، وأسلوب بسيط، يبين فيه للناس دعوة الحق بكل تفصيل مصيبا بذلك صميم ما يتوجّب على الإنسان فعله لسعادته هو شخصيا، وللإسهام في خدمة وطنه.

وقد كان ابن باديس يتبادل الحديث ويتحاور مع الناس، ولا يلبسهم لباس المسوح، ولا يأمرهم بالطاعة العمياء، بل كان يستعمل أسلوب المعلم في تلقيه وفي استجوابه، مثلما يوضحه هذا المقطع: "سألنا عن الإسلام الصحيح، فأجبنا بأنه ما في القرآن، والسنة بيان القرآن، وبيّنا أثر القرآن في

¹²³⁰ - المصدر نفسه، العدد 6.

¹²³¹ - عبد الحميد ابن باديس، للتعارف والتذكير، مجلة الشهاب، الجزء السابع، المجلد الخامس، (ربيع الأول 1348هـ/أوت- 1929).

العرب وكيف تطوروا به ذلك التطور الغريب السريع من انحطاط الجاهلية إلى رقي الإسلام، وما يناسب هذا التذكير" ¹²³².

ومن أساليب ابن باديس في الدعوة استعمال الخطب، والقيام بالدروس والمواعظ، يفسر من خلالها آية أو آيات، أو يشرح فيها حديثا شريفا، ولم يكن يشترط قاعة ولا منصة، ولا غيرها من الأماكن الرسمية، بل كان همه ملاقات الناس والتواصل معهم، ولا يهم إن كان ذلك في قاعة فخيمة أو سوق، بل كثيرا ما كان يلاقي الناس في السوق، فالسوق بالنسبة له أهم مكان للدعوة حيث يجد فيه الناس ساعين لقضاء مآربهم، فيسئله عليه وعليهم اللقاء: "كان التذكير في مجلس عام بالسوق في اسمه تعالى (الصمد)، وفي تفسير مختصر لسورة "الفاتحة"، وكان التذكير ليلا في مجلس حافل بالمدرسة الموفقية في لزوم التعلّم ورفع الأمية، واستطردنا إلى تفسير صدر سورة العلق" ¹²³³.

ومن أسباب نجاح دعوته، أن ابن باديس كان سمحا عطوفا، يألف ويؤلف، ولم يكن يحمل في نفسه غلاّ تجاه أيّ أحد من الناس، ولم يكن له عدوّ يريد به سوءا، أو يضر له شرا، ويفيدنا هو نفسه بما كان من معارضيهِ الإعراض عنه وكان لا يتفوّه إلا بمسك الكلام وعبير الألفاظ، ولم يكن خلافه مع غيره يوجّهه نحو الصراع أو يفسد معه الودّ، بل كان عندما يحتدم الخلاف بينه وبين من يعارضه يلجأ للقول-مثلا- "وناقشته فيها (مسائل شاذة جدا) فأبى الشيخ ابن عطيش إلا التمسك بها فقلت له إنني أعظمك وأحبك ولتلك المحبة أرغب منك أن تسكت عن هذه المسائل فلا تذكرها ولا تتحمل مسؤوليتها، فرأيت من حضرته انعطافا لقولي وقبولا له" ¹²³⁴. فبالرغم الاختلاف الذي نشب بين الطرفين في بعض المسائل الفقهية، وهي من المسائل الشاذة، التي ظل فيها ابن عطيش متمسكا برأيه، إلا أن ابن باديس لم يكن من المتعصبين، بل نجده مسائرا للحال في تواضع وشيم العلماء.

وأعظم من ذلك أن ابن باديس كان يجب حتى خصومه ويريد التواصل معهم، حتى ولو أبوا لقاءه مثلما حدث له مع شيخ من شيوخ غيلزان: "كنت مشتاقا للاجتماع بالشيخ سيدي الحاج العربي التواتي وبلغني أنه بغيلزان ثم بلغني أنه سمع بنا ورآنا ولم يشأ أن يجتمع بنا، فعجبنا لذلك واستفسرنا ثم زال عجبنا لما بلغنا أن في قلبه شيئا على جمعية العلماء وقأها الله شر كل ذي شرّ - وقلنا ليته تنازل فاجتمع بنا فكنا لا نفترق بإذن الله تعالى إلا على محبة وخير ورجوع

¹²³² - المصدر نفسه.

¹²³³ - المصدر نفسه.

¹²³⁴ - رحلة ابن باديس في بعض جهات الوطن، مصدر سابق.

للحق¹²³⁵ وبدليل أنه لم يكن له خصم، فإنه كان يعقد الزيارة لألدّ خصومه عندما تتناسب زيارته لمنطقة مناطق تواجدهم، كحال ابن عليوة لما زاره بزاورته حين زار مدينة مسغانم، فاستقبله هذا الأخير بحفاوة وخدمه خدمة الضيف.

وإذا تبين أن زعيم الحركة الإصلاحية هذا هو شأنه، فهذا يميلنا إلى التوقع بأن مسيرته ومسيرة أتباعه سوف يكون لها شأن ذا بال، حيث لم تكن هذه الحركة لتجتمع على ضلال، هذا ما جعلها تسري في نفوس الناس، وتفتح قلوبهم دون استئذان إلى أن "عمّت دعوة الإصلاح في الوطن الجزائري الجبال والرمال، وأيقظت نفوسا وفتحت عيوننا وأخذ الناس يتعرفون فضل هذه الدعوة ويُقبلون عليها"¹²³⁶ و"كانت النتيجة فوق المتوقع والمظنون، إذ كنا نعلم أن أمتنا التي نحن من أفرادها قد بلغ بها الجهل إلى حد لا يمكن معه إنقاذها منه، وصدّها عن الخرافات التي غرسها فيها الجاهلون والمنتقدون، حتى صارت عندهم من أصول العقائد المقدسة - في ظرف زمان يعد بالشهور"¹²³⁷

وأوضح بيان عن عمل جمعية العلماء وتوجهها الشكلي، نلّفه عند مبارك الملي، الذي ودّ من خلال سيره في تفقد شُعبة من شُعب الجمعية، عن تفصيل عملها قائلاً: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي جمعية الوطن الجزائري أجمع تمثله من الناحيتين الدينية والعلمية. ومن طبيعة الجمعيات المتناحية الأطراف اتخاذ لجان لها أنحاء محيطها، وقد نزلت جمعية العلماء على حكم هذه الطبيعة، فنظرت في أول عام لتأسيسها في مسألة اللجان، ونفذت ذلك في ثاني عام لها، وسمت لجانها شُعباً (جمع شُعبة)"¹²³⁸ وكانت الشُعب بمثابة الشبكة التي تمثل شريان التواصل والبناء عند جمعية العلماء، وبها سيطرت على الوضع العام في الجزائر، حيث كانت تتشكل من علماء ونخب متعلّمة، تحمل لواء الحصانة وتحرص على متابعة الأعمال المنوطة بالإصلاح.

3 . 1 . 2 . صورة الإصلاحي بمنظار خصومه

مثلاً كان للإصلاحيين ناطقين باسمهم، يديرون معاركهم المتمثلة في الهجوم على خصومهم، كان للطرقية رجالها الذين لم يكن يرضيهم ما كان يصدر عن الإصلاحيين، فهتمّوا بالرد عليهم منافحين عن قضاياهم من جانبين: الجانب الأول تمثل في خوضهم معركة الحقيقة التي زعموا فيها أن

¹²³⁵ - رحلة ابن باديس في بعض جهات الوطن مصدر سابق.

¹²³⁶ - علي مرحوم، إنتصار الإصلاح في بلاد القبائل الحدراء جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة 1، العدد 29، 5 جمادى الأولى 1355/ ل 24 جويلية 1936.

¹²³⁷ - رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، مصدر سابق.

¹²³⁸ - تفقد الشعب "حياة الإصلاح في البلدان التي زارها" مصدر سابق، العدد 28.

الإصلاحيين على باطل في دعواهم، وأنهم -هم- أصحاب الحق. والجانب الآخر تمثل في الرد الذاتي الذي أراد فيه كل خصم أن لا يرضى بالشتائم التي يقذفها به الطرف الآخر.

ولقد بالغ الإصلاحيون كثيرا في ردم كثير من الحقائق التي كان للطرفين الفضل فيها، أو أي أثر طيب يحسب لهم، فكلما تطرق الإصلاحيون للطرفين إلا ونفوا عنهم كل مكرمة، حتى صار خبرهم في الناس سيئا بأنهم لا ينتجون إلا الضلال، وليس في دعوتهم إلا الباطل، وغابت بين هذا وذاك الحقائق الموضوعية للحكم الفصل. بل حتى أن فكرة جمعية العلماء في مبدئها، يذهب بعض الباحثين إلى أنها فكرة طرقية دعا فيها هذا الطرف إلى جمع الأمة على كلمة سواء، وليس للحركة الإصلاحية الفضل إلا في تطبيقها، وذلك استنادا إلى ما صدر عن جريدة لسان الدين الطرقية، في مقالات متتالية بعنوان "مسلمو الجزائر وحالتهم الدينية" ومما جاء في المقال الخامس: "لتشكيل حزب ديني يتخلل فروعه سائر القطر يتألف من رجال مخلصين في أعمالهم صادقين في أقوالهم يبذلون في سبيل تأييد مشروعهم النفس والنفيس خطتهم في ذلك المناضلة عن الدين والمحافظة على المروءة"¹²³⁹ وفي هذا ما يعزز الادعاء السالف، لأن فكرتهم سبقت فكرة الإصلاحيين التي فكر فيها الإمام ابن باديس وأبلغ بها صاحبه الإمام البشير الإبراهيمي في 1924¹²⁴⁰.

ولما كان منهج الإصلاحيين واضحا قويا، ذا أبعاد فكرية قوية ويقين علمي بارز، حطم آمال الطرفين، وأصبحوا بذلك الضحية الرئيسة في عمل الإصلاحيين، فخبأت جذوتهم، وأفل نجمهم ولم تكن نداءاتهم لتصل إلى آذان الناس. وساعد على ذلك أن الطرقية عاشت أسوأ مراحلها، عندما انكبت لصالح الاستعمار، وانحرفت بهم السبل القويمة أحيانا، وهو ما أذكى روح القتال اللفظي، وانتقل "العداء بين الطرفين إلى ما يماثله في الهجوم والرد على الهجوم بين صحف الفريقين، تراوح بين العنف ودون الأدب حيناً وعدم الحشمة حيناً آخر"¹²⁴¹ وادعى كل فريق أنه صاحب المنهج القويم والدعوة الصحيحة.

لقد برز هذا التوجه في مدونات الرّحّالين الطرفين الذين كانوا لا يرون في الحركة الإصلاحية إلا فريق من المفسدين الذين أفسدوا المجتمع الجزائري، والحقيقة أنهم أفسدوا عليهم مشروعهم، وعكروا عليهم أجواءهم، واحتلّوا كل مكان حيث انتشرت دعوتهم بسرعة وتمكّنت في الناس، مما جعل هؤلاء الطرفين يصيبهم الغثيان من فعل ما يجدونه في كل مكان تراودهم نفوسهم لتحقيق غايتهم فيه، فحين يتحدث أحدهم عن مدينة "أقبو" التي لم يجد عند أهلها استجابة، بعد أن صبغهم الفريق الإصلاحي

¹²³⁹ - مسلمو الجزائر وحالتهم الدينية، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 12، مستغاثم يوم الجمعة 2 شعبان 1341 هـ، الموافق لـ 20 مارس 1923م.

¹²⁴⁰ - ينظر محمد الصالح آيت علجت، صحف التصوف الجزائرية من 1920 إلى 1955، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 54.

¹²⁴¹ - صحف التصوف الجزائرية من 1920 إلى 1955، مرجع سابق، ص 76.

بدعوتهم، عبّر قائلا: "أما مدينة آقبو فهي مدينة تجارية يسكنها أقوام يغلب عليهم حب الانكماش والاشمئزاز من الذاكرين الله وقد سيء ظنهم والعياذ بالله بالملتحمين الذين يذكرون الله قياما وقيودا وعلى جنوبهم لأن تعاليم الإصلاح التي باضت وفرّخت في عقولهم لم تسمح لهم بحسن الظن في سلف الأمة فضلا عن خلفها"¹²⁴² فالقضية باتت تحمل من سيء النوايا بحيث أنه لا يفسّر هذه الظاهرة إلا بالهجوم على المصلحين الذين يتّهمهم بتحويل الناس عن الحق، وصدّهم إلى الباطل، وساءت ظنّوهم حتى بمن يحمل لواء الإسلام الصحيح - حسب ادعائه-، خاصة وأن مدينة كجاية تعدّ واحدة من بلاد القبائل التي عرفت مسيرة قوية للصوفية ورجالها عبر قرون طويلة من الزمن، ولما أبدت تفاعلا مع التيار الإصلاحى أسقطت عنها معيار القداسة وانخرقت حسب التيار المناهض "وهكذا شاء الله أن يلعب الإصلاح دوره ويمثل روايته في بجاية عاصمة التصوف ونواحيها تلك البلد التي كانت على عهد سيدي شعيب أبي مدين دفين تلمسان منيع الأسرار والأنوار ومعهد تعاليم التصوف ومبادئه الشريفة، أما اليوم فلم يبق على وجهها من يقول الله الله¹²⁴³ إلا ما رحم ربي وقليل ما هم!"¹²⁴⁴ وهي إشارة إلى أن الحركة الإصلاحية دعوتهم - حسبهم - غير إسلامية، فهي تُبعد الناس عن الذكر بصيغة التكرار الذي يعمده الطريقي في تأدية أركانه التعبديّة.

وصورة الدين الصحيح لا يراها الطريقيون إلا تلك الملحقة لأفكارهم وسلوكهم واعتقاداتهم، وما عدا هذا قد عدّوه باطلا، هذا ما كان متواترا في مفهومهم، فهم الطائفة التي تنسب لهم أمر الدفاع عن السنة النبوية، وهم الخلف الذين ورثوا دينهم الصحيح عن رجال السلف، ولا يرون في أنفسهم إلا "الأفراد المعتصمين بحبل الله المتين وسيقارنهم الفوز يوما ما بناء على أن العاقبة للمتقين"¹²⁴⁵ ولم يكن لهم من مبدأ اللجوء إلى الحوار والحلّ الوسط، بل كانوا لا يجابهون الفكرة إلا بنقيضها تماما، وهناك حالات تثبت أن الخلاف الشخصي يضيف عليه الطريقي صبغة الدين، مثل الذي حدث مع الرحالة (أحمد رايسي) بصفته مبعوثا لجريدة البلاغ الجزائري حين حل بالأصنام (الشلف) وطلب من إمام المسجد - وهو مفتي الأصنام الشيخ (الوانوغي) - الترويج لجريدته، ولما أبى عليه، ردّ جام غضبه على الإصلاحيين واتهمهم بالوقوف وراء ما أسماه بالانحطاط والتدهور الذي عرفه المجتمع الأصنامي في ذلك الحين، أما النتيجة الحقيقية فهي عدم جدوى في إيصال رسائله، يُفهم من قوله: "فلما فهمت مراده علمت أنه هو الذي كان حجر عثرة في سبيل الدين في هذه البلدة فخرجت من عنده

¹²⁴² - العلوي بن مراد، شوامخ الجبال، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 57، مستغانم يوم 30 جمادى الأولى 1357 هـ الموافق لـ 28 جويلية 1938م.

¹²⁴³ - تكرار لفظ الجملة دلالة روحية عند المتصوفة.

¹²⁴⁴ - شوامخ الجبال، مصدر سابق.

¹²⁴⁵ - قادة بوجلال كل الناس كاملون، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد 49، مستغانم يوم الجمعة 30 محرم 1357 هـ، الموافق لـ 1 أفريل 1938.

متأسفا على وجود أمثاله وأحوال الدين وبعض من انتسبوا إليه وهم السبب في خذلانه¹²⁴⁶ وهي قضية معروفة، أن الطريقين كانوا لا يرون في الإصلاحيين (خصوصهم) إلا أنهم مفسدين بفعل ما بدا منهم من إصلاح جذري في كل المفاهيم التي كان عليها المجتمع الجزائري آنذاك، خصوصا قضايا الاعتقاد، وإحياء رسالة الدين الإسلامي التي تجمّدت بفعل العقول المتحجرة، وهو الأمر الذي اعتبره الطريقون انقلابا على الشرعية الدينية.

ولا يجد الطريقون من مسوّغ للتعبير عن رفضهم للإصلاحيين إلا التّيل منهم بشتى الأوصاف، فكلما وجد أحدهم أثرا من آثار الإصلاح، إلا وهمّ بقبیح ما يجده من صيغ للدلالة على غيظه وامتعاضه وشؤمه، مثل هذا التعبير الذي سرّبه الرّحالة من نفسه حين وجد قرية "قنزات" قد فوّضت أمرها للإصلاحيين، فبادر يقصف أصحاب الدعوة والمدعوين معا: "أما قنزات .. وهي القرية التي كثر فيها جذام الإصلاح فكان له فيها حزب وفساد ودعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها وبالفعل قد أجاب دعوتهم من كتب الله لهم أن يكونوا من أعوان المصلحين ﴿الذين إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾¹²⁴⁷ ولعلنا ندرك من أن الكاتب لا يتحرّى في هجومه، ويصوّر المصلحين على أنهم من دعاة جهنم، ولا يعتبرهم مؤمنين أو على الأقل من أتباع طريقة مخالفة في التوجه بدليل قوله: "وأصبحت القرية منقسمة على مؤمنين ومصلحين فاضطر المؤمنون إلى بناء مسجد ليؤدوا فيه صلواتهم ويذكرون فيه ربهم ويصلون على نبيهم دون معارض ولا منكر"¹²⁴⁸ أي أن لسان حالهم "لكم دينكم ولنا دين"، وليس للمصلحين من دين الحق في شيء، لذلك يضع المصلحين في كفة والمؤمنين (الطريقين) في كفة أخرى.

وقد تفاقمت صور القتامة التي كان يرى فيها الطريقون الإصلاحيين، ومما توحى به صيغ التعبير أنّها قد تأجّجت فيها نعة التحامل والمهجوم على الغريم لأبسط الأسباب جاء بها سياق الحديث عنه، وفي العموم فإن صورة الإصلاح كما يسوّق لها الطريقون هي حركة "الإفساد والمفسدين (بدل الإصلاح المصلحين)"¹²⁴⁹. بل كان لشدة السجال والعداوة بين الفريقين أن صورة الإصلاحيين في نظر الطريقين تجاوزت هذا الحدّ من القدح والسلبية إلى تدنيها دون الطائفة المسيحية المبشرة التي كانت معششة بمنطقة القبائل تنشر سمومها، وحجتهم في ذلك "أن مصيبة المصلحين قد كانت أشدّ ضررا

¹²⁴⁶ - أحمد رايسي، جولتنا في الأرجاء الوهرانية، جريدة البلاغ الجزائري، السنة الرابعة، العدد 162، الجمعة 26 ذي القعدة 1348هـ، الموافق لـ 25 أبريل 1930.

¹²⁴⁷ - شوامخ الجبال، مصدر سابق، العدد 59، يوم 29 جمادى الثانية 1357 هـ الموافق لـ 26 أوت 1938م

¹²⁴⁸ - المصدر نفسه، العدد 59.

¹²⁴⁹ - جولة نايبنا بالأرجاء الوهرانية، مصدر سابق، العدد 157، يوم 20 شوال 1348هـ، الموافق لـ 21 مارس 1930.

على المسلمين من مصيبة المبشرين لأن المبشرين متجاهرون بعداوتهم للإسلام فتحذر المسلمون منهم¹²⁵⁰ أما الإصلاحيون فهم الموسومون بالخدیعة - في نظرهم - الذين يضمرون الباطل في صورة الحق "أما المصلحون فلم يتجاهروا إنما خدعوا الأمة خداعا تارة باسم الإصلاح وتارة باسم الدين الصحيح وتارة باسم الدعوة إلى الكتاب والسنة والكل عناوين مرماها واحد وهو تشكيك الأمة فيما عاشت عليه أربعة عشر قرنا"¹²⁵¹. وهكذا طَبَّقَ الطريقون منطق الحجّة لتصوير غريبتهم.

وعلى هذا المبدأ قام تصوّر الطريقين تجاه الإصلاحيين، فقد كانوا يرونهم لا يملكون مبدأ، وأن دعوتهم باطلة وسيأتي عليها حين من الدهر ويفتضح أمرها، وتنتشل فكرتها لأنهم كما قال قائلهم: "حاولوا الصعود إلى سطح الكمال بغير سلم ودخل بيننا المعارف من غير الباب؛ فحاموا في بحور ما يسمونه حضارة ورقيا ومدنية وتمسكوا بأهداب ما يرون أنه إصلاح وإرشاد؛ وما هو في نفس الواقع - كما يراه العارفون - إلا انحطاطا وتأخر عن مصاف الأمم الجاهلة السائرة بجد واجتهاد نحو السعادة والفوز والنجاح، وذلك الحضارة والمدنية المدعية إلا رجوع القهقري ونزول من درجات الكمال وهبوط من طبقات الخير والفلاح؛ وليس هذا الإصلاح المزعوم - في الحقيقة - وهذا الإرشاد إلا إضلال وإفساد"¹²⁵² وهي دعوة حقّ ليس فيها ما يشي بالسلبية إلا أن الطريقين ألبسوها صفة الباطل لأن الإصلاحيين كانوا يسايرون العصر ويواكبون روح المدنية ويكبون قطار الحضارة، باستخدام تقنياتها الحديثة في التفكير وفي معالجة أوضاعهم، ولما طمس الجمود على الطريقين أعينهم، أصبحوا لا يرون ما يدور حولهم إلا أضغاث أحلام، فزادوا في سباتهم العميق عمقا، وتسقّفت أحلامهم بالضلالات، فخاضوا في بدع ما أنزل الله بها من سلطان، من حيث لم تكن أعينهم ترى ذلك جمودا ولا خروجا عن جادة الطريق الشرعي، ويذكرون ما أنكر عليهم الإصلاحيون ويبيّنون أن تلك أغلاط قد ارتكبوها يريدون من خلالها أن يضيّقوا عليهم أمر دينهم، فيردّون على منتقديهم بالقول: "فالمنتقد المغرور، يرى قراءة الزوايا وصلاة النافلة وتجديد الوضوء ورفع السبحة وكثرة الاستغفار تأخرا وجمودا، فيصد عن الزاوية الدينية ويقصد مدرسة حديثة عصرية ظنا أنه نال بغيته ونتج ابنه بروايات إصلاح الدين وما شاكلها، من أجل ذلك ذهبت علومنا الصحيحة التي سهر عليها رجال العلم والعمل، واشتغلنا بكليّمات عصرية لم يسبقها علم

¹²⁵⁰ - شوامخ الجبال، مصدر سابق، العدد 58، يوم 15 جمادى الثانية 1357 هـ الموافق لـ 12 أوت 1938 م

¹²⁵¹ - المصدر نفسه.

¹²⁵² - جريدة الرشد، العدد 47 السنة الثانية، الجزائر يوم 29 جمادى الأولى سنة 1358 هـ الموافق لـ 17 / 07 / 1939.

صحيح يتلقاه التلميذ من نابغة محقق مثلما كان عليه السلف الصالح¹²⁵³ وهذه هي الحجج التي كان الطرقيون يدافعون فيها عن مواقفهم ويقحمون المتلقي كحكم بينهم فيلجأون إلى الاعتراف بفعلهم الذي كان الاصلاحيون يجارونهم لأجله. وهي الدعوة نفسها التي يرفعها العلوي بن مراد في قوله: "وقد دبّت عقارب الإصلاح حتى في خيام البادية ومداشرهم ولم يجدوا من الإصلاح إلا التعرض لقراءة القرآن على الأموات وتشجيع الجنائز بكلمة لا إله إلا الله وإلغاء الباقيات الصالحات عقب الصلوات وقد آثروا فتنة عمياء على الذاكرين الله وحملة كتاب الله ولا حول ولا قوة إلا بالله"¹²⁵⁴ وفي كل هذا لا تجد الطرقيين إلا منافحين على أفكار ساذجة، غير مبررة لا شرعا ولا عرفا، ومع ذلك يتبتون ثباتا متعصبا في صورة أنهم على حق، فيصمدون لأجل ذلك الحق المزعوم.



¹²⁵³ - عثمان بن عبد الحميد بن إبراهيم، نظرة زاهرة، جريدة الرشد، العدد 21 السنة الأولى، الجزائر يوم 10 رمضان سنة 1357هـ الموافق لـ 06/11/1938.

¹²⁵⁴ - شوامخ الجبال، مصدر سابق، العدد 57.

الباب الثالث

الخطاب الرحلي الجزائري

المحكي وآليات إنتاج النص

الفصل الأول

الرحالة

الصوت والوضعية السردية

1 . جدل السارد والمسرود له

يتميز خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات الأدبية كونه يعتمد إلى الواقعية المحملة بعبء الحقيقة المحمولة كثقافة شارحة للمرصود من المرئيات والأحداث. فالرحالة في كل الأحوال هو جسدٌ مثقلٌ بخلفيات وهموم ونوازع ومعارف يحاول مطابقتها أو امتحانها بطبيعة المرئي وما يحمله من اختلاف في هويته وفي حضارته. إضافة إلى ذلك، فهو يحمل رغبة الإفادة والإخبار عن تجاربه الجديدة. إن الرحالة عند انطلاقه لا يخرج برصيدٍ صفرٍ في المعلومة، فهو مزودٌ بزيادةٍ نسبيّةٍ عن المكان تخميناً أو تجربة سابقة، أو من خلال تجارب السابقين، إذن فهو أمام امتحان ثقافي سوف يمرّ على مرجعيته فيترتب عن ذلك نتائج تحيل عن هويته وكيانه ومستوياته المختلفة في الحياة وفي الثقافة ممثلاً لمجتمع معين.

في حالة استفادة الرحالة من التجربة الجديدة فقد يضمّ إلى رصيده كمّاً من المعارف، وبذلك يقف سارداً لبثها في المتلقي، وكلما تحقّق أن يكون الرحالة سارداً، فإنّه يكون قد هضمّ الشيء المبارك ليكون في موضع يستطيع فيه أن يكون -هو- مرجع المعلومة. ولا يتمّ للرحالة ذلك إلا من خلال ما اكتسبه من قبل، لما كان راصداً وسائلاً عن المكان وفيه، ومنه نقول؛ إن الرحالة يكون في موضع المروي له قبل أن يصبح فيما بعد راوياً، فبمجرد رجوعه "إلى الوطن، يخلع عنه صفة المسرود له ليصبح في وضعية السارد"¹²⁵⁵، إن ما يمثله الرحالة في الحالة الأولى هو الرغبة الملحة في تجاوز الغموض عن المرئيات المبهمة، فهو في هذه الحالة يتقمّص دور المسرود له ممّا يدلّ "على رغبة المسرود له، الرحالة في الفهم"¹²⁵⁶ هذه الرغبة تُعدّ حافظاً جديراً بأن تجعله وديعاً ساذجاً ومتعلماً مُتلقّناً لراوي غير مركزيّ، بل راوٍ متعدّد يمثّل كلما استدعى الأمر للشرح أو التفسير أو الإبانة عن أمر ما، وأما مهمّة السارد المركزي (الرئيس) في النص الرحلي، فيبدأ من كونه مروياً له، مع الاستعداد الكلّي للسرد، انطلاقاً من أول فعل، أو تفكير في الكتابة، كونه سيُخبر عن تفاصيل أحداث رحلته، بينما لا يتم له تفاصيل عن الأشياء إلا من خلال مكتسب سمعي أو إيحائي التي يكون من خلالها السارد (الرحالة) في وضعية المروي له.

وإذا كانت وظيفة السارد في الرحلة لا يعترها لبس، فإن اللبس كلّهُ سوف ينصبّ على المسرود له الذي تتعدّد جوانب تظاهراته، وتماشها مع السارد أحياناً إلى درجة عدم التفريق، حيث نستبين أن "المسرود له في جوهره مستوى من مستويات السارد يحاور ذاته قبل محاورته للآخر"¹²⁵⁷ ومن ثم تبدو أن لدراسة المسرود له درجة قوية في تحديد السارد، باعتبار أن العلاقة بين السارد والمسرود له تقوم على

¹²⁵⁵ - الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص 247.

¹²⁵⁶ - المرجع نفسه، ص 247.

¹²⁵⁷ - عبد الرحيم مودن الرحلة جنسا أدبيا <http://mouadden.maktoobblog.com>

الجدل في التحديد وفي التمركز، في إطار العملية القائمة على المستجدّ من المعارف التي تحتاج إلى إدراك وتحتاج إلى اكتفاء عن المعلومة واحتوائها من كل جانبها لذلك ينتهي السارد ليكون مستقلا، وإذا كان في عموم فنون القول السردية "للسارد داخل القصة مسرودا له داخل القصة"¹²⁵⁸ فإن في الخطاب الرحلي أجدى وأولى، لما يتمتع به من معارف تستقى من مصادرها الواقعية التي لا تتجلى إلا بالبحث والاستكشاف، عكس فنون القول الأخرى (التخييلية) التي تُبدع مباشرة من مخيلة إبداعات السارد وفق طبيعة الأحداث وإستراتيجية أهداف القصة.

ومن هنا يتعين علينا أن نجد مسوغات للبحث عن وضعيات كل من السارد والمسرود له في إطار وضعية الرحالة نفسه الذي يمثل مصفأة كلّ المواضيع التي ينقلها من/ إلى، كما أنه ينقل إحساسه وعواطفه. فقبل أن يكون الرحالة ساردا، فهو يتقمص دور المسرود له، لأن عملية الاستكشاف لا تتم إلا عبر جملة من العناصر التي توصله إلى الشيء المحدد بالسرد حتى يتمثل ساردا.

1.1. الوضعيات السردية للرحالة

إن الحديث عن العملية السردية ليس المقصود منها وضع الجمل في سلسلة متوالية إلى حد تركيب موضوع من المواضيع، فالقول بهذا من شأنه أن يميّع هذه العملية التي هي في الأساس عملية معقدة لها ضروبها وأدواتها وتقنياتها المائزة التي تسمح لها بالارتكاز الفني، لذلك نعتبر السرد عملية فنية تتفوق فيها الأفكار وتمتاز بها السمة الإبداعية، شأنها شأن كل عمل فني خالد. إلا أن الجدير بالملاحظة هو أن العملية السردية تتم من خلال أطراف تتجاذبها هذه العملية ما دام أنها ذات استعداد ترويجي للأحداث والإخبار عنها، وإن كان من بُدّ للحكاية أن تتجسد حتى تأخذ نصيبها كحدث، فإن ذلك لا يتم إلا من خلال طرفين متقابلين، ألا وهما السارد والمسرود له، والأول هو العالم بالحكاية، العارف بأحوالها وضروبها، والجامع لأسرارها وقضاياها، فهو الذي تتنابه الرغبة لتحويل الحكاية من مجرد قصة حدثت إلى قصة ذات أثر يجب أن تبلغ إلى طرف آخر حتى يتسنى له معرفة حيثياتها، كما هي مجسدة في خيال السارد.

إن العملية السردية تقتضي كما رأينا ثلاثة أطراف: الطرف الأول؛ الحكاية وهي القصة المسرودة، والطرف الثاني؛ السارد وهو محوّل المسرود إلى الطرف الثالث وهو المسرود له، أي مستقبل المسرود. واختصارا نقول، إن العملية السردية تتم من خلال ثلاثة أطراف: سارد ومسرود، ومسرود له.

¹²⁵⁸ - جيرار جنيت، خطاب الحكاية - بحث في المنهج -، ترجمة محمد معتمد وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط2، 1997، ص 268.

وما دامت الرحلة حكاية سفر، فهي تُقَوِّم على اعتبارها حكاية كأي حكاية على أن الحكايات تختلف وتتلوّن بحسب وضعياتها وقضاياها وموضوعاتها المتنوعة. وأما المختلف الذي يعترى الرحلة كنمط سردي في اختلافه مع الحكايات الأدبية الأخرى، أن الألوان الأخرى كلها -تقريباً- تمتح من الخيال لتعالج رمزيا بعض القضايا الاجتماعية والفلسفية. بينما تقوم حكاية الرحلة على الواقعية التي يجسدها شخصها البطل الحقيقي، بعد استلهامه من الأمكنة وما تضمّ، مُفرزا عليها طاقته التذويتية، لتصير "نصا شخصيا يكتب للذات وللآخر"¹²⁵⁹. يتبادر إلينا من خلال هذا، أن الرّحالة هو القائم على تحويل التجربة التي عاشها هو نفسه، وحيث يتخذ الرحالة من عملية السفر سبيلا إلى إرجاعها قصة فإن ذلك يُنذِر بأن الرحلة تحمل من التفاصيل التي لم تكن في ذهن الرحالة قبل سفره إلا في أطراف محتملة -أحيانا فقط- فلو افترضنا أن الرحالة سوف يسرد عن رحلة افتراضية (متخيّلة) فإن ذلك يخلخل العملية الإجناسية. وبما أن الرّحلات قائمة على الواقع، فإن ذلك مُؤداه إلى أن اكتمال جنين القصة لا يأتي إلا بعد نهاية التجربة الموحية بتفاصيلها المختمة، وهذا يستدعي أن الرّحالة سوف يقوم في أثناء رحلته بعملية جسّ المكان، في محاولة لاستكشافه، ومرادوته على الإفصاح عن كل معلومة عنه، وبالتالي فإنه سوف يلجأ إلى تقمُّص دور المسرود له وهي الخاصية التي يتوارى خلفها للإدلاء عن كل تفاصيل، وهي في الوقت نفسه تعزز مصداقية أقواله المسرودة، وحكايته المفترض حقيقتها.

يحيلنا هذا الأمر -حتمًا- إلى التنبؤ بوضعيات معقّدة أو جدلية بين السارد والمسرود له، في سعيهما المتبادل أو المهيمن لأحدهما على الآخر لتجسيد العملية السردية التي تقتضيها الحكاية الرحلية، منسجمة مع وضعيتها في الإطار الفعلي للحركة، في إطار تجاذبات تفصح عنها أدوار ووظائف كل منهما.

1. 1. 1. الرّحالة في وضعية مسرود له

إن لعبة السرد في الرحلة عملية تقنية تنشأ من العلم بالشيء والجهل به، ومن الوعي والوعي المضاد، ومن المرجع وخيبته. ذلك لأن المسرود له هو في ذاته السارد ليتحوّل تلقائيا إلى المعلومة أو بتأكيدها. ويُعدّ دافع الرحلة أهمّ محفّز على السرد، وما دام أن الرحالة يمتلك رغبة في تحطيط فعل رحلته فهو يمتلك هويّة السارد، التي سيختار لها وضعيات مناسبة لتحقيق هذا الفعل. وإذا كان العمل الأدبي يتمخّض عن تراكمات لأحداث افتراضية فالرحلة تمتح من واقعية السفر أما الاستدعاءات الخارجية فهي ما تحيل عليه لوحات الانحراف القائمة على طول مسار الرحلة، فإذا كان السارد لا يقوم

¹²⁵⁹ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 136.

إلا على سرد موضوعات الرحلة من تفاصيل أحداث فإن ذلك لا يتحقق إلا من خلال أسئلة يستفيد من الإجابة عنها من قبل أهل المكان المزار، كما أن رغبة الرحالة في السرد تستدعي الاستكشاف الذي سيكون موضوع الكتابة، والذي لا يتأتى إلا عبر المكان ذاته في صورة تأثيرات تستجيب لها ذات الرحالة مفرغا لها كل شعوره. ومنه نقول بأن وضعية السارد قبل الكتابة عنها تكون وضعية "مسرود له" والتي ستنتشر إلى شطرين: شطرها الأول؛ يقوم على الأسئلة المباشرة، والشرط الثاني عبر الانجذاب والتأثر.

1.1.1. أشكال استقبال السرد

أ- الراوي المباشر.

وتعد أهم قناة لاستقبال المعارف المختلفة عن المكان المزار، واستخلاص شؤونه وتفصيله، وتتم عن طريق مباشر يكون فيها المروي له في معايشة مع الراوي فيتم ربط القناة التواصلية باستعمال الأدوات والصيغ الدالة على الكلام المباشر، (كقال، وحدث، وكلم..). وأحيانا يتم بصورة أكثر جلاء حين يذكر صراحة صفة السارد كقول إسماعيل مامي "ويقول الراوي لنا إن مفاتي عمالة وهران ومضامين خطبهم من الأيمة محبذون لهاته الفكرة ومعلقون عليها آمالا كبيرا"¹²⁶⁰ وقد تلعب نفسية الرحالة في الخطاب دورا في عملية تلقف الرواية، فحين إعادة سردها على ألسنة أصحابها، يربط تارة مصدر الحبل السردى إذا ما تم له إسناده أخذ زمام السرد بتفاصيل على لسان الراوي الأصلي، بينما السارد هنا يتخذ من وضعيته كمسرد له وسيطا بين السارد الحقيقي والمسرد له الضمني، مثال قول الرحالة: "أخذت تقص علي حياتها الأولى كيف تعلمت العربية"¹²⁶¹ وهي جملة استهلاكية كافية لا تحتاجها العملية السردية في ملازمة الحكي، فمتوالية الأخبار لا تستدعي إعادة الإشارة على الراوي، ما دام أن السرد متواصل، وكل حديث للمسرد له يرويه هو على لسان السارد الحقيقي، ما دام أن المتلقي قد علم بأن الرحالة ليس هو الراوي بل هو المروي له، بينما الفارق الوحيد يكمن في الضمير، فالرحالة يروي ما روي له فهو يستعمل ضمير الغائب "وأنها وُلدت بعدن العربية إلى أن بلغت الحلم؛ ثم سافرت مع والديها إلى الهند فقتل في ثورة عنيفة بين الوطنيين وجنود حكومته؛ ثم في طريق رجوعها عرفت العراق العربي والموصل ومنابع النفط وتركيا الإسلامية في طريقها إلى أوربا"¹²⁶² في حين أن المتلقي يبقى دائما مرتبنا ذهنيا بالرابط الحقيقي الذي ابتداء به الرحالة المروي له.

¹²⁶⁰ - على جناح السفر جريدة النجاح، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 571.

¹²⁶¹ - أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 125.

¹²⁶² - المصدر نفسه، العدد 125.

وأحيانا يبدأ الكلام على لسان الراوي الأصلي فيربط المسرود له -أناه- ضمن العملية في أول ما يتبدى به الكلام، ثم يحرص على إعادة تأكيد على القائل، دون أن يتحدث عن -أناه- التي بدأ بها الكلام كما هو في قول الرحالة "قال لنا رئيس لجنة العلاقات الدولية في الحزب الشيوعي اليوغوسلافي مرة، قال: إنني عندما أتذكر أتعابنا بعد الثورة التحريرية في تنظيم الشعب والمكافحة على وحدته -هذه الأتعاب التي لم تنته بعد- أن لم بقينا في الكفاح. ثم قال: وكفاحكم أنتم الجزائريين يشبه كفاحنا"¹²⁶³ ودرجة ما يمثله كل من السارد والمسرود له في العملية التواصلية بالنسبة للخطاب الرحلي الجزائري، هو التأكيد على منبع الخبر، لذلك كان الرحالة حريصا على دور الراوي بالنسبة له فهو الذي يقوم جهله بالشيء على التواضع مع مبدأ العملية ليصغي إلى راويه، فتراه يحترم هذه المسافة بل يحرص على احترامها، ليدل على أمانته في الرواية "وتحدثنا مع مدير المعمل أو بالأحرى تحدث إلينا وشرح بدوره مبدأ التسيير الذاتي هذا في المعمل"¹²⁶⁴ وهي إشارة لها دلالتها المادية والمعنوية من حيث المقصدية السردية الموجهة للمتلقى الذي يحسب له السارد، ويجعل له جانبا من المبالاة.

وفي كل الأحوال فإن وظيفة المسرود له (الرحالة) على هذا المستوى تكمن في المعرفة التي يتلقاها من أهالي المكان المزار الذين هم أدري وأعلم بشؤونه، فهي عملية تعليمية يتفاعل معها الرحالة مستقبلا جامعا ومستوعبا لما يمكنه أن يكون مادة سرده، بمعنى أن الرحالة هو الذي يضع نفسه في هذا الموضوع، كاشفا عن رغبة فضولية في اكتساب المعرفة، التي يتولاها رواة متعددون أصحاب معارف، فيتزود من خلال ذلك الرحالة كونه في وضعية مسرود له وليس التنويه فيها بالنسبة للرحالة إلا لإشراك نفسه كطرف فاعل من أجله كان هذا السرد والتحري، وتارة لا يذكر إلى صيغة الاستشعار الدالة على أن الرواية نقلت عن راوي.

ب- الالتقاط/ المرئيات.

يقوم الخطاب الرحلي على المشاهدة، مما يعني أن الرحالة يتمتع من المشاهدات في خلق عالم يتعلق بسرد الصور. فالمرئيات هي بمثابة الخطابات العلاماتية التي تستقبلها عين الرحالة الماسحة للمكان، وهذه المرئيات هي عبارة عن خطابات تحوّلها العين إلى مستويات إشارية يكون لها الأثر في النفس أكبر مما تدلّ عليه العبارة، وقد أدرك ذلك الرحالة الجزائري حين شخّص هذا الأمر بقوله:

¹²⁶³ - جزائريون في يوغسلافيا، جريدة المجاهد، العدد 101، السنة 4، الاثنين 18 صفر 1381 هـ الموافق لـ 31 جويلية 1961م.

¹²⁶⁴ - المصدر نفسه، العدد 103، السنة 4، الاثنين 17 ربيع الأول 1381 هـ الموافق لـ 28 أوت 1961م.

"قضيت الوقت والقطار يقذف السير في مسامرة الفكر تجاه المناظر التي تبدو ثم تعدو فكان مما تتلوه علي الطبيعة من الآيات، ويترجمها لي الفكر بما لديه من المعلومات تأخذ من ذهني لبه، وتحرك من وجداني قطبه، فتأملت الخلق"¹²⁶⁵ فقول الرحالة "مما تتلوه علي الطبيعة" إشارة قامعة واعتراف بأنه كان في وضعية مسرود له لسارد هي الطبيعة وما احتوت عليه من أسرار عبّر عليها من خلال آياتها. ونلاحظ دائما أن الرحالة نفسه وهو مسكون بالتأمل يترك الطبيعة دائمة في محل السارد، ويشخص أمرها على أنها راوٍ حقيقي يصرح باللسان، حينما يجسدها في مضرب آخر: "أوعز إلي منظرًا خاطبني بعسره وأقلقني بوسنه"¹²⁶⁶ فالمنظر أحيانا تكون أقوى من كل عبارة وأبلغ من كل خطاب، مما يدل على أنها تبلغ مقصدها الجمالي أو الحيوي، دونما حاجة إلى وسيط شفهي، فحين يبلغ الرحالة كسارد، يكون قد استقبل هذا الأثر بصريا، وما دام أنه استقبل هذا الشيء ليكون مادة سرده، فلا يهّم أن يكون تلقاه من راوٍ فعلي أو راوٍ رمزي.

إننا قد لا نبالغ إذا اعتبرنا أن أهم خطاب يتلقاه المسرود له (الرحالة) في الرحلة الجزائرية، هو الخطاب المرئي الذي تعددت أشكاله وتباينت صيغته، ولعلّ الرحالة في حديثه عن المرئيات وما استكشفه من خلال الالتقاطات يدل على مصداقية ما يقول ويقرّر عن رحلته، انطلاقا من القول الشائع "وليس الخبر كالعيان" فكلّما جاء حديث الرحالة عن المرئيات إلا وجاء كلامه قويا صادقا، لا يعتريه لون من ألوان الظنّ، بل هو يؤكد على الخبر بمصداقية ذاتية، ومنه يصبح الرحالة في حالة تأكيد أو تفنيد، مما استكشفه عيانا، حتى وإن بلغ سمعه ما بلغ من أعلى مراتب التأكيد، إلا أن العين تطمئن القلب، فالمرئي سارد ممتاز، تتلقفه العين كمسرود لها، مثلا على ذلك قول الرحالة "ومن يشاهد عليه البلاد من المنظمات والنظافة والأمن وقلة الجرائم والسرقات لا يدخله أدنى ريب فيما يقولون"¹²⁶⁷ وهو تأكيد من الرحالة على أن ما كان مرجعا في ذاكرته عن هذا البلد أصبح حقيقة بفعل ما تلقاه من ممارسات فعلية تأكّدت منها العين الراصدة، لأن الرحالة يخرج من وطنه مزودا بمعلومات تقريبية من مختلف الروافد عن البلد المقصود بالزيارة، ثم سرعان ما يقف موقفا نهائيا بعد المعاينة، فبإمكانه المصادقة على ما كان من خبر، أو النفي أو المبالغة، فتقف في ذلك العين موقفا تصحيحيا "فلما رأيتها وجدتها أحسن مما وصفها الواصفون، ولا يمكن لشخص أن يستوعب جميع محاسنها ولو أقام السنين"¹²⁶⁸.

¹²⁶⁵ - سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق، مصدر سابق، العدد 22.

¹²⁶⁶ - المصدر نفسه.

¹²⁶⁷ - سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 438.

¹²⁶⁸ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 33.

وإذا ما قلبنا قول الرحالة الآتي لسوف يتبين لنا أنه يميلنا على أطراف السرد بكامل تفاصيلها، إن الرحالة وصل إلى نتيجة ما سنقول من خلال استثمار تقريره السردى القائم على تحويل المرئي في بحثه عن سبل وقنوات لتمرير رسائله الانتقادية عن المكان، فوضع نفسه موضع المسرود له بألية العين "لقد كنت وأنا في البلاد المغربية أتطلع بعين الناقد الفاحص إلى المظاهر التي تحيط بي"¹²⁶⁹ وهي وضعية الرحالة كمسرود له ثم يضيف "ولقد كنت أظن بأني سوف أجد نقصا أو خللا أبني عليهما موضوعا انتقاديا أعرضه للقراء"¹²⁷⁰ وهي الوضعية الثانية أي وضعية الرحالة بعد أن يتحوّل إلى سارد. وهو في كل الأحوال مسرود له وسارد مع مراعاة الترتيب، لأنه يجب عليه الرصد ثم البث، يقع هذا في جميع أحوال هذه الوضعية ودائما سواء أكان الأمر صريحا أو تلميحا فإن الرحالة يجلب صور المرئي ليجعلها مادة سرده، فهو في كل الأحوال مسرود له ثم بعدها يكون ساردا ولا يهم إذا كان قد قدّم خلال الكتابة وضعية السارد على وضعية المسرود له، فسرعان ما يُعطي لهذه الوضعية الأخيرة صبغة الأهمية مثل قول حوحو "ولا يأخذك العجب إذا قلت لك إني شاهدت في إحدى هذه المحطات الزراعية الدالية تنبت وتثمر عنبا جيدا"¹²⁷¹ وهي تقنية تحسب على الصياغة الأسلوبية وليست على الترتيب السردى، الذي قدّم فيه السارد على المسرود له للتأثير على المتلقي.

ولما كانت المرئيات عملية استقطاب الرحالة التي تعنى له ساردا من نوع خاص، فهو في حالة تأثير مثله مثل أن يتلقّى خطابا صوتيا من أفواه الساردين الحقيقيين، ولعل بعض الصّور والمشاهد كانت أبلغ من التصريحات القولية وهي بالتالي تعني للرحالة صورة من صور التأويل الذي ينفذ إلى النفس فتبحث لها عن مستقر أو سكن ضمن مرجعياتها فتتأكد علامات استغراب عندما يكون هذا الاستقبال أبلغ من المماثل المرجعي، ولقد كان رحالو القرن التاسع عشر هكذا يعبرون عن مرئياتهم، باستغراب مما يدل على قوة التأثير التي يتأسس عليها مسرودهم "ومن المستغربات أننا رأينا صورة بقامة انسان من نحاس أكبر من القبة الشاهقة تجلس جماعة في إحدى ثقبتي منخرية قلنا أهذا هو الغول المخوف به الصبيان أم هامة عوج بن عنان"¹²⁷² فحديث الرحالة عن المستغربات هو حديث ينم عن الاستغراق في التأمل المرئي ومحاولة استساغته وترويضه، مع قوة فعله العجائبي الذي يفوق طاقة مرجعيته وحدود تخيله وكل ذلك قائم على المرئي، لذلك كان كل عالم جديد لا تفيد فيه الكلمة بقدر ما تفيد العين، فتبرز الصيغ الدالة على الرؤية بصيغ أكثرها صريحة "ومن جملة ما رأيناه

¹²⁶⁹ - جولي في المغرب وبلاد الأندلس، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 661.

¹²⁷⁰ - المصدر نفسه.

¹²⁷¹ - أحمد رضا حوحو، عدت من الاتحاد السوفيتي، جريدة الشعلة، العدد 44، السنة 1، 21 محرم 1370هـ الموافق لـ 2 نوفمبر 1950م.

¹²⁷² - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 57.

من أدنى الغرايب استخراج أفراخ الطيور من غير تحضين¹²⁷³ إن الرحالة يؤكد أن عالم المرثيات واسع فهو يدل على الجزء من خلال الكل.

ت- الالتقاط / السمع

يقوم السمع في الرحلة كآلية ضرورية لاستكمال ملامح الصور المشاهدة. ويأتي الالتقاط السمعي بدرجة أقل على الالتقاط البصري، والالتقاط السمعي هو عبارة عن صدَى عام يأتي به تيار الصدفة ليكبّه في أذن الرحالة باعتباره غريبا عن المكان يتحسّس ويجسّ نبض هذا المكان من خلال مظاهر الأخبار العامة بدرجة أولى ثم بما يصادفه أثناء إقامته بالمكان المزار "وقد صادف يوم قدومي لمستغانم أن وجدت حادثا سيئا وقع بالمسجد الأعظم والناس يُلوكون حديثه في النوادي كلما اجتمعوا..."¹²⁷⁴ وتنبع الصدفة من نسق المكان ذاته لأنها تشكّل نموذجا من إثنوغرافيا لثقافة ذلك المجتمع وصداه، فلا تكون الصدفة التي يصادفها الرحالة في أي مكان يحلّ به شاذة إلا نادرا، بل هي نسق عام يتمخّض من عمق ذلك المجتمع.

ومن خصائصها أنها تتم من خلال الصيغ الصريحة الدالة على العفوية في التقاط الأخبار السمعية مثل (سمعت/ سمعنا - انتهى إلى سمعنا- مما جاء على مسمعنا...) أو مثل قول أحدهم "بلَغْنَا بعد أن غادرناها أن شيخ المدينة بعد أن قديم من فرنسا اشتغل بجميع ذلك وهو باذل جهده"¹²⁷⁵ وهي في عمومها إشارة على أن الرحالة مهياً دائما للسمع باعتباره يخرج من بلده يتحسّس صدَى المكان المزار، يطلّق العنان لمسمعه بل يجعلها مفتوحة لالتقاط رنين اللغة الجديدة ولكنها وأبجدياتها، خاصة إذا كانت لغة البلد المزار يجنس لغة الزائر نفسها كالعربية بالنسبة للجزائري أو حتى الفرنسية باعتبار أن الرّحّالين الجزائريين معظمهم كان يجيد الفرنسية بحكم معاشتهم للمجتمع الفرنسي المستعمر.

ومن أهم خصائصها -أيضا- أنها تأتي دائما بصيغة المبني للمجهول، إذ لم يحدّد ساردّها، فهو ليس واحدا، بل نسقها ضمير جمعي مبني للمجهول دائما، حتّى وإن تقلّص مشهدها فهي لا تبوح بالمفرد مُطلّقا، وغالبها يقوم على المشهد الحواري الذي يكون فيه الرّحّالة مشاهدا غير مشارك ولا دخل له في العملية، بل يقوم بنقل الحدث لغاية جامعة تخدم مصلحة الرحالة في التزوّد بمظهر من مظاهر المجتمع المسرود عنه في صورته العامة "وهنا انبرى له من الحاضرين رجل على وجهه علامات العلم

¹²⁷³ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 58.

¹²⁷⁴ - على جناح السفر جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 581.

¹²⁷⁵ - في الوطن القبلي جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 179.

والدين، فقال له -وهو يكاد يتميز من الغيظ-: يا هذا، أليس فيك بقية من الخجل أو الحياء؟..¹²⁷⁶ وفي هذا الشأن يمكننا أن نقول بأنها تقنية لا يستعملها الكثير من الرحالين في سرودهم، وأغلب استعمالاتها لغايات إيديولوجية من أجل تبرير شأن من الشؤون أو غاية نفسية، ونجدها بقوة في رحلات (محمد السعيد الزاهري) الذي يعمد إلى تحيّن هذه المناسبات لإقحامها. بينما الغالب في الرحلات الجزائرية تأتي بصفة عامة ترصد ما يمتاز به المكان المزار لتضفي عليه ما يختص به من مميزات إثنوغرافية، تتأسس على بناء معرفي "وقد أصبحت مقاهي مستغانم ملأى بالناس لسماع القصائد الملحونة لبعض الشعراء في الملحون هناك يلحنها الآليون في المقاهي"¹²⁷⁷ كما أنها لا تعبّر على أنها تقصد المسرود له مباشرة، إذ الساردون فيها لا يوجهون خطاباتهم مباشرة نحو الرحالة (المسرود له) بل يتشكّل على هيئة فضاء يتطّقل عليه سمع الرحّالة فيأخذ منه ما كان فعّالاً أثناء وضعه السردى. كما أنه من خلالها يصدر الرحالة شبه أحكام على المجتمع الذي يتناوله بالقصد السردى أثناء إعادته للحكاية.

ث - الاطلاع

والاطلاع هو المواكبة التي يساير عمليتها الرحالة في صورة تدلّ على عملية معايشة ومسايرة وهو استكشاف لا يقوم على المرئي فحسب، بل الاستكشاف الذي تفصح عنه بعض قضايا المجتمع المزار، ولا يأتي الاطلاع من رغبة الرحالة بل الرحالة يعبّر ذلك استثناءً يضمّه إلى قائمة الاستثناءات التي يستثمر فيها أثناء العملية السردية. إن الرحالة دائماً له موقف لا يتحقّق في الإبلاغ به فكل اطلاع ينمّ عن مظاهر تطفو على المعتاد تؤدي إلى التميّز، وهذا التميز هو الذي يجعله في مقام سردي، خاصة عند استعمال الفعل المنسوب للظاهرة المنتجة، ومن تشخيصها يتبين أنها تنوب عن سارد ما (مضمّر) "ومما أطلعنا عليه الانتخاب، التنافر بين البسكريين وأهل السوف وهم التجار النازحين إلى بسكرة وغالبهم من سوف وهو تنافر لا مسبب له إلا الامتدادات الوراثة ككرغلي وعربي بتلمسان"¹²⁷⁸. وحينما يستخدم الرحالة الصيغ التي تنم على الاطلاع يرمي بذلك إلى الحيلة التي أحاط بها على شيء ما، وهي نتيجة التفحص الذي يكون فيه الرحالة مهتمّاً في مجاله، فتكون الظاهرة المجلوة من الاطلاع هي الصفة البارزة فيمن أخذت عنهم هذه الصفة، وتتعلّق بأعراض تتمظهر من جسم الفضاء الذي يشخصه الرحالة، ولا يأتي إلا بعد تفحص وتمحيص تأتي متكشفة "وقد اجتمعنا

¹²⁷⁶ - إلى زيارة سيدي عابدا! أحاديث في القطار، صحيفة الصراط السوي، مصدر سابق، العدد 8، (18 رجب 1352هـ الموافق لـ 6-11-1933).

¹²⁷⁷ - على جناح السفر جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 581.

¹²⁷⁸ - في الوطن القبلي جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 180.

مع كثير من أهل الخير ولكن ما عرفنا منهم إلا ما ظهر من إقبال على العلم مع رغبة زائدة فيه بدليل شغفهم بالسؤال¹²⁷⁹.

ج- الحوار

يعد الحوار من أهم الوضعيات التي يقوم فيها تبادل الأدوار بين السارد والمسرود له، ويختلف الرحالة من كونه شخصية مهمة قد تكون مشاركة في الأحداث فلا تسرد في فعلها السرد من بعيد بل تنغمس في ذات الحدث وتُسهم فيه حسب قدرتها وطاقتها بينما في الرحلة الخارجية خصوصا ذات الاتجاه الغربي فإنه يكثر فيها تمظهر المسرود له كون المجاهيل والاستثناءات متعدّدة.

ويغلب في الرحلة تداخل الوضعيات ليس على مستوى السارد والمسرود له المباشرين، بل يتعدى ذلك إلى حدود الرحالة مع نفسه الذي يلجأ إلى تمثيل الوضعيتين بصفة تلقائية، وهي حالة شعورية يجسدها الرحالة تعبيرا على وضعه الاجتماعي أو الثقافي "وقلت لنفسي اعتبر يا أحمد بن قاد، وأخبر من يعتبر"¹²⁸⁰ وهي في غالب الأحوال تنم على وضعية الرحالة الأقل حظا من أوضاع البلد المزار، والتي يكثر عنها أحاديث في شؤون جريئة فالرحالة باعتباره مزودا بخلفية، ولا يتم مقصده إلا وراء ميولاته النفسية أو الوظيفية، لذلك يتم التلاقح سريعا بين ذاته ومن يجابهه في الرؤية والخلفية عاكسا بذلك تفسيرات لقضايا يضح فيها الفضول إفرزات من شأنها أن تجعل في بابها ذريعة لتمرير عدّة رسائل، منها على سبيل المثال: "ثم قالت لي أن تحترم المرأة كما يحترم الرجل فإذا تعاقدنا على أن لا تذهب المرأة المسارح مثلا وأن لا يشرب الرجل كأس عقار فيجب أن يكون نفس هذا الشرط هو الطلاق"¹²⁸¹ إلى هنا يكون الرحالة في وضعية مسرود له، ولم يُرد أن يمرر عبر هذه القناة رسائل إلا حينما يعود له دور السارد، بل هو في حينها يجعل من ذاته مسرودا لها وبالتالي تكون العملية نفسية لأن الرحالة لا يخاطب في تلك اللحظة المسرود له (القارئ الضمني) ما دام أنه مزود بمرجعياته من خلال السجل الذي يحمله معه أينما حل وأقام وارتحل، "فدهشت لهذه الفكرة قليلا ثم قلت في نفسي فما رأي السيدة لو رأت وشاهدت عندنا أولاد الأعيان يتزوجون بنات الناس في ليلة زفافهم يخمرون حتى تنطمس أعينهم ويستمررون كذلك إلى أن تسوء عشرتهم"¹²⁸² وهو فراغ سردي يقف فيه الرحالة مستغرقا حين الحوار في مراجعة الممكنات الحوارية وإلى حد يترتب عما هو

1279 - رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، جريدة الشهاب، مصدر سابق، الجزء السادس المجلد العاشر.

1280 - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 56.

1281 - سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 485.

1282 - المصدر نفسه، العدد 485.

مضمّر في نفسه من شؤون وقضايا. وهي مجرد وقفة لا تدوم طويلا بينما تأملاتها تشع على ما تبقى من الحوار.

والحوار في الرحلة الجزائرية غالبا ما يأتي ثنائيا مدعّما بطرف ثالث يضيف للعملية بعدا وظيفيا، يعالج قضايا اجتماعية في مختلف صوره الاجتماعية والثقافية خاصة، يكون فيها الرحالة في وضع المسرود له للتحقيق وإيصال الشواهد إلى القارئ الضمني. بينما يقف فيها ساردا للمحاجات والدليل لإسقاطها على عناصر الداء، ففي كل الأحوال نجد أن الحوار في الرحلة الجزائرية ليس بريئا، ففي الرحلة الداخلية هناك قضايا الانحراف والصراع الإصلاحي/الطريقي، يدور الحوار -مثلا- ليعالج الانحراف مثل قول الزاهري: "قلت: ولكني أنا لا أصلح أن أكون لك صاحبا ولا خليلا، قالت: ولماذا؟ قلت: لأنني لست من هؤلاء الشبان، قالت: ومن تكون إذن؟ قلت: أنا من الشيوخ قالت "بلهجة الاستنكار" أنت من الشيوخ وليس في لحيتك شعرة بيضاء؟ إن هذا لعجب عجاب، واستنجدت أنا بأحد معارفي، فقال لها دعيه إنه عالم قالت: وهل العالم خير من "المرابطين"؟"¹²⁸³ وهي إشارة واضحة ورسالة هادفة ذات مقصدية مبيّنة من الرحالة، كما ينمّ عن ذلك نص الرحلة بكامله. وهذه هي الصبغة العامّة للحوار في الرحلة الداخلية ولا يأتي إلا في هاته الصورة بل يتعداها -في قليل منها- إلى حوارات في شتى القضايا ولكنها كلّها تدخل تحت معطف المعالجة للأمراض الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية.

أما في الرحلة الخارجية فشرفا لم تكن في الغالب إلا سياسية طغى عليها حوارات أحمد توفيق المدني الذي كان ساردا ومسرودا له في الآن نفسه، أما غربيا فقد تجلّى فيها الانبساط على مداعبة النفس نائبة عن مجتمع ككل - التي يذوب فيها جليد البؤس والتخلّف معبّرة عنها في أشكال مختلفة فلم يكن الرحالون نحو أوروبا وفرنسا خاصة إلا تهكّما توجّعا على الحالة البائسة خاصة منها رحلتي الزاهي المليبي ومحمد بن العابد الجلاّلي.

ح- السؤال

يتم السؤال في الرحلة عند البحث عن جواب لأمر يريد لها الرحالة عن إجابات شافية سواء أكان ذلك نابعا من الفضول أو بحثا عن قضايا هامة يريد أن يشفي بها موضوعه ويقيم له ركيزة تنمّ عن الجهل بالشيء، أو لقضاء حاجة في نفس الرحّالة. فكانت دائما تحمل السؤال متبوعا بالجواب، ثم إننا إذا تساءلنا عن حال الرحّالة أثناء كتابته للرحلة عندما يكون موضوعه بين يديه ويضحى هو السارد، لماذا لا يتخلى عن السارد الحقيقي؟ ألم يكن في استطاعته أن يزيح السؤال وعلامات

¹²⁸³ - إلى زيارة سيدي عابدا! أحاديث في القطار، صحيفة الصراط السوي، مصدر سابق، العدد 13.

الاستفهام؟ إن الرحالة بتوظيفه هذا النمط يكون أمام ضمير الحدث الذي يُسنده إلى راويه الحقيقي فلو تبتى هو العرض المباشر، يكون ضعيفا في مصداقيته أمام متلقيه، فهو لا يملك من كل الأمور إلا السمع والبصر، أما خبايا ما يكته المكان فمردّه إلى أصحابه، وبذلك يكون الرحالة مبرّءا من كل اتهام، ومعضدا روايته بسند قويّ. يدل على أنه تقصّى في الأمور فهو لا يروي من فراغ "فقلت لرفيق كان مصاحبا لي ما هذا القيطون؟ وما هذه الهياكل المنصوبة به وما حقيقة هاته الصينية الموضوعة بينهم فهمس في أذني خيفة البطش به وقال هذا قيطون الباش آغا عبد الصادق قدور وهؤلاء زبائنته والصينية يجمع بها الباش آغا الدراهم من الرعية لقهواجه"¹²⁸⁴ كما أنها تحمل من الدلالات التي لو عرضها الرحالة مباشرة لفقدت روحها "سألنا عن عدد العساكر التي حضرت هذا المهرجان أخبرونا أنهم ثمانون ألف نفر"¹²⁸⁵

ويجّل السائل في هذه العملية في محل المسرود له والمجيب في محلّ السارد، والرحالة لا يبدأ بالسؤال في خلال تبئره للمكان فهو لا يسأل سؤالا فضوليا فيه سفاهة حتى يقلل من شأنه، بل هو يخوض في استكشافه بجميع الطرق التبعية موظفا حاستي السمع والبصر، حتى إذا أشكل عليه المقام وصدت في وجهه أمارات البيان وقابلته العلامات المريبة، هنا يستعين بأهل الخبرة "وكنا نتحسس المواقع حتى إذا انتهينا إلى العقبة سألت الأستاذ سعيد الغزي أين الطريق الحدود البري إلى الحجاز يا أستاذ؟ فأجاب هي هذه ولكنها الآن مقطوعة باليهود..¹²⁸⁶ فيبدو أن السؤال في الرحلة ضروريّ لكنّه استثنائيّ وما أكثر الاستثناءات ما دامت الرحلة فحًا مشوّقا، معقوداً بالمجاهيل. فحتى ولو ظهر الشيء واضحا بارزا فإنه وليد نتاج قومي لا يعرف سرّه إلى الخبراء من أهله "كلما مررنا بمدينة وقرية من مرسيلية إلى باريس إلّا ورأينا على حيطاننا كتابة غليظة كقوائم الإبل يستخرجها الأعشى من بعيد فضلاً عن صحيح البصر لم نعرف حقيقتها، فسألنا عنها قيل لنا هي ثلاث كلمات: لبيراطي، إقالطي، فرطريطي. أعني الحرية، الأخوة والمساواة"¹²⁸⁷.

خ- الاسترشاد

إن الرحالة في بحث دائم عن دليل أو مرشد، فهو يدخل المدن ومجاهل الأمكنة، ومدفوع بطبعه الاستكشافي عن تفاصيل أكثر ومعرفة أفضل عن هذه الأمكنة التي بالضرورة تحمل من الأسرار ما لا

¹²⁸⁴ - على جناح السفر، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 585.

¹²⁸⁵ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 42.

¹²⁸⁶ - محمد منصور الغسيري، عدت من الشرق، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة 6، العدد 257 (1 جمادي الثانية 1373 الموافق 5 غيفري 1954).

¹²⁸⁷ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 53.

يظهر للعين. فليست العين إلا ماسحة لظاهر المكان بينما المكان ليس من مظهره إلا شطره الظاهر في حين أن سرّه كله في باطنه. والرحالة في أحيان كثيرة يُضمر سارده ليصبح هو من يقوم بالدور فتشعر بأنه يتحدث انطلاقاً من معرفة مسبقة، يتحقق ذلك من طبيعة الاستقبال وأثر المشاهد فكّما كانت قيمة الحدث وعظمتها كبيرة كلّما تجلّى وانقشع السارد غير الرحالة بينما عندما يصبح الحدث طبيعياً ولو أن فيه شيء من الإعجاب يتولّى الرحالة دور السارد ويتوارى السارد الحقيقي ليلتبس المسرود له المفترض إلى سارد "تفرجنا على أهم ما في البلد من الآثار والمنتزهات وما كدنا نتوصل لشيء لولا اتخاذنا دليلاً (قيد) من المالطين ما قصر في إطلاعنا على ما في زوايا البلد من المتاحف والمستظرفات"¹²⁸⁸ والرحالة يُسلّم أمره إلى المرشد، فتكون وجهته حيثما اتّجهت بؤصلة المرشد وحسب ميوله هو، وليس كما يرغب الرحالة، ما دام أنه في حالة استكشاف لا يهمله سوى التعرّف عن المكان، هذا إذا كان القصد من الرحلة السياحة والاستطلاع "وحيث كان صاحبنا مالطياً فهو متعبّد ناسك بالطبع فقد كانت وجهته دائماً مائلة إلى إشرافنا على الكنائس والمناسك المقدسة لدى العموم فدخلنا بضع كنائس ما كنا لنعرف مثلها عندنا"¹²⁸⁹ كما أن الرحالة من أول وهلة يكون على علم بمن يسترشده، فهو واعٍ وحريص على من يتولّاه في الاسترشاد وليس ذلك قائماً على العشوائية. وباعتباره مسروداً له يجهل عن المكان فهو يتلقى التوجيه والتحذير من ساردٍ عارفٍ ناصحٍ، مقيمٍ محيطٍ بالمكان وبيئته السلبية والإيجابية "وصلنا طرابلس وقبل نزولنا حذرنا أحد أعوان البوليس الإيطالي قائلاً لا تتوغلوا في دواخل المدينة فإن هناك عصابة إيطالية طرابلسية من اللصوص تعدو على الأجانب فقلنا هكذا فليكن النظام وهكذا فليكن الحرس"¹²⁹⁰ كما تبرز في الرحلات الحجازية ظاهرة المطوف الذي يتحمّل عبء السارد في مظهر المرشد حين تستدعي وظيفته القيام بدور المعطى السردى ضمناً.

1.1.2. الرحالة في وضعية السارد

يخوض النقد المعاصر في تباين كبير حول ما يتعلّق بوضعيات السارد في الحكاية، واضطراب فيما يخص المصطلح، بيّد أن معظم هذه الاصطلاحات تصبّ في مفاهيم متقاربة جداً، ومنشأ هذا الاختلاف يعود إلى اختلاف زوايا النظر في دراسته، ولم يتسنّ للنقد العربي إلا الأخذ من هذه المنابع

¹²⁸⁸ - سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 438.

¹²⁸⁹ - المصدر نفسه.

¹²⁹⁰ - المصدر نفسه، العدد 442.

الغربية التي هي أصل كل عملية نقدية معاصرة، يتصدّرها المذهب الروسي ثم المذهب الأنجلو أمريكي، ثم المذهب الفرنسي، فالألماني. وبالرغم من التباين في وجهات النظر وتحديد المصطلح، إلا أننا نجد تصوّره واحداً. فمثلاً لو توقّفنا عند وجهات نظر كل من جان بويون (j. pouillon) وتودوروف (T.Toddorov) وتوماشفسكي (B. Tomashevski) نجد أن الأول يحدّد السارد من ثلاثة زوايا: 1. الرؤية من الخلف، 2. الرؤية مع، 3. الرؤية من الخارج. أما الثاني فيتوقف عليها بالترتيب المقابل: 1. الرؤية الخارجية/ سارد خارجي غير موجود في القصة ولا الخطاب فهو خارج المتن. 2. الرؤية الداخلية/ سارد داخلي موجود في القصة والخطاب مشارك في الأحداث ويقع داخل المتن. 3. الرؤية الخارجية/ السارد خارجي موجود داخل القصة والخطاب بصفته مشاهدا للأحداث لا غير. بينما يتوقف عليها الأخير بالترتيب: 1. السارد الموضوعي فهو غير مشارك. 2. السارد الذاتي وهو السارد المشارك في الفعل 3. السارد الذاتي والسارد الموضوعي وهو المشاهد للفعل، يخبر بالأحداث من خلال مشاركته من غير تحليل لبواطن الشخصيات، ومخبر بصفته مشاهدا مع تحليل لبواطن الشخصيات الفاعلة¹²⁹¹.

ومن خلال عملية التصنيف القائمة على الذاتي والموضوعي، تبدو لنا خاصية وهي أن خلاصة المنظرين يقتصرون على الرواية التي يتمّ فيها التركيز على الشخصيات أكثر من غيرها إذ يربط العملية السردية كلها بالأحداث، في حين يقربنا سعيد يقطين أكثر من موضوعنا المتعلّق بالخطاب الرحلي، القائم على السرد والتقرير، إذ لا ينفكّ الخطاب الرحلي كونه يتوزع إلى صيغتين، السرد المقدم من طرف الراوي - الشخصية، والتقرير الذي يضطلع به الراوي - المبرر¹²⁹²، يستلزم منه أن أطراف الخطاب التي تضبط حركيته وفق برنامجها المستقطب من ذات مركزية إلى ثلاثة، (الشخصية والمبرر والراوي) وعلى هذا الأساس يلعب السارد في العملية السردية دوراً محورياً من خلال تنظيمه لمجريات الخطاب في علاقته بالمتكلم الذي يتمفصل إلى خطابين اثنين يتميز أحدهما عن الآخر، ويتكاملان في الوقت نفسه: الراوي - المبرر = الوصف - ضمير الغائب - المعرفة - الموضوعية. والراوي الشخصية = السرد - ضمير المتكلم - التجربة - الذاتية¹²⁹³.

1. 1. 2. 1. السارد الذاتي:

¹²⁹¹ - ينظر؛ حميد الحمداني، بنية النص السردية، المركز الثقافي العربي بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص 47-48.

¹²⁹² . ينظر؛ السرد العربي مفاهيم وتجليات، مرجع سابق، ص 217.

¹²⁹³ - المرجع نفسه، ص 217.

يخوض الرحالة قبل أن تولّد عنه شخصية السارد، تجربة الفعل الحكائي من خلال نسيج الأحداث والمشاهدات الفعلية والواقعية جزّاء فعل السفر الذي يبدأ من نقطة الانطلاق إلى نقطة العودة، كل هذا يتأثّر بجملة من العناصر المكوّنة لخطابه بعد أن كانت شجون ومحن، وسياحة واستجمام، واستكشاف وتطلّع، وتأثر وجس نبض، وعلم ومعرفة، كل هذه المكوّنات وغيرها تشحن الرحالة وتحمله على التحفيز. تارة ذائبا في الأحداث متأثرا بها، وتارة مشاركا بالحوارات والتجسيّدات المختلفة، وبذلك سوف لن نعدّم من مُثول السارد كشخصية عاطفية تتأثّر وتؤثّر، تتفاعل بالأحداث فهي "تجربة حياتية عاشها الراوي- الشخصية، وقدمها لنا بكثير من الانفعال والتأثر يذهب من أقصى درجات اليأس والقنوط إلى الإحساس بالأمن والاطمئنان"¹²⁹⁴ ثم إن السارد (الرحالة) لا يستطيع أن يتخلّى عن مرجعيته الثقافية فهي الجهاز الذي يستطيع من خلاله إقامة التوازن في مراجعة ما للأنا وللآخر من أوجه التفاوت للتصحيح أو للتدارك، لذلك كان الرحّالة دائما في حالة تلهّف زائد لمعرفة ما هو مجهول عن شبكته المعرفية أو مبني بشكل وهمي في ذاكرته. إن اقتحام الأمكنة المزارة يخوّل له الانفعال "بالفضاء الذي يوجد فيه، ويقع عليه الفعل إيجابا أو سلبا"¹²⁹⁵ لأن الرحالة معرّض في كل الأحوال إلى السكينة والرضا والابتهاج لملاقاة الشخصيات من أجل التعارف أو التلمذ، أو التواصل والتشاقف. في مقابل الأهوال (بّرا وبحرا)¹²⁹⁶ والتعسفات وسوء الأحوال. فما دام أن السارد يحمل من ذات الإنسان جينته نجده غير ملزم عن "تجسيد المجردات أو محاكاة التجسّدات، فيظهر البعد الذاتي النسبي الخاص الذي يطبع بميسمه العمل المحكي"¹²⁹⁷.

وينشط وضع السارد الذاتي في الرحلة الجزائرية كما هو عليه الحال في جلّ الأعمال السردية إلى مستويين رئيسين:

أ- المتماثل (المتجانس) حكاياً

وهو "السارد المسرح" المنضوي في خانة "الرؤية مع" أي أنه فاعل في الأحداث التي يرويها بمشاركة وهو بالتالي راوٍ عليم يدرك جميع الأشياء التي يروي عنها بضمير الأنا إذ يسند لنفسه كل خبر عن رحلته (تعرض له أو وقع فيه...) فهو يقصّ شيئا قد امتلك زمام العِلْم به فهو يرويّه من داخل القصة كونه شخصية من شخصياتها، بل تجدر الإشارة إلى كون السارد في الرحلة هو البطل الذي نرى

¹²⁹⁴ - السرد العربي مفاهيم وتحليلات، مرجع سابق، ص 216.

¹²⁹⁵ - المرجع نفسه، ص 216.

¹²⁹⁶ - انظر رحلتي "معبّر الفتوة، لعبد الباقي الحسيني، و"على الطائر الميمون" لعدة بن تونس.

¹²⁹⁷ - ناهضة ستار، بنية السرد في القصص الصوفي- المكوّنات، والوظائف، والتقنيات، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، سورية، 2003، ص 239.

من خلال وعيه مجرى القصة، ذلك أنه يحدثنا عن صراعه وما لاقاه من خلال ضمير المتكلم، أو الغائب¹²⁹⁸. متجسدا في انفعالاته وتأثيراته.

إن كون السارد في الرحلة يعيد برنامج السفر المنعقد سلفا، فهو يقوم على اعتبار ذاتي، تطابقا بين شخصية السارد في الرحلة وشخصية المؤلف، حيث يكون فيه موضع السارد هو الإطار الذاتي، فلا تخلو الأحداث من رؤى عين ومسمع الشخصية الفاعلة في الرحلة والتي هي بدورها الشخصية التي تتحوّل إلى بطل يحكي عن نفسه، مغامراته أو ما ترتّب عن مسار رحلته، وإذا كان الراوي هو بطل الحكاية فإننا سوف نواجه ضمير الأنا "باستعماله ضمير المتكلم (مفرد- جمع)، وهو يتكلف بواسطته السرد بتقديم ما "وقع" له هو بالذات"¹²⁹⁹ الذي يشعرنا بحضوره، في ثنايا الحكيم، والرحالة يستأثر الحديث عن نفسه، ما دام أنه أراد الخوض في تجربة الخطاب، بعد أن استشعر بطفوح المركّب النفسي على تجاوز الفعل، ونقل التجربة التي يعتقد -هو- أنها تحمل معانٍ ودلالات للمتلقي. ويضطلع كل ملفوظ رحلي بأنا واقعي تحيل هويته في النص على هوية الكاتب خارجه، مجسّدة في اسم العَلَم المتبّت في أول النص أو موقّعا في آخره. فالراوي في الوقت نفسه هو الفاعل المتحدّث في النص، فلا ينفصل المؤلف داخل النص عن الشخصية خارجه. ولذلك فالراوي في الرحلة لا يهندس شخصية للوصول إلى مبتغى سردي، بل شخصيته هي التي بإمكانها أن تحدّد مجرى السرد، وهي التي تجبره على خوض مسالك وقنوات للرؤية، وبما أنه ينتمي إلى الجنس السردي، فهو يخضع ككلّ فن من هذا المجال إلى صنفين: مجريات السرد عبر مشاركته في الأحداث، ومشاهدته لها من غير مشاركة ومن خلالها يتمثل السارد الذاتي.

أ - أ. ساردا مشاركا / السارد الابتدائي

ويكون فيه دور السارد موزّعا حسب برنامج كل رحلة ومن خلال استشعار كل رحّالة، فالسارد المشارك في الرحلات الداخلية أوفّر حظّا من السارد المشاهد، لأن السارد لم تكن تشغله -في الغالب- المواقع ولا المواضيع المبتغاة للترفيه، بل كان يتمتّع برسالة وبرامج اجتماعية وإصلاحية، مما نلّفه لا يكفّ عن المشاركة، كونه يسعى إلى التدبير وحمل الناس من وضع إلى وضع آخر، فغالبا ما كانت الرحلة الداخلية تسعى وراء مقصدية ونية مبيتة، السارد فيها لا يبرح جموح الذات إلى الخواطر، لذلك لم يكن استقصاء الأمكنة ذا أولوية، فالرحلة الداخلية كانت ذات حراك وشحن وصراع، فهي باعتراف أحد الرحالين الإصلاحيين بؤرة للمحاكاة والاستقصاء الهادف "أبت عليّ نفسي أن تقصر عملها على

¹²⁹⁸ - ينظر؛ تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، 291.

¹²⁹⁹ - السرد العربي مفاهيم وتجليات، مرجع سابق، ص 216.

فأندتها بل تشوّقت إلى الاجتماع بأهل الأفكار والمتنورين من العلماء لنستفيد من كل فكرة علنا نهتدي إلى ما فيه نفع عام، إذ بالتحاكك الفكري تسطع الأنوار التي نستنير بها طريق السعادة"¹³⁰⁰ إن السارد -هنا- صاحب رزنامة حتّى وإن كانت الرحلة مفوّضة للوصف الذي يطفح حتى يغدو مهيمنا، ما دام السارد في الرحلة جوّالا، يقوم بالمسح وتغطية مجالات مختلفة. ونسجّل أن الرحلة الجزائرية قد تركز فيها السارد الذاتي المشارك، في جوانب كثيرة داخليا، وهي حالة نسجّلها عموما -أيضا- كلما كانت الرحلة باتجاه مساوٍ لموطن الرّحالة أو دونه، تصير فيه المشاركة أقوى من المشاهدة، وكلما كان بلد المزار أرقى وأرفع مستوى حضاريّا كلّما صار العكس. كما نسجّل -أيضا- أنه كلما سمّت درجة السارد في شخصيته حسب الوظيفة والدافع من الرحلة، كلما تحقّقت المشاركة إذ يسعى في ذلك إلى تبّي مشروع معين. فتارة يأتي بضمير الجمع حين يكون في محلّ المستقطب "ووصلنا إلى مجاز الدشيش فنزلنا عند السيد الزيتوني بوصاع، وسألنا عن الإسلام الصحيح، فأجبنا بأنه ما في القرآن، والسنة بيان القرآن، وبيّنا أثر القرآن في العرب وكيف تطوروا به ذلك التطور الغريب السريع من انحطاط الجاهلية إلى رقي الإسلام، وما يناسب هذا التذكير"¹³⁰¹ وأخرى بضمير المفرد حينما يكون المستقطب "اجتمع عليّ بذلك المكتب أعيان البلدة وأهل العلم الذين صادفتهم بها، فاقترح السيد أحمد بن المولود إلقاء درس في قوله ﷺ "الدين النصيحة"¹³⁰²

إن السارد لم تكن مشاركته في الحدّث ثانويّا، بل ذات شأن فهي محرّكة للسرد ككلّ، السارد فيها فاعل من أجل الأخذ والعطاء لا يكتفي بالأخذ، وهي سمة نجدها -مثلا- عند كل من الإبراهيمي والطيب المهاجي خارجيا، وابن باديس عبد الحفيظ الهاشمي داخليا، فتبدو صورة السارد منكمشة نحو ذاتها، مجرّدة من كل فضاء، السارد فيها صاحب الحق والعلم والمعرفة، ومشاركته تأتي على أساس التلقين وبسط يده العامرة إلى من هم بحاجة إلى التلقين والمعرفة، مثلما يقوم خطاب الطيب المهاجي "ثم قبل رفع الجلسة قمت خطيبا وقلت إن صاحب هذا الضريح له المنة والفضل العظيم على أهل المغرب حيث حمل هو ووالده إليهم رسالة جده ﷺ فهداهم الله بواسطته إلى الإسلام واعتناق الدين الحنيف، وكنت أقصد بخطابتي تناول ناحية من نواحي حياة هذا الزعيم الكبير"¹³⁰³

1300 - محمد عبابسة الأخرسي، التعارف وفوائده، مجلة الشهاب، العدد 125، السنة الثالثة، (الخميس 13 جمادى الثانية 1346هـ/08-12-1927)

1301 - للتعارف والتذكير مجلة الشهاب، مصدر سابق الجزء السابع، المجلد الخامس.

1302 - المصدر نفسه، الجزء التاسع، المجلد الخامس.

1303 - أنفس الذخائر، مصدر سابق، ص 94.

كما تأتي على أساس التبادل المعرفي والمذاكرة دون اطلاعنا على باطن الشخصيات المشاركة على صعيد النص، إلا من خلال منظوره للأحداث التي قامت بها، وقد يتمتع بسمّة التحليل لردود أفعالها، بينما ينهض على نسبة الأفعال إلى نفسه سواء بضمير الجمع مثل: (اجتمعنا- قابلنا- جالسنا، استفدنا، لاحظنا..). أو ضمير المفرد مثل: (قابلت- لاحظت- شاهدت..). فحضور السارد إشعار يثمنه حديثه عن تمكّنه في مجاله الذي لا يخوض فيه إلا من داخل المأذن من خلال المعاشرة والمعاشية. وفي كل الأحوال فإن هذا الصنف من الساردين هو الأساس في العملية السردية بالنسبة للخطاب الرحلي الجزائري، على عاتقه تنتظم العملية وتقوم المحافظة على وتيرة سيرها باعتبارها "شخصية رئيسية - أي البطل - وهو ينقل لنا الأحداث ومجرى سيرها، بموجب مشاركته فيها أو على قدرها"¹³⁰⁴.

وفي الغالب يكون السارد شخصية مقرّرة يخوض الإخبار عن تتابع مراحل السير الذي تجسّده الشخصية المبترة. يلجأ دائما إلى القصصية "ثم سافرت من العاصمة إلى مدينة قسنطينة وكان القصد من نزولنا بهاته المدينة الاجتماع بحضرة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" لما كنت أسمع عنه في جريدة الشهاب"¹³⁰⁵ ثم إن الأحداث تتوالى إلى غاية بلوغ القصد "وعند وصولي سألت عن حضرة المشار إليه فدلوني على محله الذي كان يدرس فيه فلم أجده هناك"¹³⁰⁶ ..

أ - ب. السارد الثانوي

ما دام أن السرد الذاتي قائم على (حكاية الأقوال)¹³⁰⁷ فإن السارد لا يألو جهدا في فسح المجال لرواة آخرين للإدلاء بتفاصيل منقوله على لسانهم حتى يتمّ الرّبط بين السارد الفعلي والرواة المندمجين كطرف أساس أو ثانوي في الحكاية التي يؤطرها السارد الرئيس لخلق جوّ من التنوّع وإثراء المتن كسرا للملل في وتيرة السرد ضمنا لكسب المتلقّي الذي يستحسن التنوع إضافة إلى أن تعدّد الأصوات من شأنه أن لا يجعل من السارد المؤطر محتكرا، فيفقد بذلك مصداقيته عند المتلقّي، فمن "الطبيعي أن تظهر الشخصية الثانوية في لحظات محدّدة من الرحلة، أو في مقطع من مقاطعها، بالقياس إلى مرابطة الشخصية المركزية في الرحلة من البداية إلى النهاية ذهابا وإيابا"¹³⁰⁸ فالسارد يمنح الكلمة للشخصيات، لتقاسمه أعباء الحكاية في بعض تفاصيلها الفرعية، حينها تكون أصوات الشخصيات بضمير المتكلم، فهي تعوّض السارد الأصلي كمتماثل حكائي، وتسرد من مستوى داخل حكائي. وما دامت تفتقد

¹³⁰⁴ - ينظر؛ بحى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1990، ص 100.

¹³⁰⁵ - عبد القادر بن عبد الله بن سيدي عيسى، رحلة مسافر، البلاغ الجزائري، العدد 102، 29 رجب 1347 الموافق لـ 11 جانفي 1929.

¹³⁰⁶ - المصدر نفسه.

¹³⁰⁷ - تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، مرجع سابق، ص 183.

¹³⁰⁸ - عبد الرحيم مودن الرحلة جنسا أدبيا، مرجع سابق.

الدعامة المركزية للسرد فإن ذلك يتطلب من السارد المركزي أن يقوم بوظيفة تهيئة المقام، حتى يتبين أن هذه الشخصيات تخوض الحديث في سياق معين، بل هي راجعة إلى السارد الأصلي الذي يتطوع بمنح الشخصيات التحدث عن ذاتها بإيعاز منه، ولو نتمعن هذا المقطع "وقال لي فضيلة الشيخ المفتي في ذلك الحفل ما معناه" إننا ننتسب للطريق لقصد الذكر وتهذيب النفس ونبراً من كل المفاسد التي يرتكبها من يرتكبها من الطريقين"¹³⁰⁹ هنا نجد أن السارد الشخصية الثانوية لا يسرد من منطلق لسان مباشر، فالسارد الحقيقي أعطى له بُعداً تقريبياً، في صورة لسان صاحبها الأصلي، حتى ولو أن جلّ الساردين يقوم بالرواية التقريبية إلا أن ذلك لا يتم على مستوى من الكشف بل يحمل السارد الأصلي السارد الثانوي لساناً مطلقاً، وكأن القول بتمامه وكمالته منسوب إليه بلفظه "قابلنا الكاتب العام للوزارة م. أوبو وهو رجل راديكالي صميم وممن كلمه العقبي فقال له: نريد أن نعامل في الجزائر بما يعامل به غيرنا من سكانها من الطليان والإسبان فإننا نعامل بها أدنى من كل جنس، فوعد الوزير بالنظر في الحالة وأنه سيقدم هو إلى الجزائر بنفسه"¹³¹⁰، إن السارد لا يتحمّل - هو - دور القائل بنقله على لسانه، وكان بالإمكان ذلك، لكنه فسح المجال للقائل الأصلي ليمثل دوره كسارد دون وسيط، لإضفاء المصدقية على القول، وللتنوع السردية، وتجدر الإشارة إلى أن السارد لا ينقل القول بحذافيره بل يتصرف فيه أحياناً، بوضع شطر مهم منه، حسب ما تستدعيه الضرورة فيشير عن ذلك في أول الكلام على ميثاقه "وتحدث معنا أطيب الحديث فمن بعض ما تحدث به معنا أنه قال لنا: يا معشر العرب نعلمكم أنكم عندنا بمنزلة إخواننا الفرانساويين ولا فرق بينكم وبينهم عندنا في المحبة والمكانة.."¹³¹¹ وأحياناً أخرى لا تتحدّد الشخصية الثانوية الساردة فيبينها السارد المركزي للمجهول بضمير الغائب "فقال قائل: ولكنني أنا قد جربت بنفسي عدة تجارب"¹³¹² وتارة نجد الحوار قائماً بين هويتين ساردتين، السارد المركزي والسارد الثانوي، وهي السمة الغالبة ما دامت الرحلة قائمة على الكشف والتواصل.

ب - المتباين حكائياً

لا يتحسد هذا النوع في الرحلة الجزائرية إلا بشكل محتشم كون السارد في الغالب مستبدّ، يقوم بالدور السردية لوحده، بينما تجرّه المشاهد والأحداث إلى إيجاد مبررات تيماتية للخوض في سرد

¹³⁰⁹ - رحلة ابن باديس في بعض جهات الوطن، مجلة الشهاب، مصدر سابق.

¹³¹⁰ - مشاهدات وملاحظات مجلة الشهاب، مصدر سابق، الجزء السابع المجلد الثاني عشر.

¹³¹¹ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 43.

¹³¹² - إلى زيارة سيدي عابد! أحاديث في القطار، صحيفة الصراط السوي، مصدر سابق، العدد 12.

حكاية تُمتدّ إلى الماضي بصلة، وهي الحكاية التي تبرز أو لها علاقة مباشرة بواقع الرحالة المقترن بمرجعياته الثقافية والتاريخية على السواء. فهي تستمد طاقاتها السردية من زمن استرجاعي، يتوارى فيها السارد عن الحكاية الإطار، إلى ما يجعله في مستوى ثانوي، بعدما كان في مستوى ابتدائي، حيث إن الحكاية مستمدة من داخل المتن، لكن السارد ليس له حظ المشاركة فيها، وهي تقع على مسافة بعيدة، لها مرجعيتها المختلفة، الدينية والتاريخية والثقافية..

فحتى وإن كانت درجة الغياب تبدو فيها جليّة، إلا أن ذلك لا يخلو من كون السارد يحضّر فيها ضمناً عبر انتماءاته العاطفية والإيديولوجية، إذ لا يجد من مبرّر للغياب فهو حاضر متخفّ وراء اللغة دون استحضر ضمير المتكلم. فموضع السرد هو الذي يدفع السارد إلى استجلاء حكاية المكان سواء المكان في حدّ ذاته كونه تسري فيه روح التراث والتاريخ، مثل قول الرحالة "وهي بلدة قديمة جدّاً أسّسها الفينيقيون في القرن الرابع قبل المسيح وسمّوها "يول". ثم وسّع دائرتها وكبرها وجملها من بعدهم الأمير النوميدي يوبا الثاني وسمّاها "قيصرية" نسبة إلى قيصر روما حيث تربي ونشأ، واتخذها عاصمة لمملكته "موريطانيا": وبعد وفاة ولده ألحقها الرومان بدولتهم ثم البيزنطيون من بعدهم، إلى أن فتحها العرب في القرن العاشر الميلادي واحتلها بعد ذلك بنو مرين¹³¹³ فكما يتبيّن أن السارد يروي عن وقائع تاريخية لا يمكنه المشاركة فيها، فهو يسردها بضمير الغائب منصّباً نفسه راوياً من مستوى ثانوي، متخلّياً عن المستوى الابتدائي لغايات سردية. يكون فيها الاعتماد على المرجعية والدافع من الرحلة، إذ السارد في الرحلة ممثّل عن شخصية الرحالة ذاته الذي ينتسب إلى ثقافة معينة، مستوحياً من المكان معالمة الدالة عليه أو ما خلّده من رجال العلم والسياسة والتصوّف والبطولة، فأغلب الأمكنة تجعل من السارد مستعرضاً جملة من التفاصيل، سواء على مستوى المكان كما أشرنا أو على مستوى الأشخاص، الذي يلجأ السارد إلى ضجّ ما اكتسبه من العلم والمعرفة به "وبالقرب من معسكر قرية رماصة التي ينسب إليها الشيخ مصطفى الرماصي العمدة في مذهب مالك والمشار إليه بالمصفق صاحب التآليف العديدة فقد كانت دياجي المسائل تستحيل أمامه إلى أنوار لامعة وترجمته شهيرة"¹³¹⁴ إن تلك المعارف غير مسجلة على ضريح الشخص ولا يتحدّث بها المكان الذي نشأ فيه ذلك العَلَم، لكنّ مرجعها ذاتي يتحقّق من اطلاع السارد (الرحالة) على تفاصيلها المختلفة مما اكتسبه عن علم سابق، يُحيل عليه المكان. وتتمّ عبر تقنيات مختلفة تارة إشارات عابرة يفضي إليها الحديث من خلال المكان، وتارة أخرى لا يظفر المكان إلا بالإشارة الملمّحة، بينما

¹³¹³ - أحمد بوزيد قصبية، حركة جمعية العلماء بعمالة الجزائر، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الرابعة، عدد 150، (3 رجب 1370، الموافق لـ 1951/4/9).

¹³¹⁴ - عبد الحفيظ الهاشمي، رحلة للمغرب والأندلس، جريدة النجاح، العدد 1366 (7 جمادى الثانية 1351هـ، الموافق لـ 9 أكتوبر 1932م).

تستغرق في الإخبار عن الشخص بدفء ذاتيٍّ مستخلص من انجذاب السارد نحوه "كان هذا العارف بالله مولانا الشيخ سيدنا أحمد الشريف السنوسي الذي نتحدث عنه هو الدرّة اليتيمة في عقد العلماء العاملين، وعصابة عباد الله المخلصين، ينبغي أن يقال لمن صاحبه أو جالسه ولو لحظة لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم"¹³¹⁵.

1. 1. 2. 2. السارد الموضوعي

يقوم وضع السارد الموضوعي على تبئير الأمكنة برؤية ذاتية تقف على زوايا الموصوفات التي يتضمنها وصف الرّحلة والحركة في جغرافية المكان كَوْن الرّحالة ينتقل في المكان، ويكتسب معرفة جديدة به وبمحيطه وفضاءاته وأشخاصه، فحظ الذات في انكباها نحو موضوعها السردى الكلي، يحاول من خلاله السارد أن يوهم المتلقي بواقعيّتها معتمدا على أدوات التبئير من عين وأذن ووعي، والتي ستتحول لدى السارد إلى آليات لغوية تحتكم إلى الضمير النحوي الذي يترك فيه ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب لذلك نجد هذا الراوي- المبرّر يصف ما يرى، وينقل ما يسمع. إنّه تبعاً لكل هذا يسعى، في علاقته بالمتلقي، إلى تقديم "معرفة" مبنية على "العيان" أو على السماع الذي تنتهي إليه، وهي بذلك معرفة "موضوعية" لا مجال فيها للكذب أو الاختلاق¹³¹⁶

أ- متباين حكائياً

يكون السارد خارج الحكاية غائباً عن مَنّتها في مستوى سردي ابتدائي عندما يُريد الكشف عن موضوع من الموضوعات التي تبهرها الشخصية، بيد أن ذلك الموضوع لا يمكنه أن يكون خارجاً عن الذات التي ستصبح معياراً للفرز في الجلاء أو الإقصاء من مجموع العناصر الموضوعية التي تتشكّل في عينها أو سمعها، فالموضوعية في الرحلة ليست عبثية ولا عشوائية يمارسها الرحالة تجاه موضوعه السردى، بينما لا تتم الموضوعية إلا من خلال وجهة نظر السارد المخوّل له كل الصّلاحية لاستكناه مواضيعه النصّية المستمدة من جملة العناصر الموضوعية المترابطة أثناء الفعل، ولا نظراً بأن الاختيار الموضوعي في الخطاب الرحلي خارجاً عن الاختيار الذاتي، بل كل ما يتعلّق بالموضوعي في خطاب السارد منشأه إلى تفاعل الرّحلة به، لأن السارد لا ينقل إلا ما كان جديراً، ولا يكون جديراً إلا بما جعله مستأثراً عنده فعل التأثير، لذلك لا يستطيع السارد التجرد من ذاتيته فهو "لا بد أن يكون مطبوعاً بروحه ووعيه ودرجة ثقافته ومواقفه تجاه الأشياء الواعية منها وما يستنبطه عالم اللاوعي العميق"¹³¹⁷ فينجذب نحو

¹³¹⁵ - أنفس الذخائر، مصدر سابق، ص 72.

¹³¹⁶ - ينظر؛ السرد العربي مفاهيم وتجليات، مرجع سابق، ص 215.

¹³¹⁷ - بنية السرد في القصص الصوفيّة المكونات، مرجع سابق، ص 234.

موضوعه بإدراكاته وتوجهاته النفسية والجمالية والإيديولوجية، كل ذلك يصفه "من خلال منظوره الخاص، ويقوم بحكم بناء على وجهة نظره"¹³¹⁸ حتى ولو استخدم ضمير الغائب الذي يعدّ مركز قوى الخطاب نحو المشار إليه من موضوع.

وتتعدّد الموضوعات المبارة التي تعدّ مادة ومكوّنًا للمتن الرحلي الجزائري على مستويات متشعبة كالشخصيات والأماكن بشتى فروعها (مدن، جغرافية، دور عبادة، مراكز سياحية، ومقامات حضارية..). يتبين من خلالها تدخل الذات المحمّلة بالعواطف فلا يخلو منها وصف، أما الإيديولوجي منها فقد تجسّد في نزوع الرحالة إلى ميولاته فعندما يصف الموالي للاستعمار (فرنسا) موضوعيا فهو يعبر عن ارتياحه نحو الموصوف خاصة إذا تعلّق بالشخصيات "وقد كان سعادة المرشال كانزوير محاذياً له وكثير الجنرالية، كالجنرال دابزك والجنرال بروا وأمثالهما والكلونيل رويير وأقرانه على حسب المراتب كالأسود الضارية. وبالجانب الآخر الأمير أخ ملك روسيا ورؤساء الدول وسفرائها كالترك والانجليز والطلين والاصبانيول والبروس وغيرهم. كل منهم مميز عن غيره بزى لباسه كأنهم روض مختلف الأزهار تزهى برؤيته الأبصار"¹³¹⁹ وهنا نلمس إشارات (علامات) توحى ببنية عميقة للخطاب المنزوي إلى إشارات ذاتية، كاستعماله لفظ الاحترام (سعادة المرشال)، أو الوصف القائم على التشبيه كقوله (كأنهم روض مختلف) أو في مَضْرَبٍ آخر فيه تكثيف للتشبيه الذي يتفجّر من زهُو الرحالة ابتهاجا بما تحقّق له من إعجاب الذي يميل إليه ضميره "والخيّالة قد أطلقت الأعنة كالسيل الغزير دفعة واحدة كبنيان مرصوص، ولما انكشف الغبار ظهرت الككببة الطبخية بمدافعها تنزل الجبال وكراريس بخيل كالأفيال"¹³²⁰ في حين يختلف هذا الموقف السردى عند من لا تتطابق نفسيته مع موضوع الرؤية لأن ذلك مرتبط ارتباطا نفسيا بالذات الحاملة لنوازع ذات الموقف كالمضجر نفسيا، وهذا يكون ارتباطه غالبا بالمكان، لما للمكان من تفاصيل تاريخية تتجاوز حدود الشخص إلى فضاءات تغمر الذات الساردة كون ذلك مرتبط بنسقتها العام المحيل إلى عوالم النفس والفكر المحبول إلى حدّ المخاض، مثلما نجده في تعبير عثمان سعدي "في زبد البحر المتراكم وفي هيجانه الذي تلاه هدير وزمجرة فكأنه ثار للظلم الذي سلط عليه، فعكّر صفوه وقطّع حلمه، وشوش سكينته، ومنهم من التصق نظره بأشباح وقفت على الشاطئ تشير بمناديلها وهو يرد على إشاراتها بفتور فكأنه يحاذر أن يشوه بإشاراته هذا المنظر الجميل: منظر أحبته والأفق

¹³¹⁷ - ينظر؛ نظرية السرد "من وجهة النظر الى التبيير"، ترجمة: ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، الدار البيضاء، ط1، 1989، ص 7.

¹³¹⁸ - انظر سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيمه وتجلياته، مرجع سابق، ص 215.

¹³¹⁹ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 63.

¹³²⁰ - المصدر نفسه، ص 63.

يواريهم¹³²¹ فعثمان سعدي لا يصف البحر في ذاته بل من خلال البحر يصف أحوالاً نفسية تميل كثيراً إلى الذاتي بتغييبها من خلال استخدامه لضمير الغائب المتواري أمام التصريح عن الذات. كما أن الأمكنة تمثّل بؤراً يحيل منها السارد على حسب ذوقه الجمالي الذي تتمتع به، أو نقده لها حين لا يُرُوق له من مظهرها البائس، فيقف شاهداً على مرمى قريبٍ من موضعها "فيشي مدينة فسيحة الأرجاء رفيعة البناء جميلة الشكل يجري جنوبها من شرقها إلى غربها نهر" اللبي" وقد جعل له سدّ حَبَس ماءه حتى تكوّن له عمق يحمل الفلك ويرتاض عليه بالسباحة¹³²² فبالإضافة إلى ضمير الغائب فهو بيني وصفه للمجهول حين لا يعيّن موصوفه تحديداً، حينها يقوم على تعميم الظاهرة، لينتقل من مستوى خاص إلى مستوى عام، وهو ما يتعلّق بإبراز الظواهر المهيمنة في بيئة أو حضارة ما "وأكثر بنايات فيشي الفنادق. ولكل فندق مطعمه. وأغلب بضائعها من المطبوعات الروايات وما يتصل بالتسلية، ومن الملبوسات الحلي والمصوغات، ومن المأكولات الحلويات"¹³²³ وفي كل الأحوال فالسارد غائب عن الحكاية، يسردها من مستوى سردي ابتدائي، لأنه ينقل مشاهداته من وجهة نظره الخاصة، فالسارد يسعى إلى نقل الحقائق من خلال منظوره أو ما وصل سمعه التقاطاً أو مكاشفة، وقد يعلنها صراحة، يبدو فيها السارد صريحاً في بثّ بعض التفاصيل المحيطة على المقارنة التي يرجع فيها السارد إلى توظيف المقابلة بين الراهن الذاتي والواقع المرئي، خاصة في الرحلة نحو أوروبا التي يقع من خلالها السارد في مزج بين الذاتي بالموضوعي (علم/ جهل - قوة/ ضعف - تطور/ تقهقر - عدل/ لا عدل - مساواة/ ظلم) ..

ب - متماثل (متجانس) حكائياً

يغيب السارد تارة ويجزر تارة أخرى، حسب ما تقتضيه دواعي وطبيعة الأحداث في الرحلة الجزائرية، ما دام أن الرّحلة محفوفة الجوانب غير مضبوطة الوقع، فمساحة الرّحلة تسمح بالاسترجاع ولو كان ذاتياً يحيل عليه السارد الذي يكون بطلاً خارج الحكاية، أو حكاية ذات مرجع سابق لا تربطها بموضوع الرحلة إلى قناة الإحالة، يتخذ من موضعه سارداً ابتدائياً، ليقدم الحكاية التي تعود نسبتها إليه باعتباره بطلها، أو يعرف عنها تفاصيلها. أما في حالة غيابه على هذا المستوى يتحوّل من سارد مركزي إلى سارد ثانوي، هذا التراجع يسمح باستراحة الرحالة، أو التفاتة عن نقل الأحداث عن مصدرها، وهو استدعاء يخصّه السارد في الرحلة الجزائرية عندما يشعر بأن الرواية الأصل هي الأحقّ في تقديم

1321 - عثمان سعدي، وطني، مصدر سابق.

1322 - مبارك الملي، فيشي، جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، العدد 119 الاثنين 25 ربيع الثاني 1357 هـ الموافق لـ 24 جوان 1938 م.

1323 - المصدر نفسه.

مادتها السردية، وهي تتمحور في خانتين، أولهما، أن السارد يستشعر القارئ بقوة المحكي ومصادقته، ومن ناحية أخرى يريد السارد أن يترك السرد لسارد آخر احتراماً لشخصيتها المرموقة في مجتمعها، بيانا على أن السارد المركزي، متأثر بالسارد البديل.

ففي أكثر الحالات يستفتح السارد الرئيسي الحكاية، لتُرد صيغة سردية تبدأ بـ(الراوي)، بيانا على توسطه تشخيصاً لماهية السارد ثم يترك مجالها للسارد الأصلي الذي يعدّ ثانويًا في النص العام للرحلة، وباستطاعتنا أن نميز وبيسر مستويين مختلفين من الساردين، نسوق هذا المثال: "عاد فخر تلمسان من رحلة كبيرة جميلة بديار الشرق العربي بعد أداء الحجّة الخامسة في هذا العام بمرافقة شريكة حياته المحترمة، وقد تشرفت بالاجتماع به ساعات طويلة بمحل تجارته وباداره العامرة وأكثرت من سؤاله عن الشرق العربي العزيز وعن الديار المقدسة بالحجاز وفلسطين وبصفة أخص عن المدينة المنورة، مدينة نبينا الحبيب الأعز سيدنا ومولانا محمد ﷺ تلك الأراضي العزيزة التي تحن إليها الأشباح والأرواح وتهفوا إليها الأفتدة والأكباد"¹³²⁴ يمثل هذا السرد مستوى أول (استفتاح) فالسارد في هذا المقطع هو بطل يتحدث عن ذاته يؤكّد فيه على ضمير المتكلم (المفرد) بمستوى سارد (داخلي متماثل) لكنه في الأصل سيرج مكاناً محادياً ذا مستوى ثانويًا حينما يسلم مشعل السرد إلى سارد آخر عندما يعطيه الكلمة "فأجاني مغتبطاً بالحديث الآتي قال: "¹³²⁵ فيبدأ السارد الثانوي في احتلال مستوى سارد ابتدائي، كل هذا يتم بإشارة من السارد المؤطر، أي الرئيس في كل العملية السردية، ولو تضمّن النص كلّه من أوله إلى آخره ما دام أن الميثاق قد اتّفق عليه في أول استفتاح.

وأحيانا يستخدم تقنية مباشرة دون أن يلجأ إلى التنبيه بأنه سيحكي حكاية عن شخصية أخرى، بل يقدم علامة تشير على أن الرواية على عهدة راويها، فيتوارى صوت الراوي الحقيقي ويتقمص الراوي الثانوي الذي هو في الأصل راو مركزي يسرّدها بتقنيات مختلفة تتأسس كلها على منحها الإشارة من السارد المركزي "ثم أخذت تقص علي حياتها الأولى وكيف تعلمت العربية وهي تجيدها في لهجة شرقية عذبة مفهومة؛ وأنها ولدت بعدن العربية إلى أن بلغت الحلم؛ ثم سافرت مع والديها إلى الهند فقتل في ثورة عنيفة بين الوطنيين وجنود حكومته.."¹³²⁶ أو قد يُبيّن طريقة التسلّق إلى الحكاية التي يتسلّل إلى فم راويها فيأخذ منه تفاصيل القول، الذي يصبح الراوي المركزي راويًا ثانويًا على لسان

¹³²⁴ - حسن الوارزقي، ساعات مع فخر مدينة تلمسان، جريدة النجاح، السنة 30، العدد 3866، (24 ربيع الأول 1370هـ، الموافق لـ 3 جانفي 1951م).

¹³²⁵ - المصدر نفسه.

¹³²⁶ - أرمعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 125.

راوٍ أصلي، بينما كل الأمور تدار من طرفها باعتبارها شخصية ناظمة، ويتم ذلك عبر السماع الذي لا يشارك فيه البطل، وهنا تبرز خاصية الضمير الذي سيكون غائباً، باعتبار أن السارد سوف يكون لسان حال السارد الأصلي، فيكون للرحالة دورين، دور الوسيط ودور الراوي "... وكان متأثراً منفعلاً، وكان يقول لهم بصوت فيه شيء كثير من الحزم والقنوط ما معناه: إنها لم تكن شيئاً مذكوراً، فلقد كانت خادمة بفندق من فنادق مدينة بوردو (فرنسا) وكان أبوها دركيا بسيطا وهناك في ردهة من ردهات الفندق رآها سيدي ... "شيخ الطريقة" فأعجب بها ووقعت من نفسه موقعا حسنا فتعرف إليها، ثم رجع بها إلى الجزائر"¹³²⁷

2 . وظائف السارد

2 . 1 . الوظيفة السردية

يقوم من خلالها الرحالة باستتباع منطقي متسلسل للأحداث دون إخلال، ولكن دون إسفاف كذلك، فالسارد مُوكَّلةً له مهمة نقل مجسّدات عن الآخر في ضوء العمليّة الانتقائية، ذلك ما يفصح عنه الرحالة (السارد). وهي العمليّة التي تتمّ بوعي من الرحالة حيث يتعيّن عليه الحديث عن قضاياها حسب الدافع من الرحلة، فهي سرود يضطلع بالإخبار عنها الرحالة في دائرة معينة، هي دائرة الحدث نفسه الملتبس بنوازع الذات الراحلة التي يقوم وفّقها التحليل والانطباع عن المكان مذوّتا، بتغليب الواقعية، فتقف لتنتقل ما بلغ درجة الانتباه أو التأثير، وتُسوق الأحداث والأفعال متدرّجة في سلّمها الزمني الذي لا يستوى على سرعة واحدة، فهناك التلخيص وهناك الحذف وهناك الاسترجاع والاستباق، وهناك المشهد القائم على الحوار¹³²⁸.

إن الوظيفة السردية هي المحطات التي تكشف مسيرة الرحلة وأحداثها الهامة التي يبدو فيها جلياً ما هو مهمّ وما هو أهمّ، وما هو استثنائيّ وما هو طبيعيّ وما هو إيجابيّ وما هو سلبيّ، بالنظر إلى عملية العرض التي يتّراوح فيها السرد والوصف والاستطراد والإطناب وتنوع الأزمنة. وتقوم عامة الرحلات سواء الجزائرية وغير الجزائرية بهذه الوظيفة، ولعلّ الشاهد من ذلك لا يبدو إلا من خلال الأعمال الرحلية كلها، فكل الرحلات تتوفر على هذه الوظيفة لأن انعدامها يعني انعدام السارد وما يسرده.

2 . 2 . الوظيفة التنسيقية

¹³²⁷ إلى زيارة سيدي عابد! أحاديث في القطار، صحيفة الصراط السوي، مصدر سابق، العدد 13.

¹³²⁸ سنفصل في ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

إذا كانت الوظيفة السردية تقوم على البنية المحكّمة من عرض لمختلف الأحداث بطرائق على عُرْف ما انضبطت عليه في عملية التسلسل المنطقي للأحداث، فإن الوظيفة التنسيقية، تقوم على شدّ هذه الروابط السردية بعناصر تحكم السرد وتزيده من حرارة وتشويق وتدفع به إلى الانسجام والتفاعل مع الأحداث بما تحيل عليه المشاهد من التأثير ذاته، أو ما يحيل عليه للنظر من زوايا نفسية مختلفة ومن نوافذ مرجعية كثيرة. تستدعيها مقامات العمليّة السردية التي تتوازى مع القصّة الفعلية. وإذا كان السرد يقوم على قطع وأجزاء لكل بنيته العامة فإن الذي يجمع هذه البنية ويجعل فيها روح التأثير هو التنسيق.

ولمّا كانت حكاية الرحلة لا تقوم على عامل الشدّ التخيلي الذي يكون فيه السارد عارفاً بطقوس واستراتيجيات أحداث شخصياته، فإن الرحلة تقوم على التراكم المادّي الذي يتكوّن عند الرحالة كمادة خام، يقف فيها موقف الانتقاء. فعملية التوظيف والإقصاء داخل المتن يجب فيها وظيفة التنسيق التي تتأسس على مبدأ ترتيب العناصر المسرودة وفق رؤية السارد، ولتصبح جملة الممكنات المحتملة قابلة لتكون مادة للحكي، يترتب عليها كمحطة أولى، القيام بجملة من المعايير التي تستوفي فيها الضرورة السردية أحقيتها. وتقوم كل النصوص على هذا المبدأ بما أن الرحالة سيكون مختصراً لطول المسافة الزمنية وكمّ الأحداث والأفكار المترتبة عنها، المتركمة في ذهن الرحالة أو تقييده. فمنذ أن "يشرع السارد في تقديم مثنى السرد يبدل جهداً خاصاً في تنظيم القصة من حيث الاسترجاع والاستباق والتعاصر، من حيث الذكر والحذف والتضمين كما يبدل جهداً على مستوى الخطاب في التركيب اللغوي والتنسيق بين الفقرات وانتقاء الدال، وجهداً في مقاومة الثراء اللغوي أثناء الكتابة أو فقره، إلى جانب الجهد الخاص بالالتزام الموضوعي أو الانسياق مع الذات، مما يكلف السارد الكثير من العناء"¹³²⁹ لذلك كان لزاماً على الرحالة كسارد توفّر على ذهنية منفتحة على عوالم كثيرة، إذ تستطيع أن تقف موقف مرّن ومستحسن مع الظواهر ومن خلالها، في الكشف عنها وانفتاحها على عدّة عوالم.

يقوم السارد (الرحالة) خلال ذلك بعملية التوجيه القائمة على التنظيم الداخلي للنسق، ويتبين في حالات كثيرة أن الاستهلال هو محور توجيه العملية السردية، وكل سارد يمتاز عن غيره بطريقته في العرض ومستواه في الفكر والكتابة، بالإضافة إلى احتياجات الخطاب ذاته. ومن الساردين من يتوخّى العودة إلى ماضيه أو ماضي المكان إشعاراً بجمالية أو ضرورة العودة إلى الزمن الاسترجاعي كما هي نافذة على الزمن الاستشراقي القائم على التوليف في العامل النصي بين ما هو واقع قبل النص، وما هو

¹³²⁹ - إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي، أطروحة دكتوراه، إشراف أ.د. عبد الله العشي، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، الجزائر، 2005، ص 442.

محتمل الوقوع. وهي عملية تحيينية، تُشعر بالامتداد والتآلف بين الماضي والحاضر، تقوم لعبتها على التساوق الزمني، على حسب مقتضيات حالة الوضع السردي، فقد يستلهم الرحالة من المكان خصائص مرجعية خارج نصية، كما قد تكون متوازية مع الحدث في مرجعية الرحالة كالمقارنة، أو مرجعية تاريخية أو دينية تستدعي الإسناد.

في كثير من الأحيان نستبين عملية التنسيق في بداية كلام الرحالة حيث يستهل حديثه، وكأنه يريد عقد ميثاق بينه وبين القارئ "وإذا كانت سفرتي لوجهة عمومية فإنني سأثبت للقراء في كلمات موجزة ما يهمهم الإطلاع عليه"¹³³⁰ وبهذا يقوم السارد بشدّ القارئ إلى شيء يستدعيه إلى التهيؤ لقبول مجريات الأخبار المقررة داخل النص، والتنبيه واضح وصريح عندما يدّعي السارد أن الأمر الذي سيتم نقله للقارئ سيهمّه، فلا يتوانى القارئ خلال ذلك بالترحيب لقبول دعوة السارد وربط الصلة بين التنبيه وجملة الخبر.

ودائما في الاستهلال يقوم التشويق سواء من خلال الطريقة النمطية التي يضع فيها السارد شرارة شدّ المتلقي بذكره لامتيازات المكان المسرود "إننا ركبنا البحر من مرسى الجزائر في غرة شعبان المطابق لشهر غشت 1 سنة 1878 في جماعة من أعيان العرب قاصدين المدينة العظمى باريس التي اجتمع بها ما افترق في غيرها من الحسن والإحسان"¹³³¹ وأحيانا خروج السارد عن النمطية، ليكتسح عالم القارئ الخيالي فيبث فيه روح التشويق، انطلاقا من تكثيف العناصر التشويقية الدالة على عظمة المكان أو الشخص، حتى يدفع بالقارئ إلى قبول الدعوة في مواصلة البحث للتعرف عن سرّ هذه العظمة التي تمكن فيه "باريس كعبة رجال العلوم والآداب والفنون؛ باريس ملهى السواح ومرتع شهواتهم الثائرة الجامحة، باريس سوق التجارة ذات الأرباح الطائلة الفاحشة.. الكلام على باريس طويل جدا بقدر طولها وعرضها ورفعتها وروعتهها.."¹³³²

ومما نجده من عناصر الوظيفة التنسيقية؛ الحصر والمسلمة، وتتمثل الأولى في تأكيد الرحالة على حدث استثنائي انطلاقا من نفسية السارد الدالة عليه، وهي محصورة بين مرجع ضمني وواقع صريح، يقوم القارئ خلاله بالربط التأويلي الذي يجد له مسوغات وقرائن للربط "هذه هي المرة الأولى والأخيرة أعبر فيها عن نفسي كما عبرت عن ريفي"¹³³³ أما المسلمة فهي نابعة من صيغ إطنابية يتولاها السارد متضمنا لطبيعة الكلام ليدلّ به على الدلالة القطعية أو الحلية الجمالية وتقوم على

¹³³⁰ - ملاحظات مسافر، مجلة الشهاب مصدر سابق، العدد 66، السنة الثانية، (الائتين 4 جمادي الأولى 1345هـ/06-11-1926).

¹³³¹ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 51.

¹³³² - أروعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 124.

¹³³³ - مشاهدات وملاحظات، مجلة الشهاب، مصدر سابق، الجزء السابع المجلد الثاني عشر.

استنهاض شعور المتلقي بوضعه في سكة المقام "كان أول مسئول قابلناه هو بطبيعة الحال وزير الأخبار الذي استدعانا إلى يوغسلافيا "بالسيكرتير العام" للأخبار، وهو رجل أبرز مميزاتة هو الصمود والطابع الإنساني في أفكاره"¹³³⁴...

ومن جملة المحاور التي تقوم عليها الرحلة الجزائرية في هذا الصدد التنسيق؛ من حيث وضع المتلقي متعايشا مع الحدث بالمرجع الإسنادي مثلما يلجأ إلى الشرح والتحييب، القائمة على الشرح والتفصيل لدواعي نفسية وتعليمية يريد من خلالها السارد أن يُبرز جوانب من نزعتة شعوريا وغير شعوري، للجعل من وتيرة السرد تشدّ القارئ وتطمئنه على المواصلة في متابعة أحداث الحكاية، ولعلها من أهم المحاور التي يعمدها السارد (الرحالة) فيعيش اللحظة مرتين، المرّة الأولى حين كان مُستقبلا مُعجبا، والمرّة الثانية حينما أصبح باتا، شارحا ومرعبا وبخاصة فيما يتعلق بالأمور المستجدة كالمستحدثات التي شخّصت فيها عيون الرّحّالين أو استحسّنها على الأقل فقد بدا فيها استحسان الاسترسال في الشرح مثل حديثه عن الآلات الصناعية أو حديثه عن المعامل والمصانع، أو عن المتاحف ونجدها غالبا في الرحلات التي نحت باتجاه أوروبا. وهي تقنية سردية يربط بها السارد مستوى الواقع بمستوى التاريخ، أو التنسيق بين الماضي والحاضر من خلال الصيغ، ومن خلال ما تتمخّض عنه مقابلة المكان وتاريخه، وليس الأمر كذلك في كل ما يطرحه السارد من مثل هذه الإسنادات، بل هي تَعَمَد إلى الصياغة الأسلوبية، التي تجعّل المتلقي مستهدفا "ثم نزلت بمرسى مرسيليا. وما هي مرسيليا؟ مرسيليا مدينة عظيمة على ساحل البحر المتوسط من شاطئ القارة الأورباوية بينها وبين الجزائر نحو 800 قطعة بحرية كيلومتر ومنها فتحت فرانس سنة 1830 الجزائر فطار صيت مرسيليا بعدما كانت منسية الذكر ودوي صوت سعادتها منذ امتلاك الجزائر التي ملكت فرنسا بامتلاكها"¹³³⁵ ومثل ذلك يتم في مجرى الحديث عن الشخصيات ذات الصيت الكبير. وهي عملية تتم من خلال ربط الحدث الخاص بالحدث العام، أي الواقعي بالتاريخي يربطه تارة داخل مسافة زمنية القص وتارة بماضٍ مشابهٍ أو مكمل، وتارة أخرى يربط الحدث بنتيجته (رحلة العشعاشي) "وركب الشيخ القطار وقال لي: "يا محمد عندما يبلغ ابنك هذا خمس سنين وخمسة أشهر وخمسة أيام، ختنه ثم أدخله الكتاب ليتعلم القرآن الكريم، وهذا ما فعلته".¹³³⁶

¹³³⁴ - جزائريون في يوغسلافيا، جريدة المجاهد، مصدر سابق، العدد 102.

¹³³⁵ - رحلة ابن باديس في بعض جهات الوطن، مجلة الشهاب، مصدر سابق.

¹³³⁶ - مصطفى العشعاشي، كتاب السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية، تح: مصطفى بن يلس شاوش، مطبعة سقال، تلمسان، الجزائر، دت، ص

وفي كل الأحوال فإن النص في عمومهِ لا ينفلت من يد السارد فهو يتحكّم في زمامه أحسن تحكّم، وألفة السارد بمتلقيه قائمة على وتيرة مضبوطة حتى ولو استدعى ذلك اللجوء إلى الاستطراد فإن السارد يشعر ببدء الإكثار والخروج عن السياق العام للحدث القصّي فهو لا يتجاهل القارئ بل يعمد إلى تنيهه على ذلك مُشعرا إياه بوضعه السردى وبأنه منتبه غير غافلٍ عمّا يربطهما من ميثاق، فكانت هذه الوظيفة تشكّل درجة وعيٍ يُمارسها السارد، يقف فيها عند حدود معيّنة مراعيًا عواطف القارئ، حتى إذا همّ بتفسير موضوع ما فإنه يرجع إلى الحلقة المتوقف عندها من السرد، ففي كثير من الأحيان يريد الاعتذار بطريقة ما حسب ظروف السياق وطبيعته: "لعلك تسأم مني الإطالة في تعداد شيء هو قليل من كثير أيها القارئ"¹³³⁷ وفي أدنى حالاتها يعيد السارد سرده إلى سكة السرد إشارة دالة على ذلك "ونعود إلى تميم الكلام وترتيبه إلى حيث أوصلناه من الأماكن الحجازية فنقول:.."¹³³⁸ وفي حالات يكون السارد في موضع يحتاج إلى الدقة والاسترسال، فيرى أن مجاله ليس في هذا المقام، فيعلن عن تجنّبه موضوع ما هو بصدد الحديث عنه، وهو إعلان عن عدم تجاهله للقارئ فينوّه بما كان حتى لا يترك الريبة في نفسه "وتفاديا من هذا النقص المزري فقد رأيت أن أترك الكلام في هذا الموضوع الخطير إلى فرصة أخرى. وأن أقتصر على ما يمكن عرضه الآن من هذا الحديث .."¹³³⁹ ودائما يقوم الميثاق على الصيغ الدالة على العودة للحديث الأصلي للحكاية الإطار، من خلال ألفاظ صريحة "فلنرجع إلى المقصود الذي نحن بصدده"¹³⁴⁰ أو "ونرجع بالقارئ لتتمة .."¹³⁴¹ وهي تقنية استدراكية قائمة في الوظيفة التنسيقية، خاصة عند الاستدراك السياقي نحو المتلقي، كما أن الاستدراك له مجاله الخاص في الخطاب الرحلي يلجأ فيه السارد للتعويض عن الجهل المعرفي عن مكونات المكان، حيث لم يكن بمقدور الرحالة أن يُلمّ بجميع المستويات المعرفية عن المكان المزار، وفي كثير من الأحيان تُكون صور نمطية غير قائمة على المعرفة الصحيحة، فهذا التعويض هو تصحيح استدراكي في صلب الوظيفة التنسيقية "لقد كنت أتصور البرلمان جليلا.. لقد كان البرلمان في نفسي عظيما وكان رجاله عظماء، حتى شاهدت ما فيه وسمعت رجاله. وإلى القارئ البيان"¹³⁴² فالسارد يقف وسطا بين الاعتقاد السابق والحقيقة في الواقع. وما دامت الرحلة تقوم على الاعتبارات

¹³³⁷ - محمد الهادي السنوسي الزاهري، ما سمعت وما شاهدت، جريدة الشهاب العدد 14، السنة الأولى، (الخميس 28 رجب 1344هـ/11-02-1926).

¹³³⁸ - مذكرات الأمير عبد القادر، مصدر سابق، ص 117.

¹³³⁹ - الحياة في أوربا أو أوربا في الحياة، مجلة الشهاب العدد 69، السنة الثانية، (الخميس 14 جمادى الأولى 1345هـ/18-11-1926).

¹³⁴⁰ - رحلة محمد السعيد بن علي الشريف، ضمن كتاب فن الكتابة الصحفية عند العرب في القرن التاسع عشر، مصدر سابق، ص 50.

¹³⁴¹ - مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 2086.

¹³⁴² - من وحي البرلمان، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 11.

النفسية من تخمينات واشتغال الذهن، والتراكم المعرفي بشتى إسناداته القوية منها والضعيفة، فإن التصحيح قائم لا محالة في كل النصوص دون استثناء، للتدراك والوقوف على حقائق الأشياء، سواء أكان ذلك على المستويات الإيديولوجية، كما سبقت الإشارة أو على المستوى العام (الطبيعي) كقول إسماعيل مامي: "ثم يَمَّتْ مازونة وكنت ظانًا أنني أصِلُّها مارًا بالطريق المستقيم الممدود إليها من وادي ارهيو فأقضى في السيارة ساعة لكن ذلك الظن تخلف حيث أن إحدى قناطر ذلك الطريق عبثت بها المياه التي أفسدت أمتار كثيرة من الطريق"¹³⁴³ فالعملية السردية في النص الرحلي مسار خطي/ لساني مصحح لخطي/ مسار الفعل.

2. 3. الوظيفة التواصلية:

وهي من الوظائف الهامة التي تتعلّق بالسارد والمسرود له مباشرة، فهي تجمع بين وظيفتين: الوظيفة الانتباهية والوظيفة الندائية¹³⁴⁴ مهمّتها القيام بدور الدليل على الإبلاغ القائم على خصوصيات معيّنة، إذ يحرص السارد على نقاط هامة من ضوابط ومستجدّات. وكوّن الرحلة تستقصي المكان الآخر، فهي تركّز على ما فيه من غنائم تنضاف إلى الرصيد المبدئي وهي ذروة القصديّة، بالإضافة إلى ما يتعلق بمستويات الخصوصية الذاتية القائمة على أساس اتفاق بين السارد والمتلقي وهي تتعدّد في الرحلة الجزائرية بين أدبية وفقهية، وسياسية ودعوية، من جانبها الإصلاحي والطريقي والدعائي، ومن قيم اجتماعية وحالات وأوضاع المجتمع وحصيلته الثقافية. كل ذلك يقدّم فيها السارد ومضات، يهدف من خلالها إلى حمل وتوجيه رسائل ذات مضمون إنساني أو إيديولوجي.

والرحلة بقدر ما هي قصة موجهة من/ إلى، فهي في الحقيقة توليف عام قائم على عدة مستويات لا يمكن تحصيل الغرض منه إلا عبر تفكيكه إلى بنيات صغرى يبعث بها السارد نحو مسرود له بخلفيات وتوجّهات، لأن الرحلة ستقف عبر مسارها على عفوية المقام الذي يفرض خطابه ويثير قضاياها التي ليست متساوية بالضرورة حيث يوارى ذلك حين يجمعها نسق واحد عام، فيتعدّد النداء العام إلى نداءات تستهدف متلقين مختلفي المشارب والمستويات. ولعل هذه النداءات هي أبرز سمة تسم الخطاب الرحلي بواسطة العملية التواصلية التي يفترض أن تتم بين مُرسل ومُرسل إليه لإخباره أو إبلاغه بجيشتات تجربة السفر، لا من أجل رحلة مسار، بقدر ما هي رحلة التزوّد المعرفي والثقافي الفريدين، وهي الرسائل الإبلاعية التي قد تحيل مباشرة إلى القارئ المماثل أو القارئ المستهدف بشتى أنواع الخطابات

1343- على جناح السفر، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 588.

1344- ينظر؛ خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص 265

والإشارات الإبلاغية؛ كما هو الأمر بالنسبة للقارئ المحايد فتكون المرسلات التواصلية رسائل للنصح أو الموعظة أو التنبيه من غفلة أو التوجيه أو التذكير والتبشير وكذا التوبيخ، أو بمثابة تعليمات.

وفي كل الأحوال يكون السارد عالماً بضروب متلقّيه حيث لا تتم الإرسالية إلا لمن يشاركه همومه وأفراحه وأتراحه، أو لمن له الشكوى، حتى المتلقّقة منها والشاذة تبعث برسائل ذات خلفيات لقارئ محتمل غير مروّض سعياً لتمرير رسائل مُتعتّفة. يجد لها السارد أكثر من مسوغ، وهي التي يكتّف فيها السارد صيغته التعبيرية الدالة على التأكيد في حيلة منه على الإقناع، حيث يستلزم ذلك لأنها سوف تمرّر عبر سبيل ضيق. وهذا نجده كثيراً في الإبلاغ الإيديولوجي فهو أحادي الرؤية يستدعي مراعاة آليات التنبيه الظاهرة خاصة اللغوية منها كاستخدام حرف امتناع لامتناع المتضمن معنى الشرط المقرون جوابه باللام مثل قول ابن صيام "واعلم أن ملوك فرنسا لو اتصفوا بالظلم والجور وعدم الرفق بالرعية لما قدروا على تحقيق بعض الغرض من عمارة البلدان وكثرة العساكر البرية والبحرية وتحصين الثغور وتعميرها بالعدد والعدة وغير ذلك مما لا يمكن حصره"¹³⁴⁵ وهي تناسب حرارة وقوة الدعوة التي يحرص السارد (بهويته الدعائية) على توصيلها لمن شكك في قوة فرنسا الحضارية، لتبرير استعمارها. وصيغ التنبيه كثيرة ومتعددة قد تقوم في الغالب على الاستفتاح بلفظ الدعوة والاستعداد لقبول رسالة السارد، ثم يعقبها بأسلوب سواء من المستويات اللغوية أو المعنوية القائمة على المقايسة، التي تُعدّ آلية منهجية في الاستدلال والبرهان قصد الحجة "تأملوا في مثل هذا تجدوا الفرق العظيم بين سيرة أهل إقليم الجزائر، وسيرة أهل فرنسا، في جميع الأمور وسائر الفنون، لاسيما الحراثة والغراسة"¹³⁴⁶ وأحياناً تكون الرسائل مشقّرة خاصة منها الرسائل الإيديولوجية "وكفى شاهداً بتربية أولادنا الصغار مع أولاد الفرنسيين في المدارس التي هي ميادين الارتقاء، والحياة الطيبة العزيزة"¹³⁴⁷ وهذا هو مأمول السارد في استشرافه للزمن الاستباقي الذي لا يرى أحسن من هذا الأمر في رقيّ الأمة بتحسينها منذ الصغر حتى ينشأ فيها الجيل المتعلّم باحتكاكه بأبناء المعمّرين الذين يراهم أسوة في الحياة الأفضل.

وقد كانت نتيجة النوازع التي ما فتئت تتحدّر في الذات الجزائرية، تستقطب أنظارها لمواجهة الحقيقة الشاهدة على مآسي شعب بريء، فكان لها في ذلك جبهات ومواجهات مع سارد له هو المستعمر، الذي يمثل الآخر في أبلغ صوره، فإذا نزع السارد (الرحالة) إلى إيجاد صيغ لتوظيف صور

¹³⁴⁵ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 39.

¹³⁴⁶ - رحلة محمد السعيد بن علي الشريف، مصدر سابق، ص 45.

¹³⁴⁷ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 54.

التواصل، فذلك لتنبهه انطلاقاً من درجة الوعي التي أصبحت مادة حيوية يوظفها السارد كسبيل للتّنديد ضد ممارسة هيئاته الكبرى الطائشة، كهيئة البرلمان الفرنسي الذي ينبّه السارد من خلاله رجاله بقوله: "أيها المستعمرون العتاة! إنكم تزعمون أنكم لا تدرون كيف نتصور الديمقراطية. فمتى تركتمونا نرى وجهها كي نتصورها؟"¹³⁴⁸ وهي إشارة واضحة في تهكم عنيف، يعبر فيها السارد على لسان الجزائريين خلال زيارته لفرنسا.

كما كانت طائفة من الرحالين الوطنيين يعبرون في صور تواصلية عن حرمانهم، وعن مآسيهم التي تسبب فيها المستعمر، نجد منهم من عبّر بأعلى صوته عن تنازله على من يتّهمهم بالهجرة نحو فرنسا، والذي يعتبره الرحالة تشردّ ولجوء وليست هجرة طوعية، كما كان يدّعي ذلك نفرٌ منهم. فالرحالة يشدّد على حجّته في إبطال الاتهام، ثم كي يعلم المحتل أن أرضه عزيزة وغالية وهي ليست للمساومة، فالمحتل كان يكيّل بمكيالين ويعرض الأهالي للإهانة والاستعباد، فالسارد خلال ذلك يعبر بضمير الجمع على أوضاع أمته تجاه هذا المحتل "لو أنصفتُمونا يا جيراننا الكولون وأعطيتُمونا نصف ما نأخذه بفرنسا لما رضينا بفراق أوطاننا وأهليتنا.. ولكن أنتم تريدون أن نخدمكم بثمانية فرنكية للعشرة سوائع مع ما نلاقيه من كثير منكم من أنواع الإهانة والعريضة التي تقتل الأهلي الغيور قبل أجله"¹³⁴⁹ فمثال فرنسا كان كمثال الحمّام الذي تتفاوت غرفه بدرجة الحرارة، وأدناها حرارة لافحة، وهو المفّر الذي كان يجد فيه الجزائريون ملجأً ومستقراً. حيث كان الجزائري يعيش الإنسان، لا يتعامل مع إدارة احتلال وجنود مجنّدة من العساكر الجائمة على رأسه، فكانت رسالة السارد واضحة وفارقة في التمييز "وستتعلم بفرنسا حرية الفكر ومعرفة الصنائع وفوائد الاجتماع واللغة لأن أناس فرنسا يعرفون حقيقة الإنسانية ويقرون بالجميل..¹³⁵⁰

والتنبه قائم على استشعار القارئ بأبجد الأمة التي قد لا تبدو في العين الحسّية بينما يكون فيها السارد مُعلّماً ومنبّهاً، وداعياً إلى استقراء التاريخ "وإياك أن تغتر أيها القارئ بأنه لم يذكر في هذا الوطن إلا رجال الفقه والأدب بل مرّ فيه رجال الطب والفلك والهندسة وأشباهاها فحول وهل من المعقول أن يتوالى عليه ملوك لهم عناية بالعمران يهملون تلك الوسائل التي لولاها لم يكن لهم ذكر في التاريخ ولكن الجمود والخمول والاهتمام بعد ذلك الزمان قضت على منابع

¹³⁴⁸ - من وحي البرلمان، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 15.

¹³⁴⁹ - الحياة في أوربا أو أوربا في الحياة...؟؟ مجلة الشهاب، مصدر سابق، العدد 52.

¹³⁵⁰ - المصدر نفسه.

حياته" ¹³⁵¹ والإقناع هنا مستمد من حرص السارد على الاستعانة بوسائل لغوية وأخرى أسلوبية، فيها قوة عبارة، مع تغليب الأساليب الإنشائية، للتأكيد بالحجة انطلاقاً من استقراء للتاريخ.

ولعل من أهم الصيغ التنبيهية النداء، الذي تقوم وظيفته على تويخ الذات حصيلة فقدان المجتمع لتوازنه، فالسارد كيان متفاعل ينقل همومه التي يتقاسمها مع متلقيه الذي يشاركه فيها، وأنه يعلم بأن الضرر حاصل لمجتمع وليس لفرد بعينه. فقد تضافرت قوى الشر على انهيار المجتمع المسلم من جهة عامة والجزائري من جهة خاصة يسجله السارد (الرحالة) حيث ناسب مقامه، فإذا كان العالم كله يُدرك أهمية التطور ويعمل بأسبابه، فإن المسلم أمامه كل معطيات النجاح وأسبابها بل حتى نتائجها المسبقة يملكها من عدة وجود ثقافية وعقدية، إلا أنه سجل على نفسه نقاط سوء جعلت الرحالة قائماً على هذه المفارقة متواصلاً مع شريكه في الهمّ "ومما يسجله المسلم بكل خجل عناية هؤلاء القوم بالنظافة.. فكأنهم الذين أمرهم دينهم بالنظافة وحثهم عليها دوننا أو كأننا تعاوضنا فأخذنا تعاليم دينهم التي أهملت هذا الأمر وأخذوا بديننا في هاته الناحية" ¹³⁵² وقد تجلّت نتيجة المقايسة أن سبيلها التويخ في الرحلة خارج الوطن التي يقف عندها الرحالة حدود كثيرة. في حين تصدّت الرحلة داخل الوطن إلى معترك الأخلاق المنهارة بسبب اللاوعي والانحراف والفساد العقدي "وقد توصل السفهاء بذلك إلى شتم الرب سبحانه وتعالى عما يصفون علواً كبيراً.. فأين النسبة الدينية للإسلام" ¹³⁵³ والسؤال هنا موجّه إلى مسرود له، له علاقة بالموضوع وهو قارئ ضمني يتعلق بكل من تربطه صلة بالإسلام، الذي -حسب السارد- بدأ يفقد عُراه، بسبب موجات وتيارات لا أخلاقية، تجنّد السارد من خلال ذلك لإيصال الهموم المشتركة إلى من يهمه الأمر. ثم سعياً لإبداء النصيحة، أو تزويد بمعلومات إيجابية أو سلبية عن صور مجتمعات الغير وعن مجتمع الرحالة داخلياً، فعندما تجوّب الرحلة داخل الوطن فهي تبعث برسائل تصف الحال وتكشف عن ضمير متألم.

ومن أبرز عناصر الوظيفة التواصلية الصبغة التعليمية، وهي قائمة كلما كانت لدى السارد حاجة، وتتم بطريقة مباشرة في مواجهة المرسل إليه باعتباره قارئاً، هذا الأخير يكون دائماً في حضرة السارد، فهو يتلقف ما يحمله النص من خطاب تعليمي، لذلك نجد السارد يحرص على الفكرة أن تصل للقارئ في صورة ناصعة، يبالغ من أجل ذلك أحياناً حتى يكون الخطاب خال من اللبس "وعلى كل حال فإننا نلتمس من القارئ أن يغض الطرف عما طغى به القلم أو حرفته الطباعة لأنه لا يخلو مطبوع من

¹³⁵¹ - الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 768.

¹³⁵² - فيشي، جريدة البصائر، مصدر سابق.

¹³⁵³ - سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق، مصدر سابق، العدد 34.

الهفوات لذلك تجد كثيرا من الكتب المطبوعة مذيبة بفهرست الخطأ والصواب ونحن لا نعتمد إلا على نباهة القارئ وحسن ظنه بهذا العبد والكمال لله وحده"¹³⁵⁴

والتعليمية بالنسبة للساد ذات دلالة ذاتية خاصة في الرحلة الداخلية فهي تختص في مقارعة الآخر ولو أن صبغة العلمية قائمة بكل مقومات الاستناد العلمي خاصة منهم الإصلاحيين الذين كانوا يدعوه في مشروعهم القائم على أسس فكان سواد حديثهم التوجيهي نابعا من واقع المجتمع سعيا لإبطال المشروع الطرقي، حيث يتبين من قول مبارك الملي: "فإن أصررتم على التلاوة لمعنى حسن كمجاملة ولي الميت فلا يجوز لكم الأكل من طعام فيه حق القاصرين، ولا يجوز لكم أخذ الأجرة لأنكم إن قرأتم للأجرة لم يكن لكم ثواب حتى تبيعوه، وعلى فرض أنكم تقصدوا الأجرة فإن حصول الثواب غير مستيقن حتى يباع، إياكم ومخادعة النفس لكم بأنكم تقرؤون لله وولي الميت يعطيكم لله، فإن الواقع أنكم لو لم تقرؤوا لم يعطكم"¹³⁵⁵ وهي دعوة تعليمية لتحقيق الفقه السليم والعقيدة الصحيحة، بينما يجري هذا ضمن نسق معين وهو النسق الإصلاحي.

كما أننا نسجل أن الغالبية من الرحالين كانوا صحافيين فلا بد أن مهمتهم تكمن في الإبلاغ عن مشاريع تربوية وتوجيهية تبث عبر هذه الجرائد والصحف التي كانت بنات حزبية وطائفية كل يسعى لإيجاد مسوغات لنجاح مشروعه وإعطائه الصبغة الصحية. وهي لا تخلو من تقارير أعمال كل حزب، فكانت تحمل مدلولاً آخر وهو الصلة بين القارئ والساد من خلال وسيط هو صاحب الجريدة "أرسل لكم أيها المدير المحترم بهاته الكلمات ورجائي فيكم وطيد بأن تنشرها لقراء جريدتنا (البلاغ) الغراء زادها الله عزة ورواجاً"¹³⁵⁶ كما أنها في عمومها تشكل درجة وعي وإشهار لخصوصية المجتمعات المزاراة الاثنوغرافية والحضارية، وهو انتقاء لمادة الحكاية المعبر عنها وإبلاغ بها القارئ، من أجل الإفادة عن المجتمعات المزاراة، وهذه الصفة تجلب دائما الخصوصية التي تتفق مع مجتمع السارد الذي يشترك مع المسرود له أو التي تختلف معه فتشكل مادة حكي إضافية ابتغاء التجديد أو التكرار للإفادة والتأكيد.

إن النتيجة التي نصل إليها هي أن الوظيفة التواصلية تقوم على الخطاب المباشر وغير المباشر، تارة نحو متلقى مماثل وأخرى مختلف، بيد أنها تستعمل فيها أدوات وآليات لغوية وإشارية وهي الصيغ الملائمة في التوصيل بالكيفية اللائقة تستعمل فيها الأفعال بكافة أزمنتها ففعل الأمر (اعلم - تأملوا..)

¹³⁵⁴ - الجواب عن أسئلة رحلة وهران، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 3451.

¹³⁵⁵ - تفقد الشعب "حياة الإصلاح في البلدان التي زرتها"، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 29.

¹³⁵⁶ - على الطائر الميمون، جريدة البلاغ الجزائري، مصدر سابق، العدد: 162.

ويتضمن النصح أو التحذير بالخطاب المباشر، والأفعال الماضية الدالة على التقرير وتأكيد المعلومة، وكذا المضارعة (أرسل لكم. نلتمس من القارئ. سنتعلم. ترعمون. تريدون..) وهي تدل على الانتباه واستمرارية التواصل، والمباشرة في التعليم أو التوبيخ والتفريع، أو الحث والتوجيه، كما تغلب الأساليب الإنشائية (كالأمر والنهي والنداء) وهي خاصة من خصائص التواصل، كما تقوم على الحجج والإقناع.

2 . 4 . الوظيفة الإيديولوجية والتعليقية

وهي الوظيفة التي يستخلصها السارد في الرحلة الجزائرية لنفسه، حيث إن السواد الأعظم منهم كان يلجأ إلى تيار يأويه، وليس من أحد منهم كان يعبر عن فكره الحر المجرد، بل هو فكر له انحراف في الجماعة يبوح به السارد لذلك كانت "الوظيفة الإيديولوجية تنفرد عن سائر الوظائف غير السردية بكونها لا تعود بالضرورة إلى السارد"¹³⁵⁷ وهي تحمل في طياتها توصيات الشخصية في رسائل سردية، أو إذا شئنا القول إن السارد متواطئ مع الشخصية. فالرحالة حيثما حلّ سيندفع بخلفيات تلون المرئي بمرجعياته السائدة، إيجابا وسلبا، وغالبا لا تعبأ بالتوظيف الإيديولوجي إلا مع سياق النص العام، حيث ليس في إمكان أي إنسان أن يعيش في غنى عن توجه معين، والكاتب هو شطر من هذا الإنسان لذا نعتبر على حد قول باختين أن "كلماته هي دائما عيّنة إيديولوجية"¹³⁵⁸ ومن خلال هذه اللفتة نفيد أن الإيديولوجية في حد ذاتها موقف يتخذه الإنسان في حياته يدلي فيه برأيه ويتعصب لموقفه، ويتحدى بصرامة الموجات المضادة من كل تيار.

إن الإيديولوجية نتاج خميرة توجه يغلب عليه الطابع السياسي الذي يتبناه الشخص لاعتقاده بأنه السبيل الأمثل للإجابة على إشكاليات الواقع الذي لا يرسو أبدا على مرفأ ساكن، ولو قدّم أمثل مشروع، ما دام أن البنية الفكرية في كل مجتمع تقوم على الاختلاف والتدافع، هذا ما عبّرت عنه الرحلة الجزائرية في هذه الفترة التي سادها التصعيد الاستعماري إيدانا بالقول إن الرحالين وُلدوا من رحم الصّراع فهي في أقوى ما تتميز به، النزعة الإيديولوجية، فمولد أي نصّ يندرج خلف مرجعية تاريخية وخلفية فكرية، وقد ساد النسق العام في هذا الجانب عن بُنى تقاطعت في أغلبها المواقف المشتركة عند كثير من الرحالين، تتم عنها جُلّ التصريحات منها والملمّح لها أحيانا. وفي ذلك يكون السارد في وضعية نفسية تجاه الشيء المراد بالسرد، فيصبح الشيء المعبر عنه خارجيا مجرد صورة بينما الملمّح الحقيقي لتلك الصورة هو إطارها الداخلي الملبّد بغيوم الخلفيات المسبقة.

¹³⁵⁷ - خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص 266

¹³⁵⁸ - ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، ط2، دار الفكر، القاهرة، 1987، ص 102.

وقد تغلّب الجانب العاطفي عند السارد في الرحلة الجزائرية، نتيجة ذلك وجسد خميرته الإيديولوجية في تعليقات هنا وهناك بداية مع جيل القرن التاسع عشر ثم مع طائفة من أجيال القرن العشرين الذين بدأ انحيازهم واضحاً لجانب المستعمر، فكانت كل الصّور عن فرنسا جميلة براقّة، ومبالغ في تصويرها، فهي "الدولة الفخيمة الفرانصوية المشهورة بالعدل والإحسان"¹³⁵⁹ ويصورها آخر بقوله: "هنيئاً هنيئاً لفرنسة التي هي أم الجزائر فقد زادها مر الليالي جدة وتقادم الأيام حسن شباب"¹³⁶⁰ أما رجال فرنسا الذين هم سادة وقادة ذوي هذا الاتجاه فتمثلت "حسب المراتب كالأسود الضارية"¹³⁶¹ فالسارد في هذه المقامات يتعامل بوجهين متطرفين إيديولوجيا، واحدا يتطرف لصالح فرنسا، كما ذكرنا، والآخر يتطرف ضد بلده الجزائر متعرضاً لها بالهجوم على أنّها بلد التخلف والبداءة والسذاجة "ويكفيك البعض منهم (أي العرب) يدخل الى دار الأبوقاط والواسطة كما ذكرنا ليتكلم في حُجّته، فاذا خرجوا البيت يلتمس أدرج السطح فيصعد معها عوضاً عن أن ينحدر من حيث دخل ، وهذا غلط فادح وغشامة وحشية حتى جرى بالألسنة لفظة (بيط) في حق العرب"¹³⁶² وقد سرّت هذه الروح في تعليقات كل رحالي القرن التاسع عشر بصريح العبارات، وامتدت عند بعضهم في القرن العشرين، في أغلبها تلميح.

ويتباين الموقف الإيديولوجي عند السارد في مرحلة كان فيها المدّ الشيوعي يرمي بخطوات عملاقة نحو كل الدول البائسة، حين نجد موقفين متباينين نعلم أن الصورة ليست هي الصورة الحقيقية، بل هي التي تبدو بمنظار المبتسر، فحين نجد السارد الأول يقول عن المجتمع السوفييتي "ولا تعجب إذا ما قلت لك إن لا وجود للمتسولين في تلك البلاد"¹³⁶³ نجد أن السارد الثاني وبالفترة الزمنية نفسها يقول العكس "صباح يوم 12 أكتوبر: جولة عامة في كامل مدينة موسكو الكئيبة، لم أر فيها إطلاقاً من يضحك أو يبتسم"¹³⁶⁴ فالسارد كان يُعبّر عن رؤيته من المنظار الذي يكتشف به، وليس ذلك المنظار بالنسبة للفريق المحبّد للشيوعية إلا من باب الظروف القاسية التي كان يعاينها الجزائري من طرف دولة رأسمالية، فمعطيات الظرف أسهمت بتكوين عقدة تجاه المعسكر الغربي، منحازا للمعسكر الشرقي الذي كان يقف مع المتضرّرين من الاستعمار والدول المنحازة، لذلك شكّل التيار الشيوعي نافذة الأمل

¹³⁵⁹ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 73.

¹³⁶⁰ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 60.

¹³⁶¹ - المصدر نفسه، ص 62.

¹³⁶² - المصدر نفسه، ص 67.

¹³⁶³ - عدت من الإتحاد السوفييتي، جريدة الشعلة، مصدر سابق، العدد 48.

¹³⁶⁴ - في موسكو، حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص 456.

التي كانت تَصُبُّ إليها الشعوب المضطهدة، فليس اللجوء إلى هذا التيار الذي نبذه طافحا في تعبير الساردين إلا وعيا منهم على تشكّل العدالة الاجتماعية، وليست عقيدة فكرية، وكل من مثل هذا الاتجاه إيجابا لا نبذه إلا يخصّ بلدان هذا الجناح بالصّرامة والجدد في العمل، وبدل الجهود المضاعفة في سبيل الرقيّ بمجمعاتهم، مثلما نقرأ في تعليقات (محمد الصالح رمضان) في رحلته إلى بولونيا، و(رضا حوحو) إلى الاتحاد السوفييتي ومراسل جريدة المجاهد إلى يوغلافيا وشذرات أخرت من رحلات مختلفة، بينما يتشكّل النقيض من ذلك في عقدة الشيوعية التي لم تكن إلا صورة من صور البؤس، عندما نقرأ لأحمد توفيق المدني الذي ترسّخت لديه عقدة الشيوعية، فهو لا يتصوّرُها من المكان ذاته، وإنما من فكره الذي استوعب معناها، وقد امتدّ هذا الفكر ليكون حاضرا معلّقا حيثما حلّت الفرصة محلّ الشاهد، مثلما يعلق على أحد المتتمين قائلا: "كان يجلس إلى جانبي رئيس حكومة ألبانيا الأمين العام للحزب الشيوعي فيها، الرفيق أنور خوجة، وحاولت الكلام معه، فإذا به ليس مسلما، بل شيوعي أحمر، من لون قان، ليس في فكره شيء إلا الشيوعية التي يجب أن تسود العالم، فتركته"¹³⁶⁵.

وفي كل الأحوال، يكون السارد إما في أحسن أحواله سعيدا مرتاحا فيكون خطابه معتدلا منبسطا يمدح الأشخاص ويصف الأمكنة ويطنب في ذلك. وإما أن يكون العكس فينقلب على عقبيه مستهجنا المكان قادحا الأشخاص مأثبا الضمير. فشخصية السارد هي التي تملي على عينيه صفة المسرود، فهي عينٌ للرضا وعينٌ للسخط، كليلة بما ترتاح له نفسيا متجاوزة كل عيب فيه، أما عين السخط فلا ترى إلا المساوي، فالسارد لا يقف على مستوى النقد، بل على مستوى الموقف. والسارد في هذا المستوى لا تهمّه الحقيقة بقدر ما هو مهتمّ بالجانب النفسي تجاه المكان.

نجد لذلك عدة أمثلة، فدمشق التي كانت في وفاق تام مع الجزائر يقول فيها السارد "كأنني والله حللت بالجزائر عندما وطئت قدماي دمشق. وجدت أهلها أهلي، ووجدت رجالها رجالي، ووجدت عاطفتها عاطفتي"¹³⁶⁶ بينما لبنان التي كان مسئولوها يتوارون عن القضية الجزائرية إبان مرحلة كفاحها من أجل التحرير فهي في نظر السارد "بلد المتناقضات، بلد المال والتجارة والكسب حراما وحلالا. وبلد الأديان المتنافرة باطنا، والمتسامحة ظاهرا، وبلد العفة والاستقامة، وبلد الخلاعة والانحلال الخلقي"¹³⁶⁷. أما على مستوى الأشخاص فأهل دمشق "تجلت فيهم الهمة

¹³⁶⁵ - في بلاد العمالة الصين، حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص 451/450..

¹³⁶⁶ - مؤتمر الخريجين (دمشق)، المصدر نفسه، ص 206.

¹³⁶⁷ - حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، مصدر سابق، ص 427.

والعزيمة والنجدة، فلا تكاد ترى في دمشق شيئا من عدم المبالاة أو من تجاهل لأي قضية عربية. وأهل دمشق معتبرون .. تنظر في وجوههم نظرة النعيم¹³⁶⁸ بينما أهل لبنان فيختصرهم في أشخاص بعينهم، وكل من جاء على لسان السارد فهو لا يرقى إلى النقد ما عدا أشخاص علماء محدودين، أما الموقف الإيديولوجي فيتجلى في تعليقاته على بعض الشخصيات كمفتي لبنان الذي يخصّه بهذا الوصف: "ثم قابلنا خشبة مسندة تدعى مفتي لبنان. كان يمتاز بصمته وبرودته، وبما يظهر عليه من لامبالاة مطلقة. وبسطت له وضعية الجزائر، فكنت كأني أخاطب أوثان الكعبة عصر الجاهلية. ثم قمنا للخروج، فودعنا بقوله: الله ينجح المساعي. وخرجنا لا نلوي على شيء.¹³⁶⁹ وهذا هو حال المدني الذي كان غارقا في الإيديولوجية تجلّت تعليقاته في كل ما يكتب عن رحلاته، يصف الذات إلى حد النرجسية، ويعلق على كل من له موقف من الجزائر بأقبح التعليقات، ويمدح المتعاطفين معها بأبلغ التقدير، فكان لاذعا جارحا حين يهجو وكان مبالغا في المدح حيث يرضى.

وقد كان السارد الإيديولوجي هو الإنسان الجزائري المدجج بعنفوان أوضاعه فكان يعبر عن مكبوتاته أينما حلّ وارتحل، إلا أن ميزة السارد في الرحلة الداخلية هيمن عليها طغيان الصراع، من حيث كانت في أغلبها ذات طابع حزبي سيطرت فيها الذاتية المحمّلة بعصبية التوجّه المفضي إلى وابل من التعليقات، وقد لخص (حمزة بوكوشة) كل معالم الصراع الذي كان متشكّلا .. ثم تكلم الشيخ عبد العزيز في ثلاث مسائل (أ) جمعية العلماء (ب) أذئاب الحكومة الذين ينتسبون إليها وهي بريئة من أفعالهم (ج) الطريقون وشرح المسائل الثلاث شرحا وافيا، فحث الأمة على أتباع جمعية العلماء وعدم الاكتراث بتهديد أذئاب الحكومة وتدجيلات الطريقين¹³⁷⁰

لم تكن الإيديولوجية إلا رائحة كريهة بين المتخاصمين، لذلك قد وجد كل سارد حين يمثل طائفته الانقضا على الطائفة الأخرى، وبالأخص بين الطريقين والإصلاحيين، فقد تكدّس طعم مسروداتهم الرحلية إلى حلبة من الصراع، فلم تكن خطاباتهم بريئة منذ الوهلة الأولى إلى آخرها، ومن بداية النص إلى آخره، وإن لم تكن صريحة فهي ضمنية تحمل همّ مشروع الحزب، أما الحركة الإصلاحية فقد أعلنتها صراحة يقول ساردهم: "ونشأت عن ذلك الشعور وتلك اليقظة حرب بين الحق وبين الباطل، بين الهدى والضلال، بين العلم والجهل، بين الشرك والتوحيد؛ بين الصلاح والفساد،

1368 - المصدر نفسه، ص 206.

1369 - حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، مصدر سابق، ص 428.

1370 - حمزة بوكوشة، وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بواد سوف ونواحيها البصائر العدد 95، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، الجمعة 12 ذي القعدة 1356،

الموافق ل 14 جانفي 1938.

ولا شك في أن العاقبة للمتقين، والغلبة للمهتدين والخيبة والندامة للمعتدين الظالمين¹³⁷¹ لقد لخص السارد خمسة بنود فاصلة بين الإصلاحيين والطرقيين، جعل محمودها لطائفته ونسب مذمومها لطائفة الطرقيين الذين جرّدهم من كل مكرمة، وتوعدهم بالهزيمة والخسران في مستقبل الأيام. كما لا تخلو سرود الإصلاحيين من التهجم على الطرقيين بشتى التعليقات عليهم بصورة سوداوية لا ترى فيها من بياض "الطائفة المتمردة التي لا تزال تلبس على الناس الحق بالباطل وتصور لهم العلماء الناصحين في صورة الزنادقة الملحدين، وتختلق من الثقولات والأكاذيب ما تعجز الأقلام عن تسطيره"¹³⁷².

وفي المقابل عبّر الطرقيون بالخطاب نفسه، وكان كل سارد منهم يعلّق انطلاقاً من موقفه الجماعي، فتعليقهم على كل مكان لا يستجيب لدعواتهم مردّه من دون شك إلى طائفة الإصلاحيين الذين سبقوهم بغرس مبادئهم لتصبح بذلك المدينة كما يقول قائلهم: "يسكنها أقوام يغلب عليهم حب الانكماش والاشمئزاز من الذاكرين الله وقد سيء ظنهم والعياذ بالله بالملتحين الذين يذكرون الله قياماً وقيوداً وعلى جنوبهم لأن تعاليم الإصلاح التي باضت وفرخت في عقولهم لم تسمح لهم بحسن الظن في سلف الأمة فضلاً عن خلفها"¹³⁷³ والسارد الطريقي لا يرى في ظاهرة الإصلاح التي انتشر سريانه واستأصل مفعوله، شيئاً محموداً، أو يحمل وجهات نظر مختلفة على الأقل، بل يعتبر أن المصلحين "خدعوا الأمة خداعاً تارة باسم الإصلاح وتارة باسم الدين الصحيح وتارة باسم الدعوة إلى الكتاب والسنة والكل عناوين مرماها واحد وهو تشكيك الأمة فيما عاشت عليه أربعة عشر قرناً"¹³⁷⁴ والمميز في الرحلة الداخلية أن السارد فيها لا تجد له من بصمة ذاتية إلا في ظلّ الإطار الجماعي، فالإصلاحي لا يرى إلا من زاوية المشروع مشروع، والطريقي لا يرى إلا من مشروع الانتقام الذي نهضت عليه وهو تقويض الإصلاح.

2 . 5 . الوظيفة الإستشهادية

يمكننا اعتبار الخطاب الرحلي كله مادة استشهادية من حيث إنه يعتمد كلياً على الواقع الجغرافي المخوّل بتبني كل نشاط إنساني تتشكّل عليه المجتمعات، وهو الدافع -أيضاً- على تشكّل التفاعل النصي، إضافة إلى المصدر الذاتي الذي يقوم على الذاكرة والعاطفة، المصدر الأساس لكل إبداع، ثم

¹³⁷¹ - علي مرحوم، انتصار الإصلاح في بلاد القبائل الحدراء، جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الأولى، (5 جمادى الأولى 1355هـ، الموافق لـ 24/ 7/ 1936).

¹³⁷² - انتصار الإصلاح في بلاد القبائل الحدراء، جريدة البصائر، مصدر سابق.

¹³⁷³ - شوامخ الجبال، جريدة لسان الدين، مصدر سابق، العدد 57.

¹³⁷⁴ - المصدر نفسه، العدد 58.

السند الإنساني القائم على السؤال والحوار وذكر للشخصيات الواقعية والتاريخية والسند التاريخي من مؤلفات أو أقوال خالدة لأبطال أو زعماء أو علماء ومفكرين، فالنص الرحلي يعدّ وثيقة بلجوئها إلى سند متين، وهو في حد ذاته يعدّ سندا ومصدرا ضمنيا.

ومما يمكننا أن نضمّه كملاحظة، وهو أن كثيرا مما هو في حقل هذه الوظيفة قد جعلناه ضمن عنوان سابق (أشكال استقبال السرد) وهي أيضا قد تتماس في كثير منها مع هذه الوظيفة، كونها تلتقي معها في المادة الأساسية التي يسردها السارد، والحديث التي جاءت بها. وإذا كانت تلك تعبر عن الرحالة عندما يكون مرويا له، فإنها إضافة إلى ذلك تكون بمثابة الوثبة السردية الحقيقية التي تشكل مادة الحكى، ذلك أن الوظيفة الاستشهادية قد تلجأ إلى الإسناد وإلى المراجع الذاتية والتاريخية والأدبية التي تعزز التواصل بين المكان والتاريخ (المرجع).

وتعتمد هذه الوظيفة بالأساس على المكان المسرود الذي يستلزم الوجود الواقعي مدناك (باريس - فرسوفيا - القاهرة - دمشق - فاس - طنطا - قسنطينة..) أو أماكن (جبال، سهول، وديان، أنهار..). وأهمية هذه الوظيفة الاستشهادية ليس التحقيق من المكان وعنه بل إلى إعطائه بعدا نفسيا أيضا، فالرحالة في وضعية اختيار لمواد مادته التي ينتخب منها ما كان ذا أهمية، لذلك كان المكان مستلزما تضافر أو تعاضد الجغرافية بالتاريخ، فالموقع المكاني جزء لا يتجزأ من مسافته الزمنية، مما يستدعي ألا يكون المكان مجرد جماد، بل هو يطفح بالخلود، وقائم على العبر والعضات، فكل مكان تتجسد عليه مجسمات وآثار، فهو يمثل السند في الإحالة التاريخية "موقع شرشال جميل، فهي تشرف على البحر وتستند إلى جبال بني مناصر، إلا أن مناخها ثقيل جدا مؤثر في الجسم ولاسيما في الشتاء، إذ تكثر فيه رطوبة الجوى. وهي بلدة قديمة جدا أسسها الفينيقيون في القرن الرابع قبل المسيح وسموها "يول". ثم وسع دائرتها وكبرها وجملها من بعدهم الأمير النوميدي يوبا الثاني وسمها "قيصرية" نسبة إلى قيصر روما حيث تربي ونشأ، واتخذها عاصمة لمملكته "موريطانيا"¹³⁷⁵ وهذه خاصية يستخدمها السارد في الرحلة الجزائرية، انطلاقا من تحديد الموقع جغرافيا ثم إلحاقه بنبذة تاريخية، والسارد في ذلك مندفع للسرد انطلاقا من بعد نفسي. فكلما كان المكان ذا أهمية تاريخية، يتوقف عنده السارد بالشرح، وهو ناتج من اعتزازه الذاتي كونه جسد الصورة الذهنية عن خلود المكان عيانا بأبعاد سياحية، مهما كان دافع الرحلة. وفي مثل هذه الوضعيات يكون السارد أمام سنيين؛ سند الرؤية، وسند التاريخ، فالجغرافية تلتقط المكان وتحدد مجاله وصفاته الآنية، بينما التاريخ تُحيل عليه الذاكرة الحافظة لسند المصدر التاريخي. السارد لا يذكر أمكنة تخطر على باله عشوائيا، وإنما يختصّ منها ما

رأى بعضها، وعلى حسب مقام المكان تتحدّد هوية السرد، ولعل رمزته أحيانا تجعل السارد لا يتدقّق في السرد، إذ يكفي ذكر الأسماء إن كانت جليلة وعظيمة في التاريخ الإنساني أن يتوقف عند ذكرها، خاصة الأنبياء منهم أو ما دونهم، إذ يكفي بثّ الاسم للدلالة على الشعور والموقف "أما الحرم الشريف الإبراهيمي فهو في مدينة خليل الرحمن حبرون ويوجد به ضريح سيدنا إبراهيم وزوجه سارة ونبي الله إسحاق وزوجته ريفقه ونبي الله يعقوب وزوجته لائقه وسيدنا يوسف. والغار الشريف وبه تربة الأنبياء وقدم نبينا ﷺ. والذي وضع الحجر الأساسي وأمر بتأسيس هذا المعهد العظيم، هو الملكة هلان أم كسطنطين"¹³⁷⁶ كما يمكن القول إن الرّحالة الجزائري في كثير من مواطن السرد لا يعتمد إلى إحالة ثابتة جليّة يمكن القارئ العودة إليها، بل يجعل من نفسه -هو- مصدر المعلومة لا غير "وبالقدس من السكان ما يناهز المائة ألف جلهم إسرائيليون وأما قرّاه فأهمها منشورية وهي تبعد عنه بثلاثة كيلومتر وسكانها كلهم يهود"¹³⁷⁷ فلا يقول لنا السارد - هنا- من أين أتى بمثل هذا الإحصاء. ولما كان السارد يعتمد على ذاكرته الخالصة فإنّه يسقط أحيانا في التخمين "الجامع الكبير ذو الأعمدة الرخامية البديعة التي ربما كانت أُخِذت من آثار الحمامات الرومانية"¹³⁷⁸ وهذا راجع إلى عدم استخدام المصادر.

وقد اعتمد سارد الرّحلة الجزائرية على الذاكرة والحفظ، والمشاهدات وما سمع، اعتمادا ذاتيا فكان ساردا آنيا يسرّد ما رأى معزّزا ذلك بما سمع ومحिला إلى مرجعيته الثقافية والمعرفية، راضحا لهويته وخلفياته، فكان لا يكثر في سرده عن الأماكن بالعودة إلى التثبّت من وثائق ومصادر تخص موضوعه بل كان هو الوثيقة وهو المصدر، إضافة إلى روايات أصحاب المكان الخبراء به. وإذا كان هذا مطلقا، فإن هناك إشارات تُحيل على أن السارد قد اعتمد على بعض أقوال السابقين من العلماء، كاستشهاد مبارك المليبي بقول (ابن قيم الجوزية) "ولا بأس أن نقل كلمة ها هنا لابن القيم بيانا لمأخذنا فيما أفطينا به، قال في أعلام الموقعين: "والناس لهم قولان: أحدهما أن القراءة لا تصل إلى الميت، فلا فرق بين أن يقرأ عند القبر أو بعيدا منه عند هؤلاء، والثاني أنها تصل، ووصولها فرع حصول الثواب للقارئ.."¹³⁷⁹ وعلى الرغم من أن قول ابن القيم ثابت في كتاب معروف ومتوفر، فإنه كذلك يحمل الاحتمال على أغلب الظن أنه من حفظ السارد، كما هي عليه المحفوظات من قرآن كريم وحديث نبوي شريف، اللذان نجد من آيات وأحاديث متناثرة بقوة عبر أرجاء النصوص، بالإضافة إلى

¹³⁷⁶ - رحلة السيد عمر ابن جيكو، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 537.

¹³⁷⁷ - المصدر نفسه.

¹³⁷⁸ - حركة جمعية العلماء بعمالة الجزائر، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 150.

¹³⁷⁹ - تفنّد الشعب "حياة الإصلاح في البلدان التي زرتها، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 30.

الشعر القديم، باعتباره من أهم موضوعات التعليم التقليدي الذي قامت عليه منظومة التربية والتعليم آنذاك.

ولم يكن القرآن الكريم سندا تاريخيا فحسب بل هو يمتد في أحيان كثيرة إلى الإحالة على الإعجاز من فرط ما يعبر عن صدمته النفسية تجاه ما يرى الرحالة من مستحدثات تفوق الخيال، يكون في ذلك السارد أمام استسلام إلى منطق الإعجاز الذي باستطاعته ألا يقبل بالحلول العاجلة، ثم يفتح عينين ليرى ما نطق به الحق من قبل قرون طويلة خلت، قد بصمت اليد البشرية شيئا من نبوغ إعجازها، وفكّت ما يماثل أُلغازه، فلا يجد في ذلك السارد إلا القرآن الكريم عزاء وسندا "هذا ومن تأمل في القرآن الكريم يرى آياته الباهرة إعلامنا بأربعة عشر قرنا أمرا لم يدركه الفطاحل إلا في القرن الأخير وهو أن العقل البشري حدا لا يتعداه في أبحاثه وأن في الكون أشياء تحقق وجودها مع عجز العلم الإنساني على إدراك كنهها ولنا في الروح أبهر مثل ألا ترى أنه مضت على البعث في ماهيتها قرون عديدة والعقل لا ينفك راجعا بخفي حنين حتى انصرف العلماء عن نفس هذا البحث إلى معرفة انفعالاته التي تدلنا على وجودها وفي هذا أكبر معجزة يشبها العلم للقرآن إذ جاء مصدقا لوقاه تعالى ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ ولقوله تعالى ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾¹³⁸⁰

ومثل ذلك تحقق في الشعر كما في المثل والحكمة والأقوال المأثورة كلها، وما دام أن الشعر يغلب كنسق ثقافي عند السارد في الرحلة الجزائرية فإنه كان دوما يمتثل في الخوض عن كل مناسبة موالية إلى الاستشهاد بالشعر سواء أكان ذلك سَوْفًا لحكمة أو تقريرا أو لبعد جمالي كما نقرأ لابن صيام الذي يرجع إلى وصف البحري في دمشق حين رأى ملامح الصورة بباريس تلامس معالمها في نصّه الشعري، فاستشهد قائلاً: "ولما رأيت تلك الأشجار والأنهار، وكذلك الظل والأزهار تذكرت قول البحري حين وصف مدينة الشام".¹³⁸¹

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد أوفى لك مطربها بما وعدا

إذا أردت ملأت الطرف من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

يمشي السحاب على جبالها فرقا ويصبح النبت في صحرائها بددا

¹³⁸⁰ - رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 1300، الأربعاء 28 ذي الحجة 1350 الموافق 4 ماي 1932.

¹³⁸¹ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 32.

فلمست تبصر إلا واكفا خضلا ويانعا خضرا وطائرا غردا

الفصل الثاني

الرحلة

التبئير ودينامية السرد

1. نظام السرد

1.1. السرد

يختصّ السرد في الخطاب الرحلي بطبيعة خاصة تمتح من طبيعة الرحلة ذاتها، وهي التي تقوم على إعادة إنتاج الفعل إلى خطاب مع الحفاظ على الزمن والمكان والشخصيات. ومن هذه الثوابت تتمخض خطابات ذاتية وموضوعية ناسجة أحداثا واقعية لأشخاص واقعيين، وفي زمان ومكان واقعيين أيضا-. توافقا مع نمط السرد الذي ينزع إلى نظام السرد الذاتي (subjectif) حيث "نتبع الحكمي من خلال عيني الراوي (أو طرف مستمع) متوفرين على تفسير لكلّ خبر: متى وكيف عرفه الراوي أو المستمع نفسه"¹³⁸² خلافا لنظام السرد الموضوعي (objectif) الذي يكون فيه "الكاتب مطلعا على كل شيء، حتى الأفكار السرية للأبطال"¹³⁸³ فالأول ينشئ بناءه وفق محصول فعل السفر، أما الآخر فيتأثت حسب مستلزمات الديكور المفترض، لأن الأول ينطلق من واقع والثاني ينطلق من تخيل مسبق.

وعلى الرغم من تباين في الرؤى حول ما انتاب الرحلة من إشكالية في التجنيس، فإن هذا لا يعدم القول بأن الرحلة تميزت وانفردت عن سواها من مجموع الأعمال الأدبية سواء ذات الأعراف التقليدية أو المستحدثة، وأهم ما يميّز جنس الرحلة عن غيرها من الأجناس أنماطها التي تُشرف على عمليتها السردية.

ولا شكّ في أن الرحلة كعمل فني لا تستطيع القيام بإنتاج خطاب إلا بقوامة عناصر معرفية وفنية شتى، مشكلة بذلك بنية توليفية، ليست مخاضا تسفر عنه الرحلة فقط، وإنما تفرضها طبيعة الرحلة ووسائلها، فتصبح بذلك الرحلة كإطار لبنية سفر تخطط كل هذه العناصر لتتربّع على عرش نصّه مدعية في الأخير الإمارة الإجناسية. بالإضافة إلى أن الرحلة كدرجة ثانية تُسفر عن مخاض فكريّ موجّه من قبل ما تحمله الذات الراحلة من نوازع وشجون، ومن مواقف وإيديولوجيات فـ "السفر، إذن، لا يرادف فقط تعاقب الأفعال والأزمان، ولا يقتصر على انتقال الأبدان والأوطان، بل إن السفر يتجاوز ذلك، ليصبح بنية جاذبة لكل الخطابات السائدة في الرحلة"¹³⁸⁴ وبين ما تحقّقه الرحلة كنتيجة نمطية وما تسفر عنه من خلفيات، يقوم الخطاب الرحلي على بنية سردية بين العلم باحتمالاتها والجهل بحيثياتها،

¹³⁸² - حميد الحماداني، بنية النص السردية، مرجع سابق، ص 46

¹³⁸³ - المرجع نفسه، ص 46

¹³⁸⁴ - الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر - مستويات السرد-، مرجع سابق، ص 152.

والسؤال دائما يكون، كيف جاء هذا التقرير عن السفر؟ وماذا يحمل من خطابات؟ وإلى أي مستوى يتأسس آفاق نصه؟

1 . 1 . 1 . طبيعة السرد

يظل الاعتراف الذي بَرَمَ لأجله النص الرحلي عقده الإجناسي يمارس الوصاية على طبيعة عمليته السردية، ليس هذا فحسب، بل لا يستطيع الخطاب الرحلي أن يحقق هذه الصفة إلا عبر هذه الطبيعة. وإذا كانت طبيعة السرد في الخطاب الرحلي تستمد إجراءاتها من فعل الرحلة ذاته، حيث يخضع الخطاب إلى تحويل أهم محطاته بتقديم مسافات العبور في معالم انتقائية حسب ما يبدو للرحالة أنه قد يفيد بالجديد أو التشويق، فإن هيمنة بنية السفر سبيل لا مفرّ منه للتخطيط السرد للرحلة، وهي بنية نمطية تؤهل النص إلى تمييزه كجنس أدبي مستقل. وإذا كانت هذه البنية مستمدة من مراحل¹³⁸⁵ يقوم بها الرحالة كفعل تضيف إليها عناصر¹³⁸⁶ النص المختلفة لتخطيطها في شكل سردي أثناء الكتابة.

فلا شك أن هذه البنية النمطية خلّفت شرحا كبيرا عند بعض الباحثين، حين واجهوا نصوصا غير مكتملة أحيانا، جرّاء بتر إحدى عناصرها البنيوية، هذا التشويه الحاصل، لم يُفقد الحياة في الرحلة ولم يُنقص من قيمتها كنصّ يمتاز بالخصوصية ذاتها، ما دام أن هيمنة بنية السفر لا تزال تشدّ بيديها وتؤطر النصّ كلّه. ومن هنا ندرك أن النص الذي اعتمد مقياسا للتمثيل صالح لأن نقيم المعيارية من خلاله على النصوص الحالية التي أحدثت فيها فعل الزمن بعوامله، فصيرها خاضعة لروح العصر الذي أصاب الخطاب الرحلي في خصوصيته النمطية، ففي كل الأحوال هو يمتح من مسالك الطريق، فمثلا، حين أصبحت وسيلة السفر سريعة ومريحة، فإن ذلك إيدان على إقصاء كثير من سرود الرحلة التقليدية، مما يؤثّر سلبيّا في سردية (الذهاب) التي كانت تشكّل إحدى أكبر أركان السرد في الرحلة القديمة، حيث كانت تشهد على تفاصيل معاناة الرحالين في الطريق، وتحكي تفاصيل الأحداث والمحن ورفقاء السفر ومعالم الطريق المبتوثة بالمخاطر والهواجس التي تجعل من السرد يطغى عليه عامل المغامرة. أما اليوم فتشكّل مرحلة الوصول أهم محطة سردية باعتبارها يبت القصيد. ممّا جعل الكثير من رحالي العصر الحديث يدخل في موضوع دافعه الرّحلي مباشرة، وإذا ما خاض في سرد الذهاب فلا تربو عن

¹³⁸⁵ - من المراحل الكبرى التي تعتمدها فعل الرحلة (مرحلة الاستعداد للرحيل، مرحلة الذهاب، مرحلة الوصول، مرحلة العودة)

¹³⁸⁶ - بالإضافة إلى المراحل الكبرى التي تعتمدها فعل الرحلة أثناء الكتابة، تضاف إليها العنوان والمقدمة والاستهلال المطعم بدافع الرحلة، العناوين الفرعية والخاتمة التي يقدم فيها العبرة المستفاد منها في هذه الرحلة.

ومضة تقفز به من هنا إلى هناك دون تفصيل لأن التفصيل قد اختزله عامل التكنولوجيا الذي أرغمه على الاستقالة.

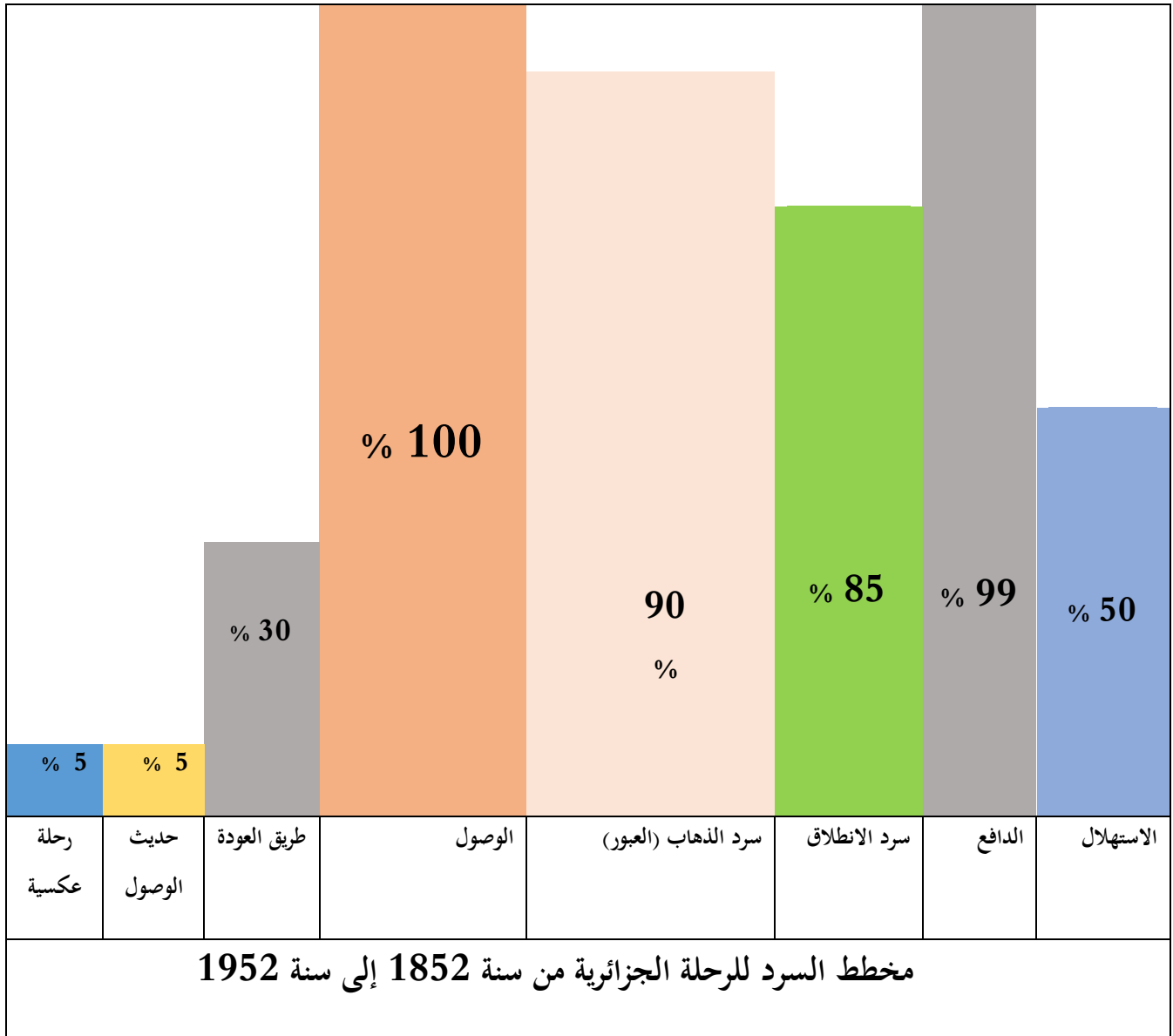
إننا إذ نتطرق في حديثنا عن الرحلة الجزائرية الحديثة لتتعرف على تفاصيل طبيعة السرد فإننا بادئ ذي بدء نعرض هذا الجدول الذي يبين إحصاءً بالنسب لمحطات السفر في سرد الرحالين:

نسب تقريبية لطبيعة السرد في الرحلة الجزائرية الحديثة

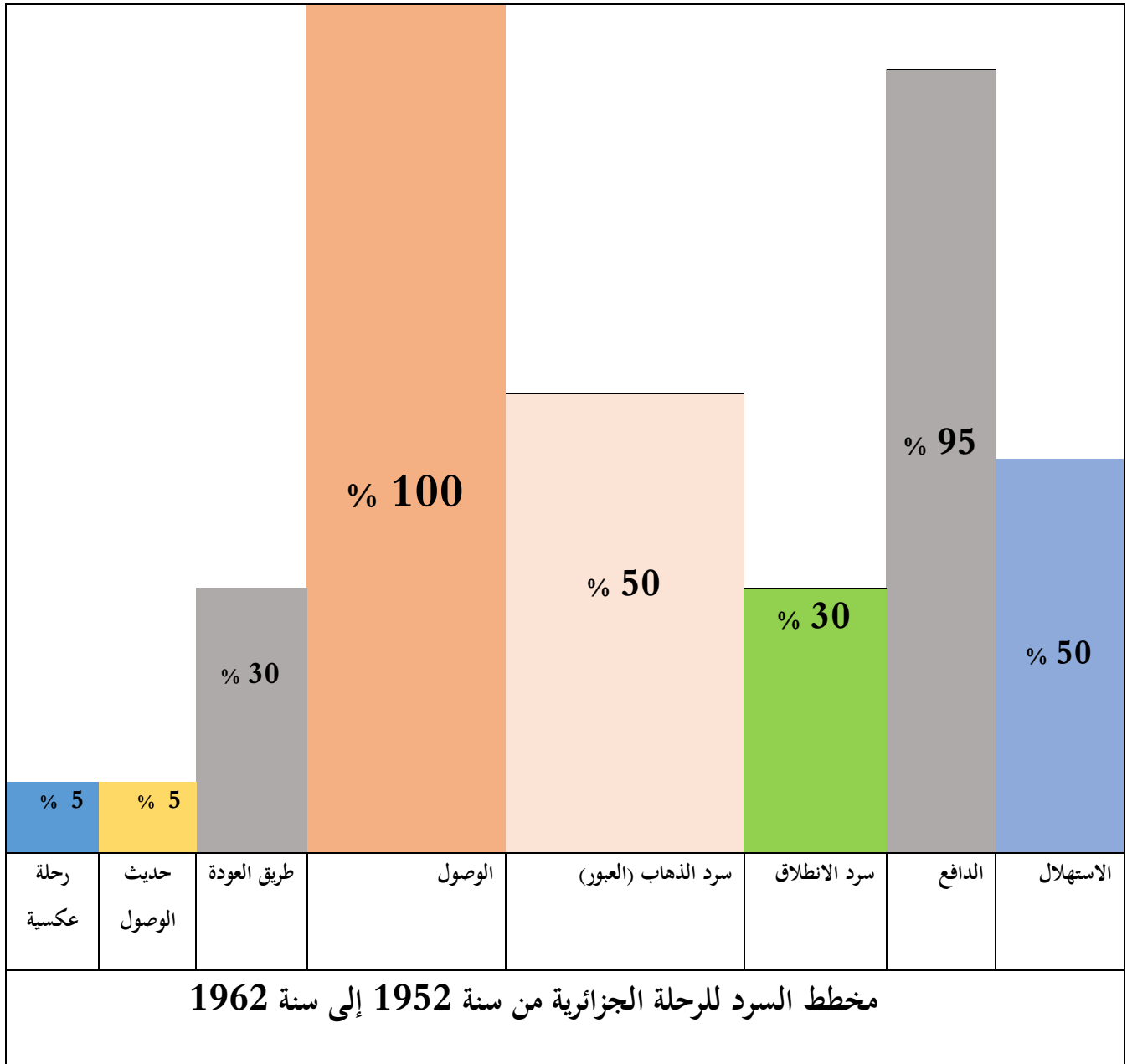
الاستهلال الدافع	سرد الانطلاق	سرد الذهاب الوصول	طريق حديث رحلة	العودة الوصول عكسية	الوصول عكسية
50 %	99 %	85 %	90 %	100 %	50 %
					5 %
					5 %

نستفيد من الجدول أعلاه في تحديد نوعية السرد التي اعتمدت في نصوص الرحلة الجزائرية الحديثة، لكن هذا غير كافٍ لتحديد طبيعة السرد التي لا يهم عدد احتمالاتها في الورود بقدر ما يهمنا طول النفس السردية في كل مرحلة من مراحل الخطاب، ومنه نستمد خصوصية السرد وطبيعته.. يبد أن المطلع على المنجز الرحلي الجزائري -هذا- يدرك أن العملية السردية تجاوبت مع سياقها التاريخي، وخضعت لتفاعله، لذلك نجد رحلات قرن من الزمن (من 1852 إلى سنة 1952) ساد فيها الغلبة لسرد الذهاب، وسرد الوصول، وقد تباينت وتيرة هذين النمطين تارة للذهاب وأخرى للوصول، بينما عادت الكلمة في الأخير للذهاب، نتبين هذا في الجدول الآتي:

جدول 1: حجم حصة السرد لكل مرحلة من مراحل الرحلة



أما بخصوص المرحلة الثانية فقد عادت الكلمة لسردية الوصول، نبين ذلك في الجدول الآتي:



إن طبيعة السرد التي تمخّض عنها هذا الإنتاج ينمّ عن مستويين من نمطي الرحلة. المستوى الأول والذي دام زمنا طويلا يغلب فيه سرد الذهاب بما يقتضيه من مهل الحركة في السفر التي ينجم عنها تمعّن في ملامح الحياة والطبيعة والناس، كما أنّها رحلات متقصّية لدواعي اتجاهات أصحابها، خاصة في الرحلات داخل الوطن التي كانت تتجاوزها أطراف من تيارات شتى، خصوصا الإصلاح والطرقية، هذان التياران كان في الغالب برنامجهما في الرحلة دائريا، أي تبدأ لحظة الوصول مقرونة بالذهاب، لأن رحلتهم - خاصة الإصلاحيين - كانت تتسم ببرنامج عمل يزاوله الرحالون من نقطة الانطلاق، فمثلا في سنة 1927 يوم كانت فكرة الإصلاح إرهابا، يخرج ممثل جريدة الشهاب (عبد الرحمان الحسيني) فلا تفرّق نصّه بين سردية الذهاب ولا سردية الوصول، ففي أول حديث يدخله بالقول: "كانت أول

خطوة بلدة الحروش، ذات الأراضي الخصبة، والمياه العذبة، لولا أن جل أهاليها معذبون، لا ناقة لهم فيها ولا جمل"¹³⁸⁷ يفصل فيها حديث يؤس أهاليها ثم ينتقل إلى البلدة الموالية: "سيدي مزغيش هو حي وسط البادية تؤمه الناس مرتين في الأسبوع للسوق، ومعظم سكانه فلاحون"¹³⁸⁸ وهكذا تتوالى أحاديثه عن أحوال البلدات التي زارها. بل حتى ابن باديس نفسه ومبارك الملي والفضيل الورتلاني وهم من أهم زعماء الحركة الإصلاحية، وأردافهم مثل: حمزة بوكوشة وأحمد حماني وعلى مرحوم وعبد اللطيف سلطاني وغيرهم، على نفس الشاكلة تدور سرودهم الدائرية، حول أعمال الجمعية وأحوال الإصلاح بالبلدات المزارة وأوضاع أهاليها ومدى تقبلهم للأفكار الإصلاحية. ومثل ذلك فعل الطريقون.

بينما الجدير بالتسجيل أن الرحلات التي لم تحمل همّ الخلاف والصراع، قد توازن فيها السرد، وشقّ مجرى طبيعيا وصار يتنامى مع تنامي امتداد طريق السفر، فكان من يريد التعبير عن قضية تهّمه أو لها بعد وطني أو أخلاقيّ يمتح من الطريق سوانح مختلفة، وهو ما عزي "عمر بن قدور" -مثلا- إلى عنونة محطة سردية بـ "سانحة الطريق"¹³⁸⁹ وهي الرحلة التي أرغم فيها العملية السردية باستهلال عن طبيعة مراده الذي سوف يكون للسرد جواز لهذا المحتوى، مثلما أكدّه: "وبالفعل ركب متن القطار البخاري الذي قمع شوكة المشقة وأذهب بُعد الشقة ثم ميّلت مرآة الضمير لقبول جميع العرى الأخلاقية التي تصادفها"¹³⁹⁰ ولم يأت الحديث عن مدينة قسنطينة، وهي المقصودة في الرحلة، إلا بعد عرض شافٍ عن مقتضى حال الرحالة عبّر مطية سفر الذهاب، التي تعدّ أهم نوافذ معراج البوح أو تمرير رسائل تعليمية أو تروية.

وإذا ما قابلنا رحلات (إسماعيل مامي) في هذا الشأن فإننا نلفيه في رحلته نحو الغرب الجزائري يحتل بمحراب السرد في مدخله دون استئذان "دخلت قرية عمي موسى التي كنت تركتها بالعام الفارط في ضيق عظيم ومسغبة كبرى كانت وطأتها خفيفة وعاقبتها حسنة بوقوف حاكم الممتزجة النشيط وأعوانه الحازمين"¹³⁹¹. أما في رحلته بالجنوب الشرقي يعيد للحياة السردية اعتبارها "في

1387 - تأملات مسافر، مجلة الشهاب، العدد 108، السنة الثالثة، (الائتين 5 صفر 1346هـ/04-08-1927).

1388 - المصدر نفسه.

1389 - سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق، مصدر سابق، العدد 22.

1390 - المصدر نفسه.

1391 - على جناح السفر، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 571.

جانفي الفارط صوّبنا وجهة سفرنا نحو الوطن القبلي فنزلنا بطريقنا في عين مليلة وباتنة ومنها ذهبنا إلى سريانة ثم عين التوتة والقنطرة وفي جميعها قابلنا أهاليها الكرام بمزيد الحفاوة"¹³⁹².

أما المستوى الثاني فهو الذي سائر مرحلة الثورة التحريرية، جاءت فيه سردية الوصول تشكّل أكبر نسبة تحقّقها الرحلة الجزائرية الحديثة، وهو ما يفسّر طبيعة الرحلات التي كانت - في أغلبها - ذات مبدأ قصدي، بمعنى أنها كانت تتقصّد بلوغ هدفها، المتضمن لهما ضمنا يوحى بأن الرّحّالين -جلهم- وظيفيون يتبنّون أهدافا معيّنة، وهو ما حدث بالفعل لأن وتيرتها تعاملت مع الثورة التحريرية التي كانت في مرحلة إسعاف تقتضي حركية لجبر وتغطية كل أحداث الفترة من وجهة مستعجلة، فلم يكن سرد الذهاب يعني أي شيء، خاصة وأن رحلات هذه المرحلة خصّصت بالاتجاه خارج الوطن، لأن داخله لا يملك من نفسه إلا الخلاص من أزمة الحرب التي أشعل فتيلها المجاهدون الجزائريون، بينما كانت الدول العربية ساحات للسفر من أجل التشاور والإعانات المالية والمعنوية والإمداد بالسلاح.، بالإضافة إلى وسائل النقل التي صارت في هذه المرحلة طائرات فلا تمنح للرحالة مسافة للحديث عن تجربة الذهاب، ولا هو في سعة من أن يفتح مجالها، وقد كان من يشكّل هذا النموذج غالبا الرحالة (أحمد توفيق المدني) الذي ينقلنا مباشرة إلى داخل قصر ملك، أو بيت سلطان، أو مقرّ رئيس، ومنه تشكّلت تفاصيل الحكاية في وعاء الوصول.

1. 1. 2. البنية الزمنية

الزّمن وحدة الوجود التي تنظّم عملية الاستمرار في نظام الكون. والزّمن كيان غير ملموس الحسّ ولكنه بالغ الأثر في استمرارية الحياة، وتعدّ عملية إدراك الزمن عملية وعي جدّ حسّاسة لذلك كان التفاوت في إدراكه بين الناس، وإذا كان الأديب أو الكاتب على دراية تامّة بقضيّة الزمن فإن ذلك نابع من إدراكه لقيمة الأعمال المبدعة التي لا تخرج عن غطاء الزمن الذي يتشكل في كل أحداث الحياة، فهو يشكّل حضوره المستمر سواء أدرك الإنسان ذلك أو لم يدرك. إذن، الزمن حكاية وجودية مستمرّة دون انقطاع، يجتري منها المبدع ما يصلح له في تغطية مساحة معينة من حكايته المحدودة، يغدو فيها الزمن "بمجرد حقيقة سائلة لا تظهر إلا من خلال مفعولها على الشخصيات والمكان، والزمن هو القصة وهي تتشكّل، وهو الإيقاع"¹³⁹³.

وإذا كان مفهوم الزمن سواء على المستوى الفلسفي أو الأدبي تتشعب فيه المفاهيم، فإنه لا يمكنه في الأخير المروق عن تصنيف ثلاثي: زمن طبيعيّ وزمن أحداث وزمن لغويّ. قد يكون هذا التصنيف

¹³⁹²- جولة نائبنا بالوطن القبائلي، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 179.

¹³⁹³- سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية "دراسة لثلاثية نجيب محفوظ"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1984، ص 27.

معزواً للنقاد الغربيين وعلى رأسهم (إيميل بنفينيست) (E. BEN VEN VENISTE) يوضح ذلك (سعيد يقطين) حين يحدّد مفاهيم هذه العناصر التي تقتضي معنى للزمن الطبيعي وهو الزمن الفيزيائي للعالم، باعتباره زمناً خطياً مستمراً، والذي يقابله عند الإنسان فيما هو مرتبط بالمدّة المتغيرة، التي يقيسها كلّ فرد حسب أحاسيسه وانفعالاته وإيقاع حياته الداخلية أما زمن الأحداث هو ما يقابله عند الإنسان من متواليات للوقائع، فهو مطابق نفسيّ ما دام أنه يستجيب للوقائع¹³⁹⁴ من رؤية فلسفية للكون، أما الزمن اللغوي فهو زمن لسانيّ مرتبط بالكلام أو اللّغة ووظيفته خطابية تستند إلى رؤية العوالم الزمنية من زمن ثابت هو الحاضر، ذلك لأن الحاضر هو أساس كل التقابلات الزمنية للغة، ومنه يمكن أن نلمس حدثاً غير مع

اصر للخطاب، وهذا ما تستدعيه الذاكرة ولحظة يكون الحدث غير متحقق الحضور فيها¹³⁹⁵.
وقياساً على هذا نسجل جملة من الأزمنة في الخطاب الرحلي الجزائري الحديث، ولكل نوع منها درجة من الدلالة.

1 . 1 . 2 . 1 . الترتيب الزمني / التشكيل الميقاتي للزمن في الرحلة

1 . 1 . 2 . 1 . الزمن الطبيعي / التزامن

يُتوخّى من الزمن الطبيعي في الخطاب الرّحلي تقديم النص وفق مجراه الطبيعي الذي توالى فيه حركة خط السير (من / إلى) وهي العملية المنطقية التي يفرضها توالي الأحداث عبر سلسلة من الوقائع والأفعال، بصيغ تنمّ عن حدث وقع أثناء عملية السفر، وهو زمن الحكاية التي ترابطت أجزاءها وفق نمط محدّد لحكاية إطار قائمة على التواتر.

من هذا الجانب نلفي الرحلات الجزائرية الحديثة تؤطر نصوصها بشبكة من الأحداث المنطقية وفق زمن طبيعيّ وموضوعيّ، يتحدّد بموجبه فعل التاريخ للمرحلة التي كُتبت فيها، سواء أكان ذلك على مستوى الزمن الصريح (المعلن) أو الضمني الذي يستند إلى مرجع زمن تأريخ الكتابة، خاصة منها المدوّنة بالجرائد والصحف. وتشكل إما بذكر التواريخ على هيئة يوميات، أو باستخدام أدوات الربط بين الأحداث على سبيل المواصلة في سردها، بداية بالأفعال "خرجنا" - "غادرت" - "وصلت"، وتأتي باليوميات على سبيل التقرير.

¹³⁹⁴ - ينظر؛ سعيد يقطين، قال الراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997، ص161.

¹³⁹⁵ - ينظر قال الراوي، مرجع سابق، ص162.

كما أنها تقوم على الأدوات والأفعال على سبيل الإخبار والمقايسة، فيتوزع الزمن بين الواقعي والمرجعي، فحين يقول أحدهم: "قضيت في قسنطينة سبعة أيام فلم أسمع فيها صغيرا أو كبيرا يشتم الدين الحنيف جهارا. وفي العاصمة أسمع في كل لحظة الكبير والصغير والرجل والمرأة والبدو والحضر يشتمون الدين شتما فظيحا"¹³⁹⁶ فإنه يجعل عملية توزيع الزمن بين قسنطينة، (أيام معدودة) والجزائر (زمن مطلق)، وهي ليست مقارنة طبيعية زمنيا، بينما يفيد توظيف الزمن في الرحلة دائما على هذا الشكل، للتمني لو يصبح مجتمعه المحلي بهذه الصورة المبتورة من احتمالات عدّة، لعل أبرزها هو ما رأى وسمع على الأقل. والرحالة يكرّر الاستعمال الزمني نفسه "أقمت في قسنطينة سبع ليال لم يقع نظري فيها على سكير يعربد في الأسواق وإني في العاصمة أبصر كل وقت السكارى المعربدين يأتون جهارا كل منكر ويتظاهرون بكل فسق"¹³⁹⁷ إن مقارنة عمر كامل بسبعة أيام ليست عدالة في شيء، بينما يجيزها الرحالة كحالة نفسية ينهض من خلالها إلى كشف عامل الضجر الذي يعانیه في مجتمعه المنحلّ أخلاقيا. إن صورًا أولية عن أي مكان مزار بإمكانها تأويل الزمن من خلال مرجعية الرحالة في القيام بالمقارنة التي يخالفها متساوية، بينما الانعطاف عن المستجدّ الذي يفسر الاختلاف بصورة كبيرة بإمكان الرحالة التعويل عليه كقياس لمرحلة عمرٍ مديدٍ لأن الصورة تحمل عناوين المغايرة كمفتاح لفك شفرات الصورة المرجعية إذا كانت قائمة.

وقد كان للجرائد دور كبير في اقتطاع الرحلة جانبا من قضية الزمن الطبيعي، مفضية لذلك على التقرير الذي ساد فيه التبليغ الآني، حيث لم تكن الرحلة تُكتب بعد انقضاء وقت طويل، فكانت تأتي سريعة عقب انتهاء الفعل، وتارة أثناءه على شكل رسائل. وإذا كان لهذا الزمن دور في تحديد المدة (زمن الرحلة) وما يترتب عليها من سياقات تاريخية تؤرّخ لهذه الفترة، فإنه في الآن نفسه يمثل زمن التجربة والإدراك.

والزمن الطبيعي هو الذي يفعل السرد ويدفع به من الثبات إلى الحركة، في تعقيد يؤسس إلى درجة السرد من وتيرتها العادية إلى عنفوانها، ومن ثم لبلوغ أهداف مرجوة.

ويتفشى فعل الزمن في بدايات الحكاية الرحلية، من نافذة العمل الإجناسي الذي يريد الرحالة أن يربط القارئ من أول الكلام على بنية السفر التي تستند إلى خلفيات تشويقية، ثم تأتي المتواليات من التقرير والإخبار فيصبح الزمن داعما ومشاركا طبيعيا لتأشيرة المرور من محطة إلى أخرى، تستخدم

¹³⁹⁶ - سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق، مصدر سابق، العدد 41، الجمعة 20 محرم الحرام 1332 الموافق 1913/12/19

¹³⁹⁷ - سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق، مصدر سابق، العدد 38 الجمعة 28 ذي الحجة الحرام 1331 الموافق 1913/11/28

حسب تقنيات الكتابة، منها ما يكون على سبيل المراحل، ومنها ما يكون على سبيل اليوميات التي تتقصد تقسيم الرحلة بحسب أيامها لحاجة في نفس الكاتب وأسلوبه في التعبير.

أ . زمن ابتداء

وهو الذي يترتب عنه بداية الحكيم، يأتي ذكره بتحديد تاريخ الرحلة بداية من الاستهلال، كميثاق يضعه السارد بينه وبين متلقيه لبرجة إطار الحكاية العام، وشده بمثبت زمني خاص يبقى مرجعا للأحداث طيلة مسافة الحكاية. وتغدو الرحلة الجزائرية الحديثة مُتخمة بهذا الفعل¹³⁹⁸، اعتمده جلّ الرحالين، بداية من أول رحلة لابن صيام في قوله: "وركبت من مليانة دار السكن، إلى الجزائر الغراء حماها الله يوم 23 من أبريل اثنين وخمسين وثمانية عشرة مائة و تاريخنا في هذا الكتاب كله التاريخ المسيحي"¹³⁹⁹ ثم تليها رحلة ابن قاد "إننا ركبنا البحر من مرسى الجزائر في غرة شعبان المطابق لشهر غشت 1 سنة 1878 في جماعة من أعيان العرب قاصدين المدينة العظمى باريس"¹⁴⁰⁰ ثم رحلة الفقون "شرعنا في السفر يوم 12 من سبتمبر سنة 1901 واجتمعنا يوم 13 منه في حاضرة الجزائر"¹⁴⁰¹ وإننا إذ نعتدّ بهذه التقنية كنمط سائر بين كتّاب الرحلات الجزائريين المشار إليهم في القرن التاسع عشر، فإننا نلتمس جديدا في تقنية استخدام هذا الزمن الابتدائي مع رحلات القرن العشرين، حيث نجد أن بعض الرّحّالين قد ركّز إضافة على الزمن اليومي تحديدا لضبط الوقت بالساعة والدقيقة، وهو الأمر الذي لم يردّ قبل رحلات هذه الفترة، فمثلا نجد في رحلة الزاهري بصيغة: "في اليوم التاسع من شهر أفريل 1927 على الساعة الثالثة مساء ركبنا من بسكرة بسيارة الأستاذ الفذ. الشاعر المبدع. والكاتب الكبير. الشيخ محمد الأمين العمودي. وكنا أربعة"¹⁴⁰² ونجد أيضا في رحلة الأزهري قوله: "قمنا برحلة ابتداء من يوم الأحد 12 جوان على الساعة 10 و 20 صباحا على الخط الحديدي المخترق لبعض المدن من المقاطعة الجزائرية مثل (البليدة) و(مليانة) و(الأصنام)"¹⁴⁰³ والشيء نفسه يتكرر أيضا مع رحلة سليمان الصيد في قوله: "وفي صباح يوم الأربعاء 8 أفريل 1953 على الساعة السابعة تحركت السيارة

1398 - وهو سبيل نمطي استخدمه أغلب الرحالين السابقين بداية من عصورها الذهبية إلى يوم الناس هذا.

1399 - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 25.

1400 - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 51.

1401 - المصدر نفسه، ص 75.

1402 - وفد الشعراء يزور طولقة - فرفار - البرج، جريدة البرق، مصدر سابق.

1403 - المولود بن محمد الأزهري، رحلتنا إلى المقاطعة الوهرانية، جريدة الصديق، العدد 38 يوم الاثنين 13 ذي القعدة 1339 الموافق

لـ 18 جويلية 1931.

وكانت الأناشيد بنغماتها الجميلة تجوب الآفاق¹⁴⁰⁴ وإذا كانت هذه العروض مجرد أمثلة، فإنه يجدر بنا أن نؤكد بأن أغلب رحلات القرن العشرين جاءت على هذا النحو. ونحن لا نملك تفسيراً قاطعاً وحيحة دامغة لهذا الاستعمال، بيد أننا نخالها عائدة إلى الحرص على الزمن من طرف المجتمع ككل، حيث وقر تطور العصر استعمال الساعة اليدوية التي شاع آنذاك وشكل موضحة، وهذا مجرد تخمين لا نملك له تفسيراً مضبوطاً، والأهم من ذلك أن العملية السردية استندت إلى هذه التقنية المفيدة من الناحية التاريخية في استعمالاتها، كما أن الزمن السردى لا يمكنه أن يؤثر فيه سواء أكان هذا الاستعمال أو ذاك .

ب. الزمن التقريرى/ الإخبارى

وهو الزمن المواكب لحظّ سير الرحلة الذي يلجأ فيه الرّحّالة إلى التقرير عن رحلته المشروطة بالزمن، وهنا نجد أن الرّحّالين يعمدون حين اللجوء إلى بثّ خطابهم الرحلى إلى مستويات تُعبّر عن طرق معينة يصيغ من خلالها نمطا معيناً في توظيف التقنية الزمنية، فهو مرهون بتقدير الرحالة.

فأغلب الرّحّالين يستخدم الزمن الاعتبارى الذي ينزوي إلى ظلّ لا شعور، فيأبى استخدام الزمن استناداً إلى أفعاله الضمنية مثل (مكثنا، لجأنا، واصلنا، وجدت حادثاً، واستأنفت سيرها..). وهي الأفعال الدالة على الحركة التي تستلزم الزمن، إلى جانب ملامح الزمن التصريحية مثل: (وما هي إلا لحظات حتى..، وقد صادف يوم قدومي..، أقلتني صباحاً سيارة..، في ذلك اليوم.. وهلم جرا). وهذا الزمن الاعتبارى يأتي في موجة سياقية من أجل استئناف السرد وتتميم حركيته التي تريد الوصول إلى هدف مضمونى، حيث يعدّ الزمن رُكناً مفصلياً في حكايتها، ومن خلالها يؤدي كل فعل زمنى دوره في الحكاية لمعرفة خصائص الرحلة وضروبها، ومجالات خوضها في صراعات مع الطبيعة ومع الحياة عامة، أو المحافظة على سيرورة الخطاب المرتبط ببنية السفر، من أجل متابعة حكايتها التي ترتبط منطقياً بالزمان والمكان، والرّحالة لا يحرص على بثّ الزمن لذاته، بل يستعمله فيما يتوجب أن يؤدي به سياق الخطاب المبرم عقده مع بنية السفر المسندة إلى تشكيلة زمنية، والزمن هنا لا يتحدّد بالترتيب المتساوي في ميقاته، بل ما يتضمّنه من وظائف مرجوة من دوافع الرحلة ذاتها، وهذا النمط في الاستعمال الزمنى كتقنية اعتبارية هي الغالبة في النص الرحلى الجزائرى الحديث.

وإلى جانب الزمن الاعتبارى، هناك الكثير من الرحلات التي يعمد أصحابها إلى التحيين اليومى، ومنه، فقيمة فحوى الرحلة لا يكمن إدراكه في تسلسل المضمون وإنما في التسلسل الزمنى، إن استعمال

¹⁴⁰⁴ - سليمان الصيد، رحلة مدرسية، جريدة البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد 234، الجمعة في 15 شوال 1372هـ (26 جوان 1953م).

هذه التقنية في التشكيل الزمني عند الرّحّالين ليس مقتصرًا على الرحّالين الجزائريين ولا بدعا منهم، بل هي خاصية أخرى في استعمالات الكثير من الرّحّالين قديما وحديثا، وهي تأتي على شكل "اليوميّات"، يروي فيها الرّحّالة تفاصيل يومية عن رحلته. ففي رحلة عدة بن تونس نجده يبعث رسائل يومية لجريدة البلاغ يحدّد فيها أحداث كل يوم يمرّ عليه، وابتداء من يومه الأول، يقول: "خرج الفلك "آسيا" من مدينة عنابة يوم السبت بتاريخ 19 ذي القعدة على الساعة الثانية عشر نهارا متوجّها على بركة الله إلى فتحة سعيد أي "بور سعيد"¹⁴⁰⁵ وهكذا، إلى يوم الوصول الذي أسدل فيه الخطاب بقوله: "وفي يوم الثلاثاء الموافق (30) من ذي القعدة، رفعت السفينة لواء الدولة السعودية على الديار الإسلامية بمدينة جدة"¹⁴⁰⁶.

ويُعدّ (عمر بن جيكو) من أبرز الرحّالين الجزائريين الذين اعتمدوا على تقنية التزمين اليومي، إلى جانب (محمد الساسي بلحاج الزقيمي السوفي) في رحلته "مشاهداتي في الجزائر" وقبلهما (الشرشالي) في رحلته إلى الحجاز. ولعلّ بن جيكو يُخصي لنا الأيّام وتواريخها بصورة جليّة، يبدأ كل تاريخ بزمن الانتقال من مدينة إلى أخرى، فإذا بقي في مدينة أيّامًا فلا يذكر من ذلك الزّمن شيئًا، بل يصبح الزّمن عنده اعتباطيا، حتى إذا شقّ الطريق باتجاه مدينة من المدن المقصودة، فتارة نجده يلحق اليوم باليوم، مثل قوله: "غادرت جنيف يوم الجمعة 22 جليت متوجّها إلى بلدة "انسي"¹⁴⁰⁷ ثم في اليوم الموالي يقول: "ويوم السبت الثالث والعشرين حلّلت بمدينة إيكس ليان"¹⁴⁰⁸. ويدل هذا على أن الزيارة كانت خفيفة، ليس فيها ما يدعو إلى المقام. وتارة نجده إذا أقام طويلا في مدينة، ياعد الزمن بين الأيّام، مثل قوله: "يوم فاتح أوط غادرت ديجون ميمّا مدينة باريس الذائعة الصّيت المتوجّعة بإكليل الفخار"¹⁴⁰⁹ إلى أن يغادر هذه المدينة فيقول: "في اليوم السادس والعشرين من شهر أوت غادرت باريس متّجّها إلى بلجيكا"¹⁴¹⁰ وبين اليوم الذي وصل فيه إلى باريس واليوم الذي غادرها يقدر بستّ وعشرين يوما، بما يعني أن هذه المدينة التي أقام فيها هذه المدّة، مدينة هامة، قد استهوتها فأطال بها المكوث. ومنه يمكننا القول بأن الأيّام التي يعتمدها الرحّالون في ترتيب يومياتهم، قائمة على

¹⁴⁰⁵ - على الطائر الميمون، جريدة البلاغ الجزائري، مصدر سابق، العدد: 165.

¹⁴⁰⁶ - المصدر نفسه.

¹⁴⁰⁷ - رحلة السيد عمر ابن جيكو، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: عدد 540

¹⁴⁰⁸ - المصدر نفسه.

¹⁴⁰⁹ - نفسه.

¹⁴¹⁰ - نفسه.

التدبدب بين طول المدة وقصرها، وهو ما يميز قيمة الزمن من خلال قيمة ما يمنحه الزمن من أهمية مادية.

1 . 1 . 2 . 1 . 2 . التشكيل الميقاتي للزمن المتشظي في الرحلة

أ. أ. الاسترجاع

يقسم الباحثون "الاسترجاع" في العمل السردي (الأدبي) إلى قسمين كبيرين¹⁴¹¹: قسم يتعلق بالاسترجاع الموضوعي، وآخر بالاسترجاع الذاتي، وهذا يعني أن السارد في عمله السردى قد يحيل تقنية الزمن إلى حدود تاريخ حياته المحدودة بمسافة زمنية معينة والمحطة التي يطأها الاستدكار، فينبش تلك الذاكرة كمعادل لبؤرة الالتقاط (بالنسبة للعمل الرحلي)، محصورة بأفق تاريخي محدد، هو تاريخ حياة الرحالة، وما ترتب عنها من استجماع لتراكمات بسيطة ومركبة، تستحق التذكير واللجوء إليها من أجل الذكرى والسلوى. أما الجانب الموضوعي فيكون الاسترجاع فيه إلى زمن مفتوح يستند إلى تاريخ معين بضبط معرفي خاص، كاسترجاع ذاكرة الزمن التاريخي للأندلس بالنسبة للرحالين الذين يزورون بلاد إسبانيا (اليوم)، أو أثر من آثار التاريخ الإسلامي والبشري، أو الآثار والمعالم المقدسة وغيرها، وهي "تقوم على الأفعال الافتراضية التي تتعلق بشخصيات خارج مجهر السرد"¹⁴¹². هذا الحدث تفرضه طبيعة الإنسان باعتبار أنها طبيعة تكوينية تكتسب المعارف وتراكم القضايا والأحداث، في مجمع حافلٍ من مختلف شؤون الحياة، ما تعرض له هو شخصيا في مسيرته، أو ما استفاد منه من معارف خاصة وعمامة من خلال روافد عديدة ومختلفة، يُعدّ سجلاً مرجعياً كامناً في أغوار النفس، يعتمد كمؤشر لإحالات نفسية مزاجية أو انفعالية، حين تفاعله بالقضايا والأحداث الناجمة عن حركة الحياة الدائمة حسب ظروفه وأحواله. في صورة تلقائية تتدفق بالحياة عبر قنوات التذكر أو الحلم أو الحوار الباطني من خلال الإحالات المطابقة، متفقة مع بؤرة الالتقاط حسب الحدث أو المشهد. ويشكل بذلك الماضي بؤرته الزمنية.

وكل ما خاض فيه الرحّالون الجزائريون في هذا الشأن، يكاد يكون من الجانب الذاتي محصوراً في جوانب بسيطة من بعض النصوص، خاصة منها التي تسعى إلى المقارنة بين هنا وهناك، من حيث التفاوت خاصة رحلات القرن التاسع عشر التي حاول فيها الرحّالون الاعتبار، تجدهم من حين لآخر يشيرون في بعض إشارات طفيفة إلى ما خلفوه وراءهم من مستوى ثقافي. في حين أن رحلات القرن

¹⁴¹¹ - ينظر -مثلا- عواد علي، تقنيات الزمن في السرد القصصي من زمن التخيل إلى زمن الخطاب، الأديب المعاصر، بغداد، ع

(44)، 1992، ص 31.

¹⁴¹² - المرجع نفسه، ص 31 .

العشرين، تحيل على ذلك بالرجوع إلى المستويات الأخلاقية أو الاجتماعية التي تعيد الزمن إلى الوراء القريب فتشرع في سرد ملامح بيئة الرحالة التي خلفها وراءه. والرحلة الجزائرية دائما تبحث من خلال الاسترجاع الذاتي إلى استظهار المستوى العام للأمة، والوقوف على أهم قضاياها، وتشريحه من أجل تشخيص الداء، والاستئناس بالعزاء على ما هو عليه واقعهم، إذ ليس هناك من أمور مستحسنة. فالجانب الديني متدهور وكلما أتى اللحظ على مجتمع متدين كلما عاد الرحالة إلى حديثه عن مجتمعه المحسوب على زمن رجعي مثلما نجده في رحلة الغسيري لمصر. والمستوى الثقافي والعلمي والتفتح الحضاري غير قائم له قائمة، لذلك يلجأ الرحالة حين معاينة الشعوب المتطورة إلى خوضه في تشخيص أمراض أمته، وإحالتها على البوح، يحدث ذلك كثيرا في الرحلات نحو أوروبا. وإذا تنفس الفضاء الذاتي من هذا الجانب من قناتمه فهو يقوم في أبسط شيء على المقارنة المتكافئة من ائتلاف الأمكنة كالذي نجده في قول أحدهم: "إذا وجدت شيئا في يوغسلافيا قد ذكرني ببلادي تذكر الشبه لا يذكر المقارنة العكسية فهو ما وجدته في متحف الثورة بمدينة "توفوزيتشي"¹⁴¹³ وكل هذا مرتبط بطبيعة المكان المحيل على الاسترجاع سواء أكان ذلك متعلقا بالمحلي أو العالمي، فهي لا تخرج عن كونها عالما مشتركا، فكل مكان يحمل في طياته شيئا من تفاصيل الذكريات يمكن للرحلة أن يذكر ذلك كجرد تاريخي التماسا للعبارة، خاصة إذا تقارب زمن الأحداث وارتبط في جانب منه بقضايا لا تزال حية في ذهن الرحالة، ولا تزال مخلفاتها تشكل حدثا، كالحرب العالمية الثانية التي خلّفت آثارا جسيمة في العالم، فزيارة الرحالة لإحدى معاقلها يثيره الحديث عن الزمن المسترجع، ومن ذلك بلاد (النمسا) التي خصّها الرحالة (محمد الصالح رمضان) بهذا القول: "وهي التي احتلها الألمان ثم أرجعها الفرنسيون ويقال أن كل مقدار سانتيم من مساحتها أصيب بـ 23 قبلة مدفعية. وبها حصون تبعث على الدهشة والحزن معا، حصون ويا لها من حصون!"¹⁴¹⁴.

ولم يكن الاسترجاع من الناحية الموضوعية ليختلف كثيرا عن صنوه الذاتي، فهو في الأخير هموم ومستويات جعلت من الرحالين يطرقون باب الزمن الماضي لاسترجاعه سلوى لهم وعزاء، في مقارنة بين الآن الذي أصبح فيه المسلمون تقذفهم رياح الغلبة الغربية، وبين يوم كانوا أسيادا يقودون العالم، يلاحظ ذلك من خلال ما يجده من تطور الغرب، فيتأسفون على ماضيهم بالتنويه لأهم محطاته، جبرا لانكسارات شوّهت جسم الأمة، ففتحت نافذة على جسور الماضي استئناسا وعزاء، إن هذه الصورة الذهنية لا تفارق المسلم اليوم، يراها في نفسه كل لحظة، وعند كل مشعر، لحظات يحييها المكان الدال

¹⁴¹³ - جزائريون في يوغسلافيا، جريدة المجاهد، مصدر سابق، العدد 105.

¹⁴¹⁴ - رحلة السيد عمر ابن جيكو، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 543.

على ما خلّده، لأنهم خلّدوا فعلاً، صرحا حضاريا قائما متروكا بين دفات الكتب، وبقايا من شموخ العمران الموشوم في كل ريع من المعمورة "ما هو في الواقع شاهد حي بليغ الدلالة على أنهم كانوا رجال علم ومدينة وحضارة"¹⁴¹⁵ يرى في جانبها الشامخ هذه القوة الحضارية كمقياس للشموخ والرفعة والأخذ بالأسباب في سبيل العلم والمجد. كما ترى في زعمائها الشاخنة مقاماتهم الاستذكار للبطولات والنصر المؤرّر الذي عجزت عنه الأجيال الحالية حين تكررت عليها الهزائم، فولّت إلى غابر مجدها يوم كانت العزائم، في إشارة زمنية يرجعها صانعها إلى لحظتها التاريخية، لتستنشق عبقها من خلال الوقوف على قبر زعيم كصلاح الدين الأيوبي الذي تستجمع فيه الصّورة المخيالية أسطورة القوّة والسّلاح الفتاك في زجر المعتدين، لتلجأ المخيلة تلقائياً إلى زمنها الأول مسترجعة زمن الانتصارات "وتشرفت بزيارة ضريح البطل الأكبر صلاح الدين الأيوبي الذي أنقذ فلسطين والشام من أيدي الصليبيين سنة 585"¹⁴¹⁶ لتبقى دائماً أضرحة الأبطال صورة محيلة بالضرورة يستثمر فيها الرّخالة معلوماته وشجونه وعواطفه بالعودة إلى زمنه الذي كان فيه عزّه ومجده "فيزيد في قيمة المدينة الأثرية، ويضفي عليها حلّة من الجلال والجمال"¹⁴¹⁷.

ومما يحيل عليه المكان الموحى بتاريخه الممتد، أنه بقدر ما امتد إلى الوراء فهو يفسح المجال للزمن الاسترجاعي، هذا ما تحيل عليه الآثار الباقية والمدن الخالدة والمقامات المقدسة في إعادة الحفر في تجاعيد التاريخ للعبور والعضات، وتأسيس قاعدة من المجد على ساحته، وكل مكان له من المرجعية التاريخية بحسب أول زمن بدأ عدّاده، منه ما يمتد إلى غابر الأزمنة، فذاك مؤهل لتستمرّ على تعاقبه الحضارات والأمم كمدينة تنس (الشلف) التي يتحدّث عنها الرحالة أحمد قصبية: "تنس كشرشال فينيقية أولاً ثم صارت رومانية ثم بيزنطية ولا زالت بها على شاطئ البحر قبور فينيقية ضخمة، منحوتة في الصخور وبقايا سور قديم، وقد ضمّها الأمير عبد القادر إلى مشمولات إمارته .. ولم يفتحها بيجو إلا سنة 1843م"¹⁴¹⁸ ومنه يتخذ الرّخالة لنفسه قوة ذاتية مستشعرا وعيا من خلال الزمن المعنوي للمكان الواقعي، التي تحيل عليه بعض أمارات الزمن فيعيد استرجاع ذلك الزمن لأبعاد نفسية استقراءً للماضي، حسب قوة وشساعة الثقافة التي يحملها الرّخالة، لتوجيه منطقته حول عظمّ الذكريات التي يحملها المكان والذي بدوره يحوّلها إلى زمان للعبرة والموعظة والتّقد وتطعيم الشعور بالوجود الإنساني الوجداني.

¹⁴¹⁵ - صالح غزال، في مدينة فاس، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، العدد 121، الإثنين 12 شعبان 1369 الموافق 29 ماي 1950.

¹⁴¹⁶ - رحلة السيد عمر ابن جيكو، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 537 - الأربعاء 6 رجب 1346 الموافق 30/12/1927

¹⁴¹⁷ - في مدينة فاس، مصدر سابق.

¹⁴¹⁸ - حركة جمعية العلماء بعمالة الجزائر جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 149، الإثنين 25 جمادى الثانية 1370، الموافق لـ 2 أفريل 1951.

وبعدّ الزمن الاسترجاعي في حدّ ذاته ثقافة وتوجّه يحيل فيه كل مكان عن صفة يحملها تتطابق مع مرجعية وتوجّه الرّحالة فتسفر عن استخراج وكشف هويّته وثقافته وتوجّهه، فإذا كان أديبا تستدعيه شخصيات صنعت حدثا بذات المكان الذي هو بؤرة للحديث، وإذا كان مؤرّخا خصّ المراحل التاريخية أو فيلسوفا وفنانا مُبدعا إلا وآثر هؤلاء بالحديث عن أزمنتهم المختلفة، وهي ظاهرة ثقافة توحى بالانبساط والوعي الثقافي لدى كل رحّالة، ليس في ذلك ما يمكن ما يستثنى، بل حتى من صنع هذا المجد بأوروبا اتخذ منه الرّحّالون موقفا كحديثهم عن "روسو، جاكوبيكر، واستقرار الأديب الفرنسي فولتير بها"¹⁴¹⁹ وبالبلاد العربية كان الأدباء والعلماء.

كما أنه بالنسبة للرحلات الحجازية لا تقوم مشروعيتها إلا إذا استندت إلى سند زمنيّ يعود إلى عهد النبوة، أو إلى التواجد الإبراهيمي، "هكذا أراد الله عندما أمر نبيه إبراهيم ببناء البيت الحرام بواد غير ذي زرع ويؤذّن في الناس بحجه فيأتوه رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق"¹⁴²⁰ فالرحّالة يفتح سجلّ التاريخ ويروي الحادثة، أو يقصّ المعاناة، ويحكي باقتضاب أو بإطناب مسيرة الورود والأشواك في سبيل نشر الهداية المحمدية، وإلا ما استشعر الرحالة بقيمة هذا الفصل من رحلته القدسيّة التي يغمره فيها المكان المثبّت بالقيمة الزمانية التي ترتبط دلالتها بالتاريخ، لأنّها قضيّة استرجاع حول الزمن المركزي وهو زمن قدسيّ ليس للتاريخ من سبيل للإتيان بمثله، تتطلع إليه كل معاني السمو الروحي وتشربّ إليه الأعناق شوقا ومحبة، مجازا إلى الرؤية الخالدة في وجه الحبيب ﷺ .

ومما يفصح عنه الزمن الاسترجاعي -أيضا- مواكبة كل تطور وقياسه بما يطابقه في الأزمنة السابقة، فيقف الاسترجاع شاهدا ومعترا بالفضل الحضاري وتحيين القيم من زمان إلى زمان، ليس مقارنة بين هنا وهناك أو الآن والآخر، بل ذلك متعلّق بتطور الإنسانية جمعاء، فيؤخذ الزمن الاسترجاعي كزمن للذكرى عن مصاعب الحياة وشقاء الإنسان، في مقابل الزمن المعيش الذي يواكبه الرحالة، فإنّشأته الاسترجاعية مبعثها إلى ما حقّقه الإنسان من إنجاز، خاصة الفعل التكنولوجي الذي بصم سيطرة كلية على الأذهان وأجبرها على التسبيح بحمدها، بعد أن أزاحت كل أشكال الغبن عن الإنسان، فالآلة إجماع بشقائه في الماضي، ووسائل النقل إجماع بمعاناته في قطع المسافات، وهذا الزمن غير محدد بتاريخ بينما هو زمن تخميني متشظي، يحيل على الماضي المطلق.. "وأرخي العنان للقطار فصار ينهب الأرض نهبا ويطوي المسافات طيا، فذكرت في التو الأبعاد التي كان يقطعها الآباء

1419 - سوانح و ارتسامات عابر سبيل، مصدر سابق، ص 105.

1420 - الطاهر بوشوشي، ارتسامات وذكريات عن الحج والأماكن الإسلامية المقدسة بالحجاز، جريدة النجاح، السنة 29، العدد 3744، السبت 01 ذي الحجة

1368 الموافق 09/24/1949.

والأجداد قديما على الإبل والخيل وعلى البغال والحمير في الصحاري القاحلة والأراضي الموحلة، قبل أن يظهر القطار والسيارة والطيارة، وما كان يقاسيه الإنسان في تلك الأزمان من أتعاب ومشاق في السفر الشاق، ومن ذلك حجاجنا إلى الأراضي المقدسة في تلك العهود التعمسة¹⁴²¹.

أ.ب. الاستباق

يتعلق الاستباق في الزمن السردى حول "حدث لم يتحقق في مجرى السرد بعد"¹⁴²² يورده السارد باعتباره حدثاً "ينتمي إلى مجرى السرد أو القصة ولا يتجاوزها أو عن إطارها الحديثي"¹⁴²³ ومثلما هو عليه في الاسترجاع، يقسم الباحثون الاستباق إلى ذاتي وموضوعي ويعني بالأول: "الاستباقات التي تتمثل في أفعال ذاتية تتعلق بشخصية السارد داخل مجرى القصة"¹⁴²⁴ أما الآخر فيعني به "الاستباقات التي تتعلق بأشياء خارجية لا تتعلق بالشخصية الساردة"¹⁴²⁵ وفي كلا الحالتين يعتبران إخباراً بعدياً¹⁴²⁶ كما أنه يتوزع بين داخلي وخارجي، أما الداخلي فيكون إما تكميلياً تتجسد في وعودٍ يعد بها السارد قارئه، يهيئه لانتظار وعده الحق الذي ستسفر عنه أحداث الحكاية من خلال إيعازات إشارية، كميثاق للوعد. أو استشرافات¹⁴²⁷ تنبئ عن أحداث متوقّعة داخل المتن دون أن يتعداه، قد نجدها في غضون ظرف قد يقصر أو يطول. وأما الاستباق الخارجي فهو يتجاوز المتن، أي مرتبط بمصير الفكرة عند السارد وليس مرتبطاً بأحداث الحكاية.

وإذا كانت حصة الاسترجاع في الرحلة الجزائرية أكثر من حصة الاستباق فإن ذلك تفسيره يعود إلى الظروف التي ألمت به وصيرته يبحث عن مجده من خلال ماضيه المشرق، أو إلى رثاء حاله الذي استقرّ على المعاناة والبؤس. في حين كانت العزائم والطموحات والأمل تطفح من حين لآخر كفسحة أمل لاستشراف مستقبل أفضل.

لقد كانت طائفة رحالي الإصلاح أكثر المبادرين بهذه الخاصية الزمنية فكثيراً ما كانوا يبشرون بالتفاتات تحيل على بصيص من الأمل والرجاء في سبيل غد مشرق، وهي نتيجة توقّعات استشرافية.

1421 - سوانح وارتسامات عابر سبيل، مصدر سابق، ص 87/88.

1422 - جميل شاكر وسمير المرزوقي، مدخل إلى نظرية القصة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص 76.

1423 - ينظر: محمد سويرتي، النقد البنيوي والنص الروائي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1991، ج2، ص 63.

1424 - تقنيات الزمن في السرد القصصي، مرجع سابق، ص 31.

1425 - المرجع نفسه.

1426 - تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 77.

1427 - يطلق عليها حسن بحراوي الاستشرافات التكميلية، انظر حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص 132..

كان ذلك يحدث كلما حدث التجاوب بين رجال الإصلاح وجمهور الشعب الذي كان يستقبلهم في تنقلاتهم، ولعل العمل الذي كانت تقوم به هذه الطائفة كان مشفوعا بزمن مستقبلي أحسن، فلولا تلك الرؤية لما كان ذلك الجهد المضني في السفر والمذاكرة "كنت أذكرهم بهذا كله وأقرأ على وجوههم سمات القبول والإذعان، وأنا على يقين من بقاء أثر نافع لذلك بصدق وَعَدِ قوله تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾¹⁴²⁸ لقد كان اعتقادا يقينيا بأن المستقبل سيكون مشرقا لذلك سَعَت من وراء هذه الجدوى الزمنية أملا في تحقيق المبتغى، فهيأت له العمل الحثيث والخطوات الثابتة، لأن الرؤية الاستشرافية يكون عملها بطيئا وناجعا.

وعندما نتفحص نصوص كل من الإصلاحيين والطريقين من باب الزمن الاستباقي، فإننا نجد أن الإصلاحيين كان لهم مشروع واعٍ بمستقبل صافٍ، بينما لا نجد في نصوص الطريقين كثيرا من هذه التقنية لأن الطريقين كانوا يعانون من الزمن الآبي الذي أصابتهم فيه ظاهرة الإصلاح، فباتوا يبحثون عن الحل الآبي في مواجهة هذا الخصم المرعب. وفي سبيل ذلك كان الزمن الاستباقي أحيانا عكسيا، بمعنى أن كل طائفة كانت تتوقع فشل الطائفة الأخرى فكانت نبوءة الطريقين ألا ينجح الإصلاح، وكانت نبوءة الإصلاحيين أن لن تقوم للطريقين قائمة، كما كانت نبوءة الجزائريين ألا يبقى الاستعمار وأن شمس الاستقلال في الجزائر ستنتشع.

بينما الرحلة خارج الوطن، فقد جاء فيها الزمن الاستباقي نتيجة انحراف عن جملة المرئيات والحوارات المختلفة، في مقابلتها للصور الدائمة المحتفظ بها كمرجع، وهي تعبر عن مخلفات بيئته ومحيطه، ومن خلال ذلك يبادر الرحالة بخلق فسحة زمنية مؤطرة للحديث عن المأمول من البلد المرتحل إليه في إيجاد صيغ محتملة للخروج من تلك الحَال أملا ورغبة في بلوغها تلك الصّورة المرئية، التي يقوم فيها الزمن برؤية باهتة في الأفق تنم عن سبيل معطل، وما دام أنه كذلك فإنه يبقى مجرد أمنيات، لذلك جاء الزمن الاستباقي في أغلب الأحيان مشروطا بـ "لو" التي تفيد التعجيز، لأن مصير الجزائريين ليس بأيديهم "ولولا أغراض المستعمرين الدنيئة لكان في كل بلد إسلامي معلمون ووعاظ ومرشدون مسلمون يساعدون إخوانهم على النهوض والدراسة ولاسيما الدينية منها ما دام الدين لله وما دام الإلحاد جادا في سبيل القضاء على الأديان كلها"¹⁴²⁹. بينما كان زمن شريحة الممالئين الاستباقي بمثابة دعوة لمستقبل يعود بالنفع على الجزائريين في زمن قريب لأنهم كانوا يرون في فرنسا طوق نجاة، مطمئنين على مستقبلهم الذي سيصير إلى ما كان عليه الأولون من المسلمين الذين أقاموا الحضارة

¹⁴²⁸ - للتعريف والتذكير، مجلة الشهاب، مصدر سابق.

¹⁴²⁹ - الجزائريون في مصر، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، سنة السادسة، العدد 256، (23 جمادى الأولى 1373 الموافق 29 جانفي 1954).

بفضل ما وصلوا إليه من رقي علمي، وفرنسا هي التي ستدفع بهم إلى هذا الزمن المقبل، لذلك يجب شكر نعمتها من هذه اللحظة التي يبدأ فيها شعار الدعوة "فيحق لنا أن نحمد الله تعالى على دولة من الله بها علينا، ونجتهد بواسطتها في أنحاء الأسباب التي سنعود بها لسيرة أوائلنا فإن فضائل الله ليست محصورة في قوم، ولا مختصة ليوم دون يوم"¹⁴³⁰ كما نلمح أن فرنسا كانت تستهويهم بجاذبيتها فلا يريدون لها فراقاً، تلك الرغبة الكبيرة التي تركت زمن التمي مفتوحاً، فعلى الرغم من الفراق المرّ إلا أن جبره كان على سبيل الزمن الاستباقي "وسفرنا والقلب مقيم بها. لكن صبرنا بالأمانى أنفسنا، وقلنا لعل القضاء أيضاً يجمعنا"¹⁴³¹

ولما كان كلُّ متعلق بما يهوى، وهي حالة طبيعية يجسدها الرّحّالون على حسب توجهاتهم في الحياة، وكل مكان هو جاذب لمريده، فدائماً لا تكفي الزيارة الواحدة، خاصة إذا تعلق منها بأقدس مكان عند المسلمين وما دام أن الرّحّالين الجزائريين هم كذلك، فإن احتمال الزمن الاستباقي وارد نجده مثلاً في قول أحمد توفيق المدني "ودّعنا مدينة رسول الله وفي النفس منها ذكريات، فإن كان في العمر بقية وأعان الله فسوف نعود ونعود، وإن قضينا قبل ذلك فإننا لله وإنا إليه راجعون!"¹⁴³² وهي رغبة ملحّة من خلال تكراره لفعل العودة الدال على المستقبل كلّما حان وتيسر.

إن بادرة الاسبقاق الزمني تظهر في الخطاب الرحلي بداية من طموح الرّحّالة في إيجاد سبل افتراضية واقتراحات إرضاءً لضميره واستثناساً له، مُكبّاً في ذلك على جعبته التي تظل عاجّةً بتكتلات البؤس والظلام في مستقبلها، كما أنها تجسّد الصراع الحضاري، سواء أكان دينياً، أو إيديولوجياً، منتصراً لمستقبل الإسلام، الذي يتنبأ له بالنصر "وسوف يأتي يوم تؤمن فيه المسيحية أن الإسلام ليس عدوها كما يخال المغرضون من الساسة وبعض رجال الدين في العالم المسيحي ويومئذ قد يندمون وولات حين مندم!"¹⁴³³ وأماني الرّحّالين تنم عن شيء من الحسرة الآنية على حال المسلمين، لأنّه يكرّس فعل التمني في تحقيق مشروع مستقبلي، ففعل يروق الذي سنجده في المثال اللاحق دليل على التشبّث بالأمل والرجاء "إن العالم الإسلامي يروقه أن يرى دولة الإسلام في الحجاز زاهرة متقدمة تثير وتحرق، ويروقه أن تخرس ألسنة الكائدين للإسلام"¹⁴³⁴.

¹⁴³⁰ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 53.

¹⁴³¹ - المصدر نفسه، ص 64.

¹⁴³² - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصر سابق، العدد 273.

¹⁴³³ - الجزائريون في مصر، جريدة البصائر، مصر سابق، العدد 256.

¹⁴³⁴ - في البلاد العربية السعودية، البصائر ع267/ سلسلة ثانية/ سنة 6/ 13 شعبان 1373 الموافق 16 أبريل 1954

ودائما عندما يتعلّق الأمر بحال العرب والمسلمين، يتبيّن الخلل في منظومة الحياة العامة ككل، لذلك يأتي دائما زمن الاستباق فيه ألم وحسرة، وفيه مطلب للتغيير وتمني لو كان كذا بدل مما هو عليه الحال، يبدو ذلك من خلال تغريدات الرّحّالين التي تأتي حسب درجة الشعور المرتبط بمستوى المقام أو الحدث أو المشهد، فهذا (محمد علي دبور) يناجي الزمان المستديم لإنصافه الخالدين من الشخصيات التي يجب أن تعترف بها الجهات المسئولة وتقيم لها محلات خاصة بها كمتاحف للتواصل مع الأجيال "ليت الزمان أسعف فبقي الدار في أسرة الرافي وبقي مكتب الرافي فيها على حاله كما بقي مكتب سعد زغلول وداره أثارا تردد تاريخه، وتشاهد فيها الأجيال معالمه"¹⁴³⁵ ففعل "ليت" الذي يستعمله الرّحّال إشارة إلى تمني بعيد المنال، أو هو الزّمن المفترض الذي ليس للرّحالة سلطان على فعل التغيير فيه، كما نجده يكرره في قوله: "ليت شبابنا يعرف "أن الفن عرق ودموع" بالجهاد المستمر وتجرع المرائر بالحرمان فيسلك طريق الرافي في الكد وإعطاء النفس كلها للعلم والأدب"¹⁴³⁶.

والزمن الاستباقي غير محدود ولا ترعويه صفة خاصة، ما دام أنه يتّخذ الصفة الأساسية والفعلية من خاصية المشهد الذي يعود إليه كله أمر التأويل والإحالة، فعدها غير محصور، وهو يقدر على قدر فحوى المشهد وامتداد الزمن، حتى في الزمن الغيبي المقرون بالمسلّمات إذا ما اقتضى الأمر ذلك، خاصة وأن الرّحالة تطأ الأراضي المقدّسة، وما دام أن الأمر لا بدّ منه عند رّحالي أمة ملزمون بهذا الواجب، فإن الزمن الاستباقي سوف يتحقّق فيما هو مشروط بالاعتقاد الذي يتبناه الرحالة ذي الانتماء الإسلامي، وفي هذه الحالة التي يجد الرحالة نفسه ضمن غمار روحاني يستخلص فيه الانتباه إلى ماضي الذات نحو مصيره الغيبي، فلا يتمخض عن ذلك إلا زمن متشعب إلى بعدين، وكل متعلق بالجزاء المنوط بفتنة من فئات المجتمع، فجزاء العامة ليس هو جزء الخاصة، فإذا كان العامة من الناس حسابهم عاجل، وقريب ويسير فإن حساب الخاصة مؤجل إلى زمن بعيد وحساب عسير "وكل يذكر ﴿يوما عبوسا قمطريرا﴾ سوف يسأل فيه الرئيس عن الرئاسة وأثقالها والمرؤوسين ومحاويجهم في الدرجة الأولى، ويسأل العبد الضعيف (لا الرئيس) به خاشعا أن يكون ممن ﴿وقاهم شر ذلك اليوم، ولقاهم نظرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا﴾"¹⁴³⁷ وتجسيد هذا الاعتقاد قائم في مرجعية الرحالة (المسلم) المسلمّ بمستقبله الزمني الذي لا محالة هو بالغه.

¹⁴³⁵ - محمد علي دبور، وقفة في دار الرافي، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثانية، العدد 337، 27 صفر 1375 هـ الموافق لـ 14 أكتوبر 1955.

¹⁴³⁶ - المصدر نفسه.

¹⁴³⁷ - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصر سابق، العدد 262 (6 رجب 1373 الموافق 12 مارس 1954).

ومن العموم الموضوعي إلى الخصوص الذاتي، يتبين ذلك في حديث الرّحّالين الذين ينطلقون من الحديث عن أفعال رحلاتهم فيقدمون من خلالها استهلالاً ثم يعودون بموافاة القارئ بالإخبار، وهو ما نجده في كثير من مواضع النصوص، أو يحدث الرّحّالة عن أمر ولا يوقّيه من التفصيل فيعول على زمن آخر في المستقبل كي يُطمئن القارئ سواء في مستوى الزمن المستقبل المفتوح مثل قول أحدهم: "وإن سمحت الظروف بذلك سوف نوافيهم بما في السنة الماضية إن شاء الله"¹⁴³⁸ أو في ثنايا ما سيلحق من سرد أثناء الخطاب ذاته وهو المستقبل القريب المحصور كقول آخر: "كما أننا زيادة في الإفادة سوف نصف البلاد المهمة وصفاً تفصيلياً معتمدين على مشاهداتنا وعلى ما كتبه من قبلنا السواح الغربيون الأخصائون في أمور السياحة"¹⁴³⁹ كما أننا نجد مستوى الزمن لا يتعلق بالإخبار ولكن حديث عن الذات في بسطها للزمن المطلق مثل قول (محمد بن العابد الجلاّلي) معترفاً بفضل رفيقيه في الرّحلة، اللذان أسديا من كريم الحديث ولطف الحوار وحسن الرفقة، قائلاً: "وسوف أظل محتفظاً لكما بتمثال الصداقة والولاء في أعلى مكان من نفسي ما دمت حياً"¹⁴⁴⁰.

1 . 1 . 2 . 1 . 3 . تشكيل الحركة الزمنية/ الديمومة "la durèe" في الرحلة

يقوم الفعل الرحلي باعتباره فعلاً واقعياً في مدّة زمنيّة محدّدة ومعينة تتواتر فيها اللّحظات بترتيب زمني حسب ما يقتضيه ناموس الكون. ولعل من خصوصية الرّحلات أن الكثير منها يجعل لها أصحابها عناوين نصوصهم - أثناء كتابتها - بزمن ديمومة الرحلة وهو زمن مدّة المكث التي قضاهم الرّحّالة مسافراً منذ الوهلة التي بدأ فيها خروجه من مقرّ إقامته إلى زمن عودته نحو المكان نفسه، إذاناً بأن صاحبها قضى تلك الفترة التي يحكي عنها تفاصيل أو انتقاءً لأحداثها، ومن هذه الرّحلات المشار إليها: رحلة محمد الزاهي المليبي "أربعون يوماً في الطريق بين باريس وقسنطينة" وحمزة بوكوشة "أربعون يوماً بالمغرب" ومحمد الأمين العمودي في رحلته "شهر في تونس" ومحمد بن العابد الجلاّلي "ليلة بميلة"، وعبد الحميد ابن باديس "ثلاثة أيام ببسكرة"، وإسماعيل مامي "شهر في بلاد زواوة أو بلاد القبائل الكبرى". ويتشكل الزمن في هذه الرّحلات موضوعياً، لأنه مرتبط بزمن واقعي يتطابق فعلها مع خطابها، وشخصياتها مع شخصوها.

¹⁴³⁸ - على الطائر الميمون، جريدة البلاغ الجزائري، مصدر سابق، العدد 165 (الجمعة 24 ذي الحجة 1348 الموافق 23/05/1930).

¹⁴³⁹ - جولي في المغرب وبلاد الأندلس، جريدة النجاح، مصر سابق، العدد 661.

¹⁴⁴⁰ - محمد بن العابد الجلاّلي، في القطر، مجلة الشهاب، الجزء العاشر المجلد الحادي عشر، (غرة شوال 1354هـ/جانفي - 1936).

وتعني الديمومة التي ستصبح تقليصا للمدة الزمنية المجسّدة جسديا، إلى تقليصها بالضغط على أيامها وساعاتها الطوال إلى دقائق معدودات، بل إلى أسطر محصاة، يخصّ فيها الرحالة بالانتقاء الشديد، الأهم فالمهمّ مما ينبع من نفسه السردي، ومن استجلاء ذاكرته، ومّا يراه حقيقا بالتدوين.

أ . التسريع

إن عملية التسريع ليست مقتصرة على إشكاليات الخطاب بما يحمل من أحداث هامة وأخرى لا حدث، بل هو ناجم أكثر من ذلك عن خصوصية في حياة البشر. إن المدة في حدّ ذاتها، لا تشكّل حدثا بالنسبة لمتلقّ الخبر أو التقرير، فقول أحدهم ذهب من الجزائر إلى باريس، المدة ليست مهمة في حد ذاتها، إذ هي تتشكّل تلقائيا، أي أن الذات بذاكرتها سوف تمنحها زمنا تقريبا لا شعوريا، فيربط الإنسان هذه الجملة بزمن يساق إليها من خلال خبرته في تعامله مع الزمن، أما الزمن الحقيقي بالنسبة للرحالة هو الزمن الذي تتمّ فيه فائدة وظيفية ويقدم فيه أعمال وتنسج فيه عروض، هو الزمن المملوء الذي يستحقّ أن ينوّه بما حمل.

لقد أسهمت التجربة الإنسانية في عوامل كثيرة هي نقاط مشتركة كأحداث متكرّرة، وإذ لا يتحقق أي عمل إلا عن طريق وسائط فإن هذه الوسائط، هي قيم زمنية، صيغها الفعلية القيام بالمسار، أما صيغها الخطائية، الاقتصار على جُمْل بسيطة دالّة تفيد المغزى ما دام أن الفكر موجّه نحو مرجعيتها، لذلك كان الزمن الواقعي محدّدا بميقات فلكي، أما الزمن المصاغ حدثا يضطلع بالرمز لأتّه "لا يوجد مقطع سردي يوافق مدة ما في القصة"¹⁴⁴¹، ومن ثمّ جاء التسريع في العمل الحكائي على أشكال:

أ.أ. الخلاصة (المجمل)/ والحذف (القفر)¹⁴⁴²

يعمد الكثير من الباحثين إلى الفصل ما بين الحذف والتلخيص، على اعتبار أن لكلّ منهما مفهومه ووظيفته الخاصة، وهذه حقيقة، بينما ندرجها -نحن- في توحيد بينهما، ذلك كون وظيفتهما تتقاطع، فما دام التلخيص هو تقليص من مسافة الزمن المرتبطة حتما بمسافة الطريق الغاصّة ببلدان ومدن وقرى وأحداث، فما دامت أنها تلّخص أهم الأحداث فهي بالتالي ستقتصر على مواضع دون أخرى وأحداث دون سواها، وبالتالي سوف تحذف تلقائيا الكثير من هذه الأشياء مما يفسح المجال لذوات الأهمية. فإذا كان الحذف على مستوى الكائنات التي يختصّ منها الرحالة ببعض ويترك بعضها

¹⁴⁴¹ - خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص 108.

¹⁴⁴² - ينظر: تقنيات السرد الروائي، مرجع سابق، ص 82.

الآخر فإنه بالضرورة سيقصي أزمته لأنها أحداث ساهمت في التقاط المشاهد، وتثبيت الرؤى، ومسح الأمكنة، مجموع تلك المبررات التي كسحت عينيّ الرحّالة في زمن طويل، سيلخصها في صفحات بمقاس فيّ حسب ما تقتضيه ضروب التشويق والمعارف والتوثيق، ففعل السفر سوف يبقى مجرد سند مرجعيّ على حدوث الأحداث زمن السفر.

فراوي قصة الرحلة ليس بإمكانه أن يُخبر عن رحلته التي دامت السنوات أو الأشهر أو الأيام والأسابيع، "في مثل هذه الحال يكون الزمن على مستوى الوقائع زمنا طويلا، أما معادله على مستوى القول فهو جدّ موجز، أو أنه يقارب الصفر"¹⁴⁴³ لذلك يكون اللجوء إلى مقصّ السّبر والانتخاب عمّا يثبته في نصه ضرورة حتمية، فطبيعة الزمن في العمل الحكائي عموما والرحلي منه خاصة هو زمن مبتور، وظيفته تسريع السرد من أجل إعطاء خلاصة الزمن المحبول بالأحداث. ويميز (جينيت)¹⁴⁴⁴ G. genette بين نوعين من الحذف (حذف صريحة) يذكر فيها الراوي أن قدراً من السنين مرّ على الأحداث من دون تفصيل. و(حذف ضمنية) هي التي لا يصرّح بها في النص وإنما يستدلّ عليها القارئ من خلال ثغرة في التسلسل الزمني أو انحلال في الاستمرارية السردية.

إن السرد عامة يقوم على هذا النحو -دون استثناء-، ما دام أن مسافة السرد لا تساوي ولا يمكننا التساوي مع الزمن الحقيقي لأيّ حكاية. والرحلة الجزائرية تقف حلقة ضمن هذا السرد الذي يحقّق مآربه من خلال مقتضياته ولحاجات في نفس الرحّالة، حسب مجريات الأحداث وأهمّيتها، أو حسب قدرته على السرد.

ولا أدلّ على ذلك من مثل الرحلة التي أعلن صاحبها بالعنوان "أربعون يوماً في المغرب الأقصى" ثم يرويها مقتضبة في صفحات معدودات، ومثلما نضرب مثالا على ذلك، من خلال هذا النص الذي نلّفني فيه الرحالة (عمر بن جيكو) يقلص الأيّام بالقفز الزمني "يوم الخميس من أفريل سنة 1927 سافرت من قسنطينة صحبة أخينا في الله المكرم السيد مامي إلى بلاد تونس فأقمنا بها أربعة أيام ثم سافرت إلى بلاد مالطة يوم الاثنين مسافة يوم في البحر فاكترينا في الدرجة الأولى بـ 322 فرنكا فأقمنا بها ثمانية أيام ثم سافرنا على ظهر باخرة مائة تسمى قليلة قاصدين بلاد الإسكندرية فأرست بنا في بلاد طرابلس لتنزّل بعض السلع وأقمنا في بلاد طرابلس يومين ثم تمادت في سفرها مدة أربعة أيام وصلت بنا إلى الإسكندرية فأرست بصحة وسلامة والحمد

¹⁴⁴³ - تقنيات السرد الروائي، مرجع سابق، ص 82.

⁽¹⁴⁴⁴⁾ خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص 117-119.

لله¹⁴⁴⁵ نجد أن الذهاب من قسنطينة إلى تونس بإقامتها أربعة أيام وفي اليوم الرابع يتوجه إلى مالطا والمكوث بها ثمانية أيام، ثم بطرابلس (ليبيا) يومين، ثم أربعة أيام أخرى حتى تم لهم وصول الإسكندرية، ومجموع أيام هذه المرحلة من الرحلة، ستة عشر يوما، يقلص سارد الرحلة هذه المدة الزمنية الطويلة إلى فقرة من القول، وهو إخلال صريح ينم على أن الزمن الخصب في النص لم يحن بعد فاستثمار الزمن في النص الرحلي يقوم على وظائف محفزة، حتى إن الزمن الذي لا يتضمن من السرد إلى حالة انتظار بالنسبة للسارد لا يشكل إلا فراغا، وما دام الفراغ في السرد هو لا سرد، فإن ذلك إيدان بترادف زمن المحطات المفرغة من السرد وإحاقها بعضها ردف بعض، في عملية تسريع الحكيم ما دام أن أحداث هذه الفترة الزمنية لا تشكل بيت القصيد بالنسبة للرحالة.

وعلى الرغم من أن هذا يعدّ إخلالا سرديا إلا أنه يحافظ على ترتيب زمن السرد والحفاظ أيضا على فحوى الجنس السردى، وهوية انتمائه.

كما أننا نجد من الرحّالين من يجعل من التلخيص تكتيفا سرديا، ذلك لأن الرحّالة يتطلب منه إيراد ملخص رحلته في أهم ما يمكنه إدراجه من حيث القيمة المعرفية أو الفنية، التي اقتضتها أحداث الرحلة، بل حتى إذا ما تراحت الأحداث وتراكمت على أهميتها، فإنها هي الأخرى معرّضة للترتيب والتنقيح والسير والاختيار، والإيجاز الذي يطال حتى الأهم منها، في صورة قصيرة زمنية ولكن فضاؤها الدلالي يطال حدود زمنها الحقيقي، نجد الإبراهيمي يلخص تسعة أيام من المكث بالقاهرة في جملة تنوب عن تلك الأيام: "امتدت إقامتي في القاهرة إلى تسعة أيام، وأحمد الله على أنها كانت عامرة بالفوائد، وما تسعة أيام في جنب القاهرة إلا كتسع ثوان، وإن لنا في مصر لمآرب لا تقضى في الأيام، وإن لنا فيها لبعثة لم تزل نواة فهي تنتظر السقي والتعهد، ومكتبا لم يزل ضيقا فهو ينتظر التوسعة والتنظيم، وإن لمصر علينا - بعد ذلك وقبله - لحقوا وحقوقا توجب علينا الاتصال، ما وسع الوقت والحال"¹⁴⁴⁶. إن الإبراهيمي، اقتصر بذكر مشروع الإقامة بالقاهرة من خلال عناوين القضايا والموضوعات التي تستوجب السنين بدل من الأيام، فأيام القاهرة بالنسبة له لا تقدر إلا بالثواني، كناية على قيمتها الكبيرة في خدمة صالح الجزائر والجزائريين.

ب . التبطية

¹⁴⁴⁵ - رحلة السيد عمر ابن جيكو جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 533.

¹⁴⁴⁶ - محمد البشير الإبراهيمي، رحلتي إلى الأقطار الإسلامية البصائر، العدد 197، السنة الخامسة من السلسلة الثانية، 28 جويلية

ب . أ . الوقفة/ الاستراحة

يعني واقعية الرحلة في بناء أحداثها، أنها في أهبة الاستعداد لاستقبال مؤثرات مكانية أو شخصية أو أشياء مثيرة، قد تستدعي الوقوف عن مواصلة سرد الأحداث مؤقتاً، ولأن الراوي - في الرحلة - سيقدّم بعض التفاصيل التي ينفذ من خلالها إلى التشويق، فهو يعدّ الموصوفات حالات استثنائية يقدّمها حجة على نجاح رحلته في تبئرها، وكلما كان الموصوف جليلاً رائعاً، كلما تمت نشوة الاستقطاب السردية الذي يختال في توقّفه لإبراز تلك النعوت عن كمّ الحالات التي تستوفي شروط الوصف، لأنّ الرّحلة مشروطة بالوصف، وليس كل ما من شأنه أن يُرى يوصف، لذلك تعتبر الأوصاف وقفات تستوجب صمت الزمن وإلزامه على التوقف، حتى يسمح للراوي من عرض الصور البلاغية التي تكسّر جفاف السرد، ويجدّد قيمة الاستئناف السردية في إضاءة الحدث القادم، الذي كلما توقّف في محطة إلا وزوّد الحكاية بمكوّنات يعطف عليها مشروع نجاح الحكاية ككل.

وإذا كان السرد مطلباً طبيعياً لحركية الحكاية، فإن حكاية الرّحلة أولى من غيرها في اعتمادها على قطبي السرد والوصف، وهو ما يعني الحركة التي يتبعها السكون، للدلالة على أن الفعل في بحث دائم على ما يظفر به جلباً إلى القارئ، ليمتّعه، وحتى يستوفي في حقه أفق الانتظار الذي أطمعه على انتظاره، من حين لآخر، وهذا ما ستسفر عنه لحظات الانتظار والتشويق، وكل قارئ لأي نوع من أنواع الرحلات باستطاعته أن يتوقّع نسبة الاحتمال من خلال وجهة الرّحلة ودافعها، فيصبح التوقّف علامة استغراق الزمن (صفر) يتحدّد طولها حسب طول الأهمية وبالغ ما يجعله يتأثر بالمكان أو يجذب إليه أو نحو الشخصيات المؤثرة.

كما نسجّل أن الوقفة قد تطول وقد تقصّر على حسب نفس الكاتب ومدى تأثره بالحدث أو الموصوف، فكلما كان الموصوف مثيراً أو لم يسبق للرّحالة عهد به، إلا وكانت الوقفة طويلة، وكلما تضاءل منها شيء كلما تقلّصت مدّة الوقفة، ويبرز طولها من قصرها أيضاً حسب دوافع الرحلة وحوافزها، فكلما كان دافعها ذاتياً كلما استوفت من الطول، وكلما نأت عن ذلك كلما تضاءل طولها. ومن أبرز سماتها؛ الوقفة التأملية التي تتمظهر من خلال جراح تحيل على ماضيها الصّور المرئية أو التّفسية، أو من خلال فسحات تلاءم جو السرد في عرضه لمادة الحكيم التي تستهويه فيها الوقفة للإدلاء بطبيعة هذه المادة، فتميل كفة الوقفة التأملية النفسية إلى جانب الذات لتفرغ شحنات وجدانية يعيش فيها الرّحالة لحظة تأمل في محيط الرؤية وفضاء المكان مثلما نجده في رحلة عثمان سعدي (مثلاً): "وقفت بين هذه الأجناس المتعددة وكأني غريب عنهم لا تربطني بهم المخيلة ولا يوجد بيننا الإحساس لأن تذوق الجمال عبارة عن احتكاك بذرة في المنظر مع بذرة في النفس، وكيف

يتذوق رائحة الزهرة من كان مريضاً بالزكام¹⁴⁴⁷ نجد فيها الرّحالة غارقاً في التوقّف لصعوبة الموقف الذي تمليه الصّورة الاستعمارية التي أفضت به إلى مغادرة البلد، هذا الاقتلاع في حدّ ذاته تمثله الوقفة في صورة عزّة نفس وطني، وإلا جرّه السرد إلى شيء عادٍ تستجيب فيه النفس لفضول العين، أو يمرّ بالمشهد مرور الكرام، وهي ميزة شخصية الرّحالة التي تعبّر ذاتياً عما تفاعلت معه من وضع.

ومن التأمل الذاتي الذي كثيراً ما ينزح إلى الاغتراب، يقوم التأمل الموضوعي على الاسترسال في الطّبيعة، أو الأمكنة المختلفة القائمة على التنوع من خلال ما توحيه صورته، فتبدأ من درجة عادية إلى أرقاها غرابة، والأمر في هذا يعود إلى استعداد الرّحالة وتكوينه وبيئته، ومن يفحص رحلة الإبراهيمي وهو يجوب باكستان وكشمير، يلمس كمّ الوقفات وعاملها النفسي والبلاغي، بحجم الفرق بين تضاريس البلدين، بالإضافة إلى قوة اللّغة التعبيرية عند الكاتب ذاته. كما تتجلى الوقفات في السرد التي تتقصّى الأمكنة ذات الأنماط الجمالية أو البائسة -سواء منها ما تعلق بالطّبيعة أو الأمكنة المخصّصة لمختلف التّشاطات الترفيهية والحيوية- وكلاهما يجسّد حالات الوقف. فبين الإيجابي والسّليبي فيما تبديه ملامح الأشكال المؤثّرة يؤدي ذلك بالنسبة للرّحالة إلى محطة توقّف التي تدور فيها رخيّ السرد في فراغ إبهاما بأن السرد في حركة دورانية عادية، ثم تستدرك توقّف الحركة لتوقيع إلزامية الوقفة لبسط الانطباع، مثل هذا القول: "ورأينا بهذه المدينة داراً يسومنها دار التصاوير ملآنة بالتصاوير المنحوتة من الرخام والمرمر الجيد وتصاوير أخرى في حيطان تلك الدار، بحسن الصناعة التي لا فرق بينها وبين الآدمي إلا بعدم الكلام، حتى انك إذا حققت النظر في الصورة التي في الحائط تراها تتبعك بنظرها، فيا لها من صنعة غريبة"¹⁴⁴⁸ ليستمر السرد في صورة عفوية يُثبت من خلالها اللّحظة الزّمنية وإصاقها بزمنها المحوريّ عطفاً على الوقفة الأولى وتداولاً بينها وبين الحركة التي ستأتي "سألنا عن تلك التصاوير فأخبرونا إنها صفة أوائلهم. ورأينا بهذه الدار أيضاً إنساناً ميتاً موضوعاً في صندوق من زجاج وقد ييس جلدته..."¹⁴⁴⁹ فقله في الأول "رأينا" و"سألنا"، ثم قوله "فأخبرونا" في المقطع الثاني، كلاهما حدثٌ زمنيٌّ يؤرّخ للحظة التوقّف انطلاقاً من زمن الميثاق الواقعيّ للرحلة، التي تستند إلى تاريخ محدّد بأول إعلان عن السفر.

ويحدث التوقّف عند التآثر بالشخص كلاً ما استدعى التوقّف لإبراز صفات خارج الزّمن، إذ لا يمكن أن يمرّ مرور الكرام على من تستوجب عليه أن يسلّط عليه الأضواء، ومن ثم تتعدّد قراءات هذه

1447 - عثمان سعدي، وطني، جريدة البصائر، مصدر سابق.

1448 - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 30.

1449 - المصدر نفسه.

الوقفات التي لم تعد زينة سردية فحسب، بل تتعدى ذلك إلى إثبات هوية الراوي وإدراك أهمية الموصوف، خاصة إذا كان من أهل العلم أو الجاه أو السلطان، كما يتمثل في قول ابن صيام: "هذا سلطان كبير فرع سلطان بالعدل والشجاعة شهير ذو قدر جليل، خطير، شهرته أغنى من الوصف، وفخره لا يحتاج إلى إيضاح، ولا إلى كشف، فارس مضمار، وبطل كرار، ذو فتكات معروفة، وعزمات موصوفة، وكل الملوك بذلك يشهدون وهو المعظم الأمجد سيدنا: لوي نابوليون أطال الله مدته و أدام سعادته"¹⁴⁵⁰ تتبين من هذا المقطع أن الزمن متوقف تماما فكل الأنظار موجهة نحو شخص في صورة ثابتة، وهذا التوقف المحض يدل على قوة السلطان من جهة، وهوية الرحالة الذي لا يعبأ ضميره الجاني حين لا يرى فيه الاستعماري المستبد، بل يمثل الوقف هنا تبريرا ضمنيا للاستعمار.

ب . ب . المشهد

يأتي المشهد في الخطاب السردى عموما والرحلي منه خاصة، لسدّ ثغرة سردية مهمّة، وهي إيقاف الزمن على مسرح حدثٍ مثير أو مشهد لا يرضى الشّرخ، ولعلّه بذلك يكون بمثابة الوثبة الزمنية القارة على امتلاك اللحظة وتوقيف الزمن الذي يقطع فيها المسلك بخطى بطيئة حتى يستقضي لمحات وجه الحدث بجذر في رسم معالمه، وهي اللحظة الوحيدة في العملية السردية التي يتساوى فيها "زمن القصة مع زمن الخطاب، ويكون الزمن السردى في أقصى حالات بطئه"¹⁴⁵¹ وما دام أن الرحالة ينتابه شعور بتقدم أشياء جديدة للظفر بالقارئ الفضولي، فهو يترصد المشاهد و يقيم لها كلّ المراسد بُغية القبض عليها وترتيبها على مسافات من مراحل الحكى. ويترتب ذلك على تصوير حركة الشخصيات وأفعالها، وهؤل المكان وجلاله. ومثل ما هو المشهد قائم على لحظة التوقف يشعر فيه القارئ أنه بصدد اطلاع على لوحة مرسومة، أو على حركة بطيئة يداعب فيها السارد رسم المشهد على هيئة لقطات تلفزيونية. ولا نقصد من خلال ذلك، الوقفة التي مرّ الحديث عنها، بل إلى حوارية الراوي مع المشهد المرئي الذي يثير عاطفة الرائي ويفعل دوافعه الانفعالية، بالإضافة إلى ذلك ينقل الحوار الذي ليس في إمكان الراوي اختصاره لأنه يمثّل ببساطة الخطاب القطعي الدال على واقع معين، وهي "اللحظة التي يتطابق فيها زمن السرد بزمن القصة من حيث الاستغراق"¹⁴⁵².

1450 - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 34.

1451 - شجاع مسلم العاني، في أدبنا القصصي المعاصر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1989، ص 129 ، 130.

1452) ينظر؛ بنية النص السردى، مرجع سابق، ص 78.

ويقوم المشهد فيما بين الرغبة والإلزام، عند مستويين من المشهد، أحدهما انفعالي والآخر حوارى. حيث يتوجب على الرحالة (الراوي) أخذ لقطة لا يتم رسمها إلا عبر شمول زمني استغراقي حتى تتم الصورة على أكمل وجه، فيتطلب الاستغراق الزمني الذي بقدر ما استغرق المنظر بقدر ما أفاض فيه حديث التحويل السردى وهي عملية "اقتطاع ما يرغب في وصفه"¹⁴⁵³. في حين يلتزم الرحالة الحدّ الزمني حين الحوار الذي يقوم على الاستغراق التام المتطابق معه في الحكاية "بحيث يصعب علينا دائما أن نصفه بأنه بطيء أو سريع أو متوقف"¹⁴⁵⁴ وهي سيرورة أحداث مفوّضة إلى شخصيات تصنع الحدث بأخذها زمام الأمور في المحاجّات أو الأسئلة أو الاستكشاف، وهي الحلقة المقحمة في نص الرحالة الذي يُجبر على الصّمت لفسح المجال للشخصيات المتحاورة، -قد يكون هو واحدا منهم-، لكنّه يعدّ شخصية مستقلة يتنازل عن مكانته ووظيفته (المخولة) في هذه الحركة الزمنية.

يبدو من خلال ما سبق أن الرحلة الجزائرية الحديثة قد تحقّق فيها المشهد بكل أنماطه وأشكاله، قد يمثل للصراع بين الشخصيات، وبين صيغ مختلفة من الحوارات التي كانت تتأسّس على جملة القضايا داخليا وخارجيا، بالإضافة إلى ما كان إنعام الطبيعة وإحساس الرحالة، ومن دهشته وغرته واستغرابه.

إن المشهد سرعان ما يُفرغ من الحلقة السردية فيؤسّس لنفسه جبهة في جانب من جوانب الخوض التلقائي لأنه يترك في المبرر انطبعا مؤثرا. إن المشهد في هذه اللحظة يتجاوز الوصف المجرد باستخدام أسماء التفضيل "وقد يتدّى أول سطر من أعلى جبل ينتهي آخر سطر في حافة الوادي، وما أعجب هذا المنظر وما أجمله"¹⁴⁵⁵ والمبالغة هي الأخرى ضرب إجباري "وهذا كله وأنت لم تعد مرمى بصر، في صفحة جبل، ولعمري أن هذا لأجمل منظر رأته عيناى في حياتي كلها."¹⁴⁵⁶ كما أنه يستعمل الأفعال التي تحرك العواطف والانفعال، والتي ليست لها علاقة بأفعال السرد المباشرة، خاصة منها المبنية للمجهول "فتخيلها قطعا من الجواهر المختلفة الأشكال والألوان، منشورة على بساط سندسي من القطيفة الخضراء، يا لجمال المنظر الطبيعي الأخاذ"¹⁴⁵⁷. فالزمن في هذه الحالة حلقة خارج السرد يقصر أو يطول، يتمّ فيه التركيز على نسج تام دون إخلال باللوحه المشهدية التي ترتسم بالعين وتجعل لها البصيرة حياة إطراب، وبذلك يستغرق الزمن مدة كافية غير مستعجلة لإتمام

¹⁴⁵³ - الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر - مستويات السرد-، مرجع سابق، ص 69.

¹⁴⁵⁴ - بنية النص السردى، مرجع سابق، ص 78.

¹⁴⁵⁵ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج 4، 1985، ص 58.

¹⁴⁵⁶ - المصدر نفسه، ص 58.

¹⁴⁵⁷ - سوانح وارتسامات عابر سبيل، مصدر سابق، ص 56.

مكوّنات المشهد حتى تتّضح في شكلها التام الجلي، مع إمكانية الاستطراد، والاستنجد التضميني كالذي نجده في قول الغسيري: "رحبت بنا مدينة زحلة رافلة في حللها بين الخمائل ملاهيها ومغانيها، ورأينا المدينة جاثمة في سفح جبل صنين صامدة للطبيعة تغالبها الشتاء كأى مدينة أوروبية حديثة، وراعنا جمالها فذكرنا قصيدة شوقي: يا جارة الوادي .."¹⁴⁵⁸.

أما بالنسبة للمشهد الحوارى فهي عملية لازمة في العمل الحكائى، وهي في الآن نفسه صورة من صور الزّمان الخارج تماما عن سَرَب السّرد، فهو اقتطاع لحظات من الفعل السّردى واستئصالها، لا يربطها به إلا السياق العام، وقد يزيد المشهد الحوارى في الاسترسال والإطناب كلّما كان الرّحالة فضوليا، وفي الغالب فهي عملية تعليمية يراد من خلالها بثّ جانب من جوانب تمرير قضية معينة. بينما هناك من بنا رحلته بنسبة كبيرة على الحوار، خاصة منهم: محمد ابن العبد الجلالى ومحمد السعيد الزاهري لدوافع ذاتية، ومنهم من جعل الحوار أساس رحلته ونقصد به "عبد الحفيظ الهاشمي" في رحلته (الأجوبة عن أسئلة رحلة وهران) التي كاد أن يخرجها من دائرة الرحلة لاعتمادها على الحوار في أغلب تفاصيلها.

إن الزّمن في المشهد الحوارى في الرحلة الجزائرية قائم على أسس ومستويات. فإذا كان السّرد لا يُستملح إلا من خلال الوصف الذي يوطّر جمالياته، فإن الحوار يشخص عدّة ظواهر، فهي مواقف تستدعي الحوار الذي يقوم بعدّة وظائف، وهذا يخفف من رتابة السّرد وينتشله من السّأم والملل، كما يستحضر القارئ ويدفعه إلى التفاعل. ومن جانب، فالرّحالة هو من يمنح الرّحلة خصوصيتها القائمة على لقاء الناس والشّخصيات، والتفاعل مع بيئة كل مكان مُزار، إن هذا الخلق الذي يدفع به الرّحالة من حين لآخر، يجسّد حيوية النّص الرّحلي ويتدفّق فيه، فهو يجعل الحوار محطة بديلة خاصة في مراحل السير الذي يغلب فيها الوصف أو الحوار، ما دام أن السّرد متوقّف على مبدأى الانطلاق والوصول، ولكي لا تفرغ مسافة الربط بينهما يلجأ السّارد إلى إمكانية تأثيث هذه المسافة بجملة أوصاف لمرييات ومشاهد، وبما أن الرّحلة الحديثة تقتضي المرافقة فإن الرّحالة تدعوه نزعته الفضولية إلى مجارات الأحاديث، مع من لقيه في طريقه سواء أكان ذلك رفيق درب فيكون الحوار علاجا لقضايا محسومة من أجل كسر روتين الطريق، أو رفيق طريق فيكون الحوار اكتشافا وبالتالى يكون في الحوار جدّة وفيه طرافة وفيه تساؤلات وتصحيح معلومات واكتساب معارف بالأخذ عن الآخر. وكلّما كان الحديث عن مرحلة المسير طويلة كلما تعدّد الحوار وتنوّع، وأخذ ضروبا متنوّعة، وهو بقدر ما يكون من الفائدة

والترويح يكون زمنا مفتوحا لاحتواء الحوار ونقله بتفاصيله، فيتساوى الزمن الواقعي بالزمن السردي، إننا عند وقوفنا على قول محمد الجلاّلي:

"وبعد الانتهاء من وضع الأدبаш وترتيبها أخرج علبة من لفافاته وناولني واحدة منها، فاعتذرت إليه بأن لم يسبق لي استعمالها قط، فقال: حسنا فعلت مع نفسك ونصحت لها؛ فليس في التدخين من فائدة محققة إلا ما يقال إنه يقتل الميكروب الذي يلتصق باللثة، فقلت له: قد يكون ذلك صحيحا، ولكني -بحمد الله- أتمتع بضم لو وضعت بين أضراسه حجرا لحطمته.

ثم قال لي: أنت جزائري فيما يظهر؟

قلت له: نعم؛ وأنتما؟

قال: أنا ألماني، وهذه قرينتي.

قلت له: بارك الله لك فيها، وبارك لها فيك، كيف اهتديت إلى نسبي؟ مع أن مظاهري كلها

غريبة من القدم إلى الرأس" ¹⁴⁵⁹

يجسد لنا هذا المشهد تزامنا بين واقع الحدث وزمن تمثيله سرديا، إذ لا يمكن للراوي تشطيره ما دام أنه يعتمد على المنطق الزمني الذي يسير في تتبّع السّؤال والجواب المفضي إلى نتيجة قائمة في نفسه. وهو الحال الذي نجده عند الرّحالة الذي بقي فضوليا مسترسلا في إطالة الحوار ولعلّ حلقة الثانية من الرّحلة المعقودة بعنوان "في القطار" هي حلقة حوارية، وكأنّ القطار بؤرة تلاقي ومحطة نقاش، عالج فيها بعض القضايا واستذكر فيها جملة من الأحداث، فكانت تمهيدا للقاء ثان، بباريس -بعد الوصول- لتستمر الحكاية ويتواصل الحوار، وتتمتّن الصداقة. ويسعى الجلاّلي في محاوراته لإثبات الحجّة على الفساد الأخلاقي والانحراف العقدي والشذوذ الفكري ضمنيا، حيث يستخدم خائنة الاستطراد تارة فتارة بالمقارنة للتلميح في أسف عن مجتمعه البائس الذي قايسه بمستوى تحضّر ريفيّه، فلم يظفر إلا بالتقيّض.

ولا نجد في مدونتنا المعالجة صفة تشابه حوارية محمد بن العابد الجلاّلي، بينما نجدها كتّة خاصة في الرحلات ذات التّصوص التي يكثر فيها سرود المسير. نجدها -مثلا- مكرّسة في رحلة (الزاهي المليي) حيث يجعل من مسيره حلبة للصراع السردي والوصفي، فيلجأ من حين لآخر إلى مداواة بعض الأمور من حيث اللّجوء إلى الحوار الذي يضيف عليه شيئا من الإيديولوجية، خاصة مع الأجانب.

إن مرحلة المسير التي يتجه فيها الرّحّالون إلى مكان القصديّة، يتجلى فيه الحوار على مستويات متعدّدة، فإذا كان الرّحّال قاصدا ناسا معينين، فهو في حالة الوصول سوف يجري معهم حوارات ويعقد معهم مناقشات واجتماعات. قد نجد في حالة الطريق الاعتراض أو التوقيف الجبري فيروي الرّحّال هذه الوقفة وما دار فيها من حديث بينه وبين من أجبره على التوقّف، ودواعيه وأسبابه، قد يكون ذلك حاكما أو شرطيا أو جمركيا، وهلم جرا، فيتبين من ذلك، أهمية هذا التوقّف وتزويد مضمون الرحلة بقائمة من التنوع سواء أكانت معاناة أو لمعرفة أساليب وخصوصية المجتمعات والتشريعات والقوانين. مثلما يروي (محمد خير الدين) عن المعاناة الضمّنيّة التي وجدها من سلطات الاحتلال وهي تحاصر مدينة ورقلة: "سألني الشرطي: من أين أتيت؟ قلت من بسكرة - فقال: اتبعني لمقابلة الحاكم، فقلت له: إنني جئت لزيارة صديقي (الأب جوزيف) رئيس الآباء البيض "شارل دي فوكو" فقال لي: أصدقك (الأب جوزيف)؟ قلت نعم.

قال: اسمح لي إذن يا سيدي، وامضي إلى مقصدك، فحمدت الله الذي ألهمني إلى هذه الحيلة ودخلت المدينة، واتصلت برئيس الشعبة فيها¹⁴⁶⁰ فالرّحّال في هذه الحالة لا يستطيع أن يتجاوز حدود الحدث الحواري ما دام أنّه يعتمد على المنطق الذي تتطابق زمنيته بزمنية الرواية. ثم إن ملاقات الشخصيات والتفاعل معها قد تضطرّ الرّحّال إلى إثبات بعض الحوارات التي يريد من خلالها الرّحّال مجارات الحديث ونقل الشواهد على ألسنة أصحابها، فيثبت الحوار كما هو، أو التصرف فيه، وهي عادة مكرّسة في رحلات (توفيق المدني) الذي كانت جولاته مختصّة في لقاءات المسؤولين، كما تفيد نرجسيته إبراز الحوار، حتى يتبيّن القارئ كيف كانت تدار الحوارات، ولأجل إبراز شخصية هؤلاء الحكام، إيجابيا وسلبيا. ولا يتوقف الزمن في الرحلة إلا عبر ما تقتضيه الحاجة إلى ذلك، وكلّما توقّف فهي دعوة لمجارات تفاصيل يقتضيهما الشاهد، لإثبات مسألة، أو استنفاد مبلغ إيديولوجي، أو لغاية جمالية.

2. المكان وبنية الوصف

يحتنق السرد في الخطاب الرحلي إذا ما لم تمرّ عليه مدة زمنية دون أن يتنقّس هواء الوصف، كما أن الوصف لا يمكنه الوقوف طويلا دون أجنحة السرد، لذلك أجبر الخطاب الرحلي على الملازمة بين السرد والوصف القائم على التناوب، فالسرد هو الذي يدفع إلى الوصف، كما أن الوصف يدفع إلى السرد، فإذا "كان الوصف يشتغل حينما يتوقف الزمن، ففي الرحلة ينتعش الوصف عندما يتحرّك

¹⁴⁶⁰ - مذكرات خير الدين، مصدر سابق، ج1، ص272-274.

الزمن، فيبدو في الظاهر متوقفاً، ولكنه في هذا المستوى بطيء يتأهب للانطلاق حتى يهيئ الفرصة للوصف¹⁴⁶¹ في بوثقة محدّدة يجمع فيها المكان أركانه، من الجامدة وذات الحياة. فيتشعب الوصف إلى أنماط كثيرة يقوم فيها جانب التدويت كعامل مهمّ في تلوين الموصوفات بأبعادها الذاتية والموضوعية.

2. 1. الوصف؛ الإخبار عن المكان

يُعدّ ملئ العين الذي يكتسح الرّحالة أثناء قيامه بعملية الرؤية نحو المكان، عملية مسح لا تقف عند كل شيء، لأن طبيعة الإدراك عند الإنسان قاصرة ولا يساوي المنظور عنده إلا ما يقابله من العماء، حتى وإن جالت صورة المكان كلّها عبر قنواته التي يرى ويُفحص بها، فهو في أغلب الأحيان في سِنَة عنها، قد يعود ذلك إلى غياب وعيه بسبب من الأسباب الطبيعية كالغياب بفعل تذكّر شيء خارج الزمن واستحضار زمن آخر، أو لتعدّد صور المرئيات فيرى من اقتطاعات جزئية، هذه الجزئيات التي يراها المرتحل تكون حسب ضنّه من الأولويات، وكثيراً ما تفضّل عليه الغفلة بتقديم الذي هو أدنى على الذي هو خير، وفي كل الأحوال تقوم عينُ الرائي بعملية السّبر. ولأن عملية الرؤية معقّدة، لا يقدّم الرحالة عند الوصف المطلق في تفاصيل الأمكنة، ولكن اجتهاده في ذلك يقوم على اختيار الأحسن والأمثل حسب اعتقاده، ومن زاوية رؤيته الجمالية والإيديولوجية والنفسية. بالإضافة إلى أعوان أخرى تساعد العين على كشف ما وراء المرئي، فليست العين وحدها كافية لاكتشاف المكان وجسّه، ومنه ينطلق التّبئير من وجهة نظر سردية الذات من عين الراوي وأذنه وحواراته لأن "طبيعة الوصف في الرحلة، تفرض المرور بعيون أخرى، شكّلت بدورها شبكة بصرية متكاملة مع القناة المركزية المجسّدة في عين الرحالة"¹⁴⁶² تُصبّ -كلها- في آخر المطاف عبر قناة واحدة تتعلق بوعي الرحالة وإدراكه.

2. 1. 1. موضوعات الوصف

تتجلى موضوعات الوصف في الرحلة الجزائرية الحديثة في الآتي:

2. 1. 1. 1. وصف الأمكنة: تتعدّد الأمكنة باعتبارها أمشاج الطريق الممتدّ على طول

مسار الرحلة، فهو الطريق وهو الجبال والوهاد، والسهول والشعاب، وهو البحر والنهر والوديان، وهو المدن والقرى، وهو المدارس والجامعات، والزوايا والأضرحة، والمساجد والجوامع، وهو المطارات والمحطات المختلفة، وهو الآثار التاريخية والأماكن المقدسة، وهو الأشكال العمرانية من متاحف ومسارح ورياض،

¹⁴⁶¹ - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 296.

¹⁴⁶² - الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر - مستويات السرد-، مرجع سابق، ص 271.

وهو الطبيعة بما حوت من غابات وأعشاب وحيوان، وهلم جرا. فالمكان يشكّل البؤرة المحورية في أيّ عمل رحلي أو هو المحور الذي يتفاعل معه الرّحّالة أثناء سيره ووقفاته ومشاهداته، بيّد أن المكان "لا يقتصر على كونه أبعادا هندسية وحجوما، ولكنه فضلا عن ذلك نظام من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني، أو الجهد الذهني المجرد"¹⁴⁶³ فحديث الفن عن المكان يتمفصل بقدر النوازع والاندفاعات نحوه، وبقدر الالتحام والانفصام، وبقدر التفاعل الذي تصهّره درجة الحميمية (ذكريات، آمال وأحلام...) ومن ثم يغدو المكان تفاعلا ديناميا تفرضه لغة الكاتب المستعملة، حسب ميولاته وحنوّه نحو هذا المكان الذي "يعني الارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش وللوجود، لفهم الحقائق الصغيرة، لبناء الروح، وللتراكيب المعقدة والخفية، لصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال المبهمة، للتنشئة المخيلة وتدمج كلية الحياة في صورة مكانية"¹⁴⁶⁴. والوصف عمليّة إعادة رسمٍ للمكان بصورة غير الصّورة الوجودية، بل بصورة ترتبط بنفسية الرحالة، فيصبح المكان مذوّتا بطابع خاص، هي زاوية الرؤية التي يلتقط بها الرحالة أمكنته.

الرحلة الداخلية ركّزت على الأماكن المقدسة (مساجد، زوايا، أضرحة) وعلى مراكز التعليم، والمحلات التجارية والإقامية كما أنها ركّزت على المدن والقرى وكثيرا ما رثت حالها خاصة القرى النائية منها، وأما المدن الكبيرة فتفاوتت من وصف جمالي إلى انطباع بسيط. أما من جانب الطبيعة فقد تجلّى الوصف فيها بتعدّد ذكر الجبال والبحار والسهول، والشعاب، والأودية، وقد وُقت فيها ما لفت انتباه الرّحّالين من جمال. أما الرحلة نحو الخارج فقد ركّزت في البلاد العربية والإسلامية، على وصف المساجد، والأضرحة والقصور، ووصف للمدن وللطبيعة، من حيث تجلّت الطبيعة العربية جبالا وأودية وبحارا وبساتين. بينما في البلاد الأوروبية، برز الوصف متجليا في المدن والطبيعة بما حوت من غابات واخضرار نسيحها الممتدّ بين المدن والمداشر، ووصف البحار والأنهار، والبساتين والساحات العامة، والحدائق المختلفة، ودور الثقافة والمسارح والمتاحف والسينما، والمصانع والكنائس وهلم جرا.

إن أهم ما ميز الوصف في الرحلة الجزائرية، هو اعتمادها على تغليب الوصف التقريري على الوصف الوجداني، فلم يكن الوصف الوجداني إلا في حالات نادرة كحالة البؤس التي عبّر عنها الرّحالون في أسف متأثرين بأحوال الناس من شدّة فقهرهم ودرجة جهلهم، مصداق ذلك ما حدّث به (عبد الرحمان الحسني) في قوله: "وما كدنا ندنو من بجاية حتى وقع نظري على أطفال وبنات

¹⁴⁶³ - عثمان اعتدال، إضاءة النص، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص 5.

¹⁴⁶⁴ - ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986، ص 395

مغبرين يعلو وجوههم الوديعه الجميلة نقاب البؤس¹⁴⁶⁵ أما في الحالات المستدعية للتأثر بالجمال المحض، التي تدغدغ وجدان الرّحالة فحالات قليلة مقارنة بالوصف التقريري الذي أخذ حصّة الأسد، لأن الرحلة الداخلية كانت دواعيها موجّهة في إطار وظائف معينة كالإصلاح والطرقية والتقارير الصحفية.

في حين أن الرحلة خارج الوطن تجلّت فيها ملامح الوصف الأدبي المشحون بالتأثر الوجداني، الذي يتجاوز حدود الأشياء ومظاهرها، ونقصد بذلك الرحلة نحو أوروبا لأن الرحلة نحو البلاد العربية في الغالب كان الوصف فيها يماثل الرحلة الداخلية، فهو وصف نقلي تقريري. وكلما كان البلد يختلف في طبيعته عن بلد الرّحالة يجد فيه هذا الأخير ما يجعله يتأثر، وهذا التأثير هو الذي يدفع الرحالة إلى تدويت المكان وجدانيا، مثلما نلفيه في بلد كباكستان وكشمير حيث يزداد هؤل الطبيعة بتضاريسها الجليّة، وطبيعتها الخلابه مما دعا الإبراهيمي إلى وصف الرّوع الكبير الذي تتمتع به، نلفيه قائلاً: "وتراءت لنا - ونحن في هذه المنحدرات العجيبة - قطعة من وادي مظفرأباد، الذي يفصل باكستان عن كشمير، ويمر على قرية "جلهم" فيسمى باسمها، فإذا هو كالشعبان ينساب ويلتوي بين تلك الجبال الشاهقة قويا هدارا"¹⁴⁶⁶ وأما بالبلاد العربية فقليل هو الوصف بهذه الدرجة الوجدانية، وأحيانا نجده لا يستثمر في الذات المجردة بقدر ما يصطبغ بخلفيات أنانية مؤدّاهها إلى التأثير بالشيء المقدّس أو الشخص المجلّ، فيتراءى الجمال من هذا المنظار الذي يأتي من خلاله وصف الجمال الطبيعي أو الهندسي من وراء هذا المرجع، وهذا نجده في طول رحلة (محمد علي دبور) الذي جعل موصوفاته الطبيعية لا تخرج ضمناً عن كونها منبع إلهام مصطفى صادق الرافعي في تكوينه الشخصي والأدبي، من حيث إن الرّحالة كان شديد التأثير بالرافعي.

وتختلف البلدان الأوروبية عن البلاد العربية، حيث تراوح الوصف في الأمكنة، من الإعجاب إلى الافتتان إلى الانبهار، فكانت موصوفاتها ترقى على مستوى العين الرائية، التي لم تجد من سبيل في فك رموز تلك الصّفات الجليّة التي يتمتع بها المكان الأوروبي، من طبيعة خلّقية، إلى ما صنّعت اليد البشرية من تنسيق، ونظام، "وأرضها المخضرة خضورة ساحرة، فائقة حازت قسطا وافرا من النظام والتنسيق"¹⁴⁶⁷ إن درجة الوصف تقوم على الاعتبار من قوّة الفرق الذي يميّز أوروبا عن بلد الرّحالة، ف "الطبيعة عندهم فيها كل معاني الكبر والعظمة والضخامة، الأشجار طولها بعشرات الأمتار،

¹⁴⁶⁵ - تأملات مسافر، مجلة الشهاب، مصدر سابق، العدد 110، السنة الثالثة، (الخميس 19 صفر 1346هـ/18-08-1927).

¹⁴⁶⁶ - آثار الإبراهيمي، مرجع سابق، ص58.

¹⁴⁶⁷ - أروعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 125.

والجبال علوها بالآلاف¹⁴⁶⁸. ولقد استعمل الرحالون الذين زاروا أوروبا تقنيات وصفية لا تعتمد على نقل حرفي للموصوف، بل امتزجت في المشهد، الحواس التي أفاضت على المشاعر تدققاً، فجاء الوصف وجدانيا خالصاً، مبعثه الشعور الباطني باعتباره "المحرك الأول للوصف الوجداني، وهو الذي ينزع غلاف الأشياء وجودها ويبعث فيها المعاناة والحنين"¹⁴⁶⁹ فلم يتوقف الوصف على المادي من الأشياء، فيُجسّد حسياً ما يبدو من مظهره الخارجي، بل قد دفع هذا المظهر التوتّرات النفسية داخل مشاعر الرحالة، فامتلكه شعور بالتأثير لذلك جاء الوصف يجسّد حالة وجدانية داخلية.

والإضافة إلى الوصف الظاهري للأشياء الذي تجسّد في حالات طبيعية، فإن مظاهر الحضارة الغربية وطبيعة المكان وتضاريسه الاستثنائية، ورفي الإنسان في صناعة الحضارة بما تحويه من مظاهر، كل ذلك جعل الرحالة وهو ينحدر من أرض مسلوقة ومجتمع بدوي، يرى بلهف تلك المظاهر التي بدت له عجيبة، فلم تكن العين لترى بل كانت البصيرة لتمييز وتعظيم. إن خيال الرحالة لا يفارق العين وهي تنقصى الأمكنة، باتكائها على عملية المسح التي تعتمد على شريط النظر، فيقابل المرئي الخارجي بالانفعال الداخلي الذي تؤكده جملة من الخصائص البلاغية الموحية على قيمتها التّفيسية، فالرحالة لا يكتفي بنقل صفة الموصوف، بل يضيف عليها شيئاً من روح خياله، الذي يجعله يلوّن رسمه الرصاصي، فيجعل له روحاً من ألوان الطيف، كالذي دعا (محمد الصالح رمضان) إلى القول خلال وصفه لساحل جنوب أوروبا: "فتخيّلها قطعاً من الجواهر المختلفة الأشكال والألوان، منثورة على بساط سندسي من القטיפفة الخضراء، يا لجمال المنظر الطبيعي الأخاذ"¹⁴⁷⁰. ولم تكن درجة الخيال هي الدرجة القصوى في اختلاج الوصف بالمشاعر، بل نجد من الصّيغ ما يفوق جانب الخيال في إبداع الصور، حين تتعطل تلك الإشارات البلاغية، تاركة المجال إلى الاستسلام القهري، ولم يظهر الخيال في إضافته طاقة حيوية على الوصف في الرحلة الجزائرية إلا مع جيل الرّحّالين الذين تفتّحت عيونهم على مظاهر الحضارة ولازموها في بعض صورها داخل بلدهم حين وضع منها المستعمر نماذجاً على أرضهم، إضافة إلى أن هذا الجيل قد استفاد من التّهضة الأدبية التي زاوّلها باعثو النهضة في الجزائر. أما الأجيال التي لم تستفد من هذه الميزات، نجد أن الوصف قد تشكّل لديها من خلال عجز في رسم الصور المشاهدة، والإضفاء عليها شيئاً من لوازم الانفعال بدل أن يحلّيها بصيغ البلاغة الدّالة على العجز والاستغراب، كقول ابن صيام -مثلاً-، حين يصف ألواناً من جمال مدينة ليون وطبيعتها، ثم يستأنف:

¹⁴⁶⁸ - جزائريون في يوغسلافيا، جريدة المجاهد، مصدر سابق، العدد 105.

¹⁴⁶⁹ - إلبا الحاوي، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط2، دت، ص 14.

¹⁴⁷⁰ - سوائح وارتسامات عابر سبيل، مصدر سابق، ص56.

"ولم تر العيون مثلها ولا سمعت الأذان بشبهها"¹⁴⁷¹ وإذا كانت العين والأذن أداتين من أدوات الملاحظة التي يشهد عليها أنها لم تر قط مثل هذا الذي يتحدث عنه، فإنه في مقام آخر، يصنف لنا عجزا من نوع آخر عندما يقول: "وشهدنا فيها من المدن والقرى ما يكَلّ اللسان والقلم عن تعديده"¹⁴⁷² وتتصف كل رحلات القرن التاسع عشر بمثل هذه الخصوصية الدالة على عجز في الاستيعاب، وقصور في امتلاك الأدوات البلاغية لاحتواء الموصوفات، ولعل كل الأدوات البلاغية تتعطل للسقوط في درجة التيه فتصبح الأشياء والمخترعات في عالم غير عالمها الطبيعي إلى عالم كله غريب وعجيب، وهي الصيغ المتكررة لدى جميع هذا الجيل من الرحالين، وكلهم يعبر على نحو قول (ابن قاد) حينما يصف ما بالمتحف: "غرائب الصناعات الفائقة والاختراعات البديعة الرائعة فوجدناه أمرا عجيبا"¹⁴⁷³ وهو الاعتراف الضمني بالعجز.

كما أننا نؤكد على أن الوصف ينم عن درجة في الثقافة التي تجعل من الواصف له القدرة في الاستيعاب فلا يصحح إلا بما يمتلك من قدرة على التصور، وحيطة بالموصوف، فهو يملك مرجعية تحفف من وطأة الصدمة إن كان منظر الموصوف متميزا، فبالقدر الذي نجد فيه الرحالة يضعف في استبدال المرئي بأمارات الاستغراب كلما أدركنا أن صور المرئي أقوى تأثيرا من ثقافة الواصف، مثلما أشرنا في حديثنا عن رحلات القرن التاسع عشر، في حين أننا ندرك أن حدة الاستغراب قد زالت مع رحالي القرن العشرين الذين على الرغم من تأثرهم الشديد بفتنة الحضارة الغربية، وقوة تأثيرها على نفوسهم، إلا أنها قد تماكنت في صياغة التعبير الذي جد فيه حديث البلاغة والخيال، أي أن الوصف قاوم التأثير بصور حضارية تنم على أن هذا الجيل من الرحالين يكتسب ثقافة حصنته من سلطان العجيب في الرؤية، مثلا على ذلك وصف (عبد الرشيد مصطفى) للشلال غير مكترث للمبالغة، بدت صيغته طبيعية متحكمة غير متأثر بأية صدمة: "من أجمل المناظر التي شاهدناها أثناء زيارتنا لفرنسا منظر شلال.. فمكثنا نمتع به الطرف من جماله الفتان الذي أثر فينا كثيرا حتى قلنا هذه الأبيات.."¹⁴⁷⁴ وهو ديدن كل رحالي أجيال القرن العشرين الذين لم تجعل من تأثير الموصوف ظاهرة خاصة ينفعل بها في كنف ضميره وكأنه هو نفسه المعني دون سواه، بل كان هذا الجيل يبنيها للمجهول في إشارة إلى أنه يكتب لقارئه وأن صورة الوصف عامة وليست تملك خصوصية الأفراد نقلا عن تأثير طبيعي يصل إلى قمة الجمال، يصف الرحالة جوانب من هذا التأثير مخاطبا القارئ بما يشعر، ومن

¹⁴⁷¹ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 30.

¹⁴⁷² - المصدر نفسه، ص 32.

¹⁴⁷³ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 55.

¹⁴⁷⁴ - رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 1291، الجمعة 2 ذي الحجة 1350 الموافق 1932/4/8.

حيث يستشعر أنه يصدر له التأثير نفسه، وقد استوت بذلك ضوابط الوصف وتوازنت نفسيّة الواصف بموصوفاته فنقلت بموضوعية جوانب الجمال الأوروبي، من حيث العمارة كقول بوزيد عطياوي: "ومدريد مدينة تقوم بها العمارات الشاهقة المتناسقة التي تمتدّ على طول النّظر فتذهلك بروعتها وتأخذ بلبّك مناظرها الجميلة"¹⁴⁷⁵.

ولم يقف الوصف على الجانب الحسي الهندسي، بل قد رصدت جوانب مختلفة من الحياة من أنظمتها المختلفة كنظام العساكر في قول محمد الزاهي المليي: "أول ما يلفت ويجلب نظر السائح ويأخذه نظام العساكر البحرية في أزيائهم الممتازة الموشحة بعلائم وأماراة التفوق"¹⁴⁷⁶ هذا وغيره من شتى الأشكال والأنواع، في توازن منطقي لا تزيغ فيه درجة الوصف إلى عدم الاحتمال من فرط المشهد كيف ما كان، وإن بلغ درجة قصوى في الرّوعة يجد له الرّحالة (الأديب) ما يناسبه من تعبير كقول (محمد الصالح رمضان) في وصفه لشوارع مدينة "فينيس" الإيطالية البديعة: "كنت في نفر قليل من الرفاق نخترق كل شارع وزقاق، ونسترق ما فيها من مناظر البهجة والجمال والجلال، ونستبق إلى رؤية ما تنعم به من السحر الحلال"¹⁴⁷⁷ وهي درجة متقدّمة عرفت فيها الرّحلة الجزائرية الانتقال من الوصف التقريري إلى التّخييل، نتيجة تفتّق القرائح والنّزوع الأدبي الذي تشكّل بعد النهضة الأدبية، استبشر فيها النّص الرّحلي بتوليد الصور الفنيّة عبر شبكات الوصف المختلفة، فجاءت مصداقا لروح عصرها الدارج نحو الإبداع الأدبي الحقيقي، ولعلّ أعزّ مثال على ذلك قول (محمد الزاهي المليي) وهو يصف إحدى المدن الفرنسية قائلا: "وهذه المدينة الضاحكة الختالة في حلل المال والشباب والزينة والغرام"¹⁴⁷⁸ وهذا نابع من استخدام الصحيح للبلاغة في صورها الموحية والرمزية بمجازاتها واستعاراتها وكناياها وتشبيهاها.

2. 1. 1. 2. وصف الشخصيات: يقارب وصف الشّخصيات في الرّحلة الجزائرية الحديثة حصة الأمكنة. والوصف في الرّحلة كلّما تخلّى عن المكان تشبّث بالشّخص، أو احتواها جميعهما. ولقد اهتمّ الرّحّالون في وصفهم بعدد كبير من الشخصيات، من ذلك الشخصيات السياسية من حكام وملوك وأمراء، كما تضمّنت الشرطي والدركي والجمركي والعسكري، والفلاح والموظف والعامل

¹⁴⁷⁵ - عطياوي بوزيد، في بلاد الأحلام والذكريات، مجلة المنار، السنة الأولى، عدد 19، الجمعة 2 رجب 1371 الموافق لـ 28 مارس

1952

¹⁴⁷⁶ - أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 128.

¹⁴⁷⁷ - سوانح وارتسامات عابر سنبل، مصدر سابق، ص 65.

¹⁴⁷⁸ - أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 128.

والصانع، والفقير والغني والمثقف والجاهل، والمرأة والطفل والرجل، والوطني والعميل، والمصلح والمفسد، والإصلاحي والطريقي، وهلم جرا.

وقد تراوح توظيف الشخصيات كلبنات مؤطرة لحكاية الرحلة، ما دامت الرحلة لا يمكنها أن تتحلّى عنها، باعتبار أن الشخصيات تمثل النواة المحركة والعناصر الفاعلة في تحريك عملية السرد ودفعه إلى النمو، وإحداث التفاعل بين الكاتب والقارئ. وما دام أن الرحلة لا يتيه في الأمكنة، إلا عبّر مراكز القصد التي تمثلها الشخصيات، بداية من بؤرة الانطلاق التي تبدأ بالبحث عن رفيق السفر، ثم توديع الأهل والرفاق، ثم مروراً بهيئات أمنية وجمركية، ثم معايشرة أهل المقاصد، ومختلف شرائح المجتمعات التي يقصدها الرحالة. ففي كل هذا الحراك يُثبت وصف الرحالة للشخصيات، على أساس الأهمية التي تمثلها الشخصية الموصوفة.

إن أهمية الشخصية بالنسبة للوصف، لا تكمن في ذاتها، بل بما يُستقط عليها من صور مرجعية، سواء أكانت افتراضية أو واقعية، فإذا نظر إليها الرحالة تجلّت فيها عناصر التّميز التي تجعل الفارق بين الصّور القبلية والصّور الآنية، فالوصف عند الرحالة يتشكّل بما يصنعه المرئي من استثناء، وهي جملة العناصر المائزة التي ترسخ في ذاكرته ضمن شريط رحلته، إذ ليست كل الشخصيات تستحقّ التنويه، فمن بين مئات أو آلاف البشر التي قد تتألّف منها مرثيات الرحالة لا يذكر منها إلا شخصيات محدّدة. لا يهتمّ مقام هذه الشخصيات بقدر ما يهتمّ منها أنّها تُحدّث لدى الرحالة تأثيراً في نفسه، أو استثناءً في طبيعته. وقد نجد عناصر التأثير في الشخصيات من جوانب شتى، منها المظاهر الخلقية (الفيزيائية)، من خروجها على مألوفها الطبيعي، أو في حركتها ونشاطها في مهامها المختلفة، أو سلوكها وطبائعها، أو في مظاهرها الأخلاقية.

وأهم ما يميز استخدام الرحالة في تعرضه لوصف الشخصيات، هو وصف الهيئة في الغالب، وهو وصف له دلالة بوظيفة الموصوف أو نفوذه، فيؤثر ذلك على الرحالة ليعرض بعضاً من ملامحه الدالة على خصوصيات الفعل. وقد تراوح وصف الشخصيات بين الموضوعية والذاتية، فتجلّى الإجلال والتعظيم والتبجيل فيما يخصّ العلماء في غزارة علمهم وسمّتهم وتواضعهم، ومثل ذلك أحيط بالملوك والرؤساء والأمراء خاصة في مرحلة الثورة التحريرية، حين تجاوب -هؤلاء- معها بالعون المادي والمعنوي. وفي ذلك نجد أن السياسيين من أمراء وسلطين متوفر ذكرهم بالوصف عند الرحّالين من ذوي المستويات الفكرية والمناصب السياسية، ك"ابن باديس" و"الإبراهيمي" و"المدني" و"الغسييري"، ولم يكن هؤلاء الرحّالين، من السياسيين النمطيين، الذين يتعاطون السياسة من أجلها ولأجلها، بل هم من أبناء المجتمع الذي كان يتساوى فيه العام والخاص، قد جمعت بينهم الحاجة والضرورة، فكانت صفتهم

تتعدد من سياسيين إلى علماء، إلى أبناء شعب بسطاء، ويعد (أحمد توفيق المدني) من أهم من وصّف الملوك وذوي الجاه والسّلطان، تتخلّل كل أوصافه ما بين المدح التّام والتنويه بالخصال حين الرضي، مثلما نجد له هذا الوصف عن ملك ليبيا "كان الملك بلباسه العربي وشاشيته التونسية ذات الزر الغليظ، يجلس جانبا فوق أريكة متواضعة سوقية وأمامه منضدة صغيرة وحوله عدد من الكراسي جلست على واحد منها تجاهه.. وتكلم الملك مرحبا، كان صوته رقيقا جدا، كانت عباراته بسيطة سهلة، لكننا كنا ونحن نستمع إلى كلماته نلمح من خلال حديثه ذكاء وقادا وإيمانا صادقا، وعزيمة جهادية متينة العود"¹⁴⁷⁹ إن هذا الحديث عن وصف ملك ليبيا يجعلنا على شخصية مثالية لذلك لم يتعرض لشكله ولا خلاله إلا من خلال إضفاء عليه لوازم التواضع والقوة في العزم والشكيمة. ولم يكن المدني في وصفه -هذا- يرى إلا من زاوية البحث عن رجل له القدرة وبإمكانه مساعدة الجزائر وثورتها التحريرية، وتأتي كل أوصاف (المدني) بهذه الطريقة، الوصف منسوباً لصفة لازمة، وهي القضية الجزائرية، لذلك كان الوصف ينم عن ساعد قويم بإمكانه إنفاذ قوة الفعل للضرورة، فهو في كل مرة حين الوصف، يعرّج على كل ما في الرجل الموصوف بما يناسب التفاعل مع القضية الجزائرية. نجده بنفس الوتيرة يصف الأمين العام للجامعة العربية عبد الخالق حسونة، بقوله: "رجل وديع سليم، تدل كل مظاهره على أنه من أرستقراطية عتيقة .. كان كلامه متزنا، رصينا، كان حديثه هادفا، لطيفا، كان حماسه لقضية الجزائر جليا واضحا"¹⁴⁸⁰ وإذا كان الموصوف على غير تطابق مع متطلّباته ورغباته، يدير له بالظهر ويأتي عليه بالوصف الجارح، مستعينا ببلاغته الساخرة، تهكّم به، كقوله في مفتي لبنان "ثم قابلنا خشبة مسندة تدعى مفتي لبنان. كان يمتاز بصمته وبرودته، وبما يظهر عليه من لامبالاة مطلقة، وبسطة له وضعية الجزائر، فكنت كأني أخاطب أوثان الكعبة في عصر الجاهلية"¹⁴⁸¹ ودأب المدني في وصفه للشخصيات تغلب عليه الذاتية، حتى وإن بدت سمة الموضوعية في وصفه، لكننا سرعان ما نجد الذاتية تعترضها لتفصم ظهرها في لمسات بسيطة لكنها تنحرف بها إلى التوبيخ، مثلما نجده يذكر عن الوزير شارل مالك "الرجل عالم ولا شك في ذلك ولا ريب، كان أفصح أهل لبنان لغة، وأمتهم عربية، لكنه كان أبعد الناس إطلاقاً عن الثورة والتحرير والكفاح، وما إلى ذلك من معان ربما قرأ عنها شيئا، إنما هو لم يؤمن بها أصلا"¹⁴⁸².

¹⁴⁷⁹ - حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص164.

1480 - حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص168.

1481 - المصدر نفسه، ص 427.

1482 - حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص 355.

وأما الزعماء الفرنسيين فذهب فيهم الوصف من حدود التقديس والتبجيل من طائفة الرحالين الممالئين إلى درجة اعتبارهم من الملائكة المكرمين، فهم على حدّ تعبير (ابن صيام) في خلاصة الأوصاف "واعلم أن ملوك فرنسا لو اتّصفوا بالظلم والجور وعدم الرفق بالرعية لما قدروا على تحقيق بعض الغرض من عمارة البلدان وكثرة العساكر البرية والبحرية وتحصين الثغور وتعميرها بالعدد والعدّة وغير ذلك مما لا يمكن حصره"¹⁴⁸³، أما في مقابل ذلك عند الوطنيين فالحكم يختلف والصفّة تبدو من زاوية مغايرة، كمثّل قول ابن باديس في أحدهم: "فقابلنا الكاتب العام للوزارة م. أوبو وهو رجل راديكالي صميم"¹⁴⁸⁴ وهذه هي أوصاف الزعماء والسياسيين الفرنسيين، تراوحت بين المتناقضين موالي/ ممالئ، وبين وطني/ قومي، كلاهما يصفه بما ينتابه من خلفيات وتوجهات.

وقد بدت شخصية العلماء في الوصف الرحلي، نابعة من ذات الرحالة فكان يتجلّى الموصوف في صورة الواصف، حيث نجد دائما الواصف يبدي تقرّبًا ووصفا لطيفا، يريد الاقتباس من روحه والتجاوب مع خصاله، إن الجزائري كان معظّمًا لهذه الشخصيات محيطها بلسان العفة وحرارة الوصف، خاصة أن معظم الموصوفين كانت تحفهم البساطة من كل جانب على غرار الشيخ حسونة البسطي¹⁴⁸⁵ الذي خصّه (الغسييري) بقوله: "وكأنه أخذت نسبته لا من بلده، ولكن من البساطة والتبسيط في كل شيء فهو غني بالكتب جمعها مدة حياته ثم جلدتها ووقفها هي في داره التي يسكنها على مدرسة بجدة، وهو فقير لا يملك فلسا، ولا تدري كيف يعيش ولكنه مضياف متلاف غير مكساب -طبعًا- ومع ذلك لا يخلو منزله من ضيوف يطبخ لهم هو بنفسه لأنه الساكن الوحيد بالمنزل"¹⁴⁸⁶ أو ما ذكره (حمزة بوكوشة) عن الشخصية العلمية والدينية، التي تشرف بالوقوف عليها والتبرّك بجناحها خلال زيارته للمغرب، وهو العالم (الأستاذ سيدي محمد بن العربي العلوي) الذي كان تأثيره في الكاتب بارزا "وهو ذو سمّة ووقار وشخصية جذابة، مع غزارة العلم ودقة الفهم وبلاغة التعبير وصدق التصور وسعة الاطلاع على الأمهات والفقّه في أسرار التشريع مع التعليل والتدليل.. وهو يجمع بين طموح الشباب وتجربة الشيوخ، وشخصيته محبوبة ومحترمة عند

¹⁴⁸³ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 39.

¹⁴⁸⁴ - عبد الحميد بن باديس، مع الوفد الإسلامي مشاهدات وملاحظات، الشهاب الجزء السابع المجلد الثاني عشر، (غرة رجب 1355هـ/ أكتوبر - 1936).

¹⁴⁸⁵ - وهو عالم من طرابلس (لبنان) كان مقيما بجدة.

¹⁴⁸⁶ - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 262.

الجميع" ¹⁴⁸⁷ وكل هذا كان له وقع في حمزة بوكوشه الذي أنزله منزلته، وأشاد بشخصيته، وأهاب وأثنى بجلالها.

ولا يخلو وصف الشخصيات العلمية في الجزائر بالنسبة للرحلة الداخلية عن غيرها من المجتمعات العربية والإسلامية، بل نجد ذلك مستفحلا، وبقوة، إلا أننا آثرنا الحديث عن الرحلة خارج الوطن، لأن الصورة التي يقدمها الرحالة خارج الوطن تنزع إلى اللامألوف، فتضيف تنوعا أسلوبيا، واختلافا نوعيا. ومن الحالات التي تمثل فيها الشخصية للطابع الاستكشافي، شخصية (الرفيق) وهي من الشخصيات الهامة في الرحلة، لذلك نراها تتعدد فيها الأوصاف، وتحمل من المعاني ما يجعل منها كشافا حقيقيا، ولأن السفر يُسفر عما تحجبه كل نفس، ومن ثم يغدو الرحالة في استكشاف دائم لرفيقه، وأي كان حرص الإنسان في الحفاظ على ستر عيوبه ما دام أنه يجد لذلك من الأستار والحجب، فإن طول الطريق ووعثاء السفر، وعاملهما النفسي، عوامل تدفع الإنسان إلى ارتداء لباس العفوية، ويتجرد من بروتوكوليته، حينها يتجلى لصاحبه وكأنه يراه لأول مرة في حياته، وهو الامتحان الحقيقي الذي يحمل حدّين فإما أن تكبر هذه الشخصية في ذات ملازمها وإما العكس، وبين هذا وذاك استطاع الرحالون الجزائريون أن يكشفوا عما هو إيجابي وما هو سلبي في هذه الشريحة. من الأمثلة، ما ذكره الغسيري عن رفيق دربة الإبراهيمي، وهما بالحرم الشريف، يصفه وهو في حال أبلغ صورة، متأثرا بفعل قدسية المقام فيقول "ورأيت لأول مرة صاحب الفضيلة الشيخ البشير الإبراهيمي تحت نوع من التأثر العميق، وهيجان الشجون وتأثير نور الإيمان على روحه الطاهرة يتحول إلى طفل صغير يبكي ويغمغم، ويدعو الله ويسأله المسألة، ويرجوه من الخلاص في الدنيا وفي الآخرة" ¹⁴⁸⁸ وفي جانب آخر وفي المقام نفسه، نجد المدني يصف رفيقه فرحات عباس حين كانا في مهمة عمل سياسي، وأتيحت لهما فرصة الاعتماد، ومن فعل التأثر الذي بدا على الرفيق بتغيّر حاله، خصّة الرحالة بوصف فريد، كونه لم يخطر على باله أنه سيتحول هذا التحول المغاير للتوقع، وتوجّ الكشف عن هوية الموصوف الذي أبدى وجها آخر، مما جعل المدني يصف في صاحبه هذا التحول: "ورأيت الرئيس فرحات عباس، المتفرنج، رأيته والله يرتعد فرقا وهو بين يدي الله، وقد اصفر لونه حتى أصبح ليمونة صيف، وارتعش إلى درجة أنني كنت أمسك به حتى لا يقع، ووجم كأنما هو صوفي من

1487- حمزة بوكوشه، أربعون يوما بالمغرب، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثانية، العدد 31، (2 جمادي الثانية 1367 هـ / 12 أبريل 1948م).

¹⁴⁸⁸ عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 262.

رفقاء الجنيد، أمام جلال الله، وعظمة الله، وروعة بيت الله. وهكذا تفجر إيمانه، فإذا هو أقوى وأصدق إيمان" ¹⁴⁸⁹

وتتعدّد أوصاف الرفيق في الرحلة الجزائرية، من وصف مباشر، إلى صور سردية، وهذه الأخيرة هي الغالبة على أمر الوصف كلّ، ذلك لأنّ الرّحالة يريد أن يشخّص الموصوف من خلال أفعال، ليتم فيه إبراز عملية الوصف وفق سياقها، فيتميّز وصف الشخصيات عند بعض الرّحّالين بخصوصية السرد الذي يجعل من الوصف دافعا له، خصوصا عند الرّحالة (محمد الزاهي الميلي) الذي يتحدّث كثيرا عن مرافقيه، بصورة حركيّة، فهو كلما يريد الحديث عن رفيق من الرفقاء إلّا ويطره بابتداء "ذلك الجالس الطويل" ثم يعقبها مباشرة بالفعل السردية "فأخبرني في حديث ممتع عن مذهبه في الحياة وجنسيته الإسرائيلية المقدسة" ¹⁴⁹⁰ أو في قوله: "وتلك العجوز الشابة" ويلحقها كذلك بالأفعال السردية "ففاتحتني الكلام باللغة الانجليزية" ¹⁴⁹¹، فلا شك أن هذه التقنية، وهي فيما يبدو ضئيلة التكرار عند الرّحّالين جميعهم، فإنّها تدلّ على قوّة التخيل التي يعتمدها الرّحالة لإسهابه في الحديث عن الموصوف وعن الدّات المشاركة كطرف في استكناه خاصته.

ومن بين التقنيات التي يستعملها الرّحّالون تلك التي تصف الهيئة، ولا نجد لها سوى في حالات الرّحلات الشاذة، التي عاش صاحبها تجارب قاسية، وخاض فيها مسارات وعرة، وحصل فيها خيبة أمل، فتكون الرّحلة صعبة وعواقبها وخيمة ومسالكها ضيّقة حرجة، مثلما نجد في رحلة (عبد الباقي الحسيني) الذي يصف رفيقه الذي كان صعب المراس مزاجي الطباع بقوله: "في مسجد طبرق لمحت شبّحا يزدلف إليّ ويقفز ويطفو على ثلاث أرجل ككومة رمل سوداء أعندش أغبر أعمش أفطس أبرش، مشيت مع هذه المجموعة من الخبث والختالة والتدّالة ورأيت ما تقلّده المرأة وما يخرجها هذا الرجيم وما تنفسح عنه الطبيعة وما يخلفه الإنسان بل وما يخلقه الله من الميكروبات التي لا تخلو من الحكمة ثم هو سبحانه وتعالى يأمرنا بالتعود من شرّ مخلوقاته ﴿قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق﴾. ترافقنا وكان الأمير وكنت الأسير" ¹⁴⁹² وحديث وصف الرحالة عن رفيقه جاء في أول الكلام مسترجعا أفعاله وأخلاقه، بما أن الفعل قد سبق الخطاب، ومن ثم لم يكن الوصف متسلسلا مع الأحداث السردية بل جاءت تقنية الوصف مجمّلة في أول الحديث، ثم تلاها التفصيل المطب حول أوصاف خبث هذا الرفيق.

1489- حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص413.

1490 - أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 130.

1491 - المصدر نفسه، العدد 125. الجمعة 1 جمادى الثانية 1357/29 جويلية 1938

1492 - معبر الفتوة، مرجع سابق، ص 49.

ولم يكن وصف الشخصيات في الرحلة الجزائرية متوقفا على هذه الشرائح المذكورة بينما تعرّضت لكل أنواعها في المجتمعات المختلفة داخليا وخارجيا، من العامي البسيط إلى ذوي الجاه والمقام العالي، وبإمكان الرحلات أن تتوقّر فيها جميع مستويات الشخصيات، بينما ما يميّز الوصف أنه إذا كانت سمة الشخصية في طول وصفها أو قصره فهو يتوقف على إعجاب الرّحّالة بمواقف موصوفه، وإذا كانت تصرفاته طبيعية سلبا أو إيجابا فلا يستمر الوصف في الإطناب، كهذا المثال: "بعث معنا مهندسا ليكون لنا دليلا في زيارتنا وكان هذا المهندس قليل التكلم يكاد ينطق بالإشارة¹⁴⁹³. أما إذا كان يشكّل الاستثناء، ولو كان بسيطا متواضعا في مجتمعه، فإنّ الإطناب يناله من كل جانب. وقليل ما كان الرّحّالة الجزائري يهتمّ بالفرد في ذاته، وإنما كان يسمّ الفعل المنجز أو الموقف المؤدى من طرف الفرد إلى الجماعة، ذلك أن الرّحّالة لا يرى في الأقوام المزاراة إلا فعلا جماعيا، ولا يحكم عليهم من خلال الفرد إلا حكما عاما، كقول المدني يصف حريفيا أندونيسيا "وللرجل عند هؤلاء السكّان البدائيين، مهارة خارقة للعادة في مباشرة نحت الأخشاب بصفة فنية مبدعة، فيخرجون لك من جدد شجرة أو غصن بالغ، من أغصانها، وبواسطتها آلات بدائية غريبة، تماثيل تعتبر من أبداع آيات الفن الجميل، ونحت لي أحدهم، وأنا أنظر مشدوها، تمثالا لراقصة اندونيسية، بلغ من الدقة والجمال و الروعة الفنية، ما أدهش كل من رآه عندي"¹⁴⁹⁴ وهذه الروعة الموصوفة تخصّ مجتمعا بأكمله، تتقاطع مهاراته في استكشاف الرّحّالة الذي ربّما قد يتحقّق في بلده نوع كهذا لكن لا ينتبه إليه، لسبب الألفة التي تجبره على غض الطرف، والجديد المفاجئ هو الاستثناء بالنسبة للرّحّالة، لذلك نجد الوصف يحمل دلالة الابتداء وكلما كان الجديد الذي يجنّد الرّحّالة أن يلهب به شوق القارئ كلّما أطنب الرّحّالة في وصفه، بينما كلما قلّت وظيفة الاستثناء والجديد كلما ضؤل حجم الوصف.

2. 1. 1. 3. وصف الوسائل

تتعدّد موصوفات الوسائل بتعدّد دوافع الرّحلات مشارب الرّحّالين، على اعتبار أن السفر يتم بواسطة، منها الطائرة والسيارة والحافلة والباخرة والعبّارة والترامواي، والعربة والكاليش، والحصان والجمل والحمار، والشاحنة، والقطار، أما الوصف فهو متعلق بصفة خاصة على ما يحمل من صفة الدّهشة التي تستدعي التوقّف من أجل المبادرة بالوصف، وأحيانا نجد التصريح بقوة الانفعال الذي يشدّ الرّحّالة

¹⁴⁹³ - رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 1290.

¹⁴⁹⁴ - حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص 370

تجاه هذا النوع من الوسائل "وإن باخرة كالتي أبحرنا عليها إلى طرابلس الغرب لجديرة بأن نحبس القلم هنيهة في وصفها حتى يعلم القارئ أن ليس كل وابلر صالحا للركوب والسفر القريب بله البعيد"¹⁴⁹⁵ وهذه الوقفة جاءت على خلفية أن الرحالة ينتمي إلى شعب فقير ليس باستطاعته أن يتوقّر على هذه الوسائل، كما أنها من الابتكارات الحديثة التي كانت لا تزال تشكّل الصدمة التي لا ينبس عنها الحديث العام والخاص، فالرحالة لا يزال يستغرب عدم ارتجافها بالرغم من أفاعيل البحر أثناء سيرها "لا يكاد يصدق الإنسان أنها تسير لعدم ارتجافها وميلانها طوع الرياح المتضاربة كغالب البواخر"¹⁴⁹⁶ وعلى الرغم من الذكر الكثير لوسائل السفر لا نجد كثيرَ وصفٍ عنها، ولعلّ الرحّالين لم يكن لهم حسنٌ يجعلهم يتأثرون بهذه الوسائل، فما عدا الذي سبق ذكره في رحلة مامي، أو ما توقّر في بعض ذكرٍ طفيفٍ لبعض الوسائل في رحلات القرن التاسع عشر كالقطار، والباخرة، لا نجد سوى أن الطيب المهاجي في رحلته أشار إلى السفينة التي أقتتهم إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، ولم يكن يهتمّ في ذلك الوصف ذكر محاسن وجمال المركب، بل كان يشكو من خلال وصفه عن حالة البؤس والاحتقار الذي كان يتعرض له الجزائري من قبل السلطات الفرنسية التي كانت تُمنح للمغاربة جميعهم سفينة حالها مثل ما يصف: "فلقد رأيت بعين رأسي المركب البحري الذي أقل الحجاج إلى جدة، وقد أفرغ من حمولته وهي كميات من أطنان الحنطة، ثم غسل بماء البحر، وبقيت حبوب الحنطة في شقوق المركب، كما بقي في بعض زواياه أثر أرواث البقر والأغنام، وباقي الدواب التي كان المركب ينقلها من بلد إلى بلد، ولا تسأل عن رداءة الطعام الذي يقدم للركاب والذي أخذ منهم ثمنه مقدما قبل الركوب كاللحم المثلج المتغير الرائحة والطعم، يعطونه في الأسبوع مرتين أو ثلاثا"¹⁴⁹⁷، والوصف شعار غير متحيّز، ما دام أنه ينقل الواقع، ولو أن هذا الواقع يحوّل بمنظار ذاتي.

ومن أهم ما يميز وصف وسائل النقل المسهمة في الترحال أن الحداثة قد أفرزت منها ما جعل الرحّالين يعبرون عن اندهاشهم منها خاصة عند رحالي القرن التاسع عشر، عندما كان ذلك منعما تماما في الجزائر، في حين خلال القرن العشرين، أصبحت لا تشكّل عبئا عليهم، بل في حركتها الذائبة في مجتمعهم الغربي الغاص بأفانين المدنية، قد شكّل استثناءً في خضمّ الحركة التي تُحدثها لكثرتها ولنشاطها وسرعتها، يضيفي عليها الرحالة شيئا من سذاجته بقوله: "وبباريس من العربات

¹⁴⁹⁵ - سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 442.

¹⁴⁹⁶ - المصدر نفسه.

¹⁴⁹⁷ - أنفس الذخائر، مصدر سابق، ص 67.

الأوتوموبيلية ما لا يعد ولا يحصى فالأنهاج خاصة بها سرب رائح وسرب جاء [كذا].. بحيث أن من سها لحظة واحدة ذهب صحبتها رغم الملتزمين بتسييرها إذ أنه يوجد في كل نهج عدة ملتزمين بتسيير العربات فيوقفونها دقيقتين ليجتاز المارون ثم يأمرونها بالمسير فتسير¹⁴⁹⁸. ومن أهم الاستثناءات ما دونه (محمد الصالح رمضان) خلال رحلته التي جابت مدينة (فينيس) الإيطالية، حيث المدينة ساجحة في الماء "وتلك الزوارق والقوارب والمراكب السابحة فيها، تجوس خلال الديار، مثل السيارات والشاحنات، كوسيلة للنقل والمواصلات، تحمل الركاب والسياح إلى مختلف الأماكن والجهات، وبعضها يحمل المواد والبضائع والأدوات والشاحنات"¹⁴⁹⁹ وعلى الرغم من أن هذا الأمر يشكّل غرابة، فإن الرّحالة لم يُبدِ استغرابه، وهو ما نستشفه من خلال وصفه الذي بدأ فاترا، باستعماله أدوات البلاغة كالتشبيه من دون مبالغة ولا استغراب.

2. 1. 1. 4. الوصف الاثنوغرافي

تختلف الأمم والشعوب في عاداتها وتقاليدها، بل يتم الاختلاف والتنوع في المجتمع الواحد، بحدّ المسافة الفاصلة بين منطقة وأخرى. إن زاوية الرؤية التي تُثير الرّحالة وتُشكّل بؤرة اهتمامه، هو كل جديد أو استثنائي نادر الوقوع تحتفظ به الذاكرة السّمعية دون المرئيّ منها، وهو دأب الإنسان عموما، كلما زار مكانا غير مكانه يندفع للبحث في مستجدّاته حتى ينقل معرفة الآخر ويتعرف على خصوصيته، بل حتى يتزوّد بأكثر حصة تثير رصيده الحكائي، وهو حاصل في لاشعور الفرد المعرّم بالتجديد والتحول، والسعي وراء التغيير وكسر الروتين اليومي.

يقوم الوصف على التصرّو وتشكيل افتراضي لمشاهد حقيقية، فالواصف (الرّحالة) لا يهتم بسياق الوقائع والأعراف التي درج عليها المجتمع حتى صار فيما هو عليه، بل الرّحالة يسقط موضوعات المشاهدة بما يحصل في مجتمعه ويعقد عملية مقارنة تفضي إلى المؤثرات الحاصلة في وعيه، فالمختلف بالنسبة للرحالة هو ذاته المختلف المرجع بالنسبة للمرئي، وإذا افترضنا أن هناك رحلات متقاطعة لحصل التأثير نفسه في كلّ من النقطتين المتقاطعتين سلبيا أو إيجابيا، فالرّحالة لا يحرك آلة الوصف أثناء مكثه في بلده بل يحتفظ بها في مكنوناته المرجعية، بينما حين يقف شاهدا على البيئات الأخرى يتوقّف على "الوصف الدقيق والمتربط لثقافات المجتمعات الإنسانية"¹⁵⁰⁰ في إطار التبئير الإثنوغرافي، بفضل نحو معرفة ما يتمتع ويتميز به المجتمع الآخر.

¹⁴⁹⁸ - رحلة السيد عمر ابن جيكو، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 540.

¹⁴⁹⁹ - المصدر نفسه.

¹⁵⁰⁰ - حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، مرجع سابق، ص44.

لا يختلف الرّحالة الجزائري عن أي إنسان طبيعي يبحث في الأمكنة المزاراة ويتعرف على حيثياتها الاجتماعية وبنيتها الثقافية. ومن حيث هي تسعى إلى بثّ الملتقطات من المختلف دون المؤتلف الذي قد يشكّل اجترارا ومللا لدى القارئ، في حين تسعى لإعطاء سبقٍ من الناحية المعرفية، من حيث كونه تأثر يغدو منفعلا بالاستثناء الثقافي أو الاجتماعي.

لقد سعت الرّحالة الجزائرية في ذلك إلى بث طابع المجتمع داخليا وخارجيا، فعرفت بما ساد داخل المجتمع من سيّء الأخلاق وحميدها، ومن بشاعة الانحراف ونصاعة السعي الحثيث من أجل التغيير، ومنه نقول بأن الوصف في الحياة الاجتماعية والثقافية كان نقدا بالنسبة للرحلات الداخلية، (نقدا ذاتيا ونقدا للآخر). في حين سعت في الرحلات الخارجية إلى تعميق الرؤية من أجل استكشاف ما تتمتع به المجتمعات من خصوصية اجتماعية وثقافية، وممارساتها اليومية. والرحالة الذي تجاوز حدود الوصف يختلف عن الذي بقي مكبّا في وطنه، إن ميزة ذلك تختلف اختلافا ثقافيا، ووعيا إضافيا، ما دام أن الاختلاف بين البلدان إخلاف نوعي تُسهم فيه عوامل كثيرة. ولم يكن همّ الرحالين كلّهم الاهتمام بالجانب الإثنوغرافي، بل نجد منهم من لجأ إلى هذا الموضوع، أما تمثله فقد تجسّد في طرق قضايا المجتمعات المزاراة باعتبارها تشكّل نواة التفرد، إذ يختصّ مجتمع عن مجتمع في تفاصيل حياته، في مأكله ومشربه. فأهل مرسيليا -مثلا- "ونواحيها يأكلون الثوم كثيرا، وقد شاهدنا في تلك السوق منظرا مسليا، بائعا يتخاصم مع مشتري في ثمن باقة من الثوم وقد يحسب من لا يعرف عادة هؤلاء الناس أن غاية تخاصمهما الملاكمة،" ¹⁵⁰¹ كما أن باريس تتّصف "برقة طباع قطانها وحدة ذكائهم وسرعة تيقظ ذاكرتهم ونشاطهم وجدهم في الأعمال. والشهيرة بجمال نسائها الشهيرات بظرفهن وأدبهن وخلاعتهن وتفانيهن في تزويق ظواهرهن ليستحوذن على قلوب الرجال" ¹⁵⁰² وهو وصف حيادي لا يُفاد منه أن الواصف يتبنّى انتماءً لهذه البيئة أو تلك. وإذا كانت باريس كذلك فإن مالطا بلد الرهبان والقساوسة "فالقوم من الزاهدين العابدين المتفانين في الكنيسة وتوابعها فإن كانت هناك بلدة في أثر رومة فلا أظنها غير مالطة -أما القسيسون والبياصون والرهبان فهم عبارة عن مائات وكلهم يجولون في الشوارع ويجالسون العوام في المقاهي والأندية" ¹⁵⁰³ فكل ما يُجبر الرّحالة على ذكره كنوع جدّاب في حياة الناس بمجتمعهم يقوم على العنصر المهيمن الذي تتفصّاه العين وما تسترقه الآذان.

¹⁵⁰¹ - رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 1280.

¹⁵⁰² - رحلة عمر ابن جيكو، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 540.

¹⁵⁰³ - سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 438، (الأحد 29 شوال 1345 الموافق 1/ 5 /1927).

بينما يتم الوصف عند المجتمعات العربية والإسلامية عن شيئين إما رغبة وتمني ومشاركة عاطفية وهذا يجسّد الانتماء الحضاري والقومي، وإما نقدا لعادات ومستوى شاحب في أخلاق أو سوء استغلال. من ذلك ما نلغيه في وصف الرّحّالين لعادة المولد النبوي الشريف كعادة يشترك فيها سكان شمال إفريقيا، ورحلة (عبد الباقي الحسيني) تجسّد ذلك باعتبارها رحلة طويلة قامت على السّير والمعايشة اليومية وتزامنت مع أحداث الاحتفال بالمولد، وقد تبين من معرض حديث الرّحّالة أن طقوس هذا الاحتفال تختلف من منطقة أو قطر لآخر نتيجة عادات كل بلد وأعرافه، فأهل ليبيا من مصراته "الشباب المسراطي يجول في الشوارع بالمشاعيل والشموع والدفوف القلالية التي تلعب دورا في الأعياد"¹⁵⁰⁴ أما ببني غازي "تشهد كل يوم حفلا في مسجد لختم المولد الشريف فمن عادة أهل ليبيا يحيون أوائل الليالي من ربيع الأول بقراءة مولد الشيخ العروسي وفي آخر الشهر يقيمون حفلات بالتناوب يأتون بقصع الكسكسي والبريل والعصيدة والروز وغير ذلك من مأكولات ذلك البلد"¹⁵⁰⁵ وإذا كانت ليبيا تحصّ المواليذ بطقوس احتفالية سالمة من التّقد، فإن الرّحّالة ذاته يُبرز في وصفه للمناسبة نفسها خلافا عمّا كان بليبيا، حين يتحدث عنها في المجتمع المصري "لعل العادة امتازت بها مصر دون غيرها وماذا في مصر من المضحكات"¹⁵⁰⁶ إذ يجنّد كل المجتمع المصري حكومة وشعبا في إحياء هذه المناسبة وتتوقف كل الحياة اليومية العادية لإعطاء للمناسبة اهتماما خاصا، في أيام "غاب عدالها حيث يختلط الجنسان بأشع صورة يزدحمون في الطرقات العامة فتقف المواصلات وتحبس الحركة وهم يتواجدون ويتميلون وبصيحون ويقفزون بالأيدي يصفقون بالأرجل، بأيديهم السيوف والعصي والأعلام وأشياء أخرى تجدهم جماعات مرميين في الشوارع حيث تتخذ كل جماعة مقرها للنوم والأكل وغير ذلك حول ضريح الشيخ أو الشيخة داخلا وخارجا ومنهم من ينصبون خياما ويدور المولد أياما وفي اليوم الآخر تفد الناس حيث يعلن عليه في الجرائد. ويكون يوما مشهودا وذلك يوم السابع وأشهرها مولد الحسين والرفاعي والبدوي والشافعي والسيدة زينب وغيرهم كثير، وكل قرية تقيم مولدا خاصا به"¹⁵⁰⁷ أما بالشام فهم "يقيمون حفلات مولدية سائر السنة أفرادا وجماعات في المساجد أو البيوت يقرؤون مولد

1504 - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 39.

1505 - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 40.

1506 - المصدر نفسه، ص 73.

1507 - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 73.

النبي ﷺ ، قصد التبرك والتقرب ويوزعون السكر أي الحلوى ويكثر هذا في أيام المولد الشريف أي في ربيع الأول¹⁵⁰⁸.

ويركز الوصف في المجتمع المسلم على الحياة الدينية باعتبار أن الرّحّالين أغلبهم ملتزمون دينيا ومحافظون اجتماعيا، منهم من أُعجب بالحياة الدينية في تركيا مثل (الحسيني) الذي يصف عاداتهم الدينية الراقية في رمضان ويوم العيد وأيام المولد، وقد يشكّل ذلك نسقا عاما في كامل القطر التركي "ما رأيته في تركيا لم أراه في بلاد أخرى من الوجهة الدينية ولعل الأعاجم كلهم هكذا مثل إيران والأفغان والهنود وغيرهم"¹⁵⁰⁹ ولم تكن عادة الأتراك في الاحتفالات الدينية فحسب بل تميزوا بفاعلية في تطبيق مناهج العبادة ومن ذلك تحفيظ القرآن الذي كان لهم فيه طابعا خاصا في آدائه "وعندهم طريقة لحفظ القرآن يسمونها المقابلة، جديرة الإعجاب، فإنهم يجتمعون قرب الظهر ويأخذ جماعة من الطلبة المصاحف ويتقدم قارئ يقرأ ثم الآخر وهكذا فإذا ختم القارئ القرآن في المقابلة يعينه المفتي في وظيف ديني ويعطونه معاشا من ساعته وترى في مساجد اسطنبول مصطبات أي مقاعد مفروشة وعليها وسائد حريرية ويجيء القراء يقرؤون الواحد تلو الواحد والناس جماعات جماعات أمام المقاعد وليس هؤلاء القراء موظفين"¹⁵¹⁰.

ومنّ اهتم بوصف المجتمعات في جانبها الديني (منصور الغسيري) الذي بدّا تحييزه لهذا الجانب واضحا، فقد تجلّى ذلك في حديثه عن المجتمع المصري -خاصة- وتدوين شريحة الإخوان المسلمين الذين كانوا آنذاك يشكّلون نواة الحركات الإسلامية الناشطة بوعي تام في ممارسة شعائرهم الدينية، يتجسّد ذلك خاصة أيام الجمعة حيث "لا يجد فيه المصلون في أي جامع مكانا فارغا من المصلين فيضطر الجمهور العظيم إلى الصلاة في الشوارع العمومية ويرغم كلا على الوقوف حتى تؤدى الفريضة وما أروع أن يصلي المسافر إلى مصلحة القاهرة للسكك الحديدية فيجد المحطة مسجدا جامعا والإمام يخطب فوق منبر مسجدها الجامع وما أروع أن يعلم الناس أن الخطابة يوم الجمعة في مساجد القاهرة ليست وقفًا على إمام مخصوص"¹⁵¹¹ وهذا الوصف الذي يتحقّق من جنبات جوانح محترقة تنعكس على مرجعية الرّحالة الذي يصف من ذاته لا من جسد الوقائع المشاهدة فحسب، فهو في كل وصف كهذا يعقبها بإحالة على مجتمعه الذي يصفه بطريقة غير

1508 - المصدر نفسه.

1509 - نفسه، ص 83.

1510 - نفسه، ص 82-83.

1511 - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 254.

مباشرة وكأنه يستمد من الوصف الأول غيره وأملا في أن يجده متحققا في بلده، ويلخص كل فعل ديني جدير بحمل لواء المجتمع إلى الإيمان والروح الإسلامية في الخطابة، التي تُحرِّك مشاعر المؤمنين وتزبددهم قوة في ممارسات شعائرهم الدينية وليس كخطبائنا الذين وصفهم بـ "أشباه الموتى" ¹⁵¹² ومن خلالهم صار ما هو عليه الجزائري مُبعدا عن صحيح دينه "وكيف لا يكون كذلك إذا علمنا أن الشخير والتثاؤب والانحناء من بعض صفات المصلين في مساجدنا ولطالما حلا النوم لبعضهم فما أفاق وما صلى! وهل يبعث الميت الحياة في هؤلاء؟" ¹⁵¹³

2. 1. 1. 5. وصف حال

تتكشَّف شخصية الرّحّالة في كتابته للرحلة عند إعطائها بُعدًا سِيرِيًّا، سواء بالتصريح أو بالتلميح، وهو ناتج عن جوانب شعورية ونفسية تتحدّد من خلال كرامة الإنسان أو نوازع تتملّكه في حياته، تنجم عن اضطرابات نفسية يتعرّض لها في حياته أو في مرحلة من مراحلها، وإذا تصورنا هذا الفعل، فكيف نتصوّر حال الرّحّالين الجزائريين الذين تكحّلت أعينهم منذ أن فتحوها برؤية المستعمر يحمل السياط على رؤوسهم دون ما ذنب اقترفوه، وهو ما أسفر في أحيان كثيرة في خضم نصوص الرّحّالين عن تشكّل مُركّب النّقص تجاه فرنسا والفرنسيين، حتى صارت عقدة فرنسا عارًا لمن يريد ركوب أمواج السفر نحو هذا البلد، اعترافا ننتزعه من أحد الرحالين قوله: "ومن زمن غير بعيد أيضا كان سفر أهل العلم والدين إلى أوروبا منكرا كبيرا عند العامة ونقيصة شائنة عند المنتمين إلى التدين، وكان من دعتة ضرورة إلى السفر رجوع مستحييا يلتمس لنفسه المعاذير التي لا يقبلها منه إلا القليل" ¹⁵¹⁴.

وقد عبّر الرحالون في نصوصهم عمّا كان يجيش في خواطرهم من ألم، ولم تكن دواعي هذا الشعور ذاهبا في خيط إلى اتهام فرنسا كمستعمر بطريقة مباشرة، بل إلى وصف حال من داخلها، فتارة عن الأخلاق التي أصابت المجتمع في صميمه، فالمسافر في أثناء سيره يرى المناكر في بلده ومردّها إلى حالة الحصار السرمدى الذي أقامه الاستعمار، مما يدفع بالرّحّالة حين مشاهدته المناظر المتأسف عليها، ينتزع الوصف من داخل وجدانه لا من الواقع الخارجي، فيصف الحال المقابل للمأل: "خواطر هجمت على وجداني من هاته الوجهة فألمته وصيرته من الدهول لا يبدئ ولا يعيد ولكني لما

¹⁵¹² - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 254.

¹⁵¹³ - المصدر نفسه.

¹⁵¹⁴ - ملاحظات مسافر، مجلة الشهاب، مصدر سابق، العدد 67، (الخميس 7 جمادى الأولى 1345هـ/11-11-1926).

هدت إلى الحس والمعقول وجدت جواب القصة الأولى وسر جواب القصة الثانية¹⁵¹⁵ ولقد غلبت هذه الأوصاف في الرحلة الداخلية.

أما في الرحلات نحو أوروبا فإن الجزائري كان يصف حاله ويرثيها حينما يرى حال العملة من أبناء جلدته يرثي لها ويندى لها الجبين وأن فرنسا على علم بذلك، وأنها في كل هذا لا ترى في الجزائري إلا الذي يمثل أمامها من باشاغات وقياد في المواسم والاحتفالات "فلربما تصورنا في رفاهية وسعادة إذا شاهد النماذج المزركشة. التي ترد عليه من الجزائر في مناسبات كمناسبة افتتاحي المعهد الغريبي.. ولربما تصورنا همجا منحطين إذا شاهد أولئك العملة الجزائريين البائسين الذين يرميهم الفقر وبخس اليد العاملة بالجزائر حقها إلى ديار الغربية"¹⁵¹⁶.

ولقد كانت فرنسا متحيزة في كل شيء، ترى الجزائري بالعين النقيصة في إسدائه حقه، أما حين تطالبه بالواجب فتعامله بشدة مضاعفة على الفرنسي الذي كان قانونهم يقول بالتساوي لأنهم - حسب ادعائها- أبناء راية واحدة، ففرنسا كانت تثير زواجع النشاط البركاني تجاه مشاعر الجزائريين، وقد عبّر الرحّالة في وصف حاله حيال هذه المناسبة: "بكيت -والله- أثناء هذا الموقف المؤثر والمشهد الرهيب. بكيت للعاطفة العامة الإنسانية. والعاطفة الخاصة الجزائرية؛ ولا أخال من يقف ذلك الموقف إلا باكيا أو مقاربا للبكاء لهاتين العاطفتين"¹⁵¹⁷

وبمثل ذلك عبّر عنه (عثمان سعدي) أثناء سفره نحو مصر والباخرة في أهبة الاستعداد للانطلاق، حينها شعر بنوبة نفسية متأملا وطنه الذي سيغادره لتوّه تاركاً إياه وديعة بين أنياب الذئاب الذين يستخلفونه عليه، فانطلق يرثي حاله واصفا ذلك في قوله: "وقفت بين هذه الأجناس المتعددة وكأنني غريب عنهم لا تربطني بهم المخيلة ولا يوجد بيننا الإحساس لأن تذوق الجمال عبارة عن احتكاك بذرة في المنظر مع بذرة في النفس، وكيف يتذوق رائحة الزهرة من كان مريضاً بالزكام"¹⁵¹⁸

إن صور الوصف التي تجلّت في هذا الجانب، جلّها رثاءً للنفس التي صيرّها المستعمر نكادا، واستفحل فيها الوباء، فجاء الوصف في هذا الصدد يشكّل طابورا من الهموم والتنادي، فكثير منها جاء ليفيض في وصفه الممزوج بالسرد، وهو وصف للشعور ولعلنا أمام مقال ذاتي يرسم معالم شعور

¹⁵¹⁵ - سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق، مصدر سابق، العدد 22.

¹⁵¹⁶ - ملاحظات مسافر، مجلة الشهاب مصدر سابق، العدد 72، (الثنين 25 جمادي الأولى 1345هـ/ 29-11-1926).

¹⁵¹⁷ - المصدر نفسه، العدد 78، (الخميس 02 رجب 1345هـ/ 06-01-1927).

¹⁵¹⁸ - عثمان سعدي، وطني، مصدر سابق.

إنسان بائس، وقد اتسمت تقنية الوصف في هذا المقام بالشكوى والأنين، -دائماً- ثم عرّض تفسيرات ممزوجة بنبضات شعورية في حيّز وصفيّ مثل هذا الذي نجده في قول الرحالة: "كثر علي في تلك الليلة التفكير فبت هائما في بحر الاعتبار فتارة أتذكر للتسلي بمن مضى وآونة أتفكر في حالة قومي التي أصبحت عبرة حتى عند العبيد"¹⁵¹⁹ إن هذا الوصف الحالي، هو وصف ذاتي بالأساس، يقدم معاناته النفسية واعتلاجاتها.

2 . 2 . منظار الوصف وأبعاد الرؤية

تعتمد الرّحلة على الوصف في جوانب كبيرة من تفاصيلها، ذلك أن الرّحالة عندما يألو على نفسه مهمّة الكتابة حول تجربة سفره، فإنه بالضرورة يستنفر كل آليات الالتقاط التي ستكون مادة صيده من هذه المغامرة، ومنه تتصدّر العين هذه الطائفة من الآليات بالإضافة إلى الأذن، ولما كان الإنسان يتفاعل مع الأشياء المنظور إليها فهو يتفاعل معها بثقافة، مما يفسّر اختلاف الرؤى عند البشر من فرد إلى آخر، وهذه الثقافة هي المستودع الذي يرجع إليه المُبصر إلى تحديد مستويات المرئي من خلال شبكة المعارف التي تحوّها من جسمها المجرد إلى وظيفتها في الحياة، لذلك لم تكن المرئيات في حقيقة أمرها إلا مكّونات لفضاءات نسبية يحددها الرائي بقدر ما استوعب من حقائقها، وما أفرزته ذاته من توجّهات، وهذا الذي يجعل من الوصف زوايا وأبعاد لا تتساوى فيها الرؤية في المشهد الواحد لسبب اختلاف المرجعيات الثقافية التي تعتمد عليها كثقافة نقدية "تسلّم، منذ البداية، بأن التأويل يتعدّد وأن المنظورات تختلف، وأن كل معرفة تصحيح لأخطاء، وأن كل علم تسبقه إيديولوجيا تقلب الأمور، مثلما تقلب الموضوعات على شبكة العين"¹⁵²⁰ ومنه لا يعتبر الوصف رسم الملتقطات، بل حتّى أن الرحالين لا يروقههم وصف كل المرئيات، ولا يَسع المرئيات التي يذكرها أحدهم أن يعيدها الآخر، وهو ما يفسّر ظاهرة الخطاب الذي يتعدّد على حسب تعدّد المخاطبين، لذلك كان الوصف ينطلق من أبعاد نفسية تستفزّ الرّحالة للقيام بتسليط الأضواء على موصوفات دون أخرى، هذا الاختيار تقف وراءه العين الواعية ما دامت "العين هي حاسة المسافة والابتعاد والانفصال ولذلك هي حاسة التفكير والنقد والتأويل والتقييم و تعدد وجهات النظر"¹⁵²¹ مما يخلق عند الرّحّالين تعدّد أوجه النظر فيما يُعدّ

¹⁵¹⁹ - الحياة في أوروبا أو أوروبا في الحياة..؟؟، مجلة الشهاب، مصدر سابق، العدد 52.

¹⁵²⁰ - ثقافة الأذن وثقافة العين، عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2008، ص 8.

¹⁵²¹ - عمر عبد الواحد، السرد الشفاهية، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 10.

وصفا للممكنات وذلك انطلاقا من تكوينهم الثقافي وتوجههم الإيديولوجي، وهذان عاملان أساسيان في عملية الوصف وأبعادها، التي نقف من خلالها في جسّ الرحلات الجزائرية الحديثة.

2. 2. 1. البعد الإيديولوجي

يتدقّق الوازع الإيديولوجي في البناء الوصفي استنادا إلى توجّه الرّحالة الفكري، فتغدو كل المرئيات متكيفة وفق ميولاته وتوجهاته، فتغلب الدّاتية على الموضوعية في غالب الأحيان، لترسو في الأخير الرؤية في العملية الوصفية على مرفأ التعصّب لاعتقاداته فتصبح الأشياء كما يراها هو لا كما هي في حقيقتها، ومن ثم فنحن "بإزاء إيديولوجيا تتجاوز في الواقع الإطار السياسي لترقى إلى مستوى الرؤية إلى العالم"¹⁵²² يقف فيها الوصف بآليات ذات الواصف لا بآليات الوصف ذاته، ومن ثم تصير نتيجة الوصف تقويمية تنبع من موقف لم تعد فيه "الحقيقة تنير ذاتها، ولم تعد المعرفة إدراكا مباشرا لموضوعها، بل أصبح موضوعها يتمّ عبر لفّ ودوران"¹⁵²³. ومن ثم ندرك أن الإيديولوجية في حدّ ذاتها موقف، يتّخذ الإنسان في حياته يدلي فيه برأيه ويتعصّب لموقفه، ويتحدى بصرامة، الموجات المضادة من كل تيار، ولعل الإيديولوجية نتاج خميرة توجّه يغلب عليه الطابع السياسي الذي يتبناه الشخص لاعتقاده بأنه السبيل الأمثل للإجابة على إشكاليات الواقع الذي لا يرسو أبدا على مرفأ ساكن، ولو قدّم أمثل مشروع، ما دام أن البنية الفكرية في كل مجتمع تقوم على الاختلاف والتدافع، هذا ما عبّرت عنه الرّحلة الجزائرية في هذه الفترة التي سادها التّصعيد الاستعماري إيقادا لتهديج الشعور، فكان التّوجه سليل الموقف المؤثّر للنص المندرج خلف مرجعية تاريخية وخلفية فكرية، وقد ساد النّسق العام في هذا الجانب عن بُنى تقاطعت في أغلبها المواقف المشتركة عند كثير من الرحالين، تنمّ عنها جلّ التصريحات منها والملمّح لها أحيانا.

إن الوصف في هذا الاتجاه يُبدي جليّا صفات الرّحّالين وتوجهاتهم وانتمائهم، وهو في ذلك يقوم تارة إيماءً بالدفاع عن مشروع انتمائه والدّفع بالقارئ إلى استحسانه، وتارة يهاجم من خلاله خصومه واصفا إياهم بأقبح الأوصاف، كما كان الحال بين الطرفين والإصلاحيين. وفي كل الأحوال يقف الواصف موقف من يرى نفسه صاحب الرؤية الصّائبة بتعصبه لأفكاره تجاه الطرف الآخر أخلاقيا وسياسيا وفكريا.

¹⁵²² - حميد الحمداني، النص الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي ببيروت، الدار البيضاء، ط1، ص19.

¹⁵²³ - ثقافة الأذن وثقافة العين، عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2008، ص8.

لقد وصف الاصطلاحيون الطرفين بأشع الأوصاف، فهم في نظرهم "الصف المشبه، مركب من خلقة الإنسان وخلق أخس أنواع الحيوانات"¹⁵²⁴ وهو الوصف الذي لا يقوم عن رؤية بل على حكم عام يخرج من معطف الحديث عن خصومهم، وفي مقابل ذلك نجد هذا العامل الإيديولوجي المؤسس للوصف هو ذاته الذي يشهر لنفسه على أنه المثال المحتذى والحل المجتبي "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي جمعية الوطن الجزائري أجمع، تمثله من الناحيتين الدينية والعلمية"¹⁵²⁵ ونجد العكس عند الطرفين الذين يصفون خصومهم الإصلاحيين بطائفة "الإفساد والمفسدين (بدل الإصلاح المصلحين)"¹⁵²⁶ ولم نجد في هذا الوصف إلا اقتضابا شديدا، ينم عن وضع التقرير الذي يعتمد على أغلب رحالي هذين الطائفتين فيما يخص الرحلات الداخلية.

أما الرحلة الخارجية فتتفلق إلى اتجاهين، والزاوية الإيديولوجية تتأسس على أبعاد دينية نحو المشرق، فتصف المجتمع المتدين كمصر خاصة فيما كان نشاط الإخوان: "الشباب الإسلامي المجاهد في هيئة الإخوان المسلمين والشبان المسلمين وغير الإخوان والشبان وفي بقية الشعب المصري الماجد رجاله ونسائه"¹⁵²⁷ أما ذات الاتجاه الأوروبي فحدة الإيديولوجية تزداد درجتها، فيقفز الوصف من البسيط ولو كان مفعما بالشدة إلى المركب بالعوامل العقدية تارة أو بالسخط على التركة الاستعمارية. إن الجانب العقدي لا يبرز بشكل مباشر في كل النصوص ما عدا بعض التلميحات التي تتخلل بعض النصوص، بينما يبدو الموقف من الاستعمار جليا في محطات مختلفة من النصوص المختلفة، وبالضبط تلك التي دونها أصحابها عند زيارتهم لفرنسا، وإذا كانت هذه الرحلات متنوعة في تفصيلاتها فإن رحلة (بوزوزو) قد خصها من أولها إلى آخرها عن البرلمان، حيث أوقف قطار السرد عند محطة الوصف وبدأ يشعب في ضروبه المختلفة. فكان لا يرى في مكان البرلمان الفرنسي إلا صورة شاحبة، عن مقر سليل المؤسسات الاستعمارية، ليتحول المكان الهندسي إلى فضاء إيديولوجي، مبرزا الصورة المثالية في الاستهلال لإثبات النقيض حين عملية الوصف "لقد كنت أتصور البرلمان جليلا، وأتصور رجاله أجلاء، وأتصور أحكامه صادرة عن إيمان بمثل أعلى"¹⁵²⁸، إن الرحلة يعلم يقينا أن البرلمان الفرنسي لا يمثل العدالة ولا حرية ولا حق الشعوب، مما جعله يستعمل الأفعال الماضية في صياغته للصورة الاستهلالية لدلالة نفي وجود ذلك في الواقع، لتتحول الصورة

1524 - رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، مجلة الشهاب، مصدر سابق.

1525 - تفقد الشعب "حياة الإصلاح في البلدان التي زرتها"، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 28.

1526 - جولة نائبا في الأجزاء الوهرانية، جريدة البلاغ الجزائري، مصدر سابق، العدد 157.

1527 - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 254.

1528 - من وحي البرلمان، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 11.

الذهنية إلى واقع مشاهد رأي العين وحسّ جوارح فيدرك أن "السياسة الفرنسية لا تتغير ولا تتأثر بما يحدث حولها من انقلابات وثورات لخير الإنسانية. فهي ضعيفة الإقدام على التغيير والتجديد. وتخاف حتى من العبارات الجديدة، ومن الألفاظ المشتقة من مادة "جد"¹⁵²⁹.

أما الوصف بالمنحى السياسي الإيديولوجي فلم يفتق في الرحلة الجزائرية إلا مع بلوغ الوعي مرحلة متقدمة بداية من عشرينيات القرن العشرين، حيث تأسست جمعيات وأنشأت أحزاب، نتيجة اكتساب الفكر درجة من الوعي الذي اكتسبها من الاحتكاك والثقاف، ونتيجة البحث عن سبل النضال في سبيل مناهضة الجور الاستعماري. ولم نظفر بمواقف من هذا الجانب إلا مع تعدي عتبة الحرب الثانية، ومع انقسام العالم إلى معسكرين (شرقي وغربي) الذي ميّز الجناح الغربي، الدول الرأسمالية التي تمثل الدول المستعمرة، بطبعا عدوة لها، هذه الأخيرة أغراها التيار الشرقي ذي المشروع الاشتراكي الشيوعي، الذي تبني نظريا احتضان قضايا المستضعفين ونصرتهم، وحرصه على العدالة الاجتماعية التي تحرص على سواسية الإنسان في الدولة الواحدة، هذا الأمر الذي أغرى الرّحّالين الجزائريين الذين جالوا دول المعسكر الشرقي كروسيا ورومانيا ويوغسلافيا وغيرها من دول هذه المنطقة، وأعجبوا بنظمها وإنسانها وما يميّزه من أخلاق وجدّ في العمل. إن التمثيل على مواقف الجزائريين تجاه مواقفهم الإيديولوجية هو الاختلاف في المواقف الذي نجده عند رحالين من التوجه نفسه، وهما حوحو وتوفيق المدني، حيث يرى الأول أنه نظام متكامل، في حين يرى الثاني أنه نظام متهرئ قد سقّه جميع من كان يظنه مثالا يحتذى خاصة "الطلبة الجزائريين الذين بعثت بهم إلى موسكو وكانوا ميّالين من قبل إلى الشيوعية، فإذا بهم خمدت نار حميتهم، لأنهم لم يجدوا عملا -حسب قولهم- يتفق مع ما كانوا يتصورونه"¹⁵³⁰ ومن هذا كله لا نحتاج إلى كبير حجة للتدليل على إشباع الوصف بالتطعيم الإيديولوجي، الذي لا يستند إلى تجميل صورة المجتمع الاشتراكي بما فيه من أشياء وأشخاص إلا من باب الامتداح، حتى وإن تجلّت كثير من المظاهر الجميلة التي ارتاح لها الرّحّالون من نشاط وجمال فإن السّمة الغالبة لا تخرج عن البصمة الإيديولوجية.

2. 2. 2. البعد النفسي / الاغتراب

يندفع الوصف في بعده النفسي، من اختمار مادّته وفوران عنفوانه، من خلال إفرازات الذات التي تعاني سببًا من أسباب الخدش في كرامتها، أو تدني مستوى من مستويات عزّها، يحدث ذلك من خلال عدة عوامل وأسباب (اجتماعية، اقتصادية، سياسية..). لقد عاش الجزائري في حالة إقامة

¹⁵²⁹ - المصدر نفسه، العدد 13.

¹⁵³⁰ - في موسكو، حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص 458.

جبرية، وهذا واقع وجدت فيه أجيال متعاقبة نفسها في مستنقعها، دون جريرة اقتربها. لقد كانت زمرة الرّحّالين تمثل شريحة من هذا المجتمع، وإذا كان الاغتراب حالة شعور يعيشها الإنسان ففي داخل البلد كان الاستعمار جاثما على رأسه، بيده مقاليد العيش الذي لم يكن سعيدا ولا كريما، ولم يكن يؤدّ الجزائري أن يرى الجمال فيصفه كما هو، "لأن تذوق الجمال عبارة عن احتكاك بذرة في المنظر مع بذرة في النفس، وكيف يتذوق رائحة الزهرة من كان مريضا بالزكام"¹⁵³¹. لقد أدرك الرّحّال أن الرؤية مهما اختلفت صورها وألوانها فلا يمكن أن تُرى إلا من منظار واحد، فيظهرها كما تظهر من خلاله وليس كما هي في الواقع. إن واقع الصورة بكل أشكالها وأبعادها ليس هو المجال الحقيقي للرؤية، إنها تعود للبصيرة المشبعة بمخلفات الزمان، فلا تكفي العين إدراك الجمال ما دام في القلب نكوص وفي النفس لوعة. إن الرؤية البريئة لا يمكنها الصمود في وجه المشهد غير البريء، فسرعان ما يتحوّل الواقع المزيّن بصور المخاتلة إلى مرارة فعل الصورة لا مشهدها، فميناء الجزائر لم يكن في لحظة صورة متكاملة الحسن، من امتزاج الألوان المائية بجدران المدينة البيضاء وشرفاتها المتطلّعة ولا سفنها الرابضة وعصافيرها وحركيتها، فكل هذا لم يكن في الحقيقة يكفي لتغطية آلام الجزائريين، ليتحوّل واقع الصورة إلى حقيقتها المتأصلة في نفس الرحالة "لكن سرعان ما يخونني الواقع فيرجع بي إلى الحاضر فأرى البواخر خارجة من ثغرك محملة بخيراتك تاركة من ورائها أبناء يعبث بهم الجوع، وفلذات أكباد يعبث بهم الحرمان"¹⁵³²، والحقيقة هي هذه، بينما المظهر الخارجي واجهة لصورة مزيفة.

وليست الرؤية لواقع الصورة التي كانت تبدو قائمة من خلف حسنات المشاهد داخليا فحسب، بل كان الرّحّالون جلّهم يركّز على ما وراء الصورة، فلا يصف عبرها إلا بمنظار نفسي يسوده الاغتراب، تجلّت خصوصا عند تركيزهم على العملة الجزائريين المنكبّين في الحقول والمعامل الفرنسية في حالات ونعوت لا يحسدون عليها. حتى وإن طغى الواقع الأوروبي بما يحمله من جمال الطبيعة وابتكارات العصر. والجزائري كان غريبا حتى في وطنه، وساده الاغتراب خارج دياره، كان في أوروبا مغبونا وبائسا، وكان في المشرق مشرّدا ومنفصلا، لم يخرج من بلده طوعا، حتى وإن بدا أنه في أحسن حال، فهو مكرم عزيز بين إخوانه العرب/ المسلمين، لكنه مشرّد عن أهله وذويه، يجاهد في سبيل نيل شيء من الوعي والعلم ليعود مزوّدا بذلك السلاح ذات يوم، وقد عبّر الإبراهيمي عن تلك الصورة واصفا فئة من الطلبة الذين لم تظهر صورهم البريئة بحالات الاغتراب إلا في عين رائيها الذي ميّرها، بمنظاره النفسي مدركا أنهم بحاجة إلى حنان الأهل، ودفئ العائلة، وحضن الوطن "ولله تلك الفئة المهاجرة للعلم من أبناء

¹⁵³¹ - عثمان سعدي، وطني، البصائر، مصدر سابق.

¹⁵³² - المصدر نفسه.

الجزائر، فكأنهم - والله - أبناء بررة، يلوذون مني بأب طال غيابه عليهم، ثم تيسر إياهم إليهم... لكم الله أيها الأبناء، وعلي نذر الله أن أتعب لراحتكم، وأن أميط الأذى عن ساحتكم، ما عشت وانتعشت، وما أخلصتم للعلم وانقطعتم له ونويتم به نفع الجزائر¹⁵³³ وهذا نموذج من صور كثيرة تجلّت في نصوص الرّحلات داخليا وخارجيا، ما دام أن زادَ المسافر محمّلا بعبء المرحلة المشوّهة من تاريخ الجزائر الحديث.

3. 2. 2. البعد الجمالي

يختلف المنطلق الجمالي في الوصف عن غيره من المنطلقات، كونه يسترسل في إضاءة المشاهد سواء أكان ذلك على مستوى المكان أو الشخصيات، وهي تفسّر حالات الرّحالة في وضعها المريح التي تكون فيها الرّحلة إما سياحية فهي تجوب الأمكنة وتستنشق من فواح رحيقها، كما قد تكون مقصديتها مشحونة بنشوة فخر أو نزوة انتصار وتحقيق أهداف وغايات. ويتكئ في ذلك الوصف على آليات بلاغية، يكثر فيه الإطناب والاسترسال، ويعمد إلى الزخارف والمحسنات، ويأتي الوصف في صورة محايدة، لا يعكّر صفوها حدث من أحداث السرد أو من خصائص ضمير الرّحالة المنعكس على ظروفه النفسية وسعيه في تأدية تقريره المسند له. فيأتي الوصف نقيا، خالٍ من التقريرية مفعم بالاستعارات التي تسهم في إعطاء صورة متكاملة الملامح مشبعة بفسيفساء الألوان، حتى تكشف عن جمال المكان وتضفي عليه من تذويتها إلى أن تصل الصورة نفسها التي تأثر بها الرّحالة المبرر إلى المتلقي الذي يقوم بمهمة إعادة تشكيل الصورة وتقريبها منه، وبالرّغم من أن الرّحلات الداخليّة التي اصطبغت بالتقريرية في غالبها، إلا أن بعضها استطاع أن يشفّ عن لمسة صاحبها المنفعل بالجمال في صفاء تعبير وأبلغ صورة، وأريحية نفس، فبدت خالية من كل شحن غير الجمال مثل هذا التعبير الذي خصه (محمد العلمي): "تقدم بنا القطار إلى أمام مدينة قسنطينة فلاحت لي بيضاء نضرة، يعانقها جمال الطبيعة من جميع جهاتها، وتحيط بها خضورة البساتين والرياح¹⁵³⁴ ولعله من الضروري القول إن التعبير عن الجمال لا بدّ أن يتمنّع فيه الرّحالة بالجمال ذاته ويتأثر به ويتفاعل معه، وذلك يقتضي تمثّل مظاهر الجمال، مع شرط العناية به والتفاعل معه، لأن غياب الوعي عن الجمال سوف لن يؤدّي إلى حقيقة الجمال، فكم من زائر لقسنطينة -مثلا- لا يرى ولا يحقّق في جمالها ما حقّقه الرّحالة (محمد العلمي) كالمثال الذي سبق والذي هو آت: "فلما أبصرت جمال موقع قسنطينة انشرح صدري

¹⁵³³ - رحلتي إلى الأقطار الإسلامية، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 197.

¹⁵³⁴ - سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق، مصدر سابق، العدد 38.

لمنظرها لاسيما مما نقشته يد الطبيعة على السهول من أمامها وخلفها من حدائق ومنازه، وما على نهرها السيل من حقول وجنات، أما المدينة فكانت في الأعلى على تحت رفيع محفولة بخضون طبيعية من المهاوي العميقة وقواعد موقعها الحجرية العتيقة"¹⁵³⁵.

وإذا كان الأمر كما شرحنا، فإن مدن أوروبا وتضاريسها تعدّ محل الاستمتاع بالجمال، وهو ما نجده مستفحلا في مساحات النصوص التي غصّت بالتنويه بجمال مدنها وأماكنها الطبيعية. إن أوروبا أينما وليت وجهك تجد طبيعتها ضاحكة مستبشرة، وفي هذه الحالة لا يصبح الوصف مجرد نقل للجمال، بل إلى ما يوحي بأن هذا الجمال لا تستوعبه حواس الإنسان مثلما يعبر أحدهم وهو يسترق النظر في طبيعة يوغوسلافيا "وكثيرا ما تتمنى أن لو كانت لك أكثر من عينين اثنين حتى لا يفوتك منظر العمال العاملات في الحقول، ومنظر الجبال ووهادها الواطئة من تحتك حيث انتشرت القرى بسطوحها الحمراء وتناثرت فوق حمرتها سحب بيضاء متقطعة وقد أحاطت بالجميع خضرة الجبال الشاهقة والجبال نفسها تسير معك في تغير وتنوع، تتجمع حولك مرتفعاتها متى تشعر أنها احتضنتك إلى الأبد، ثم تتفرج أمامك يمينا وشمالا فلا تجد نفسك في قماتها ومن حولك السماء نظيفة زرقاء ومن تحتك السحب كالعهن المنفوش"¹⁵³⁶ وأكثر من ذلك إن الباحث في ثنايا النصوص الرحلية لا يجد صعوبة في تمييز أوروبا في جمالها فهي في الغالب "نظام خاص ونظافة تامة وتنسيق بديع في الطرقات في الحدائق في المقاهي"¹⁵³⁷.

أما البلدان العربية فهي مطابقة أحيانا بمدن الجزائر، فليس الوصف من هذه الناحية إلا ما كان وشما في الذاكرة يعزّزه أمثالها أمام العين ليتحقّق فيه الجمال المكرّر على خلفية مرجعية، خاصة منها الأماكن المقدسة "دخلنا الحرم الشريف فأسرنا رواؤه وجماله، وسحرتنا هندسته وبيانه ثم انتهينا - بعد تحية المسجد- إلى الروضة النبوية الطاهرة ووقفنا خشعا . أما جدث من صلى عليه الله وملائكته وسلم"¹⁵³⁸ أو المدن التاريخية التي يسبق عند الرحالة جمالها، لأنه مبثوث في النفس كما هو مشروع حلمٍ لطلما يتمناه كل إنسان، مثل "جامع القرويين متّسع الرجاء ذو سواري عديدة فيه طلاب العلم ما يناهز الثمانمائة"¹⁵³⁹ وقد جاءت أنماط الوصف الجمالي بقدر جمال الأمكنة ومحتوياتها.

¹⁵³⁵ - المصدر نفسه.

¹⁵³⁶ - جزائريون في يوغوسلافيا، جريدة المجاهد، مصدر سابق، العدد 105.

¹⁵³⁷ - أربعون يوما في الطريق بين باريس وقسنطينة، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 128.

¹⁵³⁸ - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد: 273.

¹⁵³⁹ - جولة نائبا بالمغرب الجزائري والقطر الغربي، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 145.

2. 2. 4. المقايسة والوصف المقارن

تقوم الرّحلات على المقارنة للتمييز بين الهنا والهنالك، في عملية سبّر أغوار الذات كمقياس للحكم على مستواها بين من يفوقها مما هو دونها، حتى أن الرّحّالين أنفسهم يقرّون بذلك وعيا منهم بأن الرحلات تمنح لهم فرصة للتمييز، وهو ما أقرّه أحدهم: "ولا أعتقد أن واحدا منا يستطيع أن يتمالك عن المقارنة بين ما تعوّده في بلاده من مقاييس وما يجده في بلدان أوروبا على العموم"¹⁵⁴⁰. ومن هنا يقوم الوصف المقارن على وصف "الهنالك" انطلاقا من مرجعية صورة "الهنا" وجعل كلاً الصورتين في كفتي ميزان، ودائما ما يبدأ الرّحّال في عملية المقايسة بالهنالك لأنها تحلّ محلّ الشاهد في مقابلتها بالهنا، ليمحصّ الفارق فيقيس به مسافة التفاوت، انطلاقا من آلية الوصف للمفاضلة بينهما. مع استعمال الضمائر (هم/ نحن) للدلالة على الإحالة المباشرة، مثل: "الطبيعة عندهم فيها كل معاني الكبر والعظمة والضخامة، الأشجار طولها بعشرات الأمتار، والجبال علوها بالآلاف، وما هو عندنا مغامرة نادرة في حياتنا ليس إلا وجهها من حياتهم العادية"¹⁵⁴¹ كما أنه قد يستعمل الضمائر بصيغة تقديرية مع تعليل الموصوف للمقايسة، وكثيرا ما عبّرت الرحلات في هذا الخصوص عن حالة الاستغراب والأسف، إذ ليس الفرق فيما بين "الهنا" و"الهنالك" في حالة التفوق قائما على معطيات الطبيعة، وإنما أمّ القضايا تتعلق بالعلم وحسن التسيير، وهو الداعي الذي جعل الرّحّالون يمتعضون من حالهم وأوضاعهم المفرط فيها، وإدراكهم حكمة التفوّق ومداه عند الإنسان الغربي، وهو اعتراف أقرّه الرّحّالون كلهم، مثل ما صرّح به مبارك المليبي: "فطرفك لا يقع إلا على مظاهر النّعيم والتّرف، في أرض ليست أطيب تربة ولا أغنى طبيعة من أرضنا؛ ولكن قوّتا العلم والحكم جذابتان، وعلّتا الجهل والاضطهاد قتالتان"¹⁵⁴² فالرّحّال يأتي بالتعليل لتفسير القياس الذي أفضى بالحكم بتفوق (الهنالك)، فليست الأرض وما تتمتع به كافٍ وحده، ما لم تسيّر بعقل وحكمة الإنسان الذي يقوم بعنايتها.

ومن جانب آخر تقوم المقايسة على الجانب الأخلاقي في استخدام الوصف بتعبير جمعي ذلك لأن المرئي لا يخصّ الشّخص في ذاته بل هو يقابل المجتمع المرئي في ضمير مجتمع الرّحّال الذي يمثّله، ومن هنا تكمن مهمّة الرّحّال في إقامة الموازنة التي تفرز عنده سرعة الكشف عن عورات ذاته ومجتمعه بكل ما تحمله من صفات، انطلاقا من استفزاز المرئي، خاصة إذا زادت حدّة التفوق أو النكوص وهي

¹⁵⁴⁰ - جزائريون في يوغوسلافيا، جريدة المجاهد، مصدر سابق، العدد 105.

¹⁵⁴¹ - المصدر نفسه.

¹⁵⁴² - مبارك المليبي، فيشي، جريدة البصائر، مصدر سابق.

دعوة عفوية صريحة يتفوّه بها عند محلّ المقارنة في صورة الاعتراف: "ومما يسجله المسلم بكل خجل عناية هؤلاء القوم بالنظافة حتى كأنك -وأنت في فندق- نزل في مستشفى جليل. فكأنهم الذين أمرهم دينهم بالنظافة وحثهم عليها دوننا أو كأننا تعاوضنا فأخذنا تعاليم دينهم التي أهملت هذا الأمر وأخذوا بديننا في هاته الناحية"¹⁵⁴³ وتقوم هذه المقايسة على عملية سلخ للذات وتبصيرها بعيوبها، وتحفيزها على النهوض والاعتاظ، ونقل التجربة من الآخر (المتفوق).

كما نجد المقايسة تقع على المطابقة الكليّة بين بلدين في اشتراكهما بخصوصية عامة، كخاصية الثورة التي تميّزت بها يوغوسلافيا في مقابل الجزائر التي أثبتت رخالوها على إقامة الكشف عن أوجه الشبه "إذا وجدت شيئا في يوغوسلافيا قد ذكرني ببلادي تذكر الشبه لا يذكر المقارنة العكسية فهو ما وجدته في متحف الثورة بمدينة "تيوفوزيتشي"¹⁵⁴⁴ ويضيف أيضا أن "كل شيء في المتحف ذكرني بالجزائر أو بالأحرى بالثورة الجزائرية، لقد كان كل ما رأيته فيه هو جزء "محظ" مما هو حي اليوم في الثورة الجزائرية"¹⁵⁴⁵.

والمقايسة في الرحلة الجزائرية لا تقوم على مجتمع الرّحالة ومحيطه، بل تتعدّد بتعدّد ثقافته وتحوّلاته عبر المناطق العديدة من العالم، فبالنسبة لبعض الرّحّالين أن ما يهمّ هو كون مَشاهد المقابلة متوقّرة. ومما نجده -مثلا- أن إسماعيل مامي في رحلته إلى المغرب تتخذ المقايسة فيما بين فاس وباريس في تفاصيل متعددة خص فيها أوجه الشبه "ومن جملة ما يجدر أن يشبه به فاس بباريز كون كل منهما متنوعة لغيرهما من بقية بلاد شعبيهما فكما أن باريز والباريزيين تنافس غيرهم من الفرنسيين في تقليدهم والتشبه بهم في الشكل والهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمنطق حتى في اللثغة التي هي عبدال الرء في النطق غينا فكذلك نرى إخواننا المغاربة يقلدون غالبا فاسا والفاسيين في تلك الأمور"¹⁵⁴⁶ ويقوم هذا انطلاقا من ثقافة الرّحالة الذي يميز بين البيئات المختلفة عند بني الإنسان في العالم، هذا مما يؤكّد على عالمية الرّحالة وتبصّره للأشياء، وشساعة معارفه، وتنوع ثقافته.

2. 2. 5. البعد الغرائبي

يتجسّد البُعد الغرائبي في الوصف على شكلين: الرّحلة إلى أوروبا والانبهار خلال القرن التاسع عشر، والرحلة الصوفية التي يجسّدها العشعاشي في رحلته.

¹⁵⁴³ - المصدر نفسه.

¹⁵⁴⁴ - جزائريون في يوغوسلافيا، جريدة المجاهد، مصدر سابق، العدد 105.

¹⁵⁴⁵ - جزائريون في يوغوسلافيا، جريدة المجاهد، مصدر سابق، العدد 105.

¹⁵⁴⁶ - جولة نائبنا بالمغرب الجزائري والقطر المغربي، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 156.

وانطلاقاً من المستوى الحضاري الذي كان مجسّداً خلال القرن التاسع عشر، تتشكّل فضاءات الغرائبي في الرحلة نحو أوروبا، ومن هنا تتدفّق حالة الوجود أمام منجز الحضارة الغربية، فتؤسّس رؤية الرّحالة إلى فضاءات غرائبية تنبئ الذات في ملاحقة ذلك المستوى فتخلّد للاستسلام ويتوقّف حدود الوصف على حافة العجز في محاكاة وتمثيل الموصوف، ويتدبّن التعبير لعدم جدواه في إيجاد صيغ للتدليل على موصوفه، فتغيب المفردات ويتيه التصرّور مع انعدام مرجعية تقارع المرئي والمنجز، ومن أجل إيجاد صيغ للتعبير عن الموصوفات في هذه الحالة يتم الاعتراف الضمني والصريح بعدم الخروج عن القول (عجيب وغريب) نجده كثيراً في استخدام (بن قاد) في مثل قوله: "وذلك من أعجب ما رأينا وليس الخبر كالمعاينة"¹⁵⁴⁷ ومثلاً نجده -أيضاً- في قول (ابن صيام) في مثل قوله: "وهذا من أغرب ما رأيت والأمر لله من قبل ومن بعد"¹⁵⁴⁸ وبالمنط نفسه نجده عند زمرة رحالي هذا الجيل الذين كشفوا عن بطانتهم مستغربين بصريح العبارة وإيجائها.

وفي صورة أخرى نجد الوصف الغرائبي مجسّداً في الكرامة من خلال رحلة صوفية يتيمّة، دوّنها العشعاشي مع نهاية القرن التاسع عشر، يصف فيها أثر شيخه (الهبري الدرقاوي) في مقامات مختلفة يقع فيها الجانب الغرائبي محوّراً أساسياً في تحريك عملية السرد، يشتغل فيها الوصف على حدود الخارق متمفصلاً في ثنايا البعد الميتافيزيقي لدى التجربة الإنسانية بأبعادها الاعتقادية الغيبية التي تتجاوز المألوف والمحسوس، لتعطي للشخصية القطبية تركية للتفوق على أقرانها من ذوي الجنس الواحد، فتجسده في مرتبة فوق رتبة البشر العاديين، ودون مرتبة الإله، ونجد في هذه المحطة أن الوصف يمتزج بالسرد امتزاجاً، بل ليس للوصف أي صفة إذا لم يأخذ السرد بيده بداية من قوله: "وتابعت سفري إلى تونس العاصمة للحقوق بشيخي، فوجدت الفقراء التونسيين في محطة القطار بأمر من الشيخ الذي علم وقت وصولي بإلهام من الله، فهذه أيضاً إحدى كراماته، ففرحوا بي وقادوني إلى المكان الذي نزل فيه الشيخ"¹⁵⁴⁹.

2. 2. 6. البعد التاريخي

والوصف ببعده التاريخي قائم على تخمين المكان لاعتبارات يحملها المكان ذاته، إذ يعدّ وصفه زئبقياً في شعور الرّحالة وفكره فمجرد إحساس الرحالة بمكان تواجهه أن المكان يحمل سمة تاريخية أو قدسية يتحول الوصف إلى قائمة من النعوت التي لا تستند إلى مرجع مرئي بل إلى صور تخيلية رسمتها

¹⁵⁴⁷ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 34.

¹⁵⁴⁸ - المصدر نفسه.

¹⁵⁴⁹ - مصطفى العشعاشي، رحلة الحج، مصدر سابق، ص 81.

ثقافة الرّحالة من خلال اطلاعه التاريخي أو مكّونه الاجتماعي والثقافي، لتُصبح الصّورة الملتقطة (المرئية) مجرد ظلّ فهي ذريعة للدخول إلى عالم الصّورة المسترجعة التي تشعّ بحياتها ما دام أنها تحمل جينات وحوافز الاحتذاء، وبوابة للمراجعة والاعتبار، ومن ثم يغدو الوصف متّجهاً لتوجّهات شتى إما إلى الاعتزاز (الفخر والتمسك والنخوة والثقة بالنفس..). وإما إلى التأسف (مناجاة واستدعاء..).

إن اعتماد الوصف انطلاقاً من بعده التاريخي يقوم في الرّحلة الجزائرية الحديثة استشعاراً بقيمة المكان الذي يتأسّس على مرافق التاريخ في بعده الحضاري، ولعلّ مجدّ المكان وقيّمته تجعل منه فرعاً من القدسية التي يلجأ من خلالها الرّحالة إلى الاعتزاز بفضل المكان والتشرف بالاقتراب منه وملامسته. فيؤسّس إلى عملية استرجاعية يستطرد من خلالها الرّحالة إلى عظمة المكان في فضاءاته المتعددة من خلال فضله في التاريخ انتصاراً ونكسة، وبخاصة الرّحّالون الذين لهم اهتمامات بالتاريخ، أو توجّهات دينية، مثلما نجده عند الرحالة الغسيري الذي يسترسل كثيراً في وصفه للأماكن التاريخية مثل قوله عن تونس "وإنك لترى مدن تونس العربية الإسلامية وقد سبّح بك الخيال إلى أيامها في عهد الفتح الإسلامي الأول، وكأنك ترى جيوش عقبة بن نافع الفهري تدخل القيروان سنة 50 للهجرة"¹⁵⁵⁰ ولا يدع الرّحالة قلمه حتى يعدّد كل عهود الدولة الإسلامية التي مرت بتونس منذ عهد الأغالبة إلى الحفصيين مروراً بالموحدين "فتذكر صوراً مختلفة بناء تارة وهدمها أخرى، فخرج من جميع تلك السياحة التاريخية بأن هذه الأمة العربية الإسلامية التي تعيش على ضفة البحر الأبيض المتوسط الجنوبية خالدة، وإن مسها الضر، وناهضة، وإن تنكر لها الحدثان"¹⁵⁵¹ ولا يفارق الغسيري هذه الكيفية في عرض رحلاته إلا اعتباراً من الأمكنة التي زارها، وكثيراً ما كان يسمّي المدن والبلدات بأسماء اشتهرت بها عبر تاريخها المجيد كقوله عن بلد مصر: "دخلنا القاهرة، القاهرة المعز الدين الله الفاطمي"¹⁵⁵² ولم يكن الغسيري يُكّني مصر إلا بهذه الكناية حيث لا تزال تتجسّد معالم عمرائها في مصر الحديثة.

7. 2. 2. البعد الروحي

تسدّ البقاع المقدسة لدى المسلمين رقعة هامة من وجدانهم، وبخاصة الرّحّالون الذين يلجئون إليها حاجّين، متضرّعين ومتوسّلين، لذلك يكثر في هذه المناسبات الوصف حيث تستوقف الأمكنة والمقامات المزاراة الرّحّالين للبتّ في تعزيز صورة المكان الطافحة بالنسق القدسي لتضفي عليه مسحة من

¹⁵⁵⁰ - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 253.

¹⁵⁵¹ - المصدر نفسه.

¹⁵⁵² - نفسه.

سكون الذات ولوعة الشوق وتوق الحنين، فالوصف في هذا المقام، يتوقف على محورين: محور وصف المكان المجرد، فلا يتحقق فيه إلا ما يتحقق في غيره من الأمكنة العادية، فلا يكون إلا باهتا، لأن الرحالة بذلك يخرج عن فحواه ويجرده من معناه. وهناك الوصف المشحن بالعواطف الوجدانية واللوعات الإيمانية فتمتزج الذات بالمكان، وبالتالي يتحول الوصف من الخارج إلى الوصف من الداخل، أي أن الوصف سيصبح بدلا من تشخيص المكان إلى تدويته، ووصف ما يعتلج جوانح الذات من عواطف، ويتجرد بذلك من وضعه الثابت إلى حركية الذات التي يصير المكان أقرب منها في أي مكان كانت فيه ما دامت تستجيب لداعيه، فما دام الوصف يستدعي الكشف عن الذات من خلال المكان، فالذات محمولة مع صاحبها (الرحالة) أينما كان وحيث ما حل، حافزه الشوق مثلما يؤكد الغسيري: "حان وقت الحج ونحن بقاهرة المعز لدين الله فحنّت النفس واشتد الشوق إلى تحقيق الأمانى الروحية العذاب فوق ثرى مهبط الوحي والاتصال المباشر بالحاضر والماضي فوق معالمه وأماكنه المقدسة وكأنني بالقدر قد يسر لعبد¹⁵⁵³"

إن للوصف في البلد الحرام يتقمص هو الآخر من قدسية المكان، فليس هو عمران ولا نشاط تجاري واقتصادي ولا غيره من التفاصيل الدنيوية، وإن كان هذا شيء موجود بشكل كبير بينما الوصف هنا يتخذ من النفس نسيم الآخرة لا شهوة الدنيا، يغدو فيها الإنسان خارج محيطه الحسي إلى فضاءات روحية، يجد لها الأمير عبد القادر هذا الشعار "والناس بين داعٍ وقارئٍ وملبٍّ وخاشع، وقانت، وساجد، وراكع خاشع، وخاضع وجالس ينظر تلك المشاهدة وساع بين الصفا والمروة بهرولة الرمل المتعاهد، والمسلمون يتزايدون من كل فج عميق، ليشهدوا مناسك لهم باليقين الحقيقي¹⁵⁵⁴" كل ذلك يحدث في حركة دعوية وروح فياضة في إتعاب الجسد والنفس إلى بلوغ أسمى الشعور، وليست الصعوبة في ممارسة فعل الحج الذي يتطلب جهد بدني "ما يشعر به الحاج يكون صعبا، ومع هذا فإن العاطفة والفرح يهيمنان على الإنسان تلك هيمنة الإيمان بالله، تلك الهيمنة التي ذللت الصعاب وأنست الحاج ما لاقاه أثناء سفره من مشاق وأتعاب وأخطار¹⁵⁵⁵" فأبلغ الوصف هنا يكون في وصف الشعور، ووصف لحالات استثنائية في حياة البشر، حيث يتجرد من كل عوامل الصراعات الدنيوية لتخلو النفس إلى بارئها، حينها يشعر الإنسان أنه أقرب إلى الله وفي مواجهة حقيقية معه، يتجرد من كل شيء، فيبدل الله من حال إلى حال، وهو موقف ينزل الإنسان عن منزلته

¹⁵⁵³ - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 257.

¹⁵⁵⁴ - رحلة الأمير عبد القادر، مصدر سابق، ص 131.

¹⁵⁵⁵ - ارتسامات وذكريات عن الحج، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 3743.

وعن جاهه وسلطانه ومن القوة إلى الضعف، ومن العزة إلى الذلّة ومن الغنى إلى الفقر، ومن السلطان إلى العبودية، لأن المقام جللٌ والموقف نوّزٌ، فلا نور يعلى على نور الله، فليس أمام الإنسان إلا سبيل واحد هو التضرع والابتهاال: "وابتهلنا إلى الله ودموعنا قد تساقطت فوق الخدود، سائلين النصر لمجاهديننا، والفوز لأمتنا، والسمو والفلاح لكل المسلمين"¹⁵⁵⁶ وهذا ما يؤكد عنفوان العامل الروحي في التأسيس للنص في الرحلة الجزائرية.

2. 2. 8. البعد النقدي

يتمثل الوصف على المستوى النقدي في إبراز الجوانب المرئية التي بإمكانها أن تصير أحسن مما هي عليه، من ذلك الإنسان والمكان، والنقد عملية معيارية يصوّب من خلاله الرّحالة جوانب من الأمكنة المزارّة. ويتجلى الوصف ببعده النقدي على مستوى الرحلات الداخلية كنقد الذات، أما على مستوى الرحلات الخارجية فيركّز على التّقد الخارجي، أي نقد الآخرين والموقف منهم. فعلى مستوى الرحلات الداخلية، يتوقّف الوصف على نقد الذات أخلاقياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً، وثقافياً، نتيجة الظروف التي ألمت بالمجتمع، والأخلاق لما آلت إليه، والنقد غربال دقيق لا يتعاطف معياره مع ما تجده النفس من خروج على فطرتها من أخلاق، وهذا ما يجعل الرّحالة يسوق بمرارة وبصدق ما ينتابه من سيء الأخلاق فيقف عندها منكراً لها ومحاربا إياها، ومنذدا صارخا في وجهها، مثل قول (عمر بن قدور): "وإني ما وجدت مُسلما تأدّب في ركوبه أو سلم على من يجدهم أمامه في العربة ولو كانوا من قومه وعشيرته ولكنه سرعان ما يتناول مجلسه بكل اضطراب وعتو يأخذ جانبه في القطرب ويأخذ التفكير قلبه فما يوشيه إلا ساخطا إن صمّت وكاذبا مغتابا لمازا نماما إذا تكلم وهكذا"¹⁵⁵⁷ يقوم الوصف في هذه الحالة نامّا على أسف من الرّحالة الذي يدوّن موصوفاته بمرارة ناقما على الوضع الذي هو واصفه، وهو اعتراف يقيم به الدليل على ما في النفس من إنكار، فلا تجد في هذا المستوى إلا صيغ ناشزة يأتي بها الوصف من المعجم الدلالي الخاص بالتخلّف والانحطاط وسوء الأخلاق، ولعلّ (مامي) قد جمع جملة منها كقوله: "تقهقرها القديم وقبحها المستديم مقاهيها معمورة بالكسالي والبطالين وبطاحها مغمورة بالمداحين والمزمرين ونهوجها ملأى بالأشعار المدّججين بسلاح العصي والهراوات إلى غير ذلك من المناظر البشعة والمقلّقات"¹⁵⁵⁸ وهذا هو وجه المدن أما وجوه ساكنيها من الشر ف"وجوه شاحبة وأفكار جامدة وأخلاق منحطة والقوم سكارى تائهون

1556- حياة كفاح، مصدر سابق، ج3، ص414.

1557 - سوانح الرحلتين، جريدة الفاروق، مصدر سابق، العدد 22.

1558- على جناح السفر، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 592، (يوم الأربعاء 27 ذي القعدة 1346هـ، الموافق لـ 16 ماي 1950 م).

حيارى غارقون¹⁵⁵⁹ وقد عمّ هذا النسق فلم يكن المجتمع تميّز فيه شريحة عن أخرى أو مؤسسة عن غيرها أو حال عن حال، وهذه البلوى قد عمّت حتى بيوت الله "فأصبحت مساجدنا خربة وأفرشتها بالية ونقص من عدد القائمين فيها وجعل لهم راتب يخجل الإنسان من ذكره واختلفت التنظيمات وانقلبت المسائل فلا ندري أنحن مسلمون أم فرنسويون وأيمتنا متوظفون دينيون أم مخزنيون أم أسماء في جداول توزع عليهم الرواتب التافهة باسم الصدقة والبركة"¹⁵⁶⁰ ومن هنا نلاحظ أن النقد الذي يمتطيه الوصف ويجعل منه بابا لينفذ إلى مسالك بؤره وشعابه، يقوم دائما على كشف الغطاء عن أمارات التخلف، جرأة في تعرية الذات، دلالة على عدم الرضا على الوضع السائد، وطموحا في وضع أحسن، هو عكس ما يتصف به امتعاضا منه.

أما عن الرحلات الخارجية، فقد تجلّت مظاهر الوصف فيها على نقد بلاد المسلمين، في خيبة أملهم من خيرات وثروات لكن دون استثمار حقيقي وقليل نفعها لصاحبها، هذا على المستوى الاقتصادي الذي يظلّ متشابها من أدناها إلى أقصاها، وقد أزاحت كثيرا من وجهات النظر حول ما بدا من سوء تسيير وإهمال، ممّا أدى إلى تراجع الكثير من المعالم والصور كالأزهر الذي غدا مضرب المثل في التقاعس، بعد أن كان منارة تضيء على العالم طريقه "فالأزهر الذي له الفضل على العالم .. أصبح ويا للأسف من التفريط والتهاون بشؤونه محط رجال أهل النقد من الجميع"¹⁵⁶¹.

وينتقد الرحالون جميع الصفات والأفعال التي تمرق عن أعراف المجتمع ودستور تشريعها الديني والأخلاقي، فما من ظاهرة مستثناة شدّت عن طبيعتها إلا وتجد من يحقّق من خلالها وصفا لمظاهر التخلف، والشرك والمعتقدات الفاسدة، وأخلاق أفراد المجتمع الذي تدنّى في كثير من مجالاته وقد طال الوصف النقدي حتى شرائح السياسيين والحكام الذين عُرفوا بالإسراف والتبذير على حساب أفراد رعيتهم، كما أنها قامت على نقد بعض السياسات التي جرّت على البسطاء بؤسا وضياعا، خاصة العراق زمن (محمد نجيب) وهذا ما نجده في رحلة "أحمد توفيق المدني" لما زار العراق.

1559- المصدر سابق، نفسه.

1560 - جولة نائبنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 165.

1561- سياحة استطلاعية جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد: 479.

الفصل الثالث

المتلقي

النسق الإطار والنموذج

1 . الرحلة الجزائرية الحديثة والسياق الثقافي/ الراهن والانتماء

يُسفر ظاهر الوضع لتاريخ الجزائر الحديث أن الأدب الجزائري في هذه المرحلة ساحة قفرٌ لم يتحقق فيها ما يصرف نحوه النظر، حين لا يجد من ابتغى وراء ذلك سبيلا أن يحقق منه قبضة مهمّة لنوع من أنواع هذا الأدب أو جنسا من أجناسه، بينما الحقيقة أن ذلك راجع لقيام هذه الأجناس على مؤسسات قائمة بذاتها، والسؤال عنها وملاحقتها يستوجب انضباطا متعلّقا بنوع كل صنف أدبي، بينما تبقى صنوف عديدة من الإبداع اللفظي غافلا ومتغاضّا عنه بسبب هذا التصنيف وذلك راجع إلى أنّها "تدخل في نطاق "النص" والتي أهملت تخرج عن النطاق لتدخل في دائرة "اللانص"¹⁵⁶²

ويمثل الخطاب الرحلي إلى نسق الحياة المتعاقبة في جميع تشكّلاتها، كما أنّه يحنّ إلى انتمائه الإجناسي معبّرا عن وعي ولا وعي هذا الانتماء الذي يتشارك في إنتاجه، مضبوط الخصائص والنوع. ولعلّ الذي ينظر إلى الأشكال الأدبية في صورتها التامة، يجد على الرغم من التميز الواضح بين الأنواع، أنّها تشترك جميعها في نظام موحد يقف وراءه جهاز ودوافع خفية هي التي تجعله مكتنزا بثقافتها فيأخذ من روح وثقافة ذلك العصر، فليست قوّة نوع أدبيّ إلا امتداداً أو صورة لأنواع تختلف معه في الخصائص، ولكن تشترك معه في المكنونات الثقافية، هذه العناصر هي التي تميّز النصوص المختلفة بإعطائها صورة العصر الذي تنتمي إليه، فإذا تدهور الشعر -مثلا- في عصر من العصور، فاحكم بضعف الأنواع الأدبية الأخرى أو العكس.

ثم إن لعبة الأجناس الأدبية هي مجرد انتخاب لمستويات ثقافية اتّخذت أشكالا تميّزت بها، ليكون لها حقل تجرّيبّي للتعبير عن مكنوناتها وفق نظام خاص بشكل التعبير، وبالتالي لا تشكّل هذه الأشكال التعبيرية إلا مستوى من مستويات النوع الأدبي، بينما يبقى الرصيد الأكبر راسبا في قاعٍ يشكل المصدر العام لها وممّونها الحقيقي، وفق ذلك تظهر معالم أجناس واعية، (عالمة) قد حقّقتها عالمية التنظير التي ميزت الأشكال وهي "شبكة من البنيات النصية، وأي إهمال، أو إلغاء لأي عنصر بنيوي منها لا يسمح لنا بفهم ملائم للنص في كليته"¹⁵⁶³، ومن هنا يمكننا أن نتساءل، هل كانت النخب الجزائرية في فترة الاستلاب الثقافي (الاستعماري) لا تعبّر في خطابها إلا في حدود الكلام الاجتماعي العام - الوظيفي - من أجل التواصل فيما بين أفراد المجتمع تواسلا عاديا فقط؟ وإذا كان لها نصيب من النوع الآخر (الأدبي) ففيما تمثّل هذا؟ وما هو نوعه؟ وما مدى جودته وحضوره الثقافي؟

¹⁵⁶² - الكلام والخبر - مقدمة للسرد العربي -، مرجع سابق، ص 51.

¹⁵⁶³ - المرجع نفسه، ص 52.

يبدو أن الحياة العامة لتاريخ الجزائر الحديث من أوله إلى آخره عرفت حالة استعمار شنيع، طوّق عليه مجالاته وفضاءاته، فظلّ يعيش حياة القيود والسدود، ولقد أثر هذا العامل على الحياة الاجتماعية تأثيراً سلبياً، ونخر حتى جانبها الثقافي الذي يسير وفق حالة المجتمع العامة، ومنه بنست الحياة الاجتماعية فتعرضت الحياة الفكرية والأدبية والثقافية عموماً للشرح، فسّاد الغمام وطالت ساعة الفرج. وقد تنوّعت خلال هذه الفترة الاستعمار الطويلة، المستويات الثقافية آخذة بأسباب كل جيل في تعامله مع المستعمر، مما جعل كل جيل يتميّز عن آخر بخصوصية، وامتاز كل جيل بطور من أطوار الثقافة بالرغم من المأساة المتشابهة على مر الزمن الاستعماري، وهذا الذي خلق تنوعاً في المادة الأدبية، وتمكنت نصوصه أن تشكّل مدوّنة هامة، مكنتها من أن تكون ديواناً الجزائر في المرحلة الاستعمارية (الحديثة)، على الرغم من تذبذب مستوياتها الفنية كما يقول أبو القاسم سعد الله: "مهما كان شأن هذا الأدب من الجودة أو الانحطاط، فإنه قد كان تعبيراً عن الحياة التي عاشتها الجزائر وراء القضبان عشرات السنين وصورة للصراع من أجل البقاء. وهذا لا يعني بالطبع أن ذلك الأدب كان نزوعاً إلى هدف أو بشيراً إلى مجهول. ويكفي الشعر الجزائري أنه احتفظ بميزة الصدق، وأنه كان صدى لخلجات الشعب وأناته، وصوتاً لكفاحه منذ استهل، وما يزال"¹⁵⁶⁴ لأنه صدى حقيقي لتلك المرحلة.

وتبقى إشكالية الأدب الجزائري الحديث قائمة، ما دام أن مؤسسة التصنيف الإجناسي قد أقصت كثيراً من أشكال التعبير، خاصة وأن صناعة الأدب في فترة طويلة من تاريخ الجزائر الحديث التزمت المشافهة كثقافة أدبية تعبّر عن لسان الشعب، وهو في نظر مؤسسة التنظير الرسمية يعدّ خارج التصنيف العالم، بيد أنه كان لسان حال لطبيعة أدب تلك المرحلة التي لم تجد الوسائل التعبيرية الراقية مما أجبرها على البوح بصيغ غالبها شفاهية، إلى أن أخذت في مراحل متقدمة أشكالاً أخرى، طالها التصنيف. فكانت بدايات الأدب الجزائري الحديث في غالبه شفاهي، وهو جنس لا يستهان به في مجال الأدب، بل يمثّل هذا الجانب في مرحلة أولى من تاريخ العرب ديواناً لأمتها، باعتبار أن الكلام كان "جنساً يتسع لمختلف الأنواع"¹⁵⁶⁵ فكان منه الشعر والخرافة، والحكاية، واللغز، والمثل، والحكمة، والخطابة، وغيرها من الأجناس، مما جعله يشكّل توليفة أدبية قطبها الكلام.

وما دامت هذه الأجناس المتجاوزة تطفو ساعية للتعبير عن ذات مستعملها، فإن أصلها نابع من قاعدة ثقافية واحدة، وليس هذا التمايز سوى إمكانية للتنوع بينما مردّه كلّ إلى طينته الثقافية التي تحدّد هويته، وما كان له أن يمثّل إلا بعد انصهاره، ضمن الطاقم الإجناسي لتلك البيئة الثقافية، ذلك أن

¹⁵⁶⁴ - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985، ط3، ص 32.

¹⁵⁶⁵ - الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 135.

"نظرية التفاعل النصي تتيح إمكانية التعامل مع النص من جهة "تفاعله" مع نصوص أخرى من أجناس مختلفة، ظهرت في الفترة نفسها أو في فترات سابقة أو لاحقة. وبما أن عملية "التفاعل" بين النصوص ضرورة، فلا مناص للباحث من الانكباب على إبراز مختلف مستويات التفاعل النصي وأشكاله"¹⁵⁶⁶ حيث تعدّ نظرية استقلالية الأجناس الأدبية وفصلها عن محيطها ضرباً من المحال، في غضون التشابك الثقافي وتفاعل الأحداث والنوازع التي تسري تياراتها المختلفة في ذوات المنتجين الأدبيين الذين يشتركون في مخاضاتهم الإبداعية وتفاعلهم بقضايا مجتمعاتهم، واشتراكهم في تكوّن ملكاتهم الفنية، التي تفرز النصوص وفق نمط معين مخصوص بعصره "علاوة على كونه يسمح لنا بالنظر إلى النص في ذاته، يتيح لنا إمكانية النظر إليه في مختلف علاقاته مع نصوص أخرى، ومع السياق الاجتماعي والثقافي الذي يظهر فيه"¹⁵⁶⁷ حيث يقرّ الباحثون بأن "الجهل بالسياق الأدبي الخاص بالنص يسبب أخطاء فادحة في التفسير، كما أن عزل النص عمّا سواه من النصوص يحوّل دون تأسيس نظرية شاعرية له تدخله مع ما يماثله من النصوص وتوجه شفرته نحو سياقها الفني، الذي يحوّل النص من عمل مغلق إلى حركة دائمة التوثب"¹⁵⁶⁸

من هنا ننتقل إلى تحديد أشكال التعبير الأدبي التي ميزت هذه الفترة في الجزائر والتي استطاع النص الرحلي أن يقتبس من عالمها، ويمتص من رحيقها، باعتبارها تشكّل منظومة ثقافية شاملة، وكلّها تأثيرات تزيد من شدة المخاض الذي يدفع بالنوع المخصوص من كلّ جنس إلى البزوغ مستقلاً.

بداية؛ نقول إن الفعل الاستعماري عطّل مشروع التحقيق في المستوى الثقافي والفكري إبان المرحلة الأولى من الاستعمار. بيّد أنه لم تكن ذريعة الاستعمار الذي ألحق الجهل بالجزائريين كافية، فما كانت حجتها إلا شجرة في وسط غابة من أسباب الانحطاط الذي بلغته هذه المرحلة، بل حتى وإن كانت أقوال بعض الرحالين الأجانب الذين شهد أحدهم بالقول: "لقد بحثت قصداً عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أنني لم أعثر عليه، في حين وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا"¹⁵⁶⁹ فإن ذلك لم يشفع للدرجة الدنيا التي بلغتها الجزائر، وليس دليلاً على التفوق العلمي والأدبي، بل ربّما كان يقصد أن المجتمع له ميزة التعليم البسيطة المتمثلة في القراءة والكتابة، بوسائط عتيقة ومراكز عقيمة، لم يكن باستطاعتها أن ترتقي بالفرد إلى التفوق والإبداع ذلك أن "نمط التعليم وتغلغل التصوف والجمود الثقافي قد جعل من الصعب على الأدباء أن يبرزوا أو يجدوا لهم مكاناً في

¹⁵⁶⁶ - الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 50.

¹⁵⁶⁷ - المرجع نفسه، ص 50.

¹⁵⁶⁸ - عبد الله الغدامي: الخطيعة والتكفير - من البنيوية إلى التشريحية -، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 6، 2006، ص 29.

¹⁵⁶⁹ - الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، أبو العبد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 13.

الجزائر غداة الاحتلال¹⁵⁷⁰ وهذا ما يفسر أن الاستعمار لم يزاحم الأدب على عرشه، بل لم يكن له آنذاك كيان، ولو كان له نصيب منه لوجدنا منه نصيبا قبل أن تنطفئ جدوته، وهو الحال الذي علّق عليها صالح خرفي بقوله: "على أن الأدب نفسه في فترة الاحتلال الفرنسي. وفي عهدها الأول بالذات عاش في نطاق محدود جدا، وبملامح باهته جامدة، وانحسرت موجهته، وانكمش مفهومه لا يكاد يتخطى عتبة (الزاوية) مادحا أو متضرعا، وانطمست في الشكل كل معالم الحيوية، فلم تبق له إلا أجراس التفعيلة المقفأة في المنظومة المديجية. بل تلوح لنا بعض الفترات مجدبة من أي نص له لحمه بالأدب"¹⁵⁷¹ وإذا كانت حالة الأدب في عمومها على هذا المنوال، فإنه لم يكن - كما قلنا - نتيجة استعمارية محضة بل "هذه الفاقة الأدبية بعضها وريث العهد التركي، وما أصاب العهد في أيامه الأخيرة من تدهور في كل مناحي الحياة، وفي الإمبراطورية شرقا وغربا"¹⁵⁷² والذي يدلّ على أن الاستعمار أطفأ تلك الجمرات التي كانت تتوقّد هنا وهناك من شعر ومن بعض النثر، كشعر الأمير عبد القادر -مثلا-، حتى إذا شارف القرن التاسع عشر على نهايته تم للاستعمار ما سعى إليه. وهو الذي منذ أن بسط مقامه على هذه البلاد بادر "إلى محاولة محو الشخصية الجزائرية الأصيلة عن طريق فرنسة الألسنة والعقول"¹⁵⁷³.

وإذا كان هذا لا ينفي وجود أدب جزائري بخصوصيات مختلفة ومتفاوتة، فإنه لا يمثّل القوة الأدبية ابتداء من تركة الأتراك إلى نفوذ سموم الاستعمار. ولعل أخطر ما يذهب إليه سعد الله أن الأمة إذا كان فيها الأدب حيا وقادا، ما قبلت وما صبرت على أنواع الإهانة، وللاحق الظالم وأوقفته على أفعاله الشنيعة. ولعل من أكبر الأسباب التي ساعدت على بقاء الجزائر قرنا وربع قرن تحت سلطة الاستعمار هو من جرّاء "الفراغ الأدبي الذي كانت تعانيه، والذي جعل كل شيء صامتا لا تنبس، هادئا لا يتحرك، راضيا لا يتمرد"¹⁵⁷⁴ وإذا كانت هذه النظرة ذات بعد فلسفي، فهي تؤكّد الدور الذي يمكن للأديب أن يلعبه، والمسؤولية التي يمكن أن يحتضنها الأدب عامة.

وقد عرّفت هذه المرحلة أيضا طقوسا أدبية تصبّ في مواجهات بين الطرفين المتنافسين طرف وطني يحاول الدفع بما أوتي من قوة ومن رباط، وآخر هجين مدجّن، نتيجة تلاقح الدخيل بالأصيل ولّد عنه ما يقول سعد الله "ومنذ الاحتلال وظف الفرنسيون بعض الجزائريين في مختلف المجالات الدينية

¹⁵⁷⁰ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر ط 9، 2009، ج 8، ص 9.

¹⁵⁷¹ - صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دت، ص 7.

¹⁵⁷² - المرجع نفسه، ص 7.

¹⁵⁷³ - عبد الملك مرتاض، نخضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ط 2، ص 21.

¹⁵⁷⁴ - دراسات في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 32.

والديوانية والترجمة والصحافة.. فنشأ عندهم أدب مختلف عن سابقه فكرا وروحا وأسلوبا، متأثرا بالمخالطات الاجتماعية والتأثيرات اللغوية والفكرية الفرنسية. ولم يظهر فجأة وإنما أخذ يتطور مع الأيام ويتسع مع الحاجة¹⁵⁷⁵.

ومن نبع ثقافة العصر وتقاليدته التي تميّز فيها الأدب عموما بميزات خاصة، تشكلت الرحلة الجزائرية الحديثة، استنادا إلى تلك الثقافة التي تمخّضت كرافد من روافد طقوسه المعرفية، وتكوينه الفلسفي، كما أنه بإمكاننا أن نطوف بتعريف موجز عن تلك الأشكال الأدبية التي حققت النسق الأدبي والفكري في نص الخطاب الرحلي، إذ تعدّ في مجملها منظومة معرفية تبسط يدها لأي نوع كان من أنواع الأدب ما دام أنه جزء من تلك المنظومة.

1. 1. الأدب الشفوي: (الشعبي)

ظلت القرائح الأدبية الجزائرية بعد أن أزاحت عنها جلباب اللغة الفصيحة، ممثلة من طرف الأدب الشعبي الذي بقي مستعصيا عن الإقلاع، وهو العائق الذي لم يتخلّص منه المستعمر بينما استطاع أن يجرد الأرض من كل ما هو عالم ومؤسّساتي، ففي "ظل هذا التشوّه الثقافي ومحاولات الهيمنة القسرية في جميع ميادين الحياة، ظلّت أشكال التعبير الأدبي الشعبية الشفوية تمثل الإمكانية الوحيدة التي استخدمها المجتمع الجزائري للتعبير عن واقعه المباشر بصفة عامة"¹⁵⁷⁶ ما يدلّ على أن هذا الشكل أصبح ممثلا شرعيا للقيام بالواجب الأدبي في المواجهة للعدو والدعاية ضده.

وبينما هذا الشكل الذي تعتبره بعض الهيئات منبوذا، وغير معترف به، قد استطاع أن يبرز ويعبّر عن ذات الإنسان الجزائري بقوة، فقد "كان الأديب الأصيل، والطاقة المحركة لوجدان الشعب، والقادر دوما على تحويل جراح النكبة إلى نصر"¹⁵⁷⁷ وظل ينفخ ويمرّق في هذه الفترة، مشكّلا علقما في حلق عدوه المستعمر، دون أن يجد هذا الأخير حلاّ للحدّ من استفحاله، لأنه ببساطة يمثل كُلا ثقافياً وليس فردا بعينه، كما تجده متحرّرا، ومتعدّدا وعلى كل لسان، مما جعل منه هيئة دفاعية متخفية وفي ذلك تكمن فعاليته، التي كانت "أوفر حظا من الثقافة المؤسّساتية بسبب اعتمادها على وسائل اتصال شفوية لا يملك المستعمر القدرة على التحكّم فيها"¹⁵⁷⁸ فهو الناطق في صمت، والجامح دون ثورة، والثائر دون زوابع، والبلغ في تأثيره دون غلظة "فقد كان الأديب الشعبي أديبا متحوّلا في الأسواق،

¹⁵⁷⁵ - تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 10.

¹⁵⁷⁶ - عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1998، ص 20.

¹⁵⁷⁷ - التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي في الثورة (1830-1962)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 39.

¹⁵⁷⁸ - البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري، مرجع سابق، ص 21.

يعيش ضمير الشعب، ويتفاعل مع مآسي أمته ووطنه. وقد حاولت الدعاية الاستعمارية أن تصوّر الأديب الشعبي في صورة مشعوذ دجال، لتغرس في أذهان بعض المتعلّمين الكراهية والزّهد في الأدب الشعبي، كأدب طبقة جاهلة تكبّلها رواسب غيبية، لا تليق برجل العلم والحضارة¹⁵⁷⁹ ومن جهة أخرى تساوى إبداع هذا الأدب في تعبيره وذوده مع ثقافة الشعب، الذين وجدوا فيه تسليتهم وعزاءهم، بالأدب الرسمي الذي استحوذت عليه اللغة الفصيحة، بل فاقه لأن الخطاب الشفوي في هذه الظروف "قدّر له أن يكون الوسيلة الوحيدة التي تملكها الجماعة الشعبية من أجل إدراك العالم ونقل المعرفة وتوجيه السلوك. وقد استطاع أن يقوم بهذا الدور عن طريق نظام من التجسيّدات ذات الطابع الرمزي المستمدة من التراث الجماعي، والمعبرة في نفس الوقت عن الواقع النفسي والاجتماعي"¹⁵⁸⁰ فكان الأدب الشعبي الوسيلة التعبيرية الأقدر في تبليغ رسائله إلى المجتمع ذلك لأن الطبقات الشعبية قد وجدت "في الأدب الشعبي تصويرا لجراحها، وتعبيرا عن آمالها، وأمانيتها، فتناقلته الألسنة، وحفظته الذواكر الشعبية، وغدا ترديده (نشيدا وطنيا) يذكي الحماس، ويبعث النخوة ويوقظ الوعي الوطني"¹⁵⁸¹ وقد عرفت الساحة الجزائرية في هذا العصر ضربين من هذا الأدب: الشعر والنثر.

1.1.1. الشعر

والشعر صنف من مجموع الأصناف الأدبية التي نالها من العوامل ما نال أخواتها الأخرى. وإذا كان الشعر الرسمي (الفصيح) قد توارى في هذه الفترة ولم يجد من يمثله إلا أسماء قليلة جدا، على غرار الأمير عبد القادر، فإن الشعر الشعبي هو الذي تقلّد زمام الأمور في لعب الأدوار الأدبية، فقد كان له "دور هام في الثورات الجزائرية على اختلاف مراحلها فكان شاعر نضال، ورفيق سلاح، وحامل رسالة، يستمد شعره من عاطفة دينية، قوية ويحمل بين جوانحه ضميرا قوميا شفافا، رأى في أهداف الغزو الاستعماري غزوا للدين، وهدما لكيان الإنسان المسلم، في هذا الوطن الذي يرفض أن يكون غير عربي مسلم"¹⁵⁸² مما جعله يقود المعركة ضد العدو فكان لسان حالها، وموطن أسرارها، ومستودع آمالها، وخادم غاياتها، وملبيا دعوتها في كل الميادين والمحافل، ولم يكن البوق اللاهني، ولا الضمير الغائب. وقد أفصح عن كل ما دار من أحداث، وسجّل كل ما جرى، وتعاطى مع موجة الغاضبين شعار الشجب والتنديد فقد كان الشاعر "في القصائد التي واكبت الثورات الجزائرية شاعرا وطنيا، فهو لا ينظم شعرا

¹⁵⁷⁹ - دور الشعر الشعبي في الثورة (1830-1962)، مرجع سابق، ص 39.

¹⁵⁸⁰ - البطل الملحمي والبطلّة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري، مرجع سابق، ص 21.

¹⁵⁸¹ - دور الشعر الشعبي في الثورة، مرجع سابق، ص 39-40.

¹⁵⁸² - المرجع نفسه، ص 98.

تصوريا يختلق فيه معارك وهمية، أو ينتحل نصرا زائفا، ويتوهم نفسه فارسا يهزم الأعداء، وإنما كان الشاعر الذي يخوض المعارك بسيفه، ويسجل الانتصار بأمانة، مثلما يصف الهزيمة بألم، وحسرة¹⁵⁸³ لقد كان الشاعر مناسباتيا، ولكن كان فارسا فحلا، وبالإضافة إلى كونه منافحا ومزيذا عن أمته في ردّ ما استطاع إلى ذلك من قوة، فقد اقتضت الظروف أن يسهم الشعر الشعبي في المجال الإعلامي من أجل التبليغ والإشهار وإيصال كلمته إلى جمهوره، وإلى من يهمه الأمر، بالدعوة والدعاية والتحريض "فكان ينظم القصيدة ويتغنى بها في ميدان المعركة، أو ينشدها وهو يتجول في القرى، والأسواق حيث يتلقاها الرواة، والحفظة، وبالتالي فقد كان يصوغ أحداث الثورة ومعاركها الضارية شعرا، ونشيدا للعبارة والعظة، وإذكاء الحماس¹⁵⁸⁴ فحق له بذلك أن يتزعم البطولة في ميدان معركته.

1.1.2.1. الحكاية الشعبية

تعدّ الحكاية الشعبية في الجزائر استمرارا لتاريخها الطبيعي، الذي امتدّ وتفرّع في كل جهات الوطن العربي، بل في شتى جيوب المجتمعات الإنسانية قاطبة. وتمثّل الحكاية الشعبية، قوّة أفكار الأمم وتقاليدها، فلا تخلو أمة، بل ولا جماعة من تبنّيها للقص الشعبي الذي يبتكر فيه الخيال، ويتسلّى فيه الوجدان، وتفسّر فيه قضايا الإنسان وحاجاته، وقد ارتكزت الحكايات الشعبية الجزائرية على أبعادها الدينية بحكم المجتمع الذي كان متديّنا ومتماسكا، مما جعلته يبيّن جل قصصه بأبطال دينيين (أنبياء وأولياء صالحين) في الغالب، ويتم سردها على اقتباس ومحاكاة لقصص تاريخية ودينية.

وقد تشكّلت هذه الحكايات من منطلقات أبعادها المكانية والمناسباتية، حيث كان المسجد بؤرة انتشار القصص الديني بشكل عام "فتجد فيه الخرافة الدينية -بجانب ذكر الغزوات المشهورة- رواج كبير لما تحويه من تحليل ودروس وعبر، مثل قصة فضلون العابد وقصة تميم الداري، وقصص الأنبياء على وجه العموم التي يقصها العوام الذين لا يعرفون شيئا عن الدين الحقيقي، وإنما يسمعون أخبارا فيلفقون لها أمورا بعيدة عن جوهر الدين¹⁵⁸⁵ وهو ما يفسر انزياحها من واقعها المسرود إلى تلفيقها بالأوهام والخرافات، نتيجة تعدّد رواتها من عامة الناس الذين يلتبس عليهم التشريع بالواقع، مع استفهام في التلقي العقدي الذي يصعب فيه تفسير كرامات الأنبياء، مما يجعل تفسيرها مردود للتسليم، كقاعدة إسلامية مبنية على العقيدة، بينما تبقى تلك الضبابية في الجزم، خصوصا بعد صوغ المرويات المتضاربة فتكثر الصيغ وبالتالي يلتبس الحقيقي بما سواه. كما أن هناك عدة محاور تؤدي إلى خلق جوّ

¹⁵⁸³ - المرجع نفسه، ص 39.

¹⁵⁸⁴ - دور الشعر الشعبي في الثورة، مرجع سابق، ص 39.

¹⁵⁸⁵ - روزلين ليلي قریش، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 2007، ص 162.

خرافي، تشير إليها "روزلين ليلي قريش" منها: "قبور الأولياء والصالحين التي تمثل أيضا مكانا مناسباً لانتشار الخرافة بل للإكثار من تفاصيلها العجيبة"¹⁵⁸⁶ ومنها أيضا الكتب القديمة التي تبث معلومات متخصصة لا يتلقاها محدود الثقافة إلا بشيء من الاستغراب والتحوير، مما يجعل تفسيرها يغلب عليه خلط وسوء تأويل، ينجر عنها "النفوذ المباشر في الأوساط الشعبية أكثر من غيرهم مثل "مشايخ" المساجد الشعبية ومعلمي الكتاتيب وبعض موظفي المحاكم البدائية الذين تأتيهم الجماهير للشكوى والمشورة. وبخاصة "الطالب" المشهور الذي يمتحن "الكتابة" لدى الناس البسطاء السذج. فكثيرا ما يستشرونه في أمور متعلقة بحياتهم اليومية فيفسر لهم تفسيراً يثير الإعجاب والدهشة وكثيرا ما يلجأ "الطالب" إلى عالم الجن في تفسيراته الغريبة معتمدا على كتب يقرأها طوال الأوقات. والجدير بالملاحظة أن هذه الصبغة الأدبية التي يصطبغ بها الطالب في الحياء الشعبية يستمد منها أهمية كبرى ترفع شأنه لدى جماعة المترددين إلى منزله"¹⁵⁸⁷ ولما صارت هذه القصص سياقاً اجتماعياً وأديباً، أصبح من فيهم من المثقفين ممن تجمعت لديه كمّ من القصص فأصبحت عنده ذخيرة يضفي عليها من خياله ما شاء لتتناسل الحكاية إلى حكايات، فيتعدّد صناع هذا الأدب وكثر حذاقه فتعدّدت أشكاله من خلال قطبين رئيسيين: قطب يشكّل القصص الخرافي الدّيني الذي يستمد من قصص الأنبياء والأولياء مادته، وقطب مولع "بالكشف عن أسرار الحياة و"مفاتيح السعادة" فيطلق لخياله العنان ليخترع المغامرات حيث تعيش الشخصيات في حدود العالم الواقعي والعالم الخيالي بصحبة المخلوقات العجيبة. وفي أغلب الأحيان يتسم هؤلاء الرواة بطلاقة اللسان"¹⁵⁸⁸ وكثر الاهتمام بالحكاية الشعبية حتى صارت لدى المجتمع صورة تخوض في الخرافة بيد أنها تترسّخ في اعتقاد المجتمع على أنها حقيقة ماثلة في الواقع، مما جعلها تشكّل نسق خلّص إلى الاعتقادات الباطلة في مجتمع أصابه التخلف. فصارت الخرافة حرفة أدبية لها روادها الشعبيون سيطروا على مساحات كبيرة من مجالات الثقافة، فأخذ "هذا الشكل الأدبي مركز الصدارة في حلقات الرواية الشعبية التي يقيمها الرواة المحترفون. تقوم الحلقة على أداء الغزوة، أما أشكال التعبير الشعبي الأخرى مثل قصص الأولياء وحكايات الحيوان، والنوادر، والمقاطع الشعرية الغنائية، فتأتي لتمثل روافد للحلقة تصبّ في مجرى القصة"¹⁵⁸⁹..

1. 2. 1. الأدب الرسمي (الفصح)

1. 1. 2. الشعر

¹⁵⁸⁶ - القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، مرجع سابق، ص 162.

¹⁵⁸⁷ - القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، مرجع سابق، ص 163-164.

¹⁵⁸⁸ - المرجع نفسه، ص 164.

¹⁵⁸⁹ - البطل الملحمي والبطلّة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري، مرجع سابق، ص 65.

لا يختلف الشعر عن عامة الأدب إلا في شكله التعبيري ونمط قائله، وهو ما يفسر التشابه الكبير بينه وبين أنواع وأشكال أدبية أخرى عاصرتة، ولم يكن الشعر مستثنى عن هذه المأساة التي عرفتة مرحلة العصر التركي الأخيرة بالجزائر، ودخول هذه الأخيرة تحت وطأة الاستعمار فتبين منه أن مأساة الشعر قد تزيد ومعاناته قد تستمر وتتضاعف إلى أزمنة مقبلة، وقد عرفت هذه المرحلة بتميزها بظاهرة الانحراف الديني الذي قاد المرحلة بعضا العميان، فانكبّ يميّز ما في العصر من كلّ جانب، حتى خاض في الشعر وأفسده، حيث إن "الضعف والانحطاط اللذان وصل إليهما هذا الشعر في تلك الفترة، إنما كان نتيجة حتمية، لما كانت تعانيه الثقافة العربية في الجزائر من اضطهاد رهيب، بعضه راجع إلى العهد التركي، وأغلبه ناجم عن الاستعمار الفرنسي الذي كان يهدف إلى استعمار استيطاني، وغزو ثقافي" ¹⁵⁹⁰ حتى وجد نفسه منغمسا في أغراض دينية جراء النسق الديني الذي تبناه الفكر الصوفي في كامل القطر "باستثناء الأمير عبد القادر الذي جمع في شعره بين الدين والفروسية" ¹⁵⁹¹ فيبدو أن الأمير كان بمثابة نبتة في الصحراء، بينما الواقع قد أفرز طبقة من الشعراء ساهمت في تفهقر الشعر إلى مستويات دنيا مجرّدة من ثقافته السامية، حتى وإن أخذ على عاتقه مسؤولية القيام بالواجب وانحصر "نتيجة تعلقه بالزوايا والمساجد، في الأغراض الدينية، فتشابهت نصوصه، فإذا هي في الأغلب الأعم تتّجه إلى مدح المشايخ والكبراء، والتغني بمآثر الأولياء والصالحين، والتعزّل بالذات الإلهية، والتوسل بمدح الرسول ﷺ وآل البيت، وغيرها من الموضوعات التي لا تخرج عن هذا النطاق الصوفي الديني إلى حد جعلت الشعر الديني النافذة الوحيدة التي بقيت للأدب العربي في الجزائر، يتنفس منها" ¹⁵⁹²

وقد دام هذا طويلا إلى أن أسفرت الحياة الأدبية عن واقع جديد أحييت فيه عظام الأدب التي كانت رميما، بعد النهضة الأدبية التي عرفتة الجزائر بداية مع مطلع العقد الثالث من القرن العشرين، حيث يُجمع الدارسون على أن الشعر الجزائري الحديث لم يكن له حظّ في التطور إلا حين جاء القرن العشرين الذي يعدّ قرن العلم والتقدّم فبدأت بوادر النهضة الأدبية والثقافية عامة نتيجة عوامل كثيرة منها اليقظة الفكرية والسياسية وظهور الأحزاب الوطنية مثل حزب "نجم شمال إفريقيا" و"حركة الأمير خالد" وغيرهما إلى جانب انتشار الدعوة الإصلاحية ¹⁵⁹³ حيث بدأت تلوح في الأفق بوادر نهضة أدبية، لم يكن فيه الشعر ليصعد مراتب قوية، بل أهم ما ميّزه هو الانتعاش الذي بعث فيه الحياة، ليصبو إلى مراتب في مستقبله، لأنه في أول أمره ميّزه "التطور البطيء في الشكل والمضمون معا هذا

¹⁵⁹⁰ - محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية-، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص 16.

¹⁵⁹¹ - ينظر؛ عبد الله الركبي، الشعر في زمن الحرية، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1994، ص 152.

¹⁵⁹² - الشعر الجزائري الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية-، مرجع سابق، ص 19.

¹⁵⁹³ - الشعر في زمن الحرية، مرجع سابق، ص 152.

على الأقل إذا ما قيس بما سبقه وعلى العموم فإنه يمكن القول عنه أنه أعاد الثقة في نفوس الجزائريين بأن هناك نهضة أدبية في البلاد تحاول البروز إلى السطح لتؤثر في الحياة الاجتماعية، وتوجه الفرد توجهها صحيحا يعتزز معه بلغته ودينه¹⁵⁹⁴ ويستفاد من ذلك أنه كان للشعر أكثر من وظيفة بالإضافة إلى التعبير الوجداني الذي يترجم شعور أصحابه، فإنه قام بوظيفة بعث اللغة العربية والامتثال إلى تاريخ أمته.

1. 2.2. النثر

تُوفّر لنا بعض الدراسات مثل: كتاب "تطور النثر الجزائري الحديث" لعبد الله الركيبي و"فنون النثر الأدبي في الجزائر" لعبد الملك مرتاض" وأجزاء من كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي" لأبي القاسم سعد الله.. مجموعة من أشكال التعبير النثري في الأدب الجزائري الحديث، من جملتها (المقالة- الفن القصصي - الفن المسرحي- الخطابة- المذكرات - السيرة الذاتية - الرحلات- الرسالة- الرسائل - التقارير- المقامات - العرائض والنصائح والنداءات) وقد قسمهما الركيبي في كتابه¹⁵⁹⁵ المذكور إلى أشكال تقليدية، وأشكال جديدة. أما الأشكال التقليدية فتتمثل في الخطب والرسائل" و"أدب الرحلات" و"المقامات والمناظرات" ثم "القصة الشعبية"، أما الأشكال الجديدة، فتتمثل في "المقال الأدبي" و"القصة القصيرة" و"الرواية" و"النقد الأدبي".

ويتبين من هذا، أن أشكال التعبير النثري في الأدب العربي عموما، كلّها قد لجأ إليها كتّاب وأدباء الجزائر في هذه المرحلة، إلا أن البصمات الأدبية في الأساليب والأشكال قد أصابها شيء من التشويه أحيانا، ومنها ما سقط إلى درجة الضحالة. ثم بدأت تستعيد عافيتها بالتجريب مع بزوغ النهضة الأدبية التي تخلّلت المرحلة المذكورة أعلاه، وقد أثّرت فيه العوامل نفسها التي أثّرت في الشعر. ولم ينطلق النثر الجزائري بداية من مرحلة النهضة، بل هناك أقلام زاولت هذا النشاط حيث خاض في مرحلة القرن التاسع عشر تجربة سلبية بالكتابات القديمة ف "احتفظ (النثر) برونقه، فبرز أمامنا عدة أسماء مختلفة فكريا ومنهجيا، في مقدمة هذه الأسماء: حمدان بن عثمان خوجة (1773-1840) صاحب كتاب (المرآة) ذو الفكر النيّر والروح القومية المتوثبة"¹⁵⁹⁶ وغيره من الأسماء التي لم تكن وحدها في الساحة الأدبية والفكرية التي سادها من الكتّاب الكثيرين، الذين خاضوا في تجارب نثرية مختلفة خاصة ميدان الصحافة الذي بدأ يعرف انتشارا بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر،

¹⁵⁹⁴ - الشعر الجزائري الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية-، مرجع سابق، ص 24.

¹⁵⁹⁵ - ينظر عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1978.

¹⁵⁹⁶ - عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث - تاريخا - وأنواعا - وقضايا.. وأعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 16.

فيما لم تصير فنون تقليدية في المحافظة على مراتبها خاصة منها الخطابة التي باتت "تقليدا أكثر منه إبداعا وفنا، ومالت إلى الرتابة فظهر التكلف في أسلوبها وطابعها العام واقتصرت أغراضها على المناسبات الدينية، يكرّر فيها الخطيب معاني السابقين ولكن بأسلوب ضعيف وصياغة جامدة"¹⁵⁹⁷ وهذا ما حدث مع جميع الفنون النثرية كما الشعرية أيضا، في حين تعدّ مرحلة النهضة التي سبق الحديث عنها مرحلة حاسمة في تغيير ملامح الجودة فيها "بعد أن انتشرت الأفكار الإصلاحية واتصلت الجزائر بمن حولها ونشأت النوادي والجمعيات الثقافية، وانتشرت الصحافة الوطنية"¹⁵⁹⁸ ولم تلبث أشكال النثر التقليدية سيّدة بعدما استنشقت زمرة الأدباء من جاءوا بعد النهضة أساليب الحياة العصرية الجديدة التي اكتسحت الأسواق الأدبية بمختلف الأشكال الفنية التي أقصت فنونا وقزمت أخرى بفعلها السحري على كافة الأصعدة، حيث أصبحت تشكّل ثقافة العصر، فواكبته الأقلام الأدبية الجزائرية إلى أن صار لها باع بعد الاستقلال، أبرز هذه الأشكال (المقالة، والرواية، والقصة، والمسرحية...)

2 . الرحلة الجزائرية والتلقي / مستويات المتلقي

قبل الغوص في استقصاء المدونة (الرحلية الجزائرية) لا بد من التفكير في مصير تلك الكتابات التي كان ينتجها الرّحّالون تعبيرا عن تجاربهم في الحياة انطلاقا مما ملكت أيديهم من أساليب وأنساق فكرية، ومن خلفيات مسبقة حول ما يتعلّق بالبيئة الثقافية السائدة لتلك المرحلة، ومنه يجدر أن نطرح سؤالا يفتح لنا شهية البحث ومعرفة الحثيات التي تمخّض عنها هذا النص (الرّحلي). فما دام أن هناك نص فإن هناك ناصّ ومنه بإمكاننا أن نتصدّى لمستويات التفكير والتعبير في غضون هذه النصوص. فهل ما يترتّب عن الناصّ هو نفسه ما يمكن أن يترتّب عن المتلقي باعتباره طرفا أساسيا في الإنتاج الأدبي؟ ومنه يمكننا طرح الأسئلة الجوهرية المتعلقة بمحاور هذا الفصل: ما هي نسبة القراء الجزائريين الذين عاصروا هذه المرحلة؟ وإلى أي حد وصلت ثقافة المجتمع الجزائري؟ وعند الإجابة على هذين السؤالين يمكننا تشكيل مفهوم خاص بالقراءة وإلى أي حد وصلت مستويات التلقي الذي لا يمكننا إغفاله أو نكرانه، ما دام أن هناك نص، وهناك ناصّ.

إن درجة التجهيل والامية التي بلغت أعلى مستوياتها في تاريخ الجزائر خلال فترة الاستعمار، أثّرت سلبا على المستوى الثقافي العام للمجتمع الجزائري، الذي عمّ فيه الجهل وتفشى في مساره، حتى

¹⁵⁹⁷ - عبد الله الركبي، تطور النثر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 14.

¹⁵⁹⁸ - المرجع نفسه، ص 22.

وصلت نسبة المثقفين إلى درجة دنيا، لم يكن فيها المثقف الجزائري المعرب يشكل حدثا هاما، خصوصا وأن التعليم العربي لم يكن سوى حرًا ليس ذا بال. فغالبية المتعلمين كانت على المستوى الرسمي الذي تحكمت فيه فرنسا الاستعمارية، فكوتت نخبة لا تعلم من الحرف العربي سوى بعض أشكاله، بينما حافظ هذا الحرف على روحه، بفضل بعض الزوايا والكتاتيب، ثم المدارس الحرة التي أنشأها رجال الإصلاح فيما بعد. إن هذه البيوتات، وهذه المراكز والزوايا، لم تحقق من نسبة القراءة إلا كمًا ضئيلا جدا، فبينما ظلّ الجوع والفقر يلاحق كل الجزائريين، فلم تستجب هذه البطون الجائعة إلى طلبات المعرفة.

وفي ظل هذا العامل، لعلّه يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي: من يكتب لمن؟ ولم؟

وإذا كنّا قد عاجلنا من قبل، أنساق الثقافة والمعرفة الأدبية منها خاصة والتي كانت سائدة في المجتمع الجزائري إبّان هذه الحقبة، من شعر ونثر، سواء على المستوى الشعبي أو الفصيح، فإن ذلك يثير بعض الشكوك في احتمالية القراءة لدى عموم المجتمع لأول وهلة، بينما سؤال الواقع يشي بأنّ هذا الأمر لم يكن يحصل، بل ما كان يحصل -خصوصا على المستوى الفصيح- سوى فضاءات محدودة، كانت تحدث في مناسبات بعينها، فليس هناك مؤسّسات كانت تسهر، ولا مهرجانات تفعلّ، فتساءل إلى أي حدّ بلغ مستوى النص الأدبي عموما، والنص الرحلي على وجه أخص باعتبارها نصّا تقريريا مباشرا؟.

فإلى أي مدى بلّغ النص رسالته نحو المتلقي؟ وكيف استجاب هذا الأخير مع النص وتفاعل؟ وبين هذا وذاك، لعلنا نُسائل النص من وجهة قرائية، فلا يعترضنا شكّ في أن نطرح زمنين لمستوى القراءة، أولهما زمن النص، حيث كان فيها المستوى الثقافي للمجتمع لا يمثّل نسبة كبيرة، والزمن الآخر، هو زمن ما بعد النص. فكيف تقرأه الأجيال في ظل التراكمات المعرفية والإجراءات النقدية، والاستقراءات التاريخية، والجوانب المحيطة بالنص والفاعلة فيه سواء بشكل مباشر، أو غير مباشر؟ علما بأن النص الرحلي متحرر، فليست له جاذبية القوانين التي تتحكّم في جميع الأجناس الأدبية الأخرى، بل تسوقه ريح الديمقراطية بشكل سريع ووفق إجراءات التثبّث بالمعارف والمشاهد والأحداث، فيبقى نصّا مراقبا، مستهويا لجميع الإجراءات.

وباستطاعة المتلقي أن يحسم كثير من القضايا باعتبار أن الرحلة ضربت في مساحة من الأرض المفصلة وفق وحدات قياسية معينة، بالإضافة إلى كون كل العناصر التي سيروها السارد، تكون أغلبها حاملة لسابق تجربة عند المتلقي ما دام أن الرحلة فعل إنساني مشترك بين الجميع. من خلال هذه العناصر المحددة يقع الاتفاق بين الباتّ والمتلقي عند نقاط مشتركة بمثابة معالم يوجّه من خلالها الباتّ

المتلقّي عبر سبل النص للظفر بنتيجة الخطاب الكلي المنطوي على دلالة. وإذا كان عالم الرّحالة عالم واقعيّ يقوم على جرد الأحداث بانتقاء شديد من أجل تخطيب الواقع، فإن عالم المتلقّي يقوم على التّخييل لا لشيء إلا لأنه يعيش النص مجرّداً من واقعه المحسوس (المرئي) إلى عالم الافتراض الذي يمتلك سلطته السارد، فيتمثّل المتلقي مستسلماً بخياله لرسم ما يعرض عليه كتابياً أو مشافهة، بالإضافة إلى اكتشافه لعالم المسرود، فهو يكتشف أمراً آخر ويتعلّق بعالم الرّحالة ذاته ومستواه الثقافي والاجتماعي (الجمعي/ والفردى)، فيقيم من خلال النص الظاهر معالم النصّ الغائب، ليتحول النصّ الرحلي من الإنتاج الواقعي إلى الإنتاج التخييلي. وإذا كانت الرحلة وثيقة تعكس حالة المجتمع ومستوياته الثقافية ظاهرياً فإن وجهها الآخر هو الذي يتجلّى في مُعادِله الموضوعي وما يبطنه من مظاهر وخلفيات.

1. 2. المتلقي المتزامن

من الصعب جدّاً إصدار أحكام على المستويات التي كان يتمتّع بها متلقي الخطاب الأدبي عموماً في الجزائر، والخطاب الرحلي على وجه الخصوص. ذلك أن القارئ الجزائري إبان الحقبة الاستعمارية تضاعف حَجْمه وتقلّصت سعته، وبات من الصّعب تحديد نسبة القراء من مجموع أفراد المجتمع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نتساءل في حالة وجود تلك النسبة الضئيلة من القراء، ما مدى استيعاب هذه الشريحة للنص الرحلي؟ وما شكّله ووعيها لخطابه الذي يحمل في ثناياه جملة من القضايا التي يحملها النص في خضمّ شعور المخاطب ولا شعوره؟ فقد تأكّد لنا في جانب من هذه الدراسة، بأن الخطاب الرحلي الجزائري في عمومه لم تكن له في الغالب مساحات خاصة ومستقلة، بل كان يشغل مساحة في ركن من أركان الصحف السيارة. وهو ما جعله ينزوي في كثير من الأحيان إلى دائرة المقال، لأنه كان يترتّب على مضمونه كل القضايا بعرض النظر على شكله. ومن هنا نتنبّه إلى شيء هام من جانب المتلقي في هذا الخصوص، وهو التيار الصحافي الذي شغل وظيفة كل فنّ من فنون القول، وبات يشكّل وصاية على القارئ العام، مما جعل نصّ الرّحلة موجّه للجمهور في حينه.

لم يكن للخطاب الرحلي الجزائري في حين صدوره متلقيه الخاص، بينما كان جمهور القراء من المعتادين على القراءة الصحافية بجميع فنونها وأذواقها، هم من كان يشملهم خطاب الرحلة على غرار شتىّ الفنون الأخرى. وهو ما يفسّر الخطابات الاستعجالية أو المقالات الآنية التي كان يبعث بها كلّ كاتب سنحت له فرصة السفر واقتنى أثر الأمكنة واجتمع بالناس من كل جهة. إن من يطّلع على

التّصوُّص الكثريرة التي في أغلبها احتضنتها الصحف يجد مميزات هذا النص الذي كان فيها يحمل صفات المتلقّي فيما يتعلّق بقضايا معينة تميّزت بالاستهلاكية.

ومن ذلك نجد أن المتلقّي الفعلي (العلي) الذي يظهر في طور ما بعد الإنتاج، هو القارئ الاستهلاكي الشّعبي، ولا نقصد بالشعبي من عامة الناس فحسب، بل ما تحمله الكلمة الشعبوية من دلالات أو جميع شرائح المجتمع في صبغة شعبية، أي يتناول الأخبار الصحفية كلّون من ألوان المعرفة والتزوّد بالأخبار التحينية، ما دام أن الرّحلات كغيرها من الكتابات كانت تلتزم خارطة الصّحيفة ذات المساحة المحدودة، حتى وإن كان النص طويلا، فإن الرّحالة يبثّه في سلسلة من الحلقات المتوالية، وأحيانا نجد أن تلك السلسلة تتوقف دون سابق إنذار، ودون إعلام للقارئ، وقد كان هذا المتلقّي (الشعبي) قارئاً يبحث عن المتعة والفائدة، ويُفعل نشاطه الذهني من خلال ممارسة القراءة التي كانت فيها المعلومة شحيحة.

وهذا ما كان يفضي إليه نشاط الخطاب الرحلي في هذا الجانب، من خلال التصريح والتواصل المباشر، فكثيرا ما يلجأ الرّحالة إلى بثّ خطاب مباشر لإدراكه بمستويات القراء المختلفة، حيث تشكّلت لغته بسيطة ومباشرة وغالبها تقريرية غرضها تزويد القارئ بالمعلومة، لقد كان الرّحالة يلجأ إلى مخاطبة أذهان الطبقة الأوسط والأدنى لمحدودية ثقافتهم في الغالب لأن الخبر كان أكبر همهم.

2.1.2. النسق الواقعي وعلامات القارئ

تعمّد الرحلة إلى الواقعية في تجسيد خطابها، كون الرّحالة اجترار صيغة الفعل إلى صيغة الخطاب، انطلاقا من تطابق حيثيات السفر ومقومات بنيته إلى محاولة محاكاتها كتابة أو قولاً. من خلال إظهار أهم مقترحات الأحداث والمواقف والمشاهد التي تضمّنها فعل السفر، باعتبار أن النصّ المقترح من بين مجموع الرّحالة الفعلية هو نصّ اختياريّ. والرّحالة الجزائرية الحديثة لا تنسج إلا من واقعية فعل السفر حيث يتشكّل نصّها تقريرا يعدّه الرّحالة في حدود أهم النقاط التي يُدرجها كنصّ اختياري يَرى فيه التّرتيب القويم من أجل قارئ أو متلقّ معين، وهي خاصية تتعلّق بالقابلية.

لقد امتدّت الرّحالة الجزائرية الحديثة فترة طويلة، تقاربت فيها النصوص زمنيا، ممّا جعلها تشكّل تواترا على مراحل الحياة اليومية للجزائريين، العامّة منها والخاصة، وتحقّق بعد ذلك إحاطة بمستويات الثقافية والمعرفية والإيديولوجية للمجتمع من خلال الطّرح الذي ينزع إلى الواقعية في مواجهة الذات للأنا من جهة وللآخر من جهة أخرى.

إن أهم ما تمثله الرحلة كمادة حكاية، اعتمادها الكلي على الواقعية في صناعة الخطاب، أنها تُعتمد كوثيقة يرجع إليها للتأسيس التاريخي، كونها تنهض مثقلة بالتقرير الموافي للأحداث والوقائع التي يتناولها مضمون الحكاية المدرجة ضمن عالم الحقيقة الخالية من التخيل الاستيهامي الرمزي، إلا إضاءات تكاد تكون معدومة، ومن ثم راح القارئ الفعلي قارئاً مستهدفا بإشارات قصدية، كعلامات تدل مباشرة على نوعه. وهي جلّها علامات صريحة تتفرع إلى نوعين:

2.1.1. 1. علامات مباشرة

يقوم الخطاب المباشر في الرحلة الجزائرية الحديثة كطريقة صريحة للتمر المتلقي وشده على الانتباه والمتابعة، وهو إعلان عن ميثاق مباشر، يكون فيه الباث (الرحالة) حرّاً في تصريحاته، بينما حتمية السياق تفرض نوعاً من التعاطف النصي بينه وبين المتلقي لأنه يقصد إلى ذلك قصداً مباشراً، فحين يكون الرحالة مقرراً عن رحلته، فهو يضع نصب عينيه وفي ذهنه قارئاً فعلياً مقصوداً بذاته، خاصة وهو يعلم يقينا بل يعتمد إلى (معرفة) القناة التي سيمرّ عبرها نصّه وبالتالي تشكل هذه الحتمية استسلاماً يكون فيها الكاتب أكثر قرباً من القارئ الذي يعلم بأنه إلى حين يكون النص بين يديه، لأنّ الصحف مادة استهلاكية يومية أو أسبوعية، أو شهرية على الأكثر، مما يجعل لها قراءاً مخصوصين، وهو ما يوفّر لنا مادة علامائية تُشير إلى تسميات صريحة لمن تُوجّه له رسالة التقرير الرحلي مثل: القارئ، أو المستمع، أو عزيزي، أو أخي، وهلم جرا.. وما دامت الرحلة الجزائرية أنها تستند إلى صفحات القراءة الصحافية فإن همّها كان القارئ بصيغته الصريحة، وتبلوناتها الدعائية حتى لا ينفلت منها.

إنّ ما لمسناه حين تتبّعنا لخطابات هذه النصوص الرحلية، نجدها تقتاد القارئ عاطفياً لتوصله إلى مورد الحقائق والمشاهدات وتضعه نصب عينيه لتقاسمه انفعالاتها وملاحظاتها فكلّ همّها كان منصباً إلى قارئها الذي لم تخرج عن إذنه ولا هي ابتغت جولة دون ملازمته، نجد هذا كله يتمفصل عاطفياً بحسب تمفصل سياقات الخطاب.

إن البنية الكلية للنص موجّه نحو القارئ بصريح العبارة مثل: "وقد اخترنا نشرها ليُمسي القارئ بها ظافراً، ويكون الفعل متعدّياً لا قاصراً، وخدمة للعلم الصحيح"¹⁵⁹⁹ وهي إشارة إلى أن الرحالة في سعيه لنشر نصّه كان همّه القارئ لأنّه يريد من المعرفة التي حصل عليها أن تعمّ وتشمل شريحة كبيرة من القراء، لذلك نجدّه مستعظفاً يبحث عن سندٍ ودافعٍ مؤيدٍ، في عبارات تنمّ عن انخياز ذاتي متعلّق بالاختيار الذي يحدّد وظيفته المرتبطة أساساً بالقارئ. والنصّ كلّهُ للقارئ الفعلي، حتّى إذا زاغ الكاتب

¹⁵⁹⁹ - الجواب عن أسئلة رحلة وهران، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 3444.

في الاستطراد فإنه لا تبرح الاستئذان حين العودة إلى السرد بالإشارة إليه مثل هذه العبارة: "ونرجع بالقارئ لتتمة احتفالات بسكرة وقد علم القراء معظمها"¹⁶⁰⁰ مفاد ذلك أن وعي الكاتب لا ينفصل عن الرسالة التي يبليغها، فهو يعبر عن فعل أخلاقي يترتب عنه احترام متلقي فعلي متأكد من تواجده عند عرض النص.

ولقد كانت شريحة الرحالين في الرحلة الجزائرية ذات حساسية كبيرة تجاه القارئ، فهي تترجّاه بشقّي الصيغ، حتى لا يظنّ بها الظنون، فأهميته بالغة، لقد كانت تحرص كل الحرص على أن تجعله في الصورة الموضوعية التي أَرادها هو، لذلك كانت العبارات تشكّل حساسية كبيرة خوفاً من التأويل الذي قد يصرف القارئ إلى اتّخاذ موقف غير الذي أَراده الكاتب، مثل هذا القول: "وعلى كل حال فإننا نلتمس من القارئ أن يفض الطرف عما طغى به القلم أو حرفته الطباعة لأنه لا يخلو مطبوع من الهفوات لذلك تجد كثيرا من الكتب المطبوعة مذيبة بفهرست الخطأ والصواب ونحن لا نعتمد إلا على نباهة القارئ وحسن ظنه بهذا العبد والكمال لله وحده"¹⁶⁰¹ وهذا ما يشكّل لنا وعيا بأن درجة القارئ كانت تمثّل نجاح الكاتب في مهمته البلاغية. كما أنها تحرص إلى استمالته بالحديث حين تخوض في اتجاهات سياقية، خاصّة خلال الوظائف التنسيقية التي تجعله منتبها إلى درجة الوعي كلما اقتضى الأمر ذلك، ما دامت الرحلة تخوض في شقّي المجالات وتقترب مختلف الموضوعات، وهو ما يجعل السارد يُولي اهتماما بدرجة كبيرة من الحرص على تبليغ الأهم، وزج المتلقي إلى خلفياته الإيديولوجية أو المعرفية، وهذا تصرف منه ينطلق من توافقه مع الشريحة الدّنيا من المتلقين حتى يتمّ احتواء مختلف الشرائح دون استثناء، مثل قول الرحالة: "وياك أن تغتر أيها القارئ بأنه لم يذكر في هذا الوطن إلا رجال الفقه والأدب بل مر فيه رجال الطب والفلك والهندسة وأشباهاها فحول"¹⁶⁰² وتعدّد الصيغ العاطفية التي توحى باهتمام الكاتب به وتوجيه سلطانا على ما يبليغ به من خلال إدراج عبارات عاطفية ذات دلالات ومقاصد معنوية تحفّز القارئ وتجعله أكثر انجذابا، من خلال الاعتبار الذي يُوليه له الكاتب مثل: "وعفوا - يا قارئ - إذا لم ألتزم الحدود في هذا المقال لتعرف خطورة الخروج عن الحدود"¹⁶⁰³ وتختلف الصيغ وهي كثيرة تجدها حسب السياق منها الطلبية كالتّي سبقت الإشارة إليها، أو الاستفسارية كقول الرحالة: "وهل تعلم أيها القارئ

1600 - مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 2086.

1601 - الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 772.

1602 - الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 772.

1603 - أحمد سحنون، ليلة مباركة، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السادسة، العدد 226، في 3 شعبان 1372 هـ (17 أبريل 1953م).

الكريم ما هي الزيارة وما لونها. زيارة مولاي يعقوب مولاي إدريس¹⁶⁰⁴ وهي كما هو واضح صيغة ذات مقاصد تعليمية.

2. 1. 2. 2. علامات غير مباشرة

إضافة إلى الصراحة اللفظية المتعلقة بالقارئ بكل صيغه المباشرة، فإنّه إلى جانب ذلك نجد السارد يومية إيماءات غير مباشرة تصبّ في خانة القارئ الفعلي متضمنة ذات القارئ المتجلي في القارئ المخصوص "تميزه عن المسرود له من الدرجة صفر"¹⁶⁰⁵ يلجأ إليها الكاتب في صور مختلفة ينمّ عنها التعبير ذي الخصوصية، كاستعماله للضمائر، خاصة ضمير المتكلم الجمع الذي يحيل مباشرة على قصدية الرّحالة. وهي مباشرة من وراء حجاب اللفظ يتفطن لها قارئها إلى حين تلاحمه من النصّ وتمثّل هذه النماذج نسبة كبيرة في مجمل المدوّنة وتأتي صورها على هذا الشكل: "فيحق لنا أن نحمد الله تعالى على دولة منّ الله بها علينا، ونجتهد بواسطتها في أنحاء الأسباب التي سنعود بها لسيرة أوائلنا فإن فضائل الله ليست محصورة في قوم، ولا مختصة ليوم دون يوم"¹⁶⁰⁶ والمخاطب هنا، القارئ الفعلي الذي سوف يطلع على الخطاب، يقرّ له بالاعتراف بدولة فرنسا، ويزين له صورتها.

ويغلب في استعمالاته الصيغ الإنشائية كبديل عن العلامات المباشرة مثل النداء والاستفهام والتعجب، وهي من الأدوات التي تعوّض العلامات المباشرة باعتبارها صوراً عاطفية تؤدّي وظيفة بديلة عن العلامات اللسانية، وهو خطاب بديل يستلهمه المتلقي من عدّة قرائن حسب ما يؤقّره السياق من تجاذب حسب طبيعة الموضوع والأحداث المسرودة، إذ تصبح وظيفتها نقل المشاعر والعلامات الدالة على تواجد متلقّي، يبرز من عدّة علامات تتحدّد من خلال الأساليب ومن خلال الصّور البلاغية أيضاً خاصة التشبيه القائم على تواجد المتلقي كطرف في الموضوع، كما نجد مثاله في هذا القول: "ونتمنى أن نرى أيضاً من سكان وهران محاربة قوية ضد صياح الطلبة بتلاوة البردة والأولى تركها اقتداء بقسنطينة وتونس وغيرهما من مدن الإسلام والعلم والدين"¹⁶⁰⁷ كما نجد في الاستعمال المتعلق بالصيغ المبنية للمجهول: "فأرأينا من الغرائب ما لا يُحكى. في العدد الآتي نأتيكم بقليل منها لتطلعوا وتعتبروا يا أولي الأبصار"¹⁶⁰⁸ فنجدّه يستعمل المبنى للمجهول وهي إشارة

¹⁶⁰⁴ - أحمد حماني، حديث المتحول -2-، جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثانية، العدد 127 (الجمعة 22 جمادى الثانية 1357/ 19 أوت 1938)

¹⁶⁰⁵ - أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس، مرجع سابق، ص 98

¹⁶⁰⁶ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 59.

¹⁶⁰⁷ - على جناح السفر، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 588.

¹⁶⁰⁸ - في الوطن القبلي، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 179.

تتبع لسياق الخطاب العام، مع التأكيد كما نرى على إشارة أخرى ملازمة لها وهي الصفة المطلوبة لدى القارئ حتى يجعله في الصورة من أجل تحفيز أفعه للانتظار.

2. 2. المتلقي الضمني وأشكال المتلقين

يتشكّل كل خطاب رحلي من حيث مستويات التلقي إلى أشكال ضمنية كبرى من المتلقين، ويعزى كل شكل من هذه الأشكال إلى طبيعة القراءة التي تحددها البنيات العامة لكل من هذه الأشكال، وتتوزع هذه الأخيرة إلى متلقي جمالي، ومتلقي نفعي، ومتلقي تعليمي.

2. 2. 1. المتلقي الجمالي

تُقدّم الرّحلة الجزائرية الحديثة خطابها على مختلف أوجه التّبليغ، فهي لا تشدّد عن قاعدة النظام العام لسردية الخبر الرّحلي الحامل لتقرير السّفر الذي يعدّ العمود الفقري لإجناسية الرّحلة، وهو الجانب الثّابت الذي تعتمده الرّحلة عموماً. ولما كان لا بد للنص الرّحلي أن تتلبّسه خطابات مختلفة، فإنّ خصوصية ذلك مردّها إلى دوافع الرّحّالين ومنطلقاتهم في الكتابة عن تجاربهم في السفر، ومن ثمّ غدا كل خطاب يستند إلى من يستهدفه إما مقصوداً بالتواصل مع الكاتب (الرّحّالة) وإما ضمناً تُسفر عنه البنيات النّصية الدّالة على فحوى الخطاب.

وباعتبار أن الخطاب الرّحلي يندرج نسقياً ضمن الخطاب الأدبي، فإنّه بات يشكّل طوداً فنياً من هذا المستوى على مرّ العصور، مُستخلصاً ذلك من مقوّمات فنية خاصة به شكّلته نسيجاً أدبياً، بغضّ النّظر عن التّخييل الذي تشترطه المؤسسة الأدبية، فإنّ عزاء ذلك أن أدب الرّحلة يخلق من الواقع أبعاده التّخييلية، فهو عكس الأجناس الأدبية الأخرى التي تبتكر شخصياتها وتنفّخ فيها من وحيها أحداثها وباديتها وخاتمها استناداً إلى خلفيات المبدع، فإنّ الرّحلة ليست لها خلفية إبداعية مسبقة يفترضها المبدع، بل يكون المبدع (الرّحّالة) مقيداً بالواقع بما يمنحه من شخصيات ووقائع وأحداث في زمن واقعي ومكان واقعي. أما ظاهرة الخلق التي يتم فيها التعويض عن العناصر التّخييلية، فتظهر في مجال الكتابة والتعامل مع اللّغة التي تنهض بإبراز عناصر الجمال من خلال تعاطيه مع الأحداث والمشاهد المؤثرة، والاعتدال على تجسيد الوصف القائم على دعائم بلاغية، التي تشتطّ في تحريف الواقع إلى رؤى عاطفية، يشعر من خلالها المتلقّي بمستوى الانفعال ذاته الذي شعر به الرحّالة، وليس رسماً جافاً غير موحّي لتفاصيل الأمكنة المزارّة. لذلك لا يمكننا التقليل من شأن الرّحلة أدبياً، بل الأديب من يملك القدرة على اللّغة ويحبك بها نسيج النّص الراقي، فلا يمكن القول إلا أنه قد يعطيها الجمال الخاصّ من خلال انفعالاته الوجدانية حيّال ما هو جدير بالوصف أو التفاعل مع الأحداث.

وإذا سلّمنا بأن الرحلة لم تجد لنفسها مكانا في المؤسسة الأدبية إلا في خصوصيتها الفنية، فإن ذلك مؤشّر بأن تتزوّد بطاقات فنية، ومنه نستلزم أن جانبها الفني هو الذي يؤهلها قصداً باتخاذ المتلقي الجمالي في برنامجها الخطابي، باعتبارها تُصدّر خطابا جماليا.

وفي ظلّ هذا نجد أن الرحلة الجزائرية الحديثة قد تمخّضت عنها مقصدية المتلقي الجمالي كونه البنات النصّية الجمالية طافحة، وهي تشتغل متعاضدة انطلاقا من دوافع الكاتب (الرحالة) وتشكيلته النسقية في إبراز ما يمكن اتّخاذها مادة أدبية (جمالية) تلقائية وفق توترات الكاتب، أو خصوصية التوظيف الأسلوبي. وانطلاقا من هنا، يمكن إبراز البنات النصية والأسلوبية التي تقيّد المتلقي الجمالي.

2. 1. 1. الصورة الفنية وأسس الاستجابة

تتشيد الصّورة الفنّية في الخطاب الرّحلي الجزائري الحديث بين الفينة والأخرى، موقّعة جمالا في النص، خاصة عند طائفة الأدباء الذين يمتلكون الحسّ الأدبي وجمالية الكلمة، استشعارا منهم بأنهم يقدمون خدمة للقارئ من أجل التفاعل وجس نبضه، ومقاسمته شضايا الانفعالات والمحسوسات التي تأثروا بها هم أنفسهم من خلال المشاهد والأحداث التي تستحقّ التنويه، وهي جديدة بالذكر، ويُعدّ هذا اللون من التعبير معادلا لجانب التخيل حيث إن الخيال "نطاقه في أدب الرحلة محدّد في تلوين المشاهد والحوادث، لا أخلقتّها، أو تزييفها. ولذا تتحدّد وظيفة الخيال في أدب الرحلة -وهي وظيفة لها أهميتها، ولها خطورتها أيضا- حين تتجاوز الحقيقة أيّا كانت هذه الحقيقة الرّحلية سواء في الحدث أو المشاهد"¹⁶⁰⁹ وليس الخيال سبيل العمل الأدبي ابتداءً من الخلق الذي يهندس المحكي، في ابتكار أشخاصه وأحداثه، وإنما قد يتعدّد إيجاد مسوّغات تخيلية في إعادة توصيف الأحداث ولملمة شتات صورتها وإعادة تركيبها لها، حتى لا يطغى عنصرٌ عن عنصرٍ "وبخاصة في سياق أدب الرحلة، الذي يتطلّب من الرّحالة الأديب قدرا كبيرا من القدرة على توظيف خياله في صياغة المشاهد، صياغة لا تبعد عن الواقع أو تزييفه، بقدر ما تمنحه شحنات خيالية ذاتية"¹⁶¹⁰ نابعة من مصادر الذات المختلفة التي تحوّل المرئيات من مجردات إلى فضاءات بغمرتها الشعورية التي تحوّلها اللغة كترجمة عن درجة التفاعل التي تحقّقها عوامل عديدة داخلية وخارجية.

وهذا المقام الذي يختصّ بالتّخيل يقوم على الاقتدار في ابتكار ما يناسب نقل المشاهد والأحداث، ما أمكن للذات المبدعة من إيجاد مسوغات إلى ذلك، وتعتمد ظاهرة التّخيل على الصّورة

¹⁶⁰⁹ - عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير، إشراف أ.د. محمد الصالح جمال بدوي، قسم الدراسات العليا العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1997، ص 127.

¹⁶¹⁰ - أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ص 129.

الفنية كعنصر أساس في بلورتها، حتى يمكن لها التّفوذ في الذات المتلقية، كون الأصل في الصّورة الفنية أن تكون قائمة على الابتكار، حتى تستطيع أن تمثل إعجاب النفس، وتفاجئها بالمعاني والدلالات الإيجابية التخيلية التي لا عهد لها بها، فتثير دهشتها واستغرابها، وتستدرجها لاتخاذ الموقف المناسب من التجربة الشعورية التي تعرض من خلالها، لأن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية، قوى انفعالها وتأثيرها¹⁶¹¹ وتقوم الصورة الفنية على اعتبار أنها "الطريقة البلاغية المعتمدة على التشبيه، والمجاز، والكناية، أو كانت وصفية سردية لا تعتمد على الألوان البلاغية"¹⁶¹² وهما الوجهان اللذان يحقّقان في نص الرحلة صورة فنية في ذات المتلقي تتمثل في خلق جوّ من المتعة، فتنشأ عنده علاقة قوية بالنص بالإضافة إلى أنها تعايشه أحداث حكاية الرحلة، بقدر كبير من الإحساس.

وأهم ما يميّز أدب الرحلة في هذا الجانب هو التلقائية إذ قد يصدق كل رحّالة بما تزوّد من مرجعية أدبية وذخيرة لغوية ورصيد فني، وقرينة تخيلية تكشف عن قدرة آنية في التعامل مع معطيات الأحداث والمشاهد، فتنفذ إلى أقطار نفس المتلقي محقّقة بذلك مزجاً في ذاته من خلال الواقع المؤدج بين الحقيقة والخيال، فينقل الواقع من الجفاف إلى دسم المشاعر والتدفّق الانفعالي المعبّرة عن حقائق نفسية هي نفسها أبعاد جمالية.

إن لجوء الكاتب (الرحّالة) إلى استخدام الصّورة في ضروب مختلفة من النص ليحمل دلالات للمتلقى ابتداءً من اعتبار نفسه متلقياً، فهو الذي تأثر بالموقف واستنشق أنفاس المشهد وحقق ذروة الأحداث، إنه الأديب المتحرّر الذي تتأجج عنده العاطفة لتمنح عناصرها المشهدية إلى حبلٍ قوليّ ينقل درجات التوتّر في صُور تخيلية تتوقّف جودتها على "مدى تمكنها من إحداث التخيل المناسب في نفس المتلقي لدفعه لاتخاذ الموقف المناسب من التجربة"¹⁶¹³ ولا يعني أن قوّة التعبير على هذا المستوى نابعة من قوة التأثير التي يحدّثها المشهد، بل يرجع ذلك إلى قوّة الأديب في التصوير، فكّم من غرائب وطرائف ينقلها الرّحّالون لا يستطيعون الوصول إلى مدركاتها الفنيّة فيكتفون بالتّضمين أو الوُجوم اللفظي من شدّة التأثر، مثلما كانت عليه رحلات القرن التاسع عشر.

ولقد عبر كثير من الرحّالين عن هذا المستوى الذي يحدّد من جهته القارئ من المستوى نفسه، فالقارئ هنا يجد صياغة مناسبة للتّلون مع النص، ولاقتحام عالم الرّحّالة ومعايشة مستوى موازي لمستوى ما عاشه أثناء رحلته.

¹⁶¹¹ - محمد عبد المجيد ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص159.

¹⁶¹² - أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ص127.

¹⁶¹³ - الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مرجع سابق، ص147.

ومع انتفاضة النثر الفني الجزائري مع بداية الربع الثاني من القرن العشرين وما تلاه من زمان، عرفت البلاغة بما تتوفر عليه من طاقات نفسية ومفهومية مكتسبة من التعامل مع قيم المرئيات وتجسيدها في صور تليق بها أو تتجاوزها لتعطيها دفعا حيويا يزيل عنها الالتقاط الفوتوغرافي إلى التجسيد الحركي الذي يحرك في المتلقي آليات الإدراك فيخيّل المشهد بالإضافة اللازمة والتأويل المحتمل، وتلوين ذلك بأصباغ متناهية لمنح الصورة نصاعتها، ومنها تجسدت في نفس المتلقي كظاهرة متعدّدة الدلالات والتأويلات التي تتخلّق بفعل نفسية كلّ متلقّ باعتبار خصوصية النفس البشرية في الإدراك والتجربة كون "الصُور الشعريّة لها دلالات إيحائية، تختلف باختلاف تصور المتلقّي وإدراكه وخبراته السابقة عن عناصره أو طبيعة الإثارة التي تولّدها في نفسه ومخيّله"¹⁶¹⁴ كما أنه يُعدّ أمرا طبيعيا ينجم عن تفاوت المتلقّين استيعابا وإحساسا، وقدرةً على تشكيل الصورة الممنوحة كظاهرة إبداعية "فمن الثابت أن استمتاع المرء بما يقرأ مرهون بقدرته على تخيّل ما يقرأ وما يرى ويسمع، وعلى الصورة التي ينتزعها بنفسه"¹⁶¹⁵ ولا يتسنى ذلك في أيّ كان من الأعمال الفنية إلا من خلال دافع الإحساس الصادق بالجمال الناتج عن فعل الإدراك، الذي يمثّل في عالم الرّحلة استجابة للحميا الفنية التي تستلزم "رهف الإحساس وقوة العاطفة، إن الحميا الفنية ترافق الرحال دوما، بسبب طبيعة المهمة التي يقوم بها؛ إذ تكون حواسه جميعا مستنفرة، وعلى أهبة لتلقي ما كان ممتعا أو مفيدا"¹⁶¹⁶ متجليا فيما تمنحه قوة البلاغة من شدة التأثير في المتلقي المستجيب بفعل هذه القوّة المؤثّرة على حواسّه، فلا غرو إذن أن يعيش المتلقي حالة انفعال ناجم عن قوة هذه الإثارة "ومن الطبيعي أن المبالغة لا تتحقق ما لم تكن الصفة التي يراد إثباتها للذات موجودة في المحاكي بأقوى وأظهر مما هي عليه عندها"¹⁶¹⁷

إن الصورة الفنية التي يطرحها الأديب الرّحالة في معترك حديثه عن أحداث رحلته، نابعة من قوة الشخصية الأدبية التي يمتلكها من مصادر مختلفة، تتيح للكاتب التمتع بأسلبة معينة، فتخلق المتعة قيمتها الفنيّة في النص الرحلي انطلاقا من الأسلوب الذي يتّخذ من الصُور الفنيّة والجمالية عالما للتلقي، إذ يعدّ الأسلوب ظاهرة قويّة في تجسيد الذات في تفاعلها بالأحداث والعوالم المختلفة، وهي قدرة خلاقّة لا تتأتّى إلا من سبيل أدبي يجسده الأديب المقتدر، وهي تفاوت من أديب إلى آخر، وتختلف باختلاف ضروبهم الأسلوبية. وكظاهرة أدبية تخلق الصور الفنية جوا ممتعا يحافظ على كسر رتابة السرد، ويتعاطى مع الحالات النفسية الخلاقّة للإبداع بما تقوم عليه من صور بيانية في شتى صورها

¹⁶¹⁴ - الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مرجع سابق، ص 153.

¹⁶¹⁵ - المرجع نفسه، ص 147.

¹⁶¹⁶ - الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 54.

¹⁶¹⁷ - الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مرجع سابق، ص 151.

التشبيهية والمجازية، وهي عوامل نفسية يدفع بها التفاعل حسب ما تقتضيه حالة التأثر والرغبة في التأثير، بقدر ما تشكل عاملاً إبداعياً، وبذلك تنتج إبداعاً من ناحية المتلقي المتجاوب مع هذه الحالة. إن كل هذا الكلام عن الصورة الفنية في الرحلة الجزائرية، كلام يُحوم حول النظرية ما لم يقتحم عالم الصورة الحقيقي والمتمثل في أدواتها وآلياتها التي تشكل العامل الأساس في منحنيات التخيل، فليست الصورة الفنية قائمة إلا على عناصر بلاغية تحرك مدركات المتلقي وتفسر له درجات الانفعال والتوتر الذي يحسم الوجه الحقيقي أو التقريبي لما تتمخض عنه الصورة المرئية، ما دام أن البلاغة أداة ترويجية لمقتضى الحال، وبمقتضى أمارات الإبداع الصادرة عن الرحالة، فإنها تولد عند المتلقي هذه "الصور وتعمل عملها في الخيال، وتدخل إليه عن طريق الحسّ والوجدان، ويثير في النفس شتى الانفعالات والأحاسيس والتأثيرات، وعندما يكون الخيال خصباً، يكون اكتشافه للصور الفنية أدقّ، وتذوّقه لها أتمّ، وبيانه لها أوضح"¹⁶¹⁸ عندها يتمثل التخيل الحسي الذي تمنحه الصورة، حيث يقوم المتلقي بتشخيص القول إلى صورة مجسّدة كقول أحمد توفيق المدني: "خرج لاستقبالنا بحر من البشر بحر هائج، مائج، احتل الطرق والساحات واحتل المطار واحتل نفس مجال الطيران، فاضطربت الطائرة المقلة لنا لاختراق الصفوف المتراسة وهي تسير سير الغيلم، خشية أحداث مجزرة بشرية"¹⁶¹⁹ وهذه الصورة تغدو متكررة في مساحات كثيرة، خاصة في نصوص (توفيق المدني) الذي يتحين كل فرصة مناسبة لتوظيف أسنمة الابتهاج كما مرّ في المثال السابق، أو مخالف الانتقاد مثلما يتأكد في قوله: "بعد كل ذلك، وضعوا على الموائد خمسين خروفا مشويا نظرنا إليها مشدوهين متأملين، ولم تمتد نحوها يد من الأيدي المترفة، فرجعت إلى قواعدها سالمة"¹⁶²⁰ ففي كل الأحوال، نجد هذه الصور وغيرها مكنتزة بتوظيف أكثر عدد ممكن من عناصر البلاغة، لتخلص إلى الكناية كاستنتاج عام، وهو اشتراك يعضد من قوة الصورة، ويجعلها تنفذ بيسر وبضمان نحو ذات المتلقي، وبالتالي تتدرج الصورة البيانية إلى صورة فنية، يتجسد فيها الحسّ والحركة التي تقتادها آليات البلاغة المتضافرة.

وعلى الرغم من شحوب الأدباء الجزائريون من حيث شهرتهم، فإنهم يشكّلون جملة التنوع وآفاق التعدّد الفني، نظير امتلاكهم للقدرة اللغوية، وكفايتها الذاتية، ولعلنا نجد من الرحالين من تحجبه غمامة الشهرة ك(عبد الباقي الحسيني)، بينما نجد في نصّه الرحلي استفزازاً جمالياً للمتلقي والسيطرة عليه فنياً،

¹⁶¹⁸ - صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، شركة الشهاب، باتنة، الجزائر، 1988، ص 131.

¹⁶¹⁹ - حياة كفاح، مصدر سابق، ج 3، ص 419.

¹⁶²⁰ - المصدر نفسه، ص 414

من خلال ما نبده من قدرة على التوظيف الحاسم للصورة الفنية، كقوله في وصف القطار: "وقد نخرت عظام هذا القطار وهو حلى وبلى جسده وهو يتحرك إنما كثرت قعقعته واعتراه الارتعاش والاضطراب وهو يمشي يتعكز على حدائد مبرية وأعواد منحنية وأرجل أضناها الحفا يحتوي على مقاعد وجوانب وسقف أتى عليهن العنايئ كما يئن المريض الميؤوس منه تحركنا من حلب الفجر وصلنا إلى أدانه ليلا والمسافة لا تتعدى 200 ميل تقريبا"¹⁶²¹ إن بين المنشئ والمتلقي علامات، أن المنشئ يعيش لحظات مادته الوصفية فيوي ما يسمح بتمثيل هذا الوضع الموصوف، في حين يشغل المتلقي آليات التخيل لإيجاد مسوغات التماثل وقد منحه المنشئ أمارات محدّدة للوصول إلى مبتغى ما يريد الوصول إليه حيث يركز الوصف على التشبيه ذي البلاغة في تصوير طرف من أطراف ما وقع في نفسه، ما دام أن اللفظ المعياري لا يؤدي ما في النفس من بلاغة وتأثر، الذي إذا لم تتوفر له تعبير بليغ حُبس في النفس وانتفت دلالته. وما الدلالة إلا من إنتاج المتلقي التي يصبح فيها المنشئ على الهامش.

ومن الرّخّالين الجزائريين طائفة لا يستهان بها، من حيث القيمة الأدبية التي تتمتع بها نصوصهم، ويعدّ تعاملهم مع المدرك البلاغي ذا شأن كبير، ما دام أن أنفاس الأدبية تتجسّد بشكل بارز، وذلك باستخدام آليات فنّ القول التي تقتضيها ضروب نقل الأحداث، وعلى العموم فقد سعى الرّخّالون إلى تجسيد عامل التشبيه الذي يعدّ أبرز مقوم بلاغي اعتمده الرّخّالون، ذلك أن التشبيه يقوم على خاصيتين ذات دلالات منطقية، تعتمد الأولى على المقارنة ما دام أن الرحلة قائمة على المقارنة بين هنا وهناك، وأما الأخرى فهي قائمة على الوصف ما دام أن أدب الرحلة فنّ وصفيّ بامتياز، إنهما مساحات كبيرة تجسّدت في هذا الشأن، من أمثال نصوص (الإبراهيمي، أحمد توفيق المدني، عبد الباقي الحسيني، حمزة بوكوشة، الفضيل الورتلاني، محمد الزاهي الميلي، السعيد الزاهري، محمد الهادي السنوني، محمد بن العابد الجلاي، منصور الغسيري... وغيرهم).

كما تمثّل الطاقة الاستعارية كمنونا تعبيريا له قدرة على التأثير ينشئه الرّخّالة (الأديب) للتفلّت إلى أركان حسّ المتلقي، ما دام أن الاستعارة قائمة على تحويل الهيئة من منحى إلى منحى آخر تسعى بذلك إلى الإدهاش، حيث تمنح في الساكن الحركة، وفي الجامد الحياة، مثل ما نقرأ ل (محمد الصالح رمضان) عند قوله وهو يتحدث عن القطار: "تتحاسى ولوج المدن غالبا وإنما تمر على جوانبها باستحياء"¹⁶²² أو نقرأ ل (محمد بن العابد الجلاي) عند حديثه عن شهر "أوت" يقول: "بئست الهدية

¹⁶²¹ - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 45.

¹⁶²² - سوائح وارتسامات عابر سبيل، مصدر سابق، ص 57.

هدية يقدمها تموز إلى مقتبله مكافأة لهم على احتفالهم به؛ فإننا ما كدنا نتبين طلعتة، وما كدنا نمد الأيدي لتناول هديته حتى أخذ يصفع وجوهنا بلفحه وحتى جعل يضطرننا إلى تغيير من ألفناه من عادات، وما أخذنا به أنفسنا من نظام في حياتنا الداخلية والخارجية؛ فيفرض علينا عادات غير عاداتنا، ونظاما غير النظام الذي ضبطنا به أنفسنا في باقي شهور السنة، ولولا الحرارة التي جاء بها تموز، وفتح علينا بها أبواب جهنم لما كان ثم من داع إلى لبس هذه الثياب البتراء وطرح الجلابيب التي تستر مناتن الإنسان جانبا، وأبرزنا في صورة كنا نحرض الحرض كله على إخفائها¹⁶²³ وهنا يبدو دور المتلقي في قبضه على المعنى، حيث ينبغي أن يكون المتلقي على اعتبار بما يصدر من المنشئ، في قصده، وهو دور جمالي يلعبه المتلقي، ويصطاد من خلاله المعنى حيث يشترط فيه ألا يكون به علك الجمال التعبيري، وأن يكون صاحب ذوق، كما أنه ليس شرطا أن يكون جمال الأسلوب بجمال صورته، إذ أن كثيرا ما يسيطر على الرحالة الجانب الذاتي، فنجده يعبر عن أحاسيسه ومشاعره سواء أكان شعورا بالفرح أو بالحزن، لأن الرحالة إذا أعجب بشيء أو نقم على شيء لم يجد وسيلة يعبر بها وينقلها للقارئ سوى الكلمة المفعمة بالمشاعر، والتي سيكون لها أثر في نفس المتلقي فيتجاوب معها، فالرحالة نقل مشاهداته في صورة "ممتعة، وأخبار تلذ وتمتع، وتستعرض بصورة أدبية، تتسق مع النفس البشرية، فتشكل رافدا ثرا من روافد الفن والمتعة الأدبية"¹⁶²⁴

2. 2. 1. 2. النزعة القصصية وعامل التشويق

تعدّ الرحلة جديرة بتقمّص الألوان القصصية المختلفة، فهي قصّة في حد ذاتها، ما دام أن الرحالة يتوقّف على النسق القصصي لتمرير مفاصل الطريق الذي توقّف على الكثير من الأحداث والمشاهد، إن جمع تلك المادّة وبسطها في أسلوب يتضمن أنها تنخرط في شكل أيّ كان، فهو يتشكل بالضرورة في عالم القصّ، الشكل المنوط بحمل مضمون الرحلة نحو المتلقي، فالعناصر المشكّلة للرحلة لا تقدّم بنودا تقريرية، وإنما الوعي الرحلي يُصيغها إلى مصفّ القصّة، ذلك أن الرحالة بتدويته للأمكنة وسرده لمجريات ما جرى أثناء عملية السفر، جديرة بأن تترك في نفس الرحّالة انطبعا، يتحوّل هذا الانطبعا إلى محكيّ ما دام أن الرحّالة يصرّ على لعب دور البطولة في لفت النظر إليه من قبل المتلقي، إلى درجة أن محكيات السفر وما جلبه من انتباه وانطبعا يؤوّل إلى عالم الرحّالة، في تبنيّه نزعة الحقيقة التي ينقلها وتبنيّه لكلّ الملاحظات والمشاهدات والانطباعات التي يختارها، ومن هنا، فما على المتلقي إلا الانطلاق

¹⁶²³ - محمد بن العابد الجلابي، تموز، مجلة الشهاب، الجزء الخامس المجلد الحادي عشر، (غرة جمادى الأولى 1354هـ/أوت- 1935).

¹⁶²⁴ - نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2008، ص 53.

من مشروع الرحلة إلى معطيات التفسير والتأويل والتفاعل مع حكاية الرحلة الإطار بالإضافة إلى المحكيات المتضمنة.

وفي هذه الحالة يكون الرحلة محاكيًا للواقع الذي تملكته أحداثه ومشاهداته، وإعادة كتابة هذه الأحداث المصبوغة بألوان أدبية تمزج عوامل الإنسانية كلها من انفعال عاطفي مليء بالمواقف إلى جانب المشاعر من حزن وفرح، وطرافة ومُضح، حينها "قد يكون الموقف عصيبا في مجمله، بيد أن الرحلة يتدخل ليقدم هذا الموقف المتأزم في صورة طريفة، حتى ليستطيع تقديم القصة من خلال عنصري الجد والهزل معا، فلا يسعك إلا أن تقرأ القصة مشدودا ومتحفزا تارة، ومستأنسا ضاحكا تارة أخرى" ¹⁶²⁵ وفي كل الأحوال تسعى القصة دائما إلى التتابع في تسلسل الأحداث التي بإمكانها أن تقيّد المتلقي إلى إتمام سرد أحداثها، وبالقدر الذي تختلف فيه دروب القصص المتناولة في الرحلة بقدر ما تخلق لها عالمها الخاص، حيث ينقل كل رحلة تفاصيل أحداث وقعت له أثناء مراحل السفر إلى جانب ما تمليه من شذرات استطرادية. ويعدّ لجوء الرحلة إلى عالم القصّ لما لهذا العالم من إحداث الانسجام في الطرح حول المضامين. فهي عملية فنية في تمرير هذه الغايات للإمساك بالمتلقي، حيث يتمخض عنها روح التشويق الذي يقوم عليه الأسلوب القصصي، فطبيعة الرحلة هي أن يقصّ الرحلة "القصص التي عاشوها أو سمعوا بها، وكان سردهم لهذه القصص بعفوية وحيوية، قربت الرحلة من عالم القصة" ¹⁶²⁶ هذا العالم الذي تختلف فيه الكتابة عن مفهوم القصة الفنية، فمقدار القصّ في بنية النصّ الرحلي هو إطفاء عليها الطابع الفني، وذلك بتوسيع دائرة التأثير في المتلقي بإعطاء مصداقية لانطباعاته ومشاهداته، وإبلاغه لخطابه بشكل عام. فسيمّة القصّ في الرحلة مرهون بقدر البصمات الفنية التي يرقى بها إلى مصاف الأدبية "ذلك أنه يذكر الأحداث كما هي ليضيف إليه - بعد ذلك - تعليقاته الأمر الذي ينقلها بالتدرّج من مستوى الاعتراف إلى مستوى العمل الفني" ¹⁶²⁷ أي تحقيق الغاية الفنية التي بإمكانها استدراج المتلقي.

هذه الروح القصصية التي لم تغب عن الرحّالين الجزائريين حين استعانوا بتقنياتها، وخاضوا في مجالاتها، ونقلوا تفاصيل الأحداث ومجريات فعل أسفارهم، مستنجدين بتقنياتهم وذكرياتهم للاستعانة على تقديم الوقائع الحقيقية، بنسيج القصّ الذي لا يخلو من الانتقال من المشاهدات وما تثيره من انطباع إلى وصف الشخصيات، ونقل الحوارات بينهم وبين المرافقين أو المستوطنين، وسرد الحكايات التي تتضمن قضايا متنوّعة.

¹⁶²⁵ - أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ص 127.

¹⁶²⁶ - أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، مرجع سابق، ص 306.

¹⁶²⁷ - نادية محمود عبد الله، الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد، عالم الفكر، مج 13، ع4، يناير/ فبراير، مارس، 1983، ص 114.

وعلى العموم، إن الرحلة الجزائرية الحديثة حكاية ذاتية بطلها الرّحالة، ينقل أحداث رحلته بزمن منطقي، مستنجد بمعايير القصّ، لتشويق متلقيه، وتقييده على فعل المتابعة والتدرّج في المواصلة السردية إلى آخر النص، فدرجة هذا التقييد منوطة بالقدرة على توظيف عناصر التشويق، من تسلسل الأحداث، ونقل الحوار، وقوة الوصف، وسلاسة السرد.. وهي العناصر التي تقيده بكسر رتابة التقرير الذي يعدّ عصب الرّحلة، فلو خَلَّت الرّحلة إلا من التقرير، تحنّط جسدها وأصبحت بلا روح، ومنه، كلما ابتعدت الرّحلة عن أسلوب التقرير إلا واقتربت من عالم القص، وهو سبك مكنتز بألوان من مقتضيات العمل الفنيّ كالاستدراج، والبساطة في اختيار اللغة، وما تتوفر عليه من عناصر بلاغية طفيفة بقدر حجم الحدث المروي، مثل هذا الحديث لأحمد سحنون: "سارت بنا السيارة من العاصمة في منتصف الساعة السابعة مساءً وكان يقودها صديق المصلحين والأدباء موسى عباس وكان الجو على أتم ما يكون صحواً وشفاءً وكان الليل مقمراً مشرق الجنبات يستطيع سائقنا أن يستغني فيه عن مصباح السيارة وكانت أحاديث الطريق متشعبة النواحي متنوعة المواضيع مسترسلة مناسبة في النفوس انسياب السيارة في تلك الطريق الجميلة فلم نشعر إلا بوقوف السيارة يوقظنا من ذلك الحلم الجميل الذي لم يطل وأول ما لفت أنظارنا في جونا الجديد ذلك الهدوء الصافي الساحر الذي طالما تمنيناه في العاصمة فكأنما كنا نتمنى المستحيل وكيف يظفر الأديب بالهدوء في العاصمة وكل ما فيها صخب وضجيج وضوضاء؟"¹⁶²⁸ إن عالم القص ما يوحى بجديد منتظر يُحدِث عند المتلقي أفقا ينتظره حتى ولو كان سرايا، فيحدث فيه نزعة الانتقال من محلّه النفسي إلى عوالم أخرى، يُسقط عليها ما شاء من التأويلات، ويُوصل ما اكتنفها من تخمينات، ويلفحها من وجدته ووجدانه الذي يتعاطى بروح مع وجدان المنشئ، سلبا أو إيجابا، ليصير المتلقي مستهدفاً من خلال البنيات النصّية المدرجة سواء على مستوى العموم أو الخصوص، أي على مستوى أحداث النص أو على مستوى التذويت الذي تغدو فيه الذات مركزاً للنص، كما نجد في هذا المثال: "فلم يسعني إلا أن أسحب رجلي يائسا من السفر محاولاً مغادرة هذه المحطة التي تتنكر لمن شاءت من المسافرين، لو أن التفاتة حانت مني لدى الباب مكنتني من رؤية شخص جاء بعدي وهو يستلم تذكرة سفره إلى "القبائل" فانقلبت إلى الرّجل المسئول أحتج وأستفهم عن صنيعه الغريب معي، ومعاملته الشاذة لي إذ ادعى امتلاء سيارته وهي تقول: هل من مزيد؟ فما

¹⁶²⁸ - ليلة مباركة، جريدة البصائر، البصائر، مصدر سابق.

وسعه في الأخير إلا أن يقبلني معذرا أنه أخطأ في عد المقاعد، فركبت مع الراكبين، وعن يميني وشمالي مقاعد لم يشغلها أحد" ¹⁶²⁹

كما يدخل في ذلك الحوار الذي يحمل الصبغة القصصية أو هو عامل أساسي في تحريك فعل القص وإعطائه مصداقية أكبر، ومنه يتجلى لنا صورة التفاعل الأدبي حين يمنحنا الرحلة فرصة التجاوب مع النص انطلاقا من بسطه للحوار، وهو متداول في أكثر من موضع، يتخذ الرحلة ميدانا للقاءه بمتلقيه، في صورة تبدو أكثر حميمية "وسألني عنهم واحدا واحدا، فقلت له: أما فلان فقد توفي، وأما الباقون فأحياء يرزقون، فتأسف كثيرا على من مات منهم وقال: أعرف فلانا وفلانا ... أصحاب ثروة طائلة، فهل هم كذلك إلى الآن؟.

فقلت له: ذلك في السنة التي زرتهم فيها والسنوات التي قبلها.

فقال: والآن؟

قلت: الآن فقراء، وغيرهم في إثرهم ممن لم تعرفهم.

قال: مم فقرهم؟

قلت: الأزمة... و... " ¹⁶³⁰

إن الملاحظة التي نشير إليها في هذا المقام أن خلاصة الجانب القصصي من الرحلة، هو ذاته عالم التصوير والحوار والوصف الذي يثري المادة الحكائية، ويدرجها ضمن عالم الحكاية.

2. 2. 3. السخرية والطرفة وأسلوبية الابتكار

تشكل السخرية في الخطاب الرحلي بالنسبة للمتلقى ظاهرة تجلّي ملامح الخصوصية النفسية التي ينطلق منها السارد (الرحالة)، وهي من الخصوصية الأسلوبية التي تقوم على الانتقاد الضمني والصريح على حد سواء، وهي لا تقوم قائمتها كتجسيد سرديّ إلا في ضوء ما يتمّ عليه إدراك موقف المتلقي المسبق، ذلك أن "السخرية - كمحسن بلاغي، وكإستراتيجية خطابية- تجعل المحتمل أهم انشغالاتها" ¹⁶³¹ كون الرحالة نفسه، لا يستشعر بالمفارقات إلا حين يُشرّحها نفسيا من خلال إسقاطها على عوالم بلاغية حين تعجز البلاغة المعيارية على أداء دورها، في حين ليست السخرية وحدها ما تشكّل الاستثناء الطريف أسلوبيا سواء على مستوى الرحلات أو الخطابات الأدبية الأخرى.

¹⁶²⁹ - باعيز بن عمر، جولة قصيرة في المناطق القبائلية، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثالثة، العدد 129 (15 ذي الحجة 1369 الموافق ل 28 أوت 1950).

¹⁶³⁰ - في القطار، مجلة الشهاب، مصدر سابق.

¹⁶³¹ - عبد النبي ذآكر، العين الساحرة أقنعتها وقناعتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، المغرب، ط 1، 2000، ص 10.

وعلى قَدَر ما تُكون السّخرية والدُّعابة في الأعمال الأدبية عامّة تأخذ مقعدها في صنوف الأدب السّاحر، فإن ذلك لا ينطبق بالضرورة على الأدب الرّحلي، كون عالم النّص الرّحلي ميّزته الهجانة القائمة على الاستثناء الأسلوبي، بل إن "من مميزات كتب الرّحلات، أن تتجلى فيها روح الفكاهة وروح الظرف والمنادمة.. وأوصاف شائقة للمشاهدات والانطباعات في أسلوب كثير التوابل"¹⁶³² وهو يعود إلى منطلقات الخطاب الرّحلي، الذي يصبُّ إلى التّرف لما لهذا النوع الأدبي من بسطة في عرضه ومرونته، فليست القدرة السردية تحقّق وحدها فعل الإبلاغ، وإنما دافع الرغبة لما لأحداث الرّحلة من تنوّع في الرّوى وطرافة في المواقف هو الذي يخلق جوّاً خاصّاً، واستعداداً على المروق من الخطابات الصّارمة، وهو ما يجعله ينحو إلى المباشرة والانفلات والغواية من سلسلة المنطق السردية، لكثرة الاستثناءات التي تميّزه، فهو إلى جانب ما يقدّمه من تقرير، وبغضّ النّظر إلى ذلك، فهو يقفز إلى الجانب الفتيّ من خلال العرض الأسلوبي، ومنه تعد "الطرفة والسخرية ميدانا للتلوين الأسلوبي المطلوب، إذ كان بعض الرّحالة يعي أن السرد الرّحلي قد يدعو إلى الملل؛ فكان يستثمر لون الطرفة لتلوين أسلوبه ومضمونه أيضاً"¹⁶³³ وهو رافد مطلوب عند عدد كبير من المتلقين، شأن الإنسان في حياته عموماً التي تستدعي رغبة في الضحك، وقدرة على خلق الأنس، وإضفاء المرح وهلم جرا، هو التنفيس عنه وحفاظاً على عدم النفور منه. كما يلجأ الرّحالة أحياناً إلى طابع السخرية والفكاهة بغية إضفاء لمسة خاصة لها تأثير على القارئ بل "قد يصبح هذا الأسلوب الخفيف المرح الساحر علاجاً"¹⁶³⁴ للحزن والألم النفسي.

ويقوم الأسلوب الساحر على أنماط متعدّدة، منها السخرية اللاذعة المنبعثة من فيض الصّراع الذي يجلبه اختلاف وتباين موازين القوى بين الأطراف المتناطحة حضارياً وإيديولوجياً، كما أن هناك نمط الدّعابة الذي تسري فيه الرّوح الأدبية المتجليّة من قبل الرّحّالين ذوي الخصوصية الأدبية في صورة الأدب الساحر، فتشكّل في الأولى العامل الانتقادي أما الثانية فتمثلت العامل الترويحي.

ولقد شكّل العامل الأوّل استقراءات ضمنية يتحسّس المتلقّي ضروب المقارنة وإبداء التمايز بين الدّاخل والخارج، حيث لم تكن في الدّاخل إلا استفزازاً كلّ طرف من أطراف الصّراع الإصلاحي الطريقي. بينما في الخارج كانت تتجلى في صراع الجزائري بالاستعمار بالخصوص ما نلمسه في رحلة "بوزوزو" الذي ما فتى يسخر من البرلمان الفرنسي، كونه يكرّس للعمل الاستعماري، فلا نجد في طيلة

¹⁶³² - الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 58.

¹⁶³³ - أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ص 127.

¹⁶³⁴ - أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، مرجع سابق، ص 53.

نصّه، إلا ساخرا مثال قوله: "أيها المستعمرون العتاه! إنكم تزعمون أنكم لا تدرون كيف نتصوّر الديمقراطية. فمتى تركتمونا نرى وجهها كي نتصورها؟"¹⁶³⁵ وهي حالة يقوم عليها المبدأ الساخر الذي يحقّق من الظاهرة ملاحظتها، لتصبح في مرمى المتلقّي الذي يتّخذ من سياقها شكلها العام، لتأثيره انطلاقا من العناصر المنطقية والفنية ذلك باعتبار أن المتلقي "طرفا مشاركا في إنتاج السخرية والحجاج"¹⁶³⁶ وهو ما يجعلها توسّع الدائرة الفنية للتصوّر الساخرة، من القضية الفنية، إن آليات السؤال من الأساليب الإنشائية التي تستنكر الموضوع في صورة مشاركتها للمتلقي بشكل غير مباشر، نظير اللغة الواصفة التي يقوم عليها فعل السخرية التي تعمّد إلى النقد المرّكّز على الحجاج، فتثبت نجاعتها لأجل اكتساب أكبر عدد ممكن من جمهور المتلقّين يقف في صفّه، وهي درجة من اللغة التي اتخذها الرحالون الذين أشهروا سلاح النقد ضد خصومهم وأعدائهم، ليس من أجل أن ينتقصوا منهم فحسب وإنما إلى إثبات الحقّ الذي يتبنّون ادعاءه، لأن "السخرية إستراتيجية خطابية حجاجية وأسلوبية تترنح بين لغة مضاعفة ونظرة ماكرة هازلة جادة توحى بالحقيقة، وتنتصر لها"¹⁶³⁷ يتم ذلك من خلال تبني اللغة الواصفة كغاية لبلوغ مقصده، من حيث أنّه يروم عقلا يفسر الأشياء، ويمتحن القرائح، كما أن الملاحظ على قوة استخدام السؤال نجده قائما على سنن الجواز الذي يكرّ وعيا يرفع من الصورة الطبيعية إلى الصورة الفنيّة عبر أنساق القيم الموضوعية والفنية، فجاء التوبيخ الذي يعدّ الجانب القويّ في العملية، حيث يناهض المويّخ بما سيأتي من تعليل حجاجي، يقف فيه المتلقي حَكَمًا، وليس الحكم في كل هذا إلى تركه إلى عامل المنطق التاريخي، بل إلى منطق اللغة والأسلوب الذي يقود إلى الحجة، وهو الحصر كل الحصر، لمنطق الاحتكام، كما أنه لا يغيب حضور الطرف المقصود بالاثّام، فهو يوجّه الخطاب لمتلقّيين، أحدهما مباشر وهو الاستعمار (رحلة بوزوزو) والآخر الجمهور، في صفة الحُكم، ولكن ستكون الصورة معكوسة، حين نقف على حقيقتها، ليختل الترتيب، فيصبح في حقيقة الأمر، المتلقي الرئيس هو الجمهور لأنه المقصود في عملية المناهضة على فضح للاستعمار، يصبح بذلك متقمصا صفة المتلقي المتواطئ، في حين يتراجع الطرف المتّهم فيصبح مرسل إليه ثانٍ في العملية ليصله التبليغ، ويقف شاهدا على فضيخته، وهذا مثال على ذلك: "إنكم تزعمون أن هذا الشعب لا يزال في حال الطفولة، وأن من الإجرام أن تترك للطفل الحرية التامة في تصرفاته، وأن التحدث إليه عن الحرية تغرير به، وأن تحبيبها له دفع له في طريق الهلاك، وأن

¹⁶³⁵ - من وحي البرلمان، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 15.

¹⁶³⁶ - عبد النبي ذاك، السخرية والحجاج. <http://www.minculture.gov>.

¹⁶³⁷ - المرجع نفسه.

هذا التغير، لا ترضاه منكم شفقتكم وإنسانيتكم التي تقضي عليكم بحسن الرعاية ولطف العناية. هذا ما يقوله "لسان السياسة". ويقول "لسان الحق" ومعه "لسان المنطق": إذا كان هذا الشعب لم يبلغ رشده وهو تحت عنايتكم منذ أكثر من مائة سنة فإنه لم يخرج من حال طفولته أبداً، ولن يبلغ رشده أبداً ما دام تحت تصرفهم¹⁶³⁸ فيتبين من هذا أن طبيعة الأسلوب الساخر لفّ من خلال الكلام، فالمتلقي يقف على المعنى من خلال السياق وليس على القول في حدّ ذاته، فهي تحتاج متلقٍ ماهر وذكي، يتوصل إلى المعنى من خلال قلب الكلام على أوجه القصد.

ومن الصور الفنية للسخرية نجدها في التصوير الكاريكاتوري أو السخرية التصويرية وهو "نوع من النقد يعتمد في جملته على التماس العيوب الرئيسية لظاهرة معينة تُعرض بأسلوب فني، يبالغ في تصوير العيب والنقص، ويبرز وجه التناقض على شكل نكتة ترد في ذهن الفنان وهذه المبالغة في تضخيم الصورة وتشويهها لا تتعارض مع الصدق الفني"¹⁶³⁹ لدى المبدع الذي يتخذ منه أسلوباً يتحقّق فيه تركيب الصور بالرسم التخيلي انطلاقاً من نية التشويه الذي يطال بها موصوفه، ما دام أن التصوير يقوم على الوصف في صورة هجو، يترصد فيه بعين السخّط كل نقيصة جسدية فيبينها على معناها السليبي، وهي التي كان الرحّالة (عبد الباقي الحسيني الجزائري) يجيدها في يُسر لغة وقوة سبك، وحسن تصوير، مقابل ما كان يتعرّض له أثناء سفره حيث كان يعاني من الرقيق، ومنه يتلقى المتلقي من هذه الصور دعابة ولذّة حديث تماشياً مع روح الحكيم مثلما يتجلى في هذا المطلع: "في مسجد طبرق لمحت شبعا يزدلف إليّ ويقفز ويطفو على ثلاث أرجل ككومة رمل سوداء أعدش أغبر أعمش أفتس أبرش مشيت مع هذه المجموعة من الخبث والخاتلة والندالة، ورأيت ما تقلده المرأة وما يخرجها هذا الرجيم وما تنفسح عنه الطبيعة وما يخلقه الإنسان بل وما يخلقه الله من الميكروبات التي لا تخلو من الحكمة"¹⁶⁴⁰ وبالقدر الذي يجد فيه المتلقي من دعابة وتمعن، فإنه يفتح أمامه طريقاً للتأمل في إعادة تشكيل وتلوين الصورة التي رسمها له الواصف، انطلاقاً من تنشيط الذهن لتقريبها من خلال إعادة جمع عناصرها الكلية، ومحاولة استقصاء صورها البلاغية القائمة على التكثيف في التشبيه لأنه المقوم البلاغي الذي يعمده الكتّاب في الدم والهجاء، وهي خاصية امتاز بها العرب لأنهم إذا "أرادوا ذم أحد أو التّهم به شبّهوه"¹⁶⁴¹ وإذا كان التشبيه في أحواله العادية حيث يقتضيه الحال، وكما هو معروف في معيارية البلاغة، فإنه في مجال التصوير الكاريكاتوري يعدّ ظاهرة تجاوزت حدود البلاغة،

¹⁶³⁸ - من وحي البرلمان جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 15.

¹⁶³⁹ - قحطان رشيد التميمي، إجهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ص 326.

¹⁶⁴⁰ - معبر الفتوة، مصدر سابق، ص 49.

¹⁶⁴¹ - العسكري، الصناعتين - الكتابة والشعر -، أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، 1388، ص 265.

فلا يكتفي فيها المشبّه بتشبيهه مشبّهه بل يبالغ في ذلك إلى الحدّ الذي يخرج عن علمه الحقيقي وحتى البلاغي، حيث تعود كل صفة من الصفات المشكّلة للصورة العامة تبحث عن دلالات معزولة عن الصفات الكليّة لها، من خلال استعمال التشبيه الحسيّ الذي يعدّ أقوى من العقلي، في النفس والوجدان، إذ أن التشبيه "تصوير يبرز المعاني والأفكار في أشكال يصوّرها ويمثّلها حيّة نابضة بكل ما تتطلبه هذه الحياة من لون وحركة، وهذه الصورة عندما تكون محسوسة تكون أقوى أثرا في النفوس، لأن ما يدرك بالحس أقوى مما يدرك بالعقل"¹⁶⁴² لذلك كانت الصورة الكاريكاتورية أرقى في التصوير الفني من غيره من أساليب السخرية الأخرى، حيث تسجّد استجابة أقوى من المتلقي.

وإذا كانت السخرية قائمة على الأسلوب الساخر، فإن الدعابة نوع من الفكاهة الذي نجده بنية نصية مبتوتة في النص تؤشّر لعامل جمالي مرهون بقارئ جماليّ يلجأ إليه السارد في الرحلة الجزائرية كظاهرة لتدسيم خطابه، وتعبّر عن حالات أصحابها الذين ميّزتهم روح الطرفة على الرغم ممّا كانوا يحملونه من هموم، وقد ساد هذا الفن عند جملة الأدباء المتميزين من أبرزهم: الإبراهيمي والمدني والعباد الجلاّلي والسعيد الزاهري والفضيل الورتلاني والزاهي المليبي وإسماعيل مامي..

ويعد أسلوب الدعابة في حدّ ذاته صيغة فنية يندفع نحوها المتلقي للظفر بالنمط المسلي فيبرم بذلك الباتّ عقدا جماليا ينزع إلى توليد الطّاقة الحيوية لدى المتلقي لجلبه وإلى استدراجه للتفاعل بما ينزع إليه هو نفسه، وبما يجد من ضمان لخطابه في تحقيق التجانس عندها وعند متلقيها، حيث تنبع الفكاهة أو الطرفة من نفس واثقة هي روح الأديب المتمرس.

والطرفة في الرحلة الجزائرية قائمة على مستويين: مستوى الدعابة التي تهدف إلى الترويح والمسامرة، والطرفة التي تهدف إلى الانتقاد، الأولى نجدها في أعمال كثيرة خاصة عند الإبراهيمي التي تخلّص من روحه الفكاهة، بينما في جانبها الانتقادي، فهي أيضا تمثّل الشطر الترويجي ذات خلفية انتقامية من الأوضاع السائدة التي تتضمن كل ظاهرة حسب ما تردّ فيه من سياق، فمنهم من يسوقها امتعاضا على الأوضاع السائدة في بلده من أمراض اجتماعية وافتقاد لشروط العيش الكريم وأسباب الراحة التي لا تتوفر في مواجهة التحوّلات البيئية، كما حدث أن علّق (محمد العابد الجلاّلي) على شهر أوت الذي خصّصه لزم سفره، هروبا من بطش الصيف، إذ عبّر عن هذا الشهر (أوت) بالهدية غير المرغوب فيها "وما كدنا نمد الأيدي لتناول هديته حتى أخذ يصفع وجوهنا بلفحه وحتى جعل يضطرننا إلى تغيير من ألفناه من عادات، وما أخذنا به أنفسنا من نظام في حياتنا الداخلية

¹⁶⁴²- شعيب ابن أحمد بن محمد عبد الرحمان الغزالي، أساليب السخرية في البلاغة العربية، رسالة ماجستير، إشراف أ.د. عبد العظيم المطعني، قسم الدراسات العليا فرع الأدب، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1414هـ، ص 169.

والخارجية؛ فيفرض علينا عادات غير عاداتنا، ونظاما غير النظام الذي ضبطنا به أنفسنا في باقي شهور السنة، ولولا الحرارة التي جاء بها تموز، وفتح علينا بها أبواب جهنم لما كان ثم من داع إلى لبس هذه الثياب البتراء وطرح الجلابيب التي تستر منا تن الإنسان جانبا"¹⁶⁴³ وحتى هذا السخط من الأجواء ف "الجلالّي" يضيف على السياق جوًّا مَرِحًا من مُلَحِه، حينما يعلّق على ألا مفرّ من الأوضاع السيئة لهذا الشهر في كل الأحوال، حتى وإن فتحت نوافذ البيوت لاستقبال تيارات هوائية، ومنشأ ذلك أنه يوسّع من جلباب المَرِح الذي يقابل الاستفزاز الذاتي الذي يصيب نفسه انطلاقا من اعترافه بتقهقرها حضاريا مقارنة بجوّ الرحلة عموما التي تقوده إلى عالم متحضر، فيمزج هذا بذلك، كما يتبين من هذا التعبير البريء "على أن فتحها لا يخلو من مضرة تعود على الجسم من تعريضه إلى بعض المفاجآت الجوية، فيصبح عرضة للأمراض الصدرية"¹⁶⁴⁴

وبالعودة إلى الحديث عن المستوى الأول، نمثل لأحاديث الإبراهيمي، الذي نجده في ثنايا حديثه عن رحلته التي قادته إلى باكستان، يسترسل في مداعبته لنفسه بروح فكهة، عابثا بها، وواصفا إياها بالجهل، حينما وجد نفسه لا يفقه من لغتهم شيئا "أبت لي همتي أن أجمع بين الجهل والعجز، فتعلمت في بعض يوم أُلزم ما يلزمني للضروريات، وأهمها - عندي- طلب الماء البارد في ثلاث كلمات: طانده، باني، لاو، والأولى معناها بارد، ولكن مخرج الطاء فيها من أغرب المخارج، والثانية معناها الماء، والثالثة معناها هات، ومن هذه الجملة تعلم صعوبة التركيب وغرابته في ذوق العربي"،¹⁶⁴⁵ والإبراهيمي يستخدم هذا الأسلوب شأنه شأن الأديب الذي يخرج من عالم الجدّ والصرامة إلى الترويح والمداعبة، وهي حالة نفسية تتميز بها النفس البشرية انطلاقا من التفرّد الذي يميّز به الأفراد في المجتمع، فما بالك إذا كان في عالم الأدب الذي يعدّ هذا الجانب ضرورة أسلوبية ما دام أن الأسلوب ينزع من الذات وإليها. لجعل المتلقي منتبها غير غافلٍ يثير من نمط السرد إزالة الكلفة عليه بتنشيط الوسط القرائي الصارم في تتبّع مجرى الحكاية إلى الاستمتاع والتسلية، ما دام أن الأدب يتوصّل إلى الأهداف المرجوة من السرد بحكمة وحرصا على عدم إحداث الملل، وهذا الذي نجده مجسّدا كثيرا في الرحلات الجزائرية، كما أنّها لم تُقَم عند جميعهم دلالة على خاصية يتحمّلها الأديب دون غيره، وتوجه في الحياة الأدبية لدى هذه الشخصية التي يوليها بعضهم كما ذكرنا، ومن أهمهم على الإطلاق الإبراهيمي، الذي يجعل من لغته سلسلة تصبو إلى التسلية، ومن نفسه روحا

¹⁶⁴³ - تموز، مجلة الشهاب، مصدر سابق، الجزء الخامس المجلد الحادي عشر.

¹⁶⁴⁴ - تموز، مجلة الشهاب، مصدر سابق.

1645 - آثار الإبراهيمي، مرجع سابق، ص 34.

يمتطي عليها متاع السرد لتتبوأ مكانا في مساحات متنوعة، حيثما استحق ذلك إلى حديث من هذا النوع، منها قوله: "ومن اللطائف أن أستاذي في هذه الجملة هو ولدنا الفُضَيْل حلّ به ما حلّ بي فحفظ ثمانين كلمة من الأوردية، فألف منها قاموسا غير محيط، وفتح الله عليه فأصبح معلما لتلميذ واحد، هو أنا، ثم حفظت زيادة عن شيخي كلمة (بزاف) بفتح الأولين وسكون الثالث، ومعناها الثلج"¹⁶⁴⁶ والمتمعن في شأن هذا الخطاب يلمس أن السبيل إلى اتخاذ هذا المنهج الأسلوبي هو الترويح، وخلق نقاش حيوي ليس له من سبيل إلا المناحي الأدبية المتمثلة في الأسلوب الشيق المداعب المحبذ عند المتلقي بجميع شرائحه.

2. 2. 1. 4. شعرية اللغة ولغة الشعر

يعد الشعر بنية من البنيات الهامة التي يستند إليها الرّحالة للاقائه بالمتلقّي في عدّة نقاط، تتقاسمها عوامل نفسية وفنية، يلجأ إليها الرّحالة كوسيلة لتمرير رسائل وجدانية وأخرى بلاغية حين لا تليّ البلاغة غرضها عند العجز في التبليغ، حيث تكون قوّة التأثير التي يُفعلها المشهد عنيفة على ذات الرّحالة، فلا يجد لها معادل بلاغي، حينها تمرّر رسائل مشقّرة إلى الذهن ليستخرج من بطن المرجع الحافظ، فيتّمّ مقابلة ذلك بما يطابق الواقع، وهو أمر لا غنى عنه في الجانب الفئّي الذي يفتح على عالم الأدب، كما أنه في الوقت نفسه يمارس الرّحالة فعل الشّعْر إبداعا لمكنته الأدبية، فيجعل منه سبيلا للوصف الرّاقّي والتمثيل الفئّي في أجمل صوره.

إن تمثّلات ذلك في أيّ نصّ هو بمثابة إستراتيجية أدبية عامة لمتلقّ افتراضيّ تحدّده بنيات النصّ في سياقه. ومعلوم أن الرّحالة منذ أن عُرف لها شأنٌ في الثقافة العربية امتثل لها الشّعْر كلبنة مؤسّسة لكيان مختلف النصوص الرحلية في الغالب. ولما كان النصّ الرّحلي الجزائري الحديث يمثّل واحدا من المدوّنة العربية في ثقافتها ونسقها الثقافي، فإنّ الانزواء إلى ضحّ الشّعْر في النصّ عموما هو بمثابة الشرعنة للجانب الفني، وليس القصد من هذا ضرورة في حدّ ذاتها، بل سبيل إلى التجميل عند الاقتضاء، الذي قد يستغنى عنه كلّما حضرت الشعرية السردية أو قد تتعاضد فيما بينها، وهي طبيعة عُرفية يخصّها هذا الفنّ امثالا وامتدادا لتاريخه، وعطفاً على ما يُوليه البيان فيه من استحسان، كما يُعدّ حجة بلاغية لاستكمال المعنى لأنّ "كُتّاب الرّحلات عدّوا تضمين الأشعار تأكيدا لكلامهم وحية لأسلوبهم"¹⁶⁴⁷ وبالتالي يعد الشعر في تضمينه للخطابات الرحلية فاكهة النص.

1646 - المصدر نفسه، ص 34.

1647 - حسين نصار، أدب الرحلة، مرجع سابق، ص 127

إن سبيل تمثّل الشعر في النصوص الرّحلية الجزائرية الحديثة يحْمِل خصوصية أدباء هذه المرحلة التي كان التّكوين فيها يعتمد على الحفظ، ومنه تراكم الشعر مثلما تراكمت جلّ العناصر الثقافية التقليدية، بالإضافة إلى مُرُوق الملكة الشعرية عند جلّ الرّحّالين، فكثيرا ما كانوا يُثْبِرُونَ شُحُونَ المتلقّي بكيفيات تختلف باختلاف مقتضيات الأحوال ومقامات كل حدّث، من ذلك على سبيل المسامرة والدّعابة يُنشئ الزاهري هذا الحدّث بقوله: "وقد غلب النعاس على الأستاذ العمودي آخر الليل من وعك ألمّ به، فأراد أن يسترجع راحة بالنوم، وأبى عليه القوم ذلك، فقلت:

دَعُوا الأَمِين وما يَلْقَاه من وَعَكٍ فَلَيْسَ يَرْغَبُ في لَهْوٍ وَلَا ضَحِكٍ

فأجاز كل من العقبي ومحمد العيد بيت يهجو به الأمين لكيلا يرقد، فهجانا وهجا ليلتنا

بقوله:

وَأَنْ شَعْرَكُمْ هذا لكثرتَه قد صار يشبه نشر "... المالكى" ¹⁶⁴⁸

وإلى جانب المسامرات كان الشعر يمثّل نسقا ويحيل على التطرّق لقضايا صادرة عن واقع، مثلما يشير الزاهري -أيضا- في هجائه للمبتدعين الذين كانوا يذبحون تُيُوسا زعما أنّها تمنع من إصابة العين فيقول:

لا تَتَّبِع العَيْن في الزِيان جارية إلا إذا ذبحوا للعَيْن "عتروسا" ¹⁶⁴⁹

ومما يمثّله الشّعر كظاهرة فنيّة في النص الرّحلي، إنشاده للمشاهد الجميلة والطريفة، فيكسّر بها الرّحالة رتابة السّرد ويروّح عن نفسه، من أجل إيجاد آذانا صاغية وقارئ متلذّذ، والأمثلة كثيرة ننتخب قول الرّحالة عبد الحفيظ الهاشمي منوّها بجمال شلالات اللوريط ¹⁶⁵⁰ بتلمسان:

لَوْ رَأَيْتَ لُورِيطَ سَاعَةَ أنْسٍ تَأْتِيهَا في خَمَائِلِ الأشْجَارِ
لَتَوَهَّمْتَ أَنَّهُ جَنَّةُ الفِرْدَوْ سِ رَاقَتِ بِدَافِقِ الأنْهَارِ
رُبَّ يَوْمٍ قَضَيْتَهُ في ظِلَالِ بَلُورِيطَ مَعَ فِتْيَةِ أَحْيَارِ
يوم دارت كؤوسنا طيبات هازمات لعسكر الأكدار
يا سرورك أن تناولنها من يد ساق مرحل للدراري
وألد مجالس الأنس جمع يزدهي بلطائف الأشعار

1648 - وفد الشعراء يزور طولقة -فرفار - البرج، جريدة البرق، مصدر سابق.

1649 - المصدر نفسه،

1650 - اللوريط؛ مكان طبيعي يشتمل على المرتفع الجبلي والشلال المائي في إحدى منحرجات ضواحي تلمسان، وهو مكان سياحي يقصده الناس من مختلف الأنحاء.

يرعى الله جامع الشمل فينا ورعى الله شهم تلك الديار¹⁶⁵¹

أما الاستشهاد بالشعر العربي قديمه وحديثه، فهو في الغالب يتسلح به الرّحّالون منهم الشعراء وغالبهم غير الشعراء، الذين يلجئون إلى مراجعة ذاكرتهم لاستخراج ما يمكن مطابقته بالحادثة المستشهد بها، من ذلك نجد الكثير منهم على غرار عمر بن جيكو، وإسماعيل مامي، ومنصور الغسييري، وابن باديس، وغيرهم كثير، ممن وظّف من تراث الشعر العربي ليقف شاهدا كلما تقارب المشهد مع نصّه المستشهد به، خاصة شعر الوصف حيث يغدو التركيب السردي للخطاب الرحلي وصفا، مما يجعل الذاكرة الحافظة تلجأ إلى ما يوقّره هذا الجانب من مادة خصبة، على غرار شعر البحري شاعر الطبيعة، الذي امتاز بقوته في الوصف، ما دفع الرّحّالين مشرقا ومغربا إلى الاغتراف من معينه استنجادا وتوفيرا على أنفسهم الإرهاق البلاغي، ولما كانت طبيعة الرحلات الغوص في الطبيعة والتسلية بمناظرها، وما يمكن أن تثيره تلك الطبيعة، فقد كان كلّما أعجز المنظر الطبيعي ببيان الرّحّالة، وجد في جعبته ما يقوم بمطابقته من خلال أشعار قد حفظها للبحري، كقول ابن الصيام وهو يترنح في طبيعة فرنسا يقول: "ولما رأيت تلك الأشجار والأنهار، وكذلك الظل والأزهار تذكرت قول البحري حين وصف مدينة الشام"¹⁶⁵²

وقد أوفى لك مطربها بما وعدا	أما دمشق فقد أبدت محاسنها
مستحسن و زمان يشبه البلدا	إذا أردت ملأت الطرف من بلد
ويصبح النبت في صحرائها بددا	يمشي السحاب على جبالها فرقا
ويانعا خضرا و طائرا غردا	فلمست تبصر إلا واكفا خضلا
أو الربيع دنا من بعد ما بعدا	كأنها الغيث ولي بعد وفدته

2 . 2 . متلقي نفعي / إيديولوجي

يخلق المتلقي الضمني عالمه الإيديولوجي عبر ملامح التقصّي التي تفرضها صياغة خطاب السارد المحبول بإشارات وعلامات إيديولوجية ينزع إليها نزوعا ذاتيا، ينجر من خلال منطق الخصاص إلى دعوى ومقصد حسب اتجاه معين، ترتبط وظيفتها تلقائيا بموضوع الحدث المسرود ما دامت الرحلة تخلق نوزاع خطاباتها بأسباب الأحداث والمشاهد متقصّية من مستخلصات القيم المرجعية، على اعتبار أن "الإيديولوجيا بالمفهوم السيميولوجي هي تحيين للقيم وفق وقائع منظمة وخاصة"¹⁶⁵³ تبثها صيغ

¹⁶⁵¹ - رحلة للمغرب والأندلس، مصدر سابق، النجاح عدد 1370

¹⁶⁵² - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق.

¹⁶⁵³ - سعيد بنكراد، النص السردي - نحو سيميائية للإيديولوجيا-، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط 1، ص 8.

الخطاب من فحوى الدلالات العميقة للسياق، في صور جمل نصية يتحدّد وجودها من خلال صيغ مجردة تتزاحم القيم داخلها على شكل كتل مضمونية عديمة الشكل، وغير قابلة للإمساك لأنها مستثمرة في كيانات غير مرئية ومستعصية على الضبط. ولما كان الرّحّالون مزوّدين بثقافة منشؤها الوصاية الاستعمارية ومخاضها الصّراعات في كل اتجاه، مع الآخر المستعمر ومع الأنا في اختلاف قضاياها حيث كانت طوائف تنتصر لاتجاهها وتقاتل من أجل مبادئها، فقد تشكّل وعيٌ لدى كل طائفة يحمل شعارات لا تكاد تنفصم عن خطاباتها، ممّا أوجد لها متلقٍ ضمنيّ يستجيب للمبدأ الذي ينخرط فيه طوعاً فيشكّل بذلك تأويلاً خاصّاً للنص، ويحدّد معالمه، مانحاً إياه مرونة في سلوكه مقصديةً البات، لأن المتلقي الضمني يشكّل نقطة ارتكاز مستهدفة بقوانين الاستجابة للنص.

وعبر هذه اللفتة نفيد أن الإيديولوجية في حدّ ذاتها موقف، يتّخذها الإنسان في حياته يُدلي فيه برأيه ويتعصّب لموقفه، ويتحدى بصرامة، الموجات المضادة من كل تيار، ولعل الإيديولوجية نتاج خميرة توجّه يغلب عليه الطابع السياسي الذي يتبنّاه الشّخص لاعتقاده بأنه السبيل الأمثل للإجابة على إشكاليات الواقع الذي لا يرسوا أبداً على مرفأ ساكن ولو قدم أمثل مشروع، ما دام أن البنية الفكرية في كل مجتمع تقوم على الاختلاف والتدافع، هذا ما عبّرت عنه الرّحلة الجزائرية في هذه الفترة التي سادها التصعيد الاستعماري إيقادا لتهديج الشعور، فكان هذا التوجّه سيّداً في النص الرّحلي الجزائري، ما دام أن العمل الأدبي يعدّ بمثابة "وثيقة سياسية واجتماعية، وشهادة عصرية"¹⁶⁵⁴. وهو ما يحيل إلى أن النص يندرج خلف مرجعية تاريخية وخلفية فكرية، قد سادها النسق العام في هذا الجانب عن بُنى تقاطعت في أغلبها المواقف المشتركة عند كثير من الرّحّالين، تنمّ عنها جُلّ التصريحات منها والملمّح لها أحيانا.

ومنه يغدو الخطاب الإيديولوجي في الرّحلة الجزائرية مُترعاً بالخلفيات التي فرضها واقع المرحلة الذي اشتد فيه الصراع ذي الأقطاب المتعدّدة، وإذا كان دور الإيديولوجيا هو "إعادة التأويل الارتجاعي لهذا الحدث المؤسس"¹⁶⁵⁵ فإنه لا بدّ أن يُخلق من رحم الأنساق النصية التي فرضها مجتمع ما، على أساس أن أيّ مجتمع مزوّد بإنتاج آرائه وأفكاره ورؤاه، بناء على معطياته الاجتماعية التي ترسّخت بفعل النشاط التفاعلي الخلاق، ما دامت "الإيديولوجيا نسق من الآراء والأفكار السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية."¹⁶⁵⁶ ومنه لعبت الإيديولوجية بالنسبة للجزائر دوراً أكثر نزوعاً إلى التشبّث والتعصّب باعتبار أن الجزائر عرفت مرحلتها الحديثة وضعاً لا تُحسد عليه، لذلك عدّ تمسّكها بالثوابت من دين وتاريخ ولغة وقومية أبرز مقومات هذه الإيديولوجية، وإذا كان أي شكل من أشكال

¹⁶⁵⁴ - أحمد محمد عطية، البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سورية، 1977، ص 14.

¹⁶⁵⁵ - حسن بن حسن، النظرية التأويلية عند بول ريكور، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1992، ص 55.

¹⁶⁵⁶ - روزنتال م. ويودين ي.، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير مكرم، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1974، ص 68.

الإبداع يقتضي "نظاما ما يجسد من خلاله رؤياوية المجتمع الذي أبدعه، وخلفياته الحضارية بكلّ مضامينها التاريخية والوجدانية والميتولوجية التي ينتمي إليها"¹⁶⁵⁷ فإن ذلك يشكّل تلقائيا في الوعي الجزائري الذي اكتسب جملة من المبشرات كما قُدّر له أن تُفرض عليه طاقم من الابتلاءات، وعليه بات الوعي الجزائري يمارس طبيعته ذات النوازع المؤدجلة.

أ . الدعاية وموقف المتلقي

خلّفت رحلات القرن التاسع عشر نوعا خاصا من الخطابات، بخوضها النشاط الدعائي مشكّلة حرقا في الثقافة الجزائرية، حيث سعت هذه الرحلات إلى القيام بعملية الاستدراج للموقف المضاد الذي يتحدّد كبرهان من براهين الخطابات التي تبرّر توجه أصحابها، فيصبح المتلقي حينها منشطرا إلى إيجابي وسلبي. وإذا كان الخطاب يحمل من الوعي المضاد كما هو الحال سواء في هذه المرحلة وما والاها في الاتجاه خلال القرن العشرين، فهي تخلق جمهورا ضيقا بالنظر إلى كثافة من يمثّل هذا الوعي من الجزائريين، أو العكس. هذا ما نلّمسه من خطابات مضادة والتي يصبح فيها عكس الخطاب بعكس المتلقيين، فخطابات هذا التيار مؤدجلة بقدر خدمتها لفرنسا، لذلك تسعى لتجد متلقيا نموذجيا تحتفل معه على جميع المستويات.

إن صراحة العبارات التي تجسّدها قوالب الألفاظ وجاهزيتها المسدّدة نحو متلقٍ هو بالضرورة متلقي القرن التاسع عشر، وهو متلقٍ نموذجي يحضر في ذهن السارد، حيث تغلب على هذا الأخير غشاوة التفوّق الاستعماري فيظنّ أن هذه الغلبة سوف تجد بفضل حجّتها المادية القوية، وهي حجّة التفوّق والتحضّر سيكون لها منطقتها السيكلوجي التي تسعى فيها الدعاية الخطابية نموذجيا للأخذ بالجزائريين إلى متلقٍ مستدرج من اتجاه إلى اتجاه مغاير، وهو في الآن نفسه يشكّل عند السارد قناعة مطلقة، حيث لا نجده يتردّد في أي عبارة لتكريس مبدأ الانسلاخ والاندماج العفوي لصالح العدو الفرنسي، فتارة نجد الخطاب غير مباشر مثل: (أنعم علينا الوزير السيد الجنرال ..)، (فرح بنا هو ومن معه وأجلسونا للأكل معهم ..)، (وأكرمنا أحسن إكرام وأتحفنا بهدايا أعطى لكل شخص منا عطاء جزيلنا مناسباً لشأنه الرفيع، وتحدث معنا أطيب الحديث فمن بعض ما تحدث به معنا أنه قال لنا..)، (يا معشر العرب نعلمكم أنكم عندنا بمنزلة إخواننا الفرنساويين ولا فرق بينكم وبينهم عندنا في المحبة والمكانة، فأجبناه بأننا لا نعتقد خلاف ذلك، وقد شاهدنا منكم ذلك،

¹⁶⁵⁷ - عبد القادر فيدوح، شعرية القص، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية، وهران، الجزائر، 1996، ص 40.

واستكثرنا خيره وشكرنا فعله" ¹⁶⁵⁸ فمثل هذه العبارات لا تعتبر بريئة ولا نعتقد أنها تجد مبرراً عند متلقّ سليم الفطرة، إلا ما كان من متلقّ سليل السارد، يهضم حديثه لمنفعة، باراً بها وبعواقب فأراً من بطشها، وقد عبّرت سواد رحلات هذا القرن عن إيجاد مسوّغات لمتلقّي هذا النموذج، الذي استمر مع القرن العشرين على الرغم من تفرّع خطاباته وتنوّعها، فإن بقية باقية من هذا القبيل بقي حريصاً على بثّ دسائسه، وبقيت اللغة السالفة ذات محتوى نافذ، وليس أدل على ذلك من قول (إسماعيل مامي) في هذا التصريح الإيديولوجي الذي يتفق مع مرحلة استبدادية من تاريخ الجزائر فيعلن فيهم هذا الرضا والتبجيل لرئيسهم بمناسبة فتح مسجد باريس، معتبراً إياه قدوةً للمسلمين، "ثم اتبعه فخامة رئيس الجمهورية بخطاب يحق لنا أن نكتبه بماء الذهب لما اشتمل عليه من نفيس القول وجليل التصريحات في جنب الدين الإسلامي الحنيف ويجدر بنا أن نعتبر الخطاب الرئيسي جامعاً ثانياً لما احتوى عليه من اعتبار الدين الإسلامي إلى أن قال لا فض فوه لئن كان المسلم من سلم الناس من يده ولسانه كما قال النبي ﷺ فنحن مسلمون" ¹⁶⁵⁹ ويعزّز هذا الادعاء ما نجده صريحاً في انتمائه إلى زمرة الخاضعين والمتحقّق في قول عمر بن جيكو "وبالجملة فإن هذا الجامع بمثابة درة في تاج باريس فشكراً لدولتنا فرنسا الفخيمة ذات العدل والمساواة المعنية بشؤون المسلمين وبالأخص الجزائريين الذين بذلوا أموالهم ودمائهم في سبيل الدفاع عنها فلتعش فرنسا والجزائر وليحيا حياة طيبة" ¹⁶⁶⁰. وبهذا المنطق نتبيّن أن هناك انحراف سيتشكّل عبره متلقّي مساند وآخر معارض، لما يتضمّن من إيديولوجية صورتها الحقيقية هي الدعاية، كما أنها ستجد من المتلقّين من هو ضد هذا السبيل، على اعتبارات تاريخية أفرزتها هذه المرحلة، والتي أعقبتها من اكتمال الوعي الجزائري وقيام أحزاب سياسية لم تعرف في تاريخ الجزائر من قبل.

ولم تكن الخطابات التي يمثّل أصحابها هذا التوجّه لتستفز المتلقي، بل هناك اعتراف ضمني من الرّحّالين أنهم سيواجهون ضمير أمة ستختلف معهم في الرأي وتنفي عنه هذا التوجّه، بل وتتهمهم في وطنيتهم، وهذا ما تفضّن له الرّحّالون أنفسهم، وأقاموا صنوفاً من الحجج من أجل تبرير هذا التوجّه الشاذ، ذلك أن خطاباتهم كانت ترمي بثقلها نحو متلقّ مقصود، وهو ضمناً ذلك الذي سيتردد في قبول هذه الدعوات المنغمسة في سلوك سبيل يتعارض مع المقوّمات الوطنية، فجاءت الحجج لتشكّل بنيات تحدّد المتلقي، بل لتأخذ بيده بالرفق والدليل في كل الحالات حتى وإن كان غير مقبول على

¹⁶⁵⁸ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق.

¹⁶⁵⁹ - باريس؛ حول الاحتفال بالجامع، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 320.

¹⁶⁶⁰ - رحلة السيد عمر ابن جيكو، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 540.

المستوى العقلي، منبياً إلى متلقٍ مقصود وهو الجزائري المسلم الذي لم يهضم التواجد الفرنسي باعتباره كيانا دخيلاً لذلك تكون رسائل الخطاب مزودة بحجة لازمة عند المسلم الذي أبدى صراعاً دينياً خلال القرن التاسع عشر، حينها كانت الطرق الصوفية والمرابطون يشنون حروباً ضروساً ضد عدوهم الفرنسي، ومنه تبين أن السارد الإيديولوجي الموالي لفرنسا يقوم إلى عامة الناس من خلال وصفة دينية، وهي أن يطمئنهم بأن فرنسا لم تنالهم في دينهم بل العكس، وأنها ما جاءت لتحتل الجزائر إلا بغرض تحضيرهم في دينهم وديانهم، ومنه يتحول الخطاب إلى متلقٍ رافض ليحتال عليه بالحجج التي منها يبدأ الرفض "وفي الحقيقة شرط الديانة هو أن الإنسان يحب لنفسه ما يحب لغيره ويكره لنفسه ما يكره لغيره. فإذا كان على هذه الصفة، وصفاً قلبه، من أي دين كان، فهو من خيار قومه. وإنما الأديان طرف والأعمال زاد المسافر بها في كل إنسان يحصد ما زرع ويدخر لآخرته ما جمع"¹⁶⁶¹ وهو المقصود من قول الرخالة نفسه، حين جعل محور القضية في عدم تقبل الجزائريين للفرنسيين، مردّه إلى خوفهم على دينهم "ليس للعرب ما يروّعهم وتفر منه أنفسهم إلا أمر الديانة. كان عالمهم وجاهلهم يقول المصيبة في المال ولا في الأولاد، في الأولاد ولا في الأبدان، في الأبدان ولا في الأديان"¹⁶⁶² هذا على حد تفسيرهم -هم- للقضية، وهو اعتبار غير مؤسس إلا عند هؤلاء المواليين، مع علمهم أن سواد الجزائريين لم يكونوا قابلين بهذا التعليل المخيب، فقد عبّروا عن أهوائهم لا عن منطق الأمة، لذا لا نجد في خطاباتهم أساليب الإقناع المختلفة من حجج منطقية، بل سؤفاً لتبرير استلابهم من مظاهر التحضر الفرنسي يُنقل إلى المتلقي من التوجّه نفسه، فيجعلون من رؤيتهم وتوجههم ميداناً للبرهان، لتلتقي في ذلك صورة البصر المشبعة بالهول والتعظيم لما وصلت إليه حضارة فرنسا، مقروناً بسببية التفوق التي يقرّ بها الدين الإسلامي، مثل ما يؤكد ابن علي الشريف "فانظر أيها العاقل بعين الاستبهار وتأمل تأمل ذي اعتبار، تجد سبب نصرة الدولة الفرنسية العادل، فلذلك أورتهم هيبة الملك حتى مهدوا وساروا فيه بأحسن سيرة وكل مجد أو خطوة فتلك نصرة من الله يؤتيها من يشاء"¹⁶⁶³ وهو منطق محكم لكنه يستهوي قارئاً ساذجاً، حين لا يؤول مرجعية هذا القول، في حين لم يكن هذا المنطق عند قارئ ذي فطرة سليمة ليقبله إلا من جانب التفوق الحضاري، وليس من باب الاستدراج والرضا بالمستعمر والاندماج في حضنه.

ب . الخطاب السياسي ووضع المتلقي.

¹⁶⁶¹ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 55.

¹⁶⁶² - المصدر نفسه، ص 64.

¹⁶⁶³ - رحلة محمد السعيد بن علي الشريف، مصدر سابق، ص 43.

ب . أ . مناهضة الاستعمار الفرنسي

يُهيمن الحقل الاستعماري في خطاب الرحلة بصور قويّة سواء على مستوى المعجم أو على مستوى الموقف، نتيجة الواقع الذي سارته ودوافعها التي كانت جزءا هاما من مناهضته، وبما أن الرحلة تستقصي اللحظة الآنية وسيطر على خطابها المرجع كخلفية للرؤية الذي لا يغيب لحظة، بالتوازي مع تقاطع عوامل الفكر والواقع في نقاط مشتركة عديدة بين السارد والمسروود له، يجد هذا الأخير نفسه مستهدفا مباشرة بصيغة ضمير المخاطب، بما ينم عن حضوره المستدم في ذهن السارد بصفته طرفا في عملية التواصل المسندة إلى الخبر المعلوم غالبا ما دام أن الظاهرة تشكّل هماً مشتركاً، في حين يحضر ضمير الغائب بصفته يخصّ الطرف المخبر عنه، والذي يصبح متلقّ ثانٍ في العملية، ما دام أن عملية الإخبار تتمّ على مستوى السرد من خلال متلقي الخبر ومخبر عنه ومخبر، فإنه في علاقته بالتلقي يصبح ممّن يستهدفهم الخطاب، وهو شكل نمطي لا يخرج في أغلب الأحيان عن هذا السياق: "فهناك عين الاستعمار التي تلحظك شزرا من غير ذنب اقترفته أو سيئة اجترحتها، فلا تكاد تنزل بمنطقة من مناطقها إلا تعقبك هذه العين فأحصت عليك حركاتك وسكناتك"¹⁶⁶⁴ ففي هذا السياق نجد المتلقي يُشكّل صورة ذات وازع نفسي يتوجّه إليه السارد بالخطاب، وهو كامن في صريح العبارة التي نجدها في حديث بوزوزو: "ولا حاجة إلى شرح مقاصدها وأهدافها وذكر الوسائل السافرة التي تلجأ إليها لنيل أغراضها، فقد أصبح الكذب والمكر والتزوير والروغان من شيمها"¹⁶⁶⁵ ومفاد ذلك أن المتلقي المقصود هو من جنس الرّحالة نفسه في توجّهه، وهو الجزائري المكتوي بنار الاستعمار. هذا على مستوى هذا المتلقي الذي لا يكلف السارد نفسه عناءً ما دام أن سبيل الظفر بالخبر هو التقرير المباشر، لأن المعلومة موجودة في حيز التجربة التي يحيها المتلقي كما يعايشها السارد، فليس هناك دعوة لردّها. أما اللافت، أن السارد كلّما قصد متلقّ آخر يكون خطابه الإيديولوجي مبرجا بآليات يقتضيها المقام، حسب توجه المتلقي. ونلاحظ ذلك جليا في نص بوزوزو نفسه، الذي يقوم على مخاطبة الجزائري المقصود الأول، ثم المستعمر كمتلقّ ثانٍ، إلا أن هذا المتلقي لا يخلو من أهمية ولا يسلم من خطر، أما نوع الخطاب فيختلف عن الخطاب الأول، فحيث كان الأول تقريرا مباشرا، فإن الثاني خطاب مدجج بالحجج، عميق بالدلالات التي من خلالها يريد من المتلقي الآخر لا أن يعرف الحقيقة، فهو يعرف عينها ويمارسها، وأفقّه من هذه الناحية مسدودة، مثلما يؤكّد: "فإن من يطلب

¹⁶⁶⁴ - وفد الشعراء يزور طولقة - فرفار - البرج، جريدة البرق، مصدر سابق.

¹⁶⁶⁵ - من وحي البرلمان، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 13.

الاستعمار بالإنصاف يطلب عسيرا بل مستحيلا¹⁶⁶⁶ بل ليعلم أن الجزائريّ وهو في هذا المقام، هو المخاطب يريد دراية المستعمر في صفة مخاطب، بأن ما يربّه الاستعمار بات يفنّده الوعي، وأن كل ما كان ادعاءً صار كذبا صريحا، وليس ذلك إلا من خلال تقديم الحجج على هذا الادعاء، بالمخاطب المباشر الصريح والمجاجات البليغة بعلامات مباشرة حتى يستشعر المتلقيّ درجة الاحتمال المستنفذة، لنلاحظ ذلك في هذا المقتطف:

"إذا كان هذا الشعب لم يبلغ رشده وهو تحت عنايتكم منذ أكثر من مائة سنة فإنه لم يخرج من حال طفولته أبدا، ولن يبلغ رشده أبدا ما دام تحت تصرفهم. والسبب في ذلك يرجع إلى أحد أمرين:

1 - إما أن هذا الشعب جامد لا تؤثر فيه التربية، وأنه محروم من الاستعداد الفطري للتقدم والتطور.

2 - وإما أنكم لم تأتوا البيت من بابه في ترقية هذا الشعب، فكانت طريقة التربية التي سلكتموها في سبيل تمدينه طريقة فاسدة. وفساد هذه الطريقة ناشئ عن أحد أمرين:

1 - إما أنكم تجهلون أساليب تربية الشعوب وترقيتها. وإذا كان ذلك فلا يحق لكم - عقلا وشرعا، وأن تولوا أمرا تجهلون مدخله ومخرجه، وخصوصا إذا كان أمرا خطيرا يعرض بحياة ملايين من البشر للهلاك.

2 - وإما أن قصدكم لم يكن شريفا، بل كان ينطوي على خبث سترتموه بعبارة "الرسالة التمدينية"¹⁶⁶⁷

وإلى جانب المنطق المادي الذي يقدمه الرّخالة كحالة من حالات التلقي، فإن ذلك قد تعزز بخاصية أسلوبية متمثلة في الأساليب الإنشائية، من صيغ التعجب والنداء، وفي عمومها طلبية القصد أكثر منها وظيفة بلاغية، الغرض منها التّهكم، مثل: "يا مدعي الديمقراطية!"¹⁶⁶⁸ حتى يجعله يصغي لما يأتي من بلاغ يصبّ في الهجوم الذي يريده بالدعوة، كما لاحظنا من قبل.

ب . ب . الإستعمار والموقف الإيديولوجي

تعدّ ظاهرة الاستعمار ظاهرة عالمية تكرّس فعلها صورة سلبية بما تحقّق عنها من شؤم وتخطيم كل بُنى الشعوب المستعمرة، فمخيّلة الإنسان ذي الضمير السليم يأبى هذا التصرف اللاأخلاقي، فما بالك

1666 - من وحي البرلمان، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 13.

1667 - المصدر نفسه، العدد 15.

1668 - من وحي البرلمان، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 15.

بخطاب يتجرّع أصحابه مرارة هذا الفعل، وهو لا محالة يتخذ من متلقٍّ نموذجيٍّ ذريعة للوصول إلى مبتغاه، ويقوم هذا الفعل من خلال صورة المتلقي الذي يتوسّد طائفة من التاريخ والأخبار تكوّن لديه مستوى ثقافيا يسمح له بتبني قضايا عديدة، حيث لا نجد السارد في كل حالات خطابه يتبنى الوظيفة التعليمية، ولا رواية الأحداث بل هو يتقصّى المكان مستخلصا من أطلاله الفعل الاستعماري، لأنها تحمل صورة نمطية عند السارد وعند المتلقي، وكأنيّ خطاب يذمّ الاستعمار فهو يتميز باستهدافه متلقٍّ ضمنيٍّ وهو المماثل للسارد في صورة متلقٍّ رئيسيٍّ، ومتلقٍّ صريح يتوارى خلف حجاب الخطاب العام في صورة متلقٍّ ثانويٍّ. ولا يتشكّل هذا الأخير إلا من خلال الاسم الذي أصبح صفة مطابقة للبطش والطغيان والاستبداد الذي عرفه العالم في أسماء معدودة قلبت موازين العالم. ولما لم يكن بوسع الخطاب أن يصل إليه مباشرة، يكون المتلقي هو الذي يهّمه مضمون الرسالة والعبرة منها وليس هو المقصود بذاته، في مثل هذا يقول إسماعيل مامي: "وهنا أسأل موسوليني هذا الجنون والظلم والتهور وضرب الضعفاء ما الداعي له وهل هو من قواعد الفاشيو؟"¹⁶⁶⁹ إن سلبية الحركة الموسولونية باعتبارها حركة استعمارية ليس لها من مبرر، نجدها تتمثل التوافق في كراهية ربح هذه الحركة في وفاقها بين السارد والمتلقي على اعتبار أن السارد واثق من قصده الذي يدعو فيه متلقٍّ من شأنه أن يعضد بفعل القراءة، هذا النموذج غير المحبذ على الأقل عند من يكتوي بنار الاستعمار، ولعلنا نظفر بالجوّاب عن سؤال من المتلقي المرجو في الخطاب السابق؟ إذ يعطف الحديث عن قضية إبلاغية تجاه متلقٍّ من انتماء الرحالة نفسه "مكثنا بطرابلس ثلاثة أيام وقد أحسننا خلالها بثقل عظيم على كاهلنا من جراء ما شاهدنا في الفاشيست من الكبر والخيلاء والعجب والرياء والشموخ في أفرادهم فترى الواحد منهم يحيي صاحبه رافعا يده للسماء كأنه يشير بذلك الرفع إلى تفوقه على سائر البشر"¹⁶⁷⁰ وهي سهام النقد للنظام الفاشيستي المتعطر، سبيله إلى المتلقي المشار إليه ليس في ذلك من مبررات سياسية، إلا ما يجده القارئ من موقف تجاه موقعه -هو- ضمن هذا المعتك، الذي وضع فيه في حلقة من يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم، من هنا اختار التيار الجزائري مواكبة تيار النُصرة، فركب أمواجها، واتخذ منها موقفا دون أن يخيّر.

وعلى طرف نقيض من السابق كانت الشيوعية تتمثل حصنا للمعسكر الشرقي، في تصديها للمعسكر الغربي القائم على زمام الاستعمار والاستلاب في العالم الضعيف، وعلى الرغم من ذلك لم يكن التيار الشيوعي قائما عند المتلقي الجزائري كعقيدة دينية أو فكرية، بل كتوجهٍ محلّص من برائن

¹⁶⁶⁹ - سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 443.

¹⁶⁷⁰ - سياحة استطلاعية، جريدة النجاح، مصدر سابق.

الاستبداد، وهي الصّفة التي لم يهضمها الجزائري على الرّغم من كل المغازلات التي كانت تقرب أكثر ممّا تدفع، لذلك نجد في خطابات السارددين في هذا الصّدّد توجه إلى متلقٍّ واعٍ، يقف الموقف الإيديولوجي الذي يركب الموجة حسب مقتضى الحال، فإذا كان التيار الشيوعي في حقله النفعي يخدم مصلحته، انساق له بالقبول، بينما حين يجدّ الجدّ ويتخذ موقفا عقديا لا يتفق مع عقيدته الدينية والفكرية، يتغيّر الموقف وتتخذ الإيديولوجية منحاً آخر، وهذا نجد ماثلاً عند (المدني) مثلاً: "كان يجلس إلى جانبي رئيس حكومة ألبانيا الأمين العام للحزب الشيوعي فيها، الرفيق أنور خوجة، وحاولت الكلام معه، فإذا به ليس مسلماً، بل شيوعي أحمر، من لون قان، ليس في فكره شيء إلا الشيوعية التي يجب أن تسود العالم، فتركته"¹⁶⁷¹ والشيوعية كمبدأ إيديولوجي لم يكن الموقف تجاهها متشبعاً بوعي سياسي، ينجرّ عليه استشراف الأمور السياسية التي تعود على الأمة بالنفع ويتخذها تجارب مفيدة. بل هو ناتج عن موقف غير مباشر، مفاده المقارنة بين سلطة الاستعمار التي عثّش بطشه واستفحل سيء أعماله، لذلك نجد مخاطبة المتلقي من خلال استعارة الموقف كمقابل لموقف مضاد، كما يؤكّد ذلك (رضا حوحو) "وجدت عالماً جديدا لا يمت إلى العالم الغربي المادي بصلة، وجدت عالماً جديدا في تفكيره جديدا في وضعه جديدا أنظمتها جديدا في سير حياته وأعماله حتى مدلول بعض الكلمات في تلك الديار غير مدلولها عندنا، فهم يعيشون في نظامهم الاشتراكي العجيب ونحن متأثرون بنظام الرأس مالية وأخلاقها وسير حياتها، فلا غرابة إذا ما وجدنا كل صغيرة في حياتهم غريبة تستدعي البحث والاهتمام"¹⁶⁷².

ت . الخطاب الحضاري ووضع المتلقي

تعود الإيديولوجية من جانبها الحضاري مستقطبة أحادية المتلقي، وهذا يتمثل في جملة النقاط المشتركة التي يشكّلها الخطاب بين الملتزمين حقلاً مشتركاً وعقداً تاريخياً تسيطر عليه الهوية الدينية وميثاق الأعراف الاجتماعية لدى المجتمع الواحد، حيث يتقيّد الخطاب الحضاري من النسق التاريخي القائم على المطابقة بين مختلف الحضارات وخصوصاً الإسلام والنصرانية (الصليبية) باعتبار أنهما تماديا في الصراع منذ بزوغ الدين الإسلامي المقوّض للأديان السابقة، ومنه تدافع المدّ العدواني الذي خلّف تناقضاً في الأفكار، وانبحست عنه تبادل الأدوار في قيادة العالم، ليتشكّل قطبين مختلفين متصارعين،

¹⁶⁷¹ - في بلاد العمالة الصين، حياة كفاح، مصدر سابق، ص 451/450 .

¹⁶⁷² - عدت من الاتحاد السوفييتي، جريدة الشعلة، مصدر سابق، العدد 40.

يحمل كل قطب جيناته العقدية والإيديولوجية العميقة التي لا تقبل التنازل لصالح الطرف الآخر، وبات كل منهما يمثل الحقيقة المطلقة على حساب الآخر الذي لا يشكل إلا الغير.

ولما كانت الرحلات الجزائرية مسaire لموجة الاستعمار الطويل وما حمله في طياته من عدوانية جراء البطش والإجرام ومخلفات التجهيل والأمية والتفكير، ترسب عنده تعزيز هذه الفرضية الأزلية، وحملت أيديولوجيتها من بنيات ذهنية، تستمد مرجعيتها من الاسترجاع التاريخي لتصب في بؤر استشرايفية، فيضيق حقل التلقي ليتقلص إلى حدود مجتمع أحادي التوجّه بأعرافه وعقائده، تكون فيه الرسالة ذات مقصدية وتوجّه، محصورة عند الطائفة التي تدين بالاعتقاد الأوحده، مثل هذا القول للغسيري: "قد يكون موسيليني عظيما ولكن العظمة لله الواحد القهار فما قد انتقم سبحانه ممن شرد شعبا كاملا وأجلاه عن وطنه"¹⁶⁷³ فهذه التمثلات الإيديولوجية، هي شركة في العامل الإسلامي الذي يسلم بهذا المنطق، لتقلص بذلك حدود المتلقي إلى العنصر المسلم، اللاجئ إلى المسلمات العقدية، يأتي هذا بناءً على خلفية المسلمات في الاعتقاد الذي يطمئن إليه المسلم عموما. كما أن الجانب الديني جعل المجتمع الإسلامي محافظا، يربط أخلاقه بتشريعه، ومنه نجد الجانب الأخلاقي قد تأسس إيديولوجيا اعتبارا من المنشأ الديني، ليحوّلها المجتمع إلى أحكام عرفية، لهذا يرتبط الجانب الأخلاقي بوثاق مرجعية تصيرها إلى أبعاد ومواقف.

يجد قارئ المتن الرحلي انبثاقا لتصريحات بالمواقف التي يُدلي بها الرّحّالون سواء داخل الوطن أو خارجه، كل ذلك يتمّ حين المروق عن شعائر الإسلام، أو ما هو مشاع في الأعراف، وهي المواقف التي تستجيب لمحاور متعددة، منها الذاتية التي تتركز على موقف ذاتي يخص شخص الرّحّالة، ومنها العامة التي يعبرّ فيها الرحالة نيابة عن مجتمع بأكمله، ذلك لأن الموقف الأخلاقي شعور إنسانيّ ناتج عن نسق اجتماعيّ في وعاء ثقافيّ معيّن تحدّده عدّة مجالات أبرزها الدين، المقوم الحقيقي، والتقاليد العرفية التي عرفها المجتمع الجزائري في ظل مساره الثقافي الطويل، وقد تبين من بعض النصوص الرّحلية عن مجموعة التصرفات التي لا تمتّ إلى الأخلاق بصلة، ممّا جعل الرّحّالين ينوّهون بها.

كما أدّت الرّحلة بمحاكاتها للآخر أن تطابق الواقع بالمرجعية الثقافية خصوصا الجزائري المثقف الذي يحمل في وعيه حزمة من التقاليد الأخلاقية التي اكتسبها في مجتمعه والتي تزوّد بها من خلال دستور الإسلام الذي يمثّل عند المسلمين أكمل دستور أخلاقي على الإطلاق، وقد بدا الرّحّالون في أغلبهم أصحاب مواقف تحدّوا بها حتى صدمة الانبهار الذي حقّقه انجازات الغرب، فلم تثني من

¹⁶⁷³ - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 250.

صدّعهم وثباتهم على مواقفهم، فكما أنهم أدوا رسالتهم الموضوعية تجاه الآخر، قد وقفوا وقفة ائزان تبين من خلالها عناصر الثبات الأخلاقي.

ويشكّل الدين الإسلامي مركز التداعي الأخلاقي الذي يتأسس عليه مركز الثقل بالنسبة للمتلقّي، الذي تُقدّم له وجبة التقرير في هذا الباب ليلفت بذلك إلى تجاه الشقّ المحبّد من تقاليد ذات التوجه الأحادي "ثم اتجهنا إلى الحارة الجزائرية فإذا الدكاكين والمقاهي الجزائرية من الأهالي والذي يشكر لهم هو تجنبهم الحرام في المأكولات إذ تجد في الحارة مطابخ أهلية إلا أننا نأسف لإسرافهم في الكحول ونود لو توجد جمعية تسعى في تكريه الخمر للأهالي القاطنين بفرنسا بكل الوسائل، ونشر مكارم الأخلاق بينهم أما ولا شيء من ذلك فإن مثالهم لا شك سيء"¹⁶⁷⁴ ينطلق السارد من موقفين متعارضين، بين الحلال والحرام، لأنه يتعهد بتقديم رسالة لمن يتقاسم معه التعاليم نفسها، ومنه نجد أن المتلقّي هنا ذي التوجه الأيديولوجي يسود بمركزية على النص ككلّ وليس من خلال هذه النماذج فحسب.

ويشيع التوجه الأيديولوجي في ما تجده الرحلة من مسوّغات للحديث عن كل ما يتفق وروح الشريعة الإسلامية، أو ما يخالفها، في صورة عقد مقارنات بين ما تحمله ثقافة هنا من مرجعية وما تقابلها الصور المتّفقة أو المخالفة، فالسارد يعيش الدفع المعنوي ما يجعله صريحا مباشرا في ربط تواصله بالمتلقّي لعلمه المسبق بالاتفاق المعقود اجتماعيا مع التعليل أو التشديد، خاصة إذا كانت الرحلة داخلية والمخالفة تأتي من ذوي القربى "كتبرج النسوة في الأسواق والطرقاات بغير حاجة وبوقاحة نهائية ولا خجل فالواجب أن تقوم أيضا دعاية من رجال الغيرة هناك ضد هؤلاء المتهتكات وأن يسعى النواب لدى الحكومة في الضغط على النسوة بالوسائل المعروفة الفعالة. فإنك قلما تجلس بمكان ولا يمر عليك به جيش يتلوه آخر من المتبرجات المترجلات اللائي قطعهن من الأوباش ولسن من نساء الفضلاء والأعيان"¹⁶⁷⁵ وهذا الشحن يخصّ أطرافا كثيرة من المتلقين لفضّ هذا الفعل وقد خصّ المتلقّي بشيء من التصريح المباشر أو أدوات الخطاب، كما تؤكد إشارات النص السابق، فرجال الغيرة يوحى بأن الخطاب عاما ودعوته عامة، تخص من يحركهم الضمير الأخلاقي استنادا إلى السياق، حيث كان المجتمع الجزائري إبّان الحقبة الاستعمارية شديد الحرص على حجب المرأة، وكان يعدّ شرفه من شرفها، مما أجبره إلى التطرّف في كيفية التعاطي مع الحق والواجب. ومن ثم

¹⁶⁷⁴ - رحلة تلاميذ المدرسة إلى فرنسا، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 1280.

¹⁶⁷⁵ - على جناح السفر، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 588.

يريد أن يتوجّه إلى كل من يخصّه الأمر من أصحاب القرار، فيصبح المتلقّي المقصود، هو تعبئة إيديولوجية للمجتمع.

ث . الصراع الداخلي ووضع المتلقي.

يتجلى المتلقي في الصراع الدائر بين الطريقي والإصلاحي، فيما يخصّه كلٌّ من الطرفين تجلي الحقيقة واتهام الخصم ووصفه بنعوت مختلفة، وهو السبيل إلى استدراج كلٍّ منهما لمتلقّيه ببسط محتويات الخطاب بقناعات معينة، وكل فريق يحاول بمقتضى الوثوق من توجّهه في خضم معركة امتلاك الحق. يبدو أن التدافع الإصلاحي/ الطريقي قد شكّل النواة الأولى في الصراع القائم في الرحلة الجزائرية الداخلية، حيث تتجلى بينات الخطاب في سننه، ذلك أن كلاً من الطائفتين يدفع بخطابه واسماً خصمه بشتى النعوت المضادة. إن هذا الصراع لم يكن ليتشكّل إلا من خلال صدى الرسائل الموجهة تلقاء أصناف من المتلقّين، حيث يتشكّل المتلقي السلبي والإيجابي في تقاطع الأدوار في كل من الخطابين، ذلك أن الخطاب الإصلاحي تتجلى فيه ملامح الخطاب الموجه إلى متلقٍّ مماثل وهو في الوقت نفسه يصيب متلقّياً خصماً.

ث . أ . الموقف الإصلاحي

تنشأ عملية تلازم قوية في خطابات الرّحّالين الإصلاحيين، فيما يعقدونه من مضامين توجيهية يراد بها التواصل الضمني مع قارئ إصلاحي يمثل طرفي العملية السردية من خلال اتفاق في التوجّه. ولا يتوقّف مقصد السارد الإصلاحي عند حدود متلقّ إصلاحيّ، ذلك أن الإصلاحيين في أغلب خطاباتهم، كان القصد منها تعميم المتلقّين على حدّ زعمهم بأنهم على حق مطلق، فهم يوسعون من دائرة المتلقّين لتعميم دعوتهم، وبلوغها إلى كافة الناس، كون الحركة الإصلاحية قائمة على الشمول والتوسع وإقناع الناس بأفكارها، فعند قول أحدهم: "وهنا أقف بالقارئ هنيهة وأقول كلمة مجملة في هذا الرجل قبل أن أشعر في بيان المحادثة التي جرت بيني وبينه"¹⁶⁷⁶ والمقصود بالرجل، مصطفى العليوي، والوقوف على القارئ ليس من التيار الإصلاحي فحسب، بل هو القارئ العام، حتى تُبلّغ ضده تقارير تُقلص من عدد المنتسبين، بالتشكيك في زعيمهم، فالخطاب الإصلاحي ليس بريئاً في دعوته تجاه كل ما هو طريقي، وسياق حديث الرّحّالة بادٍ من خلال التّهوين من شأن الزعيم الطريقي، لدى لم يكن الخطاب عادياً في استعماله ليحكم القارئ في النهاية، بل يجعل من أداة الإشارة وسيطاً إيديولوجياً، ينبّه من خلاله القارئ بداية، كقول أحدهم: "أقول: إن مثل هذا الطريقي أو

¹⁶⁷⁶ - التعارف وفوائده، مجلة الشهاب، مصدر سابق، العدد 125.

الصوفي ليبتهج بكل ما ينشر عليه من الأخبار بالجرائد سواء عنده المدح والذم، لأن ذكره بين أعمدة الجرائد مما يزيد في سمعته ويجلب له البسطاء وغيرهم من سائر الجهات، وهو هاني في سربه فارح باشتغال الناس به، لأن في ذلك الاشتغال بالقييل والقال قوة وهمية تسري في عقول العامة لما كان مستولي على عقائدهم من أمر الولاية والكرامة والتربية والتصريف¹⁶⁷⁷، وهذا القول في مجمله يسعى إلى الحطّ من الطرفين ما دام أن زعيمهم في الميزان المرجح كفته إلى سوء المصير بالحطّ من قدره، وهذا الخطاب يحمل في ثناياه أن الطرف الإصلاحي منزّه عن السقطات ولوائه لا ينتكس، فإذا كان الإخبار عن الطرفين هو الحطّ من دعوتهم، فإن الخطاب عن مشروعهم الإصلاحي، هو المشروع المثالي مثلما يلخص ذلك بعضهم في قوله: "أما دعوة المصلحين فهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المأمور بهما شرعا، ثم تطهير العقائد مما ران بها، فهم يرون الدين كله قول وعمل واعتقاد ولا تكون الأعمال والأقوال مقبولة إلا إذا طهر الاعتقاد، وإذا طهر الاعتقاد وسلمت القوة لله وحده أصبحت الأمة موحدة لا تدعو مع الله أحدا كائنا من كان، إذ الأقوال والأعمال إنما هي نتاج الاعتقاد فسعادة الأمة الإسلامية بالتوحيد الخالص"¹⁶⁷⁸

إن عملية البث التي ينطلق منها السارد هي بالضرورة عملية التلقي التي نجد علاماتها قوية في تشكيل قارئها الضمني في حدود ملائمة بارزة المعالم، وهو خط واحد في تشكيل النصوص الإصلاحية عامة، تتلّغ حول موضوعها وتتحيز لقارئها دون قيد، وهو نهج ذاتي محض.

فغالبية النصوص الإصلاحية تُخضع قارئها الضمني في أول مقام من خلال سيميائية العنوان الذي يربط القارئ مباشرة بنسيج النص.. ("سياحة وفد جمعية العلماء" - "سير الجمعية أعمالها - وفد جمعية العلماء يزور القلعة العباسية-") كما أن الكثير من النصوص حتى وإن لم يفصح عنها عنونها فإن ذلك التشكيل ينوب عنه مؤلف الرحلة بانتمائه، وهذا في الغالب، خاصة وأنها رحلات كانت تُبثّ من خلال الصحف الإصلاحية، وبينما الذي يحدّد القارئ الضمني بهذا الخصوص، فإنه محتوى النص الكاشف عن دلالاته الخاصة، في ربط النموذج ببنياته الدالة يحددها التوجّه لاقتضاء الحال الراهن بلوازم مشروع الإصلاحين غالبا "إذ كنا نعلم أن أمتنا التي نحن من أفرادها قد بلغ بها الجهل إلى حد لا يمكن معه إنقاذها منه، وصدّها عن الخرافات التي غرسها فيها الجاهلون والمنتقدون، حتى صارت عندهم من أصول العقائد المقدسة - في ظرف زمان يعد بالشهور"¹⁶⁷⁹ وقد تمثّل خطاب

1677 - التعارف وفوائده، مجلة الشهاب، مصدر سابق، العدد 125.

1678 - المصدر نفسه.

1679 - رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نفي عمالة قسنطينة، جريدة الشهاب، مصدر سابق.

رحلاتهم في محورين؛ التعريف بالجمعية وبرنامجها ومخططها أول الأمر، ثم مجابهة الطوائف الطرقية، الذي يعدّ مجرد تنفيذ لبعض طقوسها فهي دعوى لقارئٍ ضمنيٍ إصلاحي.

ث . ب . الموقف الطرقي

يحاول الطرقي بسط ثنايا الخطاب من زوايا السرود التي يتحامل فيها على الإصلاحيين، لبثها في أذن المتلقي المماثل للحط من غريمه، محاولا التشكيك في دعوته ومشروعه لعلها تجد أذن صاغية، وهي القناعة التي تحمله إلى الدفاع والهجوم من أجل ديمومة الصمود والمجاهات على تبني الحقيقة، والحقيقة تتجسد في فكر من وجهة نظر مزعومة، وهو ما يصادف متلقٍ بالضرورة ليجد فيه السارد متنفسا فيبلغه.

ويتم توصيل الخطاب بصيغ مباشرة تقلّ فيه الحجج لقصدية التّطابق التي يحملها المتلقّي الصنّو للسارد، وكلّما اعتمد السارد الحجج كلّما اتسعت دائرة المتلقّين، فهو جُهد مضاعف ورؤية بعيدة الأفق، في حين كلّما كان الخطاب مباشرا، فهو يتّجه إلى متلقٍ خاص، وفي هذه الحالة خطاب الطرقي لمتلقٍ طرقي، للنيل من غريمه، فهو ينقل له تقريرا مباشرا واصفا الإصلاحيين بالقول: "حاولوا الصعود إلى سطح الكمال بغير سلم ودخل بيننا المعارف من غير الباب؛ فحاموا في بحور ما يسمونه حضارة ورقيا ومدنية وتمسكوا بأهداب ما يرون أنه إصلاح وإرشاد؛ وما هو في نفس الواقع - كما يراه العارفون- إلا انحطاطا وتأخرا عن مصاف الأمم الجاهلة السائرة بجد واجتهاد نحو السعادة والفوز والنجاح.. وليس هذا الإصلاح المزعوم -في الحقيقة- وهذا الإرشاد إلا إضلال وإفساد"¹⁶⁸⁰ وهذا الخطاب ليس فيه جديد، بل هو خطاب يندرج ضمن زعم عام يتبناه الطرقيون، وهو مفتوح لا يكلف المتلقّي جهدا في عملية الاستقبال؛ فالعبارات محدودة ومباشرة، ودلالاتها ليست عميقة، بسيطة إلى حدّ السطحية، تنعطف على رأي عام وفكر شائع، تنطلق استجابة المتلقي الطرقي فيها من موقف المؤيد، أما بالنسبة للمتلقّي العام فيُدرك أن هذا الخطاب إيديولوجي، ليس له قوة الحجة، ولا يقف على أدلة، ما عدا التوجّه الذي يحمله أصحابه لإثارة خصمهم كمتلقّي مستفّر، إلى جانب متلقيه الخاص وهو الطرقي الذي يحفل بمثل هذا الذكر والهجوم "وقد دبت عقارب الإصلاح حتى في خيام البادية ومداشرهم ولم يجدوا من الإصلاح إلا التعرض لقراءة القرآن على

¹⁶⁸⁰ - رحلة العالم الكبير سيدي أبي عبد الله الرزوي جريدة الرشد، مصدر سابق، العدد 47.

الأموات وتشيع الجنائز بكلمة لا إله إلا الله وإلغاء الباقيات الصالحات عقب الصلوات وقد
آثروا فتنه عمياء على الذاكرين الله وحملة كتاب الله ولا حول ولا قوة إلا بالله¹⁶⁸¹

ج . العجائبي الصوفي وإشكالية التلقي

تعود فرضية التواصل الإنساني في حدود الممكن الذي يتحدّد وفق القابلية التواصلية، ما جعله
على مرّ العصور لا يخرج عن هذا الخطاب المعلّل عقلا، وكلما تجاوز هذا الخطاب إلى ما لا يقبله غربال
العقل، يصبح شاذًا ويحول إلى منطق آخر، بين المعجز والخرافي، الذي لا تستطيع البلاغة تفسيره بما
أوتيت من وسائل معرفية، كما هو الحال بالنسبة لمعجزات الأنبياء التي تحمل دلالات القوة الربانية التي
تتجاوز المؤلف، لتهيئة المتلقي والإيمان بحامل الرسالة الإلهية. ولقد شكّلت الخرافة تجاوزا لحدود العقل
لتفسير بعض الظواهر فنيًا لما لها من أبعاد فنية تستطيع أن تمر رسالتها لمشاكل الإنسان خلف هذه
الرموز التي ينتجها التخيل. ولعل الكرامة الصوفية من بين الخوارق السافرة التي جمعت بين الإعجاز
المحاكي لمعجزات الأنبياء وبين الخرافة التي لا يقبلها العقل. ولعل إنتاجية هذا الفعل الكرامي ناتج عن
بيئة المجتمع الذي أصبح فيه الكرامة كفعل أو كخطاب إشكالية كبيرة، لها من الأنصار وهم الفئة
المنزوية تحت لواء الصوفية كما لها من المناهضين وهم من عامة الناس الذين لا تستوعب لديهم مثل
هذه الأمور.

ومن هنا قد يشكّل خطاب الكرامة إشكالية كبيرة لدى المتلقي. هذا الخطاب الذي يبنى على
تجاهل القارئ (الآخر) ويسلّط كل الضوء على قارئ أحادي هو "المتصوف" الذي لا تقنعه الحجج
الإقناعية في الخطاب بقدر ما توفر له ما يستمتع به من لذيذ الحديث عن تسامي الأرواح وعجيب
الخوارق دون ما اهتمام بشكل السرد الذي تتسلسل فيه الأحداث المنطقية للخطاب. هذا الأمر يفسّر
محدودية التواصل التي تفرض متلقي مماثل على اعتبار أنه خطاب منزّه ومتعال لأن "مشكلة الخطاب
الصوفي أنه خطاب ذاتي محض، له مركزه وسلطته المتعالين على أي مركز وسلطة أخرى، بل وحتى
على الذات المنتجة للخطاب التي تتجسد في الواقع"¹⁶⁸² وهو بذلك يعزف على وتر اللامنطق
لتجاوز تفسير الظواهر وإعطائها بعدا مقدّسا خاضعا للمذهب، انطلاقا من أرضية الواقع بقصدية الأنا
المتعالية التي ترى في خطابها الحقيقة المطلقة، مما يحدّ من تتبعه بأوجه قرائية متعددة، وينحرف به إلى
القراءة الأحادية الخاصة، لأن ما وصلت إليه نظرية القراءة بأبعادها وإجراءاتها "لا ينطبق على الخطاب

¹⁶⁸¹ - شوامخ الجبال، جريدة لسان الدين، مصدر سابق، العدد 57.

¹⁶⁸² - فارس عبد الله بدر الرحاوي، الخطاب الصوفي (دراسة في إشكاليات التلقي)، مجلة التربية والعلم، المجلد (19)، العدد (1)، سنة 2012، نينوى/العراق.

الصوفي، لأنه خطاب ذاتي، مرموز، من نوع خاص، لغة وصوتاً وصورة¹⁶⁸³ فالخطاب الصوفي عندما نتمثله في رحلة العشعاشي نجد قائماً على خطاب عجائبي من نوع خاص له من التأثير مثل ما للعجائبي التخيلي إلا أنه يتّصف ببنية الخبر المبني على الاحتمال (الصدق/ الكذب) عكس التخيلي الذي يحيل إلى فضاءات الرمز وعوالم تعدد القراءات، وبالتالي تصبح الخوارق الصوفية وهي موجهة، ذات بعد حكائي جدير بالاهتمام من طرف القارئ سواء كان صوفياً أو عاماً يستهويه الفضول وتتخلله الحيرة ويتكون عنده نزيه من الأسئلة التي لا تحتاج إلى جواب بقدر ما يجده من خلخلة الذهن ومداعبته، وتتبع تفاصيل الأحداث ومعرفة مزيد القضايا عن الشخصية -البطل- بما أنها تقوم على الكرامة في كل تفاصيلها الحكائية، فيصبح لدينا نوعين من المتلقين: متلقٍ خاص وهو "المريد" الذي يسلم بتفاصيل الحدث دون عناء عقلي، وإنما يضاعف له من إيمانه بشيخه، أو من مذهبه، ومتلقٍ عام فضولي لا يهتم بقصد الحكاية ومصير شخصياتها بل خصوصية الحدث الخارق الذي يعتقد فيه المبالغة واحتمال انعدام الصدق "ورغم ذلك يتقبلها القارئ بصدر رحب لأنه يدخل في اللعبة النوعية، ويضع معتقداته بين قوسين"¹⁶⁸⁴.

هذا ما يحدثه الخطاب الصوفي "الكرامي" ذلك أنه يمسّ تلقائياً جميع شرائح المتلقين لأنه لم يبق حبيس المقام الصوفي عاكفا عند مردييه، بل يصبح خطاباً متداولاً، بل نجد أحسن بديل للخطاب الشعري الصوفي الذي "واجه أزمة تلقي حقيقية، وتجسدت على وجه الخصوص في شطحات "الحلاج" ونهايته المؤلمة، وكان ذلك إعلاناً عن فشل المتصوفة في إحداث التواصل المطلوب مع المتلقين"¹⁶⁸⁵ نتيجة تماديه في الرمز الذي لا يقبل التأويل المقنن، وإنما الحبرائي الذي يتلون بتلون نوايا المقاصد وفي ابتكار مخارج (النجدة) إلى بديل آخر يتمثل في "خطة عمل جديدة هدفها البحث عن سبل تعاون، ونقاط اتفاق أخرى بين المتصوفة ومتلقيهم وذلك بالتوجه أكثر إلى خطابات محمّلة بقوة الفعل والحركة"¹⁶⁸⁶ ولا تبدو نية القصد في الخطاب الصوفي هذا، توسيع مجاله إلى جميع المتلقين كيف ما كان توجّههم، بل يبدو وكأنه مقصود إلى جهة خاصة، بينما خطابهم مخصوص بنية شمولية، وكأن حيل الرمز في خطابهم صيغ بأسلوب آخر، لأن "المتصوفة شأنهم شأن أصحاب الخطابات الأخرى كانوا يفضلون لو كان لخطاباتهم فعالية وسلطة وإحداث أثر، لكسب أكبر عدد ممكن من المتجاوبين، حتى

¹⁶⁸³ - المرجع نفسه.

¹⁶⁸⁴ - الأدب والغراب، مرجع سابق، ص 36.

¹⁶⁸⁵ - فائزة زينوني، نصوص الكرامات في كتاب البستان لابن مرتيم - مقارنة سيميائية-، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة ورقلة، الجزائر، 2008، ص 24.

¹⁶⁸⁶ - المرجع نفسه، ص 24.

وإن تظاهروا بتوجههم إلى الخاصة من أهل المعرفة¹⁶⁸⁷ ولعل ذلك راجع إلى نية خطاباتهم التي لا تحتل الإقناع ولا الحجة والبرهان، ولا المجابهة العقلية التي تفسر الظواهر، مما جعلهم يلجئون إلى التواري خلف خطاب مدسوس بعدم المبالاة بالمتلقي الآخر (غير الصوفي) بينما الحقيقة هي استنفار هذا القارئ واحتوائه بنية التواصل غير المعلن صراحة عبر هذا الخطاب ومن تم "حاول المتصوفة تفعيل العقد التواصلية، وبآليات تبدو وكأنها تدخل ضمن إستراتيجية مدروسة ناتجة عن إدراك مقاصد المتلقين، ومحاولة التموغع ضمن منطلقات مشتركة بينهم تدور حول وظيفة تأثيرية تقوم على إثارة العواطف والانفعالات والخضوع لسلطة الحكمي ومتعته"¹⁶⁸⁸ ضمن سياق خاص مقبول من الناحية الشكلية التي تحول له الاعتماد عند شرائح مختلفة من المتلقين.

2 . 3 . متلقي تعليمي

يسعى الخطاب الرحلي الجزائري على غرار الخطابات الرحلية عامة إلى القيام على أساس الثنائية "أنا" السارد و"أنت" المتلقي، فالمتلقي دائم الحضور ومجسد في كامل النص باعتباره يشكل الذريعة الخاصة التي يتخذ منها الرحالة منبرا لبت خطابه المدسوس بالاعتراف، خاصة وأن الخطاب الرحلي يعتمد على التقرير المبلّغ عنه في صورة تعليمية يتم فيها تدرّج الموضوعات المقدمة من المهم إلى الأهم بحسب الأولويات، انطلاقا من الاستثنائي إلى الطبيعي، ومن الغريب المدهش إلى المألوف، ومن المجهول إلى المعلوم، ومن المركب إلى البسيط، ومن الجرد إلى المحسوس، ومنه "يظل الهاجس التعليمي متحكّما في منظور السارد تجاه المسرود له، هذا الأخير الذي يظلّ محتاجا إلى التهذيب والتقييم"¹⁶⁸⁹ حتى وإن كان مطلقا على ما يقدم له من معارف ومعلومات.

وتقوم مادة الرحلة الجزائرية المقدمة على الحقيقة حيث يكون الصدق معيارا فيما يورده البات، بغض النظر عن كل محتمل ما دام أن الرحلة تنقضي في حدود الإمكان من المعرفة، والمتلقي في ذلك بالقدر ما يكون مسلّما بما يقدمه البات فهو في الآن نفسه يقف متوجّسا في أحيان حين يكون الخبر متجاوزا لحدود العقل فيما اتفق لديه خاصة في رحلات القرن التاسع عشر، حيث كانت حواجز عميقة تقف حائلا بين منجز الحضارة الغربية مقارنة بنظيرتها الشرقية والجزائرية خاصة، كما يمثل في هذا القول: "ومن جملة ما رأيناه من أدنى الغرايب استخراج أفراس الطيور من غير تحضين، فتراهم يجلبون أنواع البيض من كل بلد ويعالج بالحرارة المناسبة لأمهاته حتى يخرج أفراسا

¹⁶⁸⁷ - آمنة بلعلي: تحليل الخطاب الصوفي، في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2002م، ص: 168.

¹⁶⁸⁸ - المرجع نفسه، ص 168.

¹⁶⁸⁹ - الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص 253.

راغدة طالبة للمعاش¹⁶⁹⁰ فأنا للمتلقي أن يظفر بحقيقة الخبر الذي قد يتجاوز حدود الخطاب الصوفي ذي البنية الكرامية انطلاقاً من بنية المجتمع الثقافية، في حين قلّ الاحتمال في رحلة القرن العشرين، حيث دبّ الوعي شيئاً ما وحصل نوع من الإلمام بجوانب ما أفرزته الحضارة، ولعل ما نستشعره في هذا الجانب، أنه بالقدر الذي يتحقق عند السارد من مفاجآت يصير عند المتلقي نوعاً من الاحتمال والريبة، في حين كلما حصل الاطمئنان والسرد الطبيعي للمشاهد والأحداث، كلما هدأ روع المتلقي وركن إلى التصديق.

ولا شك أن الجانب التعليمي في الرحلات الجزائرية يشتمل على كمّ معرفي من معلومات ومعارف تتضمنها المادة التعليمية، وتهدف إلى تحقيق أهداف تعليمية منشودة، فهي تُقدّم مادة تاريخية وتعاين الأحداث المعاصرة، وتكشف عن الذات في مستوياتها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وتسير أغوار الذات من خلال الآخر والعكس. ولعل كل ما تُقدّمه الرحلات الجزائرية فيما تراعيه من أهمية، فإنها تقوم بذلك اعتباراً من خصوصية المتلقي الذي يعدّ محور الرّحى ومركز إشعاع نصية الرحلة، فيما يخصّ الاختيار الأنسب للمادة المقترحة باعتمادها على تقديم نموذجها نحو المتلقي، الذي تتجلى فيه القدرة على استيعاب هذه المادة، ومواضيعها المطروحة.

ويتحدد حضور المتلقي في الخطاب التعليمي للرحلة من خلال مستويات ثقافية، استناداً إلى مرجعية الرّحالة في تواصله مع زمرة مثقفة كما يتواصل مع طائفة من شرائح المجتمع المختلفة، فمن خلال صور الخطاب الذي يتّخذ من حدوده المنطقية سبيلاً إلى الإقناع، بناء على الأدلة المنطقية الدائرة في حدود السند التاريخي والثقافي السائد في عرف وميثاق المرجع المشترك بين البات والمتلقي، يتمّ فيها الحديث المباشر عن المعرفة المقدّمة في صور تتلاقى فيها صُور المجتمع من الأخبار النفعية أو للتسلية والفضول؛ يجسّدها الحسنّ التعليمي في لحظات متزامنة بسياق الخطاب الذي يجسّد مختلف مظاهر المجتمع المتزامن بالفترة؛ محلياً وخارجياً، انطلاقاً من الثقافة السائدة "لأن المؤلف في الرحلة "يُصبح ملكاً للمرجعية الثقافية السائدة، ومن ثمّ تصبح الرحلة بالنسبة إليه، وسيلة نصية لإبراز رصيده الثقافي، ومعرفته العلمية، وقدرته التعليمية التي لم تغادر لحظة واحدة"¹⁶⁹¹ انطلاقاً من بيئته التي تعدّ العماد الحقيقي لمرجعياته الثقافية، وهو ما يتضمّن التقرير الرّحلي المزوّد بقناعات الإخبار عن كل ما له صلة بموضوع الرحلة المقرر عنها.

¹⁶⁹⁰ - ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 56.

¹⁶⁹¹ - بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1، 2007، ص 178.

ولما كان خطاب الرحلة مسندا إلى الثقافة الجمعية، فإن وظيفته التواصلية على المستوى التعليمي تقوم على الخيار الطبيعي لأحداث موضوع الرحلة، في حين ليس هذا معيارا على اعتبار أن الثقافة المنسوبة للرحلة فضفاضة إذ يُعَدّ "وعاء لكل مضمون، وهو لا يفرق بين مضمون خسيس وآخر شريف، أو بين مضمون مهم وآخر تافه"¹⁶⁹² وهو بالقدر الذي يتضمن كل كلام بسيط، فهو يعمد في أحيان كثيرة إلى العملية الإسنادية كقاعدة لربط الموضوع بدرجة أهميته والرفع من مستوى الكلام العام إلى المستوى العالم بالاحتكام إلى مصادر أصلية للمادة المقرّر عنها كلما اقتضى الأمر في إحالة هذه المادّة المعرفية استنادا إلى علامات مرجعية، كربط الحادث المعروض بسند إحالي تاريخي مثل مصادر الكتب كفاية بكتاب واحد، أو الجمع بين عددٍ من الكتب اعتمادا على عملية التوثيق العلمي لتعزيد السند كلما احتاج الموضوع إلى أكثر ضبط وعلمية كما نجده في هذا القول لإسماعيل مامي: "نسب أولاد سيدي ناجي كما ذكره المؤرخون عن الشيخ عيسى بن سلامة في كتاب الأنساب ينتهي إلى ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان ومما ذكره صاحب الدر والعقيان في بيان شرف ملوك بني زيان أن نسب سيدي المبارك بن ناجي ينتهي إلى أمية بن عبد شمس وهذا التعريف وجد في تاريخ الوزير المعروف بتونس ونشأ أوائلهم أولا في الشام ثم الأندلس ثم إفريقيا"¹⁶⁹³.

وتختلف القيمة التعليمية حسب المادة المقترحة، منها ما يتجسد في الاحتواء المعرفي الذي يقابل فيه السارد ما يعرف به بعملية انعكاسية نحو المتلقي، حيث يتم تحويلها من بؤرة الالتقاط إلى دائرة البث، يصير فيها المتلقي مستهدفا بالمعرفة، التي كانت ذات لحظة تستهدف الرحالة نفسه، في حين ينزع عنها أحيانا صفة الاحتواء لتصير مادة تلقينية يستهدف فيها المتلقي، مثل: "مدينة "كان" التي ينعقد فيها سنويا أكبر مهرجان سينمائي، تعرض فيه الأفلام القصيرة والطويلة"¹⁶⁹⁴ أو قد يكون فيها السارد والمتلقي في الدرجة نفسها، فنجد السارد يعتمد على الوصف ويجسّد ملامح الاحتواء من خلال إشارات زمانية مثل هذا القول: "وصلنا مطار كراتشي، وهو مطار عظيم واسع مستكمل لجميع المرافق والشروط، وقد أصبح ذا أهمية عظيمة في وصل الشرق بالغرب، وهو يبعد عن المدينة بنحو ثمانية عشر كيلومتر"¹⁶⁹⁵ وهو في الغالب يقوم على الوصف التحليلي لا الفني، يتم فيه التركيز على توصيل المعلومات توصيلا مباشرا لا تراعي فيه النواحي الجمالية والذاتية"¹⁶⁹⁶ يتجرد فيها

1692- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص 48.

1693- في الوطن القبلي، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 182.

1694- سوائح وارتسامات عابر سبيل، مصدر سابق، ص 55.

1695- رحلتي إلى الأقطار الإسلامية، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 197.

1696- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ناصر، مرجع سابق، ص 36.

الخطاب من كل احتواء عاطفي، تقابل وصفاته النقل الحرفي لمراد التقرير في حدود لا تستثمر فيها آليات البلاغة ولا جماليات الأسلوب أدنى مقوم من مقوماتها، فوصفها لا يقف إلا على المماثلة مثل هذا القول: "وهي طائرة جبارة ذات أربع محركات تقل ما يربو على ستين راكبا وقد خصص معظم مقاعدها لضيوف الحكومة السعودية الشرفيين وكلهم من الشخصيات العلمية والسياسية البارزة"¹⁶⁹⁷

ومنها ما تجعل من المتلقي في رباط وثيق بالجانب المعرفي الذي يتسم بالتنوع في الأخذ بأسباب المعرفة، خاصة وأن المدونة التي يشترك فيها كمّ من الرحالين الذين تتفاوت قدراتهم المعرفية وسعيتهم الثقافية ومشاربهم الحياتية، فإنها تضيف على عالم النص زخما وتراكما من المعارف، هذا استنادا إلى ما تقدّمه مادة الرحلة الذي يشكّل مسارها وما يحيل عليه من أحداث ومشاهد مفتاحا للولوج إلى عوالم وفضاءات. يرى الرحالة من خلال ذلك بحكم اكتسابه المعرفي ومن خلال الاستطراد الخوض فيما له علاقة بموضوع حديثه المرتبط بالحدث حيث كانت في حينها المعارف شحيحة، مثلما نجد في حديث الرحالة عن (الوعدة) التي كان يطفح بها المجتمع الجزائري كظاهرة تراوحت بين السلبية والإيجابية، خاصة وأن الطريقة اتخذوا منها منابر للانحراف، فإن ما يهّم من باب التعليمية أن هذه الظاهرة تمتدّ إلى تاريخ ضارب في العمق عند العرب، ما دفع بالرحالة إلى إزاحة لبس معرفي عن أسرار كيانها "وأصل "الوعدة" في التاريخ أن فتيان العرب كانوا إذا خرجوا إلى الصيد جعلوا فيما بينهم موعدا مكانا سوى يجتمعون إليه في يوم معين، ثم انتشروا يطلبون الصيد في بطون الأودية والشعاب وفي المغاور والكهوف وعلى رؤوس الجبال وفي كل مكان يكون فيه الوحش والطيور، فإذا كان اليوم الموعود اجتمعوا في المكان المعين، ووجدوا أن عشيرتهم كلها نساء ورجالا قد سبقتهم إلى الموعد وضربوا القباب ونصبوا الخيام وصنعوا "الطعام" وطبخوا من لحوم الصيد، فأكلوا وشربوا ثم ركبوا الصافنات الجياد، فلعبوا ما شاءوا وأتوا من أعمال الفروسية والشهامة ما أرادوا .. حتى إذا قضوا ليالي وأياما رجعوا إلى ديارهم، وتلك هي "الوعدة" في الزمن القديم ولكنها تطورت بتطور الزمن وتُنوسي الصيد، وصارت إلى ما ترون، وما كانت الوعدة لتقام باسم "الولي" الفلاني أو تقربا إليه"¹⁶⁹⁸ والملاحظ أن العملية التعليمية مرتبطة بقضية إيديولوجية أراد الرحالة أن ينطلق من خلالها إلى تنفيذ علاقة هذه الظاهرة بتاريخها البريء لذا نجد أن الجانب التعليمي ركنا من أركان الإسقاط الأيديولوجي، وانتصارا لحجة متبناة.

¹⁶⁹⁷ - عدت من الشرق، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 257.

¹⁶⁹⁸ - إلى "زيارة سيدي عابد!" (أحاديثنا في القطار)، صحيفة الصراط السوي، مصدر سابق، العدد 12.

ودائما في خضمّ الصراع الدائر بين الأقطاب المتناحرة في الجزائر، عمّا يسمى بالطرقية، يظفر هذا العالم بشيء من الاستدراج المعرفي ليزيل اللبس عن قضية أصبحت تشكّل نسقا منبوذا ذهنيا، ليظفر بتعريف يعيده إلى عالمه التعليمي فتزول عنه كثيرا من اللبس، انطلاقا من معتنقي المذهب حتى تطمئن إليه النفوس وتتقبله العقول "وأما الطرائق فجمع طريقة وهي أطوار التخلية عن الرذائل والتخلية بالفضائل وبعبارة أخرى هي تطبيق الأوامر والنواهي على أحوال المكلفين ومعرفة النفس بخسائسها المندمجة فيها من حقد وحسد وغضب واستعلاء كما قال بعض العارفين إن الإنسان اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب فلذلك اجتمع عليه أربع أنواع من الأوصاف؛ الصفة السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية.."¹⁶⁹⁹ ومن ثم يتم التدرج التعليمي من مناحي الأخذ باليسر كطريقة مبسطة.

وإذا كانت هذه المعارف تصبّ في عالم المفاهيم الذهنية العامة مما تأسس في المجتمع، فإن الرحلة في عالمها الخاص ودورها نقل الأخبار ومدّ المتلقّي بالتقرير عن الأمكنة المزارة، باحتوائها على تقديم مواجيز معرفية عن الأمكنة المزارة ومحتوياتها من معالم وآثار ومآثر وعمران، وشخصيات وأعلام، وما تتميز به الشعوب من اختلاف وتنوع، فإنها تشرف على تبين كل مستثنى يجيل على الاختلاف ما للهناء والهناء، هذا المختلف الذي يصير مادة دسمة ينشطر إلى شطرين: شطر يشترك فيه البات بالمتلقي معرفيا، فيقوم الرحالة البات من خلال هذا المنطلق إلى التأكيد والضبط المعرفي القائم على مرجع ثقافي مقارن يقوم على اختبار المرجع.

وشطر آخر يقوم على المعرفة الجديدة المجسّدة فيما يضمنه الرحالة في سرده القائم على بثّ المستكشفات وحرصه على كل مستثنى وجديد لرجّه إلى المتلقي حتى يتسنى له الترويج لنجاح تجربته الرحلية، وفيه يقوم النص على نماذج مختلفة لم تكن في مرجعية الرحالة سوى صور مبهمة أو معدومة التكوين في الذهن القائم على الاختلاف الثقافي، حيث يسبّب هذا الاختلاف الثقافي قلقا ثقافيا يحدث حالة من الترتيب على مستوى الذهن المسكون بنمطية معينة. إن الأحداث السريعة كنموذج دخيل يحدث حالة من لا توازن يجليها الخطاب في صورة إبلاغ نحو المتلقي ليستعمل في أغلب الحالات كذريعة للاعتراف، الذي يتحوّل إلى عملية تعليمية مجسّدة في مستويات مختلفة شكلا ومضمونا.

كما أنه بإمكان التعليمية أن تقوم بعملية استقصاء تاريخي للمكان، فتحيل على مآثره الماضية والوقوف على مواقعها التاريخية، اهتماما من الرحالة بالبعد التاريخي للمكان، لتقريب المتلقي من طبيعة الأمكنة المسرود عنها، ولفت النظر إليها كقيمة معرفية يحتلها هذا المكان في نفوس البشر، يتجسّد

¹⁶⁹⁹ - محمد بن البشير الجريدي، سياحة الأستاذ أحمد ابن عليوة، جريدة البلاغ الجزائري، العدد 76 (17 محرم 1347 هـ الموافق لـ 6 جويلية 1928م).

ذلك في الرحلات الداخلية كما الخارجية منها، يتم فيها التلقين على شكل دليل تاريخي يسرد معظم محطات تاريخ المكان "موقع شرشال جميل.. وهي بلدة قديمة جدًا أسسها الفينيقيون في القرن الرابع قبل المسيح وسموها "يول"، ثم وسّع دائرتها وكبرها وجملها من بعدهم الأمير النوميدي يوبا الثاني وسمّاها "قيصرية" نسبة إلى قيصر روما حيث تربى ونشأ، واتخذها عاصمة لمملكته "موريطانيا": وبعد وفاة ولده ألحقها الرومان بدولتهم ثم البيزنطيون من بعدهم..¹⁷⁰⁰ ومثلما تقوم على الناحية التاريخية فإنها تقوم على السند المرجعي "أخذ هذا الاسم بإضافة المكان "ثنية" إلى نبات شائك ينبت به بكثرة يسمونه أيضا "القندول" ولما كانت الجهة جبلية كثرت بها هذه التسمية مثل تيزي راشد، تيزي أوفله الخ..."¹⁷⁰¹ فالتلقي يخاطب بمنطق الحضور الثقافي الموحد كحبل سري رابط في العملية التواصلية لتتحدد من خلالها سائر العملية بناء على مرجع محدد.

2 . 3 . 1 . أسس التلقي التعليمي

يقوم النص الرحلي الجزائري على أسس معرفية يثبت من خلالها على التواجد الدائم للمتلقي، فيظل قائما بفعل الإشارات العلاماتية أو الإيحائية التي تحمل شعارات تدلّ عليه، من خلال الصيغ الدالة التي تحقّق له عملية الإدراك. كما أن الرّحالة ينشد من خلال عاطفته في سياقات معينة، فتارة يحضر (المتلقي) بصيغة الجمع "تأملوا في مثل هذا تجدوا الفرق العظيم بين سيرة أهل إقليم الجزائر، وسيرة أهل فرنسا"¹⁷⁰² وتارة بصيغة المفرد "واعلم أن أهل باريس مختصون من بين كثير من أهل فرنسا، بدكاء العقل، ودقة الفهم"¹⁷⁰³ وهذا من شأنه أن يكون حافزا للأخذ بعملية إدراكية، وهي من أبجديات الطرق التعليمية التي تفيد التأكيد على المادة المقدّمة من طرف البات الذي يحرص في تأدية المادة العلمية وتبليغها وفق منظور معين. ومن الطرق العديدة التي يركز عليها الجانب التعليمي، صيغة الحوار الافتراضي الذي يفيد باهتمام الرّحالة بمتلقيه، مثل: "ولكن سلني أيها القارئ كيف كانت حالة الأبناء بعدهم فأنا المجيب، لقد قدمت لك آنفا ما أحرز عليه أولئك الأجداد من الفوز والعظمة والاعتبار جزاء أعمالهم الخالصة مع العامة، وأزيدك الآن أن منهم من مات على نزوة طائلة ومنهم من فقر..."¹⁷⁰⁴

¹⁷⁰⁰ - حركة جمعية العلماء بعمالة الجزائر، جريدة البصائر، مصدر سابق، العدد 150.

¹⁷⁰¹ - المصدر نفسه.

¹⁷⁰² - رحلة محمد السعيد بن علي الشريف، مصدر سابق، ص 45.

¹⁷⁰³ - المصدر نفسه.

¹⁷⁰⁴ - رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، جريدة الشهاب، مصدر سابق، الجزء السابع المجلد العاشر.

كما أننا نجد في الصيغ الدالة على المتلقي اختلافا بين سرود القرن التاسع عشر وسرود القرن العشرين، حيث تُمثل سرود القرن العشرين نمطا نثريا حديثا تماشيا مع روح العصر، في حين تُشكل سرود القرن التاسع عشر من هذه الناحية امتدادا للنثر القديم، تماشيا مع التقليد السائد انطلاقا من الاستدراج "واعلم أرشدنا الله وإياكم أن أصل الفروسية الثبات، وأن مهادها إنما هو الركوب على الفرس من الخيل، ومن لم يتدرب أولا على العرى من الخيل لم يستحکم ثبوته في الغالب.."¹⁷⁰⁵

ويحرص الرّحالة على تحضير متلقيه ذهنيًا من أجل تحصيل القابلية لديه، ثم تضمين الإجراء التعليمي على استعمال مختلف الأدوات الإبلاغية، إضافة إلى ما يتمتع به المتلقي من صنوف المعرفة الخاصة منها والعامّة التي تؤهّله للتواصل الذي لا يقوم من العدم اعتبارا من بنود متعددة نحاول حصرها في الآتي:

أ- تحيط التعليمية بالتركيز على اللغة العلمية (التواصلية) البسيطة المؤدية للغرض دون أدنى إشارات بلاغية حتى لا تترك للتأويل أيّة مناسبة، كما تعتمد على الجمل القصيرة المترابطة في تناسقها حتى نهاية الفقرة التي تحمل الفكرة، بالإضافة إلى التركيز على البناء العام الذي ينطلق من آنية القول إلى السابق منه في تماسك، مثل: "وما ذكرته في الأصناف الثلاثة (انما) على سبيل الجملة والأفكار صنف تحته علوم، وكل علم يحتاج إلى تفصيل وكلام طويل، ليس هذا محله وإنما جلبنا بعضه، توطئة لما أردناه، مما عليه الدولة الفرنسية ومما شهدناه في برها"¹⁷⁰⁶

ب- ينطلق من فعل تعليمي خالص من خلال الشرح والتعليل انطلاقا من آليات الشرح والاستدلال القائمة على ضوابط تعليمية مؤسسة على التدرّج، بتطوير المعنى منطقيا "ثم إن الإيمان ينقسم إلى قسمين والناس فيه فريقان؛ الفريق الأول إيمانه على بينة كأصحاب محمد ﷺ فهو لم تهزه الزلازل ولا تخلخله عواصف الرياح. والفريق الثاني إيمانه بحسب ما يراه من المعجزات وخوارق العادات فهذا الأخير لا يثبت إيمانه لأنه ناشئ عن رؤية بصرية وخرافة شفاهية، والدليل على ذلك ما وقع لبني إسرائيل مع موسى عليه السلام"¹⁷⁰⁷

ت- يتم باستعمال شرح المفردة الدالة على موضع أو شيء "توجهنا إلى بلدة كاسان واسمها الأصلي [سيدي علي]"¹⁷⁰⁸ أو ما كان منها متعلّقا وبالأخصّ بالاستعمالات الدارجة في

1705 - رحلة محمد السعيد بن علي الشريف، مصدر سابق، ص 59.

1706 - رحلة محمد السعيد بن علي الشريف، مصدر سابق، ص 49.

1707 - سياحة الأستاذ أحمد بن عليوة، جريدة البلاغ الجزائري، مصدر سابق، العدد 72 (26 ذي الحجة 1346 هـ - الموالف ل 15 جوان 1928م).

1708 - علي جناح السفر، جريدة النجاح، مصدر سابق، العدد 585.

ثقافة المجتمع الجزائري حيث إن الرحالة يُدرك أن ازدواج في الثقافة كان مستبداً بالوعي الجزائري لذلك كان الاستعمال ينم عن طبيعة المعجم، وقد جسدها السارد في الإطناب السلس الذي يترجم تلقائياً ما كان سائداً في التداول الثقافي الشعبي من مصطلحات في مقابل ما تصالح عليه في عُرف اللغة الرسمية، مثل: "وقد زارنا كاتب شيخ البلدة (المير) إلى الدار التي نزلنا"¹⁷⁰⁹ وأيضاً: "وأما المير فقد أعلمه بأنه سيعطيهم قاعة الأفراح (صال دوفيت) ليجتمعوا فيها كما سيحضر كوميسار الشرطة مع أعاوناه لحفظ الأمن"¹⁷¹⁰.

ث- المحاورة: وهي الأداة الأمثل التي يتم فيها تقليص المسافة بين البات والمتلقي، فتارة تتم من خلال الاستدراج مثل: "ولنعرج على وصف التعليم الفرنسي بوطن الوادي فنقول: لا حاجة لذكر تطلب مدن الوادي أحدثت مكاتب في البعض وطبقات في البعض الآخر، لأن القطر الجزائري كله لم يتحصل من العشر طبقات الملائمة لنسمة السكان إلا على ثلاث طبقات"¹⁷¹¹ وأخرى يتم فيها بفتح الحوار مجالاً لآلية أخرى أجدى في العملية التلقينية، والمتمثلة في السؤال، إن السؤال يفيد في العملية التعليمية كجانب تطبيقي على الفهم باستعمال المتلقي لآلية التركيز حتى يتم له الإبلاغ بطريقة إقناعية فعّالة، ذلك أن السارد يطرح السؤال الذي يجب عنه مباشرة عقب نهاية السؤال الذي يتبني عكس الطرح حتى إذا أُجيب عنه اتضح جلياً نزع اللبس الذي اقتضاه السؤال، "الناس في القطر الجزائري خاصة على أسوأ حال وجوه مقطبة، وأفكار مشردة يفر الابن من أبيه والشقيق من أخيه والخل من خليله، فما هو السبب في ذلك؟ هل بدلت الأرض غير الأرض؟ هل شحت السماء بالمطر؟ هل فقدنا العمل؟ كلا لم يقع شيء من ذلك وإنما عدم الاعتقاد في رجال الله رجع عنا وحرماننا من خبره بسبب الانتقاد الذي في القطر دعاء الإصلاح ويا للأسف، فرح قليل يعقبه حزن طويل وبكاء وعويل"¹⁷¹² وليس السؤال في هذه العملية إلا كونه مبنياً على القضية الإيديولوجية حيث تتمخض عنه جوابٌ ضمني يقتضي التسليم انطلاقاً من بناء السؤال من خلال استهلاله ثم تخيير الأسئلة، حتى إذا جاء الجواب، جاء على هيئة مكشوفة ونتيجة منتظرة.

كما يفيد السؤال من جهة، تبني قضية ما، غالباً ما تكون تربوية ينفذ من خلالها السارد إلى المسرود له عبر هذه المسالك التي تفيد إقامة الحجّة على الادعاء الذي يحمل هم السارد، مثال: "فهل سبب هذه العناية جبههم الشديد للأطفال؟ أم في الأمر سرّ اجتماعي كبير؟ فذلك ما سأحاول

¹⁷⁰⁹ - رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة، جريدة الشهاب، مصدر سابق، الجزء السادس المجلد العاشر .

¹⁷¹⁰ - المصدر نفسه.

¹⁷¹¹ - إسماعيل مامي، عن بلاد الصحراء، جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 549، الجمعة 4 شعبان 1346 الموافق ل 27 جانفي 1928.

¹⁷¹² - عثمان بن عبد المجيد بن إبراهيم، نظرة زاهرة، جريدة الرشد، العدد 21 السنة الأولى، يوم الخميس 10 رمضان سنة 1357هـ الموافق ل 06 / 11 / 1938..

تحليله بعدما أقدم للقاري نماذج مختلفة في حياة الطفل¹⁷¹³ وهذا ما يفسر أنه لا يقوم على عرض النتائج مباشرة وإنما يتم الخوض فيها من خلال التفصيل من أجل الوصول إلى النتيجة المقنعة.

ج- يقتضي في العملية التعليمية تضمين السرود بآليات إقناعية كتوظيف الأمثلة والشواهد وتضمين ذلك بنصوص مقتبسة من القرآن الكريم والشعر والمأثورات، تدعيماً لتوظيف الفكرة وإبراز الرأي، هذا في حالة الاستنجاد. أما الأساس في ذلك فيقوم على استعمال المنطق والقياس والحصص الدال على توجيه المعرفة من عليم نحو متعلم، يتخذ فيها التلقين كخاصية للبرهان على تمكّن السارد مما يدل على نيته التعليمية كقول أحدهم: "هذا وأن العلوم أربعة الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للآزمان، والنحو للسان، واعلم أن العلوم على ثلاثة أصناف صنف ينفع قليله وكثيره، وصنف ينفع قليله ويضر كثيره، وصنف يضر قليله وكثيره"¹⁷¹⁴

¹⁷¹³ - جريدة الشعلة، العدد 45، السنة 1، 28 محرم 1370 هـ الموافق لـ 9 نوفمبر 1950 م.

¹⁷¹⁴ - رحلة محمد السعيد بن علي الشريف.

الخاتمة

بعد هذا المخاض العسير في رحلة البحث التي تضمّنها موضوعنا، تبين من خلال ذلك أنها تحققت أهداف نجملها في الآتي:

- 1- إماطة اللثام عن كمّ هائل من النصوص الرحلية التي لم تُنثر من قبل، والتي طواها النسيان طيّا حتى نَسج العنكبوت عليها بيوتا، فنالت أخيرا حظّها من الظهور، وبإمكانها أن تحتلّ مكانة سامقة في عموم النثر العربي.
- 2- أثبتت الرحلة الجزائرية حضورها الفني بعد تقصّي عيّنات منها واختبارها في مختبر البحث الإجناسي، فتبيّن أنه نصّ أدبيّ يافع يتمتع بجميع المقوّمات الأدبية، ويطفح بمعايير الجمالية.
- 3- إماطة اللثام عن كثير من الأسماء التي أسهمت في كتابة الرحلات والمشاركات النثرية في الأدب الجزائري الحديث، والتي لم تُنشر إليها حتى معاجم الأعلام المتخصصة، من أمثال (إسماعيل مامي) الذي نحسبه رائدا لأدب الرحلة الجزائري في هذا العصر من حيث حجم المدونة التي أسهم بها ومن حيث أسلوبه المحكم الرشيق. إضافة إلى أسماء أخرى مثل: عمر بن جيكو، عبد الرشيد مصطفى، عبد الباقي الحسيني الجزائري، علي جاو، صالح غزال، قويدر بن مناد، عثمانى عبد المجيد، العلوي بن مراد، الحسن الوارزقي وغيرهم كثير.
- 4- مشاركة الرحلات الجزائرية في كل الاتجاهات، شملت الداخل كما شملت البلاد العربية والبلاد الغربية، كما تناولت شتى الدوافع من حجّية إلى سياحية إلى سياسية وعلمية وصوفية..
- 5- كشفت عن تباين في المستويات الثقافية بين أجيال هذه المرحلة بالنسبة للرحلة إلى أوروبا، حيث اتّسمت رحلات القرن التاسع عشر بالصدمة الحضارية جراء التباين بين المستويين المحلي والأوروبي، في حين استطاعت رحلات القرن العشرين من إحكام التوازن نسبيا.. كما كانت تمثّل رحلات القرن التاسع عشر جانب الممالأة بينما تجلّت الوطنية عند الطائفة التي خلّفها معترك القرن العشرين .
- 6- أثبتت الرحلة حضورها الإنساني من خلال التدويت الذي طال كثيرا من تفاصيل السفر، وتفاعل مع جملة المشاهد والأحداث وكشف عن حقيقة الإنسان الذي يتفاعل مع مستجدات الحياة، مميّزا ما بين الثقافة المحمولة والثقافة التي يواجهها، فكشفت عن حقائق أثبتناها في صلب البحث تراوحت بين السلبية والايجابية.

- 7- استطاع الرحالون من خلق مستويات من الثقافة، بصهره الرصيد الثقافي المرجع بمستوى ما تحقق في ميدان الواقع الذي تمثله بلدان الطرف الآخر، فعلى المستوى الأوروبي تمثل من خلال صورة المكان التي كشفت عن تجاذبات على مستوى العمارة وتنسيقها المحكم، ووسائلها المتطورة في صالح الفرد.. وعلى مستوى الإنسان الذي برهن على سلوك حضاري بأوروبا وسلوك ديني بالمشرق، فلم تظفر بإيجابي إلا نوهت به، ولا سلب إلا سجّلت عليه ملاحظات، في نسق يوحى بالتفاوض الذاتي مع كل مستجد، بعبارات مباشرة وأخرى مؤحية، يعبر عنها ضمير التألم والأسف، والأمل والرجاء، والتساؤل للبحث عن أسباب التدارك.
- 8- لم تغفل الرحلات الجزائرية عن ذكرها للعلماء داخل الوطن وخارجه، ومثل ذلك صنعت مع الحكام؛ من ملوك وأمراء ورؤساء ووزراء..
- 9- لقد تميزت الرحلة نحو المشرق بوثيقة هامة سجّلت من خلالها صور التضامن من طرف الدول العربية حكاما وشعبا مع القضية الجزائرية، وكشفت في الداخل عن صور الصراع الذي استفحل طيلة ربع قرن بين الطرفين والإصلاحيين، وظفر منها الوصف والتعليق على مظاهر المدينة بعمارها المدنية ومقدساتها، ومعالمها.. وصوّرت مستوى البؤس الذي كان يتجرّعه الجزائريون جراء الاستعمار.. كما صوّرت مظاهر الفساد الأخلاقي والانحراف العقدي وصورة المرأة الإيجابي والسلبي.
- 10- استطاعت الرحلة أن تشمل فهرسة لكثير من العلماء المغمورين، في تاريخ هذه المرحلة وجلّت مقامهم، وعرضت المسائل العلمية التي كانت تمثل قضايا الساعة بالنسبة إليهم.
- 11- على المستوى السردى استطاعت الكشف عن عدة تجليات على مستوى السارد والمستوى السردى، والمتلقي، وقد عرفنا كيف أن جنس الرحلة يختلف عن باقي الأجناس الأدبية حيث يلعب السارد دور المسرود له حتى يمكنه التزوّد بالمادة التي تصير بعد ذلك مغامرة يتبناها السارد، كما تبين لنا عدة مستويات للسارد ذاتيا وموضوعيا وفق وضعياته ووظائفه.
- 12- الكشف عن طبيعة السرد من خلال بنية الزمن التي لا تبقى على حالة واحدة أثناء القيام بسرد الحكاية، ويُعدّ الزمن مسائرا لطبيعة الحكاية، حيث يستثمر في أهمية الزمن على قدر أهمية السرد والاستغراق فيه.

13- يشكّل الوصف دينامية للسرد بإضفاء عليه هواجس ذاتية من حيث الأبعاد النفسية والجمالية التي تسهم في نقل المجرّدات إلى محسوسات مشكّلا محورا يدور عليه السرد ثم يمنحه القيمة المضافة لاستمرار الحكيم وتحاشي الوقوف في نقطة الصفر، متجرّدا من كل افتعال ما دامت مرثيات الرحلة نسبية تمنحها مسافة العبور (الذهاب والإياب)، إلا أن كل هذا يتم من خلال دوافع مختلفة تتّجه باتجاه نوازع أصحابها، وما فرضته عليهم ظروف المرحلة التي أسدت لهم أصنافا من الاغتراب.

14- تنوعت اهتمامات الرحالين بحسب توجهاتهم الأيديولوجية، وبات هذا العامل هو المسيطر في كل الخطاب، فلا يوجد نصّ بريء تماما خالٍ من شوائبها، فظروف المرحلة انعكست عليهم من حيث تشكيل أفكارهم، ورتابة عيشتهم، ورسم مستقبلهم، وتمثل ذلك سلبا وإيجابا، بالوعي والوعي المضاد.

15- تنوعت أساليب الكتابة، ما بين الأساليب التقليدية التي أفرغت طاقتها في قوالب تقليدية، بروح عصرية ملتزمة قوة العبارة، وسلامة اللفظ، وتوظيف الجاهز من التراكيب في الغالب، متناصّة مع الميراث الثقافي كالقرآن الكريم والأحاديث الشريفة ونصوص الأدب القديمة؛ شعرا ونشرا، في حين نلمس عند طائفة أخرى بعثاً للنشر من جديد من خلال استدراج المعاني للتعبير عن ذاتها، مسايرة لأنماط الكتابة الجديدة التي شكّلتها طائفة من الأشكال التعبيرية المستحدثة، كالمقال الأدبي والقصة، وقد ظهر هذا الفريق بعد الإعلان عن النهضة الأدبية ومحاولة التجريب في الأنواع الأدبية المختلفة.

16- تجرّدت الرحلة الجزائرية من تقاليد الشكل على النمط التقليدي، حيث سايرت وسيلة النشر التي تمثّلت في الصحف والجرائد فأنتجت قوالب جديدة أقرب إلى المقال مع انعدام الاعتماد على المراجع والمصادر التاريخية في الغالب، أو الرحلات السابقة، في حين اكتفت بالأسلوب المباشر الذي يفيد التقرير. فحلّت الآنية الزمانية كظاهرة تؤرخ للحظة الكتابة، وكشفها عن الهوية..

قائمة

المصادر والمراجع

المصحف الشريف برواية ورش.

المصحف الشريف برواية حفص

أولاً - الكتب

1. إبراهيم الخطيب، نظرية المنهج الشكلي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1982.
2. إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق، الجزائر، ط2، 2003.
3. إبراهيم مهديد، القطاع الوهراني، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، 2006.
4. أحمد بن أبي العباس المقرئ، رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، تح. محمد بن عمر، دار الإرشاد، سيدي بلعباس، الجزائر، 2004.
5. أحمد بن هطال، رحلة محمد الكبير، تحقيق محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1969.
6. أحمد بوحسن، نظرية الأدب - القراءة - الفهم - التأويل -، دار الأمان، الرباط، ط1، 2005.
7. أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009.
8. أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009.
9. أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج2، ط2، 1977.
10. أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج3، ط2، 1982.
11. أحمد محمد عطية، البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سورية، 1977.
12. أحمد مصطفى العليوي، الروضة السنوية في المآثر العلوية، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ط1، 1936.
13. إلبا الحاوي، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط2، دت.
14. آمنة بلعلی، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002.
15. أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1977.
16. بشير بويجوة محمد، الأنا / الآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، 2004.
17. بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007.
18. بول ريكور، من النص إلى الفعل، ترجمة محمد بزيادة وحسان بوقرية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، ط1، 2001.
19. تزييفطان تودوروف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990.
20. تزييفطان تودوروف، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، ترجمة عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006.

21. التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي في الثورة (1830-1962)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
22. جميل شاكر وسمير المرزوقي، مدخل الى نظرية القصة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.
23. جودي عبد المجيد بولطين، مذكرات مجاهد من بغداد إلى الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007.
24. جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1997.
25. جوناثان كالر، مدخل إلى النظرية الأدبية، ترجمة مصطفى بيومي عبد السلام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط 1، 2003.
26. جيار جنيت: جامع النص، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 1985م.
27. جيار جنيت، خطاب الحكاية - بحث في المنهج-، ترجمة محمد معتصم وآخران، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط 2، 1997.
28. الحاج لخضر (العقيد)، قبسات من ثورة نوفمبر 1954 كما عايشها، تحرير الطاهر حليس، دار الشهاب، الجزائر، د ت.
29. الحاج مسعود الجديدي (السي علي)، مذكرات شهيد لم يمّت، دار المعرفة، الجزائر، د ت.
30. حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط 1، 2001.
31. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1990.
32. حسن موسى الصفار، كيف نقرأ الآخر؟، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط 1، 2004.
33. حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط 2، 1983.
34. الحسين بن محمد الورثياني، نزهة الأنظار في علم التاريخ والآثار، نشر محمد ابن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2008.
35. حسين خوري، نظرية النص، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1، 2007.
36. حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، سلسلة علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 138، يونيو 1989.
37. حسين نصار، أدب الرحلة، مكتبة لبنان الحديثة، القاهرة، مصر، ط 1، 1991.
38. حميد الحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي بيروت، الدار البيضاء، ط 1، 1991.
39. حميد الحمداني، النص الروائي والإيديولوجي، المركز الثقافي العربي بيروت، الدار البيضاء، ط 1، 1990.
40. خالد شكراوي، السفر في العالم العربي الاسلامي، تنسيق عبد الرحيم المودن وعبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، ط 1، 2003.
41. رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1981.

42. أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح. محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1998.
43. روزنتال م. ويودين ي. الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير مكرم، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1974.
44. الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج5، 1985.
45. الزبير سيف الإسلام، فن الكتابة الصحفية عند العرب في القرن التاسع عشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1986.
46. زهير إحدادن، الصحافة المكتوبة في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012.
47. سعيد بنسعيد العلوي، أوروبا في مرآة المرحلة، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006.
48. سعيد بنكراد، النص السردي - نحو سيمياء للإيديولوجيا-، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، ص 8.
49. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي - الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1997.
50. سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ط 2006.
51. سعيد يقطين، قال الراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997.
52. سعيد يقطين، الكلام والخبر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007.
53. سعيد يقطين، النص والنص المترابط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005.
54. سليمان ابن صيام، ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، تحقيق وتقديم خالد زيادة، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الامارات العربية المتحدة، ط1، 2005.
55. سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009.
56. سيد أحمد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، دت.
57. سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية "دراسة لثلاثية نجيب محفوظ"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1984.
58. شجاع مسلم العاني، في أدبنا القصصي المعاصر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1989.
59. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي - التجنيس، آليات الكتابة، وخطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006.
60. شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 1974.
61. صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دت.
62. صالح فركوس، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2006.
63. صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، شركة الشهاب، باتنة، الجزائر، 1988.

64. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 1996.
65. طه عبد المقصود أبو عبيّة، الحضارة الإسلامية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
66. الطيب المهاجي، أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر، مطبعة الشركة الجزائرية للطبع والأوراق، وهران، الجزائر، 1973.
67. عادل مصطفي، دلالة الشكل - دراسة في الاستطيقا الشكلية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
68. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط3، 1983.
69. عبد الباقي الحسيني الجزائري معبر الفتوة، الشركة الوطنية للطباعة والأوراق، وهران، الجزائر، 1973.
70. عبد الحفيظ أمقران الحسيني، مذكرات من مسيرة النضال والجهاد، دار الأمة، الجزائر، 2010.
71. عبد الحق بلعابد، عتبات - جيران جنيت من النص إلى المناص -، منشورات الاختلاف، ط1، 2008.
72. عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998.
73. عبد الحميد بوزوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
74. عبد الرحمان الثعالبي، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، تحقيق محمد شايب شريف، دار بن حزم، بيروت، ط1، 2005.
75. عبد الرحمن دويب، ثلاث رحلات مغاربية ويليه مجموع رحلات جزائرية، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
76. عبد الرحمان عبد الرحيم عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني، منشورات المجلة التاريخية التونسية، تونس، ط1، 1982.
77. عبد الرحمن العقون، مذكراتي، دار دحلب، الجزائر، 2000.
78. عبد الرحمن كريمي، ومنهم من ينتظر - مذكرات النقيب سي مراد - تحرير ج. حنيفي، دار الأمة، 2010.
79. عبد الرحمن فارس، الحقيقة المرة مذكرات سياسية، دار القصب، الجزائر، 2007.
80. عبد الرحيم المودن، أدب الرحلة في المغرب، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006.
81. عبد الرحيم المودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1996.
82. عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر - مستويات السرد -، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006.
83. عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تح: أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.
84. عبد السلام بنعبد العالي، ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2008.

85. عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دار العربية للكتاب، ط2، تونس، 1982.
86. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006.
87. عبد الفتاح كيليطو، المقامات - السرد والأنساق الثقافية-، ترجمة عبد الكبير الشراوي، دار توبقال، 1993.
88. عبد القادر ابن محي الدين (الأمير) مذكرات-سيرة ذاتية-، تح: محمد الصغير بناني وآخرون، دار الأمة، الجزائر، ط4، 2004.
89. عبد القادر بوطبل، صراع مع الأقدار والليالي، دار الأمة، الجزائر، 2010.
90. عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010.
91. عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، دار أديب، وهران، الجزائر، 2006.
92. عبد القادر العافية، رحلة الحج ولقاء الشيوخ(التحجي نموذجاً)، دار ابن حزم، بيروت، 2006.
93. عبد القادر فيدوح، شعرية القص، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية، وهران، الجزائر، 1996.
94. عبد الكريم غلاب وآخرون، التواصل والثقافة، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2010.
95. عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي -نحو تصور سيميائي-، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
96. عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
97. عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير -من البنيوية إلى التشرحية-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط6، 2006.
98. عبد الله الركيبي، الشعر في زمن الحرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.
99. عبد الله الركيبي، تطور النشر الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص50.
100. عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات، دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات، دار دحلب، الجزائر، 2007.
101. عبد الملك مرتاض، الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، ط1، 1982.
102. عبد الملك مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي"، لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د. ت).
103. عبد الملك مرتاض، فنون النشر الأدب في الجزائر (1931-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
104. عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، 2007.

105. عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط2، 1983.
106. عبد النبي ذاكر، المغرب وأوروبا نظرات متقاطعة، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، أكادير، المغرب، ط 2، 2007.
107. عبد النبي ذاكر، العين الساخرة أقنعتهما وقناعتهما في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، المغرب، ط 1، 2000.
108. عبد الواحد الحميري، ما الخطاب وكيف نحلله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2009.
109. عثمان اعتدال، إضاءة النص، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
110. عثمان الميلود، الشعرية التوليدية، مداخل نظرية، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2000.
111. العسكري أبو هلال، الصناعتين، أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، 1388هـ.
112. عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، عن الشركة الوطنية للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر 1968.
113. عمار هلال، العلماء الجزائريين في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين (20/9) الميلاديين، د م ج، الجزائر، 1995.
114. أبو عمران الشيخ ومحمد جيحلي، الكشافة الإسلامية الجزائرية (1935-1955)، دار الأمة، الجزائر، 2008.
115. عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب - دراسة تداولية-، دار الحكمة، الجزائر، 2009.
116. عمر بن قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
117. عمر بن قينة، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1999.
118. عمر بن قينة، الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، دار الأمة، الجزائر، ط1، 1995.
119. عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث -تاريخا- وأنواعا- وقضايا.. وأعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
120. عمر عبد الواحد، السرد والشفاهية، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003.
121. عواطف عبد الرحمان، الصحافة العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
122. أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.
123. عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث -مكونات السرد-، دار هومة، الجزائر، 2014.
124. غاستون باشلارد، جماليات المكان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 6، 2006.

125. فرانسوا راستيي، فنون النص وعلومه، ترجمة ادريس الخطابي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2010.
126. فيليب لوجون، السيرة الذاتية - الميثاق والتاريخ الأدبي-، ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1 1994.
127. أبو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي، "مستفاد الرحلة والاعتزاب" تحقيق عبد الحفيظ منصور، ط1، دار الكتب العربية للكتاب، تونس، 1975.
128. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر ط 9، 2009، ج8، ص 9.
129. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الدار التونسية للنشر، تونس، ط3، 1985.
130. أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982.
131. أبو القاسم سعد الله، على خطى المسلمين، دار عالم المعرفة، الجزائر، ط 1، 2009.
132. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 3، 1982.
133. قحطان رشيد التميمي، إتجاهات المهجاء في القرن الثالث الهجري، دار المسيرة، بيروت، لبنان، دت.
134. ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيير، نشر وتصحيح محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1965.
135. ليلى قريش روزلين، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، د م ج، الجزائر، 2007.
136. مالك بن نبي، مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، الجزائر، ط 2، 1984.
137. مجموعة باحثين، نظرية السرد "من وجهة النظر الى التبئير"، ترجمة: ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، الدار البيضاء، ط1، 1989.
138. محمد الباردي، عندما تتكلم الذات - السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث-، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2005.
139. محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج 3، 1981.
140. محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج 4، 1985.
141. محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط، 1965.
142. محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياذ الشركة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1981.
143. محمد خير البقاعي، دراسات في النص والتناسية، دار المعارف، حمص، سوريا، ط1، 1998.
144. محمد خير الدين، مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1990.
145. محمد سويرتي، النقد البنيوي والنص الروائي، افريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1991.

146. محمد الصالح آيت علجت، صحف التصوف الجزائرية من 1920 إلى 1955، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
147. محمد صالح الجابري، رحلات جزائرية، دار الحكمة، الجزائر، 2007.
148. محمد الصالح رمضان، سوائح وارتسامات عابر سبيل، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2004.
149. محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969.
150. محمد عبد الغني حسن، المقرري صاحب نفح الطيب، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، دت.
151. محمد عبد المجيد ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984.
152. محمد العربي حرز الله، منطقة الزاب - مائة عام من المقاومة، دار السبيل، الجزائر، 2009.
153. محمد علي دبور، أعلام الإصلاح في الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013.
154. محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في الماضي والحاضر، دار بهاء الدين، قسنطينة، الجزائر، ط2، 2007.
155. محمد مهدي، ومضات من دروب الحياة، مؤسسة الشروق للاعلام والنشر، الجزائر، دت.
156. محمد المليي، ذكريات من زمن البراءة، دار القصبه، الجزائر، 2011.
157. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985.
158. محمود العشري، الاتجاهات النقدية والأدبية الحديثة، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003.
159. مختار بن الطاهر فيلاي، ينظر رحلة الورتلاني - عرض ودراسة -، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1998.
160. مراد عبد الرحمان مبروك، آليات المنهج الشكلي في نقد ارواية العربية المعاصرة، دار الوفاء، الاسكندرية، مصر، ط1، 2002.
161. مصطفى بن عمر، الطريق الشاق إلى الحرية، دار هومة، الجزائر، 2010.
162. مصطفى العشعاشي، كتاب السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية، تحقيق وتحرير: مصطفى بن يلس شاوش بن الحاج محمد، مطبعة سقال، تلمسان، الجزائر، دت.
163. مصطفى مرادة "ابن النوي" مذكرات الرائد إعداد وتحرير مسعود فلوسي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، سنة 2003.
164. المهدي الغوتي، رحلة المصير - مذكرات مجاهد، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، 2007.
165. ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، ط2، دار الفكر، القاهرة، 1987.
166. ناصر الدين سعيدون، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1999.

167. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء - القاهرة، ط1، 1995.
168. ناهضة ستار بنية السرد في القصص الصوفي المكونات، والوظائف، والتقنيات من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق - 2003
169. نخبة من الأساتذة، الأدب والأنواع الأدبية، ترجمة الطاهر حجار، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1985.
170. نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، 1987.
171. نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2008.
172. نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، ط2، 2010.
173. غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار النهضة، مصر للطباعة والنش والتوزيع، القاهرة، مصر، دت.
174. ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1986.
175. أبو يعقوب يوسف ابن إبراهيم، رحلة الوارجلان، تح. يحي بن بهون حاج محمد، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007.
176. يعنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1990.

ثانيا - مراجع أجنبية

177. Michel FOUCAULT, Les mots et les choses, Editions Gallimard, Paris, 1966,
178. Jean-Pierre BEAUMARCHAIS, Daniel COUTY et Alain REY, Dictionnaire des littératures de langue française, tome II, Paris : Bordas, 1994, pp. 966-970.
- 179.- Tzvetan.Todorov, Les catégories du récit littéraire, In.Communication, n°8, 1966,
180. Vincent (J).péotique du roman .ed. Armand Colin .Paris .2001.

ثالثا - الأطاريح والرسائل الجامعية

181. اسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي، أطروحة دكتوراه، إشراف أ.د. عبد الله العشي، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، الجزائر، 2005.

182. شعيب ابن أحمد بن محمد عبد الرحمان الغزالي، أساليب السخرية في البلاغة العربية، رسالة ماجستير، إشراف أ.د. عبد العظيم المطعني، قسم الدراسات العليا فرع الأدب، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1414هـ.
183. عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير، إشراف أ.د. محمد الصالح جمال بدوي، قسم الدراسات العليا العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1997.
184. عزوزي عبد الصمد، ينظر أدب الرحلة الجزائريين في الخمسية المحرية الثانية، رسالة ماجستير، إشراف د. محمد زمري، جامعة تلمسان، 2003.
185. عيسى بخيتي، جمالية المشهد في أدب الرحلة الجزائري الحديث، مذكرة ماجستير، إشراف أ.د. محمد مرتاض، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تلمسان، 2011.
186. فاطمة بوطبوسو، أدبية الخطاب في رحلة "نور الأندلس" للأمين الريحاني، مذكرة ماجستير، إشراف أ.د. عبد الله حمادي، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة منتوري قسنطينة، 2011.
187. مولود بغورة، أدبية الخطاب في المثل السائر، رسالة دكتوراه إشراف أ.د. عبد القادر هني، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2005/ 2006.
188. فائزة زيتوني، نصوص الكرامات في كتاب البستان لابن مريم - مقارنة سيميائية إشراف أ.د. مشري بن خليفة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة ورقلة، الجزائر، 2008.

رابعاً- الدوريات

189. الأديب (مجلة)، بغداد، العدد 109 سنة 2006.
190. آفاق (مجلة)، الرباط، المغرب، العدد 8-9، سنة 1988.
191. الراوي (مجلة)، النادي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، العدد 25، 25 شوال 1433 / الموافق ل سبتمبر 2012.
192. عالم الفكر (مجلة)، الكويت، مج 13، ع 4، يناير/ فبراير، مارس، 1983.
193. فصول (مجلة)، المجلد الخامس، العدد الأول، أكتوبر-نوفمبر-ديسمبر 1984.
194. مجلة التربية والعلم، نينوى، العراق - المجلد (19)، العدد (1)، 2012.
195. مجلة العلوم الانسانية، جامعة منتوري قسنطينة، العدد - 30 ديسمبر 2008.
196. المنعطف (مجلة)، وجدة العدد 6-7، 1993.
197. الموقف الأدبي (مجلة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق - العدد 387 تموز، 2003.

خامسا- المواقع الإلكترونية

198. موقع <http://alrihlah.com/nadawat/research/278>
199. موقع http://www.aljabriabed.net/n87_05hatimi.htm
200. موقع <http://mouadden.maktoobblog.com>
201. موقع <http://www.minculture.gov>

سادسا- الجرائد والصحف

- 1- الأمة (1933-1938)، جريدة أسبوعية، الجزائر.
الأعداد: 10، 41، 42، 43، 44، 45، 73، 74، 75.
- 2- البرق (1927)؛ صحيفة أسبوعية، إجتماعية، أدبية، انتقادية، سياسية، اقتصادية، فكاهية، قسنطينة.
العدد: 8، الاثنين 23 شوال 1345 هـ الموافق ل 25 أبريل 1927.
العدد: 9، الاثنين 30 شوال 1345 هـ الموافق ل 02 ماي 1927.
- 3- البصائر السلسلة الأولى (1935-1939) - السلسلة الثانية (1947-1956)، الجزائر؛ جريدة أسبوعية؛ لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مجموع الأعداد في 12 جزء، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
- 4- البلاغ الجزائري (1926-1943)؛ صحيفة أسبوعية، علمية، إرشادية، دفاعية، لسان حال الطريقة العليوية، مستغانم ثم الجزائر.
الأعداد: 69، 72، 73، 88، 101، 102، 155، 157، 162، 163، 164، 165، 166، 169، 180، 182، 211، 253، 254، 277، 287، 297، 350، 351، 724، 725، 727، 728، 730، 731، 732، 2107، 2108، 2062.
- 5- الشعلة؛ (1949-1951)، جريدة أسبوعية، قسنطينة،
الأعداد: 40؛ 41؛ 43؛ 44؛ 45؛ 46؛ 47؛ 48؛ 50؛ 53؛ 54.
- 6- الشهاب (1925-1939)، قسنطينة؛ مجلة شهرية؛ سياسية، تهذيبية، انتقادية، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مجموع الأعداد في 16 جزء، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
- 7- الرشاد؛ جريدة أسبوعية، دينية، إرشادية، دفاعية، إخبارية، (1938-1939)، لسان حال جامعة اتحاد الزوايا والطرق الصوفية، الجزائر.
الأعداد: 5، 16، 20، 21، 37، 39، 47.

- 8- الصديق؛ جريدة أسبوعية؛ علمية، أدبية، سياسية، إقتصادية، (1920 - 1922)، الجزائر. العدد 38 يوم الإثنين 13 ذي القعدة 1339 الموافق ل 18 جويلية 1931.
- 9- الصراط السوي (1933 - 1934)، قسنطينة؛ صحيفة أسبوعية، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مجموع الأعداد في مجلد واحد، نشر دار الغرب الإسلامي، لبنان بيروت، ط1، 2001.
- 10- الفاروق (1913 - 1915)؛ جريدة أسبوعية إسلامية، علمية، إجتماعية، أدبية، الجزائر الأعداد: 22، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 40، 41.
- 11- لسان الدين السلسلة الأولى (1923)؛ جريدة أسبوعية، دينية، سياسية، إخبارية، الجزائر. أعداد السنة الأولى: 15، 18، 19، 20، 22، 30.
- 12- لسان الدين السلسلة الثانية (1937)؛ جريدة أسبوعية، دينية، سياسية، إخبارية، الجزائر. أعداد السنة الثانية: 12، 47، 49، 50، 51، 52، 57، 58، 59.
- 13- المنار (1952 - 1954)؛ جريدة سياسية، ثقافية، دينية، حرة، مجموع الأعداد في مجلد واحد، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- 14- المجاهد (1956 - 1962)؛ جريدة سياسية أسبوعية، اللسان المركزي لجهة التحرير الوطني الجزائري، مجموع الأعداد في 4 أجزاء، نشر
- 15- المرشد (1946 - 1956)؛ مجلة شهرية، إسلامية، دينية دفاعية، إخبارية، لسان حال الطريقة العليوية، مستغانم.
- العدد 54 - السنة الخامسة - ربيع الأول 1371 هـ 30 نوفمبر 1951م
- 16- المنتقد (1925)، قسنطينة؛ صحيفة أسبوعية، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مجموع الأعداد في مجلد واحد، نشر دار الغرب الإسلامي، لبنان بيروت، ط1،
- 17- النجاح (1919 - 1956) قسنطينة؛ جريدة إخبارية حرة أسبوعية ثم يومية. الأعداد: 130، 127، 132، 133، 135، 137، 138، 139، 140، 143، 145، 146، 147، 148، 149، 150، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 168، 169، 170، 171، 172، 177، 178، 179، 180، 181، 182، 182، 183، 185، 186، 188، ،،،، 319، 320، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 330، 350، 366، 367، 403، 404، 417، 436، 437، 438، 439، 442، 443، 444، 454، 469، 471، 472، 473، 474، 477، 479، 480، 481، 482، 483، 484، 533، 537، 539، 540، 541، 542، 543، 544، 545، 546، 547، 548، 549، 545، 571، 574، 581، 582، 583، 585، 587، 581، 588، 592، 621، 661، 663، 664، 725، 727، 728، 730، 731، 732، 768،

،1243 ،1173 ،1171 ،1166 ،1165 ،1159 ،1152 ،932 ،774 ،772 ،770
،1294 ،1293 ،1292 ،1291 ،1290 ،1287 ،1284 ،1281 ،1280 ،1275
،1368 ،1367 ،1366 ،1365 ،1364 ،1358 ،1351 ،1348 ،1300،1301
،1958 ،1952 ،19447 ،1946 ،1945 ،1556 ،1555 ،1553 ،1370 ،1369
،2281 ،2270 ،2268 ،2262 ،2086 ،2085 ،2084 ،2083 ،2082 ،2081
،3743 ،3454 ،3451 ،3450 ،3448 ،3447 ،3446 ،3445 ،3444 ،2283
،3869 ،3868 ،3867 ،3866 ،3864 ،3860 ،3854 ،3853 ،3745 ،3744
،3908 ،3904 ،3899 ،3895 ،3894 ،3892 ،3880

18- وادي ميزاب (1926-1929)، جريدة أسبوعية، وطنية إسلامية، الجزائر.
العدد 95، السنة الثانية، الجمعة 23 صفر 1347 هـ الموافق لـ 10 أوت 1928م.

الفهرس الموضوعات

فهرس

مقدمة

- 1 تمهيد: أدب الرحلة الجزائري القديم - النشأة والتطور -
- 31 الباب الأول: إشكالية النص في الرحلة الجزائرية الحديثة
- 32 الفصل الأول: الرحلة من منظور علم النص وقضايا السرد
- 33 1 . الرحلة من منظور علم النص
- 33 1.1 . مفهوم النص
- 36 2.1 . مفهوم الخطاب
- 39 3.1 . النص الأدبي
- 42 4.1 . الخطاب الأدبي
- 43 5.1 . الرحلة بين النص والخطاب
- 46 6.1 . الرحلة: حدود النص والخطاب
- 46 1.6.1 . الرحلة باعتبارها حكاية
- 48 2.6.1 . الرحلة باعتبارها خطابا
- 51 2.6.1 . الرحلة باعتبارها نصا
- 54 2 . الرحلة وحدود الأدبية / التحنيس
- 54 1.2 . بدايات تمييز أدب الرحلة من الرحلة الجغرافية
- 56 2.2 . أدبية الرحلة من منظور بلاغي
- 57 3.2 . أدبية الرحلة من البلاغية إلى الإبلاغية
- 58 1.3.2 . الرحلة وإشكالية التحنيس
- 67 2.3.1 . الهيمنة وخصوصية أدبية الرحلة
- 68 أ . هيمنة بنية السفر
- 69 ب . هيمنة السرد الذاتي
- 73 الفصل الثاني: إشكالية المدونة ومطاز تمرکز النص
- 74 1 . مطاز الرحلة وإشكالية تمرکز النص
- 74 1.1 . الرحلة - النص التقليدي (النمطي)
- 74 1.1.1 . الرحلة/ النص المستقل
- 75 2.1.1 . الرحلة/ النص المضمّن
- 76 2.1 . الرحلة من خلال المذكرات (الرحلة في كتب المذكرات)
- 77 1.2.1 . مستوى المفكرين والأدباء
- 85 2.2.1 . مستوى السياسيين والمجاهدين (المشاركين في أحداث الثورة التحريرية).
- 89 3.1 . النص الرحلي من خلال كتب السيرة الذاتية والتراجم
- 90 1.3.1 . من خلال كتب السيرة الذاتية

- 94 1. 3. 2. في كتب التراجم (السيرة الغيرية)
- 99 1. 4. النص الرحلي من خلال الجرائد والصحف
- 100 1. 4. 1. الرحلة مقال أدبي
- 101 1. 4. 2. تمرُّكز النص الرحلي الجزائري الحديث في وسائل الصحافة المكتوبة
- 102 1. 4. 2. 1. الرحلات المنظمة
- 102 أ. فريق الرحالة المبعوثين (الجولة الصحافية)
- 107 ب. فريق الرحلات التفتقدية
- 107 ج. فريق الرحلات المتعلقة بالنشاطات والحركات الجموعية
- 110 1. 4. 2. 2. الرحلات المنفردة
- 110 أ. فريق الرحلات السياحية
- 113 ب. فريق الرحلات الذاتية ذات الأغراض الشخصية
- 116 ج. فريق رحلات الحج
- 117 **الفصل الثالث: الرحلة الجزائرية الحديثة وإشكالية الأدبية**
- 118 1. إشكالية الشرعية الأدبية في النص الرحلي الجزائري الحديث
- 119 1. 1. البنية الشكلية
- 120 1. 1. 1. السمات الشكلية للنص الرحلي الجزائري الحديث
- 120 1. 1. 1. 1. عتبات النص الرحلي
- 121 أ. العنوان
- 123 أ.أ. العنوان التعييني (الموضوعي)/ المؤشر الجنسي
- 134 أ.أ.أ. "رحلة".
- 125 أ.أ.ب. "سفر"
- 125 أ.أ.ج. "سياحة"
- 125 أ.أ.د. "جولة"
- 125 أ.أ.هـ. زيارة
- 125 أ. ب. العنوان -المقتضى للحال-
- 126 أ. ب. أ. الرؤية والمشاهدة.
- 126 أ. ب. ب. العودة
- 126 أ. ب. ج. كنت
- 126 أ. ج. العنوان المحتمل
- 127 أ. ج. أ. المحتمل بالإشارة الزمنية
- 127 أ. ج. ب. المحتمل بالإشارة المكانية
- 127 أ. ج. ج. المحتمل بالإشارة اللازمة
- 128 أ. د. العنوان الوظيفي
- 128 أ. د.أ. الوظيفة الرسمية
- 129 أ. د.ب. العنوان الإخباري

- 129 أ - هـ. العنوان الإغرائي (الجمالي)
- 129 ب. الاستهلال (الخطاب الافتتاحي)
- 131 ب. أ. الاستهلال التقليدي
- 132 ب. ب. الاستهلال التقريبي
- 134 ب. ج. الاستهلال الترسلّي
- 135 ب. د. الاستهلال التنويهي
- 136 ب. هـ. الاستهلال الوظيفي (التكليفي)
- 137 ب. و. الاستهلال التعيني (الحديث عن الأمكنة/ المدن)
- 138 ب. ي. الاستهلال الانطباعي
- 139 2. 1. البناء السردّي للرحلة الجزائرية الحديثة
- 139 1. 2. 1. البنية الخارجية
- 139 1. 2. 1. البنية النمطية
- 140 أ. رحلة الذهاب
- 141 ب. رحلة العودة
- 142 1. 2. 1. 2. البنى المكسّرة للنمط (المخورية / الموضوعية)
- 143 أ. التيار الصحافي
- 144 ب. تيار المذكرات والسير
- 144 1. 2. 2. البنية الداخلية /المكونات السردية
- 146 2. أنماط الكتابة ومستويات الرحلة والرحالة
- 147 1. 2. الرحالون الأدباء
- 153 2. 2. الرحالون الصحفيون
- 157 الرحلة بأقلام الصحفيين
- 162 2. 3. الرحالون المؤرخون
- 165 2. 4. الرحالون السياسيون
- 167 2. 5. الرحالون العلماء ورجال الدين
- 168 2. 5. 1. صنف العلماء رجال دين غير متحيزين
- 170 2. 5. 2. صنف الإصلاحيين
- 172 2. 5. 3. صنف الطرقيين
- 176 الباب الثاني : الرحلة الجزائرية الحديثة وتمثلات الأنا والآخر
- 177 الفصل الأول: صورة الآخر والاختلاف الثقافي
- 178 1. صورة الآخر/ الإنبهار لحظة فقدان التوازن
- 179 1. 1. الإقرار بالتفاوت/ الصدمة وخيبة المرجع
- 181 1. 1. 1. الإقرار الصريح/ العجز المعرفي لحظة اختلال.
- 185 1. 1. 2. الإقرار الضمني/ عجز المعجم وحدود المرجعية
- 189 2. 1. 3. عقدة الانهزام / سلبية الأنا لحظة الإرتباك

- 190 أ . الانجذاب نحو فرنسا
- 191 ب . نشوة اللقاء بأصحاب المعالي والإطراء اللفظي
- 192 ت . اللاوعي والتعبير غير المتكافئ
- 193 ث . توجيه الخطاب إلى حكام فرنسا
- 194 ج . مظاهر الدعاية
- 196 2. الوعي والثقاف - من الصدمة إلى التوازن
- 196 1. 2. 1. الثقاف وعامل المقارنة (من الاكتشاف إلى النقد الذاتي)
- 201 3. صورة الآخر/ لحظة الاتزان وموضوعية الصورة
- 203 1. 3. أشكال الصورة
- 203 1.1. 3. صورة النظام
- 203 1.1.1. 3. صورة النظام الاشتراكي/تعبير عن الكشف الذاتي مواقف متباينة
- 207 العمل/ تجليات النظام الاشتراكي
- 209 الصرامة/ نمط حياة الاشتراكيين
- 210 2.1.1. 3. الغرب الرأسمالي/ الموقف والموقف المضاد.
- 211 1. 2. 1.1. 3. صورة فرنسا/ الموقف الجزائري
- 214 2. 2. 1.1. 3. صورة فرنسا/ الجزائري والموقف المضاد
- 216 2. 1. 3. صورة المكان
- 216 1. 2. 1. 3. المكان الطبيعي
- 218 2. 2. 1. 3. المكان العمراني
- 219 1. 2. 2. 1. 3. مدينة العمران/ صورة المدينة
- 222 2. 2. 2. 1. 3. صورة المعالم والآثار
- 222 أ . القصور
- 225 ب . الكنائس/ دور العبادة
- 227 ت . المتاحف
- 230 3. 1. 3. صورة الإنسان
- 230 1. 3. 1. 3. صورة الإنسان في إنسانيته.
- 234 2. 3. 1. 3. صورة الغربي (الأوروبي) في اعتقاداته
- 236 الفصل الثاني: صورة الآخر الجواني مرآة الأنا**
- 237 1. الذات الراحلة بين اكتساب المعرفة وفعل المثاقفة
- 238 1. 1. فعل الرحلة وعناصر الثقاف
- 240 2. الرحلة إلى البلاد العربية وحدود الأنا والآخر
- 243 1. 2. 1. الذات في الرحلة إلى البلاد العربية وحدود التماهي بين الآخر الوهمي والأنا الضمني
- 246 3. صورة المجتمع العربي/الاسلامي تقاطع في المركز واختلاف في اثنوغرافيا الواقع
- 246 3.1. مظاهر التدين في المجتمع العربي واستجابة الذات بين الانجذاب والطموح
- 252 2. 3. صورة الإنسان بين المظاهر الإيجابية والسلبية

- 252 3. 2. 1. المظاهر الإيجابية
- 254 3. 2. 2. المظاهر السلبية بين الرفض الأخلاقي والإقرار بالمطابقة
- 258 4. صورة المكان بين الاستأناس والتطلع
- 258 4. 1. معالم مقدسة
- 259 4. 2. الصروح العلمية/ بين التأثير (الاستجابة) والنقد
- 262 4. 3. صورة المدينة؛ الجمالية والافتخار
- 267 5. الموروث وفعل الثقافة
- 267 5. 1. التخلف والوعي السلبي اتجاه الموروث
- 268 5. 2. الثقافة الصوفي
- 272 6. صورة الحاكم؛ فضاء السياسة والاحتواء
- 273 6. 1. صورة الحاكم العربي بين المدح والذم
- 273 6. 1. 1. الصورة الإيجابية
- 279 6. 1. 2. الصور السلبية
- 279 6. 1. 2. 1. إسراف الملوك
- 281 6. 2. 2. الصراعات السياسية والصور المساوية
- 283 6. 2. 3. التناقض في السياسة اللبنانية
- 285 الفصل الثالث: الرحلة نحو الأنا/ بنية المجتمع وصور الصراع**
- 286 صورة المكان/ الجغرافيا وال عمران
- 287 1.1. جغرافية المكان وفضاء المدينة
- 287 1.1.1. الطابع الجغرافي
- 290 1.1.2. صورة المدينة والطابع الحضاري
- 294 1.1.3. بنية المدينة وطابعها
- 296 2.1. المكان المقدس وتجلياته
- 296 2.1.1. المساجد
- 298 2.2.1. الزوايا
- 301 2. صورة المجتمع
- 301 2. 1. المظاهر العامة للمجتمع
- 301 1.1.2. صورة البؤس والاضطهاد
- 305 1.2. 2. صورة الجهل والأخلاق الفاسدة
- 306 1.2. 1.1. ظاهرة سب الدين
- 307 1.2. 1.1. الخمر والقمار
- 308 1.2. 1.3. الدعارة والانحلال
- 309 1.2. 1.4. صورة المرأة الجزائرية/ البؤس والاستغلال
- 312 2.1. صورة المجتمع الثقافية ومستويات الشخصية.
- 314 1. 2. 1. النخب وتمفصلات الواقع الثقافي والحضاري

- 314 1 . 2 . 1 . 1 . الشخصيات العلمية والدينية
- 314 أ . العلماء
- 317 ب . الفقيه/ المفتي
- 320 ت . المتصوفة
- 323 1 . 2 . 2 . الأعيان والرتب الاجتماعية
- 324 1 . 2 . 2 . 1 . الأسماء
- 327 1 . 2 . 2 . 2 . 1 . المراتب
- 327 أ - الشخصيات السياسية (المتوظف الأهلي)
- 330 ب . الشخصيات القضائية
- 333 3 . الصراع والصورة الايديولوجية
- 333 3 . 1 . صورة الطرقي
- 333 3 . 1 . 1 . صورة الطرقي بتعليقه/ الكشف عن الهوية
- 336 3 . 1 . 2 . صورة الطرقي بمنظار غيره (بتعليق خصومه)
- 336 3 . 1 . 2 . 1 . الشرك والانحراف الاعتقادي
- 337 3 . 1 . 2 . 1 . الابتداع في الشريعة
- 338 3 . 1 . 2 . 3 . الانحراف الأخلاقي
- 340 3 . 2 . صورة الإصلاح
- 340 3 . 2 . 1 . صورة الإصلاح بمنظاره
- 343 3 . 1 . 2 . صورة الإصلاح بمنظار خصومه
- 348** الباب الثالث : الخطاب الرحلي المحكي وآليات إنتاج النص
- 349** الفصل الأول: الرحالة: الصوت والوضعية السردية
- 350 1 . جدل السارد والمسرود له
- 351 1 . 1 . 1 . 1 . الوضعيات السردية للرحالة
- 352 1 . 1 . 1 . 1 . الرحالة في وضعية مسرود له
- 353 1 . 1 . 1 . 1 . أشكال استقبال السرد
- 353 أ . الراوي المباشر .
- 354 ب . الالتقاط/ المرئيات
- 357 ت . الالتقاط/ السمع
- 358 ث . الاطلاع
- 359 ج . الحوار
- 360 ح . السؤال
- 361 خ . الاسترشاد
- 362 1 . 1 . 1 . 1 . الرحالة في وضعية السارد
- 363 1 . 1 . 1 . 1 . السارد الذاتي
- 364 أ . المتماثل (المتجانس) حكائياً

- 365 أ.أ. ساردا مشاركا / السارد الابتدائي
- 367 أ . ب. السارد الثانوي
- 368 ب . المتباين حكائياً
- 370 1. 1. 1. 2. السارد الموضوعي
- 370 أ . متباين حكائياً
- 372 ب . متمائل (متجانس) حكائياً
- 374 2 . وظائف السارد
- 374 1 . 2 . الوظيفة السردية
- 374 2 . 2 . الوظيفة التنسيقية
- 379 2 . 3 . الوظيفة التواصلية
- 384 2 . 4 . الوظيفة الإيديولوجية والتعليقية
- 388 2 . 5 . الوظيفة الإستشهادية
- 392 الفصل الثاني: الرحلة؛ التثبير ودينامية السرد**
- 393 1 . نظام السرد
- 393 1 . 1 . السرد
- 394 1 . 1 . 1 . طبيعة السرد
- 398 1 . 1 . 2 . البنية الزمنية
- 399 1 . 1 . 2 . 1 . الترتيب الزمني/ التشكيل الميقاتي للزمن في الرحلة
- 399 1 . 1 . 2 . 1 . 1 . الزمن الطبيعي/ التزامن
- 400 أ . زمن ابتداء
- 401 ب . الزمن التقريبي/ الاخباري
- 403 1 . 1 . 2 . 1 . التشكيل الميقاتي للزمن المتشظي في الرحلة
- 403 أ.أ. الاسترجاع
- 407 أ.ب. الاستباق
- 411 1 . 1 . 2 . 1 . 3 . تشكيل الحركة الزمنية/ الديمومة "la durèe" في الرحلة
- 412 أ . التسريع
- 412 أ.أ. الخلاصة (المجمل)/ والحذف (الفن)
- 415 ب . التبطوء
- 415 ب . أ . الوقفة/ الاستراحة
- 417 ب . ب . المشهد
- 421 2 . المكان وبنية الوصف
- 422 1 . 2 . الوصف الإخبار عن المكان
- 422 1 . 1 . 2 . موضوعات الوصف
- 422 1 . 1 . 1 . 2 . وصف الأمكنة

- 427 .2 .1 .1 .2 وصف الشخصيات
- 433 .2 .1 .1 .3 وصف الوسائل
- 434 .2 .1 .1 .4 الوصف الاثنوغرافي
- 438 .2 .1 .1 .5 وصف حال
- 440 .2 .2 .2 .2 منظار الوصف وأبعاد الرؤية
- 441 .2 .2 .1 .1 البعد الإيديولوجي
- 443 .2 .2 .2 .2 البعد النفسي / الاغتراب
- 445 .2 .2 .3 .2 البعد الجمالي
- 446 .2 .2 .4 .2 المقايسة والوصف المقارن
- 458 .2 .2 .5 .2 البعد الغرائبي
- 449 .2 .2 .6 .2 البعد التاريخي
- 451 .2 .2 .7 .2 البعد الروحي
- 452 .2 .2 .8 .2 البعد النقدي
- 454 الفصل الثالث: المتلقي؛ النسق الإطار والنموذج**
- 455 .1 . الرحلة الجزائرية الحديثة والسياق الثقافي / الراهن والانتماء
- 459 .1 .1 .1 .1 الأدب الشفوي: (الشعبي)
- 460 .1 .1 .1 .1 الشعر
- 461 .1 .1 .2 .1 الحكاية الشعبية
- 462 .1 .2 .1 .1 الأدب الرسمي (الفصيح)
- 462 .1 .2 .1 .1 الشعر
- 463 .1 .2 .2 .1 النشر
- 465 .2 . الرحلة الجزائرية والتلقي / مستويات المتلقي
- 466 .1 .2 .1 .1 المتلقي المتزامن
- 468 .2 .1 .2 .1 .2 النسق الواقعي وعلامات القارئ
- 468 .2 .1 .2 .1 .2 علامات مباشرة
- 470 .2 .1 .2 .2 .2 علامات غير مباشرة
- 471 .2 .2 .2 .2 المتلقي الضمني وأشكال المتلقين
- 471 .2 .2 .1 .2 المتلقي الجمالي
- 472 .2 .2 .1 .1 .2 الصورة الفنية وأسس الاستجابة
- 477 .2 .2 .2 .1 .2 النزعة القصصية وعامل التشويق
- 480 .2 .2 .3 .1 .2 السخرية والطرفة وأسلوبية الابتكار
- 486 .2 .2 .4 .1 .2 شعرية اللغة ولغة الشعر
- 488 .2 .2 .2 .2 .2 متلقي نفعي / إيديولوجي
- 489 .أ . الدعاية وموقف المتلقي
- 492 .ب . الخطاب السياسي ووضع المتلقي

492	ب . أ. مناهضة الاستعمار الفرنسي
494	ب . ب. الاستعمار والموقف الإيديولوجي
496	ت - الخطاب الحضاري ووضع المتلقي
498	ث - الصراع الداخلي ووضع المتلقي
498	ث . أ. الموقف الإصلاحية
500	ث . ب. الموقف الطرقي
501	ج - العجائبي الصوفي وإشكالية التلقي
503	2 . 3 . متلقي تعليمي
508	2 . 3 . 1. أسس التلقي التعليمي
512	الخاتمة
516	قائمة المصادر والمراجع
529	الفهرس

الخلاصة

عربي، فرنسي، أنجليزي

الخلاصة

أدب الرحلة ميدان خصب للبحث الأكاديمي، وجنس أدبي مستقل بذاته في الآداب العالمية، وفي الأدب العربي على وجه الخصوص، وذلك على الرغم من اتساع مجاله ليسمح بحضور أجناس أدبية كثيرة بين حدوده، مثل الرواية والمقال والسيرة الذاتية، وحتى الشعر.

وقد عرفت الساحة الأدبية الجزائرية إبان الفترة الاستعمارية هذا الفن الكتابي، حيث حاز خلالها على مساحة هامة أسست لها النصوص الرحلية التي حفلت بها صفحات الجرائد آنذاك.

وتسعى أطروحة الدكتوراه هذه والموسومة بـ "أدب الرحلة الجزائري الحديث. سياق النص وخطاب الأنساق" إلى محاولة دراسة مجموعة كبيرة من النصوص التي تندرج تحت هذا الفن في الجزائر، قصد إبراز أديبته والتأكيد على استحقاقه لمكانته بين الأجناس النثرية الأخرى. وفي ذلك الإطار تقوم بنفض الغبار عما طواه النسيان من آثار الرحالة الجزائريين في العصر الحديث. وتأمل من خلال هذا العمل البحثي والنقدي والتوثيقي، أن تكشف أمام القارئ حقائق ومعارف تتنوع لتتصل بالأدب والدين، والسياسة والتاريخ، والجغرافيا والسياحة، وغير ذلك من المعارف الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: رحلة، أدب، أدبية، أنساق، سياق، صورة، سرد، خطاب، نص.

Résumé :

Le récit de voyage est un domaine fertile pour la recherche académique. Il représente un genre littéraire qui bénéficie de sa propre autonomie dans la littérature universelle, et précisément dans la littérature arabe. Tout en étant ouvert à la présence d'autres genres comme le roman, l'article, l'autobiographie, et même la poésie.

Cet art d'écriture est bien connu au sein de la littérature algérienne de l'ère coloniale, par le biais d'un ensemble de textes comportant des récits de voyages, qui ont été publiés dans les journaux de l'époque.

Dans ce grand domaine s'inscrit cette thèse de doctorat intitulée (Le récit algérien contemporain de voyage. court du texte et discours des systèmes), qui se veut une étude de textes représentant ce genre littéraire pour démontrer sa littérarité, et contribuer à faire sortir des obscurités de l'oubli des œuvres inédites de voyageurs algériens contemporains. Et espérer grâce à ce travail de recherche, d'étude critique, et de documentation, arriver à dévoiler devant le lecteur des vérités et des connaissances diversifiées, qui s'attachent à la littérature, la religion, la politique, l'histoire, la géographie et le tourisme, et bien d'autres de connaissances humaines.

Les mots clés : voyage, littéraire, systèmes, court, image, narration, texte, discours.

Abstract :

Travel literature is a good area for academic research. It is a literary genre that has its own autonomy in world literature, and specifically in Arabic literature. While being open to the presence of other genres like novel, article, autobiography, and even poetry.

This art of writing is well known in Algerian literature of the colonial era, through a set of texts containing travel stories published in the newspapers of the time.

In this large area, takes place our doctoral thesis entitled (The contemporary Algerian travel literature. Text court and discourse of systems.), which aims to be a study of texts representing the genre and underlining its literariness, and helps to get out of the darkness of oblivion unpublished works of contemporary Algerian travelers. And hopes, thanks to research, critical analysis, and documentation, to unveil to the reader the truths and diverse knowledge, which are attached to literature, religion, politics, history, geography and tourism, and many other human knowledge.

Keywords : Travel, litterure, systèmes, court, image, narration, text, discourse.

ملخص الرسالة

أدب الرحلة في تاريخ الجزائر الحديث مجال يغري بالبحث لمن تستوقفته نصوصه. بينما ثمة أن هناك إشكال يُحَوّل بين القارئ وبين هذه النصوص التي تحجبها غيوم مختلفة في النوع والشكل، وهو ما جعل من هذا النص معدوم الحضور في ذهن المثقف الجزائري بله العري وغير العري. فحتى وإن كانت عوامل إنتاج هذه النصوص قد عرف ظروفًا نمطية وفق سيرورة معينة، وأفحمتها عبر سبل ومسالك غير لائقة به، فإن الفئة المثقفة من نقاد ودارسين كان لابد عليهم أن يجدوا صيغ للظفر بهذه النصوص وإخراجها إلى سطح الوجود حتى يتمكن منها القارئ بمختلف مستوياته.

ومن أجل ذلك تتبنى هذه الدراسة المبادرة إلى إيجاد حلول لمعضلات إشكالية حول النص الرحلي الجزائري فيما يتعلق بإشكالية النص في حد ذاته تحديداً إجناسياً، والوقوف على كمّ التراث الذي خلفه الأسلاف في هذا المجال. كما تتسرّب في مسالك طقوسها الخطائية بما أن الرحلة تتنازعها مجالات علمية مختلفة، ويسقط عنها الثوابت المعيارية الملزمة، والتي لم تتقيّد ولم تخضع للمرادة النمطية التي التزمت أشكال أخرى من فنون التعبير الشعرية، كالرواية والقصة والمقال وغيرها من الأشكال.

لقد نالت الرحلة الجزائرية حظاً وافراً من الإنجاز في مقابل غفلة المؤسسة النقدية عن تناول هذه المدونة التي تعدّ في حد ذاتها إشكالا عويصا على مستوى التجسيد، وهي القضايا التي جعلتنا نتساءل؛ ما مصير المدونة الرحلية ضمن المكوّن العام للمدونة الأدبية، وكيف تشكّل النص الرحلي الجزائري في ظل هذا الوباء؟ كيف تحقّق هذا النص في ظلّ انعدام المساحة الإبداعية التي استعارت الصحف والجرائد كموقع للإبداع؟ هل حققت الرحلة من التّراكم النصّي ما يسمح باتخاذها مادة للنقد؟ كيف سايرت الرحلة ظروفَ المرحلة ومعطياتها في ظل سياسة الاستعمار والوعي الثقافي المتذبذب وتجاذبات الصراع المحلي، وكيف تجاوبت مع الاختلاف الثقافي والحضاري الذي ميّز الضفاف المختلفة بالضفة الجزائرية؟ وبماذا تميّز المستوى الفني من خلال التشكيل السرد في مقابل النسق الثقافي السائد؟

وانطلاقاً من وزن هذه الأسئلة فإن أهمية الموضوع تتمثل فيما للرحلات من قيمة على المستويين الفني والتوثيقي، حيث تعتمد على الواقع لتشكيل أهم مظاهره وخبائاه المضمونية، بالاستعانة على اللغة؛ الوسيلة التواصلية التي يمكنها أن تحمل النسق الجمالي في محيطه المعاصر حتى يضمن لنا استكشاف المستوى الحقيقي للنثر كقيمة سردية مستوحاة من كينونته. وقد استطاع بحثنا أن يميّز اللثام عن المدونة التي كشفت عن كم كبير منها، بالإضافة إلى جسّ نبض هذه المدونة وتفكيك محتوياتها التي تضمّنت قيماً تاريخية توثق للحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والأدبية والفنية عموماً.

ومن أجل الإحاطة بمجالات البحث أقمنا له خطة قد تتناسب مع موضوعه تمثّلت في تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة، واشتمل كل باب على ثلاثة فصول، نعرض لها في الآتي:

التمهيد ويقوم على عرض موجز عن تاريخ الرحلة في الأدب الجزائري القديم، من أجل ربط القديم بالحديث، وحتى يتسنى لنا معرفة خصوصية النص القديم واشتراكه مع النص الحديث، في صورة وصل وشائج القديم بالحديث. وقد عاجلنا في ذلك ثلاثة محاور شكّلت الخطوط العريضة لتاريخ الرحلة الجزائرية وهي: نشأة الرحلة في الأدب الجزائري، والتي بدأت مع الوارجلاني خلال القرن السادس الهجري، وتحقق أسبقية من حيث الزمن على رائد الرحلة في الأدب العربي، ونقصد به "ابن جبير"، إلا أن رحلة الوارجلاني جاءت منظومة شعرية، ولم تقم على النثر مثلما هي عليها رحلة ابن جبير. ثم تأتي مرحلة انتشار التدوين في الرحلة الجزائرية، وقد عرضنا فيها لرحلتي ابن مرزوق ورحلة ابن قنفذ، كانت الأولى باتجاه المشرق بينما الثانية كانت باتجاه المغرب. وتليها مرحلة ازدهار فن الرحلة الجزائري التي كانت على عهد الأتراك، فقد عرفت هذه المرحلة من الأوج ما لم يسبق للجزائر أن عرفتة في العصور التي مضت، سواء أكان ذلك من حيث كثرة النصوص أو اختلاف الدوافع كالرحلات الحجازية والرحلات العلمية والرحلات الاستكشافية. بل حتى أن هذه المرحلة من تاريخ الجزائر قد حافظت على مصادرها المتنوعة نسبياً، مقارنة مع الجهود التي سبقتها.

وأما بخصوص جوهر الموضوع فإننا قد تناولناه من خلال تقسيمه أبوابا على حسب ما اقتضته المنهجية، وانتظمت وفق قضاياه العامة، فحمل الباب الأول عنوان "إشكالية النص في الرحلة الجزائرية الحديثة" من أجل رفع اللبس عن النصّ الرحلي الجزائري الحديث الذي تعرّض للعزوف فأردنا من خلال ذلك أن نعيّره الاعتبار الذي يليق به، ونؤسس لإجناسية هذا النص، وقد اقتضى ذلك تفصيله في ثلاثة فصول. عرّفنا في فصله الأول بـ"الرحلة من منظور علم النص وقضايا السرد" وهو فصل تنظيري خصّصناه للتعريف بجنس الرحلة في الأدب العربي، وهو ما يسمح لنا باتخاذ معيارا لسبر النصوص المختلفة ما دام أن النص الرحلي متاح كجنس أدبي وغير أدبي. وهذه القضية في حدّ ذاتها لم يشتغل عليها النقد الأدبي إلا في الآونة الأخيرة وبصورة محتشمة، حيث كان جلّ الدارسين في الرحلة خاضوا في فلوات التأريخ دون الاهتمام بالقضايا الأدبية، في حين أن القليل من هذا الفريق قد مارس نوعا من النقد باعتبار جمالية الأسلوب، عادّا أن العملية الفنية كامنة في ما هو بلاغي، أما وقد دفع النقد الشكليّاني العملية الأدبية من وجهة نظر شكلية فقد تراجع المحور البلاغي ليصبح عنصرا من ضمن العملية البلاغية التي تجاوزت البلاغية الضيقة. ومنه صار التجنيس للرحلة أدبيا مبنيًا على قواعد شكلية يسودها النمط الخاص المستخلص في بنية السفر وهيمنة السرد الذاتي.

وتناولنا في الفصل الثاني الذي عنوانه بـ"إشكالية المدونة ومضانّ تمرکز النص" إشكالية من أعوص الإشكالات والتي يجد فيها الباحث في الرحلة الجزائرية صعوبة في القبض على النص الرحلي الذي يعدّ إشكالا لا يتحقّق فيه التجسيد إلا في صور متشظية فأردنا أن نبيّن من خلال هذا الفصل مكان من تواجد النص وكيفية هذا التواجد. وتبيّن لنا أن النص الرحلي محتمل في كل أشكال التعبير، وبخاصة في فنون السرد الذاتي كالمذكرات والتراجم والسيارة وكتب التاريخ، كما أن فترة الاستعمار دفعت الكتاب إلى الاعتماد على الصحف والجرائد لبتّ همومهم واهتماماتهم مما جعل النص الرحلي يحتل فيها مساحات معتبرة، شكّلت مدونة زاخرة. وتعرّضنا في هذا الفصل أيضا لمستويات الكتاب من مفكرين وسياسيين وأدباء وصحافيين كلهم أسهم في بقسط في هذا المعترك. وبالتالي توسيع دائرة الكتابة في الرحلة

الجزائرية التي شارك في الإسهام فيها جملة من الكتاب مختلفي المشارب، مما يفسر أن النص الرحلي مباح لشتى الكتاب بما فيهم السياسي والمؤرخ والكاتب والأديب والصحفي وغير هؤلاء.. كما أن النص الرحلي محاتل قد لا تظفر به في مظان مضمونة حيث يغلب الظن في الظفر به عبر وسائل مختلفة قد لا تخطر على بال أحيانا.

أما الفصل الثالث والذي عنوانه بـ"الرحلة الجزائرية الحديثة وإشكالية الأدبية" وفيه حاولنا توطين الخطاب الرحلي الجزائري من خلال قانون الإجناس الأدبي بحثا له عن شرعية فنية، حتى نقيس توتره الأدبي، فأبرزنا أهم ما يتميز به النص الرحلي بما يجعله يندرج في خانة الأدبية ومثلنا لذلك تمثيلا، انطلاقا من البنية الشكلية التي تضم مجمل العتبات النصية كالعنوان والاستهلال، إلى جانب البنية السردية التي خلخل فيها النص الصحفي نمط الرحلة التقليدي. وقد تبين أن الرحلة الجزائرية الحديثة تفاوتت فنيا من خلال امتداد العصر والتباين في التحوّل على جميع المستويات التي كانت يد السلطان فيها للاستعمار، حيث أسهم هذا العامل في تغيير مناحي الكتابة وتحوير أصولها، وبالتالي تعيّر نمط الكتابة التقليدي وخاضت في اتجاه غير الذي عهدته.

أما الباب الثاني فكان بعنوان "الرحلة الجزائرية الحديثة وتمثلات الأنا والآخر" وهو باب ابتغيناه سبيلا للوصول إلى قضية هامة في أدب الرحلات وتعلق أساسا بعلم الصورة، فقد كان الرّحالة يقوم بالمقارنة بين هنا وهناك، ويقف على نقد الذات انطلاقا من عدة عوامل تستقرئ الضعف المسلط على رقبة أمة تمتلك من الأسباب ما يجعلها أن تكون رائدة. كما أنه بإمكان الرّحالة أن يقف عند نقاط ضعفه فهو أيضا يقف على نقاط قوته أو ما يمكن أن يجعله مميّزا عن غيره من المجتمعات، ومنفردا بعباداته وتقاليده وتعصّبه، واستقلاله كفرد له انتماءه لبيئته وعالمه الخاص.

وقسمنا هذا الباب إلى فصول ثلاثة، جعلنا الفصل الأول بعنوان "صورة الآخر والاختلاف الثقافي/ الوعي بالتفاوت وأسئلة الهوية" وهو فصل يتعلّق بالرحلة خارج الوطن باتجاه الغرب (أوروبا) الذي لا يماثل في خصوصيته المجتمع الجزائري، فأبرزنا أهم محطاته

ومواقف الرحالين من هذا الآخر سلبيًا وإيجابيًا، ومدى التأثير الذي أصابهم حضاريا تارة بالانتكاس وأخرى بالاعتبار، وبالوعي والوعي المضاد من خلال المرجع والهوية المحمولة في سجلهم، وما أمكن للرحلة أن تبوح بأسرار الذات من خلال الآخر.

لقد كانت الرحلة الجزائرية الحديثة إبان القرن التاسع عشر، جلها دعائية صنعها الاستعمار على عينه لتكون بوقه وعالمه الأشهادي تجاه مستعمره، وقد نفذت هذه الخطة جملة الرحالين على غرار ابن صيام وابن قاد ومحمد بن علي الشريف والفكون، وقد جسدت نصوصهم مفارقة بين الذاتي والموضوعي، فبينما كانت مرجعيتهم الثقافية بدوية خالية من أي تحضّر على المستوى المدني فإنه قد شكّل موضوعيا أنه قد تأثروا بالغ التأثير حيال المنجز الغربي من صنائع وعمران ووسائل حضارية كالمراكب والآلات ووسائل التواصل، ما جعلهم يفقدون توازنهم، أما على المستوى الذاتي فإنه قد استفحل مروق هؤلاء الرحالين في تبجيلهم للمستعمر وقادته، ممارسين وعيا مضادا بممالاتهم وميلهم الميل كله إلى الاستعمار ومباركته، بالإضافة إلى اتهام كل وطني لم يرض بتواجد هذا الكيان الغاشم.

وأما خلال القرن العشرين فقد عرف جيلا آخر من الرحالين، عرفت خلاله الرحلات نمطا آخر من التعبير ذي الصيغ المختلفة خاصة منها الوطنية، التي لم تر في أوروبا إلا النظرة الموضوعية، غير مدّعية إلا بما هو واقع سواء ما كان نقدا ذاتيا، أو تفوقا للآخر دون أن تفسر هذه الظواهر على الانسلاخ القومي، كما أن مظاهر الحضارة الغربية وخاصة بفرنسا حيث كانت الرحلات هذا الاتجاه معظمها إلى فرنسا، فلم يكن وطئ صدمتها قويا، ذلك لأن هذا الجيل من الرحالين قد اكتشف هذه المظاهر متجلية على أرضه لما أقامها المستعمر بكل تفاصيلها من مدن وعمران مختلف الأشكال والأنواع. كما أن هذا الجيل تميّز بنقد لاذع للسياسة الفرنسية وقد عبّر عن اغترابه، وعن تضايقه من فعله الذي بدا ظالما.

أما الفصل الثاني فقد كان بعنوان "صورة الآخر الجواني، مرآة الأنا/ صور الوجدان وثناقف الذات بين المطابقة والاختلاف" وتضمّن صور المواقف المختلفة تجاه هذا الآخر الذي يعتبر (أنا) في خصوصيته وفي تطابقه اللغوي والديني وامتداده الجغرافي وتراثه التليد

الذي يجمع بين الرحالين والمرتحل إليهم، وكيف قابل الرحّالون المشاهد والأحداث والمواقف المختلفة، وكيف نظر الجزائري إلى المجتمع العربي فيما يبدو عليه من حرية نسبية في ممارساته وسلوكه من خلال مطابقتها بين حاصل المشاهدة وما خلفه في وطنه من تضيق واستبداد وكبت للحريات. كما سعينا إلى إبراز ما شهدت به الرحلات من مواقف الحكّام العرب تجاه القضية الجزائرية ومدى الدّعم والمساندة من طرفهم.

اختلفت دواعي الرحلات تجاه البلاد العربية التي امتدّت جغرافيا، وتقاربت وجدانيا، وأبرز هذه الدواعي، طلب العلم والسياحة الاستطلاعية والسياحة الصوفية، ورحلات الحج والعمرة، والدوافع السياسية خاصة منها خلال مرحلة حرب التحرير.

ولم تعرف التجربة الرحلية الجزائرية كثير من البلدان العربية قبل رحلة حرب التحرير في حين أناء هذه الفترة عرفت كل البلدان تقريبا لضرورة اقتضتها الحاجة، وهي طلب الدعم للثورة الجزائرية، وتمثلت خصوصا في نصوص منصور الغسيري وأحمد توفيق المدني، هذا الأخير الذي لم يترك بلدا لم يزره، بصفته ممثلا سياسيا ودبلوماسيا لجهة التحرير الوطني، وقد برز في هذه النصوص جملة من الانطباعات خاصة بما يخص حكامها ومسئولها من الوزراء والأمرء، واختلفت أحكامه انطلاقا من تفاعلهم وتعاطفهم ودعمهم للثورة التحريرية.

وأما الرحلات التي سبقت هذا العهد فأخذت انطبعا آخر تمثل في المشاهد الطبيعية والعمران، والتفاعل مع الآثار التي تشكّل عناصر مشتركة بين كل المسلمين، كما وقفت على أهم مميزات المجتمع العربي في عناصر قوته، وضعه، وما يجب أن يكون عليه، بالإضافة إلى أنه انتابها الفرق في الحرية بين ما للوطن الجزائري من قيود وما هي عليه من حرية وسعة في ممارسة نشاطها الحيوي، خاصة منها والتكوين العلمي ومرافقه والمقدسات وممارسات الشعائر الدينية حيث لم تعرف هذا في الجزائر إلا مضايقات وتعسفات.

وحاولنا في الفصل الثالث الذي جاء بعنوان "الرحلة نحو الأنا/ بنية المجتمع وصور الصراع" أن نكشف عن أوجه الصراع بين الطوائف المختلفة داخليا خصوصا بين الطرفين والإصلاحيين، كما كان علينا لزاما أن نعرّج على ما تضمّنت من التعريف بخصوصية المجتمع

الجزائري وبنيته الاجتماعية والثقافية والدينية والأخلاقية، وصور البؤس والمأساة، والتجهيل والفاقة، والبؤس والاعتزاز، دون أن تغفل تصوير المدن والقرى وما تضمنت من عمران.

أما الباب الأخير فخصصناه للجانب السردي جاعلين إياه بعنوان "الخطاب الرحلي/ السرد وآليات إنتاج النص". وهي العملية التي تتوقف عليها مستويات الحكى وخصوصيات المحكى، بمختلف صيغها.

تطرقنا في فصله الأول لـ"الرَّحَالَة/ الصوت والوضعية السردية" فأبرزنا فيه كيف يتحول السارد إلى مسرود له قبل أن يقوم هو بوظيفته المنوطة به، ثم قيّدنا ذلك من خلال أهم الوظائف التي يتأسس عليها فعل السارد في الرحلات الجزائرية المدروسة، إذ يسبق فعل السرد من قبل الرحالة وظيفة أخرى يشتغل عليها، وهي التزوّد بالمادة التي سوف تتحوّل من مستقبلة إلى مرسلّة، وهذه اعملية تقتضي، تقمص الرحالة لدور المرسل إليه حتى إذا ما تمكّن من مادة الحكى، حينها يصبح سارداً، وقد تشكّل أنماط مختلفة لعملية الاستقبال التي يكون فيها الرحالة في وضعية مسرود له باعتبار أن الرحالة يشغّل كل حواسه في سبيل الوقوف على ما تنهض به البيئة الجديدة من مستكشفات بالنسبة للرحالة. ومن خلال ذلك يوفّر مادة حكيه. وبعد هذا السعي يقوم بالدور المنوط به وهو امتلاك زمام السرد الذي يكون فيه هو الريان في إشارة إلى أنه سيصير في وضعية سارد رئيس، ثم توزّد الأدوار إلى ساردين آخرين متباينين أو متماثلين، على حسب ما يقتضيه البرنامج السردى. كما أن هذا لا يتم إلا من خلال ما يتعارف عليه في عالم السرد بوظيفة السارد، التي هي بدورها تحدّد توجّه السارد وعنايته بمصيره السردى.

أما الفصل الثاني فجاء متعلّقاً بالسرد في حدّ ذاته فكان عنوانه "الرَّحَلَة/ التبئير ودينامية السرد" ومما جاء فيه تتبّع الوضعيات السردية من خلال طبيعة الزمن وما تضمنته السرود القائم عليها فعل السفر من ذهاب ووصول وإياب وما تخلّلها من أحداث ومشاهد التي يتدخل فيها عنصر آخر ويتعلق بالمكان وبنية الوصف وأبعاده.

ويبدأ البحث في تقصي السرد وطبيعته من حيث ملامسة نمطية الرحلة القائمة على فعل الذهاب والعودة، ومن خلال ذلك يتجسد تذبذب في العملية السردية الموافقة لواقع فعل السفر، الذي يرسّخ ما بدا للرحالة أنه ذا أهمية، وفي ذلك يكون الزمن أحد أبرز مكونات للعملية السردية حيث يحيل الزمن إلى بؤر الأهمية السردية من حيث الإحالة على الماضي كالاسترجاع وهو سبيل يحيل إليه المشاهد أو المكان الواعي لدلالة تاريخية أو مقدسة. كما يمكن للزمن أن يكون استباقي وهو أيضا يحمل دلالة استشرافية، أو من ناحية حمولة الزمن في حد ذاته على العملية السردية ذاتها، وهو وقوف عند أهمية الأحداث.

ومن ناحية، يقوم الوصف في الجانب السردى ببلورة العمل السردى ذاته حيث يمنحه مصداقيته ويدفع بالعملية إلى تبادل تسلسل الأحداث المبنية على التعبير والسرد التي يقف فيها الراوي بين خط السرد وتطعيم هذا الخط بما يجعل منه مادة خصبة شعورا من ذلك أن الرحلة قد تنمو مادتها بالموصوفات. ومن جملة هذه الموصوفات الأمكنة التي لا تخلو منها رحلة من الرحلات، إضافة إلى الشخصيات بشتى الوظائف والرتب والمستويات الاجتماعية، كما أن للوسائل المختلفة حضور، وأيضا الجوانب الاثوغرافية، وغيرها من الموصوفات التي تحددها الرحلة بأبعادها وامتدادها. وقد تتحكم في كل هذا الأبعاد فتشكّل توجهاتها الوصفية كالبعد الأيديولوجي، والبعد النفسي، والبعد الجمالي، والبعد الغرائبي، والعد التاريخي، والبعد الروحي، والبعد النقدي.

أما الفصل الأخير فتضمّن حسب عنوانه "المتلقي / النسق الإطار والنموذج" كشفنا من خلاله عن الثقافة الأدبية في هذا العصر الذي أخرج لنا هذا الصنف من الأدب، بالإضافة إلى سؤق نماذج المتلقين حسب ميولاتهم الجمالية والنفعية والتعليمية. ثم ختمنا بما تضمّنه البحث من نتائج.

ولقد وقفنا عند النسق الواقعي لتحديد علامات القارئ، الذي يقصده السارد قصدا، حيث لا يملك هذا الأخير إلا جرّ القارئ إلى عالمه السردى، فكأن لسان حاله يقول

بوجودك هذا النص موجود، لذا نجد بيسر علامات القاري واضحة ومقصودة. كما أن للعلامات غير المباشرة حضور قوي يقتضيها مقال كل سياق.

وما تبقى من مقامات أخرى للمتلقى تفاصيل تشرف عليها مستويات المتلقى الضمني، الذي يتفرع إلى محاور أبرزها، المتلقى الجمالي، وهي الصفة التي نجدها في النصوص ذات ترقل بلاغي، وصيغ جمالية تحاكي قضية الفن للفن، وبدورها تؤدي وظائف رسالية. وقد برزت مقومات المتلقى الجمالي في عناصر أبرزها، الصور الفنية التي تدفع بالاستجابة، ثم النزعة القصصية التي تحيل على التشويق وشد المتلقى. ثم السخرية والطفرة باعتبار أنه في كثير من الأحيان تنزع الذات الساردة إلى مطبات الاستفزاز الذاتي التي تشكل الصور المستقبلية من الأمكنة المزارة.

وتبرز في محور المتلقى الضمني الثاني علامات المتلقى النفعي، أو الأيديولوجي، وهي القائمة على التعسف في تشكيل الإقناع واللف والاختباء وراء المعاني من خلال رسائل مشفرة. يغلب عليه التوجه السياسي والطائفي، أو الموقف المضاد.

وأخر المحاور في هذا الفصل، المتلقى التعليمي التي تبرز أهم علاماته في التوجيه والتلقين، وتكريس مبدأ الأخذ بالأسباب.

وبعد مسار البحث الذي استغرق اهتماما معتبرا تحققت جملة من النتائج نجملها في

الآتي:

إمطة اللثام عن كم هائل من النصوص الرحلية التي لم تُنثر من قبل، والتي طواها النسيان طيًّا حتى نسج العنكبوت عليها بيوتا، فنالت أخيرا حظًّا من الظهور، وبإمكانها أن تحتل مكانة سامقة في عموم النثر العربي. وتعيد الاعتبار للنثر الجزائري الحديث، ومنه إعادة النظر في الأحكام التي روجها النقد تعسفا في حق هذه المدونة الثرية.

أثبتت الرحلة الجزائرية حضورها الفني بعد تقصي عيّنات منها واختبارها في مختبر البحث الإجناسي، فتبيّن أنه نصّ أدبيّ يافع يتمتع بجميع المقومات الأدبية، ويطفح بمعايير

الجمالية. حيث كان معظم الكتاب يمتازون بالذوق الفني، وهذا نتيجة التكوين القاعدي المرتكز أساسا على التراث الأدبي العربي، والتمكن من حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة من أعمارهم.

إمالة اللثام عن كثير من الأسماء التي أسهمت في كتابة الرحلات والمشاركات الثرية في الأدب الجزائري الحديث، والتي لم تُشر إليها حتى معاجم الأعلام المتخصصة، من أمثال (إسماعيل مامي) الذي نحسبه رائدا لأدب الرحلة الجزائري في هذا العصر من حيث حجم المدونة التي أسهم بها ومن حيث أسلوبه المحكم الرشيق. إضافة إلى أسماء أخرى مثل: عمر بن جيكو، عبد الرشيد مصطفى، عبد الباقي الحسيني الجزائري، علي جاو، صالح غزال، قويدر بن مناد، عثمان بن عبد المجيد، العلوي بن مراد، الحسن الوارزقي وغيرهم كثير.

مشاركة الرحلات الجزائرية في كل الاتجاهات، شملت الداخل كما شملت البلاد العربية والبلاد الغربية، كما تناولت شتى الدوافع من حجّية إلى سياحية إلى سياسية وعلمية وصوفية..

كشفت عن تباين في المستويات الثقافية بين أجيال هذه المرحلة بالنسبة للرحلة إلى أوروبا، حيث اتّسمت رحلات القرن التاسع عشر بالصدمة الحضارية جراء التباين بين المستويين المحلي والأوروبي، في حين استطاعت رحلات القرن العشرين من إحكام التوازن نسبيا.. كما كانت تمثل رحلات القرن التاسع عشر جانب الممالة بينما تجلّت الوطنية عند الطائفة التي خلفها معترك القرن العشرين.

أثبتت الرحلة حضورها الإنساني من خلال التدويت الذي طال كثيرا من تفاصيل السفر، وتفاعل مع جملة المشاهد والأحداث وكشف عن حقيقة الإنسان الذي يتفاعل مع مستجدات الحياة، مميّزا ما بين الثقافة المحمولة والثقافة التي يواجهها، فكشفت عن حقائق أثبتناها في صلب البحث تراوحت بين السلبية والإيجابية.

استطاع الرحالون من خَلق مستويات من الثقافة، بصهره الرصيد الثقافي المرجع بمستوى ما تحقّق في ميدان الواقع الذي تمثّله بلدان الطرف الآخر، فعلى المستوى الأوروبي تمثّل من خلال صورة المكان التي كشفت عن تجاذبات على مستوى العمارة وتنسيقها المحكم، ووسائلها المتطورة في صالح الفرد.. وعلى مستوى الإنسان الذي برهن على سلوك حضاري بأوروبا وسلوك ديني بالمشرق، فلم تظفر بإيجابيٍ إلا نُوّهت به، ولا سلبي إلا سجّلت عليه ملاحظات، في نسق يوحي بالتفاوض الذاتي مع كل مستجدّ، بعبارات مباشرة وأخرى مُوحية، يعبر عنها ضمير التألم والأسف، والأمل والرجاء، والتساؤل للبحث عن أسباب التدارك.

لم تغفل الرحلات الجزائرية عن ذكرها للعلماء داخل الوطن وخارجه، ومثل ذلك صنّعت مع الحكام؛ من ملوك وأمراء ورؤساء ووزراء..

لقد تميزت الرحلة نحو المشرق بوثيقة هامة سجّلت من خلالها صور التضامن من طرف الدول العربية حكما وشعبا مع القضية الجزائرية، وكشفت في الداخل عن صور الصراع الذي استفحل طيلة ربع قرن بين الطرفين والإصلاحيين، وظفر منها الوصف والتعليق على مظاهر المدينة بعمارتها المدنية ومقدساتها، ومعالمها.. وصوّرت مستوى البؤس الذي كان يتجرّعه الجزائريون جراء الاستعمار.. كما صوّرت مظاهر الفساد الأخلاقي والانحراف العقدي وصورة المرأة الإيجابي والسلبي.

استطاعت الرحلة أن تشمل فهرسة لكثير من العلماء المغمورين، في تاريخ هذه المرحلة وجلّت مقامهم، وعرضت المسائل العلمية التي كانت تمثل قضايا الساعة بالنسبة إليهم.

على المستوى السردى استطاعت الكشف عن عدة تجلّيات على مستوى السارد والمستوى السردى، والمتلقي، وقد عرفنا كيف أن جنس الرحلة يختلف عن باقي الأجناس الأدبية حيث يلعب السارد دور المسرود له حتى يمكنه التزوّد بالمادة التي تصير بعد ذلك

مغامرة يتبناها السارد، كما تبين لنا عدة مستويات للسارد ذاتيا وموضوعيا وفق وضعياته ووظائفه.

الكشف عن طبيعة السرد من خلال بنية الزمن التي لا تبقى على حالة واحدة أثناء القيام بسرد الحكاية، ويُعدّ الزمن مسائرا لطبيعة الحكاية، حيث يستثمر في أهمية الزمن على قدر أهمية السرد والاستغراق فيه.

ويشكّل الوصف دينامية للسرد بإضفاء عليه هواجس ذاتية من حيث الأبعاد النفسية والجمالية التي تسهم في نقل المجردات إلى محسوسات مشكّلا محورا يدور عليه السرد ثم يمنحه القيمة المضافة لاستمرار الحكاية وتحاشي الوقوف في نقطة الصفر، متجرّدا من كل افتعال ما دامت مرثيات الرحلة نسبية تمنحها مسافة العبور (الذهاب والإياب)، إلا أن كل هذا يتم من خلال دوافع مختلفة تتّجه باتجاه نوازع أصحابها، وما فرضته عليهم ظروف المرحلة التي أسدت لهم أصنافا من الاغتراب.

تنوعت اهتمامات الرحالين بحسب توجهاتهم الأيديولوجية، وبات هذا العامل هو المسيطر في كل الخطاب، فلا يوجد نصّ بريء تماما خالٍ من شوائبها، فظروف المرحلة انعكست عليهم من حيث تشكيل أفكارهم، ورتابة عيشهم، ورسم مستقبلهم، وتمثل ذلك سلبا وإيجابا، بالوعي والوعي المضاد.

تنوعت أساليب الكتابة، ما بين الأساليب التقليدية التي أفرغت طاقاتها في قوالب تقليدية، بروح عصرية ملتزمة قوة العبارة، وسلامة اللفظ، وتوظيف الجاهز من التراكيب في الغالب، متناصّة مع الميراث الثقافي كالقرآن الكريم والأحاديث الشريفة ونصوص الأدب القديمة؛ شعرا ونشرا، في حين نلمس عند طائفة أخرى بعثاً للنشر من جديد من خلال استدراج المعاني للتعبير عن ذاتها، مسائرة لأنماط الكتابة الجديدة التي شكّلتها طائفة من الأشكال التعبيرية المستحدثة، كالمقال الأدبي والقصة، وقد ظهر هذا الفريق بعد الإعلان عن النهضة الأدبية ومحاولة التجريب في الأنواع الأدبية المختلفة.

تجرّدت الرحلة الجزائرية من تقاليد الشكل على النمط التقليدي، حيث سايرت وسيلة النشر التي تمثّلت في الصحف والجرائد فأنتجت قوالب جديدة أقرب إلى المقال مع انعدام الاعتماد على المراجع والمصادر التاريخية في الغالب، أو الرحلات السابقة، في حين اكتفت بالأسلوب المباشر الذي يفيد التقرير. فحلّت الآنية الزمانية كظاهرة تؤرخ للحظة الكتابة، وكشفها عن الهوية.

ترجمة

- المقدمة والخاتمة -

- 1 -

ترجمة المقدمة

INTRODUCTION

The word (trip) is Associated to the mental image of everything that has to do with human behavior, which seeks to achieve through various complex ramifications of life for the comfort and security of the filling needs, as well as raising the level of living and civilization. As the trip gave them a lot of differences between the environment of the traveler and the environment of the host, in addition to that (flanked the risks and adventures and intriguing exploration, what makes him rich material for a speech tale; these trips since that man has consistently act, journey check curiosity the recipient thirsty for knowledge and confabulation and interaction with events, among other incentives, a problem for which purports narrated by other travelers participation as a driver of cultural motives concern in any society, in addition to the human obsession with self-motivation you pay for his definition adventures in the image of the hero whenever he returned to his family and his country.

This was not the aspects that represent literary images in the old life, but a form of psychological needs accounted for literature not conscious breathing through which human without that establishes a lived value, where she was the artistic value secondary degree versus the motives of travel and objectives of destinations perceived, the achievement of the purposes; In other words, the trip did not belong to literature in the first place, but confined its circle to include various aspects of utilitarian life; social, political and economic, scientific, cultural, and so on, and neglected the technical aspects that used to come arbitrarily even after centuries of settled knowledge brought by the new scientific method during the light advanced ages, for the classification of science and the arts, and especially for the history of Arabic literature during the Abbasid era in which the flight has been derived from the act of experimentation, did not get wet from the richness of the sea while it was soaked in it, and remained in this state it lacks the requirement of the transformation of internalization of speech, a condition in which no one dares of a bunch of arena and fought this tendency shall be stamped self-check his leadership, are reported as approaching the goal of the pack without being even reached the limits of the sixth century AH to sign this goal by all of Ibn Arabi and Ibn Jubair.

After this leader event, the literature of travellers could occupy the rightful place of all forms of expression of the Arabs, and achieves a greater wishes for art, and the most prestigious literary and non-literary works, deserved to guarantee itself an important place within the crew genres collected synthesis saying of Arts and Knowledge in one form, a text of travelling, which provides a fun and displays of art of its seriousness and fun, Commissioner and vile, where travelers combines plunge of knowledge, the real ones, and the stranger, and the colors of the speeches, the aesthetic ones and ideological, and forms of styles, surface and upscale ones, and fulfill the aspiration of what the same forms of writing, to move then to the recipient curious or hungry for knowledge, or aspirant for the advancement of linguistic, fun inescapable.

This literary form has been spilled, breaking the modern era is characterized by the transformation of a break through the transformation of public life of the community at large angle, in which the Arab colonial become more vulnerable shocks that changed the behavior and thinking. Perhaps Algeria is one of the countries that exacerbate the same in this day and age as the worst case of all other Arab countries in spite of the tragedy equal to the name. Due to the originality of the art of flight and being in the depth of Arab culture, so, despite what the colonizer did to undermine the colonization of cultural and finish the largest proportion of the vital elements of life, it did not dampen the determination to continue in his path, cut the link with his past.

In addition to these changes that the world has ever known at all technical levels and non-technical, radical transformations in many walks of life parallel with the dark case known to Algeria, it is of great problematic to most of the cultural and social levels, is no longer modern lifestyles are the same old ones, leaving the literary and cultural of the old forms of life, but very little, where some of which are disturbed in balance, which happened to them as a substitute. And accelerated writing styles including grooming it from the field of promise, a lot of students as the biggest factor of the changing cultural and social life, namely novelty of the press, is the area which gave freedom for all who has the desire among those who would make the creativity of any level, and the temporal and spatial worker provided by newspapers and magazines have reduced the areas of creativity and precipitated the demise of a variety of shapes and pen the other eluded the meridian Frodt new environment of sizes, this without to record what happened from the recession at all levels right itself problematic domain of literary, shreds weakness, and his bones crumble, he finds the mainstay based on it.

In spite of the press area value and efficacy in the development of contemporary literary arts, what he has achieved from the opening to the creators, without exception, it is the field that has not been extradited from the cons, and perhaps the biggest negative is the fact that article (according to ply which carries) consumer real-time, doomed to demise, prone the faded, disappearing easy, instant, are difficult to maintain as long as possible. In addition to diversity as it contains newspapers from various writings stripes, based on potential rather than stability, especially the text of travelling that found itself in the melting pot, in a problematic trouble adoption, Commissioner of distaste, has been weakened by criticism over a long period where stayed under the shadow of archival dust, and this determination is that which delayed judging the modern Arabic literature in Algeria and its text of travelling in particular.

And in the light of this data we might wonder what is the future of the Rahlia Blog within the general component of the literary blog, and how could the travel text be formed within this Epidemic? How

could this text be realized in the absence of of space o that borrof creativity and borrowed newspapers and magazines as a site for creativity. Did the trip from text accumulation realize what allows it to be taken as a critcizable material?

How could the trip go along with stage and it's data in within the colonial policy and the unstable public awareness and the interactions of the local conflict. How could it respond to the cultural and civilizational variety of the Algerian side. What distinguishes the technical level through the narrative formation as opposed to the prevailing cultural pattern?

As for the studies that preceded our theme and which are directly linked to it, we believe they are very few, and the one at their top is the doctoral thesis presented by researcher (Omar ben guina) in front of the University of Algiers, entitled "prose in the Algerian journey through the twentieth century", and this is the only work that we can consider as being in depth of the Algerian travel script and thus noteworthy. It's author uncovered the Modern Algerian Trips , and this is a founding and leading work in its domain, he published it later in two books ; the first was entitled "Algerians Rahalin's Trends in the modern Algerian trip," and the other entitled "The Shape and the Image in the Modern Algerian Trip", We can also mention the work of Samira Onsaad" trip to the Orient in the Algerian literature, "which touches a simple part of our theme , and as it did not cover the modern trips it was closer to generalities it's treatment of the theme, and then another workd appeared after we had crossed considerable distances in our research, made by the researcher (Yasmina Sharabi) in front of Bouira University entitled "The Cultural Heritage in the Algerian Trip Literature", in which the researcher focuses on the issue of the Algerian heritage in Algerian Rahli Text ,through models of the trips of modern and contemporary era.

And regarding the fact that the choice of each topic is based on two parts : Subjective and Objective, that is the case of our subject as well . As for the subjective one , it is represented in our great lean towards this genre for what it offers us as surprises , historical pieces of knowledge , ways of telling simplicity of language and variety in form. In addition to that , it contributes in shedding light on difefrent places in different countries, as well as their scientific monuments and the different policies, whether hidden or apparent.

AS for the objective side, it is represented in the fact that while conducting our research for the Magister degree, within the same theme, the beauty of the scene in the Modern Algerian Travellers Literature, as we were impressed by the silence that covers the so-called "Algerian Travellers Literature", as we got a look on many texts without finding any one who studied it. And there those who claim that this genre has no considerable existence in the Algerian literature, either at quality level or the quantity one, whereas it exists in a huge quantity exceeding the limits of what many researchers and critics might imagine. Actually it forms a raw material, might be biggest material that remained uncovered and has never been dealt with by researchers.

Especially that we visited many Algerian cities and culture centres hoping to find any signs or traces of any studies, but ultimately we found that none has ever treated it. What is astonishing in this fact is that while we were analysing the academic researches that dealt with the prose in Modern Algerian literature, starting from some literary magazines and newspapers during this era, such as magister theses at the university of Oran like: "Types of Literary Expression in El-Balagh Magazine" _ "Types of Literary Expression in El-Bassair Magazine" _ "Types of Literary Expression in Shihab Magazine" none of the authors dealt with Travellers Literature, and it was obviously avoided although it was such an apparent material for everyone. This was enough to push us to take advocacy of this genre and, shedding light on it and introducing, aiming at giving it its appropriate consideration and joining it to the rest of the considerable prose arts through dealing in detail with its problematics and shedding light on its main genres and characteristics, and thence introducing the concept of the modern Algerian Travellers Text, which has taken a special contextual way, and distinct productive pattern.

In order to find scientific rationales that elevate this research to the academic standards, we needed to find some guidelines that can enlighten our way, mainly for the reason that our research is new as it deals with the Algerian Travellers' Literature which has not been given the adequate part of study and devotion in research, and those few studied that target it remain insufficient regarding what it deserves in terms of consideration. Nevertheless we would acknowledge the help that some resources offered us, although they were not numerous, as it defined and introduced this genre for us and offered us

the keys to the world of critic in its different domains, so it gave us the way and accompanied us through the critics fight. Among those references we can mention the following books : "Travellers in the Algerian Literature" Naturalization, the Mechanics of Writing, Imaginary Speech" for Shaib Halifi , and the book entitled "Concepts and Manifestations of the Arab Narrative Text " for Said Yakteen , in addition to the works of Abderrahim Moaddin and mainly his books "Travellers' Literature" " Travellers' Literature in the Maghreb" "Maghrebian Travellers's Narration in the Nineteenth Century Levels of Narration", add to that the book of "Arabic Travellers' Literature Until the End of the Fourth Century" written by Ncer Abderrezak Moafi, and the book of "The Traveller and the Layout" for Aboushoaib Essawri. Dessertations also were of great help in our work, such as the PhD thesis for Ismail Zerdomi entitled "The Art of the Traveller in the Old Maghrebian Literature" and the two magister dissertations entitled "Literary Discourse in the Travellers 'Noor al-Andalus " of 'Ameen Rihani' for Fatima Boutabsou. and another for Abdullah Ben Ahmed Ben Hamed Al Hammadi, entitled "Travellers Literature in Saudi Arabia." These references had a considerable value as it could enlighten our way and help us in deciphering many issues and problematics, in addition to other references specialized in narratives and the sciences of text and literary discourse, and other references. While there are many studies that carry in their titles the traits of the Traveller Literature, however they are historical studies that do not have any connection to the literary side.

In order to note aspects of the research we have established a plan may fit with the theme represented in the preliminary and there doors and a conclusion, Each section included these chapters, we offer them in the following:

We have in the book display "moujaz etarikh" journey in the old Algerian literature, so that you know the modern text, in order to connect the old arrived to speak in the form of bonds.

The doors of the research, according to the public joined their issues then, came the first section titled "problematic text in modern Algerian trips" as long as these texts have received some sorts of aversion we wanted through that to give it its real place. In his first season with the journey from the perspective of the text and narrative issues and is separated laparoscopic we assigned to the definition type trip in Arabic literature the second chapter is titled : " problematic

entries and the think of concentration of the text and is one of the most difficult disputes, where the researcher finds in the Algerian journey difficulty valuable arrested trip text forms, which is the embodiment can not be achieved only in the fragmented images and then, we wanted to show through this chapter reservoirs text and how presence of this presence. The third chapter is modern Algerian trip and problematic and literary .

The second section was tilted: "modern Algerian trip and representations of me and the other" . It is a door we want it a way to get the issue of important things in literature trips and mainly related to the know ledge of the image . Where the traveler is comparing between here and there. So, we made the first chapter entitled "the other image and cultural difference/ awareness of inequality and questions of identity, a chapter of the trip outside the country to the west of Europe, which is not the same in Algerian society. We focus on its most important stations and point of view of the travelers negatively and positively, they have suffered from civilization, sometimes relapse and identity in their record of mental, what is possible for the journey that reveal secrets related through the other. The second chapter was titled the "other image inside, my mirror" and included images of different attitudes of this other which "I'm" is in privacy and in conformity linguistic, religions and geographic extension, and ancient heritage which combines travelers and to whom we travel.

Travels faced scenes and events and different positions and how to consider the Algerian Arab society appears to be a relative freedom in the exercise and behavior through its conformity between and holds in his homeland of narrow and tyranny and suppression of freedom, as we have sought to bring out what has seen its flights to and from the positions of the arab rules towards the Algerian problem and the extent of support and assistance by them, and we tried in chapter 3, which came on "the journey towards me/ structure of the society and photos of the conflict" to disclose of the conflict between different sects internally, especially between the 2 parties and reformers, as we were obliged to see what included the definition of the specificity of Algerian society and the social structure, cultural, religious, moral and photos of misery, tragedy, obscurantism and poverty and misery and algerian alienation, without hose sight of filming of cities and villages and what included from building.

The last is for the side narrative entitled "dialogue of trips/ narration and text production mechanism", we talked in his first season for "traveler/audion and positivism narrative", where we high lighted the how the narrator turns into a listner to him before it is his job entrusted to him,them we restrict through the most important functions that act is based upon the narrator journeys in the Algerian trips.

Chapter 2 came relates to enlist in itself was entitled "trip narrative situations through the nature of time and the contents of narratives based upon travel reaction of the way and the arrival and what inters persed of events and scenes, which interfere with another item and respect the place and structure description and dimensions. Last chapter of this section is "receiver/ the frame work model" uncovered through which all literary culture in this period who drove us to this type of literature, as well as giring models by travelers according to their utilitarian and educational point of view. The we ended with the results of this research.

When talking about the effort spending, it was between the easiest labors to what exceeded our level in this quest, for it wasn't simple to speak about such a subject, and that is the contrary of the major belief concerning the limits of this art in the Algerian modern literature. It would be easy if it was only the public conviction, but to hear that from specialists is not acceptable. This pushes us to keep on searching to clear out facts and remove the clichés. All the hard work was in the matter collecting, from the vast Algerian geography to the national library in Paris, which needed money and suffering, after that we had to classify the corpus, because it had both artistic and historical dimensions, and then came the intense reading in methodology, critical issues and different human sciences, in a tough space with a critical absence in all references, notwithstanding the exigent time table and the long studios nights.

Concerning our method in searching, it knew a great diversity proportioned to the variety of the subject itself. Which surpassed the application of one method, so we had to choose multiple ways of studying; the systematic historicist method was objective, because the journey extended to a certain time in the modern era, dividing into many generations by referring to the real time. The descriptive analytic method and the semiotic method were also essential in facing the texts and deconstructing them, in order to get their narrative levels and

systems, without forgetting the importance of the reception theory in the production process.

And when speaking about the tribulations and difficulties we grew humble in front of those who did precede us on this way, because they suffered in travelling to bring information, while we can by a simple click get whatever we want, even if the technological environment in Algeria is not very developed, that's what made the information hugely expensive, with sometimes three trips for one Ahmed Reda Houhou's article in "Achuula" journal in Constantine, because of all the archive problems in this city.

Finally, if I had to thank someone it would be my great supervising professor Dr. Mohamed Mortad, whose remarks and advices made this research shiner. I mustn't forget also every person that helped in the creation of this work, professors and students and all. My recognition moreover to the department of Arabic in the university of Tlemcen, for the reason that they opened for me closed doors, and permit me to follow my higher studies.

In conclusion, I have reasons to think that I made a certain effort in this research, and I hope it finds the reader's satisfaction; it's either an acceptable work or less than that, if so, it's just from a limited person, whose all fulfillments is God's approval. Nevertheless, the main success is in finding a problem, the problem being hid from almost all the researchers, and it's the corpus of the Algerian journey in the colonization era.

- 2 -

ترجمة الخاتمة

Conclusion

After this difficult challenge in the step of the study which included our subject (to pic).

Aims concretized are:

1-Removing mask suspicion on important and considerable journey texts which were not discovered before and were forgotten until the spider built houses on them.

They appeared finally and will possibly take an important place in the general Arabic prose.

2-Algerian journey has proved its artistic presence after checking items from it and testing it in the field of the rare searching.

It appeared that it is a juvenile literary text which enjoys all lottery ingredients over flowing beautiful criterions (standers).

3-Removing clock from several names which contributed in the writing of the trips and the sharing prose in the Algerian recent literature which specialized dictionaries media didn't refer to, like (Ismaël Mami) who is considered to be the pioneer of Algerian travel literature in this time from the dimension of the record which he contributed with and from his compact and graceful style in addition to other names like Omar Ben Jikoo,abd el rachi Mustapha, Algerian Abd El Baki Husseini, Ali Jaou ,Salah Ghazal,Kouider Ben Menad,Ben Mourad,Al Hassan Allouarziki and many others.

4-Participation of the Algerian journey in all directions, included interior, Arabic and western countries and also various motives from authentic to touristic to politic and scientific and Sufi.

5-Removing for variation in cultural levels between generations this stage according to the trip to europ where travels of 19th century characterized with civilized shock due to variation between two levels: local and acculturation levels, smelting cultural balance which refers to the level that was realized by the countries of the other side.

The European level should represent from the area picture that discovered attractions on level building and perfect coordination and progressive means in benefit of individual and on the human being level that proved on civilized behavior in Europe and religious one in orient,it didn't win passivity but

weakening it ,or negativity it registered comments on it, in a mode which implies self negotiation which implies self negotiation with every new with direct.

6-The travel proved its human presence through defrost which lasted too much from details of the trip and interaction with a group of sights and events and discover the truth of human being which reacts with developments of life distinguishing between portable culture and opposite culture which revealed about truths proved in this study ranged between negativity and positivity.

Expression and others inspired suffer, regret, hope are pronouns which express that and questioning searching about reasons of rectification.

7-Travelers were able to create description and comments were won on appearances of the town with its Waban architecture and its sanctities, monuments.

Photographed level of sadness which Algerian people swallowed during colonialism and also scenes of moral depravity and deviation of the two decades and the positive and negative picture of the woman.

8-Algerian journeys didn't forgot from mentioning scientists inside the country and abroad and also they did with the governors as kings, princes (Emirs), presidents and ministers.....

9-The trip was distinguished toward orient with an important document registering through it solidarity pictures from Arabic countries rulers and people with Algerian cause and revealed cases of internal conflict which exacerbated for a quart of century between Toroukiine and reformists

10-The travel was able to include indexing of several obscure scientists during this period and raised their status and exposed scientific means which represented facts for them.

11-At recitative level , it can expose about several manifestations on the narrative and recitative grade and receipt and we knew how the kind of journey differs from the rest literary kinds while narrative takes place of recitative role to it until it enables its supply with article that becomes after this adventure adapted by narrator as many levels seen to the narrator, subjective and objective according to its status and functions.

12-Revelation about the nature enumeration through time structure which doesn't stand on the one same state during the presentation of the story planning

time compliant to the nature of the story where investing Importance of time as much as importance of recitation and absorption in it.

13-Description forms dynamics to narrative that Imparted on itself premonition from where psychic and beautiful dimensions which contribute in transforming abstractions to tangible forming axis turning of recital then it gives it the added value for story telling continuation and obviate stopping in the zero mark, stripped from all fabricating as long as relative visuals of the travel grand the distance of crossing (round-trip-going and returning) except that this happens from different motives going to desires owners and what Imposed on them circumstances which provided them kinds of alienation.

14-Interests of migrating people vary according to their ideological orientation, this factor became dominant in all speech, no innocent test fully free from impurities factors of the journey reflected on them from formulating of their spirits and life rate and drawing of their future. This was represented negatively and positively with awareness and anti-awareness.

15-Styles of writing varies between traditional sorts which emptied their energy in traditional shapes with modern soul committing power of expression and word safety and ready use of structures mostly in text with cultural heritage like the holy Quran and noble HADITHS and texts of the old literature poetry and prose where as we find with another sect resurrection for prose again through luring expressing for auto changing compliant to types of new writing which was formed by a kind of expressed novelty figures as literary article and the story , this crew appeared after the proclamation of literary renaissance and attempt of experiencing in different literary types.

16-The Algerian trip was free from traditional form of the classical style where it accompanied the instrument of publishing which was represented in newspapers and produced new forms nearer to the essay with absence of dependence mostly on historic reference and source or previous journeys where as it settled for the live style which involves the report.

Tools time settled as a phenomenon dating for the instant of writing and revealing on its identity.

المقالتان

- المقالة الأولى -

6-7

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

مجلة
الفضاء المغاربي

مجلة دورية محكمة يصدرها
مركز الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها
في المغرب العربي

العدد السادس و السابع

السنة الثامنة ذو الحجة 1432هـ / نوفمبر 2011



رقم الإيداع القانوني
508-2003
الترقيم الدولي
ISSN: 1112-4067



مجلة الفضاء المغاربي

الفضاء المغاربي

مجلة دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية
وأعلامها في المغرب العربي



جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

العدد السادس والسابع

السنة الثامنة ذو الحجة 1432 / نوفمبر 2011م

الفضاء المغاربي

مجلة دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي

المدير المسؤول: أ.د. محمد مرتاض
رئيس التحرير: د. محمد زمري

الفهرس

06	افتتاحية.....
		مدير المجلة
		الثقافة والفكر والتصوف
11	الصلات الثقافية بين تلمسان وفاس.....
		أ.د. مصعب مرتاض
22	تراث ابن مرزوق التلمساني الخطيب مصدرا لتاريخ المجاورين بمكة المكرمة والمدينة المنورة في القرن الثامن الهجري.....
		أ.د/ صعد الرراكلي
40	العلماء التلمسانيون ودورهم في بعث الحركة الأدبية جنوب الصحراء.....
		أ.د/ أحمد جعدي
55	أثر جهود علماء الحديث النبوي بتلمسان على المشرق الإسلامي.....
		أ.د. شحاه علي الحقيه
102	علماء تلمسان على عهد الدولة الزيانية.....
		أ.د. يونس برجلة
105	الطرق الصوفية.....
		أ.د/ محمد مقديري
117	الطرق الصوفية في الأغواط (الطريقة التجانية أنموذجا).....
		أ. صرة كيبني

الأدب والتعد والتراج

- 129 المصطلحات البلاغية في كتاب «العمدة»
د. محمّد محيي الدين
- 140 النص الشعري الجزائري في كتاب نفع الطب
أ.د. محمد زمرى
- 154 الأدب السياسي في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن للهجرة
أ.د. أصحاح كالب
- 163 وصف المعارك في الشعر الزياني (السلطان أبو حمزة و موسى أنموذجا)
د. خروية بن عدي
- 176 أثر المولديات في الشعر الشعبي للأطفال
د. زهرة خرواني
- 190 عناصر الفن القصصي في شعر مالك بن المرحل
د. أمينة بن جماعي
- 195 تلمسان في شعر ابن خميس
أ. شعبان صاري زليخة
- 2 أبو مدين شعيب دفين العباد بتلمسان غياب المعالي
سيرته
- أ. عبد الحكيم مرناض
- 2 المنحى الخلقى للشعر في العهد الزياني
أ. مولاي البرهان شيلي سديحي عبد الرصيم

قراءات

- 237 قراءة في ديوان الشاعر بكر بن حماد
د. بن علي قرين
- 243 قراءة في تعليمية النحو بالمغرب الأوسط إبان العهد الزياني
د. عبد الناصر مرعلي
- 252 قراءة في معيار الونشريسي
أ. بن عمرو صعد

- 261 قراءة في مخطوط معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار
لمحمد بن علي الشريف الزواوي الشلاطي.....
أ / زهير وليد
- 281 قراءة في كتاب «رحلة ابن خلدون»، التعريف بان ظنون ورحلته شرقا وغربا، الرحلة إلى فلسطين
والغرب الجزائري، وتأليف كتاب «المقدمة» نموذجا.....
عيسى بخيتي
- 294 قراءة لابن جني في ظل علم الاجتماع اللغوي الحديث.....
أ / هريما داروي



قراءة في كتاب «رحلة ابن خلدون»
«التعريف بلبن خلدون ورحلته شرقا وغربا»
«الرحلة إلى تلمسان والغرب الجزائري وتأليف كتاب
«المقدمة» نموذجا»

أ. عيسى بخيتي

جامعة تلمسان.

ابن خلدون اسم من الأسماء العربية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، ولعل اسمه مرتبط بالعلم أكثر منه بالأدب إذ يعد مؤسس العلم الاجتماع، ولأنه عرف بموقفه الشهير «المقدمة». وحتى هذا الكتاب الذائع الصيت هو شطر من كتابه الجامع «العبر وديون المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، وقد اختُصر لهذا الكتاب عنوانا عبر الزمن فأصبح يعرف بـ «تاريخ ابن خلدون»، ثم إن هناك أمور بالغة الأهمية في حياة ابن خلدون من شأنها أن تثري الثقافة العربية قد غطتها ظلال شهرته المشار إليها: إذ زالت جوانب من حياة ابن خلدون الفكرية والأدبية لم تأخذ حقيقتها في مجال البحث، إذ كان سياسيا كبيرا وفقهيا، وقاضيا، ومحدثا وسفيرا ناجحا، وأديبا. فقد ساهم في مجال الشعر، كشاعر مبدع، وفي الجانب النثري كحالة متمرس، إلى جانب كتابة الرسائل الفنية. ولما كان موضوعنا محمدا بهذا الجانب - أي مجال الرحلة - فسوف نلقي نظرة على رحلته التي ألحقها في آخر كتابه «العبر».

التعريف برحلة ابن خلدون.

رحلة ابن خلدون هي مصنف مستقل مذيّل لكتابه «العبر»، وقد ظل ملحقا ملازما وظلاً لهذا الكتاب قرونا، حتى أفرج عنه وفصله العالم المغربي «محمد ابن تاويت الطنجي» (ت 1963) سنة 1951 بعد تحقيقه، وأصبح منذ ذلك الوقت كتابا مستقلا بذاته معروفا

في الأوساط العلمية بـ «رحلة ابن خلدون» أو «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا»، ومن ثم توزع هذا الكتاب في ديار النشر، وكان آخرها سنة 2003 حيث نشره «نوري الجراح» ضمن «سلسلة ارتياد الآفاق».

ولعل ما يميز رحلة ابن خلدون بالإضافة إلى كونها تحمل ألوانا من شخصية مرموقة في تاريخ الفكر العربي والإسلامي، فإن لها من الميزة الأدبية، بحيث تعالج قضيتين في آن، متمثلين في السيرة الذاتية وأدب الرحلة؛ فحتى وإن كان فن السيرة مستحدثا، نتج عن عامل المثاقفة بحكم العلاقة الوطيدة بين الثقافة الأوروبية والثقافة العربية² فإن إبراهيم عبد الدايم يوصل هذا الجنس السردي في التراث مؤكداً أن السيرة الذاتية وإن لم يُعرف مصطلحها إلا حديثاً ذات جذور تاريخية تعود إلى مؤلف ابن خلدون «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا»³ وإن كان ابن خلدون ليس الأول من بين المؤلفين العرب والمسلمين الذين ترجموا لأنفسهم، وإنما يعتبر المجلي بينهم في هذا المضمار⁴.

ثم إن إبراهيم عبد الدايم لا يذكر شيئا عن جنس الرحلة من نسب مصنف ابن خلدون، ومن ثم يذهب إلى التقليل من شأن متعتها الأدبية، من حيث هو يريد المتعة الحاصلة من فعل الكتابة عن الذات، إذ يقول: «ومما يقلل من المتعة الأدبية في الترجمة الذاتية لكل من «ابن خلدون» والشعراني» أن الأولى، رغم أنها أقرب إلى التراجم الذاتية في التراث العربي، إلى الشكل الفني، فإنها تخرج عن الواقع الذاتي لابن خلدون، حين نراه يتناول أحداثا وشخصيات خارجية تناولا يدعو إلى كثير من الاستطرادات والتفصيلات، وحين يعتمد على إثبات رسائل وأشعار مطولة له ولآخرين⁵. وهو ما يراه إحسان عباس من عدم تفاعل ابن خلدون في نصه مع الأحداث الجسام التي غصت بها حياته والتي تناولها في كتابه «الرحلة» كغرق أهله جميعا في سفينة قادمة من تونس؛ «فإذا جوابه على هذه الفاجعة أنه يريد زيارة مكة ليعزي عن فقدهم. ومعنى هذا أن الصراع الذي يخلق الفن ضعيف في تلك السيرة الذاتية»⁶. ومع هذا فإن ابن خلدون أبان عن

أسلوب «لم يخرج إلا نادرا عما هو معروف عنه بأنه من كبار أئمة الأدب وأعلام البيان العربي ومن أبرز المجددين في أسلوب الكتابة العربية»⁷

وقد تراوحت آراء الباحثين بين من يصنفه مع كتاب السير كما هو الحال مع شوقي ضيف في كتابه «الترجمة الشخصية»، وإحسان عباس في كتابه «فن السيرة»... ومنهم من يضعه في خانة الرحالين مثل حسني محمود حسين في كتابه «أدب الرحلة عند العرب».

أما بخصوص كتاب «الرحلة» فقد أراد ابن خلدون من خلاله تذييل كتابه الجامع «العبر»، وجعله في أول الأمر بعنوان «تاريخ ابن خلدون مؤلف هذا الكتاب»⁸، وبدون المدلول واضح من وراء هذا العنوان أنه أراد له أن يكون خاتمة كتابه «العبر». ومع مرور عجلة الزمن، بدت لابن خلدون أن يغير في كتابه هذا، فأدخل عليه كثيرا من التعديلات، والزيادات، وأضاف إليه مراحل حياته المتبقية، ولما حدث هذا التغيير على مستوى الكتاب وأصبح حجمه أكبر، سارع إلى تغيير عنوانه القديم إلى عنوان جديد يحمل الاسم الذي هو عليه اليوم «التعريف بان خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غربا وشرقا»⁹.

وما نستخلصه من رحلة ابن خلدون أنها ترجمة شخصية، حاول أن يرسمها في قرطاس، مسجلا فيها فصولاً من حياته بكل ما فيها من سليات وإيجابيات. لم يذكر شيئا عن حياته كثيراً بل عرض بالتفصيل حياته العلمية ورحلاته بين المشرق والمغرب، فقدم في هذا الكتاب ترجمته ونسبه والتاريخ الخاص بأسلافه، كما تضمنت هذه المذكرات المراسلات والقصائد التي نظمها، وتنتهي هذه المذكرات قبل وفاته بعام واحد مما يؤكد مدى حرصه على تدوين جميع التفاصيل الدقيقة الخاصة به لآخر أيامه، مشيراً إلى ذلك بالرحلة. ورحلته هذه لم تقم على الذهاب والإياب كما هو في تقليد الرحلات، «فهو لم يكن ليترحل طلباً للرحلة في ذاتها وإنما تحت قسر الأحداث في الغالب»¹⁰ وإن جاز لنا أن نقول، هي المسار الذي جاب به أقطار البلدان من مغربها إلى مشرقها، فهي

رحلة عمر بأكمله، بجلوه ومره، وماهي في الأساس» إلا مذكرات سياسية خطيرة تقفنا على أحوال البلدان التي أهد بها وكل ما كان يجري بها من شؤون سياسية واجتماعية. وستظل هذه المذكرات أهم الوثائق التاريخية التي دونت عن الأندلس والمغرب ومصر والشام لعصره»¹¹.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن ترجمة ابن خلدون لنفسه في هذه الرحلة، من باب التعليل والاعتذار والتبرير، حيث كانت تكتفه ظروف مضطربة²¹ فيها مجال للأخذ والرد والقييل والقال، فكتب سيرته لينصف نفسه أمام التاريخ، ليبرر ما جرى له من زاوية ذاتية.³¹ وهو ما يفسر شخصية ابن خلدون التي يغلب عليها الاضطراب، وعدم الاستقرار، ولعل المتتبع لسيرته يلاحظ هذا بشكل ملفت، خصوصاً في بعض المراحل المتميزة كالذي حدث له في مصر من أمر التولية والعزل في منصب قاضي القضاة والتي بلغت ست مرات، وما حصر هذا العدد إلا وفاته، وهو لا يرى حرجاً في ذلك. « كما كان دائماً لا يجد بأساً من التحول إلى الغالب من الحكام، فهو يشتغل اليوم مع هذا الأمير وغداً مع عدوه»⁴¹ وهو الأمر الذي ترك مجالاً واسعاً لاختلاف الباحثين والدارسين حول شخصية.

مسار الرحلة ومضمونها

تنطلق رحلة ابن خلدون كنص، من الولادة والنسب، ثم النشأة في تونس، مع ذكر تلمذته وحفظه للقرآن على يد شيخه عبد الله محمد بن سعد بن برّال الأنصاري، ثم يذكر فهرسة لشيوخه والكتب التي تناولها بالدرس على هؤلاء الشيوخ، من لغة وأدب وحديث وفقه وقراءات وغيرها من العلوم التي كانت متصدرة في عصره، فحفظ بذلك ووعى، وقد ترجمه مطولاً لهؤلاء الشيوخ، وكان ابن خلدون حريصاً على مجالسة العلماء وتحصيل العلم، حتى أتى على الناس مرض الطاعون الذي أهلك فيه من هلك وكان من بين الهلكى أبوي ابن خلدون؛ وبعد هذا الأمر تبدأ رحلة ابن خلدون الحقيقية المعتمدة على السفر

والترحال، وعن الرحلة المدونة ككل والتي خطها ابن خلدون بقلمه بعد ما عاشها بجسده وشعوره تمحور في معالم بارزة:

- الرحلة إلى فاس : خرج ابن خلدون من تونس سنة 755هـ قاصدا المغرب الأقصى واستمرت هذه الرحلة من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى حوالي سنتين كاملتين تنقل خلالها ابن خلدون بين عدة مدن وبوادي وعاشر القبائل وعرف الشيوخ وهنا أتيج له أن يعايش البدوي واقعهم، ويتعرف إلى طبائعهم، ويقف على مناحي سلوكهم. وقد دعاه السلطان أبو عنان المريني بعد سيطرته على المغرب كله فقربه ليكون في مجلسه العلمي بفاس؛ ولما حدثت نكبة بينهما حبسه قرابة العامين؛ وما أنجاه من السجن إلا وفاة السلطان، ثم أصبح كاتب سر للسلطان المستخلف أبي سليم. وبعد وفاة هذا الأخير اختلف مع وزيره عمار بن عبد الله، فاستأذن في مغادرة فاس.

- الرحلة إلى الأندلس (غرناطة) : رحل ابن خلدون إلى غرناطة عام 764هـ بعد حوالي تسع سنوات قضاه في البلاط المغربي، فوجد ترحابا وحفاوة كبيرتين من لدن السلطان أبي عبد الله محمد ووزيره لسان الدين ابن الخطيب، وكلفه هذا السلطان في مهمة إلى قشتالة لدى ملكها. وبعد سنتين غادر الأندلس متأسفا بعد ما بدر من الوشاة، فأفسد الدهر بينه وبين ابن الخطيب.

- الرحلة إلى بجاية ثم بسكرة : غادر ابن خلدون غرناطة وخرج متأسفا إلى بجاية فعينه الأمير أبو عبد الله حاجبا على الفور - وهو أعلى منصب سياسي في عصره - وبعد أكثر من سنة غادر بجاية، حيث زعزع استقرارها السلطان أبي العباس والتي لم يعد يشعر فيها بالأمان والتجأ إلى عرب الدواودة ثم إلى بسكرة.

- الرحلة إلى تلمسان : طلب أبو حمو الزباني حاكم تلمسان من ابن خلدون العمل معه في الحجابة، فرفض هذه الوظيفة واستبدل مكانه أخاه يحيى في ذات المنصب، ولكنه وافق على القيام بدور الداعية لهذا السلطان في أوساط أولاد رياح.

- المغرب الأقصى (فاس): وبعد اجتماعه الأول بأبي حمو طلب منه الإذن بالرحيل إلى الأندلس فأذن له ولكن مفرزة عسكرية أوقفته في هنين وقد مته لعبد العزيز المريني، فكث أربع سنوات كعون داعية لعبد العزيز في أوساط أولاد رياح، ومدرسا من حين لآخر. وبعد اختلافه مع معظم شخصيات البلاط المريني، استأذن للرحيل إلى غرناطة فأذن له بذلك.

- الأندلس: هناك سعى ابن خلدون لابن الخطيب - حيث كان مسجوناً - عند ابن الأحمر فلم تتجح السعاية وقتل ابن الخطيب في محبسه، وفي نفس الوقت أوجس السلطان المريني من أن يكون ابن خلدون طرف نزاع بينه وبين ابن الأحمر، فتأمروا عليه، وأجيز إلى العدو وتزل بهنين.

- تلمسان: حينها كان الجوين ابن خلدون وأبي حمو مضطربا، ورغم ذلك ولأسباب، استقدمه السلطان، وبعدها كلفه بمهمة السفارة لقبائل الدواودة، ولكن ابن خلدون رفض القيام بهذه المهمة وانتقل إلى قلعة بني سلامة.

- قلعة ابن سلامة استقر ابن خلدون أربع سنوات في بني سلامة، وهناك وجد ضالته، وحقق رجاءه، بكتابته لمعلمته الشهيرة.

- تونس: بعد أن حن للوطن، واستنفذ ما كان له من ذخيرة معرفية لجأ إلى الاستجداء بمصادر ودواوين لإتمام كتابه العبر، فغادر بني سلامة، عائد إلى تونس حيث عفا عنه السلطان أبو العباس وخصه باستقبال حار، وبعد مكث دام أربع سنوات تعرض لدسياسة دبرها ضده زميله السابق في الدراسة ابن عرفة، فغادر بلاط تونس قاصدا مكة، متذرا عابريضة الحج.

- مصر: وصل القاهرة، فقدم إلى الملك الظاهر برقوق، وعين أستاذا بمدرسة القمحية في القاهرة، ثم قاضي قضاة المالكية، وفي هذه الفترة تعرضت

أسرته للفرق في عرض مياه الإسكندرية فحزن عليها.

- الحج : بعد استقالته من وظيفة القضاء، وما كان من حدث الهلاك لأسرته، ذهب لأداء فريضة الحج وبعدها عاد إلى مصر.

- مصر: استمرت حياة ابن خلدون في مصر بين التنصيب في وظيفة القضاء والعزل، والتدريس أحيانا.

- الرحلة إلى دمشق وكانت زيارة رسمية ضمن وفد من حاشية فرج الذي خلف الظاهر برقوق، وزار خلال هذه الرحلة القدس، وبيت لحم والخليل، وبعد رجوعه إلى مصر عين في القضاء ثم أقبل من منصبه فعاد إلى دمشق رفقة فرج أيضا وتولى التدريس في مدرسة العادلية، وحينها أتيحت له الفرصة لزيارة تيمورلنك الذي حاصر دمشق وجامع الأمويين.

- مصر: ومن هذه العودة إلى مصر مكث فيها متراوحا في سدة السياسة، يولى ثم يعزل في وظيفة القضاء، حتى بلغ منها ست مرات، حينها وافته المنية، وقد أنهى كتابة رحلته هذه قبل وفاته بأقل من سنة.

الرحلة إلى تلمسان والغرب الجزائري، وتأليف كتابة "المقدمة"

عدّد ابن خلدون الترحال ولم يستقر له قرار منذ أن هبت ريح الطاعون فطوت بأهله وشيوخه البساط بما فيه، وشاءت الأقدار على هذا العلم أن يكون شاهد عصره ومشاركاً في الحياة السياسية والعلمية، وبدأت رحلته منذ ذلك الحين فلم تزل إلى أن قضى عليه الموت؛ ولم تكن رحلة ابن خلدون كواحدة من الرحلات الاستجمامية، الاستطلاعية، بل كانت رحلته كلها مشاق، فقد طوّق بهموم الدهر كلها، فبين رخاء وقسوة، وبين رفعة وإهانة، وبين سجن وحرية وبين أمن وخوف، عاش الحياة مجلّوها ومرها

مع تقلب الأوضاع والصراعات التي كانت تطيح بالسلاطين فيذهب هو ضحيتها بين فار ومسجون؛ إذا ما أضفنا إلى ذلك الوشائيات التي كانت تعصف كل مرة، مبعده من مقامه المحمود، فكانت حياته مليئة بالتجارب القاسية المريرة التي اكتشف من خلالها مظاهر العصبية والتحول في الدول والسياسات، ولعل هذا الاضطراب الذي ساد عقله وكسح وجدانه، هو الذي فجر فيه الطاقة على الدفع بعبقريته لإصدار كتاب مدهش، في شكل "المقدمة".

ولذلك تعد رحلة ابن خلدون الأخيرة إلى تلمسان والغرب الجزائري منعطف حياته، ومفترق طرقها، فهذه الرحلة هي المحطة التي من أجلها، هو اليوم خالد في التاريخ، حيث انبسط له المقام، وتهيأ له المكان ليصير فؤاده مفرزا عبقريته في نتاجه هذا. وهي العتبة التي بدأ يغادر فيها المغرب باتجاه المشرق بعد تونس.

ويذكر ابن خلدون هذه الرحلة أنه بدأها منذ أن تنكر له السلطان أبو العباس صاحب فاس، فتوسط له "وتزمار بن عريف" من أجل الانصراف إلى الأندلس قصد القرار والانقباض، والعكوف على قراءة العلم¹⁵ ومن هنا تجد الإشارة إلى أنه قد ضاق ذرعا بالسياسة، وأراد أن يستريح منها والعكوف على العلم وهي بمثابة الإرهاص على مخاض فكره للتتويج بإتجاه السالف الذكر، فوصل الأندلس في ربيع 776 هـ، وهناك كرم وحسن استقباله ونزله؛ ويذكر أنه ترك أهله في فاس ولما طلبهم بوصية عبد الله بن زمرّك الذهاب إلى سبتة في أسطوله "تنكر والذك وساء هما استقراره في الأندلس . . وطلبوا من السلطان ابن الأحمر أن يجيزه إلى عدوة تلمسان".¹⁶ وقد سعى المرينيون لدى ابن الأحمر لإبعاده عن الأندلس وذلك من فرط خشيتهم من أن يفسد علاقتهم بسلطان غرناطة، فقطع البحر نحو هينين، وهو مغمم بسبب التنافر بينه وبين السلطان الزياني، ويذكر ذلك بقوله: "والجو بيني وبين أبي حموم ظلم"¹⁷ ولقد بعث له السلطان للمقام بتلمسان، بعد وساطة محمد ابن عريف فاستقر بالعباد، وهناك لحق به أهله وولده من فاس، ثم بدا

للسلطان - أن يستدعيه ويكلفه السفارة إلى قبائل الدواودة، وفي ذلك كان ابن خلدون قد عزم في قرارة نفسه أن يكبَّ على العلم، فأوهمه بأنه سيؤدي المهمة، ولكن كان هذا فراق بينهما؛ فخرج مسافراً إلى البطحاء¹⁸ ومنها عدل إلى منداس¹⁹ ومن ثم التحق بأولاد عريف قبلة "جبل كزول"، فلقى هناك ترحاباً كبيراً يليق به وأكرموه، فأقام بينهما أياماً ثم أحقوا به أهله وولده من تلمسان، واعتذروا وهم للسلطان أبي حموعن عجز ابن خلدون في المهمة المكلف بها من قبله، وأتزلوه وأهله في قلعة ابن سلامة²⁰ وهناك أقام ابن خلدون أربع أعوام في سكينه ليس من يعكجوه ويقول في ذلك: "فأقمت أربعة أعوام، متخلياً عن الشواغل كلها"²¹ وفي هذا الهدوء وبعيد عن السياسة وكدرها شرع في تأليف كتابه "المقدمة" ويصرح قائلاً: "شرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها وأكملت المقدمة منه على هذا النحو الغريب، الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة"²² فقد كانت الظروف مهياًة من أجل إفراز هذا العمل بعد أن اختمر وسرى في روحه "فسالت شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها، وتألقت تتأججها"²³ وبعد أن يعنون لخط رحلة أخرى والوجهة هذه المرة إلى تونس، يذكر من سلامة المقام وحده فيقول: "ولما نزلت بقلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف، وسكنت منها بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها، وكان من أحفل المساكن وأوثقها"²⁴ يذكر هذا وهو الذي تراوح مقامه بين قصور السلاطين وسجونهم، وبين النفي والسياحة، بين كل هذه المتناقضات، بل لعلها الذكرى الحميدة التي خلفها له المكان، حيث من خلا له كان الإبداع في رائعته، وأكثر من ذلك فهذا المكان هو الذي حجز له مساحة ورتبة في تاريخ الفكر البشري وصنع له مجداً؛ ثمها هو يبررسبب الارتحال إلى تونس: "وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناته، وتشوفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أملت الكثير من حفظي، وأردت التنقيح والتصحيح"²⁵. ثم هو في هذه الرحلة إلى تونس له مبرراً آخر نلتمسه في قوله "ثم طرقتني مرض أوفى بي على الشنية، لولا ما تدارك من لطف الله، فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس، والرحلة إلى تونس، حيث قرار

آبائي ومساكنهم، وآثارهم وقبورهم، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته والمراجعة، وانتظرت. فما كان غير بعيد، وإذا بخطابه وعهوده بالأمان، والاستحثاث للقدوم، فكان الخفوف للرحلة²⁶ فندرك أن ابن خلدون قد اشتاق إلى أول مسكنه، فهو موطن الطفولة وماثر الآباء والأجداد والشيخ وبعد الغربة والاعتراب بعيدا عنه، ها هو يحن إليه ويطلب من السلطان أن يمنحه الأمان للالتحاق بالوطن الأصل، وبمجرد ما وصل إليه من خبر السلطان بادر إلى الرحلة.

وخلاصة ذلك أن رحلات ابن خلدون كانت شاقة بلا ريب، مدلهمة لا تساعد على الاستقرار، واشتدت أكثر فأكثر في السنوات الخمس ما بين (770هـ - 775هـ) حيث اشتدت ضراوة الفتن والاضطرابات، وبحث حثيثا عن قرار للعلم والراحة، لأن ابن خلدون هذه المرة عزم أن تكون مهمته علمية خالصة لا ينازعه فيها سلطان، بل الراحة والابتعاد عن الصراع واللجوء إلى الخلوة، وذلك لأن المخاض الفكري آن وقته وساعة النبوغ والعبقرية اكتملت ولا بد أن تضع العبقرية حملها، ولا ندري أهي من الصدق أم من باب كرامة البيئة الجزائرية التي هبت برياحها على ابن خلدون ليجد مولوده المدوي عبر التاريخ هذا المكان للوجود.

ثم إنه ليس من باب الصدق أن تقع خيارات ابن خلدون على منطقة فرندة أو بالضبط بني سلامة مكانا للاستقرار وكلمة معلمته "المقدمة وما تبعها"، بل كما نلاحظ أنه بمجرد التحاقه بتلمسان كلفه السلطان أبوحمو بالسفارة، فأبى ولم يتعد عنه كثيرا، حيث المسافة بين تلمسان وتيارت ليست بالمسافة البعيدة، إلا أنه ثمة هناك أمر يتعلق بتأثير البيئة الجزائرية في حياة ابن خلدون²⁷ وفكره، وهذه البيئة كما يذكر المهدي البوعبدلي هي بيئة القبائل العربية التي نالت حينئذ نفوذا قويا وسلطة ممتازة كان يخضع لها الملوك والسلاطين، فابن خلدون كانت له علائق مع جميع رؤسائها²⁸ وهو ما يفسر أن ابن خلدون وجد في غرب الجزائر ما لم يجد في أي ناحية رحل إليها من الأمن وصفاء الجوقط، ليترك له المجال واسعا أمامه وفسح له كل أسباب الراحة فدوّن وأبدع؛ ومن جهة أخرى يفسر

لنا أيضا قوة القبائل العربية أيضا في الإتيان بأهله وولده من تلمسان، - ولم يجرؤ أحد في توقيف هذه العملية - ففي الشرق الجزائري كانت قبيلة الداوودة، وفي غربه كانت قبيلة بني عامرو في الوسط كانت قبيلة سويد، ومن الطريف أن ملوك البلا دكانوا يلجئون إليه في الأزمات ليستعمل نفوذه في صالح مملكتهم، ولعل أبي حمو وهو في أشد الخصام مع ابن خلدون نراه ينتدبه سفير إلى قبيلة الداوودة لأن مكاتته كوسيط بين السلطان والقبائل هي التي كانت تشفع له باحتجاز مكانة في عرش السلطان، وما هو جدير بالإثبات، أن ابن خلدون وجد لدى القبائل الجزائرية من راحة وأمن ما لم يجده طيلة مكثه في جميع الأقطار التي أقام فيها، ومن ثم فقد سجل وقائع زمانه بما فيها من محاسن ومساوئ، ثم إن إقامته بالجزائر وتجوله في ربوعها، واختلاطه برؤساء قبائلها وسكناه في مخيماتهم، ثم التفرغ لتأليف كتابه في قلعة من قلاعهم، جعلته ينفرد بالحكم على أحداث زمانه، حكم خير شاهد عيان²⁹. فقد كان ابن خلدون رجلا ميدانيا، يعتمد على تحليل المجتمع من خلال سلوك وتصرفات أفراده، ولم يكن يكتفي في ذلك بمجرد الأخذ من المصادر المكتوبة.

الهوامش

- 1 - شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، دارالمعارف، القاهرة، ط 2، 1956، ص 101.
- 2 - محمد الباردي، عندما تتكلم الذات- السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005 ص 16.
- 3 - ينظريجي إبراهيم عبد الدائم «التَّرْجُمة الذاتِيَّة» في الأدب العربي الحديث «دار النهضة العربية، القاهرة، دت، ص 37.
- 4 - حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط 2، 1983، ص 55.
- 5 - ينظر، يحي إبراهيم عبد الدايم، المرجع السابق، ص 40.
- 6 - إحسان عباس، فن السيرة، دارالثقافة، بيروت، دت، ص 120.
- 7 - ينظر حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 63.
- 8 - المرجع نفسه، ص 55.
- 9 - المرجع نفسه، ص 56.
- 10 - ينظر حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 64.
- 11 - ينظر، شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 104.
- 12 - ينظر إحسان عباس، المرجع السابق، ص 127.
- 13 - المرجع نفسه، ص 128.
- 14 - ينظر، شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 103.
- 15 - رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، دارالكتب العلمية، بيروت.

- ط1، 2004، ص186 .
- 16 - المرجع نفسه.
- 17 - المرجع نفسه ، ص187.
- 18 - وهي منطقة بين غليزان والشلف.
- 19 - وهي اليوم مدينة معروفة تابعة لغيلزان.
- 20 - وتسمى قلعة تاوغزوت Taoughzout وتبعد حوالي ست كيلومترات عن مدينة فرندة من الجنوب الغربي والتي تتبع إداريا لولاية تيارت حاليا.
- 21 - رحلة ابن خلدون. مصدر سابق، ص188.
- 22 - المرجع نفسه.
- 23 - المرجع نفسه.
- 24 - المرجع نفسه.
- 25 - المرجع نفسه.
- 26 - المرجع نفسه.
- 27 - المهدي البوعبيدي، مجلة الأصالة، عدد 68/69، ص117.
- 28 - المرجع نفسه، ص119.
- 29 - المرجع نفسه، ص119.

Université ABOU BEKR BELKAID - Tlemcen

REVUE

L'ESPACE MAGHREBIN

REVUE PERIODIQUE
DIRIGEE ET PUBLIEE PAR LE
LABORATOIRE D'ETUDES LITTERAIRES
ET CRITIQUES ET DES GRANDES
FIGURES DANS LE MAGHREB ARABE

Numéro 6 - 7



N° légal d'édition
508-2003

Numérotation nationale
ISSN: 1112-4067



المقالتان

-المقالة الثانية-

العدد 16
جويلية 2014



ISSN: 6507-1112

مجلة اللغة والاتصال



مجلة علمية محكمة يصدرها مختبر اللغة
العربية والاتصال
جامعة وهران - الجزائر

المراسلات:

مختبر اللغة العربية والاتصال جامعة وهران الجزائر
الهاتف: 0561308913. الهاتف فاكس: 041582540
البريد الإلكتروني: azouzahmed@hotmail.fr

- 103 التأثيرات النقدية الغربية المعاصرة في كتابات عبد الملك مرتاض.....
د. فاطمة عبد الرحمن، جامعة الشلف
- 123 إشكالية القراءة الأدبية عند عبد المالك مرتاض
د. الشارف لطروش، جامعة مستغانم
- 129 آليات اصطناع المصطلح عند عبد الملك مرتاض
أ. نور الدين دريم، جامعة الشلف
- "عبد المالك مرتاض رائد السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث"
145
أ. عيسى بخيتي، جامعة حسبية بن بوعلي-الشلف
- 181 التجريب البيوي في الخطاب النقدي عند "عبد المالك مرتاض"....
أ. صليحة بردي، جامعة الشلف
- 199 إشكالية تمجين المنهج السيميائي عند عبد الملك مرتاض
أ. عبد الله بوقصة، جامعة حسبية بن بوعلي-الشلف

"عبد المالك مرتاض رائد السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث"

أ. عيسى بخيتي

جامعة حسينية بن بوعلي - الشلف

قبل البدء

إن اختيارنا لهذا العنوان الحاسم ليعد من المجازفة التي لا تخلوا من مخاطرة وتبعات، وإذا ما تمحصنا قليلا في دافعه "الابتزازي"، نقول، إننا في ذلك لمن المطمئنين على هذا الادعاء من جانبيين: أولهما، يتمثل في اجتهادنا في هذا الموضوع والحفر فيه حفرا مضمنا، ومن ثم لم نتوصل إلى نص فني متكامل للسيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث إلا هذا النص الذي نرى فيه وسم الريادة.. ثانيا، إذا لم يتحقق لنا في هذا إلا الضرب في جدوى باطلة (حائية)، فإننا سنحقق المطلوب الثاني، والمتمثل في استنطاق من تتوفر لديه الحجة لدحض ادعائنا، وهو ما سيسرنا حتما، ونكون بذلك قد حققنا نتاجا كنا عنه غافلين، وهي خطوة أخرى للتأسيس، وكل يدخل في باب الأدب الجزائري الذي يتجاوز الجميع، وبغيتنا في ذلك، هو الإسهام فيه بأكبر قدر حتى تطفو الأعمال الأدبية المغمورة وتصبح في متناول الباحثين، ونصل بذلك إلى حقائق الأشياء.

1. السيرة الذاتية جنس أدبي

السيرة الذاتية جنس أدبي، عُرف حديثاً مع موجة التجديد في تصنيف العلوم جميعها، بما في ذلك العلوم الإنسانية وفنونها، وقد تماهت التعريفات الكثيرة والمتضاربة في تحديد مفهوم هذا الجنس الحديث-القديم، وكلها تروم الحديث على أنها تتمثل في "حسن التقسيم وعدوية العبارة، وعلى بث الحياة والحركة والحرارة في تصوير الوقائع والشخصيات"⁽¹⁾ ولعل أقرب المفاهيم، ما ذهب إليه محمد حسن عبد الغني، مبسوطاً في ذلك بقوله: "الترجمة الذاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعاً لأهميته"⁽²⁾ كما نجدها عند المنظر الفرنسي فيليب لوجون (Philippe le jeune) على أنها "حكى استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته يصفه خاصة"⁽³⁾. وإذا كانت هذه التعريفات المبسطة لا تفيد إلا جانباً قاصداً، من هذه الحكاية التي تبدو محصورة في حياة شخص مجردة، فهي بالعكس، تقوم شاهدة على عصر، أو جيل بما فيه من تغيرات وتحولات في مجتمع معين، لأن "السيرة الذاتية الناضجة تطرح عادة مسائل فكرية أو فنية أو اجتماعية دقيقة من خلال التجربة الشخصية للكاتب، ويكون معناها أحياناً أبلغ من أي كتاب فلسفي لأنها تقدم القناعات الفكرية مع إطارها الحي. كما أنها تتضمن اعترافات تتعلق بأعمال فكرية

(1) - يحيى إبراهيم عبد الغني، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دت، ص 467.

(2) - محمد حسن عبد الغني، التراجم والسيرة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 23.

(3) - فيليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص 22.

للمؤلف نفسه وتفحصا لمواقف فكرية وفنية سابقة⁽¹⁾. وهو ما يُعظم من شأنها ويرقى بها إلى مصاف الفنون الراقية، لأنها سوف تضيئي العناية على فترة زمنية يكون فيها تغير حتمي لجيل، فيحرك هذا التحول عملية استرجاعية سريعة في شريط الأحداث لذكريات كانت ساذجة، يولي لها الاهتمام من جانب فلسفي يرى التحولات على وجوه متعددة، من النقد والبناء والترتيب للأفكار والتطور..، ولعل من العوامل الناجعة على نجاح العمل السيري هو المراهنة على المجتمع كضرورة أساسية لبث الأفكار والتعامل معها على مبدأ التفهم والنظر إلى الذات الإنسانية من منظور غطت الطرف عن ماضي الشخص المراهق.. وهذا الذي لم يوجد له تفسير في المجتمعات المتخلفة.. وهو ما يعسر من أمر الكتابة السيرية ويجعلها أعقد المجالات الإبداعية على الإطلاق، حيث "يقوم على الكشف الداخلي والاعتراف ولباقة العرض ولطف الإشارة. ولها كان يحتاج لشروط اجتماعية مواتية، من أهمها أن يكون المجتمع قد بلغ درجة كافية من التطور والانفتاح تتيح له أن يتقبل اعترافات الكاتب وآراءه وصراحته وتجربته الخاصة بروح من التسامح والتعاطف وتقدير الهامش الضعف الإنساني الذي لا بد أن تكشف عنه أية سيرة ذاتية ناجحة"⁽²⁾ مع مراعاة الضوابط العرفية في كل مجتمع، هذا إذا تحقق في المجتمع مستوى معلوم من التفهم والثقافة التي تسمو على الدنايا في متابعة الأشخاص في تقدم القشور على اللباب من حياتهم، وهو ما يمكن قوله أن "كتابة سيرة ذاتية صريحة في مجتمع مترمت مثلا، يمكن أن تتضمن انتحارا على

(1) - حسام الخطيب، أيام طه حسين وفن السيرة الذاتية في النقد الأدبي العربي الحديث تأليف مشترك. جمع وتقديم عبد النبي اصطيف، مطبعة الاتحاد، دمشق، 1991، ج2، ص240.

(2) - المرجع نفسه، ص227.

المستويين الشخصي والفني بما قد تجرّه من نقمة على الكاتب لا تتوقف عند إدانته كإنسان"⁽¹⁾ ومن هنا تكمن المجازفة في شأن هذا النوع من الأدب. وإذا كان العمل السيري هو الخوض في استرجاع ذكريات الشخص الماضية يرويها هو عن نفسه، مستعينا في أحيان إلى بعض لوازم تلك الذكريات وعناصرها، مثل الوثائق والصور. لأن السيرة الذاتية بالنسبة لكاتبها تمثل عملية استرجاع "الأحداث والمواقف والشخصيات التي مرت به، ويصوغها صياغة أدبية محكمة، بعد أن تنحى جانبا كثيرا من التفاصيل والدقائق التي استعادها ذاكرته وأفادها من رجوعه إلى ما قد يكون له من يوميات ورسائل ومدونات تعينه على تمثيل الحقيقة الماضية"⁽²⁾، ونسجها نسجا سرديا بخيوط الأسلوب الفني الذي يلجأ إلى آليات إزاحة الضباب الكثيف على تلك الذاكرة وإعطاء صورة مما تبقى من | حافظتها التي نسخت بعض الصور، بعضها آخر منها، فترسخت المهمات منها والأكثر إثارة وحساسية، وتبقى الأخرى في حدود الظن والتأويل التي تحمل من السرد الكثير من التخمين بأدوات وتقنيات سردية خاصة.

2. السيرة الذاتية في الأدب العربي.

لقد شكلت السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث طفرة، بعد أن صدر الجزء الأول من كتاب "الأيام" لطفه حسين سنة (1929)، والذي طمس ما كان قد تحقق من أعمال مماثلة وحجب عنها الضوء، كما كان حافزا قويا لما جاء بعده أو من عاصره من الأدباء والمفكرين، ونزف بذلك إنتاج غزير، وجد إقبالا واستحسانا، عند النقاد والقراء على السواء.

(1) - المرجع نفسه، ص 228.

(2) - الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مرجع سابق، ص 4.

ومن هؤلاء الذي أثروا الساحة الأدبية العربية، وزينوا رفوف المكتبات بهذا النوع من الأدب: أحمد أمين الذي نشر كتابه بعنوان "حياتي" عام 1950م، وإبراهيم المازني في كتابه "قصة حياة" عام 1961م، ولطفي السيد في "قصة حياتي" عام 1962م، وكتب عباس محمود العقاد "أنا" عام 1964م، وكتاب "حياة قلم" عام 1965م، ونوال السعداوي كتاب "مذكرات طيبة" عام 1965م وهي أول امرأة تكتب سيرتها الذاتية. ثم توفيق الحكيم في كتاب "سجن العمر" عام 1967. وبعد هذه الحملة من الرواد حدث انتشار كبير وتوسع في جميع مناطق الجغرافية العربية مما يبدو أن الحصر في مقام كهذا، غير مناسب. ولعل المناسب للقول أن السيرة الذاتية مع مرور الزمن عرفت تحولا في الأفكار وتنوعا في الأساليب مما كساها شيئا من الشاعرية، ونفحة من نفحات روح العصر، نجد ذلك في أعمال كل من سهيل إدريس في روايته الشهيرة "الحي اللاتيني"، ومحمد عابد الجاري في سيرته "حفريات في الذاكرة"، ونزار قباني "قصتي مع الشعر"، وإحسان عباس في سيرته "غربة الراعي" والشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان في سيرتها "رحلة جبلية" و"رحلة صعبة"، والأديب الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا سيرته في "البشر الأولى"، وغيرها من الأعمال.

وفي ظل هذا الزخم من الأعمال السيرية في الأدب العربي الذي تكرر شرقا وغربا، لم نجد من تعرض لهذا الفن من الجزائريين طيلة القرن العشرين، ما عدا بعض المحاولات المحتشمة التي لا ترقى أن تصنف ضمن هذا الفن الأدبي الراقى. حيث تحتل السيرة الذاتية في الأدب الجزائري مرحلة متأخرة في تاريخ الأدب العالمي والعربي، وليس لهذا مبرر يتعلق بالاستعمار والقمع والتجهيل الذي تعرض له الجزائريون فحسب، بل لذلك أسباب اجتماعية، وأخرى ثقافية، قيدت الأدباء وصرفتهم عن كتابة تجاربهم كتابة أدبية تفصح عن مستوي فكري ورفي أدبي،

يفسر ما للبيئة والحياة الخاصة من تأثير. وتربط القارئ ببيئة يمثلها كاتبها، أحسن ما تفسره المذكرات التي عكف عليها كثير من جيل ما قبل الاستقلال.

3. مسيرة السيرة الذاتية في الأدب الجزائري - إرهابها وتطورها-

إن أول ما يمكن اعتباره محاولة في مجال السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث، ذلك العمل الذي أصدره "رمضان حمود" بعنوان "الفتى" سنة 1929، وهو من الأعمال المبكرة في تاريخ الأدب الجزائري الحديث، حيث يتزامن تماما مع كتاب "الأيام" لطف حسين، مالف الذكر، وبالتالي يمكن اعتبار كتاب حمود -هذا- باكورة الأعمال في الكتابة عن الذات، وكان ذلك في وقت مبكر جدا مقارنة بما حققه العرب كلهم في هذا المجال. ولو أن صاحبها عرف كيف يتخلص من سرده التعليمي ويخوض التجربة من زاوية توسيع دائرته الأدبية، وإبرامه لميثاق الكتابة في هذا الشأن، فرمما كان له شأننا آخر ليس على المستوى الجزائري بل على المستوى العربي، وفي اعتقادنا أن رمضان حمود كان لا يزال شابا يافعا، بل حتى أن الموت أخذته وهو في عز الشباب، مما يدل على أن أحداثه لم تبلغ بها نمرؤ الذاكرة حتى يطغى على سيرته صيغ استحضار الذاكرة، بل لعلنا نقول إن ذاكرته كانت قريبة عهد بما وصفه، فكأنه يصف واقعا قريبا، ومع ذلك فقد اقتربت كثيرا من فن السيرة الذاتية.

وإذا تقدمنا مع مرور الزمن فلا نجد إلا عبارات وخواطر وبطاقات فنية عن ترجمة أصدرها أصحابها نارة للذكرى ونارة إجابة على طلبات وبذلك لم ترقى إلى مستوى هذا الفن. من هذه الأعمال نذكر:

- "ذكريات من بعيد" للأديب القاص "عبد المجيد الشافعي"، نشرها بجريدة

العبقرية العدد 2 السنة الأولى غرة رجب 1366هـ، وقد ركز فيها كاتبها على ذكريات طفولته في مسقط رأسه بتلمسان، وحديثه عن دراسته وشغبه في بيت

عائلته، وهذه المحاولة لم ترق إلى مستوى الجنس السيرى كما أنها لا تبعد عن تصنيفه.. ومن المحاولات أيضا، محاولة البشير الإبراهيمي سنة 1952، حيث بعث ببطاقة فنية لنشرها في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعد انتخابه عضوا من أعضائها. وقد بدت فيه هذه الترجمة بعض الملامح السيرية. وهي منشورة في مجلة الثقافة العدد 87 - العدد الخاص بالإبراهيمي -.. كما نُشرت بعض التراجم الذاتية هنا وهناك في بعض المجلات والصحف، بتعريفات مقتضبة، منها ما هو موجود في كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" لـ محمد الهادي السنوسي، يطلب منه لبعض من ترجم لهم في كتابه هذا..

أما المرحلة الثانية فتميزت برغبة ملححة في توثيق للذات عبر حسر الحروف، فكانت بعض المذكرات تحمل وسمما سيريا ولكن دون جناحين فأفقدتها التحليق في سماء هذا الفن. كما أن للرواية الجزائرية التي اقتربت من الواقع، وربما -حسب اعتقادنا- لضيق أفق التخيل عند أدبائنا في مرحلة ما، جعلهم يقتاتون موضوعاتهم من تجاربهم الخاصة، فكانت جل رواياتهم بما مسَّ سيرى متذبذب.. كما يمكننا في هذا الشأن التنويه بعمل عمار بلحسن الأخير من أعماله الإبداعية "يوميات الوجد" وهي مقتطفات سيرية تحاكي يوميات مريض يائس يستأنس بالكتابة عن المعاناة والأين.. كان ذلك العمل سنة 1993 قبل أن يغادر إلى دار البقاء...

ولا زال أفق انتظار كبير عند الباحثين والفضوليين على السواء، يترقبون مولودهم الجديد، حتى أشهر عبد الملك مرتاض قلمه ناسجا بذلك خيوط حياته في لوحات سيرية متكاملة الخصائص الفنية.. وقد نشر هذا العمل بعنوان "الحفر في تجاعيد الذاكرة" -لوحات سيرية- سنة 2003 بدار هومة.. ثم أعيد طبعه سنة 2004 بدار الغرب -وهران- مع الإبقاء على العنوان الرئيسي نفسه، وحذف

الفرعي منه. ومن ثم توالت الأعمال السيرية في شكل متسلسل ومتقارب متمثلة في أعمال كل من:

عبد الحليل مرتاض "ما بقي من نعومة أصابع الذاكرة" سنة 2006 نشر بدار الغرب وهران.

قدور عمار إبراهيم "بقايا من عهود الزمن وجذور المحن" سنة 2007 نشر بديوان المطبوعات الجامعية "المطبعة الجهوية" وهران.

المهدي غوتي "رحلة المصير" -مذكرات مجاهد- سنة 2007 نشرته دار الأديب وهران.. وهي عبارة عن مذكرات يرويها صاحبها بشكل سيرى، واضطراب كبير بينها وبين المذكرات.

وآخر الأعمال السيرية الجزائرية تمثل في أول عمل سيرى تسوي جزائري، هو للأديبة زهور ونيسي "عبرُ الزهور والأشواك" -مسار امرأة- عن دار القصة 2012.

4. السرد والميثاق في سيرة عبد المالك مرتاض "الحفر في تجاعيد

الذاكرة"

إن من ضوابط جنس "السيرة الذاتية" اعتمادها على "ميثاق سيرى"، وهو العقد الذي يبرمه الكاتب مع قارئه، يتم بموجبه تحديد نوع القراءة ويوجه القارئ إلى هدف محدد في أثناء القراءة، ويقوم هذا النوع من الميثاق على "تلك العقدة التي يبرمها المؤلف مع القارئ لغاية التأكيد على التطابق بين المؤلف والبطل والرجوع بكل شيء إلى الاسم الشخصي المكتوب على الغلاف"⁽¹⁾ وهذا هو المتعارف عليه عند نخبة المنظرين، خصوصا الغربيين منهم الذين يعدّون، السباقين في

(1) - أنساق الميثاق الأوثيوغرافي، السيرة الذاتية بالمغرب نموذجاً، مرجع سابق، ص 44.

هذا الميدان، خاصة "فيليب لوجون" (Philippe le jeune)، الذي سخّر نفسه لدرس السير الذاتية والتنظير لها، في إطار البحوث الأكاديمية التي أسفرت عن كتب وبحوث عدّة. ويرى في هذا الشأن أن الميثاق "طريقة في القراءة بقدر ما هي غلط من الكتابة، وإن تاريخ السيرة الذاتية ليس في النهاية سوى تاريخ طرائق القراءة التي يتعاقد عليها المؤلفون والقراء عبر التاريخ"⁽¹⁾. وإذا كان الميثاق المبرم بين الكاتب والقارئ في نص السيرة الذاتية، الذي يعتمد على العقد المباشر، من خلال أول توجه من القارئ نحو الكتاب الذي يحمل هذا النص، فهناك من الأعمال التي يستشف قارئها صفة العقد بعد انتهائه من النص، أو حين يعلن عنه في مجالات خارج النص، أو الكتاب ككل، كأن يصرح بذلك في مجالات الصحافة ووسائل الإعلام والإشهار المختلفة... وهي الصفة التي قد أهملها التنظير إلى حين عكفت بعض الأعمال إلى تجاوز هذه الضوابط التنظيرية.

والمتطلع لكتاب "الحفر في تجاعيد الذاكرة" لعبد المالك مرتاض، سوف يحيله العنوان إلى كثير من التخمين حول فهم فحوى هذا النص المحكوم بهذا العنوان، ذلك أن الكاتب معروف في الأوساط العلمية على أنه باحث أكاديمي، عكف على خدمة النقد الأدبي، دراسة ومدارسة، ثم روائي كمستوى ثان، لذلك لا تبدو سيميائية العنوان كإشارة مباشرة على عمل إبداعي، ثم البحث عن نوع هذا الإبداع، الذي قد يبدو أيضا الحفر في ذاكرة الأدب العربي ونقده قديما.. إلا أن المتطلع على الطبعة الأولى الصادرة عن "دار هومة للنشر" يجد عنوانا فرعيا لافتا، "لوحات سيرية"، وهنا يُزاح كثير من اللبس وتبدو الإحالة مباشرة، فتعيدنا لاستقصاء العنوان "الحفر في تجاعيد الذاكرة" الذي يؤسس هوية بنائية، محصورة في زمن ماض معين، لأن القضية تتعلق بـ "الحفر" الذي يجد له مساحة وهي "الذاكرة"، المنبئة في نسق سيميائي آخر

(1) - المرجع نفسه، ص 40.

ومدلول، وهو "التجاعيد" بمعنى أن الزمن قد حقق في الموضوع عجز عن الاستدكار والاسترجاع، وقد قضى على شيخوخة الذاكرة.

ولعنا في هذه العتبة نتساءل ما سرّ حذف العنوان الفرعي الذي لازم العنوان الأصلي في الطبعة الأولى المنشور بدار هومة 2003، هل هو محذوف عمدي وعن قصد من المؤلف؟ أم خطأ من الناشر؟. على كل، فالكاتب قد عقد ميثاقا في أول الأمر، على أنها لوحات سيرية، والعمل هو نفسه في الطبعة الثانية المشار إليها.. وهو ما يدل على أن العقد قد بُرم وعُقد بين الكاتب والقارئ.

وإذا كان الميثاق قد عقد منذ وهلة العتبة الأولى (العنوان) فإن القرائن الأخرى داخل المتن تشي مباشرة على هذا الميثاق. أولها المكان الذي ولد وترعرع فيه الكاتب وهو بلدة "مسيردة"، والزمن الذي يحذّه بالحرب العالمية الثانية - في طور من أطوار الحكاية-، ومن القرائن -أيضا- أعماله المنشورة باسمه كبحوث ودراسات أكاديمية، مثل "فن المقامات" وهو أول عمل أكاديمي له، وهو منشور بالمؤسسة الوطنية للكاتب (الجزائر) وكتاب "فنون النشر الأدبي في الجزائر" وهو العمل لأكاديمي الثاني الذي نال على إثره شهادة دكتوراه دولة في الآداب، وهو منشور بدار النشر السالفة الذكر نفسها سنة 1983⁽¹⁾. كما أن السرد بأي ضمير لا يسبب أي خلل يترتب عليه نزع الشرعية من جنس العمل السيري ما دام أن الميثاق قد تحقق. ومثل ذلك كتب طه حسين كتاب "الأيام" بضمير الغائب.

4 . 1 . بنية النص في "الحفر"

يعمد عبد المالك مرتاض إلى فصول، يعتبرها لوحات في تاريخ حياته، وهي من المجالات الكبرى التي تبني عليها مجالات الحياة لا أطوارها، وقد قسّم ذلك عبر قنوات، كل قناة تمثل حيزا موضوعيا، وهي: زمن السراب، أطوار الدراسة، العمل

(1) - الحفر في تجاعيد الذاكرة، عبد الملك مرتاض، دار الغرب، وهران، الجزائر، 2004، ص 178.

والكدح، في الأسواق إقامة الوعدات والملتقيات السنوية. ويبدو من خلال هذا التقسيم أن الكاتب أراد أن يفصل في الأحداث التي كانت تثيرها أنساق بعينها، وتغلب عليها طقوس خاصة، وللتمييز -أيضا- بين هذه القنوات التي تعد محطات أساسية في حياته. وقد لجأ في ذلك إلى نمط تفسيري للأحداث والقضايا التي كانت تؤثر في حياته، وهو أسلوب يسهل على القارئ معرفة مناحي تلك الحياة المتشعبة بطقوسها، وبإنسانها وروح عصرها، والبيئة وإشعاعها.

ونستهل الحديث عن هذه الأركان في الآتي:

4. 1. 1. زمن السراب.

إذا كان الميثاق السيري قد قُضي فيه الأمر فيما سبق، فهناك الميثاق الأدبي الذي يفرضه عبد الملك مرتاض في هذا الفصل (القناة) الذي سماه "زمن السراب"، وهو أول ميثاق سردي، ويتمثل في ميثاق الفن لا ميثاق التاريخ، بحيث لا يتأتى فيه الحديث عن وجه ناصع لتاريخه الشخصي، الذي ظهر معتم الرؤية التي امتد عهدها الزمني بفارقه الشاسع على زمن حدوث الوقائع، وبالتالي هذه الضبابية التي شكلها فعل الزمن لا يمكن بأي حال إزاحتها، فهي قابعة خلف زجاج لا يمكن الرؤية إلا من بصيص وعبر إشارات واهية جدا، تضبط من عناوينها وبكثير من الظن والاحتمال، وليتها فقدت من الذاكرة حتى تراح غائبا، أو ليتها تشكلت واضحة وبرزت حتى يعبر عنها كما هي. وبالتالي شكلت مزيجا بين الحسرة والرجاء، وهو في ذلك يعبر بقوله: "فلا أنت تذكر من طوائف صباح كل شيء فتسرد الحقيقة بدقة وتفصيل؛ ولا أنت نسيتهما كلها فتزهد فيما انتسى وهان، من الذاكرة المتهرئة لما غبر من الدهر وتقدم من الزمان"⁽¹⁾، ولعل الحس النقدي والفكري لمتراض، سوف يساعدنا كثيرا في إيجاد حلول تفسيرية لهذا الشأن، وهي أن

(1) - المصدر نفسه، ص 12-13.

الإنسان مهما بلغ من النسيان، فلا بد أن يذكر موضوعات هذا النسيان، وتقصد الموضوعات الكبرى التي شكلت مناحي حياته وصبغت أطواره، فبقيت وشما خالدا لديه، وهي العناوين التي شكلها رسم الأيام الدارس، حيث لا يستطيع حصر دقائقها وجزئياتها، وقد مسك بما لا ينسى وعبر عنه بقوله "وتذكر أنك كنت تمشي حافيا، وتذكر أنك لم تكن ترتدي إلا ثوبا واحدا باليا. لم يكن يجوز أن ترتدي الثوب القشيب، لا أنت ولا لداك من الأطفال، في تلك الأحراش المنقطعة عن العالم المتحضر إلا مرة واحدة في العام الخصب. وفي عيد الفطر السعيد"⁽¹⁾. وهذا الكل من محتوى ما خزنته ذاكرته، وهو في جملة تلك العذابات والغبن والشقاء، ولعل غياب جزئيات الغبن، لخصه في كليته، فأغلظ القول بما فيه منتهاه:

"وها أنت ...

العري ترتدي، والحفاء تمشي.

فراشك العراء. غطاؤك السماء.

تستلطن الشحوب. تفتات الجوع. تأكل الطوى. تشرب العطش، إذا عز

الماء الشروب.

وفوقك عباءة مرقعة بيضاء. وليس عليك سروال... أو كان عليك

جلباب صوف بال. لم تعد تذكر، في الحقيقة من لباسك يومئذ شيئا ذا بال"⁽²⁾.

ثم هذا الإجمال تلحقه كثير من عسر الحياة التعيسة ومخلفاتها، حيث لم يكن

يعرف الحمام، ولا الاستحمام "وأما الحمام فلم يكن موجودا في مسيردة كلها

بأعلىها وأسافلها، وبواديها ومداشرها؛ فكان الواحد منكم إذا وقع له غدير

(1) - المصدر نفسه، ص 1.

(2) - المصدر نفسه، ص 12.

يغطس فيه، في أي فصل من فصول العام... فقد كنت تستحم بوادي يحسب حين كانت السماء تجود بالغيث المدرار. ثم لا أكثر⁽¹⁾ وهي كل أمور البؤس التي تترتب كقانون تتجمع فيه كل ما يترتب عليه هذا البؤس، وأبرزه كثرة القمل، الذي حلقه محيط المجتمع المحاصر بالجوع وأسباب الشقاء، فقد أظن في حديثه عن القمل كسيمة للوسخ والإهمال الناجم عن قلة الحيلة، وبحث الناس، سوى عما يملأ الجوف إن حصل ذلك. وقد كان القمل شريكا في الحياة، وصاحب مكانة في هذه البيئة "فكان القمل في الملابس والقمل في الشعور، والقمل في الزغب، والقمل في الوسائد، والقمل في الفراش، والقمل في كل شيء من بيتكم الحقيبة التي كانت بيئة مقللة، مبرغثة، عفنة، بكل الحشرات مما كنتم تكرهون...⁽²⁾

إن مثل هذه الظواهر لا يمكنها أن تمحي من الذاكرة، وليس بمسطاع أن تزاح، فهي عالقة، لا يحورها إلا فقدان الذاكرة تماما أو موت صاحبها. ولعل هذا قائم بما ملك من ذكريات وما عبر عنه من أسلوب، فكانت الذاكرة في ذلك كله غير فتواها نحن إلى الذكرى التي مهما يكن، ومهما بلغت من فتامة، فهي عزيزة وغالية. وقد خلق الإنسان ليحتمد حتى يصنع أشياء جميلة أو تبدو له كذلك، وقد سعى في ذلك؛ ويسعى الإنسان بأي الوسائل لتحقيقها.. ولعله قد حاول تشكيل هذا النسق الجمالي في بيئة عسيرة وظروف أعسر، يتداخل فيها الجغرافي بالنفسي، وما تعلق بالحياة الخاصة حتى إذا فقدت الذاكرة معالم كثيرة، فإنها تلتقي في تشكيل صورة عامة معيرة عن حياة، وما تحويه من عناصرها الوجودية، وهي أبرع في هذا التصوير الجميل: "وما يمكن أن تذكر مما أنت ناس؟ وما ذا كان يجب أن تنسى مما أنت ذاكر؟. ذاكر.. من هذا الزمان، ومن هذا المكان، ومن كل هؤلاء

(1) - المصدر نفسه، ص 14.

(2) - المصدر نفسه، ص 17.

الأحياء، ومن كل هذه الأشياء... من هذه السهول القليلة، وهذه الأوعار الكثيرة، وهذه الربي المتعانقة، وهذه الجبال الشاهقة، وهذه المراعي الخصبية، وهذه المسائل الجارية، وهذه العيون المتفجرة؛ وهذه الأصوات الناشزة من نباح الكلاب، وعواء الذئاب، وثغاء التعاج... ومن هذه الأصوات المتناغمة من غناء الرُعيان، ومن هذه الألحان الذاتية في صوت الناي الرنان، ونغم المزمار الحنان...⁽¹⁾ في هذه القطعة السردية نجد الكاتب قد اختزل كل موضوع الذكريات، وأحاطه بوصف يليق بنسق تاريخي تُشكّل في تقاطع شبكة من عناصر الحياة التي شكلها الزمان والمكان، بما كانت تحتويه من تفاصيل هذه الحياة، بحلوها ومرها، يُسرّها وعُسرها، بإنسانها وحيوانها وطبيعتها، مستخلصا منها ذكرى حية، مفتوحة في ذهنه يتطلع عبر شرفاتها إلى تبع هذا التاريخ الذي يمثل الكاتب نفسه، فهو تكوينه، وهو ما اكتسبه من صنائع ومعارف، وأخلاق، بل هو النبع الصافي الذي كرع من معينه.

4 . 1 . 2 . أطوار الدراسة

في الفصل الثاني من حكاية "الحفر"، يتعرض الكاتب إلى موضوع الدراسة، بداية من "الخربش"، المرحلة "الثائية"، إلى "السوربون" المرحلة "الراشدة" مع الفارق في الطموح، وما حملته من تحولات في الحياة الاجتماعية والثقافية. وقد شمل هذا الفصل التعرض لمراحل الدراسة التي بدأت بخربيش القرية مرورا بجامع تيزي بن حماد ثم جامع القمرة فمعهد بن باديس بقسنطينة، وهو التحول النوعي، إلى التحول الكبير المتمثل، في الدراسة بالمغرب: من جامع القرويين بفاس إلى جامعة الرباط، نهاية بجامعة "السوربون" بباريس.

(1) - المصدر نفسه، ص 10.

وقد لخص هذه المعانات التي لازمها الفقر فكانت تضحية في سبيل هدف، هي النتيجة التي جاءت بعد مخاض عسير، ونفس شقت شقاءً طويلاً، حتى إذا جاءت هذه النتيجة نزعتم أعباءها التي أثقلت الكاهل، وأرهقت النفس، فكانت عاثماً مسكاً، وهي سعادة الفقراء الراضون المطمئنون بما عملت أيديهم في سبيل الجهد، تجده يعبر عن ذلك في أسلوب يحاكي تلك المسيرة، بملامة يقول فيها: "وكانت فرحة معسولة لم تجد من يشاركك فيها في يوم من أيام شهر يونيو بباريس، فذهبت إلى مقهى بـ"سان ميشال"، واحتسيت وحدك عصيراً والفرحة تغمر أعماقك دون أن يعرف أحد من أولئك الخلق أنك حققت أجمل حلم، وأعز أمنية، في حياتك بابتدائك الدراسة في الخربيش، وانتهائك منها بالسربون.."⁽¹⁾ ومن هذا الأسلوب الدافئ، الذي لا تزال نبراته تدل على شخص، اليتيم رفيقه الدائم، وهو في عزلة يحقق ما عجز عنه أبناء الأثرياء، ولكن الفرحة يحتسيها وحده حافية دون أن يشاركه فيها أحد، ولعله في ذلك يتذكر ذلك المسار المرهق الذي كلفه هذه النتيجة، ودموع الفرح مع الحزن تشتركان في فؤاد مسكين من المساكين، وفقير من الفقراء، لا يجد لها من معاني البلاغة إلا الصمت، وإعادة شريط الذكريات مارة بتلك اللحظة، تعبر له عن محطات البؤس، وأطوار الدراسة التي بدأت بالخربيش، الذي يُرثي حاله بقوله: "وكان ذلك الخربيش مسود الجدران، ناتئ الأحجار، متطاير التراب؛ وكان متكاتف الغبار، غير مملط السقف، غير مستوي الأرضية التي كانت تشبه الحقل المخدود؛ بحيث كان الحصر يستقيم طورا، ويغوص في حفر أرضية الخربيش أطوارا آخر.. بيد أنكم كنتم ترون ذلك الحصر وثيراً، في غياب ما كان يمكن أن تقعوا عليه في

(1) - المصدر نفسه، ص 180.

البيت أو خارجه، حتى كأنه كان منسوجا من الصوف الأذري⁽¹⁾، من هنا تبدو المقارنة بسيطة والفرق شاسعا بين خريش منسي، وجامعة علمية، إلا أن هذا الخريش كان قدرا من الأقدار، ولعله يمثل كل شيء بعد هذا النجاح الباهر، فقد كان لهذا الخريش أسباب النجاح فهو الأساس في تكوينه، واللبنة القوية في شد عوده، ومنه تحققت له كفاءة علمية بفضل الأدوات التي شقّ بها مساره العلمي الآخر، وهو لم ينس ذلك، بل عبّر عنه بقوله: "ومرت الأيام والسنوات مسرعات وقد ختمت القرآن إحدى عشرة مرة، وحفظت المتون التعليمية التي كانت تحفظ في الزوايا والمساجد على ما كان يكلف حفظها من عناء كبير؛ فحفظت "الأجرومية" لابن آجروم، و"الألفية" لمحمد بن مالك، و"المرشد المعين، في الضروري من علوم الدين" لعبد الواحد بن عاشر"⁽²⁾

وقد كان النجاح والبؤس ثنائية ملازمة لكل حياة عبد الملك مرتاض، فلم يتقوّ بشيء، إلا بالعزم والصمود وحب الوصول إلى النجاح، على الرغم مما جار عليه هذا الفقر، وألزمه الرفقة حتى وهو في الجامعة، حيث الصروح التي تقتضي المال من أجل الدراسة، والقوت، والإيواء. ولو كان الفقر مرحلة مرهونة بوعود التحول نحو السعادة في الحياة لكان أهون، ولكن الإيمان وحده هو الذي كان عزاءه. وماذا ينتظر طالب علم لم يشرق عليه يوم سعيد من أيام الحياة حتى وهو بالرباط في مرحلة متقدمة في الدراسة، يقول في ذلك: "ولكن الفقر كان لا يزال يطاردك، فضاقت بك الدنيا وأنت تنابع الدراسة في قسم السنة التحضيرية تحت إشراف الدكتور جعفر الكتاني. فكنت تتعشى بصحن صغير من اللوبيا دون لحم

(1) - المصدر نفسه، ص 87.

(2) - المصدر نفسه، ص 140.

مع قطعة خبز بلدي في مطعم حقير بحي المحيط بالرباط...⁽¹⁾ فكان على الرغم من كل هذا، الرضا والإيمان الراسخ كمدأ على تحقيق الأمان، وهو الحافز على طول مسار حياته، بالإضافة إلى انعدام الخيارات، حيث لم يخلف وراءه ما يدعو للعودة، بل لعل المستقبل يكون أفضل، وهو إيمان الفقراء والمساكين الذين ليس من عزاتهم إلا الأمل.

4. 1. 3. العمل والكدح

وفي الفصل الثالث يطرق عالم الكدح. وهو سبيل أبناء المعوزين الذين يشاركون في اقتصاد البيوت وإعانة الآباء على أعباء الحياة. وفي ذلك يكون هؤلاء الأطفال في خدمة تلقائية نحو البيت، وشعورهم بالمسؤولية، دون كلل ولا فتور، مهمهم في ذلك كله إرضاء كُبراء البيت، والتماس كلمات شكر واحترام. وكان من بين هذه الممارسات التي لجأ إليها مرتاض في شقائه المبكر، يتمثل في التقاط الحلزون، احتطاب الحطب، وغيرها من الأعمال التي لا تخلو من شقاء، وليس ذلك من نزوة تدفعه، ولا نزهة يبتغيها، وإنما العدم، والفاقة، والحاجة، فقد دلت على ذلك، هذه العبارات التي هو قائلها: "حاملا فأسك الصدئة فوق كتفك، وحبلا راشيا تحزم به عباةك الممزقة، فكنت تعود إلى ظهر البجاني إلا وحزمة الحطب الجزل على ظهرك وأنت محتال فخور، وكنت تنتظر من أهل البيت أن يلتفتوا إليك فيشكرك أحد منهم على ما بذلت من جهد، وعلى ما كابدت من عناء في جمع الحطب ونقله على ظهرك وأنت كادح محروم.. لكن لا أحد كان يعيرك أدنى عناية أو اهتمام. كان ذلك كان مقدرا لك في الأزل، مفروضا عليك في اللوح"⁽²⁾، ومما تقتضيه الإشارة هنا، أن عبد المالك مرتاض قد لخص في هذه الفقرة

(1) - المصدر نفسه، ص 171.

(2) - المصدر نفسه، ص 204.

الدقيقة جدا، بالتعبير عن مشاعر تحتضن كل تلك المكابدة، فقد كانت "الفأس" صدئة، وكان "الحبل" راشيا، وكانت "العباءة" ممزقة، كل ذلك إشارات سردية على وظائف إشارية تومع على القنامة والبؤس والحرمان، فكل هذه الأدوات المذكورة منتهية الصلاحية، ولا جدوى من تبديلها، لسبب بسيط وهو الفاقة، ولكن ذلك لم يكن ليمنعه من ممارسة هذه المهمة الكادحة، راجيا في ذلك رضا أهل البيت، وهو عائد مختالا فخورا بهذا الانجاز، إلا أن ذلك الشكر قليلا ما كان يحدث، لقلّة عناية بذلك. فطبيعة العائلة الفقيرة ألها لا ترى مزية في هذه المهام، وإنما هو واجب مفروض على كل أفرادها ذكورا وإناثا.

ولم يكن الكدح على هذا المستوى فحسب، بل ارتقى ذلك من تلك السذاجة إلى تضحية أخرى، فقد بلغ عبد المالك مرتاض من الرشد ما أهله للتفكير في مستوى آخر من الكدح، وهو إدراكه لقيمة العلم. فبدأ يفكر في تضحية من نوع آخر، وهي التعلق بأسباب النجاح العلمي الذي ارتبط بالمال. ومع عوز العائلة وفاقته، فكر في تكوين نفسه المادي حتى يستطيع مزاولته طور آخر من الدراسة، فاستقر في خلدّه أن يهاجر في سبيل ذلك إلى فرنسا حيث الكدح من مستوى آخر، وهو شر لا بد منه إذ لا يتم ذلك المقصود من الغرض إلا عبره، يقول: "كان لا بد مما ليس منه بدّ، وهو الهجرة إلى فرنسا من أجل الكدح هناك لجمع مبلغ من المال للذهاب به إلى أحد مآقط العرفان"⁽¹⁾، حتى أن ذلك المآقط لم يتحدد بعد، فهو يقول "أحد المآقط" وذلك لأن العزم متوفر، وهو مبرر كاف على العزم، لأن مراكز العلم لا تقم في ذاتها، فأين وليت وجهك فثمة تحصل على مقصدك.

(1) - المصدر نفسه، ص 224.

4.1.4 . في الأسواق

في هذا الفصل الرابع من "الحفر" يخصصه عبد المالك مرتاض للحديث عن الأسواق. ولعل الذي يقرأ هذا العنوان، لا يبدو أنه يوحي بشيء ذي بال، لكن الذي يقرأ الفصل، من أول وهلة يكتشف ذلك السرّ في الأسواق التي يخصص لها الكاتب هذا العنوان، والسوق هو المكان الذي كان يجمع كل مشئت، فهو ملتقى الناس من شتى المداشر، والأحياء والقرى المجاورة، وفيه البضائع وبه الحيل والطمع وفيه السذاجة والحذاقة، وفيه المحتال والمحتال عليه، وفيه نماذج كثيرة من شتى الفنون، وأنواع متعددة من البضائع المزجاة، وفيه الشعوذة وفيه الدعوة للطرقية وأنماط البدع والخرقات، وفيه اللعب للأطفال وقضاء الحوائج للكبار، فهو مهوى النفوس الفضولية، ورزق التجار وقضاء حوائج الناس.

وقد كان عبد المالك مرتاض يرافق والده أينما حلّ وارتحل، وعونا له في مهامه، فكان مما يوفر له وهو فخور بذلك، كثرة شربه للشاي، الذي كان يدفع لمنه زبائن أبيه، من المتعاقدين على البيع أو الرهن، فقد دوّن في ذلك يقول: "وكنت تعود من السوق وأمعائك تتقلقل، من فرط ما احتسيت من شاي، وأنت مع ذلك، فارغ البطن طاوي الأمعاء، خاوي الجيب"⁽¹⁾. ولم يكن نيل المال مما يغريه في هذه الأسواق كلها، على الرغم من أنه تعلم حرفة كان فخورا بها، وهي كتابة الرسائل للطبقة الأمية من الناس، التي كانت تقصد السوق لأجل ذلك وأغراض أخرى، وكان في كل ذلك سعيدا، لأنه أصبح ذا شأن عند الناس، وقد بلغ اهتمامهم حدّ الاعتراف به وهو كل ما في الأمر بالنسبة إليه، محققا نشوة وسعادة، هذا ما نجده في قوله: "ولكن ذلك كله ما كان ليسوءك كثيرا، فالذي

(1) - المصدر نفسه، ص 275.

كنت تحرص عليه هو أن يكون لك زبائن تكتب لهم الرسائل إلى ذويهم ولو باجّان⁽¹⁾، هذا ما يوحى بأنه لم تكن له من الخيل التي تكفيه شر الفاقة. وتتعدد قضايا السوق، وتتسع من سوق واحد إلى أسواق متعددة، سوق الأحده، سوق الاثنين، سوق الثلاثاء، سوق احفير، وفيها كلها تكمن مغامرات، وقضايا تتنوع فيها الحكايات التي لا تخرج عن ذات المعطيات.

4 . 1 . 5. إقامة الوعدات والملتقيات السنوية.

وآخر الفصول في رواية "الحفر" تمثل في إقامة الوعدات في مسيردة، الذي يتمثل في الفانتازيا والفولكلور الشعبي، وما يستقطبه من أناس مهتمين، وما تقع في ذلك من شركات، كان المجتمع في ضلاله ذلك بين، يقول في ذلك: "كان يستهويك شهود الوعدات، كما كانت تتنازعك الملتقيات الفلكلورية التي كانت تقام من حول الأضرحة والقباب، وفي الساحات والمضاب؛ فكانت تكثر حولها الحركة"⁽²⁾.. ولا شك أن هذه المناسبات التي كانت تقام في هذه الفترة الاستعمارية لها سند قوي، في إلقاء الناس بلهوها، ونشر فيهم الفساد الأخلاقي والعقدي، وكانت منتشرة عبر كامل القطر الوطني، كما كانت لهذه المناسبات إيجابياتها التي تكمن في لعبها ولهوها، وملتقى للثقافات، ولعل شرها أكبر من خيرها، وهو ما يفسر دعوة الحركة الإصلاحية في دحض هذه المناسبات وأصحابها ونبد كل دعواتها. وإنما في "الحفر" نجد من هذه الأمور التي كانت مستفحلة وغائرة في المجتمع، وهي تمثل نموذجاً مصغراً لما كان يحدث في الوطن بكامله، مصداقاً لقول الكاتب: "وكانت الوعدات في مسيردة لا تزال تقام هنا وهناك، حول هذا الضريح أو ذاك، وفي هذا الموسم، أيضاً، أو ذاك. وكان الناس، أثناء ذلك، لا يزالون يؤمنون إيماناً راسخاً بالمعتقدات،

(1) - المصدر نفسه، ص 275.

(2) - المصدر نفسه، ص 330.

ويرون بالحارقات، ويصدقون بإمكان وقوع الأحياء تحت تصرف الأموات، ويعتقدون بوصول بركتهم إليهم إذا أقاموا من حول أضرحتهم الذبائح، ونحروا من حول قباهم العنائر"⁽¹⁾

4 . 2 . بنية السيرة في "الحفر"

يبدو أن السيرة الذاتية لعبد الملك مرتاض كموضوع عام، تتضمن رحلة حياة شخصية، فهي خاصة بالمؤلف، وهي الحقيقة الماثلة بصريح عباراتها، وقرائنها، مبرومة بالميثاق الذي عقده (المؤلف) مع قارئه، وخصوصا إذا كان القارئ قريبا من الكاتب عارفا ببعض تفاصيل حياته. ترسم لديه هندسة تلك اللوحات من حياة الكاتب مضمخة في النص. إلا أن قارئ النص (الحفر) لا يمكن أن يكتفي بهذا المستوى من الحكاية، بل كتاب "الحفر" يتضمن عدة مستويات تعبّر عن بُنى أخرى تتجاوز بنية سيرة الكاتب، إلى سير أخرى متجاوزة، أو لنقول لعل سيرة الكاتب مخاض تلك السير الأخرى، وهي: سيرة المكان، وسيرة الزمان، وسيرة الإنسان. كما نجد بُنى أخرى تمثل في السيرة الغائبة، والسيرة غير الأدبية. هذا إلى جانب شعرية اللغة ودقّتها، وبلاغة الأسلوب، وسلامة اللفظ وجزالته..

4 . 2 . 1 . سيرة المكان

من الباحثين من يُقسّم المكان إلى نوعين رئيسيين⁽²⁾: المكان الموضوعي والمكان المفترض. كما أن منهم من يُقسّم المكان المفترض⁽³⁾ إلى تقسيمات متعددة ومتفرعة منها: المكان المجازي، المكان الهندسي، والمكان بوصفه تجربة معيشة،

(1) - المصدر نفسه، ص 329-330.

(2) - انظر ياسين الصغير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص 395-396.

(3) - انظر غاستون باشلار، جماليات المكان، ص 2.

وغيرها من التقسيمات.. وهذا الأخير، هو المكان الذي يعيشه الإنسان، وبعد مرور الزمن وانقضائه، أو الابتعاد عنه، يصبح اسرتجاعيا، فيعيش فيه بالخيال، وهو ما يجعل تأثيره في نتاجه الإبداعي⁽¹⁾ وعن هذا المكان يقول باشلار: "المكان الممسوك بواسطة الخيال لن يظل مكانا محايدا، خاضعا لقياسات وتقييم مساح الأراضي، لقد عيش فيه، لا بشكل وضعي، بل بكل ما للخيال من تحيز، وهي بشكل خاص، في الغالب مركز احتذاب دائم، وذلك لأنه يركز الوجود في حدود تحميه"⁽²⁾. ومن هنا يتعين لنا القول بأن المكان الجغرافي مساحة مجازية، وإن كان السرد يعتمد على كواقع فإنها تتجسد في سيرة مكان غير ثابت، بل هو المكان الممتد عبر مسار حياة، أو لنقول المكان المتطور، والملازم لمسيرة، أو ما يمكن اعتباره تاريخ مكان، لا مكان موقع. والذي يميز المكان في العمل الفني، أنه يتعدى صفة الجغرافي إلى صفة الفضاء، الذي تتعدد فيه الدلالات وتباين فيه التصورات "نحو الفضاء النصي والفضاء الدلالي والفضاء كمنظور أو رؤيا والفضاء كمعادل للمكان"⁽³⁾ لأن المكان هو الذي يفرز تلك العلاقة السرية - الحميمية - بالإنسان فيصبح بها أثرا عنده، وبذلك ليس المكان شيئا جامدا منبوذا، وإنما المكان هو الصاحب وهو الملهم، وهو المحتضن، وهو الذكريات الخالدة، لذلك لا يمكن اعتبار المكان سوى فضاء يسرح فيه الخيال لتتسم عميق الماضي "لأن الفضاء أشمل وأوسع من معنى المكان، والمكان ذا المعنى هو

(1) - انظر الرواية العربية واقع وآفاق (مجموعة باحثين) - المكان في الرواية العربية - فار ابن رشد - 224.

- 1981 ص - 217 للطباعة والنشر - بيروت - ط1

(2) - غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، والتوزيع، ط 5، 2000، ص 227.

(3) - ينظر حميد الحمدي، بنية النص السرد من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2000، ص 54 وما بعدها .

مكون الفضاء"⁽¹⁾ وهو الحيز في تعبير عبد الملك مرتاض، وهذا الذي يعطيه الشمولية في الوظائف بحيث يكون "الحيز شاغلا والإنسان به مشغول"⁽²⁾ ومنه تبدى لنا علاقة احتضان واحتواء، فهو عالم فسيح وليس شكل مجرد، وهو "بعمامة على الإنسان فضل الاحتواء، وشرف الاشتغال، فالحيز شامل والإنسان مشمول"⁽³⁾ و"عالم شديد التعقيد، متناهي التركيب يتشكل بلا حدود، ويتجلى عبر أفق مفتوح"⁽⁴⁾ وهو ما يخوله الضغط على النص كمستوى مهيمن، يفرض وجوده حتى على أبطال القصة، لأنه هو صانع الشخصيات وملهمها، وإن كانت الأمكنة مساحة لاحتضان الأحداث ففي سيرها "لا يحضر المكان بوصفه وعاء يحتضن الأحداث والوقائع والشخصيات ولكن بوصفه بطلا يسهم في صناعة الأحداث بطريقة يبدو المكان فيها شخصية تطغى على الشخصيات"⁽⁵⁾ وهذا الذي يجسده المكان عندما يترد فضاء تخلد في الأحداث.

والمكان في سيرة "الحفر" يتعدد بتعدد فضاءات الحكى، فمنه ما يمثل الجمال، ومنه ما يمثل البؤس، ومنه ما هو عجيب، ومنه ما هو تليد، ومنه ما هو مفعم...، وكل ذلك محصور في بيئة محدّدة، هي بيئة الكاتب، التي يجسدها خارج إطارها الجغرافي لأن "الأمكنة كائنات حية، في التاريخ والواقع، وهي إذ تعيش في الذاكرة فإنها تتحرك عبر وجدان الجماعة بمواصفات ينماز فيها مكان عن آخر ويختلف"⁽⁶⁾،

(1) - المرجع نفسه، ص 62.

(2) - عبد الملك مرتاض، قراءة النص، كتاب الرياض، ع 46، أكتوبر، عدد 47 نوفمبر، 1997، ص 314.

(3) - المرجع نفسه، ص 314.

(4) - المرجع نفسه، ص 314.

(5) - سيرة مكان، جريدي بن سليم المنصوري، مجلة جنور، الجزء 20 مج 9، ربيع الآخر 1426هـ الموافق يونيو 2005، العربية السعودية، ص 377.

(6) - المرجع نفسه، ص 376.

ذلك ما نجده متجلي في محطات السرد المتعددة، ويختلف من سوق إلى مكان الملتقى (الوعدة) المدرسة، الجامع، البيت، الغابة، وغيرها من الأمكنة. وكلها تشمل مناحي الحياة المتكاملة. ومما نجده عند عبد المالك مرتاض في وصفه للأمكنة، نلفيه يتجاوز ذلك، بالتعبير عنه بما يوحي لنا أنه يعطيه وسما سيريا، وكأن المكان هو ذاته الإنسان، هو ليس مجرد قفص يحتضن الإنسان، بل هو الذي يعطي للإنسان شاعرية، وحرية وآفاق. نخلص في ذلك إلى قوله -مثلا:-

"وها أنت من أنت؟.."

وتلك الربى..

المضمخة بعبق الخزامى البري؛ ما أجملها من ربي...⁽¹⁾

فهنا لا نجده يصف المكان وصفا محدودا بما هو عليه شكله، وإنما لأن الربى المضمخة بالعبق، ليست صورة مرئية، وإنما هي ما يحمله المكان من بعد ميتافيزيقي يتحدد في صورته نفسيا، وذكرى، لأنه في هذا الوصف لم يستعن بأي صورة تذكارية وإنما بذكرى الصورة. لأن "سيرة المكان ليست تاريخه السياسي، وليست الجغرافيا، وهي ليست ما يرصده الرحالة وهم يعبرون إلى سواه، كما كانت ليست ذكريات يجمعها من عاش فيه زمنا ليمر على سطحه يعدد أسماء المواضع ويربطها بحركة تنقله بين |جنباته، إنما قراءة أخرى موازية"⁽²⁾ تتشعب فيها مناحي الحياة وتذوب فيها مشاعر الإنسان.

كما نجده في موضع آخر يصف لنا مكانا تتداخل فيه عناصر شتى من مكونات تجعله ذا حياة، وهو المكان الذي يخلد في النفس ذكرى ويحتفظ بصوره الجميلة الملائم بالحياة، تلك التي كانت "في بيت الحاج البغدادي الذي كان محققا

(1) - الحفر في تجاعيد الذاكرة، مصدر سابق، ص 7.

(2) - سيرة مكان، مرجع سابق، ص 376.

الاكتفاء الذاتي في مزرعته العجيبة؛ فكان بجوار بيته الكبير عينٌ جارية يستقي منها، ويسقي بها مزروعاته وأشجاره، وكانت تجاوره حدائقُ وأشجار الفواكه المختلفة. يضاف إلى ذلك المواشي والأبقار الحلوب، والدجاج المسمن، والحقول المزروعة الخصيبة التي كان يستثمرها، فكان آية في قبيلته الهوارين كلها.⁽¹⁾ وبين المكان والفضاء تحققه صبغ الإطناب الجمالية التي تضي على هذا التصوير معان ذات دلالات، فالبقر حلوب، والدجاج مسمن والحقول خصيبة، كلها توحى بالفضاء الحيوي الذي تشكله المزرعة المتكاملة، التي يجمع فيها المكان صوراً شتى تستدعي ملاحظتها في شحون متخيلة يعاد رسمها "من خلال مرحلة زمنية معينة بتوفير قدر من المعلومات التفصيلية التي تكمن في استعادة ملامح ذلك المكان من خلال عناصره ومكوناته الطبيعية وكافة ما يتصل بحياة الناس والأحياء تطعي على ما يكون للإنسان الذي يحرك الكلام عن هذا المكان"⁽²⁾، وهي تبدو في "الحفر" متميزة ببلاغتها الأدبية، ولكن هي مختصرة في لوحات بعينها.. وهي صور مقابلة لصور أخرى في غالبها قائمة، وهي التي أسهمت في تكوين كاتب "الحفر"، فهي سيرة مكان سايرت حياته، وأهمته تارة بفضائها الحيوي وتارة بحرمانها وقهرها. ذلك ما يتجلى من صور المكان هذا، الذي يشكل المأوى، حيث يعرف كل إنسان في موقعه الاجتماعي انطلاقاً من سكنه، فهو لا يتجاوز "كوخ" ليس بالبسيط بل، حقير حسب قول الكاتب: "ثم واصلت المشي نحو ظهر البجاني حيث ينتظر الكوخ الحقير مع العشاء"⁽³⁾، والكوخ مأوى الفقراء الذين هم في أسوأ حالات البؤس، والشقاء، إذ تفسره حالات الإنسان الطبيعية التي تتطلع إلى

(1) - الحفر في تجاعيد الذاكرة، مصدر سابق، ص 343.

(2) - سيرة مكان، مرجع سابق، ص 377.

(3) - الحفر في تجاعيد الذاكرة، مصدر سابق، ص 217.

الاجتهاد من أجل مسكن لائق، وهو الذي لم يتحقق.. كما نجده في تعبير آخر يقول: "كان لكم "نواله" بكوخكم الحقير بظهر البجاني، فكنتم فيه تطبخون. وكانت تلك النواله إحدى العجائب السبع في كوخكم البائس وأنتم لا تدرّون"⁽¹⁾ وهذا من المضحكات المبكيات، أو عندما تتعاقب التراجيديا بالكوميديا، يصبح الإنسان من حاله يشفق، بل يضحك. وهو في كل الأحوال لا يصلح للعيش ولا يرقى لأدنى شروط الحياة البسيطة، بله الكريمة، وهو الذي كان يجتمع فيه كل أفراد العائلة للنوم ليلا، وفي النهار هم خارجه. إذ يقول: "ولكنكم كنتم لا تزالون تعيشون تحت سقف واحد فأنتم تقضون ليلكم مكّسين في تلك الغرفة المستطيلة الضيقة المظلمة"⁽²⁾ هذا هو المكان الفريد الذي يمنح الكثير من الأبعاد التي ترسّخت في ذهن يحتفظ بذكرى المكان الذي لا يُنسى ويقابل بإمكانه أثيرة هي اليوم معاشة، هذا المكان الأفضل هو الذي لمض في تمييز المكان السابق بالمكان الحاضر.

وسيرة المكان أيضا تسجل المدرسة كمحل لتلقى العلم التي تُخبر عن مسيرة تاريخ قائم، ليس له من حظ المراكز المشعة بنور العلم، بل كما قال: "وكان ذلك الحريش مُسوّد الجدران، ناتى الأحجار، متطاير التراب؛ وكان متكاتف الغبار، غير مملط السقف، غير مستوي الأرضية التي كانت تشبه الحقل المخدود؛ بحيث كان الحصير يستقيم طورا، ويغوص في حفر أرضية الحريش أطوارا آخر.. بيد أنكم كنتم ترون ذلك الحصير وثيرا، في غياب ما كان يمكن أن تقعدوا عليه في البيت أو خارجه، حتى كأنه كان منسوجا من الصوف الأذري"⁽³⁾ إن الكاتب

(1) - المصدر نفسه، ص 201.

(2) - المصدر نفسه، ص 206.

(3) - المصدر نفسه، ص 87.

حينما يذكر هذا المكان فهو يراجع ماضيه ويسترجع ذكرياته، علما بأن الكاتب قد ارتقى في سلم العلم أعلى درجاته، وجلس على كراسيه مدرسا ومستثولا، هذا الشأن قد يجعله يستذكر ذلك المكان البعيد وكأنه يراجع سيرته هو لا سيرة المكان، لأن المكان ولو أنه كان بسيطا أو أقل من ذلك، إلا أنه هو المنبع وهو الأساس في صقل تلك المواهب، وغرس مبادئ العلم والأخلاق، فلا شك أن المكان يمثل سيرة حيوية وليس مكان هندسي جامد وبمجرد.

4 . 2 . 2 . سيرة الزمان

نسجل في سيرة الزمان في "الحفر" أهم المحطات التاريخية لجليل كامل، كان يعيش المأساة، ويقتات من الحرمان. وتشكل أهم محطات هذه السيرة: المجتمع البائس، والمستوى الحضاري المتدني بسداجة أهله، في ثقافتهم واعتقادهم، وعاداتهم وطبائعهم. والزمان يرتبط بمجتمع بكامله وليس على إنسان في ذاته. هذا ما كشفته حكاية "الحفر" التي جسدت مظاهر هذا المجتمع بيؤسه وشقائه الذي كُتب عليه، وهو المظهر الذي لا بد وأن يترتب عليه تفشي الأمراض، والانحراف في الاعتقاد، والتخلف. تلك مظاهر لا بد منها بمنحها الزمان كنتيجة حتمية لمظهر من مظاهر الحياة..

وقد كان الفقر والحاجة، أهم مظهر لمعيشة الضنك التي عانى منها المجتمع تزامنا مع حياة عبد المالك من تاض خلال طفولته، فكانت نتيجة حتمية تخلف عنها الأمراض والسقم، إلى حد الموت الذي قطف الكثير من هذه الرؤوس المريضة، كان ذلك شاهدا في قوله: "ثم لم تلبثوا إلا قليلا حتى مرض أخوك الأكبر، وأختك زليخا. ومكثا على ذلك شهرا كاملا لا ينهضان من فراشيهما إلى أن توفيت زليخا الجميلة الطويلة الشقراء ذات ليلة في سن الثامنة عشرة تقريبا ... فقد كان الموت استشرى في

الناس للمجاعة التي كانت ضربتهم فسمدوا لها سموداً"⁽¹⁾ وبدأ الموت في حصاده المحتوم، ومن بعد هؤلاء ما هو ينقض على آخرين: "ثم لم تلبثوا إلا قليلاً حتى توفيت أختك فاطمة الزهراء، وهي صبية رقيقة جميلة كانت في سن الثامنة تقريباً"⁽²⁾ ثم يتواصل هذا الضيف المخيف، في مزاوله وظيفته، حيث لا يزال السرد يواكب الأحداث، وهو يقول أيضاً: "ثم لم تلبثوا إلا قليلاً حتى توفي العم المقدم عبد المؤمن"⁽³⁾ هذه السلسلة من المصائب هي أقصى ما تحقّق من نتائج عن هذه الحالة البئيسة، دون ذكر للأمراض التي كانت محتومة على هذا المجتمع.

كما كانت مظاهر الترف والرفي في مستويات العيش الكريم، لا تنعدي الأمور البسيطة، ولعل الحمار يعد في ذلك الحين الوسيلة المثلى للسفر وقضاء الحاجات وصل إليها إنسان هذا الزمان، فأصبح من يملك حماراً يشار إليه بالبنان، لمسنواه الاجتماعي المحترم، مثل ما يقول مرتاض: "وكانت أحوال الأسرة، أثناء ذلك، قد تحسنت قليلاً؛ فأزعم الوالد على شراء حمار؛ فقصدوا سوق الأحد، وتقدم إلى الحمارين وكل الخبراء في معرفة أحوال الدواب المنحطة، وعبوبها ومميزاتها؛ فوقع الاختيار على حمار أشهب اللون يميل إلى البياض قليلاً، طويل القوائم، فسيح المتن"⁽⁴⁾ وكان من مظاهر هذه الدرجة من الرفي في الأحوال الاجتماعية، أن شعر الكاتب بالفخر والخيلاء، أمام الناس، وهو ما يدل على أن المجتمع كان في هذا الوقت أقل من أن يكسب حماراً، وهي ظاهرة سلبية تبرز مدى الفقر والحاجة التي وصل إليها المجتمع الجزائري في حقبة تاريخية تمثل أدنى مستوياتها

(1) - المصدر نفسه، ص 99.

(2) - المصدر نفسه، ص 100.

(3) - المصدر نفسه، ص 100.

(4) - المصدر نفسه، ص 302.

في العيش، وتمثل سيرة الزمان حينما يطغى هذا الواقع على الإنسان، فيقهره بما يفرضه عليه، كقوله: "وكنت وأنت تمتطي منته، وأنت تمر بين الدور والدشور، وأنت تعوج على مواقع الماء وآبار وعيون، كان الفلاحون في حقولهم المجاورة للطريق العام لا يزالون يسألونك عن السعر الذي اشتريتم به هذا الحمار الفاره الجميل الأنيق.. وكنت أنت تجيبهم بأي كلام، في خيلاء قل لها النظر"⁽¹⁾، وهذا يمثل نسق عام لمجتمع بائس مرهق، مهلهل في كل مستويات عيشه.

وقد عرف هذا المجتمع أنواعا من الأعراف منها ما كان تقليدا طبيعيا ليس به بأس ولا يصطدم مع الدين، ولا مع الأخلاق العامة، وبعضه كان يمس العقيدة وفيه الكثير من الشرك.. من حيث كان المجتمع بسيطا يؤمن بأشياء إيمانا عفويا، وهي من الأمور التي يعتقد فيها هذا المجتمع الخروج عنها، تكسيرا للمألوف، ويعتبر من خالفها شاذا عن المجتمع بل يتهم بكثير من التهم، فلا يفعل في اعتقادهم هذا، إلا بخيلاء، أو محتلا، أو متمردا... وهي صورة تعبر بوضوح في قول الكاتب: "ولم يبق الآن إلا تدشين البناء المشيد بإقامة "ولهدة" الدخول لحفظة القرآن الكريم الذين كانوا لا يزالون ينتظرون الانتهاء من إنجاز الصرح الممرّد من قوارير؛ فقد كانوا يسألون الوالد في حرص شديد متى العشاء وهم قرمون؟ وذلك كيما تحلّ البركة على أهل البيت، لتصرف عنهم عين المغيان، فذبح الوالد جديا سمينا، أو كان يبدو سمينا، ودعي زملاء الوالد، الذين كانوا يقرؤون معه القرآن على الأموات، وهم مسرورون بما وقع لهم من هذا السخاء الكريم"⁽²⁾، فقد كان ذلك عرفا، من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت فرجا وفسحة لبعض الناس الذين ينتظرون هذه الفرص ويتحينونها للفاقة والفقر، فربطوا ذلك بصرف العين.. وفي

(1) - المصدر نفسه، ص 302.

(2) - المصدر نفسه، ص 210.

كل الأحوال كانت هناك اعتقادات مناسباتية بالأخص إذا ما جدّ جديد بالبيوت، وهو يتمثل في قول الكاتب حين جلبوا حمارا: "وكأنك تذكر أنهم ربتن له الحناء في ناصيته التماسا لحلول البركة بالأسرة، واتقاء لشر عيون الحاسدين"⁽¹⁾ ..

وقد بلغ الاعتقاد في مجتمع الكاتب حد الشرك، نتيجة التقهقر العلمي والثقافي، فغاب التنوير وحضر الجهل، وبذلك شاع في الناس كثير من مظاهر الشرك، والتمثل في تأليه المرابطين وظنهم فيهم النفع وقضاء الحاجات، فكانت تنحر لهم الذبائح، وتتضرع لهم الأفئدة، وتكثر لأجلهم الدعوات، ويطلب منهم قضاء الحاجات، وكانت تقام لأجلهم الوعدات، فتذبح الذبائح في سبيل الولي الصالح، لا باسم الله، مثل ما يقوله الكاتب: "وكانت الوعدات في مسيردة لا تزال تقام هنا وهناك، حول هذا الضريح أو ذاك، وفي هذا الموسم، أيضا، أو ذلك. وكان الناس، أثناء ذلك، لا يزالون يؤمنون إيمانا راسخا بالمعتقدات، ويرون بالخارقات، ويصدقون بإمكان وقوع الأحياء تحت تصرف الأموات، ويعتقدون بوصول بركتهم إليهم إذا أقاموا من حول أضرحتهم الذبائح، ونحروا من حول قباهم العتائر، وازدلفوا إلى قباهم بالزيارات والتكريمات؛ فكانوا لا يبرحون يقيمون الوعدات تلو الوعدات؛ فكانوا أحرص على إقامة الخمس صلوات.."⁽²⁾ وهذا ما يفسر ما كان عليه المجتمع الجزائري في هذا الزمن، والذي يعزز ما ذهبت إليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي أقامت جيوشا من الدعاة والمصلحين لتصحیح هذه المعتقدات، كما يمكن اعتبار هذه السيرة بمثابة شاهد على العصر.. ولم يقتصر هذا على احترام الأولياء، وطلب منهم النفع والشفاء، وعلاج السقم والعقم، بل كانوا يترجّون منهم سقوط المطر، وإنزال الغيث من

(1) - المصدر نفسه، ص 303.

(2) - المصدر نفسه، ص 329-330.

السماء، بطرق أصبحت سنة في حياة هذا المجتمع، نجد ذلك في "الحفر": "ولعلمهم أن يترّل عليهم ماءً من السماء؛ فتغدق الأرض، ويخضارُ النبات، وتزدان الرُّبى؛ ولكن ذلك كان يتم في الغالب تحت طقوس فلكلورية شبه وثنية على نحو كانت تدبج فيه الذبائح، وتُقَدَّر القدور، وتطعم الأطمعة، في حشود من الناس يتجمعون من حول الضريح المظنون صاحبه بالبركة والولاية والصلاح وهم يَضِجُونَ".⁽¹⁾ ولم يكن هذا الاعتقاد موسمياً، ولا مرتبطاً بظروف واستعانات من أجل قضاء الحاجات، بل كان سلوكاً يومياً مفروضاً على جل الناس، لتقهقر مستواهم العلمي والثقافي، وعزلتهم عن مواكبة التحضر، لذلك كان هذا الاعتقاد يمثل منهج حياة الناس حتى أن الكاتب يذكر أنه جرّب هذه الممارسة تقليداً من والدته، وهو الشرك المكتسب الذي تعشش في المجتمع الجاهل فصار فيهم عادة وعبادة، وسلوكاً، يقول في ذلك: "كما كنت تشاهد قباب ضريح سيدي محمد بن يحيى. فكنت كلما نظرت إلى تلك القباب، تضرعت كما كانت أملك تتضرع كل صباح من باب الحجره حين ترى القباب:

شيء الله.. يا أوليا الله..."⁽²⁾

ثم إن الكاتب يفسر لنا ظاهرة أخرى تفشت في المجتمع الجزائري عموماً، نجدها مختصرة في منطقته، وفي أقرب المقربين له، وهذه الظاهرة هي صناعة المُشرك به، وهي أخطر ما كان متواجداً عند كثير من الناس، لضعفهم في المعارف الدينية وقصورهم في العلم والفهم، فكثيراً ما كانوا يلجئون إلى أضرحة يتوسلون بها ويكثرون لها الزيارة ظناً منهم بنفعها، وليست هي في الحقيقة إلا من صنع أياديهم، وقد كان الكاتب في ذلك شاهداً على واقعة يرويها في قوله: "وشينا

(1) - المصدر نفسه، ص 303.

(2) - المصدر نفسه، ص 76.

فشيئا، بدأت الأم والعمة وسائر القربيات يطلقن على تلك البقعة "مقام الصالحين"؛ فلم يلبث أن صار ذلك المكان الذي لم يكن به أي قبر: يعتقد فيه البركة ويُزدار. وكذلك كان يمكن لأي مكان آخر أن يرتبط بأي مظهر من العبادة، أو بما يشبه طقوس العبادة، وبما يشبه طقوس العبادة، أن يستحيل إلى مزار⁽¹⁾ وهذا ما كان يحدث في كثير من مناطق القطر، بل هي صناعة استعمارية محضة في إلهاء الناس وصددهم عن بلوغ المعرفة الحقيقية، وتركهم في ظلماتهم يعمهون.

4 . 2 . 3 . سيرة الإنسان

تمثل سيرة الإنسان في "الحفر" نتاج ذلك المجتمع، في مكانه وزمانه، فلعل السيرة المكانية والزمانية هي التي خلقت لنا هذا الإنسان، معبرا عن كل سلبياته الكثيرة وإيجابياته القليلة. فقد كان هذا الإنسان بسيطا إلى أبعد الحدود، وبدويا سلبيا، فرضت عليه ظروف الحياة أنواعا من الصفات، منها: السذاجة، الكدح، الجهل، الطمع..

وقد كان الإنسان في ذلك المجتمع امرأة، (أما، وأختا) فكانت لا تبرح الاستسلام للمراحة لحظة من حياتها، وكان الشغل دائما مستمرا، والعناء مستفحلا كثيرا، وفي هذا يقول: "ربما أقدم ذكرى لا تبرح تحتفظ بخيوط واهية منها في نفسك هي حين كنت تتعلق في رقبة أمك وهي قاعدة تغزل الصوف، وأنت تداعب ضفيري شعرها الأسود الطويل. لم يكن ممكنا أن تتعلق في أمك من أمامها... ولا أن تأخذ بيدها وتمشي معها متجولا بين الحقول والأشجار.. كانت مشغولة عن ذلك بما سواه"⁽²⁾ ولم تكن أما بعينها، بل كانت الأمهات في

(1) - المظهر نفسه، ص 332.

(2) - الحفر في تجاعيد الذاكرة، مصدر سابق، ص 11.

تلك الدشرة -سواء-، مكتوب عليهن هذا الغبن، بالإضافة، إلى ما كنّ يمارسن من أشكال الحرب المستمرة ضد الأوساخ، وفلي القمل الذي كان ملازما لأبنائهن، يقول في ذلك: "وكانت الأمهات وكل ذات سوار فضي، يجلسن مجالس على هيئة خاصة كن يقفنها على فلي القمل المتكاثر كلما جاء عليهن الضحى. فكان الحديث والفلي. وكانت الخصومة والفلي. وكان التشاتم والفلي. وكان التنايز والفلي. وكان التعاير بين الجارات والضرات والفلي. وكانت كل الطوائل تقع، والصواعق صقع، والنوازل تزل، والملمات تلمّ والفلي قائم في وقته الذي كان يحترمه المقملون والفاليات لهم من الوالدات، أو كبيرات الأخوات، جميعا." (1)، وما يجوز لنا القول فيه، أن القمل كان شريكا في الحياة، وكانت الحرب ضده مستعرة ومستمرة، كما يمثل هذا القول سلبية المرأة، فهي الجاهلة التي لا تمارس شيئا ذا بال، إلا ما كان فيه من أحوال المجتمع المتخلف، فهي جاهزة منهيئة لكل طارئ للتخاصم والتشاجر، ليس في ذلك ما يشي بثقافتها ووعيتها وورعها...

وكان الإنسان أبا، فكان يمثل رأس كل أسرة، شاقيا لأجلها، كمستول أول على البيت، يحمل همّ أبناءه، بكل ما أوتي من قوة، وليست تلك القوة متمثلة في الأشياء البسيطة على الرغم من همّة الاجتهاد والإجهاد، الذي كان يؤدي به إلى مغادرة البيت لأيام من أجل جلب الرزق، يقول في ذلك: "وكان الوالد حين تطحنه الفاقة يضطر إلى الهجرة القصيرة إما نحو مدينتي بلعباس ووهران، ليعود من بعد شهور قلائل بدراهم مزجاة تكون وقعت له في الغالب من كتابة الحروز" (2) وكانت وسائل الحياة التي يوفرها، يجتهد فيها اجتهادا، فكان يصنع أداة الخلاقة، ولا يبعث أبناءه إلى الحلاق الذي كان يومه مخصص بيوم السوق

(1) - المصدر نفسه، ص 18.

(2) - المصدر نفسه، ص 141.

الأسبوعي في إشارة إلى انعدام المال، وكل ما كان من صراع فهو من أجل سد لقمة العيش، يقول: "فقد كان الوالد، أثناء ذلك، موكلا باصطناع موساه الصدنة الحافية في حلق شعوركم وكنتم في ذلك غير مخيرين. وكانت موساه حافية لا تقطع أذن الكلب كما يقال. ومع كل ذلك كان يكرهها على إنجاز ما لا يجوز؛ فكنت تراه يصر على إجرائها في شعر رأسك وأنت مرتاع مدعور"⁽¹⁾..

كما يمثل الإنسان: "الفقيه"، الذي كان معلما للصبيان وكان يشرف على عقود الزواج، وكان إماما يصلي بالناس، وهؤلاء في غالبهم لم يبلغوا درجة كبيرة في الفقه، وإنما هم طلبة حافظون للقرآن الكريم، يطلق عليه تجاوزا صفة "فقيه"، وقد كانوا لا يمثلون مستوى محترم من العلم والفهم، وكان مهمهم تحيّن فرصة الجنائز أو المناسبات التي تتيح لهم إشباع البطون، وارتشاف الكثير من الشاي، أو نزر من المال، وخاصة الجنائز التي كانت لا تخلو من هؤلاء الطلبة، لأن هذه المناسبة لا يمكن أن تمر بدون قراءة للقرآن، الذي كان يمتد إلى الفجر: "كما كانت سهرات الجنائز تتيح لهم (طلبة القرآن) أن يشربوا كثيرا من الشاي، في السهرة الطويلة التي تمتد إلى مطلع الفجر وهم يرتلون القرآن ما يرتلون"⁽²⁾ ليس ذلك حبا في القرآن أو صدقة في أهل الميت، وإنما رغبة ملحة إلى الطمع في إغداق أهل المناسبة عليهم، بالأكل والمال، وإذا لم يتم لهم من ذلك شيء، فهناك يظهرون على حقيقتهم. وقد حدث من هذه القضايا، حين قال: "لكن بعض الفلاحين كان ربما أو لم للطلبة" فشخّ عليهم بالمكافأة النقدية وتغافل عن تقديمها إليهم؛ فكان يجن جنوهم، ويفقدون صوابهم، لحرمانهم منها.. فقد كان يهون عليهم أن يدعوا إلى

(1) - المصدر نفسه، ص 19.

(2) - المصدر نفسه، ص 93.

وليمة فلا يقدم إليهم المولم إليهم أي طعام فيبيتوا طاوين، على أن يحرموا من نصيبهم من المكافأة النقدية التي كانت أعز لديهم من كل عزيز" (1) وفي حالات تصل درجة التوتر عند هؤلاء إلى الغضب الشديد الذي ينجر وراءه كل أنواع السب والشتم، وحدث ذلك حسب قول الكاتب: "وكان للفقيه سي الغريب بغل .. وكان لا يرعوي، أثناء ذلك، بتواطؤ صمت أصحابه الطلبة، أن يشتم العالم كله بالشتائم المقذعة، عبر الدهور السالفة، والعصور اللاحقة، من عهد آدم إلى قيام الساعة، تجرد التيقن من الحرمان من العطية النقدية وهم يسمون راضين بما يقول.. وكان لا يزال الشيخ يرذد والطلبة في غم شديد من وعورة المسالك، وضيق بالغ يالحاح الظلام الدامس، وهم يتكلفون السريان في مسالك ملتوية، ومنعرجات وعرة: كأنها علققت بأسباب السماء:

-الله يعلها حرفة.. نقضي الليل كله "تخلط" على كرشنا.. ناكل كالبهائم ونرجع خالبيين.. هل لحرم من بني آدم حقاً؟ ربما نجي علينا ليلة نصبح بعدها في شعبة من الهالكين.. الله يلعنها حرفة" (2) وقد كان هذا الفقيه يمثل مستوى من المستويات، ودرجة على الطلبة، حتى أنه يطالب بأكثر من الأكل والشرب، إلى مستوى الطمع في المال. كما أن الإنسان لا يمثل الشقاء والغبن، وإنما المستوى الحضاري، الذي يعبر عن مستوى التفكير في المجتمع فقد كان الإنسان في ذلك ساذجاً، يمثل ثقافة السذاجة في أبلغ معانيها، ومن ذلك ما أدرجه الكاتب في "حفره" معلقاً عن والده، في قوله: "وتطورت العلاقات بين الوالد والحمارة فكان إذا تنقل عليه ليلاً لشهود وعدة من الوعدات في بعض أحراش مسيردة وأوعارها، كان يُسرج له، إذا عاد ليلاً في الظلام، فانوساً مشعلاً بالبطارية؛ ثم يُعلقه في أذنيه، وفوق عينيه، (وذلك ظناً من الوالد أن الحمارة قاصر البصر بالليل..) فكان الحمارة إذا تحرك،

(1) - المصدر نفسه، ص 343.

(2) - المصدر نفسه، ص 344.

تحرك معه ضوء الفانوس في سواد الظلام؛ فكان ذلك المنظر غاية العجب في شعاب مسردة أثناء الليل اليهيم"⁽¹⁾، ويعود هذا التصرف عن اهتمام الوالد بما حققه من امتلاكه لهذا الحمار الذي هو بمثابة السيارة الفخمة في عصرنا، كما أنه يمثل اهتمامه هذا مستوى السذاجة التي كانت نسقا في إنتاج المعرفة..

ومن السذاجة التي كان يمثلها إنسان هذه المنطقة التي كانت في معزل عن التحضر، فقد وقع أحدهم في فخ التحضر، حين سافر إلى تلمسان من أجل شراء حذاء يناسب رجله الكبير الحجم، ومن ثم مثل هذا الانعزال عن المجتمع في قول الكاتب: "و حين ذهاب رابع فرعون لتلمسان بحثا عن حذاء بمقاس رجله، "وجاع رابع فرعون، فوقع له مطعم أتى على معظم ما كان فيه من الطعام. فلما شبع هم بالخروج. فالتمس صاحب المطعم منه أن يدفع ثمن الأطعمة التي التهم. فانداهش فرعون لموقف صاحب المطعم، وكأن لسان حاله كان يقول:

- كيف تطلبون إلى الضيف في مدينتكم أن يؤدي ثمن ما أكل؟ أليس ذلك منكم شحاً و عاراً؟ فلو جئتم أنتم إلينا في باديتنا لأطعمناكم الطيبات، ولأكرمناكم بكل ما لدينا من خيرات؛ وإذن كنا طالبناكم بالدفع، كما أنتم اليوم تُطالبون؟"⁽²⁾ وهو حال الإنسان المنغلق على نفسه، الذي لم تسمح له الظروف بالتنقل ومعايشة الآخرين، حتى يكتسب من تجاوز البيئة المنغلقة التي ليس فيها من أسباب التحضر شيئا.

(1) - المصدر نفسه، ص 194 - 195.

(2) - المصدر نفسه، ص 315 - المصدر نفسه، ص 275.

(2) - المصدر نفسه، ص 275.

(2) - المصدر نفسه، ص 330.

(2) - المصدر نفسه، ص 329 - 330.

(2) - انظر ياسين النصير

Edition: 16
Juillet 2014



ISSN: 6507-1112

Majallat

Allougha oua Littissale

(Langue et communication)



Revue du laboratoire de recherche
"Langue Arabe et Communication"
Université d'Oran – Algérie

Dépôt légal: 4805-2008